

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

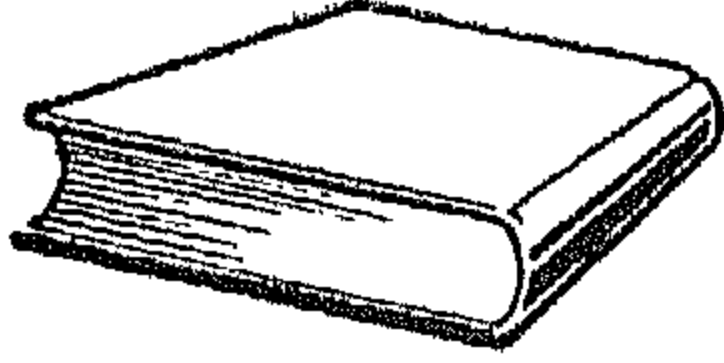
فهرس

٩	من أبطال الأساطير اليونانية	طه حسين
٢٩	اليونان بين الملكية والجمهورية	محمد رفعت
٤٠	أنظمة الحكم ومذاهب الاجتماع	محمد عزمى
٤٥	فيضان النيل وأثره في الحضارة المصرية	سليمان حزين
٥٧	حدث آمنة (قصة)	سهيير القلماوى
٦٥	ه . ج . ولز	لويس عوض
٨٥	المنوتور أبو وفقة وهران	البر كامو
١٠٧	كيف ومتى عرفت مصر كتاب الأهرام	جمال الدين الشيال ...
١١٧	نشوة اليأس (قصيدة)	جورج سلسقى
١١٩	الوجودية	ديدييه أنزيو
١٤٩	حنه الحب (قصيدة)	عبد الرحمن صدق ...
١٥٠	ناكفا على الخطوط العريضة	إنياس كراتشكوفسكى
١٦٢	أحمد عيسى	بشر فارس

من هنا وهناك (محمد عبده عزام)
 General Organization of the Alexandria Library (G.O.A.L.)
 تهرية السياسة الدواية — شهرية السانجا — من زوراء البحار
 ظهر حديثاً — فى مجلات الشرق — فى بيروت العربية
 Bibliotheca Alexandrina



تصدرها دار الكاتب المصرى
 شركة مساهمة مصرية
 القاهرة



مَا وَفَّقَنَا بِحُجُوسَتَيْنِكَ

فِي الْفَقْرِ وَالرُّوْمَانِي

أَلْفَقِيَّةَ الْقِيَاسَةِ فِي قِطْطَيْنَتَيْهِ

الْأَمْبِلَاطُورِ حُجُوسَتَيْنِكَ

وَنَقَلَهُ إِلَى الْعَبْرِيَّةِ أَمَامَ الْفَضْلِ فِي مَصْرٍ

مَعَالِي عَبْدِ الْغَزِيِّزِ فَهْمِي بِكَاشَا

أَخْرَجْتُهُ

كَارِ الْكَاتِبِ الْمِصْرِيِّ

فِي طَبْعَةِ مَنَازَةِ

وَتَجْلِيدِ انِّيُونِ

البريد المسجل ١٠٠
ولاحضارج ١١٢



التمت
١٥٠ قرشا

تمتاز كتب دار الكاتب المصري بقيمتها الأدبية الرفيعة ، وإحاطتها بالنواحي المختلفة للأدب والفن والثقافة . وهي من اختيار عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين بك . ولا غنى لأية مكتبة جديدة بهذا الاسم عن هذه الكتب ؛ لأنها تجمع بين روعة الفكرة وعمقها ، وبراعة الأسلوب ودقته ، وجمال الطباعة وأناقته .

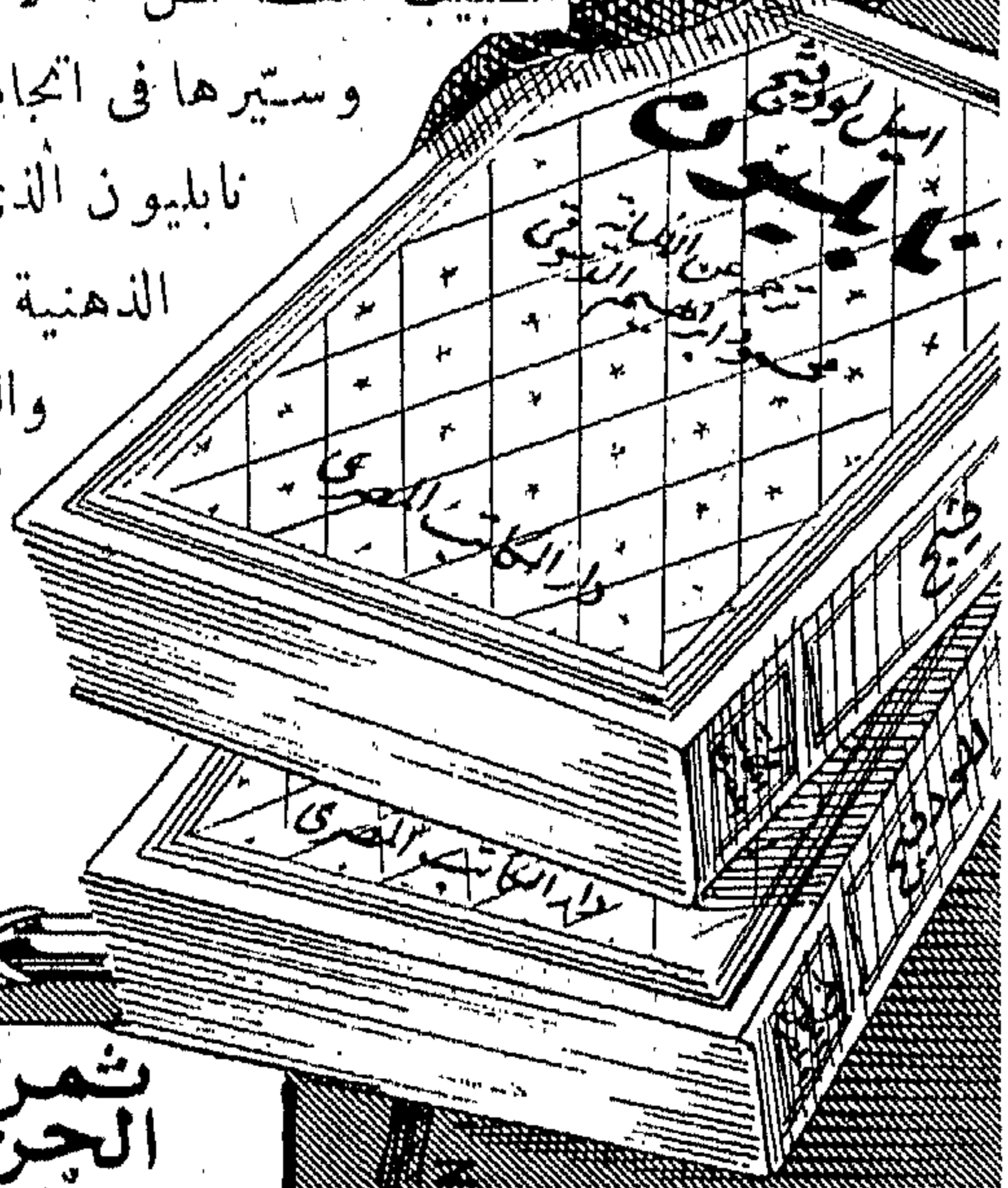
احرصوا على اقتناء كتب دار الكاتب المصرى
فتريد مكتبكم قيمة ورونقا

تباع كتب دار الكاتب المصري
في المكتبات الشهيرة

تَحْلِيلُ الْفَذْلِ

في هذا الكتاب الفذ، لمؤلفه الفذ، يبدو نابليون عظيمًا في رفعتة، عظيمًا في محنته، يشير الاهتمام اليوم، كما أثاره قبل اليوم، ويشير بعد اليوم: شخصية ضخمة يتعدل فيها الرأي كل يوم. فنابليون السائس، ونابليون القائد، ونابليون المفكر، قد كان إلى ذلك رباً من أرباب القلم، ومالكاً قديراً لخاصية الكلام. في هذا الكتاب يحدثنا نابليون عن نفسه، ويعيش في حاضرنا كما عاش في حاضره، ويعرض صور عصره حية متحركة. نابليون الواسع العلم، المحدث بالعالم، المحيط بتاريخه، وهو ما يزال غض الإهاب، في شرح الشباب. نابليون الذي وضع أذنه دائماً على قلب الجماهير شأن الطبيب الفاحص، لا المحب الواله، فعرف اتجاهها، وسيرها في اتجاهه.

نابليون الذي تفوق في أعماله الحربية بصفاته الذهنية، وكان سلاحه النظر، والحساب، والتصميم، والفصاحة، ومعرفة الناس. نابليون الذي اعتر بلقب عضو المعهد أكثر مما اعتر بلقب الفاتح. هل كان رجل جلاد، مبيداً للعبادة، عاملاً لشخصه، بانياً للمجده؟





سترى فى هذا الكتاب كيف جلا لودفيج شخصيته ،
ومجسده إنسانيته ، وقدم صورة متنوعة بديعة لعبقريته .
ستقرأ قصة حقيقية لقاهر الثورة ، ومأخى الفوضى ،
وزعيم التاريخ الحديث ، ورمز العبقرية العالمية ، وتأس من
المؤلف تصويراً شعرياً ، ودقة تاريخية .
ستدرس رجل الأقدار مما كتب لودفيج عنه ، وذكره
هو عن نفسه ، فى ترجمة مشرقة تبرز ملامح الأصل الألمانى ،
وعبارة رصينة توائم أسلوب المؤلف الألمعى ، بقلم مترجم
إيفيچينيا وإجنت والصراط وأقاصيص أندرسن : لجوته ،
وسودرمان ، وهانس أندرسن .

نابليون

لاميل لودفيج

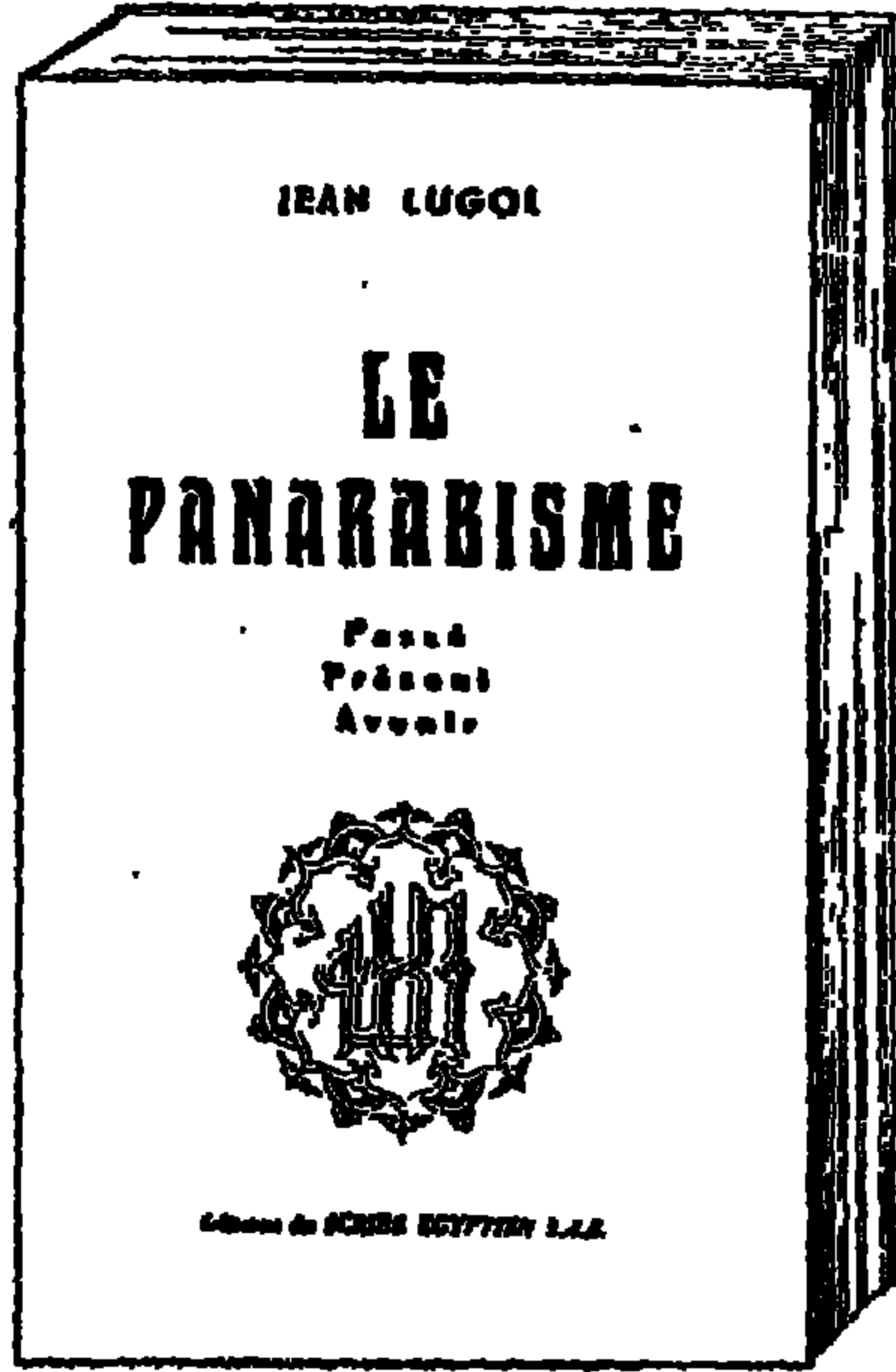
ترجمه عن الألمانية

محمود إبراهيم الدسوقي



طبعة فاضلة مزينة بالصورة فى جزئين

الى قراء اللغة الفرنسية



إن نهضة العالم العربي التي تعد من أهم حوادث الحرب العالمية الثانية تمتد إلى ألف سنة من تاريخ الشرق . فهي تليء بنظام سياسي جديد للمستقبل . ولا يستطيع أحد أن يتجاهل هذه المشكلة التي تعد — في وقت واحد — مشكلة دينية وأخلاقية وسياسية واجتماعية واقتصادية والتي ما فتئت — منذ أبعد الأزمان حتى أيامنا هذه — تشغل اذهان الناس .

ومسيو جان ليجول — الموظف في عصبة الأمم سابقاً والصحفي الذي استوطن مصر منذ زمن بعيد ، مؤلف عدة كتب عن مذهب التوحيد والحضارة وعن مصر والحرب العالمية الثانية الخ — قد رسم صورة عظيمة للحضارة العربية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها .

وإنه لمن الضروري لكل شخص أن يقرأ هذا الكتاب الذي يقوم على وثائق صحيحة والذي كتب في روح سمحة .

كتاب ضخم يقع في ٣٠٠ صفحة

الغرض ٨٠ قرشاً

البريد ٣٦ ملماً



طبعة مزينة بعدة صور

وخرائط



SCRIBE

٢٠
البريد ١٦ عين شامة



حكايات فارسية

كتاب يحمل الى قراء العبيبة
عبيرا رقيقا حسن الموقع في
النفس من هذه الحياة الفارسية
المتأخرة بما فيها من رفقة
وفطنة وفكاهة

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصري في أول كل شهر عن دار الكاتب المصري ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعها .

الاشتراك

١٠٠ قرش في السنة لمصر والسودان ،
١٢٠ قرشاً في السنة للخارج أو ما يعادلها .
يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب
المصري . لا تقبل الاشتراكات لأقل من
سنة كاملة .

ثمان العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصري تعنى بكل
ما يرد إليها من المقالات والرسائل
ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

إدارة الكاتب المصري

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤

الإدارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI

Monthly literary magazine published
by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)

Editor-in-chief : Taha Hussein

جميع الحقوق محفوظة لدار الكاتب المصري

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير
طه حسين

مجلد ٤



القاهرة ١٩٤٦

جميع الحقوق محفوظة لدار الكاتب المصري

الكتاب المصري



أكتوبر ١٩٤٦

ذو القعدة ١٣٦٥

مجلد ٤ — عدد ١٣

السنة الثانية

من أبطال الأساطير اليونانية^(١)

أوديب — ثيسئوس

١

كان لاؤوس Laius منذ ارتقى إلى عرش ثيبا يحيا حياة سعيدة راضية مع زوجته جوكاست Jocaste . ولم يكن يكدر صفو هذه السعادة إلا شيء واحد وهو أن الزوجين لم يرزقا الولد . فخطر للأملك أن يستشير أبولون Apollon في محنته هذه لعله أن يجد له منها مخرجاً ، وأن يتم عليه نعمة الملك السعيد المجيد الذي لا يقتصر على شخص صاحب العرش ، وإنما ينتقل منه إلى ذريته التي تتوارثه أجيالها إلى آخر الدهر . فلم يكن لاؤوس قصير الأمل ، ولا محدود الأمد . لم يكن يريد أن يملك ليس غير ، وإنما كان يريد أن ينشئ أسرة مالكة . ولكن أبولون لم يكن سمحاً ، ولا موافقاً ، فأظهر للملك في شيء من الإلغاز ما خبأه له القضاء : أعلن إليه أنه إن رزق الولد فسيقتله ابنه . وقد حاد لاؤوس من معبد أبولون مهموماً ، شديد الحزن ، موزع النفس بين الحرص على الحياة والرغبة في الولد الذي يرث الملك ، ويخلد الذكر . وقد شك طويلاً أو قصيراً بين هاتين العاطفتين ، ولكنه أثر الحياة آخر الأمر على الولد ، فرضى العُقم بل رغب فيه وحرص عليه . غير أن

(١) مقدمة كتاب أوديب — ثيسئوس تأليف أندريه جيد ، وترجمة طه حسين . من مطبوعات دار الكاتب المصري يظهر في شهر أكتوبر .

القضاء ماض إلى غايته دائماً ، فما هي إلا أن يرزق لايوس من زوجه چوكاست هذا الغلام الذى أنذره أبولون بأنه سيذيقه الموت . هنالك استأثر الحرص على الحياة بنفس الملك ، فأزمع أن يقتل ابنه قبل أن يقتله هذا الابن ، وأسلم الطفل إلى راع من رعاته ، وكلفه أن يلقيه على الجبل نهباً للسياح . ولكن الراعى لم يكن قاسى القلب ولا غليظ الطبع ، فلم يأتى الطفل على الجبل ولم يقتله ، وإنما أسلمه إلى راع آخر ملك كورنت فى بعض الروايات ، أو علقه إلى شجرة من أشجار الجبل من رجليه اللتين شقهما ، وجمع بينهما بحبل متين . ومهما يكن من اختلاف الروايات ، فإن الصبي لم يمت نهباً للسياح ، ولا نهباً للجوع والبرد والجراح ، وإنما تلقاه راعى كورنت فعطف عليه ورفق به . وكان ملك كورنت بوليب Polybe شقيقاً بعقم امرأته ميروب Mérope ، فيدفع الراعى إليه هذا الصبي ويتبناه الملك وينشئه تنشئة أبناء الملوك . وقد شب الصبي قوى الجسم والنفس جميعاً ، ماضى العزم ، صارم الإرادة ، معتدا بنفسه ، جاهلاً لأصله ، بعيد الأمل مع هذا كله عظيم الإطماع . ولكنه يرى من لداته وأترابه ما يريبه ، فهم يمجحون له بأنه ليس ابن الملك . وهو يضيق بهذه الريبة ويريد أن يعرف جلية أمره ، فيذهب إلى معبد أبولون ليتبين حقيقة الأمر فى وحى الإله . والقضاء صارم حازم . قاس لا يعرف رفقا ولا ليناً ، وإذا أبولون لا ينبئ الفتى بأصله ، ولا يزيل من نفسه الريبة ، وإنما يضيف شكاً إلى شك وخوفاً إلى خوف ، فينبئ الفتى بأنه سيقتل أباه ، وسيتزوج من أمه ، وسيقترب هاتين الخطيئتين المنكرتين .

وكان لايوس قد أراد أن يقاوم القضاء فيخاص من هذا الصبي الذى سيذيقه الموت ، فانتصر القضاء على إرادة لايوس ، وعاش الصبي ونما حتى أصبح قادراً على اصطناع السلاح . وهذا الفتى ينبئه أبولون بأنه سيقتل أباه ويقترب من أمه ، فيريد أن يقاوم القضاء ، وهو لا يعرف لنفسه أباً غير بوليب ملك كورنت ، ولا أمّاً غير ميروب ملكتها . فليجتنب إذن كورنت ، وليأخذ طريقه إلى أى بلد آخر بعيد عن هذه المدينة حتى لا يُغترى بقتل أبيه أو اتخاذه أمه لنفسه زوجاً . وإنه لقي بعض الطريق عند مكان شديد الضيق ، وإذا عربة تعترضه وتأخذ عليه سبيله ، فيكون الخصام باللسان ، ثم يكون الاقتتال ، وإذا الفتى يقتل صاحب العربة ، وقد تفرق من كان معه من خدم وأنصار . ويمضى الفتى لوجهه راضياً عن نفسه ، مطمئناً لحسن بلائه ، غير مقدر أنه قد أنقذ بعض ما كتب القضاء

من أبطال الاساطير اليونانية

عليه ، فقتل أباه ، واقترب أحد الإثمين الذين أنذره بهما أبولون . وهو يمشى في طريقه حتى يدنو من مدينة ثيبا ، فيسمع بأن المدينة مروعة بخطر داهم ونكر مبين . فهذا كائن غريب قد هبط عليها من السماء أو نجم لها من الأرض ، جاءها من حيث لا تعلم على كل حال ، واستقر غير بعيد من المدينة على صخرة مرتفعة يرصد من عمر به من الناس ، فيأق علىهم لغزه الغريب : ما كائن له صوت واحد يمشى على أربع إذا أصبح ، وعلى اثنتين إذا زالت الشمس ، وعلى ثلاث إذا أقبل المساء ؟ وهذا الكائن الغريب الذى اتخذ جسم الأسد ، ورأس المرأة ، ووصل بجسمه جناحين ، والذى يسميه اليونان سفنكس ، ويسميه المصريون القدماء بوالهول ، أو أبا الهول ، لا يعنى أحداً من الإجابة على هذا السؤال وحل هذا اللغز . والناس جميعاً يعجزون عن الإجابة ولا يجدون حلاً لهذا اللغز ، وهو يعاقبهم بالموت على هذا العجز والإخفاق . وقد عظم الكرب ، وعم البلاء ، وامتألت قلوب أهل المدينة خوفاً ورعباً ، حتى اضطر كريون Créon أخو الملكة جوكاست والناهض بأعباء الملك بعد قتل لايوس أن يذيع فى أقطار الأرض أن من أراح المدينة من هذه المحنة فله تاجها وله الملكة زوجا .

وقد سمع الفتى بأنباء هذا الكائن الخطر ، وبهذا الوعد الرائع الذى يبذل لمن ينقذ منه هذه المدينة البائسة ، وهو قوى الجسم والنفس ، ذكى القلب ، حديد الفؤاد ، بعيد الأمل ، شديد الطموح ، فيقبل على أبى الهول يجرب ذكائه وقوته ، ويغامر بحياته فى سبيل المجد والملك . وأبو الهول يلتقى عليه السؤال فيجيبه الفتى بأن الإنسان هو الذى يمشى على أربع إذا أصبح لأنه يحب فى الطفولة ، ويمشى على اثنتين إذا انتصف النهار لأن قامته تعتدل وتستقيم إذا شب ، ويمشى على ثلاث إذا أقبل المساء لأنه ينحنى على العصا إذا أدركته الشيخوخة ، وقد أحزم أبو الهول وألقى بنفسه من أعلى الصخرة فمات . وظفر الفتى بعرش ثيبا ، واتخذ الملكة له زوجا ، واطمأن إلى أنه قد أفلت مما تنبأ له به وحى أبولون ، فلم يقتل أباه ، وأين هو من طير السبيل ذاك الذى قتله ! ولم يقترب بأمه ، وأين هو من ملكة ثيبا هذه التى تزوج منها ! لقد ترك أبويه فى كورنت وأسس لنفسه ملكا جديداً ، وقد رضى عن رعيته ورضيت عنه لرعيته ورزق الولد . فله ابنان اتيوكل Étéocle وپولينيس Polynice ، وله ابنة أنتيجون Antigone وإسمين Ismène . وهو يرى نفسه سعيداً موفوراً راضى النفس رضى البال .

ولكن المدينة تمتحن ذات عام بوباء يفسد عليها أمرها كله فساداً عظيماً ؛ فقد هلك الزرع وجف الضرع وأسرف الموت في كل حي ؛ فالطير تساقط من السماء ؛ والحيوانات تخر إلى جنوبها ، والناس يستبقون إلى القبور حتى تضيق بهم وحتى يعجز بعضهم عن دفن بعض ، وقد عم البلاء وعظم الكرب واشتدت المحنة حتى بلغت أقصاها . وأهل المدينة يستعطفون الآلهة بالضحايا والقرايين ويتوسلون إليهم بالصلاة والدعاء ، فلا يغني عنهم هذا كله شيئاً . وهم قد هرعوا إلى ملكهم يفرعون إليه ويستعينونه ، فيرسل الملك إلى معبد أبولون من يؤامر الإله ويستشير في هذا البلاء العظيم . ويعود رسول الملك إليه يحمل جواب الإله واضحاً غامضاً ومعمى صريحاً ، كما تعود أبولون أن يجيب دائماً . أجاب أبولون بأن الآلهة لن يكشفوا الضر عن هذه المدينة إلا إذا ثارت للايوس من قاتله . ولم يكذ الملك يتلقى هذا الجواب حتى أعلن في حزم وصرامة أنه باحث عن هذا القاتل ومترل به أشد العقاب ، وأنه يطلب إلى أهل المدينة أن يعاونوه على ذلك في غير تردد ولا ضعف مهما يكن هذا القاتل . ثم هو لا يكتفى بذلك بل يستنزل اللعنات وغضب الآلهة على هذا الجرم الذي قتل ملكاً وعرض المدينة لشر عظيم . ولكن الملك لا يكاد يبحث عن هذا الجرم حتى تتبين له الحقيقة منكرة بشعة ، فهو الجرم الذي قتل لايوس هناك في ذلك المكان الضيق . وهو الآثم الذي اتخذ أمه له زوجاً وعاش معها في هذا القصر وأولدها أبناءه الأربعة .

ليس في ذلك شك ، واسمه نفسه يدل على ذلك دلالة قاطعة ، فهو أوديب Oedipe ذو الرجل المتورمة ، ورجله متورمة حقاً من أثر ذلك الثقب الذي علق به إلى الشجرة في طفولته الأولى على الجبل . يعرف ذلك من الراعي الذي كلف قتله ، ويعرف ذلك من الراعي الذي أنقذه من الموت وأسلمه إلى ملك كورنت . هنالك يتبين أوديب وتتبين چوكاست أن لا مردّ لما كتب القضاء . فلم يغن عن لايوس تخلصه من الصبي ، فقد عاش الصبي حتى قتله . ولم يغن عن چوكاست تخلصها من الصبي فقد عاش الصبي حتى اقترن بها . ولم يغن عن أوديب فراره من قصر كورنت وتجنبه ملكها وملكته هرباً من الإثم ، فلم يكن من هذين الزوجين في شيء . وإنما هو ابن لايوس وقد قتل لايوس ، وابن چوكاست وقد تزوج من چوكاست . والمهم أنه قد عرف القاتل الذي يجب أن يثار منه لتخاص المدينة من هذا البلاء ، فيجب أن يثار من نفسه إذن ، فإن لم يفعل فستنار منه المدينة

التي لم تكن ترى فيه ملكاً فحسب ، وإنما كانت ترى فيه شيئاً يشبه الإله .
فأما چوكاست فلم تكذب تظهر على الحقيقة البشعة حتى خنقت نفسها . وأما
أوديب ففقاً عينيه بيديه حتى لا يرى الضوء .

وتختلف الروايات بعد ذلك أو قل تختلف الروايات قبل ذلك ، ويزيد في
اختلافها فن شعراء الممثلين الذين اتخذوا هذه القصة موضوعاً للتمثيل ، يقوم
يرون أن چوكاست لم تقتل نفسها ، وإنما عاشت حتى رأت اختلاف ابنها على
العرش وتساقيهما الموت ، ولم تقتل نفسها إلا بعد أن رأتهما صريعين . وقوم
يرون أن أوديب قد نفي نفسه من الأرض بعد أن فقاً عينيه وهام غريباً
تقوده ابنته أنتيجون حتى انتهى آخر الأمر إلى ضاحية من ضواحي أثينا
فمات فيها . وآخرون يرون أنه لم ينف نفسه ، وإنما نقاه ابنه بعد أن وليا الملك .
وآخرون يرون أن ابنه قد امسكاه في القصر ولم ينفيه ، وإنما نقاه كريون بعد
أن مات ابنه ، فلجأ إلى الضاحية الأثينية ومات فيها .

هذه هي القصة التي روتها الأساطير اليونانية منذ أبعد العصور ، فقد
تحدثت بها الأوديسة في نشيدها الحادي عشر ، كما تحدثت بها أقاصيص ثيبا
نفسها بعد ذلك .

٢

والشعراء الممثلون من اليونان يعتمدون في تمثيلهم بحكم الفن نفسه وبحكم
الدين أيضاً على الأساطير . فالأبطال القدماء هم موضوع المأساة اليونانية التي
تصور حياتهم أو تصور ما يمتاز به حياتهم من المحن والخطوب . وتصوير هذه
المحن التي أملت بالأبطال وعرضها على النظارة في ملاعب التمثيل شيء كان الأثينيون
يرونه فناً ويرونه ديناً . فيه الجمال الأدبي الذي يعظ النفس ويذكي القلب
ويثير العاطفة وينمي الفضيلة ويرفع الإنسان عن صفائر الحياة إلى جلائل
الأمور ، وفيه تقديس الآلهة وتمجيد الأبطال والإشادة بالقديم وما فيه من
ما أثر كتب لها الخلود . وقد كان اليونان قبل أن ينشأ فن التمثيل وقبل أن
ينشأ فن الغناء نفسه يتقربون إلى آلهتهم بإنشاد الشعر القصصي والاستماع له .
ثم نشأ الغناء فتقربوا به إلى الآلهة ، يتغنون حياة الأبطال وحياة الآلهة وما
عرض لهم فيها من خير وشر . ثم نشأ فن التمثيل فتقربوا به إلى الآلهة كما كانوا

من أبطال الاساطير اليونانية

يتقربون بأقاصيص والغناء . ومن أجل هذا كله تغيرت صور الفن الشعري عند اليونان ولم يتغير موضوعه . فالأبطال والآلهة هم موضوع القصص في الإلياذة والأوديسة ، وهم الموضوع الأساسي لغناء المغنين ، وهم الموضوع الأساسي لتمثيل الممثلين أيضاً . ومع ذلك فتغير الصورة له خطره العظيم وإن بقي الموضوع ثابتاً مستقراً ، ذلك أن الصورة لم تتغير إلا لأن النفس اليونانية قد تغيرت بحكم ما أحاط بالشعب اليوناني من الظروف . فقد كان القصص اليوناني صورة لحياة الجماعة لا يكاد يظهر فيها من الأفراد إلا شخصية الآلهة والأبطال ، بل لا تظهر فيها شخصية الشاعر نفسه . فلما ارتقت الحضارة وذكّت القلوب وقويت شخصية الفرد ، تغيرت صورة الشعر ، فظهر شخص الشاعر أولاً وأصبح الشعر لا يضاف إلى شاعر مجهول يسمى هوميروس مهما يكن موضوعه ، وإنما يضاف إلى شعراء معروفين يراهم الناس ويتحدثون إليهم ويتحدثون عنهم ، وأصبح الشعر لا يصور الآلهة والأبطال الممتازين وحدهم ، وإنما يصور شخصية الشاعر نفسه ، ويصور معها شخصية كثير من الأفراد ، وما يجدون من لذة وألم ومن حب وبغض ومن عاطفة وشعور بوجه عام ، ثم أصبح الشعر لا ينشد إنشاداً يسيراً تسنده بين حين وحين نغمات ساذجة توقع على أداة ساذجة من أدوات الموسيقى ، وإنما ينشد إنشاداً معقداً يتشكل فيه الصوت بالأشكال المختلفة التي يقتضيها الغناء ، وتسنده وترج منه أحياناً أدوات موسيقية كثيرة مختلفة ، ويسنده الرقص أيضاً بحيث يوشك أن يشبه الأوبرا في عصرنا الحديث لولا أنه كان يخلو من حركة التمثيل . ثم تتقدم الحضارة ، ويرقى العقل ، وتقوى الشخصية ، وتظهر الشعوب في المدن بحقوقها السياسية ، فتغير صورة الشعر . وإذا الحوادث التي كانت تقص في الشعر القصصي ، وتغنى في الشعر الغنائي ، قد أصبحت تعرض على النظارة في ملعب التمثيل يجريها الشاعر على أيدي أشخاص يمثلون الأبطال والآلهة أنفسهم . وهذا التمثيل نفسه لا يخلو من الغناء والرقص توقعهما الجوقة وقد يشارك فيهما كليهما أو أحدهما الممثلون . وقد أصبح جمهور النظارة ذا شأن خطير ، فهو يشارك في حفلات التمثيل لا بشهود التمثيل فحسب ، ولكن كذلك بالقضاء بين المستبقين من الشعراء الممثلين . وقد كان الشعراء يشاركون بأنفسهم في التمثيل أول الأمر ، ثم نشأت طائفة الممثلين المحترفين ، وجعل الشعراء يكتفون بإنشاء الشعر وإرشاد الممثلين وأعضاء الجوقة .

من أبطال الأساطير اليونانية

كذلك كانت الحال في القرن الخامس قبل المسيح حين عرض الشعراء الثلاثة الممتازون : إيسكولوس Eschyle وسوفوكل Sophocle وأوريبيد Euripide لحياة الأبطال والآلهة فعرضوها في الملاعب على النظارة من الاثنين . وكان من نتيجة هذا كله أن هؤلاء الشعراء وغيرهم من الشعراء الممثلين كانوا يرون من الطبيعي والمألوف أن يعرضوا للموضوعات التي سبقهم إليها القصص والمغنون ، فينشئوا فيها قصصهم التمثيلي ، بل كان من الطبيعي والمألوف أن يعرض المتأخر منهم لما عرض له المتقدم ، لا يجدون في ذلك حرجاً ، بل يجدون فيه سبيلاً إلى الإفادة والإتقان . فقصّة أوديب مثلاً قد عرض لها إيسكولوس ثم عرض لها بعده سوفوكل ، ثم عرض لها بعدها أوريبيد ، ثم عرض لها شعراء آخرون من اليونان لم يجد أحد في ذلك حرجاً . وهذه السنة التي سنّها اليونان قد انتقلت منهم إلى غيرهم من الأمم ؛ فالرومان في العصر القديم حين حاولوا التمثيل اتخذوا أكثر الموضوعات لقصصهم من التمثيل اليوناني نفسه . فقصّة أوديب مثلاً عرض لها منهم غير شاعر . وامتازت قصة سينيك Sénèque من هذه القصص التي وضعها الشعراء اللاتينيون . وجرى الأمر على ذلك بعد النهضة الأوربية في العصر الحديث ، فاستعار شعراء التمثيل من الإنجليز والألمان والإيطاليين والفرنسيين خاصة موضوعات شعرهم التمثيلي من تمثيل اليونان والرومان . وقد وضع الشاعر الإنجليزي دريدن في القرن السابع عشر قصة أوديب ، كما وضع الشاعر الإيطالي ألفييري في القرن الثامن عشر قصة أوديب أيضاً . أما الفرنسيون فقد فتن شعراؤهم وكتابهم بقصة أوديب منذ أواخر القرن السادس عشر إلى الآن . ولست أحصى شعراءهم الذين عرضوا لهذه القصة ، وإنما أذكر أن كورني قد وضع قصة تمثيلية لأوديب فتن بها معاصروه ، وأن فولتير قد وضع في أول القرن الثامن عشر قصة لأوديب كثر حولها الحديث والنقد ، وأن شاعرين فرنسيين هما دي سيس وشنييه وضعوا قصتين لأوديب في آخر القرن الثامن عشر وأول القرن التاسع عشر . أما في هذا القرن العشرين فقد عني بأوديب الكاتب الفرنسي العظيم أندريه جيد في القصة التي تترجمها في هذا السفر ، كما عني به الكاتب الشاعر المعروف جان كوكتو في قصته المشهورة « أداة الجحيم » . فأنت ترى أن السنة اليونانية التي أتاحت للشعراء ألا ينفروا عما سبقوا إليه قد أصبحت سنة أدبية إنسانية شائعة على اختلاف العصور . وأنت ترى كذلك

أن قصة أوديب وحدها قد شغلت شعراء كثيرين في الأمم المختلفة على اختلاف العصور ، وما زالت تشغل الشعراء والكتاب إلى الآن . وأكبر الظن أنها ستشغلهم دائماً .

٣

ولا أكاد أذكر من القصص اليوناني القديم الذي شغل به المحدثون شيئاً تجاوز القرن السابع عشر والثامن عشر إلا قصة « أيجيني في توريس » *Iphigénie en Tauride* التي عني بها جوت ، وقصصاً قليلة أخرى طغت في القرن العشرين ، أعظمها خطراً قصة « أوديب » هذه وقصة « الكتر » *Electre* و « أمفريون » وقد جددها جان جيرودو ، وقصة أنتيجون وقد جددها جان كوكتو بين الحربين ثم جددها جان أنوي في هذه الأعوام الأخيرة . وهناك قصص تمثيلية معاصرة جددت أو حاولت أن تجدد بعض القصص التمثيلية اليوناني القديم ، ولكنها لم تبلغ الملعب أو لم تظفر فيه بفوز باهر ونجح عظيم .

ولعل المحدثين المعاصرين يؤثرون أن يشهدوا القصص اليوناني يعرض عليهم كما تركه أصحابه مع قليل أو كثير من التغيير ، إلا أن يوجد الكاتب الممتاز الذي يستطيع أن يدل بالقصة اليونانية على أكثر مما وصل إليه الشاعر اليوناني القديم ، أو أن يعرضها في شكل أشد ملائمة لروح العصر الحديث .

وهذا هو الذي فعله جيرودو حين اتخذ إلكتر رمزاً لا للانتقام وحده كما فعل القدماء بل للعدل أيضاً . للعدل الذي يجب أن تبلغه الإنسانية وأن تضحي فيه بكل شيء مهما تكن التضحية قاسية ومهما تكن الضحية غالية ، والذي لا يحفل بانتلال العروش وانهيار النظم وإزهاق النفوس وسفك الدماء وصب الدمار على المدن ، بل يرى في ذلك كله إيذاناً بطولع فجر جديد . وكما فعل جان پول سارتر في قصة « الذباب » حين أراد أن يحدد مأساة إلكتر فجعل أخاها هو البطل . ولم يكتف بفكرة الانتقام من الأم التي خانت زوجها وقتلته ولا بفكرة العدل التي قصد إليها ووقف عندها جيرودو ، ولكنه عني بالحرية الإنسانية التي وقفت أورست موقف الثائر على ذوس Zeus المعارض له ، والتي تقف الإنسان الحديث موقف الثائر على كل شيء المزدرى لكل شيء إلا حرية التي

تجعله إنسانا يوجد ليعدل ما يشاء أن يعمل ولا يقول ما يشاء أن يقول ، خير حائل إلا بنفسه ولا واقف إلا عند نفسه .

إلى شيء من هذا التجديد الأساسي الخواص قصد أنذريه حيث وضع قصته التمثيلية « أوديب » مجددا هذه القصة كما تركها سوفوكل غير واقف عند ما انتهى إليه سوفوكل ولا حافل بما باغته كورني أو فولتير أو غيرها من الشعراء والكتاب المحدثين . وقد يحسن أن نتبين قبل كل شيء إلام أراد سوفوكل حين وضع قصته هذه التي صور فيها مأساة أوديب ؟ وقد أضاعت الأيام ما ترك إيسكولوس وأوريبيد وغيرهما من الشعراء القدماء حول هذا الموضوع بحيث أصبحت قصة سوفوكل هي النموذج القديم الوحيد الذي ألهم المحدثين من الأوربيين . وواضح أن سوفوكل إنما قصد في هذه القصة كما قصد في أكثر قصصه الأخرى إلى ما يصور لنا صرامة القضاء من جهة وحرية الإنسان من جهة أخرى ، وإلى أن يلائم بين هذين الضدين المختصمين على نحو ما . فانقضاء صارم قاس بالقياس إلى أوديب وإلى أبويه في هذه القصة ، وهو صارم قاس بالقياس إلى أبنائه في قصة أخرى هي قصة أنتيجون . القضاء صارم قاس لأنه قد كتب في غير حكمة بينة للإنسان على لا يوس أن يموت مقتولا بيد ابنه ، وكتب على چوكاست أن تقتل نفسها بعد أن تتورط في إثمها ذاك البشع الشنيع ، وكتب على أوديب أن يكون قاتلا لأبيه متروجا لأمه مسببا لموتها فاقئا عينيه بيده . ومن البين أن أحدا من هؤلاء الأبطال لم يكن حاضرا حين كتب القضاء ما كتب ، ولم يقترب قبل وجوده إنما يغرى به القضاء ويسلط عليه قسوة الأقدار . فهناك إذن علة خفية لا يدركها الإنسان تدفع القضاء إلى أن يدبر أمر الناس والآلهة كما يشاء . ومن يدري ! لعل هذه العلة الخفية لا وجود لها ، ولعل القضاء يمضي كما يريد لا يخضع لقانون ولكنه على كل حال صارم قاس بالقياس إلى الآلهة والناس جميعا . غير أن الإنسان ليس خاضعا خضوعا كاملا شاملا مستسلما لهذا القضاء ، وإنما هو مستمتع بشيء من الحرية قد يكون قليلا وقد يكون ضئيل الأثر وقد لا يكون له أثر ما ، ولكنه موجود على كل حال . وآية ذلك أولاً أن الإنسان يريد أن يعرف ما أضمر له القضاء يعمل في ذلك عقله ويستنبي عن ذلك وحى الآلهة ، فهو إذن لا يخضع لأحكام القضاء غير عالم بها أو غير مفترض لوجودها كما يخضع لها الحيوان وكما تخضع لها

من أبطال الاساطير اليونانية

الكائنات الأخرى التي تألف منها الطبيعة . وليس قليلا أن يتأق الإنسان ما كتب له من خير وما قضى عليه من شر وهو عالم به وعالم بالمصدر الذي يسوقه إليه أو يسلطه عليه .

وهناك آية ثانية على حرية الإنسان أمام القضاء ؛ فهو لا يطمئن إلى العلم بما كتبت الأقدار عليه ، وإنما يحاول أن يخاص بما قضى عليه من الشر . وليس المهم أن ينجح أو يفشل في هذه المحاولة وإنما المهم أن يحاول . فلايوس وچوكاست يعلمان أن ابنهما سيقتل أباه ويتزوج أمه ، فيحاولان التخلص من هذا الشر بقتل الصبي قبل أن ينمو ويقترب هذه الآثام ، ولا عليهما بعد ذلك أن يفلت الصبي مما دبراه من الموت . وأوديب يعلم بما دبر القضاء له ، فيفر من قصر الملك في كورنت محاولاً أن يتجنب ، ولا عليه بعد ذلك أن يقتل لايوس ، فلو قد عرف أنه أبوه لما قتله ، ولا عليه أن يتزوج چوكاست فلو قد عرف أنها أمه لما اقترن بها . وهناك آية أخرى على حرية الإنسان أمام القضاء ، وهي أعظم من هاتين الآيتين خطراً وهي التي يصورها لنا سوفوكل في قصة « أوديب ملكا » ، ولكنه يصورها تصويراً أعظم روعة وأكثر جلاء في قصته الأخرى « أوديب في كولونا » ، وهي أن الإنسان حين يعجز عن رد القضاء لا يرى نفسه منهزماً ولا يرى نفسه مسئولاً عما تورط فيه من الإثم . فهو يؤمن بأن التبعة يجب أن تكون نتيجة للحرية وأن يكون حظ الإنسان من هذه التبعة ملائماً لحظه من الحرية ، فأوديب تدفعه الغريزة الإنسانية الأولى كما تدفعه التقاليد الموروثة إلى أن يعاقب نفسه حين يستكشف الإثم المروع الذي تورط فيه ، ولكنه بعد شيء من التفكير يستطيع أن يثبت للقضاء وأن يقف من الآلهة موقف المدافع عن نفسه المحتج لها ، لأنه لم يرد قتل أبيه ، ولم يقتله وهو يعلم أنه أبوه ، ولم يرد الزواج من أمه ولم يتزوج منها وهو يعلم أنها أمه . فإن كان في هذا كله إثم فليس هو المسئول عن هذا الإثم ، وإنما يسأل عنه القضاء الذي دبره والآلهة الذين ضللوا أوديب حتى تورط فيه على كثرة ما حاول تجنبه والتخلص منه . هو إذن بريء أمام نفسه ، ولا عليه أن يراه الناس بريئاً أو أن يتهموه ويحكموا عليه . على أن أوديب لا يكتفى بذلك وإنما يريد أن يقنع القضاء والآلهة أنفسهم ببراءته ، وهو يبلغ من ذلك ما يريد فقد رضى الآلهة عنه آخر الأمر فأووه إلى هذه الضاحية من ضواحي أثينا ، وألقوا عليه السكينة ، وأشاعوا في نفسه الطمأنينة والأمن ، وجعلوا جثته مصدر بركة للبلد

من أبطال الأساطير اليونانية

الذى تدفن فيه . وهم قد عاقبوا مدينة ثيبا فأثاروا فيها الفتنة بين الإخوين الملكين ، وخرموها هذه البركة المتصلة بشخص أوديب حين قضوا ان يموت غريباً وأن يدفن في بلد غريب .

وإذن فقد انتهت حرية الإنسان إلى شيء من القوْز . لم تستطع أن تجنب صاحبها المحنة ولا أن تنقذه من الشر في هذه الحياة ، ولكنها قد صفت نفسه وظهرت قلبه واستخلصته من الآثام كما يستخلص المعدن النقي مما يحيط به من الخبث . فليست هذه المحنة إذن إلا تجربة لحرية الإنسان ، ووسيلة إلى تصفية نفسه وتنقية جوهره إن استطاع أن يثبت للآلام وينفذ من الخطوب .

إلى هذا كله أراد سوفوكل حين كتب قصتيه اللتين صورت في إحداهما محنة أوديب ملكاً ، وفي أخراهما نجاة أوديب منفياً بألساً طريداً . ويجب أن نعترف بأن الذين أرادوا أن يقلدوا سوفوكل لم يبلغوا مما أرادوا شيئاً ذا خطر ، لا أستثنى منهم إلا المعاصرين من الكتّاب الفرنسيين .

فالكاتب الشاعر الفيلسوف سينيك لم يضيف إلى ما ابتكر سوفوكل شيئاً ، ولعله أضاع منه أشياء . وإذا كان لقصته شيء من جمال فأكبر الظن أنه إنما يأتيها من روعة الفصاحة اللاتينية ومن بعض الخواطر الفلسفية العابرة .

أما كورنى فقد كان مفتوناً بقصته ، ويظهر أن معاصريه منحوا قصته هذه غير قليل من الرضا والإعجاب ؛ ولكن كورنى فيما أعتقد قد أفسد قصة أوديب إفساداً عظيماً . رأى أن يلائم بين القصة وبين ذوق البيئة التي كان يكتب لها ، وقد لاحظ أن تلك البيئة لم تكن تتصور قصة تمثيلية تخلو من الحب ومن الحب الذى يكون له فى المأساة نفسها أثر خطير . وليس فى قصة سوفوكل حب أو شيء يشبه الحب ، فاضطر كورنى إلى أن يحدث حباً ذا خطر ، واضطر من أجل ذلك إلى أن ينشئ لـ لايس بنتاً تكبر أوديب سنّاً ، وأن ينشئ بين هذه الفتاة وبين ثيسوس Thésée ملك أثينا حبّاً ، وأن ينشئ بين هذه الفتاة وبين أوديب خصومة حول هذا الحب من جهة وحول العرش من جهة أخرى ؛ فلم تكن الفتاة تعرف أن أوديب أخوها ، وهى من أجل ذلك كانت تراه غاصباً لعرش أبيها . ولم يكن أوديب يعرف أن الفتاة أخته فكان يؤثر أن يزوج ملك أثينا من إحدى ابنتيه . وكانت چوكاست حائرة بين بناتها الثلاث وبين زوجها . والغريب أن كل هذه الخصومات حول الحب والغيرة كانت تشغل الملك والملكة والحاشية والقصر

من أبطال الاساطير اليونانية

كله في نفس الوقت الذي كان الوباء يعصف فيه بالمدينة عصفاً شديداً ، ولا نشغل بالقصة نفسها إلا حين توشك الفصول أن تنتهى ، هنالك تثار العقدة ويعلم الملك ومن حوله أن الآلهة غضاب ، وأن هناك مجرماً يجب أن ينزل به العقاب ، ثم يستبين للملك أنه هو المجرم فلا يفقد صوابه ولا يأخذه الهول ، وإنما يتحدث إلى أخته في حبها لملك أثينا وفي زواجها من هذا الملك ، ثم يعصف الندم بنفسه آخر الأمر حين تموت جوكاست فيفقاً عينيه . وقد لاحظ كورنى كذلك أن البيئة التي كان يكتب لها كانت من الترف ورقة الشعور بحيث كان يسوءها أن يظهر أمامها أوديب دأى الوجه بعد أن فقأ عينيه ، فلم يظهر الملك أمام النظارة وإنما قص آخرته وآخرة الملكة عايمهم في شعر قد يكون جميلاً رائعاً ، ولكنه لا يغنى عن الصورة الماثلة أمام النظارة شيئاً .

وقصة كورنى بعد ذلك لا تضيف فكرة جديدة إلى القصة اليونانية . ولست أدري أمن الحق أن تسمى أوديب ، أم من الحق أن تسمى درسيه وهو اسم الفتاة التي اخترعها كورنى والتي تدور عليها القصة وعلى حبها أكثر مما تدور على أوديب وعلى محنته . وقد نقد قولتير قصة سوفوكل نقداً مفصلاً مسرف التفصيل . قاسه بمقياس العصر الذي كان يعيش فيه ، فأظهر القصة اليونانية منحلة متهاكة لا قوام لها من منطق ولا من دقة ، ولا تكاد تظهر بحظ من إتقان . ثم عطف على قصة كورنى ، فلم يعفها من النقد اللاذع الشديد . ثم أذاع قصته هو ، فإذا هي شر من قصة كورنى ، لم تضيف إلى القصة اليونانية شيئاً ، ولم تظهر من الجمال اللغوى بما ظفرت به قصة كورنى العظيم . ويكفى أن نلاحظ أن قولتير قد وقع في نفس التخليط الذي وقع فيه كورنى ، أراد أن ينشئ حباً في هذه المأساة ، لأن البيئة الفرنسية التي كان الأدباء يكتبون لها كانت تريد الحب في التمثيل . أراد أن ينشئ حباً إذن ، فلم يجعل للأيوس بنتاً كما فعل كورنى ، ولكنه استكشف لجوكاست عاشقاً قديماً هو فيلوكتيت Philoctète ، وقد عاد فيلوكتيت إلى ثيبا ليعيش قريباً من عشيقته ، ولكنه يعلم أن زوجها قد قتل فيستأنف حبه القديم ثورة جامحة ، إلى آخر هذا العبت الذي لا يزن شيئاً بالمقياس إلى جده الشاعر اليونانى العظيم . على أن من الحق أن نعتذر عن قولتير ؛ فقد كان في التاسعة عشرة من عمره حين أنشأ هذه القصة . والشئ المحقق أن الشاعرين الفرنسيين قد عنيا بالبيئة أكثر مما عنيا بالموضوع ، فأرضيا قوما كانوا يحبون

من أبطال الاساطير اليونانية

أن يلهوا ، ويكرهون أن يشقوا على أنفسهم بالتأمل والتفكير فضلا عن أن يشقوا على أنفسهم بالنظر إلى المناظر التي تؤذى شعور الغايات المترفات . ولأدع ما حاول الشعراء والكتاب بعد قولتير من تجديد قصة أوديب لأصل إلى هذه المحاولة الأخيرة التي أقدم عليها أندريه جيد وجان كوكتو بين الحريين . وهما قد أقدما على هذه المحاولة في وقت واحد ، لم يسبق أحدهما صاحبه ، ولم يعلم أحدهما بمحاولة صاحبه إلا بعد أن أظهر كل منهما قصته . والفرق عظيم جداً بين القصتين . فأما جان كوكتو فيسرف في التجديد والابتكار إسرافاً شديداً لا يدعو إليه تعمق الفكرة التي تدور القصة حولها ، وهي فكرة الصراع بين سلطان القضاء وحرية الإنسان ، وإنما يدعو إليه الفن نفسه ، الفن الخالص الذي يروع النظارة ويبهزهم ويحرص على أن يسحر أعينهم وآذانهم وعقولهم أكثر مما يحرص على أن يدعوهم إلى التأمل والتعمق والتفكير . فجان كوكتو ليس متهاكاً على الجدة ولا ممعناً فيه ، ولعله يبغض التقيد بأصول الفن المقررة ، فأحرى أن يبغض التقيد بقصة الشاعر اليوناني القديم . وهو من أجل ذلك يبتكر بطلاً جديداً هو أوديب ، ويحيطه بظروف توشك ألا تستبقى من اليونانية إلا الأسماء دون الحقائق ، وهو يعقد قصته تعقيداً ويخالف فيها بين المناظر والفصول ، لا يتقيد بوحدة في الزمان ولا في المكان ولا في الحركة ، وإنما يكتفي بوحدة الموضوع . فقصته تبدأ منذ قتل لاويوس ، وتنتهي بعد أن ينفق أوديب عينيه . وإذن فهي تستغرق نحو عشرين سنة . تبدأ القصة حين تعرف المدينة مصرع الملك من جهة وحين يمتحنها أبو الهول بلغزه من جهة أخرى . ونحن نرى في الفصل الأول ظل الملك القليل يظهر لبعض الجندي يريد أن يرى الملكة والكاهن ليحذرهما من خطر عظيم . ونحن نرى الملكة والكاهن يصعدان إلى حيث كان يظهر ظل الملك القليل ، فنرى ملكة شابة حلوة الدابة خفيفة الروح ، خائفة من ظل زوجها ، خائفة من الأحداث التي يمكن أن تلم بها ، محبة مع هذا كله للحياة ولذاتها ، لا تكره أن تداعب الكاهن الذي يداعبها أيضاً ، ولا تكره أن تلاعب الجندي الشاب الذي رأى ظل الملك القليل ، وتظهر ميلاً شديداً إليه .

ونحن نرى في فصل آخر ما يكون من الصراع بين أوديب الفتى المغامر وبين أبي الهول . ثم ما يكون من انتصار الفتى . ونحن نرى في فصل ثالث زفاف

جوكاست إلى الملك الشاب ونشهد أول الشر؛ فالكاهن محقق على أوديب مشفق منه، وليس كريون أقل منه حنقا ولا إشفاقاً. ثم نرى نحن آخر الأمر ظهور الحقيقة ومصرع جوكاست، ونرى أوديب وقد فقأ عينيه ونفى نفسه من الأرض وهم أن يخرج من القصر تقوده ابنته أنتيجون، وإذا ظل أمه وزوجه جوكاست يظهر، فيراه أوديب الضريع ولا يراه المبصرون من حوله، ويتحدث فيسمعه أوديب ولا يسمعه الآخرون من حوله، وإذا جوكاست تنبأ ابنها بأن الموت قد طهرها من الزوجية الآثمة ولم يبق لها إلا الأمومة البرة، وهي قد أقبلت لتقود ابنها إلى منفاه وتعيّنه على احتمال الغربة.

فالقصة كما ترى رائعة بما فيها من اختلاف المناظر وبراعة الاختراع وحسن التحدث إلى الحس والشعور. ويظهر أن هذا كله يرضى الجمهور الضخم من النظارة الباريسيين. فأما التحدث إلى العقل وأما مواجهة المشكلات العليا وأما الصراع بين الدين والحرية فأشياء لم يكن يحفل بها جان كوكتو، ولم يكد يحفل بغيرها أندريه جيد؛ فأندرية جيد متتبع لسوفوكل في مجرى قصته لا يخرج عن الخطة التي رسمها الشاعر القديم منذ خمسة وعشرين قرناً. ولكن أوديب الذي ينشئه أندريه جيد رجل قد تم نضجه الفاسفي بأرقى معاني هذه الكلمة في القرن العشرين. يظهر في أول القصة مستجمعاً شخصيته كلها، مستكملاً قوته كلها، متحدياً للناس متحدياً للآلهة، لا يؤمن إلا بنفسه، يعان إلى النظارة أنه رجل سعيد، قد عمر أربعين سنة وملاك عشرين عاماً، واكتسب سعادته اكتساباً لم يرثها عن أحد. ويوشك هذا الاعتداد بالنفس أن يدفعه إلى الغرور، وهو من أجل ذلك يخادع نفسه ويزعّم لها غير مخاض أن الآلهة قد أخطأه، لا يريد بهذا الخداع إلا أن يتجنب الغرور الذي كثيراً ما ورط الناس في الشقاء.

فالفكرة الأساسية في قصة أندريه جيد هي اعتداد الإنسان بنفسه وثقته بحريته واعتماده على قدرته التي تمكنه من إقحام المصاعب وتذليل العقاب. وهذا الاعتداد بالنفس يسوء الناس جميعاً؛ فالجوقة التي تمثل الشعب ضيقة بهذا الغرور مشفقة منه على مصير المدينة، ويدفعها إلى الإشفاق والخوف هذا الوباء الذي يصيب على المدينة بلاء عظيماً. وقد أخذ الشعب الذي كان مفتوناً بالملك يتطير به ويهم في أن يكيد له بعض الكيد ليصرف إليه وتحدّه غضب

الآلهة من دون المدينة . والكاهن ساخط على الملك لأنه لا يخاض دينه للإله بل لا يؤمن بالإله . وأبناء أوديب قد اختافت أهواؤهم : فأما الشابان فقد تأثرا بأبيهما ، فهما لا يؤمنان بشيء ولا يرجوان شيء وقاراً ، ولا يكرهان أن يصبوا إلى أختيهما وأن يتحدثا إليهما كما يتحدثان فيما بينهما بهذه الصبوة الآثمة . أما أنتيجون وجوكاست فتأثرتان بالكاهن إلى أبعد حد ، حتى إن الفتاة لتوشك أن تهب نفسها للإله . وأما كريون فناعم بالحياة في هذا القصر لا يجب أحداً ولا يكره أحداً ، وإنما يجب نفسه ويحب الحياة ويستمتع بما يتاح له من لذاتها ، ويحافظ على التقاليد ما وسعته المحافظة . وعقدة القصة كلها هي الاختلاف بين أوديب الذي يعتد بنفسه حتى يبلغ الغرور وحتى يجحد الآلهة ، والكاهن الذي يريد أن يبسط سلطان الدين وأن يسيطر من طريق هذا السلطان على كل شيء وعلى كل إنسان وعلى نفس الملك خاصة . وليس الوباء الذي ألمّ بالمدينة وليس البحث عن مصدر هذا الوباء وليست استشارة الآلهة لتعرف هذا المصدر وليس استكشاف المجرم الذي قتل أباه وتزوج أمه — ليس هذا كله إلا مظاهر لهذا الصراع بين حرية الإنسان واعتداده بنفسه حتى يبلغ الغرور ، وبين سلطان الإله وتفوقه على غرور الإنسان .

فاذا تبئت الحقيقة وعرف أوديب أن سعادته لم تكن إلا غروراً ، وأن انتصاره على أبي الهول لم يكن إلا سراباً ، وأن ملكه الذي أسسه ونعم به لم يكن إلا امتحاناً — إذا عرف أوديب هذا كله ورأى امرأته وأمه قد قتلت نفسها ورأى نفسه قد فقأ عينيه بيديه ، ظن الكاهن تيرزياس أن الإله قد انتصر على غرور الإنسان ، وأن أوديب قد ثاب إلى رشده ، وأذعن لسلطان الدين . ولكن أوديب لم يخرج عن كبريائه ، ولم يستسلم للمحنة ، ولم يعترف بالهزيمة ، وإنما ثبت للخطب ، بل هو لم يفقأ عينيه إلا تحدياً لنفسه وللناس وللألم ، ومحاولة لبناء مجد جديد من طراز آخر معنوى غير هذا المجد الزائل الذي كسبه حين قهر أبا الهول وأسس الملك . وهو حين ينفي نفسه من الأرض لا يفارق المدينة منهزماً ولا مخذولاً ، وإنما يفارقها يائساً . لم يقهر اليأس نفسه ، وإنما رفعها فوق الناس وفوق أعراض الحياة . وهو ينصرف ساخراً من الشعب الذي أحبه ثم كرهه ثم أخذ يتملقه حين عرف أن بركة الآلهة متصلة بشخصه ، وينصرف ساخراً من كريون المحافظ الذي يرى الملك كل شيء ، وينصرف ساخراً من ابنه اللذين

من أبطال الاساطير اليونانية

لا يفكران في الحياة إلا على أنها وسيلة إلى المتاع ، وينصرف ساخراً من الكاهن الذي يعظه ويريد أن يحمله على الندم ، فهو لا يرى أنه قد فعل شيئاً يمكن أن يندم عليه .

هذه هي القصة التي وضعها أندريه جيد ، وهي كما ترى قريبة جداً من القصة اليونانية في موضوعها وفي غايتها ، بعيدة جداً من القصة في صورتها من ناحية وإن احتفظت بالجودة وفي إتقانها للتفكير وتجنبها للتكلف الشعري الغنائى الذى قد يروق ويعجب ، ولكنه لا يغنى عن التفكير العقلى شيئاً .

ولست أدري أخطئ أنا أم مصيب ، ولكنى أعتقد أن هاتين القصتين : قصة سوفوكل وقصة أندريه جيد هما وحدهما اللتان تشهدان بأن محنة أوديب خليفة حقاً بأن تكون موضوعاً للتفكير الذى يغذو العقل ، والفن الذى يغذو القلب ، وبأن تكون من أجل ذلك صالحة لتفكير الفلاسفة وابتكار الأدباء على مر العصور واختلاف الأجيال .

وقد يكون مما تمتاز به قصة أندريه جيد من القصص الأخرى التي حاولت تجديد القصة اليونانية أنها لم تقف عند قصة أوديب ملكاً ولكنها ألمت من قريب جداً بالقصة الثانية التي وضعها سوفوكل وهي قصة أوديب فى كولونا . وكان إلمامها بهذه القصة رائعاً حقاً ، لا أكاد أعرف شيئاً يشبهه فى جمال الإيجاز ودقته وكفايته بحيث يستطيع قارئ هذه القصة أن يستوعب أمر أوديب كله فى غير مشقة ولا جهد .

فقصة أوديب تنتهى حين تموت جوكاست ويعاقب أوديب نفسه ويدان أنه سيهاجر من وطنه . وقد رضى كريون عن هذه الهجرة ، وابتهج بها الشعب ، وسكت عنها ابنا أوديب الطامعان فى الملك اللذان اتفقا قبل أن يمتحن أبوها على أن يكون الملك دولةً بينهما ، وأزمعت أنتيجون أن تصحب أباهما فى منفاه ، وقررت إسمين أن تلحق بهما بعد قليل . ولكن الكاهن يعلن فجأة أن الآلهة قد أوحوا إليه أنهم يصلون البركة بشخص أوديب ويكتبونها للأرض التي يدفن فيها بعد موته ، وإذا كل شيء يتغير إلا رأى أوديب ، فكريون يطلب إليه البقاء ملحاً فى طلبه ، والشعب يطلب إليه البقاء متملقاً مترضياً ، ولكن أوديب يسخر من إلحاح كريون وتملق الشعب وتوسل الكاهن ، ويمضى إلى منفاه ساخراً من هؤلاء جميعاً .

وفي هذا الحوار القصير اليسير يوجز أندريه جيد خير ما في القصة اليونانية الثانية بحيث يخرج القارئ من قصة أندريه جيد وقد عرف من أمر أوديب كل شيء : عرف بدء القصة وخاتمها ، وعرف مكر الآلهة وغرور أوديب ، وعرف المحنة والمقاومة ، ثم عرف عفو الآلهة وانتصار الإنسان .

٤

والظاهر أن أندريه جيد قد فكر في قصة أوديب قبل أن يحاول إنشاءها بوقت طويل ؛ فهو معنى بأساطير اليونان يطيل التفكير فيها والحديث عنها ، ويلفتة إليها بنوع خاص أنها مهما تكرر فيها الأعاجيب وخوارق العادات ومخالفة المؤلف من قوانين الطبيعة تذهب دائماً إلى شيء من المنطق يردها إلى العقل وإلى ما يحمل العقل على التروية والتفكير فيما يفسر حياة الإنسان أو يتصل بمصيره أو بموقفه من القضاء .

نراه يكتب في ذلك بعيد انتهاء الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٩ . ثم نراه ينشئ قصة أوديب نحو سنة ١٩٣٠ ، فإذا كانت الحرب العالمية الثانية وهاجر إلى إفريقيا الشمالية نراه ينشئ قصته الثانية التي تترجمها مع قصة أوديب وهي قصة ثيسوس . وهو ينبئنا في إهداء هذه القصة بأنه كان يفكر في كتابتها منذ زمن طويل . والواقع أنه يتحدث عن ثيسوس وأسطورته في مقاله الذي أشرت إليه آنفاً والذي كتب سنة ١٩١٩ ، فهو إذن يفكر في هذه القصة الثانية قبل أن يكتبها بأكثر من عشرين سنة . والتفكير في هذا البطل الأثيني لا يستقيم عند أندريه جيد كما أنه لا يستقيم عند سوفوكل دون التفكير في أوديب . وحسبك أن تذكر أن أمر أوديب قد انتهى في القصة الثانية من قصتي سوفوكل بالتجاء البطل الممتحن إلى أتيكا والتماسه الأمن والجوار عند الملك الأثيني ؛ فقد كان الشاعر اليوناني إذن يقرن أحد البطلين إلى صاحبه . وكذلك صنع أندريه جيد ، فستري في آخر قصة ثيسوس حديثاً بين البطلين حين التقيا يدور كله حول مصيرهما . والواقع أن هذين المصيرين يختلفان أشد الاختلاف ، ولكن كلا منهما يدعو على ذلك إلى التفكير في الآخر . فقد أتيح الفوز للبطل الأثيني منذ نشأته الأولى ، وأتيح له على نحو متصل حتى كانت حياته كلها فوزاً لم يعرف فيها الشقاء

إلا قليلاً، على حين بدأت حياة أوديب شقية مملوءة بالحزن، ولم يكن ما أتيج له من السعادة إلا غروراً.

على أن آخرة الرجلين تختلف أشد الاختلاف: فأما أعظمهما حظاً من الشقاء وهو أوديب، فقد مات راضياً عن نفسه وعن الآلهة، مطمئناً إلى هذه السكينة التي أنزلت على قلبه. وأما أعظمهما حظاً من السعادة وهو ثيسيوس فقد أنفق آخر أيامه منفيًا طريداً، نفته الثورة عن وطنه، ولم يجد عند الملك الذي استجار به مثل ما وجد عنده أوديب من الثقة والأمن، وإنما وجد عنده المكر والغدر والموت. فلاغربة إذن في أن يفكر أندريه جيد كما فكر سوفوكل في الرجلين معاً. ولا غربة إذن في أن نجتمع ترجمة القصتين في سفر واحد، وإن لم يفعل ذلك أندريه جيد، لأنه قد أنفق عشر سنين بين إنشائه لهاتين القصتين.

على أني حين تحدثت إليه في الجمع بينهما في سفر واحد رضى عن ذلك كل الرضا. وقد عرفت منه في باريس أنه أشار على مترجمه الأمريكى بأن يصنع نفس هذا الصنيع؛ لأن القصتين تصدران عن تفكير واحد وعن موقف واحد أمام مشكلات الحياة. ومع ذلك فبين القصتين اختلاف عظيم في الصورة الفنية: إحداهما تمثيلية كتبت للمسرح، على حين أن الثانية نوع من المذكرات يقص فيها البطل الاثنى علينا حياته التي ملأها المغامرة في ألوان من الدعاية الحلوة أحياناً والحب المر أحياناً أخرى.

ولا يشك قارى القصتين في أن أولاهما قد كتبت حين كان أندريه جيد قوياً سعيداً موفوراً مستكلاً شخصيته كأحسن ما يستكمل الكاتب شخصيته، كان في الستين من عمره، أو لم يكن قد جاوز الستين إلا قليلاً، كان سعيداً بين أهله وأصدقائه، راضياً عن نفسه وراضياً حتى عن مكر الناس به وكيدهم له وانتقاض بعضهم عليه. أما القصة الثانية فقد كتبها بعد أن جاوز السبعين، بعد أن فقد زوجه وكثيراً من أصدقائه وبعد أن خضع لألوان من الازمات النفسية، وبعد أن ذاق وطنه الهزيمة، وذاقها هو أشد ما يكون ذوقها مرارة، وكتبها منفيًا عن وطنه لا يعزف متى يعود إليه، بل لا يعرف أيتاح له أن يعود إليه. فهو مجاهد معاند متجدد للأحداث والخطوب حين يكتب قصة أوديب، وهو هادئ مطمئن حزين باسم مع ذلك للأحداث والخطوب ساخر منها، مؤمن بنفسه واثق بوطنه ذائق حلوة الصداقة حين يكتب قصة ثيسيوس.

ولذلك نرى أوديب يفرض نفسه على الأيام ويتحدى الآلهة ويعاند القضاء ، ويخرج من المحنة ظافراً يريد أن ينسى الماضي وألا يفكر إلا في المستقبل ، ونرى ثيسئوس قانعاً راضياً مطمئناً لا يفكر إلا في الماضي يستحضر منه اليسير والخطير ، ويجد اللذة في استحضار ما يستحضر يتحدث به إلينا أو إلى نفسه ، مستمتعاً بهذا الحديث قبل أن نستمتع به نحن ، لا يفكر في المستقبل ولا يريد أن يفكر فيه ؛ فهو لا ينتظر مستقبلاً لأن حياته قد أشرفت على غايتها . وأنت تجد هذا الحزن المطمئن في الأسطر الأولى من القصة حين ينبئك بأنه كان يريد أن يقص حياته ليجد فيها ابنه موعظة وعبرة وتعلماً ، ولكن ابنه قد مات ، وهو يقص حياته مع ذلك ؛ لمن يقصها ؟ لنفسه أولاً ، ولمن شاء أن يقرأها من الناس بعد ذلك . فهو قد تقدمت به السن ، وسبقه أكثر أصدقائه وأحبائه إلى الموت ، فأصبح عسير نفسه ، لا يستطيع إن أراد أن يسرّي عنها إلا أن يقص عليها ما كان له في صباه وشبابه وكهولته من الأحداث ، وما مر به من الخطوب وما تعرض له من المغامرات ، يحيا في وقت قصير حياته الطويلة ، ويجدد بالذاكرة ما اختلف على نفسه من لذة وألم ، ومن أمن وخوف ، ومن أمل ويأس .

وهو ينتهي آخر الأمر بالموازنة بين حياته وحياة صديقه أوديب ، فيرى بعد التفكير الطويل أنه كان أسعد من صديقه حياة وأحسن حظاً ؛ لأن أوديب قد انتهى إلى الزهد في الحياة والنفور منها والفرع إلى هذا العالم الداخلي يجد فيه الأمن والرضا على حين لقي هو الحياة كما عرضت على الأحياء ، ولعب بالأوراق التي أتاح القضاء للناس أن يلعبوا بها . يئس أوديب من الناس واستيقن آخر الأمر أنه لن يجد عندهم خيراً ولن يقدم إليهم خيراً ، ووثق هو بالناس واستيقن آخر الأمر أن الحياة النافعة القيمة هي التي لا تنتهي إلى الجذب ، وإنما تنتهي وقد تركت من ورائها آثاراً يدوم انتفاع الناس بها وذكرهم لها وثنائهم على صاحبها . وقد امتازت هذه القصة بما ستري فيها من هذه الدعابة الحلوة والسخرية الهادئة ؛ فالبطل الاثني يعرف الناس كما ينبغي أن يعرفوا : يعرف قوتهم ويعرف ضعفهم ، ويعرف أن هذه القوة كثيراً ما تقوم على الضعف نفسه . قيل له إنه ابن الملك وتحدث الناس بأنه ابن إله البحر ، فهو يعتز بهذين النسبين : يعتز بنسبه إلى أبيه ليملك أثينا ، ويعتز بنسبه إلى الآلهة ليملك قلوب الناس ويسحر عقولهم . وهو فيما بينه وبين نفسه يكاد يقطع بأنه ليس ابن هذا ولا ذاك ، وبأن أياه غير

معروف ؛ فقد يحدثنا بلوتارك بأن كثيراً من هؤلاء الأبطال كانوا يولدون لغير أب معروف فينتسبون إلى الآلهة ، ولا ينكر الناس من نسبهم شيئاً لحسن بلائهم ولما يحققون من عظام الأمور .

ويحدثنا ثيسوس بأنه قتل رجلاً كان يظن به السوء وقطع الطريق ، ثم تبين بعد ذلك أنه كان رجلاً خيراً نفاعاً للناس ، فكاد يندم على قتله ؛ ولكن الشعب حين عرف أنه هو قاتله ، لم يتردد في أن يقرر أنه كان مجرماً أثمياً . وكذلك تدعن الشعوب لما وكها وتسبق إلى التماس المعاذير لهم حين يخطئون .

وما أكثر ما نرى في هذه القصة أخلاق أندريه جيد نفسه ، فأبغض شيء إلى ثيسوس أن يقيد نفسه بما يمنعه من العمل ومن التقدم إلى أمام ؛ فهو يحب ولكن بشرط ألا يمسكه الحب عند خلية بعينها ، وهو يصادق ولكن بشرط ألا تقفه الصداقة عن أن يمضى لما يريد ، وهو من أجل ذلك يتخلص من أريان Ariane بعد أن نجته من اللايرانت ويؤثر عليها أختها ، كما أنه لا يحفل بمشورة صديقه بيرتيوس ولا يقف عند رأيه ، وإنما يمضى لما أراد غير حافل بفقدان الصديق الذي أوشك أن يعوقه عما يرى فيه خيراً .

كل شيء في هذه القصة يصور حرص الملك على أن يحقق نفسه ويعتمد عليها ، ولا يعتمد إلا عليها ، ينفع الناس ولكن لا يعنيه أن يرضى الناس عنه أو يسخطوا ، بل هو لا يكره أن ينفعهم على رغمهم . وإذا كانت قصة أوديب تصور الشخصية القوية المجاهدة المعاندة التي لا تؤمن بشيء كما تؤمن بالحرية ، ولا تحرص على شيء كما تحرص على الحرية ، ولا تعرف الهزيمة ولا تدعن للخطوب ، فقصة ثيسوس تصور الشخصية القوية التي جاهدت وعادت وانتصرت على الأحداث والخطوب حتى إذا بلغت آخر الشوط نظرت إلى وراء بعد أن لم تكن تنظر إلا إلى أمام ، فرضيت عن نفسها وحمدت بلاءها ، وانتظرت الموت آمنة مطمئنة .

والقصتان تنتهيان إلى غاية واحدة ، ولكنها في الوقت نفسه مختلفة : فقد مات أوديب راضياً ومات ثيسوس راضياً أيضاً ، ولكن أحدهما وجد الرضا في العالم الداخلي الفلسفي ، على حين وجد الآخر هذا الرضا في العالم الخارجي الإنساني . وما أعظم الفرق بين رضا مصدره اليأس من الناس ورضا مصدره الثقة بالناس !

في أفق السياسة العالمية

اليونان بين الملكية والجمهورية

ورث الإغريق المحدثون فيما ورثوه عن أسلافهم القدماء ولوعاً بالحرية والاستقلال، وإيماناً قوياً بالذاتية الفردية التي تجعل للفرد أو للمدينة كياناً مستقلاً خاصاً لا يحتمل ضمّاً أو إدماجاً في وحدة أو وحدات أكبر وأوسع تفوقاً. ولقد كان لهذه الصفة الأخيرة أبلغ الأثر في تكييف تاريخ هذه الأمة العريقة. فبينما نرى المصريين والفرس والرومان قد جمعوا شتات أقوامهم ووجدوا شمل بلادهم وأنشأوا لهم في التاريخ القديم دولا موحدة مترامية الأطراف كان الشأن الأول فيها للحكومة المركزية، إذا بتاريخ الإغريق القدماء يزخر ويزدهر بقيام دول شتى تلمع فيها عبقرية الأفراد ويعظم شأن المدن المستقلة، فينافس الجميع بعضهم بعضاً في إقامة أحسن النظم وأدناها إلى سعادة الإنسان وشجذ فكره وترقية ذوقه. ولم يكن الإغريق القدماء ليرضوا بديلاً عن تلك الذاتية الفردية إلا إذا دهمهم من الخارج أو الداخل خطر يعرض كيانهم أو حرياتهم للضياع، كما حدث عندما هاجمتهم جحافل الفرس وأساطيلهم في القرن الخامس قبل الميلاد، وحينئذ تتضافر جهودهم ويتناسون أحقادهم ويقفون جميعاً في وجه المعتدى، كلهم للمجموع وأرض هيلاس للجميع. ولقد وُحّد المقدونيون البلاد فترة في عهد الإسكندر الأكبر، وأصبحت لهم دولة ترامت أطرافها إلى الهند وحدود الصين، ولكن سرعان ما استحالت إثر موت الإسكندر إلى دويلات مستقلة طوما لطبيعة البلاد والناس.

وقد دعام حرصهم على ذاتيتهم وشدة تمسكهم باستقلالهم الفردي أن يشن بعضهم على بعض حروباً أهلية، عرفت أكبرها في التاريخ القديم بحرب ييلوبونيز، وظلت مستعرة بينهم قرابة سبعة وعشرين عاماً، لا لسبب سوى أنهم آنسوا من أثينا ميلاً للطغيان وبسط نفوذها على سائر المدن الإغريقية المستقلة، وحرمانها تلك الذاتية الفردية التي قدسها الإغريق قديماً، وكانت

في تاريخهم الحديث مصدر شقاوتهم واضطراب أحوالهم إلى الآن . ولقد كان يظن أن رزوح اليونانيين تحت نير الأتراك زهاء أربعة قرون منذ فتحها العثمانيون في القرن الخامس عشر إلى قرب منتصف القرن التاسع عشر ، قد غيّر من طبائع هذا الشعب وبدّلهم بحب الحرية والذاتية الفردية خضوعاً للغاصب واستسلاماً لطبائع الاستبداد ؛ ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ؛ فإن الأتراك العثمانيين لم يكونوا يوماً مستعمرين متسلطين ، بل كانوا رغم تفوقهم العسكري قوماً كسالى ، لا همّ لهم إلا جمع القوت والمال لإشباع بطونهم وبطون رؤسائهم في القسطنطينية ، فتركوا أهل اليونان أحراراً يوزعون الضرائب بينهم ، أحراراً في كنائسهم وفي مدارسهم ، لهم رؤساؤهم الروحيون والمدنيون ، والكثرة الغالبة منهم يعيشون عيشة الفاقة والقناعة على ما تنتجه بلادهم المجدبة التي تكتنفها سلاسل الجبال الشاهقة ، فتجعل الزراعة والمواصلات والسعى إلى كسب الرزق عملاً بالغاً منتهى الشدة والمشقة .

ولما كان الأتراك يزاولون سلطاتهم عادة في المدن بسند من عساكرهم وحامياتهم ، وجد اليونانيون الأحرار ملاذاً لحریتهم بين مسالك الجبال ومفاوزها ، واتخذوا من كهوفها ووهادها مراكز لعصاباتهم تحصنوا فيها ، وكانت لهم أوكار يكرون منها ويفرون ، ومنها ينقضون ليلاً على الأتراك وعلى أهل المدن والسهول من الموسرين الموالين للحكام ، يسلبونهم متاعهم وينكلون بهم ويقتلونهم خفية ، ثم يعودون من غزواتهم غانمين آمنين ، فلا الأتراك بمستطيعين أن يصلوا إلى مراكز هذه العصابات ، ولا اليونانيون قادرون على إفشاء سر إخوانهم أو مخالفة أوامرهم . وشبيه رجال العصابات أهل الجزر المنتشرة في بحر إيجه ؛ فقد كان لتركيا أساطيل وقواد بحريون ، ولكنهم كانوا لا حول لهم ولا قوة أمام ملاحي اليونان وقرصانهم من أهل الجزر الذين سيطروا على حركة الملاحة والتجارة ، فبنوا السفن والأساطيل وسلّحوها خفية ونحروا بها عباب البحار إلى مختلف ممالك أوروبا . وقد أفادوا كثيراً من الحصر البحري الذي أعلنه نابليون على الجزر البريطانية وأعلنته إنجلترا على قارة أوروبا . ومثل أولئك وهؤلاء كان القساوسة والرهبان من رجال الكنيسة الأرثوذكسية الذين اتخذوا من امتيازاتهم الدينية ستاراً أسدلوه على نشاطهم الاجتماعي والسياسي ، فكانوا يجوبون الهضاب والقفار والأودية ويطوفون على القرى ومراكز العصابات

اليونان بين الملكية والجمهورية

يواسون الفقراء ويضمدون جراح المرضى والمساكين ، ويذكرون الناس جميعاً بمجد الدولة البيزنطية القديمة ، ويبشرونهم باقتراب يوم الخلاص والنشور !
وعلى أكتاف هذه العناصر الثلاثة قامت الثورة ضد الأتراك في سنة ١٨٢١ ، واشتعلت حرب استقلال اليونان واستمرت زهاء عشر سنوات بين مد وجزر ونصر وخذلان ، حتى تدخلت الدول ، وتقدمت روسيا تحارب تركيا في سبيلهم وتقف أمام القسطنطينية تخير الأتراك بين تحرير اليونان أو ضرب العاصمة . فلم يسع تركيا سوى الإذعان للقوة ، وأقرت الدول في سنة ١٨٣٠ استقلال اليونان وانسلاخها عن تركيا .

وكأن خروج اليونانيين بعد أربعة قرون قضوها في ظلمات الاستبداد والاحتلال الأجنبي إلى نور الحرية والاستقلال قد غشى أبصارهم فجعلهم يتعثرون ويتخبطون في مزالق السياسة ، فما كادوا يتمتعون باستقلالهم حتى ظهرت عليهم أعراض الذاتية الفردية وطغت بينهم الأحقاد ، واتسعت هوة الخلف بين أهل الجبل وأهل السهل ، فعمت الفوضى ، وراحوا يزجون في السجون زعماءهم ويقتلون كابو دستريا أول رئيس لجمهوريتهم التي أعلنوها سنة ١٨٢٧ . وكان كابو وزيراً لخارجية روسيا واختاره اليونانيون رئيساً لهم ؛ فلم تمض إلا سنوات ثلاث حتى قتلوه لأرستقراطية وجوره . وعند ذلك قررت إنجلترا وفرنسا وروسيا أولياء أمر اليونان أن يوضع حد للمنازعات الداخلية بإعلان الملكية ، واختاروا لتاجها الأمير أثنو بن ملك بشاريا ، فسار على غير هوى اليونانيين ولم يكن له عقب ، فأقالوه سنة ١٨٦٢ واختاروا بدله الأمير جورج الدنمركي . وقد مهدت بريطانيا الطريق أمام الملك الجديد بأن نزلت لليونان عن جزر الأيوليان . وكانت هذه الجزر تتمتع منذ سنة ١٨١٥ بحكم ذاتي تحت سيادة بريطانيا ، فاجتذب الشعب اليوناني نحو الملك الجديد وتوطد مركز الملكية بفضل ارتباطها بأواصر النسب مع أكبر تيجان أوروبا إذ ذاك ؛ فقد كان الملك جورج الأول متزوجاً بأميرة روسية ، وكانت شقيقته زوجة ولي عهد إنجلترا وهو الذي اعتلى العرش بعد والدته الملكة فيكتوريا باسم الملك إدوارد السابع ، وقد تزوج ابنه وولي عهده قسطنطين من أميرة ألمانية كانت شقيقة إمبراطور ألمانيا وليم الثاني .

وفي ١٨ مارس سنة ١٩١٣ قتل الملك جورج الأول في سلانيك ، قتله إغريق

اليونان بين الملكية والجمهورية

فوضوى . وكان جورج حاكما معتدلا ، زادت في عهده رقعة البلاد وترامت حدودها ، فضمت جزيرة كريد سنة ١٩٠٩ . ولما قامت الحرب البلقانية ضد تركيا ١٩١٢ - ١٩١٣ وانتهت بهزيمة تركيا ، امتدت حدود اليونان شمالاً إلى مقدونيا وشرقاً إلى تراقيا وغرباً إلى ألبانيا ، وبذلك تضاعفت مساحة البلاد ، وزاد عدد سكانها بمقدار مليونى نفس تقريباً . على أن طريق الملكية في اليونان لم يكن سهلاً معبداً ، بل على العكس ظلت البلاد تعاني بسبب فقر الشعب وانقساماته وتقلباته متاعب وأزمات كثيراً ما عصفت بالحكومات وكادت تذهب بآثار الملكية إلى غير رجعة . ولم يكن في هذا كله أمر يدعو إلى الدهش والغرابة إذا أدركنا أنه ، رغم انقضاء أكثر من مائة عام على تمتع اليونان الحديثة باستقلالها ، لا تزال شؤون البلاد الداخلية : دستورها ونظام الحكم فيها ماثار خلاقات بل حروب أهلية إلى الآن . ففي أثناء هذا القرن اغتال اليونانيون رؤساءهم وملوكهم وشرطوهم أكثر من مرة ، وأنشأوا حكما جمهورياً ، وأقاموا دكتاتوريات عسكرية مرة تلو أخرى . وما كانت هذه التغيرات لتتم عادة إلا مصحوبة بحركات ثورية أو تمردية وحروب أهلية تراق فيها الدماء ، وتطاح فيها رؤوس القادة والوزراء ، ويصاب فيها الأهلون أخيراً بأفدح المظالم والمغارم .

وكان أفدح ما منيت به اليونان الحديثة من خلاف داخلي في أثناء الحرب العالمية الأولى ، إذ كان الملك قسطنطين موالياً لصهره إمبراطور ألمانيا ، وكان رئيس حكومته الزعيم الشعبي فينيزيوس يناصر الحلفاء . فلما قرر الحلفاء إرسال حملة غاليبولي لمحاولة اقتحام المضائق والاتصال بروسيا عن طريق البحر الأسود ، كان مما يساعد على نجاح الحملة أن تقف اليونان إلى جانب الحلفاء ، فلما تعذر إقناع قسطنطين ترك فينيزيوس الوزارة وأعلن على الملأ تأييده لقضية الحلفاء ، ودعا اليونانيين إلى الالتفاف حوله في سياسته ، فاستجاب جانب كبير من الشعب لندائه ، وأقام في سلانيك حكومة وطنية ما لبث الحلفاء أن اعترفوا بها . وعلى ذلك بدت اليونان أمام العالم كله أمة منقسمة على نفسها ، يحكمها من أثينا ملك محايد يميل إلى دول الوسط ، ومن سلانيك رئيس متمرد على الملك يناصره الحلفاء ويناصرهم بقواته التي جمعها من بين أفراد الشعب الثعس . وأخيراً لم ير الحلفاء

اليونان بين الملكية والجمهورية

بدأ من إقصاء الملك المعارض ، فقررُوا إقالته سنة ١٩١٧ ، فغادر البلاد ومعه ابنه الأكبر جورج ؛ إذ كان الابن كأبيه متأثراً بالثقافة الألمانية ومؤيداً لسياستها ، وأقاموا على عرش اليونان الابن الأصغر باسم الملك إسكندر ، وأصبح فيتزيلوس رئيساً للحكومة ، فدخلت اليونان الحرب وساهمت في النصر إلى جانب الحلفاء بما يقرب من ربع مليون جندي . ومات الملك الشاب في سنة ١٩٢٠ إثر عضة من قرد . وعلى الرغم من أن فيتزيلوس قد مثل اليونان في مؤتمر الصلح في باريس وكسب لنفسه ولأمتة مزايا ومنزلة قصرت عن إدراكها دول كانت أعظم من اليونان شأنًا وأكثر مالا وأعز نفراً ، فإن اليونانيين ما لبثوا أن انقلبوا على زعيمهم الذي استسلم للحلفاء وجعل بلاده لهم مطية ذلولا استخدموها في تحقيق مآربهم ، فلما استفتى الشعب قرر عودة الملك قسطنطين . وكانت اليونان إذ ذاك تحاول هضم اللقمة الدسمة التي سخا مؤتمر الصلح في سيقر باقتطاعها لها ، فكان نصيبها منطقة أزميز وتراقيا الشرقية وجزر إيجه ما عدا الدوديكانيز . وكانت قد ظهرت في ذلك الوقت حركة النهضة التركية الكمالية ، فلم يكن بد من اصطدام قوات الشعبين ، فوقفت الحكومة الإنجليزية من وراء اليونان تؤيدها ، ووقفت فرنسا وإيطاليا تؤيدان الكماليين سرا وعلانية . وأخيرا تولى قسطنطين قيادة جيشه ، فدحر اليونانيون في معركة سقاريا الحاسمة وباءوا بخزى عظيم ، فقد طردهم الأتراك حتى قذفوا بهم إلى البحر . ونزل قسطنطين عن عرشه وفر إلى إيطاليا ، ومالبت أن مات سنة ١٩٢٣ وخلفه ابنه الملك جورج الثاني . ولكن الهزيمة التي منيت بها اليونان على يد الأتراك في الأناضول كانت قاصمة الظهر وبالغة الخطر ، فزيادة على ما أصاب اليونانيين من خسائر مادية وأدبية رأى الأتراك أن الفرصة سانحة للقضاء على مشكلة أقلية الأروام في بلادهم ، فقررُوا انتزاعهم من جذورهم وترحيلهم بقضهم وقضيضهم إلى بلادهم الأصلية مقابل نقل الأتراك المسلمين الذين كانوا يعيشون في تراقيا والمورة إلى تركيا . ومعنى ذلك أن اليونانيين المنهزمين الذين لا يرزقون أقواتهم إلا بشق الأنفس كان عليهم أن يقبلوا بين ظهرانهم مليوناً ونصف مليون من المهاجرين الأروام الذين نسوا بلادهم وعاشوا قروناً طويلة في الأناضول وتركيا . وإذا عرفنا أن سكان اليونان آنئذ لم يكونوا ليزيدوا على ستة ملايين إلا قليلاً أدركنا فداحة المصيبة التي منيت بها البلاد من الوجهة الاقتصادية . أما الأتراك الذين هاجروا من اليونان

اليونان بين الملكية والجمهورية

فلم يزدوا على نصف مليون نفس . ولكن هذا التبادل في الأقليات بين تركيا واليونان رغم ما صحبه في التنفيذ من آلام وشدائد ، كان أوفق حل لمشكلة الأقليات ، وقد انتهت بأن أقامت بين الدولتين روابط صداقة وحسن جوار كانت ماملا قويافي إعلان ميثاق البلقان سنة ١٩٣٤ ، وربط الشعبين المتجاورين التركي واليوناني بأقوى الصلات وأوثقها في العصر الحديث .

ولقد كان من جراء هزيمة اليونانيين بقيادة الملك قسطنطين أن ضعف شأن الملكية في اليونان وضئول خطرهما ، فأعدموا ستة من الوزراء والقواد الملكيين ، وأثاروا بفعلتهم هذه النكراء سحق العالم المتعدين في جميع أنحاء العالم . ولم يمض عام على اعتلاء الملك جورج الثاني عرش اليونان بعد وفاة أبيه حتى اتهموه بتدبير ثورة ضد النظام القائم ، وأرغموه على النزول عن العرش ، وأعلنت الجمهورية سنة ١٩٢٤ وظل الزعيم الشعبي فيتزيلوس رئيسا للحكومة يعمل جهده لرأب الصدع وإعادة الثقة بالدولة بعد أن خفت موازينها إثر اندحارها أمام الأتراك وانحدارها إلى مستوى الوحشية لإعدامها ستة من وزرائها وقوادها رميا بالرصاص . وكان فيتزيلوس يقضى معظم أيامه بعيدا عن بلاده في فرنسا أو متنقلا ، بين العواصم لقضاء مهمات دولية ، فترك أنصاره يسيثون الحكم في البلاد حتى إذا كانت سنة ١٩٢٦ انقلب الرأي العام ضد فيتزيلوس وقامت في البلاد دكتاتورية عسكرية برئاسة بنجالوس فغادر فيتزيلوس البلاد إلى فرنسا ، وظل بها حتى دفعه غروره وحبه للمخاطرة إلى إشعال فتنة حرية بحرية في سلانيك سنة ١٩٣٥ ، فانبرى لهم الجنرال كنديلس ، وقضى على الفتنة قبل أن تستفحل ، وأقام دكتاتورية عسكرية مالبثت أن مهدت الطريق لعودة الملكية سنة ١٩٣٦ . وقد مات كنديلس و فيتزيلوس وتسالداريس وهم أكبر زعماء اليونان ، وبذلك صفا الجولجورج الثاني .

ولما عاد الملك جورج الثاني إلى عرشه أعلن أنه إنما يعود استجابة لصوت الشعب كله ، وسار في حكمه سيرا معتدلا حكما راسما طريقه وسطا بين الملكيين ومعارضهم ، فاستقرت الحال نوعا داخل البلاد . ولكن لسوء حظه مات رئيس حكومته وخلفه وكيله الجنرال متكساس ، وكان متأثرا بالثقافة الألمانية مواليا للألمان نازعا في حكمه منزع الدكتاتوريين . رأى متكساس أنه لا أمل في إصلاح حال البلاد واستقرار أمورها ، فادامت الخلافات الحزبية تملك على الناس مشاعرهم

اليونان بين الملكية والجمهورية

ونشاطهم ، فقرر إقامة حكمه وفق الأصول الدكتاتورية المعروفة في ذلك الوقت ، ووجد متكسّاس من الملك سنداً ونصيراً له ، فألغى الأحزاب ، وكمّ الصحافة ، وقيد الحريات ، ونفى وشرّد أعداءه ودمّاهضيه ، وجعل نفسه رئيساً للوزارة مدى الحياة ، وبذلك رفعت الفاشية في اليونان رأسها ، وأصبح نظامها في نظر الشعب مقترناً باسم الملك جورج الثاني .

ولما قامت الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ أعلنت اليونان حيديتها ، وبرهن متكسّاس رئيس وزرائها على أنه سياسي وطني مصلح ؛ إذ سار قدماً في إصلاحاته الحربية والاقتصادية . حتى إذا ما تشجع موسوليني عقب اندحار فرنسا ، وأعلن الحرب على اليونان في أكتوبر سنة ١٩٤٠ ، وجد من اليونانيين شعباً صعب المراس متحدياً مدرباً على حرب العصابات خبيراً بدروب الجبال ومسالكنها ، وسرعان ما استرعى العالم انتصار هذا الشعب الصغير الفقير على جحافل موسوليني الذي طالما تشدق بجيوشه ولمعان أسنّته التي قال عنها : إنها متى ارتفعت حجبت شعاع الشمس عن أعين البشر !

ومات متكسّاس فجأة سنة ١٩٤١ وهو مزهو بانتصار بلاده في أول الأمر ، ولكن هتلر لم يصبر طويلاً على أذية صاحبه ، فسرطان ما تحركت كتائبه وعدده وطائراته ، وجاءت على عجل بعد أن اكتسحت يوغسلافيا ، واخترقت بلغاريا . ووصل المدد إلى اليونان من بريطانيا ، وهي في محنتها بعفريدها أمام الخطر النازي . ومع ذلك لم يثبت اليونانيون إلا أياماً معدودة ، فهاجر الملك وحلفاؤه إلى كريت ، ثم أفاق العالم صباح يوم فرأى الألمان قد احتلوا كريت بعد هجوم جوي خاطف لم يسبق له مثيل ، ففر الملك جورج وحكومته من الجزيرة سرّاً بعناء ومشقة إلى مصر . وبذلك بدأ الملك منفاه لثالث مرة .

ولما احتل الألمان البلاد تألفت بها سرّاً ، كما تألفت في سائر البلاد التي احتلها العدو عنوة ، جماعات للمقاومة ، كان في مقدمتها عناصر شيوعية استطاعت أن تنمو وتقوى سرّاً في عهد متكسّاس ، وأصبحت في عهد الاحتلال مأوى لجميع العناصر المناوئة للألمان . وأخذت مراكز المقاومة تقوى وتكبر تدريجاً متخذة كهوف الجبال ووهادها مراكز لنشاطها وتدريبها . ولم تكن هذه الفئات في أول أمرها شيوعية خالصة ، كما أنه لم تكن لها صلة بالشيوعيين الدوليين ، ولكن

ما كادت ألمانيا تعلن الحرب على روسيا حتى زاد نشاط هذه الفئات ، ونجعت بعمل مهمة على إحباط مساعي الألمان ، وإثارة الشعب بين العمال في المصانع والمعامل لإلحاق الضرر بالألمان وجهودهم الحربية . وبلغ عدد المنضوين تحت لواء جماعة المقاومة من الشيوعيين ما يقرب من ربع سكان البلاد .

وإلى جانب العناصر الشيوعية ظهرت جماعات أخرى للمقاومة ، وهما الهيئة التي كان يرأسها الكولنيل زرقاس . وكانت هذه الهيئة تلقى المعونة من الحلفاء ومن الحكومة المنفية ، وكان الخلاف بين جماعات المقاومة المختلفة بالغاً منتهاه ، مما اضطر الحلفاء أن يتدخلوا في الأمر . وكان من واجب الحلفاء طبعاً أن يتصلوا سرّاً بهذه العناصر جميعاً للاتفاق معها على خطط المقاومة وطرق تنفيذها . وسرعان ما بدا للحلفاء أن الهيئة الشيوعية قد أخذت تتفوق على غيرها وتسيطر على الحالة الداخلية ، فعملوا سرّاً على مساعدة الجماعات المعتدلة ، وأعلنوا في الوقت نفسه أنه يهمهم أن يتفق الجميع ضد العدو ما دامت الحرب مستعرة ، ثم ينظر بعد ذلك في تسوية الخلافات بينهم .

والهيئة الشيوعية هي التي أصبحت تعرف بجماعة إي.إم.إي. أو جهة التحرير الوطنية ، وكانت أقوى جماعات المقاومة وأدقها تنظيمياً ، إذ كان لكل شعبة رئيس من الضباط السابقين ، ومستشار سياسي بيده زمام الشعبة ، وكان غالباً من الشيوعيين .

وقد أصابت هذه الهيئة غما كبيراً منذ أن استسلمت إيطاليا في سبتمبر سنة ١٩٤٣ ، إذ وقعت أسلحتها وذخيرتها غنيمة في يد هذه الجماعة . ومن سوء حظ الملك جورج الثاني أنه وأعضاء حكومته لم يتصلوا في أثناء الاحتلال بهذه العناصر ولم يحاولوا استمالتهم إلى جانبهم ، كما أنهم لم يستنكروا نظام متكنساس الفاشي أو يبرئوا أنفسهم من أدراجه في نظر الشعب ، بل إنهم تركوا بعض أنصارهم في اليونان ينخرطون في سلك الاحتلال الأجنبي ويتعاونون مع الغاصبين . وقد نجح المحتلون في استغلال هذا الموقف ، فدقوا إسفيناً عميقاً بين طبقات الشعب المختلفة ، فصوروا أنصار المقاومة شيوعيين يعملون لصالح حكومة السوڤيت ، فكان طبيعياً أن ينحاز أعداء الشيوعية إلى جانب المحتلين الذين يقاتلون الشيوعية ، وضاع بذلك شرف الكفاح في سبيل تحرير الوطن .

ولما استفحل الخلاف بين جماعات المقاومة بعضها وبعض ، وبين هيئة إي.إم.إي.

اليونان بين الملكية والجمهورية

وحكومة المنفى حتى وصلت الحال إلى تمرد بعض القوات البحرية والحربية ضد ضباط من الملكيين ، خشى الحلفاء مغبة ذلك الانقسام ، فنظموا مؤتمرا في لبنان جمع ممثلي الهيئات المختلفة ، واتفق الجميع على تكوين جبهة متحدة وحكومة ائتلافية ، تألفت أخيرا وكان من بينها ستة وزراء من هيئة إيام . وهذه الحكومة برئاسة باباندريو هي التي تسلمت زمام الحكم في اليونان بعد ارتحال الألمان منها في سبتمبر ١٩٤٤ . وقد اتفق الرأي نهائيا على أن يستقضى الشعب في عودة الملك بعد أن كان الملك ومن ورائه الحكومة البريطانية يعارض في ذلك أشد المعارضة . وسارت الأمور في أول الأمر سيرا حسنا إلى أن قررت الحكومة تسريح جميع هيئات المقاومة . وفطن جماعة إيام أنهم المقصودون بذلك ، فعارضوا وطالبوا بأن تسرح أيضا جميع القوات التي ناصرت حكومة الملك في الداخل ومن الخارج . ثم استقال الوزراء الشيوعيون وبدأ الشعب . وسرعان ما قامت الحرب الأهلية في ديسمبر سنة ١٩٤٤ بين جماعة إيام والعناصر الحكومية الملكية ، وعادت إلى البلاد ذكريات الكفاح بين « الجبل » و « السهل » في أوائل عهد الاستقلال ، وظلت الحرب خمسة أسابيع عانى فيها اليونانيون أهوالا من القسوة والفظاعة لا عهد لهم بها ، إذ كان الجانبان مجهزين بأحدث أنواع الأسلحة والذخيرة التي تخلفت عن الحرب الأخيرة . ولو لم تتدخل الجنود البريطانية التي صاحبت الحكومة عقب خروج الألمان لمساعدتها في تأييد النظام وتوزيع الغذاء لانهت الحرب سريعا بانتصار هيئة إيام لأنها كانت الهيئة المسلحة القوية في البلاد . ولكن معاونة انجلترا كانت في الواقع كسبا لعناصر النظام والاستقرار . ولو ترك الأمر لهيئة إيام لتقوض النظام من أساسه .

ولما اشتد النكير على الحكومة الإنجليزية في البرلمان وفي الصحف لمسلكتها إزاء الثورة في اليونان ، طار إلى أثينا مستر تشرشل ومعه وزير خارجيته مستر إيدن واجتمعا وسط دوى المدافع مع ممثلي الهيئات المختلفة وقرروا إسقاط الحكومة وإقامة نائب للملك ، واختير لذلك المطران دامسكينوس ، كما تقرر استفتاء الشعب بشأن عودة الملك جورج الثاني إلى عرشه بعد ثلاث سنوات أي في سنة ١٩٤٨ . وقد دلت الانتخابات التي أجريت بعد ذلك على ميل الشعب نحو الملكية ، ووليت الأعمال حكومة والية للملكية ، ونقرت إجراء

اليونان بين الملكية والجمهورية

الاستفتاء في سبتمبر سنة ١٩٤٦ . وقد جاءت النتيجة مؤيدة لعودة الملك جورج الثاني بأغلبية بلغت نحو ٧٥ ٪ من مجموع الناخبين .

ولا تزال القوات الإنجليزية تحتل البلاد رغم الشكوى التي تقدمت بها روسيا وحلفاؤها إلى مجلس الأمن في العام الماضي ؛ فقد انتهت المناقشة بأن البريطانيين باقون في البلاد بموافقة الحكومات التي تعاقبت على الحكم بعد انتهاء الاحتلال الألماني ، وأنهم باقون إلى أن يستقر النظام في البلاد بعد إجراء الانتخابات واستفتاء الشعب بشأن عودة الملك جورج . وقد تم هذا في سبتمبر الحالي ، وسيعود الملك قريباً إلى عاصمة ملكه ، وحينئذ لا بد أن تهب القوات الإنجليزية عن البلاد .

ومع أن انتهاء الحرب الأهلية بانتصار العناصر الحكومية قد أضعف من شأن هيئة إيام وقلل من خطرها ، فإن الانشقاق القديم الذي فرق بين السهل والجبل ، وبين الحقل والمصنع ، وبين اليمين واليسار ، لا يزال باقياً ، وسيبقى ما دامت طبيعة الأرض والبشر في اليونان على حالها . ولا خطر من هذا الانشقاق إذا سارت الملكية على منهاج قوى لا تميل فيه إلى اليمين كل الميل ولا إلى اليسار دائماً ، بل تأخذ بين هذا وذاك سبيلاً . ومن الحصاد أن يجعل ملوك الدول الديمقراطية الحكم مناوبة بين اليمين واليسار مهما تباينت الأمزجة واختلفت المبادئ ، حتى لا تغطي كفة على أخرى ، وحتى لا ينزل التاج إلى درك المنافسات الحزبية .

وتواجه اليونان بعد الاحتلال الأجنبي الذي دام أكثر من ثلاث سنوات مشاكل عدة على جانب عظيم من الأهمية ؛ ففضلاً عن المسائل الاقتصادية هناك المشاكل الخاصة ب تجارتها بلغاريا وألبانيا ، وكل منهما يسير على نهج اشتراكي موافق رغبات حكومة السوفيت الروسية . والأولى تريد تحقيق حلمها القديم بإيجاد منفذ لها على بحر إيجه تطلع منه على مياه البحر الأبيض المتوسط . ولا سبيل إلى الحصول على هذا المنفذ إلا إذا نزلت لها اليونان عن أحد موانئها على بحر إيجه ، وتطمع بلغاريا في أخذ ميناء دده غاج إذا امتنعت عليها سلانيك . أما ألبانيا فتطالب بضم الجزء الجنوبي من أيرس . وجميع هذه المسائل معروضة أمام مؤتمر الصلح المنعقد الآن في قصر لكسمبورج بباريس .

وقد تقرر أخيراً إتمام الوحدة الإغريقية بضم جزر الدوديكانيز بما فيها

اليونان بين الملكية والجمهورية

جزيرة رودس ، وكانت جميعها بيد إيطاليا منذ قيام حرب طرابلس سنة ١٩١١ . وقد حاولت روسيا احتلالها جميعها أو احتلال بعض منها لانتخاذه قاعدة لها في شرق البحر الأبيض المتوسط فلم توفق . وعلى ذلك لا يبقى خارج الخطيرة اليونانية سوى جزيرة قبرص ، وهي بيد إنجلترا منذ سنة ١٨٧٨ . ولا يبعد أن تتخلى عنها بريطانيا لليونان متى توطدت أركان السلام في العالم ، واضطلع مجلس الأمن فعلا بمهام أعماله .

وهناك غير المشاكل الإقليمية الحالة الفكرية أو الإيديولوجية ؛ إذ تسود بلاد البلقان الآن موجة شيوعية قوية قد غطت وجه شبه الجزيرة ، وذلك بسبب تفوق روسيا الحربى ، ولشيوع الفقر والجهل والبطالة بين جميع الشعوب التى تسكن هذه الأرجاء . ومما له دلالة واضحة على تطور الحالة الفكرية تخلص يوغسلافيا وألبانيا وبلغاريا على التوالى من حكوماتها الملكية وإقامة النظم الجمهورية الاشتراكية بدلها . وليس فى البلقان الآن حكم ملكى إلا فى رومانيا ، وحكومتها إلى الآن موالية لروسيا . أما تركيا فهى كحليفتها اليونان تقف إلى جانب الحلفاء وتنصر المبادئ الديمقراطية ، وهى كاليونان أيضاً تخشى على استقلالها وحرّياتها من تدخل السوفيت أو توابعها .

ومركز بلاد اليونان من الوجهة الدولية شبيه تماماً بمركز تركيا ، فكلتاها تحتكم فى نقط استراتيجيّة غاية فى الأهمية بالقياس إلى شرق البحر المتوسط وسلامة أراضيه . وقد برهنت الحرب الأخيرة على أن فى الشرق الأوسط نقطة التحول بين الهزيمة والنصر ، فمن كان بيده مفاتيح هذه المنطقة تدانث له أسباب الفوز والنصر . لذلك كان هذا التنافس الشديد الذى نلاحظه الآن بين الدول الكبرى بشأن الشرق الأوسط . واليونان رأس الرمح بالنسبة إلى الجانبين المتنافسين المتراشقين . فإذا لم تجد حكومة اليونان الملكية حلاً عاجلاً لمشاكلها الاقتصادية والاجتماعية ، فإن الشيوعية ستبيض وتفرخ فى أوكارها بين كهوف الجبال ووهادها ، وهناك تستنيم فترة إلى أن تحين ساعة يعود فيها الكفاح من جديد بين السهل والجبل — بين الملكية والجمهورية .

محمد رفعت

أنظمة الحكم

ومذاهب الاجتماع

راجع الخلط في هذا العهد بين التعبيرات المتصلة بأنظمة الحكم ومذاهب الاجتماع ، بل بين تعبيرات بعض أنظمة الحكم وتعبيرات بعض أنظمتها الأخرى ، وتعبيرات بعض مذاهب الاجتماع وتعبيرات بعض مذاهبه الأخرى . ونشأ هذا الخلط حتى عم الآخذين بمبادئ المعرفة الأولى والبالغين درجة من الثقافة معدودة ، وحتى غمر البيئات البائدة في ميادين الاتجاهات الاجتماعية الحديثة والضاربة في هذه الميادين بسهم ، وسواء منها القائم في هذه الناحية الشرقية من العالم والقائم في تلك الناحية الغربية منه . بل إن ذلك الخلط الراجع إلى غير قليل من الجهل قد طغى على بعض الصيغ التشريعية التي تخص عادة بميزة الدقة في التعبير والوضوح في الأداء . فالشيوعية يرد استعمالها مرادفة « البلشفية » ، « والديمقراطية » تترادف بعض الأحيان مع « الاشتراكية » أو تتقابل ، ويتراوح وصل « الدكتاتورية » بين الشيوعية والحكم المطلق .

ووجه الخلط عندنا هو أن المستعملين لا يميزون بين أنظمة الحكم ومذاهب الاجتماع من ناحية ، ولا يحددون أنواع كل من تلك الأنظمة وهذه المذاهب من ناحية أخرى .

وأنظمة الحكم متصلة بسياسة الدولة ، ومذاهب الاجتماع متصلة بهناء الفرد في معاشه . والشأن في تحديد أنواع أنظمة الحكم راجع إلى الاختيار بين اتجاهين أساسيين اثنين : اتجاه الاستئثار ، واتجاه المساهمة . والشأن في تحديد أنواع المذاهب الاجتماعية راجع إلى الاختيار بين اتجاهين أساسيين اثنين كذلك : اتجاه الانفراد ، واتجاه المشاركة . وإذا تعددت بعد ذلك أنظمة الحكم وتعددت مذاهب الاجتماع ، فإنما يستند تعددها جميعا إلى الاقتراب قليلا أو الابتعاد قليلا عن الاتجاهين المتصلين بالحكم والاجتماع .

أنظمة الحكم ومذاهب الاجتماع

وليس في الحكم غير توزيع بين الأوتوقراطية والديموقراطية . وليس في الاجتماع غير توزيع بين الانفرادية والاشتراكية . تريد الأوتوقراطية أن تستأثر بالسلطان لوحد ، وتريد الديموقراطية أن تجعل السلطان للأمة مجتمعة . وتريد الانفرادية أن تسند نظام العيش في الجماعة إلى حرية تصرف كل فرد ، وتريد الاشتراكية أن تحقق ذلك النظام باشتراك الجماعة . وتلجأ الأوتوقراطية إلى وسيلة الطغيان والدكتاتورية ، وتلجأ الديموقراطية إلى وسيلة الشورى . ويتراوح الطغيان بين تولى الفرد « الأحاد » سلطات الدولة جميعها يرجع إليه في أمور التشريع وأمور القضاء وأمور التنفيذ ، واستعانت بهيئات « استشارية » يطلب رأيها ولا يتقيد به . وتتراوح الشورى بين الرجوع إلى أفراد الشعب عن طريق الاستفتاء ، والرجوع إلى هيئة ممثلة لإرادات هؤلاء الأفراد وهي البرلمانات والمجالس النيابية . ومن هنا قامت الحكومات الأوتوقراطية المطلقة كما كان في عهد هتلر والحكومات الأوتوقراطية المقيدة كما هو الآن في أسبانيا في عهد فرانكو . وقامت الحكومات الديموقراطية المطلقة كما هو الحال في سويسرا ، وقامت الحكومات الديموقراطية المقيدة كما هو الحال في الولايات المتحدة وإنجلترا . على أن الدكتاتورية ، وسيلة الأوتوقراطية ، لا تعنى الرجعية دائماً ، والشورى ، وسيلة الديموقراطية ، لا تعنى الحرية دائماً ، فبعض الأوتوقراطيات قد تميزت بطابع التسامح وإن ندر ، وبعض الديموقراطيات قد تنزع بها الأهواء منازع الرجعية ، اذ تهب عليها أعاصير الاستئثار وتطغى على بيئتها اعتبارات الكبت والاستبداد . وفي التاريخ القديم والتاريخ الحديث أمثلة عدة ناطقة بأن الأوتوقراطيات ليست كلها رجعية ، وبأن الديموقراطيات ليست كلها تقدمية ، بل إن غير واحدة من ديموقراطيات هذه الأيام لتميل إلى الرجعية وإلى استعمال وسيلة الطغيان والدكتاتورية لفرض اتجاهاته الراجعة إلى الوراء .

وأما مذاهب الاجتماع فيقف التقابل في مضارها بين الفردية والاشتراكية . وتستند الفردية إلى إطلاق العنان للخصوص . وتستند الاشتراكية إلى الاستمساك بأهداب العموم . تريد الفردية الملكية الخاصة ، وحرية تصرف الفرد فيما يملك كما يشاء ويهوى ، وفي تحمله تبعه تصرفه هل ينتج أو لا ينتج ، هل يعيش عيشة البذخ أو ينزل إلى حضيض الفاقة . وتريد الاشتراكية نشر

أنظمة الحكم ومذاهب الاجتماع

للعادلة الاجتماعية بين الأفراد جميعاً ، فلا تميز بين المالكين والمحرومين ، فتجعل الملكية العامة هي القاعدة ، وتفرض الإنتاج على الجميع بتهيئة الفرص للجميع ، وتسعى إلى سد حاجات الجميع .

وتتراوح الاتقراطية — تراوح الأوتوقراطية — بين الإطلاق والتقييد ، فتنتوى على الرأسمالية ، التي تقدم عنصر المال على كل عنصر سواه ، كما تذهب إلى التعاونية التي تؤلف بين عنصرى المال والعمل . وكذلك تتراوح الاشتراكية بين الإصلاحية التدرجية المستندة إلى نقابات العمال وتنظيم حركتها ، وبين الشيوعية الحاملة بالمساواة المطلقة بين الأفراد من حيث «الأخذ من كل بقدر طاقته» ، و«إعطاء كل بقدر حاجته» تتوسطهما الجماعية الآخذة من «كل بقدر طاقته» ، لكن المعطية «كلا بقدر عمله» . فكانت الاشتراكية المتولية الحكم الآن في إنجلترا هي الإصلاحية النقاوية ، وكانت الاشتراكية المتولية الحكم الآن في الاتحاد السوفيتى هي الجماعية لأنها تعطى كلا بقدر عمله ، ولم تكن هناك شيوعية متولية الحكم ؛ لأنه ليس اليوم في أية ناحية من نواحي العالم نظام يعطى أحداً «بقدر حاجته» ، وهي الخاصية التي يتميز بها المذهب الشيوعى . وليس هناك نظام يمنع الملكية الخاصة منعاً باتاً ، أو يقضى على الحاجة لاستعمال المال والنقد قضاء . وقد حاولت الثورة الروسية أن تحقق ذلك النظام الشيوعى في إطلاقه ، لكن محاولتها لم تدم أكثر من أسابيع ، تراجعت بعدها إلى النظام الجماعى واقتنعت بأن النظام الشيوعى لا يمكن أن يتحقق في ظروف البشرية الحاضرة ، وأنه ينبغى أن تنقضى أجيال وأجيال وهو في عداد المثل العليا التي تعتبر في عداد النظريات التي يحلم أصحابها بتحققها في عهد من العهود .

فإذا لم تكن هناك لذلك أنظمة شيوعية مطبقة اليوم في بلد من البلاد ، فإن في عديد منها أحزاباً شيوعية أو حركات شيوعية يحملون لواء تعاليم النظرية أو المثل الأعلى في رأيهم . ومن هذه الأحزاب ما يساهم زعماءه وأعضاؤه في أدوات الحكم في بلادهم ، فيقاسمون الجماعيين والإصلاحيين ، بل يقاسمون أحزاب الوسط بعض الأحياء . لكن الخلاف قائم بينهم وبين النوعين الآخرين من الاشتراكيين على طبيعة العلاقة بينهم وبين الاشتراكية المتولية الحكم في روسيا ، وهم متهمون بأنهم إنما يخضعون لتعاليم موسكو ، فيؤثرون اتجاهاتها على اتجاهات بلادهم القومية . وهكذا قال حزب العمال في إنجلترا عندما تقدم

أنظمة الحكم ومذاهب الاجتماع

إليه الحزب الشيوعي يطلب الاندماج فيه والانخراط في سلكه ، فرفض الطلب مسنداً رفضه إلى اعتبار الإذعان لموسكو وإيثار المصالح الروسية على المصالح البريطانية . وهكذا قال أخيراً مسيو بلوم رئيس الحزب الاشتراكي الفرنسي — وأمن على قوله المؤتمر الاشتراكي الفرنسي العام المنعقد في شهر أغسطس الماضي — إنه يأخذ على الحزب الشيوعي الفرنسي انضواءه تحت لواء موسكو ، وعدم أخذه في تسيير أموره الداخلية بالوسائل الديمقراطية .

على أن الشيوعيين يردون على الاتهام بأن نظام الدولية الشيوعية قد ألغى منذ سنوات ، فليس هناك وسيلة للتبعية لموسكو ، ويضيف الشيوعيون الفرنسيون إلى هذا الاعتبار العام اعتباراً خاصاً في دفع التهمة عن أنفسهم هو أنهم قد وقفوا أخيراً من قضية الرور موقفاً قومياً ، هو موقف التضامن مع الاشتراكيين والمسيحيين الديمقراطيين ، وهو موقف مناقض ومناهض لموقف الاتحاد السوفيتي . وروسيا تريد أن تحفظ الرور ضمن النظام الألماني ، وفرنسا تريد له نظاماً دولياً ممتازاً .

وأما البلشفية — أو البلشوية على وجه أصح — فهو تعبير لا يصح إسناده إلا إلى حالة بل إلى حادثة معينة خلال تطور الحركة الاشتراكية الروسية . ويرجع تاريخ هذه الحادثة إلى سنة ١٩٠٣ إذ عقد مؤتمر دولي للاشتراكية الديمقراطيّة مثلت فيه الأحزاب والمنظمات الاشتراكية وفود قومية ، كان بينها وفد روسي ، وأريد تمثيل هذه الوفود في لجان المؤتمر وهيئته التنفيذية . فطالب أعضاء هيئة « الاشتراكيين اليهود في روسيا » أن يعتبروا أنفسهم وحدة قائمة بذاتها تمثل على حدة في مختلف لجان المؤتمر ، فعارض سائر الأعضاء الروس هذا الاتجاه وقالوا إن الوفد ممثل للحركة الاشتراكية الروسية دون استناد إلى تشيع ديني أو اجتماعي ، فرفض اليهود وانسحبوا من المؤتمر . وكانوا هم بين الوفد الروسي أقلية فسماهم الآخرون « منشفيك » — من كلمة « منشى » ومعناها القلة — وسموا أنفسهم « بلشفيك » — من كلمة « بولشي » ومعناها الكثرة . ثم وقع حادث آخر حين أراد الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي أن ينظم نفسه ويضع لائحته ، فأريد تحديد من هو العضو في الحزب . فقالت جماعة إنه من يقبل مبادئ الحزب ، ويتعهد بدفع الاشتراك السنوي . وقالت جماعة أخرى إنه من يقبل مبادئ الحزب ، ويتعهد بدفع الاشتراك السنوي ،

أنظمة الحكم ومذاهب الاجتماع

ويقوم بمجهود في سبيل النضال الاشتراكي . وكان أصحاب الرأي الأول هم القلة ، وكان زعيم أصحاب الرأي الثاني هو لينين . فانطلقت التسمية من جديد على الأولين منشفيك وعلى جماعة لينين بولشفيك . وحبب هذا التعبير إلى لينين وأنصاره . فلما قامت الثورة في سنة ١٩١٧ وأعلن الحزب الشيوعي نعتوه بذلك النعت المحبب اليهم ، إذ أضافوه بين قوسين بعد التعبير باسم الحزب الشيوعي *Parti communiste (Bolchevik)*.

وإذن فالتعبير « بالبلشيه » لا يتصل إلا بحادث أو حادثين معينين متصلين بتطور كيان الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي من أجل مناسبتين لاعلاقة لهما بأي مبدأ من مبادئ الاشتراكية أو أي اتجاه من اتجاهات المذاهب الاجتماعية يميناً أو وسطاً أو يساراً . وإنما الخلط الذي سجلناه في أول هذا المقال هو الذي أقحمه — خطأ وجهلاً — في عداد تيارات هذه المذاهب . وبعد ، فرجاؤنا أن نكون بهذا المقال قد ألقينا شيئاً من الضوء على حقيقة ماتطوى عليه معاني تلك الألفاظ التي يسيء الناس استعمالها عندما يتحدثون عن نظم الحكم ومذاهب الاجتماع . ولعلمهم أن يعنوا بتحديد نظام الحكم على أنه متصل بسياسة الدولة ، وبتحديد مذهب الاجتماع على أنه متصل بهناء الفرد ومعاشه ، وهما ميدانان متميزان في طبيعتهما وإن وجد بينهما شيء من التفاعل ؛ لأن المذهب الاجتماعي حين ينتقل به أصحابه إلى طور التطبيق ينقلب نظاماً يحتاج إلى وسائل الدولة كي تحمقه . وإلى هذا التمييز المبدئي يرجع بخاصة اتقاء الوقوع في الخطأ ، وينتفي مايقوم بين رجال الحكم وأهل الإصلاح من سوء تفاهم .

محمد عزمي

فيضان النيل وأثره في الحضارة المصرية

قال هيرودوت في القرن الخامس قبل الميلاد إن مصر هبة النيل . ولعله كان يقصد بعبارة أدق أن تربة مصر هبة فيضان النيل . ذلك أن مصر بحياتها الزراعية وحضارتها المستقرة وتاريخها الذي لمس معالمه هيرودوت عندما زار أرضها وكتب عنها فصوله المعروفة ، لم تكن كلها مجرد هبة من هبات النهر أو هبات الطبيعة ؛ وكل ما فعله النيل أنه مهد السبيل وأعد المكان ، فجاء المصريون واستغلوا ظروف بيئتهم استغلالاً ، وأنشأوا حضارتهم في واديهم إنشاءً ؛ بل هذبوا النهر وتحكموا في جريانه حتى أصبح نهراً مصوباً مقوماً ، لا يفيض على غير هدى ، ولا يجري في غير حدود مرسومة . وكانت ظاهرة الفيضان بالذات أول ما اتجه المصريون إلى تهذيبه من تصرفات هذا النهر الذي أخرجته الطبيعة أول ما أخرجته جامحاً في تدفقه ، جارفاً في جريانه ، ثم جاء الإنسان فوجّه انصراف مياهه ، وهذب اندفاع فيضانه ، فأقام له الجسور ، وأعد له الحياض ، وحفر الترع والمصارف والقنوات ، ورد النهر بذلك كله إلى شيء من الهدوء الموزون ، والاتزان المحكم ؛ ثم أخرجته آخر الأمر نهراً رشيداً في قوته ، سديداً في اندفاعه ، قد جمع إلى قوة التيار وتدفقه انتظام المجرى وضبطه ، بل جمع إلى اندفاع الطبيعة وجوحها حكمة العقل البشري وصوابه . وهكذا جاءت حياة المصريين وحضارتهم على ضفاف هذا النهر العظيم نتيجة لتفاعل منتج بين سخاء الطبيعة وقوتها ، وبين دهاء الإنسان وحيلته وبقي ازدهار الحضارة في مصر على مر العصور صورة صادقة لتوازن هذا التفاعل بين النيل والإنسان : النيل يأتي جامحاً في كل سنة ، يسعى لأن يكسر جسوره ويطوف بجنباته ، يغرق الأرض ويأتي على كل شيء في غير نظام ؛ والإنسان يشفق من هذه الطبيعة الطاغية ، ولكنه لا ييأس من رحمتها الباقية ، فهو يرسم خطته ، ويقم الجسور ويحفر القنوات ، ويحاول دائماً أن يرد إلى الطبيعة

فيضان النيل وأثره في الحضارة المصرية

شيئاً من النظام ، وأن يقيء على النهر شيئاً من الاتساق ، حتى تمر الآزمة ويعود إلى الطبيعة والنهر هدوءها المعبود . . . ثم تتكرر القصة في كل عام : سخاء جامع صاخب من ناحية الطبيعة ، وجهاد مطّرد دائب من ناحية الإنسان ؛ لا الطبيعة تغير من شيمتها ، ولا الإنسان يقطع من أملة . . . وأغلب الظن أن الأمر سيبقى كذلك ما بقي هناك نيل يجري ويفيض ، وما بقي هناك مصريون يقيمون على ضفافه ويفلحون أراضيه .

ولكن ظاهرة الفيضان تستحق الدراسة أكثر من هذه الملاحظة العابرة ؛ وكما أنعمنا فيها النظر ازددنا تفهماً للحياة المصرية وكشفنا عن بعض أسرارها . ذلك أن المغالبة بين الطبيعة والإنسان في مصر لم تبلغ في يوم من الأيام حد المصارعة والإفناء ؛ فقد جمعت الطبيعة في مصر بين القسوة والرحمة . وقد استطاع الإنسان منذ فجر التاريخ أن يهتدى إلى ضبط النيل ، وأن يتحايل على الفيضان في صورة من الصور ؛ واستعان في جهاده بالعلم والتجربة على حد سواء ؛ وكانت الطبيعة كما سنرى بعد قليل معواناً له في جهاده ، فتحكّم فيها ، وسخرها لصالحه بعد عناء قليل أو كثير . ولعل هذا هو السر الأول في أن نتيجة المغالبة بين الطبيعة والإنسان في مصر كانت على الدوام في صالح الحياة والمدنية . وحتى في السنوات التي كان فيها الفيضان يغلب حيلة الإنسان ، فيطغى على الأرض طغياناً يفوق التقدير ، كانت الحياة تتأخر مؤقتاً ، وكانت مرافقها تعطل ولكن لتعود إلى التجدد بعد هبوط الفيضان الذي يجدد الخصب بما يعوض كل بوار ، والذي يعد أرض مصر الطيبة لتؤتي أكلها مضاعفاً في الموسم الجديد .

ومع هذا فظاهرة الفيضان ليست من البساطة بما قد تتصور ؛ ولا بد لفهمها وإدراك آثارها الظاهرة والخفية من أن ندرس النهر في مجلته . فنهري النيل يمتاز على غيره من أنهار العالم الكبرى بأمرين أساسيين ؛ أثر كل منهما في حياة سكانه تأثيراً بليغاً ، لم يزدّه الزمن إلا وضوحاً وتميزاً . وأول هذين الأمرين أن نهر النيل من أكبر أنهار العالم ؛ فهو يزيد في الطول على ستة آلاف كيلومتر ؛ وقد تضارعه في ذلك أنهار قليلة كالمسيحي أو الأمزون ، ولكن المهم أن النيل يقطع تلك المسافة كلها في اتجاه عام واحد من الجنوب إلى الشمال ، ويصل ما بين خط عرض ٣° جنوب يخط الاستواء وخط عرض ٣١° شمالاً ،

فيضان النيل وأثره في الحضارة المصرية

أى إنه يخترق أربعاً وثلاثين درجة من درجات العرض أو تزيد . وليس بين أنهار العالم إطلاقاً نهر يجمع بين مثل هذه العروض المتباعدة ؛ فالمسيحي ينبع ويصب بين عشرين درجة تقع كلها في المنطقة المعتدلة ؛ والأمزون وروافده المتباعدة تنبع وتصب بين أربع وعشرين تقع كلها في المنطقة الحارة ؛ على حين يجمع النيل بين المنطقة الاستوائية المرتفعة والجهات الاستوائية المنخفضة والمنطقة الحبشية الموسمية وسهول السودان وصحارى إفريقيا الحارة وسواحل البحر المتوسط ؛ وقد ربط هذا النهر العظيم بين تلك المناطق المتباعدة وسكانها وحضاراتهم منذ أقدم العصور ، وجعل حياة فريق منهم ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالأحوال الجغرافية السائدة في أرض فريق آخر يبعد عنه آلاف الكيلومترات ؛ فأهل مصر مثلاً إذ يتأثرون بفيضان النهر في أواخر الصيف إنما يتأثرون في الواقع بأحوال المناخ وتساقط الأمطار على جبال الحبشة ومرتفعاتها ، حيث يعيش شعب آخر ربطهم به نهر النيل ؛ وهم إذ يزرعون زراعتهم الصيفية بعد أن أدخل نظام الري الدائم إلى حقولهم إنما يتأثرون بموارد المياه الصيفية التي تأتيهم من أمطار الهضبة الاستوائية ، وينساب بها النهر من بحيرات تلك البلاد النائية ماراً بأرض السودان . فالنيل إذن نهر عظيم يقرب البعيد ويجمع أطرافه بعضها إلى بعض . ولا بد لمن يريد أن يدرس الحياة في أديانه وأن يستجلى مقوماتها من موارد الماء ومصادر التربة وتعاقب الفيضان والجفاف وغير ذلك . . . لا بد له من أن يوسع مجال دراسته بعيداً عن أرض مصر بمحدودها السياسية الضيقة .

وثانى هذين الأمرين اللذين يمتاز بهما النيل على غيره من الأنهار أنه على عظمته التاريخية ، ورغم أنه كان مهداً للحضارة هي أقدم الحضارات التاريخية ، فإنه يعتبر حديثاً جداً من حيث تكوينه الجيولوجى ، بل إنه ربما كان أحدث أنهار العالم الكبرى على الإطلاق ؛ فهو في صورته الحالية لا يمتد إلى أبعد من النصف الثانى لآخر العصر الجيولوجية (البلايستوسين) ؛ أو هو إن شئت التبسيط لا يزيد في عمره وصورته الحالية عن بضعة عشر ألف سنة ، وإن زاد عن ذلك فلن يبلغ بضع عشرات قليلة من آلاف السنين ؛ وهى فترة لا تقاس بالألحمان الجيولوجية لبعض الأنهار التى قد تبلغ مليون عام أو تزيد . ومن المعروف أن النيل قبل أن يتخذ صورته الحالية كان موجوداً ، ولكن على شكل ثلاث

مجموعات نهريّة تستقل كل منها عن المجموعتين الآخرين تمام الاستقلال . فأما المجموعة الأولى فتتمثل في النوبة ومصر حيث كان النهر يجري معتمداً على الأمطار المحلية التي تسيل بها الروافد من الصحارى المجاورة ، لا سيما الصحراء الشرقية وتلال البحر الأحمر . وفي هذه المرحلة حفر النيل مجراه في النوبة ومصر . ثم مهد ذلك المجرى وملاً قاعه وبعض جوانبه بالرواسب الرملية التي جلبتها الأمطار القديمة من تلال البحر الأحمر إبان ما يعرف بالعصر المطير ، عندما كانت صحارى مصر أقل جفافاً منها في الوقت الحاضر .

وأما المجموعة الثانية فأنهار الحبشة . وهذه يقال إنها كانت تنصرف إلى البحر الأحمر ؛ ولم تكن مياهها ولا طميتها لتتصرف إلى سهول السودان أو أرض مصر ، حتى أذن الله فانتابت هضبة الحبشة اضطرابات أرضية أدت إلى ارتفاع حافتها الشرقية والجنوبية ارتفاعاً أدى إلى انحدار سطحها نحو الشمال الغربى ، فانصرفت مياهها في ذلك الاتجاه ، أى نحو أرض الجزيرة ووسط السودان وشماله . وقد أنفقت تلك المياه فترة من الزمن في ردم سهول السودان بالغرين الحبشى ، كما حدث في أرض الجزيرة بالذات ؛ حتى إذا ما مهدت الأنهار مجاريها وملأت ما اعترضها من حياض ومنخفضات استطاعت أن تصل آخر الأمر إلى النوبة ومصر ، فجرت مياهها في مجرى النيل القديم هناك .

وكذلك الحال في منابع النيل الاستوائية ؛ فقد كانت مستقلة قائمة بذاتها ، حتى اهتزت الهضبة الاستوائية وتأثرت بنفس الحركات التي أثرت في هضبة الحبشة ، فاندفعت مياه البحيرات الاستوائية نحو حوض الجبل والغزال ، واستطاعت آخر الأمر أن تجرى في النيل الأبيض وتتحد بمياه الحبشة وتصل إلى مصر . وكان هذا إيذاناً بأن يتخذ النيل صورته الحالية .

فالنيل إذن لم يكن نهراً موحداً منذ البداية ؛ وإنما كانت منابعه الحبشية والاستوائية منفصلة عن أدانيه في النوبة ومصر . وهذه الحقيقة التي أجملناها إجمالاً قد جهد الجيولوجيون والجغرافيون في إثباتها سنين كثيرة ، ولكنها صارت الآن مقبولة بصفة عامة ، لا يجادل فيها الباحثون إلا فيما يخص التفاصيل . والواقع أننا لا نستطيع أن نتفهم كثيراً من نواحي التاريخ المصرى بعد ذلك بغير الرجوع إلى هذه الحقيقة الجيولوجية البسيطة ، وهى أن النيل في جزئه الأدنى في مصر بدأ مستقلاً ، واستطاع أن يردم قاع واديه ببطانة من الرمل

فيضان النيل وأثره في الحضارة المصرية

والحصى الذى يصرف المياه الجوفية بسهولة . ثم تلا ذلك وصول مياه الحبشة وغريتها فكسا الرمال والحصباء بطبقة جديدة من الطين الناعم الأسود الذى يكون التربة المصرية المعروفة ، والتي لا يزيد سمكها عن اثني عشر متراً أو أكثر قليلاً ، يقدر بعضهم بصفة عامة أنها إن كانت قد أرسبت في الماضي بمعدل مليمتر واحد ، فإن عمرها لا يمكن أن يزيد كثيراً عن اثني عشر ألف عام . وإلى هذه الطبقة يضيف الفيضان والنيل في الوقت الحاضر ما يمتراً واحداً في كل سنة ، يجدد به خصب الأرض ويعوضها عن بعض ما فقدته في تغذية الزرع والنبات . والشئ المهم ، والذي قد يبدو غريباً عند أول نظرة ، أن طبقة الرمل السفلية قد تكونت أيام كانت الصحارى المصرية أكثر مطراً منها الآن ، وأنه عند انتهاء العصر المطير في مصر كان من الواجب أن يجف نهر النيل ، وألا يختلف في مصيره عن بقية الأودية الجافة في صحارى مصر كوادى قنا أو وادى حوف أو غيرها من الأودية التى يسميها عربان الصحراء الآن « وادى بلا ماء » . ولكن الموقف أتخذ بوصول مياه الحبشة والمنابع الاستوائية ؛ ولولا ذلك ما استطاع النيل أن يستمر كنهر يجري بالماء ، ولا استطاع الإنسان أن يستقر في واديه . ولا أن ينشئ فيه حضارته الزراعية المستقرة التى تقوم على استنبات النبات واستئناس الحيوان . ففيضان النيل من منابعه الجديدة إذن كان مصدر الحياة الجديدة في مصر ، بسببه اتصالات ، وعاليه اعتمدت ، ومنه تغذت وأينعت ، حتى ظهرت المدنية المصرية ولاح فجر التاريخ .

ولكن حكمة الخليقة في مصر أبلغ من ذلك ، وقصة الحياة في وادى النيل الأذنى أعجب وأروع مما أجملنا . فقد ترتب على وصول مياه الفيضان الحبشى بعد انقضاء العصر المطير في مصر لا في إبانها . . . ترتب على ذلك من النتائج ما تغير له وجه التاريخ فيما بعد . فالمعروف الآن أن طبقة الرمل السفلية تصرف جانباً كبيراً من مياه النيل إبان الفيضان ؛ ففى تتشرب الماء وتغوص به إلى جوف الأرض ثم تنتهى به إلى البحر كما تنتهى المصفاة بما يصب فوقها من ماء . ولو أننا تصورنا أن مياه الحبشة وغريتها كانت قد وصلت أرض مصر إبان العصر المطير وأثناء تكون طبقة الرمل ، ما أمكن لتلك الطبقة أن تحتفظ بطبيعتها الرملية الخالصة ، بل لاحتوت بين طبقاتها بعض طبقات من الغرين الناعم الذى لا يصرف المياه كما تصرفه الرمال والحصباء ، ولترتب على ذلك أن صارت

فيضان النيل وأثره في الحضارة المصرية

الطبقات السفلى من أرض مصر غير مسامية ولا صالحة لتصريف المياه الجوفية كما تصرفها الآن . ومعنى هذا أن مياه الفيضان الحبشى الغزير والذي يعم قاع الوادى حتى يصل حافة الصحراء لا تستطيع أن تنصرف بسهولة فى جوف الأرض ، فتبقى على السطح مدة أطول مما تفعل الآن ، ويساعد ذلك على تكون المستنقعات وانتشار الماء الآسن فى جنبات الوادى ؛ وليس ذلك مما يعين على أن يصبح الوادى صالحاً للحياة الصحية والمعيشة المستقرة والزراعة النامية . بل إننا نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك ، فنقول إنه لو كانت الصلة قد تمت بين النيل الحبشى والنيل المصرى قبل الوقت الذى حدثت فيه ، لترتب على ذلك تأخير خطير فى نشأة المدنية المصرية ، ولاتخذت حياة مصر الزراعية وحضارتها التاريخية طابعاً آخر غير الذى اتخذته ، ولكانت أهوال الفيضان الحبشى وأخطاره أعظم كثيراً مما حدث أو يحدث الآن بالفعل ، ولما استطاعت تربية مصر أن تتخلص مما يخلفه ذلك الفيضان السنوى من مستنقعات ومياه راكدة وغير ذلك . . . فكأن يد الله إذ فرقت أول الأمر بين طرفى النيل فى مصر والحبشة ، وأخرت اتصال هذين الطرفين قد قدمت بذلك نشأة المدنية ، ومكنت لأبناء النيل فى العهود اللاحقة من أن يغالبوا الطبيعة وأن ينشئوا مدنياتهم الزراعية فى أنسب الظروف . . . ولعلنا إنما نتحدث بنعمة الله ونكشف عن إبداع الخليفة إذ نسجل أننا لا نزال نعيش فى بركة هذا التتابع المتسق فى أطوار الخلق الجيولوجى ، وأن قصة تطور نهر النيل لا تقل جمالاً وإبداعاً من هذه الناحية عن قصة تطور غيره من مخلوقات الجماد والحيوان !

ومع ذلك ففيضان النيل أعقد مما رسمناه . والنيل يمتاز على غيره من الأنهار فى أن له منبعين يفيض كل منهما على طريقته الخاصة . فالمنبع الاستوائى يجرى بالمياه جرياناً مطرداً ، وتصل مياهه إلى مصر فى انتظام عجيب ، وعليه تعتمد الزراعات الصيفية فى الوقت الحاضر إلى حد كبير ، بل لولاه لجف مجرى النيل فى مصر خلال جزء من العام ، ولتعذر بذلك استخدام النهر كشريان للمواصلات فى غير أيام الفيضان الحبشى . . . والواقع أن جريان المياه من المنبع الاستوائى يعتبر نوعاً من الفيضان له أهميته الخاصة فى حياة مصر فى العصور القديمة والعصر الحديث ؛ فهو الذى مكّن للحياة من أن تستمر فى مصر يانعة فى أيام القيظ والتحاريق ، وهو الذى مكّن للمواصلات من أن تجرى بين الدلتا

فيضان النيل وأثره في الحضارة المصرية

والصعيد والنوبة عن طريق مجرى النهر وبانتظام طوال العام ، وعليه يعتمد التوسع الزراعى الصينى فى مصر الحديثة ، وستبقى له أهميته الخاصة فى مشروعات الرى فى قابل الأيام .

فأما الفيضان الآخر فذلك الذى يأتى من الحبشة . وهو يختلف عن الفيضان الاستوائى اختلافاً ظاهراً ، ولكنه فى الحقيقة يكمله ويتممه . فالحبشة تعطينا الماء الغزير الذى يعادل سبعة أثمان ماء النيل كله أو يزيد ، وهى تعطينا الغرين الذى هو أصل نعمة التربة وسر غنى مصر ومجدد خصب هذه الأرض الطيبة التى ظلت الزمن فغلبته ، واحتفظت بقوتها وإنتاجها على مر السنين وتعاقب القرون . والحبشة فوق ذلك تعطينا هذا الماء والغرين فى أنسب الفصول ، خفيضانها يبلغنا فى أواخر الصيف بعد أن يكون القيظ المبكر وشمس الصيف المرتفعة قد جففت تربة مصر وشققت سطحها ، وأماتت ما ينمو عليها من أعشاب وحشائش تمتص خيرها ولا تفيد شيئاً ، وتقتها من الحشرات والآفات إلى حد بعيد ؛ وبذلك يصل الفيضان فى وقت مناسب ، فيكسو الأرض بطبقة جديدة من الغرين تغذى التربة وتعددها لفصل الإنبات الجديد فى الخريف . والطريف أن هذا الفيضان ينحسر عن الأرض فى أكتوبر ونوفمبر ، أى فى أنسب الأوقات لزراعة محاصيل الشتاء ، وهى القمح والشعير وبعض البقول والأفوال ، تلك النباتات التى تنمو وتجد بطبيعتها فى هذا القسم من العالم القديم . وبعد أن تثبتت تلك المحاصيل الشتوية فيما انجذب عنه النهر من جنبات قد غذاها ماؤه وطيب ثراها غرينه ، تاتى أمطار الشتاء المصرية فتتهدد النبات بالغيث والإرواء ، حتى يحين الحصاد فى أواخر الربيع ، فتجدد الدورة من جديد . ونستطيع أن نتصور ما كان يحدث لو أن فيضان الحبشة وصل فى أوائل الصيف مثلاً وانجذب عن الأرض فى منتصف الصيف أو أواخره ؛ إذن لكان الصيف كله فصل حرارة رطبة لا تستقيم معها صحة ولا ينبعث معها نشاط . . . بل إذن لما جاء فى أعقاب الفيضان فصل معتدل ممطر يكمل عمل الفيضان ويتم نعمته على الزرع والضرع جميعاً . ونستطيع كذلك أن نتصور ما كان يحدث لو أن ذلك الفيضان الحبشى جاء شتوياً أو ربيعياً كما هى الحال فى فيضان بعض الأنهار الأخرى كدجلة والفرات ، وهما كثيراً ما يفيضان على جانبيهما نتيجة قدوبان الثلوج فوق جبال إيران وكردستان فى الربيع ؛ إذن لداهمت مياه الفيضان

فيضان النيل وآثره في الحضارة المصرية

حقول مصر المحصورة بين هضبتين وهي مكسوة بالزرع والنبات قبل موسم الحصاد، ولتكررت في مصر تلك المأساة التي تكرر حدوثها في تاريخ العراق الأدنى من انقلاب الفيضان إلى طوفان يغرق كل شيء، مع فارق واضح بين مصر والعراق وهو أن وادي مصر ضيق محصور يسهل على المياه اكتساحه اكتساحاً منظماً من حافة الهضبة إلى حافة الهضبة*. بل إننا نستطيع أن نتصور ما كان يحدث لو أن فيضان الحبشة لم يختلف عن فيضان الهضبة الاستوائية، فجاء مطرداً طوال العام؛ إذن لكان فيضاناً متوسطاً معتدلاً، ولما بلغ أطراف الوادي، بل ولا زمر من الأرض إلا مساحة ضئيلة محدودة يضيق فيها مجال الحياة أمام المصريين، ولاتيسر أسباب الإرواء لاسيما في العصور الغابرة وقبل أن تتقدم وسائل الري الحديثة... وهكذا نستطيع أن نتصور احتمالات كثيرة مختلفة يتغير معها وجه التاريخ بسبب تغير أحوال الفيضان... وربما كان ختام هذه الاحتمالات وأبعدها أثراً أن الفيضان الحبشي لو لم يكن في صورته المعروفة لفقدت الحياة المصرية مقوماً من مقوماتها الأولى، ولفقد المجتمع دافعاً من دوافع الوحدة الأساسية فيه؛ ذلك أن الفيضان كان يمثل مصدر خطر مشترك ومصدر فائدة مشتركة بالنسبة للمصريين الذين اضطروا عندما انحدروا من حافة الصحراء ليعمروا قاع الوادي إلى أن يقيموا كومات كبيرة من التراب لينبوا قراهم على قممها فوق مستوى الفيضان. وهذا في حد ذاته عمل ضخم استلزم جهداً كبيراً وتعاوناً منظماً بين أفراد المجتمع القروي. وقد علم خطر الفيضان سكان القرية أن يعيشوا متكاتفين متعاونين؛ إذ لم يكن في استطاعة كل فرد أو أسرة أن تقيم تلاً مستقلاً من التراب تبني فوقه بيتها، بل كانت الضرورة تقضي بأن تتضافر الجهود، فكلما كان التل كبيراً كان ذلك أدعى إلى الاعتصام والأمان. وكذلك تضافرت جهود المجتمع في إقامة الجسور وحراستها أيام الخطر؛ إذ ليس ينفع في ساعة الخطر أن يحاول كل فرد أن ينجو بنفسه، فنحن في مصر (لا سيما في الدلتا) نعيش في أرض منبسطة، ليس فيها من الجبال ما قد يعتصم به الأفراد؛ والخطر في مصر لا بد أن يواجَه، ولا سبيل إلى الفرار من وجهه. لذلك وجد المجتمع نفسه مضطراً منذ بداءة

* حدث الطوفان المعروف قد ثبت الآن وقوعه في أرض العراق بأدلة أثرية لا تكاد تقبل الجدل. ولعلنا أن نود إليه يوماً في مقال ما.

فيضان النيل وآثره في الحضارة المصرية

الاستقرار والحياة في أرض مصر إلى أن يتعاون أفرادها وتتضافر جهودهم . وكان الفيضان الموسمي في ذلك كله الباعث الأول لروح الوحدة بين أفراد المجتمع . ومع ذلك لم يكن هذا الفيضان مصدر خطر فحسب ، وإنما كان كذلك مصدر خير وبركة ... ولكن النفع لا يتحقق إلا بمجهود مشترك ، بل إجماعي ، يتعدى جهد الفرد إلى جهد الجماعة . فماء الفيضان ، إن ترك وشأنه ، يطغى على الأرض في غير نظام ، وقد يجرف التربة وينقلها تبعاً لتغيرات مجرى النهر ومسالك تياراته من عام لعام . أما إذا أريد ضبط النهر وضمان تغذية الأرض وتوزيع الغرين عليها بانتظام ، بحيث يشمل أكبر مساحة ممكنة ، فإن من الواجب أن تتضافر الجهود في إقامة الجسور والحواجز التي تحدد الحياض ، والترع والقنوات التي تأخذ الماء إليها من النهر حاملاً الغرين ثم تصرفه عنها بعد أن يكون قد أرسب ما فيه من غرين وخير . وهذا العمل هندسي يحتاج إلى جهد كبير وتنظيم لا حده ، ولا طاقة به لفرد أو مجموعة صغيرة من الأفراد ، وإنما ينبغي أن يتعاون أهل الإقليم جميعاً ، بل أهل القطر جميعاً في النهاية ، لتنظيم جريان النهر ، وتقسيم الوادي ودلتاه إلى أحواض ، وإجراء الماء والغرين وتوزيعهما بين الناس بالعدل والقسطاس . وهكذا قضت المنفعة المشتركة أيضاً والصالح العام بأن تتضافر جهود المجتمع وتنظم في سبيل الاستفادة من مياه الفيضان ، التي جمعت بين الناس في حالتها الخطر والنعمة ، وفي الضراء وفي السراء على حد سواء .

والحق أننا نستطيع أن نستطرد إلى نواح أخرى كثيرة من دراسة هذا الفيضان وآثاره الظاهرة والخفية في حياة المصريين وحضارتهم التاريخية ؛ ولكن ما عرضنا له يكفي لأن يبرز كيف أن الإنسان كان منذ البداية على اتصال وثيق بالطبيعة التي يعيش في كنفها والنهر الذي يتغذى منه ويحيا في حماه ، وكيف أن ظاهرة الفيضان بنوع خاص لعبت دوراً أساسياً في حياة النهر من جهة وحياة السكان من جهة أخرى ؛ وهي من أجل ذلك تستحق أن يلتفت إليها وأن يتناولها أبناء مصر بالبحث والتحليل ؛ ويكفي أنها طاشت الحضارة في مصر أو عاصرتها الحضارة ، وامتدت معها سنة سنة وعاماً عامماً ، خلال قرون قد تبلغ الستين أو السبعين ، كانت في كل سنة منها تجدد الحياة والخصب في الطبيعة ، وتبعث الوحدة والتضامن وروح الهمة والنظام بين جموع المصريين ؛

فيضان النيل وآثره في الحضارة المصرية

وهي وإن تسببت في بعض الأضرار ، وإن صاحبها بعض الخوف في بعض السنين ، فإنها مع ذلك لم تطع على الحياة ، ولم تقطع جبل الاستقرار والمدنية المستقرة في وادي النيل على مر العصور . ولكن الشيء الذي يخشى منه والذي ينبغي أن يلتفت إليه ، أن يكون الزمن قد سبقنا شيئاً ما خلال هذا القرن الأخير ، وأن تكون الظروف قد تغيرت من حولنا ، ولم نشعر بما ترتب على تغيرها من انقلاب في صلات السكان بالنهر ، وفي استجاباتهم لدوافع الخطر المشترك والنفع المشترك اللذين يترتبان على ظاهرة الفيضان . فقد بقيت مصر إلى مائة وعشرين سنة خلت ، وهي تعتمد على رى الحياض ، وتدع النهر يفيض على جانبيه في شيء من الحرية المنظمة ليغمر هذه الحياض ويبلغ حافة الصحراء . وكانت الأراضي جافة في معظم أشهر السنة ، مما يزيد من قدرتها على تحمل طغيان الماء وتصريف كميات هائلة منه في جوف الأرض . أما منذ عهد محمد علي فقد أخذنا بأسباب الرى الدائم ، وأدخل هذا عاملاً جديداً له خطره البالغ في حياة الريف المصري . فالحياض أخذت تتلاشى وتختفى رويداً رويداً ، والمجال ضاق أمام مياه الفيضان ، ولم يكن بدءاً من أن تجرى تلك المياه بين حواجز النهر وشواطئه ، حتى تبلغ البحر في ارتفاع شديد سريع ، وتحت حراسة لا تغفل بالليل ولا بالنهار . والحقول ذاتها قد أشبعت بالرى طول العام ، وارتفع مستوى المياه الجوفية في باطنها ، ولم تبق لها تلك القدرة القديمة على استيعاب مياه الفيضان عندما يرتفع بها مجرى النهر في أواخر الصيف وأوائل الخريف . لذلك كله أخذ خطر الفيضان يزداد في العهد الحديث ، واتخذ صورة جديدة مخيفة حقاً ، لأنها تختلف عن تلك الصورة القديمة التي ألفها المصريون وألفتها حياتهم المصرية خلال قرون وقرون . وزاد من شدة الخطر في العهد الحديث أن القرى لم تعد تبنى في عهدنا الحديث فوق كومات من التراب كما كانت الحال أيام رى الحياض ، وإنما تركت تلالها تتلاشى وسط الحقول ، وأزيل بعضها لتسديد الزراعات ، وبنيت أطرافها الحديثة وما يحيط بها من عزب وملحقات في مستوى الأرض الزراعية ، مما يجعلها عرضة للغرق في حالة انكسار الجسور .

وهكذا تغيرت الصورة في عهدنا الحديث ، وأصبح للفيضان خطره البالغ . ولئن كان أجدادنا الأسلفون قد تحايّلوا على الفيضان وغلبوه لآلة الطبيعة

فيضان النيل وآثره في الحضارة المصرية

كانت في جانبهم ، فإتنا الآن لعيش في خطر حقيقي . وقد ضيق علينا مجال الحياة أننا أخذنا بنظام الري الدائم وحوّلنا الحياض إلى حقول ترويهما الترع والقنوات وتكسوها الزراعات في فصل الفيضان فلا يمكن أن نغمرها بالماء الزائد . كما زاد الخطر من حولنا أن قرانا أصبحت تقام في مستوى الأرض الزراعية بدلاً من الكومات القديمة المرتفعة ، بل أصبح بعضها يقام ويمتد على ضفاف النهر وجسور الترع بعد أن كان كثير من القرى في الصعيد مثلاً يقام عند حافة الصحراء . كذلك طرقنا الزراعية وغيرها لم تعد ترفع فوق جسور عالية بعد أن كانت قديماً تسير فوق جسور الحياض . وهكذا أصبح كثير من مرافق الحياة في مصر الحديثة في متناول الخطر إن حدث ، لا قدر الله ، وتضدعت الجسور أو زاد الرشح . بل إن هناك خطراً آخر جديداً يمس حياتنا في الصميم ؛ فقد ترتب على تشبع الأرض بالرطوبة وارتفاع مستوى المياه الجوفية بسبب الري الدائم ، أن أصبحت أرض مصر أكثر حساسية بالنسبة للرشح أيام الفيضان ، لا سيما في سنواته العالية ؛ وبذلك ازداد انتشار المستنقعات والمساحات التي تكسوها مياه الرشح ؛ مما ينشر الأمراض ويضر بالصحة العامة من جهة ، ويضعف المزروعات ويقلل من غلة الفدان ويهبط بالمستوى العام للإنتاج القومي من جهة أخرى . وإذا نحن تركنا الحال تسير على ما هي عليه فإن الخطر سيتفاقم وآثره يمتد ويتشعب باستمرار . ولن ينقذنا من هذا الخطر الذي نحن مسوقون إليه سواً إلا أن نبحث عن بعض نواحي الطبيعة وأساليبها فنغالب بها الفيضان على نحو ما درج عليه أسلافنا . فليس ينفعنا ولا يجدينا أن ننتظر البلاء حتى يقع ، ولا أن ننتظر ارتفاع النهر ، فهبّ إلى الجسور نحرّمها وتقويه ؛ فالفيضان يأخذنا بالضرر والإضرار عن طريق الرشح ، ولو لم تغمرنا مياهه . والواجب أن نسير فيما نحن بسبيله من دراسة مشروعات اتقائه والوقاية منه ؛ تلك المشروعات التي تقضى بالتخلص من بعض المياه الزائدة في منخفضات الصحراء المجاورة ، وأهمها منخفض وادي الريان في جنوب الفيوم ؛ أو التي تقضى ببناء بعض الحواجز وخزن المياه الزائدة في بعض جهات مجرى النهر حيث لا تقوم زراعة كما هي الحال عند شلالات النوبة العليا في شمال السودان ؛ أو غير ذلك من المشروعات التي يصح أن تهدينا إليها دراسات المهندسين .

فيضان النيل وأثره في الحضارة المصرية

وبعد، فإن حديث الفيضان وأثره في تاريخنا وحضارتنا وخطره في مستقبلنا حديث يمكن أن يتشعب ويطول، وأن يتعدى الباحثين إلى إثارة اهتمام المواطنين جميعاً. فقصه هذا الفيضان جزء لا يتجزأ من قصة الحياة والمدنية في مصر. ولقد استطاع أسلافنا الأقدمون، الذين أنشأوا الحضارة والمدنية الزراعية المستقرة على ضفاف النيل، أن يتنبهوا للخطر فعالبوه حتى غلبوه، ثم حوثلوه عن أصله ووجهه وجهة الخير والمنفعة، بل وجهة الحق والجمال. ولكن الطريف في هذا الجهاد أن الإنسان استجاب للطبيعة كما استجابت الطبيعة للإنسان؛ فكما غلب الإنسان النهر فضبطه وهذبته، وقوته وصوبته، وأقام له الجسور والحياض والحدود، فإنه عاد فاستجاب فيما بينه وبين نفسه لنوازع الطبيعة ودوافعها، فقدس النهر واحتفل بفيضانه، وقدم القرابين لهذا الفيض الزاخر، يستهويه تارة، ويستهديه تارة أخرى؛ وسارت الطبيعة والإنسان كما يسير حفل الخليقة في اتساقه البديع؛ وشاءت حكمة الله بذلك كله أن تجعل من مصر كنانة الله في أرضه، وأن تخرج من أبناء النيل أعرق أمة عرفها التاريخ. وإذا كانت معجزات الاستجابة المتبادلة بين الطبيعة والإنسان قد حدثت في الماضي، فما أحرأها أن تتكرر في المستقبل، وإن في صور وأوضاع جديدة. ونحن في مصر أمة تمتد فيها ذكريات الماضي لتتصل بآمال المستقبل؛ بل نحن في مصر أمة شديدة الحساسية قوية الاستجابة، قد حذقنا منذ القدم أن نقف في وجه الخطر، وألا نجفل منه، وأن تغالب الطبيعة حتى تستحيل شدتها رضاء، وحتى تستحيل ثورتها رضا ورحمة. وإذا كان فيضان النيل في الماضي قد استحال بشيء من تفتق الحيلة من بلاء لا دافع له إلى عطاء لا حد له، فما أحرأه في المستقبل أن ينقلب، بشيء من الدراسة والتدبر والحذر وبعد النظر، ثم بشيء من التوضيحية والإيقاق... ما أحرأه أن ينقلب من خطر زهبه ونخشاه، إلى خير نرمقه ونرجوه. وعندئذ يتم الله نعمته على مصر، ويبدل أهلها من عسرهم يسراً، ومن خوفهم أمناً وسلاماً.

سليمانه هنيى

حديث آمنة

كنا على شاطئ البحر يعلو حديثنا أمواجه حيناً ويثيح السكوت لصوت الأمواج أن تملأ آذاننا حيناً آخر ، حتى مرّت بنا آمنة . رشيقة القوام مشرقة الوجه باسمحة الشجر ، يزيد لها جمالا بساطة ما تلبس وحسن اختيار ما تترين به : وإذا صديقتي تقول ، هذه آمنة . فنظرنا إليها جميعاً وابتسمنا تحية لها ، فابتسمت وسارت في طريقها . ولكن صورتها لم تغادر عيوننا ؛ فقد انبرت صديقتي تسألني : ما رأيك في آمنة تلك ؟ قلت إنها طيبة على أساس من الخلق متين فيما سمعت . قالت إنما اسأل عن شكلها . قلت إنها جميلة أو تكاد تكون ؛ إني لم أرها إلا مرّات قليلة ، وأكثر ما رأيته عابرة كما عبرت بنا الآن ؛ ولكنك أنت صديقتها وزميلتها ورأيك فيها أصدق من رأيي . قالت : إني لأراها جميلة جداً ، ولكن كانت منّا من تراها قبيحة . كم أثارت في نفوس زميلاتنا الحسد وهي لا تدري أنها تثير في نفس أحد شيئاً . كان لها عالمها تسبح فيه ، ونحن من حولها نظن أنها معنا ونحار في أمرها ، فلا هي تغضب أحداً ، ولا هي ترضى عن أحد . كنا نراها باردة جامدة متكبرة ؛ فنّا من احتملتها ولم يغير هذا من نظرتها إليها ؛ ومنّا ، وهذه كانت كثرتنا ، من أبغضتها وتفتست عن بغضها وحسدها بالخط من شأن جمالها بل بمهاجتها أحياناً . ولكنها كانت كالنجم عالية لا تحس بهذا الصخب الذي يتصاعد من سكان الأرض . كم ظلمناك يا آمنة ! كنا نلن هذا كبراً منك وزهواً بجمالك واعتزازاً بملك ؛ فقد كنت أيسر منّا حالاً وأسعد حظاً . ولكن حسدنا إياك كان أجدر أن يكون شفقة بك . فمن العسير أن تحرم المرأة مالاً وجمالاً ، ولكن الأعرس منه أن تمنحهما فلا يتيسر لها أن تنعم بهما . لقد صرفت حياة آمنة بين مالها وجمالها صرفاً ، وإذا هي تشقى ولا تعرف لنفسها من الشقاء مخاصاً .

حديث آمنة

ثم سكنت صديقتي وعلا صوت الأمواج صوتها وتنبهنا جميعا من غفوة الانصات إليها . ولكنى لم أطق أن أسمع من حديث آمنة هذا القدر دون أن أعرف ما أوحاه . فقلت : ومن أين يأتى الشقاء تلك المخلوقة الهادئة الجميلة ؟ قالت : من قلبها ، وإنه لقلب كبير عظيم له جلال مظهرها وجماله وعذوبة حديثها وحلاوته . ثم سكنت الصديقة هنية كأنما تحاول أن تستعيد الذكريات ، واندفعت فى كلامها بعد حين لم تنتظر سؤالا ولا استفسارا ، ولكنها ، كعادتنا فى سرد مالا يعرف من الأخبار ، استحلقتنا ألا ننقل إلى أحد مما سمعنا شيئا ، فاكذبا لها ذلك ، فقالت :

كان ذلك فى يوم صاف مشرق دافئ من أيام أبريل ، يوم لن أنساه ؛ فقد هز مشاعرى أكثر من أى يوم من أيام حياتى ، وكنا فيه فى المدرسة وقد دق جرس انتهاء الدرس . فاندفعنا نحن المعلمات إلى غرفتنا وكأنما قد أقمنا إقفاذا . وإذا آمنة تدخل علينا متأخرة كعادتها ؛ فقد كانت تحب تلميذاتها ويحببنها حبا عجيبا ، فاستطاعت بهذا الحب أن تقهر ملال الدرس وسخافة التلميذات المشاكسات . ولكنها ما كادت تستقر فى كرسيها حتى دخلت علينا تلميذتنا هدى ، وهى صبية فى الخامسة عشرة من عمرها ، كثيرة الاجتهاد ، شاذة الذكاء تكاد تكون قبيحة لولا بريق من الذكاء يلمع فى عينيها الكبيرتين ، وابتسامة مشرقة تشع فى وجهها أبدا . وكنا جميعا نحب هدى هه ؛ لأنها كانت رقيقة الإحساس ، مهذبة الطباع ، ذكية الفؤاد ، تدل تصرفاتها جميعا على أنها من أصل طيب يمتاز بالرقى أكثر مما يمتاز بالمال .

واقتربت هدى من آمنة وقالت : إني آسفة على ما قد بدر منى فسامحينى . فنظرت إليها آمنة مضطربة تكاد تدمع عيناها ، وقالت فى شئ من الجفاء لم نعهد فيها : لقد ساحتك . ولكن هدى انفجرت فى البكاء وهى تقول : أنت آخر من كنت أريد أن أغضبها منى . فقامت آمنة تهدي من روعها وتجهف دمعها وهى تقول لها : لم أغضب منك . عودى إلى صاحبائك يا هدى والعبي معهن بدل أن تضيعى وقت راحتك فى تلك الغرفة الثقيلة . إني لست غاضبة . إني أحبك يا هدى فعودى . وكأنما كانت تريد آمنة أن تخلص منها فى سرعة ، ولكن هدى تعلقت بها وهى تمجش بالبكاء قائلة فى صرخة شاذة : وأنا أحبك ، أخيك أكثر من أمى . ليتك كنت أمى . نعم ! ليتك كنت أمى ! ولم تكذ آمنة

حديث آمنة

تسمع هذا حتى سقطت على كرسيها ، وأخذت إحدانا هدى من يدها وأخرجتها إلى الحديقة . والتفت أنا إلى آمنة فقد كنت لها الصديقة الوحيدة إذ ذاك فإذا يدها كالثأج وعيناها غائرتان من الإعياء . نفشيت أن يكون قد أصابها شيء ، فضغطت على يدها وقلت لها : مالك يا آمنة ؟ قالت : لا شيء لا شيء . ودق الجرس واندفعنا إلى حجر الدرس ، ولكن آمنة اعتذرت إلى الناظرة ومادت إلى منزلها متعبة .

ولما عدتها في هذا المساء وجدتها تذرع غرفتها ذهاباً وإياباً في اضطراب عنيف . وجلست إليها أهدئها وأستحضرها على الكلام ، ففي البوح بما تكتم شفاؤها ، فقضت على قصتها :

كان ذلك منذ أعوام كثيرة مضت وآمنة تستقبل الحياة في طهارة الفتاة الطيبة واستبشارها . قالت : ولم أكن أرى في هذا المستقبل البعيد شيئاً . لم أكن أحلم بالأمومة ولا بالزوجية ، كلا ولا بالحب . كان مستقبلي البعيد غدى وما سأعمل فيه مع صديقتي في المدرسة . لست أدري لماذا ظلت إلى هذه السن المتأخرة ، فقد كنت في العشرين تقريباً لا تداعبني أحلام تداعب كل فتاة قبل هذه السن بأعوام . لعل تربيتي كان لها أكبر الأثر في ذلك ، فأنت أعلم بأسرتي وأحوالها . وكانت أختي الصغيرة هي سلوتي . أحبها كما كنت أحب دميتي . ولكن العجيب أنني لم أتمن أن تكون لي بنت في جالها . ولو قد تمنيت ذلك وأحسسته لربما أنقذت مما قد وقعت فيه . لست أعرف كيف أبدأ حديثي إليك ، ولكنني أظن أنه قد بدأ عندما مرضت أختي الصغيرة مرضها الأخير ، فعادها الطبيب وفي صحبته عمي سعيد كما كنت أدعوه ؛ فقد ألفت أن أراه في بيتنا منذ كنت طفلة . كان صديق أبي وشريكه في تجارته وزوج ابنة عمه التي كانت تزورنا قليلاً ؛ لأن أمي لم تكن تألفها ولا تحبها . وكان بغض أمي لها لا يفسر بما كان يشاع من أن أبي كان سيتزوجها ليس غير ، ولكن لشراسة تلك السيدة وقسوة قلبها أكبر الأثر في نفور الناس منها . وكانت تزورنا وكأنها مضطرة إلى تلك الزيارة ؛ لأن زوجها كان يحب أبي حباً جماً ، وكان يحب أن يجلس إليه ليتحدثا في شؤون تجارتهم أحاديث طويلة . وكان عمي ، كما تعودت أن أدعوه ، أكثر من أبي علماً وأقل مالا . ولعل في قول أبي إنه شريكه كثيراً جداً من التجاوز ؛ فلقد كان في الواقع يساهم في تجارة أبي بمقدار

حديث آمنة

ضئيل ، ولكنه كان يقدم لهذه التجارة في إخلاص كل ما كانت تحتاج إليه من خبرته القانونية ومعرفته العامة بالدنيا والناس . فلقد كان مثقفا ثقافة ممتازة . عاش في أوروبا أعواماً وزار أكثر بلادها ، ودرس عن كثب أسواقها التجارية ، كأنما كان يميل بفطرته إلى التجارة فلم يسعفه رأس المال . فلما اتصل بأبي صلة النسب والصدقة التي مهدت لهذا النسب وجد عنده ما كان ينقصه فتمت ثروة أبي على يديه ثناء عظيماً ، وأصبح عنده هو من رأس المال ما لم يكن يطمع في أن تيسره له خبرته العلمية وحدها .

ولكن مالى أطيل عليك في هذا ! لقد كان كل منهما مكلاً لصاحبه في الحياة العملية ، وكذلك كانا في حياتهما الروحية فيما كنت أحس . وثقل المرض على أختي في أيامها الأخيرة فكانت زيارته لنا يومية ثم عجزت أمي عن العناية بالمریضة الصغيرة إذ مرضت خوفاً وقلقاً ، ولم يكن بد من أن أمرض أنا الاثنين . أتذكرين تعيبي عن الدراسة إذ ذاك شهراً كاملاً ؟ ثم ماتت أختي و طال مرض أمي وشقاؤها ، ولكنها شفيت لتعيش كما ترينها الآن حزينة والهة على تلك الصغيرة الجميلة . فلم يبق لها بعدها إلا أنا ، وأنا كما ترين لا أملاً فراغ قاب أو بيت . ألفت عمي وأحببته حباً بدأ أبويا وانتهى عنيفا . ولعله هو الذي أيقظ في هذا الشعور النائم الحالم بالحياة والحب . فمنه سمعت أولى كلمات الإعجاب الملتبها بالعاطفة الصادقة . ولكنه كان يقاوم هذا الحب مقاومة عنيفة لا من أجل زوجه ولا من أجل هدى ، فهدى تلك ابنته ، ولكن من أجل أنا . كان يقول لي إن الفرق بيننا في العمر أكثر من ربع قرن ، فإن أسعده هذا الحب مدني الحياة فلن يسعدني أنا إلا أعواماً قصيرة . وكنت أنفي عنه هذه الفكرة . ولكني لم أكن أفكر يوماً في أن أكون له زوجة . كان حبه لي حباً أفلاطونياً كما يقولون . يعبدني كما يعبد الوثنيون أصنامهم ولا يكاد يلمسني كما ينحشون هم لمس ما يعبدون . وعشت في هذا النعيم طاماً ، لا أفكر إلا في متى ألقى عمي سعيداً ومتى أخلو إليه لنتحدث فيما كان يجيده من فنون الحديث . والعجيب أنه لم يكن ليشير إلى زوجه ولم أكن لأشير إليها أنا أيضاً ، كأننا كنا لا نريد أن نذكر صفواً أحلامنا بالواقع المرير . وفجأة عرض علي في يوم من الأيام أن أتزوجه ، فبهت لهذا العرض . وكنت أسمع طوال هذا العام أنه بكاره لعيشه مع زوجه ، ولكني كنت قد ألفت هذه الأخبار لأنه لم يهنا في

عاشه معها يوماً . ولكن حبه لهدى كان مضرب الأمثال ، وكنت أعلل بقاءه مع زوجه واحتماله أخلاقها بحبه لهدى . فماذا حدث ؟ قلت له إني لا أريد . قال فكرى فى الأمر ، وتركنى . وفكرت فوجدته مستحيلاً . كيف أحرم طفلة كهذه من أمها مهما تكن ، وقالت له : إن آخر رأيى كأوله لن أحرم هدى من أمها . قال : إني أحبها أكثر منك وأنا أدري بصالحها . بقولى إنك لا تريدنى أنا . قلت : هو هذا ؛ ولن أحرم هدى من أمها . وكان هذا آخر ما كان بيننا . وظل عمى سعيد يدخل بيت أبى فلا أتحاشاه ولا أتعمد لقائه . وفترت حرارة الحب لولا جهرات صغيرة تحت الرماد ، بل لقد مرت بي فترات كنت أنظر إليه ، فأعجب مما كان بيننا من عاطفة حارة . حتى فضت الشركة بينه وبين أبى ، ورحل هو إلى أوروبا لأعمال تجارية قد تنقذ ثروته من الضياع . فحزنت لفراقه ، ولكنى فى الوقت نفسه ارتحت إذ ظننت أنه قد أسدل الستار على كل ما كان بيننا . ولكن أخباره عادت تملأ البيت من جديد . واستقل بتجارته ، ولم ير أبى لذلك سبباً ، ولكنى كنت على يقين منه . وافترقا صديقين . وعاد لتجارة أبى رواجها فى هذه الحرب ، حتى إن ثروته لم تنقذ فحسب وإنما تضاعفت ، ولولا وفاته منذ أعوام لأصبحنا من أغنياء الحرب .

وفى هذه الأثناء كبرت هدى وجاءتني تهنيئة منذ العام الماضى . فأيقظ مظهرها هذا الحب القديم من مدفنه ، وبدأت أفكر فى عمى سعيد من جديد ترى ما أحواله . قالت لى أمى مرة كأنما تروى خبراً عابراً : إن هدى بنت فلانة عندك فى المدرسة ؟ قلت نعم . قالت : كيف هى ؟ قلت : ذكية طيبة . قالت : ما أشقاها ! قلت : لماذا ؟ قالت : بأمها . قلت : ولكن لها أبا تحسد على حبه لها . قالت : إنه أفلس . فخرجت من الغرفة حتى لا يلاحظ على أحد شيئاً . ترى لماذا أفلس ؟ وهل كنت أنا عاملاً فى هذا ؟ فلقد كنت السبب ولا شك فى استقلاله عن أبى ، وربما كان هذا هو سبب إفلامه . ولكنى اعتدت أن أدفن هذه الآلام بالخروج إليك ، فكنت آتيك على غير ميعاد لتحدث . أتذكرين ؟ قلت أذكر ، ولكنك لم تقولى شيئاً من هذا . قالت : وكنت أريد ألا أقول شيئاً أبداً ؛ فلقد كنت على يقين من أمرى حتى اليوم . كنت كلما نظرت فى عيني هدى الواسعتين البرأقتين قلت فى نفسى كم وفقت فيما ارتأيت لحياتى من مسلك . أأستطيع اليوم أن أنظر إلى هاتين العينين مرتاحة الضمير قوية القلب فلا يرتد بصرى ولا

حديث آمنة

أشيع بوجهي خجلا منها ! إني لم أعذب تلك المخلوقة الساذجة ولم أضح بها
لأسعد أنا . كم كنت على حق ! إني ألقاك يا هدى فأعطف عليك في حرية
واطمئنان ورضا عن نفسي .

وكانت كلمة أمي : « ما أشقاها بأمها » ترن في أذني أحيانا فأفكر فيها طويلا
وكثيراً . فلقد كبرت وعرفت من أخبار هذه الأم كثيراً . إنها لا تعيش إلا ظلاً
لزوجها وأمر هدى يأتي في المرتبة الثانية إن آتى . فإن حنا عليها زوجها ،
وأنفق عليها في سعة من ماله خفت حدتها ولانت قسوتها . ولكن الويل
لهدى بل لكل من يمر بحياتها إذا ما جفاها زوجها ، أو قتر عليها في المال .
وهذا هو قد أفلس ، والإفلاس يستتبع شذوذاً في الخلق ونفوراً من الناس بل
كرهاً لهم . ترى أتعاني من جفاء أبيها لأمها كما كانت تعاني طفلة ؟ إنها اليوم
صبية تفهم كل شيء حولها . ترى ألتشي بهذا الفهم ؟ وكنت أسأل نفسي كثيراً :
أخيراً كان ما فعلت أم شراً ؟ ألم أكن أستطيع أن أنقذ هذا الرجل من الإفلاس
وأنقذ هدى من قسوة أمها ، ولكن أأحرم هدى أمها ؟ هذا مستحيل . إنها
لن تحس قسوة أمها إلا إلى حين ، ثم تعود فلا ترى أحداً كهذه الأم .

وهكذا انقضى العام الماضي وأنا أفكر في هدى وفي نفسي . أسأل نفسي
مرات في اليوم : أخيراً كان ما فعلت أم شراً . وأنا لا أريد أن أستطلع شيئاً ،
أو أسأل عن شيء . وفي يوم رأيت صمّي سعيداً من بعيد ، وكانت الصلاة بينه
وبين أسرتنا تكاد تكون قد قطعت بعد أن أصبحت لا تعتمد إلا على قرابة
أبي لزوج سعيد وكره أمي لها . وجمعت طرفاً من شجاعتي وتقدمت إليه
وضاхته . فصاحني ثم تمحاشاني وسار في طريقه ، يا لهول ما قد تغير ! إن التجاعيد
ملأت وجهه وبهت نور عينيه حتى كاد يطفأ . إنه الآن رجل قد جاوز الخمسين
بقليل ولكنه يبدو في الثمانين من عمره . وعدت إلى نفسي ذلك اليوم باكية
حزينة أسألتها في حرارة : أخيراً كان ما فعلت أم شراً . وأبعدت الموضوع
في عنف وجهد وأنا أقول : وهل يمكن أن تكون الفرقة بين أم وابنتها خيراً ؟
وأخيراً لا أطيل عليك ، فقد رأيت اليوم وصممت ما رأيت وصممت : « ليتك
كنت أنت أمي » . نعم حتى هدى معقلى الأخير الذي كنت أعتصم به في آتي
ما فعلت إلا الخير يسقط أمامي كأن لم يكن . حتى هدى تريدني بعد نحو عامين
من معاملتي لها كتلميذة أن أكون لها أما : إن صرختها لم تكن صرخة طابرة .

حديث آمنة

إنها صرخة من الأعماق ونداء من القلب . إنها تحبني ، وكان يمكن أن تحبني وتسعد بدل أن تشقى بحب أمها . ترى أقال لها أبوها شيئاً ؟

واستمرت آمنة تتحدث كأنما تناجى نفسها وهي تبكي . كم رثيت لها ! حقاً لقد كانت صرخة هدى صرخة شاذة ، ولكن أقول لآمنة إننا ذهلنا لها جميعاً ؟ كلا !

قلت لآمنة : إنها صبية لا تدرك شيئاً ، ولم يكن في صوتها وقد سمعتها أكثر من إحساس حادى بالندم لأنها أغضبتك . ومن هي من تلميذاتك التي تحب أن تغضبك ! ثوبي إلى رشذك . لقد فعلت خيراً ، وكان إتماماً لهذا الخير ألا تظلمى نفسك وتستجيبي لأحد الكثيرين الذين طلبوا يدك وكانوا لك أكفاء . قالت : إنى لا أزال أحبه . قلت هذا وهم يجب أن تخلصى نفسك منه . لقد فعلت خيراً ولا تفكرى لا فى هدى ولا فى سعيد . إن الأم إن كانت وحشاً ضارياً فهي أحسن على ابنتها من زوج الأب . فكرى فى أنك كنت ستصبحين أمّاً لغير هدى ، وفكرى فى إمكان المساواة بين هدى وبين ابنك أو ابنتك . صدقيني يا آمنة لقد فعلت خيراً . خفى من عبرتك ، وانظرى إلى الحياة . إنها تقبل عليك إقبالا فلك فيها المال والجمال ، ولعمري إنهما لك فيلان بإسعاد أشقى امرأة . استبشرى والبشرى بأتيك . قالت آمنة فى هدوء : ياليت هذا يكون . وخرجنا إلى التزهة ثم عدنا وقد اطمأنت نفس آمنة كثيراً .

ولكن آمنة لم تعد إلى المدرسة أسبوعاً وأسبوعين . وكنت كلما ذهبت إليها قالت إنى لا أطيق أن أرى هدى . قلت لها : كلا ! بل تزينها وترينها وتنظرين إلى عينيها الواسعتين وأنت مطمئنة سعيدة . إنك لم تكونى سبياً فى شقاءها . اعطى عليها ماشئت أو تجنبها إن شئت ، ولكن لا تنسى أن تنظري إليها وأنت رافعة الرأس مطمئنة القلب . لقد جنبتها أن تبكى لتسعدى . قالت مستبشرة : أجباً ما تقولين ؟ قلت كل الحق .

وبعد أسابيع عادت آمنة إلى درسها ولكن هذى لم تعد ، فقد انتقلت إلى مدرسة أخرى لسبب لاندريه . أقالت لآبيها شيئاً فتصرف هكذا فى ابنته أم أنها المقادير هي التي تصرف فى أمر آمنة هذا التصرف ؟ وتابعت آمنة هما في اطمئنان وهدوء ونشاط . وسرمان ما عادت إلى سمائها . وفترت صداقتنا لأنها تشجع على استمرارها ، وابتعدت عنها تحقيقاً لسعادتها ، فقد أكون لها ذكرى

حديث آمنة

لا تحب أن تمرّ بفؤادها كثيراً . وعاد قلب آمنة مقفلاً كال حصن . كم اشتقت أن أعرف ما يدور بهذا القلب من عواصف واضطراب ! ولكن آمنة لم تشجع أحداً على الدنو منها . وها هي ذى تسير إلى اليوم بيننا في جلالها وجلالها تعلو وجهها الجميل مسحة من الحزن لا يراها إلا الأقربون .

ثم سكنت صديقتي هنية لتقول كأنما هي تقول لنفسها : ترى أخيراً كان ما فعلت آمنة أم شراً . حقاً لست أدري .

ومرّت بنا آمنة عائدة بعد أن انتهت من زيارة أو رياضة ، فتأملتها فإذا في ابتسامتها مرارة تزيد من جمال ثغرها ، وإذا في عينيها حزن يزيدهما عمقاً وسحراً ، وإذا هي في جلالها وجلالها ومن وراءها البحر بامتداده واتساعه كالمركب الضائع في لبحج البحار . إنها أروع صورة للهائمين على وجوههم في هذه الأرض لا يدرون أعلى بر النجاة نهايتهم أم في هذه الأعماق السحيقة المخيفة سيكون المصير .

سهرير القاهاري

هـ . ج . ولز

في الثالث عشر من أغسطس ١٩٤٦ مات الأديب العالم المفكر القصصي هـ.ج. ولز . فلم يفقد العالم بموته شيئاً كثيراً . فن مات في التاسعة والسبعين من عمره فقد استوفى أجله أو كاد . ولز بالذات لم يغبن في حياته ولم يضمن على العالم بشيء في مستطاعه أن يؤديه ؛ فلقد كتب كما لم يكتب إلا الأقلون كمًا وكيفًا ، ولقد فكر لبني البشر وجمع لهم حقائق المجتمع ودلائل التاريخ ، ولقد ناضل في سبيل المبادئ الإنسانية العليا نصف قرن من الزمان صاغ فيه عقول هذا الجيل وترك طابعه الذي لا يمحي على مرّ الأيام .

ولد هـ.ج. كما يلقبه أصدقاؤه في ٢١ سبتمبر ١٨٦٦ ببلدة بروملي من أعمال مقاطعة كنت بجنوب إنجلترا ، وكان أبوه بستانيا آناً وصاحب حوينيت لا يدر مالا كثيراً آناً آخر ، ولاعباً محترفاً في فريق كنت الرياضي يرتزق من لعبة الكريكت . وكانت أمه خادما في دار ريفية كبيرة أو وصيفة كما يشاء أدب الإنجليز أو نفاقهم أن يسميها . وقد ساء تعليمه في المبتدأ ووقف عند حد بسبب فقر أهله ، فبدأ العمل صغيراً أولاً بوصفه صبيّاً في حاثوت أصواف ، ثم بوصفه مساعداً في صيدلية . ولكنه ثار على هذه الحياة المحدودة خلف منضدة البيع وبين العقاقير ، وجاهد في التحصيل حتى ظفر بجائزة مالية تتيح له طلب العلم فيما يسمى الآن الكلية الإمبراطورية للعلوم ، وتخرج في هذه الكلية بامتياز عظيم ، ومن ثم اشتغل بالتدريس زمناً وجيزاً ، ثم انقطع عام ١٨٩٣ للصحافة والتأليف ونشر الدعوة الاشتراكية . وقد تزوج مرتين أولاً عام ١٨٩١ من ابنة عم له لم يلبث أن طلقها ، ثم من آنسة تدعى آمي كاترين روبرتس .

ولكن وراء هذه السيرة المقتضبة التي قد تكون سيرة أي صحفي تافه في فليت مشرّيت ، أو أي مؤلف تافه في بلومزبري ، سيرة أخرى قوية ملأى بالحوادث ،

هى سيرة عقله الكبير وقلمه الخصب . ولقد كان عقل ولز بين عقول العظماء كبيراً حقاً ، ولكن بالمعنى الحرفى لهذه الكلمة . لم يكن عقلاً لامعاً ذا بريق يخطف أبصار الناظرين ، او عقلاً نافذاً كالسلاح الماضى الدقيق الذى يقطع حجب الفكر ويستخرج الدر من ثناياها ، رغم كل ما اتصف به هذا الرجل من قدرة على التنبؤ ، بل كان عقلاً كبيراً فحسب . وفى هذا العقل الكبير جمع ولز ملايين الحقائق فى كل باب من أبواب الحياة تقريباً ، من نشأة العضويات إلى مؤتمرات الصلح ، ومن ألعاب الأطفال إلى قوانين الاقتصاد . ولقد كتب فى ذلك كله وكتب كثيراً ، بل لعله كتب أكثر مما ينبغى ، وهذا هو المقصود بخصوبة قلمه . فنحن إذن بإزاء عملاق شاهق الأبعاد هائل القوة ، ولكن أبعاده الشاهقة وقوته الهائلة تبد هُنا أكثر مما تبد هُنا صفاته الأخرى .

وكثير من قصص ولز يشتمل على ترجمة للسنين الأولى من حياته ، ومنه وصف مفصل يفيض بالمرح والسخرية من الحياة التى كانت تحياها الطبقة المتوسطة الصغيرة فى عصر الملكة فكتوريا ، وهى الطبقة التى نشأ فيها ولز وذاق مرارة العيش . فى قصة « الحب ومستر لويشام » (١٩٠٠) وصف لحال ولز أيام كان يشتغل بالتدريس فى مدرسة ميدهرست الأولية ، ويعد العدة للتزوح إلى لندن حيث يحصل من جامعتها على درجة « بامتياز فى جميع المواد » . وفى قصة « كيبس » (١٩٠٥) يعود ولز إلى الظهور فى زى البطل ، فالبطل كيبس كالكاتب ولز صبي فى حانوت أصواف وهو يتدرج تدرجه فى سلم الحياة ، ولكنه يجد أخيراً أن حياة الموسرين لا تحقق ما كان يرجوه فيها من أجلام سعيدة . أما قصة « تونوبنجى » (١٩٠٩) فهى تصور المجتمع الذى شب ولز فيه ، ومحورها صيدلى كشف عن دواء جديد فغدا به مليونيراً ثم أفلس إزاء منافسة المنافسين . وفى « سيرة مستر پولى » (١٩١٠) تعرض ولز لنظام التعليم فى إنجلترا وطعن فى سلامته . أما السيرة الرسمية التى ترجم بها ولز لنفسه بلغة الواقع فلم تظهر إلا فى شيخوخته .

وقد كان لنشأته الأولى أعظم الأثر فى تكوين أفكاره الأولى وأفكاره الدائمة كذلك . فولد الصغير لم تكن له ثياب لورد فوتلروي الصغير الذى أجاد تصويره أيعا إجادة ، ولم يكن له تعليمه إلهادى المنتظم ، فقد كان رث الثياب ممزق الخذاء ناقص التعليم . وهو يحدثنا عن كل ذلك فيقول فى « آلام الأحذية » وهى

نشرة اشتراكية من نشرات الجماعة القباية أصدرها عام ١٩٠٥ : « لقد قضيت الشطر الأكبر من طفولتي في مطبخ تحت الأرض ، وكانت نافذة المطبخ تطل على مساحة من الأرض يسدها جدار تعلوه سفافيد أمام واجهة حانوت أبي ، فكنت بذلك كلما أطلت من النافذة رأيت أسفل الناس ولم أر رؤسهم وأجسامهم كما يفعل غيري من الأطفال الذين تفضل نشأتهم نشأتي . وهكذا تعرفت على جميع أنواع الناس في كل طبقة من طبقات المجتمع ، فكانوا عندي مجرد أحذية تتحرك بل مجرد نعال تمشي . »

وقد تعارف النقاد على تقسيم قصص ولز إلى ثلاثة أنواع : الأول أساطيره العلمية ، والثاني قصصه الواقعية ، والثالث قصصه الجدلية . وهذا التقسيم لا يحتاج إلى تعمق في دراسة ولز ، فهو يفرض نفسه على القارئ فرضاً .

أما الأساطير العلمية فمرحلتها تقع بين ١٨٩٥ و ١٩٠٨ وأهمها « آلة الزمن » و « طعام الآلهة » و « بشر كآلهة » و « حرب العوالم » و « حرب الهواء » و « جزيرة الدكتور مورو » و « الرجل الخفي » و « في زمن المذنب » و « الزيارة العجيبة » . وقد كانت هذه الأساطير أول ما كتب ولز إذا تجاوزنا عن محاولاته الصحفية الأولى وهي تافهة . وموضوع هذه الأساطير الكوكب الأرضي وسكانه وحضاراته ، وغيره من الكواكب وسكانها وحضاراتها . ومسرح هذه الأساطير الأزل والأبد ، الماضي السحيق الذي يقاس بالسنين الفلكية والمستقبل البعيد الذي لا نعرف ولا يمكن أن نعرف عنه شيئاً . والبطل في أكثر هذه الأساطير هو العلم . فمنهج ولز أن يتخيل صورة العالم وصورة المجتمع الإنساني حين يتم إخضاع كل شيء فيهما للعلم . لذلك كانت كل أسطورة من هذه الأساطير أشبه بنبوءة ، ومن هذه النبوءات ما تحقق فعلاً . وفي هذه الأساطير يستخر ولز العلم لخدمة الخيال على نسق لامثيل له في تاريخ العلم أو في تاريخ الخيال ، اللهم إلا في قصص الكاتب الفرنسي جول فيرن ، والتشابه لا يسوغ القياس . وقد جرت العادة بين النقاد أن يربطوا ما بين فن ولز وفن فيرن ، ولكن الاختلاف بينهما عظيم : ففيرن يتخيل حقاً كما يتخيل ولز ، وفيرن يجعل العلم أداة الخيال كما يجعله ولز ، ولكن فيرن يقف عند المغامرات القصصية ، ولا يتجاوزها بحال ، أما ولز فيحاول من ورائها أن يعيد بناء العالم والمجتمع وهو يستخدمها مناسبة لعرض تأملاته وشرح آرائه . وطريقته أن يخرج من

تيار الحياة ويقف من كل شيء موقف المشاهد المتأمل الذي لا يربطه بما يشاهد رابط ولا تصلة بما يتأمل صلة . وليس هذا غريباً في ولز ؛ فلعل نشأته العلمية بين المعامل قد عودت هذا الأديب أن ينهج في أدبه منهج العالم ، أو لعل عادة التجرد هذه هي التي ألزمت هذا الأديب بدراسة العلوم في الجامعة وما بعدها . ومهما يكن الأصل ففي هذه الأساطير ينظر ولز إلى العالم وما فيه من أحياء نظره إلى السائل وما فيه من جرائم تحت المجهر . والمنهج الذي يتبعه في أدبه هو منهج العلم ؛ فالأدب عنده لا يستطيع أن يسجل صورة صادقة للحياة إلا إذا انفصل الأديب من الحياة جملة ، ووصفها وصفاً موضوعياً لا أثر للذات فيه ، أي وصفها وصف العالم الجيولوجي لصخرة من الصخور . وهذا لا يتأتى بخروج الأديب من العالم فحسب بل يقتضي خروجه من نفسه كذلك . لذلك نجد ولز في أساطيره العلمية ينظر إلى العالم آناً بعيني ملك ، وآناً بعيني جنيّة ، وآناً بعيني عملاق ؛ وبذلك أمكن لولز أن يرى الحشود البشرية في مجموعها ، وأن يستعرض موكب الحضارة من بعيد ، وبذلك أمكنه أن يرحم بما عساه أن يكون هدف هذه الحشود العظيمة من الأحياء ، وأن يطلع على ما تشكو منه «الإنسانية» من أوجاع ، وأن يرسم للناس في حدود تقديره طريق الخلاص . وقد وجد أن طريق الخلاص هو طريق العلم . ولقد يكون ولز مصيباً في تقديره إذا كان موقف المصلح من المجتمع موقف الطبيب من المريض بجسمه ، ولقد يكون مخطئاً إذا كان موقفه موقف المحلل النفسي من المريض بنفسه . والأرجح أن موقف المصلح من المجتمع موقفهما جميعاً . ولقد استطاع ولز بأساطيره العلمية هذه أن يبلغ مكاناً مرموقاً بين الكاتبين ، ولكن نصيب الأدب فيه يبدأ بالطور الثاني من أطوار إنتاجه ، طور القصص الواقعية ، طور « كيبس » و « سيرة مستر پولى » و « تونوينجى » . وبهذه القصص الواقعية وحدها كان يمكن لولز أن يخلد في عالم الأدب ، وبها وحدها يجوز لمن يشاء أن يلقبه بخليفة دكتر العظيم ؛ فالنفس الذي يشيع فيها نفحة من نفسه ، والبيان من بيانه . بل إن ولز قد يتجاوز دكتر في بعض المواضع من ناحية صفاء الأسلوب وعمق التحليل . وفي هذه القصص الواقعية يصل ولز إلى كثير مما وصل إليه دكتر ، فيوفق مثله لخلق الشخصيات الحية المكتملة التكوين ، ويسخر مثله من العصر وحضارته لا عن طريق التبشير الصريح

والتعريض المباشر ، بل بما يخلق من شخصيات وما يسرد من وقائع . وهو يهجو الطبقة البورجوازية طبقته ، لا بالنقد ولا بسباب الغاضبين ، ولكن بالوصف الأمين لما يقول أبنائها وما يفعلون . وعلى الجملة فولز يدرك في هذه القصص الواقعية مهمة الفنان ويحققها ، فهو لا يستثير الناس على معايب المجتمع الإنجليزى بل يضحكهم منها ، وهو لا يستخدم أبطاله لشرح نظرياته في الحياة ، ولكن يستخدمهم لشرح نظرياتهم . إن مستر پولى رجل من دم ولحم لا مجرد صورة أو كاريكاتور . ونحن نضحك منه حقاً ولكننا نعطف عليه كذلك ؛ فهو نموذج للرجل الحائر الذى خلقته الحضارة الحديثة وحطمتها في وقت واحد ، ذلك الرجل الذكى الذى فقد نفسه وسط هذه الحركة الكثيرة وخارت قواه في تيار الحياة الجارف فاشتهد أن يغرق ، ولكن تيار الحياة لفظه بالرغم منه على الشاطئ بين الحصى والرمال ، فعاش كالسمكة خارج الماء . إن مستر پولى رجل مكتمل الرجولة ، وهو متزوج منذ خمسة عشر عاماً ، ودأبه في الحياة أن يحتفظ بحياته التافه الذى لا يتردد عليه الناس . أما نفسه فجائعة ، وأما بدنه فسقيم ، والحياة عنده لم تعد تحتل . لذلك يعقد عزمه على الانتحار . وليس بينه وبين الانتحار إلا مستقبل زوجته ، فيهدى إلى حل يضمن به موته وحياة زوجته ، وذلك الحل هو إحراق الخانوت والاحتراق فيه ، فبإحراق الخانوت والاحتراق فيه تستولى زوجته على التأمينين ، ويخلص هو من شقائه . ويحترق الخانوت ولكن مستر پولى لا يحترق ، بيد أنه يختفى على أية حال بعد قليل ، ويبدأ الحياة من جديد هائماً على وجهه في طرقات انجلترا ، جيوبه فارغة ورأسه عامر بالأحلام . ومامن شك في أن شخصية مستر پولى نقد للمجتمع الإنجليزى في نهاية القرن الماضى ، أو نقد لحياة البورجوازية الصغيرة على وجه التخصيص . ولكن النقد الذى نجمده في شخصية مستر پولى لا يقاس بالنقد الذى نجمده في شخصية كيبس . فكيبس كپولى وكولز ذاته بورجوازى صغير ، وهو غلام يعمل صبيّاً في خانوت أصواف كما كان خالقه يعمل في حدائقه ، وهو يعانى ما يعاينه سائر صبيان الخانوت من شقاء العمل ، والحرمان وخنق الحرية ؛ فهم يعيشون في عنبر قيوده مضيئة شأن جميع العنابر ، ومع ذلك نسمع منهم هذا الحديث وهم في العنبر قبل أن ينطفىء النور كالمعتاد بحكم القوانين التى وضعها صاحب الخانوت :

« وتابع بجيتز القراءة ، فقد أثارت اهتمامه افتتاحية عن شئون الهند أبلغ إثارة . قال :

— إن من الحق أن يعطى هؤلاء السود حق التصويت .

قال كيپس :

— وأى حق ؟

قال بجيتز :

— إنهم من طينة غير طينتنا ؛ فليس لهم ما للإنجليز من منطق رشيد ، وليس لهم ما لهم من خلق متين . وإن في خصالهم نوعاً من الغدر والتجائل ؛ فشهادة الزور مثلاً وأشباهها من التصرفات التي لا يعرف عنها الإنجليز شيئاً في طبيعتهم . وكيف يعرف الأمانة من كان في جنبهم ومذلتهم ؟ إنهم لم يعتادوا الحرية كما اعتدناها ، ولو أعطيت لهم لأساءوا استخدامها . أما نحن . . . آه . . . اللعنة ! فقد انطفأ النور فجأة ولا يزال أمام بجيتز عمود كامل عن لغو المجتمع الراقى كان يحب أن يقرأه . »

ومثل هذا التهمك اللاذع بأبناء البورجوازية الصغيرة وبآرائهم وآمالهم قد يبلغ في « كيپس » مبلغ السخط . ففي « كيپس » سخط على نظام التعليم ، وسخط على عقم الحياة الريفية ، وسخط على استبداد الموظفين الجاهل ، وسخط على العقلية الإنجليزية الضيقة ، وعلى « الغباوة ذلك الحكم المطلق في بلادنا » بلغة ولز . وهذا كيپس مضطجع إلى جوار زوجته بعد مشاحنة سفيهة سببتها غباوتهما ، ولز من ورائهما يقول :

« لولا ضيق العقل . . . لولا ذلك الوحش لما تلمس كل منهما ألقه ، الأسباب لئوذي صاحبه كل هذا الإيذاء المرير . لولا ذلك الوحش لخرج من طفولتهما الذهبية وشبابهما اليافع ثمر سعيد ، واستيقظ فيهما وعي يستقبل أفكار العالم ، ولنفس ضوء الأدب المنعش إلى قرارة روجيهما ، ولتفتحت نفساهما بدل هذا الاستغلاق ؛ لا إدراك الجمال الذي ننعم به نحن المجدودين ، ولرؤية ذلك الحلم الذي تصفو به الحياة إلى الأبد . لقد سخرت منهما في الماضي ، وإني لأسخر منهما الآن لعلك أن تسخر معي منهما كذلك . . . ولكنني أنقذ في ظلام روح كيپس وزوجته كما أراهما الآن قطعتين ورديتين من المادة الحية المرتجفة ، وجسدين أشبه بجسدي طفلين يشكوان الجهل والسقم وسوء الغذاء ، طفلين

يتعذبان ، طفلين مشاكسين مضطربين يشقيان ولا يعرفان لشقائهما سببا ، طفلين يطبق عليهما مخالب ذلك الوحش الجهنمي . »

كذلك الأمر في « تونوبنجي » وهي أعظم قصصه الواقعية جميعاً أو من أعظمها على أقل تقدير ؛ فهي سجل أمين لحياة الطبقة المتوسطة الصغيرة في إنجلترا أثناء النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وهي تصف ما أصاب المجتمع الإنجليزي إبان هذه الفترة التاريخية من تصدع ، وتصور خروج الأرستقراطية إلى الأبد من الحياة الإنجليزية ، ودخول فئة من الأدعياء ذوى الجاه والمغامرين الموسرين لينحلوا محلها . وفي هذه القصة نجد السخط قوياً كذلك . فالعم بوندريشو صيدلى ريفى ابتكر مستحضراً جديداً ، فربح من ورائه الملايين ، ثم أفلس حين ظهر له منافسون جدد ، وقد جاءه كل هذا المال الكثير دون أن يحدث في شخصيته وأخلاقه تطور يقابل ارتفاع قدره في الحياة :

« لقد كان عمى يملك فى أوج غناه نقداً وعيناً نحو مليونى جنيه على أقل تقدير مقابل ديون جسيمة لا تعرف على وجه التحديد . أما دائرة نفوذه التى كان يتحكم فيها فقد كانت تشمل فى مجموعها نحو ثلاثين مليوناً . وقد منحه كل ذلك مجتمعا الذى تحكمه القوضى وتختل موازينه . ثم ، كافأه مجتمعا كل هذه المكافأة ؛ لأنه يجلس داخل غرفة ويشغل بالدسائس ويطلق فى الناس الأكاذيب . فعسى لم يخلق شيئاً ولم يبتكر شيئاً . ولست أستطيع أن أدعى أن أى مشروع من المشروعات التى نظمتها قد عاد بأذى تقع على الحياة الإنسانية . »

وما هذا الصيدلى إلا نموذج لطبقة الأدعياء والمغامرين الذين مكنتهم الصناعة والنظام الرأسمالى من اقتحام العالم والاستيلاء عليه وطرده طبقة الأشراف منه بعد أن ظلوا آمنين دهرأ وراء زراعتهم ونظامهم الإقطاعى . وقد ذهب الأرستقراط وتركوا وراءهم خراباً ثقافياً وفراغاً مديناً عجز البورجوازيون من بعدهم عن تعميمه وملئه . ومع ذلك يبدو أن وز مغتبط بهذه النتيجة ، على العكس من جولز ورذى الذى طالج الموضوع نفسه فى ملحمة « فورسلايت » والأسف يملأ قلبه على المجد الذى كان ، وللبرية التى سادت المجتمع من بعده .

وقصة « تونوبنجي » هى آخر ما كتبه ولز فى باب القصص الواقعية . وما من

شك في أنها ومثيلاتها تشتمل على مواضع ما كان ينبغي أن توجد فيها ، وولز لم يستطع أن يتجنب فيها دائماً إعلان آرائه في السياسة والاجتماع والأخلاق الخ ، من كل ما يغض من قيمتها الفنية ، وتحت المرح الذي يحيط بيولي وكيبس والعم بوندريقو نري وجه ولز العبوس ، ولز المصلح ، وتقرأ في أساريه سخطة على المجتمع . ولكننا نستطيع بوجه عام أن نحكم بأن شخصية الكاتب تختفي وراء أشخاص قصصه الواقعية ، كما نستطيع أن نحكم بأن هذه القصص الواقعية برغم ما فيها من استطراد ملحوظ منشأة على تصميم واضح لا يخطئه أحد ، وهذا ما يجعلها آثاراً أدبية من طراز عظيم . ولو أن ولز ما لاستأذه دكتور من راحة في القلب وحرارة في العواطف ومقدرة على العطف لما تخلف عنه في كثير أو قليل ، فرحهما سواء وسخريتهما واحدة ، وفهمهما لتفاصيل المجتمع البورجوازي الصغير يكاد يكون متساوياً . بل إن ولز ما لدكتور من عيوب ، فكلاهما يبلغ قمة فنه حين يلتزم وصف الحياة في الطبقة المتوسطة الصغيرة التي نشأ فيها ، وكلاهما يخفق إخفاقاً واضحاً كلما خرج من دائرة هذه الطبقة واجترأ على غيرها من الطبقات . ومهما يكن من شيء فسيرة ولز الأدبية تنتهي هنا . فقد انصرف قبيل عام ١٩١١ إلى تمجيد نوع ثالث من القصص ليس فيه من الأساطير العلمية ولا من تصوير الواقع شيء : انصرف إلى تمجيد القصص الجدلية أو القصص الاجتماعية أو القصص الفكرية أو ما شئت من الأسماء التي لا تختلف كثيراً وتتفق جميعاً في أنها ليست من نصيب الفن . ومن هذه القصص « مستر بريتلنج » و « جون وبيتر » و « آن فيرونیکا » وكثير غيرها مما نسيه الناس أو كادوا . ومنهج ولز في هذه القصص الجدلية يختلف عن منهجية السالفين في الأساطير وفي الواقعيات . لقد ضاق بالخيال ذرعاً ، فعدل عنه وكتب عن الواقع . وها هو ذا يضيق بالواقع ذرعاً فيعدل عنه ويكتب عن الأفكار . ولكل قصة من قصصه الجدلية « هدف » أو « رسالة » . والهدف العام هو مناقشة الآراء الاجتماعية وتحليلها . والرسالة العامة هي الإصلاح الاجتماعي . أما وصف الحياة المجرد فلم يعد ولز يكتفي به ، وهذا دليل على أن طبيعة المفكر المصلح فيه أقوى من طبيعة الأديب الفنان . وما هذا التحول في ولز بظاهرة جديدة تماماً أو خفية تماماً ، فبذور التبشير موجودة في كل عمل من أعماله الأولى حتى أعظمها شأنًا وأقربها إلى روح الفن الصرف . وولز قبل سواء يعلم بأمر هذا التحول فيه ،

بل لقد أعلنه إعلاناً في مقال له عن « القصة المعاصرة » نشره عام ١٩١١ في عدد نوفمبر من مجلة « فورتنايتلي ريفيو » . وفي هذا المقال ، أوفى هذا البيان بتعبير أدق ، حدد و ل ز وظيفة القصة كما يفهمها هو ، فإذا بها وظيفة لا تقوم بها « آلة الزمن » ولا تقوم بها « كيبس » أى لا تقوم بها أساطيره العلمية ولا تقوم بها قصصه الواقعية . فبادئ القصة في بيانه ثلاثة : أولها أن القصة استطرادية في طبيعتها ، فهي نسيج من خيوط كثيرة قد تختلف في ألوانها ، وهذا يقضى على مبدأ التصميم الذى يلتزمه الفنانون في القصص . وثانيها أن القصة مرنة ورحبة تتسع أو يجب أن تتسع لكل شئ في الحياة من إدارة الأعمال إلى السياسة إلى شواهد التاريخ إلى الأعمال الفاضلة إلى الأعمال الفاضحة ، وكل هذه المواد تختلط وتنسجم وتصفو في نهاية القصة ، وهذا يهدم مبدأ الوحدة . وثالثها أن القصة وإن لم تكن منبراً يستخدمه القصصى لشرح آرائه فهي « كرسى الاعتراف ونبع المعرفة ودافع النفس إلى أن تراجع نفسها مراجعة مثمرة » ، وهى كذلك معرض الآراء ومكان امتحان السلوك الإنسانى . وقد بدأ و ل ز يجرب هذا المنهج في القصة قبل أن يصدر بيانه ببضع سنوات ، ودأب عليه بقية حياته ، فانتقل بذلك من قائمة الأدباء إلى قائمة الكتاب الاجتماعيين .

أدب و ل ز أدب البورجوازية الصغيرة ، وهو امتداد لهذا النوع من الأدب الذى وضع أساسه دكتور وبنى عليه جورج إليوت وأضاف إليه أرنولد بنيت . فما المراد من هذه العبارة ؟ لا شك أن نشأة و ل ز في أسرة من أسر الطبقة المتوسطة الصغيرة قد ترك في آثاره خصائص يتفرد بها أبناء هذه الطبقة دون سواهم ، فجاء أدبه بهذا المعنى من أدب البورجوازية الصغيرة . وأبسط مثال لذلك ضخامة إنتاجه التى يعجز عنها الكثيرون ، وهى ضخامة تدل على جده ودؤوبه على العمل سواء فى الاطلاع أو فى التحرير . والجد والدؤوب على العمل خاصتان تتميز بهما البورجوازية الصغيرة أكثر مما تتميز غيرها من الطبقات . كذلك الحال مع أسلوبه ، فهو ليس بالأسلوب الحر السوى الذى يؤتاه صاحبه ويعمل على إتقانه بقية عمره ، بل هو أسلوب غير ثابت الصفات يتراوح كثيراً بين القوة السكسونية والطنطنية اللاتينية ، فيه من إتقان الحريص شئ وفيه من إهمال المتعجل شئ ، وهو أسلوب طموح يحس قارئه بأن صاحبه يحاول الاستفادة

من مستصعب الكلم فيوفق آناً ويخفق آناً ، وهو أسلوب يتفاوت كثيراً بين الصدق والادعاء . وعلى الجملة فهو أسلوب ذو شخصية تشبه شخصية صغار البورجوازيين ، بعض جوانبها يدعو إلى الإعجاب وبعض جوانبها كرهه تمجده النفوس ، ولكنها في كل حالة تحاول أن تثبت وجودها وتفرض نفسها على الناس فرضاً . ولكن أدب ولز أدب البورجوازية الصغيرة بمعنى آخر كذلك ؛ فهو يصف حياة هذه الطبقة ومشاكلها وصفاً مفصلاً يوشك أن يكون جامعاً مانعاً . وولز مع طول اشتغاله بالاشتراكية ليس بالكاتب العامل الأصيل الذي وقف بيانه على تصوير الحياة البروليتارية بمعناها الصحيح ، وإنما هو كاتب من فقراء المتوسطين كتب عن فقراء المتوسطين . وبؤس الإنسانية عنده يبدأ ببؤس الأحذية وبؤس التعليم الإلزامي ، ومشاكل الجماهير عنده تتركز في إزالة هذين البؤسين . والناس في قصصه خدم وليسوا بالخدم في وقت واحد ، وصيادلة ريفيون يكدون وراء المال ويوفقون لاقتناء الكثير منه ، ومدرسون لهم في الحياة آمال صغيرة وأطماع تافهة بعضها يتحقق وبعضها يخيب . والشخصيات عنده شخصيات فردية تتحرك بالدوافع الفردية أكثر من سواها . فولز أديب البورجوازية الصغيرة بالمعنى الذي أراده القصصي الأمريكي هنري جيمس حين كتب يقول : « أنت أول من وصف الطبقة المتوسطة الصغيرة في إنجلترا وصفاً خلا من التعميق وخلا من الغرابة وخلا من الإسراف وخلا من الخيال الدخيل الذي يكثر في أدب دكتور مثلاً فيضلل القارئ ، ويكثر في أدب جورج إليوت فيخرج به عن الجوهر . فاقد وصفت ما في هذه الطبقة من الابتذال بروح هي روح العالم وروح المؤرخ معاً ، ولقد رأيت تفاصيل الحياة بين أبناء هذه الطبقة على هذا الضوء القوي ، ضوء العلم والتاريخ . »

على أن أدب ولز أدب البورجوازية الصغيرة بمعنى آخر أكثر عمقاً من كل ما تقدم ؛ فهو ليس مجرد أديب من صغار البورجوازيين يكتب للبورجوازية الصغيرة عن حياة البورجوازية الصغيرة فيجيد الكتابة والتصوير . وهو ليس مجرد مرآة صادقة تنعكس فيها حياة صغار المتوسطين ، بل هو الأديب الذي « يعبر » عن هذه الطبقة في كل شيء من حيث ظروفها الاجتماعية والاقتصادية ، ومن حيث فلسفتها السياسية والأخلاقية ، ومن حيث آلامها وآمالها في الحياة ، ومن حيث شخصيتها الإنسانية التي تميزها عن سائر طبقات المجتمع . فهو إذن

مرحلة في تاريخ الفكر الإنساني والأدب الإنساني؛ وهو ظاهرة في تطور المجتمع لا سبيل إلى فهم ذلك التطور إلا بدراستها . وصلته بالبورجوازية الصغيرة صلة عضوية حتمية ، فهو المثلث لوجودها المظهر لقوتها المفكر لها المعبر عن أهدافها في الحياة .

وآيات ذلك في أدبه كثيرة فولز قد نشأ في أواخر القرن التاسع عشر مع نشوء الحركة العمالية ومع نشوء الفلسفة الاشتراكية بنوعها الماركسي الثوري والبرودوني التطوري ، فماذا كان موقفه من العمال والاشتراكيين ؟ آمن ولز بحقوق العمال حقاً ، ولكنه لم يؤمن بها إيمان كامل بل آمن بها إيمان صديق للعمال . فهو يؤمن بحقوق الإنسان أكثر من إيمانه بحقوق العمال ، وهو يؤمن بحقوق العمال لأنها جزء لا يتجزأ من حقوق الإنسان . وانتصاره للطبقة العاملة دون غيرها من الطبقات طبيعي بحكم الجوار ، فطبقتة البورجوازية الصغيرة أقرب ما تكون إلى البروليتاريا ، وهي أقرب إلى البروليتاريا منها إلى الطبقات الأخرى ، وانفصال المفكرين والمثقفين عامة من صغار البورجوازيين عن طبقتهم البورجوازية الصغيرة ، وانضمامهم في المبدأ والأمانى إلى جموع البروليتاريا أمر مألوف أو شك أن يكون قاعدة في الحركات السياسية . لهذا كله اختار ولز من بين النظريات الاشتراكية الكثيرة الشائعة أكثرها اعتدالاً وأقربها إلى فهم البورجوازية الصغيرة ، فأمن بنظام الملكية المشتركة كما يؤمن كل اشتراكي ، ولكنه آمن كذلك بالانتقال المقسط أو بالتدرج أو بالتطور ، ولم يؤمن بالانقلاب الكامل أو بالطفرة أو بالثورة . آمن ببرودون ولم يؤمن بماركس ، فصدق عليه وصف ماركس لبرودون بأنه أستاذ في الجامعة له قدم في الطبقة البروليتارية وقدم في الطبقة البورجوازية ، فهو مذبذب بينهما حائر يجتهد في التوفيق بين أمانيهما فيخسرهما جميعاً . ولز يؤمن بحقوق الإنسان عامة دون حقوق العمال على وجه التخصيص ؛ لأنه يحس بوعى منه أو بغير وعى أن الإنسانية لا تقتصر على العمال والعاملين كما يقول الماركسيون ، بل تتسع حتى تشمل كذلك الطبقات العاملة المالكة والطبقات المالكة فحسب . وهذا اختلاف جوهري في وجهة النظر ، منشؤه أن ولز يقف في منتصف الطريق بين المستغلين والمستغلين . ولأنه يقف بحكم طبقتة ومصلحتها في منتصف الطريق بينهما نراه يرى وجهة نظر الطرفين ويؤمن بهما جميعاً . ولأنه يرى وجهة نظر الطرفين ويؤمن

بهما جميعاً نراه يعتقد أن للطبقات العاملة حقوقاً أولها امتلاك وسائل الإنتاج بالاشتراك ، ويعتقد أن للطبقات المالكة حقوقاً كذلك أولها تعويضها عن وسائل الإنتاج التي تنزع من يدها . ولأنه يرى وجهتي نظر الطرفين ويؤمن بهما جميعاً نراه يعترف بشخصية الطبقات غير العاملة ويعترف بشرعيتها ضمناً ، وهذا ما لا يفعله الماركسيون الذين يعدون الطبقات المالكة طفيليات تعيش على جسم البروليتاريا وتأكل ثمار العاملين ، ويعدون الملكية الفردية لونا من ألوان الاغتصاب يحميه القانون . ولأنه يعترف بشخصية الطبقات المالكة وبشرعيتها نراه يؤمن بالتدرج في تطبيق البرنامج الاشتراكي . ولهذا كان طبيعياً أن يجد و ل في الجماعة الفابية منظمة كافية لنشر الاشتراكية بين الناس ثم تطبيقها على المجتمع ، فانضم إلى برنارد شو وسيدني وب وبياتريس وب وجراهام والاس ، وساهم بنصيب لا بأس به في حركة التنوير الاشتراكي التي اضطلع بها الفابيون . وبهذا المعنى يصح أن نصف و ل بأنه أديب إنجليزي لحماً ودماً . فالبورجوازية الصغيرة هي العمود الفقري للشعب الإنجليزي ، وعقلية صغار البورجوازيين هي العقلية السائدة بين أبناء هذا الشعب ، فهم يطالبون الاشتراكية ولكن بمقدار ، وينشدون التغيير ولكن في الحدود البطيئة التي تملأها الحاجة الملحة ويأذن بها النظام . وهم شديدو الفردية أشخاضاً وشعباً بقيسون كل شيء بمقياسهم ، وينفرون من كل تأثير خارجي ، ويرفضون كل فلسفة أو نظام من شأنه أن يحدد إمكانات التضخم أمام « الأنا » .

وول شديد الإيمان بالمنهج العلمي . وشدة الإيمان بالمنهج العلمي كانت خاصة هامة من خواص البورجوازية الصغيرة والكبيرة في إنجلترا وفرنسا وخطها إبان القرن التاسع عشر ، أي إبان نماء البورجوازية وعنفوانها . وذلك لأن البورجوازية الإنجليزية والبورجوازية الفرنسية قد شبَّتا في جو من الحرية يوشك أن يكون مطلقاً بعد تصارعهما المشهود في الحروب النابوليونية ، واتهما من تلك الحروب إلى تقسيم العالم بينهما ، وبذلك نضجت الرأسمالية الإنجليزية والرأسمالية الفرنسية في جو من الأمان أشبه ما يكون بأمان الاحتكار ، مصدره استئثارها بأسواق العالم دون غيرها من الرأسماليات المتأخرة في الدول الأخرى ، فلا غرابة أن تؤمنا بالعلم مصدر رخائهما ، وبالعقل أس سعادتهما . أما البورجوازية الألمانية فقد نشأت وشبت وشاخت في جو من العنت والمحاصرة والاضطهاد

الخارجي ، فلا غرابة إذن أن يتصف الفكر البورجوازي الألماني في كل مرحلة من مراحل من نخته إلى شبنجر بالثورة على العقل والإيمان بالعاطفة . فالبورجوازية بوجه عام لم تكن دائماً كما نعرفها نحن أبناء القرن العشرين قوة نائرة على قوانين العقل نائرة على منهج العلم ، تؤمن بالعاطفة والخرافات في كل باب من أبواب النشاط الإنساني ، وتنجب من المفكرين أمثال سوريل وشبنجر وروزنبرج وألدوس هكسلي ، ومن الأدباء أمثال ت. س. إليوت وجيمس جويس و د. ه. لورانس ، ومن الفلاسفة أمثال أدنجتون وبرجسون وبرتراند رسل ، بل تنجب من العلماء من يجلسون حول المائدة ويخاطبون الأرواح أمثال أوليفر لودج وكونان دويل . كانت البورجوازية بين نهاية القرن الثامن عشر ونهاية القرن التاسع عشر ، أي بين عام ١٧٩٤ عام الإرهاب الأكبر الذي ألغى فيه روبسبير المسيحية وأقام عبادة العقل مكانها ، وعام ١٨٩٥ الذي خلق أوسكار وايلد فيه « دوريان جراي » وألغى به العقل وأقام عبادة الجمال مكانه — كانت البورجوازية إبان هذه الفترة تؤمن بالعلم وبالعلم وحده ، وتربط مستقبل الإنسانية وسعادتها بفتوحات العلم التجريبي في المعمل ، وفتوحات العقل المشاهد بين طبقات الأرض وقبائل الهج ، وفتوحات الذهن المبتكر بين آلات الإنتاج ، وكانت بورجوازية متفائلة تؤمن بفلسفة « التقدم » أي مطمئنة إلى تقدم البشر المطرد ؛ لأنها كانت بورجوارية منتصرة مستقرة لا تجد ما يهدد سلامتها ، فلما اكتهلت تكشف ما في نظامها الرأسمالي من تناقض داخلي ، فبدأت الرأسماليات الجديدة (ألمانيا وأمريكا أولاً ، ثم اليابان وإيطاليا) تنازع الرأسمالية الإنجليزية والرأسمالية الفرنسية ما كان لهما من سيطرة مطلقة على أسواق العالم ، من كل ماجر إلى التسابق الاستعماري والحروب الكلية ، وبدأت عوامل الهدم الداخلية تنشط بظهور الحركة العاملة التي تهدف إلى إلغاء النظام الرأسمالي جملة وإحلال نظام عاملي محله . وإزاء كل هذه الظروف التي جدت في الربع الأخير من القرن التاسع عشر زال عن البورجوازية الإنجليزية والبورجوازية الفرنسية ما كان لهما من اطمئنان سابق على المستقبل ، وتزعزع ما كان لهما من ثقة في « التقدم » ، وتشككتا في كفاية العقل والعلم لحل مشكلات الإنسانية ، بل ظهر منهما أنبياء مزيفون يتحدثون عن الكارثة المحدقة بالنوع الإنساني وينذرون بأنهار الغرب ، ويتوقعون حلول الساعة أو العودة إلى الهمجية الأولى ،

وانتقل التفاؤل والايمان بالعقل والعلم والثقة التي لا حد لها في « تقدم » الإنسانية من البورجوازية المنهارة إلى البروليتاريا الفتية التي تطالب حقها في الحياة . وقد كان طبيعياً هذا التعميم الذي نجده في فلسفة البورجوازية وفي فلسفة البروليتاريا ؛ فكل طبقة من طبقات المجتمع تتحدث عن الإنسانية ومصير الإنسانية ؛ لأنها تتوهم بالحق أو بالباطل أو بهما معاً أنها والإنسانية سواء . فولز يقف في منتصف الطريق بين البورجوازية والبروليتاريا ، وهذا هو سره الكبير ومفتاح شخصيته وأدبه معا . فقد أخذ عن البورجوازية إيمانها بالعقل والعلم أيام كانت تؤمن بالعقل والعلم . فلما زال عنها إيمانها بالعقل والعلم لم يعدل ولز عن إيمانه بالعقل والعلم . لماذا ؟ لأنه ليس بورجوازي صرفاً ، ولو قد كان لكفر بهما كما كفرت البورجوازية وليئس من المستقبل كما يئس . ولكنه لم يفعل من ذلك شيئاً لأن له أصولاً في البروليتاريا إلى جانب أصوله البورجوازية . لهذا كله ظل ولز قوة تقدمية عظيمة في المجتمع ، يبشر بالعقل والعلم ويحطم الاستسلام للعاطفة والانسياق أمام الخرافات . وهذه دلالة بطولية هذا المفكر ؛ فقد ثبت وحده أو بين تفرقيل على إيمانه بالحياة كأنه الصخرة التي لا تنزعزع ، ورأى الأرض تسوخ تحت قدميه في أواخر القرن الماضي وأدباء الكارثة من حوله يتجهرون ، فما عدل عن إيمانه بالعقل أو بالعلم . وهذا هو نصيب البروليتاريا الحقيقي فيه . فمن آمن بالعقل والعلم دفع البشرية إلى الأمام . ولكن ولز كما أخذ عن البورجوازية القوية إيمانها بالعقل والعلم ، أخذ كذلك عنها شيئاً من التشاؤم الذي اتصفت به حين كثرت فيها ومن حولها عوامل الهدم . وفاق ولز على مصير « الإنسانية » لا يبلغ مبلغ التشاؤم حقاً إلا قبيل وفاته ، وهو لون من الشك أو الخوف المعقول الذي يدفع إليه الحرص . فولز ليس من أدباء الكارثة أو مفكريها ، وإنما هو طبيب أمين ونبي يتكهن بالغيوب . وهو يرى أن أداة التقدم هي العقل والعلم ، ولكنه يرى كذلك أن تقدم الإنسانية ليس ضرورة تاريخية ولا جبراً مادياً كما يرى الماركسيون وطامة مفكري البروليتاريا المطمئنون إلى مستقبل الطبقة العاملة ، بل هو أمر جائز إذا دامت للإنسانية شروط التقدم وهذا غير مضمون . وكثرة الأوجاع التي تشقى بها الإنسانية في القرن العشرين وهول هذه الأوجاع من حروب مهلكة ونظم مدمرة لا يبشران بخير كثير ؛ فهو إذن يرى نذراً للكارثة ولا يرى الكارثة

نفسها . ولقد وقف و ل ز حياته أو شطرا عظيما منها يحذر الناس وينذرهم من ما لهم إن لم يراعوا . فالعقل والعلم عنده قد يكونان أداة خراب بمقدار ما هما أداة تعمير . والعلاج عنده هو إلغاء العاطفية والعدول عن ارتجال الحلول ، ثم الايمان بنفع التصميم . فعلى المفكرين والقادة والساسة أن يخرجوا العالم من هذه القوضى الراهنة ، بأن يضعوا له تصميما يسير عليه في مستقبله . والأصل في كل تصميم عند و ل ز هو تحطيم حواجز القوميات وإقامة حكومة عالمية تدبر شئون البشر من بلاد البنجوين إلى بلاد الأفيال . وهو لا يستطيع أن يتصور الأرض إلا كوكبا يسبح في الفضاء عليه نوع واحد عال هو النوع الإنسانى ، وإن كان لابد من قتال فليقاتل أبناء هذه الكوكب الطبيعة ، أو فليقاتلوا أبناء الكواكب الأخرى . وبالعقل والعلم وحدهما يستطيع أبناء الأرض أن يعمروا الأرض وأن ينهضوا وأن يتطوروا في الطريق المستقيم . وهذا التصور أو هذا الحلم الجميل يبعد كثيرا عن تصور البورجوازية للمستقبل ويقترب كثيرا من تصور البروليتاريا له . فالبورجوازية لا تتصور النوع الإنسانى تصورها وحدة منسجمة متماثلة ، بل تتصوره تصورها فرقا من الكائنات متجافية متنازعة على البقاء ؛ ليبقى على وجه الأرض أصلحها جميعا . والبروليتاريا تتصور النوع الإنسانى نوما من الأحياء واحدا في الجوهر وفي الممكنات ، فرقتة الطبقات المالكة بمختلف الفلسفات الدينية والعنصرية والإقليمية والثقافية ، وعلمته التناحر بدل أن تعلمه التفاهم والتعاون . وفي هذه الحدود خدم و ل ز جموع البروليتاريا بنشر فكرة من أفكارها الرئيسية . ولكن و ل ز لم يأخذ فكرة الحكومة العالمية أو فكرة التصميم العالمى عن فلاسفة البروليتاريا ، ماركس وإنجلز ولنين ، وإنما اهتدى إليها بحكم إيمانه بالعقل والعلم . فعقليته العلمية جعلته يفهم المجتمع البشرى Lafهما اجتماعيا بل فهما بيولوجيا ، أى جعلته يراه كما يرى نوعا من أنواع العضويات راقيا ومعقدا . فالنوع الإنسانى عند و ل ز حقيقة كلية ، حقيقة تميزه في ذهن العالم عن غيره من أنواع الحياة . والفروق الدينية والعنصرية والإقليمية والثقافية بين أصناف البشر إن كانت حقيقة ، فهى حقيقة جزئية لا تقوى أمام الحقيقة الكلية التى تقنع العلماء بوحدة النوع الإنسانى . و و ل ز الإنسانى يلمس أن حزازات المصلحة والدين والعنصر والثقافة تمنع النوع الإنسانى في مجموعه من التطور أو تدفعه إلى سبيل في التطور ينبغى أن يتحاشاها . و و ل ز

العالم الذي ألف أن يفكر في الإنسانية تفكيره في مادة عضوية كانت في بساطة الأميبا فأضحت في تعقيد أينشتاين ، ولز هذا شديد الخرض على أن يدوم للإنسانية ما كان لها من تطور ورقى . والضمان الأول في نظره هو إيجاد نظام عالمي يضع حداً لأسباب التأخر بين البشر كالفقر والجهل والمرض والحروب ، ويقضى على كل تكتل ديني أو عنصري أو ثقافي يمنع البشر من الإحساس بوحدتهم أو يدفعهم إلى التناحر وهدم الذات . واهتمامه بالنظام هو العالمي اهتمام عالم حريص على سلامة النوع الإنساني أكثر منه اهتمام مصلح حريص على سعادة البشرية في وضعها الحالي .

كذلك اهتدى ولز إلى فكرة العالمية اهتداءً بحكم موقفه المتوسط بين البورجوازية والبروليتاريا . فقربه من الطبقة العاملة هو الذي هدهد إلى التفكير الاشتراكي بما ينطوي عليه من إيمان بنظام الملكية العامة وإيمان بإنشاء ولايات متحدة عالمية ، ولكن صلته بالطبقة المتوسطة جعلت اشتراكيته اشتراكية طوبية كما يجب أن يصفها إنجلز ، أي اشتراكية عاطفية أو خيالية أو مثالية أو ما شاكل ذلك من النعوت ، أي اشتراكية لا تستند في تحقيقها على أصول مادية في المجتمع والحياة . فهو يبغى حقاً تطبيق نظام الملكية العامة ، ولكنه يكاد ينتظر من الطبقة المالكة أن تبادر إلى تطبيق هذا النظام . وهو يبغى حقاً إقامة حكومة عالمية ، ولكنه يحسب أن الحكومة العالمية ممكنة الإقامة في حدود الكادر القائم للأشياء . وهذا وجه الاختلاف بينه وبين فلاسفة البروليتاريا ، وهذا وجه صلته بالبورجوازية . وكما كثرت من حوله الحروب والصراعات والقنابل الذرية فتح عينيه في براءة الطفل الغريب وأبصر الهاوية وتحدث فيما يشبه الجزع عن الكارثة ، وطالب مخلصاً بوجوب العمل على تلافئها . ومن رأى الكارثة ولو لحظة واحدة خرج عن التعاليم الماركسية ، فالماركسية مطمئنة إلى مصير الطبقة العاملة ، وبالتالي مطمئنة إلى مصير الإنسانية . والماركسية لا يشوبها أدنى شك في أن النظام الاشتراكي قادم لا ريب فيه ، وأن الحكومة العالمية قادمة لا ريب فيها ، ومهما كثرت من حولها الحروب والصراعات والقنابل الذرية فهي تعلم أن هذه آلام الموت تعانيها البورجوازية قبل انطواء نظامها الرأسمالي . نعم ! الماركسية مطمئنة إلى مجيء الدولية اطمئنان المسيحية مثلاً إلى مجيء الجنة . والماركسية تتفاءل كل هذا التفاؤل لا لأنها

تجد ما يلزمها به في عالم الأحلام أو في عالم الأخلاق ، بل تتفاءل كل هذا التفاؤل لأنها تجد ما يسوغه في تطور التاريخ . فولز إذ يقلق على مستقبل الإنسانية لا يقلق على مستقبل البروليتاريا ؛ لأن مستقبل البروليتاريا في الفلسفة البروليتارية على الأقل مضمون ، ولكنه يقلق غير عامد على مستقبل البورجوازية ، فمستقبل البورجوازية لا يدعو إلى القلق فحسب بل يدعو إلى الجزع كذلك باعتراف فلاسفتها أنفسهم . ولز يقلق على مستقبل البورجوازية غير عامد ؛ لأن تصورهِ للإنسانية يشمل البورجوازية والبروليتاريا جميعاً . وما جاءه هذا التصور إلا بحكم موقفه المتوسط بين الطبقتين ، أى بحكم تبعيته للبورجوازية الصغيرة ، فهو يزعم لنفسه مكاناً « فوق » الطبقات . فإذا كان الارتفاع عن الطبقات ممكناً فقد ارتفع ولز أكثر مما ارتفع إنسان سواه ، وإلا كان مكانه الطبيعي عين المكان الذي وقف فيه برودون من قبل ، أى مكاناً « بين » الطبقات .

كل هذه أدلة صريحة على طوبوية ولز ، فمن أراد مزيداً وجده في قصصه ؛ فالنهج الذي نهجه ولز في فن القصة يدل على موقفه من المجتمع . فإذا نحن تجاوزنا عن القصص الواقعية التقليدية التي كتبها ولز البورجوازي الصغير للبورجوازية الصغيرة عن البورجوازية الصغيرة مثل « تونو بنجى » و « كيبس » و « سيرة مستر بولى » و « الحب ومستر لويشام » ، وإذا نحن تجاوزنا عن بحوثه الصريحة كنشراته الاشتراكية الفابية و « مجمل التاريخ » و « الإنسانية : عملها وثروتها وسعادتها » فإذا نجد ؟ نجد نوعاً من القصص غير مألوف ، هو الأساطير العلمية ، وأمثلتها كثيرة ، منها « آلة الزمن » و « طعام الآلهة » و « بشر كآلهة » و « حرب العوالم » و « حرب الهواء » و « جزيرة الدكتور مورو » و « الرجل الخفى » و « الزيارة العجيبة » ، وفيها يجتهد ولز أن يتصور مستقبل البشرية بل مستقبل الأحياء جميعاً إذا ما وضع العلم في خدمة المجتمع ، ويبنى تصوراتهِ هذه على مستكشفات العلوم ونظرياتها الثابتة . فهو يتصور المجتمع البشرى قد تطور ملتزماً قوانين النشوء والارتقاء التي قال بها لامارك وداروين ، فإذا بأفراده ضخام الرؤس صغار الأجسام إلى حد خرافى . وهو يتصور مصلاً تحقن به العجماوات فتتطور حتى تقترب من الآدميين . وهو يتصور محلولاً يشربه الناس فتشف أجسادهم حتى تمتنع رؤيتها على العيون . وهو يتخيل حرباً تنشب بين كوكبنا الأرضى وغيره من الكواكب ، إلى آخر هذا كله من إمكانات

التنبؤ التي يجوز للعلم فرضاً أن يحققها للحياة . ولكن الاتجاه العام في هذه الأساليب العلمية هو إقامة المدينة الفاضلة أو الطوبى كما يسميها بعض الكتاب أو الأوتوبيا كما يسميها آخرون . وهذه المدينة الفاضلة مدينة لا توجد إلا في عالم الأحلام ، وهي مدينة يبلغ المواطنون فيها درجة الكمال في كل شيء من حيث تكوينهم الشخصي ، ومن حيث صلاتهم الاجتماعية ، ومن حيث صلاتهم بالطبيعة ، وهي الوعد السعيد الذي ما لبثت الإنسانية تمنى نفسها به منذ فجر التاريخ . أما المتدينون فيعلمون بأن مكان هذه المدينة الفاضلة في العالم الآخر حيث كنا وحيث نعود ، وأما غير المتدينين من أمثال ولز فيعلمون أن إنشاء هذه المدينة الفاضلة في العالم الحالى أمر ممكن أو يرجون ذلك على أقل تقدير . وهؤلاء يذهبون في ذلك مذاهب شتى : فمنهم من يتخيلها جمهورية فاشية كأفلاتون ، ومنهم من يتخيلها جمهورية شيوعية كتوماس مور ، ومنهم من يتخيلها جمهورية فوضوية كولين موريس ، ومنهم من يتخيلها جمهورية علمية كولز . ولا جدال في أن الأساس الأول في أية مدينة فاضلة عند ولز هو تطبيق النظام الاشتراكي ، ولكن لاجدال كذلك في أن اهتمام ولز بتطبيق النظريات العلمية على مختلف وجوه الحياة في مدينته الفاضلة أشد وضوحاً من اهتمامه بتطبيق النظريات الاجتماعية . وليس غريباً في ولز هذا الاتجاه العلمى الطوبوى ؛ فقد نشأ في قرن العلم قرن داروين ومندل ودالتون وذر فورد وماكسويل وهكسلى ، وكان تخصصه الأول في علم الحيوان ، كما نشأ في عصر الطوبويات عصر أوسكار وايلد ووليم موريس وسامويل بتلر ، أيام تملل مفكرو البورجوازية من ممولى البورجوازية ، فأنحازوا إلى البروليتاريا غير مدركين ، واشتغلوا بنشر الاشتراكية وبناء المدن الفاضلة .

وهذه الاشتراكية الطوبوى في ولز تؤكد أصوله البورجوازية . فلو قد كان ولز مفكراً بروليتارياً أصيلاً لما أنصرف عن بناء مجتمع اليوم ، وهو شيء مادي واضح المعالم ، إلى بناء مجتمع الغد وهو شيء أشبه بنسيج الأحلام . وهل أدل على هذه الأصول القوية من أن ولز كلما كتب القصص الواقعى كتبه عن أبناء الطبقة المتوسطة الصغيرة بالذات ، وكلما كتب عن « الإنسانية » جمعاء لجأ إلى الأحلام وحمد إلى لغة الخيال ؟ إن الإنسانية العاملة والاشتراكية العاملة والكفاح العاملى ، أمور مادية وحقائق راهنة ، لا يمكن مفكراً عاملياً أصيلاً

أن يفر منها أو يؤجل النظر فيها حتى يتحقق مجتمع الغد القريب ، فكيف إذن
وغدٌ ولز غدٌ بعيدٌ ، غدٌ يحصى بالعصور الأرضية وبالسنين الضوئية ، ولقد
يحصى بالآباد يوم يتلغ الأرض اللهب ويصعد منها الدخان .

هذا هو الكاتب المحترف هربرت جورج ولز الذى عرف مهمة الكاتب
الناجح ، وأدرك سر النجاح فى الكتابة طول حياته ، وأصاب التوفيق بأول كتاب
نشره فى الناس ، فلم ينطو على نفسه ويكتب للخاصة ، ولم يبتذل ويكتب للدهاء
بل كتب للجمهور الكبير الذى يحسب له حساب ، كتب للرأى العام ، كتب
للرجل العادى . ولكن هناك استدراكا لا بد منه لفهم ولز وجولزورذى
وآرنولد بنيت وأتراهم من كتاب البورجوازية الصغيرة ، وهو أن الرجل
العادى الإنجليزى فى هذه المرحلة من تاريخ إنجلترا ليس العامل فى المنجم
ولا الصانع فى المصنع بل البورجوازية الصغير ، ذلك المتوسط الفقير الذى
يعيش على هامش النظام الرأسمالى ويتعلق بأهدابه ، وهو فى إنجلترا المعاصرة
بعد بالملايين ؛ لأن الرأسمالية الفردية أو الرأسمالية القومية نظام قد تغلغل فى
صميم الحياة الإنجليزية بحكم طابعها الإمبراطورى الذى يجعل البروليتاريا
الإنجليزية ذاتها بورجوازية صغيرة بالنسبة إلى عمال العالم المتأخرين منهم
والمتحضرين . ولقد فهم ولز أبناء هذه الطبقة فهما صحيحا ، ووصفهم وصفاً
أميناً ، لا فى قصصه الواقعية وحدها بل فى أساطيره العلمية كذلك . ولعل أتم
ختام لهذا البحث هذه الصورة الرائعة التى جاءت فى قصته « حرب العوالم »
وهى صورة لأبناء الطبقة المتوسطة الصغيرة لا ينقصها إلا الإطار :

« كل هؤلاء الناس ، هؤلاء الناس الذين يسكنون هذه الدور ، وأولئك
الملاعين من صغار الكتبة الذين سكنوا فى تلك الناحية ، كلهم قوم لا خير
فيهم ، فأجسادهم لا أرواح فيها ، ونفوسهم صغيرة لا تعرف الآمال الكبار
ولا الآشواق العظيمة . ومن خلت نفسه من هذه الآمال وهذه الآشواق فهو
رمة حية لا أكثر من ذلك ، رمة يتلفها الحرص ويدمرها الاحتياط . لقد
رأيت المئات منهم ، رأيتهم يهرولون من دورهم إلى أعمالهم وقد حمل كل فطوره
فى يده . رأيتهم يركضون جزعين لاهئين ليلاحقوا بقطارهم الرخيص خشية أن
يفوتهم القطار فيفصلوا من وظائفهم . رأيتهم يقومون بأعمال لا يفهمون من
طبيعتها شيئاً لأن الفهم يخيفهم ويضنيهم . رأيتهم يهرولون عائدين من أعمالهم

إلى بيوتهم خشية أن يتأخروا عن موعد العشاء ، ورأيتهم يلزمون بيوتهم بعد العشاء خوفاً من الشوارع الخلفية المظلمة . رأيتهم يضاجعون النسوة اللاتي تزوجوهن لاحقاً فيهن ، بل لأنهن يملكن قدراً من المال يطمئنون به على حياتهم التافهة الدنيئة التي يهرولون فيها من المبدأ إلى المنتهى ، وقد أمتن كل منهم على حياته واستثمر جانباً من ماله خوفاً من الحوادث . وفي أيام الأحد يقصدون إلى الكنيسة خوفاً من المجهول ، كأنما الجحيم قد أقم للفيران . »

لوسى عوض

LE MINOTAURE OU LA HALTE D'ORAN

ALBERT CAMUS

المينوتور^(١) أو وقفة وهران

[ألبير كامو كاتب فرنسي معروف من كتاب الجيل الحديث . نشأ في شمال أفريقيا واكتسب لنفسه مكاناً ممتازاً في الأدب حين نشر أسطورة « سيزيف » *Sisyphé* وهو كتاب يعرض فيه مذهبه في فلسفة العبث ، وقصة « الغريب » *L'étranger* التي تمتاز بعمق التفكير ويسر التعبير ، وبمسرحة اللتين نالتا في باريس فوزاً عظيماً وهما كاليجولا *Caligula* وسوء التفاهم *Le malentendu* . وقد اهتمنا بهذا الفصل الرائع في الأدب الوصفي الذي تنشره ليرى أدباء الشباب مذهب الكتاب الفرنسيين في النظر إلى الأشياء وتصورها واتخاذها وسيلة إلى التفكير والاعتبار .]

« إنني أتصوره في بلاط الملك مينوس موزع
: اللب قللاً يريد أن يعرف أي نوع من أنواع
الوحوش المروعة يكون المينوتور : أشبه إلى
هذا الحد؟ أم لعله أن يكون خلافاً جذاباً ؟ »
فكر غير متحيز

لم تبق من صحاري ولم تبق من جزر ، ومع ذلك فإن الحاجة تدعو إليهما ..
وإذا أردنا أن نفهم العالم فينبغي أحياناً أن نتحول عنه ، وإذا أردنا أن نخدم
الناس فعلياً أن نمسكهم نائنين عنا إلى حين . ولكن من لنا بالمكان الذي نجد

(١) المينوتور : وحش ، تذهب الأساطير اليونانية إلى أن نصفه آدمي والنصف الأعلى
ثور ، كان يتغذى بلحم بني آدم : سجن في لايرنت جزيرة أقريطش . وقد استطاع
هيركول أحد أبطال اليونان أن يهتدي إليه في اللايرنت بفضل خيط أعطته إياه أريان بنت
الملك مينوس وقتله .

واللايرنت ، أو قصر التيه ، يتألف من مجموعة لا حصر لها من الغرف الصغيرة المظلمة
المتداخلة ، يضل كل من دخلها ، ولا يمكنه الاهتداء فيها إلى الطريق .

فيه القوة والنفس الطويل الذين يجمع الفكر فيهما شمله ، وتقدير الشجاعة فيهما نفسها . هناك المدن الكبرى ، ولكنها في حاجة إلى بعض الخصال . فالمدن التي تعرضها علينا أوربا ملأى بهممة ذكريات الماضي . وفي وسع أذن متدربة أن تدرك حفيف بعض الأجنحة وخفق بعض النفوس ، تحس فيها دوار القرون الغابرة والثورات والمجد ، وتذكر فيها أن الغرب صهر وسط الصباح والعجيج . وليس كل هذا خليقاً أن يهيئ لنا ما نحتاج إليه من صمت . كثيراً ما تكون باريس صحراء بالقياس إلى القلب . ولكن قد تمر بعض الأحيان تهب فيها من فوق مقبرة « الپير لا شيز » ريح ثورية تملأ المدينة فجأة بالأعلام وبالوان العظمة المنهزمة . وكذلك الأمر بالقياس إلى بعض المدن الإسبانية أو إلى فلورنسا أو إلى براغ . وسالزبورج مدينة هادئة ساكنة لولا موزار ، فمن حين إلى حين تندفع على السلازك الصيحة المدوية المتكررة التي يدفعها دون جوان حين يلتقي به في أعماق الجحيم . وقد تبدو قيننا أدنى إلى الهدوء ، وهي فتاة بين المدن ، وحجارتها حديثة السن لا تتجاوز ثلاثة قرون ، فلا يعرف شبابها الأسى والشجون . غير أن فيننا ملتقى للتاريخ يدوى من حولها اصطدام الدول . وربما يمر بها مساء تصطبغ فيه السماء بحمرة الدم . ويخيّل إلينا فيه أن تماثيل الخيل الحجرية المقامة على الرنج توشك أن تطير . في هذه اللحظة العابرة يتحدث كل شيء عن التاريخ وما يحفل به من بأس ، ونستطيع أن نشهد في وضوح انهيار الدولة العثمانية تحت انقضاء الجيوش البولندية . وهذا أيضاً ليس خليقاً أن يهيئ لنا ما نحتاج إليه من صمت .

ولا شك أن الذي يبحث عنه في هذه المدن الأوربية هو تلك العزلة المأهولة ، أو على الأقل يبحث عنها أولئك الذين يعلمون ما يريدون . يستطيعون فيها أن يختاروا لأنفسهم الرفاق ، يستبقونهم حيناً ويتخلون عنهم حيناً . وما أكثر الذين صهرت الحياة نفوسهم وهم يقطعون الطريق بين غرفة فندقهم والأحجار القديمة في جزيرة سان لوى . (١) من الحق أن غيرهم أهلكتهم العزلة ، غير أنهم هلكوا لأنهم لم يكونوا على حظ كاف من الجلد وقوة الاحتمال .

(١) قلب باريس .

أما الأولون فقد حفزتهم هذه الوحدة إلى السمو وإلى تثبيت قلوبهم : كانوا في العزلة ولم يكونوا فيها : كانت ترافقهم على ضفاف نهر السين قرون من التاريخ والجمال تحدثهم عن شتى التقاليد وعن مختلف ألوان التقدم . على أن شبابهم كان يدفعهم إلى استدعاء مثل هذه المرافقة . ولكن أوقاتاً تلم وظروفاً تمر ، وإذا هذه المرافقة ثقيلة مرهقة . فقد صاح راستينياك أمام البقعة العفنة الضخمة التي كانت تتألف منها مدينة باريس : « ليصطرع اثنانا » . نعم كانا اثنين ، ومع ذلك كان العدد ضخماً .

والصحراء نفسها قد اتخذت معنى ؛ فقد حُمِلت شعراً وأصبحت من هذه الأماكن المقررة . والذي ينبغي القاب في بعض الأوقات ، هو على العكس من ذلك مكان لا شعر فيه . وقد أراد ديكارت أن يخلو إلى نفسه ليعين في التفكير والتأمل ، فاختار لذلك صحراءه ، مدينة كانت في ذلك الوقت من أكثر المدن تعاطياً للتجارة ، فوجد فيها عزلة . وكانت هذه العزلة مصدر وحى شعري لعله من أعظم شعرنا وأقواه ، نجد فيه هذه العبارة : « والمبدأ الأول ألا أتقبل شيئاً ما على أنه حق إلا أن أتبين ذلك بداهة » . وقد يكون المرء أقل طموحاً ولا يكون مع ذلك أقل ميلاً إلى الحنين . على أن أمستردام امتلأت منذ ثلاثة قرون بالمتاحف . وإذا أردنا أن نقرأ من الشعر لنلقى سكوت الأحجار ، فعلينا أن نبحث عن صحار أخرى ، عن أماكن لا روح فيها ولا عون . ووهران إحدى هذه الأماكن .

ليس من مكان لم يشوّهه أهل وهران ببناء شنيع يشوّه أى منظر طبيعي . تتوقع مدينة تستقبل البحر وقد فتحت عليه ، يربطها ويغسلها نسيم المساء ، ولكنك ، إذا استثنيت الحى الأسباني ، تجد مدينة تستدير البحر وقد بُنيت على شكل حلزوني وهي تدور حول نفسها على غرار بعض القواقع . فوهران سور ضخمة مستدير أصفر اللون تظله سماء قاسية . وفي أول الأمر تفضل في قصر التيه ، تبحث عن البحر كأنك تبحث عن خيط أريان . ولكنك تدور في شوارع ملتهبة قاتمة تحصر النفس ، وفي نهاية الأمر يلتهم المينوتور أهل وهران . وهذا الوحش هو السأم . ومنذ زمن بعيد لم يعد أهل وهران يهيمون على وجوههم في غير هدى ، فقد قبلوا أن ياتهموا .

ولن تستطيع معرفة الحجارة على وجه التحقيق إذا لم ترَ وهران . ففي هذه المدينة التي يطغى عليها الغبار ، يستأثر الحصى بالمكان الأول إلى حد أن التجار يضعونه في مقدمات حوائثهم لتثبيت الأوراق ، بل لمجرد العرض ، وتؤلف منه كومات على جوانب الطرقات ، ولا بد أن يكون ذلك لمتعة العين ، فإنك تجد الكومة في مكانها وقد يمرّ عليها طام . والأشياء التي تستمد شاعريتها من النبات في أما كن أخرى تتخذ هنا وجه الحجارة . فالأشجار التي قد تصادفك في مدينة التجار والتي لا تزيد في مجموعها على العشر يكسوها الغبار . فهي نباتات متحجرة تتساقط من أغصانها رائحة مريرة تربة . وللمقبرة العربية في مدينة الجزائر هدوء ودعة اشتهرت بهما . أما في وهران فاذا نظرت فوق وادي رأس العين ، وجدت بقاعاً من الأرض تواجه البحر هنا ، هي حقول من الحصى الجبرى المتفتت ، لاصقة بالسماء الزرقاء ، تشعل الشمس فيها حرائق طامسة تعمى الأبصار . ووسط عظام الأرض هذه ترى بين آن وآخر زهرة من زهور الجيرانيوم تهب لمنظر الطبيعة حياتها ودمها الرخص . وقد وجدت المدينة كلها في إطار متحجر . وإذا نظرت إليها من المزارع ، فإن صخور الشواطئ التي تحاصرها من الشّمك بحيث يخيّل إليك أن منظر الطبيعة خيالي غير واقعي لشدة معدنيته . وليس للإنسان فيه مكان لأنه قد أقصى عنه إقصاء . وكأن كل هذه الروعة المثقلة تأتي من عالم آخر .

وإذا جاز لنا أن نُعرّف الصحراء بأنها مكان لا روح فيه تسوده السماء دون سواها ، فإن هذه المدينة تنتظر إذن أنبياءها . فانت إذا نظرت من فوق المنازل ومن حولها رأيت الطبيعة الإفريقية الجافة العنيفة قد زينتها مفاتنها الوهاجة ، فهي تدفع المنظر المنكر الذي غمرت به فتصدّعه ، وترسل صيحات عنيفة بين كل منزل ومن فوق كل سطح . وإذا صعدنا في إحدى الطرقات الجانبية التي تتسلق جبل سانتا كروز ، فأول ما يبدو أمام أنظارنا هو مكعبات وهران المنتثرة الملونة . وإذا ما ارتفعنا قليلا ، فسرعان ما تظهر صخور الشواطئ الممزقة التي تحيط بالنجد وقد انحنت على البحر كأنها ضوار حمر . وإذا واصلنا التصعيد فهذه لطحات عظيمة تخرج فيها الشمس بالريح وتخيّم على المدينة الشعثاء المتناثرة في غير نظام بين مختلف أرجاء بقعة صخرية فتأخذها من جميع أقطارها ، وتجرى فيها الهواء وتخالط بعض أجزائها ببعض . وتجد هنا

المينوتور أو وقفة وهران

تقابلا بين الفوضى الإنسانية الهائلة وبين استقرار البحر المستوى دائماً . وهذا يكفي حتى تنتشر في الطريق الجانبي لسفح الجبل رائحة للحياة مذهلة .

وفي الصحراء خصلة القسوة التي لا تعرف اللين . فسماء وهران المعدنية اللون ، وشوارعها وأشجارها التي تغشاها طبقة من الغبار ، كل هذا يساهم في إنشاء ذلك العالم الكثيف الجامد الذي لا يشغل فيه القلب والفكر عن نفسيهما ، ولا عن هدفهما الفذ وهو الإنسان . وإني أتحدث هنا عن خلوات صعبة ، وقد وضعت كتب عن فلورنسا وأثينا . وهاتان المدينتان والمدن الشبيهة بهما كانت عدداً كبيراً من رجال الفكر الأوروبيين بحيث يجب أن تكون ذات مغزى . وهي تحتفظ بين طياتها بما يدعو إلى الحنين إليها والإكبار لها . وهي تسكن لوناً من ألوان الجوع تحسه الروح وتشبعه الذكرى . ولكن كيف الحنين إلى مدينة ليس فيها ما يغري الفكر ، والقبح نفسه فيها لا يمتاز بطابع خاص ، وماضيها ينتهي إلى لا شيء ؟ وفيم التعلق بما لا يستطيع أن يقدم لنا شيئاً ؟ وما الذي تحويه هذه الأماكن من أغراء : أهو الفراغ ؟ أم الملل ؟ أم السماء التي لا تعباً بشيء ؟ بل لعلها العزلة ، ولعلها الخليقة أيضاً . فخليقة حيث تروع تصبح وطناً مرّاً لأجيال من الناس . ووهران إحدى هذه الأوطان الكثيرة .

الشارع

كثيراً ما سمعت أهل وهران يشكون من مدينتهم قائلين : « ليس فيها أية بيئة ممتعة . » وكيف يمكن أن يكون ذلك ! فقد حاول بعض ذوى العقول الطيبة أن يؤقلموا في هذه الصحراء تقاليد عالم آخر وعاداته ، متبعين في ذلك المبدأ الذي يذهب إلى أنه لا يمكن خدمة الفن أو الفكر على خير الوجوه إلا إذا تضافرت على ذلك الجهود ^(١) . وكان من نتيجة هذا أن ما بقي في وهران من بيئات ممتعة إنما هي بيئات لاعبي البوكر ، وهواة الملاكمة والكرة الخشبية ،

(١) نجد في وهران كلينتاكوف بطل جوجول . فهو يتشاءم ثم يقول : « أشعر أن علي أن أعنى بعض الرفيع من الأمر » .

والجمعيات الإقليمية المحلية . في هذه البيئات على الأقل ينأى أهل وهران عن التكلف ويرسلون أنفسهم على سجيتها . وذلك واضح جلي . فهناك نوع من العظمة لا يستطيع أن يسمو ، فهو مجذب بطبعه . وعلى أولئك الذين يرغبون في استكشافه أن يتركوا البيئات وينزلوا إلى الشارع .

وشوارع وهران موهوبة للغبار والحصى والقيظ . وإذا سقط المطر كان طوفاناً وتحولت الأرض إلى بحر من الوحل . ولكن سواء أسطعت الشمس أم نزل المطر ، فإن الحيوانات تحتفظ بنفس المظهر العجيب الشاذ . وقد اصطلحت الألوان المختلفة من سوء الذوق في الغرب والشرق على أن تلتقي فيها . تجدها أكداساً من التحف ، فهذه كلاب سلوقية من المرمر ، وراقصات تصحبهن بجفات ، وآلهة صيد من الجلايت الأخضر ، وهؤلاء لاعبو الكرة الخشبية ، وحاصدو الحقول . بها كل ما يستعمل للهدايا والمسابقات وأعياد الميلاد ، وكل ما يتخذ طريق الحواصل ورفوف المدافئ . بها كل هذه المجموعة المحزنة التي لا تفتأ تلشها عبقرية تجارية مہرجة . على أن هذا الإيمعان في فساد الذوق يتخذ هنا مظهراً مضحكاً يجعلك تغتفر كل شيء . فهناك ما تحويه مقدمة أحد الحيوانات ، وقد عُرض مغموراً بالغبار : نماذج شنيعة من أرجل معدبة متأللة مصنوعة من الجبس ، ومجموعة من « رسوم رمبرانت مضحاة بمبلغ ١٥٠ فرنكا للرسم » وحافظات للأوراق النقدية مثلثة الألوان ، ورسم بالباستيل يرجع إلى القرن الثامن عشر ، وجحش ميكانيكي صغير مصنوع من قماش يشبه القطيفة ، وزجاجات من سائل خاص لتخليل الزيتون الأخضر ، وتمثال بغيض للعدراء قد اتخذ من الخشب ، ذات ابتسامة فاحشة (وحتى لا يجهل أحد ما تمثله كتبت « الإدارة » تحت قدمه هذه العبارة « تمثال للعدراء من الخشب » .)

وتستطيع أيضاً أن تجد في وهران ما يأتي :

أولاً — مقاهي ذات مناضد تلعب من الدرن ، مرشوقة بأقدام الذباب وأجنتحتها . وصاحب المقهى دائم الابتسام على الرغم من أن حاتته خالية دائماً . وكان ثمن القدح الصغير من القهوة ستين سنتياً والكبير ثمانين .

ثانياً — حيوانات للتصوير الفتوغرافي لم تتقدم فيها الصناعة الفنية منذ اختراع الوزق الحساس للتصوير . وهي تعرض مجموعة من الحيوانات العجيبة لا يمكن أن تصادفك في الطرق العامة ، منها الصورة التي تمثل بحاراً يسند

ذراعاً على كونسول . . ومنها الفتاة التي تؤهلها سنّها للزواج ، وقد حُزم خصرها بشكل مضحك ، فوقفت أمام منظر من مناظر الغابة وقد تدلت ذراعها إلى جانبيها . وتستطيع أن تقدّر أن صور هؤلاء الأشخاص لم تتخذ من نماذج طبيعية ، إنما هي مبتكرات أنشئت لإنشاء .

ثالثاً — عدداً وافراً من دور تجهيز الموتى ، لا لأن الناس يموتون في وهران أكثر مما يموتون في غيرها من المدن ، بل لأن الناس يعنون فيها بالموت أكثر مما يعنى به في غيرها.

والسذاجة المميزة لهذا الشعب من التجار والأجانب المستغلين تبدو جليلة حتى في طرق الإعلان . فقد قرأت في البرنامج المطبوع لإحدى دور السينما في وهران إعلاناً عن فلم من الطبقة الثالثة ، فلاحظت فيه النعوت الآتية : « باهر » ، « نغم » ، « مدهش » ، « أخاذ » ، « مذهل » ، « هائل » . ثم إن الإدارة تنبئ الجمهور بما تحملت من تضحيات عظيمة في سبيل تقديم هذا « الإخراج » العجيب . وعلى الرغم من ذلك فإن ثمن التذاكر سيبقى كما هو ولن يُرفع .

ومن الخطأ أن تظن أن في ذلك تصوراً لما يمتاز به أهل الجنوب من ميل إلى المبالغة ، بل إنما يبرهن واضعو هذا الإعلان على سداد حكمهم البسيكولوجي ؛ فإن عليهم أن يظهروا عدم الاكتراث والشعور السلبي المتأصل اللذين يستوليان على كل إنسان في هذا البلد حين يريد الاختيار بين حفلتين تمثيليتين أو بين صناعيتين أو حتى بين امرأتين ، فلا يقرر إلا مجبراً . وفنّ الإعلان يعلم هذا حق العلم ، لذلك يتخذ لنفسه مقاييس أمريكية ، فهو هنا مدفوع بنفس الدوافع التي تحمله هنا إلى الغلو والإسراف .

وأخيراً فإن شوارع وهران تظهرنا على المتعتين الأساسيتين اللتين ينعم بهما شباب المدينة ، وهما مسح الأحذية ، ثم عرض هذه الأحذية في الشارع العام . وإذا أردت أن تكون لنفسك فكرة دقيقة عن أولى هاتين المتعتين ، فعليك أن تكل نعليك الساعة العاشرة من صباح يوم أحد إلى أحد مساحي الأحذية بشارع جاليني . هنالك تستطيع وأنت جالس على مقعد مرتفع أن تتذوق اللذة الخاصة التي ينعم بها حتى غير الخبير في هذه الأمور، حين يشهد رجالاً مشغوفين بمهنتهم

كما يظهر ذلك في جلاء على مستاحي الأحذية الوهرانيين . تراهم يدققون في كل نقطة ويمعنون في كل تفصيل من تفاصيل مهمتهم . فهناك فرش متعددة ، وثلاثة أنواع من الخرق ومزج ماهر بين الدهان والبترين . وقد يتبادر إلى ظنك أن العملية انتهت حين ترى البريق النهائي الذي ينشأ على أثر استعمال الفرشة الناعمة . ولكن نفس اليد الصنّاع تعيد نشر الدهان على الطبقة اللامعة ، ثم تفركها ، ثم تطفى بريقها ، وتوصل الدهان إلى أعماق ثنايا الجلد ، فترتفع نفس الفرشة عن الحذاء وقد انبعث من أعماق الجلد هذا البريق المزدوج الأخير .

يبقى بعد ذلك عرض الأحذية . وإن أردت أن تقدر هذه المتع المستقاة من الطريق العام حق قدرها ، فعليك أن تشهد اجتماع الشباب في حفلات الرقص التنكري التي تقام كل مساء في الشوارع الكبرى للمدينة . فالشباب الوهرانيون من « أبناء الطبقة الراقية » المدين تترواح أسنانهم بين السادسة عشرة والعشرين يتخذون مثلهم العليا في الأناقة من السينما الأمريكية ، ويستعيرون هذا الزي التنكري كل مساء . فشرهم مجتهد لاصق برءوسهم يتجاوز طرف قبعة من الجوخ مائلة على الأذن اليسرى ومنكسرة على العين اليمنى ، وقد حُصرت العنق في ياقة ترتفع حتى تبلغ أطراف الشعر ، وأحاط بها رباط الرقبة يجمعه عقدة ضئيلة جداً يسندها دبوس لا مفر منه . والسترة تتدلى حتى تبلغ نصف الفخذ على سروال قصير فاتح اللون . وينزل الخصر فيكاد يبلغ الوركين ، وتسطع الأحذية التي تقوم على طبقات ثلاث من النعال . ترى هؤلاء الشباب يتبخثون كل مساء على أرصفة الشوارع يقرعونها بما ركب في طباعهم من ثبات جاش وما ركب في أحذيتهم من أطراف الجديد . وهم يتكلفون في كل هذا تقليد مشية كلارك جابل . وهيئته المطمئنة واستعلاءه الممتاز . من أجل ذلك يطلق ذوو البصائر الناقدة من أهل المدينة على هؤلاء الشباب في نطق غير معنى بدقته لقب « الكلارك » .

ومهما يكن من شيء ، فإن الطرق العامة في وهران جافة في أصيل كل يوم بجيش من الفتيان اليافعين الخفاف ، يتكفون أقصى الجهد ليظهروا بمظهر شباب سيء السلوك . ولما كانت الفتيات الوهرانيات يشعرن أنهن منذ الأزل شبه مخطوبات لهؤلاء المجرمين ذوي القلوب الرقاق ، فهن يتكفن أيضاً ما تتخذ أشهر الممثلات الأمريكيات من زينة وبهرج وأناقة . ونفس

البصائر الناقدة الماكرة تطلق عليهن لقباً مقابلاً وتسميهن « المارلين » .
 فإذا أقبل المساء وصعدت من النخيل المصفوف على جانبي الشوارع الكبيرة
 أصوات الطير مرتفعة نحو السماء ، التقت عشرات من « الكلارك » « و المارلين »
 يقيس بعضهم بعضاً بأنظارهم في ترفع ، ويقوم بعضهم بعضاً ، وقد سعدوا
 بالحياة والظهور ، فانسأبوا أثناء ساعة لنشوة الوجود الكامل السعيد . هنالك
 يقول الحstad إننا نشهد اجتماعات اللجنة الأمريكية . لكنك تحس في هذه
 العبارة مرادة السن التي جاوزت الثلاثين فلم يعد لأصحابها في هذه الألعاب
 أرب ، فهم يغضتون من هذه المؤتمرات اليومية التي يعقدها الشباب والخيال .
 والواقع أنها برلمانات الطير التي يتحدث عنها الأدب الهندي . لكن هذه
 البرلمانات التي تنعقد في شوارع وهران لا تشق على العقول في البحث عن مشكلة
 الوجود ، ولا تجسمها السعي نحو الطريق المؤدى إلى الكمال ، ولا تستبقي من
 الأثر إلا حفيف أجنحة مرهفة ، وزهو أبهة مبهرجة ، ورشاقة مدللة منتصرة ،
 وبهاء غناء مرسل غير مكترث يختفي مع الليل .

وكأنني أسمع كليستاكوف يقول : « أشعر أن علي أن أعنى ببعض الرفيع
 من الأمر . » وهو للأسف قادر على ذلك . ولو دفع إلى العمل كعمر هذه
 الصحراء قبل بضع سنين . ولكن حسب القلب أن يكون له حظ من عمق حتى
 يرغب في أن يخلص لنفسه وسط هذه المدينة السهلة وما تشتمل عليه من موكب
 فتيات مزينات بالمساحيق ، لكنهن مع ذلك لا يستطعن إثارة العاطفة ويتخذن
 من التدلل ثوباً رقيقاً شفافاً لا يستر ما وراءه من المكر ، وسرطان ما يكشف
 أمرهن . نعم ! الاهتمام ببعض الرفيع من الأمر ! وإن أردت ذلك فحول عينيك
 وانظر : هذه سانتا كروز قد نقشت في الصخر نقشاً . وهذه الجبال
 الشاهقة ، والبحر المستوى ، والريح العاضفة ، والشمس المحرقة ، ورافعات
 الأتقال في الميناء ، والقُطر ، والمستودعات ، والميناء نفسه ، وهذه الدرجات
 الهائلة التي تتسلق صخرة المدينة ، وفي المدينة نفسها هذه الألعاب وهذا الملل ،
 هذه الضوضاء وهذه العزلة .

وقد لا يكون في ذلك سمو كافٍ . ولكن القيمة الكبرى لهذه الجُور
 المكتظة بالسكان أن القاب يتجرّد فيها من كل شيء . فليس إلى الصمت الآن

من سبيل إلا في هذه المدن التي تملؤها الضوضاء . وكتب ديكارت وهو في أمستردام إلى بلزاك القديم : « إنى أتنزه بين شعب ضخم مختلط فأنعم بحظ من الحرية والراحة لا يقل عما تنعم به في طرقات حديقتك » .

الألعاب

يقيم النادي الرياضى المركزى بشارع الفندق حفلة ملاكمة ، ويؤكد أن الهواة الحقيقيين سيقدرونها حق قدرها . وإذا أردنا أن نترجم هذا الإعلان إلى لغة واضحة فمعناه أن الملاكمين الذين سيتبارون ليسوا من الشهرة وذويع الصيت فى شيء ، وأن بعضهم يرقى إلى جلقة الملاكمة لأول مرة . فإذا لم ننتظر من المتخصصين فناً ممتازاً ، فلننتظر منهم على الأقل شجاعة وإقداماً . وقد أثارنى أحد أهل وهران إذ وعدنى وعداً قاطعاً « بأن سىراق فى هذه المباراة دم » ، فرأيتنى فى هذا المساء بين الهواة الحقيقيين .

ويحيل إلى أن هؤلاء الهواة لا يتطلبون أبداً لأنفسهم شيئاً من الرفاهية . فقد أقيمت حفلة ملاكمة فى نهاية شيء يشبه أن يكون حظيرة للسيارات ، طلى بالجير وغطى بالصفيح الموج وأضىء إضاءة عنيفة ، ووضعت مقاعد من تلك التى تطوى ، فرُصّت على شكل مربع حول الحبال . وهذه « مقاعد الشرف » ، ووضعت مقاعد أخرى فى طول القاعة . وفى نهاية هذه القاعة يمتد مكان فسيح خال يُسمى « الممشى » ؛ وذلك لأنه لايسوغ لواحد من المئات الخمس الحاضرة أن يخرج مندبيله دون أن يحدث حدثاً . فى هذا الصندوق المستطيل يتنفس نحو من ألف رجل وامرأتان أو ثلاث ، من أولئك اللاتى يهمن دائماً « استرعاء النظر » كما حدثنى بذلك جارى . والنظارة جميعاً يتصببون عرقاً يوشك أن يغمرهم . وبينما هم ينتظرون معركة « الآمال » يدك فنوغراف ضخم صنوفاً من أغاني « تينوروسى » ، وهو اللحن الذى يتقدم القتل .

وصبر الهواة الحقيقيين لأحد له ؛ فقد أعلن أن الحفلة ستبدأ الساعة التاسعة مساءً ، وقد انقضت الساعة العاشرة ولم تكن بدأت ، ولم ينكر ذلك أحد . والريبع حار ، وقد انتشرت فيه رائحة مثيرة تنبعث من هذه الإنسانية التى تجرأت من سترتها . والمناقشة حادة يفصلها فرقعات منتظمة لصمامات القازوزة .

والعويل النائم غير المنقطع الذي يصدر من المعنى الكورسيكي في غير ملل أو كل . ويقجم ببعض القادمين من المتفرجين بين الجمهور ، وإذا بفانوس يعطر على حلقة الملائكة ضوءاً يخطف الأبصار ، إيذاناً ببدء النضال بين « الآمال » . والآمال أي المبتدئون الذين يناضلون في سبيل المتعة دون سواها ، يجتهدون دائماً في أن يبرهنوا على ذلك بتضحية أنفسهم في لهف ، غير عابئين بأية قاعدة من قواعد الفن . وهؤلاء المبتدئون لا يتجاوز نضالهم مطلقاً ثلاث جولات . وبطل الليلة في هذا المضمار هو الفتى كيداقيون الذي يجول أثناء النهار بأوراق اليانصيب يبيعها على شرفات المقاهي . وهذا خصمه قد دفع إلى خارج الحلقة في مبدأ الجولة الثانية على أثر ضربة أصابته من يد انتهالت عليه بسرعة عجيبة . وأخذ جمهور النظارة يتحمس قليلاً ، ولكنه مازال تحمساً مجاملاً . تحس هذا الجمهور غارقاً في لذة عميقة ، يستنشق الرائحة المقدسة المنبعثة من الدهان الذي يدهن به المتلاكان ، ويشهد في لهف تتابع هذه الطقوس البطيئة والقرايين المختلة النظام . ويزيد هذا المنظر صدقاً تلك الرسوم التي ترسمها على الحائط الظلال المكافئة . وهذه مقدمات مقررة لدين وحشى . أما الساعة الرهيبة فتأتي بعد ذلك .

وهذا مكبر الصوت يعلن : غمّار « الوهراني الضلب الذي لم يقهر » ضد بيريز « الملائكة الجزائري الشهير » . وقد يسىء من لم يكن من أهل الفن تأويل الصباح الصاخب الذي يلقي تقديم الملائكين في حلقة الملائكة ، فيتصور نضالاً عظيماً يفرض فيه الملائكة نزاعاً شخصياً يعرفه الجمهور . والواقع أنه نزاع سيفضائه ، ولكنه النزاع الذي يفرق في غلظة وشراسة بين مدينتي الجزائر وهران منذ مائة عام . ولو قد مضت على هذا النزاع بضعة من القرون لجرت كلتا المدينتين الإفريقيتين على صاحبتهما من الشر والهول مثل ما كان بين ييزا وفلورنسا في أزمان أعظم حظاً من السعادة والهناء ، ويزيد الخصومة عنفاً أنها في أغلب الظن لا ترجع إلى سبب . وإذ تهيأت لهما كل الأسباب التي تدعوها إلى تبادل المودة ، فهما على العكس من ذلك تتبادلان البغض بنفس هذا القدر . فالوهرانيون يهيمون الجزائريين « بالتحديق » . والجزائريون يذهبون إلى أن الوهرانيين « غلاظ جفأة لا حظ لهم من ترف » . وهذا سباب أشد إقذاً مما يبدو في ظاهر الأمر ، لأنه يتصل بالمعاني المجردة لا بالحقائق الواقعة . وإذ حيل بين المدينتين وبين

الحرب وما تقتضيه من حصار ، فهما تلتقيان وتتفاضلان وتتسابان في ميادين الرياضة والإحصائيات والأعمال الكبار .

هي إذن صفحة من صفحات التاريخ تشر على حلقة الملاكمة . والوهراني الصلب يشد أزره نحو ألف صوت من الأصوات الصاخبة ، وهو إذ يهاجم يبرز يدافع بذلك عن نهج معين في الحياة وعن نحر إقليمه بأسره . والحق يضطرننا إلى أن نقول إن عماراً لا يحسن توجيه النضال ؛ فإن في مرافقيه عيباً شكيئاً ، إذ ينقصه طول الساعد ، في حين أن ذراع الملاكم الجزائري ، على العكس ، تصل إلى الطول المطلوب ؛ فهو يصيب بطريقة مقنعة خصمه في حاجبه . وإقليم وهران تزدهيه الخيلاء وسط الضجيج الصاخب للجمهور أطلق عنانه . وعلى الرغم من التشجيع المتصل الصادر من الجمهور ومن جاري ، وعلى الرغم من الصيحات المشجعة له « اخترمه ! » ، « أعلِفْهُ التراب ! » ، والصيحات المنكرة على خصمه أنه يضرب في غير موضع للضرب ، وأن المحكم لم يَر شيئاً والصيحات المتقائلة : « لقد امتص ! » ، « لم يبقَ به رمل ! » — على الرغم من كل ذلك فقد أعلن انتصار الجزائري بالأبناط وسط صياح استنكار لانهاية له . وجاري الذي لا يفتأ يتحدث عن الروح الرياضية فيصفق بشكل يتكلف الوضوح ، وفي نفس الوقت يهمس في أذني بصوت يكاد يضيع وسط هذا الصياح : « وكذلك لن يستطيع أن يقول « هناك » إن الوهرانيين غلاظ جفاة » .

على أن ألواناً من الصراع لم ينبء بها البرنامج قد ثارت في القاعة . فهذه كراسي ترفع ، والشرطة تشق لنفسها طريقاً ، والهياج يبلغ أشده . ولتهذئة الخواطر ، والعمل على استعادة الهدوء ، أسرع « الإدارة » فكلفت الفونوغراف بصياح أغنية « سامبر وموز »^(١) وقد اتخذت القاعة أثناء لحظات مظهراً رائعاً . فهذه عناقيد متشابكة من المتشاجرين ومن المحكمين المتطوعين تترجح تحت قبضات رجال الشرطة ، والجمهور صاخب يطالب ببقية البرنامج يعبر عن رغباته عن طريق أصوات متوخشة أو صيحات تريد أن تشبه صياح الديك أو عويل القط . وكل هذا غارق في النهر الجارف للموسيقى العسكرية . على أنه يكفي الإعلان عن الصراع الهام حتى يعود الهدوء . ويتم ذلك فجأة

(١) إحدى الأغاني العسكرية الحماسية الشهيرة .

دون تدرّج ، كما يغادر الممثلون المسرح حين تنتهي القصة ، فتُنْفَضُ قبعات ،
وتُصَفّ مقاعد في سرعة وسهولة ، وتتخذ الأوجه في غير تردد المظهر العطوف
للمتفرج الطيب الذي أدّى ثمن تذكرته ليشهد حفلة عزف موسيقا للأُسر .
وفي الصراع الأخير يلتقي بطل فرنسي من أبطال البحرية بملاكم وهراني .
أما هذه المرة فالاختلاف في طول الساعد في صالح الوهراني . على أن امتياز
أثناء الجولات الأولى لا يحرك الجمهور ؛ فهو يفتق من هياجه ، ويستعيد
هدوءه ، ولا يزال قصير التنفس . فهو يصفر ، ولكن في غير حماسة عدائية
وتنقسم القاعة إلى فريقين كما تقضى بذلك القواعد التقليدية . ولكن انحياز
كل متفرج إلى أحد الخصمين يشوبه عدم الاكتراث الذي يلي بذل الجهد
الكبير . فإذا ما قاوم الفرنسي ، أو إذا ما نسي الوهراني أنه لا يصح الهجوم
بالرأس ، انهالت على هامة الملاكم موجة من الصفيح فختها ، ولكن لا تلبث
أن ترفعها زوبعة من التصفيق . ولا بد من الوصول إلى الجولة السابعة حتى
تطفو الرياضة على سطح الماء ، في ذات الوقت الذي يأخذ فيه الهواة الحقيقيون
يطفون من أعماق إعيائهم . لقد ألقى الفرنسي على الأرض ، ورغب حينئذ في
أن يكسب لنفسه أبناطاً ، فانهاه على خصمه . قال جاري : « هانحن أولاً ، قد
وصلنا ، سنشهد الآن صراع الثيران . » فعلاً كان صراع ثيران . فالملاكمان
يتصبيان عرقاً تحت الضوء الضعيف ، وقد أخذوا يبدآن الهجوم ويضربان مغمضى
العينين ، ويدفعان بالأكتاف والركب ، ويتبادلان الدم ، ويستنشقان في حدة .
وفي نفس اللحظة وقف جمهور المتفرجين ، وأخذ يقطع جهود البطلين كما يقطع
الشعر ؛ فهو الذي يتلقى الضربات ويردّها ، ويسمع دوى ذلك في ألف صوت
كلها أصم لاهث . وهؤلاء المتفرجون الذين اختاروا بطلهم في غير اكتراث
يلتزمون اختيارهم في تعنت وولع شديدين . ولا تمرّ عشر ثوانٍ حتى يكرر
جاري صيحة تخرق أذنى اليمنى : « هيا يا أزرق الياقة ! هيا للبحرية ! » على حين
يصيح متفرج أمامنا للوهراني بالإسبانية : « تقدم أيها الرجل ! » والرجل
والياقة الزرقاء يتقدمان ، وتتقدم معهما في هذا المعبد المبني من الجير والصفيح
والإسمنت قاعة بأسرها تهب نفسها كاملة لآلهة منخفضة الجبين . وكل ضربة
تدقّ صمّاء على الصدور اللامعة تدوى في شكل تموجات هائلة على جسم الشعب
نفسه الذي يبذل مع الملاكين آخر جهد من جهوده .

وما دام الجو قد تهيأ على هذا النحو ، فإن المباراة التي تنتهى إلى عدم فوز أحد الخصمين تقع موقعا سيئا في نفوس النظارة ، فإنها تؤذى في الجمهور حساسية مانوية . فهناك الخير والشر ، والمنتصر والمنهزم . وإذا لم تكن مخطئا فلا بد أن تكون صائبا . ونتيجة هذا المنطق الدقيق الذي لا يتسرب إليه الخطأ تتقدم بها في الحال أصوات صادرة من ألفى رئة عنيفة ، وتتهم القضاة بالارتشاء . غير أن ذا الياقة الزرقاء سعى إلى خصمه يقبله على الحلقة ويشرب من عرقه الأخوى . وهذا كفيل بأن تنقلب مشاعر القاعة فتنتطلق مصفقة . وجارى محق بلا شك فيما قال ، فليسوا جفاة ولا غلاظا .

والجمهور الذي يتفرق في الخارج تحت سماء يغمرها السكون ، وتعلوها النجوم قد شارك في أشد المعارك إضناء ، وهو صامت يتسرب خلسة دون أن يقوى على التأويل والمناقشة . هناك الخير والشر . وهذا الدين لا هوادة فيه . لم تعد جماعة المؤمنين به إلا حشداً من الظلال السوداء والبيضاء التي تختفي في ظلمات الليل . فالقوة والعنف إلهان منفردان ، وهما لا يمنحان الذكرى شيئا ، على حين يوزعان معجزاتهما في الزمن الحاضر ملء اليدين . وهما قد فُصلا على قدر هذا الشعب الذي لا ماضى له والذي يقيم شعائره الدينية حول حلقات الملاكمة . وهي طقوس تشق أحيانا ولكنها تبسط كل شيء . الخير والشر ، المنتصر والمنهزم . أما في مدينة كورينتوس ، فقد قام معبدان متجاوران : معبد العُنف ، ومعبد الضرورة .

المباني والآثار

هنالك أسباب عدة يرجع بعضها إلى الاقتصاد وبعضها الآخر إلى علوم ما بعد الطبيعة ، تدفعنا إلى القول إن الطراز الوهراني (إن كان هناك طراز وهراني) يبدو في قوة ووضوح في البناء الغريب الذي يدعى « منزل المستغل » . والمباني والآثار كثيرة في وهران . فالمدينة لها نصيبها الضخم من تماثيل القواد الحريين والوزراء ورجال الخير المحليين . تلقاها في ميادين صغيرة مغبرة أسامت أمرها للمطر والشمس ، واستحالت هي أيضا إلى جو الحجارة والسأم ، ولكنها تمثل تأثيرا خارجيا . ففي بلاد البربر هذه السعيدة تعتبر دلائل للمدينة باعثة على الأسف .

أما وهران فعلى العكس من ذلك أقامت لنفسها هياكلها الخاصة . فقد رغب الوهرانيون في أن يبنوا وسط الجي التجاري بناء يضم مختلف الهياكل الزراعية التي لا حصر لها والتي تعتبر مورد الحياة لهذا البلد ، فكثروا في أن يقيموا بالرمل والجير صورة مقنعة تبين خصالهم ، وبنوا « منزل المستغل » . وإذا اعتمدنا على هذا البناء لإصدار حكمنا ، تبين أن هذه التحصيل ثلاث : الجرأة في الذوق ، والجنوح إلى العنف ، والحدق في الجمع بين الاتجاهات المختلفة للتاريخ . فقد شارك كل من مصر وبيزنطة وميونخ في إقامة هذا البناء الرقيق الذي يشبه قطعة من الحلوى تمثل كأساً مقلوبة . وقد كسى السقف بأحجار متنوعة الألوان عنيقة التأثير . وهذه الأحجار الحادة اللون من الإقناع بحيث لا تتيح لك ملاحظة شيء لأول وهلة . على أنك إذا اقتربت منها ، وقد استرعى انتباهك ، تبين أن لها مغزى : فهذا مستغل رشيق له رباط عنق على شكل فراشة ، وتغطي رأسه قبعة بيضاء من القل ، يتلقى عبارات الإجلال التي يتقدم بها موكب من الرقيق مرتدين رداء قديم الطراز . وقد أقيم البناء ذو النقوش الملونة على مفترق للطرق ، تذهب وتجيء فيه عربات الترام الضئيلة ، التي تغري قذارتها بزيارة المدينة .

ومن جهة أخرى فإن وهران فخورة جداً بأسديها الذين يقومون في ميدان السلاح . ومنذ سنة ١٨٨٨ يتصدران جانبي السلم في دار البلدية . وكان صانعهما يدعى قاتين . والأسدان قصيرا القامة ولهما روعة وجلال . ويقال إنه إذا كان الليل ، هبطا من قاعدتهما أحدهما إثر صاحبه فطوفا حول الميدان المظلم ، ثم بالا طويلاً تحت أشجار الجميز الضخمة المتربة . وهذه بالطبع أحاديث يعبرها الوهرانيون آذاناً صاغية ، ولكنها غير معقولة .

وعلى كثرة البحث لم أعثر من أمر قاتين هذا بشيء . غير أنه كان مشهوراً بأنه مثال حيوانات حاذق . على أنه كثيراً ما أفكر فيه ؛ فهو قد سلك إلى وهران منحدرًا خاصاً من منحدرات العقل . فهذا مثال ذو اسم رنان ترك هنا أثراً غير ذي خطر . ومع ذلك فإن مئات الآلاف من الرجال أنسوا تلك الوحوش الحليمة التي وضعها أمام دار البلدية المزهوة بنفسها . وهذه إحدى وسائل النجاح في ميدان الفن . ولا شك أن هذين الأسدين إن دلّا على شيء فهما يدلان على شيء آخر غير النبوغ ، شأن آلاف من الآثار الأخرى . وقد

استطاع بعض الفنانين أن يخرجوا « طوف الليل » و « القديس فرانسوا يتلقى اللوسم » و « دافيد » و « تمجيد الزهرة » . أما قاتين فقد أقام حيوانين مضحكين في الميدان العام لإحدى المدن التجارية من وراء البحار . على أن تمثل « داود » قد يهوى يوماً مع فلورنسا ، ويُنقذ الأسدان من الدمار . وأعود فأقول إنهما إن دلّ على شيء فليس على النبوغ .

ومالي أتعلم هذه الفكرة ، فإن ذلك الأثر يشتمل على تفاهة ومتانة . ليس للفكر فيه نصيب ، وللمادة النصيب الأكبر . تريد الرداءة أن تبقى بكل الوسائل ومنها البرونز . يأتي الناس أن يكون لها حقوق أبدية ، وهي تغتصب لنفسها هذه الحقوق في كل يوم . أليست هي الأبد ؟ ومهما يكن من شيء ففي هذا الثبات ما يدعو إلى التأثر ، وهو يحمل بين طياته درساً ثميناً وهو الدرس الذي تلقّيه جميع مباني وهران وآثارها ، بل تلقّيه وهران نفسها . ففي خلال ساعة من ساعات اليوم ، ومرّة بين المرات ، يرغمك هذا الدرس على أن توجه عنايتك إلى مالا أهمية له . ويستفيد الفكر من هذا الرجوع إلى نفسه ، فهو رياضة له . وما دام في حاجة إلى أن يقضى بعض الوقت متواضعاً ، فيخيل إلى أن هذه فرصة خير من غيرها تمكنه من النزول إلى مستوى البلاهة . وكل ما من شأنه القضاء يريد أن يبقى . فلنقبل إذن إن كل شيء يريد البقاء . فليس للأعمال الإنسانية مغزى آخر . وإذا نظرنا إلى أسدي قاتين من هذه الناحية ، فإن لهما في البقاء حظاً لا يقل عن حظ آثار « أنكور » . وهذا يغري الإنسان بالتواضع .

وهناك مباني وهرانية أخرى ، أو على الأقل ينبغي أن نطلق عليها هذا الاسم ما دامت هي أيضاً تشهد للمدينة ، وقد تكون أقوى تعبيراً في شهادتها ، أعني بها الأعمال الكثيرة التي تستغرق من الساحل الآن نحو عشرة كيلومترات . ويظهر أنه يُراد تحويل خليج من أبهى الخلجان إلى ميناء ضخم . والواقع أنها فرصة جديدة يواجه فيها عزم الإنسان صلابة الصخر .

وقد ترى في لوحات لبعض أساتذة الفن الفلمنك موضوعاً نخباً يثير الإعجاب ويعود إليه هؤلاء الفنانون في إنجاح متصل ، وهو بناء برج بابل . ترى مناظر طبيعية غير مالوفة ، وصخوراً تتسلق السماء ، ومنحدرات وعرة يعرج فيها العمال

المنوتور أو وقفة وهران

والحيوان ، وتنتثر السلام والآلات الغربية والحبال والجرارات ، ولا يظهر الإنسان في هذا الميدان إلا ليعطيه الطابع الذي يتجاوز الطاقة الإنسانية . وهذا هو الذي تفكر فيه حين ترى الرصيف الذي يتخذ على الساحل شرق وهران .

فقد تعلقت بمنحدرات ضخمة قضبان من الحديد ، وعربات دقاق ، ورافعات للأثقال ، وقطارات ضئيلة . في هذه الشمس المهلكة ترى قطرات كأنها لعب الأطفال تدور حول صخور ضخمة بين الصفيز والغبار والدخان . وينشط ليل نهار شعب من النمل على هيكل الجبل الداخن ، وقد تدلى طوال جبل واحد ملتصق بالصخر البحري عشرات من الرجال أسندوا بطونهم على مقابض ثاقبات أو توماتيكية ، ويضطربون في الفضاء طوال النهار ، فيستخرجون قطعاً هائلة من الصخر تهوى بين الغبار والدوى . وعلى بعد منهم تنقلب عربات صغيرة من أعلى المنحدر قهوى الصخور بخافة في البحر ، طائرات متدحرجات كأنها سرب من الأطفال أطلقوا من المدرسة . وبين فترات منتظمة ، في قلب الليل أو في جوف النهار ، يسمع دوى يزلزل الجبل كله ويرفع البحر نفسه .

والإنسان وسط هذا كله يهاجم الصخر وجهاً لوجه . فإذا أتيح لنا أن ننسى لحظة الرق القاسى الذي يقوم على أساسه هذا العمل ، فلا سبيل إلى التخلص من الإعجاب الذي يستأثر بنا . هذه الأحجار التي تقطع من الجبل مسخرة لخدمة الإنسان ، فهي تتراكم تحت الموجات الأولى ، ثم تطفو شيئاً فشيئاً ، وأخيراً تنتظم على شكل رصيف لا يلبث أن يغطي بالآلات والرجال الذين يتقدمون في عرض البحر يوماً بعد يوم . ولا تفتأ آلات ضخمة من الفولاذ تشبه الأفكاك تقضم بطن الصخور البحرية ، دائرة حول نفسها ، ثم مفرغة في الماء شحنتها الحجرية . وكلما هبطت جهة الساحل تقدم الشاطئ نحو البحر تقدماً لا سبيل إلى دفعه .

ولا ريب في أن إبادة الصخر غير ممكنة . إنما الممكن نقله من مكان إلى مكان . وهو على كل حال سيبقى أكثر من الرجال الذين يستخدمونه . ولكنه في الوقت الحاضر يدعم إرادتهم في العمل . ولا شك أن هذا نفسه غير مجد . على أن نقل الأشياء من أماكنها هو عمل الإنسان . فعليه أن يختار بين أن يعمل هذا ، أو لا يعمل شيئاً . ويبدو أن الوهرانيين قد اختاروا لأنفسهم مصيرهم . فأمام

المينوتور أو وقفة وهران

هذا الخليج الساكن المتقن ، ولسنوات مقبلة عديدة ، سيكدسون أكواماً من الحصى طوال الشاطئ . وبعد مائة عام ، أى غدا ، ينبغي استئناف ذلك كله . أما الآن فهذه الأكاداس من الصخور تشهد للرجال الذين يجولون وسطها وقد علا وجههم قناع من التراب والعرق . فبانى وهران الحقيقية وآثارها إنما هي أحجارها .

مهمبر أرباب

يذكرنى الوهرانيون بصديق فلوير الذى ألقى وهو يحتضر نظرة أخيرة على هذه الأرض التى لا تستعاض وصاح : أغلقوا النافذة ، فقد بلغ المنظر من الروعة أقصاه لقد أغلقوا النافذة وأقاموا حول أنفسهم سوراً ، ورصدوا المنظر من حولهم بالعزائم والرقى . غير أن ليبواتشان توفى ، واستمرت بعده الأيام تتصل بالأيام . وكذلك الحال من وراء الأسوار الصفر التى تحيط بوهران . تمضى الأرض والبحر فى جوارهما غير مكترئين . وقد أثار العالم فى الإنسان باستمراره فتنة متناقضة ، فهو يبعث فيه اليأس ويحيى فيه الابتهاج . لا يقول العالم للإنسان إلا شيئاً واحداً فيثير فيه الشوق ، ولكن لا يلبث أن يرده إلى الملل . وهو الفأز آخر الأمر لا إلحاحه فى الإصرار ، وهو المصيب دائماً .

وعلى أبواب وهران نفسها تأخذ الطبيعة فى رفع صوتها . فمن ناحية كانا ستيل تمتد أرض بور بعيدة الأرجاء تغطيها آجام ينبعث منها عرف ذكى . والشمس والهواء لا يتحدثان هنا إلا عن العزلة . وفوق وهران تمجد جبل ساتتا كروز والنجد وعدداً لا يحصى من مجارى السيل العميقة التى ترقى إليه . وهناك طرق ، كانت مطروقة فيما مضى ، تتعلق بجوانب التلال المشرفة على البحر . فإذا كان شهر يناير اكتسى بعضها بالزهر الأبيض والذهبي فأصبحت طرقات بديعة طرزت بالصفرة والبياض . وقد قيل كل شئ عن جبل ساتتا كروز . ولو أن لى أن أصفه ، لأغفلت ذكر المواكب المقدسة التى تصعد فى التل القاسى فى الأعياد الكبرى ، ولذكرت ألوانا أخرى من الحج ، وهى ، زيارات فردية منعزلة تتخذ طريقها فى الصخر الأحمر ، وترتفع فوق الخليج الساكن فتقضى فى هذه الأماكن الجرداء ساعة مضيئة رائعة الكمال .

الينوتور أو وقفة وهران

على أن لوهران صحاريها الرملية أيضاً . وهي شواطئ قمر على بعد نحو عشرين كيلو متراً من المدينة . وتلقاك صحار أخرى غير هذه قبل الوصول إلى المدينة على مقربة من أبوابها ، ولكنها ليست مهجورة إلا في الشتاء وفي الربيع . وهي حينئذ أنجاد مواجهة للبحر يغطيها زهر الأسفوديل . وتكثر فيها الفيئات الصغيرة العادية المبعثرة وسط الأزهار . ويزار البحر شيئاً أسفل النجد ، غير أن الشمس ، والرياح الخفيفة ، وبياض الأزهار ، وزرقة السماء التي تكون أخذت في الصفاء ، كل هذا يؤذن بمقدم الصيف ، فيرى الإنسان في خياله الشباب الذهبي الذي يغمر الشاطئ حينئذ ، والساعات الطوال التي تقضى على الرمل ، والعدوبة المفاجئة التي تحل في المساء . وفي كل عام ترى على هذه الشواطئ فوجاً جديداً من الفتيات كأنهن زهرات جديدة . وقد يلتقي في روعك أنهن لا يعيشن إلا فصلاً واحداً . وإنما تخلفهن من قابل زهرات جديدة لم تكن في العام السابق إلا بنيتات صلاب الأجسام كأنهن براعم الزهر . وفي الحادية عشرة من الصباح تنساب كل هذه الأجسام الفتية من النجد ، وتنهمر على الرمل كأنها موجة مختلفة الألوان .

فإذا مضيت في سيرك غير مبعد عن هذا المكان الذي يضرب فيه مائتا ألف رجل كأنهم في دائرة مفرغة ، وجدت مناظر طبيعية عذراء ، وكثباناً جرداً عراضاً لا أثر فيها للإنسان ما عدا كوخاً متهدماً . وبين حين وحين تجد راعياً أعرابياً يدفع إلى قم التلال البقع الحمراء والصفراء التي يتألف منها قطيعه من الماعز . على هذه السواحل الوهرانية يبدو كل صباح من أيام الصيف كأنه أول صباح في العالم . ويبدو كل أصيل كأنه آخر أصيل فيه ، كأنه الاحتفال الرسمي بنهاية العالم ، يُنشيء بهذه النهاية عند غروب الشمس ضوء أخير يقتسم كل الألوان : فالبحر مسرف في زرقته ، والطريق اتخذت لون الدم المتجمد ، والشاطئ أصفر ، وكل شيء يختفي مع الشمس الخضراء . وما هي إلا ساعة حتى تسيل التلال بضوء القمر . وهي حينئذ ليال مسرفة في الروعة ، تطر وابل من النجم ، وتتخللها زوابع في بعض الأحيان ، فيجري البرق متصفحاً التلال ، ويشيع على السماء لوناً شاحباً ، وينفيض على الرمال وفي الأعين ضوءاً يرتقالي اللون . على أن هذا الشغور لا يمكن المشاركة فيه . فلا بد أن تحسه بنفسك . وكل هذه العزلة وهذه العظمة تكسب تلك الأماكن مظهراً

لا ينسى . وفي مبدأ الفجر الدافئ حين تمر الموجات الأولى التي ما تزال سوداء
مرّة ترى كائناً جديداً ينفذ من ماء الليل الصفيق . إني لأذكر هذه المتع
فلا آسى عليها ، إنما أعترف أنها كانت حلوة عذبة . والآن وقد انقضت
سنوات عدة لا تزال ذكرياتها باقية في ناحية من نواحي هذا القلب الذي
يصعب عليه مع ذلك الوفاء والاحتفاظ بالذكرى . وإن عدت اليوم إلى تلك
الكشبان الجرداء فأنا أعلم أن السماء ذاتها ستمضى في إلقاء ما تحمل من
رياح ونجوم .
هذه أرض البراءة .

غير أن البراءة تعوزها الرمال والأحجار . وقد نسى الإنسان كيف يعيش .
هذا على الأقل ما يبدو عليه وقد انزوى في هذه المدينة العجيبة التي استقر
بها الملك . على أن هذا التقابل هو الذي يكسب وهران قيمتها : فهي عاصمة
الملك ، تحاصرها البراءة والجمال . والجيش الذي يحاصرها له من الجند بقدر
ماله من الأحجار . ومع ذلك فقد تمرّ بك في المدينة ساعات يشتد فيها الميل
إلى الاستسلام للعدو ! فما أشد هذه الرغبة في الانسجام مع الأحجار ، في
الانسجام مع ذلك العالم المتوقد الجامد الذي يتحدى التاريخ واضطرابات
وهذه الرغبة بالطبع لا غناء فيها . ولكن في كل إنسان غريزة عميقة ليست
غريزة الهدم ولا هي غريزة الإنشاء ، إنما هي الرغبة في ألا يشبه شيئاً (١) .
وقد تسمع أحياناً هذه الدعوة وأنت تسير في شوارع وهران المتربة وفي ظل
جدرانها الساخنة . ويخيل إليك حيناً أن المستجيبين لهذه الدعوة لن يخسروا
شيئاً ؛ فهي ظلمات أوريديس ، وهي نوم إيزيس . وهذه هي الصحارى التي
يرتد الفكر فيها إلى نفسه : وهذه يد المساء الرطبة قد وضعت على القلب
المضطرب . وعلى جبل الزيتون هذا الحاجة إلى اليقظة ؛ فإن الفكر يدرك الرسل
النائمين ويستصوب نومهم . أكانوا مخطئين حقاً ؟ ومع ذلك فقد نزل
عليهم الوحي .

(١) وأنا أتمحدث هنا عن رغبة معينة لأنى أعتقد أنها من النوع الذى يجب أن يكون
الإنسان قد تلقاه . فيستطيع بعد ذلك أن يحسن التقدير في ما يساويه العمل وما لا يساويه .

ولنذكر كاكياموني وهو في الصحراء .. أقام بها دهرًا طويلًا جالسًا القرفصاء ساكن الحركة وقد اتجه نظره نحو السماء . وكان الآلهة أنفسهم يغبطونه على هذه الحكمة وعلى هذا المصير الذي يشبه مصير الحجارة . وقد اتخذت الطير من يديه المبسوطتين الجامدتين عشًا لها . ولكنها ذات يوم غادرت هذا المكات وطارَت مستجيبة لنداء أرض نائية . وهذا الرجل الذي قتل في نفسه كل رغبة وكل إرادة ، ومحا كل نحر وكل ألم ، أخذ يبكي . وهكذا قد ينبت بعض الزهر في الصخر نفسه .

نعم لنستجب للحجر حين تدعو إلى ذلك الضرورة ! فهذا السر وهذا الابتهاج اللذان تتطلبهما في الأوجه الإنسانية ، يستطيع هو أيضًا أن يمنحنا إياهما . لا شك أن ذلك لا يمكن أن يدوم . ولكن ما الذي يمكن أن يدوم ؟ فإن سر الوجوه يستخفي هو أيضًا ، وها نحن أولاء تندفع من جديد في حلقة الشهوات . وإذا لم يكن في وسع الحجر أن يرضينا أكثر من قلب الإنسان ، فإن في وسعه على الأقل أن يرضينا بقدر ما يرضينا قلب الإنسان .

« ألا نكون شيئًا ! » لقد أثارت هذه الصيحة شعبًا كاملاً آلافاً من السنين . وقد تخلل صداها ثنايا الأجيال والبحار حتى وصل إلى هنا ، إلى أقدم بحار العالم لموت . وهو لا يزال يرتطم في صوت أصم على صخور وهران السمكية . وكل إنسان في هذا البلد يستجيب له دون أن يدري . ولا ريب أن كل ذلك عديم الجدوى . فلا سبيل إلى إدراك العدم ، كما لا سبيل إلى إدراك المطلق . ولكن مادما نتلقى من الأبد هذا الدعاء الذي يحمله إلينا ورد الطبيعة وألم الإنسان على أنه نعمة ، فلنستجب لهذا الدعاء إلى النوم الذي يحمله الأرض أحيانًا . فليس هو أقل صواباً من ذاك .

وقد يكون هذا خيط أريان الذي يهدي إلى سواء السبيل في تلك المدينة الصاخبة اليقظة في نومها . تتعلم فيها مزايا بعض السأم ، وكلها مزايا مؤقتة . وإذا أردت أن تتق هذا السأم فعليك أن تقول للمينوتور : « نعم » . وهذه حكمة قديمة خصبة . وإذا أشرفت من فوق الصخور على البحر الهادي المطمئن ، ووقفت في توازن معتدل على مسافة متساوية بين الرأسين الضخمين الغاطسين في الماء الصافي عن يمين وعن يسار ، ففي خلال اللهث المتقطع الصادر من زورق خفر السواحل الذي يزحف في عرض البحر ويغمره ضوء ساطع ، تستطيع أن تسمع لي وضوح

النساء الخافت للقوى الوضاعة الخارقة للطبيعة . وهذا وداع المنوتور .
لقد انتصف النهار ، واليوم نفسه في الميزان . وإذا فرغ المسافر من أداء
الطقوس تلقى ثمن إيقاظه ، وهو هذا الحجر الصغير الذي يلتقطه على الصخرة
يابساً ناعماً كأنه زهر الأسفوديل . وليس العالم بالقياس إلى الملم بهذه الأسرار
بأثقل حملاً من هذا الحجر . فهمة « أطلس » سهلة يسيرة ، ويكفى أن يختار لها
الساعة الملائمة حينئذ . وأنت على هذه الشواطئ تشعر أنك تستطيع أن تنقطع
للحرية ساعة أو شهراً أو سنة . فهي تستقبل كل شخص دون تمييز ودون
النظر إليه ، تستقبل الراهب والموظف والغازي . وكنت أتوقع في بعض الأيام
أن ألقى في شوارع وهران ديكارت أو سيزار بورجيا . لم يتح لي ذلك .
وقد يكون غيري أسعد حظاً مني . وفيما مضى كان القيام بعمل جليل أو تحقيق
 مهمة كبيرة أو التفكير العميق ، يقتضي عزلة الصحراء أو الدير . هنالك كان
الفكر يقظاً حريصاً . وهل من مكان يلائم يقظة الفكر وحرصه خير من عزلة
مدينة كبيرة قد استقرت استقراراً أبدياً في الجمال الذي لا فكر فيه ؟

وهذا هو الحجر الصغير الناعم مثل زهر الأسفوديل ، وهو في مبدأ كل
شيء . فالزهر والبكاء (إن حرص الإنسان عليه) والرحيل والنزاع ، كل ذلك
يرجأ إلى غد . وفي وسط النهار حين تفتح السماء ينابيع الضوء في الفضاء العظيم
الرنان ، تبدو جميع رؤس الساحل كأنها اسطول صغير يوشك أن يقلع . وهذه
المراكب المثقلة بالحجارة والضوء ترجف فوق قواعدها كأنها تتأهب للسير إلى
جزر تغمرها الشمس . أين مني إصباح وهران ! ومن أعلى النجد يغوص الطير
في خوابٍ ضخمة يزيد فيها الهواء . والشاطئ كله متأهب للرحيل تجرى فيه
قشعريرة المخاطرة . غداً ، قد نسافر معاً .

أبير لامو

نقلها عن الفرنسية بوفيق شحاته

كيف ومتى عرفت مصر كتاب الأمير لمكيافلي

هذا المقال صدى للمقال القيم الذى كتبه الاستاذ حسن محمود فى عدد أغسطس من مجلة «الكاتب المصرى» ، وعنوانه «عود إلى مكيافلى وأميره» ؛ فقد ذكر الاستاذ أن كتاب الأمير «اشتهر فى جميع أنحاء العالم ، وصار الأساس لعلم السياسة . وهو كتاب عجيب فى آرائه وأغراضه وتأثيره ؛ إذ لو استعرضنا أعمال الحكام من عصر مكيافلى حتى الآن — ولا تقصد الأمراء بالذات ، بل تقصد الهيئـة الحاكمة المسئولة ، فالأمراء فى العصور الحديثة لا يحكمون — لوجدنا أن الدول لم تخرج فى توطيد سلطانها ومعاملاتها بوجه عام عما جاء فى الكتاب ؛ فهى لا تزال تسير على مبادئه ، تلك المبادئ السياسية التى فصل فصلاً تاماً بينها وبين الأخلاق ، فجلبت لصاحبها السمعة الشنيعة .»

وهذا قول قد يدفع القارئ المصرى إلى التساؤل : هل عرفت مصر هذا الكتاب ؟ ومتى عرفتة ؟ وإلى أى حد تأثر به عارفوه أو الحكومات المصرية المختلفة ؟

وقد سبق لى أن بحثت هذا الموضوع بنواحيه المختلفة فى كتابى الذى لم يطبع بعد عن : « تاريخ الترجمة فى مصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر » ، غير أن إعجابى بمقال الاستاذ حسن محمود دفعنى إلى أن أوجز لقراء مجلة الكاتب ما فصلته فى بحثى السابق الذكر إلى أن تتاح له فرصة النشر .

ألف مكيافلى Machiavelli كتابه « الأمير » Il Principe فى نهاية القرن السادس عشر وقت أن كانت مصر خاضعة للحكم العثمانى ، وحين كانت الصلات بينها وبين دول أوربا منقطعة مبتوتة .

وقد ظلت مصر فى سبات عميق وعزلة عن العالم الأوروبى قرابة ثلاثة قرون — أى طوال العهد العثمانى — ثم بدأت تخرج من هذه العزلة ، وتصحو

من هذا السبات نتيجة لتزول الفرنسيين بأرضها . وقد هزتها الحملة الفرنسية هزة عنيفة جعلتها تقضى بعض الوقت حتى تتعرف ما حولها ، وحتى تستعيد ماضيها الذى نسيته — أو كادت تنساه — وحتى تستبين هذا الناس الجديد الذى وفد إلى أرضها غازيا ، وحتى تستشف من بُعد هذا العالم الأوربي الذى انقطعت الصلات بينها وبينه منذ أمد بعيد ؛ شأنها فى ذلك شأن النائم المستغرق فى نومه توقظه — فجأة — هزة أرضية ، أو غارة جوية ، أو صدمة قوية ؛ أو شأنها فى ذلك شأن أهل الكهف الذين لبثوا فى كهفهم « ثلثمائة سنين وازدادوا تسعا » ، أما مصر فقد لبثت فى كهفها تحت الحكم العثماني ثلثمائة سنين تنقص تسعين (١٥١٧ — ١٧٩٨) .

وبينا هى تستبين هذا كله كان القدر قد هيا الظروف لكي يتولى عرشها الرجل المصلح محمد على الكبير .

وقد آمن محمد على منذ اللحظة الأولى أن سر تقدم الدول الأوروبية وتفوقها إنما هو نهضتها العلمية الممتازة وعلومها الجديدة ، فبذل الجهود الجبارة لنقل هذه العلوم الأوروبية إلى مصر ، فأوفد البعثات العلمية إلى أوروبا ، وفتح فى مصر المدارس الحديثة ، واستدعى إليها العلماء من مختلف البلدان الأوروبية ؛ غير أن وسيلته الناجحة كانت الترجمة : ترجمة الكتب الأجنبية إلى اللغتين العربية والتركية .

وقد عرفت مصر كتاب « الأمير » — أول ما عرفت — فى ذلك العصر ، بل لقد كان كتاب « الأمير » ثانى أو ثالث كتاب ترجم إلى اللغة العربية فى عصر محمد على . قام بترجمته مترجم سوري هو الأب أنطون رفايل زاخور راهبة .

وحديثنا عن هذه الترجمة يقتضى أن تقدم له أولاً بتعريف مجمل بالمترجم وذكر موجز سريع لحياته وجهوده .

كانت أسرة الأب رفايل من طائفة الروم الكاثوليك المملكانيين ، وقد رحلت عن حلب إلى مصر فى أوائل القرن الثامن عشر . وفى القاهرة وُلد رفايل فى ٧ مارس سنة ١٧٥٩ ، وفيها أيضا تلقى علومه الدينية الأولى ودرس اللغة العربية على آباء طائفته .

وعندما بلغ الخامسة عشرة من عمره سافر إلى إيطاليا ليلم علومه

كيف ومتى عرفت مصر كتاب الأمير لمكيافلي

الدينية في روما^(١) وهناك التحق بمدرسة سانت أثناسز الأكليريكية Séminaire de Saint-Athanasios حيث بقي بها ٥ سنوات أتم في خلالها دراسات الدينية ، ثم مكث سنتين أخريين في إحدى الجامعات لدراسة اللغات ، وخاصة اللغة الإيطالية .

وفي سنة ١٧٨١ ، وعند ما أتم رفائيل الثانية والعشرين من عمره غادر روما وطاد إلى صيدا — مركز الطائفة البازيلية — فالتحق بدير المخلص ، وهناك اشتغل بترجمة بعض الكتب الدينية والوثائق المحفوظة في مكتبة الدير ، وظل يترقى في المناصب الدينية فعُين شماسا في سنة ١٧٨٢ ، ثم قسيسا في سنة ١٧٨٥ ، ثم ارتحل بعد ذلك إلى روما في سفارة دينية قام في أثناءها بترجمة كثير من وثائق هذه السفارة عن العربية إلى الإيطالية ، وعن الإيطالية إلى العربية .

وباتهاء هذه السفارة عاد رفائيل إلى مصر واستقر بها حتى وصلت الحملة الفرنسية ، فكانت أعمالها ميدانا طيبا لإشباع طموحه وتحقيق آماله العريضة .

وفي ٣ فركتيدور من السنة السادسة (٢٠ أغسطس ١٧٩٨ — ٨ ربيع الأول ١٢١٣) صدرت اللائحة بتكوين المجمع المصري l'Institut d'Egypte وكانت المادة ٢٠ من هذه اللائحة تقول بأنه « سيكون هناك مترجم عربي يتقاضى مرتبا خاصا ، ومن الممكن أن يكون عضوا بالمجمع . Il y aura un interprète arabe, qui aura un traitement particulier et qui pourra être membre de l'Institut.

واختير انطون رفائيل زاخور راهبة ليكون هذا المترجم ، ونصب عضوا في لجنة الآداب والفنون الجميلة بالمجمع ، وبهذا كان رفائيل العضو الشرقي الوحيد ، أما بقية أعضاء المجمع فقد كانوا من علماء الحملة الفرنسيين . وقد قام رفائيل — أثناء عضويته بالمجمع — بترجمة كثير من القوانين والأوامر الفرنسية الجديدة ، كما شارك في بعض الأبحاث العلمية التي قام بها المجمع .

(١) أنظر عن حياته الدينية : قسطنطين الباشا ، ترجمة الأب رفائيل زخور ، المجلة البطريركية ، السلتان السابعة والثامنة (١٩٣٢) ، ص ٤٨٦ — ٤٨٨ ، ٥٦١ — ٥٦٤ ؛ ونفس الكاتب ، وصف قنداق قداس يوناني قديم ، للسرة ، السنة ١٩ ، ج ٣ ، ١٩٣٣ ص ١٥٩ — ١٦١ ؛ Bachatly, «Un Membre Oriental du Premier Institut d'Egypte», Bull. Inst. D'Egypte, t. XVII 1934-1935, p. 237-260.

كيف ومتى عرفت مصر كتاب الأمير لمكيافلي

وبعد سفر نابليون إلى فرنسا انتقلت قيادة الحملة إلى كليبر . وفي ٢٥ نوفمبر سنة ١٧٩٩ (٢٧ جمادى الآخرة ١٢٤١) أصدر القائد الجديد أمراً بتكوين لجنة لجمع المعلومات عن مصر ^(١) : Commission des renseignements sur l'Egypte.

وقد ذكر رفائيل في مخطوطة له يملكها صديقنا الأستاذ بشاتلي أن هذه اللجنة كانت تتكون منه — أي من رفائيل — ومن سبعة أعضاء آخرين . وفي هذه المخطوطة أيضاً صورة لخطاب ^(٢) أرسله رفائيل للشيخ السادات يشكره فيه على حسن استقباله لتابعه ، ويطلب منه — كعضو في اللجنة — أن يزوده بالمعلومات الوافية الشافية عن أسرته .

وإبان قيام رفائيل بهذا العمل قتل كليبر في ١٤ يونيو سنة ١٨٠٠ (٢١ المحرم ١٢١٥) . فانتقلت مقاليد الأمور والقيادة إلى الجنرال مينو ؛ وأصدر مينو أمره فأعيد تكوين الديوان في صورة جديدة : من تسعة من المشايخ المسلمين ، ويشترك معهم فورييه — السكرتير الدائم للمجمع — بلقب قوميسير (كشاري أو مدبر سياسة الأحكام الشرعية) — كما يسميه الجبرتي — ؛ وظفر رفائيل طفرة جديدة فنصب ترجمانا كبيرا للديوان الجديد ؛ وتمكنت الصداقة في هذا العهد بين رفائيل والقوميسير فورييه ، فكانا يسكنان معاً في بيت رشوان بك بعابدين حيث كانت تعقد جلسات الديوان . وظل رفائيل على نشاطه المجهود يقوم بترجمة الرسائل والمراسيم والفرمانات ، ويقرأها بنفسه على أعضاء الديوان ^(٣) . غير أن اشتغال رفائيل بالترجمة الرسمية في العهد الأخير لم يشغله تماماً عن الترجمة العلمية ؛ فقد قام في شعبان سنة ١٢١٤ (يناير سنة ١٨٠٠) بترجمة رسالة طبية صغيرة ألفها ديچينت Desgenettes كبير أطباء الحملة عن مرض الجدري وطرق علاجه ؛ وقد طبعت هذه الرسالة

(١) انظر صورة هذا الأمر في خطاب وجهه كليبر إلى رئيس هذه اللجنة في :

Le Comte Pajal, *Kléber, sa vie, sa correspondance*, Paris 1877, p. 392
Rigault: *Le Général Abdallah Menon et la dernière phase de l'expédition d'Egypte*, Paris 1802, p. 125-126.

Bachatly, *Op. Cit.*, p. 247 et *Un manuscrit inédit de Don Raphaël*, p. 30.

(٣) انظر بعض جهوده في هذه الناحية في : الجبرتي ، ج ٣ ، ص ١٤٩ ، ١٨٨ —

كيف ومتى عرفت مصر كتاب الامير لمكيا فلى

مرتين في مطبعة الحملة ، وكان عنوان الطبعة الاولى : « هذا تنبيه فيما يخص داء الجدرى المتسلط الآن ، وذلك بشرح موجه إلى أرباب الديوان بمصر القاهرة من قبل الهلدى دجنخط رئيس الأطباء في الجيش الفرنساوى بجهة الشرق — بمصر القاهرة ، بدار المطبعة الجمهور الفرنسية (كذا) في يوم ٢٠ من شهر شعبان سنة ١٢١٤ هجرية » وبالفرنسية :

« Avis sur la petite vérole régnante, adressée au Divan du Kaire, par le C^m Desgenettes, Premier médecin de l'Armée d'Orient: Au Kaire, de l'Imprimerie Nationale, le 27 nivôse an VIII. »

وقد ذكر ديچينت أنه أهـدى ٢٥٠ نسخة من رسالته إلى الديوان و ٥٠ نسخة أخرى للست نفيسة المرادية ، وأيد هذه الرواية الجبرتي فقال في حوادث شعبان سنة ١٢١٥ : « وفيه أرسل رئيس الأطباء الفرنساوى نسخا من رسالة ألفها في علاج الجدرى لأرباب الديوان ، لكل واحد منهم نسخة على سبيل المحبة والهدية ليتناقلاها الناس ، ويستعملوا ما أشار إليه فيها من العلاجات لهذا الداء العضال ، فقبلوا ذلك منه ، وأرسلوا له جوابا شكرياً له على ذلك ... » ولا شك أن الجبرتي نال نسخة منها — فقد كان عضواً في الديوان — وأنه قرأها ، فقد قال معقباً على هذا الحادث : « وهى رسالة لا بأس بها في بابها . »

وقى سنة ١٨٠١ جلت الحملة الفرنسية عن مصر ، غير أن الأب رفائيل لم يرحل معها كما رحل غيره من السوريين ، بل بقى في مصر نحو سنتين آخرين اشتغل في أثناءهما سكرتيراً لرئيس طائفته الديلية الأب باسيلوس عطا الله .

كان رفائيل ذا نفس طموح وآمال عريضة ، وقد ارتقى في عهد الحملة الفرنسية مكانا عليا في مصر ، فكان من رجال العلم والحكم والدولة ، وعرف شخصيات فذة ك نابليون وديزيه وكليبر ومينو . . . الخ ممن اشتركوا في صنع تاريخ مصر في مفتح القرن التاسع عشر ، وقد كان في تلك الفترة دائم العمل دائب النشاط والإنتاج . فهل يقنع بأن يقبع في مركزه الدينى الجديد الحدود الآفاق ؟ لم ترض نفس رفائيل بهذا الركود بعد الحركة ، ولم يكن في ظروف الحكومة الجديدة بعد أن عادت مصر إلى حكم العثمانيين مجال لإظهار نشاطه السياسى أو العلمى ، فولى رفائيل وجهه شطر فرنسا من جديد ، وأرسل في مدنى هاتين السنتين خطابين إلى صديقه القديم نابليون بونابرت ، ثم وجد أن سياسة

كيف وبقي عرفت مصر كتاب الأمير لمكيافلي

الخطابات غير مجدية فقرر أن يرحل إلى فرنسا ، فسافر إليها في سنة ١٨٠٣ حيث قابل نابليون ووزير خارجيته تاليران (١) .

وفي ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٠٣ صدر أمر نابليون — القنصل الأول — بتعيين رفائيل أستاذاً للغة العربية العامة بمدرسة اللغات الشرقية بباريس على أن يعهد إليه « بتدريس اللغة العامة ، وترجمة المخطوطات العربية الموجودة في المكتبة والخاصة بالأدب والتاريخ المصري » . وقد نشط رفائيل أثناء وجوده في باريس فألف كتباً عربية كثيرة (٢) .

وفي سنة ١٨١٥ هزم نابليون في وقعة ووترلو ونفى إلى جزيرة سانت هيلانة ، ففقد رفائيل صديقه وراعيه وحاميه ، وبدأ يناله ما نال معظم مؤيدي الإمبراطورية السابقة من نقمة واضطهاد ؛ فقد قررت الحكومة الجديدة تخفيض مرتبه ، ولم يرض رفائيل عن هذا الوضع الجديد ، فقدم استقالته في أبريل سنة ١٨١٦ وقرر العودة إلى مصر .

عاد رفائيل إلى مصر في سنة ١٨١٦ ، واتصل بمحمد علي الذي كان يمهّد السبيل حينذاك لنقل علوم الغرب إلى اللغة العربية ، وكان قد أرسل بعثاته الأولى إلى إيطاليا للتخصص في فن الطباعة . وإذ كانت اللغة الإيطالية هي لغة المراسلات الدبلوماسية وأكثر اللغات الأوروبية انتشاراً وقتذاك في مصر ، فقد كلف محمد علي الأب رفائيل أن يضع قاموساً للغتين العربية والإيطالية .

وفي سنة ١٨٢٠ مر بمصر الرحالة الإيطالي بروكي Brocchi ، وفي ٥ ديسمبر سنة ١٨٢٢ زار مدرسة بولاق ، وروى أنه رأى بين هيئة المدرسين بها ثلاثة من رجال الدين المسيحيين (٣) هم : دون كارلويوتى — من كالابريا — والأب سكالويوتى — من بيدمنت — ودون رفائيل — ويقوم بتدريس اللغة العربية . وبعد ستة أيام — أى في ١١ ديسمبر — زار بروكي مطبعة بولاق ، وأشار إلى الكتب الأولى التي كانت تحت الطبع ، ومنها : « قاموس طليانى وعربى

(١) فصلنا الحديث عن خطابات رفائيل ورحلته إلى فرنسا ومقالاته لرجالاتها في مجلتي السابق الذكر عن تاريخ الترجمة في النصف الأول من القرن ١٩ .

(٢) أنظر مقدمة القاموس .

(٣) Brocchi, *Giornale delle osservazioni fatte ne' viaggi in Egitto*, (٣) ecc. t. I. p. 173.

كيف ومتى عرفت مصر كتاب الأمير لمكيافلي

Dizionario Italiano-Arabo وقد تم طبعه في نفس السنة ١٢٣٨ (١٨٢٢) .
وفي السنة التالية (١٨٢٣) طبع الكتاب الثاني لرفايل وهو ترجمة عربية
لرسالة فرنسية من تأليف ماكير Macquer عن صباغة الحرير ، وعنوانها
باللغة الفرنسية : *L'art de la teinture en soie* وباللغة العربية « كتاب
في صناعة صباغة الحرير » ، وبهذا يعتبر رفايل صاحب السبق في ميدان الترجمة
في تاريخ مصر الحديث ، فهو صاحب أول كتاب ترجم عن الفرنسية إلى العربية
وطبع في مطبعة الدولة وفي عهدها — وهو رسالة ديچينت عن مرض
الجدري — وهو أيضاً صاحب أول كتاب ترجم عن الفرنسية إلى العربية
وطبع في مطبعة بولاق في عهد محمد علي .

وضع رفايل هذا القاموس وترجم هذا الكتاب تنفيذاً لأمر محمد علي مما
يرجع أن الصلة كانت قوية بين الرجلين ؛ ولم يكن محمد علي سليل بيت مالك ، بل
إنه سعى حتى فاز بهذا العرش فوزاً ، ولقد كان له من فطرته السليمة وعبقريته
الفذة ما دفعه إلى البحث والدرس ، وخاصة كل ما يتعلق بنظم الحكم والإدارة
ومنها السياسة ، ولهذا كان دائماً الصلة بكل من في مصر من دبلوماسيين
أوروبيين ، وبكل من يفد عليها مرتحلاً أو زائراً ، وكان في اجتماعه معهم دائماً
السؤال عن أحوال بلادهم السياسية والعلمية ، وعن نظم حكوماتهم ، وعن أهم
الكتب وأحسنها ، وقد نصحه ناصح من هؤلاء في تلك الفترة (حوالي سنة
١٨٢٠) — وإب كانت المراجع لا تذكر من هو^(١) — بقراءة كتاب
« الأمير » لمكيافلي .

بإدراج محمد علي فكلف رفايل بترجمة هذا الكتاب ، فترجمه إلى اللغة العربية
(حوالي ١٢٣٩ — ١٢٤٠ = ١٨٢٤ — ١٨٢٥) .
أشار بروكي — في غموض — إلى ترجمة هذا الكتاب ، ثم
أشار إلى هذه الترجمة في وضوح وإيضاح لا باس بهما جويسني أشربي

(١) انقره مرجع واحد ، وهو الرحالة الانجائزي سانت جون الذي زار مصر حوالي
سنة ١٨٣٠ — فذكر أن سولت Salt قنصل انجلترا في مصر هو الذي أعد الترجمة التركية
لهذا الكتاب وأهداها إلى محمد علي ليطلع عليها ويفيد منها في سياسته . غير أنني لم أعث على
ما يؤيد هذه الرواية في أي مرجع آخر ؛ انظر :

Egypt and Mehemed Ali, by St. John. V. 2, p. 453-454.

كيف ومتى عرفت مصر كتاب الأمير لمكيافلي

Giuseppe Acerbi (1773-1846) قنصل النمسا في مصر في عهد محمد علي ، في رسالة منه إلى السنيور جيروفي أمين المكتبة الإمبراطورية في ميلانو ، وقد ذكر أشربي في هذه الرسالة أنه تحدث مع الباشا في إحدى مقابلاته عن الكتب والأدب ، وقد دهش عندما أخبره محمد علي أنه أمر بترجمة كتاب «الأمير» لمكيافلي إلى اللغة التركية ، وأنه جدمشوق إلى معرفة ما يتضمنه هذا الكتاب الذي سمع عنه ثناء جما من أحد الأوربيين .

وذكر أشربي بعد ذلك أن محمد علي تحدث إليه عن هذا الكتاب في مقابلة أخرى — وكان ذلك في سنة ١٨٢٨ أي بعد ترجمة الكتاب بنحو أربع سنوات — فقال له ما ملخصه : « إنكم تثيرون في إيطاليا ضجة كبيرة حول كتابكم المعروف لمكيافلي ، وقد أمرت بترجمة كتابه إلى التركية لكي أعرف ما فيه ، ولكنني أعترف بأنني قد وجدته أقل بكثير مما كنت أتوقع ومن الشهرة التي له .

«وإني أعلن إليك أيضاً أن هناك مؤلفاً عربياً آخر أثار دهشتي ونال إعجابي بعد أن أمرت بترجمته إلى اللغة التركية — هو مقدمة ابن خلدون — ، إن هذا الكاتب أكثر حرية في تفكيره من مكيافلي ، بل إنني أعتقد أن كتابه أكثر وأشد نفعا . وإذا كان كتاب مكيافلي ممنوع تداوله في بعض البلاد الأوروبية ، أفما كان من الأجدر أن يكون المنع أتم وأعم بالنسبة لمقدمة ابن خلدون (١) ؟ » ولا يمكننا أن نمر بهذا الحديث دون أن نشير إلى دلالاته المختلفة ، وأولها وأهمها هذه القدرة العجيبة من شخص كمحمد علي — ظل أمياً حتى سن متأخرة جدا — على تفهم كتابين من أعظم ما خلفته الثقافة الإنسانية في الغرب والشرق ثم المقارنة بينهما وتفضيل أحدهما على الآخر .

بقي أن نشير إلى ما ورد في حديث محمد علي لأشربي من أنه أمر بأن يترجم الكتاب إلى التركية مع أن الترجمة التي وصلتنا ترجمة عربية . ويمكن تفسير هذا التعارض بأن رفايل الذي كلف بترجمة الكتاب لم يكن يعرف اللغة التركية فترجمه إلى العربية ، وإذا كان محمد علي لا يتقن العربية ولغته الأصلية هي التركية

Lettera del Signor Const. Acerbi, console generale di S.M.I.R.A. (١) in Egitto al Signor Girovi, Bibliotecario della Bibl. Imp. di Brera in Milano. Biblioteca Italiana, tomo LXI, Milano, 1831, p. 289-298.

كيف ومتى عرفت مصر كتاب الأمير لمكيافلي .

فمن الممكن أن نفرض أن هذه الترجمة العربية ترجمت ثانية إلى التركية^(١) ، إما كتابة وإما شفاهاً ليتمكن محمد علي من فهم ما جاء بها . ويؤكد هذا الظن أمر محمد علي فيما بعد بترجمة رحلة رفاعه الطميطاوي إلى باريس عن العربية إلى التركية ليطلع عليها هو ورجال دولته ممن يجيدون التركية دون العربية .

ومخطوطة الترجمة العربية كانت موقوفة على مكتبة مسجد سيدنا الحسين ، ثم نقلت منها إلى دار الكتب المصرية حيث لا تزال محفوظة تحت رقم ٤٣٥ تاريخ وعنوانها : « المجلد الرابع من مصنفات نيقلالوس في التواريخ ، وفي علم حسن التدبير في الأحكام »^(٢) ؛ وطول المخطوطة ٢١٥ سم ، وعرضها ١٦ سم ، وهي مكتوبة بالخط النسخي الجميل ، وتتكون من ٨٢ ورقة ، وفي كل صفحة ٢٠ سطراً . والصفحات من ١ إلى ٢ ب تحتوى على مقدمة موجزة بقلم المترجم ، تبدأ بقوله : « نبتدى بعون الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، الحمد لله الذى على مشيئته وتديره تنعقد سلاسل الحوادث والأخبار ، ومن فيض أحكامه ونجد (كذا) تقديره يجرى مجرى ما وقع فى الدهور والأعصار . » ، ثم يلي ذلك مدح لمحمد علي ، وأنه قد أمره بترجمة هذا الكتاب الذى ألفه المعلم مكيافلي ليفيد منه القائمون بالوظائف الإدارية ، وأنه ترجمه ترجمة دقيقة ليكون واضحاً سهلاً لمن يقرؤه ، وأنه بذل فى ذلك عناء وعناية لأن تراكيب الكتاب قديمة ، وأفكاره صعبة ، فقد ألف فى سنة ١٦٠٠ م .

والكتاب غير تام الترجمة^(٣) ، ويتكون من ٢٣ فصلاً ، وترجمة رفائيل

(١) Maria Nallino, «Interno Due Traduzioni Arabe del Principe del Machiavelli», *Oriente Moderno*, 1931, p. 605.

(٢) ذكر هذا الكتاب فى الجزء الخامس من فهرس دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ص ٣٩ تحت هذا العنوان : « الأمير فى علم التاريخ والسياسة والتدبير تأليف نيقلالوس ماكيافلي الايطالى . »

(٣) آخر جملة وردت فى الكتاب هى : « فانهم لسائدون إذا توافقوا مع الاوقات والاحوال ، ولتسبون إذا وقع ... » وقد ذكرت Maria Nallino, *Op. Cit.*, p. 608 أن هذه الجملة يقابلها فى النص الايطالى ما يلى :

«Concludendo adunque, che, variando la fortuna e stando gli uomini ne' loro modi ostinati, sono felici mentre concordano insieme e, come discordano infelici.»

وهذه إحدى فقرات الفصل الخامس والعشرين من الأصل ، واستلجت من هذا ان الذى لم يترجم هو بقية هذا الفصل والفصل السادس والعشرون وهو الأخير .

كيف ومتى عرفت مصر كتاب الأمير لكيافلي

لهذا الكتاب — كترجئاته الأخرى — ضعيفة ركيكة الأسلوب صعبة الفهم .
وتقول الأنسة ماريا نالينو^(١) إن مشروع طبع هذا الكتاب لم يُنفذ ،
ولعل ذلك راجع إلى رأى محمد على الذى لم يقدر محتويات كتاب مكيافلى ، أو
لعل ترجمة رفائيل بدت أمام مصححي مطبعة بولاق من شيوخ الأزهر ركيكة
الأسلوب ضعيفة العربية ، بل غامضة غير واضحة المعنى فى مواضع كثيرة
منها^(٢) .

هذه هى الترجمة الأولى لكتاب « الأمير » عرفت مصر فى نهاية الربع الأول
من القرن التاسع عشر ، وقد ترجمت تنفيذاً لأمر أميرها محمد على ليطلع هو عليها
وليفيد منها القائمون بالوظائف الإدارية — كما ذكر رفائيل فى مقدمته .
وفى مفتتح القرن العشرين عرفت مصر الترجمة الثانية لهذا الكتاب ، قام بها
الأستاذ محمد لطفي جمعة بك ، وقد طبعت فى سنة ١٩١٢ ، وأسلوب هذه الترجمة
أكثر وضوحاً وأقرب إلى الفهم من أسلوب الترجمة الأولى .
هذا هو تاريخ كتاب « الأمير » فى مصر وفى اللغة العربية . أما إلى أى حد
أفاد منه الحكام أو الحكومات أو الأفراد فى مصر أو فى الشرق العربى ، فهذا
موضوع بحث آخر .

جمال الدين الشبال

(١) M. Nalino, Op. Cit., p. 609.

(٢) محدثت عن عيوب هذه الترجمة وتقدتها تقدأ تفصيلاً فى بحثى السالف الذكر عن
التاريخ للترجمة .

نشوة اليأس

[إلى الصفوح المهاجرة]

أرهقني بالصدء ، ماشئت يا «مى» (٢) وجورى على قوادى المتيم
وتجنى ما شئت أن تتجنى
أنا ممن يرى التألم نعمى
أرهقني حتى اليأسه ، ولتند
فالجراح الحار ينكوها اليأس
إنما اليأس والتألم أسى
والأسى للأديب وحي ، وبؤس الـ

إيه يا «مى» ، ياقسمة قلبى
علينى بالوعد ، والوعد فى السند
واحبنى كُتبت الرقيقة عني
واحرمينى طيب اللقاء ، وقولى :
وتوارى وراء عذراك (٢) يا «مى» (٢)
أرهقني ، وليجثم الحزن فى قل
ولتسمنى الأقدار عسفاً ، فليست
حسبي الله فى يلائي ، وحسبي

والهوى للقلوب رزق مقسم
مع لذيذة وفى الجوارح علقم
وادعى الحب والحنان المجسم
قد قضى الدهر لالهوى أن تحرم
وعذراك حجة لا تفحم (٢)
بى ، فقلبي للحزن أفضل مجثم
منك أقسى ، ولست منها بأرحم
حمة الدمع فى غرامك يسجّم

(١) الفن هى اللفظة الفصيحة « للفنان » الشائنة خطأ على أقلام الكتاب .
(٢) العذرى : ياتضم كالعذر والمعدرة والمعدار وهى الحجة يعتذر بها ، قال الشاعر :
قد درك إني قد رميتهمو إني جذدت ولاعذرى للمحدود

نشوة اليأس

ليس يَرجو عَطفَ الحياة شَقِيٌّ
شاعرٌ يَدلفُ الخُطى ، وهو نشوا
إنَّ لليأسِ خِمةً ، ليس يدري
خِمةً تُسكرُ الأديبَ وتُنشِئُ
عاشَ صَنو العذابِ والبؤسِ والغمِ
ن ولكن ... من خِمة اليأسِ والهمِ
ما نظيرى ، إلا الكئيبُ المُسَدَّمُ (١)
هـ ، فتَنشى الدنيا إذا ما تَكَلَّمُ !

أفعمى بالشجون قلبى أغنى
إنَّ بينَ الآلامِ والفنِّ ما يه
والأديبِ المَفنُّ ما التاعِ إلا
يَغمرُ الكونَ بالفنونِ أديبٌ
ويتيهُ الفنُّ الرَفيعُ اختيالاً
كِ بشعرِ بروعة الفنِّ مُفَعَّمُ !
ن الشقيقينِ من عُرى ليس تُفصَمُ !
سحرَ الناسِ بالبيانِ المُلهمِ !
زَحَمَتُهُ الآلامُ فَرَدَى (٢) وتوأمُ
حين يشقى الأديبُ أو حين يَألمُ

فاغمى يا همومُ بالوحى روحى
فعرأتى إن متُ أن قريضى
وَأذكُ يا حبُّ فى الحشا وتضرعُ
فى هواها يُروى ، وشعرى يُرَتِّمُ !

[بيروت]

مورع ماسنى

(١) المسدَّم : الحزين الذى لا يطيق ذهاباً ولا مجيئاً .
(٢) فردى وفردى ، وفرداً منوناً وغير منون أى واحداً بعد واحد .

الوجودية

[طلب إلينا غير واحد من المثقفين في مصر والشرق العربي أن نلشر درسا مستفيضاً لهذه الفلسفة الجديدة التي يكثر الحديث عنها في هذه الأيام . ونحن نلشر هذه الدراسة المفصلة المتقنة ، وقد كتبها لنا شاب فرنسي من المتخصصين في الفلسفة ، وهو يتيها الآن في مدرسة للمعلمين العليا بباريس لنيل إجازة الأجر جاسيون .

ونحب أن ننبه إلى أشياء ، أولها أن هذه الفلسفة الجديدة محبة إلى الشباب الفرنسيين ، فأردنا أن يكون صاحب هذا البحث من هؤلاء الشباب أنفسهم فذلك يبين عن الفلسفة نفسها من جهة ، وعن نظر الشباب إليها وتحمسهم لها من جهة أخرى .

الثاني أننا نعرض هذا البحث الذي كتبه شاب يتيها للتعليم ليقراه شبابتنا الذين يتيهاون للتعليم ، وليروا مقدار ما يبذل زملاؤهم في فرنسا من الجهد ، وما يتاح لهم من التوفيق . الثالث أن نلشر هذا البحث لا يدل بحال من الأحوال على أننا نقبل مافيه من الآراء والنظريات كلها أو بعضها ، وإنما هو مذهب في الفلسفة أراد المثقفون الشرقيون أن يعرفوه ومن الحق عليهم أن يعرفوه ؛ فنحن لا نزيد على أن نيسر لهم سبيل هذه المعرفة . الرابع أننا نشكر للدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده مدرس الفلسفة بكلية الآداب ما تفضل به من الجهد العنيف الذي بذله لنقل هذا البحث إلى اللغة العربية .

فهذا الفضل مظهر من مظاهر ما يمتاز به الدكتور من العلم والدقة والتواضع والاختلاس .]

١ - « الجبر » اليهودي

منذ تحررت فرنسا من الاحتلال الأجنبي قامت فيها فلسفة جديدة تتيوا مكاناً بين المسيحية والماركسية ، وهي بمثابة مذهب ثالث كبير في الفكر وفي الحياة . وقد كشفت هذه الفلسفة بشعور واضح لماذا وجه شعب بأسره ومن تلقاء نفسه مقاومته للعدو ، وهي قد أعلنت أن كل حادث كهذا الحادث يجب

أن يقع بفضل الحرية الفردية ولأجل الحرية الفردية ، كما أنها أهابت بالعالم كله في خارج فرنسا أن يواصل انتصاره بأن يحرر الإنسان تحريراً كاملاً من سلطان العلم والأخلاق التقليدية والتاريخ ؛ هذه الفلسفة الجديدة هي الوجودية .

ولم تكده هذه الفلسفة تقوم حتى انصبت عليها الصواعق من الكنيسة ومن الحزب الشيوعي ؛ ذلك لأن هاتين القوتين الدكتاتوريتين لم تستطعا احتمال ما تؤكداه الفلسفة الوجودية من حرية تريان أنها لا مستند لها في الكون أو في مجتمع منظم تنظيمًا قويًا . بل إن مذهب الحرية القديم *libéralisme* نفسه ، بعد أن اتهمه الدكتاتوريون المحدثون بالنفاق ، أخذ يعلن وجوب الحياة السعيدة ، وضم صوته إلى نقاد الوجودية ، دون أن يفطن إلى أن نجاحه ربما كانت في أن يترك ما هو عليه من سوء الطوية ، وأن يتخذ الوجودية خلفاً لغيرها من المذاهب .

وأول ما يقوله خصوم الوجودية هو أنها مذهب الغموض والظلام *obscurantisme* ؛ والواقع أن الوجودية تقرر أن الكون لا يبالي بالإنسان ، وهي أيضاً لا تؤمن بأي قانون علمي ، كما أنها لا تهتم بالأشياء لكي لا تعنى إلا بمحظ الإنسان ومصيره . أما الماركسية والمسيحية فإنهما كلتيهما تعتمدان على العلم ، هذا العلم الذي يبرهن لإحداها على الضرورة المنطقية لقانون التطور التاريخي وعلى الانتصار الذي لا بد أن تفوز به طبقات العمال ، والذي يكشف للأخرى في التطور البطيء من عالم المعادن إلى الإنسان خلال عالم النبات والحيوان عن الغاية التي يرمى إليها الفكر الإلهي ؛ (وهذه على الأقل هي نظرية ب . تيلهاردي شاردان *P. Teilhard de Chardin* ، وهو عالم الحياة والفيلسوف شبه الرسمي للكاتوليكية الفرنسية) . ولهذا فإن العلم ، وهو السلطة الرسمية في القرن العشرين ، يسخط على مسلك الوجودية إزاءه ، فنجد نافيل *Naville* في إحدى محاضراته يهاجم سارتر ، أشهر ممثلي الوجودية ، قائلاً : « إن الحرية والمثالية اللتين تنادى بهما تتلخصان في إهمال الأشياء إهمالاً متعسفاً ... وليس عالم الطبيعة ولا عالم الأحياء في نظرك من ظروف الحياة الإنسانية ولا هو مصدر لتكييفها ... وهذا رغم أن الإنسان في الطبيعة وأنه خاضع لتأثير التاريخ ... إن ثم قوانين تدير عليها أفعال الإنسان ، كما أن ثم قوانين لكل

الوجودية

موضوع يدرسه العلم . » وكذلك نجد موان Mounin يستشهد لإثبات صحة رأيه بعبارة قديمة قالها سبينوزا ، (وهى أن الإنسان إنما يعتقد أنه حرٌّ لأنه يجهل الأسباب التى تدفعه إلى الفعل) ، وذلك حين يقول : « إن الفيلسوف الوجودى ، إذ يقبع فى داخل الإنسان لى يثبت الكون من هناك ، يسد على نفسه كل السبل التى يستطيع منها إثبات شىء أيا كان ، وإن الحرية التى يريد سارتر Sartre للتخلص من العلل والمؤثرات هى كتخلص النعامة من الصياد ؛ فإن هذه الحرية مصدرها إرادة تجاهل الأسباب المؤثرة . » وربما مال العلم إلى أن يبعث نظام « التفتيش » لمحاربة منتقصيه ، أفليس عنده برهان آخر على إثبات ما له من قيمة ؟

وتم حجة أخرى أكبر خطراً يذكرها خصوم الوجودية ؛ فهم يقولون إن الوجودية نظراً خالص للعقل ، ولا يمكن تطبيقه على الحياة اليومية ؛ ذلك أن هذه الفلسفة بانتباذها كل فعل لا يصدر عن سبب معتبرة إياه وهما ، تقضى على نفسها بالألا يكون لها تأثير ؛ فإن أهل الجدل من الناس يقولون إنها تجرد الإنسان من كل ثقة فى الحياة ، وأهل العمل من الناس يزعمون أنها تهدم كل أساس ثابت يقوم عليه العمل . ، والجميع متفقون على الاعتراف بأن الوجودية لا يمكن أن تكون أساساً للحياة ، وذلك لأن كلا من المسيحى والماركسى له عقيدة دينية أو ثورية تجعل لحياته معنى وتنظم له مستقبله مقدماً كما نظمت له ماضيه ؛ أما الوجودية فهى تذهب إلى أنه ليس ثم معنى للحياة ولا للكون ، وأن كل إيمان فهو قرار ذاتى suggestive يتخذه الإنسان حرّاً ، وليس له ضمان دينى ولا جماعى . وجريمة الفلسفة الوجودية فى نظر خصومها هى عدم وجود الإيمان ومناقشة كل شىء ووضع موضع الجدل دائماً . إن كلا من المسيحى والماركسى قد أجهده القلق وأسأمه ، فهو يريد أخيراً أن يتخلص من ذلك بأن يفعل شيئاً ما ، دون أن يكلف نفسه مشقة التفكير ، حتى نجد جارودى Garaudy يرسل صيحة الإنذار بالخطر أمام حرية الوجودية قائلاً : « إن هذه الحرية المجردة من الصورة تصنع لنا تاريخاً لا يمكن التنبؤ به ، وليس له بناء ؛ وهذا الأمر خطير ، لأنه إذا كان ماضينا ليس له هيكل أساسى وخطوط ثابتة من هذا الوجه ، وإذا كان كل شىء فيه يتغير فى كل لحظة ، فإننا نجدنا أمام المستقبل مجرد دين من السلاح . » وهكذا يدب سوء الطوية

في تدليل خصوم الوجودية ، فيقولون إن الوجودية علامة تدهورنا ، هي الصورة الفلسفية التي تتخذها الفوضى أو المناقشات البيزنطية الفارغة ، هي الوجه التنكري الذي تستتر خلفه الفردية الرجعية التي تتنافى مع النظام الجديد في العالم الحديث . فأما الماركسيون فهم يعتبرون أن الوجودية مرض دب في الشعور البورجوازي ، ويرون فيها آخر مراحل انحلال ذلك الشعور ، وأما المسيحيون فيرون أنها « أداة انحطاط » شبيهة بطريقة النازيين في معسكرات الاعتقال ، وكلهم يرددون معا أن الوجودية تمثل الحالة العقلية التي تتقدم ظهور الفاشية منذرة بها ، فإنه إذا لم يصبح لشيء من الأشياء معنى صارت البطولة تلتخص في أن يموت الإنسان موت الأبطال الكرام ، والوجودية في نظر خصومها ترحب بكل طاغية ينظم اليأس من الحياة في حياة شعب تنظيما محكما . وهم يقولون إن مما له مغزاه أن الفيلسوف الوجودي الألماني هيديجر Heidegger انضم إلى حزب هتلر ، بل تقول الألسنة الجارحة التي تشنع على الوجودية إنه حتى مالرو Malraux ، وهو الكاتب الروائي الفرنسي الذي كتب في الثورات الشيوعية في الصين وأسبانيا ، ليس إلا فاشيا يجهل حقيقة نفسه .

وآخر أدلة خصوم الوجودية دليل يقوم على الجدل ومجرد الطعن ، وهو يتلخص في امتناعهم عن النظر إليها نظرة جدية . هم يرمون الوجودية بأنها تسلية يعمد إليها أساتذة قد لحقهم السأم ، وبأنها لعب لفظي لمثقفين هيجهم التعمق في دراساتهم . ويصف هيرفي Herve الوجوديين بقوله : « هم يزعمون أنهم هم الذين يضعون الأسئلة الجوهرية التي لا جوهرى غيرها ، فيقولون : لماذا أنا في هذا الكون ؟ وما غاية هذا الوجود ؟ وهم لا يفتننون إلى أن هذه الأسئلة ليست جوهرية بالنسبة لهم إلا لأن وجودهم في الحقيقة لا فائدة منه . إن الوجوديين يذكرون الإنسان بتلك الكلاب الحاملة التي تقوم فيها فجأة ، وفي حالة جرى وقفز فردي ، رغبة في أن تجرني وراء طرف ذنبها . فالوجودية عند خصومها أشبه بتعمية عريضة أو هي بالأحرى وسيلة خفية يريد أصحابها الوصول إلى احتكار الأدب والفلسفة ، وكثير من يتكلم عن سارتر قائلا : « اتحاد شركات سارتر وأصحابه » . والحقيقة أنه يكفي الإعلان عن محاضرة عن الوجودية في باريس لكي يزدحم الجمهور حتى يدوس بعضه بعضا على مدخل

مكان المحاضرة . وإن مجلة سارتر ، المسماة «العصور الحديثة» *Les Temps Modernes* وكذلك رواياته ، يطبع منها أكبر عدد ؛ فهل يرجع هذا النجاح كله إلى خداع الوجوديين للجمهور ؟ أليس الأحرى أن تقول إن الشباب الحريص على الشعور بذاته وبحقيقته هو الذى يسارع إلى كلمات ليست سحرية بعد بل هى كلمات واضحة تقدمها له الفلسفة الجديدة ؟

إن الفلسفة الوجودية قد أصبح لها موتاها وقتلوها ؛ فقد كان الشباب منذ مائة عام ينتحر تحت تأثير الروح الرومانتيكية وبدافع الحزن المتلف والسأم من الحياة . أما شباب اليوم فهو يعلم أن الوجود لا قيمة له ، ولكن بطولته فى أن يستمر متمسكا بالحياة ؛ ولذلك فإن انتحار تلميذ فى مدرسة ثانوية كبيرة بباريس أحدث صدى كبيرا بين الطلبة : كان هذا التلميذ عضوا قديما فى جماعات الشباب الشيوعية ، وقد أسلم نفسه للموت دون جنون ولكن دون وقاحة ؛ وذلك لأنه انتهى إلى عقدة فلسفية لم يجد سبيلا إلى حلها ، كما يقول . وقد أثار حادث آخر فضيحة حقيقية ؛ ذلك أن أحد التلاميذ فى مدرسة ثانوية ، وهو ابن غير شرعى منقلب الميول الجنسية ، قتل أمه فى الصيف الماضى ، وكانت من المصابين بالليل إلى الاتصال الجنسى بالأقارب الأدين ، ولكنها لم تنل ما أرادت ، وقد بغضت ابنها فى الحياة . صرح هذا الابن أمام قاضى التحقيق قائلا : « أخذت ميولى عن فلسفة خطيرة ، لأنى تمثلتها تمثلا غريبا ، والفلسفة الوجودية قد بدت لى أنها الحقيقة الوحيدة . . . إنها جنون اليأس . . . كل ما يسعى الإنسان وراءه ينتهى إلى لا شيء ؛ وهاك ما فهمته : وهو أن الإنسان يشاهد أنه يحيا ، وهو غريب بالنسبة لكل ما يقع فى العالم الخارجى » . وعند ذلك أخذ الأطباء النفسيون ، بعد أن وقعوا فى خطأ كبير فى مهنتهم ، يهاجمون الوجودية ويرمونها بأنها « جوف » ملائم للأعمال الخطرة ؛ ولكن كان أصدق منهم نظرا ذلك الصحفى الذى كتب قائلا : « يبدو أن هذه الجريمة تبين مقدار شدة الاختلال التوازنى الذى يوجد بين غاية الفكر ووسائله ؛ ففى عالم تتكشف فيه باستمرار العلاقة التى تربط أشد الظواهر تناقضا ، لا يزال كل شيء على حال شديدة من ضعف الدعم ، وإرادة الإنسان بعيدة عن أن تكون مكافئة لوضوح بصيرته ، ووضوح بصيرته بعيد أن يكون مساويا لقدرته » . فالوجودية هى بحق أحد مميزات عصرنا ، ولكن هذا المميز ليس

الوجودية

إلهيا ولا شيطانيا ؛ هي لا تجلب داء ولا دواء ، بل تلاحظ ماهو العالم الحديث وتنبه لحظ الإنسان ومصيره . هي تقول لنا ما هي الحياة ، ولا تريد تغيير شيء فيها ؛ ولكنها تريد منا ، إذ نحيا ، أن نعرف ما هي الحياة ، وتطلب منها وضوح البصيرة باعتبارها الفضيلة الوحيدة .

وهذا هو السبب في أن الوجودية تثير على نفسها عداوة كل الذين يعيشون من المساومة مع ضمائرهم ، وكل من لا عقيدة لهم سوى الطوية السيئة ، وكل الذين لهم ضمير طيب إلى حد مسرف ، والعلماء ، والمسيحيين الهادئين ، والماركسيين المتمسكين بحرفية أصولهم ، وأهل المناصب والساسة الذين وصلوا ، والذين يوهمون أنهم وصلوا لأن لهم فضلا أسمى من فضل غيرهم ؛ كل هؤلاء يشعرون بحاجة إلى تسوين موقفهم ؛ هم يريدون أن يغسلوا أيديهم من الإثم كما فعل بونس بيلات Ponce Pilate ، ولكنهم مهما فعلوا فستظل أيديهم ملوثة . وقد كشف عنهم اللثام سارتر في أولى قصصه التمثيلية ، وهي المسماة : « الدباب » *Les Mouches* في هذه القصة يعترف جوبيتر Jupiter ، كبير الآلهة ، لايجيست Egesthe ، ملك أهل أرجوس ، قائلا : « إن كلاً منا يعمل على أن يسود النظام ، أنت في أرجوس وأنا في العالم ، وإن سرّاً واحداً بعينه يُثقل قلبي وقلبك . . . وهو أن أبناء آدم أحرار ؛ هم أحرار ، يا إيجيست ، أنت تعلم ذلك ، وهم لا يعلمونه » . فيجيب إيجيست قائلا : « إني منذ توليت الحكم ترمي كل أفعالي وأقوالى إلى تكوين صورتي . . . وما أنا إن لم أكن ذلك الخوف الذي يشعر به الآخرون مني ! »

وقد كانت الظاهرة التي تتميز بها هذه السنوات الأخيرة في فرنسا هي ظهور طريقة جديدة في الحياة تتميز باستعداد ثابت تقريباً لمواجهة مختلف مواقف الحياة والتأثر بها . ومعظم الشبان لا يرتبطون ارتباطاً نهائياً لا بمهنة ولا بطبقة اجتماعية ولا بأسرة معينة ، فلم يعد لاختيار المبرر أو الاعتبار الاجتماعي في نظرهم ما كان له من الشأن . هم قد أصبحوا لا يعيشون لغاية معينة ، بل هم يعيشون ليعيشوا فقط . وعلى هذا فإن مصير الإنسان لا يتحقق ولا ينتهي مادام حيّاً ، والحياة لا تزال تبدأ دائماً من جديد كل لحظة . وهذا تطبيق لقول هوسرل Husserl : « إن الفيلسوف لا يزال مبتدئاً على الدوام » . ولم يعد مجهود سارتر في أخرى رواياته ، وهي المسماة « سبل الحرية » *Les chemins*

de la liberté متجها إلى تصوير نماذج اجتماعية كلاسيكية كالبعيل أو الكذاب أو الفاجر أو العاشق ، بل إلى تصوير شخصيات « في موقف » ، شخصيات تتطور على نحو غير ثابت ، فلا ينتهي تاريخها إلى نهاية ، « هأنذا موجود ، أتذوق نفسي ، إني أحس بالطعم القديم للدم وللماء الحديدي ، وذوق هو أني أتذوق نفسي ؛ إني أحيا ، والحياة هي هذا : أن أتمتع بنفسي وأرتوي منها بدون ظمأ ؛ أربعة وثلاثون عاما ، أربعة وثلاثون عاما أتذوق فيها نفسي ، وقد كبرت ؛ قد اشتغلت ، وانتظرت ، وبلغت ما كنت أريد : مارسيل وباريس والاستقلال ، وقد انتهى كل شيء ، فلا أنتظر شيئا بعد ذلك » . هذا هو الإنسان الحديث ، الإنسان الحر حرية كاملة ، لأنه قد تحرر من المؤثرات الطبيعية والاجتماعية التي أريد إخضاع الفرد لها والتي يخضع لها الفرد راضيا في كثير من الأحيان ؛ والوجودية ليست شيئا سوى فلسفة هذا الإنسان الحديث ، فلنصرنا « جوته » الخاص ، والوجودية هي التعبير الفلسفي عنه .

والآن فلنحلل بعض مكونات هذا الجو ؛ فكما أن الحياة الحديثة حياة مدني فإن الوجودية فلسفة المدن أيضا ؛ فالطبيعة التي قد أولع بها فنائو المناظر الطبيعية لا وجود له فيها ، أليست كل نواحي البيئة الطبيعية الريفية تصبح بحكم تقدم المدنية بيئة صناعية ؟ فليس ثم رسام إلا نظريا ، وقرتنا هو قرن الأشياء المصنوعة . ولا شك في أن الماركسية كانت على حق في نظرها للإنسان على ضوء الأدوات التي يستعملها ، لكنها أخطأت في أنها بنت على هذا الإنتاج المادي قيمة أو احتراماً ما . وإن شعور « الغثيان » الذي صورته سارتر والذي خصص له أولى قصصه مصدره الاتصال اللامي بالأشياء ، فهي تلمسني ، كأنها حيوانات ، وتحرك في شعور الغثيان ، ولكنني إذ أشعر بذلك أشعر بوجودي كالأشياء ، كحزمة من الأشياء المتلازمة ، بل إن تفكيري هو كببت نمل يزخر بحركة ما فيه . وفكرة الزوجة هي في نظر سارتر فكرة أضيالة ؛ فكل وجود هو قبل كل شيء أشبه برائحة كريهة تبعث شعور الغثيان . وعلى هذا فإن ما يشعر به الإنسان حين يستخدم المترو له من هذا الوجه أهمية ميتافيزيقية ؛ فأنا أحس وسط الزحام إحساساً واضحاً بتلك الزوجة التي هي خاصة أساسية للإنسان ؛ على أن العلاقات التي تربطني بالآخرين هي من هذا الطراز ، فلا تربطني بهم صلة روحية ، بل الأمر لا يعدو تلامساً يلتزق فيه وجود بوجود .

وقد دهش الناس من الأهمية الخفية التي صارت لها ، من وجهها ، صفة الأسرار والتي أصبحت للمقاهي في فلسفة الوجوديين وفي حياتهم ؛ فالمقاهي إلى جانب كونها أما كن أشعر فيها ، عند احتكاكي بالغير ، بوجودي المجرد العاري على نحو أحسن ، فإن فيها من غير شك مقاومة للروح البورجوازية التي استبدت بفرنسا منذ قرنين ؛ فقد كان آباء الأسر حوالى عام ١٩٠٠ مثلاً يحرمون على أولادهم التردد على المقاهي ؛ لأن الإنسان يضيع فيها وقته وماله وكرامته ، بمجالسة الفنانين والمتبطلين والبوهيميين الذين يعيشون من يوم ليوم ؛ وكان الرجل البورجوازي يطالب أسرته أيضاً بأن تتكلم كلاماً مهذباً ، وتتأدب بآداب حسنة ، ولكن ذلك لم يمنع من إتيان المفاسد سرّاً ، وكان الأب يرافق أسرته نادراً وبانتظام إلى المسرح أو إلى « البال » ، لكنه كان من وراء ذلك لا يبغي التسلية بقدر ما كان يقصد أن يكون ذلك بمثابة مران على الحياة الاجتماعية . فالأجيال الناشئة ، إذ تنبذ هذه الحياة الزائفة تصرّ صمداً على كل هذه النقط التي يراد الحيلولة بينها وبينهم في سنهم الصغيرة ؛ فهم يقضون كل يومهم في ضروب التسلية في السينما وصلالات الرقص والكباريهات ، وهم يمجدون الكسل ويمارسونه ، ويتكلمون ، كما تتكلم شخصيات سارتر ، لغة مشوبة باللهجة الدارجة argot ومملوءة بالآلفاظ التي يأبأها الحياء ؛ وليس هذا عندهم مجرد ميل طبيعي ، بل هم يضمّون إلى ذلك روح عدم الاكتراث ، وهي روح الحياة التي قد خلصت من الأوهام بما فيها وهم اللذة نفسه ، ويجمعون إلى ذلك أيضاً نظراً منيراً يعرفون به أن الوجود هو هذا ، وأن الإنسان لا يستطيع أن يفعل سوى أن يكون موجوداً . في هذه الشبيبة الفرنسية التي أطلق عليها اسم المتألقين المتعذّقين zazous ، هذه الشبيبة التي تتردد على البارات الأمريكية ، وتتجر في السوق السوداء هي أغنى الطوائف في دلائها ؛ وليس ذلك لأن طريقة حياتها أحسن الطرق ، بل لأنها تشهد لمصلحة حرية الفرد ؛ وفوق ذلك فلا طريقة في الحياة أفضل عندهم من أخرى من حيث ما تتضمنه ، وللإنسان بفضل حرّيته القدرة على تخطي حدود كل ما يقيد ، وهذه الحرية هي قيمته الوحيدة ، فليس بعد عند هذه الشبيبة لاخير ولا شر ، لا جميل ولا قبيح ، ولا حق ولا باطل .

إن الشبيبة الحديثة تقلق وتسام ، وهنا فضلها الكبير : هي لا تترك نفسها تقع في جبايل وهم ما ، علمي أو فني ، أو سياسي ، أو خلقى ؛ هي تريد أن تحيا

بنفسها لا أن تترك فكرة ما غير شخصية ، أو ضميراً جامعياً يحتل مكانها ويعيش فيه ، هي تسير على قاعدة تفرقة الإنسان بين شخصه أو «أنا» je وبين الآخرين أو «هم» on وليس الذي يجب أن يحيا في كل منا هو الـ «هم» أعني الشيء الذي ليس حقيقتنا ، بل هو الـ «أنا» . إن الحياة الحقيقية تنصرف عن التسلية ، وهي تعلم نفسها وجوداً محضاً ، هي شاعرة بنفسها ولا تترك حريتها المستمرة ، والشاعر المتوفى ، فاليري Valéry هو معبود هذه الشبيبة ، فشعره يعبر عن بحث عن الحرية الداخلية ، كما يعبر عن تأمل آثارها الطبيعية . ألم يبين فاليري في كتابه «الروح والرقص» *L'Ame et la danse* ذلك السأم الذي يتميز به قرننا بياناً مدهشاً ؟ إذ يقول : « هذا المرض الذي هو مرض الأمراض ، وهذا السم الذي هو سم السموم ، هذا السم المضاد للطبيعة كلها ، هو الذي يسمى السأم من الحياة - هو ليس الملل العارض ، ملل التعب أو الملل الذي يمكن رؤية أصل جراثيمته أو رؤية حدوده ، بل هو السأم الكامل ، السأم الخالص ، الذي لا يرجع منشؤه إلى سوء الحظ ، أو المرض ، أو الضعف ، ويرضى بتأمل أسعد ما يمكن من الظروف ، وأخيراً هو هذا السأم الذي ليس له مادة سوى الحياة نفسها ، وليس له سبب بعد ذلك سوى وضوح بصيرة الحى » ، هذا السأم المطلق ليس في ذاته إلا الحياة عارية تماماً ، إذا نظرت إلى نفسها بوضوح . في هذا السأم يشعر الإنسان ، بحسب عبارة بوسويه Bossuet ، « بالشيء الجدوى الذي لا يمكن تقليده والذي يوجد في الحياة الإنسانية » .

ففرى أن الشيء الجدوى عند الوجوديين يختلف عن نظيره التقليدى الموروث ؛ فعند أصحاب التقاليد أن من الأشياء ما هو جدوى ومنها ما هو هزل لا قيمة له . أما عند الوجوديين فالأشياء كلها لا قيمة لها بذاتها ، والأمر المهم الذى يدور حوله البحث هو جدوى الحياة الذى لا ينحصر في الأشياء بل في الحياة إذا شعرنا بها .

وإذن فالرجل المجنون قد يكون في كثير من الأحيان أكثر جدواً من الرجل الذى يسمى عادياً ، سليم العقل . ويذكر كامو Camus على سبيل التمثيل هذه العبارة المقتبسة من الروائى التشيكوسلوفاكى كافكا Kafka : « لو أراد كافكا أن يشرح التناقض فإنه يستخدم لذلك الفكر الصحيح المنسجم . نحن نعرف قصة ذلك المجنون الذى كان يريد أن يصطاد سمكاً في حوض الاستحمام ، فسأله

الوجودية

طبيب كانت له أفكاره عن العلاج النفسى : أيعض السمك الطعم ؛ فسمع من المجنون هذا الجواب المنطقي الصحيح : « لا ، أيها الغبي ! لأن هذا حوض الاستحمام » . إن العالم ، كما يتصوره كافكا ، هو فى الحقيقة عالم لا يمكن الإبانة عنه بالألفاظ ، وفيه يبحث الإنسان عن الترف المؤلم بأن يصطاد فى حوض استحمام ، مع غلمه أنه لا يخرج من ذلك شئ » .

إن الجو الوجودى يمكن أن يتلخص فى شيئين : فالعالم والإنسان لا معنى لهما ، والحياة لا معنى لها ولا قيمة ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لا يجوز الانتحار بل ينبغى احتمال مشقة الحياة . يجب علينا أن نقبل وجودنا ونحتمله ، دون أمل ، ذلك « الأمل الحقيقى » ، كما يقول سارتر ، وأن نستعمل حريتنا الفردية فى أى شئ ؛ نحن « قد قضى علينا بالحرية » ، فلا مفر من ذلك ، والفيلسوف الوجودى لا يضع كنموذج أمامه قديساً أو حكيماً ، بل إن مثله الأعلى هو البطل .

ويمكن أن نعتبر شعار الوجودية والكلمة المعروفة بها تلك الفكرة التى افتتح بها هيجل Hegel « دروسه فى فلسفة التاريخ » ، إذ يقول : « إن الشرقيين لا يعرفون أن العقل حرٌّ أو أن الإنسان حرٌّ ، من حيث هو إنسان ؛ بل هم يعلمون أن واحداً فقط هو الحرُّ ؛ وهذا هو حكم الاستبداد . أما اليونان فيعرفون أن بعض الناس أحرار ، لكن نظام الرُّق يستمر بينهم : والمسيحية تبين شيئاً فشيئاً أن الإنسان ، من حيث هو إنسان ، حر . . . » والناس لا يعرفون جميعاً ذلك ، والفيلسوف الوجودى يعمِّسهم أنه بحسب كلمة لشخصية من الشخصيات التى صورها دستويشكى يمكن القول إن « كل شئ فهو جائز غير محرَّم » . ويختم هيجل كلامه بقوله : « إن تاريخ العالم هو تطور الشعور بالحرية ، وهذه هى النهاية الأخيرة للكون » ؛ فالوجودية هى بحق فلسفة نهاية الكون .

٢ — الوجودية المسيحية

وإذا أردنا أن نترك « الجو » الوجودى ، وندخل فى التفاصيل الفلسفية لهذا المذهب الوجودى فإننا نستهدف لمواجهة التناقض وقلة اليقين ؛ ذلك

الوجودية

أن كلا من أتباع هذا المذهب له ، وراء هذا الجو المشترك بينهم ، فلسفته الخاصة ؛ فليس ثم فلسفة "وجودية واحدة ، بل ثم فلسفات وجودية . وهذا التنوع هو أحسن برهان على وحدة المذهب الوجودي ؛ ذلك أن الوجودية لا تنحصر في الفكر ، ولا حتى في التفكير في الوجود ، بل هي تنحصر في الوجود نفسه ؛ وكل إنسان لا يستطيع أن يفعل ذلك إلا لنفسه . وما يؤخذ في كثير من الأحيان على الوجودية من أنها تناقض نفسها لا قيمة له ضدها ؛ لأنه مما لا شك فيه أن الوجود نفسه يشتمل على التناقض ، بل هو وليد التناقض ، كما يذهب إلى ذلك هيغل بنظره الثاقب . إن الوجودية تحدث الثورة في الفلسفة بأن ترفض التفكير مستعينة بالمفاهيم المجردة ، فهي بذلك مستمدة مباشرة من فلسفة كنت الذي فصل بين الفكر وبين الوجود فصلاً تاماً ، هذا الوجود الذي هو في نظره سابق على كل فكر ، بحيث لا يمكن أن يُعرف بمفهوم مجرد أيّاً كان ؛ وإذن فليس الفكر أساس الوجود ، بل إن الوجود هو ، على العكس من ذلك ، أساس الفكر ؛ وهكذا يُقضى القضاء النهائي على الميتافيزيقا التي يعتبرها كنت وهماً .

والآن فلنلخص وصف هذا الوجود الذي هو نقطة بداية الوجوديين كلهم . إن الإنسان لا يمكن أن يعرف التعريف الكامل بمجرد الاستناد إلى المعينات والخصائص المادية والاجتماعية ، فهو يفتل منها جميعاً ، لأنه يشعر بها ، وهو من حيث أنه يأنى أن يُردّ إلى أحد منها أو إلى مجلتها فهو شيء آخر غير ما يبدو للآخرين ، فهو ما هو . والشخص الذي يعتبر أن حقيقة حياته تنحصر في ثروته أو في مهنته إنما يعتبر نفسه كآلة ، ولا يستحق أهم الإنسان ، وهذا في كثير من الأحيان شأن الرجل البورجوازي والممول الكبير في عاصمة ، وشأن الموظف الصغير ورب الأسرة في الريف ؛ فليس في حياة الواحد منهم من نفسه شيء ؛ وهو يملأ مكاناً يمكن أن يتبدأه الكثيرون ، وذلك بحسب فكرة معينة عن الجماعة لا يفتن إليها ؛ وربما كان هذا أيضاً هو شأن رئيس صناعة أو دولة أو دين ، فهو ليس له أي فضل فائق ، وهو لا يوجد بذاته ، وهو ليس شيئاً إذا جُرد من الاحترام ومن الطاعة ومن الخوف الذي سببه في نفوس الآخرين .

وَمَنْ يَضَعُ نَفْسَهُ وَذَاتَهُ فِيمَا يُسَمَّى الْخَلْقَ أَوْ الشَّخْصِيَّةَ يَرْتَكِبُ نَفْسَ الْخَطَا ؛

فإن كوني ذكيًا أو غبيًا ، جميلاً أو قبيحاً ، قوى البنية أو مريضاً ، رقيقاً أو شريراً ، ليس من مميزات كياني العميق أكثر مما يكون ذلك لكوني تاجراً أو عاملاً أو أعزب أو أرملاً ، فأتأثر بشيء آخر غير صفاتي الخاصة ؛ وقد أستطيع أن أستمد منها عجباً كما أستمد من رباط رقبة جميل ، ولكنني لا أريد أن يحبني الآخرون أو يحكموا عليّ بحسب هذه الصفات ، فأنا متميز عن هذه الصفات كما أتميز عن كل ما هو خارج عني ؛ فأنا أحياء ، وأنا محدود محصور في كل وقت بين وجودي الماضي الذي لا أرتبط به إلا بالقدر الذي أريده وبين وجودي في المستقبل ، وهو وجود جرت في حياتي كلها أمامي في كل لحظة ، وأستطيع أن أجعلها كما أشاء ، وأن أنهى كل شيء وأبدأ كل شيء من جديد دائماً ، بشرط أن أتصرف حراً وأن أحافظ على حريتي واستعدادي الداخليين .

هذه هي الحقيقة الأولى ، وهي الحقيقة الوحيدة في نظر البعض . فإذا أدرك الإنسان هذه القدرة التي له على أن يجعل من حياته شيئاً فإنه يشعر عند ذلك بوجوده الخاص ، وهو يجتاز عند ذلك حالة نفسية معينة يحس فيها أن ذاته والكون لا معنى لهما ، وأن كل عمل يعمل به يخفى وراءه وفي أعماقه السأم من الحياة ، وهو يحس نفسه قد أسلم إلى الهلع الذي لا يبدو فيه أن اختيار شيء أحسن من اختيار آخر ، ولا أن حالاً خيراً من حال ، ولا أن حياة أكبر قيمة من حياة أخرى ؛ هو يحس بأنه حر وأنه لا سبب لإظهار حريته إلا الفعل عن إرادة خالصة . إن كل إنسان يريد أن يحيا حياة حقيقية لا بد أن يجتاز هذه المرحلة ، وهو عند ذلك يكون وجودياً ، ولكن هل يستطيع أن يبقى كذلك ؟ وهل يجد في ذلك مذهباً نهائياً متماسكاً منسجماً ؟ أو أليس ذلك بالنسبة له مجرد مرحلة انتقال ، وتمهيداً لحقائق أخرى ، وتصفية أولية لا غنى عنها لوضع الروح في حالة حسن التأهب ؟

إن الوجودية ، كما يصورها الوجوديون اليوم لجمهور الناس ، هي محاولة منظمة يقوم بها أصحابها عن شعور ، بقصد إقامة مذهب من هذا الوصف المباشر لحال الإنسان ومصيره ، واستخلاص قواعد للحياة من هذا الوصف وحده . وقد كان هيديجر Heidegger ، الفيلسوف الألماني المعاصر ، أول من وضع المشكلة وبينها على هذا النحو . ويحاول ج. ب. سارتر J-P. Sartre في فرنسا مستعيناً بمجلة « العصور الحديثة » *Les Temps Modernes* أن يطبق هذه الطريقة على

المشكلات التي تعرض كل يوم في السياسة والفن . وأهمية هذه الوجودية تأتي من أنها محاولة لكي يحيا الإنسان على الصورة الإنسانية الخالصة ، ولكن يستغنى بعد ذلك عن الإله ؛ فإذا كان الإله موجوداً ، وإذا كان هو خالقنا فليس هو عند الوجوديين غاية لنا ، لأنه خلقنا أحراراً . وهنا تعرض المشكلة الأساسية : هل يمكن أن نجعل للحياة معنى إذا جرّدت من الإله ؟ وفي نفس الوقت نجد أن الوجودية سابقة على سارتر وهيديجر وأن أصلها مسيحي .

والواقع أنني لا أستطيع من مجرد النظر في وجودي الخاص أن أصل إلى ما يجب أن تكون عليه حياتي ؛ فأنا لذلك أرجع إلى قيمة عليا ، إلى الإله ؛ ولكن الإله ليس بالنسبة لي موضوع بحث عقلي ؛ هو يتدخل من نفسه في وجودي ويظهر لي حضوره ؛ وسواء أَرْضاني ذلك أم لم يَرْضني ، فهو قد أظهر نفسه في التاريخ ، وتغير مجرى حياتي بسبب ذلك ، ولكن التمسك بالإله لا قيمة له إلا إذا صدر عن حرية كاملة ، وإلا إذا أُنْتُد «مع الخوف والارتعاد» كما يقول كيركجارد Kierkegaard ؛ فأنا لا فضل لي في كوني مسيحياً إلا لأنني نزلت إلى باطن وجودي كإنسان ووهبت للإله هذا الوجود دون صفاتي أو مكاتي ، وأنا في البؤس والضعف أجرد نفسي من كل ما ليس نفسي ؛ واليأس المتناهي هو الطريق الذي لا بد منه لتلقي الأمل الإلهي . ويمكن القول إن أول الوجوديين هم يسكال والقديس أوغسطين والمسيح ، من وجه ما ، يوم احتضاره .

قضى يسكال شباباً هادئاً ، لأنه تلقى من أبيه تربية طيبة مثالية ، بئين له فيها أن كل نوع من الأشياء له ماهيته : من معادن ومادة ، ومن نباتات وأحياء ، ومن حيوانات ، أو حشرات ، أو غرائز ، من إنسان أو عقل . وفي قمة ذلك كله تقف الملائكة بما لها من عقل . أما الوجود الإنساني فكان عنده واضحاً بسيطاً ، كأن له وضوح النظرية الهندسية وبساطتها ؛ وكان الإنسان يعتبر جزءاً من الكون . هو حلقة ثابتة في سلم مراتب الموجودات ، بينه وبين الملائكة فوقه نفس ما بينه وبين الحيوان تحته من مسافة ، ويكفيه أن يحقق غايته كإنسان عاقل مفكر ، وأن يفكر مستعينا بالمفاهيم المجردة ، وأن يقنع الآخرين بحسب قواعد الإقناع ، وأن يدير أمر نفسه وأمر الجماعة في إتقان ، على نحو ما يتقن الإنسان عملاً فنياً .

ولكن هلح يسكال ينشأ من احتكاكه بالآفراد الآخرين ؛ فهو في مجالس الصالونات يجد الناس كما هم عليه ، ويمجدهم على غير ما ينبغي أن يكونوا ؛ هو يشاهد الظلم سائدا في الدولة كما يجد الشهوات الجامحة متسلطة على قلب الإنسان ؛ هو يلاحظ أن الفن ، لكي يكون ساراً ، لا حاجة له بأن يهتم فقط بأن يكون صحيحاً ، وأن الفلسفة التي تتعقل لا تساوى شيئاً بجانب الفلسفة التي تحس ؛ ويشهد يسكال انهيار كل عقائده ويرى أن ماهيته الخاصة تنهدم دون أن يسندها شيء ، وهو يلخص اضطرابه الشديد في جملة واحدة وهي قوله : « إن الإنسان لا يتصرف بحسب عقله ، هذا العقل الذي يكون وجوده » .

وبالاختصار فإن طبيعة الإنسان قد فسدت ، ولم يصبح مكانه في نظر يسكال بين الملك والحيوان ، بل هو أحياناً يظهر في صورة الملك وأحياناً في صورة الحيوان ؛ أما الكون فهو بدوره يصبح محايداً لا شأن له بالإنسان . يقول يسكال :

« إن السكون الأزلي لهذا الفراغ الذي لا نهاية له يروغني » .

يسأل يسكال نفسه : ما أنا وما هو الإنسان ؟ فلا يجد شيئاً يكون ماهية له ، فليس الإنسان ماهية ، بل هو وجود ؛ ولا بد أن يطول عهدنا بالافتناع ، كما اقتنع يسكال ، بأن للعالم نظاماً وبرنامجاً ، وبأن للإنسان طبيعة خاصة به ، وعند ذلك تصيبنا الدهشة ويستولي علينا الذعر حينما نتبين ما في الكون من فوضى ، وحينما نرى أن الإنسان لا طبيعة له ولا ماهية ، وسواء أكنت أريد أن أكون عالماً هندسياً ، أم رجلاً شريفاً أميناً ، أم راهباً ، فإنني أولاً وقبل كل شيء وجود غير معين يتقدم في كل ماهية .

وإن الوصف الذي يصف يسكال به هذا الوجود قد بلغ من الدقة والكمال بحيث إن خصومه لم يفتأوا يصطدمون به ، وإن أنصاره لم يفتأوا يتخذونه أساماً لتفكيرهم . وربما كانت أكثر كلمات يسكال تمييزاً لتفكيره هذه الكلمات التي كثيراً ما جعلت قولتير يرسل صيحاته والتي كأنها مأخوذة من قصة للكاتب التشيكوسلوفاكي كافكا . يقول يسكال :

« عند ما أشاهد تعس الإنسان وتخبطه ، وأرى الكون كله أبكم ، وأشاهد الإنسان في غير نور يهتدي به ، بل متروكاً لنفسه كالضال في هذا الركن من الكون ، لا يعلم من وضعه فيه ، ولا ما جاء هنا ليفعله ، ولا ما سيؤول

الوجودية

إليه أمره ، إذا مات ، وعند ما أرى أنه عاجز عن كل معرفة ، عند ذلك يعتريني الدعر ، كما يعترى رجلاً مُحملاً نائماً إلى جزيرة مقفرة مخيفة ، فاستيقظ لا يعلم أين هو ولا يجد وسيلة للخروج من هذه الجزيرة .

إن الإنسان لا يمكن أن يعرف إلا من حيث إنه هو الموجود الحاضر ، لكن الذي ينير أمره ليس هو هذا الكون ، بل هو إنما يجد في داخل نفسه ما يكشف له أمر نفسه . يقول بـسكال :

« ليس الإنسان إلا كنبت ضعيف ، هو أضعف ما في الطبيعة ؛ لكنه نبئت مفكر ، وليس من الضروري أن يتسلخ الكون كله لكي يسحقه ، لأن قطرة من الماء تكفي لأن تقتله . ولكن إذا أهلك الكون الإنسان فإن الإنسان يكون أكثر شرفاً ممن يهلكه ؛ لأن الإنسان يعلم أنه يموت ، أما مزية الكون على الإنسان فإن الكون لا يعلم من أمرها شيئاً . »

وعند بـسكال يبلغ التصادم بين الإنسان والكون منتهى شدته ؛ فالإنسان يعلم إنسانيته من طريق معارضته للكون ، ولكنه إنما يعلم ذلك لأنه في الكون ، وهو لن يستطيع أن يتخلص منه ، لأن وجوده كإنسان يحتم افتراض وجود الكون . يقول بـسكال :

« ما هو الإنسان بالنسبة للطبيعة ؟ هو لا شيء بالنسبة للامتناهى ، وهو كل بالنسبة للشيء ؛ فهو إذن وسط بين اللاشيء وبين اللامتناهى . »

ولم تقض العقيدة المسيحية على هذا الشعور الحزين في نفس بـسكال أمام ما يشاهده من وجود الإنسان ؛ لأن العقيدة المسيحية بوضعها الإنسان بين التلبس باللحم والدم وبين البعث الجسدي آخر الأمر ، تؤكد أن مصيره أن يكون للكون ، بحيث لا يستطيع أن ينفك منه . على أن بـسكال لا يمل من تكرير القول بأن الإنسان لا يمكن أن يظفر بشيء من النظر في الكون وأنه لا بد من أن يتجه إلى نفسه ليجد بعض النور . يقول بـسكال :

« ثم ماذا ؟ أستم تقولون أتم إن السماء والطيور تدل على وجود الله ؟ - لا - أوليس دينكم يقول ذلك ؟ هذا وإن كان صحيحاً بوجه ما عند بعض الأرواح التي أعطاه الله هذا النور فإنه خطأ بالنسبة للكثرة . »

إن الناس يفرون من أنفسهم إلى أنواع التسلية ، فيلعبون بالكرة أو يطلبون صيد الأرناب البرية خوفاً من التفكير في أنفسهم . على أن الشعور بأننا مائتون

لا بد من أن يؤدي بنا دائماً إلى مشكلة حياتنا . وليس الهلع مرضاً عقلياً ولا هو كظم للغرائز ، بل هو الطريقة التي نشعر بها أننا — حتى ونحن في وسط عالم طبيعي واجتماعي يؤثر فينا ويسيطر علينا سيطرة كاملة — لا يزال يبق لنا وجودنا وحرقتنا . نحن نستطيع أن نصير ما نريد ، ويمكن أن نريد ذلك بفعل يشمل كياننا كله ؛ ومعنى أننا موجودون هو أننا أحرار .

على أن يسكال يبحث عن أبطال يستطيع أن يستعمل على مثالهم ما له من الحرية ، وهو يجد أمامه حتى عصره بطلين : إبيكتيت Epictète ومونتيني Montaigne : الأول هو رمز عظمة الإنسان ، والثاني رمز شقائه وتعبه ، الأول هو الإنسان الذي يجعل من نفسه ملكاً وإلهاً ، والثاني هو الإنسان الذي ينحط إلى مرتبة الحيوان . ولكن يسكال لا يريد أن يوجه حياته على أثر الفلاسفة الذين لا يستغرقون إلا جزءاً من وجوده . ولكي يكون الإنسان منطقياً مع نفسه فإنه يجب أن يستخدم كل وجوده . ولما كان إبيكتيت ومونتيني يبطل كل منهما الآخر ، فإن المجال يبقى في نظر يسكال لبطل واحد يحقق الإنسان كله ويوجد في صميم كل إنسان ، وذلك هو المسيح .

والسبب في أن برهان يسكال على صحة الديانة المسيحية لا يمثل وثبة ميتافيزيقية هو أن يسكال يصور لنا مسيحاً وجودياً . فلنقرأ القطعة التي عنوانها « سر المسيح » :

« إن المسيح في محنته يعاني الآلام التي يسببها له الناس ، ولكنه في حال الاحتضار يعاني الآلام التي يعطيها هو لنفسه . . . إني أعتقد أن المسيح لم يشك إلا هذه المرة فقط ، ولكنه عند ذلك يشكو كأنه لم يستطع أن يصبر على كظم ألمه المفرط . يقول المسيح : « إن روحي حزينة حتى الموت » . . . فالمسيح سيستمر ألمه حتى آخر الدنيا ، فلا يجوز النوم في أثناء ذلك » .

إن الألم ووحدة الإنسان مع نفسه واستيقاظ الضمير المشرق فيه وتجربة الموت ، كل هذه الإحساسات التي هي من شأن الوجود الحقيقي قد عرفها المسيح خيراً مما عرفها أي واحد سواه . ولكن المسيح ليس بطلا يضع نفسه في صف غيره من الأبطال ؛ فهو لم يكن له وجود تاريخي فحسب ولم يقتصر أمره على أنه عاش ومات ، بل هو يعيش ، عند يسكال ، في كل إنسان حتى آخر النوع الإنساني ؛ فهو نفس وجود الإنسان ومصيره ، ثم وجود كل آدميين متحدين في جسده

المقدس . وعلى هذا فإن مأساة المصير الإنساني تتجلى على هذا النحو ، وهو أن المسيح في ألم الاحتضار حتى آخر الدنيا .

والطريق الذي فتحه يسكال له نهايتان : إحداهما پروستانتية ، والأخرى كاثوليكية ، وهما تدلان على الفرق بين هذين الدينين . فأما الكاثوليك فإنهم ، وإن كانوا ينظرون إلى يسكال بعين الريبة ، يعتبرون أن الوجودية طريق يؤدي إلى الله ، ولكنهم لا يعتبرونها أساسا للدين . فالحقيقة النهائية في نظرهم لا تأتي من الإنسان ، بل إن الوحي هو الذي يهدي القلق الوجودي شيئا فشيئا ، هذا ما يذهب إليه اليوم لويس لاڤيل Louis Lavelle ورينيه لوسين René Le Senne وپريس پاران Price Parain وچان قال Jean Wahl وخصوصا جبرييل مارسيل Gabriel Marcel ، وعلى العكس من ذلك ترى طائفة من مفكرى الروس البيض وهم شيستوف Chestov وسولوڤييف Soloviev وحتى برديايف Bardiaev ، ترى أنه لا توجد في داخل المسيحية حقيقة نهائية ما ، وأنه لا يمكن الوصول إلى عقيدة خالصة من القلق ، وأنه لا بد للإنسان من أن يجدد في كل لحظة قراره بأن يكون مؤمنا . وهؤلاء المفكرون يسرون في طريق الفيلسوف البروتستانتى الدنمركى الذى نبغ في القرن التاسع عشر ، وهو كيركجارد الذى كان أعظم الوجوديين تأثيرا ، وقد أدى به الاعتقاد باستحالة الوصول إلى اليقين المطلق إلى مذهب الصمت . يقول كيركجارد : « لو كان لا بد أن أجيب ، والسيف على رقبتى ، على هذا السؤال وهو : هل أنت مسيحى أو لا ؟ فأنى أقول : إني أضع في الله وحده أمل أن أكون مسيحيا ، ولكن إذا لم يُعْتَبَر هذا الجواب كافيا ، وقيل لى : لا بد أن تقول : أنت مسيحى أو غير مسيحى ، فأنى أجيب : لا ! هذا لا أقوله . فإذا أصرّوا وقالوا لى : سنقتلك إن لم تجب ، فأنى أقول : فلتفعلوا إذن ، ولا شئ عندي أعترض به على ذلك » . إن المسيحية عند كيركجارد هي دين الشئ غير العادى ودين اليأس المتناهى . وعلى يدى كيركجارد تنتقل المشكلة ، فإنها بعد أن كانت : « كيف يمكن أن يكون الإنسان وجوديا » ، تصير : « كيف يمكن أن يكون الإنسان مسيحيا » ، وهو لا يجد مخرجا ، على حين أن غيره يصلون فيما يتعلق بالسؤال الأول إلى يقين جديد .

أما جبرييل مارسيل ، فهو يؤكد أن التحليل الكامل للإنسان يكشف في

هذا الإنسان عن الإله ، ويجعل مارسيل تدليله مستنداً إلى الوجود *être* والملك *avoir* ؛ فكلما حاولت أن أعرف ما أنا ، لا أجد في ذلك ما أقوله سوى ما أملك ؛ فإذا كنت مالكا أو أباً أو عاشقاً أو فيلسوفاً فمعنى ذلك أن لى داراً وابناً ومعشوقاً وفلسفة ؛ ولكن الوجود لا يقاس رغم هذا بما يملكه الإنسان ، وقيمتى الحقيقية لا تعرف بحسب ما أملك . أما ألبير كامو *Albert Camus* فهو عند ذلك ينصحنا أن نعيش بقوة أكثر ، لأن نعيش احسن ؛ لأن المعيشة الحسنى لا معنى لها ، كما ينصحنا أن نقلد الممثل ونتشبه بدون جوان *Don Juan* . وليس الأمر عند مارسيل أمر أن نجرب أكبر عدد ممكن من ضروب الحياة ، بل هو أن نخلق صورة الحياة التي نكون فيها ما نحن حقيقة ؛ ولكن كل ما نملكه يملكنا بدوره : فالملك أسير ممتلكاته ، والاب أسير أسرته ، والفيلسوف أسير مذهبه ، فيجب إذن أن أخلص وجودى الخاص من كل ما أستطيع أن أملكه . إن وجودى ينحصر تماماً في إحساس هو التجربة الخالدة للإنسانية ، وهو إحساس الحب ؛ ففي الحب الحقيقى أجد أن وجوداً آخر يهب لى نفسه ، وجوداً أحبه لذاته وحده وهو يحبني لذاتي وحدي ؛ فالحب صلة بين شخصي وشخص أخاطبه « بأنث » ، هو صلة بين وجودين قد تخلصا بفضل الحب من القيود التي تأتي من جميع ضروب الامتلاك .

وتجربة الحياة الزوجية ، على بعدها من أن تقيدنا في عالم اللحم والدم ، تدخلنا في عالم الأرواح وتؤدي بنا إلى فهم الوجودات التي نصادفها وإلى حبها لذاتها ، على نحو ما يكون ذلك في المحبة للإنسان *charité* وذلك بذلاً من أن تؤدي بنا إلى امتلاك هذه الوجودات . وهذا الحب الإنساني يجاوز الإنسان وهو يبلغ أشد قوته بالموت . والتفكير في الموت هو العامل الحاسم الذي يدفعنا إلى تغيير حياتنا ؛ ولكن هذا الموت إذا كان موت الوجود الذي نحب ، فإنه يكون له معنى أكثر من ذلك ؛ لأن هذا الوجود المحبوب لا يفتأ يظل حاضراً أمامنا بعد موته ؛ وحتى لو كنت أجهل حبه أو كنت لا أحبه كما ينبغي فإنه يصير حاضراً أمامي حقيقة ؛ وفي هذا سر لا ينكشف إلا في حالات محسنة ؛ ففي مثل هذه المواقف بما فيها من مأس يكون وجودنا مشغولاً إلى أعلى درجة . ولذلك جرى مارسيل منذ أول الأمر على الطريقة المسرحية التمثيلية للإبانة عن أفكاره .

وحضور الإله ، وهو الحضور الذي يأتي به إلى أرواحنا الكائن المحبوب حتى لو كان ميتاً ، ينتهي بأن يكون له معناه في حياتنا ؛ ونحن نجعل بيننا وبين الإله صلة حب بين أنا وأنت . أما الفلسفة التقليدية الماثورة فتتصور الإله ذاتاً sujet كل المخلوقات بالنسبة لها موضوعات objet ، ومن هذا الوجه لا تكون ثم حقيقة إلا في الإله ؛ فالوجودية قد احتلت مكانها في التاريخ وفي الفلسفة ، لأنها قد كشفت من جديد أن في الإنسان حقيقة وأن الإنسان ذات ، أعني أنه سيد لنفسه . أما الوجودية الإلحادية فإنها تعكس النسبة بين الإله والإنسان بدلاً من أن تكملها : فالإنسان عند الوجوديين الملاحدين ، هو وحده الذات ، وهو وحده الوجود ، والإله موضوع له ، أي إن الإنسان هو الذي يخلقه . أما مارسيل فهو يربط بين الحقيقتين ؛ فليس الإنسان كائناً موجوداً ، مهمة الإله أن يملكه ، ولا العكس ، بل كل منهما ذات ، حرة وحقيقية ؛ ولهذا فإن الصلة التي بينهما هي صلة الحب . وبتحليل هذه الصلة كشف مارسيل من جديد عن الإيمان والأمل والمحبة الإنسانية ؛ وإذن فقد أدى به بحثه الوجودي إلى أن وجد العقيدة المسيحية من جديد ، وهو إنما انتقل إلى الكاثوليكية عام ١٩٢٩ ليكون مخلصاً مع نفسه .

فمنذ ذلك الحين صار جبريل مارسيل مسيحياً ، وترك الوجودية ، فأصبح لا يحيا مجرد حياة غير معينة ولا محددة ، بل هو قد أصبح مرتبطاً على نحو نهائي بنوع من الحياة قد استبعد منه كل مجادلة أو شك ، فأصبح لا يتكلم عن الوجودية إلا ليمهد الشباب للحقيقة الإلهية ، وذلك بأن يكشف لهم عن الحقيقة الإنسانية لها . ويختلف عهد مارسيل عن عهد سارتر اختلافاً جوهرياً ؛ ذلك أن سارتر يريد أن ترتبط بشيء لا من أجل قيمة العمل الذي سنقوم به ، لأن الأعمال كلها لها في نظره نفس القيمة ، بل لكي يظهر الإنسان منا حريته ؛ ولذلك فإن هذا الارتباط لا « يلزمني » إلا في اللحظة التي أتم فيها الفعل ، وهو يتركني حراً بعد ذلك مباشرة ، ثم هو يتحدد مع كل فعل . أما عند مارسيل فإن العهد أشبه باختيار الزوج أو الدين ، فهو أشبه بنذر ينذر الإنسان على نفسه ، وهو ينقلك إلى خارج الوجود الإنساني وإلى خارج الزمان ، هو يدعوك في الحقيقة الإلهية ويضعك في مرتبة الخلود .

إن المسيحي الحق لا يمكن أن يظل وجودياً ؛ لأنه في الوجودية تعرض الحالة

النفسية التي تسبق الانقلاب إلى الدين ؛ والإنسان يمر بها لكي يقدم للإله الذي سيصل إليه أصفى ما في وجوده ، وهو يجتازها كما اجتاز اليهود الصحراء فكانوا أعظم سروراً بالأرض المقدسة .

٣ — الوجودية الالهادية

« يقول چوپتير : يا إيجيست إن الآلهة عندهم سر آخر . . . فإن الحرية إذا انفجرت في روح إنسان أصبح الآلهة غير قادرين على شيء ضد هذا الإنسان ، والأمر بعد ذلك أمر الآدميين ، ولهؤلاء الآدميين وحدهم إما أن يتركوه يجرى في أفعاله أو أن يخنقوه » . هذه القصة من قصص سارتر ، وهي المسماة « الذباب » *Les Mouches* غايتها أن تعلن للعالم كله أنه لا شيء هو الإله ، لا الإله المسيحي ولا آلهة الوثنيين ، ولا إله دين من الأديان أيًا كان هذا الدين ، ولا المال ، ولا الحب ، ولا الآلات ؛ فالحياة الإنسانية تُرى وتجرى بين آدميين ؛ هذه الوجودية هي نتيجة لفلسفة نيتشه Nietzsche وهو المفكر الذي نادى بموت الإله . فما دام الإله قد مات فيجب أن يعيش الإنسان مستغنيا عن القيم التقليدية التي اخترعها الضعفاء للتسلط على الأقوياء ويجب خاق قيم جديدة . إن مثل هذه الفلسفة فلسفة مثيرة للحماسة قبل كل شيء ، ونجد أورست Oreste الذي يمثل البطل الوجودي يقف موقف المعارضة لچوپتير فيقول : « إنك ملك الآلهة يا چوپتير ، أنت ملك الحجارة والنجوم وأمواج البحر ؛ ولكنك لست ملكا على الآدميين » . فيقول چوپتير : « إني لست ملكا عليك أيتها الشرقة الوقحة ! فن الذي خلقتك إذن » . فيقول أورست : « أنت الذي خلقتني ، ولكن كان ينبغي ألا تخلقني حراً » . فيقول چوپتير : « إنما أعطيتك الحرية لتخدمني » . فيجيب أورست : « هذا جائز ، لكن هذه الحرية قد انقلبت عليك ، ولا أنا ولا أنت نستطيع أن نغير ذلك » . فيقول چوپتير : « أخيرا ، هذا هو العذر ! » . فيقول أورست : « أنا لا أعتذر . . . فلست السيد ولا العبد ، وإنما أنا الحرية التي أتمتع بها » . وإذن فلم يعد لمشكلة معرفة هل الإله موجود أي أهمية ، مهما كان حل هذه المشكلة ؛ فالإنسان حر ، ويجب ألا يصدر في أفعاله إلا عن الحرية .

إن الوجودية فلسفة تعطي الإنسان القوة ، وهي إذن فلسفة خلقية ، هي ترفض كل تشدد أجوف في المبادئ ، وتحارب الخضوع للمألوف كما تحارب الشكّية ، وهي تطالبنا بحياة خلقية نحياها ونشعر بها حقيقة . ولكن هذه الوجودية الإلحادية تقف أمام نفس المشكلة التي يقف أمامها المسيحي ؛ فكل إنسان يبحث عن طريقه ، يجتاز حالة التفكير الوجودية ، ولكن هل يستطيع أن يبقى فيها ؟ وهل تعطيه الوجودية نموّاً من الحياة بريثاً من التناقض ؟ يظهر أننا الآن وإلى أن يظهر لنا شيء جديد لا بد أن نجيب على هذه الأسئلة بالنفي ؛ ولذلك فإن الناس ينتظرون بفارغ الصبر نشر كتاب الأخلاق الذي وعد به سارتر .

فاذا كانت الوجودية المسيحية تعتبر من وضع بسكال ، وكيركجارد ، فإن أستاذ الفلسفة الإلحادية هو هيديجر الذي لا يزال حياً . ولكن هيديجر يرفض أن يلقب بالفيلسوف الوجودي *philosophe de l'existence* بل يؤكد أنه فيلسوف الوجود *philosophe de l'être* ، ويقول إن بحثه من النوع الميتافيزيقي . والواقع أن هيديجر يريد باستعمال منهج الظاهرية *la méthode phénoménologique* الذي بينه أستاذه هوسرل *Husserl* أن يكشف عن وجود كل الكائنات ، وهذه هي المهمة الحقيقية للفلسفة أو معرفة الوجود *connaissance ontique* ، لأن العلم لا يعطينا إلا أوصاف هذه الكائنات ، وذلك بوساطة معرفة من النوع المشاهد في علم الوجود *connaissance ontologique* ، والكائن الإنساني له من بين كل الكائنات المحسّنة ميزة المعرفة ، فله الأولوية . ويمضي تحليل هيديجر على تدرّج في كشف أن الإنسان هو موجود محدود *être-là* أو كائن في العالم *être-dans-le-monde* وأنه هلع وحرية .

إن غاية الفلسفة هي أن تصوّر الإنسان لنفسه لكي يعرف نفسه مباشرة ؛ ولكن بعض الفلاسفة يسيرون في الوصول إلى ذلك على غير الاتجاه الطبيعي ، فهم يجعلون الإله أو الطبيعة أو الحياة نقطة بداية تفكيرهم . أما هيديجر فهو مقتنع بعدم كفاية أي مذهب من هذه المذاهب بإزاء معرفة الإنسان نفسه بنفسه ، فلا بد بحسب تعبير سلفه ياسبرز *Jaspers* من خطوة جريئة للنفوذ بالقوة إلى الأصماق التي لم يستكشفها أحد فيما يتعلق بهذا اليقين الذي عند الإنسان بالنسبة لنفسه . إن الإنسان يظهر لنا « موجوداً محدّداً معيناً هنا » *être-là* ،

فأنا شيء حاضر ، شيء متحقق ، هو ما يُشار إليه بقولنا : هأنذا ؛ ونحن نخطئ في مصير الإنسان إن لم نعرف أنه ، أولاً وقبل كل شيء ، كائن يبرز بوجوده ، وأنه مظهر متناقض غير مفهوم ، ومعنى أنه « موجود معيّن » هو أنه كائن موجود ، موجود من الداخل ، له في أساس هذا الوجود الذي له ، إمكانية معينة أو حرية ؛ فالإنسان موجود بحيث إن وجوده موضوع لتصرف مستمر من جانبه .

وهذا الحضور الذي للإنسان والذي نعرفه به هو حضور بالنسبة لشيء ما . وقد أثبتت كانت ، الفيلسوف الألماني ، في مثاليته النقدية ، ومنذ زمان طويل ، أن الإنسان لا يمكن أن يتغفل نفسه إلا من حيث صلته بالاشياء ؛ فمعنى الوجود المعين Dasein إذن هو كون الإنسان في الكون in-der-Welt-sein ؛ وليس هذا بالشيء العرضي ، لأن الإنسان ليس له الحرية ولا القدرة على أن يجعل وجوده خارج الكون ، بل هو لا يوجد إلا بأن يكون بينه وبين الكون علاقة . فالإنسان ^(١) في حقيقته هو شيء وراء التجربة ، هو شيء بارز من هذا العالم وهو مجاوز له ، هو مظهر من النور ؛ لكن شعوره وتنبيهه إلى أنه « موجود في الكون » هو أول وثبة لتفكيره وهو استيقاظه . و « وجود الشيء في الكون » له خصائص ثلاث ، وهي : الانفتاح Erschlossenheit والكائنية Benfindlichkeit ، وفهمه لنفسه (?) Verstehen . إن الوجود المعين هو كون الموجود مفتوح النافذة على الكون ولكنه مضاء من الداخل ، وهذا هو معنى الانفتاح ؛ ولذلك يشعر الإنسان بنفسه ويتنبه لوجوده من طريق إحساسه فجأة بأنه موجود هنا وبأنه شيء خيالي منعزل d'éréliction, Benfindlichkeit ؛ لكنه سرعان ما ينكشف له أمر نفسه بفضل قدرته على الوصول إلى أقصى حدود نفسه وبفضل مجهود يجتلي له الحرية الموجودة فيه والملازمة له ؛ فالإنسان متقدم على نفسه دائماً ، هو يقف أمام نفسه Verstehen .

إن الهلع يرد الإنسان من فقدان نفسه في كثرة المهام والمشاكل اليومية إلى مشاهدة مصيره وطبيعته الأساسية مجردة من كل ما يحيط بها . وتجربة

(١) النص من هنا إلى آخر الفقرة غامض مضطرب ، والأفكار غير محكمة البناء (المترجم) .

الموت التي تنتهي بها حتما كل حياة هي التي تصل بالإنسان إلى أعلى درجات هذا الهلع ، وتحول سقوطنا أو انغمارنا في الموجودات المتكثرة on إلى النجاة من طريق حياة حقيقية تتمثل في شعورنا بذاتنا je ؛ ولذلك فإن هيديجر يعرف الإنسانية بأنها القلق ، ومعنى أن الإنسان يقاق عنده هو أنه أمام نفسه مع بقائه مثقلا بالأشياء التي تلاقيه ، وهذا هو الذي يمهّد للعزم والتصميم .

وإن التصميم الذي به يباشر الإنسان حريته وسط موقفه غير الحقيقي هو علامة الحياة الحقيقية ، وهو يصدر عنى لا عن الكون ؛ ولكنه من ناحيته لا يمكن أن يتجلى إلا في الكون، هذا الكون الذي يصطبغ من حيث طبيعته بصبغة الزمن ؛ والاتجاهات الثلاثة للزمن تعطينا صورة كاملة عن طبيعة الإنسان وحاله ؛ فالإنسان لا يستطيع أن يتقدم نفسه إلا بالقدر الذي له مستقبل أمامه ؛ ثم إن كونه وحيداً منعزلاً يأتي من أنه مرتبط بماض ؛ أما حقيقة وجوده المعين فهي الالتقاء بينه وبين حاضره ؛ فثم إذن ميزة للمستقبل ، ومصير الإنسان مصير تاريخي .

لقد حاول هيديجر في عهد هتلر أن يدعو الناس إلى اعتبار فلسفته تمهيداً للنظام الاشتراكي الوطني ، ولكنه الآن يفسرها على نحو روحاني شبه ديني ؛ فهل هذا منه نزعة اتهازية ؟ أليس الأمر أن نقول بالآخرى إن الوجودية ، إن كانت تريد أن يرتبط الإنسان بها ارتباطاً متيناً ، لا تعرف بأي شيء يجب أن يرتبط ، ويمكن لذلك تفسيرها على كل الوجوه ؟ ولذلك فإن من الوسائل التي تريد الوجودية أن تنجو بها ما حاوله ميرلويونتي Merleau-Ponty ، وهو المفكر الذي يرى فيه هيديجر أخلص تلاميذه الفرنسيين ، والذي تبشر الأمارات بأنه سيكون أعظم شأننا من سارتر بكثير

وقد كان الحادث الفلسفي الكبير في عام ١٩٤٥ هو ظهور رسالة ميرلويونتي التي عنوانها : ظاهرة الإدراك *phénoménologie de la perception* ؛ وقد اختير هذا العنوان المتواضع في ظاهره اختياراً له مغزاه . يريد المؤلف أن يقول إن الوقت قد آن للاعتراف من جديد بالعالم المدرك وللعودة إلى الواقع . وكانت أول دراسة عن الظاهرية هي التي قام بها سارتر في كتابه عن « المتوهم » *L'Imaginaire* ، والمؤلف يعود في هذا البحث إلى التمييز الأول الطبيعي بين

العالم المتوهم وبين الواقع ؛ فإن كليهما أمامنا ، لكن أحدهما « شئ غائب » absence والآخر « شئ حاضر » présence ، وقد تمسك المؤلف فقط بوصف الصورة الوهمية التي هي لاشئ néant وبتحديد معنى التوهم الذي وظيفته تحويل الكون إلى لا شئ ، وبذلك يعبر المؤلف عن الاتجاه الاساسى الذى به نعارض هذا الكون . ثم إنه أيضاً قد جعل أساس تفكيره نفس التمييز الواضح الذى تفرق به دفعة واحدة بين الحلم وبين الحقيقة ؛ فهو يمثل الطرف المقابل لسارتر . وهو يقصر الظاهرية التى يذهب إليها على الإدراك الذى شأنه أن يصلنا مباشرة بالكون ؛ وهو على هذا النحو يصل إلى المعنى الحقيقى لحياتنا بعد أن أفقدنا إياها التخيل أو الوهم .

إن الكون يوجد قبل أن أدركه ، وإن المسلك الوحيد الذى أستطيع أن أسلكه إزاء الكون هو أن أدرك هذا الكون ، لا أن أفهمه . وإذا كنت فيلسوفاً ، كان مسلكى أن أصف الكون دون أن أحاول تفسيره ولا تحليله . ووضع المشكلات أهم من حلها ؛ وكثيراً ما نلاحظ أنه ليس ثم حلول تطاب ، وأن « أنواع اليقين التى توجد فى بادئ رأى المشترك » وأن المسلك الطبيعى العادى صحيحة لا غبار عليها ، وإنما يكفى أن نتبين بالدقة ما نحن وما نفعل ؛ لا يجوز أن نسأل : هل ندرك نحن العالم فى الحقيقة ، بل يجب على العكس من ذلك أن نقول : إن العالم هو هذا الذى ندركه . ثم إن الشئ الذى به نتأكد أن العالم موجود هو جسدنا ؛ والجسد ليس شيئاً كالأشياء الأخرى ، بل هو يكون وجودنا كما يكون تفكيرنا ؛ هو ليس جزءاً من الكون بل يتيم فى الكون ويجعله حاضراً بالنسبة لنا ، وبدون هذه الفكرة لا نستطيع أن نعلل ما يتوهمه الذين بترت أعضاؤهم ، وذلك حين يعتقدون أنهم يحسون بالعضو المفقود ، ولا أن تفسر الجنسية sexualité التى تعبر عن الوجود بأن تحققه ، ولا اللغة التى لا تنبنى على الفكر ، وإن كانت تتمه ، ولا أخيراً توجيه الإنسان نفسه فى الفراغ .

والنتيجة الأولى هى أن الإنسان خلق ليعيش على هذه الأرض ، وسواء أردت أم لم أرد « فأنا ذات مقضى » على بأن أكون فى هذا الكون ، فهل يلبغى أن نستنتج من هذا أنه لافائدة ولاجدوى من الثورة على المركز المتناقض فى كثير من الأحيان والذى قد خصص لنا فى هذا العالم الأدنى ؟ ولن يكون

ميرلوبونتي وجوديًا إن رفض كل قيمة للإحساسات العميقة الخاصة بالإنسان مثل شعور الملل ، وإحساس الإنسان بأنه غريب ، ورغبته في رفض الأشياء . ولكننا نجد بونتي ينظر إلى هذه الإحساسات ويصورها من زاوية جديدة جدًا ، لم يكدها Fink أحد تلامذة هوسرل ، يبينها حين يقول إن اندماج الإنسان في الكون طبيعي إلى حد أنه لا غنى عن نسيانه وعن معارضته لكي تظهره على وجه أكمل ، وهذا هو معنى «التحويل» *réduction* الظاهري . فيجب على الإنسان أن يدهش لأنه في العالم وأن يشك فيه وأن يشكو منه على نحو شبيه قليلاً بما يفعله المجنون الذي اختل حكمه فحسب أنه غريب في هذا العالم ، إلى أن يتبين أنه حقيقة في الوسط الخاص به . وعند هذا يعود اليأس وتحطم كل العقائد ، وهما ما تتميز به الكتب الأولى التي أخرجها سارتر ، إلى مكانهما في تاريخ الشعور ، وذلك كمعصر ضروري ، وإن كان مؤقتاً .

أما النتيجة الثانية فهي أن مثل هذه الفلسفة تعيد لنا مع حضور أنفسنا أمام الكون حضورنا أمام غيرنا . وإن طريقة أصحاب الظاهرية تتلخص في اعتبار الشعور لا على أنه « اليقين الخالص الذي لنا عن أنفسنا » بل على أنه شعور بشيء أو اتجاه نحو شيء . فكل شعور له إذن طريقة وحيدة لأن يتصل بالأشياء الخارجية ، وشخصيتنا أو مصيرنا ينتهي بأن يكون عبارة عن العلاقة الخاصة التي تربطنا بالكون . وزيادة على هذا يوجد بين خطوات شعورنا اتجاه قصدي جوهري ، هو أساس الحب وهو الاتجاه إلى الشخص الآخر . وإن ميرلوبونتي ليدفعنا حتماً إلى تذكر ما وصفه لويس لافيل ، وإن كان ميرلوبونتي يذكر ذلك ، وهو يهيئ على نحو ما انتقالاً من وجودية المآسى إلى وجودية السرور . فهو يسأل مثلاً : « هل أعطى هذا الوعد ؟ وهل أخطر بحياتي لأجل شيء قليل كهذا ؟ وهل أضحي بحريتي لإتقاذ الحرية ؟ لا توجد إجابة نظرية على هذه الأسئلة ، ولكن توجد أشياء ماثلة أمامك لا يمكن تفاديها ، أمامك هذا الشخص المحبوب ، وأمامك هؤلاء الناس الذين يعيشون حولك مستعبدين ، والحرية لا يمكن أن تراد دون الخروج عن الفردية ودون إرادة الحرية . » . فالاتصال بين الكائنات الشاعرة يضيف معنى جديداً للحياة ، وذلك أن تكون حياة لا في الكون فقط بل حياة لأجل آخر ولأجل الآخرين .

أما النتيجة الأخيرة فهي أنه بمجرد أن نستقر في العالم المادي والعالم

الاجتماعي فإن حياتنا تتجسد في التاريخ . ويكرر ميرلو بونتي هنا الآراء التي فصلها آرون Aron ، وهو ثالث الثلاثة الكبار الذين يؤمنون بالوجودية الظاهرية ، في كتابه « مقدمة لفلسفة التاريخ » ؛ فليس عنده للتاريخ معنى في ذاته ، بل هو غير ثابت وهو يتوقف على غيره ، لكنه يصبح له معنى بالنسبة لنا نحن آدميين ، وهو المعنى الذي نريد أن نعطيه إياه ؛ « فلما كنا في هذا الكون فقد قضى علينا أن نعتبر للأشياء معنى ، ونحن لا نستطيع أن نفعل شيئاً أو أن نقول شيئاً إلا إذا كان له اسم في التاريخ » ؛ وليس تفسير التاريخ بالسياسة أو بالدين أو بالحرب أصبح من تفسيره بالمادية الجدلية أو بالاقتصاد . إن التاريخ يظهر حريتنا ، والتاريخ الحقيقي الوحيد هو تاريخ المناهج المتتابعة التي أريد بها تفسير التاريخ ، على أن التطور التاريخي لا نزاع فيه ؛ فثم خطوط للوقائع وللإحتمالات الممكنة ، فنحن الذين نعطي التاريخ معناه ، ولكن لا بد أن يشير علينا التاريخ بذلك .

وهنا يشتد الجدل ؛ فالوجودية قد أبطلت العلم باسم الكرامة الإنسانية . العلم لا يقدم لنا إلا آراء احتمالية ، لنا الحرية في أن نقبلها أو نرفضها ، وهو لا يريد أن يتصرف تصرفاً حراً . ولقد كان يسكال ممن يتكلمون عن خبرة حين قال : « لقد قضيت وقتاً طويلاً في دراسة العلوم المجردة ، وإن قلت ما استطعت أن أفيده منها من الأسرار قد أملتني ؛ فلما بدأت دراسة الإنسان تبين أن هذه العلوم المجردة ليست شأن الإنسان ، وأني كنت كلما تعمقت فيها ازددت بعداً عن طبيعتي الإنسانية من الآخرين الذين يجهلوننا »

والتاريخ من حيث هو علم يتعرض لهذا النقد نفسه ؛ فتقرير ماركس أن « سقوط البورجوازية وانتصار طبقة العمال كلاهما لا مفر منه » يصبح غير مقبول . والمسألة الاجتماعية هي الظاهرة التي تميز عصرنا ؛ لأن العالم يتجه إلى الاشتراكية ، وهذه حقائق وخطوط تطوّر أمامها أكبر فرصة . ولكن نلاحظ أولاً أن من يعتقد بالضرورة القاهرة في التاريخ فهو إنما يحكم على نفسه بالأيكون له تأثير ؛ لأنه لا أحد بعد ذلك سيكون نفسه مشقة العمل ، كما أنه بدون الإرادة الإنسانية لا يتم شيء . على أننا ألسنا قد اتهمنا إلى هذه الحالة من الركود ، وهي الحالة التي طالما خاف منها ماركس والتي فيها أصبح التاريخ لا يتقدم . ومن جهة أخرى فإن سير الحرية في طريقها لا يمكنه أن يشمل توقفاً ، ولو مؤقتاً ،

لهذه الحرية، إلا ويقضى على نفسه . وهذه الحجة موجهة هنا ضد الحزب الشيوعي الذي يميز تمييزاً دقيقاً عن الحالة الأخيرة لفكرة ماركس . يقول بوفريه Beaufret : « إن الأمر هو معرفة هل الماركسية الحقيقية إلغاء وتصفية للحرية أو هي التأكيد الجازم لها » . وأخيراً من أين كانت تأتي قيمة الرجل الثوري الذي يحدث انقلاباً ، ومن أين كانت تأتي قيمته العظيمة ، إن كان ليس ثورياً إلا بحكم الضرورة ولم يكن تأكيداً لفكرته واضطلاعه بتحقيقها غير ناشئ عن أفعال يتجلى فيها وجوده كله ؟ يجب بوفريه : « إن معنى كون الإنسان ثورياً هو أن يختار لنفسه الكفاح بقرار لا يرغمه عليه شيء خارجي » . وبوفريه في هذا ينضم إلى ما قرره ليون بلوم Léon Blum حديثاً من « أن الثورة الاجتماعية ليست فقط نتيجة لا مفر منها للتطور الاقتصادي ؛ بل هي في الوقت نفسه نهاية ما يطالب به العقل والضمير الإنساني منذ الأزل . » والثوري الحقيقي لا حاجة به إلى الأمل ، بل إن تأكيد السعادة في الثورة الشيوعية يفسد كل شيء ؛ ذلك أنه لا يمكن أن نخلص الإنسان من الإنسان ، من بؤسه ومن كونه لا شيء ، فلن يكون ثم أبداً جنة على الأرض . وقد كان يهودا خائناً للمسيح لأنه كان يعتقد بإمكان السعادة في هذا العالم الأدنى ؛ فكل الثوريين الذين يثورون على ضوء الأمل هم خونة المستقبل . فيجب إذن القيام بالثورة لا بقصد بلوغ حال للإنسانية خير مما هي عليه ، بل يجب القيام بالثورة كما يقدم الإنسان على مستقبل مجهول لا بد أن يجتازه معرضاً نفسه للموت ، فالبعض يختارون الموت غير شاعرين ، أما الوجودي فلا يستطيع الاختيار إلا عن شعور ، ولا يستطيع إلا أن يختار الوجود ، فهو سيكون دائماً إلى جانب الشيوعيين ، ولكن له فكرة خاصة به .

ماذا تفعل بحريتنا ؟ نحن نستعملها في أن نحرر الآخرين . فإذا اختار الإنسان لنفسه الحرية فعني ذلك أنه يشمل الإنسانية كلها ويلزمها بهذا الاختيار ؛ بمعنى أن كلاً منا ، كما يقول عنوان رواية س . دي بوفور S. de Beauvoir ، مسئول عن « دم الآخرين » . وعلى هذا المقياس ينبغي أن يكون حكم القضاء منذ الآن ، فلن يكون ثم إلا جريمة واحدة معترف بها ، وهي معاملة الإنسان كشيء أو القضاء على حرته . وفي هذه الحالة لا يوجد إلا عقاب واحد ، وهو الانتقام ، أعني الموت ، دون قانون أن الجزاء من جنس العمل ؛ وباسم هذا المبدأ

الوجودية

احتجت س. دى بوفوار على الفظائع التي ارتكبت عند تحرير فرنسا، كما احتجت على الفظائع التي ارتكبتها الألمان أنفسهم، وهي تطالب بدلاً من محاكمة مجرمي الحرب بإطلاق حريتهم أو بإعدامهم دون محاكمة.

فبعد أن كانت الوجودية فلسفة الهاج الديني ثم فلسفة اليأس العقلي، تصير، كما يبدو، فلسفة إعادة الأمور إلى ما كانت عليه، فلسفة إعادة الكرامة لجسمنا، فلسفة مواجهة الواقع والارتباط بالموجودات الأخرى. ولا يزال مذهب ميرلو بونتي وجوديًا بفضل إحساسه القوي بأنه ليس ثم ماهية مجردة إلا ولابد أن تظهر في ثوب وجود "مُحَسَّن"؛ لكن هذا المذهب يوجه الفلسفة الوجودية إلى حل كبير، وهو يسير بها إلى كلاسيكية ليست بأكاديمية، وإلى نظام ليس جورجوازيا، وإلى سلام ليس بضعف ولا جن. ومع هذا فإن الوهم سيبقى دائماً إلى جانب الحقيقة، وستظل الثورة دائماً في مقابل أخذ الأشياء كما هي؛ وإذن، فالإنسان يظل بين الحركة التي تدفعنا إلى القول بأن الإنسان ليس له طبيعة وبين الحركة التي تردنا إلى الطبيعة وإلى بادية الرأي المشترك. هكذا يبقى الإنسان وهو يعيش من هذا التناقض ذاته.

ديفيد أنزيبو

قلها عن الرئيسة محمد عبد الهادي أبو ريده

ملاحظات ومراجع

بليز بسكال (١٦٢٣ - ١٦٦٢) : عالم وفيلسوف فرنسي، تدخل في المنازعات الدينية، ودافع عن أتباع جانزينيوس وحارب الجزويت؛ وقد ترك كتاباً في الدفاع عن المسيحية، وهو غير كامل وعنوانه *Les Pensées*.

PASCAL Blaise (1623-1662), savant et philosophe français, mêlé aux luttes religieuses, défend les jansénistes contre les jésuites. Les fragments de son Apologie de la religion chrétienne, inachevée, forment *Les Pensées*.

الوجودية

سورن كيركيغارد : كاتب دانماركي ، كان فسخ خطبته سببا في بقاء الفكرة في ذهنه طول حياته ؛ وهو يحاول أن يبرر حالته النفسية في كتابه المسمى « الخوف والارتعاد » وله كتب أخرى منها المائدة ، ورسالة اليأس ، ومعنى الهلع ، وكتاب إما وإما . . .

KIERKEGAARD Soren, écrivain danois; la rupture de ses fiançailles, à titre de sacrifice, le hanta toute sa vie; il essaie de s'en justifier dans *Crainte et tremblement* (1843). Autres ouvrages principaux: *Le banquet*, *Le traité du désespoir*, *Le concept d'angoisse*, *Ou bien ou bien...*

لويس لاڤيل : أستاذ في كولييج دي فرانس وله كتب منها « جدل الحاضر الخالد » ، و « الحضور الكامل » و « الشر والالم » وغيرها .

LAVELLE Louis, professeur au Collège de France. *La dialectique de l'éternel présent* (5 vol. 1936-1946); *La présence totale*, *L'erreur de Narcisse*, *Le mal et la souffrance...*

رينيه لوسين : أستاذ في السوربون ، ومن كتبه كتاب الأخلاق ، وكتاب الأمزجة ، وكتاب العقبة والقيمة .

LE SIENNE René, professeur en Sorbonne. *Obstacle et valeur*, *Traité de morale*, *Traité de caractérologie...*

پريس باران : قارئ في دار جاليمار للنشر ، وله رسالة تسمى أبحاث في معنى اللغة ، وله قصة تسمى موت جان ماديك .

PARAIN Price, lecteur à la maison d'éditions Gallimard; auteur d'une thèse *Recherches sur la signification du langage* (1942), et d'un roman: *La mort de Jean Madec* (1945).

جان قال : أستاذ في مدرسة المعلمين العليا بباريس ، وهو شاعر وفيلسوف ، وكتابه الأكبر هو « دراسات كيركيغاردية » .

VAHL Jean, professeur à l'Ecole Normale Supérieure, poète et philosophe; son ouvrage fondamental est *Etudes kierkegaardiennes* (1935).

البير كاموس : كان ممثلا ، وهو جزائري الأصل وكان قارئاً في دار جاليمار للنشر ، وله قصص : مثل الغريب ، ومسرحية : كاليجولا ، وغير ذلك .

CAMUS Albert, ancien acteur, algérien, lecteur chez Gallimard, auteur d'un roman *L'Étranger*, d'une pièce de théâtre *Caligula*, d'un essai *Le Mythe de Sisyphe*. (1^o/1937. 2^o/1942. 3^o/1939).

جان بول سارتر : صحفي ، وكان مدرسا للفلسفة ، وهو مؤلف لروايات عدة منها : النشيان ، والحائط ، وسبل الحرية ، وله قصص مسرحية مثل الذباب ، وكتب فلسفية مثل المتوهم ، والوجود واللاشيء ؛ وهو مدير مجلة « المصور الحديثة » بفرنسا .

SARTRE Jean-Paul, journaliste, ancien professeur de philosophie, auteur de romans: *La nausée* (1936), *Le mur*, *Les chemins de la liberté* (1945); de pièces de théâtre: *Les mouches* (1942), *Huis clos* (1944), *Mort sans sépulture* (en création); d'ouvrages philosophiques: *L'imaginaire*, *L'imaginaire* (1941), *L'être et le néant* (1943). Directeur de *Les Temps Modernes*,

الوجودية

سيمون دي بوفوار : كانت معاونة لسارتر وحاصلة على درجة الاجرمجاسيون في الفلسفة و قد ألقت قصصاً منها دم الآخرين . ومنها قطعة مسرحية تسمى الأفواه التي لا فائدة لها وغير ذلك .

DE BEAUVOIR Simone, agrégée de philosophie, collaboratrice de Sartre, auteur de romans: *L'invitée*, *Le sang des autres*; d'une pièce: *Les bouches inutiles*; d'un essai: *Byrrhus et Cinéas* (1942-45).

ميرلوبونتي : أستاذ في كلية ليون ، ومن كتبه تكوين السلوك ، وظاهرية الإدراك .

MERLEAU-PONTY Maurice, professeur à la faculté de Lyon. *La structure du comportement* (1942), *Phénoménologie de la perception* (1945); gérant de la revue *Les Temps Modernes*.

جبريل مارسيل : كاتب مسرحي ومن قصصه المسرحية : الحرية ، والشعلة ، ومن مقالاته الفلسفية : الوجود والملك .

MARCEL Gabriel, Théâtre: *Le dard*, *Le fanal*, *Le chemin de Crête*, *La soif...* Philosophie: *Journal métaphysique*, *Etre et avoir*, *Du refus à l'invocation*, *Homo viator*.

برديف : له كتاب يسمى خمس تأملات في الوجود ، وكتاب يسمى العقل والواقع .

BERDIAIEV Nicolas, *Cinq méditations sur l'existence*, *Esprit et réalité*.

هيديجر : من كتبه الوجود والزمان ، وكتاب ما هي الميتافيزيقا .

HEIDEGGER Martin, *Sein und zeit* (*Etre et temps*); *Qu'est-ce que la métaphysique*.

جَنَّةُ الْحَبِّ

أنا في الدنيا كحرومٍ طريدٍ باتَ من جنّاتِ عَدْنٍ بالوصيدِ
شاخصُ الطرفِ إلى أبوابها وعلى أسوارها الزهرُ النَّضيدُ
أجتلي في كلّ حينٍ وافداً من لدائِ ثابتِ الخطوِ وثيدُ
جازَ بي عندَ حماها ، واثني يطرقُ البابَ ، فلبّاه الرّصيدُ
وانفجى البابُ له ثم أنطوى وغدا في جَنَّةِ هذا السَّعيدِ^(١)
ويأتا إن ظلّ حظي عندها لمحاتٍ مُعجّلاتٍ من بعيد
وسمّاعى رَنّةَ القصِفِ بها وشميعى المسكِ من ذاك الصّعيد
آه يا ليت الذى يحرمنا لم يُضاعفْ بالمنى فقدّ القعيد
شفتى عطشى ، وقلبي جائعٌ يتضاعى ، والمئى برّحٌ جديد
هى كالمهل وكالزقوم لا تشبع الطاوى ولا تُروى الجهيد^(٢)
ليس يُغنيننا المئى عن واقعِ وهى تُغرينا دواماً بالمزيد
جَنَّةِ الحبِّ ! أيغشاك الورى من غليظِ الحسِّ ، مأفونٍ ، بليد
ثم تحمين جَنّاك المُشتمى شاعراً يُضفى على الحبِّ القصيدُ !

عبد الرحمن مصرقى

(١) انفجى الباب : انفتح . (٢) المهل والزقوم شراب أهل الجحيم وطعامهم .

عاكفا على المخطوطات العربية^(١)

إينياس كراتشكوفسكى عضو المجمع العلمى ورئيس مدرسة المستعربين السوفيتية ، بحانة مدقق فى عالم الأدب والحضارة العربية . إن بحوثه الكثيرة مشهورة فى دنيا العلم فى الخارج وفى الاتحاد السوفيتى . فهو ليس بعالم فحسب ، ولكنه كاتب ممتاز ومنشئ بارع . ولذلك فإن القراء السوفيتيين قد رحبوا كثيراً بكتابه « عاكفا على المخطوطات العربية » الذى تولى نشره مجمع العلوم فى الاتحاد السوفيتى .

ليس الكتاب مذكرات بالمعنى الصحيح على حد تعبير المؤلف فى مقدمته ، فهو يقول : « إن ما دوتته على الطرس ليس ذكريات حياتى ، وإنما هى ذكرياتى عن المخطوطات العربية التى لعبت دوراً كبيراً فى حياتى » . والواقع أن البطل ، فى كل فصل من فصول هذا الكتاب ، هو عبارة عن مخطوط لا تقل سيرته متعة عن أبطال القصص العربية . فلكى يتم إذن ما كتب على لوحة القدر لكل مخطوط راقد فى مكتبة كالأثميرة المسحورة ، لا بد لفارس من فرسان تلك الدولة ، عالم ، أن يقوم بنزوة . لا بد أن يحى حبه للعلم هذا المخطوط وينقث فيه الروح .

لقاء العالم والمخطوط ، والطريق الحصبة بالمغامرات الأدبية التى يقطعانها معاً ، ذلكم هو الموضوع الجذاب الذى تضمنه مؤلف كراتشكوفسكى عضو المجمع العلمى . إنه يقول فى مقدمته : « لقد أردت ، قبل كل شئ أن أقص ما يشعر به العالم وهو يدرس مخطوطاً ؛ أردت .

(١) من كتاب المستشرق الروسى العظيم نقلاً عن مجلة الآداب السوفيتية عدد ٢ (فبراير سنة ١٩٤٦) .

ماكفا على المخطوطات العربية

ان أكشف عن المشاعر التي تنتابه ولا يتكلم عنها إطلاقاً في بحوثه العلمية . أردت أن أتحدث عن عوامل الفرح أو اليأس التي تنشأ عن العمل المكتبي الذي لا يشك فيه الكثيرون إذ يقدرّون أنه عمل غير مجد وبعيد عن الحياة .

فالفصل الثالث التي نشرها مقتطفة من الفصل الثاني من كتابه « سياحاتي في الشرق » .

إن المؤلف يصور لنا بحوثه . كعالم فني ، في دور الكتب في الشرق الأدنى بين سنتي ١٩٠٨ و ١٩١٠ .

مرت أودسا ، والآستانة ، وأزمير كما لو كانت في ضباب . وفي شهر يوليو كنت في بيروت . لقد صادفني كثير من خيبة الأمل ، وتبدد - قبل كل شيء - ما كنت أخادع به نفسي . لقد تبين لي أن معلوماتي المتينة في اللغة العربية الفصحى كانت قليلة النفع بالقياس إلى لغة الحديث التي لم أكن أعرف منها إلا بعض اللبادي التي وقفت عليها من إمامي بما كتب عن العادات القديمة . كان الناس في الطريق لا يفهمون ما أقوله . وكان لا بد لي من بذل جهد كبير لأفهم اللغة التي يتكلمونها في سرعة شديدة . ومع ذلك لم يكن لي بد من « أن أتكلم » فهذا بعض ما جئت له . ولا بد من اتخاذ الإجراءات الحازمة . فقررت أن أقضي شهرين في ضيعة صغيرة في لبنان ، حيث لا أسمع إلا الكلام باللغة العربية .

في بادئ الأمر شغلت الطبيعة والناس كل اهتمامي حتى ليخال أن الكتب أصبحت في المقام الثاني . فكنت أجتهد ، ما استطعت ، في معايشة السكان لأتلمز في اللغة . وكان السكان بطبيعتهم يحبون المعاشرة ، ويميلون إلى التعارف والتآلف ، فكانوا ينظرون في استطلاع مرحبين في كل مكان بهذا « السكوفي » الذي يبدو مدهشاً غريباً . ولم يكن ذلك مما يسهل احتماله على طبيعتي النافرة . وكان هؤلاء الأصدقاء يقولون لي مازحين : « إنك تشتري ، ولا تبيع ! ونصغي ولا نقول » . وإذ لم أستطع أن أغير طبيعتي ، فقد رأيتني منجذباً نحو الكتب التي كنت أرتاح إليها أكثر من ارتياحي إلى الناس .

... وقد تم التوازن ، إلى حد ما ، بين الكتب والناس ، خلال الشتاءين اللذين قضيتهما بعد ذلك في بيروت ، مختلفاً إلى الجامعة اليسوعية وهي جامعة فرنسية عربية . على أنه يجدر بي أن أعترف بأن الناس الذين قابلتهم هناك ، كانوا ، من جانبهم « رجال كتب » ، وهذا ما سهل التقارب . ما أكثر الأسماء بين الأوروبيين وبين العرب .

... صورة غنية بالمنظر الخلابة تجلت لنظري في الشرق ، غير أن ثروته من المخطوطات هي التي أسرّني ، فلم يعد في استطاعتي أن أخلص من هذا السحر . لم أكن أعرف إلى ذلك العهد إلا بعض فهارس للمخطوطات . أما هنا فتوجد مجموعات كاملة من هذه الأثبات التي تحوي للمئات والألوف من الأرقام . كنت أشعر بأحاساس الطفل أمام المحيط الذي لا ينتهي ، وكنت مسحوراً لا أستطيع أن أبعد عنها ، كان ذلك فوق طاقتي .

رسالة في النحو أو رسالة في مهاجمة الدين (١٩١٠ — ١٩٣٢)

كان مقامى في القاهرة يوشك أن ينتهى ، ولكننى لم أستطع أن أنزع نفسى من بين المخطوطات المحفوظة في مكتبة الأزهر وهو مدرسة الاسلام العليا . وبينما كنت في دار الكتب الخديوية ، أستطيع أن أطلع على الفهارس المطبوعة للمخطوطات ، لم أكن أجد هناك إلا فهرساً مقتضباً قد كتب باليد . ولذلك كنت مضطراً إلى البحث عن المخطوطات فوق رفوف المكتبة ، حسب عناواناتها ، التى لم تخل من خطأ ، وكنت أعتمد في ذلك على المصادفة .

ففي أوائل يناير ١٩١٠ ، وخلال بضعة الأيام الأخيرة الباقية لى ، عثرت على رسالة في النحو والصرف لأبى العلاء الشاعر الفيلسوف الضرير (١) . لم تكن الرسالة في نفسها هى التى استرعت اهتمامى ، ولكننى كنت أعرف للمؤلف جد المعرفة ، وكنت أجمع - بغير غرض معين - كل ما يتصل به . كان ذلك - إذا صح التعبير - كوصية من أستاذى ف. روزن لذى شعر بشغف - في سنى حياته الأخيرة - نحو هذا اللتشكك والأديب اللاذع . إن تحليله اللتشاؤمى الدقيق ينفذ إلى أعماق النفوس ويصم بابتسامته الرقيقة الساخرة ، سمرارة اليأس التى تثيرها الخواطر المفطمة .

ومن المحقق أنى لم أكن أنتظر أن أجد في هذه المخطوطة آراء جديدة مميزة لأبى العلاء من تلك الناحية ، ولكننى دهشت لأن الاشارة إلى هذا الكتاب كانت نادرة وأن نسخاً أخرى منه كانت مجهولة ، وشاركنى في دهشتى الشيخ الحمصانى الذى رأى له مخطوطات أخرى ! كان الشيخ أحد أمناء المكتبة ، وكنت أتحدث إليه كثيراً في مختلف الموضوعات الأدبية ، بل عن تعلم اللغة الفرنساوية أيسر هو أم عسير ، وكان صدور هذا السؤال من مثله يعد شذوذاً . كان يعطف على عطفاً خاصاً ، وكانت إليه شؤون المسلمين الروسين ، فظن أن إشرافه هذا يمتد إلى .

لا يبدو على هذا المخطوط شئ هام عند أول نظرة . كانت نسخة كبقية النسخ الأخرى . نقلها ناسخ محترف في القرن التاسع عشر عن نسخة أصلية . وليس من شك في أن هذا الناسخ لم يحسن الانتفاع بهذه النسخة القديمة . على أنى ما كدت أقرأ السطور الأولى حتى أدركت السبب في بقاء هذا المؤلف قليل الانتشار إن لم يكن مجهولاً . فلو أن للعرب فهرساً للكتب التى تحظر قراءتها لاحتلت تلك الرسالة مكان الشرف منه .

كانت الرسالة في ظاهرها تبحث عن النحو ، فكانت تتناول شرح القواعد المقررة الشائعة لمختلف أنواع التصريف في أسماء الملائكة مع الاستشهاد للمعتاد بآيات القرآن والرجوع إلى الاشارات الأدبية المختلفة . على أن ذلك كله لم يكن إلا ستاراً . فالكتاب بأ كله مشبع بروح السخرية المستترة التى لا يسهل على من يجهل روح أبى العلاء الأدبية ، أن يستوعبها ، وكذلك على من لا يشعر بأن لأبى العلاء طوقاً في تركيب العبارات خاصة به ، وأن هذا التركيب يخفى بمهارة فائقة على أعين المبتدئين غير المختصين فكرة

(١) يشير الى رسالة الملائكة وقد طبعت أخيراً في دمشق طبعة هامة قام بها الأستاذ محمد سليم الجندي .

حاكفا على المخطوطات العربية

جريئة . الحق أن هذه الرسالة في النحو ليست إلا رسالة نقد لاذع خفي للفكرة التي يكونها للسلدون لأنفسهم عن الملائكة . وتلك هي الوسيلة التي لجأ إليها أبو العلاء في مؤلف آخر مشهور هو « رسالة الغفران » حيث يتهم بنفس السخرية اللاذعة ، بالوصف التقليدي لما وراء الموت .

وتعجبت في قراءة السطور التي خطها الناسخ الجاهل وأنا أكيد ذهني لعل أن أكشف عن حقيقة فكرة المؤلف أثناء هذا النص المشوه . فكنت أحيانا أجيد بصيصاً من النور غير منتظر يجلو أمامي إشارة خفية . وكان لا بد لي من أن أمر بعبارات أخرى دون أن أتمكن من فهمها ودون أن أتمكن من إيجاد وسيلة للتغلب على عجزى ، نظراً للساعات القلائل الباقية من إقامتي في القاهرة . فاكثفت إذن بنسخ نبد قصار في سرعة . وعند ما أعدت المخطوط لآخر مرة إلى الشيخ المحمدي اقتضت على قولي له ، وأنا في عجلة من أمر الرحيل : « إذا قدر لك أن تقرأ يوماً فلسوف تدرك السبب في قلة انتشاره » .

كان قطارى ينادر القاهرة في الصباح المبكر . ففي اللحظة الأخيرة ، دهشت إذ رأيت الشيخ يبحث عني وهو يلهث تعباً . ولم يجد من الوقت إلا ما يكفي ليصبح بي من نافذة القطار الذي بدأ يتحرك وعلى مسمع من الجمهور الواقف على الرصيف ودهشته : « لم أتم من ليلتي ! إن من الدهش أن أبا العلاء لم يحرق ومعه رسالته ! » . ولم أكن بحاجة إلى شرح أوفى لأدرك أن معنى « الرسالة في أصول اللغة » قد ومنح له وتجلي .

ومضت سنوات طوال قبل أن أصل إلى تفهم جميع إشارات للتشكك الضريح والوقوف على دقائق للمعانى والاستشهادات والمراجع الأدبية ، ولكنني لم أنس استكشافي الصغير .

... وفي صيف ١٩٢٦ ، وبينما كنت في عزلة في بقعة على حدود القوقاس عند ساحل البحر الأسود ، انتهت من تقويم نص محرف منذ أجيال خلت كان يخال أنه غير مفهوم . وفي سنة ١٩٣٢ ، طبعت رسالة أبي العلاء ، بعد أن مر اثنتان وعشرون سنة منذ ناولني الشيخ بمكتبة الأزهر ، فهرس المخطوطات للتواضع الذي خطه قوم لا يعلمون . وهكذا انتهت قصة استكشافي الصغير تحت قبة الجامع الأزهر ، والذي نشره مجمع العلوم في مطبعته في جزيرة قاسيكفسكي في ليننجراد .

رسالة لم تكتب (١٩١٠)

أودى الشباب حمدا ذو التعاجيب أودى وذلك شأو غير مطلوب
ولى حمدا وهذا الشيب يطلبه لو كان يدركه ركض العاقيب

لا أدري لماذا يلح علي هذا الشعر العربي يذكرني بشهر يناير سنة ١٩١٠ حين كنت أجود من القاهرة إلى بيروت للمرة الثانية .

لم تكن الإسكندرية « بلد المال والقطن » تعينني ؛ فند عهد بعيد كانت تذكرني بالغرب أكثر مما تذكرني بالشرق ، ولكنني مع ذلك اعترمت الإقامة فيها بضعة أيام ، كنت أريد أن أتعرف إلى حليم زيات الذي كان يتاجر بالفواكه المجففة مع جميع أنحاء العالم

عاكفا على المخطوطات العربية

وكان من الهواة في جمع المخطوطات ، كان يحسن اكتشاف الاوضاع المجهولة في الحضارة العربية وينتف فيها الروح في أشعاره التي نشرت فيما بعد . وكنت أريد أيضا رؤية المخطوطات المحفوظة في مكتبة الاسكندرية .

لقد أخبرني الروائي الأديب زيدان وأنا في القاهرة ، أن مكتبة الاسكندرية قد امتصت جزءاً من مكتبة الجديوى الثانى إبراهيم باشا ، نجل محمد على العظيم رأس الأسرة المالكة في مصر . وسلمنى زيدان خطاباً فتح أمامى جميع الأبواب في الحال .

وبينما كنت لا أزال متأثراً بالأزهر ، مدرسة الاسلام العليا ، رأيتنى هنا أمام مشهد من نوع آخر . كانت المكتبة في بناء جديد على طراز أوربى تابع للبلدية . وكان القسم الشرقى فيها يشغل قاعة فسيحة صفت إلى جدرانها الخزائن التقليدية وفي وسطها مائدة كبيرة . كنت في تلك الآونة الزائر الوحيد ، على أن أمين المكتبة فتح لى القاعة عن طيب خاطر . وكان الأمين الذى يرأس هذا القسم شيخاً حديث السن درس في الأزهر . على أنه ، لولا لباسه المصرى - وهو عبارة عن عباءة رمادية بغير ياقة ، فضفاضة الأكمام - لصعب التمكن . بأنه ربيب هذا المعهد . فنظارته ، ولحيته المدببة ، ولابته الفرنسية التي يخال أنه كان يفخر بها أكثر من المخطوطات العربية للوكولة إلى حراسته ! كانت تخيل ، لأول وهلة ، أنه أوربى متنكر . على أن لفته العربية وحديثنا عن الأدب العربى ، قد تغلبا على هذا المظهر الذى يرجع في الغالب إلى طبيعة الوسط في الاسكندرية .

كانت المخطوطات منظمة . بل كان هناك فهرس مقتضب موضوع على غرار فهرس الأزهر ، ولكن بغير ما تميز بين المطبوع والمخطوط . ومع رغبة الشيخ الصادقة في القيام بما تتطلبه المكتبات الأوربية ، فإن فكرته عن قيمة النكنوز للوكولة إليه كانت ضئيلة . ولم تحب آمالى ، فقد وجدت ، ضمن نحو من عشرين مخطوطاً جديدة بالعناية ، درتين من نقائس الشعر العربى الذى كنت أعنى به عناية خاصة .

وكان أحد المخطوطين يشتمل على قصائد لشاعر عربى معاصر للمؤرخ السورى الشهير ابى الفداء . كان هذا الشاعر وطنياً كبيراً ومداها متحمساً من مدينة حماة التي كنت أعرفها ، أنا أيضاً ، ببساتينها وهزير نواعيرها المستمر . وكان هذا الشاعر يهجر اللثة الفصحى أحياناً ليكتب بلغة الحديث في سوريا . فتسخت ، بغير ما عجلة ، بعض المخطوطات ونشرتها بعد خمس سنوات . أما المخطوط نفسه فهو الوحيد في العالم إلى الآن ، ولا أدري لماذا لم يثر اهتمامى .

أما الثانى فقد زاد عنى الطمأنينة وقتاً طويلاً . أرجأت فحصه إلى آخر يوم كنت سأقضيه في الاسكندرية ؛ إذ أننى حجزت لى مكاناً على الباخرة . ولما أخذت هذا المخطوط بيدي جعلت أدرس بشغف ما كان يخيل إلى أنه نموذج من النسخ البديع . كان يحمل تاريخ القرن السادس للهجرة ويتصف بما امتازت به مدرسة ابن البواب الشهيرة . وقد كتب على صفحة من الحجم المتوسط ثلاثة أبيات أو أربعة من الشعر بطريقة فنية بحروف كبيرة تحمل جميع علامات النطق والالقاء . وتبعاً للطريقة الخاصة للمتابعة عند الخطاطين ، كان البيت من الشعر الذى لا تكمل كتابته في السطر ، تنقل بقيته إلى أعلى بحروف أصغر حجماً . هذا الاختلاف العجيب في النظام ، كان يضيق على الرسم شكلاً بديعاً . فكانت ألوانه - وخصوصاً توازن الألوان الخضراء التي فسجت على الزمن - مريحة للنظر . لا شك

عاكفا على المخطوطات العربية

فى أنه من صنع فنان ماهر . لقد نفذ هذا العمل بتلك الدقة العظيمة التى يتطلبها هذا الفن ،
وبتلك الحرية التى يتمتع بها الفنان الممتاز .

وسرعان ما نسيت هذا الشكل بعد أن تصفحت المخطوط ، وأخذت بما حواه . لقد كنت
أرى تحت عيني أبياتاً لشاعر عربى من فحول شعراء العصر القديم ، ويرجع تاريخه بغير شك
إلى ما قبل الاسلام . كانت هذه الأبيات ترسم صوراً ثمينة لحياة البدو ، وكانت تعطى
تفاصيل عن الوسط الذى عاش فيه المؤلف تكاد تكون صوراً فوتوغرافية . وكانت مؤلفة
على نمط القصائد فى العصر الجاهلى ، وقد روعيت فيها جميع قواعد النظم . وأحياناً كان
التأمل يقوم مقام الرسوم البارزة . وقد علق فى ذهنى فى الحال مطلع قصيدة :

أودى الشباب حميدا ذوالتماعيب أودى وذلك شاو غير مطلوب
ولى حميدا وهذا الشيب يطلبه لو كانت يدركه ركض البعاقيب

لم أكن أذكر اسم الشاعر سلامة بن جندل للبدون على المخطوط إلا على نحو مبهم .
ومن الحق أنه ليس من فئة الشعراء الذين نشرت لهم مختارات باسم ديوان الستة الجاهليين .
ومع ذلك فإن المرء ليتبين فى كل بيت فناً ومهارة من نوع خاص . فأخذت أقرأ ، باضطراب
متزايد ، سطرًا إثر سطر . وكنت أشعر ، وقلبي يخفق ، بأننى سأهتدى إلى استكشاف علمى .
لم يكن يوجد فى المكتبة أى مرجع من المراجع التى تمودنا نحن الأوربيين أن نلجأ إليها .
ولم أحمل معى خلال أسفارى كتاب بروكلمان ذلك المرجع الثمين لجميع المستعربين .
ولكننى كنت على يقين من أنه لو ذكر شاعرى هذا ، فى أية ناحية من نواحيه ، فلا بد
من ذكر المخطوط الذى اكتشفته ، وهو الوحيد فى العالم أجمع .

وكان لا يمكن أن أترك هذا الاستكشاف . وقد تقرر الأمر فى اليوم نفسه . كان لابد أن
أسافر فى اليوم التالى ، وكان مكانى محجوزاً على الباخرة . ولكننى أسرعرت فاستبدلت
بتذكري تذكرة أخرى على الباخرة التالية . وكنت مسترسلاً فى نوع من الذهول ، وانقطعت
يومين إلى عمل محموم على مرأى من الشيخ المشدود الذى انتهى به الأمر إلى أن يترك لى
مفتاح القاعة على أن أسلمه للعارس حين أنصرف .

وأبحرت وكأني فى حلم ؛ فقد كانت أفكارى كلها متجهة إلى شبه جزيرة العرب قبل
الاسلام . كنت أحمل فى جيبى نسخة من أشعار سلامة بن جندل مدعومة بجميع التفاصيل
الدقيقة عن مخطوط الاسكندرية . ولم أستطع النوم ليلاً . وكانت باخرتنا قد أصبحت على
مرأى من يافا . فأخذت أقطع ظهر الباخرة جيئةً وذهاباً ، ولم أفكر فى حداثى البرتقال التى
كان البحر يحمل إلينا عبرها . وحدثت نفسى بأنه يحسن بى أن أتخذ هذا الشاعر موضوعاً
لرسالتى لنيل الدكتوراه . كنت أنمخيل نفسى وقد بدأت أدرس الجو الحقيقى الذى نشأت
فيه أناشيد سلامة بن جندل ، دراسة شبيهة بمؤلف جاكوب عن حياة البدو فى العصر
الجاهلى ؛ وكنت أراى وأنا أفيض فى شرح أفكار شوارتز فى شاعر من شعراء صدر
الاسلام ، كما دونها فى المؤلف الذى وضعه عام ١٩٠٩ . ومن الحق أننى كنت قد اخترت
موضوع رسالتى للدكتوراه ، وكدت أتمها ، ولكن سلامة قد أبعد كل ذلك عن فكرى .
ولأنه لما يغترب لمستعرب حديث السن أن يرقب فى الاعلان عن استكشافه فى أقرب وقت ،

ما كفا على المخطوطات العربية

وأن يطالب بالأولوية بحيث يحتل مؤلفه مكاناً متواضعاً في مكتبة تاريخ العلم ! وبينما كنا تقرب من بيروت قررت نهائياً أن أهرج موضوع رسالتي الأول ، وأن أقف عنايتي على الثاني لا سيما وقد خيل إلي أن هذا الموضوع سيشتغل مني وقتاً قصيراً .

ووصلنا إلى بيروت . إن المرء ليدرك مقدار ما كنت أشعر به من انفعال وعجب عند ما أسرعت ، في الساعة الثامنة صباحاً ، إلى زيارة أستاذي للمستشرق لويس شيخو ، في جامعة القديس يوسف التي كان بنيانها الضخم يشرف على جميع الحى الذي كنت أقيم فيه ، ويبدو للتأخر من جميع أطراف المدينة . كان أستاذي أيضاً ، يعيش في عالم الكتب والمخطوطات . فليس ثمة شك في أنه سيدرك مقدار ما أشعر به . كنت أعلم أنه سيشاطرني سرورى وتأثرى ، كما كنت على يقين من أنني سأجده في حجرته للتواضعة ، وهو يكتب أو يراجع أصول مجلة للشرق التي يرأس تحريرها ، أو في المكتبة الشرقية الفسيحة في الطابق الذي كنت أدرس فيه . هناك كان لا يوجد غيرنا إلا بعض أساتذة كلية الشرق الذين كانوا يترددون عليها أحياناً . وكان شيخو - كما قدرت - في حجرته مهتماً بمراجعة عدد المجلة للمعد للإصدار . وبعد تبادل العبارات الأولى وقم نظري أمامه على آيات من الشعر ، فسألتها عما عسى أن يكون ذلك للمقال . فأجابني : « إنني أنشر ديوان سلامة بن جندل » . فاختلط على الأمر تماماً ، ولم أستطع إلا أن ألقى عليه سؤالاً واحداً : « عن مخطوطة الاسكندرية ؟ » فدهش شيخو ونظر إلى وقال : « كلا ! عن مخطوط الآستانة . » وسألني بدوره عما يسبب اضطرابي إلى هذا الحد . ولما تكلمت نفسي قليلاً رويت له سبب مجيئي إليه ، فكانت دهشته عظيمة . وأخذ يشير بيديه صامحاً : « ما أعجب ذلك ! » وأخذنا في معارضة المخطوطين . كانا شقيقتين ، صادرين عن أم واحدة وفي تاريخين متقاربين .

ولم يكن الطرف الذي أثار عند شيخو فكرة هذا العمل ، أقل غرابة ودهشة . كان للمستشرق الفرنسي الشهير ك . هواييا قد نشر ، منذ بضعة شهور خلت ، في « المجلة الآسيوية » نفس أشعار سلامة نقلاً عن مخطوط الآستانة . ولما لم يكن كاتب المقال مستعرباً ممتازاً فلم يصادف مقاله نجاحاً . هنالك قرر شيخو ، وكان منذ عهد بعيد قد نسخ المخطوط ، أن ينشره على طريقة أدق . كان بعيداً عن الظن وجود مخطوط في الاسكندرية ؛ فلم يسعني إلا أن أقدم له نسختي فساعدته على بعض التفاصيل .

وهكذا لم تكتب الرسالة قط على الرغم من الشروع فيها ، وتبدد حلمي في الأولوية للزعومة . وأثارت نسخة شيخو بعض المقالات والتعليقات ، على أن مؤلفاً ضحاً عن سلامة ، موضوع أحلامى على الباخرة ، يحسن أن يكتب . والآن ، عند ما يتحدث الناس عن أثر المصادقة في البحث العلمى ، أذكر دائماً أن ثلاثة من العلماء : فرنسي وعربي وروسي ، قد درسوا في وقت واحد نفس الشاعر العربي عن نفس المخطوط ، وعند ما أصادف أشعار سلامة أو اسمه ، تتمثل لي قاعة ساكنة في الاسكندرية الصاخبة ، وشيخ حديث السن مدبب اللحية على النمط الفرنسي ، ونسخة المخطوط المكتوبة بحروف كبيرة خضراء تنعكس منها أشعة ذهبية ، وأسمع همساً في أذني :

أودى الشباب حمداً ذو التعاليم أودى وذلك شأو غير مطلوب
ولى حمداً وهذا الشيب يطلبه لو كان يدركه ركض العاقب

ماكفا على المخطوطات العربية

وربما فكرت في أعماق نفسي ليتنى لم أعدل عن اتخاذ سلامة بن جندل موضوعا
لرسالتي .

كتاب الصفد (١٩٣٤)

طوبى للعالم الذي قدر له ، في حياته ، ان يلاحظ نشأة فرع جديد من أفرع العلم
ونموه ؛ ذلك العالم الذي رأت عيناه استكشافات طارئة ، ودرست أمامه أسانيد تم استكشافها
حديثا ، وأدت إلى إعادة تكوين مضورة رهيبة ، مجهولة من حقبة من الباحثين السابقين .
هذا ما أتيسخ لي بالقياس إلى لغة الصفد وثقافتها . هذه الثقافة ازدهرت خلال قرون في آسيا
الوسطى ، وتشعبت فيها وراء ذلك . لقد حطمها العرب ولكنها لم تزل ، واندجحت في طور
جديد مكل لخط حضارة آسيا الوسطى ، وهو خط واحد مستمر .

كنت مراقبا بسيطا للجهود المضيئة التي كان يبذلها زملائي ممن هم أكبر مني سنا ،
والخاضعين في تفسير السطور التي استكشفوها في مخطوطات الصفد ، وقد كانت حتى الآن مسخية .
وكنيت أبعد ما أكون عن التفكير ، أنا المستعرب الغريب عن تاريخ آسيا الوسطى ، في أنني
سأشارك في هذا العمل ، وأنني سأقبض بيدي على أثر ثمين للثقافة العربية ، وحيد في نوعه ،
تنعكس منه أشعة عصر فاجع هو عصر النزاع الأخير بين الصفد والعرب . لقد أرادت
المصادفة ذلك . لقد نشرت في ليننجراد مخطوطات عربية وأخرى بلغة الصفد ، على مائدة
واحدة ، ووقف أمامها جنبا إلى جنب ، رجلان أحدهما مستعرب والآخر ممن يدرسون لغة
إيران ، وانحنيا كحومين على حروف تكاد تكون ظاهرة . إنه لمن الصعب أن تقول
أمام أي الاثنين قد انبثق أول شعاع من النور ، فأضاء الطريق الذي يجب أن يسلك
والذي جعلهما يلتقيان معاً كائما قد مسهما تيار كهربائي .

في سنة ١٩٣٢ استولى على علماء اللغة الفارسية في ليننجراد اضطراب شديد ، فقد سرى
نبا بأن قد استكشف في تاجستان مخطوطات عن الصفد ، لم يثر منها على شيء في ذلك العهد
في هذا البلد نفسه ، وإنما وجد في البلاد التابعة لها بتركستان الشرقية . وقد أخذت هذه الأنباء
تتحقق وتذكر مخلفات محفوظات استكشفت في جبال موجس على ساحل زرافشانا الجنوبي .
فأرسلت - في خريف سنة ١٩٣٣ - بعثة صغيرة خصيصا للعثريات المنتظمة . وتحقق كل
شيء ، وحجبت قيمة هذه الوثائق جميع ما تقدمها من الاستكشافات . وأغرب من ذلك أن
الباحثين استكشفوا كذلك وثائق صينية وعربية تلقى ضوءا على الحالة السياسية للعقدة
التي كانت عليها آسيا الوسطى في ذلك العصر .

ووصلت أنباء كشف هذه المخطوطات العربية إلى ليننجراد قبل عودة البعثة ، وكانت
هذه الأنباء من الغرابة بحيث حملت الشك إلى نفسي . فقد كان يقال إن هذه الأسانيد مكتوبة
على الرق . في حين أنه لم يعرف في العالم إلا ستة مخطوطات عربية قد كتبت على الرق . وكان
من الصعب أن تفرض أن هذا العدد قد زاد فجأة في تاجستان دون البلاد العربية . كان يخيل
إلي أن ما استكشف مقصور على جزء من القرآن كتب على رق ، ولا شك في أن هذا الجزء
قد يكون قبا ولكن لا يمكن أن يعد نادرا . وقد أيدت هذه الفكرة كتاب من رئيس البعثة
ب. فريمان وهو أحد زملائي في الجامعة وأكبر مني سنا . وإلى جانب ذلك فقد كتب لي

حاكفا على المخطوطات العربية

أنهم عثروا على قطعة صغيرة من الجلد يمكن أن يقرأ عليها بخط عربي واضح « لا إله » . كان ذلك ، بوجه التقدير ، جزءاً من التشهد الاسلامي . وسرى النبأ بأن من فحصوا مستنداً كبيراً ، في آسيا الوسطى ، قد عثروا فيه على اسم طرخون ، أحد كبار ملوك الصفد إبان عصر الفتح العربي . أما أنا فقد كنت أميل إلى إسناد كل هذه الأنباء إلى حماسة الذين أرادوا أن يربطوا كشفهم بتاريخ البلد ، وهذا أمر مغتفر .

ومهما كان الأمر فإن فضولي كان عظيماً . وحاولت أن أحصل على صورة فوتوغرافية من المخطوط . ولا أدري لماذا لم يستطيعوا عمل هذه الصورة في آسيا الوسطى . ودارت مناقشات ذات صبغة خاصة بين المصالح حول من عسى أن يحتفظ بهذه المخطوطات ، وأين تحفظ ، وإلى من تسند دراستها .

وإنه لمن حسن الحظ في النهاية أن المخطوطات قد وصلت إلى ليننجراد . وعلنت في شهر يناير ١٩٣٤ أنها وضعت مؤقتاً في قسم المخطوطات في المجمع العلمي . كنت مريضاً ، تتأبني حمى شديدة . ولكنني بالطبع ، لم أملك نفسي من الذهاب في اليوم التالي ، إلى المجمع وأنا أسير على رصيف الجامعة الذي كنت أعرفه منذ عدة سنوات . لم أكن وحدي ، إذ كانت زوجتي تراقبني . وكانت منذ ست سنوات قد تعمقت علمي المخطوط والنقوش إلى حد أنها ، منذ عهد بعيد ، كانت تحيد أحسن من قراءة الحروف الكوفية ، فكنا نتذاكر ونحن نبشع أنه منذ ربع قرن مضى كنا نزر جوامع القاهرة ، فكان علماء المسلمين فيها يجيبون على أسئلتنا في صدد هذه النقوش : « ولكن هذا كوفي ! لا يمكن قراءته ! » أما الآن فإن استعدادها ونظرتها الثاقبة في قراءة المخطوط كانا يساعداني كثيراً على قراءة بعض العلامات في فك رموز بعض العلامات في المخطوطات عند ما كانت تبدو لي غير واضحة على الرغم من معرفتي للغة العربية ، إذ يخيّل إلى أن مرور السنين يخول لي حق الإدعاء بالماضي بهذه اللغة . والتقينا في القسم الخاص بالمخطوطات في الطابق الأرضي حيث توجد المكتبة ، بالسيد . ا. فريمان ، وقد كان جالساً أمام المائدة الكبيرة . كان غارقاً في فحص حروف أو « عصي » الصفد التي جاءت بها البعثة . كان ، على عادته ، هادئاً رزيناً . ومع ذلك فإن هيأته كانت تدل على أنه « متغيب » بمنظاره المستدير الذي كان يرفعه في كل لحظة إلى جبينه . كان قد أعد لي مظهرافاً ، فأخرج الاستند وهو يرمق التأثير الذي أحدثه فينا .

وشعرت بأنني قد تحطمت من أول نظرة ، وأن الدم تصاعد إلى رأسي تحت تأثير الانفعال . ثم شعرت بأن سحابة تظل على عيني ، وخارت قواي . وكنت أمسك بقطعة من الجلد المجدد قرضها الدود ، فلم أر عليها - كما لو كان ذلك من وراء ضباب من البخار الأحمر - إلا حروفاً عربية متناثرة ، دون أن أستطيع تمييز كلمة واحدة . وأخذ قلبي ينفق كأنما يريد أن يقفز خارج صدري . وكانت فكرتي الأولى رهيبة : « لن أجلو شيئاً ! » . ومع ذلك سرعان ما خجلت . وبذلت مجهوداً كبيراً من إرادتي لأرغم نفسي على إلقاء نظرة ثانية على المخطوط فرأيت إذ ذاك أنني لا أستطيع أن أحقق النظر ، فهناك ضباب أرجواني يخيم على عيني .

واستنجدت بجميع إرادتي ، وأخذت أحقق تارة في عبارة من الاستند ، وتارة في ناحية أخرى . ولكنني كنت لا أستطيع أن أقف نظري طويلاً . وطرأت على أفكار محومة عقب كل نبضة عصبية . فكنت أتمم بغير وعي وبصوت مرتفع : « أجل ، في السطر الأول نهاية العبارة المقدسة التي تكتب عند بدء كل خطاب : « باسم الله » . . . إذن تلك فاتحة رسالة ،

ماكفا على المخطوطات العربية

ولست صفحة منزعجة من وسط كتاب . . . أجل ! في الواقع كان اسم طرخون مكتوباً في الوسط . . . يقيناً ، ليس هذا بقرآن . . . ولكن ماذا عسى أن يكون ؟ « كانت فكرتي تشتغل طاجرة ، وتعذبني . وكنت أشعر بطنين في أذني : « أهى رسالة ؟ أجل ، أجل . ففي نهاية السطر الثاني يوجد : « من . . . عميله . » ولكن الاسم ؟ الاسم ؟ « ديوا ؟ » ديوا ؟ أجل ، حسناً « ديوا » بحرفي « دى » و « ا » مستطيلين . ياللسخف ! ليس هذا اسماً ! والسطر الثاني يبدأ أسوأ من الأول : يقرأ فيه بوضوح « سى » ، وهذا لا يوجد في اللغة الفصحى ، لا تستعمل « سى » إلا في اللغة الدارجة . وهى تعنى « مولاتى » . فإذا تفعل هذه هنا ؟ سطر ينتهى بكلمة « ديوا » ويبدأ الثاني بكلمة « سى . . . » ومن جديد أخذ نبض يدق دقات مضاعفة . قد تكون كلمة واحدة شطرت إلى مقطعين للانتقال إلى سطر جديد ؟ هذا دارج في الرقوق في مصر . ديواستى ، ديواستى . . . ليس هذا باسم ! إن الاسم طرخون يصادف في المؤلفات التى تتكلم عن آسيا الوسطى ، ولكن لا يوجد اسم ديواستى . . . ومع ذلك فهو ديواستى ! »

ف نظرت رفيقتى إلى فريمان وسألته : « ألكسندر أمولدوفتش ، ألم تصادف شخصاً باسم ديواستى في مستندات الصفد ؟ » فارتش فريمان ، ومنظاره معلق على جبينه . كان مشدوهاً مضطرباً وأجاب في النهاية : « كلا . . . ولكن يوجد شيء مثل ديوان في كل مكان . . . وربما كان مرجع ذلك إلى ديوان أى مقر الحكومة وربما كان عنوان كتاب ؟ » فصحت : « كلا ! فهنا ، باللغة العربية ، كلمة ديواستى . . . ديواستى ! » .

ونجأة طرأت على فكرة ، فوثبت عن مقعدى وخرجت أجرى . تمت دهشة من كانوا جالسين أمام المائدة ، وقارئ اللغة الإيرانية الصغير الذى جاء لمقابلة فريمان الذى جد في مكانه من هيئتي الشاردة وغرابة الحوار . وصعدت إلى الدور الثامن عن طريق السلم الجانبي لأصل سريعاً ، هناك يوجد معهد البحوث الشرقية ومكتب الدراسات العربية . هناك على رف صفت مجلدات المؤرخ الكبير الطبرى . وساورنى الأمل بأننى سأجد فيها تفسيراً لهذه الكلمة .

ومن حسن الحظ أننى لم أصادف أحداً على السلم ولا في المكتب . كنت أعلم أن منظرى كان مخيفاً وأننى كنت طاجراً عن تفسير ما ألم بي . كنت ألقت من العدو . واندفعت نحو الرف المعروف وفتحت فهرس الطبرى ، واخذت أقلب صفحاته وأنا محموم باحثاً عن اسم متقارب . كان نظرى مضطرباً ، ومع ذلك قرأت تقريباً جميع الأسماء التى تبدأ بحرف د . لم أجد بينها ديواستى ، فشعرت بقلبي يخور . وبفتة قرأت بعد بضعة سطور تحتها « ديواشنى » . فصحت لنفسى : « ولكن لا يوجد إلا اختلاف في النقط ! » هذه نفس الكلمة ! فلم أصدق عيني . وأخذت أقرأ في الكتاب الصفحات التى أشير إليها في الفهرس . لم يعد مجال للشك . لقد ورد ذكر ذلك في آسيا الوسطى ، كما ورد ذكر حوادث وقعت في القرن الثاني للهجرة . لم أكن بحالة تمكنت من التبحر في القراءة ولكن لم يبق عندي مجال للشك وأضاءت شعلة في خبيثة نفسى .

ونزلت بنفس السرعة التى صعدت بها . ولو أننى كنت أصغر سناً بشرين عاماً لامتطيت حاجز السلم كالجواد لأنزل بسرعة أزيد . وسقطت على مقعد ولم أستطع إلا أن أتمتم ، وأنا أخطب فريمان الذى لم يفهم بعد السبب في هروبي السريع : « لقد وجدت ديواستى ! »

عاكفا على المخطوطات العربية

كان ذلك غير منتظر إلى حد أن ثلاثة أزواج من العمون المشدوهة قد سلطت إلى بذعر . وعند ما استعدت تنفسي وسردت عبارات متقطعة ما في الموضوع كان الابتهاج عاماً . لقد شعروا كلهم أن السر قد وضح ، وأن الحيط للموصل قد وجد . وجاء رد القمل بعد هذه الانفعالات وشعرت بأن قواي قد خارت .

في ذلك الصباح لم أستطع أن أسير في دراسة المستند إلى أبعد من ذلك ، ولكنني كنت مطمئناً : لسوف يكون العمل شاقاً طويلاً الأمد ، ولكنني كنت واثقاً من أنني على الطريق القويم . وفي اليوم التالي بالذات كنت في حالة عقلية مختلفة . فأخذت أتبين الخطاب بانتظام ، وفي نفس الوقت كنت أراجع الصفحات للقائبة في الطبرى . الآن ، كنت أستطيع أن أفحص للمستند دون تخوف من إشاراته . وإذا ذاك فقط أمكنني أن أقدر روعة الجمال في خط الكاتب الخطاط .

كل يوم كان يحمل لي أفراحاً وأشجائاً ، واستكشافات صغيرة ويأساً . ولكن لم يعد شيء يخيفني . تلك القطعة الصغيرة من الجلد المجد التي بقيت في جوف الأرض مدى اثني عشر قرناً ، لا تستطيع أن تخفي أسرارها على التحليل الذي يجريه العالم في قراءة المخطوط القديمة ؛ لم يكن يمكنها أن تحافظ على الصمت متى ووجهت بالمورخ الذي دوت أقواله في أسفار الطبرى الثمينة .

في الواقع كان اسم ديواشني مفتاح السر ؛ فهو لم يفسر لنا الخطاب العربي فحسب . ولكنه قدم لنا أيضاً قاعدة لدراسة مستندات الصفد . كان ديواشني ملكاً على الصفد ، وتلك كانت آثار المحفوظات التي استكشفتها البعثة في جبال موجس . أما اسم الخليفة العربي الذي وجهت إليه تلك الرسالة فقد أمكن الوقوف عليه بعناء أقل ، وهذا ما ساعد على تحديد تاريخ هذا المستند ورجعه إلى عام ١٠٠ للهجرة أي حوالي سنة ٧١٨ — ٧١٩ من تاريخنا . لقد انتزعنا كل ذلك من الرسالة حرفاً حرفاً .

أما قطعة الجلد الصغيرة التي قرضها الدود والتي استكشفت إلى جانب الرسالة وتحمل أول البسملة ، فقد وجدت مكانها سريعاً في المستند . لقد نجحنا حتى في إعادة تكوين السطور التي التهمها الدود الشره . وإني ، عندما أنظر الآن إلى الصورة الفوتوغرافية التي أخذت بخطاب على الجلد الأملس الناعم ، لأسائل نفسي أحياناً : كيف توصلنا إلى قراءة السطور التي لم يبق منها في أغلب الأحيان غير حرف أو حرفين ، وكيف استطعنا أيضاً أن نحزر معنى ما كان قد التهمه الدود ؟

إنني لاغر بملنا الذي تسمح أساليبه الدقيقة أحياناً ، بإيجاد ما يخال ، عند أول نظرة ، أنه قد اختفى إلى الأبد . إنني لأعتقد أن جميع الناس يشعرون بمثل هذا الاحساس ، حتى علماء مختلف الفروع الأخرى الذين جاءوا بعد أسبوعين — في فبراير — لحضور اجتماع المجمع العلمي الذي عقد خصيصاً لتلاوة البيان الخاص ببعثة جبال موجس . كانت حجرة للمطالعة في معهد الدراسات الشرقية ، مكتظة بعد أن كانت في الغالب لا تضم بين جدرانها إلا عدداً قليلاً من القراء . لم تكن إلا مكان مشغولة بأكملها لحسب ، بل كانت الردهات مكتظة كذلك . وحضر سكرتير المجمع الدائم في وسط الجلسة . وما إن فتح الباب حتى بدرت منه عفواً حركة ارتداد ، لأن المنظر الذي وقعت عليه عينه كان أبعد من أن يشبه بمنظر الجلسات العادية للجامعة للشرقين . كان ذلك انتصاراً للبعثة التي زادت في ثروة العلم بإضافة مستندات لم تنشر ، وبإتصافاً

ماكفا على المخطوطات العربية

علم ذاته ، لأنه يعزز قوته بأجلى بيان ، ويضع معارفنا في مستوى أرفع أمام أنظار الجميع .
وليس ثمة حاجة إلى القول بأن دراسة تلك المستندات لم تقف عند حد هذا الاجتماع ،
ولا عند نشر « مجموعة الصغد » التي ظهرت في نفس السنة . إن هذه المجموعة تشرح أهم
النتائج العلمية التي تم الحصول عليها ، وتبين أساليب الدراسة المنظمة التي اتبعت في حل رموز
الرسالة العربية التي تحدثت عنها فيما تقدم . لقد عرفنا ، مع الزمن ، أن اسم الشخص الرئيسي
كان يقرأ ديواشتي وليس ديواستي . لقد نجحنا في استكشاف اسم القصر الذي احتوى به مع
رجاله بعد مقاطعته للعرب نهائياً . بل قد أمكن الوصول إلى استكشاف سلالة الماعز الذي
يرجع إليها نوع الجلد الذي كتبت عليه الرسالة . إنه لمن المرجح أن كثيراً من التفاصيل
الأخرى سترى النور من دراسة هذه المستندات فيما بعد . وإني لأرجو أن يأتي شخص
فيحسن أو يتم قراءة بعض الحروف والكلمات التي بقيت خافية علينا . ولكن تلك ليست
إلا تفاصيل . لقد وجدنا الطريق الذي يتبع بمجرد الوصول إلى تفسير ذلك الاسم الخفي
العجيب وهو ديواشتي . إن تلك اللحظة من الأيحاء الوجداني ، وهذا النوع من الاستكشاف
كاننا فاتحة نمو في عالم التحليل العلمي . وبفضله أصبح هذا الاسم مألوفاً عند كل عالم في
القراءات الفارسية ، وكذلك عند مؤرخي آسيا الوسطى .
إن المستعربين لسعداء ؛ لأن رسالة الصغد ، التي وتمت تحت يدهم ، لم تكن فقط أثراً بارزاً
ونادراً لفن قراءة الكتابات العربية القديمة ، ولكنها كذلك مصدر تاريخي من الطراز الأول .

« كراستكوفسكي »

تقاهما عن الفرنسية سليم سعد

أحمد عيسى (١)

« إذا جاء الموت طالب العلم وهو على حاله مات شهيداً »
(حديث . عن أبي هريرة وأبي ذر)

عرفته أول ما عرفته بين يدي أحمد زكي (باشا) رحمه الله . وكنت ألقاه في « دار العروبة » غير مرة في الأسبوع . وكان فيه مثل ما كان في صاحبه وشيخي أحمد زكي من الولع بالقراءة والصبر على البحث والثبات في التأليف . مات رحمه الله كما كان يحيا متجرداً ، شبه مغفور ، وهو حقيق بأن يذكر وأن يعظم . ولكنها مصر ، بل لكنه الشرق العربي ضاعت فيه المقاييس وزاغت القيم ؛ فأمسى القدر ، في جهة المعنى ، مرهوناً بالجاه أو البأس أو الحظوة ، وصارت الشهرة عند جبهة الأدباء ، حتى عند طائفة من العلماء أستغفر الله ، أو أشباههم ، وليدة ارتجال واتكال ، أو نتيجة تهويل وتلفيق .

لم يكن الطبيب أحمد عيسى بالمتلس ولا المتزلف ولا المتكلف . كان دلالة قائمة على الجِد بصدق والكفاية بحق . كان والله قدي في أعين من يرضى بالفوضى في عالم الاجتهاد ، اجتهد الذهن ، وكذلك في أعين من يحيط بثقاقتنا ، عن رضا أحياناً ، إلى مخرقة صبيان . ما هذه الكتب التي في عنواناتها بهرج الدعوى وفي بطونها فقر العاجز الواغل المقتحم لغير بابه ؟ إنها لنكبة من نكبات الغرور مع الارتزاق ما عرفها الأدب العربي — والحق عليه ! — مثلما يعرفها الآن .

ليس لي أن أرى رأياً في الكتب التي ألفها أحمد عيسى بك في الطب الخالص ، ولكنني أظنني أستطيع أن أزن ما أخرج للناس في اللغة وتاريخ العلوم عند العرب . فان كان كتابه « التهذيب في أصول التغريب » (القاهرة ١٩٢٣) ضرباً من الجمع ، فان « المحكم في أصول الكلمات العامة » (القاهرة ١٩٣٩) زاخر بالفوائد للمستنبطة . غير أن فضل أحمد عيسى في كتب الطب والنبات على وجه التخصص ؛ فهي في المحل الأول في جانب التنقيب والتحقيق . ثم إن علماء الفرنجة — وهم أعلى من علمائنا بصرأً بالنقائس — ينزلون تلك الكتب منزلة المراجع للمعمدة . وأجل هذه الكتب : « معجم أسماء النبات باللاتينية والفرنسية والانجليزية والعربية » (القاهرة ١٩٣٠) ، وهذا هو المصدر الاوثق الأعلى في هذا الباب . ثم « تاريخ النبات عند العرب » (القاهرة ١٩٤٤) سرد فيه المؤلفات العربية في النبات ، ما ضاع منها وما وقع ، مع تنسيقها وذكر مؤلفيها . ثم « تاريخ البيمارستانات في

(١) ولد في مدينة رشيد سنة ١٨٧٨ وتوفي بالقاهرة في ٢٤ يولية ١٩٤٦ . وتجد ترجمة حياته في مجلة « منبر الشرق » ، القاهرة ، السنة ٢١ ، العدد ٢١٢ .

العهد الاسلامى » (القاهرة ١٩٣٩) وهو طريف . ثم « معجم الأطباء من القرن السابع الهجرى إلى وقتنا هذا » (القاهرة ١٩٤٢) ، فى هذا الكتاب أتم أ. عيسى « عيون الأنبياء فى طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة » للمتوفى سنة ٦٦٨ هـ واستدرك عليه ؛ أما مصادره فوافرة جداً ، وأكثرها مخطوط أو مطوى أو مهمل ، وبأليت هذا الكتاب الجامع على استيفاء خرج بالمسارد والفهارس الضافية .

تلك هى مشاركة أحمد عيسى فى ميدان حضارتنا الغابرة وثقافتنا الراهنة . وإنها لمشاركة شريفة غزيرة . وهيئات هيئات أن يستطها أو برقفها أن « مجمع فؤاد الاول للغة العربية » — وكلنا يعرف ما قدره بالاجمال وما همته — لم يحرص أن يكون أحمد عيسى من أعضائه . وكأن الله يريد أن يبذل كفارة لهذا المجمع الذى عرف كيف يخفف عن نفسه مؤونة السعى . فبدلاً من أن يعلننا بمجلة لا تخرج ومعاجم لا تنفك تسرح فى أفق الوهم ، ليتبل على طبع هذا الكتاب الذى أعده أحمد عيسى العالم العامل ، وهو « معجم مصطلحات العلوم الطبية الانجليزية والفرنسية والعربية » . هل نعرف يوماً ما الجدة ؟ (١)

بشر فارس

(١) كما عرفت كلية الطب فى القاهرة اذ نثرت للراحل « تاريخ النبات عند العرب » و « معجم الأطباء ... »

من التحرير إلى القراء

اجتمعت أمور عدة أدت إلى تأخير البت فى مسابقة القصة منها سفر الأستاذ محمود تيمور بك إلى أمريكا ثم سفر الأستاذ رئيس التحرير إلى فرنسا ثم سفر الدكتور محمد عوض محمد بك إلى إنجلترا وكلهم من أعضاء اللجنة التى تنظر فى هذه المسابقة . وقد استأنفت اللجنة عملها وستنتهى منه فى شهر نوفمبر .

*

وقع فى مقال الأستاذ منير الحسامى عن إبراهيم بن المهدي (عدد سبتمبر) خطأ بسيط فقد ذكر فى الهامش أنه اعتمد على الجزء ١ من الأغاني والصواب أنه جزء ١٠ .

من هنا وهناك

حديث ناشر لكتاب قديم

عليهم ، ثم دلهم أحدهم فمضوا جاہدين ! . . .
انظر إلينا وقد رفع أحدنا رأسه كأنه
مستيقظ من سبات عميق ، ثم مد يده يفتح
القاموس وهو صامت لا يتكلم ، ثم يجيل
نظره فيه ثم يلقيه ، ونحن نعلم أن رأياً عن له
فأراد أن يتثبت منه ، فأحياناً يهتف بنا ،
وأحياناً يلقي القاموس في تخاذل وابتئاس ،
وقد عاد نظره عالقاً بهذه الكلمة المطموسة
أو رأس هذا الحرف الطائر أو تلك النقطة
المختفية ، يدقق النظر ويستوحي الفكر ،
ويعصر نفسه عصراً حتى يجمد في مكانه . . .
ويسأل بعضنا : ماذا كنت تظنها ؟ فأحياناً
يقول لا شيء ، وأحياناً يصارحنا بظنه مع
اعترافه بتفاهته ، فتتضحك ونشكره على
صراحته ، وربما قلنا له لقد كان سكوتك
وتأملك أجدى علينا ! . . .
ونقرأ في المخطوطة شطر هذا البيت :

أيسيل على الماء في كل تلة

ونراه لا يستقيم مع العروض ، فننظر
في رسم حروفه فنراها صحيحة واضحة ،
ولا نجد مسوغاً لنقول في حاشية الكتاب
هذه العبارة المعتادة التي تلجأ إليها كارهين :
« كذا بالأصل » . ونجمل في أنفسنا هذه
العروض الكثيرة التي تعودنا أن نجعلها عند
ما يحزب الأمر وتستبهم الطريق ، فلا نجد البيت
يستقيم مع فرض منها . . . « الماء يسيل
في كل تلة » كلام يشبه أن يكون صحيحاً لكن
البيت مكسور ، فإذا هناك من خطأ ؟ ويمضي
وقت ليس بالقليل على تلك الرؤوس المتلاصقة

لو أنك رأيتنا ونحن حول مخطوطة
تشرها لحسبتنا جماعة من المجانين قد خيل
لهم جنونهم شيئاً ، فالتصقت رؤوسهم وحملت
عيونهم وانعدت ألسنتهم . . . مجموعة من
الرؤوس متلاصقة تكون نصف دائرة ، قد
أرسلت عيونها خيوطاً من النظر حادة مضية
فتلاقت جميعاً في نقطة واحدة على كتاب
قديم . . . تلاقت عند هذا الحرف للطموس
أو في رأس هذه الواو الطائرة أو على نقطة
تلك الصاد الهاربة ! ترانا سكوتاً والحقيقة
أنتا نهتف بكل حواسنا العقلية والفنية ،
ونستوحي ما نعلم وما لا نعلم ، ونمسك بخناق
هذا الرجل للسكين الذي نسخ الكتاب
كيف هانت عليه رأس هذه الواو فصارت
راء . وأحياناً ترانا نحاسب هذه الحشرة
للسكينة التي توفها الله منذ أكثر من ألف
سنة ، نحاسبها لأنها أكلت نقطة الجيم مثلاً
فجعلتنا نراها حاء ، فلم تكن هذه الحشرة
التي نسميها الأرضة ، تدري أنه بعد ألف
سنة من وفاتها تقوم جماعة فؤاد الأول بنشر
هذا الكتاب ، وتخلق عيون كثيرة في هذه
النقطة الضئيلة التي ملأت منها بطنها ! . . .
انظر إلينا ونحن على تلك الحال حول
مخطوطتنا ، وقد عن لاحتنا رأي فأعلنه فارتفعت
الرؤوس ولبت العيون ، وأسرعنا لنلازم بين
هذا الوجه من الرأي ورسم الكلمة
في المخطوط . ثم انظر إلى صاحب الرأي كيف
أشرق وجهه بالرضا حين وافقناه وهنا ما . . .
ثم نمضي في قراءة المخطوطة كجماعة سفر
وقفوا عند بعض الطريق حين أهمت

من هنا وهناك

توحى إليه شيئاً لا يكاد يتبينه تماماً. أتكون
العبارة «أسبل على الماء»؟ وتمتد اليد إلى
القاموس فلا تجد في مادة سبل يسبل ما يوافق
هذا المعنى ويتفق مع هذه الصيغة. ثم يعود
الخيال فيضع أمام عينيه هذه الكلمة الغريبة
التي اخترعها آنفاً فيطيل النظر في الكلمة
«أسبل» وبعد لحظة وجيزة تهوى هذه
الياء التي جاءت بعد السين وتلتحم السين باللام
سريعا وتصبح الكلمة «أسبل على الماء
في كل تامة» كلام تام مستقيم؛ فألسل الحرام
والشاعر يشكو من الحرمان، والصيغة ورسم
الحروف صحيحان، فلا يلبث أحدهما أن يهتف
بها كأن إلهاما تنزل عليه من السماء، وتهتف
نحن به مهئين ونسرع إلى تدوينها وإثباتها
في الأصل، ثم نكتب في الجاشية هذه العبارة
التي نكتبها كثيراً والتي ربما لا يراها بعض
القراء: «رسم الكلمة في الأصل:
أسبل»!

وتسأل هل تذوقنا هذا الشعر الذي كنا
نقرؤه؟ لكأنما لا يهنا منه ونحن نقوم
نصه فنثبت اختلافات رواياته إلا ما فعلت يد
الناسخ به من تصحيف وتحريف وما أكلت
الأرض من نقط أو حروف! أذكر
أنا كنا حاكفين ذات يوم على مخطوطتنا وقد
عرض فيها بيت أبي نواس:

عرضن للذي نحب بحب
ثم دعه يروضه إبليس

وكدنا والله نحضي إلى ما بعده مادام البيت
صحيحاً لم يهت به ثابت لولا أن سمعنا أحدها
يضرب يده على المائدة، ويهمهم بشيء في نفسه،
ثم يرفع صوته ويردد البيت وقد أخذه الطرب
وتملكته فتلتة... وانتبهنا نحن ورددنا
البيت فإذا هو رائع حقاً، فوقفنا عنده قليلاً
وقد نسينا كل شيء وأخذنا نتحدث في هذه
النصائح النواسية كيف يعلمنا أبو نواس:

وهذه العيون الشاخصة... وتمتد الأيدي
إلى القاموس بين الفينة والفينة، ونظل نجيل
للفكر وتقلب النظر ونفترض الفروض.
وما دام البيت في صيغة الاستفهام فلا معنى
عن بقاء هذه الألف في أول كلمة «يسبل».
على أن الصيغة التي يجب أن تبنى عليها الكلمة
هي صيغة «فعل» على الاستفهام، فما عسى
أن تكون هذه الصيغة من سال يسيل؟...
إذن لابد أن تكون «أسبل على الماء في كل
تامة» فهو صحيح الوزن مستقيم للمعنى...
غير أن الشاعر هنا في معرض الشكوى
فكيف يستقيم المعنى على هذا، وما يجوز أن
يشكو لأن الماء يسيل عليه من كل تامة...
كلاً، وإذن فلنخلص أنفسنا من هذا الحكم
السابق وهذا الافتراض الواهم الذي خدع
الناسخ وخدعنا، فلم لا تكون الكلمة من
مادة أخرى غير مادة سال يسيل. ما عسى أن
تكون هذه المادة الأخرى أو هذه الكلمة
الجديدة على شريطة أن يأتي رسمها قريباً من
هذا الرسم الذي كتبه الناسخ؟ هل قدم
الناسخ في بعض الحروف وآخر، أم هل زاد
أم نقص؟ وهنا يأتي دور الخيال الذي يعلق
هذه الكلمة أمام عينيه ويظل يضع حرفاً
مكان آخر، وينقص حرفاً أو يزيد حرفاً
لكي تستقيم له كلمة أخرى جديدة تتوافر فيها
هذه الشروط الثلاثة: (١) وزن «أفعل»
(٢) معنى الشكوى (٣) حروف مقاربة لهذه
الحروف في «أسيل». ثم يأتي دور النقط
بعد الحروف، فما عسى أن يكون في هذه
النقط الأربع تحت هاتين اليائين من زيادة
أو نقصان؟ لنبتدىء بالياء الأولى ونحذف
منها نقطة، فقد صارت الكلمة «أسبل»
وهنا يضحك الخيال قليلاً حين يرى هذه
الكلمة التي ولدها والتي لا يتوافر فيها شرط
واحد من هذه الشروط الثلاثة. ولكن
للذهن مع ذلك يثبته لهذه الكلمة، فهي كأنها

من هنا وهناك

يعلمون أن الفراغ من سطر واحد ليس
بالشيء القليل في بعض الأحيان ! الحق أن
ناشر الكتب القديمة يقرأ الشعر فيها لا كما يقرأ
الناس الشعر يفتنهم خياله ويستهوهم جماله ،
ولكنه ينظر فيه ليقوم نصه ويصحح روايته
ويثبت في الحاشية ما يصح أن يثبت وهو
لا يفكر في جمال الشعر وتجاوبه مع نفسه
بقدر ما يهيم صحة الفن واستقامة المعنى ! نعم
قد وقتنا عند بيت أبي نواس هذا وأنسانا
قوله « يروضه إبليس » أشياء كثيرة لكننا
ما لبثنا أن مضينا إلى غيره ، وربما لم تكن
فرحتنا بجماله أكثر من فرحتنا بصحة
حروقه !

محمد عبده عزام

الحب ويهديننا إلى سبله بهذه اللوحة العذبة
وهذه الإشارة الماكرة . فليس المحب إذن
في حاجة إلى هذه المكاشفة الصريحة الملحة ،
حتى يذلل صعب الحبيب ويخفف من امتناعه
وتأنيبه ، ولكنه يكفي أن يعرض له بهواه ،
ثم يدعه ، فإن وقع هذا التعريض في نفسه أشد
وأقوى ، وسيلعب الشك واليقين بهذا الحبيب
ويتناوبان عليه ، ويأتي إبليس أخيراً فيمسكه
من يده ويروضه إليه ! وما نكاد نستروح
بهذا البيت وتذوق معانيه حتى يصرفنا عنه
ما نحن فيه من تحقيق وتدقيق وعبث ناسخ
وأكل أرضة ، ففسرع لنقطع في المخطوطة
سطراً آخر ، فإن الذين يشتغلون بالمخطوطات

مركز المرأة بين الجماعات النظرية

وتأيداً لهذا الرأي يؤكد العارفون أن المرأة
هناك إن هي إلا دابة من دواب الحمل ،
تساء معاملتها وتحتقر ويلقى على كاهلها كل
عبء ثقل .

والرجل هناك يعني بالصيد في البر والبحر
ويشن الغارات . أما المرأة فهي الزارعة ، وهي
البانية ، وهي الحائكة ، وهي صانعة الآواني
الحرفية ، وهي دابطة الجلود ، وهي صانعة
السلال ، وهي فوق ذلك ربة البيت ، وهي التي
تعنى بالضعاف والمرضى . وهي تحمل فوق
رأسها خونة فيها كل ما يعينها في كل ما تقوم به
من عمل أو صناعة ، وهي تحمل فوق ذلك
أيضاً أسلحة زوجها ، وهي تحمل أيضاً طفلاً
من أطفالها فوق كل هذه الأثقال .

مما تقدم يبدو أن ذل المرأة الأسترالية
وخنوعها أمر مقطوع بصحته . ولكن سير
بلدوين سبنسر - وهو الحجة الثقة في هذا
الموضوع ، وهو الذي يتكلم عن خبرة لا يرق

جري العرف منذ الزمان البعيد أن يتخذ
مركز المرأة مقياساً تقاس به الحضارة لدى
مختلف الشعوب .

فاذا سأل سائل : هل للنساء شعب من
الشعوب حق الانتخاب ؟ وهل لهن أن يكن
طبيبات أو محاميات ؟ وهل لهن حق التصرف
فيما يملكن ؟ وكان الجواب بالنفي خفت إذن
موازين ذلك الشعب الذي ينكر على النساء
تلك الحقوق . وكان ذلك الشعب في قافلة
الشعوب من الخوالب التاعدين .

ولكن تقدم علم تاريخ الأجناس البشرية
قد ألقى على هذا الحكم ظلالاً من الشكوك .
ولكي نحكم حكماً قاطعاً في مثل هذه المسائل
يجب علينا أن نتبعد عن مبدأ الإطلاق
والتعميم ، وأن نعنى بدريس الحقائق التي
اجتمعت لدينا بعد طول الدرس والتقصي .
فقد كاد الاجماع ينعقد على أن سكان
أستراليا الأصليين هم من أخط الشعوب .

من هنا وهناك

لمن فقدن من الأزواج . وكذلك الرجال يفعلون بأجسامهم ما يفعل النساء ، ولكن الرجال يفعلون ذلك ابتغاء الزينة .
والحمل - وهو عند المرأة المتحضرة مهمة ذات خطر - هو عند المرأة الاسترالية مسألة ليست بذات بال .

ويقول أحد الكتاب : إن القبيلة من القبائل الأسترالية إذا ارتحلت في سفر قاصد أو غير قاصد ، لا تكلف نفسها عناء قليلا أو كثيرا لكي تتم عملية تافهة كعملية الوضع . وكل ما يعملونه هو أنهم يلفون المولود في جلد من جلود الحيوانات ، ثم يستأفون المسير والمرأة الولدة تدلف مع سائر المرتحلين .
ولكننا مهمل بالغنا في تعداد ما تتمتع به المرأة الأسترالية من مزايا العيشة الفطرية فاننا لا نتذكر أن عيشها مما لا تحسد عليه ، فهي تقاسم زوجها ما يلقاه من حرمان وما يلاقيه من خطر . وما يلقاه من حرمان وخطر ليس بالشيء القليل .

ونصيب المرأة من العمل هو ذلك النصيب المفضي للمل . وهي تتزوج أول ما تبلغ مبلغ النساء . وقبلها يسمح لها باختيار زوجها . ولزوجها أن يقرضها لمن شاء من الرجال ، وهي لا تستطيع لهذا الاقتراض رفضا .

وإذا مات عنها زوجها قامت بما تقرضه عليها العادات من حزن مقعد وهم مقيم ، ثم تصبح بعد ذلك - رضية أو كرمعت - زوجة لأخ الزوج الفقيد .

ولذلك يقل العجب أو يبطل إذا رأينا المرأة الأسترالية - وهي في شبابها ممشوقة القدر هيفاء القوام - تصبح - إذا مسها الكبر - مغضنة الوجه ، مقوسة الظهر مترهلة العضل مسترخية المفاصل . وهي إذا بلغت الخامسة والعشرين غاض ماء شبابها وولت محاسنها . وإذا حبت إلى الأربعين خلتها إحدى المرافات العجائز . وهي قلما

إليها الشك - يؤكد لنا أن عيش المرأة الأسترالية والمعاملة التي تلقاها من زوجها ما في مستوى لا يطمع أن يناله مئات الألوف من اخواتهن ممن يعشن في الأحياء الحقيمة في بلاد الانجليز . وهو يؤكد أيضا أن النساء هناك لا يعاملن بالسوء البالغة . وإذا كن يعشن - كما هو الواقع - معيشة ضنكا فان ذلك العيش الضنك هو من نصيب الرجال أيضا .

ففي سني الرخاء يمجّد الرجال والنساء عملا يعملونه . أما في السنين العجاف فالرجال والنساء يتقاسمون الشقاء على سواء . والمرأة الأسترالية على خلاف أختها المتحضرة لا يتطلب منها أن تمضي الساعات الطوال في صنع ملابس زوجها ورتق جواربه . ذلك لأن الرجل الأسترالي هو بصفة عامة رجل طار . وهو اذا اكتفى تمتع بحزام يشده على وسطه وبمذبة في حجم قطعة النود من ذات خمسة القروش تتوسط ذلك الحزام . أما المرأة فلباسها حزام من المنطاط يضاف إليه عند بعض القبائل مئزر من شعر .

أما العمل المنزلي عند أولئك القوم فهو أقل من القليل . وكذلك تربية الأذغال فاسها عندهم ليست من المشكلات ذوات الخطر كما هي الحال عندنا .

ومن المحقق أن الحب ، كما تدل عليه هذه الكلمة عندنا ، هو قليل الوجود أو نادره . والنساء اللائي يأتين بفاحشة مبينة قاتنهن يلاقين عقابا شديدا ، وذلك بكى أجسامهن بالنار . أما الندوب التي يراها الرءاءون في أجسام النساء وقد تبلغ الأربعين عدا ومكانها ما بين السرة إلى ما فوق الثديين ، فليست من عمل الأزواج الناضجين ، كما يؤكد سير بلديون سبنسر .

انما تلك الندوب من عمل النساء أنفسهم ؛ لكي يشهدن الناس على إخلاصهن

تجاوز الحنين . وهذه هي ضريبة الشقاء والحرمان .

وفي القبائل الأفريقية حيث تثبت الآراء الفطرية لنفوذ الغريين وآرائهم يشبه مركز المرأة مركز أختها الأسترالية . ولذلك اختص الرجال - كما يقول هافلوك اليس - بأعمال الحرب والقتال ، واختصت المرأة بأعمال الصناعة .

والمرأة هناك تعنى بتربية الأطفال وبكل عمل يمت إلى البيت بصفة . والرجل هناك يعنى بكل ما يزيد مفاسله صلاحه ومتانة .

ويقول الكاتب ج . كلاريدج إن المرأة المادية في بلاد الكونغو ترجح في مثل تذبذب رقاص الساعة بين طفلها وحقلها ، وما الشيطان اللذان يمثلان أهم ما تعنى به من أمور الحياة . فمن شروق الشمس إلى غروبها تجهد المرأة تمزق الأرض وتسقيها وتحصد الزرع وتجنح الثمار . وهي تقوم بهذه الأعمال وطفلها فوق ظهرها ، وهي ترى مرتين في النهار وهي تذهب لملأ جرتها من العيون والأنهار . والمارفون ينسبون انتصاب قامة المرأة في تلك البلاد واعتدال قوامها إلى هذا النوع من العمل . والمرأة هناك هي التي تزرع الخضر وتطبخها . وهي التي تبني كوخها ، وتقيم من أوده إذا أضرت به الريح أو أتلغه المطر . من أجل ذلك ينظر للمرأة بين قبائل إنريقية كأنها عملية مالية مذهبة الخواشي ، تدر ربها وفيرا في صورة خدمات وأطفال . وما يعلى من قدرها ويغلى من ثمنها أنها إذا ماتت كان لزوجها أن يتزوج - بغير مهر جديد - إحدى أخواتها غير المتزوجات .

وهناك في نيجيريا ترسف المرأة في قيود الذل في بعض نواحي العيش ، في حين أنها تظهر بفسط وافر من الحرية في بعض النواحي الأخرى .

فهناك لا ينبغي للمرأة أن تصغر إلا إذا

رضيت أن تعرض نفسها لثمة السحر ، ولا أن تطوى أشعة القوارب أو أن تصعد إلى سقوف الأكواخ . ذلك لأن تحت السقوف تحفظ الملابس التي يلبسها رجال الجماعات السرية . وهي لذلك تعتبر ملابس مقدسة ، فإذا وقعت عليها عين المرأة أصبحت نجسة . والمرأة هناك يجوز لأبيها أو زوجها أن يرهنها في مقابل دين . فإن غلق الرهن وكان الراهن أباهما جاز للدائن أن يضنها إلى حريمه . وقد يحدث - والشئ بالشئ يذكر - أنه إذا مرضت امرأة وكانت غير قادرة على أجر الطبيب كتبت على نفسها أن تكون له عبدة مدى الحياة إذا أبرأها من سقمها .

وإلى جانب أمارات الذل التي سلف بيانها نجد كثيرات من النساء يعملن في الصناعة والتجارة ، ويجنبن من عملن ما يكفلهن هن وأولادهن ، وإن كانت القاعدة أن الزوج هو صاحب رأس المال الأول .

وإن أردت أن تلقى القوم الذين نساؤهم في الدرك الأسفل من الذل ، فابك واجدهم بين أقزام الغابات الاستوائية ، وكذلك أنت واجدهم في صحارى كلهاري . وهم - كقوم رحل - ليس لنسائهم عمل يعملنه في المنزل أو في الحقل . وحياة نسائهم إنما هي دورة طويلة من الحمل والولادة ومن الحرمان يتخللها ثوبات من النهم والبطنة يعقها سبات هو أشبه بسبات الذاهلين .

ولكن يجب أن نقرر أن هذا الشقاء لا يرجع إلى سيطرة الرجل على المرأة ، وإنما يرجع إلى شقاء البيئة التي تعيش فيها وتحميها . وإن المرء ليجد اليوم قوماً يسكنون تلال فلجري في جنوبي الهند يقال لهم «التودا» وهم يبلغون السبعائة عدداً ، وهم يرون أن المرأة أدنى درجة من الرجل طبيعة وخلقة . ولذلك يزون أن الاتصال بها رجس ونجس .

من هنا وهناك

ومن ثم نجد النساء متنوعات من المشاركة في حلب اللبن ومخضه ، ومنوعات أيضا من العناية بالجواميس في إبان الولادة والانتاج . وإذا انتقلت الجواميس من قرية إلى قرية كان على النساء أن يهجرن بيوتهن وأن يخرجن إلى الغابات تحمل كل منهن شارة الانوثة وهي للكلسة والغربال والهاون . والبنات مستثنيات من هذا المنع والتحریم حتى يبلغن مبلغ النساء . ولذلك ضمن اللائي يقدمن للجواميس العلف ويتولين تنظيف الحظائر .

وكذلك الحال في كبوديا بالهند الصينية حيث يحرم على المرأة أن تنام على الوسائد والحشايا التي ينام عليها زوجها .

وفي سيام تتوسد المرأة وسائد أقل درجة من وسائد زوجها للدلالة على نقصها .

وعند بعض الشعوب يرى من غير اللائق ومما ينافي الاحتشام أن تذكر اللسوة اسماء أزواجهن .

وفي كثير من البلاد تعزل النساء عن الرجال إذا الليل جن . فتنام النساء والبنات في البيوت ، وينام الرجال في ساحات المدينة . وعلى عكس ما أسلفنا نجد للنساء المقام الأول في بورنيو الشمالية . فالنساء هناك هن اللائي يتزعمن الاحتفالات الدينية ، والرجال هناك يقنعون بدق الطبول . والنساء هناك هن الكهنة . ويقال إنهن يؤدين الطقوس بلغة لا يفهمها الرجال .

وكذلك هن الموكلات بطرد الأرواح

الشريرة من القرية ، وهن يقمن بهذا العمل في حفل صاخب ، وهن يمشين الهوينى ، وهن يقفن في كل ركن ، ويقعدن في كل زاوية يرقصن ويهزجن . حتى إذا وصل الركب إلى جانب البر حيث ترسو السفينة وهي محملة بالهدايا التي تسترضي بها الأرواح الشريرة أمرت الكاهنة بأن تسير السفينة وهي تحمل فوق ظهرها الأرواح التي يظن أنها قد لجأت إليها ثم تجرى بها إلى بلد آخر .

وفي جزيرة سيلان يعيش شعب من سكان الكهوف . والمظنون أن هذا الشعب قد انحدر من سكان الجزيرة الأصليين ، وهم الآن قوم منبوذون . ولا تختلف معيشتهم عن معيشة الوحوش التي تأوى إلى الغابات التي يسكنها هؤلاء الناس .

وعلى الرغم من ذلك فإن رجالهم لا يعرفون تعدد الزوجات ، كما أن نساءهم لا يعرفن الحياة الزوجية . وهن يعشن على قدم المساواة مع الرجال .

مما تقدم يبدو أن القول المكرر للمعاد ، والذي يجيء دائما في صيغة التوكيد بأن المرأة في الشعوب غير المتحضرة إن هي إلا دابة من دواب الحمل ، لا يصح الأخذ به إلا عند بعض الشعوب ؛ إذ عند كثير من الشعوب غير المتحضرة لا تلقى المرأة إلا التوقير والتكريم . والفكرة القديمة القائلة إن كلمة الانوثة عند الشعوب التي تعيش على الفطرة هي إحدى مترادفات الرق والعبودية هي فكرة لا تثبت للتحجيم والتحقيق .

مبارك إبراهيم

عن الانجليزية

شهرات

شهرية السياسة الدولية

من البحرية الأمريكية لأول مرة في تاريخها وتقوم بنوع من المظاهرات قريباً من اليونان وقريباً من الدردنيل ، كأنها تعلن أنها حاضرة إذا ما حاولت روسيا النيل من تركيا أو دفعت بلغاريا إلى النيل من اليونان . بل إن التعبير بالحرب الثالثة قد ذكر هنا وهناك على ألسنة رؤساء حكومات ومندوبين رسميين ، شهبوا ما يحدث الآن بما كان يحدث عند اجتماعات مونيخ العتيدة قبيل الحرب العالمية الثانية التي لا تكاد تقف رحاها .

كان العالم الدولي خلال الشهر المنقضى عالم قلق واضطراب . جلسات مؤتمر الصلح بباريس لا تخلو واحدة منها من اصطدام بين الكتلتين اللتين ظهرتتا فيه : كتلة الانجلو سكسونيين وكتلة الصقالبة ، حتى قال أحد المعقبين السياسيين الظرفاء إنه « مؤتمر للحرب » بدل أن يكون مؤتمراً للسلام ! واجتماعات مجلس الأمن بنيويورك تتجلى فيها كذلك مظاهر ذلك الخصام بين الكتلتين ، تتقدم روسيا بأستلثها المخرجة وتوجه أكرانيا انتهاماتها . وفي البحر المتوسط تتجمع وحدات

في مؤتمر الصلح

لجامعة الدول العربية أو لاحداها إذا فرضت عليها الوصاية .

وقد انتهى المؤتمر إلى إقرار تعديل النخوم الفرنسية الايتالية ، ولكن مشككة تريستا لا تزال قائمة ؛ إذ أن يوجوسلافيا قد أعلنت المؤتمر أنها لن توقع المعاهدة إلا إذا تقرر ضم تريستا ليوجوسلافيا بالذات بدل جعل منطقتها إقليمياً حراً .

وطرأت على مؤتمر الصلح مضاعفات كان أهمها اقتراح استمراره أو تأجيل أعماله نظراً لاقترب موعد انعقاد الجمعية العامة لهيئة الامم المتحدة . فقد كان هذا الموعد مقرراً في الثالث والعشرين من شهر سبتمبر ، وكان البطء الذي تسير به أعمال المؤتمر غير مؤذن قطعاً بانتهائه منها قبل هذا التاريخ . وأخيراً انجبه التفكير إلى إيثار المؤتمر على

اما مؤتمر الصلح فبعد أن أمضى وقتاً طويلاً في سبيل إقرار قواعد إجراءاته الخاصة بكثرة الأصوات التي تمكن من صحة قراراته بدأ أعماله بمناقشة حول الدول التي كانت قد طلبت الانضمام إليه على اعتبار أنها قد ساهمت في الحرب مساهمة على قدر ظروفها وملاساتها ، وكانت هي مصر وألبانيا وكوبا وإيران والعراق . وانهى إلى إقرار سماعها عند ما يعرض المؤتمر لمعاهدة من معاهدات الصلح تمس مصالح تلك الدول . وقد تقدمت كل من هذه الدول بملاحظات ، وكان أغلبها مطالبة بتعويض ، إلا مصر فكانت ملاحظاتها مطالبة بتعويض ومطالبة باسترداد جنوب وتعديل نخومها مع برقة ، وكذلك بتأييد أهل طرابلس في مطالبتهم بالاستقلال أو تحفظها بأن تكون الوصاية عليها

شهرية السياسة الدولية

هيئة الأمم المتحدة ، فتقرر تأجيل الجمعية العامة لهذه الهيئة شهراً واحداً إلى الثالث والعشرين من شهر أكتوبر ، على أن يتم مؤتمر الصالح أعماله قبل هذا التاريخ .

وقد تعهد وزراء خارجية الدول الخمس العظمى بالانتهاء من أعمال المؤتمر بحيث تنعقد الجمعية العامة في موعدها دون إبطاء .

في مجلس الأمن

أما في مجلس الأمن فقد فرضت عليه مطالب بعض الدول بالانضمام إلى هيئة الأمم المتحدة ، فتجلى إزاءها الخلاف بين الكتلتين . فرفضت روسيا الموافقة على قبول إيرلندا وشرق الأردن والبرتغال ، كما رفضت إنجلترا والولايات المتحدة الموافقة على قبول ألبانيا ومنغوليا اللتين كانت روسيا تؤيد طلبهما كل التأييد .

تم إطلاق الرفيق جروميكو مندوب الاتحاد السوفيتي قبلة إذ طالب مجلس الأمن أن يدعو أعضائه إلى الادلاء بأحصاءات عن عدد قواتهم العسكرية الباقية إلى الآن في أراضي دول لم تكن من دول الأعداء . وهو يقصد خاصة وجود القوات البريطانية في اليونان وفي أندونيسيا وفي مصر وفي العراق .

ويلوح أن الاجابة البريطانية على السؤال الروسي ستكون أن تلك القوات قد بقيت في تلك البلاد بناء على طلب حكومات بعضها ، وهي حكومة اليونان القائمة ، وحكومة هولندا ، وبناء على معاهدات تربط بين إنجلترا ومصر والعراق . على أن مندوب أوكرانيا قد تقدم بطلب اتهام إنجلترا بتدخلها في الادارة الداخلية لليونان تدخلا في ناحية فريق من الأهالي على ناحية فريق آخر ، وأنه يرى في هذا التدخل إخلالا بالأمن العام إذ ستقوم من جرائه حرب أهلية . وكل من موقف الولايات المتحدة موقف معارضة لنظر مجلس الأمن ذلك الاتهام ، لكن الأمر انتهى إلى إدراج الموضوع في جدول الأعمال ، وإلى الساعة التي نكتب فيها هذه الشهرية لاتزال المناقشة حادة حول هذا الموضوع .

الملكية والجمهورية

وبينما يجري الأمور على ذلك النحو في مجلس الأمن ، وفي مؤتمر الصلح من قبل ، تتم الانتخابات العامة في اليونان وفي بلغاريا ، وهي انتخابات استفتاء على شكل الحكم الذي تريده البلدان : ملكية أو جمهورية . وقد أسفرت انتخابات اليونان عن إعلان الملكية ، وأسفرت انتخابات بلغاريا عن إعلان الجمهورية . لكن يلوح من الاحصاءات التي أعلنت في البلدين ويلوح من التطورات الأولى لنتائج

الانتخابات أن بلغاريا راضية في مجموعها عما أسفر عنه الاستفتاء ، وأن اليونان غير راضية . وقد أعلن أن الحكومة البلغارية قد منحت الأسرة المالكة خمسة ملايين من الجنيهات تعويضاً عن الأملاك التي استولت عليها الدولة ، وهي الأملاك الملكية السابقة . وأما في اليونان فقد اغتيل زعيم الشيوعيين في أثينا يوم الانتخابات ، وقد اغتيل زعيم الملكيين بعد إعلان نتيجة الانتخابات بأيام .

مسألة المضائق

لا ترفض هي إعادة النظر فيه ، بل تقبل بحث أمره في حدود تلك المعاهدة أى بحضور جميع الموقعين عليها من الدول . وروسيا ترضى هذا البحث في حدود الدول الواقعة على شواطئ البحر الأسود وحده . لكن أغلب الظن أن الأمور لن تتعقد في هذا الصدد إلى حد عدم التغلب عليها والاحتفاظ بالسلام .

ولم تتم مسألة المضائق ، بل هي لا تزال شاغلة الأذهان في الميدان الدولى . وروسيا تطالب بإقامة قواعد لها مماثلة للقواعد البريطانية في منطقة قناة السويس . وتركيا ترفض هذا الطلب لأنها تعتبره اعتداء على سيادتها واستقلالها ، وتخندق عند اعتبار معاهدة مونترو المنظمة لكيان المضائق ، الذى

مشكلة فلسطين

النظر متباينة . فمستر أتلى يدعو إلى تساهل من جانب اليهود ومن جانب العرب . ووزير المستعمرات يعرض لمشروع التقسيم على أنه المشروع البريطانى ، والعرب يقولون إنهم لن يرضوا بمشروع التقسيم ولن يقبلوا قيام دولة يهودية في فلسطين . ولكن أمراً واحداً هو الذى لاح خلال الأفق مما قد يلوح معه شئ من وحدة الاتجاه ، وهو القول بأن المشكلة الفلسطينية لا يمكن حلها إلا حلاً دولياً شاملاً مشكلة اليهود كلها . ولدى الناحية العربية بعض اتجاهات إلى اعتبار المشكلة اليهودية مشكلة انسانية تعالج باشتراك العالم كله . فإذا فتحت الدول أبوابها أمام البؤساء من اليهود ، كل منها بنسبة مساحتها وعدد سكانها واستيعابها الاقتصادي والاجتماعي ، فإن الدول العربية مستعدة أن تساهم بحصتها ، دون دخل فلسطين ذاتها لأنها قد احتملت فوق نصيبها بكثير وكثير .

وفي العاشر من شهر سبتمبر انعقد في لندن مؤتمر المائدة المستديرة لبحث مشكلة فلسطين . وكانت الدول العربية لا تريد حضوره إذا حضره اليهود . لكن اليهود رفضوا حضوره أولاً . والحكومة الانجليزية ارتقت أن يكون للمؤتمر مؤتمرين : مؤتمراً بين الانجليز والعرب ، ومؤتمراً بين الانجليز واليهود ، بحيث لا يجتمع العرب واليهود .

وقد افتتح المؤتمر دون حضور عرب فلسطين أنفسهم الذين اشترطوا لحضورهم إبلاغ الدعوة إليه إلى سماحة الحاج أمين الحسينى رئيس لجنتهم العليا ، ولم ترض انجلترا بذلك . وقد ألقى فيه رئيس الوزارة البريطانية خطبة الافتتاح ورد السيد فارس الخورى رئيس الوفد السورى نيابة عن الوفود العربية جميعاً . وعقب بعد الخطبتين الافتتاحيتين وزير المستعمرات بمخاطب موضوعي . وقد تجلت خلال تلك الخطب جميعها وجهات

شهرة السينما

حول فيلم مدام كورى

كل ما يشبه الدطاوة من قريب أو بعيد ، ثم
هى تخشى أن يشوهوا فكرتها مهما حسنت
نياتهم .

« وقد توسط لى عندها أناس كرام ،
فاستقبلتنى .

« لن أنسى أبداً تلك للمقابلة الأولى .

« فهى ماثلة فى ذهنى بشوبها الأسود
كأنه موب تلميزة . ولقد ظلت مارى كورى
تلميزة ودارسة حتى آخر يوم من حياتها .
ولا زلت أذكر ملامح وجهها النحيل للعروق ،
وعينها اللتين أجهدهما الالتهاپ وما تنظران
من وراء منظارها الضخم الذى اتخذته أخيراً
لحمايتهما ، وشعرها الذى وخطه الشيب وقد
ربطته إلى الوراى فى غير تأتق ، فظهرت
جبهتها عالية مفكرة .

« قليل من الحركات ، صوت عذب
متحد النبرات يخرج منه حرف الرأى للنجوم
خشناً قلناً . أما حديثها فقد كان بطيئاً يبتعد
عن أية لهجة خطائية ، وتصبته بلون خاص
عباراتها المعارضة وإيجازها واستدراكها
لكى تصحح بعض هذه العبارات .

« كنت أسترسل فى الحديث لآ تأكد
من فهم مقاصدها فى القول . فكانت
تقول مثلاً :

« — لا تقل إن هذه المادة الثينة ذات
الخواص الاشعاعية قد أتت بالمعجزات ، بل
قل إنها تقوم بخدمات ، وخدمات عظيمة .

« كان تصحيحها للقول يرمى دائماً إلى
تخفيف العبارة ، ويرمى دائماً إلى التواضع عند

يعرض قريباً فى باريس لأول مرة فيلم
مدام كورى الذى شهدته مصر قبل سنتين .
وهو من إنتاج شركة متروجلدوين ماير
وتمثيل جرير جارسون وولتر بيدجون . ومما
يدعو إلى العجب أن هذا الفيلم لا يعرض فى
وطن مدام كورى إلا بعد عرضه فى أنحاء
العالم . وقد كتب مسيو جبريل رويار فى
جريدة « ليوند » مقالا عن هذه العالمة الفذة
يسوق إلينا فيه معلومات طريفة عن
شخصيتها وأخلاقها وطباعها . ومما جاء فى
مقاله قوله :

« لقد أعلن أنه سيعرض قريباً فيلم
أمريكى عن حياة بيير ومارى كورى مقتبس
من كتاب ابنتها إيڤ كورى .

« وسيقوم ولتر بيدجون بدور بيير كورى .
أما جرير جارسون فتتمثل شخصية مارى
كورى . وقد امتدحوا لنا مواهب هذه
اللمثلة وعدم تكلفها فى التمثيل . وإن إعادة
شخصية العالمة الشهيرة إلى مسرح الحياة لما
يتطلب الكثير من المواهب ومن الاعتدال
فى التعبير .

« إن أهم ما تمتاز به مارى كورى من
صفات هو أنها لا تظهر شيئاً من مميزاتها
وصفاتها . فالكثيرون يعملون للظهور ، أما
هى فقد كانت تبدل كل عنايتها لتتزوى إن
لم تستطع أن تختبئ تماماً .

« لقد أتيج لى مراراً شرف محادثتها .
لم تكن تميل إلى الصحفيين ، لأنها كانت تبتكره

شهرية السينما

ما يكون خاصاً بها وباكتشافاتها أو بما تقوم به من أعمال .

« وقد توسلت إلى قائلة :

« — أرجو بصفة خاصة ألا تتكلم عني .
« فعالم من الوسوس يحيط بها ويخجل
لم تغلب عليه قط ، حتى بعد أن بلغت
ذروة المجد ، يجعلها مرتبكة أمام غيرها من
الناس مهما كانوا أقل منها قدراً . فهي
تقول دائماً :

« — لقد خلقنا لكي نخدم .

« وهي تستعمل هذا الفعل « يخدم » في
معنى يبلغ أقصى التواضع ، ويبلغ أيضاً غاية
الجمال والنبيل ، فهي تعمل خادماً للإنسانية
بأجمعها وهذا ما كانت تريد .
« كانت تقول :

« — إننا شيء ضئيل . ومرورنا على
هذه الأرض قصير سريع . فلنجهتد أن نعمل
نليلاً من الخير .

« لم تكن لتفوه بكلمة عن نفسها . وكان
علينا أن نبذل مجهوداً لنجعلها ترضى أن تذكر
لنا لمحات متواضعة عن أعمالها . فالعمل الجليل
الذي كانت تواصله يوماً بعد يوم رغم المرض
والضعف المتزايد في السنوات الأخيرة ،
والمجهود الجبار الذي كانت تبذله لتصل به

إلى نهايته — كل ذلك كانت تمنع التحدث عنه
إلى الجمهور قائلة :

« — لا وما الفائدة ؟

« ومع ذلك كانت هذه السيدة العالمة
امرأة من رفق النساء ، تحب كل ما هو جدير
بالحب وتعبد الحياة .

« أذكر أنني رأيته في عطلة على شاطئ
البحر عند ساحل بريناتي الوحشي ، وكنت في
ذلك الوقت ضيقاً على جان بيران الذي كان جاراً
لأسرة كوري . كان جان في ردائه من
الحمل المخطط ، وقيصه من الصوف الأحمر
وقبعته الرمادية العريضة الجوانب ، يشبه
رسامي المناظر الطبيعية . كنا نجرى على
السهول في أحذية خفيفة أو نعتلي دراجة
لنأتي بمحاجتنا من الزاد . وفي ساعة الاستحمام
يخرج الناس آباء وأبناء وأصدقاء تتساقط
منهم المياه فينثرونها من حولهم وهم يتمازحون
ويتضاحكون من كل شيء ومن غير شيء
كأنهم تلاميذ يريدون أن يظهروا اغتباطهم
بأوقات الفراغ .

« إن تمثيل مثل هذه الشخصية الغدة
يحتاج إلى مجهود لاظهار هذه الألوان
المختلفة . وإنها لمهمة شاقة وجيلة تقع على
عاتق من تصور حياة ماري كوري . »

المهرجان الدولي للفيلم في كان

الدول المشتركة ؛ فمثل مصر الأستاذ
يوسف بك وهي . وهذه المناسبة أذاع
مكتب الأنباء والشر الفرنسي نشرة تحتوى
على أسماء الأفلام التي تعرض في هذا المهرجان
ومن بينها الأفلام التي قدمت من مصر .
وها نحن أولاء نتبها للقراء :

جاء في قانون المهرجان أنه يجب على البلاد
التي ترغب أن تشارك فيه ، إعلان رغبتها هذه .

كان المهرجان الدولي يقام دائماً قبل الحرب
في مدينة البندقية حيث كان يجتمع كبار رجال
الفن في العالم . وقد أدركت فرنسا ما يكون
من وراء هذا المهرجان من دعاوة للبلاد ،
وما يعود عليها وعلى صناعة السينما المحلية من
غائدة ، فبادرت بدعوة الدول إلى إقامته في
مدينة كان . واقتتح المهرجان في الأسبوع
الماضي بحضور مندوب عن كل دولة من

نهرية السينما

الولايات المتحدة

لم يتم للآن اشتراك الولايات المتحدة بصفة نهائية . ولكن نستطيع أن نعلن الأفلام الآتية :

أنا وملك سيام - موسيقا زرقاء - عطلة الأسبوع المفقودة .

بريطانيا العظمى

أفلام روائية :

الحجاب السابع - قلب القائد - قيصرو كليوباتره (بالألوان) - القوس السحرية (بالألوان) - مسألة حياة أو موت (بالألوان) - مقابلة قصيرة .

أفلام ثقافية :

عالم الرخاء - جزيرة قبرص - الفولاذ - حياة البصل الدورية - عيون أطفالكم - آلات الفرق الموسيقية - قطرة من الأثير - قيادة اليواخر - طريقتنا في المعيشة - الانسان - أسرة واحدة .

المكسيك

ماريا كاندلريا - الفرسان الثلاثة - الأراضى الملونة - زهرة دورانو - بطل بلا إكليل .

بولنده

الأغاني المتنوعة .

البرتغال

كاموينس - ثلاثة أيام بدون إله .

السويد

دماء ونار - وسواس .

بيل ابتداء المهرجان بشهر - أى فى ميماد أقصاه ٢٠ أغسطس - ولذا نستطيع الآن أن نعلن قائمة البلاد المشتركة بصفة نهائية :

الأرجنتين - بلجيكا - كندا - الدانمارك - مصر - الولايات المتحدة - فرنسا - بريطانيا العظمى - إيطاليا - المكسيك - النرويج - هولنده - بولنده - البرتغال - رومانيا - السويد - سويسرا - تشيكوسلوفاكيا - روسيا .

وقد أرسلت معظم هذه البلاد إلى السكرتارية العامة للمهرجان قائمة الأفلام التي اختارتها هي بنفسها مراعية في اختيارها أن يكون نصف الأفلام لم يسبق عرضه في العالم ، والنصف الآخر عرض لأول مرة . أثناء الاثني عشر شهراً التي تسبق افتتاح المهرجان . وما هي ذى أسماء الأفلام :

الأرجنتين

السيدة دولنده - فيلاريكا دل ساتو .

بلجيكا

رجال كالأخريين .

الدانمارك

يوم الغضب - المراعى الحمراء .

مصر

دنيا - للماضي المجهول - سيف الجلاد - ليلى بنت الفقراء - لعبة الست - هذا جناه أبى .

أفلام احتياطية :

شمعة تحترق - الحياة كفاح .

شهرية السينما

الأب الهادي ل رنيه كليمان ونويل نويل -
شبح لكريستيان چاك ، تمثيل لويس
چوفيه ، جابى مورلى ، فرانسوا بيريه
وتشيرينا .

أفلام قصيرة :

أوبرقيليه للوتار - أوبوسون للورسا - حطام
لكوستو - ألاعيب الأبطال لبانليقي -
التوء الشمسي - كيف تجلس لتكتب - طريق
س... - الناي السحري لجريمو - نزهة ريفية
لر نوار - الانسان لمجارييتيس .

*

وستمنح هيئة من الحكام تتكون من
مندوب عن كل دولة مشتركة في المهرجان
جوائز مختارة من لوحات الرسامين الآتية
أسمائهم :

أوجام - برتوم سانت أندريه - بريير -
كايار - كافايس - كليمان - سرفو - دورى -
چيزيل فراندييه - فرييز - موز - هامبلو -
كلين - ليستريل - ليموز - لورسا - س. -
مانيسار - ماركيه - فرنسيس مونتانيه -
بلانسون - كيزيه - بياورو - ساغان -
ساقرو - شور - تيريشكوقتش - دى
تاروكيه - وورمن - زندل .

تشيكوسلوفاكيا

الطالب الوديع - رجال بدون أجنحة .

روسيا

أفلام روائية :

الدورة الحاسمة - الزهرة الحجرية (بالألوان) -
سلام يا موسكو - أنياب بيضاء - جليثكا -
زويا - رقم ٢١٧ .

أفلام ثقافية :

برلين - مدينة النحل - العرض الرياضى
(بالألوان) .

ولا تعرض كندا والنرويج وهولنده
وسويسرا إلا أفلاما قصيرة . وقد اختارت
فرنسا لمهرجان كان الأفلام الآتية :

أفلام طويلة :

السفونية الريفية لجان دلانوا ، تمثيل ميشيل
مورجان - وبيير بلانشار -
الحسناء والوحش لجان كوكتو ، تمثيل
جان ماريه وجوزيت داي .
صراع القضبان ل رنيه كليمان .
وطن لويس دالكان ، تمثيل بيير بلانشار
وماريا موبان .

من وراء البحار

البحوث العلمية في فرنسا

وبلغ عدد الباحثين في سنة ١٩٤٦ ألفاً ومائة وأربعة وخمسين باحثاً بعد أن كان ستمائة وتسعة وسبعين باحثين .
وينقسم هذا المركز إلى أقسام علمية يتألف كل منها من ثمانية أو عشرة علماء حسب الاختصاص . وتدرس المسائل إما بواسطة هذه الأقسام وإما بواسطة علماء ليسوا تابعين للمركز . ويشرف على الأعمال ويؤلف بينها إدارة تتكون من خمسة عشرة عضواً . أما العمل التنفيذي فيقوم به المدير ومساعداه يعاونهما سكرتير عام .

وقد صدر مرسوم في ١٢ أغسطس سنة ١٩٤٥ يجعل هؤلاء الباحثين في مركز رجال التعليم العالي ، وهذا مما يزيد في مقدرة المركز على اختيار رجاله من نخبة العلماء .
وايس من المستطاع التوسع في بيان نشاط الأقسام المختلفة لهذا المركز ، ويكفي أن نذكر ما قام به من توسيع المعامل في بلبقي فقد أنشئت معامل جديدة للبحث في المواد الدهنية وفي الألوان وفي المواد بعد تعريضها لانخفاض الحرارة ، وغير ذلك من المعامل النافعة .

ويجمل في هذا المقام أن نذكر النشاط العلمي الهام الذي قام به المسيو قيار الأستاذ بالسوربون منذ سنة ١٩٤٠ حين أنشئت مصلحة لتسجيل النتائج العلمية تصدر نشرة تحليلية لهذه البحوث ، ولهذا النشرة صفة عامة ؛ فهي تبين للباحث ما نشر من بحوث في موضوعه مع ذكر خلاصة قصيرة ثم إنه يستطيع عن طريقها أن يحصل على

تروي نشرة الانباء الفرنسية أنه على أثر تحرير باريس أنشئ مراكز وطني للبحوث العلمية ، وعين مسيو جوليو كوري مديراً له فوضع برنامجاً لهذه المنشأة حتى تقوم بدورها الهام في نهضة البلاد . فكان برنامج العمل كما وضع في سنة ١٩٤٤ — ١٩٤٥ كما يأتي :

أولاً — السير بالأمور إلى الأحوال العادية واستئناف تنفيذ المشروعات التي سبق وضعها .
ثانياً — الاشتراك بأكبر جهد في المباحث العلمية الخاصة بالحرب .

ثالثاً — بعد الانتصار تسترد جميع المواد العلمية والصناعية في ألمانيا والنمسا ، والحصول على المعلومات عن البحوث العلمية في هذين البلدين .

رابعاً — بذل الجهود لزيادة عدد الباحثين والفنيين في المصالح الوزارية المختلفة .
خامساً — ربط هذا المركز العلمي بأقسام المباحث في الوزارات الأخرى .

وقد أخذ هذا المركز في العمل تحت إدارة مسيو جوليو منذ أكتوبر سنة ١٩٤٤ ووجد تأييداً من جميع الأوساط العلمية . ويمكن معرفة النتائج التي وصل إليها حتى الآن من النظر إلى بعض الأرقام :

فقد بلغت ميزانيته في السنوات الأخيرة ما يأتي :

سنة ١٩٤٤ : ١٤٠ مليوناً من الفرنكات
سنة ١٩٤٥ : ٣٠١ مليون من الفرنكات
سنة ١٩٤٦ : ٦٠٠ مليون من الفرنكات
(وهي الميزانية الأساسية فقط) .

نسخة فوتوغرافية كاملة أو على الميكروفيلم للبحث الذي يريده بقيمة زهيدة . وقد بدأت المصلحة تعرف في الخارج ، وتتصل بمثلها من المنشآت مثل اتصالها بمصلحة أسناب للميكروفيلم بلندن . ويستفيد بها العلماء والباحثون .

التقدم الاقتصادي في فرنسا

أسعار السكر والزبدة واللحم والفحم والغاز والنقل ، ولم تبقى غير الإعانات التي تمنح للخبز واللبن . أما إعانة الصلب فتلغى في يناير سنة ١٩٤٧ . وهكذا خفضت الإعانات من ٨٦ ملياراً إلى ٤١ ملياراً .

وقد عازمت الحكومة الفرنسية على ألا تسمح بزيادة أسعار الحاجيات إلا في ظروف استثنائية ، وأن تقضى بخفض الأسعار بمجرد زيادة الإنتاج . وتوقع الوزير في القريب العاجل أن تنخفض الأسعار ١٩٪ في أسعار الخردوات ومن ١٠ إلى ٦٥٪ في أسعار المنسوجات و ١٦٪ في أسعار الحرير الصناعي .

وفيما يتعلق بإنتاج المواد ذات المنفعة الاجتماعية أعلن الوزير أنه منذ شهر أكتوبر ستصدر السوق الفرنسية شهرياً ٣٠ ألف عربة للأطفال بسعر ٣ آلاف فرنك و ٩٤٠ طناً من أواني الألمنيوم - يكون الخمس منها بسعر ٤٥٢ فرنكاً و ٢٨٠٠ طن من أواني الصيني و ٢١ ألفاً من أدوات التدفئة ومليون و ٢٥٠ زوجاً من الأحذية يتراوح ثمنها بين ٥٠٠ و ٦٠٠ فرنك و ١٥٠ ألف بدلة للرجال ثمن الواحدة منها من المصنع يتراوح بين ١٩٥٠ و ٢٤٠٠ فرنك ، ومليون قيس يتراوح ثمنها بين ١٨٠ و ٣٢٠ فرنكاً .

ثم تكلم الوزير عن النظام الجديد الذي يفرض على المطاعم ، وسينقسم إلى أقسام ثلاثة : المطاعم التي لا يزيد سعرها عن ٤٥ فرنكاً . وهذه تمنح لها ميزات خاصة في الضرائب .

التي مسيو ماتتو وزير الاقتصاد الوطني الفرنسي أخيراً محاضرة على رجال الصحافة في باريس شرح فيها سياسة الحكومة الفرنسية فيما يتعلق بأسعار الحاجيات . ومما جاء فيها أن الحكومة تحارب التضخم وهبوط النقد وتعمل على تعادل الميزانية وزيادة الإنتاج ، وتؤيد خفض الأسعار كلما كان ذلك مستطاعاً . وهذه الوسائل تكون الزيادة في المرتبات التي منحها أخيراً ثابتة لاتهدرها زيادة الأسعار .

ويتحقق هذا البرنامج ذو الوجهات الثلاث ، أي الدفاع عن العملة والدفاع عن الأسعار وزيادة الأسعار ، باتباع سياسة دقيقة في الاقتصاد في الميزانية ، والرقابة الاقتصادية القوية ، والقضاء على الوسطاء الذين لا فائدة من ورائهم وإنقاص أرباح المنتفعين وزيادة إنتاج المواد ذات المنفعة الاجتماعية . ولا يمكن تثبيت الفرنك إلا بالاقتصاد في أعباء الميزانية . وقال الوزير إن زيادة أعباء الميزانية تؤدي دائماً إلى الالتجاء لاقتراضات من بنك فرنسا أي إخراج أوراق نقد إضافية ، وهذا يزيد في ارتفاع الأسعار . وخير أبواب الاقتصاد في الميزانية هو باب الإعانات التي لا تنطوي زيادة الضرائب ، أو إصدار قروض هي عنصر اضطراب في الحياة الاقتصادية لا يمكن أن يؤدي إلى خفض الأسعار ولا يمكن أن يزيد من مقدرة الفقراء على الشراء . لذلك رتب خفض باب الإعانات خفضاً كبيراً ، فألغيت الإعانات التي كانت تمنح لتثبيت

من وراء البحار

وللطاعم التي يتراوح فيها السعر بين ٤٥ فرنكا و ٢٥٠ فرنكا . وهذه تفرض عليها الضريبة العادية .
وللطاعم التي يزيد فيها السعر على ٢٥٠ فرنكا . وهذه تفرض عليها زيادة في الضريبة قدرها ٤٥ ٪ .

فنلندا بعد الهزيمة

ولذلك كانت الشروط التي فرضت عليهم في سبتمبر سنة ١٩٤٤ ثقيلة . ولكن فنلندا لم تتعرض للتحرير بواسطة قوات أجنبية كما حدث للبلاد المهزومة الأخرى ، ولذلك نجت من الاحتلال الأجنبي .

كانت شروط الهدنة أشد من شروط هدنة سنة ١٩٤٠ ، فقد خسرت ميناء بتسامو وهو ميناء لا يغطيه ثلج في الشتاء ، كما أنها خسرت مناجم النيكل الثمينة في الشمال ، ومع ذلك لم تتألم البلاد كما تألمت لقفد ديورج الحصن القديم القائم منذ القرون الوسطى ، وكاريليا التي تحتوى على ١٠ ٪ من الأراضي المزروعة بفنلندا وهي من أخصب أراضيها ، وخسرت فنلندا أيضاً أكثر من هذه النسبة من غاباتها ومن الصناعات الفنلندية ومن المياه المليئة بالأسماك . ثم إنها فقدت كثيراً من طرقها ووسائل انتقالها ، وخسرت مقاطعة بوركالا وهي من أخصب المقاطعات القريبة من العاصمة . ليست هذه شروط الهدنة جميعها ، بل هناك ما هو أثقل في التعويضات والمصانع وتسليم المواد مما أدى إلى تضخم في العملة وزاد في صعوبة حياة الفنلنديين . ومع ذلك فقد تلقت فنلندا شيئاً من المساعدة من بعض الدول لا سيما السويد وأمريكا اللتين منحتاهما قروضا .

ومن الغريب أن فنلندا تعمل على الوفاء بتعهداتها بالرغم من فداحة العبء ، فلقد نالت فنلندا شهرة في أمريكا في وقت من الأوقات لأنها كانت الدولة الوحيدة التي سددت ديونها

إن الدور الذي قامت به فنلندا في الحرب معروف لدى الناس ، ولكن قد يكون موقف أهلها غير معروف ، هذا ما تراه مجلة « العالم اليوم » في عدد أغسطس ؛ فقد قرر الفنلنديون أن يقاوموا مطالب الروس في سنة ١٩٣٩ ، وكانوا على ما يظهر على حق في ذلك . ولو أن العقل لا يؤيدهم . وعندئذ ضربوا مثلاً للعالم بأجسه ووجدوا عطفاً شاملاً ورضاً عن مسلكهم وعرفوا أنهم جديرون بهذا العطف ، ولذلك استغربوا عند ما رأوا العالم المتحضر أو أكثره يتحول عنهم ويلومهم على حربهم الثانية ، مع أنهم لا يرون في هذه الحرب إلا تنمة لنزاع قديم ومقاومة لطرائق في الحياة غريبة عنهم .

إن الفنلنديين قوم لا يتغيرون بسهولة ، والحياة في بلادهم صعبة بحيث لا تترك لهم فراغاً للنظر في أمور غيرهم من الشعوب . ولقد قاوموا الاضطهاد الروسي لعدة سنوات قبل سنة ١٩١٨ وهم يعتقدون أنهم لا يخطئون لذلك لم تؤثر فيهم محاكمة المستولين عن الحرب الثانية التأثير الذي كان يرجوه الحلفاء . ومما يدل على عدم قدرتهم على التطور أنهم لم يعرفوا كيف يستغلون الظروف السياسية الدقيقة في سنة ١٩٤١ كما استغلتها تركيا مثلاً . فهم لم يعملوا على البقاء خارج الحرب ، وكان ذلك في مقدورهم بعد صلح سنة ١٩٤٠ مع موسكو لو وجدوا سياسيين ذوي خبرة ، ولكنهم ضلّوا مع الألمان وخضعوا لنفوذهم وتلكأوا في الصلح مع ألمانيا .

من وراء البحار

وحالة الطعام سيئة جداً في المدن الكبيرة، ومن نستحيل المعيشة على المحصنات، ولذلك ترى السوق السوداء نشيطة جداً، ولكن هنالك أمل في تحسن الأحوال لا سيما بعد أن وعدت روسيا بإمداد فنلندا بعشرة آلاف طن من الحبوب، وهذه تكفي لدرء خطر المجاعة إلى بضعة شهور.

والحاجة إلى المساكن أسوأ من حالة الطعام، ففي مدينة آبو مثلاً قضت القوانين بأن يعطى لكل فرد في أسرة حجرة واحدة وما تبقى أعطى لأسر البهال والمهاجرين، وأسرا الأعزاب بأن يخلوا دورهم لسكنى الأسير. وزادت الأزمة تعقداً فقضى بأن تخصص غرفة لكل أسرة، وتشترك الأسر جميعها في المطبخ والحمام. فالحياة إذن مظلمة في فنلندا، ولا يشاهد تحسن فيها بعد نهاية الحرب. والأهل الوحيد هو في نشاط أهلها لو وجدوا نوعاً من الاستقرار والأمل.

قبل الحرب الأخيرة، وهي تطمح الآن إلى أن تكون الدولة التي تدفع التعويضات المفروضة عليها كاملة. ولذلك يرى أهلها يعملون أكثر مما يجب، ولا يخلدون إلى راحة بعد متاعب الحرب؛ لأنهم يرون أن مستقبلهم متعلق بالوفاء، فهم لا يسمحون لعمالهم بالاضراب مثلاً، بل يعملون على تسوية للمشاكل في أسرع وقت.

ولقد انحبط مستوى الحياة عندهم كثيراً.. والذين يشتغلون بالأعمال العقلية يجدون أنفسهم في ضنك شديد، فالأستاذ في الجامعة بفنلندا يتناول الآن أجراً قدره ٣٦٠ جنيه سنوياً يدفع نصفه على الأقل ضرائب. وإذا كان له لسوء حظه دخل إضافي آخر فإن الضرائب تبتلع راتبه. ومما يستحق الذكر أن راتب الأستاذ اليوم هو ما كان يتناوله عامل البريد في سنة ١٩١٤. أما العامل اليدوي في صناعات العاملين أو الغابات، فإن دخله يبلغ ٥٠٠ جنيه سنوياً.

ظـر حـدـيـثـا

نابليون تآليف إميل لودفيج ترجمة الاستاذ محمود إبراهيم الدسوقي (دار الكاتب المصري) مجلدات مجموع صفحاتها ٧٠٠ صفحة ، وترجمة أخرى للأستاذ عادل زعتر مجلد واحد (دار إحياء الكتب العربية — عيسى البابي الحلبي) مجموع صفحاته ٥٥٦ صفحة .

أحد لقاءه ولم يحمّد لقائي . كلفت أن أستقبله في بعض الأندية ، فطلبت إليه في صراحة لعلها لم تخل من العنف ألا يتعجل إنشاء كتابه ، وألا يسلك طريق جماعة من الكتاب الذين ينفقون في مصر أسابيع ثم ينشرون عنها كتاباً حظه من الخطأ يربي على حظه من الصواب . وكان طبيعياً ألا يقع هذا الكلام من نفس الكاتب الألماني الممتاز موقباً حسناً ، وكان طبيعياً أن نفترق إلى غير لقاء .

على أني بعد ذلك قرأت له كتابين رضيت عنهما كل ، الرضا ، وأعجبت بهما كل الإعجاب ، ووددت لو ترجما إلى اللغة العربية ليقراها أكبر عدد ممكن من أبناء الشرق العربي ، وهما كتابه عن بسمارك وكتابته عن نابليون . ولعل شخصية بسمارك ونابليون أن تكونا هما المؤثرين في نفسي . وأن يكون تأثيرهما أشد من تأثير لودفيج . ومع ذلك فقد كانت شخصية جوت خليفة أبي تحدث في نفسي مثل هذا الأثر ، وأن ترضيني عن هذه المجلدات الثلاثة التي تشتمل على الترجمة الفرنسية لكتاب لودفيج من جوت .

مهما يكن من شيء فقد أخذت أقرأ كتاب نابليون . ولم أكّد أمضي في قراءته شيئاً حتى استأثر بي ، ولم أدعه حتى أتممته على

فبين الترجمتين إذن فرق عظيم في عدد الصفحات يبلغ مائة ونصف مائة منها فيجب أن يكون أحدهما قد أضاف هذا المقدار الضخم إلى الكتاب من عند نفسه ، أو أن يكون الآخر قد حذف هذا العدد الضخم من الكتاب ليخفف حجمه ، ويجعل حمله ونقله يسيراً . ولكن هذه قصة أخرى ، يضحك لها من يشاء أن يضحك ، ويحزن لها من يشاء أن يحزن ، ويسخر منها من لا ينظر إلى الأشياء نظرة الجد ، ولا يرى لدقة الترجمة وحسن النقل والأمانة فيه خطراً .

ولست من المعجبين باميل لودفيج وفنه إعجاباً شديداً . ومصدر هذا في أكبر الظن أني لم أقرأ في نصه الألماني . ومصدر هذا في أكبر الظن كذلك أن بين خياله الألماني البعيد ، وتفكيره الألماني الملتوي ، وبين خيالي القاصر وعقلي العربي الذي يواجه الأشياء أكثر مما يدور حولها ، أمداً بعيداً . ومصدر هذا في أكبر الظن كذلك ، أني حاولت أول ما حاولت أن أعرف لودفيج من طريق كتابه عن حياة المسيح ، ومن طريق كتابه عن حياة جوت ، فلم أستطع أن أمضي في الكتابين إلا قليلاً . ومصدر هذا آخر الأمر أني لقيت لودفيج في القاهرة حين زار مصر متيهاً لا إنشاء كتابه عن النيل ، فلم

ملتهب أسماء هذه المواقع الحربية التي لا يمكن أن تنسى . ولكن كتاب لودفيج يظهرنا في سر شاق بعض الشيء ، إن أمكن أن يستنم هذا التعبير ، على نواحي أخرى من حياة نابليون : يظهرنا على المشرع الذي سلك بفرنسا هذه الطريق الرائعة في سبيل تجديد التشريع ، وعلى المسالم الذي أبلى في الحرر بلاء لا يعدله إلا بلاء الاسكندر وقيعر . ولكنه أحب السلم كما لم يحبها أحد ، وصور السلم في رسائله وأحاديثه ومذكراته كما لم يصورها أحد ، ودعا إلى السلم كما لم يدع إليها أحد . والمثالي الذي اشتق حياته هذه الهائلة من قراءة كتاب بلوتارك عن حياة عظماء الرجال صور لنفسه حياته هذه الهائلة تصويراً ، ثم اندفع إلى تحقيقها اندفاعاً فحقها كما أراد . خلق لنفسه نجماً واعتقد أن هذا النجم يهديه في هذه السبل للثوية التي دفعته إليها مغامراته ؛ وقد هداه هذا النجم بالفعل ؛ لأن هذا النجم لم يكن في حقيقة الأمر إلا هذه الإرادة القوية العنيفة للماضية القاهرة التي لا تعرف تردداً ولا تراخياً ولا استسلاماً .

ثم يظهرنا كتاب لودفيج على نابليون العاشق الذي يعذبه العشق ، واللاهى الذي يجعل اللهو بين موقعتين من مواقع الحرب ، والأديب الذي يذوق الأدب وينقده ، والذي يشجعه ويسخر منه ، والعالم بنفسية الشعوب وببنفسية الجيوش ، وببنفسية الأفراد على اختلاف طبقاتهم وهنالهم وحظوظهم من الثقافة والعلم ، ونصيبهم من استقامة الأخلاق واعوجاجها . ثم يظهرنا مع ذلك على ضعفه الانساني أمام هذا المظهر أو ذاك من مظاهر الغرور ، وعلى قوته الانسانية الهائلة التي كان ينفقها ، لينعم بهذا الضعف ويجد فيه ما يرضى حاجة نفسه الانسانية إلى الاستمتاع بأكاذيب الوهم وخداع الآمال .

يظهرنا لودفيج على هذا كله ، وعلى أكثر

طوله وعلى ما يحفل به من المشقة والجهد في تصوير الحوادث وعرض التاريخ واستقصاء العلل واستنباط النتائج . والواقع أن الجهد العنيف الذي يبذله القارئ حين ينتقل بين هذه الأجزاء التي سماها لودفيج جزيرة ، وسيلاً ، ونهراً ، وبحراً ، وصخرة — هذا الجهد يثير في النفس متاعاً عظيماً لكثرة ما يمكن من معايشة هذه الأحداث الكثيرة جداً ، المختلفة جداً ، التي أثرت أبعد الآثار وأعمقها في تاريخ العالم الحديث . فالأحداث التي صورها إميل لودفيج في كتابه تصويراً رائعاً دقيقاً تقع كلها في أقل من ربع قرن ، وكانت خليفة أن تقع في أكثر من قرن . ويكفي أن تعلم أنها أحداث الثورة الفرنسية ، وأحداث الامبراطورية وما استتبعت من أحداث في العالم المتحضر كله إذ ذاك . وقد وقعت هذه الأحداث في وقت قصير وفي أماكن محدودة من الأرض ، ولكن آثارها وأصداءها لم تلبث أن انتشرت وتجاوبت في أقطار الأرض كلها ، ولم تلبث أن تصحب الزمن وتساهل إلى الآن ، وليس من شك في أنها ستصحب الزمن وتساهل إلى آمام بعيدة في المستقبل أشد البعد . والذين لا يفرغون لدرس نابليون واستقصاء حياته العجيبة ، ويكتفون بما يعرف عنها المثقف العادي الذي يقنع بما يقرأ في مختصرات التاريخ وبما يسمع من الأساتذة في معاهد التعليم ، يحتفظون لأنفسهم من نابليون بصورة ناقصة أشد النقص ؛ فهو البطل العصامي الذي نجم من أسرة متواضعة في جزيرة كورسيكا ، ثم ملأ الدنيا وشغل الناس بانتصاراته في إيطاليا ، وبأقدامه على غزو مصر ، وبتكوين هذه الامبراطورية العظيمة التي أقرت النظام بعد الثورة في فرنسا ، والتي نشرت أصول الثورة في أوروبا ، والتي ثلت ما ثلت ، وأقامت ما أقامت . من العروش ، والتي كتبت في التاريخ بأحرف من نار دامية أو بأحرف من دم

جدا من هذا كله ، في هذا الكتاب الذي لم يخلص للتاريخ ، ولم يخلص للقصص ، وإنما كان مزاجاً منهما ، يرضى الحاجة إلى المعرفة كما يرضى الحاجة إلى السلاو والتخلص بين حين وحين من هموم الحياة الواقعة التي تفشى الناس حين يصبحون وحين يمسون .

ومن هنا لم أتردد في تشجيع صديقي الأستاذ محمود إبراهيم الدسوقي على نشر ترجمته لهذا الكتاب حين عرفت منه أنها قد تمت أو أوشكت أن تتم ، ففي إهداء هذا الكتاب إلى قراء العربية إظهار لهم على فصول رائعة من تاريخ العالم الحديث قليل منهم يستطيع أن يظهر عليها من طريق اللغات الأجنبية التي يحسنونها ، وأكثرهم لا يجد إليها سبيلاً .

والأستاذ محمود إبراهيم الدسوقي دقيق إلى أقصى غايات الدقة ، أمين إلى أبعد حدود الأمانة ، يكلف نفسه من ذلك ما يشق عليه وما يشق على الذين يعملون معه أعظم المشقة ، وينتهي به حرصه على الدقة والأمانة إلى الحرج والأحراج في كثير من الأحيان ، وهو من كتابنا القليلين جداً الذين يعضون أمامهم في الطريق التي رسموها لأنفسهم أو رسمتها لهم الحياة ، لا يحبون العوج ولا الذبذبة ولا الالتواء ، ولا يكرهون أن يبذلوا أعظم الجهد ويتحملوا أشد العناء في سبيل المحافظة على سلوك هذا الصراط المستقيم . وإتقانه للألمانية ، وعمقه لأسرارها واستقصاؤه لدقائقها أمور معروفة قد استقرت في نفوس المثقفين جميعاً . وهو قد ترجم آثار جوت ، فأرضى نفسه وأرضى قراءه سواء منهم من استطاع أن يقرأ جوت في لغته الألمانية ومن استطاع أن يقرأه في اللغات الأوربية الأخرى . فأقدمه على ترجمة هذا الكتاب العسير لا غرابة فيه ، لأنه تعود دائماً أن يواجه في الحياة كل عسير .

وهو لم يقدم على ترجمة هذا الكتاب إلا بعد أن استأذن المؤلف في هذه الترجمة ، وظفر بأذنه ، وحاول أن يستعينه على تفسير بعض نصوصه فلم يجد عنده طائلاً كما ينبئنا بذلك في مقدمته . ثم هو لم يكتف بمجهد الخاص ، وإنما تمتحن ترجمته بعد إتمامها ، فعارض بينها وبين الترجمة الإنجليزية والترجمة الفرنسية ، وخرج من هذه المعارضة ظافراً مطمئناً ، بل استكشف في هاتين الترجمتين ضرباً من النقص عرض علينا نماذج منها في كثير من التواضع والاستحياء . فن أيسر حقه على وعلى غيري من الذين لا يقرءون الألمانية أن نشكر له هذا الجهد الحصب ونهشته بهذا التوفيق العظيم ، وتنق عليه أن يترجم لنا كتاب لودفيج عن بشارك ، وأن يمضي في إظهار قراء العربية على روائع الأدب الألماني العظيم .

أما الترجمة الثانية لكتاب نابليون فلما مزيتان : الأولى أنها تقع في مجلد واحد فهي أخف حملاً وأيسر تناولاً ، للزيرة الثانية أنها رخيصة الثمن بالقياس إلى الترجمة الأولى . وما من شك في أن الأستاذ عادل زعير قد كلف نفسه مشقة عنيفة وبذل في عمله جهداً عظيماً ، وفي أنه خليق من أجل ذلك بأن نحمد له رغبته في الخير ، ومحاولته للنفع ، وتكلفه للمشقة والجهد في سبيل ذلك . والأستاذ نفسه ينبئنا بأنه لم يترجم الكتاب عن أصله الألماني ، وإنما استخلصه لنا من الترجمة الفرنسية والترجمة الإنجليزية والترجمة التركية . وأقول استخلصه ولا أقول ترجمه ، فالأستاذ ينبئنا بأنه لخص في كثير من المواطن ولم يترجم . وهو ليس في حاجة إلى أن ينبئنا بذلك ، فالأمر أوضح من أن يحتاج إلى أن ينبئنا به أو يدنا عليه . وقد قلت في أول هذا الحديث إن بين النصين العربيين فرقاً في عدد الصفحات يبلغ خمسين ومائة صفحة . وواضح جداً أن

وبعد ، فقد ينجح إلى أن الحياة العقلية في الشرق قد بلغت من الرقي حداً لا تسمح بالنقل عن التراجم حين يمكن النقل عن الأصل ، ولا تسمح بترجمة الكتب ونشرها والانتفاع منها دون استئذان مؤلفيها ، ولا تسمح بهذا التنافس المالى بين عمليتين أحدهما متقنة دقيق والآخرة بعيدة كل البعد عن الاتقان قد تعجله صاحبه واختطفه اختطافاً

الترجم المصري لم يزد على كتاب لودفيج خمسين ومائة صفحة من عند نفسه ، فيجب أن يكون المترجم الفلسطيني قد حذف من الكتاب رابعة أو أقل من رابعة قليلاً . ذلك إلى عيوب خطيرة أخرى في الترجمة تظهر من الموازنة بين النصوص ، وقد يعرض لها غيرى من الذين يجدون الوقت لمثل هذا الاستقصاء الذى لا يد منه .

طه حسين

كتب أربعة

يقظة العرب تأليف جورج انطون نيوس وترجمة على حيدر الركابى (مطبعة الترقى بدمشق) .

العرب تأليف الدكتور فيليب حتى وترجمته مع بعض للمعاونين (منشورات دار العلم للملايين) .

قضية فلسطين تأليف نجيب صدقة (منشورات دار الكتاب بيروت) .

هذه هي الأعزول تأليف عبد الله القصيمى (مطبعة مصر - القاهرة) .

أن يبلغ ، ومنهم من لا يزال في وسط الطريق أو في أوله ، ولكنهم على اختلاف سلمهم لا يزالون متجهين بأبصارهم وقلوبهم وعقولهم نحو تلك القبة التى تراءى لهم على مقربة أو على مبعدة ، فلا بد أن يبلغوا لأن معهم الايمان والصبر !

على أى دلالة تدل هذه الكتب الأربعة التى يخرجها كتابها لقراء العربية في وقت واحد على غير سابق ميعاد ، ليتحدثوا إليهم في موضوعاتها الأربعة ، أو في الموضوع الواحد الذى يدور حوله حديث المؤلفين الأربعة ؟

أليست هى الدلالة على أن الومى القومى في بلاد العربية قد بلغ مبلغه من القوة

كتب أربعة ، تدور كلها حول موضوع واحد ، وتصدر عن منزع واحد ، وترمى إلى هدف واحد ، وإن اختلفت مناهج مؤلفيها وأساليبهم في التفكير ووسائلهم في البيان وطريقتهم إلى الهدف .

كتب أربعة لمؤلفين أربعة لم يجتمعوا في دار ولا اظلمهم سقف ، ولعلمهم لم يلتقوا يوماً على ميعاد ولم يترأوا عينا لعين ، ولكنهم مع ذلك قد اجتمعوا على خاطر مشترك أو مضى في قلوبهم جميعاً في لحظة معا ، فتوجهوا بأبصارهم وقلوبهم وعقولهم إلى قبة تراءى لهم على مقربة أو على مبعدة ، فوضوا يفتدون السير إليها جميعاً أملين أن يبلغوها . وسلك كل منهم إلى غايته سبيلاً ، فمنهم من أوشك

والانتشار ، فعاد نبضا في كل قلب ، وخطرا في كل فكر ، وصورة محسة في مرأى كل ذى عينين ؟

بلى ! وإنه لحقيقة ماثلة ينبغي أن يحسب حساسها وتقدر مغباتها وعواقبها . . .

أما أولها وهو كتاب « يقظة العرب » فآلفه مؤلفه بالانجليزية منذ بضع سنين ليكون تعريفاً وافياً دقيقاً بالقضية العربية لكل قارئ بالانجليزية .

ومؤلفه المرحوم جورج أنطونيوس أديب من أبناء العربية كان له في الجهاد العربي سابقة وفضل ، وقد طاصر بعض مراحل النهضة العربية الحديثة وعرف كثيرا من دقائقها عن كثب ، وأتيحت له فرص لم تتح لغيره للاطلاع على كثير من الوثائق العربية والافرنجية التي تكشف اللثام عن بعض ما استتر من فصول هذه القضية . وقد أراد بكتابه هذا أن يخرج بالقضية العربية من نطاقها المحدود إلى نطاق دولي أوسع ليكسب لها التأييد من أحرار الفكر الذين يقدرون الحق بعيدا عن مؤثرات الهوى . وقد نجح فيما قصد إليه ؛ فكان محاميا طلق اللسان قوى الحجة بارع العرض لقضيته بين أصحاب الرأي من قراء الانجليزية في انجلترا وأمريكا وغيرها من البلاد .

على أن كتابه ذاك وإن كان القصد الأول منه تعريف الانجليز بقضية العرب والانتصار لهم والاستدلال على حقهم — لم يقتصر نفعه على هذا الوجه من أوجه الدعاوة ، فقد تضمن من المعلومات والأسرار ما لا يعرفه العرب أنفسهم عن القضية التي ينتصرون لها ؛ وفيه من وصف بعض الأحداث التاريخية القريبة أو البعيدة ما كان حقيقياً — لو لم يكشف عنه المؤلف — بأن يظل مجهولاً للعرب أنفسهم ، عامة وخاصة ؛ فهو كتاب للعلم

والتاريخ ، وهو بحث سياسي يتسلل بالمنطق الصحيح من المقدمات إلى نتائجها في أسلوب معتدل ليس فيه سفسطة أهل الجدل ولا اندفاع أهل السياسة ولا حماسة دعاة الوطنية . وهو بكل ذلك ، وبغير ذلك ، كتاب تمنى أن يقرأه كل قارئ بالانجليزية .

ومن أجل ذلك انجحت نية معربه إلى تعريبه ، ودعته إليه حكومة الجمهورية السورية ، فبلغه مبلغه في تجويد الترجمة والاداء ، وأخرجه للناس كتاباً عربياً مبنياً هذا هو كتاب « يقظة العرب » . . .

وأما الكتاب الثاني فهو كتاب « العرب : تاريخ موجز » لمؤلفه الدكتور فيليب حتى أستاذ آداب اللغات السامية ورئيس دائرة العلوم الشرعية بجامعة برنستون .

وليس الدكتور فيليب حتى من النكرات فتحدث عنه إلى القراء حين تتحدث عن كتابه هذا الذي ظهر حديثاً في أسلوبه العربي ، بعد أن قرأه قراؤه بالانجليزية منذ سنتين أو ثلاث ، وظهرت منه طبقات أربع ، منها طبعة خاصة بالقوات الأمريكية المحاربة .

وقد وضع الدكتور فيليب حتى قبل هذا الكتاب كتاباً آخر مطولاً بالانجليزية عن تاريخ العرب نشرته شركة مكلان ، لندن ، فلقى من الرواج ما حدا به طبعة جامعة برنستون أن تدعو مؤلفه لوضع هذا الموجز الذي تتحدث عنه اليوم ، فراج رواجه كذلك بالانجليزية ، وترجم في الأرجنتين إلى الإسبانية ، وشرع في ترجمته إلى البرتغالية ؛ ثم كانت هذه الترجمة العربية الذي استعان فيها المؤلف بطائفة من رفاقه الذين كانوا يساهمون معه في منهاج التدريس الخاص بالجيش الأمريكي في جامعة برنستون . وهم السادة شكري

خورى ، وقرحات زيادة ، وإبراهيم فريجي ، إلى غيرهم من رفاقه .

والكتاب نهج جديد في الحديث عن العرب على هامش تاريخهم ، وفيه فاتحة وتسعة عشر فصلا يتحدث فيها المؤلف عن العرب منذ بداوتهم الأولى إلى ما قبل الاسلام ، إلى مبعث محمد صلى الله عليه وسلم ، إلى أيام الخلافة والفتح ، إلى الحروب الصليبية وعصر المماليك ، إلى العصر الحديث ؛ يتخلل ذلك كله مباحث عن الاسلام ، والخلافة ، والحياة الثقافية والاجتماعية ، والعلوم والآداب ، والفنون الجميلة وغيرها مما لا بد أن يستدعيه المقام حين يراد التعريف بالعرب في ماضيهم وحاضرهم وأمجادهم الباقية وما ترمهم المذكورة ومثلهم العليا ؛ ليعرف من لم يكن يعرف أين مكانة العرب بين الأمم التي شادت بناء الحضارة ورفعت منار العلم . ويلى ذلك كله فهرس دقيق للأعلام والبلدان والطوائف التي وردت في صلب الكتاب مرتب على حروف للمعجم .

فهذا كذلك كتاب جاء في آوانه وخين الحاجة إليه ؛ وإنه لحقيق بمخاوة كل قارئ عربي . . .

ويتحدث الأستاذ محيب صدقة في الكتاب الثالث عن « قضية فلسطين » وهو كتاب لا يقل شأنًا عن الكتابين الأولين . وقد اقتتح بكلمتين قدم بهما إلى القراء ، أولاهما كلمة لعبد الرحمن عزام باشا ، والأخرى للسيد جمال الحسيني رئيس الحزب العربي ونائب رئيس اللجنة العربية العليا .

ويقع الكتاب في أكثر من ثمانين وثلاثمائة صفحة ، وقد قسمه المؤلف أقساما ثلاثة ، عرض في القسم الأول منها لتاريخ هذه القضية منذ بدأت الثورة العربية الكبرى في أثناء الحرب العالمية الماضية ، وما كان من وعود

الانجليز للهاشيمين ، ثم ما كان من وعودهم للصهيونيين ، وما تخلل ذلك من محادثات ومساومات ومعاهدات سرية وأخرى علنية ، ثم ما تلا ذلك من وصف الحالة بعد الانتداب والثورات العربية المتتابة والمحاولات الانجليزية المختلفة للتغريب بالعرب ، ومحاولات الصهيونيين للسيطرة والغلب .

ثم يتحدث في القسم الثاني عن الموقف السياسي الحاضر ، ويصف فيه ما كان من تقلب الأحوال بعد صدور الكتاب الأبيض في سنة ١٩٣٩ وما تلا ذلك من جزر ومد يتتابعان على اختلاف نشاط الهيئات العربية والصهيونية وحركات السياسة الدولية .

ثم أفرد القسم الثالث للوثائق والاحصائيات والمراجع والفهارس وللصورات الجغرافية التي تعين على تتبع مراحل القضية منذ ابتدائها حتى اليوم .

يعرض ذلك كله في أسلوب هادئ متزن فيه دفء الوطنية ، وسلامة المنطق ، ويقين الإيمان .

واليوم يجتمع المؤتمرون في لندن لبحث مشكلة فلسطين ، وهذا كتاب بالعربية يفصل مراحل هذه المشكلة منذ سولت لبريطانيا مطامعها أنها تستطيع أن تعقد صفقتين على سلعة لا تملكها ، لتقبض ثمنها بمرتين إحداها من المالك الاصيل . . . فهل ألفه مؤلفه في هذه المناسبة ليكون لونا من ألوان الدفاع أمام المحكمة التي توشك أن تنفض ونصف أعضائها خصوم للنصف الآخر ، أم ألفه ليكون مقدمة كبيرة للجهاد الكبير الذي يوشك أن تزحف جحافلها لاستخلاص الحق من مقتصيه ؟

إنه لذاك ولذلك ؛ فليت كل صهيوني في إنجلترا وفي أمريكا يتاح له أن يقرأه ليعرف بأي باطل يستمسك . وليت كل عربي في المشرق والمغرب يقرأه كذلك ليعرف عن أي حق يدافع !

الاتجاهية المشرية ووسائل الاكتساب المادية .
ويتضمن الكتاب فصولاً شتى يقدم لها
بصفحات يرفعها إلى مقام صاحب الجلالة الملك
عبد العزيز آل سعود ، ثم يتحدث فيما يلي عن
الايان بالانسان ، ثم عن الجهل والفضيلة ،
وتعليم المرأة ، والحجاب ، وخطأ الدعوة إلى
الزهد في الدنيا ، وضرورة التزود من علم
الحياة ، ومعنى القضاء والقدر والتوكل ،
والاسباب والمسببات ، والدعوة إلى الأمل في
المستقبل . فإذا كان الفصل الأخير يتحدث عن
« المشكلة التي لم تحل ! » وفي هذا الفصل
يرد كل للزائق الفكرية إلى « التدين
الباطل » . . .

يعالج كل ذلك في أسلوب مسهب ضافي
الذيول كثير الفضول ، إلى قوة إيمان بالفكرة
التي يدعو لها وحرص على أن يبلغ موضع
الاقناع في نفس قارئها من كل سبيل ،
بالإحاح والتكرار وبالأسلوب الخطابي ،
وبكل ما يملك أو ما لا يملك من الوسائل !
ولكنه على أي أحواله كتاب يستحق أن
يقرأ ، لأن فيه نفس صاحبه ، وإيمان هذه
النفس ، وقوة ذلك الإيمان ، ثم لأنه إلى
جانب كل ذلك برهان جديد على اليقظة المرية .
وأول بقظة الطفل صراخ !

محمد سعيد العربي

وهذا الكتاب الرابع « هذه هي الأغلال »
الذي يقول مؤلفه في صدره : « سيقول
مؤرخو الفكر : إنه هذا الكتاب قد بدأت
الأمم العربية تبصر طريق العقل . . . »
ويصفه بأنه « ثورة في فهم العقل والدين
والحياة . . . ودراسة عميقة للعوامل النفسية
والاعتقادية والتاريخية والخلقية التي قضت
بإحلال المسلمين — عربهم وعجمهم —
وذهابهم في طوفان الغرب الطاغى . . . ثم
كيف ينحسر عنهم هذا الطوفان . . . »
ولعل الكتاب كما وصف مؤلفه ، فليس
من شك أن في هذا الكتاب صورة تلهم
مؤرخ الحركة الفكرية في غد أن يقول إن
الأمم العربية قد بدأت تبصر طريق العقل ،
وليس من شك أن في الكتاب ثورة ودراسة
ومحاولات للعلاج !

ولكن ما هي هذه الأغلال التي يطلب
المؤلف إلى العرب والمسلمين أن يحطموها
لينهضوا وينحسر عنهم ذلك الطوفان ؟
ذلك هو السؤال الذي يستغرق الجواب
عنه ثلاثين وثلاثمائة صفحة هي مجموع صفحات
هذا الكتاب ، واثقلها غلا في أعناق المسلمين
والعرب ، وهو الجهل الاعتقادي أو سوء فهم
الدين ، وضعف الأقبال على الأعمال

مشكلة السلوك السيئ تأليف الدكتور صبرى جرجس (مطبعة المعارف) .

الأمراض العقلية بالعباسية فجمع الكثير منها
وتتبع أحوالها ، واهتم بالناحية السلوكية لمرضاها
قبل دخولهم للمستشفى ، واستطاع بهذا
تأييد فكرة النهج التكاملي الذي يدعو إلى
الجمع بين العوامل البيولوجية والنفسية
والاجتماعية لفهم السلوك الإنساني ، وظهر

قدم الدكتور صبرى جرجس هذا البحث
لنيل درجة الماجستير في الآداب من جامعة
قاهرة الأولى . والدكتور صبرى جرجس
طبيب تخرج في جامعة فؤاد الأول واختص
بالأمراض العقلية . ووجد المؤلف فرصة
الوقوف على حالات مرضية في مستشفى

ظهر حديثاً

الاستشفيات : « إن ش*** طبيب ، ولكن جانباً كبيراً من جهده ووقته منصرف إلى القول على زملائه واقتراء الأكاذيب عليهم ، سيان في ذلك أعداؤه « وأصدقاؤه » . وليس مما يعنيه ، أو يثنيه ، أن تفتضح أكاذيبه ؛ فان الذي يرى ابتسامته العائشة وهو يقابل صد زملائه وإعراضهم حيناً ، وسخريتهم وتحقيرهم أحياناً ، يرى الخلق السيكوباتي في لهوه غير المتبصر بالفاظ لا يستطيع أن يتحمل مدلولها ، واتجاهه الجامع إلى إرضاء نزعات فجّة وتحقيق كسب وهمي . » (ص ١٦٢)
ولهم هو أن تربط بين هذا السلوك الذي يبدو بسيطاً وعادياً وبين سلوك أكثر خطورة ينسب للشخص نفسه ويشير ضجة في المجتمع وحيرة .

ولعل بعض الناس يعتقد أن الوصف الذي قدمه لنا المؤلف عمل يمكن أي شخص أن يقوم به . ولا تظهر قيمة الاختبار والملاحظة إلا إذا وقف القارئ بامعان على الفصل الثالث وتبع جولات المؤلف في تحليل السلوك السيكوباتي واستغلاله لملاحظاته القيمة . وفي هذا الجزء من الكتاب تظهر براعة المؤلف كطبيب باحث يجمع بين المطالعة النظيرة والملاحظة الدقيقة . وتعتبر صفحات الوراثة أهم ما كتب في هذا الموضوع ، إذ نجد أحدث الأبحاث وأعمق الأفكار .

وذكر المؤلف مجلات مختصة كارجع إلى كتب مطولة . وأهم ما جاء في هذا الجزء هو مناقشة المؤلف لبعض النظريات الموضحة للوظائف النفسية لبعض الأعضاء مثل صلة الهيپوتلاموس بالانفعال (ص ١٩٤) .

وعرف المؤلف كيف يستغل منهج التكامل في دراسة الجيلة ، واستطاع أن يتبع مراحل النمو ويربط بينها وبين آثار الجنس من جهة وآثار المجتمع من جهة أخرى ؛ نراه يدرس المرحلة الرابعة وهي « مرحلة المعارضة

البحث مبتكراً في علم جديد بالنسبة لكل الدراسات المقررة في معاهد مصر العالية . ويعتبر كتاب « مشكلة السلوك السيكوباتي » أساس الأبحاث في علم النفس الطبي الاجتماعي . ويجب أن تنفطن إلى نقطة هامة في دراسة علم النفس . إن كانت بعض العلوم الوضعية التجريبية صالحة في كل مكان فان علم النفس الحديث يحاول أن يدرس الانسان في بيئته ؛ إذ ثبت أن للبيئة أثراً كبيراً في تكوين الشخصية .

ولذلك يعتبر الفصل الثاني من الكتاب ، وهو الجزء المخصص للمظاهر الاكلينيكية ، جزءاً هاماً بالنسبة لعلم النفس في مصر . لم يكتف المؤلف بعرض حالات مرضية ، ولكنه حاول أن يبحث في تاريخ الشخص الفردي وتاريخ الأسرة وحاول أن يصل الشخص بكل البيئات التي تؤثر في السلوك . ويمكن القارئ الاجنبي عن مصر أن يكون فكرة واضحة عن مشاكل المجتمع المصري . وتوجد حالات تبدو بسيطة في مظهرها ولكنها خطيرة في حقيقة الأمر ، ومن بين هذه الحالات الحالة الثالثة والرابعة .

استطاع المؤلف أن يقول كلمة صريحة عن السيكوباتية بين ذوي المهن العالية . ويلقى هذا الجزء ضوءاً على كثير من الاضطرابات التي تسرى في المجتمع من جراء مرض خفي يلعب في نفس شخص استطاع أن يخفي المرض على نفسه ويخفيه على الناس . وتكون النتيجة أن يصل أشخاص إلى مقامات عالية ويوجد تباين كبير بين مقدرة الشخص على العمل والتعب وبين المسئولية الخطيرة التي تحملها . وعلى ضوء هذا البحث العلمي يمكننا أن نفهم خطر التفاوت بين النفوس الصغيرة والراكر الكبيرة . وهكذا يجد القارئ تحليلاً دقيقاً لنفسية طبيب مريض غير شاعر بمرضه ، وهو عملاً منصباً هاماً في إخذى

ظهر حديثاً

المضادة للنظام التي تستغرق فترة المراهقة . هذه هي مرحلة ثورة الذات على القيود الاجتماعية ، وهي تحفل بصراعات جديدة ناتجة من اضطراب التوازن السيكويولوجي الذي يحدثه نشاط الغدد الجنسية ، ثم من القيود التي يقيمها المجتمع دون إشباع الفريضة العارفة . « (ص ٢٠٨)

ويظهر تعب الباحث في محاولته حصر كل آراء العلماء في التعليل والتعريف والتصنيف . وترددت أسماء أعلام علم النفس . وكل رأى مصحوب بشرح واضح ومناقشة علمية دقيقة .

ويصل القارئ بفكرة واضحة عن المرض ليخرج من الكتاب برأى عن الطريق العملي في التوجيه والعلاج . ويعتبر هذا الفصل خلاصة تلقى ضوءاً يوضح الصلة بين كل أجزاء الكتاب . ودراسة الأسباب والعلل والتطور تعتبر تمهيداً للتوجيه والعلاج . إذ يكفي أن يعرف السيكوباتي نفسه ليغير سلوكه . فالشخص يأنف من الاعمال الآلية المفروضة عليه فرضاً . فالشخص الذي يجسد وصفاً دقيقاً

لسلوكه ويعلم أنه أصبح معروفاً لدى كل الناس فإنه يقلع عنه ويتعد عن كل ما يتعلق به . ولهذا لعب التمثيل الفرنسي في القرن السابع عشر دوراً هاماً في محاربة السيكوباتية . والفضل في ذلك يرجع إلى الأديب موليير Molière الذي استطاع أن يدرك الشذوذ في السلوك ويقدم نماذج مضحكة منه على المسرح . وزيادة على هذه الافادة بطريق التعريف والتصنيف حاول الدكتور صبرى جرجس أن يضع أساساً جديداً للعلاج قائماً على المنهج التكاملي : « الهدف الذي يقصده المنهج التكاملي إليه هو أن يجعل من المهنة الطبية أداة وقائية اجتماعية لا أداة علاجية فردية ، لأنه يجعل مثله الأعلى تدير الصحة لخدمة للمرض . » (ص ٢٧٩)

وإذ تبين أن السلوك السيكوباتي يرجع إلى التفكير الناشئ عن اضطراب عوامل الشخصية ، فإن الغاية الصحيحة في الطب هي أن نحاول إيجاد الظروف الملائمة لتكون هذه العوامل متكاملة ، ولتضمن بذلك تكامل الشخصية وسلامتها .

أبو مدين الشافعي

في مجلات الشرق

حقيقة الأمة

« النور » الذي يملأ نفوس أبنائها ويحذرهم إلى النضال . . . وما من سبيل لمعرفة ذلك النور إلا عند الشعراء . . .

« الشاعر يحدث القلوب عن القلوب ، وينقل ما في نفسه إلى نفوس الناس ، ويكاد يكون الوحيد الذي يحيا الحياة بعمق وعنف بينما أكثر الناس من حوله يعيشون على هامش الوجود . . . »

ثم يذكر الكاتب أنه تقل معنى البيت الآتي من الشعر لأحد الأساتذة الفرنسيين وهو :
وإنا لمن قوم كأنت نفوسهم
بها أنف أن تسكن اللحم والمظا !
فقال صاحبه الفرنسي — وكانا يخوضان في حديث « للمفاخر » عند الشعوب :

« لو اطلعت على هذا البيت ولم أعرف جاسية قائله لذهب بي الحدس إلى أنه عربي ، فإن يتأ هذا لا يقوله إلا عربي ! »

ويتهي الكاتب بعد مقدمات منطقية متسلسلة إلى أن بريطانيا أمة « شاعرة » وأن الانجليز شعب « روي » من الطراز الأول . . . وإن كانوا . . . وكانوا . . .

في مقال بعنوان « بريطانيا في دنيا الشعر » في مجلة « الأدب » بقلم الأستاذ عبد اللطيف شرارة ، يسأل :

« أين تكن حقيقة الأمة ؟ »

« وكيف نكتشفها ؟ »

ثم يحاول أن يجيب ، فيقول :

« لقد كانت ألمانيا قبل الحرب الأخيرة تعطي العالم عن نفسها صورة يخيل بها للرأي أن ألمانيا أقوى الأمم وأرقاها وأعظمها ، فلن تنبت الأرض بعدها جيلا من الناس يضاهيها في القوة والرفعة والعظمة . . . وما هي إلا أن جاءت التجربة ، فإذا الحقيقة شيء غير الجيش والعامل والجامعات والفلسفة . . . »
ثم يعض في ترتيب المقدمات إلى النتيجة التي يقصد إلها ، فيقول :

« فكما أن حقيقة الإنسان لا تكن في كثرة ماله ، ولا في شدة عضلاته ، ولا في وفرة خدمه وأتباعه ، ولا في ذرابة لسانه ، ولا في أناقة لباسه ، بل في شيء مستقر في الروح متعدد بها — فإن حقيقة الأمة أيضاً لا تكون في الأساطيل والجيش والأسلحة وكثرة الخطباء والفلاسفة ، وإنما هي في

الفكر والسياسة

معناها أن يستأثر فرد — أو طبقة — بالحكم في الشعوب ، والبحث بأقدار الأمم وفرض السيطرة والرهبة على الناس ، سواء أ جاء هذا الاستئثار من طريق الوراثة ، أم

وفي مقال بعنوان « أنت مفكر . . . » إذن فأنت سياسي » في مجلة « عالم النقد » البغدادية ، بقلم الأستاذ حسين مروة ، يقول :

« كان للسياسة قبل اليوم معنى ، وكان

في مجلات الشرق

الحياة منذ الثورة الفرنسية الكبرى، تحمل
للأمم والشعوب في كل بقاع الأرض «لائحة»
حقوق الإنسان»

ثم يمضي الكاتب في بحثه حتى ينتهي إلى
الحقيقة التي يريد أن يقررها، وهي أن السياسة
لم تعد منذ اليوم وراثة ولا استثناء بالحكم
ولا تميزاً بالقوة أو بالحيلة، ولا تملك بالجماع
« بل أصبح معنى السياسة أن يملك الفرد،
— أي كان الفرد — قدراً من التفكير
والثقافة يستطيع أن ينفذه إلى الحدود
الواضحة لكل مذهب من المذاهب الكبرى »
في العلم والأدب والسياسة والاجتماع
والاقتصاد .

« وبذلك يكون كل مفكر، وكل مثقف
سياسياً، وإن وضعوا الف حجاب بينه وبين
السياسة : »

من طريق القوة والحيلة، أم من طريق
الغدر والخديعة . وكان السياسي الناجح
— يومذاك — هو من يرث سلطانه أكبر،
أو من يملك وسائل لبطش أقوى وأقصد،
أو من يستطيع انتهاز الفرص للوقعة والخديعة .
وكانت الشعوب يومئذ شراذم من الناس
تسير كقطعان الماشية، لا تعرف من السياسة
إلا هذا السوط يلهب ظهرها من وراء
يستحها على السير وهي خافضة الرأس لا تعرف
إلى أية غاية تسير

« كان للسياسة معناها ذاك، فلم يكن يصح
لأحد من الناس أن يفكر بالسياسة
أو يتحدث فيها يخوض فيه رجال السياسة . . .
أما اليوم فقد انقلبت معاني الأشياء كلها
انقلاباً لا محيص للأذهان عن أن تنقاد فيه
قسراً أو طواعية . . . لأن ربحاً هبت على

مخلفات عباسية

م ماذا ؟

ثم هذا كاتب عراقي، تنتفض في فكره
ذكريات الماضي لمناسبة بحث قرأه في مجلة
« الكتاب » المصرية عنوانه « السيف في
الشرق الأدنى » فإذا هو يكتب مقالاً لمجلة
« البيان » التي تصدر في النجف، عنوانه
« أدوات المستعصم العباسي » يحاول فيه أن
يحقق آخر تاريخ بني العباس، فيصفه
— مستنداً إلى وثائقه — كيف كانت آخرة
أبناء أبي أحمد المستعصم بالله، وكيف نجح من
الهلكة ولده أبو المناقب مبارك، وعاش حتى
أنجب، ثم كان من ولده أمراء تولوا الحكم
في بعض الإمارات في شمال العراق يتوارثونها
خلفاً عن سلف حتى سنة ١٢٥٩ من الهجرة
— أي منذ قرن واحد — حينئذ انتقل من
بقي من سلالة بني العباس إلى بغداد فاتخذوها

في سنة ٦٥٦ من الهجرة سقطت بغداد في
يد هولاكو، وصرع آخر الخلفاء العباسيين
في بغداد أبو أحمد المستعصم بالله، وانقطعت
الخلافة العباسية فترة حتى أعادها الظاهر
بيبرس البندقداري في القاهرة وبايع بها
بعض ولد المستنصر بالله، ثم بقيت فيه وفي
ولده من بعده حتى سقطت مصر في يد العثمانيين
سنة ٩٢٢ من الهجرة، فكان ذلك أذاناً
بانهاء الخلافة العباسية وانقراض بني العباس
ابن عبد المطلب الهاشمي وانفجارهم في اللجة، فلم
يسمع لهم خبر بعد ذلك ولم تقم لدولتهم قائمة،
وغاب آخر تاريخ العباسيين في عمرة الحوادث
للمتابعة، ونسى أبناؤهم وحفدهم ما كان عليه
آباؤهم على توالي القرون وعادوا ناساً من
الناس، آباؤهم وجر النسيان أذياله على الماضي
الزاهر بالأجداد والمفاخر

في مجلات الشرق

وشهود ثقات ، قد احتفل له كاتبه احتفال المحامي عن حسبه ونسبه وأجداد آبائه !
ويعد الكاتب في آخر مقال له بأن ينشر كثيراً من المعلومات التفصيلية في كتاب قد فرغ من تأليفه في تاريخ أسرته العباسية ، مع تصاوير الأدوات والمخلفات وبعض فرمانات التي أقطعتهم بمقتضاها الحكومة التركية قري وأملا كما زالوا يتقاضون غلتها حتى اليوم !

وطنا ، يعيشون كما يعيش سائر الناس ؛ وليس في يدهم من أجداد الماضي إلا ذكريات ، وبعض مخلفات ملوكية ؛ ثم لا يزال حفدتهم يقيمون في العراق حتى اليوم ، ومنهم كاتب هذا المقال ، السيد خضر العباسي ، حفيد للمرحوم أحمد بك العباسي ، ابن الأمير اسماعيل باشا العباسي ، آخر بني العباس في الملك والامارة . . .
بحث طريف يستند إلى إيمان ، وبرهان ،

رمضان في النجف

بالحرم العلوي المقدس ، ثم عن القبر الطاهر وأدعية الناس عنده ، إلى غير ذلك بما قد يعني كثيراً من المسلمين في بقاع الأرض المختلفة أن يعرفوه عن « النجف » وأهلها وما تعودوه من عادات وما ورثوه من تقاليد .

مقال ممتع في مجلة « القادسية » التي تصدر في « النجف » يصف فيه كاتبه الشيخ أحمد الحساني كيف يحتفل أهل النجف بشهر رمضان ، فيتحدث فيه عن وفرة المواد الغذائية والحلويات ، وعن المجالس الأدبية ، وتلاوة القرآن ، واجتثاث النجفيين في رمضان

الدراسة في النجف

وبعدها عن ضوضاء المدينة الحديثة ، جعل منها مدينة أشبه بمدرسة جامعة واحدة لها منهجها الخاص بها ، هو خلاصة القديم الذي عرفت به من عهدها السابق ، وخيار الجديد الذي جاء به هذا العصر ؛ فهي لم تزال ولا تزال تواصل الحركة الفكرية والأدبية ، وتطالع ما تطالع به المطابع في أنحاء المعنورة من كتب حديثة وآراء جديدة ؛ فكتباتها الكثيرة زاخرة بكل قديم قيم وكل جديد جيد .

ثم يهيب الكاتب بأهل النجف أن يصلوا بين ماضيهم في العلم وحاضرهم ، وأن يتخفروا لأداء رسالتهم ، وأن ينهضوا ليحققوا بقاولة الأمم السائرة ، ويواكبوا مواكب العصر الجديد .

وفي مدينة النجف أكثر مما في أي بلد من بلاد العراق نشاط علمي ملحوظ ؛ فليست موطن « الحرم العلوي » فحسب ، ولكنها إلى ذلك مركز من مراكز الثقافة منذ بعيد ، فلا زالت أقوال أدبائها ومباحث أهل العلم فيها تدور على الألسنة ويتناقلها الرواة وينتفع بها كثير من العلماء في كثير من الأقطار .

وفي مجلة « الاعتدال » النجفية مقال بعنوان « الدراسة في النجف » يتحدث فيه كاتبه عن ماضي النجف في العلم وعن حاضرها . ثم يقول :

« النجف مدينة تختلف عن سائر المدن العربية والإسلامية ، فارتفاع أرضها ، وجفاف مناخها ، وقربها من البادية ،

في مجلات الشرق

أنا عربي !

وفي المجلة نفسها للأستاذ الصافي شاعر النجف ، قرأت هذه الأبيات :

تسائي هندي عن نسبي	قلت : إلى المصدق الفاضل
أنا عربي . . وحسي بذا	جواباً يعظمه سائي
وإن رمت يا هند شرحاً لما	أشرت له . من علا شامل
فأبائي الصيد من هاشم	وأخوالي الفخر من عامل
أوجد سورية بالعراق	وأجمع لبنان في بابل
ولي في فلسطين ماضي علا	وأمال مستقبل حافل
ولي نسب جال في الكائنات	ومن عامل سار في عاهل
تولد قدما بأرض الحجاز	وحل حمزة الساحل
وألقي عصاه بأرض العراق	ومنبت كل فتي باسل
سيبقى بطوف إلى أن يقيم	على ذروة الوطن الكامل !

النشاط العلمي في الشرق

وفي مجلة « الثريا » التونسية مقال للأستاذ مصطفى زيس بعنوان « حركة التأليف والنشر في الشرق » يوازن فيه بين النشاط العلمي بالشرق قبل الحرب وفي أثنائها ، وينوه بكثرة ما أنتج الأدباء وأهل البحث من المشاركة في السنوات الأخيرة ، ويخص مصر بفضل من الثنوية ؛ ثم يأخذ في سرد ما رآه من مظاهر النشاط ، فيحدث عن ذبوع « كتب السلاسل الدورية » كسلسلة « العلم للملايين » التي تصدر في بيروت ، وسلسلة « اقرأ » التي تصدرها دار المعارف بالقاهرة ، وسلسلة « أعلام الإسلام » وغيرها ، ثم يتحدث عما يراه من زهد حملة الأقلام في ترجمة مؤلفات الأجانب .

خصوصاً الفنية منها ، وجنوحهم إلى الابتكار أو الانشاء في موضوعات لم يكن يحظر على البال أن يطرقها — اليوم — كتاب العربية . ثم يصف نشاط دور النشر الكبرى في القاهرة وغيرها في إحياء الكتب العربية القديمة . . . إلى غير ذلك مما عد من أوجه النشاط . حتى إذا فرغ من تعدادها نوه بطائفة من الكتب التي أخرجتها المطبعة العربية في الفترة الأخيرة أو أنشأها المؤلفون العرب ؛ وينتظم بحثه بعد ذلك بذكر ثبت لما ظهر من سلسلة « أعلام الإسلام » حتى فبراير الماضي . . . وهو مقال فيه تتبع واستقصاء جديران بالثنوية .

كفر بعد إيمان

وفي مجلة « الحديث » التي تصدر في حلب مقال للمحرر بعنوان « إيمان الشرق بالغرب » يقول فيه :

« كان الشرق منذ مطلع القرن التاسع عشر ، يؤمن إيماناً قوياً بأوروبا : يؤمن بمحضارتها وقيمتها وعلمها ، وكان يراها صورة

في مجلات الشرق

«وانتهت الحرب الثانية . . . وأخذ العالم ينتظر الفترة التي تقرر فيها الحقوق ، ولكن جميع الاتجاهات دلت على أن الأقوال التي يفوه بها الناس هي غير ما هو مسطر في ضمير المطامع . . .»

وبعد أن وصف الكاتب موقف أمريكا والرئيس ترومان من قضية العرب والصهيونية وكيف انقلبت أمريكا تحت ضغط الصهيونية إلى جلال مخيف بعد أن كانت في نظر العرب رسول السلام والخير إلى الناس — قال :

«إن الإيمان بالوثنية لون من ضعف المؤمن . وقد آمن الشرق بعدالة أوروبا ، وآمن مرة ثانية بعدالة أمريكا ، ولكن الحقائق المجردة زعزعت من قسسه هذا الإيمان الوثني ، وهو يرتد اليوم إلى أعماق ذاته ينشد إيماناً جديداً .

« فلي الشرق لكي يتحرر من العبوديات أن يؤمن بفلسفة الواقع . . . فلسفة القوة . علينا كي نميش أحراراً أن تهج نهج الغرب في علمه وقته وحياته ، وأن تقتبس من أمريكا كل وسائلها للمادية ، على أن نمود في مثالياتنا إلى أعماق ذاتنا . لنأخذ من الغرب ماديته ، على أن نحفظ بمثلنا الروحية لستطيع الحياة ! »

مثالية للقيم الروحية . وعلى ضوء هذه العقيدة أخذ الشرقيون يتجهون نحو الغرب ويميلون جهمهم للتطبع بالطابع الغربي واقتباس كل مألوف أوربا من مظاهر وأخلاق وعادات ، حتى كادت تنصهر جميع خصائص الشرق مع الأيام في بوتقة الغرب .

« وجاءت الحرب العالمية الأولى وبدأ الصراع الدامي للكفاح في سبيل حرية الشعوب ، وعلقت الأمم الصغيرة آمالها بعدالة الغرب . بل آمنت بها إيماناً راسخاً . . . وانتظرت أن تنتهي الحرب ، وقد انتهت ووضعت أوزارها . . . وأخذ المؤمنون ينتظرون ثمرة الحرب ، فماذا حدث ؟ لقد أفصحت الأمم الغالبة عن نياتها ، وإذا هي تريد أن تبتلع الشرق وأن تستشر خيراته . . . وهكذا ظهرت أوربا بوجهها السافر وعرف الشرق حقيقةها . . .

« ومرت فترة ما بين الحربين ، واتجه الشرق إلى أمريكا . . . لقد أصبحت أوربا في نظره بادية جشعة ، لا تعرف معنى العدالة ولا الحرية ولا الرحمة . أما أمريكا — وهي التي انتصرت للحرية في الحرب الماضية — فهي القارة المثالية التي تتحقق عندها كل القيم الروحية . . .

أدب التصدير

« ليس غريباً على أدباء الحجاز أن يجودوا بالشعر والنثر . وقد قرب العلم الأبداد . . . فكأن مصر والحجاز وطن واحد من الناحية الجغرافية ، ولا تفاني إذا قلنا إن المطابع والأذاعة والمواصلات السريعة قضت على الحدود الإقليمية وجمت المسافات . » وأدباء الحجاز لا يتشبهون اللغات الأجنبية فلا تزحم مراقبتهم العربية : فهم

لا تزال مجلة « للنهل » التي تصدر في مكة المكرمة توالي نشر ما يرد إليها من إجابات الأدباء عن الاستفتاء الذي دعت إليه أدباء الحجاز تسألهم : « هل يصلح أدب الحجاز للتصدير » .

وفي العدد الثامن من المجلد السادس إجابات ثلاث . تقتبس منها بعض رأي الأستاذ عبد النفور عطار ، يقول :

في مجلات الشرق

مضطرون إلى القراءة والدراسة ، ولا تنفس لهم غير الأدب المصري على الأخص والأدب العربي على العموم يلتهمونها التهاما ، وأصبحوا يعرفون عن أدباء مصر أكثر مما يعرف المصريون أنفسهم عنهم ؛ لأن هؤلاء تتوزع أوقاتهم ثقافات الأمم الأخرى . . .

« وليس أدباء الحجار طلاب تسلية يريدون تزجية الفراغ ، وإنما هم عشاق مضطرون إلى القراءة والدراسة ، ولا تنفس لهم غير الأدب المصري على الأخص والأدب العربي على العموم يلتهمونها التهاما ، وأصبحوا يعرفون عن أدباء مصر أكثر مما يعرف المصريون أنفسهم عنهم ؛ لأن هؤلاء تتوزع أوقاتهم ثقافات الأمم الأخرى . . .

فن . . . وهم أحرار الفكر يمتازون بالسباحة الطيبة ورجاحة العقل وسلامة النية ونبل الضمير . . .

« ولعل الفراغ الذي لديهم أتاح لهم الدراسة والتحصيل والتعمق وقراءة كل ما تقدمه للطبعة العربية ، حتى أطاعهم القلم فكتبوا ونظروا ثم أجادوا فيما يكتبون وينظمون » .

في مجلات الغرب

من باريس

الحديث» (١) ويلخص الناقد موقف العالم الاسلامي بعد الفتح العربي كما يراه المؤلف حين يقول: «إنه لم يتجاوز الحدود الجغرافية واللغوية، وإنما قيد نفسه بها»، وحل بواذر نهضة تريد أن تتحقق سياسياً، لأن الاسلام في رأى الفونس أجونى «نظام للحياة أكثر من المسيحية» ولكي يبلغ تلك الغاية لا بد له أن يتفاهم مع الأمم الأوربية والفاتيكان والبعثات المختلفة والهيئات المحتكرة للتجارة والحركة الشيوعية الدولية. ثم ينتقل المؤلف إلى مشكلات العلاقات بين فرنسا والعرب. وفي نقد هذا الباب من أبواب الكتاب يرجو إميل دوپوى أن تتخطى فرنسا «فيما بينها وبين أهالي مستعمراتها عن سياسة قد تكون أحياناً حليمة في وداعة تشبه عدم المبالاة وأحياناً قاسية في استبداد يدعو إلى الأسف». ويسائل المؤلف في ختام بحثه: «أستطيع الاسلام أن يحقق غايته وأن يسير جازماً في طريق التوفيق بينه وبين مقتضيات الحياة الحديثة، أم يظل في طريقه التقليدية مثلاً مستبقياً على الأرض حضارة القرون الوسطى؟»

أما الكتاب الثانى وعنوانه «تاريخ إفريقيا الشمالية» (٢) فيتجه إلى العناية بالجمهور. ويرى إميل دوپوى أنه لم ينجح لاشتماله على أغلاط جغرافية وتاريخية، وقصوره عن تصوير

قد يراع القارئ من كثرة المجلات التى تنشر في فرنسا. ولكنها لحسن الحظ كثرة لا تخيف الذين يريدون أن يعطوا عنها فكرة شاملة، فهي على قيمتها متفاوتة في حظها من الجودة. ولن أذكر في هذا الحديث إلا أشهرها. فلأبدأ بما كان منها قائماً قبل الحرب. وظل قائماً حتى الآن.

مجلة «أوروبا» Europe. أنشأها سنة ١٩٢٣ جماعة من الكتاب كانوا يعملون مع الكاتب العظيم، رومان رولان Romain Rolland ولجنة تحريرها مؤلفة من كتاب بارزين يعرف القارئ منهم أسماء: أراجون Aragon، كلود أفيلين Claude Aveline، بول إيلوارد Paul Eluard، فركور Vercors، ورئيس تحريرها جان كاسو Jean Cassou. وتقرأ في عددها الأخير (أول سبتمبر) قصة تصور مغامرات على جرزلين بطل الأغاني الشعبية الاسلامية في البوسنة. وهذه القصة على ما تصور من لجمال للمغامرات تعطى فكرة قيمة عن الحرب في القرن السابع عشر. ويعرض إميل دوپوى Aimé Dupuy في الشهرية ثلاث كُتب ذات شأن بالقياس إلى العالم العربى:

الأول ألفه الفولس جوني Alphonse Gonilly وعنوانه «الاسلام والعالم

(١) L'Islam devant le monde moderne (La nouvelle édition).

(٢) Histoire de l'Afrique du nord (Société privée d'imprimerie et d'édition-Paris).

في مجلات الغرب

عليهما أن يمتددا بينهما زواجا وان يتحررا
أحيانا ولو في شيء من العنف مما يتصفان به
من حياة العذارى .

وينشر الأستاذ هنري جيان Henri
Guillemin ثلاثة آثار لم تعرف لجان جاك
روسو J. J. Rousseau ، ويظهر الأستاذ
ذو الروح الجذاب ، وهو الآن مستشار
ثقافي للسفارة الفرنسية في برن ، أنه لم ينس
خصائصه الجامعية .

وأقرأ مقالا لم يذكر اسم كاتبه موضوعه :
« مشكلة الجزائر » ويرى الكاتب أن المشكلة
اقتصادية قبل كل شيء . ومما يدهش في هذا
المقال ذكر « أسطورة الوحدة العربية »
أثرى الكاتب بجهل هذه الوحدة أم تراه
يشفق منها ؟

وقد نشرت مجلة « إسبري » Esprit تحت هذا
العنوان الخفيف : « لتنفذنا الجامعة » (٢) ثلاثة
فصول يفضيها جون لاكروا Jean Lacroix
وف . كوتينيكوف V. Kouteynikoff
وروجيه جال Roger Gal . فأما جون
لاكروا فيغلب عليه التشاؤم ، وهو يختم
حديثه بهذه العبارة الحاسمة : « لا خير في
إصلاح التعليم إلا إذا ارتبط بالإصلاح
الاقتصادي والسياسي والاجتماعي . فان تجدد
المدرسة إلا إذا جددت الحضارة ، ولن تجدد
الحضارة إلا إذا جددت المدرسة » .
ودراسة الأستاذ كوتينيكوف عظيمة
النفع جداً تعتمد على الأرقام لتعرض حال التعليم
في فرنسا . ويلاحظ أن الكاتب يختار مدينة
الاسكندرية نموذجا حين يتحدث عن أثر

الحياة الشعبية التي لا تزال محتاجة في رأى
الناقد إلى من يصورها تصويراً صحيحاً .

أما الكتاب الثالث وموضوعه البحوث
الاستعمارية وعنوانه « فنيو الاستعمار في
القرنين التاسع عشر والعشرين » (١) فهو الجزء
الأول من مجموعة عناوينها الشامل « مستعمرات
وإمبراطوريات » . وقد وصف فيه الاختصاصيون
طرق خمسة عشر من أعظم الاستعماريين في
العالم ، من جالييني Gallieni إلى بالبو Balbo
ومنهم سيسيل رودس Cecil Rhodes .
وحسبي أن أذكر قول الناقد : « ليس منهم رجل
هادي ، وهم من أجل ذلك يلتقون . وتستحق
مذاهبهم أن تدرس ، وإن كان بعضها خليقاً
بالنقد لتشبهه بالقديم وانحرافه عن أصول
الأخلاق والتعاون ، ذلك أجدر أن يتيح
الحكمة العناية على روح الاستعمار ومناهجه . »
وتقرأ في شهرية الفلسفة في العدد نفسه
للأستاذ الكسندر كواريه Alexandre
Koyré الذي عرفناه أستاذاً للفلسفة في جامعة
فؤاد الأول مقالا عن فلسفة التاريخ أروحي
به كتاب اللويس ألفين Louis Aulphen
عنوانه : « مدخل إلى التاريخ » (٢) .

وفي عدد سبتمبر من « مجلة باريس » وهو
في هذه المرة متواضع النفع مقال يستحق
العناية للسياسي الانجليزي المعروف اللورد
فانسيترت Lord Vansittart وعنوانه :
« العلاقات بين فرنسا وانجلترا » وقد فهمت
بالطبع مغزى هذا المقال من عنوانه . ولترجم
بعض ما فيه من طرائف : « إن قوانين الطبيعة
ومصائر البلدين حين تصل بين منافعهما تقرن

(١) *Les techniciens de la colonisation, XIXe et XXe siècles* (Presses universitaires de France).

(٢) *Introduction à l'Histoire* (Paris, presses universitaires).

(٣) *S.O.S. à l'université*.

في مجلات الغرب

ويكفي أن نشير في مجلة «لأنف» *La Nef* إلى مقال نشرته في عدد أغسطس في النقد المسرحي موضوعه «أوديب» *Oedipe* لأندريه جيد *André Gide* وقد قرئت هذه القصة في القاهرة أثناء الشتاء الماضي ، ومثلت بعد ذلك في باريس . ويرى الناقد ج. ج. رينييري وهو من شباب مدرسة المعلمين أن نجاح القصة في القاهرة قد شجع أندريه جيد على أن يواجه المسرح في باريس . وقد قد الكاتب قصة جيد في لباقة بارعة وقال : « إن الناظر والتأمل لم تستطع أن تجعل من هذا التمرين الفني البديع قصة تمثيلية » .

الثقافة الفرنسية في الخارج . ويظهر لنا من هذه الأسطر القليلة أن عاصمتنا الثانية على حداثة عهدا بالجامعة ممعنة بهذا التأثير بالثقافة . ويرى الكاتب أن مشكلة التعليم لن تحل إلا إذا اشتدت بها عناية الرأي العام ووضعت الوسائل للمادية التي يعتمد عليها التعليم .

أما الأستاذ روجيه جال ، فيدرس محاولات فرنسا لانهاض التعليم منذ تحريرها : (١) محاولات إنشائية (٢) تجديد المناهج التعليم . وأخيرا ينتهي الكاتب فيما يتصل بمستقبل الإصلاح إلى « أن هذا الإصلاح مهما تكن الظروف ديموقراطي اجتماعي في أغراضه يندمج في صورته تجريبي في تطبيقه » .

من موسكو

الواقعيين في روسيا ، وكان في أول أمره ممثلا من طبقة المستعبدين . ويقول هرزن : إنه أول من أبي أن يكون ممثلا في دار التمثيل . ويشير الكاتب إلى مذهب ممثلي هذا الملعب في فن الكوميديا : « فهم يراعون في هذا الفن ولكنهم كانوا وما زالوا يجهلون الضحك للضحك ، ويرون أن الضحك سلاح خاسم يجب أن يستخدم في الجهاد لخدمة الإنسانية وتحقيق الحرية الاجتماعية » . وعنوان مشوق هو « زيارة لكونستانتين سيمونوف » *Constantin Simonoff* . ولكن هذه الزيارة لاتعطينا من حياة الشاعر والقصاص الروسي العظيم إلا أطرافاً ضئيلة ، وهي تعطينا فكرة عن ذوقه بالقياس إلى الآداب الأجنبية ، فهو يحب الكتاب الفرنسيين ويرى أن الأدباء الفرنسيين الروس هما « أقوام آداب الدنيا » . وفي الشهوريات ملاحظة قصيرة عن حياة المثلة الروسية الشهيرة أولجا كنيفر تشيكوفا

مجلة الآداب السوفييتية :

يجب أن نعترف بما تثير هذه المجلة من حب الاستطلاع والرغبة في المعرفة في نفس أنا على الأقل . ومصدر ذلك فيما يظهر اشتداد حاجة القارئ إلى أن يظهر على حقائق الحياة السوفييتية . وليس من شك في أن لمقالات هذه المجلة غرضاً يتصل بالدعاية في أحسن صورها ومعانيها . ولكن القارئ الذي يحتفظ باستقلاله يجد في قراءتها ما ينفع دائماً ، ويغلب غالباً ، ويشير أحياناً ؛ فلهذه المجلة إذن قيمة محقة . ولتنظر إلى هذه الفصول من قريب . ففي العدد الأول من هذه المجلة (يناير سنة ١٩٤٦) بعنوان « الفنون » فصل خصص للعبة « مالي » وهو أقدم ملاعب التمثيل في روسيا . وفي هذا الفصل يعرض الكاتب عرضاً سريعاً تاريخ هذا الملعب وصور الممثلين المتنازعين الذين ظهروا فيه وبنوع خاص صورة ميخائيل تشبكين *Mikhail Chetchevkin* (١٧٨٨-١٨٦٣) . وقد كان زعيم الممثلين

في مجلات الغرب

الروسية وقد أتم بوشكين Pouchkine هذا الإصلاح. وكتاب «رسم بوشكين» للناقد الفني أبرام افروس Abram Efros (١) يبين فيه حرص بوشكين الشديد على أن يعمل دائماً بين الأدب وبين رسم الصور التي تبدل عليها العبارات. وهذا يدعو إلى التفكير في جان كوكتو Jean Cocteau الكاتب الفرنسي الذي يشعر بنفس هذه الحاجة. وفهرس عنوانه «الآهية العالمية للأدب والفنون الروسية» (٢) ألفتها ك. موراتوفا K. Mouratova وإ. بريغالوفا E. Privalova وهو كنز من كنوز المعرفة خلى أن يترجم.

Olga Kniffer-Tcheknova قد تزوجت من الكاتب التشيلي تشيكوف Tchekhov ومثلت قصصه وقد بلغت سنها المسرحية الآن خمسين عاماً.

وفي العدد الثامن من هذه المجلة (فبراير سنة ١٩٤٦) نهريّة قيمة جداً عن الكتب الجديدة تفيدنا بما فيها من كثرة الكتب وتنوعها وتعدد الموضوعات التي تشغل العقل الروسي: فنّها دراسة للكاتب التشيلي فون فيزيف Fonvizine من كتاب القرن الثامن عشر وهو الذي بدأ إصلاح اللغة الأدبية

من لندن

الحقيقية التي تدور حول مستوى نفسي منخفض ليست إلا تناقضاً. ومحاولة إنشائها - كما فعل كامو في قصة «الغريب» - (٤) يثير شعوراً يشبه القحّة واختلاط القيم المنبوذة. ثالثاً: وينشأ عن هذا أن يرتفع الحوار عن مستوى الأحاديث اليومية. رابعاً: يقول الكاتب يجب أن تعني بمجرى الحوادث في قصتك، فسيستطيع أشخاص القصة حينئذ أن ينظموا أمورهم بأنفسهم. خامساً: يجب أن تطمح وأن تحقّق أثرًا شعرياً. والكاتب يعترف بأن قواعده هذه عسيرة، ولكنه يرى أن الحضارة الصحيحة لا تقوم إلا على النظام الدقيق. للقال الثاني يمضيه الدوس هكسلي

مجلة «هوريزون» Horizon (يونيه سنة ١٩٤٦) في هذا العدد مقالان خائقان بالعناية: أحدهما بقلم الكاتب إدوارد سكفيل وست Edward Sackville West عنوانه «تقدير» (٣) وفيه دراسة لكاتبتين إنجليزيتين من كتاب القصص، وهما: إيفي كومبتون - بورنت Ivy Compton-Burnett واليزبت بون Elisabeth Bowen ونجترى من هذا المقال بأوله الذي يعرض فيه الكاتب رأيه في القصة: فهو يريد أولاً أن يكون الأسلوب شاعراً بنفسه. ثانياً: أن يظفر الأشخاص بتريّة قيمة يضاف إليها أو يقوم مقامها إحساس دقيق. وهذه الفكرة خطيرة جداً. يقول الكاتب: إن للأساة

(١) Abram Efros, *Les croquis de Pouchkine*.

(٢) Un index bibliographique, «Importance mondiale de la littérature et de l'art russe».

(٣) An appraisal.

(٤) A. Camus, *L'Etranger*.

في مجلات الغرب

معروف وصف الحياة في مدرسة كاثوليكية من مدارس البنين . والناقدة معنية أشد العناية بمشكلة هذه الحياة الداخلية للتلاميذ كما يتصورها الكاثوليكيون واليسوعيون منهم خاصة ، وهي تحكم على هذا التصور حكماً قاسياً تسوغه في أكبر الظن الحقائق التي كشف عنها مؤلف الكتاب .

مجلة « برين تودي » *Britain to day* (أغسطس ١٩٤٦) تستطير أن تقرأ في هذه المجلة في معرض الكتب أنباء أدبية قيمة فقد أصدر أدmond Blunden بلوندن كتاباً جديداً عن حياة شيلي Shelley وأصدر Somerset Maugham سومرست موجم قصة عن مكياقيلي Machiavelli عنوانها « إذ ذاك اليوم » (٤) وأصدر أ. ف. حوراني كتاباً سياسياً عنوانه « سوريا ولبنان » (٥) .

واقراً في مجلة « ناشيونال ريفيو » *National Review* (سبتمبر ١٩٤٦) فصلا قيا للكاتب الفرنسي المعروف جوليان بندا Julien Benda عن الأدب الأسود عنوانه « الأدب الأسود والفلسفة الجديدة » (٦) وهذا الفصل كما كان ينتظر هجوم على الأدب الأسود، ولكنه هجوم قوامه الاخلاص وصدق الرأي حتى حين يأتي المؤلف أن يعترف لهذا الأدب بأية مزية ، وهو مع ذلك يثنى عرضاً على جان بول سارتر Jean Paul Sartre حين يصف قلمه بأن له حظاً من براعة .

Aldous Huxley وهو ليس مقالاً بالنعني الدقيق ، وإنما هو جزء مقتبس من كتاب سيظهر ، عنوانه : « الفلسفة الخالدة » (١) وموضوع هذا الجزء « الدين والمزاج » (٢) والمسألة التي يريد الدوس هكسلي أن يجيب عليها في الصحف الثمان التي خصصت له في المجلة هي : ما هي الصلة الدقيقة بين تركيب الجسم ومزاجه من جهة وطبيعة المعرفة الروحية ودرجاتها من جهة أخرى ؟ ولسنا في حاجة إلى أن نقول هنا إلى أي حد نفذ الكاتب الانجليزي العظيم بذكائه المتوقد وبصيرته الفطنة إلى دقائق هذه المسألة .

ويجد القارئ في عدد يوليو من المجلة نفسها دراسة واضحة مقنعة ، موضوعها للرحلة المقبلة في مستقبل الشعر ، وصاحبها موريس باوره Maurice Bowra .

والكاتب يعتمد على أمثال يستقيها من الشعراء الفرنسيين أمثال بول ايلوار Paul Eluard والانجليز أمثال سيسيل د. لويس Cecil D. Lewis والاسبانيين رفايل البيرتي Raphaël Alberti ليبين ما في تقريب الشعراء إلى الكافة من منافع ومضار .

وفي العدد نفسه عرض للكتب تستطيع ان تقرأ فيه بقلم سونيا بروننل Sonia Brownell تحليلاً دقيقاً لكتاب « الصداقات الخاصة » (٣) للكاتب الفرنسي روجيه بيرفيت Roger Peyrefitte وموضوع الكتاب كما هو

The Perennial Philosophy, by A. Huxley (Chatto and Windus). (١)

Religion and Temperament. (٢)

Roger Peyrefitte, *Les amitiés particulières*. (٣)

Then and Now, by W. Somerset Maugham (Heinemann). (٤)

Syrian and Lebanon, A Political Essay, by A.H. Hourani Cambridge: Oxford University Press for R.I.A.A. (٥)

Black Literature and the New Philosophy. (٦)

في مجلات الغرب

من بغداد

وأنا أعتذر إلى جاري في الشهرات ، كما يقول ناقد فرنسي ، حين أعرض لـ مجلة من شأنه هو أن يتحدث عنها وهي مجلة « الفكر الحديث » التي تفضل صاحبها فأرسالها إلى هذا العدد (عدد ٨ و ٩) مفتتح بفصل قيم لرئيس التحرير جميل جودي عن الممثل الفرنسي الشهير مايول Maillois . ولناحظ قبل كل شيء أن للثقنيين العراقيين بمختصون الفنون الجميلة فيها يظهر بعناية ممتازة . فاذا لاحظت أن غلاف العدد يزدان بصورة فوتوغرافية لأثر من آثار مايول ، وأن المقال الأول منه مخصص لهذا الممثل كما قلنا آنفاً ، وأن في العدد دفاعاً حاراً عن جماعة أصدقاء الفن في بغداد ، وفصلاً الأستاذ نعيم قطان عن « السور يايسم » عرفت مقدار العناية العراقية بالفن والمستوى الذي يسود إليه محررو مجلة « الفكر الحديث » .

أمينه طه حسين



ليون دوديه

كايخسرو وحياة العاصفة

تأليف حسن محمود

طبعة فرنسية بالصورة
وصفحة ملونة تبين كيف كان لهذا الزعيم بعد قطبه

٣٥
والبريد ٢٤



الحَقِيقَةُ وَالشَّرِيعَةُ

فِي الْإِسْلَامِ

تاريخ التطور العقدي والتشريعي في الديانة الإسلامية

للمستشرق العظيم إجناس جولدتسيهر

نقله إلى اللغة العربية
وعلق عليه

محمد يوسف موسى	عبد العزيز عبد الحق	علي حسن عبد القادر
المدرس بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر	المدرس بكلية الشريعة بجامعة الأزهر	دكتور في العلوم الإسلامية مدير المركز الثقافي الإسلامي بلندن

أبواب الكتاب :

محمد صلى الله عليه وسلم والإسلام — تطور الفقه

بموا العقيدة وتطورها — الزهد والتصوف

الفرق — الحركات الدينية الأخيرة

ولكل باب حواش من المؤلف وتعليقات من المعريين

كتاب ضخيم يقع في ٤٠٠ صفحة

الثن ٨٥ قرشا (البريد ٤٠ ملبا)





لاصفحة مضطربة مهوشة ولا يقع حبر

راند الجديدة إذ أن تحسينات جديد
— ملمس جديد أنعم وسرعة زاء
في العمل — قد أدخلت على
الآلة الفاخرة .

والكلمة اليوم: « آلة رمانجتون
راند الجديدة جديدة بالانتظار !

* واليوم يمكن أن تطبع ال
رمانجتون راند على خمسة آلاف نظام
أنظمة الأخرى مما يجعلها صالحة للكتابة
بما يزيد على مئة وخمسين لغة ولهجة .

Remington Rand



رمانجتون راند

الأولى بين الآلات الكاتبة

وهذا التقدير الذي قيل منذ
٧٢ سنة تلاه ألوف من التقديرات
لأن أسبقية رمانجتون في كل السنين
منذ مارك توين قائمة على هذه
الأسس : هندسة مبتكرة وصناعة
فائقة وتصريف في الأسواق العالمية ؛
ولا عجب إذن إذا كانت آلات
رمانجتون قد بيع منها أكثر مما
بيع من أية آلة أخرى .

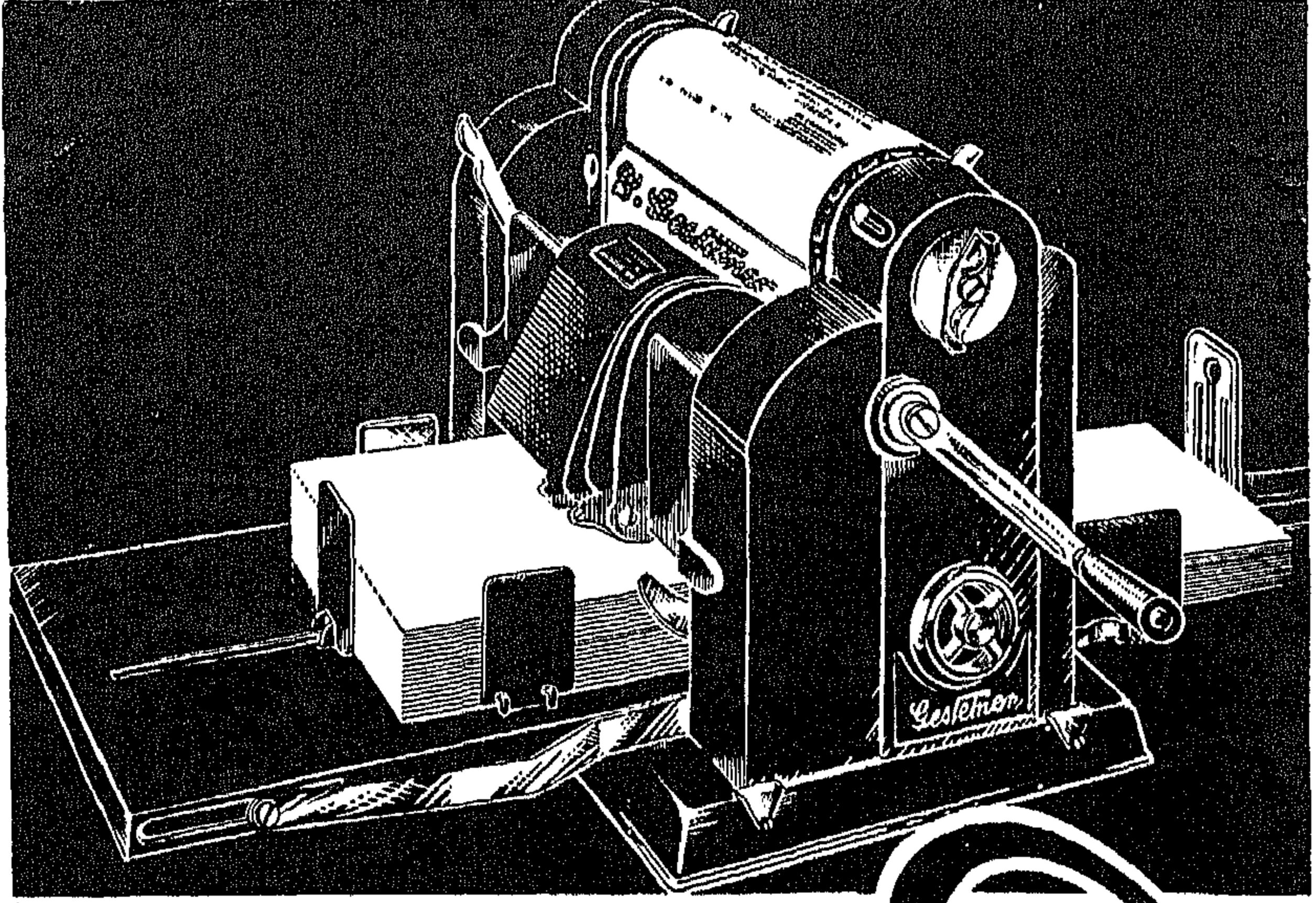
ولا عجب أيضاً إذا كانت ثمة
آلاف من الأصابع تنتظر بفارغ
الصبر تجربة الآلة الكاتبة رمانجتون

في يوم من أيام ١٨٧٤ كان مارك
توين الكاتب الأمريكي الشهير يستعمل
لأول مرة آله الكاتبة الجديدة
رمانجتون موديل ١ ، فكتب رسالة
باقية بالحروف الكبيرة التي لم تكن
الآلة في ذاك الوقت تطبع غيرها* :

« رأيته في بوسطن منذ أيام
فاستأثرت بي . إن لها ميزات عدة .
أظن أنها ستطبع أسرع مما أستطيع
أن أكتب . ويمكنك أن تستند إلى
المقعد وأنت تكتب بها . إنها تجمع
عدداً هائلاً من الكلمات في صفحة
واحدة . لا صفحة مضطربة مهوشة
ولا يقع حبر . ومن البديهي أنها
توفر الورق . »



الوكلاء : **الكاتب المصري** شركة مصرية قسم آلات واثاث وأدوات المكاتب
الموزعون : **القاهرة**
المركز الرئيسي بالقاهرة - شارع قنطرة الدكة بورسعيد
الاسكندرية



جستنت

Gestetner

آلات نسخ الصور ولوازمها



أن ما بلغت منتجاته من
التفوق هو نتيجة للبحث المستمر والتحسين
المتصل منذ سنة ١٨٨١ .
وصلت في مصر آخر نماذج من هذه
الآلات ولوازمها ، اطلبوا كافة الاستعلامات
من الوكلاء الموزعين الوحيدين .

جستنت

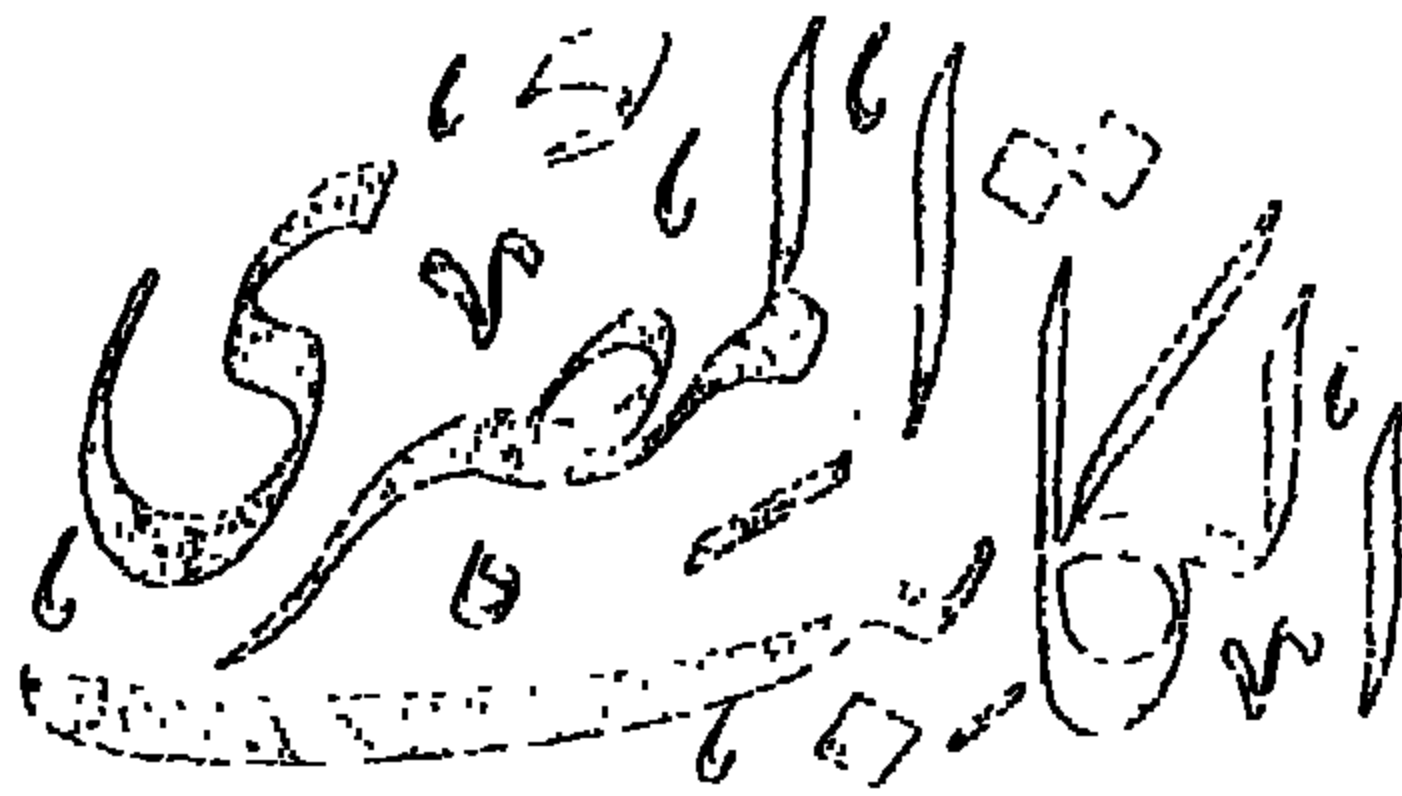
ضمانات للشقة فن الصناع
تحقق من هذا الاسم دائما

SCRIBE

الكاتب المصري شركة هلمصرية قسم آلات وأثاث وأدوات المكاتب
القاهرة
المركز الرئيسي بالقاهرة ، ه تشايع قنطرة الشركة
بورسعيد







مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس

٢١٣ ما وراء النهر (قصة)	طه حسين
٢٢٤ بين روسيا والولايات المتحدة	محمد رفعت
٢٣٤ دستور فرنسا الجديد	محمود عزيمى
٢٤٢ كيف طارت في أكسفورد (قصة)	محمود تيمور
٢٥٤ القرية والاصلاح الريفي في مصر	سليمان حزين
٢٦٧ هـ . ج . ولز	سلامه موسى
٢٧٥ إلى الببل (قصيدة)	ابراهيم محمد نجما
 صورة من عهد النهضة الأوربية —	حسن محمود
٢٧٧ البابا والثال	
٢٨٨ البارونه فون كريدنر والمعاهدة المقدسة	محمد عبدالله عنان
٢٩٧ الكتاب ونقادهم	الكسندر كواريه
٣٠٦ بدعة المحارب	أحمد فكرى
٣٢١ صفاء الحب (قصيدة)	جورج سلسقى
٣٢٣ على الهامش وفي الصميم	محمود الدسوقي
٣٣٢ يجب أن نعيش (قصة)	درويش الجليل

من هنا وهناك (على حافظ ، عبد الرحمن صدق . . .)
 شهرية العلم — شهرية الاجتماع — شهرية السياسة الدولية
 شهرية السينما — من كتب الشرق والغرب — من وراء البحار
 ظهر حديثاً — في مجلات الشرق — في مجلات الغرب



تصدرها دار الكاتب المصرى
 شركة مساهمة مصرية
 القاهرة



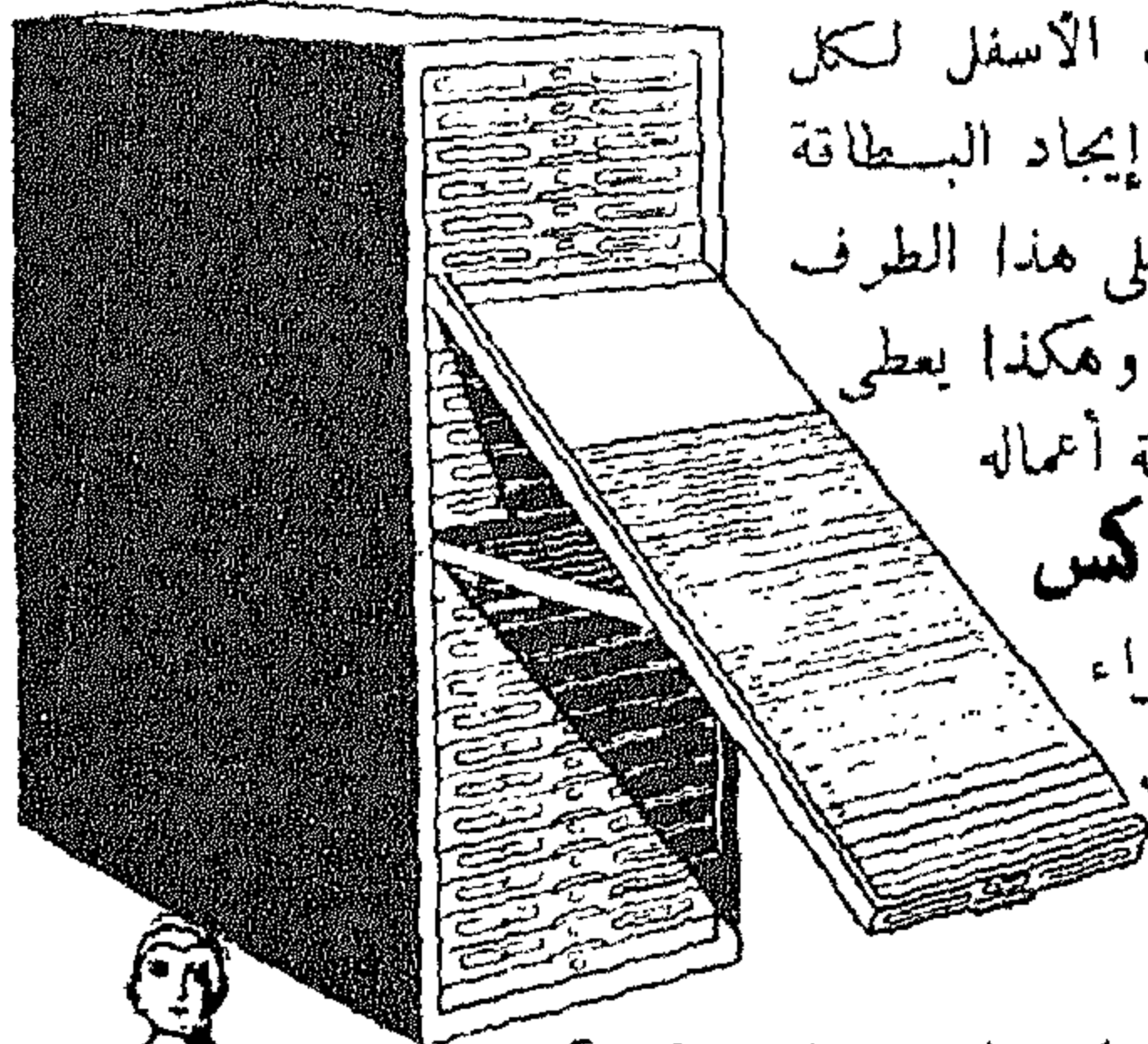
KARDEX

كاردكس

— لتحسين الإنتاج في العمل —



إنتاج مصنع
الآلة الكاتبة
رمنجتون
رانند



نظام **كاردكس** اختراع أمريكي فريد يتيح ترتيب بطاقات الأعمال ترتيباً أفقياً وليس رأسياً كالنظام العتيق ، وهو لذلك يضمن بطريقة عجيبة سرعة ترتيب تلك البطاقات وتسجيل البيانات فيها . وترى الطرف الأسفل لكل بطاقة — وهو الفهرس — ظاهراً بأكمله ، فيسهل عليك إيجاد البطاقة التي تبحث عنها في الحال . وهناك إشارات ملونة تتحرك على هذا الطرف الظاهر ، فتلفت النظر إلى الموضوعات التي تستدعي إجراء خاصاً . وهكذا يعطى نظام **كاردكس** لرجل الأعمال صورة منظمة سريعة عن حالة أعماله وفي أنحاء القطر المصري ، يستعمل رجال الأعمال نظام **كاردكس** في تسجيل أهم العمليات التجارية مثل الجرد ، والبيع ، والشراء والانتاج وغيرها من الأعمال . فاستعمال **كاردكس** يمكن صاحب العمل من « الرقابة » . . . وامتلاك زمام عمله إذ يكون أمامه في كل لحظة رسم يبين للأمر يرشده فيما يتخذ من قرارات .
نظام **كاردكس** يزيد من كفاية عملك ، فيساعد على زيادة انتاجك كما يساعد الشركات الأمريكية .



الوكلاء : **القائمين المصريين** شركة مصرية قسم آلات واثاث واذوات المكاتب
الموزعون : القاهرة
الاسكندرية
بورسعيد
المركز الرئيسي بالقاهرة - 5 شارع قنطرة الدكة

خمسة مسابقات أدبية جديدة

- يسر محطة الشرق الأدنى للاذاعة العربية أن تعلن افتتاحها باب المسابقات الأدبية الجديدة التي ستفصل فيها لجان مؤلفة من كبار رجال الأدب في العالم العربي . وستكون هذه المسابقات شهرية تتناول كل شهر موضوعا خاصا ، وذلك حسب البرنامج التالي :
- مسابقة الأهراميت : لشهر نوفمبر ، وآخر موعد لقبول الإحاديث المشتركة في هذه المسابقة ١٠ نوفمبر سنة ١٩٤٦ ، وجوائزها ١٥ و ١٠ و ٥ جنيهات فلسطينية .
- مسابقة القصة : لشهر ديسمبر ، وآخر موعد لقبول القصص المتسابقة في ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٤٦ ، وجوائزها ٣٠ و ١٥ و ١٠ جنيهات فلسطينية .
- مسابقة الزمهرل : لشهر يناير سنة ١٩٤٧ ، وآخر موعد لقبول الأجزاء المتسابقة في ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٤٦ ، وجوائزها ٣٠ و ١٥ و ١٠ جنيهات فلسطينية .
- مسابقة الشعر : لشهر فبراير سنة ١٩٤٧ ، وآخر موعد لقبول القصائد المتسابقة في ٢٥ يناير سنة ١٩٤٧ ، وجوائزها ٣٠ و ١٥ و ١٠ جنيهات فلسطينية .
- مسابقة الترجمة : لشهر مارس سنة ١٩٤٧ ، وآخر موعد لقبول الترجمات المتسابقة في ٢٥ فبراير سنة ١٩٤٧ ، وجوائزها ٣٠ و ١٥ و ١٠ جنيهات فلسطينية .
- يمكن الحصول على شروط هذه المسابقات كاملة بالكتابة إلى قسم الاستعلامات محطة الشرق الأدنى - يافا - فلسطين .

LA REVUE DU CAIRE

REVUE DE LITTÉRATURE ET D'HISTOIRE

SOMMAIRE DU NUMERO D'OCTOBRE

P. JOUGUET	Gaston Maspero
ETIENNE DRIOTON	La place de Gaston Maspero dans l'Egyptologie.
G. MASPERO	Le marché et les boutiques dans l'Egypte antique.
—	Le Temple de Louxor et ce qu'on apprend à le bien visiter.
PIERRE JOUGUET	Jean Maspero.
JEAN MASPERO	Poèmes.
HENRI MASPERO	La vie privée en Chine à l'Epoque des Han.



مَا وَنَا حَوْسَتِيكَ

فِي الْفَقْرِ وَالرُّوْمِ

أَلْفَقِيَّة الْقِيَاةِ فِي قِيْطِطِيَّة

الْأَمْبَرِ طَوْرُ حَوْسَتِيكَ

وَنَقْلًا إِلَى الْعَجَرِيَّةِ أَمَامَ الْفَضَا فِي مَصْرٍ

مَعَالِي سَيِّدِ الْعَزِيزِ فَهِيَ بِكَاشَا

أَخْرَجْتَهُ

دَارُ الْكَاتِبِ الْمِصْرِيِّ

فِي طَبْعَةِ مَنَازَةِ

وَتَحْلِيلِ أَنْيُونِ

البريد المسجل ١٠٠
والحناج ١١٢



التمت
١٥٠ قرشاً

ظهير حريشا

يوسف كرم

مدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

تأليف الفلاسفة الأولى
في العصر الوسيط

كتاب يقع في ٢٦٨ صفحة

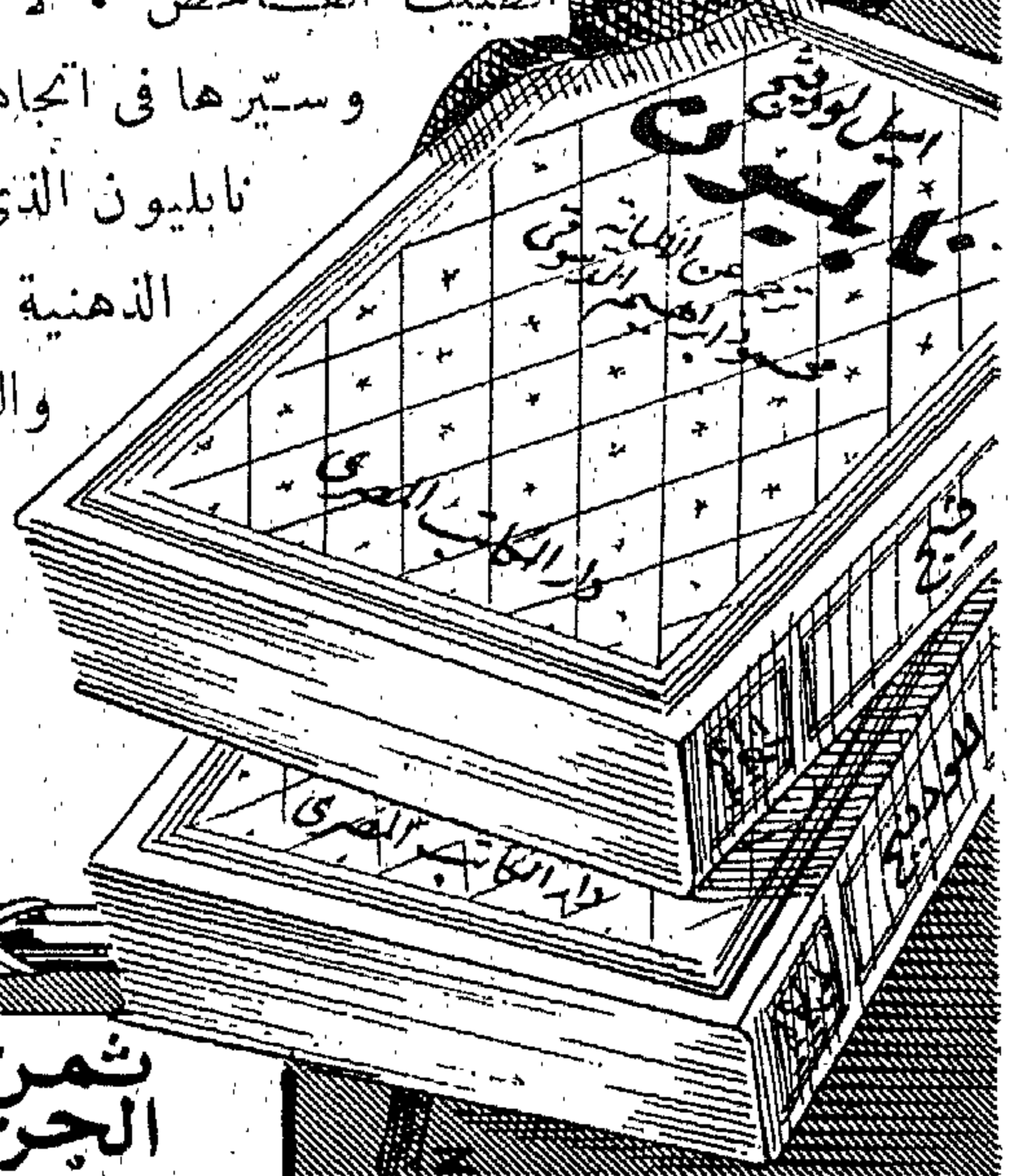
الثن ٥٠ قرشا (البريد ٣٦ ملما)



تَحْلِيلُ الْفَذْلِ

في هذا الكتاب الفذ، لمؤلفه الفذ، يبدو نابليون عظيماً في رفعة، عظيماً في محنته، يثير الاهتمام اليوم، كما أثاره قبل اليوم، ويشير بعد اليوم: شخصية ضخمة يتعدل فيها الرأي كل يوم. فنابليون السائس، ونابليون القائد، ونابليون المفكر، قد كان إلى ذلك رباً من أرباب القلم، ومالكاً قديراً لخاصية الكلام. في هذا الكتاب يحدثنا نابليون عن نفسه، ويعيش في حاضرنا كما عاش في حاضره، ويعرض صور عصره حية متحركة. نابليون الواسع العلم، المحقق بالعالم، المحيط بتاريخه، وهو ما يزال غض الإهاب، في شرح الشباب. نابليون الذي وضع أذنه دائماً على قلب الجماهير شأن الطبيب الفاحص، لا المحب الواله، فعرف اتجاهها، وسيرها في اتجاهه.

نابليون الذي تفوق في أعماله الحربية بصفاته الذهنية، وكان سلاحه النظر، والحساب، والتصميم، والفصاحة، ومعرفة الناس. نابليون الذي اعتز بلقب عضو المعهد أكثر مما اعتز بلقب الفاتح. هل كان رجل جلاد، مبيداً للعداء، عاملاً لشخصه، بانياً للمجده؟



ثمن
الجزء ٤٥ والبريد ٣٦ مليمًا



سترى فى هذا الكتاب كيف جلا لودفيج شخصيته ،
ومجد إنسانيته ، وقدم صورة متنوعة بديعة لعبقريته .
ستقرأ قصة حقيقية لقاهر الثورة ، ومأخى الفوضى ،
وزعيم التاريخ الحديث ، ورمز العبقرية العالمية ، وتأس من
المؤلف تصويراً شعرياً ، ودقة تاريخية .
ستدرس رجل الأقدار مما كتب لودفيج عنه ، وذكره
هو عن نفسه ، فى ترجمة مشرقة تبرز ملامح الأصل الألمانى ،
وعبارة رصينة تؤايم أسلوب المؤلف الألمعى ، بقلم مترجم
إيفيچينيا وإجنت والصراط وأقاصيص أندرسن : لجوته ،
وسودرمان ، وهانس أندرسن .

نايبيرون

لاميل لودفيج

ترجمه عن الألمانية

محمود إبراهيم الدسوقي



طبعة فاضلة هزينة بالصورة فى جزئين

انقلبت الطائفة في جبال لا ترجع
أحدًا في الشتاء ... هل لطيار
شجاع يكافح الموت باسم ما فيه
من خليفة ، مخرج من مصيره
الميتوس ؟



كتاب يعد فتحًا جديدًا في الأدب

ارض البشر

للكاتب الطيار انطوان دي سانت اكسيري

ارض البشر تلك الهبارة من الشرى التارها
بين الاضرام الساذجة ، تلك الارض المديرة
باعتجابنا فلانها دهرها تكونت الرحا

يقول بارك ، وقد أخذته نشوة الحرية :
« لست بارك . أنا محمد بن الحسين . »
وأخذ يقلد الرجل الحر كما يقلد طفل
أحد المستكشفين .



كيف تكون طلبة عبد على أبواب الحياة ؟



مراء ؟ لقد هيء لي ذات يوم أن
ما في صبيها . كنت أطيء في
مصر على تخوم ليبيا ووقعت في
ل كما يقع المرء في شرك . وظننت
بائت . وماك القصة ...

راشد من الرعيل الأول
لطيارين ينظر إلى الكون خلال
تجربته نظرة الشاعر الفيلسوف
جعلنا بالآفاق الشاسعة
نضعنا في صميم الخطر
في صميم العمق

يب مصطفى كامل فوده
سبعة فريضة بالصورة



والبريد
٢٥ ٢٠ مليوناً



الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصري في أول كل شهر عن دار الكاتب المصري . شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعها .

الاشتراك

١٠٠ قرش في السنة لمصر والسودان ،
١٢٠ قرشاً في السنة للخارج أو ما يعادلها .
يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب
المصري . لا تقبل الاشتراكات لأقل من
سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصري تعنى بكل
ما يرد إليها من المقالات والرسائل
ولكنها لا تلتزم بنشرها ولا زجها .

إدارة الكاتب المصري

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤

الإدارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٤٢٧٣٠



AL KATEB EL MASRI

Monthly literary magazine published
by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)

Editor-in-chief : Taha Hussein

جميع الحقوق محفوظة لدار الكاتب المصري

الكتاب المصطفى



نوفمبر ١٩٤٦

ذو الحجة ١٣٦٥

مجلد ٤ - عدد ١٤

السنة الثانية

ما وراء النهر

لست أدري أين وقعت أحداث هذه القصة ، ولكنى أقطع بأنها لم تقع في مدينة القاهرة . فقد تتبعته شاطئ النيل كله في هذه المدينة ، فلم أجدروبة شديدة الارتفاع والاتساع ، يقوم عليها قصر نخم ضخمة شاهق في السماء ، ويتكاثف فيها شجر باسق ملتف يظل ضروباً من النجم لا تعد ، وفنوناً من الزهر لا تحصى . وهذه الزبوة المرتفعة الواسعة تنحدر في يسر إلى النهر ، كأنما تسعى للقائه ، أو كأنما تيسر للشجر والزهر السعي للقائه .

لم أجدر على شاطئ النيل في القاهرة هذه الزبوة ولا شيئاً يشبهها ، ووجود هذه الزبوة شرط أساسي لوقوع الأحداث التي تعرضها هذه القصة . فما أظنك تخالفني في أن ما يعس الإنسان من الأحداث وما يصور هذه الأحداث من قصص ، لا يمكن أن يتم إلا إذا كان له مكان معروف بمحدوده وأوصافه . وقد وقعت أحداث هذه القصة في مكان ، ما في ذلك شك ، بل وقعت في هذا المكان الذي وصفته وصفاً موجزاً . وأكاد أعتقد أن هذا المكان نفسه هو الذي أنشأها ، وهو الذي ابتكر أحداثها ودفع أشخاصها إلى إجراء هذه الأحداث .

وقد عشنا النقاد منذ عهد بعيد أن هناك صلة متينة دقيقة بين أقوال الناس وأعمالهم ، وبين البيئة التي يعيشون فيها ويتأثرون بدقائقها في حياتهم اليومية . ولو قد عاش أشخاص هذه القصة في دار متواضعة أو في قصر يقوم على الأرض المنبسطة السهلة ، لا على هذه الزبوة المرتفعة التي تمتاز مما حولها من الأرض ، وترفع قصرها فوق ما حولها من القصور والدور ، وتنحدر بشجرها

وزهرها في سذاجة ويسر إلى النهر — أقول لو قد عاش أشخاص هذه القصة في دار متواضعة أو قصر يقوم على السهل لما أجروا ما أجروا من الأحداث، ولما أصابهم ما أصابهم من الخطوب. فغرفات القصر وحجراته، وأفنية القصر وأبهاؤه، وهذه الدهاليز الكثيرة الملتوية، وهذه السلام الكثيرة المختلفة، وهذا الشجر المتكاثف الملتف، وهذه النجوم المتقابلة المتداربة، وهذا الزهر المنسق المنمق، كل أولئك قد فرض على أهل القصر لوناً أو ألواناً من الحياة لم يكونوا يستطيعون إلا أن يخضعوا له ويسلكوا في سيرتهم ما يلائمه، وكل أولئك قد أغرى هذا الشخص أو ذاك من أشخاص القصة بهذا العمل أو ذاك من أعماله، وبهذا القول أو ذاك من أقواله، بحيث لم يكن بدٌّ من أن تحدث هذه الأحداث في هذا المكان المقسوم لها دون غيره من الأماكن، وإلا لبطلت قواعد الفن، ولفسد التاريخ الأدبي، ولذهب الأدباء بانتلجهم الأدبي كل مذهب وسلكوا به كل سبيل، لا يخضعون لأصل من الأصول، ولا يتقيدون بقانون من القوانين التي وضعها أرسطاطاليس وأسلافه وأخلافه ولم يفرغوا من وضعها إلى الآن

وإذن فلا بد لهذه القصة من ربوة عظيمة الارتفاع والاتساع، ومن قصر شاهق، وشجر باسق، وزهر رائق، ونجم شائق، ونهر دافق يجري من تحت هذا كله في أناة حيناً وفي عنف حيناً آخر. فإذا فقد شيء من هذا ضاعت القصة. وما أظنك ترغب في أن تضعي، فأنت محتاج إليها لتنسق الوقت في القراءة، وأنا محتاج إليها لأنفق الوقت في الإيملاء، والمجلة محتاجة إليها لتملاء عدداً من صفحاتها قليلاً أو كثيراً. كل شيء يضطرنني إلى أن أُملي، وكل شيء يضطر المجلة إلى أن تنشر، وكل شيء يضطرك إلى أن تقرأ، وكل أولئك يفرض علينا جميعاً أن تقبل هذه الربوة وما فيها وما عليها لنمضي فيما يُسرُّه كل منا من الكتابة والنشر والقراءة. فلتكن هذه الربوة مادام لا بدَّ لها ولنا من أن تكون. ولكنها لا تستطيع أن توجد في القاهرة لأن شاطئ القاهرة منبسطة مستوية ليس فيه نجاد ولا وهاد. فلو زعمنا أن الربوة قائمة في هذا المكان أو ذاك من المدينة لاستطاع من شاء من القراء أن يواجهنا بالإنكار ويخاصمنا بالحقائق الواقعة، ويضيع علينا القصة وما يذلنا في كتابتها ونشرها وقراءتها من الجهور.

وأكاد أعتقد أن هذه الربوة لا توجد على شاطئ النيل في مصر كلها . فلست أزعم أنى قد تتبعته الشائىء المصرى كله على النيل ، ولكنى لم أسمع قط عن ربوة كهذه الربوة ، ولا عن قصر كهذا القصر . ولو قد وجدت هذه الربوة وقصرها الشاهق وجنتها الرائعة لكثير عنها الحديث فى كتب الخَطَط أولاً ، وفى الصحف والمجلات ثانياً ، وعلى ألسنة الناس بعد ذلك ؛ لأن جو مصر من الصفاء والنقاء بحيث لا يخفى شىء فيها على أحد من الناس إلا أن تتكاثف عليه الرمال كما تتكاثف على الآثار . وقصتنا لم تحدث فى العصر القديم ، وإنما تزعم أنها حدثت فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، عاصرتنا أو سبقتنا إلى الوجود بوقت قصير جداً .

ومن الجائز أن تكون هذه الربوة مسحورة ، توجد لتفنى ، وتفنى لتوجد ، تظهر اليوم لتستخفى غداً ، وتستخفى غداً لتظهر بعد غد ؛ شأنها فى ذلك شأن كثير من المدن والقرى التى يتحدث عنها القصاص ويراها الرحالون فى قلب الصحراء أو فى أطرافها . ولكنى أستبعد ذلك ، لأنه فى نفسه بعيد أو مخالف لقوانين الطبيعة ؛ فقوانين الطبيعة لا تستطيع أن تثبت أمام قوانين الفن ، وقوانين الفن تبيح أن توجد الربى وتفنى ، وأن تظهر وتختفى ، بل هى تبيح أن توجد هذه الربوة فى مدينة القاهرة نفسها إلى أن تقع أحداث القصة . ثم تمضى بما عليها ومن عليها كأن لم تغن بالأمس . وما دام الزمان يمضى فليس بأس من أن يمضى المكان كما يمضى الزمان . وإذا استبعدت أن تكون هذه الربوة فى مدينة القاهرة ، فصدر ذلك أن القراء يتفاوتون فى الثقافة ويختلف علمهم بأصول الفن . وما أحب أن يتجمل منهم قارئ أو قراء يزعمون لى أن لا وجود لهذه الربوة فى القاهرة ويجادلون فيما لا معنى للجدال فيه .

وأنا مع ذلك أستبعد أن تكون هذه الربوة مصرية لعلة أخرى لا تتصل بطبيعة الأرض ولا بتقويم البلدان ، وإنما هى أعظم خطراً من طبيعة الأرض ومن تقويم البلدان ، لأنها تتصل بالأخلاق .

فأهل مصر كلهم أخيار أبرار ، لا يحبون شيئاً كما يحبون العدل ، ولا يبغضون شيئاً كما يبغضون الجور ، ولا يرفعون أنفسهم عن شىء كما يرفعونها عن صفاء النفس وطهارة الضمير ، ولا يرفعون أنفسهم عن شىء كما يرفعونها عن

مقارفة الاثم ومضاجبة الفساد : يناون عن السيئات أشد ما يكون النأي ، ويتجافون عن الموبقات أشد ما يكون التجافي ، وينزهون أنفسهم عن الخطيئة أشد التنزيه ؛ فلست ترى بينهم قوياً يستذل ضعيفاً ، ولا غنياً يستذل فقيراً ، ولا ناعماً يستطيل على بئس ، ولا سعيداً يستخف بشقى . ولست ترى بينهم متعجلاً للمنفعة ، ولا مؤجلاً لعمل من أعمال البر ، ولا مضحياً بمصلحة الكافة في سبيل المصلحة الخاصة ، ولا مؤثراً لنفسه بالخير من دون موطنه . ولست ترى بينهم من يستحب الحياة الدنيا على الآخرة ، ويؤثر العاجلة على الآجلة ، ويتهاك على اللذات لا يصطنع في سبيلها أناة ولا وقاراً ، ويقبل على الآثام لا يرى في الإقبال عليها حرجاً ولا جناحاً ؛ لست ترى من بينهم أحداً يهتم بشئ من ذلك أو يفكر فيه أو يصد نفسه عنه متكلفاً من الجهد قليلاً أو كثيراً ، وإنما هم قوم فطروا على البر والاحسان ، ورُكبت في طبائعهم خصال التعاون والتناصف والاستباق إلى الخيرات ، وائتلفت أذواقهم من حب الجمال المادى والمعنوى ؛ فهم يكرهون أشد الكره القبح الذى تتأذى به العيون ، وهم ينفرون أشد النفور من القبح الذى تشمئ منه النفوس ، حياتهم الأولى في هذه الدنيا مشاكلة كل المشاكلة لحياة الصالحين المقربين في الجنة التى وعد الله عباده المتقين . وفي هذه القصة ، كما سترى ، شئ من ظلم وجور ، وشئ من استطالة واستعلاء ، وشئ من الاستئثار باللذات في غير تخرج ، والإقدام على الآثام في غير تحفظ ، والاستهتار بما يأبى الرجل الكريم أن يستهتر به أو يظهر الناس على ميله إليه ورغبته فيه . فلا يمكن إذن أن تحدث هذه القصة في مصر ؛ لأن أجدائها منافرة أشد المنافسة للمعروف المألوف من أخلاق المصريين في عصورهم المختلفة وفي عصرهم هذا الحديث خاصة ؛ لأن الأخيار يعضون في الخير كلما تقدم الزمان ، كما أن الأشرار يتخففون من الشر كلما ارتقت الحضارة . وأكبر الظن أن حياة المصريين قد بلغت من الصفاء والنقاء على تقدم الزمن طوراً ليس بينه وبين حياة الملائكة في السماء إلا آماذ قصار . وإذا كان الجيل المعاصر منهم يسعد بهذه الحياة الراضية الرخية النقية أكثر مما سعدت الأجيال الماضية ، فإنه على سعادته العظيمة شقى بالقياس إلى ما ستظفر به الأجيال المقبلة من هذه السعادة التى لا يمكن أن توصف بلغة الناس لأنها لم تُقدّر للناس في حياتهم الدنيا .

ليست هذه القصة مصرية إذن ؛ لأن مكانها لا يوجد في أرض مصر ، ولأن أشخاصها لا يعيشون في جو مصر ، ولأن أحداثها لا تلائم طبائع المصريين . وإذن فقد تسأل نفسك كما أسأل نفسي : أين وقعت أحداث هذه القصة ؟ والحق أن الجواب على هذا السؤال ليس شاقاً ولا عسيراً ؛ فما أكثر البلاد التي ترتفع فيها الرابي على ضفاف الأنهار ، وترتفع فيها القصور الشاهقة المترفة على قمم الرابي ! وإذا لم تكذبني الذاكرة فإن شاعراً من أصحاب الموشحات قد صور لنا ربي كثيرة في أسبانيا ، كان يطلب إلى السحب أن تجلجل تيجانها بالخلي ، وأن تجعل منعطفات الجداول لها أساور من لجين ، وإن شئت فقل أساور يختلف معدنها باختلاف ما يلقي عليها من الضوء وما يعكس عليها من الألوان ؛ فبهي من فضة حين يمتع النهار ، وهي من ذهب حين يترقق على صفحاتها ضوء الأصيل . والمهم أن هذا الشاعر الموشح الموفق قد دلّنا على مكان هذه الربوة الرائعة التي يقوم عليها هذا القصر المنيف . فلنقل إذن إنها في أسبانيا . وأنت تعرف أن أسبانيا هي البلد الذي يبني الخيال فيه ما يشاء من القصور ومن القصور المطاوعة التي ترتفع في السماء وتتسع في الفضاء ما شئت لها الارتفاع والاتساع ، والتي تنخفض وتنقبض حين تريد لها الانخفاض والانتقباض ، والتي تندك وتنهار وتصبح أطلالاً بالية حين تريد أن تقف عليها كما كان يقف الشعراء القدماء على أطلالهم ، وأن تنشدها عليها هذا الشعر الذي أنشده النابغة على طللته القديم :

يادار مية بالعلياء فالسند أقوت و طال عليها سالف الأمد
وقفت فيها أصيلاً أسائلها عيت جواباً وما بالربع من أحد

ربوتنا إذن في أسبانيا ، قد أشرفت على نهر من أنهارها ، وانحدرت إليه كما قلت في سهولة ويسر ، واتخذت لنفسها من الشجر والزهر تاجاً رائعاً بارع الجمال ، واتخذت لتاجها هذا الرائع البارع من ذلك القصر الشامخ الباذخ الأنيق درة نادرة المثال منقطعة النظير ، تستطيع أن تلمس لها اسمين هذه الدرر الكثيرة التي يأتلف منها كتاب العقيد الفريد لذلك الكاتب الشاعر الأندلسي العظيم .

ولكنى لم أصف الربوة حق وصفها ولم أصورها كما ينبغي لها أن تصور .
فأنت لا تحسن الوصف والتصوير لشيء من الأشياء إلا إذا وصلت به ملحقاته
التي تكمله وتعطيه صورته النهائية ، إن أتيح لشيء من الأشياء في هذه الحياة
أن يظهر بصورته النهائية في يوم من الأيام . ولهذا الربوة ملحق لا يمكن
إهماله لأن إهماله يخل بنظام القصة إخلالا خطيراً . فالجمال لا يستقيم إلا إذا
جاوره القبح ، والنعيم لا يكمل إلا إذا جاوره الجحيم . وما ينبغي أن تحتج على
بنعيم الجنة وجمالها ؛ فنعيم الجنة وجمالها لا يستقيمان إلا إذا كان بازائهما قبح
جهنم ، وما يَصْلَى الخاطئون فيها من نار الجحيم .

لا بد إذن من أن أتم تصوير الربوة بشيء من الحديث عن هذا الملحق
الذى لا يستقيم أمرها بدونه . وهذا الملحق قرية تقوم على السهل المنبسط مما
يلي الربوة ، وهى بعيدة الأرجاء ، مترامية الأطراف قبيحة المنظر إلى أقصى غايات
القبح ، تقوم فيها دور منخفضة لا تكاد ترتفع في الجو إلا قليلا ، لم تتخذ
من الحجر ولا من الآجر ولا من اللبن ، وإنما اتخذت من الطين قد صنع صناعة
غليظة خشنة ، وأسند بعضه إلى بعض وأقيم بعضه على بعض ، فاثقلت منه
بيوت كانت تريد أن تكون جدراناً تتخذ في باطن الأرض ، ولكن أهلها
لم يحدوا من القوة ولا من الجهد ولا من المال ما يمكنهم من اجتفار الجحور
في الأرض ، فآثروا أيسر الأمور واتخذوا دورهم من هذا الطين المهمل الغليظ .
وقد قامت هذه القرية البائسة ، في هذا السهل المنبسط ، على شاطئ النهر
الجميل ، وإلى جانب الربوة الرائعة ، ليعلم الناس وليعلم النهر أيضاً ، وليشهد النهار
المشرق والليل المظلم ، وليسجل التاريخ الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا
احصاها . أن الحياة مزاج من الخير والشر ، ومن النعيم والبؤس ، ومن الجمال
والقبح ، ومن السعادة والشقاء وأن تمايز الأشياء وتفاوت الأحياء أصل من
أصول الوجود . فلو لا الفقر ما كان الغنى ، ولو لا البؤس ما كان النعيم ، ولو لا
الانخفاض ما كان الارتفاع ، ولو لا الضيق ما كانت السعة .

ولست في حاجة إلى أن أفصل ما تمتاز به الربوة من جمال ، وما تمتاز
به القرية من قبح . فقد لا يكون من الخير ولا من الذوق ولا من
حسن الرعاية للقراء أن أستأثر وحدي بهذا الوصف ؛ فأنا لم أستأثر بالخيال
من دون القراء ، بل أنا قد أكون أقل الناس حظاً من الخيال وقدرة

على الوصف وبراعة في الأداء . ولم يخلق الله أديباً يستطيع أن يستأثر وحده بوصف ما يعرض على قرائه من الأشياء والأحياء ؛ فهذا الوصف شركة دائماً بين الأديب المنتج والقارئ المستهلك . وليس من المحقق أن الأشياء التي يعرضها الأدباء تقع في نفوس القراء كما يعرضونها عليهم ، وإنما الشيء الذي ليس فيه شك هو أن القراء يشاركون في الخلق والإنشاء ، ويسبقون من ذات أنفسهم على ما يجلو لهم الكتاب من صور ألواناً لعل الكتاب أنفسهم لم يروها ، ولعلها لم تنخطر لهم على بال . فهذه الربوة التي تحدثت عنها ، وهذه القرية التي أشرت إليها ، تقعان من نفوس القراء على اختلافهم مواقع مختلفة متباينة ، لعلها لا تلتقي ولا تتشابه إلا في القليل . فالإنتاج الأدبي إذن شركة بين الأديب وقارئه ، وليس الأديب في حقيقة الأمر إلا رائداً يمهّد الطريق : وما ينبغي للقراء إذن أن ينخدعوا عن أنفسهم ، ولا أن يخلعوا على الأدباء هذه الخصال الرائعة التي تثير فيهم الغرور وتغريهم بالكبرياء . والذي أريد أن أصل إليه هو أنني أعتمد على القراء في أن يعمل كل منهم خياله ما وجد إلى إعماله سبيلاً ، ليصور لنفسه هذه الربوة جميلة كأروع ما يكون الجمال ، وهذه القرية قبيحة كأبشع ما يكون القبح ، وألا تكون قراءتهم سلبية غير ذات غناء . فهذه القصة لا تحتل القراءة السلبية ، وإنما هي تريد ، بل هي لا تقوم إلا على المشاركة الإيجابية بين الكاتب حين يرسم الخطوط وبين القارئ حين يتم الرسم ويملاً ما بين الخطوط من فراغ لعله ترك عن إرادة وعمد .

ولعل القارئ يظن ، وهو معذور إن ظن ، أن هذا الحديث قد طال وأسرف في الطول قبل أن يصل إلى أول هذه القصة ؛ فكتابنا قد عودوا القراء أن يهيئوا لهم الأدب كما يهيئ لهم الطعام ؛ فليس على القراء إلا أن يقرأوا ويسبقوا ، كما أنهم أو كما أن بعضهم ليس عليه إلا أن يجلس إلى مائدة الطعام في مواعيد موقوتة لمضغ ويسينغ .

أما أنا فلا أحب هذا اللون من الطبع الأدبي ؛ لأنني أكبر نفسي وأكره أن أكون خادماً للقراء من جهة ، ولأنني أكبر القراء ، وأكره أن تكون آذانهم أفواهاً وعقولهم بطوناً يلقي إليهم الكلام فيسمعون ثم يسيغون ؛ لا أحب شيئاً من هذا ، وإنما أحب أن أنشيء بيني وبين القراء نوعاً من

الزمالة ، بحيث نبدأ القصة معا ، ونمضي فيها معا ، وننتهي منها معا ، تتفق أحيانا ونختلف أحيانا أخرى ، ويشجر بيننا الخصام من حين إلى حين . وقد كدنا نصل إلى أول القصة إن كنا لم نخط فيها خطوات واسعة فيما أعتقد . فليست القصة حكاية للأحداث وسرداً للوقائع كما استقر على ذلك عرف النقاد والكتاب ، وإنما القصة فقه لحياة الناس وما يحيط بها من الظروف ، وما يتتابع فيها من الأحداث . وإذا كان الأمر كذلك وهو عندي كذلك ، فنحن قد بدأنا القصة منذ الكلمة الأولى من هذا الحديث . وعلى كل حال فليس بيننا وبين الأخذ في عرض الحوادث إلا شئ واحد ، وهو أن نتبين الصلة بين القرية الملقاة على السهل والربوة المشرفة على النهر . وهذه الصلة قريبة كل القرب ، يسيرة كل اليسر ، ليست بعيدة ولا عسيرة كالصلة بين القصر وقريته في قصة الكاتب المعروف كفا Kafka لأنى لا أظن في حديثي رمزاً ولا إيماء ، وإنما أظن الصراحة التي تؤثر الجلاء وتكره الغموض . والذين قرأوا قصة القصر لهذا الكاتب ذى الصوت البعيد يعرفون أن قصره إنما هو رمز للعالم العلوى ، وأن قريته إنما هي رمز للعالم السفلى ، ومن هنا تعقدت الصلة بين هذين العالمين . أما ربوتى أنا فهي ربوة من هذه الربى التي يراها الناس في كل يوم ويقرءون عنها في كل كتاب من كتب الأدب ، وليس أدل على ذلك من أنى قد استعرتها من ذلك الشاعر الأندلسي القديم . وأما قصرى أنا فهو قصر من هذه القصور التي يشهدها الناس حين يصبحون وحين يمسون ، قد بنى من المادة التي تبنى منها القصور ، وأثث بالآثاث الذي تزدهى به القصور ، وأترف أهله كما تعود الناس أن يترفوا في هذه الحياة التي نحياها ، وفي هذا العصر الذي نعيش فيه . فن أيسر الأشياء أن يهبط رجل من أهل القصر إلى القرية ، ليس عليه في ذلك إلا أن يمضى أمامه حتى يقرب من شاطئ النهر ، ثم ينعطف إلى يمين فيرى أمامه طريقين إحداها ممهدة تمهيداً حسناً كأنها أعدت لصعود السيارات وانحدارها ، والأخرى ممهدة تمهيداً مقارباً ضيقة بعض الضيق ، ولكنها أقصر من الأخرى ، وهى الطريق التي يسلكها الزاجلون ، وقد يرى فيها الفرسان الذين يمتطون الخيل . وكذلك يستطيع الرجل من أهل القرية أن يرقى إلى هذا القصر على قمة الربوة سالكا الطريق .

الأولى إن أراد التيسير على نفسه بالسعى الهين والرقى السهل ، وإن أراد كذلك أن يلهو بما يلقي في طريقه من هذه السيارات الصاعدة الهابطة بمن فيها من السادة والقادة والغادات الحسان . وسالكا إن شاء الطريق . الأخرى إذا لم يشفق من التصعيد العسير الملتوى ، وإذا كان حريصاً بنوع خاص على أن يبلغ القصر في أقصر وقت ممكن وفي غير تلكؤ أو إبطاء . هذه هي الصلة المادية بين الربوة والقرية ، وهي كما ترى قريبة ميسرة . فأما الصلة المعنوية فأشد من الصلة المادية قرباً وأعظم منها يسراً ، هي صلة السادة بالخدم ، أو صلة الخدم بالسادة لا أكثر ولا أقل . وما ينبغي أن تظن أن أهل القرية جميعاً خدم يعملون في القصر يرقون إليه مع الصبح ويهبطون منه مع الليل ؛ فأهل القرية ليسوا من هذه الخدمة في شيء ، بل هم لا يرقون إلى القصر إلا قليلاً ، وهم حين يرقون إليه لا يبلغونه فضلاً عن أن يدخلوه ، وإنما يبلغون مكاتب الدائرة التي ألحقت به ، فيتصلون بهذا الموظف أو ذاك لما يمكن أن يكون بينهم وبين هذا الموظف من عمل . هم خدم للقصر على هذا النحو الذي تعرفه والذي تراه في كل مكان يقوم فيه قصر نخم وتنسط فيه أرض زراعية يملكها أصحاب القصر ، ويعيش من حوله قوم يعملون في هذه الأرض ويعيشون مما يعملون . فجزء عظيم من السهل المنبسط في أسفل الربوة ملك لسادة القصر ، وأهل هذه القرية هم الفلاحون الذين يزرعون هذه الأرض ويستغلونها ويستخلصون خيراتها لسادتهم . يقدمون إليهم كل هذه الخيرات ويعيشون على ما يساقط منها هنا وهناك وعلى ما يفضل به عليهم سادتهم من الفئات . لا يملكون شيئاً ، وليس لهم أمل في أن يملكوا شيئاً ، لا يكادون يملكون أنفسهم . وليس لهم أمل في أن يستقلوا ملك أنفسهم . هم أحرار في ظاهر الأمر يذهبون ويحيثون ، ويستيقظون وينامون ، ولكنهم رقيق في حقيقة الأمر لأنهم لا يذهبون إلا إلى حيث يعملون ، ولا يحيثون إلا إلى حيث ينامون ، ولأنهم يطمعون ما أريد لهم أن يطمعوا لا ما يريدون هم أن يطمعوا . ولعالمهم لا يريدون أن يطمعوا إلا ما يسر لهم ؛ لأنهم لا يعرفون غير ما يسر لهم ، ولا يستطيعون أن يطمعوا فيما لا علم لهم به . ولأنهم بعد ذلك لا يستطيعون أن يتصرفوا في شيء لأنهم لا يجدون شيئاً ، ولا يطمعون في أن يجدوا شيئاً يمكن أن يتصرفوا فيه . هم أحرار

كالعبيد ، وعبيد كالأحرار ، ليسوا راضين ولا ساخطين ؛ لأنهم لا يعرفون الرضا ولا السخط ، وإنما يعيشون كما تعيش النمل تدفعهم الغريزة وتدبر أمرهم إرادة سادتهم في القصر . ويجب أن نعتزف بأن هؤلاء السادة قساة القلوب غلاظ الأكباد ، يؤثرون أنفسهم بكل شيء ، ولا ينزلون لغيرهم عن شيء ؛ ولأجل هذا قلنا إنهم لا يمكن أن يكونوا من المصريين . .

وقد آن للحوادث أن تحدث ، وللقصة أن تأخذ طريقها إلى الوجود إن لم تكن قد أخذته من قبل . وأول ما نشهده من حوادث القصة منظر هذا الشاعر الذي نيتف على الستين ولكنه احتفظ بقوة توشك أن تكون قوة الشباب ، وهو على ذلك يتكلف الشيخوخة ويتصنع الضعف حين يراه سادة القصر ، وهو لا يمشى إلا متوكئاً على عصا يسرف في الانحناء عليها إذا رآه الناس ، فإذا خلا إلى نفسه اعتدلت قامته واستقام قدمه ، ونظر إلى ما حوله معجباً تياها . وقد تعود صاحب القصر الذي سنعرفه بعد قليل أن يراه منحنيًا يمشى على ثلاث ، كما كان يقول أبو الهول في سؤاله لأوديب فكان كل ما رآه أنشد متضاحكا ساخرًا قول جرير :

وتقول بوزع قد دببت على العصا هلا هزئت بغيرنا يا بوزع

ونحن نرى هذا الشاعر الشاب الشيخ وقد خرج من الجناح الذي يقيم فيه عن يمين القصر ، وسمى منحدرًا في بظء وتمهل يريد أن يبلغ المجلس الذي تعود أن يلتقي فيه صاحب القصر في جوسق جميل على شاطئ النهر ، ولكنه يلتقي في طريقه شيخًا لاحظ له من قوة ولا من شباب وهو البستاني عثمان الذي يقول له في صوته المتهاك المحطم : « في المكتب ، يا سيدي في المكتب ! . إنه لم يخرج اليوم من مكتبه ولم يهبط إلى الحديقة ، ولم يقف عند أزهاره التي تعود أن يطيل الوقوف عندها » . قال الشاعر الشيخ الشاب : « عم صباحاً يا عثمان ، في المكتب ! ماذا سيصنع سيدك في المكتب أيمن أن يعيش الناس تحت السقوف وبين الجدران حين تصفو السماء وتتألق الشمس وتزئزئ الأرض ويثهادى النهر على هذا النحو ! دعه في المكتب ؟ يا عثمان ولا تؤذنه بمكاني إلا أن يسألك ، ولكن أرسل إلى القهوة ، أرسل إلى قدحين لا قدحاً واحداً ، وقف على إبراهيم حتى يتقنها ، فأنت تعرف القهوة التي أحب » . قال عثمان : « طاعة يا سيدي ! ولكني

رأيت مولاي عابسا هذا الصباح كما لم أره قط . قال الشاعر : « عابسا ! عابسا !
لقد أدركه بعض الخبل ، إنه يعبس والدنيا باسمه ، ويحبس نفسه وكل شيء يدعوه
إلى أن ينعم بهذا الجمال . دعه محبوساً عبوساً ، وأرسل إلى قهوتي ولا تنبئه
بمحضري إلا أن يسألك . »

ثم مضى أمامه منحنيّاً على عصاه مستأنياً متمهلاً حتى بلغ الجوسق فجلس
إلى المائدة ونشر أمامه أوراقاً وأخذ بيده قلماً وجعل يطيل النظر إلى النهر
كما كان يستمايه ثم يكتب متباطئاً على ما بين يديه من الأوراق .

طه حسين

[يتبع]

في أفق السياسة العالمية

بين روسيا والولايات المتحدة

ليس في العالم كله بلاد كروسيا والولايات المتحدة بينها أوجه الشبه كما تعددت أوجه الخلاف ، وتوافرت فيها أسباب الاتفاق كما توافرت عوامل النفرة والجفاء . وأنت لو ألقيت إلى الكرة الأرضية بنظرة فاحصة لكشفت لك عن وجود مساحتين شاسعتين متقابلتين من اليابسة ، إحداهما في نصف الكرة الشرقي ، والثانية في النصف الغربي ، وفي كل منهما تقوم حكومة مركزية واحدة تجمع بين شتات هذه الأرجاء الواسعة ، وتشرف على نظامها العام ومواصلاتها ودفاعها وعلاقاتها مع سائر الأمم . أما في نصف الكرة الشرقي أو العالم القديم فتقوم حكومة اتحاد جمهوريات السوفيت الاشتراكية ، ومساحتها تزيد على ثمانية ملايين من الأميال المربعة ، ويبلغ عدد سكانها ١٨٠ مليون من الأنفس . وأما في نصف الكرة الغربي أو العالم الجديد فتقوم حكومة الولايات المتحدة بأمريكا ، ومساحتها تزيد على ثلاثة ملايين من الأميال المربعة ، ويبلغ عدد سكانها نحو ١٣٠ مليون من الأنفس ، ولا يفوقهما في العالم كله إلا بلاد الهند والصين ، وذلك من حيث عدد السكان فحسب . وروسيا والولايات المتحدة كلتاهما تخرقها أنهار عظيمة تنساب بين سهول خصبة مترامية الأطراف ، كثيرة الخيرات ، موفرة المحصولات ، وفيها مراعي ممتدة وهضاب وأودية وسلاسل من الجبال يستخرج من ظاهرها وباطنها معادن مختلفة ، وفي مقدمتها زيت البترول ومنه تنتج الولايات المتحدة ٦٤ ٪ من محصول العالم ، وتليها روسيا إذ تنتج منه ١٢ ٪ ولعظم مساحتهما تعتبر كل منهما قارة قائمة بنفسها في عزلة عن غيرها ؛ فروسيا في عزلة برية شبه جليدية تبدأ من البحر البلطي في غرب أوربا وتنتهي عند ساحل المحيط الهادي الشمالي شرقي روسيا . وأما عزلة الولايات المتحدة فعزلة بحرية ، إذ يكتنفها المحيط الاطلنطي من الناحية الشرقية ، والمحيط الهادي من الناحية الغربية ،

وكما تغلبت الولايات المتحدة على وصل أبعاد الفيا في السحيفة بإنشاء السكك الحديدية بين المحيطين في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، كذلك ربطت روسيا بين غربها وشرقها بإنشاء خط سيبيريا الحديدى في أوائل القرن العشرين . ولكن بينما كان إنشاء السكك الحديدية في الولايات المتحدة مقدمة لتعمير أراضيها وزيادة إنتاجها وإشاعة الرغد والرخاء في ربوعها ، كان امتداد السكك الحديدية في روسيا شرقاً عابراً سيبيريا نذير شؤم على الأهالى ؛ إذ أصبح العمل في إنشاء السكك الحديدية واستغلال المناجم والعمل في المصانع الواقعة قربها تكليفاً شاقاً ينوء به عادة المجرمون والمسخرون من رقيق الأراضى ومئات الألوف من السياسيين والمفكرين الأحرار والاشتراكيين الذين نالهم سخط الحكومة فكان نصيبهم النفى إلى تلك البقاع ، يعيشون في صحراء من الجليد لافكك منها وليس فيها أثر من آثار الرحمة الإنسانية ، فكانوا يموتون ضحية الجوع والمرض والقسوة واليأس .

وليس في كل هذا أمر يدعو إلى العجب والدهشة ، إذا عرفنا أن الروس كافة قد ظلوا مستعبدين قروناً طويلة ، يتحكم فيهم الأشراف ويسومونهم سوء العذاب ، ويعيشون ملتصقين بالأرض كالسائمة أو كالعبيد . وظل هذا شأنهم إلى أن أصدر القيصر إسكندر الثانى سنة ١٨٦١ قانوناً يحرم من عبوديتهم . ومنذ ذلك التاريخ أخذت الأجيال الناشئة تنفس نسيم الحرية والكرامة الإنسانية ، وحملت مشاعل الثورة ومعاولها التى قوضت أخيراً حكومة القيصرية . ولذلك كان الروس قبل هذا التاريخ في عزلة عن غرب أوروبا ، فلم يتأثروا كما تأثرت شعوب غربى أوروبا بحركة النهضة أو بالثورة الفرنسية وما تبعها من أحداث وثورات ، ولم تمسهم حركات الإصلاح الدينية التى انبعثت من روما وألمانيا وسويسرا في القرنين السادس عشر والسابع عشر . لذلك بقى الحكم في روسيا طوال هذه القرون حكماً أتوقراطياً محتاً بالغاً منتهى الشدة والقسوة ، وظل الشعب يرسف في أغلال جهله وفقره المدقع إلى أن قامت الثورة البلشفية في سنة ١٩١٧ . ولا نستثنى من ذلك الفترة التى اعتلى فيها العرش القيصر إسكندر الأول ، الذى كان قوام المعارضة الأوربية بين سنة ١٨١٢ و ١٨١٥ ، وهى المعارضة التى قضت على نابليون بونابرت . وقد بدا للناس حينذاك أن القيصر يريد أن يبدأ عهداً جديداً من الحرية وحكم القانون ، لا في روسيا وحدها بل في إقليم بولندة كذلك

التي اقتسمتها روسيا والنمسا وروسيا ومحوها قبيل نهاية القرن الثامن عشر من الوجود السياسى ، فإن هذه الفترة لم تظل إلا سنوات قليلة لم يلبث بعدها إسكندر أن انحاز إلى جانب سياسة مترنخ الرجعية ، وسرعان ما صارت روسيا سوط العذاب يلهب به مترنخ ظهور الأحرار أينما وجدوا حتى لو كانوا فى أمريكا من وراء المحيط . فقد قامت فى سنة ١٨٢٢ ثورة فى أسبانيا على ملكها فرديناند السابع ، ومنها انتقلت إلى مستعمراتها فى جنوب أمريكا ، فما كان من إسكندر قيصر روسيا إلا أن تقدم يريد إرسال قواته تعبر أوروبا لقمع الثورة لافى أسبانيا فحسب ، بل فى المستعمرات أيضاً إذا اقتضت الحال . وكان من الطبيعى فى ذلك الوقت أن تعترض فرنسا وإنجلترا على هذا الدور الدكتاتورى الرجعى الذى أراد القيصر تمثيله على مسرح السياسة الدولية ، فقرر مؤتمر الدول الذى انعقد فى فيرونا أن يعهد إلى فرنسا ، وهى أقرب الدول إليها ، بقمع الثورة . وفى ذلك الحين خشيت إنجلترا والولايات المتحدة ، وكانت لهما فى المستعمرات الأسبانية مصالح تجارية حيوية أن يمتد أثر قرار فيرونا إلى أمريكا ، فقام جيمس منرو Monroe رئيس الولايات المتحدة فى ديسمبر سنة ١٨٢٣ فأعلن تصريحه الشهير الذى قامت على مبادئه من بعد سياسة أمريكا الخارجية . وينص ذلك التصريح على أن الأقاليم الأمريكية لم تعد مجالا للتدخل أوللاستعمار الأوروبى ، وأن أى تدخل من جانب أية دولة أوروبية تعتبره الولايات المتحدة عملا عدائياً موجها ضدها . وأعقب ذلك اعتراف كاتنج وزير خارجية إنجلترا باستقلال المستعمرات الأسبانية سنة ١٨٢٤ ومنذ ذلك الوقت أصبحت شؤون الجمهوريات الأمريكية من اختصاص الولايات المتحدة دون غيرها من سائر الدول .

وبذلك استطاع شعب الولايات المتحدة أن يصفون استقلاله وحرياته ، بل أن يقف فوق ذلك حارسا على حريات الشعوب الأمريكية وضامنا لاستقلالها جميعا . وحدث ذلك فى وقت كان فيه الشعب الروسى يرسف فى أغلال عبوديته وجهله وفقره . وليس بغريب أن يصل شعب الولايات المتحدة إلى هذه الدرجة من النضج السياسى ، وإلى هذه المسكاة بين الدول ، إذا عرفنا أنه وريث الفضائل والصفات التى ميزت المهاجرين الأوّل من أحرار الانجليز والهولنديين والفرنسيين الذين أبت عليهم نفوسهم الأليسة أن يقيموا على الضيم والاضطهاد الدينى فى أوروبا فهاجروا أول ما هاجروا من إنجلترا فى سنة ١٦٢٠ تحملهم

سفينة « ميقلور » إلى الساحل الشرقى من الولايات المتحدة حيث أقاموا حكوماتهم على أساس من الحرية والمساواة والعمل لصالح المجموع ، حتى إذا رأوا من جانب حكومة الأمم فى إنجلترا عنتاً وتشبثاً بحقوق لا تستند إلا على القوة لم يترددوا فى إعلان الثورة عايتها وحمل السلاح ضدها ، وسرطان ما قامت حرب الاستقلال الأمريكى التى انتهت سنة ١٧٨٣ ؛ واتهزت دول أوروبا المنافسة لإنجلترا هذه الفرصة فأعلنت خيبتها المسلحة ضد إنجلترا ، حتى لا تستغل إنجلترا تفوقها البحرى فى مناوأة تجارتهم مع أمريكا . وكانت روسيا إلى جانب الحيدة المسلحة ضد إنجلترا ، ولكنها كانت فى الوقت نفسه تمقت الثوار ومبدأ الثورة ، فلم تشأ أن يكون بينها وبين الولايات الثائرة بعد استقلالها صلات أو روابط من أى نوع كانت ، واستمرت كذلك حتى أوائل القرن التاسع عشر حين استقبل إسكندر الثانى أول ممثل للولايات المتحدة فى سنة ١٨٠٩ وعقدت أول معاهدة تجارية بين البلدين فى سنة ١٨٣٢ .

ولما قامت الحرب الأهلية بين ولايات الجنوب وولايات الشمال ، وكان أهل الجنوب يريدون أن ينفصلوا عن الولايات الشمالية ، حتى لا يتعرض اقتصادهم الزراعى والاجتماعى القائم على استخدام الرقيق لآى خطر من ناحية الرئيس لنكولن وولايات الشمال الصناعية ، كانت إنجلترا وفرنسا تناصران حركة الجنوب الانفصالية ، حتى لا تقوى الولايات المتحدة وتصبح يوماً دولة كبيرة منافسة . ومن عجب أن تكون روسيا حينذاك إلى جانب الولايات المتحدة مع أنها لم تكن تربطها بالولايات المتحدة أية رابطة من الجنس أو الدين أو الثقافة ، بل كانت روسيا تعتبر إذ ذلك مباءة الحكم الرسمى الاوتقراطى ، كما كانت الولايات المتحدة الشمالية تمثل أكثر المبادئ حرية وتسامحاً وإنسانية

وقد أبدى إسكندر الثانى قيصر روسيا من الاهتمام بقضية الولايات المتحدة ما جعله يسارع بإرسال جزء من أسطوله يرسو فى ميناء نيويورك وسان فرانسيسكو ، وأعلن فى صراحة أن بقاء الولايات المتحدة دولة مستقلة متمسكة أمر لا يدمنه لصيانة السلم بين الدول . وكان هذا الموقف من أهم الأسباب التى دعت إنجلترا وفرنسا إلى العدول عن موقفها العدائى نحو الولايات الشمالية .

ولما سئل القيصر إسكندر عن سبب رثوته هذا الموقف من النزاع

الأمريكي أجاب بأنه إنما فعل ذلك خدمة لصالح روسيا لا حباً في الولايات المتحدة .

فقد كان التنافس بين روسيا وبريطانيا شديداً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وكانت روسيا حديثة عهد بخروجها منهزمة أمام انجلترا وحليفاتها في حرب القرم ، فأرادت روسيا أن تثار لنفسها ، فتعمل على تقوية الولايات المتحدة لعلها أن تنمو يوماً فتتفوق على بريطانيا ، وعلى ذلك ينقشح المجال أمام روسيا في آسيا وفي البحر المتوسط . وتحقيقاً لهذا الغرض لم تجد روسيا مانعاً من التزول للولايات المتحدة عن أرض شبه جزيرة ألسكا شمالي كندا في سنة ١٨٦٧ مقابل مبلغ ضئيل دفعته أمريكا ، حتى لا تسيطر على مضيق بيرنج دولة أجنبية .

ولما قامت الحرب العالمية الأولى كان وجود روسيا إلى جانب انجلترا وحلفائها من الأسباب التي جعلت حكومة الولايات المتحدة تردد طويلاً قبل تصديق ما أعلنه الحلفاء من أغراضهم في دخول الحرب ، إذ لم يكن معقولاً حينذاك أن تشترك حكومة روسيا القيصرية في نصرة المبادئ الديمقراطية واحترام حريات الشعوب وحكومتها إذ ذاك في أسفل درك من الفساد والطغيان . وفعلاً لم تشترك الولايات المتحدة في الحرب إلا بعد أن اشتعلت نار الثورة البلشفية الكبرى في روسيا ، وأعلن الثوار على الملأ أنهم إنما يريدون السلام ولا مطمع لهم في أرض أو مال للغير ، وعلى ذلك سرعان ما عقدت مع ألمانيا معاهدة برست ليتوفسك في مارس سنة ١٩١٨ أي قبل انهزام ألمانيا النهائي بشهور قليلة .

ومنذ ذلك اليوم انطوت روسيا على نفسها ، وأخذ الثوار يكافحون في سبيل توطيد دعائم الثورة ودرء خطر القوات الرجعية التي كان الحلفاء يؤازرونها ويمدونهم بالمال والرجال ، حتى ملئت روسيا على دول الغرب سيخاً وغلاً وحفيظة ، ولم تجد أمامها إذ ذاك إلا دول الشرق الناشئة كتركيا وإيران وأفغانستان فأوثقت معها روابط الصداقة وعدم الاعتداء ، وأقامت بينها وبين دول الغرب أو أقاموا بينهم وبينها ستاراً كثيفاً جعلها بمعزل عن العالم الغربي .

وكانت الولايات المتحدة أشد هذه الشعوب مقتناً لحكومة الثوار في روسيا ، وأكثرها رغبة في تجنب الاتصال بها . فبينما عملت انجلترا وفرنسا على

إنشاء علاقات تجارية بينها وبين روسيا أسوة بما سبقت إليه ألمانيا في سنة ١٩٢٢ بمقتضى معاهدة رابالو ، فإن الولايات المتحدة ظلت جامدة في موقفها أزاء روسيا ، كارهة أن يكون بينها وبين البلاشفة أية صلة مهما كان بعدها عن السياسة . وقد استاء شعب الولايات المتحدة من الثوار في روسيا حين تنكروا للدين المسيحى ، وأنكروا الديون التى كانت لأمريكا على الحكومة القيصرية ، وحين أقاموا نظام الثورة على أساس من الغدر والتقتيل والتشريد إلى درجة أفزعت الشعوب الغربية ، ولأنهم لم يقتصروا على تنفيذ مبادئ ثورتهم في بلادهم بل عملوا سراً وعلانية على نشر هذه المبادئ ومحاولة تنفيذها في البلاد الأجنبية الأخرى ، يريدون أن تعم الثورة الشيوعية العالم كله ويكون لموسكو الأمر كله على الناس جميعا .

ولما أصبح الأمر في روسيا بيد ستالين بعد موت لينين في سنة ١٩٢٤ دخلت روسيا في طور جديد من حياتها السياسية ؛ إذ لم يكن ستالين من قادة الفكر النظريين الذين درسوا في جامعات أوروبا واطلعوا على آراء الغرب وكتبهم ، بل كان رجلاً حريياً عملياً يعتبر حقائق الواقع ، فلم يشأ أن يضحي بمصلحة روسيا في سبيل تحقيق ما قصد إليه ماركس ولينين وتروتسكى من تعميم الثورة الشيوعية في العالم بطريق العنف والقوة ، وضم ستالين على تركيز جهود الثورة في روسيا أولاً بإنهاء صناعيتها وثقافتها ، وتطهيرها تدريجاً من عناصر الشيوعية العالمية . ومن حسن طالع ستالين أن أوروبا كانت تجنى في هذه الفترة أحسن ثمار عصبة الأمم ؛ إذ دخلت ألمانيا العصبة في سنة ١٩٢٦ وسادت بلاد العالم موجة من حب السلام جعلت روسيا تشترك من صميم قلبها في اللجنة التحضيرية لمؤتمر تخفيف التسليح الذى انعقد في جنيف ١٩٣٢ مع أنها لم تكن عضواً في العصبة إذ ذاك ، وقد كان صوت مندوبها لتشينوف أقوى صوت ارتفع في المؤتمر منادياً بوخدة السلام في العالم ، وبتخفيف التسليح بل ونزعه تماماً في مدى سنوات قليلة .

ولما لم يفد مؤتمر نزع السلاح شيئاً وباعت عصبة الأمم بالخيبة ، تنهت روسيا إلى موقفها أزاء الدول ، وأدركت أنها إنما تقف وحدها في عزلة حربية وسياسية عن دول العالم ، وأيقنت أن مسابقة التسليح بين الدول ستعود حتماً إلى أشد مما كانت عليه في الماضى ، وأن مصير الثورة في روسيا قد أصبح معرضاً للضياع إذا لم تنهض بسد حاجاتها الحربية والصناعية بنفسها . وعلى ذلك بدأ ستالين سنة

١٩٢٩ مشروع السنوات الخمس الشهير مرة بعد مرة ، حتى شهد العالم وهو مشدود مبهوت إحدى معجزات القرن العشرين الاقتصادية ؛ إذ تمحوات روسيا إلى بلاد صناعية تنتج كل ما تحتاج إليه حربيا واقتصاديا ، وذلك إلى جانب نهضة زراعية اجتماعية وحركة عمرانية ثقافية أصبحت مضرب المثل في مداها وكفايتها ، وأصبح ستالين صاحب هذه النهضة الكبرى ومبدعها معبود القوم وملاذم الأعلى في السلم وفي الحرب .

وفي هذه الأثناء كان قد ولي رئاسة الولايات المتحدة رئيس حصيلف واسع الأفق شديد الإيمان بالمبادئ الديمقراطية والأهداف الإنسانية العامة ، فهاه أن تكون بين أمريكا وروسيا تلك الهوة السحيقة من الجفاء وعدم الثقة مما أضاع على الولايات المتحدة الاتصال بأعظم دول أوربا قوة وسكانا وأفسحهم مستقبلا ، فقرر أن الوقت قد حان لاتصال الشعبين تحقيقاً لمصلحتهما السياسية والاقتصادية . وكانت الحركة النازية قد اشتدت في ألمانيا ، وأصبح هتلر يهدد روسيا من جهة ودول الغرب من جهة أخرى ، كما أصبحت اليابان بعد احتلالها منشوريا تهدد مصالح الولايات المتحدة كما تهدد مصالح روسيا في الشرق الأقصى . وكانت كل من روسيا والولايات المتحدة في عزلة سياسية خارجة عن مدار عصبة الأمم ؛ وعلى ذلك سرعان ما تقاربت مصالح البلدين ، فاستقبل الرئيس روزفلت سفير روسيا لتفينوف في سنة ١٩٣٣ ، وأرسلت الولايات المتحدة سفيرها مستر ديفيس سنة ١٩٣٧ وإليه يرجع الفضل في تنوير أذهان الشعب الأمريكي بشأن النهضة البلشفية . وكانت روسيا قد اشتركت في عصبة الأمم سنة ١٩٣٤ وارتبطت بأواصر المودة مع الدول الديمقراطية عندما قامت أزمة الحبشة ورفع هتلر القناع عن مطامعه . واستمرت العلاقات ودية بين البلدين حتى آثم هتلر لعبته السياسية الكبرى سنة ١٩٣٩ إذ مازال بستانلن حتى جعله يعقد مع ألمانيا معاهدة عدم الاعتداء ويهمل مساعي إنجلترا وفرنسا في هذا السبيل . فعاد الشعب الأمريكي يسخط على زعماء روسيا ويتهمم بكل نقيصة . وزاد من سخطهم هجوم روسيا على دول البلطيق وغزوها دولة فنلندة الصغيرة ؛ وتأكد لأمريكا أن حصول هتلر على ما يحتاج إليه من زيت البترول من روسيا سيساعد ألمانيا على المضى في عدوانها ضد الدول الديمقراطية ؛ وعلى ذلك توترت العلاقات بين البلدين ، وظلت كذلك حتى كشف هتلر عن نياته ضد روسيا ، حينئذ استفاق

الروس إلى منظر عجب حقاً ؛ فقد كانوا موقنين أن الدول الديمقراطية سيرضيها حتماً أن ينقلب الوحش الألماني على روسيا فيفتريها ويزيح عن العالم كابوس البلشفية ، وإذا بهذه الدول تمدّ يدها إلى روسيا لتتعاون معها على درء الخطر الألماني الذي بدأ هتار سنة ١٩٤١ ، وسارع تشرشل وروزفلت إلى إرسال مندوبيهما إلى روسيا للاتفاق معها على خطة العمل ولم تمض إلا شهور قليلة بعد هجوم هتلر على روسيا حتى سطت اليابان على ميناء بيرل ، ودخلت الولايات المتحدة الحرب بعد مضي ستة أشهر على الهجوم الروسي . وقد أفادت روسيا من قانون الإعارة والتأجير الذي أصدرته الولايات المتحدة أيما فائدة ، فكانت ترد إليها المئونات والطائرات والمدافع والدبابات سالكة أحيانا طريق إيران وخليج العجم ، وأحيانا عابرة المحيط المتجمد الشمالي . وسرعان ما ظهرت معجزة روسيا الحربية ؛ فبينما كان النقاد وثقات الحربيين يتوقعون هزيمة روسيا في مدى لا يزيد على ستة أشهر ، إذا بروسيا تقف وقفتها الشهيرة عند أبواب موسكو في ستالينجراد أمام أكبر وأضخم قوة حربية تحركت على سطح الأرض منذ الخليقة ، فتصددها صدّاً بأسلا عنيفاً . ثم ما لبث الدفاع أن تحول إلى هجوم كاسح انتهى إلى النصر بفضل الصلابة التي اكتسبها الجند من الرجل «الصلب» الذي يقودهم ، وبفضل المعونة التي تلقتها روسيا من الحلفاء وخاصة أمريكا ، وأخيراً بفضل الإنتاج الحربي المتزايد المتصل الذي كان ينبعث من المصانع الروسية المستورة في بطون الكهوف والوهاد وراء جبال الأورال التي اعتصم بها الروس عند ما زغل الأعداء في داخل بلادهم .

ولما لاحت بشائر النصر عقب ارتداد الألمان عن ستالينجراد في الشمال وتراجعهم في شمال إفريقيا بعد موقعة العلمين ، بدأ الحلفاء يفكرون في تبادل الآراء بشأن مشا كل السلم وتنسيق الخطط الحربية الختامية في مؤتمرات دورية عقدها أولاً في موسكو في أكتوبر سنة ١٩٤٣ ثم في القاهرة حيث اتفقوا على صورة قهر اليابان وحرمانها في النهاية من كل الأراضي التي ضمتها إليها منذ الحرب العالمية الأولى ، وفي مقدمتها منشوريا وجزر المحيط الهادي . ولما اجتمع مؤتمر الحلفاء في طهران في نوفمبر سنة ١٩٤٣ عقب مؤتمر القاهرة سنحت الفرصة لأول مرة لتقابل العاهلين العظميين روزفلت وستالين . وفي هذا المؤتمر

أكد الحلفاء تصميمهم على العمل في الحرب وفي السلم الذي يعقب النصر . وقد تأيد هذا التصميم في مؤتمر القرم الذي انعقد في فبراير سنة ١٩٤٥ بحضور العاهلين وتشرشل ووزراء الخارجية ، وفيه قرروا إنشاء هيئة الأمم المتحدة لحفظ السلام وتأمين العالم ضد الحرب .

وأخيراً انتهت الحرب وخرجت منها روسيا وهي عالمة تمام العلم أن النصر قد رفعها فوق دول أوروبا جميعاً ، وأن من حقها أن تتقاضى ثمن النصر كما تقاضته منذ أكثر من قرن عقب انكسار نابليون بونابرت سنة ١٨١٤ ، وقد كانت لروسيا يومئذ الزعامة بين الحلفاء الذين قاوموا نابليون وهزموه . ومع أن الحلفاء كانوا قد أعلنوا في أكثر من مناسبة أنهم لا يرومون من الحرب الأخيرة أن يكسبوا لأنفسهم فوائد إقليمية ، فإن روسيا لم تتردد في ضم جمهوريات البلطيق السابقة إليها (عدا فنلنده) رافضة حتى أن تتفاوض بشأنها ، كما ضمت جزءاً من بولنده الشرقية ، وتمسكت بيساريا وبكوفينا من رومانيا وسوتغت عملها في نظر الناس بأن كثرة السكان تنتمي إلى روسيا ، وأيدت ذلك باستفتاء شعبي قام به رجالها . وزيادة على ذلك أرادت روسيا أن تكون لها الزعامة في شرق أوروبا ، وهياً لها احتلالها المنطقة الشرقية من ألمانيا أن تزعم أن من حقها أن يكون طريقها في البلقان ودول الدانوب مأمون الجانب موصول الأطراف بالاتحاد السوفيتي . وكما عملت الولايات المتحدة قبل الحرب على توطيد مركزها بين جمهوريات أمريكا بإنشاء اتحاد الجامعة الأمريكية ، كذلك تريد روسيا اليوم أن تكون لها الزعامة بين شعوب البلقان السلافية ، وأن تجعل من هذه الأقاليم منطقة نفوذ خاصة بها . وكان من الحتم أن تجر هذه السياسة إلى الاحتكاك بتركيا واليونان ، وإلى معارضة الدول الديمقراطية الكبرى ولها في مضائق الدردنيل وفي اليونان وجزر بحر إيجه مصالح استراتيجية واقتصادية لا يستهان بها .

أما بينها وبين الولايات المتحدة ذاتها فليست هناك مطامع إقليمية تدعو إلى النزاع ، فروسيا دولة برية ؛ وكل من الولايات المتحدة وبريطانيا دولة بحرية جوية لاناقة لها في أوروبا ولاجل ، ولكنها سياسة تأمين الحدود التي نادى بها روسيا ونجملتها على أن تمد أخطبوطها غرباً وجنوباً وشرقاً ، حتى باتت تهدد الكتلة الأتلنطيقية من جهة والولايات المتحدة والصين من جهة أخرى .

ومن سوء حظ روسيا أنها آمنت بمبدأ التكتل في الوقت الذي تهيأ فيه العالم

لقبول فكرة الاتحاد العالمي أو الاتحاد الأوربي على الأقل . فبينما أمريكا وبريطانيا تبدلان غاية الجهد في إقامة هيئة الأمم المتحدة وتوطيد أركانها ، نرى روسيا تعمل جاهدة على تكتيل أوروبا بل والعالم كله إلى كتلتين شرقية وغربية .

وعلى هذا الأساس تركزت الآراء والمناقشات في اللجان والمؤتمرات الدولية مما جعل الأهداف التي ترمي إليها هيئة الأمم المتحدة تتضاءل وتتخاذل أمام الحدة الناشئة من هذا الانقسام أو التكتل ؛ حتى قالوا إن روسيا قد تورطت تورطا في المرافقة على إنشاء هيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن ؛ إذ لا يعقل أن تعمل روسيا البلشفية على إعادة بناء العالم وإقرار السلام بين الشعوب وهي التي ينادي رسلها وأبواقها بضرورة الثورة العالمية حتى يزول النظام الرأسمالي عن وجه البسيطة . ويظهر أن زوال ألمانيا من الوجود الدولي قد طمأن روسيا لأول مرة في تاريخها الحديث من جهة حدودها الشرقية إذ لم يبق ظل من الشك في أن قواتها البرية في أوروبا تفوق قوات الدول الديمقراطية جميعها . وعلى ذلك لم تعد لها فائدة حربية ترجى من وراء أمريكا ، كما أصبحت أمريكا بعد زوال اليابان من الوجود الدولي في الشرق الأقصى تخشى تفوق روسيا في منطقة المحيط الهادئ الشمالية ، وقد كانت الولايات المتحدة قبل هذه الحرب في حاجة قصوى إلى صداقة روسيا لتحصد من خطر اليابان .

من هذا نستطيع أن ندرك طائفة من الأسباب التي جعلت الجفاء يحل بين روسيا وحلفائها القدامى محل الوئام الذي ساد بينهم في أثناء الحرب . وكان هذا الجفاء أول بادرة من بوادر الإخفاق للسلم الجديدة وأخوف ما يخافه الناس أن يكون إخفاق السلام مقدمة الاستعداد للحرب الثالثة .

محمد رفعت

دستور فرنسا الجديد

يكاد يكون تقليداً من تقاليد الحكم في فرنسا أن يحمل نظام الحكم القائم أوزار الكوارث التي تحل في الميادين العسكرية وفي الميادين الاجتماعية على السواء . ولعل الحكمة في ذلك أن الفرنسي يزوج بسهولة بين العضو والوظيفة فيفرض التضامن بين العهد والقوامين عليه . فلما غلبت فرنسا على أمرها في ميادين القتال في أوائل صيف سنة ١٩٤٠ حكم العارفون لفرنسا على الجمهورية الثالثة بالزوال ، وانتظروا أن يلجأ الفرنسيون بعد أن يستعيدوا سلطانهم إلى شكل جديد من أشكال الحكم .

ولم يلبث الفرنسيون منذ استرداد حريتهم أن وجهوا همهم الأول لمعالجة نظامهم السياسي ، ولكن لمعالجته في هوادة واعتدال . فلم يقبلوه « ملكية » أو « إمبراطورية » بل أبقوه « جمهورية » ، الشعب فيها مصدر السلطات جميعاً ، وتولوا دعم سياجها عن طريق تعديل الدستور تعديلاً يقضى على أسباب الضعف الذي عرّض فرنسا لما عرضها له من تخاذل وتدهور .

وعهد بوضع مشروع الدستور الجديد لجمعية تأسيسية انتخبت انتخاباً عاماً ، على أن تعرضه على الشعب في استفتاء يقرر قبوله أو رفضه . وانتخبت الجمعية التأسيسية ووضعت مشروع الدستور وعرضته على الشعب في الاستفتاء ، فأسقر الاستفتاء عن رفضه . فأجريت انتخابات جديدة لجمعية تأسيسية جديدة ، وضعت مشروع دستور جديد ، وعرضته على الشعب في استفتاء جديد جرى يوم الأحد الثالث عشر من شهر أكتوبر لسنة ١٩٤٦ فأسقر عن قبوله بكثرة ٤٨٨٧ و ٩٠٠٠٠ صوت يقابلها ٦٧٦ و ٧٩٠ و ٧٧٦ صوت رفضه أصحابها ، على حين لم يتقدم للاستفتاء ٨٩٣ و ٧٧٦ و ٧٧٦ شخص . ويريد بعض المعقبين أن يفسر بلوغ الممتنعين هذا العدد الهائل بموقف المعارضة الذي وقفه الجنرال ديغول من المشروع ، والفرنسيون يعترفون للجنرال

ديجول بجميل موقفه طوال مدة الحرب ، ولا يريدون أن يظهره خلال الاستفتاء بمظهر المبتعد عن رأيه ، فأكثر ثلثهم ألاساهم في الاستفتاء حتى لايعاون قبولهم الدستور الجديد في إظهاره ذلك المظهر . وكان الجنرال ديغول يوجه معارضته إلى السلطات الضيقة التي يمنحها المشروع الجديد رئيس الجمهورية ، فهو يريد لها واسعة قوية تقرر سلطان الحكم . لكن معارضته قد أضعفها ما هو معروف من رغبته في أن يتولى هو رئاسة الجمهورية ، إذ ساعد هذا على ن يمزج الفرنسي العادي بين الرغبة في الإصلاح والإفادة من تحقيق هذه الرغبة .

أما الدستور الجديد فتؤلف من ديباجة واثني عشر باباً . أما الديباجة فقد تضمنت المبادئ الأساسية التي تقوم عليها الجماعة الفرنسية الجديدة ، وأما الاثنا عشر باباً فقد تضمنت أحكام مؤسسات الجمهورية من سيادة و برلمان ومجلس اقتصادي ، ومعاهدات دبلوماسية ، ورئيس جمهورية ، ومجلس وزراء ، ومسئولية جنائية للوزراء ، واتحاد فرنسي ، ومجلس قضاء أعلى ، وجماعات إقليمية ، وتعديل للدستور ، وأحكام انتقالية .

وقد كرست الديباجة حقوق الإنسان المعلنة في سنة ١٧٨٩ والمقررة في مختلف قوانين الجمهورية ، كما أثبتت حقوقاً جديدة تقتضيها ظروف الوجود الحديث « لكل كائن بشري دون تمييز راجع للجنس أو الدين أو العقيدة » : فضمنت للمرأة مساواتها بالرجل في جميع الميادين ، وأنه يمنح حق الالتجاء إلى أراضى الجمهورية كل مضطهد بسبب عمله في سبيل الحرية ، ويفرض على كل شخص واجب العمل مع منحه حق الحصول عليه ، كما تصان حقوقه ومصالحه النقابية وبيئتها حرية اختيار نقابته ، ويقرر استعمال « حق الإضراب » في حدود القانون المنظم له ، واشتراك كل عامل بواسطة مندوبيه في تحديد شرائط العمل وفي إدارة المنشآت ، ويقرر انتقال كل منشأة لها صفة الخدمة العامة القومية أو لها صفة الاحتكار إلى ملك من الأملاك العامة .

وكذلك نصت الديباجة على تحقيق وسائل التقدم للفرد وللأسرة : فتضمن الأمة للأفراد جميعاً ، ولا سيما الأطفال والأمهات والعمال المسنين ، الصحة والأمان المادي والراحة والفراغ ، كما تضمن المعرفة والثقافة والتكوين

المهني للصغار والكبار بحيث يعتبر تنظيم التعليم العام مجاناً ومدنياً في جميع درجاته واجباً من واجبات الدولة .

وأعلن في الديباجة تعهد الجمهورية الفرنسية ألا تلجأ إلى حرب هجومية، وأن تتضمن مع الهيئات الدولية في بذل جهودها في سبيل حفظ السلم والأمن في ربوع العالم، كما أنها تقيم اتحاداً بين الأمم والشعوب التي تتألف منها، وتدفع بهذه الأمم والشعوب جميعاً إلى حكم نفسها بنفسها في حرية وأنظمة ديمقراطية .

ويتميز الدستور الفرنسي الجديد بأن نص في مادته الأولى على صفات الجمهورية فقال إنها: «مدنية ديمقراطية اجتماعية» إلى جانب كونها «لاتجزأ»، فكرس جهود الجمهوريين الأحرار في سبيل فصل الكنيسة عن الدولة وما أصدره من قوانين جبارة، وجاري التيار الحديث فخص الناحية الاجتماعية بالذكر ضمن عناصر الدولة الأساسية، واحتفظ في مادته الثانية بما أصبح ملازماً لاسم «فرنسا» ملازمة طبيعية وهو نشيد «المارسييز» نشيداً قومياً، وعبارات «الحرية والإخاء والمساواة» رمزاً للجمهورية، و«حكومة الشعب للشعب وبالشعب» و«السيادة القومية ملك للشعب الفرنسي» أصلاً أساسياً للحكم .

أما البرلمان فقد أقر الدستور الجديد تأليفه من مجلسين — على خلاف ما كان قد استساغه المشروع السابق الذي رفضه الأول من قصره على مجلس واحد — لكنه حد من سلطان المجلس الأعلى على خلاف ما كان لمجلس الشيوخ القديم . وقد غير الدستور الجديد تسمية مجلسي البرلمان ، فدعا أولهما «الجمعية الوطنية» بدل مجلس النواب ، ودعا ثانيهما «مجلس الجمهورية» بدل مجلس الشيوخ . وتقوم «الجمعية الوطنية» على مبدأ الانتخاب العام المباشر، وينبعت مجلس الجمهورية عن انتخاب عام غير مباشر عن طريق وحدات النواحي والمقاطعات . ويتناسب عدد أعضاء الجمعية الوطنية مع عدد السكان ، لكن عدد أعضاء مجلس الجمهورية لا يجوز أن يقل عن مائتين وخمسين ولا أن يزيد على ثلثمائة وعشرين ، وعلى أنه يجوز للجمعية الوطنية أن تنتخب هي أعضاء تبعث بهم إلى مجلس الجمهورية بشرط ألا يزيد عددهم على سدن عدد أعضائها المنتخبين بالانتخاب العام .

دستور فرنسا الجديد

ومن المبادئ الطريفة التي جاء بها الدستور الفرنسي الجديد تحديد الوقت الذي تقف فيه أعمال البرلمان ، فجعل مجموعه غير متجاوز الأربعة الأشهر بما فيها تأجيلات الجلسات إلى مدة أطول من عشرة أيام . ومنها أنه في فترة عدم انعقاد الجمعية الوطنية لعطلة أو ما شابهها تفتقل رقابة أعمال الوزارة إلى مكتب الجمعية الوطنية الذي يكون له حق دعوة البرلمان إلى الاجتماع بناء على طلب ثلث أعضاء الجمعية أو بناء على طلب رئيس مجلس الوزراء .

ولرئيس مجلس الوزراء وأعضاء البرلمان جميعاً حق المبادأة باقتراح القوانين . وتودع اقتراحات أعضاء الجمعية الوطنية مكتب هذه الجمعية ، كما تودع اقتراحات أعضاء مجلس الجمهورية مكتب هذا المجلس . وترسل اقتراحات أعضاء الجمعية الوطنية إلى لجانها المختصة لنظرها قبل المناقشة فيها . لكن اقتراحات أعضاء مجلس الجمهورية ، يجب أن تبلغ لمكتب الجمعية الوطنية قبل أن ترسل إلى أية لجنة من لجانه وقبل أن تجرى عليها أية مناقشة فيه ، بل يكون درسها في الجمعية الوطنية قبل كل شيء . ولا يقبل مكتب الجمعية ما يكون منطوياً منها على تخفيض للايرادات أو زيادة في النفقات .

أما دور مجلس الجمهورية في العمل التشريعي فمحصور في « إبداء رأيه » في المشروعات التي انتهت الجمعية الوطنية من تلاوتها التلاوة الأولى ، ويجب أن يسدى رأيه في بحر الشهرين المنقضين من تاريخ إحالة الجمعية الوطنية مشروعها إليه على الأكثر ، إلا إذا قررت الجمعية نظر المشروع على وجه الاستعجال ، وإلا في حالة قانون ربط الميزانية الذي يجب إبداء الرأي فيه بحيث لا تعوق مدته الجمعية الوطنية عن سرعة النظر فيه .

فإذا جاء الرأي الذي أبداه مجلس الجمهورية موافقاً للرأي الذي بدا خلال التلاوة الأولى في الجمعية الوطنية أو إذا لم يجيء الرد في حدود المدة المقررة فإن القانون يصدر حسب النص الذي انتهت إليه الجمعية . أما إذا جاء الرأي مخالفاً لهذا النص فإن تعديلات مجلس الجمهورية هي التي تنظرها الجمعية الوطنية في تلاوتها الثانية وتقرر بشأنها ما تشاء ، ويصدر القانون بما تقرره بكثرة الأصوات

وقد خص الدستور الفرنسي الجديد « المجلس الاقتصادي » بالذكر بين أحكامه . وهو مجلس سينظم قانون خاص طريقة تأليفه ، ولكنه مختص بحكم

الدستور بالنظر — لا يبدأ رأى — فى المسائل التى تحيلها إليه الجمعية الوطنية قبل الانتهاء من التصويت عليها ، وكذلك فى المسائل التى يطلب إليه مجلس الوزراء بحنها . على أنه يجب أن يؤخذ رأيه فى المشروعات الاقتصادية القومية التى يكون موضوعها استخدام الأفراد فى عموم أو استخدام مصادر للثروة المادية .

وقد وقف الدستور الفرنسى الجديد عند حدود النظام البرلمانى ولم يتجاوزه إلى النظام التمثيلى كما هو الحال فى الولايات المتحدة ، فأبقى انتخاب رئيس الجمهورية من اختصاص البرلمان لا عن طريق انتخابات عامة . وكذلك أبقى مدة انتخابه محددة بالسبع السنوات القديمة ، وحرّم عدم إعادة انتخابه إلا مرة واحدة ثانية . كما أبقى تقليد رياسته لاجتماعات مجلس الوزراء ومجلس الدفاع الأعلى ومجلس القضاء الأعلى . وأوجب وقف رئيس الجمهورية على تطورات المفاوضات الدولية ، ولقبه برئيس الجيوش ، وخصه بالتوقيع والمصادقة على المعاهدات ، وحق العفو يصدر فى نطاق مجلس القضاء ، وحق إصدار القوانين فى حدوده المقررة بالدستور ، وحق تعيين القواد وأصحاب المناصب الكبيرة فى نطاق مجلس الوزراء .

أما مجلس الوزراء فقد أبقى الدستور الجديد اختيار رئيسه من اختصاص رئيس الجمهورية « بعد إجراء الاستشارات » . لكنه جاء بجديد فى صدد تعيين ذلك الرئيس وزملائه الوزراء . فرئيس الجمهورية بعد إجراء الاستشارات يختار رئيس مجلس الوزراء . ورئيس مجلس الوزراء يختار كذلك زملاءه الوزراء ، ويضع « برنامج وسياسة المجلس الذى يعزّم تأليفه » ، ثم يتقدم ببيان هذا البرنامج وهذه السياسة للجمعية الوطنية ، فتناقشها الجمعية . فإذا أقرتها كثرتها المطلقة صدر أمر رئيس الجمهورية بتعيين رئيس مجلس الوزراء والوزراء .

وقرر الدستور الجديد المسئولية الوزارية أمام الجمعية الوطنية وحدها دون تقريرها أمام مجلس الجمهورية على خلاف ما كان مقرراً فى الدستور القديم من مسئولية أمام مجلس النواب وأمام مجلس الشيوخ ، وإن كان العمل قد جرى على المسئولية أمام النواب وحدهم أو غالباً . وكذلك نظم الدستور الجديد أمر عرض الثقة على الجمعية الوطنية ، بأن جعله معلقاً على مناقشته فى مجلس الوزراء وتقريره ،

وبأن جعل رئيس مجلس الوزراء وحده هو صاحب حق العرض على الجمعية الوطنية بعد تلك المناقشة وذلك القرار . وعلى أن يكون تصويت الجمعية الوطنية على أمر الثقة غير جائز إلا بعد مضي يوم كامل على عرضه ، وأن يكون بإبداء الرأي علناً . ولا ترفض الثقة بالوزارة إلا بالكثرة المطلقة لأعضاء الجمعية الوطنية جميعاً لا لكثرة الحاضرين منهم وحدهم . وكذلك الحال من حيث المدة الفاصلة ومن حيث الكثرة المطلقة بالنسبة لاقتراح بعدم الثقة يتقدم به عضو من أعضاء الجمعية الوطنية .

وإذا وقعت أزميتان وزاريتان في بحر ثمانية عشر شهراً متوالية فإن لمجلس الوزارة أن يقرر حل الجمعية الوطنية بعد أخذ رأى رئيس هذه الجمعية . وفي هذه الأحكام الجديدة التي جاء بها الدستور الجديد دعم لسلطان الحكم واستقراره ، وقضاء على تلك السرعة الهائلة التي كانت تتداول بها الوزارات الحكم في فرنسا حتى أصبحت مضرب الأمثال .

ولعل جديداً آخر أتى به الدستور الفرنسي يجدر تسجيله ولفت الأنظار إليه ، وهو النظام الذي ابتكره للعلاقة بين فرنسا « الأم » والأقاليم التابعة لها فيما وراء البحار . وهو النظام الذي يخلق ما سمي « الاتحاد الفرنسي » مؤلفاً من « الجمهورية الفرنسية » التي تشمل فرنسا الإقليمية والمقاطعات والأقاليم فيما وراء البحار من ناحية ، وأقاليم « الدول المشتركة » من ناحية ثانية .

وتقضى المادة الثانية والستون من الدستور الجديد بأن « أعضاء الاتحاد الفرنسي » يشاركون بكامل وسائلهم لضمان الدفاع عن مجموع الاتحاد . وتقوم حكومة الجمهورية بتنسيق هذه الوسائل وإدارة السياسة الخاصة بإعداد وتحقيق ذلك الدفاع .

ورئيس الجمهورية الفرنسية هو رئيس الاتحاد الفرنسي الذي يمثل مصالحه الدائمة . وللإتحاد مجلس عال يرأسه رئيس الاتحاد ، ويؤلف من مندوبين عن الحكومة الفرنسية ومندوبين عن كل دولة من « الدول المشتركة » ، ويختص بمعاونة الحكومة في الإدارة العامة لشؤون الاتحاد .

وللإتحاد إلى جانب رئيسه وإلى جانب مجلسه جمعية مؤلف نصفها من أعضاء ممثلين لفرنسا الأصلية ، ونصفها الثاني من أعضاء ممثلين للمقاطعات والأقاليم

فيما وراء البحار والدول المشتركة . على أن يجيئ ممثلو فرنسا الأصلية عن طريق انتخاب ثلثهم بواسطة الجمعية الوطنية وثلثهم الباقى بواسطة مجلس الجمهورية ، وأن يجيئ ممثلو المقاطعات والأقاليم فيما وراء البحار عن طريق انتخاب جمعياتهم النيابية الإقليمية . أما ممثلو الدول المشتركة فيحدد قانون خاص تصدره كل دولة منها شرائط اختيارهم وحدود اختصاصاتهم . ويدعو رئيس الجمهورية إلى اجتماع تلك الجمعية ، ويفض دور انعقادها ، ولا يصح اجتماعها أثناء فترات العطلة البرلمانية الفرنسية .

وتختص جمعية الاتحاد الفرنسي بالنظر في المشروعات والمقترحات التي تعرض عليها لا يبداء الرأي عن طريق الجمعية الوطنية أو حكومة الجمهورية الفرنسية أو حكومات الدول المشتركة . ولها أن تنظر فيما يعرضه عليها عضو من أعضائها ، على أن يبلغ مكتبها قراراتها في هذا الشأن إلى الجمعية الوطنية كما أن لها أن تقدم مقترحات من قبلها للحكومة الفرنسية وللمجلس الأعلى للاتحاد الفرنسي ، على أن يكون ذلك كله متصلا بتشريع من التشريعات الخاصة بأقاليم ما وراء البحار ، وهي في الأصل ملك لأنظمتها المحلية فيما عدا القوانين الجنائية والحريات العامة والتنظيم السياسى والإدارى ، وهذا من اختصاص البرلمان الفرنسى وحده .

وعلى رأس كل إقليم أو مجموعة أقاليم فيما وراء البحار يمثل للجمهورية الفرنسية هو رأس الإدارة فيها ومسئول عن أعماله لدى حكومة الجمهورية . على أن إدارة المصالح العامة فيها موكول بها إلى هيئة نيابية منتخبة . ولجميع التابعين لتلك الأقاليم صفة المواطنين التي يتمتع بها الفرنسيون الأصليون في فرنسا وفي أقاليم ما وراء البحار ، على أن قوانين خاصة ستحدد شرائط استعمالهم حقوق المواطن ، وهم على كل حال متساوون في التمتع بالحقوق والحريات التي تكفلها ديباجة الدستور الجديد ، وإن كان لمن لم يكن قانون أحواله الشخصية هو القانون الفرنسى أن يحتفظ باتباع قانونه الخاص دون أن ينقص هذا الاحتفاظ حقا أو حرية متصلا بصفة المواطن الفرنسى .

وفي هذه الأحكام الجديدة محاولة للربط بين أجزاء فرنسا والبلاد الخاضعة لنفوذها بنوع من الرباط غير ذلك الذى يرجع إلى اعتبار الاستعمار

دستور فرنسا الجديد

التقليدي ، ولا سيما ما كان متعاقماً في ذلك كله بقيود الأحوال الشخصية والتمييز بين « المواطن » و « الرعية » ، وخص الأنظمة النيابية بأقاليم دون أخرى ، وعدم سريان مبادئ الحريات العامة عليها جميعاً .

ذلك تقديم للدستور الفرنسي الجديد في مبادئه العامة وطرائقه الجديدة . وسيكون من أثر إقرار الأمة الفرنسية إياه في استفتاءها يوم الأحد الثالث عشر من أكتوبر أن تجرى انتخابات عامة جديدة في اليوم العاشر من شهر نوفمبر المقبل ، وأن يجتمع البرلمان في اليوم الثامن والعشرين منه ؛ إذ يبدأ عهد الجمهورية الرابعة فيتطلع العالم كله إليها وإلى تعاليمها كما اعتاد أن يتطلع دائماً إلى فرنسا وتعاليمها .

محمود عزمى

كيف ظارت منى أكسفورد

تركت دارى منقبض النفس تملكنى حيرة . . . على أن أدبج الساعة مقالاً
أشغل به المكان المخصص لى فى الصحيفة الأسبوعية التى أعمل بها ، وكنت
أحس كأن رأسى قد أجذب ، وأن جعبتى قد خوت . . . وسرت فى الطريق
قاصداً مقر الصحيفة ، وأنا أتمثل رئيس التحرير ومساعديه ، كأنهم زبانية
ينتظرون مقدمى ليُلَقَّوا بى فى قاع جهنم . . . ومررت عفواً بـ « بار الفؤاد »
ملتقى الطبقة الراقية من سراة أمس الدابر ، والطبقة غير الراقية من أثرياء الحرب
المحدثين . . . فتلكأت أطلع إلى الوجوه فإذا بى أتبين بينها وجه صديقى
عاطف بك فألقيت قدمى تقوداننى إليه ، فلما رآنى هش لى وبش ، ودعانى
إلى مجلسه ، فقلت وأنا أهرز يده محيياً :

سأمكنك معك لحظات قليلة أستمتع فيها بك ، فأنى مرتبط بموعد لا بد لى
من المضى إليه .

فقرَّب منى مقعداً ، وقال :

— اجلس ثرثر وقتاً ، ونعرف ما عندك من جديد الأخبار .
وسرطان ما طلب إلى غلام الحانة أن يحطرنى كأساً من الويسكى . . . وبعد
هنية وجدت عاطف بك يقدم لى شخصاً عن كُتِب منه قائلًا :

— سعادة عبد المولى بك السيوطى .

فالتبتهت ، فألقيت شخصاً ضخيم الجثة ، سمين الرقبة كأنها جذع شجرة ،
يتناثر شاربته على جوانب فمه غزيراً مهوشاً كأنه الحسك الشائك . فأما وجهه
فكان مفرطحاً قانى الحمرة يمثل فى ملامحه الشوهاء أحد تلك الوجوه المفزعة
التي تتخذ فى محافل التنكر .

وسمعت صديقى يقدمنى إليه قائلًا :

— أخونا الأستاذ غندور ، صبحى كبير . . .

كيف طارت مني أكسفورد

فما كاد يبلغ مجمع جليسناسيوطى بكلمة « صحفى » حتى تقلقت أركانه فى مجلسه ، ورمق صديقى بنظرة نكراء ، وصاح مُغضباً متحشرج الصوت :
— ألم أحرّم عليك أن تعرفنى بهذا الصنّف من مخلوقات الله ؟
فتضاحك الصديق ملء شذقيه ، وقال :
— أخونا غندور صحفى حقاً ، ولكنه ليس طويل اللسان !
فصحت على الأثر :

— كيف واللسان بضاعتى ورأس مالى ؟
وأقبلت على السيوطى الناثر أقول :
— إني أضع خبرتى رهن مشيئتك !
فللم السيوطى أنحاء جسمه على مقعده وانفجرت أساريره شيئاً ، وقال فى غمغمة :

— يغنيننا الله عن خدماتك .
وقدّم غلام الحانة بالويسكى ، فخرجت من الكأس جرعة وافية وأنا أقول للسيوطى :
— على أية حال لا أتأخر عن خدمتك عند الحاجة . . . واطمئن الآن ، فلن تضيق بمجلسى طويلاً . . . لقد أرف موعدى .
وتناولت الكأس فخرجت منه أيضاً ، وأحسبت نزعة إلى معاتبة وجيه أسيوط ، بالتخاذ تلك اللجاجة الأصلية فى نفوسنا نحن رعايا صاحبة الجلالة الصحافة ، فواجهته بإبتسامة مصنوعة ، وقلت :
— سعادة البك يكره الصحفيين .

فتجشأ بقوله :
— أكرههم كراهة الموت !
— أليس ثمة من سبب ؟
— بسبب أو بلاسبب . . . إني أكرههم لله فى الله . . . أنا حرّ فيما أحب وما أكره !

— إني صحفى ويحق لى أن أعرف سبب كرهك لزملائى فى المهنة . . . ربما استطعت تحويلك عن رأيك ،
— هيات !

كيف طارت مع أكسفورد

وملاً من قنينة البراندى أمامه كأساً ، فقذف فى فيه بما فيها دفعة واحدة ،
وراح يمسح شاربه المنتفش ، ويبذل جهد الطاقة فى إخضاع شُعبه الشائكة .
ثم ملاً كأساً أخرى قذف بما فيها كما فعل بالكأس الأولى ، فازداد احتقان
ذلك الوجه الشائئ ، واتقدت جذوتاه عينية . ورأيت صديقى عاطف بك يضرب
كتف السيوطى مداعباً وهو يقول فى إلحاح :

— ناشدتك الله إلا أخبرتنا لم تكره رجال الصحافة ؟

فتراخى وجيه أسيوط على كرسيه ، فأحسست كأن ضخامته تفيض متدفقة
على جوانب المقعد ، وقال فى غير مبالاة :

— إنها لحادثة قديمة وقعت منذ خمسة وعشرين عاماً ، فى أعقاب الحرب
العالمية السابقة ...

فقلت له وأنا أنظر إلى الكأس متشاغلاً بما فى قرارتها :

— لقد مضت حقبة طويلة تغير فيها كل شئ يأسعادة البك حتى
الصحفيون ... إن طراز سنة ١٩٢٠ قد حل محله الآن طراز أرقى وأحسن ...
أهم مايمتاز به طراز سنة ١٩٤٦ هو السرعة والأمانة ، وحفظ العهد ، وصيانة
الأسرار .

واستفش شارب السيوطى ، فأخذ يقرض أطرافه بأسنانه الصفراء النخرة .
وقال :

— أتقول حقاً ؟ إن صديقى الصحفى الذى وقعت لى معه تلك الواقعة
لم يكن حائزاً لأية صفة من هذه الصفات التى تذكرها الآن ... لا حياً الله
ذكره !

فقال له صديقى عاطف بك :

— بالله عليك أخبرنا ، ماذا كان موقف هذا الصحفى منك ؟ ...

والتفت إلى قائلاً :

— إن عبد المولى بك محدث خلاب الحديث ساحر الدُّعابة سلس الكلام ،
قلّ أن يكون له فى هذا الباب نظير ...

فتضاحك وجيه أسيوط تضاحكا اهتز له كرشه وترجّح . ثم ملاً من
قنينة البراندى كأسه ، وصبها فى فيه ، ثم تمكّن فى مجلسه ، وقال فى تعالٍ
وهو يعطّ ألفاظه مطّاً :

كيف طارت مني أكسفورد

— إليكما قصتي . . . وإني أدع لك أيها الصحفي أن تحكم على زميلك بما
يمليه عليك ضميرك . . .

كنت وقتئذ طالباً في مدرسة المروعة الثانوية بالقاهرة أعيش في مَثْوَى
« بنسيون » عيشاً هادئاً لا غبار عليه . وكان والدي يعيش في أسيوط يدير
أعماله وأملأه . وقد وعدني إذا نلت الشهادة الثانوية وحسن سلوكي أن
يرسلني إلى أكسفورد لإتمام دراستي هنالك ، فخرصت على أن أنال رضاه
لأحقق حلمي الكبير في الارتحال إلى إنجلترا والاستمتاع بما فيها من مجالي
الحياة الرفيعة والعيش البهيج ، فأقبلت على دروسي وسلكت مسلك الاستقامة ،
ولكني بليت بصداقة شخص صحفي من أمثالك ، غرني ما أبداه لي من مودة
وصفاء ، فتمكنت بيننا الألفة ، وتلازمنا نقضى معاً بعض السهرات . ولما كان
الراتب الذي يبعث إلي به أبي كل شهر محدوداً كما هو الشأن مع الطلاب ، فقد
توافقنا أنا وهذا الشخص الصحفي على أن تتناوب الإتيان في ليالي السهر . . .
ولبثنا على تلك الحال قريرى العين ناصمى البال ، حتى حدث أصيل يوم أن كنت
أقطع شارع توفيق فإذا بي أرى صديقي الصحفي يواجهني ، وبعد أن تطارحنا
التحيات قال لي :

— إلى أين ؟

— إلى مَثْوَى : البنسيون . . .

— هكذا مبكراً ؟

— بي صداع . . . أرغب في الراحة .

— وأنا أيضاً بي مثل ما بك . . . تعال نشرب كأساً تشفينا من الصداع .

لن أؤخرك عن الاستمتاع براحتك . . . إنهم ينتظرونني في الصحيفة لا كتب
لهم مقال . . .

وطرقنا أول حانة مررنا بها في الطريق ، وكانت الحانات قد تكاثرت في ذلك
الزمن كما تكاثرت في هذه السنوات . . . وانتجينا جانباً ، وكان بالحانة بعض
نقر من رجال الجيش الأجانب لم يعيرونا أي اهتمام . . . وشربنا كأساً بعد كأس ،
ونحن نتجاذب أطراف الأحاديث . ولما حان وقت دفع الحساب ألقيت صديقي
يتلكأ ويتغاضى ، فقلت له :

— ألم يحن وقت الانصراف ؟

كيف طارت مني لكسفور

- كما تحب . . .
- ولكن . . . الحساب ؟
- الحساب ؟ . . . عليك أن تدفع هذه المرة !
فصجرت به وأنا واثق مما أقول :
- بل عليك أنت . . .
- أوكد لك . . . أن . . .
- إنك تغالط . . .
- بل أنت المغالط . . .
- ونفضنا ، كلانا يرمق صاحبه كما تترامى الديكة بنظراتها ، وهى على
أهبة العراك !
- ومكثنا كذلك لحظة ، ثم صاح صديقي :
- نحن مختلفان . . . فليكن الحكم للقرعة !
وكنا نلجأ إلى هذا الأسلوب كلما نشب بيننا الخلاف على مثل تلك الحال .
فأجرينا القرعة ، فكانت الواقعة على الصديق ، فأخذ يهرش رأسه وقال متلعثما :
- أرجو أن تدفع هذه المرة عني . . . وسيكون ديناً على . . .
فحدقت فيه محققاً أدمدم ، فبادرنى بقوله :
- حقيقة الأمر أنه ليس معى نقود . . . إني راجع من سباق الخيل حيث
سلبنى الحصان « كحيان » كل ما ملكت يداى . . . أقسم لك على ذلك !
فحفظت عيناي ، وقلت صائحاً :
- وأنا أيضاً ليس معى نقود . . . أقسم لك على ذلك !
- كيف ؟ أخسرت مثلى نقودك فى حلبة السباق !
نخفضت من بصرى ، وهرشت رأسى هامساً :
- بل فى حلبة سباق آخر . . . فى منزل صاحبك الست نعام !
فاتفجر صديقى يقهقه وهو يقول :
- لم تنسر شيئاً وحق السماء ، وإنما ربحت كل شيء !
- لا يَحتمل الموقف أى مزاج . . . : ألسينى فى ورطة ؟ ما العمل ؟
فقال عابثاً بكلماته :
- أية ورطة ؟ لا شيء !

— إن الأمر جد . . .

— المسألة هينة يا صديقي . . . إنها لا تخرج عن شيئين : إما أن تأكل « علة » من صاحب الحانة وبطائه ، وإما أن تقضى ليلة على الأسفلت في قسم البوليس . . . وإذا أسعدنا الحظ نعمنا بالأميرين معاً !

وأخذت تتوارد في خاطري مشاهد مختلفة : هراوة صاحب الحانة ، رجال الشرطة ، الأسفلت ، وجه والدي العبوس يزفر ويصيح بجملته المعهودة :

— لن تقلح أبداً . . . أحلق شاربى إذا أفلحت !

فصحت مضطرباً واجفأ :

— كلا . . . كلا . . .

وضرب صديقي المنضدة بيده ، ورفع هامته يقول :

— وجدت لمشكلتك حلاً . . .

— على به . . . أدركنى . . .

فخدق في وجهى وقال :

— أن نعاود الشراب في إسراف !

فرفعت يدي كأننى أهم بلكمه ، فأنزل يدي في هدوء ، وقال :

— لا تيئس . . . فرج الله قريب !

وسمعت ينادى غلام الحانة طالباً كأساً بعده كأس ، ولما ألقاني صامتاً لا أمد إلى كأسى يداً وكزنى في جنبى ، وقال :

— إن سلوكك هذا لن يغير من الموقف شيئاً . . . العلة تنتظرنا . . .

والأسفلت مُعدٌّ لاستقبالنا . . . فلماذا تحرم نفسك الاستمتاع بهذه الفرصة الذهبية ؟

فسرت القشعريرة في جسدى ، وتراءى لى شارب والذى يتراقص غضباً على شفتيه الغليظتين . ودفع صديقي بالكأس في يدي وهو يقول :

— اشرب . . . اشرب . . . لك الساعة التى أنت فيها . . . !

فصبيت الكأس في فمى دفعة واحدة ، وانطلقنا نشرب دون وعى ، وإذا بنا تتداول احاديث لا نلوى على شئ ، فأسمعى صديقى الكثير من النوادر والحكايات والنكات ، ورويت له أنا أشتاتاً من حوادث وقعت لى أو لبعض أهلى ما ظهر منها وما بطن . . . وتعاليت ضحكاتنا ونحن لا نرعى للوقت حساباً .

كيف طارت مني أكسورد

وبداً غلام الحانة يحوم حولنا ، وهو يقلب فينا نظر المستريب ، فكنا تزجّيه عنا كل مرة بمطلب جديد ولحنا نحن بعض جيرانتنا من رواد الحانة يتبايلون على المقاعد لا يعون . فهمس صديقي في أذني :

— لو كنت ممن منحهم الله خفة اليد وجراءة النفس لنشلت محفظة ذلك الضابط تنتشلنا من هذه الورطة التي نعانيها . . . إن اللص لجدير بالتمجيد في مثل هذا الموقف ! . . . إنه بطل !

واندفع يتحدث في فلسفة السرقة ، وما يمتاز به اللص من جسارة جديرة بالإكبار . . . فضربت كتفه بيدي ، وقلت :

— لا تلق للأمر بالا . . . فرج الله قريب !
واستأنقنا الضحك والقهقهة وتبادل النكات والنوادر وأخلط الأحاديث . واسترعت انتباه صديقي حكاية كنت أرويها له ، فجعل يستريدني ويستوضحني في شأنها ، فلم أبخل عليه بشيء من خفاياها ، ورأيته ينهض وهو يقول لي :
تأذن لي أن أخلوّ بنفسى ربع ساعة إلى تلك المنضدة القريبة ؟

— ولم ؟

— أرغب في كتابة مقال الأسبوع هذه اللحظة !

— ما هذا الخلط ؟ أهذا وقته ؟

— لقد هبط على الوحي ، ولا سبيل إلى المصيان !

فاندفعت أسفّه وحيه متهمكاً ، وقام صديقي وهو يقول :

— إذا استطعت أن أذهب بالمقالة الآن إلى إدارة الصحيفة تفحوني ثمنها

فوراً . . . وفي ذلك انقراج الأزيمة !

وانتقل صديقي إلى المنضدة القريبة ، وشرع يجرى قلمه ، وكنت أرقبه مهتماً وغلام الحانة يكثر من تحويمه حولنا ومحاصرته إيانا بالنظر الشرر . . .

وبعد فترة رجع صديقي إلى ، وقال :

— أحسب أنني دبحت قطعة طريقة أثاب عليها . . . ولكن عليك أن تساهم

في عملي . . .

— أنا ؟

— أنت ! . . . ليس عليك إلا أن توقع في ذيل هذا المقال بالجملة الآتية :

« أدليت بهذه المعلومات بمحض اختياري ولا مانع عندي من نشرها » .

— فقط ؟

— فقط !

وتناولت ثمالة الكأس ، ثم أسرع إلى القلم فأجريته بتلك الجملة التي أملاها عليّ وأنا أبعث بالضحكات تتوالى ، دون أن أفرا من المفالة أى حرف ...
واندفع صديقي صوب الباب مهرولاً ، فأمسكت بلمرف سترته ، وقد لحت في رأسى فكرة راعتنى . فقلت له :

— أما إذا كانت هذه حيلة للهرب تتركنى بها أنام على الأسفلت و يبدأ .
فقاطعتنى وقد رفع هامته في عزة وأتقة بقوله :

— أقسم بشرفى لأعودن إليك بالنقود ، أو لأشارككنك في مرقدك الوثير على الأسفلت !

ومرق كالسهم ، وعدت إلى مجلسى وقد اشتدت رقابة الغلام لى ، فأخذ يسارُ صاحب الحانة ، وشيخلاً معاً بأمرى ، وضرباً عليّ لطاقاً من حصار منيع ...
وأخذ رواد الحانة ينصرفون حتى خلا منهم المكان . . . وبدأ الوقت يتناقل في سيره وأنا أتكلف ضبط النفس وأتظاهر بعدم المبالاة . . . يا لها من لحظات رازحة فادحة أطارَت ما في رأسى من نشوة الحمر . . . وتكاثر الرقباء من أتباع الحانة يحيطون بى من كل ناحية ، واستحكم الحصار من كل جانب . . . وأخذ جبينى يتفصد عرقاً بارداً ، وبدأت الحلقة تتدانى إلى وتضيّق ، وشهدت صاحب الحانة يتقدم في جِرمه الهائل بخطاه الغليظة وفي يمناه هراوة يقرع بها الأرض .
وسمعتة يتحدث إلى أعوانه على الصوت كأنه يُسمعنى قوله :

— إن موعد إغلاق الحانة قد حل !

وتراءى لى الأسفلت يلتمع في غمرة الظلام ، وقد تصاعدت من رطوبته الشديدة سحب كثيفة تكاد تحجب ما حولى من المشاهد . . . ولا أدري ماذا مضى عليّ من الوقت وأنا في جلستى هذه ، وبغته لحت وجه صديقى يتخايل وسط هذه السحب الكثيفة وهو يلهث من الجهد والإعياء . . .

وتبددت السحب ، فإذا بى أجده صديقى جالساً على مقعده منتفخاً في جلسته يصفق يديه يطلب شراباً رقيقاً . . . وانطلق يتحدث في لهجة طبيعية أحاديث تافهة . وجرع كل منا كأسه ، وصاحب الحانة وأتباعه ينظرون إلينا ذاهلين مشدوهين . . .

كيف طارت مني أكفورد

وأخرج صديقي محفظته في كبرياء ، وصاح بالغلام صيحة خشنة :
— أين الحساب ؟ أسرع ، فليس لدينا وقت نضيعه في الانتظار .
فهرول إليه الغلام برقعة الحساب ، فرمى له صديقي ببضع ورقات من فئة
الجنيه ولما رد إليه البقية قذف له بمنحة سخية ، ولم يحرم سائر الخدم من
منح مناسبة ونهض فتبعته على الأثر ، ومضى متثاقل المشية ، وأتباع
الحانة يوسعون له الطريق ويومئون له بالتحية البالغة . وقد كنت أنا أثناء ذلك
كله واجماً تعروني الحيرة .

وما كدنا نبلغ الشارع ، حتى وقف صديقي قبالي ، وقال :
— لقد بقي من المبلغ الذي قبضته الساعة عشرة قروش . . . لك خمسة
منها . . . هاكها . . .

فتراميت عليه أمانقه ، وأهتف بشكره . . .
ومر أسبوع لم ألق فيه الصديق ، وكدت أنسى ما كان ليلة الحانة . وعدت
إلى المنزل ذات ليلة ، فإذا بي أجد برقية من والدي تنتظرني ، وإذا هو يطلب
إليّ فيها أن أوافيه من فوري في أسيوط ، فتكاثرت هواجسي واشتد قلقي ،
ولعبت بي الظنون كل ملعب ، أنزلت بنا كارثة ؟ أفقدنا عزيزاً من الأسرة ؟
وفي ضحوة غد استقلت قطار الصعيد ، وقضيت ساعات السفر واجفاً مهموم
الفؤاد . . . وما إن بلغت محطة أسيوط حتى هرعت إلى المنزل ، فلم يرعني
شيء . . . المنزل على حاله ، والأهل في سلامة وخير ، وأخبروني أن أبي في
حجرة مكتبه ينتظرني ، فتشاءمت . . . لقد كانت حجرة المكتب في عرف
الأسرة كأنها قاعة المحاكمة لا يخلو فيها والدي بحبيس إلا ليحاسبه ويعاقبه . . .
لقد كان والدي في هذه الحجرة يحاكم الجاني ويحكم عليه وينفذ العقوبة فيه .
وعند ما كنت أسمع قول أبي :

— هاتوا الولد إلى حجرة المكتب . . .

لا يبقى عندي ريب في أني واقع تحت طائلة العقاب !
ولكن ماذا حدث اليوم حتى يطلبني إلى حجرة مكتبه بهذه البرقية ؟
أي أمر جلل حفزه ؟ لا أعرف لذلك علة ولا أذكر شيئاً وقع مني يستوجب
المؤاخبة !

ولم تأجد مناصاً من المضي إلى لقاء أبي في حجرة القصاص ، وقد أخذت

كيف طارت مني أكسفورد

أجنّد كل ما في طوقى من أدب ولباقة وتظرف وابتسام . . . واقتحمت الباب ،
ولكن نظرة واحدة أطلقها أبى فى وجهى دكت ما أعدته دكاً ولم تبق منه
باقية !

ووجدت قدمى تخطوان نحو قفص الاتهام فى غير تلكؤ ولا مراوغة ،
وكان هذا القفص هو الركن الأيسر من المكتب ، ورأيت والدى — على
عهده — يزحم كرسيه بجسمه الممتلى . . . وبغته جلجلت جلجلته الخالدة :
— لن تفلح أبداً . . . أخلق شاربى إن أفلحت !

وكان حين نطق هذه الجملة ينفض شاربى انتفاضاً بالغاً فى شكل بشع
مرهوب . . . ولطالما تمنيت على الله من قبل أن أرى الحلاق وقد أطار ذلك
الشارب العتى ، فأما فى هذه المرة فكنت أبتهل إلى الله أن أكون أنا ذلك
الحلاق . . .

ودفع والدى إلى نسخة من مجلة مصورة ، فرأيت فى الصفحة المبسوطة
منها علامة غليظة بالمداد الأحمر ، وسمعته يقول :

— ما رأيك فى هذه النكتة اللطيفة ؟

وألقيت على الصحيفة نظرة خاطفة ، فتشابكت الصور والكلمات ، فلم
أتبين منها أى شئ ، ولكنى قلت على الفور :

— نكتة لطيفة جداً . . .

وتصنعت الابتسام متظرفاً ، فأجبنى وهو يزأر بصوت محتبس :

— أتراها كذلك ؟

— ألم تقل حضرتك إنها نكتة لطيفة ؟

فضرب المكتب بيده ضربة كادت تهوى به ، وقال :

— غداً ستكون جيبساً فى القسم الداخلى من مدرسة أسيوط لا تبرحها إلا

حين أريد . . . ولن أريد . . . أسمعته ؟ أفهمت ؟ . . . أهل أنت لا أكسفورد ؟
لن تراها ما حييت !

فقلت وأنا فى غمرة من الدهشة والتعجب :

— فهمت

— أخرج . . .

وأيقنت أن المحاكمة قد تمت ، وأن الحكم قد صدر ، وليس ثمة من استئناف !

كيف طارت مني اكسفورد

نُفِرتُ آجر قدمي إلى حجرتي ، والمجلة في يدي ، وألقيت بنفسي على المقعد وقد اعتلجت في نفسي ضروب المشاعر وتلاطمت في رأسي شتى الأفكار . . . يا للنكبة ! . . . أقضي أيامي في مدرسة أسيوط حبيساً ؟ وفيم هذا ؟ . . . ووقعت عيني على صفحة المجلة ، فصدمتني العلامة الحمراء ، وتركز بصري في رسم هزلي تبينت فيه صورة مشوهة لأبي تمثله في لبوس المهرجين : مُطَرِّطُ طويل ، وسراويل فضفاضة منتفشة مُفَوَّفة ، وهو مائل بياض أحد المسارح ويده ناقوس يدقه قائلاً :

« هاموا . . . هاموا . . . شاهدوا الراقصة الكُرَّاشية العالمية فاطمة الساحرة . . . نجم الشرق وعروس الأحلام ! »

وانهلتُ على المقال أقرؤه ، ونظراتي تتوالت على الجمل والسطور ، وأنفاسي تتلاحق . . . وضربت رأسي بيدي ، وقد اتقدت عيناى . . . إنها قصة مما أفضيت به إلى صديقي الصحفي ليلة الحانة ، وإنها لتتضمن حادثاً لأبي حين كان يطلب العلم في فرنسا ، وقد وقع في حبائل راقصة مَرَّاشية تدعى فاطمة الساحرة . . . وذلك أنه قبلَ مرة أن يكون مهرجاً لها في إحدى قرى فرنسا ، فوقف أمام المسرح يجتلب لها الرواد !

وأكبر ما فاظني من هذا المقال أن الصحيفة قدتمته بالعبارة التالية :
« أدلى إلينا الشاب المذهب عبد المولى السيوطي بهذه القصة الواقعية الطريفة التي كان والده بطلها ، فنشرها راجين له مستقبلاً زاهراً . . . »
وانكبت على يدي أعْضُها ، وخيل إلى أني لو لحت في هذه اللحظة صديقي الصحفي لأشبعته لكماً وركلاً ، ولمزقته إرباً إرباً . . .

وتراخى الوجيه عبد المولى بك السيوطي في رجاسته ، ومسح شاربه المنتفش ، وأرسل تجشُّؤة منكرة الصوت وغمغم :
— لست بمنكر أن إفضائي بهذه القصة إلى الصديق الصحفي قد أنجاني من المبيت ليلة على الأسفلت . . . ولكن . . .
فقلت على الفور :

— ولكن طارت منك أكسفورد !
ونظر الوجيه السيوطي في مُعرَّض الفضاء نظراتٍ تائهة ، وهو يهمهم :

كيف طارت مني اكسفورد

— لشدة ما جار أبي في حكمه !

والقيت بنظرة على ساعة معصمي . . . لقد أبطأت عن موعدى في الصحيفة التي أعملُ بها . . . إني لأتمثل رئيس التحرير ومن حوله زبائنه يرتقبون مَقْدَمي وهم يُكنِّون لي ثورة جامحة . . . إن عمال صف الحروف وقوف ينتظرون ، وإن آلة الطبع معطلة متململة !

ولمعت في خاطري فكرة سرعان ما شملتني بفرحة جياشة . . . فأمسكت بيد صديقي وجيه أسيوط وهزتها متحمساً وأنا أقول :

— أشكر لك . . . أشكر لك حسن صنيعك . . .

ونفضت على الفور مستأذناً ، فقال لي عبد المولى بك وعلى وجهه أمارات التوجس والريب :

— أي صنيع تشكره لي ؟

ولم يكذب سؤاله حتى أخذ بطرف ثوبي لا يريد أن أفلت منه . . . وواصل حديثه في شيء من الاحتياج :

— ماذا تقصِد ؟ . . . يبدو أنك معترم . . .

وتأتأت بكلمات تطايرت من فمه غير مبينة . . .

وتضاحك طاف بك مخاطباً عبد المولى بك :

— دعه يسترزق !

فأجابه بصوت متهدج :

— كيف يسترزق ؟ على حسابي ؟ والله لا أدعه يعيد المأساة . . . ألدغ من

جحر الصحافة مرتين ؟

فأفلت من يده ، ووثبت إلى الطريق وثبة أبدتني عن متناوله ، ولكنها لم تبعد عن أذني شتائمه ولعناته التي كان يصبها عليّ في ثورة وحنق كأنها قذائف مدفع رشاش ! . . .

وجعلت أعدو متجهاً إلى دار الصحيفة ، وأمام عيني يرسم بخط الثلث الكبير عنوان مقال الذي أزمعت كتابته على الفور :

« كيف طارت مني أكسفورد ؟ »

محمد زكي

القرية والاصلاح الريفي في مصر

في مقال سابق (١) تناولنا حديث الفيضان وأثره في الحضارة المصرية ، ورأينا أن هذا الفيضان ظاهرة طبيعية عاصرت الحضارة منذ نشأتها الأولى في أرض وأدى النيل ، وكان لها أكبر الأثر في تكييف الحياة المصرية وإبرازها في طابعها المعروف الذي احتفظت به على مر السنين . وقد كان الفيضان الحبشي وارتفاع الماء في أواخر كل صيف وأوائل كل خريف مصدر خطر مشترك بالنسبة للمجتمع المصري ، ومصدر خير مشترك في الوقت نفسه ؛ وكان دفع هذا الخطر وجلب هذا الخير مدعاة لأن يتكاتف المجتمع وتتضافر جهود أفرادهِ ؛ فبعث ذلك روح الوحدة والنظام في حياة المجتمع الريفي منذ البداية ؛ وظهرت الجماعات التي كانت تعيش على ضفاف النيل بمظهر الأمة الموحدة قبل أن يظهر غيرها من الأمم ؛ وتمثل روح الوحدة والنظام في العمل والنشاط الزراعي في الحقول من جهة ، وفي حياة القرية والسكنى الريفية المستقرة من جهة أخرى . وقد عرضنا في المقال السابق لبعض مظاهر النشاط الزراعي وارتباطها بفيضان النيل وتنظيم الإفادة من مياهه إفادة كانت أساس الحياة المادية ، بل أساس المدنية الزراعية في مصر . وقد يكون من الخير أن نتابع الآن هذا البحث فيما يتصل بالقرية المصرية التي هي نواة المجتمع ، وتمثلت فيها حياة الاستقرار والانتقال من المرحلة القبليّة إلى المرحلة الحضريّة ، التي كتب لها الدوام والاستمرار في مصر خلال آلاف كثيرة من السنين .

وإذا كانت القرية المصرية قد مثلت نواة المجتمع الريفي ، فيها تركزت حياته وتكيفت معيشته ، واستقرت نظمته وتقاليده حتي اتخذت طابعها الذي لم يستطع الزمن ولا الأيام أن تمحوه أو أن تغيره ، فإن من الحق علينا ونحن الآن بسبيل إصلاح الريف وحياته القروية أن ندرس هذه القرية دراسة دقيقة ، قد لا يكون

(١) الكاتب المصري عدد ١٣ (أكتوبر ١٩٤٦) .

هذا مجالها من الناحية الفنية الخالصة ، ولكن لها مع ذلك جانباً ينبغي أن يهتم له أكبر عدد من أبناء مصر الراغبين في أن يتعرفوا على بيئتهم ، وأن يلتمسوا العبرة من دراسة تاريخهم الاجتماعي والقومي العام ؛ بل ينبغي أن يهتم له أكبر عدد من غير أبناء مصر ، والراغبين في تعرف شيء عن تاريخ المدنية البشرية ، وتاريخ هذه الأمة العريقة التي ساهمت بحياتها الريفية وقراها المستقرة في نشأة المدنية والاحتفاظ بتراتها على مر السنين . ولقد كانت القرية خلال أجيال طويلة عامل استقرار هام ، بل نواة دار من حولها نشاط الجماعات البشرية الريفية في أرض الكنانة وحق بذلك على من يهتمون بتراث الإنسانية وحضارتها المستقرة أن يدرسوا هذه المظاهر العريقة من حياة الإنسان في هذه الأرض الطيبة ، التي كتب لها أن تكون أم المدنيات .

ولقد رأينا في المقال السابق أن الحياة في الريف المصري بقيت على استقرارها القديم آماداً طويلة ؛ فكان المصريون يقسمون الأرض إلى حياض يرونها الفيضان بانتظام في كل عام ، ثم يفلحها أبناء الوادي على طريقته المتوارثة التي احتفظوا بها حتى جاء العهد الحديث ، فظهر الري الدائم ، وجاء ما يمكن أن نسميه الثورة الزراعية ، وانقلبت حياة الريف رأساً على عقب ، فامتد النشاط الزراعي ليشمل العام كله بدلاً من الاقتصار على فصل واحد ومحصول واحد في العام ، وتكاثر الخلق في القرى ، وتشابكت مصالحهم المادية وامتدت فيما وراء حدود القرية ، بل تعدتها إلى جهات أخرى في القطر أو خارجه فيما وراء الصحراء أو ما وراء البحار ؛ وخرجت القرية بذلك كله إلى حياة جديدة تتعدى الحوض أو الحياض التي تحيط بها ، وتتأثر بأمور بعيدة عن نطاقها وخارجة عن طاقتها ، تتصل بالحكومة المركزية القائمة في عاصمة البلاد ، والتي يصدر عنها تدير الاقتصاد الزراعي كله ورسم الخطة للتوسع الزراعي الحديث في الري والصرف واختيار المحاصيل وغير ذلك ، كما تتصل أيضاً بالعالم الخارجي ، بعد أن ارتبط اقتصاد الريف المصري في العهد الحديث بالأسواق الخارجية ، يغذيها بالقطن وغيره من المحصولات ، ويعتمد عليها في استيراد غير قليل من المصنوعات .

وقد كان طبعياً أن يترتب على هذه الثورة في الحياة الريفية المصرية ، بعد أن دخلها الري الدائم واتصلت بالعالم الخارجي اتصالاً يساهم في مقومات الحياة المادية وأسسها الاقتصادية مساساً قريباً ترتب على ذلك كله وصاحبه غير

قليل من الاضطراب لا تزال نلص آثاره ؛ فقد استلزمت الحياة الجديدة غير قليل من التغيير والتحويل في نشاط الريف ومعيشته القروية المستكنة . وحاولت القرية المصرية وأبنائها أن يلائموا بين ظروفهم القديمة وبين مقتضيات العصر الحديث محاولات لم تكن كلها سعيدة العواقب ولا موفقة السبيل . ثم جاءت هذه السنوات الأخيرة فظهرت في البلاد اتجاهات جديدة تهدف إلى ما اضطلع الناس على أن يسموه الإصلاحي الاجتماعي . بدأه الذين يبشرون بالحركة في بعض أركان المدن وأحيائها الفقيرة ؛ ثم انتهى بهم الأمر إلى ضرورة إنفاذه إلى الريف وقراه النائية . . . ذلك أن سكان الريف يمثلون الكثرة الساحقة من شعب مصر ، بل هم يمثلون أكثر من ثلاثة أرباعه . ونحن بلا جدال أمة تعيش في القرى أكثر مما تعيش في المدن ، ويستند إنتاجها القومي إلى سواعد سكان الريف أكثر مما يستند إلى سواعد سكان المدن . وإذا نحن هدفنا إلى إصلاح حياتنا القومية فينبغي أن نبدأ بالريف وأهله ؛ فهم قوام الأمة ، وهم عماد إنتاجها ؛ بل هم القوامون الحقيقيون على تراث مصر القديم ، وهم الذين هزتهم الحياة الجديدة . وصدمتهم أعنف الصدمات بما اقتضته ولا تزال تقتضيه من تغيير وتحويل . ومع ذلك فقد يكون من الخير لأولئك الذين يعرضون للإصلاحي الاجتماعي ، ويشاركون في رسم خطته ، أن يبدءوا بالتعرف على المشكلة في وضعها العلمي والتاريخي الصحيح ؛ إذ ليس الإصلاحي الاجتماعي مما يمكن أو يجوز ارتجاله ، أو حتى نقل وسائله وأساليبه نقلاً عن غيرنا من البلدان والأمم التي سبقتنا إلى إصلاح حياتها الريفية ودعمها قبل أن تتصدع أمام ضغط الحياة الحديثة . وإنما ينبغي أن تسبق الإصلاحي دراسة عميقة لمشكلات الريف في وضعها الطبيعي والبشري . وإذا كانت هذه الدراسة ضرورية بالنسبة لغيرنا من الأمم التي أخذت بالإصلاح ، فإنها ألزم بالنسبة لمصر والمجتمع المصري . فنحن أمة تعيش في الماضي بقدر ما تعيش في الحاضر أو في المستقبل ؛ وليست حياتنا في الماضي راجعة إلى أننا نحافظون نستمسك بالقديم لمجرد قدمه ، وإنما نحن نعيش في الماضي لأن كثيراً من نظمنا وتقاليدنا نشأت في البيئة المصرية نشأة طبيعية ، ولم تكن مستعارة من الخارج استعارة طارئة ؛ فهي بنت البيئة ، نشأت فيها ، وتغذت بلبانها ، ثم عاشت وعمرت لأنها كانت صالحة للحياة والبقاء والتعمير . ولم تكن هناك ضرورة ملحة على المصريين خلال أجيالهم المتعاقبة في أن يغيروا

القرية والاصلاح الريفي في مصر

حياتهم المادية ونظام زراعتهم ؛ فلم يغيروا شيئاً من ذلك إلا بقدر معلوم . كذلك الحال في تقاليدهم ونظمهم الاجتماعية التي تتصل بحياة الريف ؛ فقد بقيت كلها أو جلها على الزمن ، لأنها كانت صالحة للبقاء . وليس من العلم الصحيح ولا الروح العلمية السليمة ، بل ليس من الإنصاف ، أن تفسر احتفاظ الريف والحياة القروية المصرية بنظمها وحياتها القديمة على أنه راجع إلى حب المصريين للمحافظة على القديم ؛ فذلك تعليل ، إن صح في بعض نواحيه ، فهو أبسط من أن يفسر ما حدث في تاريخ مصر الطويل ، وما اكتنفه من أحداث جسام ، اهتزت لها جوانب أخرى من حياة مصر والمصريين . وإذا كان المصريون محافظين على كل قديم في حياتهم وحضارتهم ، فكيف تفسر تغييرهم لغتهم التي يتكلمون والتي يكتبون ؟ واستبدالهم ديناً آخر مرة أو مرتين ؟ وجمعهم بين القديم والحديث في كثير من مظاهر حياتهم وألوان ثقافتهم القديمة والحديثة ؟ واقتباسهم عن العالم الخارجي ، واتصالهم بأفكاره وحضاراته في الشرق والغرب على حد سواء ؟ الحق أن ما يقال عن الجمود وروح المحافظة على القديم في مصر ، وتمسك المصريين بقديمتهم لمجرد قدمه ، قول لا يجوز أن يطلق على علاته ، لأنه لا يطابق الحقيقة الواقعة مطابقة علمية صحيحة . ولعلنا أن نعود إلى هذا الموضوع يوماً في مقال ما .

ولكن الشيء الذي يهمني الآن إنما هو أن الحياة الجديدة والثورة الزراعية الحديثة في مصر قد هزت الريف وقراه هزات عنيفة اقتضت كثيراً من التغيير بعد ثبات طويل في بعض نواحي الحياة . وعلى من يريد أن يعرض للإصلاح والتجديد في الريف أن يدرس المجتمع الريفي وحياته القروية في ضوء ما اكتنف نشأة النظام الزراعي والقروي في مصر من ظروف طبيعية وبشرية . وعليه فوق ذلك أن يدرس العوامل الجغرافية والتاريخية التي أثرت في حياة المجتمع بل كيفتها منذ البداية ، تلك العوامل التي ربما كانت مسئولة إلى حد بعيد أو قريب عما بدا لنا أول الأمر كأنه جمود في حياة القرية المصرية ونظامها خلال أجيال طويلة . ومن الخير لمن يريد التجديد والتغيير أن يلم بعوامل الثبات التقليدية ، التي لا بد أن تدافعه في جهوده ؛ وقد يتوقف على خطته إزاءها نجاحه أو إخفاقه . . . بل قد يكون من الخير المحقق ، ونحن بصدد الإصلاح ، أن نلم بقوى الطبيعة والمجتمع التقليدية ، فنجندها تجديداً ، ونوجهها وجهة

القرية والاصلاح الريفي في مصر

اخير والحق توجيهاً ، فتغدو جميعاً في جانب الإصلاح ، بدلا من أن تبقى في جانب ما يسميه بعضنا جموداً ، وما يسميه بعضنا الآخر استمساكا بالتقديم أو إعراضاً عن التجديد ، وقد يسميه فريق منا عدم اكتراث بما يستلزمه العصر الجديد من نزوع إلى التطور وأخذ بسبيل التجديد .

ولقد تأثرت القرية المصرية في نشأتها وتطورها بعدد من العوامل الأساسية ، نستطيع أن نختار منها الآن ما نجمله في نقط أربع : هي الموقع المحلي والمكان الذي تحدد الظروف الطبيعية أن تقام فيه القرية . ثم المركز الجغرافي وعلاقة القرية واتصالاتها بغيرها من القرى في البيئة الريفية . ثم المواد التي تبنى منها القرية وموارد الطبيعة المصرية من هذه الناحية ، وما يتصل بذلك من تصميم القرية تصميماً يتفق وظروف البيئة وحاجات المجتمع القروي . ثم أخيراً معيشة القرويين في قريتهم ، واتصال ذلك بشؤون الإدارة والأمن والنظام ، وعلاقتها بالحكومة الإقليمية أو المركزية . وجميع هذه النواحي قد تأثرت القرية فيها بالظروف الطبيعية والبشرية للبيئة المصرية . وهذا ما سنحاول أن نعالجه الآن في شيء كثير من الإيجاز .

فأما عن الموقع والمكان فإن أرض مصر امتازت على غيرها من مواطن الحضارة القديمة بأنها أرض مستوية منخفضة ، يهددها فيضان النهر في كل عام تهديداً مباشراً بالإغراق ، وغير مباشر بالرشح . وعند ما نزل المصريون أول ما نزلوا من الصحراء إلى الوادي ، بين الألف السادسة والألف الخامسة قبل الميلاد ، كان عليهم أن يتحولوا من الحياة القبلية ، أي التي تكون القبيلة فيها وحدة المجتمع ، إلى الحياة الإقليمية ، أي التي يكون فيها الإقليم أو الوطن الصغير رباط المجتمع . وكان هذا الإقليم في العادة قسماً من الوادي ، تحوّل فيما بعد إلى مجموعة من الحياض التي يغمرها الفيضان ويفلحها الناس بعد انحسار مياهه . وفي هذا القسم حاول السكان الأولون أن يقيموا قراهم ؛ فكان عليهم أن ينشئوا أول الأمر كومات كبيرة من التراب ، ترتفع فوق مستوى الفيضان وتثبت لتيار الماء الجارف وقت اندفاع المياه ؛ وكثيراً ما تبطن جنبات هذه الكومات بالأحجار الجيرية البيضاء ، يجلبها القوم من حافة الهضبة إن كانت قريبة ، أو بأعمدة من جذوع الأشجار وجدائل من الأحراش والأعشاب . إن كانت الكومة بعيدة عن الهضبة ومعرضة في بعض جنباتها لتيار جارف ،

وذلك حتى لا تنهار الكومة ويجرفها الماء . وقد كانت إقامة هذه الكومات والمحافظة عليها ضرورية ، حتى يمكن إقامة مباني القرية في مكان أمين ، لا يهدده الفيضان . كما كان من المستحيل عمليا على شخص بمفرده ، أو حتى على أسرة أو مجموعة صغيرة من الأفراد أن يقيم لنفسها كومة صغيرة تبني بيتها فوقها ؛ لأن تلك الكومة الصغيرة يسهل أن يطغى عليها الماء ، وأن يصدع جوانبها التيار ؛ فضلا عن أنها في وقت الفيضان تصبح في عزلة عن غيرها من أماكن السكنى ، فتصعب حياتها ، ويسهل السطو عليها ، لأنها لا تتمتع بما تتيحه القرية الكبيرة لأهلها الكثيرين المتضامنين من أمن وسلام . لذلك كله وجد السكان في وادي النيل الأدنى ودلتاه أنفسهم مضطرين منذ بدء الحضارة الزراعية المستقرة إلى أن يعيشوا في قرى كبيرة ، تتوج كومات كبيرة منتشرة بين الأحواض ؛ بعضها قريب من الصحراء أو ملتصق بها ، ولكن أغلبها مجاور للنهر أو منتشر في سهل الدلتا الفيضي ، حيث لا عاصم من الماء إلا هذه التلال الصناعية التي بنتها يد الإنسان ، والتي يعتصم بها وقت الفيضان كل من يسعى وما يسعى على الأرض من أحياء ، فهي ملجأ الإنسان والحيوان على حد سواء .

وهكذا تركزت الحياة الريفية كلها في القرية التي أصبحت تلها بحكم الضرورة مسرح النشاط البشري كله خلال فترة الفيضان . وقد كانت ضرورة إقامة التل الصناعي مبعث الوحدة والتضامن في المجتمع القروي ؛ وبقيت كذلك خلال عصر التاريخ ، يحافظ سكان القرية على التل ، ويضيفون إليه من التربة ما يحفظ كيانه ، ثم يعيشون فوقه متضامنين متكاتفين متشاركين في الشعور بالخطر إبان الفيضان ، حتى إذا ما انجابت المياه نزلوا إلى الحياض يفلحونها ، ثم يمحصدون ما يزرعون ، ويجهدون من جديد في تطهير مسالك الماء ، وترميم جسور الحياض ، استعداداً لموسم الفيضان الجديد . بل هكذا قامت القرية والحياة الريفية كلها في مصر على أساس التضامن والتعاون والمشاركة في دفع الخطر وجلب المنفعة ؛ وطبع ذلك حياة أهل الريف على شيء كثير من مظاهر النظام والطاعة ، وهما صفتان ضرورتان لكل عمل إجماعي يشترك فيه عدد كبير من الأفراد . ولعل هذا كله هو سر القوة الأولى في حياة القرية المصرية ، وهو الذي استطاعت بفضل هذه القرية أن تعيش وأن تحتفظ بشخصيتها على مر العصور رغم تغير الزمن وتداول الأيام ، ورغم ما كان من غزوات أثبتت مصر وغيّرت وجه التاريخ

القرية والاصلاح الريفي في مصر

في مظهره ، ولكنها لم تغير أسس الحياة في مخبرها الاصلى ؛ فكانت القرية ، وكان الفلاح ، عنوان الاستقرار في الحياة المصرية ، بل عنوان الدوام والاستمرار في مدينة مصر الزراعية . وهذا ما عبر عنه بعض من لا يتعمقون الامور بأنه محافظة على القديم !

ولكن ما قيمة هذا الكلام بالنسبة لما نحن بسبيله من إصلاح الحياة الريفية ؟ ربما كان مرجع العلة في مجتمعنا الريفي الحديث (لا سيما في الدلتا) أن نظام الري الدائم قلل من أثر رى الحياض وضرورة إقامة القرية فوق كومة مرتفعة . فالأرض لم تعد تغمر بالمياه إلا في مناطق محدودة في جنوب مصر ؛ والقرى أصبح من الممكن أن تقام في مستوى الأرض الزراعية ، دون أن يرفع مكانها على هيئة تل صناعي . وقد أفقدت الحالة الجديدة قرى مصر مقوماً أساسياً من مقوماتها الأولى ؛ إذ لم تعد هناك حاجة لأن يتضافر السكان ويتعاونوا في إقامة تل التراب وحراسته ؛ بل إنهم قد اندفعوا في العهد الحديث إلى تخريبه ونقل أثرته لتسميد أراضيهم الزراعية ، التي ازدادت حاجتها إلى التسميد بسبب استمرار الزراعة طول العام . على أن الظاهرة التي لا ينبغي أن تغفل عنها هي أن إقامة التل كانت بالنسبة للسكان تمثل عملاً إجماعياً يتضافر من أجله الجميع ، على حين أن هدمه ونقل أثرته وأسبخته إلى الحقول الخاصة أصبحت الآن عملاً فردياً يقوم على الانانية والاثرة أكثر مما يقوم على الشعور بواجب التضامن وإيثار الصالح العام . وإلى جانب ذلك فقد كانت القرى القديمة كبيرة الحجم متجمعة السكان ؛ أما في العهد الحديث فقد كثرت العزب والقرى الصغيرة المنتثرة ، وأدى هذا إلى شيء من التفكك في روح الاجتماع في الريف . وعلى من يعالجون الإصلاح الاجتماعي أن يلاحظوا مثل هذه الظواهر الخطيرة في فلاحى مصر : تعاون لم يبق ما يحفز إليه ، وتضامن لم يبق ما يرغم الناس عليه ، وتفكك في المجتمع القروى يقوم على الأثر حيناً ، وعلى اعتزال الجماعة الكبيرة ، وانفراد الجماعة الصغيرة بذاتها حيناً آخر . وتلك كلها معاول هدم خطيرة في حياة الريف . ولا بد لنا في رسم خططنا الإصلاحية أن نعوض أهل القرى وسكان الريف بعض ما فقدوه من مقومات بقيت على الزمن ، حتى أصابتها الثورة الحديثة بصدمتها العنيفة التي هزت بناء المجتمع من الأساس . وإذا صح هذا الفهم لأحد أسباب التفكك والانحلال في

القرية والاصلاح الريفي في مصر

مجتمعنا الريفي ، فقد ينفعنا أن نعى بكل ما يردُّ إلى المجتمع روح التضامن والتعاون ؛ فنعلم سكان القرية مثلاً أن تتضافر جهودهم في بعض المشروعات القروية الجديدة من بناء أماكن الاستشفاء أو دور التعليم أو المراكز الاجتماعية أو ردم البرك والمستنقعات أو غير ذلك مما قد يكون على الحكومة المركزية أن تضطلع به لضمان سرعة الإنجاز ، ولكن من الخير أن يُعوَّذ الأهالي أن يشاركون فيه بما يرد عليهم روح الجماعة ، التي حفظت لمصر كيانها على مر الأعصر وكر الأيام .

كل هذا عن موقع القرية ومكان إقامتها ؛ فأما عن مركزها الجغرافي وعلاقاتها بغيرها من القرى فشأنه أيسر من ذلك . وقد راعى المصريون الأقدمون دوماً أن يتيسر على قراهم أن يتصل بعضها ببعض ؛ وكانت وسيطتهم في المواصلات نهر النيل ذاته من جهة ، ثم تلك الطرق الكثيرة التي تقطع الوادي ودلتاه طولاً وعرضاً ، والتي كانت تتمشى مع الجسور التي تفصل الحياض بعضها عن بعض من جهة أخرى . والواقع أن مصر في تاريخها القديم والوسيط امتازت على الدوام بكثرة هذه الطرق التي تقطع أراضيها من الجنوب إلى الشمال ، ومن الشرق إلى الغرب في هيئة شبكة صغيرة العيون . ولكن العهد الحديث غير من هذه الصورة بعض الشيء ؛ فلم تعد هناك حاجة إلى أن تقسم الأرض إلى مربعات وحياض ، ولا إلى أن يحتفظ بتلك الجسور التي تجري من فوقها الطرق ؛ وإنما أزيلت الجسور وأزيل معها كثير من سبل الاتصال ، واستعوض عنها بقنوات تجري كلها في اتجاه عام واحد من الجنوب نحو البحر ، وتتفرع على هيئة مروحة في أرض الدلتا التي تتفتح وتنتشر نحو الشمال . ومهما قيل عن صلاحية الطرق الحديثة التي تجري فوق جسور القنوات ، فإنها لا تعتبر مسالك قروية بالمعنى الصحيح الدقيق للكلمة ؛ لاسيما أن المشروعات الحديثة لم يراع في شقها أن تخدم القرى ومناطق السكن ، وإنما روعي فيها أن تروى الحقول ؛ ولذلك فإن كثيراً من الطرق التي تسير الترع تتحاشى القرى ولا تمر بها ، وإنما تهدف مستقيمة وسط الحقول . وفضلاً عن ذلك فإن ارتباط الطريق البري بترعة لم تنشأ للملاحة والاتصال ، وإنما أنشئت لغرض آخر هو الري ، قد خرج بالمواصلات البرية في ريف مصر عن هدفها الأصلي ، وانحرف بها عما كان ينبغي أن تسخر له من خدمة القرى

وتوصيلها بعضها ببعض . لذلك فإن معظم طرق الريف لا تزيد عن أنها مسالك قديمة جرى عليها الزمن ، وطغت عليها مطالب الزراعة والري الحديثة ، فهي لا تصلح لعصر أهم ما فيه تقصير المسافات وتوثيق الصلة بين الناس ، وربط أركان الريف وزواياه المنعزلة بعضها ببعض . . . وفي هذا كله مجال فسيح لمن يريد الإصلاح .

وأما عن موارد البيئة المصرية وما تجود به من مواد لبناء القرى ومساكن الريف ، فمن المفيد أن نلاحظ أن ظروف المناخ في مصر ليست من القسوة بما عليه الحال في مناطق أخرى من العالم . لذلك لم يجهد المصريون أنفسهم في أن يقيموا مساكن قوية تقيهم غوائل الطقس وتقلباته ؛ وإنما اكتفوا بإقامة مساكن بسيطة تقيهم حرارة الشمس ووهجها حين ترتفع في الصيف ، وشدة الريح وثورتها حين تعصف في بعض أيام الشتاء . وكانت مصر فقيرة في الأخشاب ، فاقصدت في استخدامها إلى أبعد الحدود . واكتفى المصريون بأن يقيموا منازلهم ومساكنهم من اللبن والطين المجفف . وكان هذا الطين مناسباً جداً لأحوال المناخ لأنه موصل رديء للحرارة ؛ فهو لا يسخن في الصيف ولا يبرد في الشتاء ؛ لذلك وجد المصريون فيه مادة مناسبة جداً لمناخ بلادهم القارى . ولعل من الطريف أن نلاحظ أنه في مصر القديمة كانت مساكن الفراعنة تقسها تبني من هذا اللبن ؛ أما الحجر فلم يكن يبنى به غير المعابد والهيكل والمقابر وما إليها من بيوت الله ودور البقاء . ولعل هذا هو السر في أنه لم يبق لنا من آثار السكن القديم في مصر غير القليل . وقد بنيت قرى المصريين ومساكنهم على مر العصور من نفس المادة ، لا لسبب إلا أنها أنسب ما تكون للبيئة والمناخ . حتى إذا ما جاء العهد الحديث وانتشر نظام الري الدائم تغيرت الأحوال ، فكثر الرطوبة في الأرض وارتفع مستوى المياه الجوفية ؛ كما أن بعض القرى كما ذكرنا هجر أهلها الأكوام القديمة وبنوا مساكنهم في مستوى الأرض الزراعية ؛ وذلك كله جعل المساكن عرضة للرطوبة ، وأقل صلاحية للسكنى والإقامة ، لا سيما في أشهر الخريف والشتاء . والواقع أن كثيراً من قرى الريف وبيوتها في الوقت الحاضر أصبحت لا تكاد تصلح لسكنى البشر في كثير من أشهر الشتاء ، بسبب الرطوبة الزائدة والأحوال الصحية غير المناسبة ، فضلاً عن تزاخم السكان وتكاثرهم بما يفوق طاقة المكان ، ثم تكاثر الحيوان أيضاً

وسكنائه مع الإنسان بحكم ظروف الفلاح التي يلبسها كل من نشأ أو عاش في الريف . لذلك كله لا نكون مبالغين إذا قلنا إن الثورة الزراعية كان لها من الأثر في حياة الريف المعيشية ، ما لا يقل في مداه ونوعه عما كان للثورة الصناعية من أثر في حياة الطبقات العاملة في مدن أوروبا ؛ إذ الواقع أن سكنى الريف في مصر هي اليوم أقل في مستواها الصحي ، بل في مستواها الإنساني ، مما كانت عليه الحال قبل إدخال نظام الري الدائم . وقد تكون هذه من كبريات المعضلات التي يواجهها من يعرضون لإصلاح الحياة في الريف ، خصوصاً أن الحالة تزداد سوءاً يوماً عن يوم . والواجب أن يوجه التفكير في صرف المياه الجوفية توجيهاً لا يقتصر على مراعاة فائدة الصرف للأرض الزراعية ورفع مستوى غلة الفدان ، وإنما يمتد إلى مراعاة ضرورة تحسين الصرف كوسيلة من وسائل تحسين حالة السكنى في الريف . وإذا كان البناء باللبن والطين المجفف قد صلح فيما مضى ، فإنه في الظروف الحاضرة وبنظام الصرف الحالي لم يعد يصلح للسكنى الصحية . ولا بد من معالجة الحال بخفض مستوى المياه الجوفية ، أو بتغيير مادة البناء في إقامة أسس المساكن ، أو بغير ذلك مما قد تتفق عنه حيلة المهندسين (١) .

وأما الناحية الرابعة والأخيرة التي نعرض لها في هذا المقال ، فناحية العلاقات التي تسود بين سكان القرية وتحكم معاملاتهم واتصالاتهم ببعضهم البعض من جهة ، ثم اتصالاتهم كمجموعة بالحكومات الإقليمية والمركزية من جهة أخرى . وهنا نعرض بالطبع للأمن والإدارة . وقد رأينا فيما أشرنا إليه من تاريخ نشأة القرية أنها قامت منذ البداية على شركة من المصالح المتشابكة والمنافع المتداخلة ، التي يحرصها تضامن اجتماعي قضت به ضرورات الحياة ومقوماتها الأولى ؛ وقد تمثل ذلك في القرية المصرية حتى في عصور ما قبل التاريخ . لذلك كانت الحكومة أو الإدارة القروية ضرورة من ضرورات الحياة ؛ فكان لكل قرية رئيس ينظم جهود الأفراد ويوجهها في إقامة كومة التراب مثلاً ، وفي الدفاع ضد الفيضان في موسم ، وفي تنظيم الدفاع عن القرية ضد ما قد يضييها من سطو

(١) هناك نواح أخرى من هندسة القرية لا نعرض لها هنا لأنها ثنية خالصة ؛ وهي التي تتصل بتصميم القرية وتحديد مواقع مرافقها العامة ورسم شوارعها وغير ذلك مما يحسن أن يترك الكلام فيه للمهندسين .

خارجي ، ثم تيسير اتصالها بالقرى الأخرى بوساطة القوارب أيام الفيضان أو الطرق أيام انحسار الماء ، وغير ذلك من مرافق الحياة القروية التي تركزت فيما بعد في نظام الإدارة المعروف وعلى رأسه العمدة والمشايخ . ولقد كانت سلطة الإدارة القروية في تاريخ مصر الطويل سلطة حقيقية مستمدة من مصالح أهل القرية وممثلة لإرادتهم في صورة واحدة أو صور تتشابه وتكرر من قرية إلى قرية . وبقيت الحال على ذلك ، فيما يبدو ، خلال معظم فترات التاريخ ، وإن تغيرت بعض تفاصيلها من عصر لعصر . ولكن المهم أن هذه الحال قد تغيرت في عهدنا الحديث ، ففقدت سلطة الحكومة المركزية على حساب السلطات الإقليمية والإدارات القروية ، وأصبح نظام الإدارة يفرض من العاصمة على البنادر ، ومن البنادر على القرى والدساكر ، وضاعت سلطة الحكومة القروية وهيبته في أعين أهل القرية إلى حد كبير ، وأصبح العمدة مثلاً يتقرر تعيينه أو إعفاؤه عن طريق السلطات المركزية العليا ، فلا يستند اختياره والاستغناء عنه إلى إرادة أهل القرية إلا استناداً عرفياً أو شكلياً في كثير من الأحيان . وفي هذا مساس خطير بأساس هام من أسس القرية والحياة القروية التي عرفتها البيئة المصرية قبل الثورة الزراعية الحديثة . وقد أضعفت الحالة الجديدة ثقة المحكوم بحاكمه في القرية من جهة ، وجعلت صلة الحاكم القروي برجال الحكومة الإقليمية أو المركزية أهم في نظره وأدنى إلى منفعته في بعض الأحيان من صلته بأبناء القرية ذاتها . وفي ذلك فساد عيس الأصل والاساس ، ولا يمكن إصلاحه إلا بإعادة السلطة إلى القرية ، بحيث يكون بناء الإدارة قائماً على القرية (الناحية) فالإقليم ، فالحكومة المركزية ، وبحيث تستند هذه الأخيرة في سلطاتها إلى السلطات المحلية والقروية ، ولا تستمد القرية سلطاتها من المدينة كما هي الحال الآن . ولكن قصة الإدارة في مصر قصة طويلة ، وقد تختلف فيها آراء المصلحين . من كل هذا يتبين لنا أن موضوع القرية المصرية وإصلاحها موضوع خطير معقد ، يزيد من خطورته وتعقيدته أنه يكاد يشمل الحياة المصرية في مجملها ، وأنه يستلزم دراسة واسعة وعميقة لحياة مصر التقليدية . . . تلك التي يعرفها المؤرخون ، ويعنى بها الذين يدرسون حضارة البشر ، ويحرصون على ما فيها من تراث جميل . وريف مصر من هذه الناحية يمثل أقدم بقعة في الأرض اتصلت فيها الحياة الدائمة المستقرة ، والحضارة القائمة المستمرة ، قد حباه الله بنيل كريم

ينفيض بالخير ويجدد الحياة في كل عام ، وهدى الله أهله إلى أن يعيشوا متكاتفين متضامنين ، في قرى آمنة ، تجتمع فيها الخلق ، واستجاب الفرد لمقتضيات للتضامن الاجتماعي ، الذي هو خير ما تتكشف عنه نفس إنسان . وإذا كان صحيحاً أن الله قد جعل من مصر كنياته في الأرض ، فقد شاءت حكمته أن يخرج من سكان قرى مصر أمة عريقة ومجتمعاً عرف كيف يحتفظ بوحدته وكيانه ويلبسه الحضاري المميز خلال قرون وقرون . وليس عجيباً في هذا المجتمع أن تكون القرية قد بقيت على الدوام نواة النظام الاجتماعي ودعامته التي يستند إليها بناء الأمة ، وأن يكون ما أصاب مدائن مصر وعواصمها من تغيير وتبدل في مظهر المدينة في بعض العهود لم يستطع أن يححو ما رسمته الطبيعة ، ولا أن يهدم ما بنته يد الإنسان في ريف مصر . ومع ذلك فليس من الحق ولا من الإنصاف أن تفسر ثبات الحياة في الريف وقراه بأنه جمود أو تشبث بالقديم لا يفيد ولا يغني في العصر الحديث ، فقد يكون في هذا الذي نسميه قديماً بعض ما ينفع في حاضر مصر ومستقبلها ؛ بل قد يكون من الخير أن نتنبه للأمر فلا نندفع في التغيير والتبديل لمجرد التغيير والتبديل ، ولا ندع هذا التصدع الذي أصاب المجتمع في أعقاب ثورته الزراعية الحديثة يستمر على غير هدى وفي غير ضابط . ومن يدرينا ! فقد يكون هذا التصدع الذي أصاب حياتنا الريفية والقروية منذ قرن أو يزيد ، والذي أشرنا إلى أمثلة منه في هذا المقال ، سبب العلة في ضعف مجتمعنا المصري في العهد الحديث . وقد تكون الثورة الزراعية ، على ما فيها من خير وبركة ، قد سارت بنا دون أن نحس إلى انقلاب خطير في حياة مجتمعنا الريفي ، لا يدرك مداه إلا من درس تاريخ هذا المجتمع ومراحل تطوره دراسة جدية عميقة . وإذا كان هذا كله صحيحاً — وهو ما نخشاه خشية محققة — فإن أمر الإصلاح الاجتماعي والريفي في مصر يخرج عن كونه مجرد أمر يتوقف على الإرادة الطيبة والهمة الصادقة والرغبة الأكيدة في تحقيق الخير والحق . . . يخرج عن ذلك إلى أنه أمر خطير يستلزم دراسة عميقة دقيقة ، لا لشؤون المجتمع في الوقت الحاضر فحسب ، وإنما كذلك لتاريخ المجتمع في عصوره وأطواره الماضية . وإذا جاز لغيرنا من الأمم ذات لتاريخ القصير أن تعرض عن الماضي ، فلا تعني به في رسم خططها الإصلاحية للمستقبل ، فإن ذلك لا يجوز بالنسبة لمصر ومجتمعها الذي يمتد

بأصوله إلى الماضي البعيد . بل قد يكون إهمال الماضي في نظر كثير من الناس جرماً لا يغتفر ، وخسارة لا تعوض ؛ ففي تاريخ مصر ومجتمعها كثير من الثروة والتراث الطيب ؛ وفي ذلك التاريخ عبرة ودروس لمن شاء أن يعتبر أو يتعلم . . . وربما كان أول هذه العبر والدروس أن النهضة الزراعية الحديثة لا تسير بنا بالضرورة في الطريق القويم ، وأن الشر في حياة الريف يزداد يوماً عن يوم . . . لا ينقذنا من الكارثة إلا أن نردّ إلى حياة الريف شيئاً مما علمنا التاريخ . . . فنبتعت فيه من جديد ، وفي صورة جديدة تسير الزمن ، روح التضامن والتعاون التي قامت على تأسيسها القرية المصرية في عهودها الأولى ، وتقيم حياة القرية على أساس جديد من المنافع المحلية المشتركة والمصالح المتبادلة والنزعة الاستقلالية في الحكم والإدارة . فردّ بذلك كله إلى القرية اعتبارها المسلوب ، ونعود بها إلى ما كانت عليه أول الأمر ، وإلى ما كانت عليه في عهود عظمة المجتمع المصري وازدهار حياته بصفة خاصة ؛ ونجعل من القرية بحق نواة المجتمع تدور من حولها أفلاك نشاطه ، وتستند إليها دعائم كيانه ووجوده . . . بل نجعل منها رمز الخلود في روح مصر عله أن يبعث فتية وأن ينشر قوياً ، وعل مصر الخالدة أن تبقى على الزمن وتجدد ما بقيت على الأيام وتقبلها ، فتعيد في مستقبلها بعض ما كان لها من سيرة خالدة في ماضيها المجيد

سليمان مهنين

هـ . ج . ولز

كان هـ . ج . ولز أديباً عالمياً يكتب باللغة الانجليزية . ولكنه كان آخر من يرضى بأن يصف نفسه بأنه انجليزى فى قوميته ؛ فقد كان يكافح القوميات ويصف العالم بأنه « قريتنا الكبرى » وقد كتب كثيراً لهذه الدعوة العالمية التى نسير إلى تحقيقها على الرغم من الدعوات الانفصالية التى يزدحم بها عالمنا الحاضر من أثر العقائد والوطنيات واللغات والمذاهب والإمبراطوريات .

وربما تنسى أشياء كثيرة من ولز فى المستقبل . ولكن ليس شك فى أننا سنذكره بأنه الأب الروحى للعالم الجديد المتحد ، وبأنه أول من صمد إلى وضع التفاصيل لوضع حكومة عالمية ولغة عالمية وموسوعات عالمية ، بل أيضاً لوضع النصوص والشروط التى يستطيع أن يعيش بها أبناء هذا العالم وهم آمنون من استبداد الحاكمين والأولياء حتى الآباء .

وإذا شئنا أن نعين الطراز الذى ينتسب إليه ولز وجدناه أقرب إلى رجال النهضة الأوربية (من ١٤٠٠ إلى ١٦٥٠) منه إلى عصرنا . فهو من طراز دافنشى الرسام الجيولوجى البشرى المستقبل . والاختلاف بينهما بسيط ، لأن الأول استعمل الريشة والثانى استعمل القلم ، ولكن كليهما عرف قيمة العلم ، وكان على وجدان بمغزاه فى مستقبل البشر وعلى تفاؤل بهذا المستقبل .

وقد روى عن دافنشى أنه حين مات حطت على رأسه حمامة ، فكانت رمزاً لطيران الإنسان ، هذه الأمنية التى فكر فيها هذا المفكر فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وكذلك مات ولز وهو يرى بعينه فى العام الأخير من حياته هذا الكشف العالمى ، كدت أقول الكونى ، العظيم : الطاقة الذرية تخدم الإنسان . وصحيح أن هذه الخدمة كانت للشر والدمار ، ولكن ماذا فى هذا ؟

أجل ! لقد اهتز ولز من هذا الكشف بل تزعزع وتكلم فى تشاؤم . ولكن

ما كان أحراره لو أنه عاش سنوات بعد هذا الكشف أن ينهض ويكافح ، وفق سيرته الماضية ، لاستخدام هذا العلم الجديد في خدمة الإنسان . ولا بد أنه كان يظفر . فقد سبق أن حدثنا في خيال علمي ، بديع مرعب ، عن غارة أبناء أحد الكواكب على أرضنا ، وكيف استولوا في أيام قليلة على الأرض والبحر والجبل والسهل ، وكيف شرعوا يربوننا كما نربي نحن الأرانب ، فإذا جاعوا مصوا دماءنا ، ثم كيف نجونا منهم بالميكروبات ، هذه الميكروبات التي يزخر بها عالمنا وقد تعودتها أجسامنا ، ولكن أجسام هؤلاء الغرباء لم تتعودها ؛ ولذلك تعفنوا وهلكوا .

وجاءت الطاقة الذرية في العام الأخير من حياة ولز ترمز إلى هذا الخيال ، كما حطت الحماية على رأس دافنشي ترمز إلى صعود الإنسان إلى السماء . وقد تحققت الرؤيا الأولى ، رؤيا دافنشي ، فهل تتحقق رؤيا ولز في استعمار الكواكب ؟

وهذا الطراز الجديد من الأدباء يتكاثر في أيامنا . أجل ! أولئك الأدباء العلميون الموسوعيون الذين عرفوا القوة التحريرية في العلم ، أي تلك القوة التي تحرر الناس من الكد وتبسط لهم آفاقا في الحياة الطويلة العريضة حين يكبد لنا الحديد والكهرباء والذرة ، ولا يكون لنا بعد ذلك من هم واهتمام سوى الاستمتاع بالدراسة والكشف والاختراع والوقوف على أسرار الطبيعة . ولو أن ولز عاش أيام النهضة الأوربية حوالي ١٥٠٠ لكان واحداً من رجال النهضة ؛ لأنه كان يدعو في حماسة إلى « البشرية » ، وكان يكافح « الغيبية » . وقد تغير معنى « البشرية » من أيام النهضة لآيامنا ؛ فكانت قبلا دعوة إلى قراءة مؤلفات الإغريق والرومان القدماء . أما الآن فهي ، في معناها الأمريكي ، دعوة إلى مقاطعة الغيبيات .

وليس غريباً أن تنشأ هذه الدعوة في الولايات المتحدة الأمريكية حيث العلم مزاج نفسي وتطبيق عملي ومذهب ديني . وليس من شك أن لكل هذا ثقافته بل ضروره . ولكن للحوادث حتمية تتجاوز النيات البشرية . ومن هنا الحاجة الملحة إلى مثل هـ . ج . ولز كي يعمل للتوفيق بين المعارف فلا يجعل إحداها تتمكن منا وتوجهنا بدلا من أن نتمكن نحن منها ونوجهها . وقد أوشك أن يحدث مثل هذا من الطاقة الذرية .

عمد ولز إلى القصة . وهو بلا شك قصاص ماهر ، ولكنه لو خير لآثر على القصة الشرح الموضوعي . وهناك قصص ألفها في الفترة الأولى من حياته الأدبية يبدو أنه التذكت كتابتها وسرّ بما فيها من براعة فنية . ولكنه في السنين الأخيرة ، أو بالأحرى منذ بدءا الحرب الكبرى الأولى إلى الآن ، جعل القصة وسيلة إلى نشر بحوثه الاجتماعية العلمية . ولكن يجب ألا نخطئ فترعم أنه اختار هذا الطراز من القصة ، لأن الاختيار لا مكان له . ذلك أنه حين ابتداء يكتب في العقد الأخير من القرن الماضي كان العصر والظرف ، كلاهما يتيح إلى حد ما ، نبوغاً فردياً أو اقتحافاً شخصياً ؛ فكان هناك مجال للبطل في القصة ، ينوي فيعمل ، ويريد فينجح ، أو على الأقل كان هذا هو الفهم العام . والأغلب أنه كان فهماً مخطئاً حتى في ذلك الوقت . ولكن منذ بدءا هذا القرن أخذ الوسط يتغلب على الفرد ، وكان وسط القوات الاقتصادية الآلية ، فصارت الأعمال « تكيف » النيات وتوجه الإرادات . ولذلك أصبحت قصص ولز رسائل مسهبة في التحليل النفسى أو التضخم الاقتصادى أو الاتجاه السياسى ، وانحط شأن الفرد في القصة لهذا السبب .

سألنى ذات مرة أحد القارئى عن أحسن كتاب قرأته فى اللغة الانجليزية من حيث الأسلوب . فقلت له ببديتهى : كتاب داروين « أصل الأنواع » . ولم أكن مازحاً فى هذا ؛ لأنى أحس أن أسلوب التفكير الذهنى عند داروين خير ألف مرة من أسلوب العاطفة المزيفة أو الخالصة عند أوسكار وايلد ؛ لأن الفن الذهنى خير من الفن العاطفى .

وأسلوب ولز الأديب العلمى هو أسلوب داروين لا أسلوب أوسكار وايلد . ولو أن ولز نفسه سئل عن أسلوبه من أى الطرز هو لأجاب بـ « حقيقة عالية » ؛ لأنه لو استطاع أن يكتب بالعامية وأن يصل منها إلى غايته فى سعة الانتشار لما أحجم . وقد استخدم ولز العلم بمهارة كبيرة فى القصة أكبر من المهارة التى استخدمه بها جول فيرن . ولكنه وجد أن القصة لا تؤاويه على إيضاح أغراضه ، فتركها وعمد إلى ما وصفناه بأنه « رسالة مسهبة » فى شرح الموضوعات التى يتماس فيها العلمان : المادى والاجتماعى .

ولعل أعظم ماحله على ترك القصة أنه رأى أن إغفال البطل منها يجعلها ماسخة ؛ لأن حيوية القصة بأشخاصها . وأغلب القصص ، يجعل مرتكز هذه الحيوية ،

الغريزة الجنسية ، فما تفتأ جميع القصص تتحرش بهذه الغريزة . والانتقال من هذا التحرش العامي إلى البحوث السياسية والاجتماعية والاقتصادية الخطيرة يحدث للقارئ صدمة لا تتفق وفن القصة . وهذه القصص الخطيرة التي عالج فيها ولز مشكلات المجتمع لن تعيش ؛ لأن هذه المشكلات تتغير ويحدث غيرها بتغير الوسط الاجتماعي الاقتصادي . لأن مالنا من عواطف وأمان وما يرافقهما من سلوك وتفكير إنما هو كله ثمرة الوسط الاجتماعي الاقتصادي . ولذلك فإن القارئ لقصص ولز الاجتماعية بعد عشرين أو ثلاثين سنة سوف يجدها غريبة عن قلبه وعقله ، في حين أن تلك القصص الأولى التي تحوى « أبطالاً » سوف تقرأ في لذة مهما طال عليها الزمن ، وخاصة تلك التي يعتمد فيها ولز إلى فكاهاته التي تقارب بل أحياناً تطابق ما خلفه ديكنز أحد أمراء القصة في القرن التاسع عشر .

نال ولز في كتابه « طوالع الإنسان » ، وهو كتاب يبحث فيه مشكلات البشر ومستقبلهم

« لقد استغرق جزءاً كبيراً من حياتي الوجدانية ، كفاحي لأجل نشر المعارف المثمرة . فقد حاولت أن أجمع وأخلص المعارف الراهنة كي استطاع استغلالها في المعيشة البشرية ، وكى أحمل غيرى ومن هم أكنى منى على أن يقوموا مثلي بهذا العمل . وكذلك عملت كي أجمع بين النظم غير المتناسقة من التفكير بشأن الحقائق ، وهى نظم ، يتجاهل كل منها الآخر ، فى بلادة الذهن وإضاعة الفرصة ، كما أن كثيراً من التشوش الذهني فى التفكير البشرى يعود إليها . ذلك أن هذه الفلسفات والغيبيات المتناقضة ، التى لم تتناسق ، تزحم الذهن البشرى . وعدم تناسقها هذا يرجع إلى أن كلاً منها يتجاهل الآخر . وأنا لا أطيق هذه المتناقضات ؛ لأنى حين أعالجها أجد أنها تقلقنى وتربكنى . . . وما لذهنى من ميزة خاصة أو نقص خاص إنما يرجع إلى صفة واحدة . فإذا مدحت قلت إن عقلى يجابه المشكلات ، وإذا ذممت قلت إنه لا يفتن للخفى . فأنا لا أطيق التفاصيل المربكة أو الأكاذيب العرفية لأنى أخشاها جميعاً . . . وأنا أطرق فكرتى كما لو كانت سنداناً . . . »

أجل ! لقد طرق ولز طائفة من الأفكار ودق عليها فى تكرار ، ولكن ، فى كل مرة ، يختار ناحية أخرى منها غير تلك التى دق عليها من قبل . ولذلك

انتقل من القصة إلى المقال الاجتماعي ، ثم جعل القصة تتناول بحوثاً اجتماعية مختلفة . وأخيراً ترك القصة أو كاد إلى تأليف الكتب الضخمة في الاجتماع . وقد نجح كل من أبسن وشو في استخدام الدراما للبحوث الاجتماعية . واحتفظ الأول بمئة في المئة من فن الدراما ، واحتفظ الثاني بأكثر من خمسين أو ستين في المئة . ولكن لا يمكن أن يقال إن ولز نجح في استخدام القصة حتى إلى الحد الذي بلغه شو . والحق أن المسرح يتيح للمؤلف معالجة المشكلة الاجتماعية أكثر مما تتيحها القصة ؛ لأن الأشخاص على المسرح يجسمون المشكلة بلا شرح مسهب لما تحويه من عُقد . ولكن مؤلف القصة يضطر إلى مثل هذا الشرح فتقلب القصة إلى بحث اجتماعي كثيراً ما يتعارض مع أصول الفن فيها .

عندما أتأمل حياة ولز ومؤلفاته أحس أن شهوته الذهنية الأولى هي العلم . فقد تتلمذ للعظيم توماس هكسلي (والد جوليان وألدوس) ، الذي جعل من نظرية التطور مذهباً جهادياً ، وقضى حياته في مكافحة المظلمين والغيبين كي يجعل هذه النظرية مألوفاً تتحدث عنها الصحف ويسلم بها العامة . وقد نجح في ذلك . وشيء من هذا الروح الكفاحي قد انتقل إلى ولز ؛ فإنه حين ألف « خلاصة التاريخ » بل حتى في أواخر السنين من عمره لم يكن ينسى أن ينبه إلى أننا كنا سمكاً قبل ٣٠٠ أو ٤٠٠ مليون سنة ، فكيف نكون بعد مثل هذه الملايين في المستقبل ؟ وقد نبعت تكهناته المختلفة ، الخيالية والحقيقية ، من هذه البؤرة . فن التكهنات الخيالية هاتان القصتان : « حرب العوالم » و « ناس كالألهة » . ومن التكهنات الحقيقية الحرب الأوربية الكبرى الثانية ، والدبابات والطائرات ، والقنبلة الذرية . وكانت بصيرته ، لسوء حظ البشر ، صادقة في كل ذلك .

ولكن ولز انقطع عن البحث العلمي ؛ لأنه اضطر عقب حصوله على درجة « بكالوريوس في العلم » إلى أن يسعى لرزقه ، فاختار القصة الخيالية والفكاهية أولاً حتى إذا زالت عنه الحاجة الملحة صمد إلى البحوث العلمية الاجتماعية ، أو ، كما قال هو ، محاولة التنسيق بين المعارف المادية والنظام الاجتماعي . وكأنه بهذه البحوث قد استأنف إشباع شهوته العلمية الأولى ولكن في الميدان الاجتماعي . وكتاب « خلاصة التاريخ » يعد حسناً من حيث إنه محاولة أولى في اعتبار

العالم أمة واحدة تسير متساندة في موكب الحضارة : الكتابة في مصر ، والورق في الصين ، والمطبعة في ألمانيا ، ثم بعد ذلك انفجار الثقافة على العالم كله . أو ، من قبل ذلك : الزراعة في مصر ، ثم نقود الأسكندر وجيوشه وفتوحاته ، ثم انفجار الحضارة الإغريقية المصرية الرومانية في البحر المتوسط . ثم يتصل العالم ويتشابك ، حتى إننا نرى ملكاً هندياً في بداءة القرن الثاني قبل الميلاد يبعث إلى الأسكندرية يدعو المصريين إلى البوذية . ثم يزداد التشابك بمخترعات القرن التاسع عشر ثم القرن العشرين إلى أن يعود استقلال الأمم وانفرادها مستحيلاً بل ضاراً . إذ يجب التوحيد السياسي للعالم بحكومة واحدة .

وقد عاش ولز أيام طفولته في بدروم ، وكانت أمه خادمة للأسرة التي تعيش في الطبقتين العليين . وكانت أمه ، كما هو الشأن في الخادومات ، تخشى صعوده إلى إحدى الطبقتين . ولذلك هو يذكر من أيام طفولته ذلك البعبع الذي يسكن في الطبقة العليا . وقد أتاح له نجاحه أن ينتسب بعد ذلك إلى الطبقة المتوسطة ، ولكن بقي في نفسه خوف الفقر إلى يوم وفاته . وعندى أن هذا الخوف هو ، في سيكولوجية الأعماق الفرويدية التحليلية ، السبب لكراهته للاشتراكية الماركسية أو حرب الطبقات ؛ لأنه أبى أن يمثل طبقات العمال الذين ولد معهم في ظلام البدروم ، وأصبحت دعوته إلى الاشتراكية هي الدعوة الفابية أي اشتراكية التطور السلمي بالإصلاحات المتدرجة التي يقبلها أبناء الأمة جميعهم فقيرهم وثريهم .

وقد زار روسيا مرتين ، فلم يرتح إلى اشتراكيته ، وفهم منها مثلما فهم برنهام الأمريكي في كتابه « الثورة الإدارية » أي إن القائمين بإدارة المصانع والمزارع والمكاتب قد أخذوا في النظام الجديد مكان المالكين في النظام القديم من حيث التمتع بامتيازات الأجور أو الرواتب العالية وغيرها . ولكن ليس شك في أن حجة ولز ضعيفة جداً في مكافحته للماركسيين . وقد أنفق كثيراً من جهده في هذه المكافحة العقيمة ، وكان في استطاعته أن يتركها ، وخاصة لأن موضوعه الأصلي وهو « الحكومة العالمية » لا يحتاج إلى مثل هذه المكافحة . فقد آمن هو بالاشتراكية ، ووجد أنها ضرورية للسلام والطمأنينة للأفراد والأمم . ومشاجرته هنا للماركسيين الاشتراكيين تشبه مشاجرته القديمة في ١٩٠٦ حين وقف في الجمعية الفابية ، وهي جمعية تدعو إلى الاشتراكية

السلامية التدرجية ، يدعو إلى الكفاح السياسى ، فى حين كان زعماءها قانعين بالكفاح الثقافى . ووجد نفسه أيضاً أنه ضد مبادئ ماركس أى ضد حرب الطبقات ، والمنطق الكلامى ، والدوليات ؛ مع أن هذه « الدوليات » كانت الطليعة للبرنامج العالمى الذى انتهى إليه بعد ذلك . ولكن يمكن الدفاع عن ولز هنا بأنه أيقن فى تلك السنين أن المزاج الانجليزى أقرب إلى المبادئ القابلية السلامية منه إلى المبادئ الماركسية . وحكومة العمال القائمة الآن ، بعد أربعين سنة من مشاجرته مع الفايين ، تدل على أنه قد صدق هنا أيضاً فى تكهنه السياسى ، كما سبق أن صدق فى تكهناته العلمية . وفى تلك الفترة وضع كتابه عن الاشتراكية « عوالم جديدة للقداى » ، وغايته أن يثبت أن الأثرياء والمتوسطين يجب أن يقبلوا النظام الاشتراكى مثل العمال ؛ لأن مصلحتهم تقتضى ذلك .

ولكن ولز سيعرف فى السنين القادمة بمجهاده لأجل التوحيد العالمى . وأول مانجد هذا الاتجاه واضحاً فيه هو فى كتابه الذى ألفه فى ١٩٢١ « استنقاذ الحضارة » . وفهرست الكتاب تدل عليه : المستقبل المرجح للبشر ، مشروع الدولة العالمية ؛ التوسع الوطنى إلى الدولة العالمية ، إنجيل الحضارة ، تعليم البشر ، الكلية والجريدة والكتاب .

وهذه الفهرست لا تحتاج إلى شرح . فهو يقترح إيجاد حكومة عالمية تهىء البشر جميعهم بتعاليم موحدة إلى وطنية عالمية .

وفى ١٩٣٢ وضع كتابه « أعمال البشر وثروتهم وسعادتهم » وهو دراسة موضوعية للحال القائمة للعالم فى تلك السنة كأنها الجغرافية الاجتماعية . اعتبر الفهرست أيضاً : كيف أصبح الإنسان حيواناً اقتصادياً ، كيف تعلم الإنسان التفكير والتسلط على القوة والمادة ، التسلط على المسافات ، التسلط على الجوع وكيف يغتذى الإنسان ، التسلط على المناخ ، كيف تشتري السلع وتباع ، كيف ينظم العمل ، لماذا يعمل الناس ، كيف يكافأ العمل وكيف تجمع الثروة ، الغنى والفقير وخصومتهم التقليدية ، مهمة المرأة فى عمل العالم ، حكومات البشر والقتال الحربى والاقتصادى ، عدد البشر وصفاتهم ، الطاقة الفائضة للبشر ، كيف يعلم البشر ويدربون ؛ طوال البشر .

ثم كتابه « أشكال الأشياء القادمة » وهو تعقيبات وشروح وتكهنات عن الكتاب السابق . وقد وضعه فى ١٩٣٣ .

وأخيراً كتابه «طوالع الإنسان» وقد أُلّفه في ١٩٤٢ . وهو أيضاً مثل الكتاب السابق تعقيبات وشرح .
وصفحات هذه الكتب الأربعة تبلغ نحو ألفي صفحة كبيرة . وهي جميعها حافلة بالإحصاءات والإشارات إلى دراسات أخرى .
ومن هذه العجالة يرى القارئ أن ولز طراز جديد من الأدباء . أجل ! هو أديب علمي ، سوف نرى في هذا القرن مئات يسرون على الطريق الذي شقه . ولن يكون هذا للتقليد ، ولكن لأن أدباء القرن العشرين سيجدون من واجبهم أن يقفوا حياتهم على حل المشكلة القائمة ، وهي التقدم الرائع في العلوم المادية مع الجمود التام في العلوم الاجتماعية ، وما ينتجه هذا من الرعب في جميع المتبصرين المتكهنين الذين يرون الطاقة الذرية تصطدم بالغيبيات .

سلام موسى

إلى البلب

أيها البلب المغنى سلاما
شاقنى صوتك الجميل ، وأحيا
وسباني الصياح يطلق فى الآف
والطيور التى تبادلك الآل
والزهور التى تزيد جمالا
كعدارى يسمعن همسا رقيقا
ما أرقّ الغناء والأغما !
فى حياتى الأفراح والأحلاما
ق سناء مغردا بساما
حان حبا وألفة وانسجاما
حين تلقاك شاديا مستهما
من شفاه تبثن الغراما

أنت يا بلبل تغنى غناء
ويزف الربيع للقلب حتى
أنت روح علوية تعشق النو
وترى غاية الحياة غناء
ورسول من السماء إلينا
لنرى كيف نجعل الحياة نعيما
يجعل النفس تستعيد الرجاء
لا يرى القلب فى الحياة شتاء
ر ، وتهوى الآفاق والأرجاء
يملا الكون فرحة وبهاء
يبعث الحب والمنى والرجاء
وسلاما وبهجة وصفاء

أنت تحيا فى غبطة وحبور
لك ما تشتهى الحياة إذا جا
إنما أنت فى الحياة طليق
فتنقل بين الرياض طروبا
وإذا ضحك المساء فطر شو
فاقض فيه ليل الصبابة حتى
بين أيك وربوة وغدير
شت بسر المنى ، وروح الشعور
لست مثلى تعيش عيش الأسير
أو خلّق بين الفضاء الكبير
قا إلى عشك الجميل الوثير
يقبل الفجر هاتقا بالطيور

إلى الببل

يا سليل الحياة ، يا ابن الزمانِ
أنت علمتني الغناء فأصبح
إنني دائماً أذوّب روحى
أنا فى مهجتي مشاعر ما زل
فادنُ منى كما أبشك أفرا
وكفانى أنى أعيش غريباً
صوتك العذب رنّ فى وجدانى
ت أغنى بهجتي وكيانى
فى قواف تموج بالألحان
لت تعانى فى سجنها ما تعانى
حى ، وأشكو إليك من أحزاني
بشعورى فى عالم الإنسان

ليتنى ببل يعيش سعيداً
أنا فى عالم يقيّد روحى
غير أنى لم أعرف اليأس يوماً
إننى دائماً أطل بروحى
سوف يبدو سناه يوماً لعينى
وترف الحياة فى قايّ البا
أمل ساحر أراه قريباً
يقطع العمر طائراً غريداً
وهى تشتاق أن تفك القيودا
لا ، ولم أفقد الرجاء الوليدا
نحو أفق يضم فجراً جديداً
فأرى فيه حامى المنشودا
كى سلاماً وفرحة ونشيدا
فأغنى ، وقد أراه بعيداً

ابراهيم محمد نجما

صورة من عهد النهضة الأوربية

البابا والمثال

عند ما قابل البابا يوليوس الثانى المثال لأول مرة ، كان كل منهما قد بلغ قمة الشهرة فى محيطه . فلم يكن البابا شبحاً من تلك الأشباح العابرة التى جلست على كرسى القديس بطرس وتركت أسطراً على صفحات التاريخ ضئيلة ، بل برزت مواهبه منذ نصبه عمه البابا سستو الرابع كردينالاً ، فكان من أقوى ذوى القبعات الحمراء شخصية ، ومن أمضاهم عزيمة ، وقد عرف بالسخاء فى تشجيع العلوم والفنون ، كما عرف بشدة العارضة واللّدَد فى الخصومة إذا غضب . فما إن مضى به الزمن وامتدت به الحياة حتى صار فريق من الناس يعتقدون أنه أولى من غيره بالجلوس على كرسى الباباوية وأجدر رجال الدين بأن يملأ هذا العرش الكبير .

لكن إسكندر السادس ، أو إسكندر بورجيا إذا أحببت ، فاز بالانتخاب دونه بعد وفاة نيقولا الخامس . ولم يقنع اسكندر السادس ، أو لم يقنع أبناءه ، بأن يكون جالساً على العرش الرومانى للمسيحية والمدنى لروما وتوابعها من بلاد وأراض واسعة فى إيطاليا ، بل أراد أن يؤسس ملكاً لبنيه ، وطمع ابنه شيزارى بورجيا فى أن يكون ملكاً على إيطاليا بأسرها ، جاعلاً نواة هذا المطمح العظيم أن ينتزع أرض الكنيسة من الكنيسة . وكان من الطبيعى أن يكون الكردينال دى روفيرى ، الذى نذكره تحت اسم يوليوس الثانى ، أشد خصوم البابا وأبنائه فى مشروعاتهم ، وأكثر الناس تنديداً بمطامعهم ، وكان آل بورجيا لا يتورعون عن لمحاربة خصومهم بجميع الوسائل . حتى الوسائل التى تعد جرمًا من فرد عادى ببله رجل من رجال الدين ، بل ببله بابا أو كرادلة ، فكانوا مثلاً — هكذا أثبت ذلك التاريخ ، أو لم يثبت وإنما هكذا قال معاصروهم — يلجأون أحياناً

إلى طريقة بسيطة فى التخلص من خصومهم : فكأس من الشراب مشوب بمادة يعرف آل بورجيا سرها كفضيلة بذلك .

لذلك رأى الكردينال دى روفيرى مع خصومته وشدة عارضته — كما رأى غيره من كرادلة — أن حياته ليست بأمن فى روما ، واضطر إلى الفرار والالتجاء إلى ملك فرنسا ، يعيش فى أرضها ويقيم فى الوقت نفسه حرباً عواناً على بابا بورجيا .

فإذا مات البابا إسكندر السادس فى ظروف غامضة ، إذ كان الناس لا ينتظرون وفاته ، توقع الناس أن يليه الكردينال دى روفيرى غريمه . ولكن ذلك لم يحدث ؛ لأن الكرادلة كعادتهم يُؤثرون البابا الضعيف على القوى ، وانتخب الكردينال بيكولينى باسم بايوس الثالث ، ولكنه لم يعمر غير بضعة أشهر ، وانعقد مجلس الكرادلة ، فلم يكن بد من انتخاب يوليوس الثانى .

ولسنا نريد أن نسرد تاريخ هذا البابا العجيب ، فقد برزت قوته بمجرد توليه كرسى الباباوية ، فهو لم يقنع بأن استخلص أراضى الكنيسة من شيزارى ، واضطره إلى التشرذ والننى والموت فى بلاد بعيدة ، بل أخذ يستخلص غيرها من الأراضى التابعة للبابا ، فشن الحروب وسير الجيوش على مدينة بيروجيا ، ثم على مدينة بولونيا ، وكان يسير مع جنوده فى ثياب أقرب إلى ثياب القواد منها إلى ثياب البابا ، وهو يستحث جنوده على القتال ويدخل فى طليعتهم إلى المدن إذ تسلم إليه .

ولقد نعجب إذ نرى أن المؤرخين والكتاب من الفرنسيين إلى اليوم يحبون أن ينحوا باللائمة على البابا يوليوس الثانى ، ويؤمنون أنه نبذ ما يليق بالبابا من وقار ، وأنه كان يسلك مسلك القواد المرتزقة — الكوندتييرى — الذين كانوا يؤجرون أنفسهم وجنودهم لأمراء الدول الإيطالية ، وللبراطرة والملوك الذين كانوا يطمحون دائماً إلى الاستيلاء على المدن والبلاد الإيطالية . ولكن لعل الكتاب الفرنسيين متأثرون حتى الآن بموقف البابا نحو بلادهم . فلقد عرفنا أنه لجأ إلى فرنسا وهو كردينال . ويجب أن تعرف أن الكرادلة الفرنسيين أيدوه ، وعملوا على انتخابه لكرسى الباباوية ، وكانوا ينتظرون منه أن يؤيد سياسة فرنسا ومطامعها ، ولكنه لم يفعل ، بل سلك سياسة مستقلة غرضها

الأول حماية ما للكنيسة من نفوذ سياسى . وكان طبيعياً أن يضطدم في مبدأ حكمه بملك فرنسا ، فقد تحدى الملك في أغراضه ، ولم يتردد في قتال الفرنسيين ، وعرف كيف يهزم أمامهم ، ثم كيف يهزمهم .

أما المؤرخون الألمان فإنهم جميعاً ، أو أكثرهم ، يعتبرونه أعظم رجل جلس على كرسى البابا في عصر النهضة . ولعل ما اتصف به من روح الحرب والقتال ، مما يخرج به عن موقف رجل الدين ، قد صادف هوياً في نفوسهم وفي طبيعتهم المناضلة . ولكن ما لنا نحن الشرقيين لا ننظر إلى هذا البابا وزملائه من الذين حكموا روما في عصر النهضة نظرتنا إلى النظام القائم عندئذ في الشرق ! ألم يكن الخليفة من بنى العباس رجل دين ودنيا معاً ؟

على أن ما يهمننا في السنوات الثماني من حكم البابا يوليوس الثانى ، ليس حروبه ، فتلك قصة رائعة لذيدة ، وليس هذا موضعها ، ولكن ما يهمننا هو ذلك النشاط الفنى العظيم الذى ظهر في عصره نتيجة لتشجيعه . فالبابا يوليوس الثانى حوّل روما من مدينة خربة من مدن القرون الوسطى ، إلى مدينة من مدن الفن الخالدة ؛ فقد جذب إليها أكبر رجال الفن في عصره ، وكان من حسن ظالعه أن عصره يعج بالرجال النابغين في مختلف الفنون ، فجذب إلى روما أكبر المهندسين ، وأكبر المصورين ، وأكبر المثالين .

ولقد خدمه حشد منهم نذكر من بينهم برامنتى ذلك الذى أشرف على العمل في إعادة بناء كنيسة القديس بطرس ، فصارت تحفة نادرة من تحف الفن كما نراها اليوم ، وهو الذى عرف ما فى الصبي رفايل من مقدرة على التصوير ، فعهد إليه أن يضع تلك الرسوم الخالدة التى نراها إلى اليوم فى شرفة من شرفات قصر القاتيكان ، ولكن الصفحة البارزة فى حياته الفنية ، هى قصته مع ميكل أنجلو ذلك المثال الخالد .

لقد نشأ المثال ميكل أنجلو بوناروتى فى مدينة فلورنسا ، من أسرة عريقة ، وفى عصر لورنزو دى مديتشى الفخيم ، وظهرت مواهبه الفنية وهو لا يزال طفلاً ، وبدأت هذه المواهب جلية لوالده ، فلم يربداً من الاستجابة لميول الصبي ، فعهد فى تعليمه الرسم إلى جريلاندايو من أكبر المصورين فى فلورنسا ، فأظهر فى وقت قصير مقدرة فى فن التصوير وأثار إعجاب أستاذه ، حتى قال ذات مرة إنه ليعرف أكثر مما أعرفه أنا .

وكان لورنزو دى مديتشى محباً للفن التماثيل ، فجمع مجموعة عظيمة من التماثيل القديمة ، وأنشأ فى حديقته بساحة سان ماركو مدرسة يتعلم فيها الشبان هذا الفن ، واتخذ برتولدو المثال لها رئيساً . فطلب من جريلاندايو أن يختار له من بين تلاميذه من يميل إلى فن التماثيل أكثر من التصوير ، فاختار له ميكل انجلو الذى أخذ بعد بضعة أيام فى احتذاء بعض التماثيل القديمة مع أنه لم يلمس الرخام من قبل . وأعجب لورنزو برأس رجل شيخ نقله المثال الشاب إعجاباً شديداً . وكان الشاب فى دقته قد فتح فم التمثال ووضع داخل الفم لسانا والأسنان كاملة . فقال له لورنزو ضاحكاً : ألا تعلم يا بنى أن الشيوخ يفقدون دائماً بعض أسنانهم ! وكان الشاب يحترم الأمير احتراماً كبيراً . ولم يأخذ الملاحظة على أنها دعاية ، فكسر بعض الأسنان وعدل من اللثة . فلما شاهد الأمير ذلك زاد ضحكه وزاد إعجاباً بمهارته ، وأرسل فى طلب والده وأستاذته فى أن يقيم الصبي فى القصر ، ويطعم من طعامه ، وكان عندئذ فى الخامسة عشرة من عمره ، وقد ظل مقياً فى القصر إلى وفاة لورنزو .

لم يكن الشاب ليقتنع بما ظهر من مهارته ، فأخذ يحاول أن يتعرف الجسم الإنسانى ، وكان فى ذلك الوقت يصنع صليباً من الخشب لكنيسة روح القدس بفلورنسا ، فأنزله رئيس الكنيسة فى غرفة مناسبة ، وسمح له فى تشريح بعض الجثث ليقف على تكوينها ، وبذلك زاد خبرة ومعرفة بتركيب الجسم الإنسانى وما فيه من عضلات .

ثم سافر قبل طرد أسرة مديتشى من فلورنسا بقليل إلى البندقية ، فلم يجد عملاً ، فرحل عنها إلى مدينة بولونيا حيث أقام أكثر من سنة بين أسرة كبيرة عرفت قدره ، ثم عاد إلى وطنه . وحدث فى ذلك الوقت أن صنع تمثالاً للقديس يوحنا لأحد أفراد أسرة مديتشى ، ثم صنع تمثالاً من الرخام لآله الحب وهو نائم . فلما شاهده أحد العظماء قال له : إنك لو أرسلته إلى روما على أن يدفن فى الأرض ثم يخرج منها ، لظنوه تمثالاً قديماً ، ولدفعوا لك أضعاف ما تجنيه من ثمنه فى هذه المدينة . وقد فعل ، وجاز الأمر على الكردينال سان جورجيو ، فاشتراه بمائتى دينار ذهباً . وشاع الأمر بعد ذلك فى مدينة فلورنسا ، واضطر إلى رد النقود ، وإن كان المشتري لم يسلم من النقد لأنه لا يهتم للفن الحديث مهما كان إتقانه .

وكان في فلورنسا قطعة من رخام أفسد مثال من مقاييسها فلم تعد صالحة لشيء ، وظلت ملقاة لا تقع منها ، إلى أن استأذن ميكل أنجلو في أن تعطى له ، فوضعتها إدارة المدينة تحت تصرفه ، فاذا به يصنع من تلك القطعة التي كانت لا تصلح لشيء ، تمثالا خالداً يمثل صورة البطل داويد ، فكان هذا التمثال وسيظل دائماً فخراً للتمثال ولموطنه .

إذن كان كل من البابا والتمثال قد بلغ قمة الشهرة في محيطه ، عند ما أرسل البابا يوليوس الثاني في طلبه ، وكان التمثال مع كل ما بلغه من شهرة حول الثلاثين من عمره ، ولا يزال في شرح شبابه ، وهو متوسط القامة نحيل متوتر الأعصاب ، أكتافه عريضة على أنها متناسبة مع قامته ، وكان وجهه كبيراً ، وتبدو في عينيه الصغيرتين مظاهر الطيبة ، وهو غير قبيح الصورة مع أن أنفه كان أفطس إذ كسر عقب حادث وقع له في صباه . وكان ميكل أنجلو سريع الغضب سريع الرضا . أما البابا فكان يبدو ، كما نراه في صورته التي رسمها له رفاينيل ، طويل القامة نحيلاً بعينين متوقدتين نافذتين ، ويبدو كما نراه في هذه الصورة أيضاً ، متوثباً سريع الغضب أيضاً وسريع الرضا . وكان البابا قد عرفه لا بشهرته فقط ، بل لأنه شاهد شيئاً من أعماله الخالدة . فقد رأى ذلك التمثال الرائع الذي يمثل حنو الأم المقدسة نحو ولدها الجريح ، والذي نشاهده ونعجب به إلى اليوم في الركن الأيمن من كنيسة القديس بطرس . فلما جاءت دعوة البابا أسرع إلى روما ووصل إليها في شهر مارس سنة ١٥٠٥ ، فوجد في البابا أكبر عاهل يقدر رجال الفن ويحفظ لهم كرامتهم . وكان البابا يتابع أعمال الفنان في اهتمام كبير ، ويلح عليه في إتمام مابدأ به من عمل الخاح الطفل فما يرغب فيه . ولا ينتهي الفنان من عمل حتى يكل إليه البابا عملاً آخر . وكان البابا والفنان متفاهمين كل التفاهم ، ولكن كل منهما كان حاد الطبع غنيماً ، فكانا على ما لديهما من حب واحترام متبادل ، تقع بينهما مصادمات ومشادات لا يلبث أثرها أن يزول ، ويتغاب عليها ما طبعاً عليه من طيبة قاب وحب للفن وتقدير له .

عهد إليه البابا أول ما عهد في إنشاء بناء نفم يكون من الرخام يوضع فوق قبره ، وقد أراد البابا أن يتم ذلك في حياته ، فأعد ميكل أنجلو عدة رسوم واختار البابا إحداها ، ووقع التمثال عقداً في أن يتم ذلك المنصب في خمس

البابا والمثال

سنوات ، على أن ينقد ثمننا قدره عشرة آلاف دينار ويمنح في هذه السنوات الخمس راتباً شهرياً قدره مائة دينار . وتحمس ميكل أنجلو لهذا العمل ، وسافر إلى تلال مدينة كارارا المشهورة بصفاء رخامها ليختار الأحجار بنفسه وظل يراقب العمال حتى آتموا استخراج قطع الرخام التي نقلت إلى روما بالبحر ، وكانت تزن نحو عشرة ومائة طن ، واستغرق هذا العمل ثمانية أشهر .

عاد إلى روما بأحجاره التي وصلت بعد صعوبات كبيرة ، فأقام مصنعه في ساحة سان پيترو ، واستعد للعمل في هذا البناء التذكاري الذي لو أنه تم كما بين في الرسم لكان أعجوبة الزمن .

ولكن ميكل أنجلو كان يدبر لعمله والبابا يدبر لعمل آخر : ذلك أن أفكار البابا أخذت تتجه وجهة جديدة ، فقد رأى قبل أن ينشئ هذا النصب الذي ليس له مثيل والذي كان يقدر وضعه في كنيسة القديس بطرس ، أن يجدد الكنيسة نفسها ويعيد بناءها ، بحيث تصبح جديدة بمقر المسيحية . وموئل رئيسها . وإذن فقد رأى أن يوقف بناء النصب مؤقتاً إلى أن يشرع في تجديد الكنيسة ، كي يكون هنالك تناسق بين فخامة البناء وفخامة النصب التذكاري . وفي الوقت نفسه كان البابا يدبر عملاً فنياً آخر لميكل أنجلو ، وهو أن يغطي حوائط المصلى المعروفة باسم البابا سستو بالرسوم ، وكان ميكل أنجلو قد ترك فن التصوير منذ صباه واتجه بميله نحو النحت ، فتلصقاً في إجابة البابا إلى رغبته ، واعتذر بأنه لا يتقن التصوير ، وأنه وقد بدأ في العمل الذي تعاقد عليه ، واستأجر أعواناً من رجال الفن من فلورنسا بعد إذن البابا ، وتقدم نقوداً من عنده ، وأنفق في سعة على العمل غير منتظر الأقساط التي تدفع إليه ، لا يستطيع الآن أن يترك هذا العمل . وطلب مقابلة البابا شخصياً ، ليشرح له الظروف ويقنعه بالسيز فيما اتفق عليه ، لاسيما أنه نعى إليه أن البابا صرح لبعض رجاله بأنه لن ينفق فلساً على الأحجار . على أن البابا لم يقابله بل أجل مقابله أسبوعاً ، فلما ذهب في الموعد المضروب قيل له إن البابا مشغول عن مقابله في ذلك اليوم ، فاستشاط غضباً وصاح قائلاً : « أخبروا البابا بأنه إذا أرادني فليجدني إذا استطاع ذلك » . وخرج مسرعاً من القصر ، فطلب من أتباعه أن يبيعوا متاعه وامتطى جواداً ورحل عن روما وهو لا ينتوي الرجوع إليها .

أخبر البابا يوليوس بفرار ميكل أنجلو وكان ذلك في اليوم السابق للاحتفال

بوضع الحجر الاساسى فى بناء كنيسة القديس بطرس ، فأمر بأن يجتهد بعض جنوده فى أثر المثال الهارب وأن يأتوا به ولو قسراً إذا اضطروا إلى ذلك . ولكن المثال كان يسرع العدو ، ولم يهدأ باله حتى وصل إلى حدود دولة فلورنسا . وهناك أدركه الرسل وسلموه رسالة البابا التى يأمره فيها بالعودة وإلا غضب عليه . ولكن الفنان الغضوب لم يكن ليذعن فى هذا الطرف ، بل كتب إلى البابا رسالة يقول فيها : « إننى لم أكن أستحق بعد ما قدمته لقداستك من خدمات أن أطرد من القصر كما يفعل بخادم حقير ، وما دمت قد عدلت عن إقامة النصب التذكارى فقد تحررت من العقد ، ولا أريد أن أرتبط بعمل آخر . »

رأى أصدقاء من مواطنيه فى خدمة البابا أن يتوسطوا فى الأمر ، وكتبوا ميكل أنجلو طويلاً فى ذلك ، فكان يتمنع . وقد ذكر له أحد هؤلاء الفنانين فى رسالة أنه كان جالساً فى حضرة البابا مع الفنان برامنتى ، الذى وضع رسوما لتجديد كنيسة القديس بطرس ، وكان برامنتى لا يحب ميكل أنجلو ويغار منه ، فقال له البابا وهو يشاهد الرسوم سأرسل غداً صديقنا هذا سان جالو ليأتى بميكل أنجلو كي يبدى لنا رأيه ، فتضايق برامنتى وقال : « إن ميكل أنجلو لن يأتى فأننا على علم بطباعه » ، ثم أبدى أن ميكل أنجلو لا يحسن التصوير ، ولذلك فر من عمل الرسوم .

وكانت هذه الأنباء تمحز فى قلب ميكل أنجلو ولكنه ظل على موقفه . وحاول البابا محاولة أخرى ، فأرسل رسالة إلى مجلس الحكم فى فلورنسا يقول فيها : « أبنائى الأعزاء إليكم تحيتى وإنى لأبارككم . وبعد فقد بلغنا أن ميكل أنجلو المثال الذى تركنا بغير سبب ولجورد نزوة خائف ، من العودة . أما نحن فلسنا غاضبين عليه ، لأننا نعرف نزوات الرجال ذى المواهب . ولكى نبعد كل مظاهر القلق نعتمد على إخلاصكم فى إقناعه باسمنا بأنه إذا عاد قلن يصاب بسوء ، بل سيستمتع برضانا كما استمتع به من قبل . »

ومع ذلك ظل ميكل أنجلو على موقفه ، وكان قد وجد عملاً فى صب اثني عشر تمثالاً من البرنز للرسل كي توضع فى كنيسة فلورنسا الكبرى .

وجاءت رسالة أخرى من البابا إلى سودرينى رئيس مجلس الحكم ، فدعا المثال وقال له : لقد سلكت نحو البابا مسلكاً لا يجرؤ عليه ملك فرنسا ، فلينته هذا

البابا والمثال

الأمر ، فإننا لا نود أن نجر إلى حرب ونعرض الدولة للخطر من أجلك ، فاتعزم أمرك على الذهاب إلى روما .

ومع ذلك ظل الفنان يمتنع ، بل فكر في الرحيل عن إيطاليا بأسرها والذهاب إلى سلطان تركيا الذي دعاه إلى تنسيق جسر بين القسطنطينية وحي پيرا . في هذه الأثناء كان البابا قد قام بحملته على مدينة بولونيا فاستولى عليها ودخل المدينة في موكب حافل في شهر نوفمبر سنة ١٥٠٦ ، ورأى أن يخلد هذه الذكرى بتمثال تذكاري ، وكان في أعماق قلبه لا يرغب في أن يصنع هذا التمثال غير ميكل أنجلو . ولذلك عاد الكردينال اليدوزي ، نائبه في حكم المدينة ، إلى السعى لدى حكومة فلورنسا كي ترسل الفنان إلى بولونيا ، وقد وُعد بأنه لن يقابل إلا بما يحب . وأخيراً رضى المثال وسافر إلى بولونيا مزوداً برسالة من رئيس مجلس الحكم . ولم يكن الفنان راضياً كل الرضا بهذا الخضوع ، فقد قال عن ذهابه : « لقد سافرت بعد أن وضعوا النير في عنقي » .

وقال له البابا مقابلة عاصفة وقال له : « كان من واجبك أن تبحث غذا ، ولكنك انتظرت حتى جئنا على مقربة منك — أي إلى بولونيا — لكي تبحث عنك » . فركع أمامه الفنان واعتذر إليه في صوت عالٍ قائلاً : إن فراره لم يكن مقصوداً بل إنه اندفع فيه في سورة الغضب ، إذ لم يحتمل حجبه عن القصر . ولم يجب البابا بل ظل مقطب الجبين مطاطاً إلى أن تدخل أحد الكرادلة بكلمة يريد بها تهدئته فقال : « لعل قد استك لا تشتد على ما ارتكبه ميكل أنجلو من خطأ ، فهو رجل لم يتعلم قط حسن السلوك ، فهو لاء الفنانون لا يعرفون كيف يتصرفون ولا يعرفون غير فنهم » . فما نطق بهذا الكلام حتى استشاط البابا غضباً على هذا المتدخل وصاح به : « لقد جرؤت على أن تقول لهذا الرجل أشياء لم أحلم أنا بقولها ! إنك أنت الذي لا تعرف حسن السلوك ! فلتذهب من أمامي أيها الجاهل التعس » . ومد يده إلى ميكل أنجلو وعفا عنه وأمره بصنع تمثاله .

هكذا عاد البابا والمثال إلى الصفاء بعد القطيعة : وكان البابا يتردد عليه في مصنعه ليشاهد عمله كل يوم تقريباً . وتم التمثال بعد سنة وبضعة أشهر ، وكان تمثالاً عظيماً يمثل البابا في ملابسه الرسمية ، وهو أكبر من حجمه الطبيعي ثلاث مرات ، وكان تمثالاً يظن أنه خالد ، ولكن لحياته كانت من أقصر ما تكون

البابا والمثال

حياة هذه الآثار ؛ فلم تمض على إقامته ثلاث سنوات حتى خرجت المدينة من يد البابا ، واستولى خصومه عايبها ، فكسروا المثال بين سخرية الجمهور ، وصب منه مدفع أطلق عليه جوليا تحقيراً للبابا .

عادميكل أنجلو بعد انتهائه من هذا العمل إلى فلورنسا ، فما لبث أن دعا البابا ، لا ليتم نصب التذكاري للقبر ، بل ليصور سقف المصلى . وأراد المثال أن يمتنع ويقاوم ، ولكن إرادة البابا الحديدية تغلبت في آخر الأمر وتم الاتفاق على العمل . ووضع الفنان الرسوم ، ولكنه ما لبث أن تصور فكرة أجمل وأضخم مما قدر في بادئ الأمر ووضع لها رسوماً ، وعقد اتفاق ثان ولم يأت شهر مايو من سنة ١٥٠٨ حتى كانت العمد والحوامل الخشبية تملأ المصلى .

أراد الفنان أن يجد أعواناً يساعدونه في عمله ولكنه وجدهم دون ما ينتظر فصرفهم جميعاً ، ورفع عبء العمل بأكمله على كاهله . وكان مما يزيد في متاعبه أنه لا يكاد يمضي يوم حتى يزوره البابا في مكان عمله ، ملحقاً عليه أن يسرع . وكان البابا الشيخ يتسلق أحياناً تلك الحوامل الخطرة لكي يشاهد بنفسه ما تم عمله ، وكثيراً ما تحدث بينهما مشادات عنيفة ولكنها لا تلبث أن تزول . وقضى الفنان بقية تلك السنة وشتاء السنة التي تليها في عمل متواصل . وفي شهر مايو تمكن من إجازة قصيرة قضاه في فلورنسا ثم عاد إلى العمل .

كان البابا في هذه الأثناء قد دخل في نضال حياة أو موت من أجل تحرير إيطاليا من الفرنسيين . لذلك اضطر إلى مغادرة روما للتفرغ للقتال ، وكانت الحرب تبتلع كل ما يأتي من مال . فما جاء شهر سبتمبر حتى وقف صرف النقود إلى الفنان . فكتب للبابا مرة يطالب نقوداً ، ثم رأى أن يسافر ويذهب ليراه شخصياً في بولونيا ، فأمر البابا بأن يزود بالمال ، فكان القائمون على الأموال يدفعون إليه بعض الدفعات ولكن في غير انتظام . وظل هو من جهته يصور السقف بالرسوم يوماً بعد يوم ، وكان يفعل ذلك وهو مستلق على ظهره فوق الحوامل الخشبية والألوان تتساقط فوق وجهه ، حتى قيل إنه بعد الانتهاء من هذا العمل ظل زمناً ما لا يستطيع قراءة رسالة إلا إذا رفعها فوق رأسه .

لكي تقرب إلى الفكر شيئاً من التعب الذي يحتاج إليه مثل هذا العمل ،

البابا والمثال

لا نريد الآن أن نذكر جمال هذه الصور كما رآها الناس منذ خمسمائة سنة وكما يرونها حتى الآن ، ولا ما فيها من نبوغ وقوة ، بل نريد فقط أن نذكر أنه غطي ما تبلغ مساحته عشرة آلاف قدم مربع بالرسوم ، وأنه صور من صور الأشخاص ما يربى على ثلاثمائة وأربعين صورة ، كل منها في وضع غير وضع الآخر ، بعضها يبلغ طوله اثني عشر قدماً ، وبعضها يبلغ ثمانية عشر قدماً ، وكلها دقيقة حتى في تفاصيلها من شعر الرأس إلى أخمص القدم .

وكان البابا عندئذ في أخرج الأوقات ، فقد انتصر عليه ملك فرنسا ، ولكن نفسه لم تقهر . وقد عاد إلى روما في أواخر يونيو سنة ١٥١١ فرأى أن أكثر العمل ثم . وظل ميكل أنجلو يعمل سنة أخرى بجد واهتمام . وكتب في هذه الفترة يقول إنني أصعب عملاً أشق مما عمله أي إنسان من قبل ، وأشعر بتدهور صحتي ولكنني عازم على الصبر والعمل إلى النهاية . وفي أكتوبر من سنة ١٥١٢ كتب إلى أبيه يقول إنه أتم العمل . وفي أواخر ذلك الشهر احتفل البابا بإزالة الستار عن هذا العمل الخالد ، فوقعت أعين العظماء الذين حضروا الحفل على تلك الصور التي لا تزال تثير الإعجاب ، حتى هذا الزمن بالرغم مما أحدث بها مر السنين .

لم يكن وقتئذ أمام ميكل أنجلو مانع يحول دون استئنافه العمل في النصب التذكاري الذي علق على إتمامه آماله ، وكانت الصعوبة في هذا النصب أنه لم يتقرر بعد المكان الذي يقام فيه من كنيسة القديس بطرس .

ويظن أن المثال كان ينتوى حسب رسومته أن يقيم بناء يكون فيه النعش في قالب من الرخام طوله أربعة وخمسون قدماً وعرضه ستة وثلاثون قدماً ، وتقوم حوله تماثيل ومجموعات تمثل فنون الرسم والنحت والبناء ، وهي أسيرة حداداً على البابا الفقيد ، حيث إنها لن تجد مشجعاً بعده ، ثم تماثيل للنصر وأمامها الولايات التي استولى عليها راحة تدل على خضوعها للكنيسة ، ثم في القسم الأعلى تماثيل أربعة ، يمثل اثنان منها النبي موسى والقديس بولس ، وفوق هذه التماثيل صورة للبابا وهو نائم يحمله ملكان ، فيكون ارتفاع هذا البناء الضخم نحو ثلاثين قدماً ، وفيه أكثر من أربعين تمثالاً غير صور لحوادث حياة يوليوس الثاني .

لو أن البابا عاش بضع سنوات لأتم ميكل أنجلو هذا العمل الضخم الذي

البابا ولنشال

ليس له مثيل ، ولكن البابا كان يسرع عاجلاً إلى الموت مع ما كان من منتهى الصحة التي تبدو عليه ، ومع أنه ظل يعالج مهام الأمور بنشاطه المدهش ، فكانت وفاته في ١٩ فبراير سنة ١٥١٣ ، وكان طبيعياً أن لا يتم هذا العمل الضخم ، فإن خلفاءه على كرسي البابا كانوا يهتمون للاستفادة من مواهب ميكل أنجلو في أمورهم ، وكان الفنان يحاول عبثاً أن يتم هذا العمل وفاء للرجل الذي أحبه وقدره ، فلم يستطع ، ولكنه مع ذلك ترك أثراً خالداً في صورة ذلك التمثال الرائع للنبي موسى ، الذي نشاهده الآن على قبر البابا يوليوس الثاني في كنيسة سان بيترو دي فينكولي بروما ، وهو الذي يمثل النبي في جلسة عظيمة ، وهو بهم بالقيام ويكاد ينطق . وكذلك نجد أثره في تمثالي الأسيرين العظمين ، في أرض فرنسا حيث وجد مأوى في متحف اللوفر .

ممن محمود

البارونة فون كريدنر

والمعاهدة المقدسة

١

كان النصف الأخير من القرن الثامن عشر عصرًا عجيبًا حافلًا بمختلف التزعات والثورات الفكرية والاجتماعية ؛ فهو عصر فولتير وروسو ، وهو عصر ازدهار الجمعيات السرية من البناء الحر (الماسونية) وغيرها ، وعصر الدعوات السرية الغامضة ، والدعاة السريين الذين تملأ سيرهم العجيبة صحفًا ممتعة أمثال ألبارون فون اوفنباخ (يعقوب فرنك) ، والكونت سان جرمان ، وكاليوسترو وغيرهم ؛ وهو أخيرًا عصر الثورة الفرنسية التي دكت صروح المجتمع الفرنسي القديم ، وكانت فاتحة عصر جديد في حياة فرنسا وحياة القارة الأوروبية .

في ظل هذا المجتمع الذي تهب عليه ريح الغموض والخفاء ويمجدوه شغف التطلع إلى المجهول والخارق ، نجد المزاعم والدعوات السرية والأساطير الدينية تتمتع بنفوذ مدهش ، ولا يقف أثرها عند جمهور الكافة بل يتعداه في أحيان كثيرة إلى القصور والحكومات ، فيوجه أعمالها ، ويطبعا بطابع خاص .

وتقدم إلينا صحف هذا العصر أمثلة عدة من هذه الشعوذة الدينية أو السياسية . وربما كان من أغربها وأعجبها جميعاً مثل البارونة فون كريدنر التي استطاعت بتأثيرها الروحي المدهش أن تسيطر حيناً على عقل ملك من أعظم ملوك عصره ، وأن تنفذ بوساطته إلى معترك الحياة السياسية الدولية العليا ، وأن تؤثر في توجيهها من وراء ستار .

كانت البارونة فون كريدنر^(١) ، واسمها العذري بربارا يوليانا فتنبهرف ،

سيدة من الارستقراطية الألمانية الروسية : ولدت في مدينة ريجا بمقاطعة ليثونيا في سنة ١٧٦٤ ؛ وكان أبوها هرمان فون فتنجهوف ضابطاً كبيراً في جيش الإمبراطورة كاترين الثانية ، ومستشاراً للمقاطعة ، وكان سيداً واسع الثراء . ونشأت يوليانا نشأة أرستقراطية بين مظاهر النعماء والترف مع عدة من الإخوة والأخوات ، وتلقت من ألوان التربية ما كان يتلقاه بنات الأسر الشريفة في هذا العصر : اللغة الفرنسية وشيئاً من الموسيقى والتطريز وبعض المعلومات العامة . وما كادت تبلغ الثامنة عشرة وتبدو في ذروة جمالها وسحرها حتى خطبها البارون بوركهارت فون كريدنر ، وهو أرمل في الرابعة والثلاثين من عمره ، وتم الزواج على الأثر . وكان البارون من رجال السلك السياسي ، كثير الاتزان والتحفظ . وكانت البارونة الفتية من جانبها كثيرة الخفة والمرح ، تعشق السرور والبهجة ، وتشغف بالظهور والحفلات ، ويطربها المديح والغزل ؛ وكان هذا التباين في الخلال يثير بين الزوجين كثيراً من الخلاف والكدر . ولم يمض عام وبعض عام حتى رزق الزوجان بابن سمي پول . ورقى البارون في الوقت نفسه إلى مرتبة سفير وأرسل إلى البندقية ، ثم نقل إلى كوينهاجن سنة ١٧٨٦ وكانت البارونة خلال ذلك عرضة لبعض الآلام النفسية والعصبية التي تزداد على كراياها . وفي سنة ١٧٨٧ وضعت ابنة سميت جوليت وعلى أثر ذلك تفاقت آلامها العصبية ، ونصح لها الأطباء بالسفر إلى الجنوب لتتجمع الصحة والعافية ، فنزلت على نصيحهم وسافرت مع ابنتها الطفلة وابنة زوجها صوفي .

ووصلت إلى باريس في ربيع سنة ١٧٨٩ وقت اجتماع نواب الطبقات ، وكانت طلائع الثورة الفرنسية قد أخذت تبدو في الأفق ؛ ثم سافرت في العام التالي إلى الجنوب واستقرت بمدينة مونبلييه ، وهناك تعرفت بضابط شاب يدعى شارل دي فرانجفيل ؛ وكانت البارونة يومئذ في السادسة والعشرين من عمرها ، وافرة الشباب والسحر ، فهمم بها الضابط الفتى وهامت به حتى إنها لما عادت إلى كوينهاجن عاد معها العاشق المفتون . وكان منظرهما غريباً حينما تقدمت البارونة إلى زوجها تقص عليه قصة حبها وتنبئه بأن قابها لم يعد ملكاً له ، فاستمع البارون في حلم وأناة ولم يبد أكثر انهماكاً لهذا الحدث الغرامي ، ولكنه لم يرتض الطلاق ، وآثر أن يعقد مع البارونة نوماً من الوفاق الحر ؛ وسهل عقد هذا التراضي رحيل الضابط العاشق ليلحق بفرقة . ولكن البارونة رفضت أن تبقى

إلى جانب زوجها في كوينهاجن وعادت إلى التجوال والسفر ، فزارت ريخا وإلخسبرج وبرلين وسويسرة ، ولم تقبل أن تعود إلى زوجها إلا حينما عين في سنة ١٧٩٨ سفيراً في برلين ، فصحبته إلى العاصمة البروسية ، ولكنها لم تلبث أن سئمت برود المجتمع البروسي وتحفظه ، وضاعفت حياة البذخ نفقاتها وديونها ، ثم تخرج الموقف بمقتل القيصر بول ، وقد كان البارون يتمتع بعطفه وحمايته ، فاضطربت أحوال البارون ، ولم تصبر البارونة على البقاء في هذا الجو الكدر ، فعادرت زوجها إلى الجنوب لتقضى الشتاء ، وشاء القدر ألا ترى زوجها بعد ذلك لأنها لبثت هذه المرة بعيدة عنه حتى توفي في صيف سنة ١٨٠٢ دون أن يراها .

٢

في ذلك الحين كانت البارونة تعيش في باريس في جو من المرح وتستقبل في بهوها الأنيق عليّة القوم ، وكان يحدوها عندئذ شغف بالأدب والكتابة ، ولها صلات وثيقة بأكابر الكتاب والأدباء ، وكان شاتوبريان وغيره من أساتذة العصر في مقدمة أصدقائها وزوارها . وقد عرضت عليهم قصة وضعتها بعنوان « قاليري » وهي قصة عاطفية تصف فيها طرفاً من حياتها وعواطفها في شخص بطلتها ، فشجعوها على نشرها . وبالرغم من أن البارونة كانت قد بلغت يومئذ السادسة والثلاثين من عمرها ، وأخذ سحرها يذبل ويتضاءل ، فإنها كانت تشغف بالمديح والغزل ، وتلتبس كل سبيل للشهرة ولفت النظر . وقد قال عنها سبانت ييف بهذه المناسبة : « إنها كانت تشعر بحاجة كبرى لأن يهتم العالم بها . الكبرياء . . . الكبرياء دائماً . »

وفي سنة ١٨٠٤ عادت البارونة إلى وطنها ليثونيا . وهنا وقع لها حادث عجيب كان سبباً في تغيير مجرى حياتها إلى وجهة لم تكن تتصورها . ذلك أن سيداً من أصدقائها كان ذات يوم يهتم بتحيتها ، فسقط ميتاً عند قدميها ، فارتاعت البارونة ، وتفاقت اضطرابات العصبية ، واستحالت إلى نوع من الهيام الديني ، وكان صانع أحذيتها رجلاً مشعوذاً من جمعية « إخوان مورافيا » الدينية ، فلقنها التوجيهات الأولى ، وأضحت منذ ذلك الحين تستمع إلى كل دجال ومشعوذ . وزارت البارونة مدينة كينجزبرج ، وهناك حظيت برؤية الملكة لويزة .

ملكة بروسيا ومحادثتها . وكان ملك بروسيا فريدريك ولهم الثالث ، وزوجه الملكة لويزة يقيمان في كينجزبرج منذ هزيمة نيبا ، وسقوط بروسيا صريعة الغزو الفرنسي .

ولقيت البارونة في الوقت نفسه مشعوذا يدعى آدم ميلر يزعم أن السيد المسيح كلفه برسالة لدى الملك فريدريك ولهم ، وأن بعث المسيح قد أضحى على وشك الحدوث . وكانت نظرية البعث chiliasm وخلصتها أن المسيح سيبعث ويحكم العالم ألف عام ، تهب يومئذ على كثير من المجتمعات الأوربية ، وكان نابليون يعتبر عدواً للمسيح منتهاكاً لتعاليمه ، وكان الاعتقاد سائداً بأن أوان البعث قد اقترب . ويذكر الرهبان هذه الخرافة ويثبتونها في القصور بين عليّة القوم كما يثبتونها بين الفلاحين والكافة ، ويزعمون « أنه سيقوم رجل من الشمال ، من مطلع الشمس » وأن عدو المسيح سوف يهزم ، وسوف يقوم المسيح ليحكم الأرض مدي ألف عام .

كان لتلك المقابلة وتلك المزاعم أعمق الأثر في إذكاء خيال البارونة ، فعكفت من ذلك الحين على استقصاء آثار الدعوة والاتصال بالدعاة والمشعوذين في كل مكان ، فهرعت إلى كالسروه حيث كان الراهب المتصوف هينريخ شتلنج يبت دعوته ، وكان أستاذاً بارعاً في ضروب الخفاء ، وكان له نفوذ كبير في قصور بادن وستوكهلم وبترسبرج ، فلحقها أصول نظرية البعث وخفايا العالم الآخر . ثم نعى إليها أن راهبا آخر في منطقة « القوج » يدعى فوتين يأتي بالعجائب والمعجزات ، فقصدت إليه بمقره ببلدة سانت ماري أومين تصحبها ابنتها جوليت وابنة زوجها صوفي وخدام رومي ، وأقامت هناك عامين . وكان فوتين مشعوذا ودجالا بارعا ، وكانت تعاونه في بث تعاليمه مشعوذة بارعة تدعى ماري كور كانت تخلق لب البارونة بأحلامها وجلساتها الروحية . وكانت البارونة تعيش في هذا الجو الذي يغمره الدجل والخفاء مضطربة الذهن هائمة النفس ، تعتقد في صدق رسالتها الجديدة ، وهي أنها سوف تكون المبشرة بعود السيد المسيح . وكانت مكاتها الاجتماعية ، وصدقاتها الوفيرة ، وفصاحتها المؤثرة ، تخلق حولها جوا من العطف والإعجاب ، وتحدث في جمهور الفلاحين والكافة أعظم الأثر .

ولما شعرت البارونة أن دعوتها أخذت تحدث أثرها ، اعتزمت أن تنشئ للمؤمنين بعودة المسيح مستعمرة خاصة بمعاونة فوتين ، فهرع إليها كثير من

السذج والفلاحين بعد ان باعوا كل ما لديهم ، وأنشأت هذه المستعمرة الغربية بالفعل في ١٨٠٩ في بلدة كاترنن بليزير بمقاطعة فرتمبرج ، ولكن الحكومة ما لبثت أن أمرت بإلغائها وتفريقها .

وعندئذ أخذت البارونة تتحول من مكان إلى مكان في أنحاء بادن تبشر بعود السيد المسيح ، وكانت حماسها في بث تعاليمها وهباتها وصدقاتها الجمة تجذب إليها الجماهير من كل فج ، وكانت كلما حلت بمكان كثرت حولها المزامير والروايات الخارقة . ثم رحلت إلى جنيف في سنة ١٨١٣ فاجتمع حولها بعض الهائمين المتحمسين ولا سيما هنري أمپتاز الذي غدا فيما بعد أعظم أنصارها ومعاونيها . وعادت بعد ذلك إلى شتراسبج حيث كان لها بعض الصحب والأتباع ، وهناك انضم إليها داعية يدعى فرانز فون بركهيلم وهو الذي تزوج فيما بعد من ابنتها جوليت .

٣

في أواخر سنة ١٨١٤ سافرت البارونة مع ابنتها وأمپتاز معاونها الجديد إلى بادن . وشاء القدر أن تكون القيصرة اليزابيث الروسية يومئذ في كالسروه ، وكان القيصر إسكندر يعاني منذ حين بعض الاضطرابات النفسية ، ويحاول أن يجد راحة الذهن والروح في ظل الإيمان والتعاليم المسيحية . فخطر للقيصرة أن القيصر قد يشفى من نزعاته العصبية ويجد الراحة النفسية المنشودة على يد البارونة فون كريدنر ، خصوصا بعد أن أخفق الراهب شتانج في القيام بهذه المهمة . والواقع أن البارونة كانت تسعى إلى لقاء القيصر ، وقد كتبت إلى حاشيته غير مرة ترجو هذا اللقاء ولكن دون جدوى . ولم تحقق أمنيته سوى المصادفة المحضة . ففي ربيع سنة ١٨١٥ كانت البارونة تقيم في شليخترن على مقربة من بادن تبث دعوتها بين الفلاحين . وفي الرابع من شهر يونيه نزل القيصر إسكندر وحاشيته في بلدة قريبة تسمى هايلبرون في مساء ذلك اليوم التمت البارونة بمقابلة القيصر ، وأجيبته فورا إلى طلبها .

وكان منظرا عجيبا : كان القيصر وحيدا يلقي نظراته الشاردة على صفحات التوراة ، فلما دخلت البارونة خيل إليه أن مقدها كان استجابة لأمنيته . ولبثت

البارونة فون كريدنر والمعاهدة المقدسة

البارونة معه ثلاث ساعات تعظه وتلقنه تعاليمها ورسالتها بأسلوب عذب وفصاحة مؤثرة، على حين كان القيصر — أعظم ملك في أوربا — يجلس معتمدا رأسه بين يديه، وهو يصعد الزفرات كالطفل المحزون؛ وأخيرا هدأت نفسه وأعلن أنه لقي السلام المنشود.

شعر القيصر إسكندر أن هذه المرأة المؤمنة الهائلة تغزو نفسه المضطربة بقوة عجيبة فقربها، وأسبغ عليها عطفه وحمايته، وتبعته البارونة إلى هيدلبرج نزولا على رغبته، ثم سار إلى باريس والبارونة في ركبه. وكانت موقعة واترلو قد توجت يومئذ نضال الأمم المتحالفة ضد نابليون وسحق الإمبراطور وسحق جيشه الذي لبث خمسة عشر عاما أداة الطغيان والاعتداء على حريات الأمم الأوروبية. واحتل الحلفاء باريس، ونزل القيصر مع حاشيته في قصر الإليزيه ونزلت البارونة في فندق مونشني المجاور للقصر، وكان يصل بينهما باب خفي. وكان القيصر يذهب كل مساء ليشهد الصلاة التي تقيمها البارونة ومعاونها أمتاز. وكانت نظرية البعث (عود المسيح) قد ذاعت يومئذ وشقت طريقها بعد الكافة إلى قصور أوربا وحكوماتها. ووضحت البارونة فون كريدنر زعيمة هذه الدعوة إلى جانب تفوذها الروحي، قوة سياسية يعتد بها. وكان يهرع إلى اجتماعاتها مذ حلت بباريس صفوة من أكابر المفكرين والسادة مثل شاتوبريان وبنجمان كونستان ومدام أركاميه والدوقة بوربون ومدام دي دوراس وغيرهم، هذا عدا جمهور من المؤمنين الذين خلبتهم دعوة البارونة ونبوءاتها. في هذا المعترك الفياض بالخفاء والهيام الديني نشأت فكرة «المعاهدة المقدسة» وهي أغرب وثيقة دولية عرفت في العصر الحديث. ولم تمض أسابيع قلائل حتى نضجت الفكرة ووضعت المعاهدة، ووقعها القيصر، وفرانز الأول إمبراطور النمسا، وفردريك ولهم ملك بروسيا. وفي يوم ٢٦ سبتمبر سنة ١٨١٥ أعلن القيصر نصوص «المعاهدة المقدسة» في حفل عسكري من جنود الحلفاء أقيم بميدان قرني على مقربة من باريس.

وتبدو هذه المعاهدة الغربية سواء بديباجتها أو لنصوصها كأنها وثيقة كنسية محضة لا وثيقة دولية. فقد سميت «بالمعاهدة المقدسة» وقد بدأت بهذه العبارة: «باسم التثليث الرفيع الذي لا ينقسم» واستهلها الموقعون عليها بالإشارة إلى البركات التي شاءت العناية الإلهية أن تغدقها على دولهم وإلى

اقتناعهم « بوجوب تسوية الخطوات التي تتخذها الدول لتنظيم علائقها المتباعدة وفقاً للحقائق السامية التي دعا إليها السيد المسيح »، وأنهم يعلنون عزمهم الثابت على إدارة دولهم وتنظيم علائقهم مع الحكومات الأخرى وفقاً لتعاليم الدين المقدس، أعني مبادئ العدالة والصداقة المسيحية والسلام .

وقد صيغت مواد المعاهدة الثلاث بهذه الصيغة الدينية، فنصت الأولى على أن يبقى الملوك الثلاثة مرتبطين برباط الأخوة الذي لا ينقسم، وأن يتبادلوا المساعدة، وأن يعتبروا أنفسهم نحو شعوبهم وجيوشهم كأباء أبرار ويقودونهم بنفس الروح الأخوية لحماية الدين والسلام والعدالة . ونصت الثانية على « أن الملوك الثلاثة يعتبرون أن العناية الإلهية قد بعثتهم ليحكموا ثلاث شعب من أسرة واحدة، وأن العالم المسيحي الذي يكونون جزءاً منه ليس له سيد سوى « الله » وهو وحده القوى القادر، وفيه تجتمع كنوز المحبة والعلم والحكمة » . وأما الثالثة فقد نصت على دعوة جميع الدول التي تؤمن بهذه المبادئ إلى الانضمام إلى هذه المعاهدة المقدسة .

تلك نصوص المعاهدة الغريبة التي تمخضت عن نزعات القيصر الدينية . وتجمع الروايات على أن البارونة فون كريدنر كانت مصدر الإلهام والوحي في إعدادها وعقدها . بل تقول لنا البارونة إنها هي صاحبة الفكرة كلها، وإن القيصر عرض عليها مشروع المعاهدة لإقرار نصوصه، وهذا ما ترجمه كل الدلائل والروايات . وقد استاء القيصر فيما بعد، حينما استرد رشده وصوابه، من خفة البارونة وأحاديثها حول المعاهدة، وأثمى باللائمة عليها، وأخذ يظن شيئاً فشيئاً لما يحيط به من ضروب الشعوذة والدجل، وأخذ نفوذ البارونة يتقلص تباعاً، وأخذ القيصر يتبرم بعلاقتها، ويشعر بما يحيط بها من سخرية لاذعة . وبالرغم من أنه أذن قبل رحيله من باريس للبارونة بمجواز سفر إلى روسيا، فإنه لم يعجل باستدعائها . وسافرت البارونة إلى سويسرا في أوائل أكتوبر في طريقها إلى روسيا، وبقيت هنالك تنتظر دعوة القيصر، بيد أنها لم تراه مرة أخرى .

وقد كان لإذاعة المعاهدة المقدسة وقع عميق في أوروبا، وقد وقعها الملوك الثلاثة في البداية، وكان القيصر إسكندر تحذوه الحماسة الإنجيلية، ولكن قيصر النمسا، وملك بروسيا وافقا عليها دون حماسة، ووصفها مترنيخ وزير

خارجية النمسا بأنها « شئ طنان لا قيمة له » . ووصفها كاسلريغ وزير خارجيه انجلترا بأنها « قطعة من التصوف السامى والسخف » . ولم توقع انجلترا المعاهدة ولكن وصى الملكة بعث بكتاب أعلن فيه موافقته على المبادئ التى قامت عليها ، ثم وقعتها دول أوربا بعد ذلك تباعا عدا السلطان والبابا . ولبثت الأمم الأوروبية مدى حين ترى فى المعاهدة المقدسة بالرغم من صيغتها المسيحية أداة رجعية لقمع الحركات التحريرية ، وتعاون الملوك الثلاثة على تأييد النظم الطاغية .

٤

استقرت البارونة فى سويسرا مدى حين ، وهناك وقعت تحت تأثير مشعوذ جديد يدعى كلنر ، وأخذت تطوف معه من مكان إلى مكان وهو يبشر بدعوتها ويدعو الناس إلى اتباعها . وكان يتبعها أينما سارت رهط من المتشردين والمتسولين تغدق عليهم من الأموال التى تجمعها باسم الدعوة . وكانت السلطات السويسرية تنظر إلى هذا التجوال بعين السخط ، وتخرجها من الولايات تباعا ، حتى اضطرت آخر الأمر أن تغادر سويسرا مع كلنر وبعض المؤمنين إلى موطنها ليثونيا وذلك فى سنة ١٨١٢ .

وفى سنة ١٨٢٠ ذهبت البارونة إلى بطرسبرج . وجاءت الأنباء يومئذ عن قيام حركة الزعيم الإسلاتى فى المجر وزحفه على الولايات التركية الدانوبية ، فعندئذ أعلنت البارونة فى الحال رسالة القيصر الإلهية فى أن يقوم بحماية النصرانية وتأييد زعمائها . ولكن القيصر لم يحفل بهذه الحركة ، ولم يخطر له أن يعلن حربا مقدسة ، وكان قد تحرر نهائيا من نفوذ البارونة ، وأخذ يتأثر بنصائح مترنيخ ، ورد على البارونة بخطاب يفيض رقة وأدبا ، ولكن يطلب إليها فيه أن تغادر بطرسبرج فورا .

وكانت هذه الضربة مؤلمة للبارونة ، وكانت عندئذ تدنو من عامها الستين . وتذبل صحتها تباعا من جراء التجوال المستمر ، والاضطرابات النفسية العنيفة ، وكان القيصر قد سمح لدعاة البعث بإنشاء مستعمرة لهم فى إحدى بلاد القرم ، فقصدت البارونة إلى القرم بالرغم من اعتلال صحتها لتزور صحتها المؤمنين ، وهناك وافاها القدر المحتوم فى ١٥ ديسمبر سنة ١٨٢٥ .

البارونة فون كريدنر والمعاهدة المقدسة

وهكذا اختتمت البارونة فون كريدنر حياتها الحافلة بصنوف المغامرات والشموعة الدينية العجيبة بعد أن وصلت بحماسة وقوة تأثيرها الروحي إلى السيطرة على ذهن أعظم ملوك العصر، واستطاعت أن تؤثر في سير السياسة الدولية من وراء ستار. بيد أن البارونة شهدت في أواخر حياتها أحلامها ودعواتها تتهاير تباعاً، وأخذت الغشاوة التي طمست على عقلها ونفسها تنقشع ببطء، وأصبحت ترى أن ما كانت تعتقده من صوت الله لم يكن سوى الخيال المغرق والكبرياء المضللة العقيم.

وقد كانت حياة البارونة فون كريدنر مستقى خصباً لأقلام كثيرة، فصدرت عنها كتب وتراجم عديدة بالألمانية والفرنسية والانجليزية. هذا عدا ما دونه كتب التاريخ بصفة عامة عن صلتها الوثيقة بعقد « المعاهدة المقدسة » وهي ألمع نقطة في سيرتها العجيبة.

محمد عبد الله عنان

الكتاب ونقادهم

دراسة في سوء الفهم (١)

في آخر كتاب أصدره الأستاذ هنري بير، وهو كتاب عميق تغمره الحيوية ويفيض علماً وحدّة قريحة، يعرض المؤلف مشكلة من الخطر بمكان عظيم، أو على الأقل يبدو خطرهما هذا بالقياس إلى أعضاء «جمهورية الأدب»، وهي مشكلة الصلات التي تنشأ بين الكاتب والجمهور، وبصفة خاصة بين الكاتب والنقد الأدبي.

والنقد الأدبي الذي صار لونا خاصاً من ألوان الأدب مستقلاً عن غيره، قد اتخذ لنفسه خلال القرن التاسع عشر مكانة وأهمية تطردان في النمو. على أن هذا الأمر طبيعي؛ فقد كان من نتيجة الازدياد الضخم للإنتاج الأدبي (٢) وازدياد عدد القراء على مدى أوسع (وهم قراء يفرض فيهم قراءة الآثار الأدبية، ولكنهم في الواقع يقرءون الروايات الهزلية والبوليسية، كما يذكر ذلك الأستاذ بير في شيء من الدهاء) أن الجمهور الحائر الداهل سرعان ما أدرك أن ليس لديه من الوقت أو من الوسائل ما يتيح له القيام بنفسه بالانتقاء والاختيار. لذلك قوى شعوره يوماً بعد يوم بالحاجة إلى هيئة من الإخصائيين ترشده، فأخذ شيئاً فشيئاً يسلم إلى هؤلاء الإخصائيين مهمة إصدار الحكم على تلك الآثار،

(١) كتب هذه الدراسة خاصة «للكاتب المصري» الأستاذ ألكسندر كواريه أستاذ الفلسفة بجامعة باريس الآن، وبجامعة فؤاد الأول بالقاهرة سابقاً، وهو يستعرض كتاباً أصدره حديثاً الأستاذ هنري بير أستاذ الأدب الفرنسي بجامعة فؤاد الأول سابقاً، وهذا الكتاب هو:

HENRI PEYRE, *Writers and their Critics, A Study in Misunderstanding*, in 8°, XII + 340 p., Cornell University Press, Ithaca, N.Y. 1944.

(٢) على أن هذا الإنتاج يحتفظ منذ نحو سبعين عاماً بمستوى متعادل تقريباً، فهو يتراوح في فرنسا بين ١٢ و ١٤ ألف مؤلف، وفي إنجلترا بين ٨ و ١٥ ألف (ص ٥). ومجموع هذا خلال سبعين عاماً يبلغ نحو مليون مؤلف...

وعهد إليهم أمر التمييز بين الصحيح منها والزائف ، بين الجيد والردىء ، بين الصالح والطالح . ويقول الأستاذ بير في ذلك : « ويظهر أن الجمهور أصبح أسلس قياداً في ميدان الآداب والفنون بقدر حصوله على حقوق أوسع مدى في ميدان الحياة الاجتماعية والسياسية . . . ونحن لا تقتصر على مطالبة الناقد بإرشادنا إلى بعض الكتب الجديدة ، بل نريد أن يدرس لنا المؤلفات التي تشق علينا ، وأن يذكر لنا ماذا يجب أن يكون رأيها فيها ، ثم ما الذي يجب أن نقوله لجارنا على المائدة أو في المرقص أو في ملعب الجولف » (ص ٣) . ويضيف في موضع آخر : « إن الآداب والفن الحديثين يفرض فيهما أنهما أصبحا (بالقياس إلى الجمهور) من الغموض بحيث لا يستطيع الرجل المتوسط أن ينفذ إليهما دون عون » (ص ٦) . والجمهور يلجأ إلى النقد يستعين به على الفهم والذوق . وبما يحمل على الأسف أن هذا النقد بدا عاجزاً عن القيام بالمهمة الخطيرة التي وكلت إليه ، وهي تجمع في نفس الوقت بين وظيفة المحكّم ووظيفة الرائد المربي . على أن الأمر كان (أو كاد يكون) كذلك دائماً . وقد قال شوپنهاور (وكان هو نفسه إحدى ضحايا النقد) إن الناقد الجيد « أندر من العنقاء التي تظهر كل خمسين سنة عام . »

والاستعراض النقدي الذي يقدمه لنا الأستاذ بير في الفصول الثلاثة الأولى لكتابه يؤيد كل التأييد هذا الرأي السديد الذي أبداه الفيلسوف المتشائم العظيم . وإذا استثنينا بوالو الذي أصاب دائماً في حكمه ، فقد امتاز وحده في عصره دون غيره ببصيرة نافذة لم يتسرب إليها الخطأ ، حين أبدى رأيه في المؤلفين وفي كتبهم ، وقد جاء الخلف من بعده فأيدوا حكمه أو اتخذوا لنفسهم هذا الحكم . وإذا استثنينا بودلير أيضاً (ص ٨٥ وما يليها) — فإن أعظم المفكرين شأنًا وأوسعهم آفاقاً ، أمثال جوته (ص ٧٥ وما يليها) وفولتير ، حين أصدروا حكمهم على الإنتاج الأدبي والفلسفي لمعاصريهم ارتكبوا أخطاءً شنيعة (تبدو لنا غير مفهومة بحال ولا نجد لها تفسيراً أو تعليلاً) . ذلك أنهم من ناحية لم يقدرُوا أعظم آثار عصرهم أو انتقصوا من قدرها ، ومن ناحية أخرى رفعوا من قدر آثار رديئة أو كانوا مصدرراً لهذه الآثار التي خُيّم عليها اليوم ما تستحقه من النسيان (ص ٨٦ وما يليها) .

أما النقاد الذين هم أقل شأنًا من هؤلاء ، ولا سيما النقاد المحترفون أمثال

لاهارب ، ونيزار ، وپروتير ، وفاجيه ، وليمتر في فرنسا ، ونظراؤهم في انجلترا وأمريكا (ولا بد أن يكون الأمر كذلك في غير هذه البلاد) ، فنستطيع أن نقول إنهم مع استثناء قليل أخطأوا على نحو مطرد ، فأنكروا في جميع الأحوال تقريباً الآثار المبتكرة القوية ، وأثنوا في جميع الأحوال تقريباً على آثار من الطبقة الثانية أو الثالثة ، بل على آثار شديدة الفراغ والفتور . وسانت ييف نفسه ، وهو بلا جدال أعظم النقاد الفرنسيين ، لم يقدر بلزاك وستندال وبودلير ومرييه وميشليه الخ . . . (ص ١٢٥ وما يليها) .

وما أطرف ثبت السخف النقدي الذي جمعه الأستاذ بير . على أنه ليس أدعى للأسف أيضاً مما يظهرنا عليه هذا الثبت من قصور مطبق عن الإدراك وعجز مطلق عن الحكم وزهو مسرف بمحدود الأفق . فكل الآثار العظيمة وجميع المؤلفين الكبار ، هؤلاء الذين نعتبرهم « كلاسيكيين » أنكروا وهوجوا وأهينوا . فإن وردسورث وشيلي وكيثس ومريدث في انجلترا (ص ٢٦ وما يليها ، ٣٠ وما يليها ، ٣٥ وما يليها ، ٣٩ وما يليها) ، وهاوثورن وملقى في أمريكا (ص ٦١ و ٦٢) وستندال وبلزاك وفلوير (ص ٩٢ وما يليها ، ٩٦ ، ٩٩) ، وفكتور هوجو وبالطبع بودلير وپروست (ص ١٠١ وما يليها ، ١١٣ وما يليها) — اتهموا بإفساد الخلق وإهدار اللغة ، وبأن عقولهم مجذبة وأن ليس إلى فهمهم من سبيل . والعصور الأرستقراطية ، خلافاً لما تذهب إليه خطأ بعض الأحكام النقدية المقررة الذائعة الانتشار ، لا تتميز بحال في هذا الصدد عن عصور الحضارة الشعبية . لا ريب أن الأولى لا تعد الخروج على الأخلاق من المأخذ التي توجه إليها النقد (فإن التكلف الخلقى من خصائص العصور البورجوازية) ولكن معاصري شكسبير كانوا بعيدين كل البعد عن إدراك عظمتهم (فلم يعترف بها إلا بعد مرور مائة وخمسين عاماً) ، وكثيراً ما كانوا يؤثرون عليه مؤلفين لا نجرؤ أن نقرن أسماءهم باسمه . ومعظم آثار ملتون صرت دون أن تلفت النظر الخ . . . الخ . . . (ص ١٧ وما يليها ، ص ٢٠ وما يليها) . كذلك الحال في فرنسا ، فإن حظ شابلان من التقدير كان أعظم من حظ راسين ، وكان الجمهور يتردد في الاختيار بين پير وتوما كورنى ، فلا يعرف أيهما يؤثر . وعدم تقدير المعاصرين يمكن تفسيره في رأى الأستاذ بير بمجموعة من المقررات المبتسرة الخاطئة يتألف منها نموذج تقليدى مطرد (وما أفيد المعجم

الجديد « للآراء المتوارثة » الذي وضعه الأستاذ بير — ص ١٣٧ ومايلها) . وهذا النموذج من شأنه أن يظهرنا على ألوان من السخف وضروب من الاتهام يوجهها النقاد إلى الفن في العصر الذي يعيشون فيه ، وتكررها وتعيدها أجيال متتابعة من النقاد . وبعض هذه العيوب (مثل المساس بالخلق ، والاتسام بطابع الانحلال ، والخفة وعدم الاستقرار) مصدرها العقائد السياسية والدينية التي يعتنقها النقاد ، على حين أن غيرها (منها أن الأسبقين كانوا يعرفون كيف يكتبون بينما العصر الحاضر لا يعرف ، وأنه كانت توجد مدارس فيما مضى بينما الآن تعم الفوضى ... الخ ...) مردها إلى موقف متحيز من شأنه إثارة الأجيال الماضية على الأجيال المعاصرة (نعيش في عصر انحطاط أو عصر انتقال) بدعوى أن الأجيال المعاصرة غامضة يستعصى فهمها . هذا إذا لم يكن التحذق وذكرى أخطاء السابقين من شأنهما أن يدفعنا طائفة من النقاد (ومن الجمهور الذي يريد أن يكون في الطليعة دائماً) إلى الإعجاب بأشد الآراء تقدماً وتطرفاً ، هذا الإعجاب الذي لا يقل سخفاً عن النقد المتكلف . وأشد خطراً من ذلك أن طائفة كبيرة من النقاد ، وهم النقاد الجامعيون ، ومؤرخو الأدب خاصة ، بعد أن بحثوا عبثاً عن المقاييس التي تتيح لهم الحكم على الآثار المعاصرة تخلوا عنها ، وأمسكوا في حذر وخيطة عن إبداء الرأي بشأنها ، وفوضوا أمر الحكم عليها للخلف من الأجيال اللاحقة . أما بالقياس إلى الجيل المعاصر فانهم يتركون المجال حراً للصحافة ونشر الدعوة . هذا العجز في النقد الجدي يأسف له الأستاذ بير أشد الأسف . لذلك يرجو ، ويضرب بنفسه المثل في ذلك ^(١) ، أن يعين تحليله النقاد على التخلص من تحاملهم — ومن استحيائهم أيضاً — وعلى القيام بالمهمة التي يجب أن يضطلعوا بها . أما المقياس الذي يجب أن يكون أساساً لحكمنا فهو مقدار ما استطاع المؤلف أن يستوعبه أثره من حياة قوية خصبة .

وينحيل إلى أن الأستاذ بير مسرف في التفاؤل . فهو يشترط في الناقد صفات خاصة متعددة : منها أن تكون حاسته في إدراك الجمال حادة دقيقة حتى يستطيع إزاء أثر عظيم رائع أن يشعر « بوقع » المتعة والاستكشاف ، وأن

(١) في كتابه « رجال القرن العشرين وآثارهم » ، باريس سنة ١٩٣٨ .

يكون في وسعه أن يشرح السبب في إعجابه بالآثر ويبين نواحي روعته ، وأن يتبين بطبيعة الحال نقائصه وأوجه ضعفه ، فيظهر المؤلف عليها ويكون بذلك عوناً له ، وأن يعين مرتبة الآثر ذي القيمة المتوسطة فيحدد له مكانه في طبقته ، وأن تكون له دراية واسعة بالماضي ، ثم أن يكون هو نفسه كاتباً مجيداً في وسعه أن يقوم بعمل إنشائي ، وأن تكون لديه الشجاعة في التعبير عن رأيه وأن يجازف بتعريض نفسه للخطأ . . . الخ . . . فإذا ما رأينا الشروط التي يشترطها الأستاذ بير في الناقد كان من حقنا أن نتساءل عن مجلة النقد التي يرجو أن تنشأ في أمريكا أيجد لها من الأعوان عدداً كبيراً ؟

وإني آسف كل الأسف لأنني لا أستطيع أن أنقل هنا الصفحات الرائعة اللاذعة التي تفيض بملاحظات دقيقة عميقة نافذة ، والتي يهاجم فيها الأستاذ بير النقد ، ولا سيما في عيبه الأساسيين وهما : امتناعه عن كل مجهود في سبيل فهم الأدب الحديث بحجة أنه غامض يستعصى فهمه ، وامتناعه عن إصدار حكمه على الآثار الأدبية بحجة أن هذه مهمة الخلف من الأجيال التالية .

ولا يؤمن الأستاذ بير بالخلف وبحكمهم ، إذ يقول : « حكم الخلف هو الحكم الذي يفرضه بعض المتحمسين على الخلف » . وفي هذا كل الصواب . والأستاذ بير محق بلا شك حين يحذرنا من الإسراف في الاطمئنان إلى الخلف . على أن الخطأ في الحكم والتقدير قد يقع أيضاً على الأجيال الماضية كما يقع على الأجيال المعاصرة ، وليس مؤكداً أن ما يتمتع به الآن بعض شعراء الماضي من صيت ذائع (موريس سيف مثلاً^(١)) له مايسوغه أكثر من ذبوع صيت بعض الشعراء الجديثين . غير أن الأستاذ بير يعلم حق العلم أن الزمن « ليس رجلاً كريم الخلق رفيع الشائل » على الرغم مما قاله ما زاران ، وأن ليس أشد قسوة من اختبار الزمن . وقد يهرنا أثر من الآثار فيفتننا ويستهوينا ، لأنه يتفق مع مشاغلنا الحالية ، ومع أساليبنا في فهم الحياة وفي التفكير وفي الحديث . . . فإذا ما قرأناه بعد مضي عشرة أعوام بدا لنا فارغاً مملاً سطحياً . . . وقليل جداً من الكتب تخرج ظافرة من هذا الاختبار حين تخضع له . ولا أظن أنه يمكن

(١) شاعر فرنسي من النصف الثاني للقرن السادس عشر ، صاحب شعر غرامي فيه كثير من النبوض (المترجم) .

الاستعاضة عنه بأي مقياس آخر . فممارسة الأثر وحدها هي التي تبين متانته وثرأه وخصبه . والآثار التي نعتبرها كلاسيكية هي التي تثبت على مر الزمن فلا تستنفد قيمتها قراءة الأجيال ، وإنما تزيد قراءاً على قراء : والواقع ، كما يلاحظ الأستاذ بير وهو يوضح بطريقة مستحدثة طريفة جداً فكرة هيجل عن تطور الأثر في الزمن وبفعل الزمن ، أننا كثيراً ما نعجب بآثار الماضي لأسباب لا تتصل بتلك التي كانت تدعو معاصريها إلى الإعجاب بها ، كما أننا كثيراً ما نجد في بعض الآثار أشياء غير تلك التي يكون كتابها قد ضمنوها إياها ، أو خيل إليهم أنهم ضمنوها إياها ، بل قد نجد فيها أشياء تختلف عنها كل الاختلاف (ص ٢٣٦) . ونتيجة كل ذلك أن الخلف ، أو توالي الأجيال من الخلف ، يتمتع بمحظ أكبر من المعاصرين يتيح له إصدار حكم موضوعي على الأثر ، وإدراكه وفهمه على وجهه الصحيح ، ويتيح له بصفة خاصة إمكان الحكم عليه .

وهذا يعود بنا ثانية إلى مشكلة إدراك الأثر وفهمه . فليست الأحكام المقررة الخاطئة وحدها التي تجعل الآثار المبتكرة مستعصية الفهم على المعاصرين (وكثيراً ما تكون هذه الأحكام المقررة لها ما يسوغها وتصدر عن شعور حميد : فبعض الآثار التي ناهضها النقاد كانت فعلاً مهيئة إلى الدين في عصرهم ، وبالمقياس إلينا تبدو هذه الأحكام المقررة سخيفة ضيقة الأفق ، لذلك نتحامل على النقد الذي وجه إليها . ونحن من غير شك نصيبون . ومع ذلك فليس مؤكداً أنه يجوز للنقد حين يصدر حكمه بشأن كتاب ما أن يهمل تأثير ذلك الكتاب) بل قد يرجع عدم فهم الأثر إلى عوامل تتصل بتكوين الإنسان نفسه . هذا إلى ما في الأدب الحديث من جنوح متعمد وتعصب مقصود إلى الغموض والعسر . ويرى الأستاذ بير أن أسباب هذا التحول متعددة : منها ضرورة تقتضيها طبيعة الأدب نفسها (فاللغة الشعرية لا تستطيع أن تستغنى عن شيء من الإيهام وعن ضوء يتراوح بين الوضوح والإظلام) . ومنها الجنوح إلى ضرب من المجاملة والتلاعب بالأذهان (مؤداه الرغبة في أذهال البورجوازيين وفي الاستهزاء بالنقد) . ومنها أيضاً اصطناع صيغ جديدة للتعبير الشعري والفني ، ونبتذ الصيغ القديمة التي أصبحت جامدة ، والثورة على مذهب التكلف الفكري والذهني ، والسعي إلى التعمق والابتكار (أنظر ص ١٩٦

وما يليها) والغموضية تصور من ناحية التعارض المطرد القائم بين رجل الفن والهيئة الاجتماعية ، ومن ناحية أخرى ثورة رجل الفن الذي تؤذيه حماقة الجمهور وينفّر قصوره عن الإدراك فيعكف على نفسه ويتحدث حديثاً خفياً غامضاً ، كأنه يريد بذلك أن ينتقم لنفسه من الهيئة الاجتماعية . ويلاحظ الأستاذ بير أن هذه ظاهرة حديثة خاصة بلا شك بعصر تحضر الجماهير وهو العصر الذي نعيش فيه (ص ٢٠٠ وما يليها) . غير أن الأستاذ بير يرى أن صعوبة الفن الحديث أو غموضه (وهما حقيقتان واقعتان لا مجرد ظاهرتين شكليتين) لا يمكن اعتبارهما عيباً يؤخذ على هذا الفن ؛ فما يزال أفلاطون وهيكل أشد عسراً ، وتوسديد كان مستعصى الفهم في العصور القديمة نفسها ، ولا شك أن بندار ليس أيسر إدراكاً من ملارمييه أو قاليري ، ونحن جميعاً نعلم أنه لا يمكن قراءة دانتى دون الاستعانة بتفسير (ص ١٩٢ وما يليها) . أما تحرى اتقاء اللفظ وتنميق الأسلوب فلا يجب أن يغيب عن بالنا مذهب « الجونجورزم » (١) .

وإني آسف أن لم أتفق مع الأستاذ بير في جميع آرائه . ومما لا ريب فيه أن الفن (لا سيما الفن الأدبي) ينبغي من حين إلى حين أن يجدد أساليبه ؛ فإن الألفاظ والصور والاستعارات تبلى وتذوى ويزول تأثيرها ، وإيلاف الشيء يلغى من قوة وقعته . ومما لا ريب فيه أيضاً أننا حين تقدم للناس خيراً جديداً يحسن ألا نقرعها في دنان قديمة . على أنه مما لا شك فيه من ناحية أخرى (والأستاذ بير يعلم ذلك حق العلم ويحيد التعبير عنه إجابة خاصة) أن الدنان الحديثة كثيراً ما تكون بالحر الردئية المغشوشة ، وأن البحث عن الطرافة قلما تصحبه طرافة حقيقية (بل قد لا تصحبه هذه الطرافة أصلاً) ، وأن مستكشفات الذين يتوغلون من رجال الفن في أعماق حياتهم الداخلية (الشعورية واللاشعورية) كثيراً ما تكون قليلة القيمة . لذلك أرى أن صعوبة الأدب الحديث وغموضه (والشعر بصفة خاصة) ليس لهما ما يسوغهما بحال ، وأن أوجه المقارنة التي آتى بها الأستاذ بير ليست من الإقناع في شيء .

(١) نسبة إلى « جونجورا » شاعر أسباني عاش أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ، وعمد في كتابته إلى اصطناع أسلوب متكلف . ونشأ مذهب باسمه .

فيخيل إلى أن الفن المعاصر ، وذلك بلا شك على أثر ما لفت إليه الأستاذ بير من انقطاع الصلة بين رجل الفن والجمهور ، (وأنا أعرف ما في الرأي الذي أعرضه من ادعاء ومجازفة) — هذا الفن يتجه اتجاها خاطئاً ، وتبدو عليه جميع أعراض الاختلال ، بل الفساد . ولو كنت ماركسياً لقلت إنه يعكس عكساً صحيحاً انحلال الجماعة البورجوازية وتفككها ، وإن هذا ما يحمله على إثارة التفكك على غيره من الاشكال : تفكك في الصيغ الشعرية ، وتفكك في قواعد الندو ، وتفكك في لأشكال والأجسام في فن التصوير . . . الخ ولو كنت فقيها من فقهاء الدين لقلت إن هذا الفن الحديث تقسده من أساسه خطيئة الكبرياء ، وإنه فن إبليس ، فن يثور فيه الفنان على الخالق وعلى العالم الذي خلقه ، فيحاول أن يسعّض عنه بعالم آخر من إنشائه . وإلى هذا ترجع بعض ظواهر خاصة مثل محاولة إنشاء لغة خاصة (جيمس جويس) والامتناع عن الاتباع والتقليد ، وتصوير المصورين للأشياء في تشويه بشع . . . ولاضفت إلى ذلك أن هذه المحاولة الشيطانية الجديدة لم تصب بنجاح المحاولة الأولى (فليس الإنسان ملاكاً) . فما لاشك فيه أن الفن المعاصر يخالف لأوضاع الكون . وإذا لم أكن ماركسياً ولا فقيهاً من فقهاء الدين ، فأني أقول في كل بساطة إن الفن الحديث يمثل في رأي ثورة على المعاني والألفاظ والمشاعر جميعاً .

ومن هنا نشأ مذهب الدادايزم وما أتى به من تخبط سخيّف ، ومذهب السوريلازم وما يعتريه من طفولة سقيمة ثقيلة يملؤها الغرور . ومن هنا نشأت محاولات فن التصوير الحديث في إظهارنا على الأشياء من جميع نواحيها في نفس الوقت . . . الخ .

وقد فقد الفن الحديث مركزه ومهمته في الحياة . لذلك أصبح شاعراً بنفسه ، كل الشعور (كما يشير إلى ذلك الأستاذ بير ص ٢٨٣) . فقد الثقة بنفسه فحاول أن يصير شيئاً آخر غير الفن : أن يصير سحراً أو فلسفة فيما بعد الطبيعة ، أو غير ذلك من الأمور . وهذا ما يحمله على القيام بتجارب ، ويدفعه إلى أن ينسى أن الشعر إنما يقرض ليحفظ عن ظهر قلب لا ليملاً صفحة من صفحات المطابع بالأشكال الزخرفية ، وأن الفن القصصي يجب أن يشتمل على شيء يُقَصُّ على حكاية ، وأنه إذا انعدمت الطرافة في هذه الحكاية انعدمت بذلك قيمة

القصة نفسها (١) ، وأن صور المصورين إنما ترسم لينظر إليها ، وأن ألحان الموسيقى إنما توضع لتسمع ، وأخيراً وليس آخراً أن الأثر الفني ينبغي أن يروقنا ويلذنا وأن يكون مصدر متعة لنا (٢) . أما الفنان الحديث فلا يريد أن تروقنا آثاره ، وإنما يريد أن يتجه الاهتمام إليه باعتباره هو هو ، واعتبار ما يعبر عنه هو ، وأن يكون فنه مصدر إعجاب . ولما كانت الاعترافات لا تحمل طرافة إلا إذا كان لدى صاحبها شيء يعترف به (وهذا قلما يحدث) فإن الفن الحديث ، فن القوم الذين ليس لديهم شيء يقولونه ولكنهم مع ذلك يجيدون القول على نحو مستحدث مبتكر ممتع ، هذا الفن يفقد فنيته ويصير تكلفاً بيانياً ، إن صح هذا التعبير الذي تظهر عليه الغرابة .

على أن من المقرر أن الفلاسفة لا يفقهون شيئاً في الفن ، وأن الأساتذة (ولا سيما المؤرخين منهم) لا يفقهون شيئاً في أمور الأجيال المعاصرة . لذلك يجدر بي أن أقف هنا ، وأنا أحيل القارئ إلى كتاب الأستاذ بير وما فيه من خصب وثناء ، ومن حذق وإيجاء ، فإنه سيجد في قراءته — كما وجدت — أعظم المتعة وأقوم الغناء .

ألكسندر كوابيه

نقلها عن الفرنسية توفيق شحاته

(١) وعلى ذلك فإذا كان « حب سوان » لا يزال يحتفظ بطرافة ممتعة جداً ، فذلك لأنه يقص شيئاً يستهويناً إلى أقصى حد ، فهو يقص « قصة غرامية » ، في حين يصعب جداً أن تقرأ دون أن يعترينا السأم ، الأجزاء التي لا تنتهي ، المتعلقة بأسرة جرمانت ، (يشير الكاتب بذلك إلى مؤلفات بروس — المترجم) .

(٢) ومسيو ييز يلح بحق في هذه النقطة .

بدعة المحاريب

نشر هذا البحث القيم غير محتملين شيئاً من تبعاته
الفنية والتاريخية والدينية أيضاً . و نعتقد أن المختصين
خليقون بأن يتعقبوه بالنقد والتمحيص .

١

تحتفظ دار الكتب المصرية ، فيما تحتفظ به من نقائس الكتب والآثار ،
بمخطوط غريب أسماء مؤلفه « كتاب إعلام الأريب بمحدث بدعة المحاريب » .
والكتيب أو الرسالة وزيقات ، معدودات ، كتبها ناقلاً بخط حسن مقروء ،
وأدخلها في مجموعة من الرسائل المنسوبة إلى عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين
السيوطي ، صاحب « تاريخ الخلفاء » ، و « تفسير الجلالين » ، و « حسن المحاضرة في
تاريخ مصر والقاهرة » . وهي مصنفات شهيرة لعالم جليل ، ومؤرخ واسع الأطلاع .
كان مولده بمصر سنة تسع وأربعين وثمانمائة (١٤٤٥) ، وكانت وفاته سنة
إحدى عشرة وتسعمائة (١٥٠٥) . وقد يسر علينا السيوطي نفسه سبيل البحث
عنه ، والتفتيش عن أعماله ، فأورد في كتابه « حسن المحاضرة » كشفاً بمصنفاته ،
وذكر لنا أنها بلغت ثلاثمائة كتاب « سوى ما غسله ورجع عنه » ، وأنه كتب في
فتون التفسير والفقه والحديث وتعلقاتها ، وفي فنون العربية والأصول والبيان
والتصوف والتاريخ والأدب ، وأنه كتب إلى هذا في « مسائل مخصوصة » منها
رسالة في « تحريم الاشتغال بالمنطق » ، وأخرى عنوانها « أنموذج اللبيب إلى
خصائص الحبيب » ، وثالثة في « فصل الخطاب في قتل الكلاب » . ولم يذكر
لنا السيوطي أنه كتب رسالة بالعنوان الذي يحمله مخطوط دار الكتب ، أو
أنه شغل بموضوع المحاريب . مثل ما شغل بتحريم المنطق ، عملاً بفتوة سمعها
من ابن الصلاح . ولهذا فإني أشك في صحة انتساب هذه الرسالة إليه بالرغم

مما انطبع فيها من مظاهر أسلوبه وتفكيره ، غير أنني سأتمهل في الرفض وأنظر في موضوعها .

الرسالة بحث في موضوع حديث يُعزى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وللحديث ، كما نقله السيوطي ، نصان : النص الأول « اتقوا هذه المذابح » ، والنص الآخر « لا تزال هذه الأمة — أو قل أمتي — بخير ما لم يتخذوا في مساجدهم مذابح كذاب النصارى » . وحاول السيوطي جهده أن يثبت صحة سند هذا الحديث ، ونقل في ذلك أحاديث أخرى عن قوم من الأوائل ، قال البعض فيها إنه لم يكن بمسجد المدينة محراب قط على عهد الرسول ، ولا في زمان الخلفاء الأربعة ، وأورد البعض الآخر أن الحاربي من شأن الكنائس ، وأن اتخاذها في المساجد من أشراط الساعة ، وأخرج أحدهم عن علي بن أبي طالب أنه كره الصلاة في « الطاق » . وأجمعوا كلهم على ذكر « المذابح » ، وهم في ذلك يقصدون « ما أخرجه عبد الرزاق في (المصنف) عن كعب قال : يكون في آخر الزمان قوم يزينون مساجد ، ويتخذون مذابح كذاب النصارى ، فان فعلوا ذلك صب عليهم البلاء » .

حديث السيوطي ينصب إذن على المذابح ، لا على الحاربي ، أو إنه فسر هذه بتلك ، وجعل منها عنوان رسالته . وفي الأحاديث علماء ، ولست أشك في أنهم لا يترددون في إسقاط حديث السيوطي ، معنى وتركيباً وسنداً . والذي أجزم به ، على كل حال ، هو أن رسالة السيوطي مرفوضة علماً ، مستنكرة تاريخاً حتى لو كانت مخطوطة بيده . إذ لا يستطيع المؤرخ ، مهما بلغت حماسته في الرأي أو مقدرته على الاستنباط أن يعترف برواية نقلها الراوي بعد تسعة قرون طويلة من تاريخ حدوثها ، مهما أضفى عليها راويها من صحة المظهر واستقامة المعنى . وماذا تقول في راوٍ يطلع علينا اليوم ، من غير مرجع أو سند صحيح بحديث مبتكر عن المستنصر العبيدي خليفة الفاطميين في مصر ، أو بقصة مطوية عن القائم بأمر الله ، خليفة العباسيين في بغداد ، أو برواية منسوبة إلى السلطان ملكشاه السلجوقي ، وكانوا جميعاً أحياء منذ تسعمائة سنة ؟

والأمر شبيه بهذا في حديث السيوطي ؛ فانه لم يأت بذكره راوٍ من رواة الأحاديث ، ولم ينقله قبله مؤرخ من مؤرخي الإسلام . وإذا كان العلماء

يرمون بالشك أحاديث كثيرة من أحاديث البخارى ، مع ما نعرفه عنه من دقة البحث ، وقرب العهد ، نسبياً ، بالرسول — إذ عاش بعده بمائتى سنة — .
أليس حديث السيوطى أولى بالشك وأبعد عن التصديق ؟

والذى ذكره رواة الأحاديث وعلماء الفقه قبل السيوطى لا ينصب على المحارب ، فلم يتعرضوا لها بخير ولا بشر ، وإنما كرهوا زينتها ، حتى لا يشغل الإمام بها عن الصلاة . فقد ذكر ابن الحج فى « المدخل » نهياً عن زخرفة المحراب ، وقال إن ذلك من البدع ومن « أشراط الساعة » ، ونقل عن الطرطوشى عن الإمام مالك أنه كره ما كانوا يعلقونه من خرق كسوة الكعبة فى المحراب وغيره ، فإن ذلك كله من البدع « لأنه لم يكن من فعل من مضى » .

وذكر كثير من العلماء الذى سبقوا السيوطى ، أمثال الكاشانى ، وقاضى خان ، والزيلعى . والطرابلسى ، ما يدل على أن المحارب كانت شائعة فى مساجد الإسلام ، وأنه لم يكن هنالك من حظر فى بنائها ، أو نهى عن استعمالها . بل إنهم أجمعوا على ذكر محارب نصبها الصحابة فى القرى والأمصار التى فتحوها ، وإن كانوا لم يبينوا لنا أشكالها . إلا أنهم أوصوا باعتبارها دلائل لتعيين القبلة والتوجه فى الصلاة .

وبالرغم من هذا ، فقد تعلق كثير من المستشرقين وعلماء الآثار بحديث السيوطى ، وأولوه ثقتهم ، وقالوا معه ، أو على الأصح محتجين به ، إن المحراب بدعة ، وإنه من عمل الكنائس . أما الشق الأول مما ينادى به المستشرقون فيكاد الإجماع ينقد عليه ، وحديث السيوطى لا يغنى فى ذلك قليلاً ولا كثيراً . وقد جاء فى رحلة ابن بطوطة أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان هو الذى صنع المحراب لمسجد المدينة ، وأضاف ابن بطوطة إلى ذلك أنه « قيل إن مروان هو أول من بنى المحراب » . وقيل عمر بن عبد العزيز فى خلافة الوليد . . غير أن المقدسى والسمهودى ، وغيرهما من المؤرخين ، قالوا إنه لما تولى عمر بن عبد العزيز بناء مسجد المدينة « وبلغ هدم المحراب دعا بمشايخ المهاجرين والأنصار فقال احضروا بنيان قبلتكم ، لا تقولوا غيرها ، فجعل لا يتزع حَجراً إلا وضع مكانه حجراً » . وفى هذا بعض الدلالة على أنه كان بالمسجد محراب قبل ذلك . ويقول السمهودى فى وصفه الشامل وتحليله الدقيق لمسجد المدينة فى كتابه « خلاصة

إلوفى « إنه كان بجدار القبلة « إزار رخام مخلق بمخلق ، فيه الوتد الذى كان صلى الله عليه وسلم يتوكأ عليه فى المحراب الأول » . فكأنه يدلنا على أنه كان بمسجد المدينة محراب على حياة الرسول . أما فى غير هذا المسجد ، فقد ذكر الكندى وابن عبد الحكم وغيرهما من المؤرخين القدماء أنه « لم يكن للمسجد الذى بناه عمرو محراب مجوف وإنما قرّة بن شريك جعل المحراب المجوف » . وقرّة بن شريك ولى إمرة مصر بين ربيع الأول سنة تسعين (يناير ٧٠٩) وربيع الأول سنة ست وتسعين (ديسمبر ٧١٤) ، وكان عمر بن عبد العزيز قبيل ذلك عاملاً على المدينة من قبل الوليد بن عبد الملك ، ولاء سنة ست وثمانين (٧٠٥) وعزله سنة ثلاث وتسعين (٧١١) . وقد أخذ العلماء برأى غالبية المؤرخين ، وأجمعوا على الحكم بأنه لم يكن لمسجد من مساجد الإسلام محراب مجوف قبل سنة سبع وثمانين للهجرة . غير أنى أرانى مضطراً إلى الخروج على هذا الإجماع ، فهناك أثر ثابت ، قد تحققت حديثاً من وجوده ، ولا سبيل إلى الطعن بعد اليوم فى صحته ، وهو يناقض هذا الرأى الأخير .

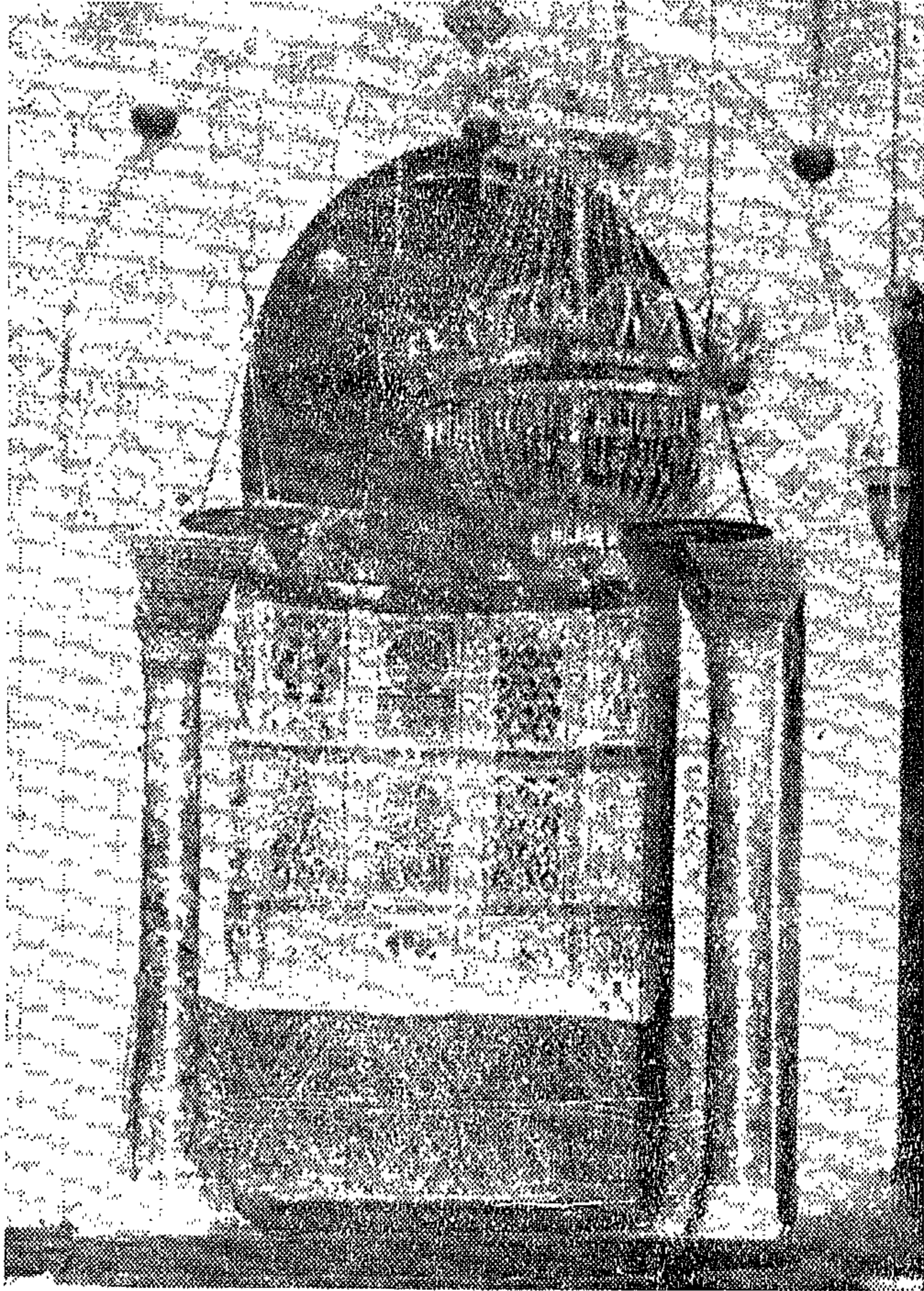
والواقع أن مؤرخى العرب لم ينكروا إطلاقاً وجود المحاريب قبل سنة سبع وثمانين فى غير مسجدى الرسول بالمدينة ومسجد عمرو بالقسطنطينية . بل إننا قد رأيناهم يترددون فيما يتصل بمسجد المدينة ، واختلف رأيهم فى محرابه ، فقال أحدهم : كان للرسول محراب فى ذلك المسجد ، وقال آخر إن عثمان هو أول من جعل له محراباً . ثم إنهم لم يتحدثوا عن المساجد الأولى فى الإسلام ، فلا نعرف من رواياتهم إذا كان المحراب قد أدخل فى بناء مساجد البصرة والكوفة وزمام ، ولكننا نعرف على كل حال أنه كان فى نظام مسجد القيروان ، وهو الذى أقامه عقبة بن نافع سنة خمسين (٦٧٠) .

حدثنا كثير من المؤرخين عن تاريخ بناء مسجد القيروان ، وذكروا كيف أن عقبة بن نافع بدأ ينشئ هذه البلدة بعد دخوله إفريقية ، وكيف اختط فيها دار العبادة والمسجد الأعظم . وذكروا أن الناس كانوا يصلون فى المسجد قبل أن يحدث فيه بناء ، وأن أمرهم اختلف فى القبلة . وقيل إن آتياً أتى عقبة فى منامه ، وأن صوتاً من عند الله أسمعه ، أين يضع محرابه من المسجد ، وتناقل الناس هذا الحديث إلى اليوم ، وإليه يرجع ما يحملونه من الإجلال للرجل

ولمسجده . ذكر هذا جبهة من المؤرخين من بينهم ابن عذارى والنويرى وابن خلدون وابن حوقل والبكرى . ولا شك أن ما نقله عبيد الله البكرى . هذا عن القيروان هو أصدق صورة وضعت عن تاريخ هذه المدينة ، وكتابه عن المغرب مشهور ، والثقة به عظيمة . وإن يكن وصفه للجامع غير شامل ، فهو وصف دقيق ، يسهل تحقيقه ومراجعته . وإن يكن البكرى قد عاش في النصف الثاني للقرن الخامس الهجرى ، فقد نقل كثيراً من أخباره عن أصدق مارواه المؤرخون السابقون ، وأكثرهم ثقة بالرواية . وقد أثبت البحث العلمى الحديث ، كما أثبتت المقارنة التاريخية ودل التحقيق الأثرى ، على أنه لا مجال للشك فيما نقله البكرى إلينا من تاريخ المغرب والقيروان .

يحدثنا البكرى أن عقبة بن نافع أقام مسجده وأقام محرابه ، وأن حسان ابن النعمان هدم هذا المسجد وشيد عليه بناء جديداً ، وكان ذلك بين سنتي عان وسبعين وثلاث وثمانين (٦٩٣ — ٦٩٧ م) ، ويحدثنا أن بشر بن صفوان زاد في هذا المسجد زيادة كبيرة سنة خمس ومائة (٧٢٤) ، وأن يزيد بن حاتم هدم المسجد مرة ثانية وبناه من جديد ، لما ولى إفريقية سنة خمس وخمسين ومائة (٧٧٢) . ويؤكد لنا البكرى أن جميع هؤلاء الولاة والبناة لم يمسوا محراب عقبة ، وأنهم تركوه على ما كان عليه حتى كانت سنة إحدى وعشرين ومائتين (٨٣٦) . في تلك السنة ولى زيادة الله بن إبراهيم بن الأغلب إمرة إفريقية ، وهدم جامع القيروان كله ، ثم أراد أن يهدم المحراب فلم يجبه أحد إلى ما أراد . فألح في ذلك ، ولكنه حيل بينه وبين هدمه ، ويقول البكرى ، منعه الناس من المساس بالمحراب « لما كان قد وضعه عقبة بن نافع ومن كان معه » . فقد كان هذا المحراب ، كما قرأنا ، موضع إجلال القوم وتقديسهم ، وكانوا إلى عهد زيادة الله ، مازالوا يتناقلون حديث الوحي الذى أبان لعقبة موقع محرابه من المسجد . ويروى البكرى أن صانعاً ذا حيلة من الصناع ، تقدم بعدئذ إلى زيادة الله برأى يوفق بين رغبته فى بناء محراب جديد ، وبين إجماع القوم على الاحتفاظ بمحراب عقبة ، وأن هذا الصانع صنع لأميره حلية من لوحات الرخام المنقوش المخرم ، وألصق هذه اللوحات على جدار المحراب القديم ، فبدا فى ثوب بديع قشيب ، ولم يصب محراب عقبة بسوء .

وقد كنا نستطيع أن نقنع بهذه الحجة ، فإن في رواية البكري هذه من الثقة والاستقامة ما يفتقر إليه حديث السيوطي ، وما يغنينا عن استزادة الإيضاح . ولكننا نقف آراء معمارية ، فلندع العناصر المعمارية نفسها تحتاج وتتكلم ؛ لأن محراب عقبة هذا ما زال كما قال البكري منذ تسعمائة سنة ، قائماً « على بناءه إلى اليوم » . وإنا لنراه من بين خروم لوحات الرخام التي صنعها الصانع النبیه في عهد زيادة الله ، وكسا بها جدران ذلك المحراب المبجل .

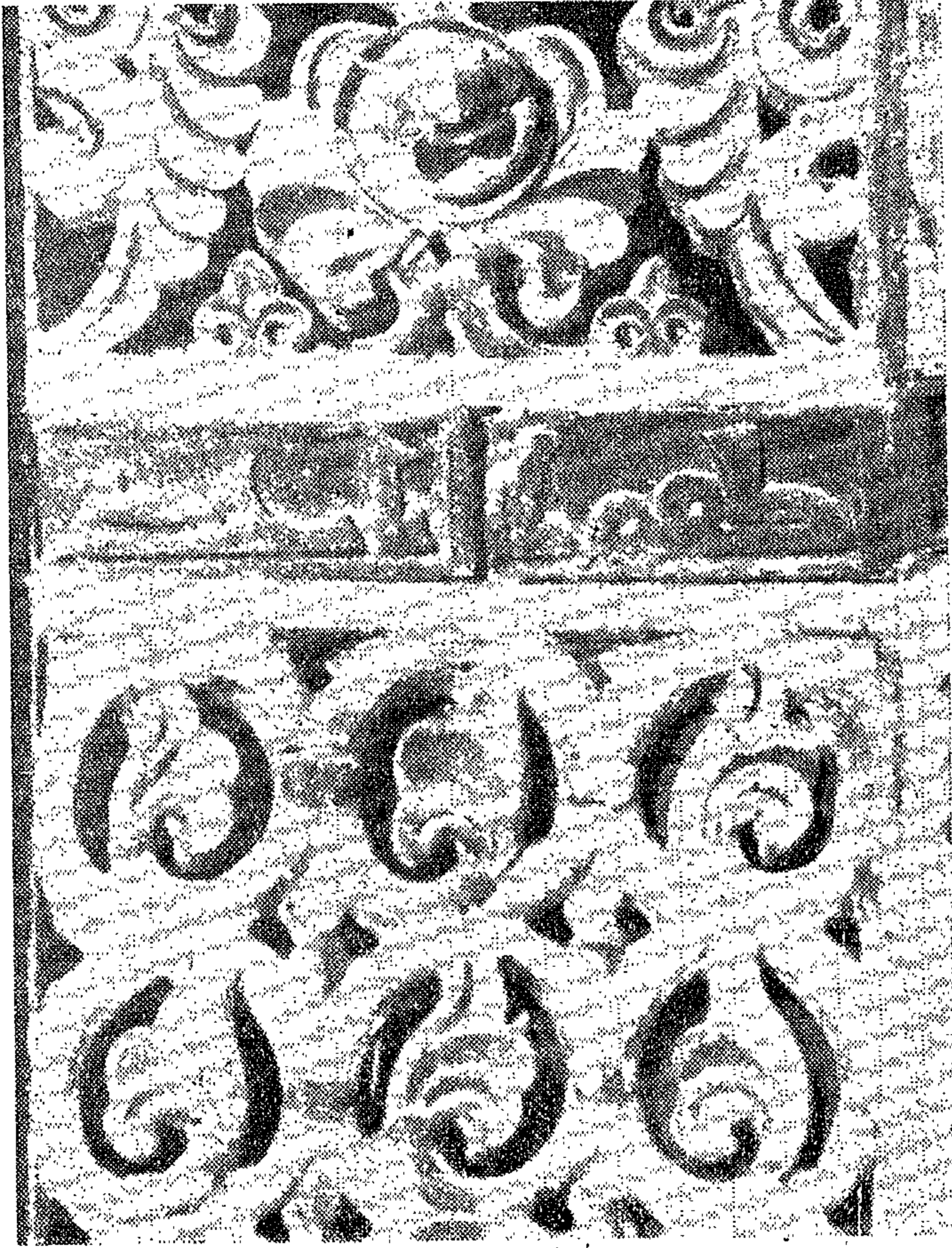


محراب مسجد القيروان (سنة ٢٢١ هـ - ٨٣٦ م)

يرى الناظر خلال هذه الخروم أنها تخفى من ورائها جداراً مقوساً . على هيئة جوفة في جدار القبلة ، غير أن الفراغ الضيق الذي يلمحه الناظر من ثنايا

بدعة المحارب

هذا الجدار يحول دون تبين شكله كاملاً . ولهذا لم يشأ أحد من المشتغلين بالآثار أن يعترف بطبيعة هذا المحراب المجوف العتيق ، وادعى أحدهم أن قيام هذا الجدار ، أو هذه الجوفة أمر طبيعي ، إذ أن لوحات الرخام المحرم تتطلب إيجاد فراغ من خلفها حتى تظهر نقوشها ، وقال إن هذا الاحتيال البسيط ، أدى إلى نشأة أسطورة المحراب ، وإلى اختلاق القوم لحديث محراب عقبة .



تفصيل من اللوحات الرخامية بمحراب مسجد القيروان

ولهذا لم أر بدا من العودة إلى القيروان ، وقت منذ ثمانية أعوام بدراسة هذا المحراب دراسة جديدة وافية . وقدم لي أصدقائي التونسيون معاونة جليّة أذكرها لهم هنا بالشكر والتقدير ، وقت بنقر جدار القبلة في المسجد في

بدعة المحارب

مواضع مختلفة ، وأزلت طبقات الجير التي تكسوه في مواضع أخرى ، وتبين لي بصفة قاطعة أنه بنى من حجارة كبيرة منتظمة القطع ، تطابق في استطالتها وفي استوائها وفي حجمها وفي رصها نوع الحجارة التي بليت منها مؤذنة المسجد في الجزء الأوسط من برجها . وقد أجمع المؤرخون وعلماء الآثار على أن هذه المؤذنة أقيمت سنة خمس ومائة ، أثناء ولاية بشر بن صفوان ، عامل الخليفة هشام بن عبد الملك .

أما جدار المحراب فكان أبعد مني منالاً ، وكانت عملية تحقيقه أدق سبيلاً ، ولم يكن انتزاع لوحات الرخام بالأمر اليسير الهين ، فاكثفت بلوحتين متباعدين وتحايلنا على نزعهما من موضعيهما في حيلة بالغة وحذر شديد . فبدأ لنا جدار المحراب مكسواً بطبقة كثيفة من التراب ، قائمة اللون ، عطنة الرائحة ، وأسرعنا فنقرنا نقرات هينة وأزلنا بعضاً من الغلاف الجيري ، فتبين لنا أن حائط المحراب هذا قد صنع طرف فيه من قطع من حجارة منبعجة ، لا استواء فيها ولا اعتدال ، وأنه في طرف آخر ، قد رصت فيه قطع منتظمة من الآجر ، وأنه في بنيانه وفي مظهره وفي تكوينه لا يتصل بجدار القبلة طبيعة ولا زمناً .

لا شك في أن جوفه محراب القيروان أقيمت في غير السنة التي أقيم فيها جدار قبلته أيام بشر بن صفوان . ولا شك في أن هذه الجوفه شيدت في غير الوقت الذي أمر فيه زيادة الله ببناء المحراب الجديد ؛ فإن عناصر بنائها تنفي القول بوحدتهما الزمنية . وقد ذكر أبو عبيد الله البكري أن زيادة الله قد أولى محرابه وقبته التي تليه كل عناية ، وأنه حرص على أن تكون موادها ثمينة وصناعتها بدیعة ؛ والأمر عكس ذلك في بناء هذه الجوفه ، فهي غليظة المظهر والعنصر ، وهذا وحده يكفي للدلالة على أن هذه الجوفه لا تنتمي إلى عصر زيادة الله ، ولا بد أن تكون أقدم من ذلك عهداً .

وقيل إن هذه الجوفه شيدت خلف لوحات الرخام لتكون هذه لتلك ستاراً يزداد بها بيان نقوش اللوحات وضوحاً وإبداعاً . ولو أن الأمر كان كذلك لرعى أن يكون بناؤها منتظماً ، وأن يكون بينها وبين اللوحات فراغ فاصل متسع ، والحال على عكس ذلك أيضاً ؛ فسطح هذه الجوفه يقترب من لوحات الرخام حتى لميسها في مواضع عديدة ، فالنظر فيها لا يخترق خرومها ، والهواء

لا يبرح ولا ينفذ في فضائها ، وأنت ترى اللوحات لا تتدلى أمام هذه الجوفة في خفة ورشاقة ، فهذه عائق لوضوح جمال تلك اللوحات ، وليست وسيلة إلى إظهاره . ولا شك عندى فى أن هذا الحائط الغليظ لم يشيد خصيصاً ليكون ستاراً لهذه المنسوجات الرخامية البديعة .

كان هذا الحائط قائماً ، وكان هذه الجوفة مشيدة ، فاضيفت إليها لوحات الرخام فى عصر زيادة الله ، وكان ذلك وسيلة لأحد البناء توصل بها إلى إرضاء رغبة الأمير ، وإلى الإبقاء على اعتقادات قومه ، فاحتفظ بمحراب عقبة ، وقال لزيادة الله : « أنا أدخله بين حائطين ولا يظهر فى الجامع أثر لغيرك . »

ولسنا نحتاج إلى حجة بعد هذا لدعم هذه الحقيقة ، ولكنى أضيف إلى كل هذا حقيقة أخرى . ذلك أن القبلة ، التى هى موضع المحراب ، عنصر رئيسى من شكل المسجد وتخطيطه . فهذا الموضع يتحدد به اتجاه جدار القبلة ويجب أن يكون هذا الاتجاه عمودياً على خط يصل القبلة إلى مكة . وكان يرجى أن يكون هذا هو الواقع فى مسجد القيروان ، إلا أن اتجاه القبلة فى هذا المسجد منحرف إلى الغرب بضع درجات . وقد أخطأ أصحاب عقبة فى تحديد شطرها ، إذ لم يكونوا قد بلغوا من العلم ما يؤهلهم لدقة تحديد الجهات . وقد ذكر المؤرخون أن هؤلاء الأصحاب اختلف أمرهم فى القبلة ، ولم يحسم خلافهم إلا ما أعلنهم عقبة به من أن صوتاً من عند الله عين له موضع المحراب . ولو أن تحديد هذه القبلة وتخطيط حائط المحراب يرجع عهداً إلى خلفاء عقبة فى القيروان ، لكان أولئك الخلفاء أكثر دقة فى ذلك من أصحاب عقبة ، وأشد تحقيقاً ، ولما كانت القبلة على ما هى عليه اليوم من الانحراف عن شطر المسجد الحرام . ولو أن القوم لم يتناقلوا على تعاقب الأعوام قصة الوحي التى علق بتاريخ قبلتهم ، لقوتوا انحراف هذه القبلة وصححوا من موضعها ، إلا أن هذا المحراب لم يمسه أحد من بعد عقبة بسوء ، وظل إلى يومنا هذا محل الإجلال والإكبار .

وعلى هذه الأسس كلها نستطيع أن نقرر أولاً أن محراب عقبة كان مجوفاً ، وما قبلته إلا هذه الجوفة التى كشفنا عنها من وراء لوحات الرخام والتى يراها الناس من خلال خرومه ؛ فهذا المحراب باق منذ سنة خمسين للهجرة « على بنائه إلى اليوم » . وعلى هذه الأسس نستطيع أن نقرر ثانياً أن محراب القيروان هذا ،

فما نعرفه ، أقدم محاريب المساجد على الإطلاق . ونستطيع أن نقرر أخيراً ، أن ما نقله السيوطي من النهي عن المذابح ، لا ينصب على المحاريب ، وأن الحراب لم يكن بدعة في المساجد . وسيتبقى علينا أن نبحث الشق الثاني من حديث السيوطي ، ذلك الذي يدعى فيه أن الحراب كان من شأن الكنائس .

٢

سبق لنا القول بأن علماء الآثار رضوا جميعاً بحديث السيوطي ، والواقع أنهم ذهبوا إلى أبعد مما ذهب الرجل إليه ؛ فجزموا بصحة روايته ، بالرغم من تشككه هو نفسه فيها ، وأقروا الرأي القائل باشتقاق الحراب من مذابح الكنيسة . ولم تقتصر حجتهم في ذلك على ما جاء بهذا الحديث ، فانهم يدركون أنه بمفرده لا يصلح أساساً لإقرار مثل هذه النظرية الخطيرة ، فالتجأوا إلى غيره من المؤرخين ، ونظروا في رواية ذكرها السهمودي عن أعمال عمر بن عبد العزيز بمسجد المدينة ، ولكنهم في هذا أيضاً لم يقدرُوا هذه الرواية على حقيقتها في ونسوا أو تناسوا أن السهمودي أبعد عهداً بالرسول من السيوطي ، فأنه سنة إحدى عشرة وتسعمائة وقليل إحدى عشرة وألف . والذي رواه إلى ملك في « خلاصة الوفي » أن الوليد لما أراد أن يعمر مسجد الرسول ^ص ، وبأربعين الروم ليرسل إليه عمالاً وفسيفساء ، فبعث إليه بأربعين من ^{العمال} السهمودي عن من القبط ، وبأربعين ألف مثقال من ذهب وفسيفساء ^{أخذ} بعض المستشرقين هذه الواقعة أن عمل القبط كان بمقدم المسجد ^{بالحراب} المجوف في مسجد المدينة الرواية حجة للادعاء بأن الفضل في إحداها يرجع إلى هؤلاء القبط دون غيرهم . فهو محض استنتاج . وكذلك ما ذكره ولكن السهمودي لم يقل هذا ، ^{الراوي} نفسه يعترف بهذا الشك ، فهو السهمودي يحتمل الشك ، بل إن هذا صحيح ، وقد تكون الرواية التي تمسك يروي ثلاث روايات ، على أن إحداها مغالاة . فالرواية الأولى نقلها السهمودي بها المستشرقون أشد هذه الروايات التي ذكرناها ، والرواية الثانية نقلها عن عن يحيى بن قدامة بن موسى ، وثبت إلى الوليد « بأعمال من فسيفساء وبضعة ابن زبالة ، وهي أن ملك الروم »

وعشرين عاملاً ، ، والرواية الثالثة أنهم كانوا « عشرة عمال » وقال عنهم ملك الروم إنهم « يعدلون مائة » .

فهناك خلاف إذن في عدد العمال ، وهناك خلاف أيضاً في جتسييتهم . وجدير بنا أن نذكر أن السهمودي يكاد ينفرّد بذكر رواية القبط ، ولم يشاركه في نقلها كثير من كبار المؤرخين والثقات الذين نقلوا تاريخ مسجد المدينة ودقائق تطوراتها ، كابن سعد ، واليعقوبي ، والطبري ، والبخاري ، وابن بطوطة وغيرهم . وإذا افترضنا جدلاً صحة رواية السهمودي ، وسواء أكان القبط يشتغلون في بيت الصلاة ، أم في بهو المسجد ، فانهم كانوا فعلة فحسب ، يشتغلون تحت إشراف رئيس مسلم اسمه صالح بن كيسان . وليس من الجائز أن فعلة من الأجانب يبدلون من نظام أول مساجد الإسلام وأكثرها اعتباراً . وأعود فأسجل مرة أخرى ما ذكره السهمودي نفسه من أن عمر بن عبد العزيز ، لما بلغ هدم محراب مسجد المدينة « جعل لا يترع حجراً إلا وضع مكانه حجراً » . فمن المغالاة حقاً أن نحمل نصوص التاريخ أكثر من طاقتها ، وأن نمزج الخيال بالحقيقة ، وأن نمزج بالقبط فيما هم براء منه .

ويمكنني كل هذا للدلالة على أن ما يستخلصه علماء الآثار المستشرقون من رواية السهمودي زائد عن الحد . فإن اشتغال صناع في بناء مقدس لا يؤدي حتماً إلى إحداث عنصر فيه ، وخاصة إذا كان هذا العنصر رئيسياً في نظام هذا البناء ، إذ أن المحراب ، كما يعترف المستشرقون أنفسهم ، أكثر مراكز المسجد تقدساً ، وأولها بالإجلال ، حتى إن لفظ المحراب يطلق مجازاً على الصدر في المجلس ، فيقال في اللغة المحراب أشرف المجالس ، وهو حيث يجلس الملوك والسادات والعظماء . ولعله اختير في الإسلام لما كان يعبر به في الجاهلية عن أسمى المباني ، تلك التي أقيمت خصيصاً للملوك .

ولنعد إلى حديث السيوطي ، وإلى ما زعم فيه من علاقة المحراب بمذبح الكنيسة ، وإلى ما قد يصل بين العنصرين مبنى ومعنى . والثابت أن النقل والاقتران في الفنون وفي العمارة ، لا يتمان شفوياً ، بل إن الحاجة هي التي تدفع الناقل إلى نقل ما يريد أن يستعين به في قضاء حاجته ، والغاية هي التي ترسم للمقتبس طريق ما يرجو به تحقيق غايته . والغاية أو الحاجة في هذا أهم من

الأصل ، والفكرة أبدى من الصورة . فالفكرة التي تنقل الشكل لغير ما وضع له ، أحق بالتقدير من الشكل نفسه . والثابت أيضاً أن لمذابج الكنائس وظيفة غير التي لمحارب المساجد ، وأن هيكل الكنيسة وضع لغير ما وضع له محراب المسجد ، وأن كلا منهما يؤدي في بنائه وفي موضعه وفي شكله غاية مختلفة ، متباينة ، منعدمة الصلة والموضوع بينهما . وإذا كان اختلاف الغاية لا يستبعد فكرة الاشتقاق ، فهو على الأقل يفرق بين الفضل في الاقتباس ، والبداهة في النقل . والمعروف قطعاً أن المعنى الذي يتركز في هيكل الكنيسة أو في مذبحها بعيد كل البعد عن احتمال إحياء المعنى الذي يتركز في المحراب .

أما في مبناه ، فالمحارب يختلف شكلاً عن هيكل الكنيسة . فهذا فناء كبير في صدر الكنيسة ، يتسع على الأقل لمنضدة توضع عليها معدات الشعائر والمراسيم ، وفضاء كبير ، يذهب القائم بهذه الشعائر ويحيى فيه ، في فسحة من الزمن والمكان . أما المحراب ، فهو جوفة في حائط تضيق بغير الإمام ، بل تكاد تضيق بالإمام نفسه في ركوعه وسجوده وجلوسه . فليس في مبنى العنصرين ، المحراب والهيكل ، كما لم يكن في معناهما ، صلة أو ارتباط .

ومع هذا فما الذي كان يدعو بناء المساجد أن يقفوا في تأمل أمام هياكل الكنائس ، فيرسموها ويحوروها ويصغروها ، ويخرجوا منها بناء قريباً لها أو بعيداً عنها ، وشيئاً لا صلة له بها وهو المحراب ؟ ما الذي كان يدعوهم إلى هذا وفي الصحارى التي عاشوا عليها مغارات توحى فتحاتها بأشكال المحارب ، وفي الجبال التي اجتازوا بها ، في الشام وسيناء وإفريقية ، فجوات كأنها محارب قطعت في جدران القبلة ، وفوق هذا وذاك كانت آثار الرومان والفرس تمتد وتنتشر في البلاد التي فتحها العرب ، وكانت تعرض على بناء المساجد طاقات صغيرة ضيقة مجوفة لا تختلف في شيء كثير عما اتخذته أشكال المحارب ، وكانت هذه الطاقات فارغة تبين أوضاعها جملة وتفصيلاً ، أو كانت تظل تمثالاً واقفاً كأنه الإمام يتوجه إلى المصلين قبل أن يولي وجهه نحو القبلة للصلاة . بل إن الباحث قد يجد إلى هذا في الكنائس المسيحية الأولى نفسها شكلاً أقرب من هنا كلها إلى إحياء شكل المحراب . غير أننا سنرى بعد قليل أننا لا نستطيع أن نجزم على ثقة ويقين بأصل معماري أجنبي للمحارب ، وأنه ليس في مراجع التاريخ ، وليس في آثار العمارة التي سبقت الإسلام ، تفسير صحيح لشكله .

وكل هذا يدلنا على أن الحديث الذي أثبتته السيوطي ، حديث ينقصه السند ، ويرفضه النقاش . وكذلك يدلنا على أن الحقائق تنقض ما ذكره السهمودي ، أو أن الشك ، على الأقل ، يحوم حول روايته . وإلى هذا فقد عاش هذان المؤرخان في عصر جد بعيد عن الحوادث التي ذكرها ، والتي لم يشر إليها مؤرخ آخر غيرها أقرب منهما إليها ، وأجدر منهما بالثقة ، بل ينقصها كثير غيرها من المؤرخين . ولهذا فإن الادعاء باشتقاق المحراب من الكنائس لا يقوم على حجة ثابتة ، ويفتقر إلى البرهان ؛ فالحقيقة تنكره قطعا ، والتاريخ يرفضه بتاتا .

أقول هذا في ثقة لا يتطرق إليها فتيل من الشك ، وأقوله في قوة تستند على دعيمة من البناء ، معنى لا مجازا ، دعيمة ظلت راكزة في الأرض منذ أقيمت سنة خمسين للهجرة ، وحتى يومنا هذا ، وأقوله في صدق أقره التاريخ منذ أكثر من ألف عام ، ولم توهنه بعد ، حجة جدية ، أو ادعاء قوي .
يخيل إلى أن ما انتهيت إليه من نقض حديث السيوطي ، وما قيل في بدعة المحارب ، يتطلب المزيد من البحث لإيضاح أمرين : يتصل أحدهما بنشأة حديث السيوطي ، ويتصل الآخر بنشأة المحراب نفسه .

والواقع أن الحيرة تأخذنا حقا في إدراك السبب الذي حمل السيوطي أو محدثه ، على خلق حديث مثل الذي شغلنا ، مع ما فيه من اختلال واضح ، وركاكة ثابتة . وأخشى أن يخرجني البحث عن حلقة التاريخ وموضوع الآثار ، ويجرني إلى دراسة في فقه الدين والتفسير لا قبل لي بالمضي فيها . ولكني أعتقد عن يقين أن تطورا فقهيا قد أصاب علماء الدين في القرنين التاسع والعاشر الهجري ، وأن أحوال مصر الاجتماعية والسياسية قد دفعت كثيرا منهم إلى نوع من الزهد ، ودفعت البعض الآخر إلى التحايل على إنكار صلاة الجماعة ، وإلى وضع الأحاديث وضعاً يمكنهم من إثبات ما كانوا يسعون إليه ، أو ينزلهم مكانة أسمى من العلم بما كان زملاؤهم به جاهلين ، حتى إن أحدهم ، وهو ابن الحج ، ذكر في « المدخل » ، أن المحراب أقل أجزاء المسجد جلالا ، وحرم على الإمام أن يأخذ مكانه فيه ، مع ما في هذا من خلاف لما أجمع عليه الناس من تقديس المحراب . والظاهر أيضا أن علماء الدين حينئذ ، بل فيما قبل ذلك بزمان طويل ، كرهوا المغالاة في زخرفة المساجد ، فإنها فيما ظنوا تشغل المصلين عن الصلاة ،

ورخرفة المحراب تشغل الإمام ، وهذا أدهى وأكثر فحشا ؛ فلم ير السيوطي حرجا من أن يشبه المحراب بالمذبح ، من حيث بهرجهما ، ومن أن ينهى عن هذه الزخرفة ، ويجعلها ، كما رأينا ، من أشراط الساعة .

يتبقى علينا البحث في أصل المحراب وفي فكرة إنشائه . ويجدر بي أولاً أن استعرض رأيا في اللفظ نفسه . فقد كان المحراب لفظاً يستعمله العرب قبل الإسلام للدلالة على بناء أقيم لملك من الملوك . وبهذا المعنى جاء ذكر هذا اللفظ في أشعار امرئ القيس والأعشى وفي المفضليات . وهو في القرآن يؤدي معنى آخر لا صلة له بالقبلة أو بالمسجد . وهو على كل حال مصطلح لجزء من البناء ، غرفة كان أو قصرا . وقيل في كتب اللغة محراب المصلى مأخوذ عن المحاربة ، لأن المصلى يحارب الشيطان ويحارب نفسه بإحضار قلبه . وهذا تفسير ، إن أرضى علماء الدين ، لا يرضى المؤرخ وعالم الآثار . وقد ذكرت في سياق الحديث عن محراب عقبة في القيروان ، أنه حين حدد اتجاه القبلة ، ركز لواءه في مكانها ، وأبان موضع المحراب من مسجده . فهل كان هذا اللواء حربة من الحراب ، فلما ركزها في ذلك الموضع ، سماه القوم بالمحراب ، اشتقاقا من الحربة ، فسارت هذه الكلمة في اللغة للدلالة على مركز القبلة ، لست أدري أيجوز هذا التفسير لغة ، ولست أجزم بصحته ، وهو على كل حال موضوع بحث جدير بعناية علماء اللغة .

أما نشأة المحراب باعتباره عنصراً معمارياً من بناء المسجد ، فترجع في نظرنا إلى ابتكار أملتته الضرورة ، مثله في ذلك مثل المسجد نفسه ، الذي تكونت نظمه ، وتشكلت هيئته من واجبات الصلاة وفروضها وسننها ، ومن عادات العرب وطبيعة بلادهم . والمحراب ينسجم شكله مع شكل المسجد ، بل هو المركز الذي تتفرع منه خطوطه ، وتتشعب منه اتجاهاته .

وإذا كان التاريخ لا يرشدنا إلى المصدر الذي اشتق عقبة منه شكل محرابه في القيروان ، ولم يبين لنا كيف ابتكر هذا الشكل ، فقد لانعدم حيلة في استنباط الرأي وتحليل الفكرة .

والمحراب لا يقصد به الدلالة على اتجاه القبلة فحسب ؛ إذ لو كان الأمر قد اقتصر على هذا لاتخذ المحراب أى شكل آخر ، فلم يكن هنالك ما يدعو إلى

بدعة المحارب

تجويفه ، وكان يمكن أن يستعاض عنه بأى شىء يكون منه ميزة للقبلة ، كقطعة من الحجر أو لوحة بارزة ، أو علم ، أو ستار ، أو جذع نخلة ، أو وتد مثل ذلك الود الذى كان يتكىء عليه الرسول فى محرابه الأول . ولهذا فليس فيما اتخذه المحراب من شكل مجوف غضاضة أو بدعة أو شرط من أشرط الساعة .

غير أنى أعتقد أنه كان هناك فوق هذا سبب قوى آخر دعا المسلمين إلى اتخاذ هذا الشكل المجوف ، أو إلى ابتكاره . فإننا نعلم أن المصلين كانوا ، وما زالوا ، يصطفون للصلاة فى المسجد صفوفاً مستقيمة موازية لجدران القبلة ، مؤمنين بإمام منهم ، ونعلم أن الإمام يقف منعزلاً فى صدر المسجد ، ويحتل من بيت الصلاة لنفسه وحده ، صفّاً طويلاً بأكمله . فإذا أدركنا أن الصف الواحد فى مسجد القيروان يتسع لمائتين من المصلين وأن المصلين كان عددهم وافراً حتى كانوا يملأون بيت الصلاة وهو المسجد وزياداته ، بل كان يضيق بهم كل هذا فيصطف الكثير منهم للصلاة خارج المسجد فى قاعة الطريق — إذا علمنا كل هذا أدركنا أنه كان من الحيف حقاً أن يحتل الإمام صفّاً واحداً لنفسه ، ويدفع بمائتين من المصلين خلفه إلى صحن المسجد يؤدون صلاتهم فى غير مأوى من القىظ أو المطر أو البرد .

وفى رأينا أن هذا كله لم يغب عن عقبة وأصحابه ، وأنهم ابتكروا المحراب المجوف حتى يدخله الإمام فى صلاته ويتسع الصف الذى كان يحتله هو وحده لمائتين غيره من المصلين ، فينفذوا من العراء إلى بيت الصلاة ، ويستظلوا بعروشه .

فكرة المحراب هذه بسيطة بحيث لا تتطلب ، فيما أرى ، عناء البحث فى صلتها بالمذاهب ، ولا يستقيم معها الحديث الذى طلع به علينا السيوطى عن « بدعة المحارب » .

أحمد فكرى

صفاء الحب

[أعيدك يا قارئ أن تشتط فتتسب هذه النفثة الحرى
إلى الغلو ، فانما تند أمثال هذه الخواطر من فؤاد متبول ،
لا يعرف الحب إلا مصوناً لا ترقى إليه الشبهات ، ولا
الحبيب إلا ملكاً عند الطهر حول هامته هالات ، ولن
يمز عليك أن ترى فى الناس من يؤثر حبيبه هذا الا يثار
مادام فيهم ملك يتخلى عن عرشه فى سبيل الاحتفاظ
بقلب ، وشاعر عف يحتم عليه وفاؤه أن يوتئ دن يهوى
حرمت التقديس .]

لم أنا عن مى سلوانا ولا تبها . فى معبودتى من بعد باربها !
وليس فى الحب من تبه ومن صلف ، لدى صيد أبى النفس طالها !
يتيه دلاً خلى القلب مُطْلَقُهُ ولا يتيه أسير الروح عانها ،
إنى أراعى عهد الحب صادقة إن كان ثمة غيرى لا يراعها ؛
لو أبعدونى عن مى لاسلوها وبث عنها قصى الدار نائها ،
وتوَجُونى ملكاً لا شريك له فى العرش ، يحكم فى الدنيا وأهلها ،
ورقرقوا الخلد فى أرجاء مملكتى وسلسلوه على شتى نواحها ،
وأرسلوا الحور أصباحاً منورة وضياء الحسن تسبي قاب رائها ،
تموج بالرونق الضاحى وبهجته نشوى مموهة بالسحر تموم ،
مجنحات المغانى رهن مطلبها وحاليات الأمانى رهن أيديها ،
وعللتنى بالآمال قاطبة وألهمتني دون الناس تآلها ،
آيت إلا مهاة لا تمادها الد (م) نيا ، ولا الملا الأعلى يوازيها !
فى راجحة عندى على الملا الآ على وما فيه ، والدنيا وما فيها !

صفاء الحب

فأيتُ عنها وفي الأحشاء كَجَمْرَةٍ
قالوا النوى تطفىّ الأشواقَ، ويجهّمُ
ما العاشقون سواء في تولّهم
وليس من يدعى الأشواقَ عن وَطَرٍ
شطّ المزارُ بجسمي عن مرابعها
بالله يا روحُ إتما عزّ مؤنسها
فرهة الليلة الليلاء تؤلمها
ومن تكن مثل مَيّ في نعومتها
البعدُ يُضرّها والشوقُ يذكّيها !
فنارُ قلبي زادتُ في تلظّيها !
ولا النفوسُ سواء في تفانيها !
كمن يكابدُها أو من يُعانيها !
وظلّت الروحُ رُوحِي في مغانها !
وارفض من حولها السّمارُ سلّيا ،
ووحشة الظلمة الدكناء تشجّيا
فإنما أطفُ الأشياءُ يؤذّيا !
يا مَيّ إنّ النوى ليست تغيرُ من
شهرٌ . . . وترجعُ أيامُ اللقاء لنا
حبّ الشريف وإن أربت عواديها
زهراء نعيمُ في ضاحي لياليها

ميروج ملسني

[بيروت]

على الهامش

وفي الصميم

أؤكد للقارئ وإن شاء أقسمت له أنني مخرج كل الإخراج وأنا أكتب هذا المقال خشية أن أمس زملاء وإخوانا وأصدقاء ، تربطني بهم روابط عدة تتفاوت تراخيا وتتفاوت إحكاما ، ولهم جميعاً على حرمة الزمالة والأخوة والصدقة ، وفي عنقي لبعضهم دين من تعليم وثقيف واقتدار . وقد تتلمذت على بعضهم فيما يجب أن ينسبه إلى أستاذي الجليل الدكتور طه حسين بك من دقة ، وتأثرت ببعضهم في تكويني الأدبي وبعضهم الآخر في تقرير منهاجى في الحياة . هذا فضلهم وعلى الأصح بعض فضلهم على ، فلعله لا يكون فيما أكتب مساس بصاحب فضل وإن كنت أحرص ما أكون على كرامة الكتاب بوجه عام لا أعرض إلا لمن تهون عليه كرامة الكتاب .

قبل نيف وربع قرن كان واسطة التحاق بالصحافة وممتحنى فيها صديقى الأستاذ المازنى . ذلك أنى أبيت أن أدخل فيها قبل أن أجوز امتحان الدخول . وكان إلى جانب الأستاذ المازنى فى ذلك اليوم صديق له مرشح منذ أشهر للعمل بالصحيفة عينها ، فلم يتردد الأستاذ فى نسيان صديقه ساعة امتحنى ، ولم يتخرج من إعلان نجاحى ، وكان أن حلت محل هذا الصديق المرشح . ولا أدري على التحقيق أشق ذلك على الأستاذ المازنى ، لكن الذى أعلمه علم اليقين وأحسه إلى الآن من الأعماق أنه جاز معى فى ذلك اليوم امتحانا آخر ونجح فيه وكنت أنا ممتحنه فى الإنصاف . وقد سرنا فى الترجمة سيرة كنت اتخذها فيها مثالا ونبراسا ، وكانت بعض كبريات الصحف إذ ذاك تنقل ما تترجم أو على الأرجح ما يترجم من البرقيات بالحرف دون إشارة توفيراً لوقت محرريها وثقة منها بجريدة الأخبار التى كان يحررها آنئذ المغفور له الطيب الذكر أمين بك الرافعى .

ويخيل إلى أن أمور الترجمة لم تكن إذ ذاك فوضى كما هى الآن أو كما اعتقد

أنها الآن . فقد كان الجهد المبذول فيها خليقا بالجبايرة ويكاد أن يكون لونه
الله . وكان الأجر المعروف فيها كالصدقة يعطاها السائل ويطلبها « الله » :
عشرون جنيها في أربعمئة صفحة من القطع المتوسط تزداد للسبق الخاذق عشرة .
ومع ذلك لم يفكر كثير من الكتاب في الحيد كثيرا عن قواعد الترجمة
وإهدار الأمانة في النقل إذ ذاك . واليوم وفي سني الحرب التي كانت إلى أمس
تفتحت آفاق المادة والكسب لكل من دب على هذه الأرض وهب ، فكان
لطاقمة كبيرة من الناشئين جولات العدائين في هذه الآفاق والميادين ، وكانت
مجموعة من الترجمات ترحم الرفوف وتندب بالتضخم . والغرب الذي تترجم عنه
غافل عما في كثير منها من التمثيل به والتشويه لآثاره . فما تزال الصحف والمجلات
تطلع علينا كل يوم بكتب ملخصة في صفحة ، وقصص ملخصة في أعمدة ،
ونعوت جديدة لهذا التلخيص ، يدخل تحتها ما يسمى بالشرح وما يسمى بالتضمين .
ومن الكتب الملخصة في صفحة واحدة من صفحات الجرائد كتاب مشهور
يقع في أصله الألماني في قرابة ثمانمئة صفحة بالبنط الصغير . والصحف والمجلات
هذه الأيام يجارى بعضها بعضا ، لا تعرف الاستقلال في الطابع واللون بقدر
ما تؤثر المحاكاة ؛ فإذا ظهرت العناوين في جريدة بالأحمر والكليشيات لم تلبث
أن تظهر في البقية بالأحمر والكليشيات ؛ وإذا حلت واحدة صدرها بغادة
فتانة قامت المباراة بينها في عرض الغادات .

وقد كان في سالف الزمان عندنا مسرح وتمثيلات . وكان ما يقع في محيط
الغرب ينتقل إلى محيطنا الشرقى ممصرا ، فتحذف الأسماء الأعجمية وتحل محلها
أسماء عربية ، وتعرض علينا دون مراعاة للظروف والأحوال ، بيئة لا هي شرقية
ولا غربية ، ولكنها بيئة مغرايبة . ولا على التمثيلية بعد ذلك مما فيها من مسخ
وما يغلب عليها من صفة الانتحال ، فكله « صابون » . وقد قامت شهرة بعض
روائيينا المسرحيين على هذا النوع من الأساس وهذا الضرب من المسوخ .
ويعترف بعضهم صراحة بأنه كان يفعل هذا . ولا شك أنه كان يفعله كدرجة
أولى في سلم الشهرة وذيوع الصيت بين الجمهور . ثم نشأ جيل من القصصيين بارع
حقا فيما يعرض على الجمهور من تأليف تلمس فيها « اليسر » لا « العسر »
والمطاوعة لا المشقة ، إذ تحوّر القصص الأجنبية بعض التحوير وتمصّر على
القرار السابق ، لتبرز في حلة محلية يعود منها محورها بفضل التحوير ووزر

التزوير ، ثم هو إلى ذلك مأجور أعظم الأجر بما فاز به من ابتكار تم له بوضع اليد . وأحسب أن هذا الجيل ما يزال بخير ، وما يزال فيه أفراد في الذروة يشار إليهم بالبنان ، وإن كانت هذه البنان ترتعش حين تشير إليهم ، من الانفعال .

وهذا السطو «المشروع» ، ما برح يتخذ أشكالا «مشروعة» أيضا . من ذلك أتى كنت أتندر مع كاتب كبير فقصصت عليه نادرة سمعتها بدورى من غيرى ، فلم يمر أسبوع حتى كانت الحكاية كلها قوام قصة فى مجلة أسبوعية كبيرة ومورد أجر كبير . وقد أصاب الكاتب بها عصفورين من ذهب : الأول أنه سيقر فى الأذهان أن صاحبنا الكاتب الكبير مبتكرها ، والثانى وهو الأهم أنها ضمنت له رزمة محترمة من ورق البنكنوت على أهون سبيل . وليضحك بعد ذلك من يضحك ، وليسخر بعد ذلك من يسخر ، فمع كاتبنا الكثرة من القراء ، وعارفو القصة الأصلية نقر قليل .

وكتاب الغرب مساكين حقا ، فإن النهضة التى تغترف فى الشرق من عيونهم توشك أن تسمم هذه العيون . فهذه مجلة فلسطينية تنشر قصة للكاتب الدينامركى الأشهر هانس أندرسن بعنوان يستبهم على بعض الشئ وأنا مترجم أقاصيصه . فحين أشرع فى استجلاء القصة هذا العنوان . أنتقل من غموض إلى ما هو أغمض ومن بهمة إلى ما هو أشد إبهاما . وأخيراً أعر على شئ فى القصة يدلنى على أصلها . ذلك أن ما نشر لم يكن لأندرسن وإنما مشيدة أو تلفيقة تستند إلى أساس من أندرسن . هذه جريمة نكراء شوه فيها جسم حى فانقلب جثة هامدة يضنى المحقق الاستدلال على صاحبها ، ويعي عارفيه التعرف عليه . لكنه يهتدى آخر الأمر إلى شئ يدل عليه . ويأتى كاتب مصرى إلا أن يسيء إلى القصصى الدينامركى بالذات حتى لا يبيذه الفلسطينى ، وينشر له قصة فى إحدى مجلاتنا المحترمة من دون أن يشير إليه أو يشعر القارئ بأنها مترجمة ، ثم يذيلها بتوقيعه . أين ؟ فى نفس المجلة التى صدرت أقاصيص هذا الكاتب عن دارها . الحق أنه ليس أهون هذه الأيام من عملية المسخ ، لأنها فى الواقع أهون شئ يستطيعها الطفل الأخرق ، ويستطيعها المثقف الرشيد ولا يتورع . فباب الكسب المشروع وغير المشروع مفتوح على مصراعيه ، والكتاب كثيرون يتسابقون ، والقصة راحة تذييل الصحف اليومية وكانت إلى عهد قريب خلوا منها .

في كل يوم قصة غربية ملخصة في غير صحيفة . والأذى الذي يلحق القصة الأصلية من هذا التلخيص الذي لم يأت لغرض يقتضيه وإنما جاء لذاته أذى كبير . فإن كثيراً من الكتاب لا يتردد طويلاً عند الصعب من التعابير فيلخص الصفحة كلها أو يختصرها ، ويتبادى في هذا ويسترسل فيرق الكتاب على يديه ويتهلهل ويكاد يصبح خرقة .

وهذا بالذات ما أريد التعرض له والمعارضة أثناء ذلك بين ما يقع فيه عندنا وما يقع في الغرب . فقد أتيج لي أخيراً أن أقرأ شيئاً واحداً بلغات أربع هي الألمانية والإنجليزية والفرنسية والعربية . واستغفر الله أن يتبادر إلى الذهن أنني أتقن هذه اللغات الأربع ، فقد يتسامح معي في اثنتين منها وأعود من واحدة بنصيب متواضع ومن أخرى بحظ ضئيل . لكنني استطعت مع ذلك أن أزعم فهم ما قرأت من هذا الشيء بهذه اللغات الأربع والإشارة إلى ما تعرض له من تشويه . والذي أحب أن ألفت إليه بصفة خاصة هو أن الضمير الإنساني فقد من سلطانه على النفوس الشيء الكثير ، وأنه في بعض الأنفس بسبيل الاحتضار ، إن لم يكن اتخذ في العدم المحل المختار .

ونبدأ بالمقابلة بين ما جاء في بعض ترجمات هذا الشيء أو هذا الكتاب الذي ترجم إلى أكثر من خمس عشرة لغة أجنبية . ففي أصله الألماني عن مدام دي ستال ونابليون : « ولو لم تتغن في عالمها المتشيع لروسو بالفضيلة والطيبة اللتين لا يحتاج إليهما حاكم بأمره ، ولو تنبأت بالهدف الذي يرمى إليه [نابليون] وهو ما لا ينكشف يقيناً إلا عند الإشراف على نهاية الطريق ، لبقى لها نخر تبين العبقرى قبل غيرها . » والجملة هنا شرطية ومعناها أن مدام دي ستال لم تعد بفخر تبين العبقرى في نابليون قبل غيرها لأنها كانت تتغن في عالمها المتشيع لروسو . الخ . فيأتي مترجم غربي فيفهم الأصل الألماني على النحو الآتي : إنها تتحرك في عالم روسو ، عالم الفضيلة والطيبة اللتين لا يمكن أن يعياً بهما ديكتاتور ، ومن ثم لا تستطيع أن تتحمس لبونايرت . لكنها مع ذلك تبين هدفه الذي لم يكشف إلا حين أشرفت سيرته على الختام . فإليها يرجع الفضل في أنها كانت أول من تبين العبقرى ، وهذا تقيض ذاك على خط مستقيم . ولتبيان علة هذا التناقض بين الأصل والترجمة لا بد من إلقاء درس في الأفعال الألمانية ليس هنا مقامه ولا مجال شرح صيغها المعقدة وتبيان ما يستعمل منها

وفي الصين

في الشرط بأنواعه وما لا يستعمل . إنما أريد مجرد التنبيه إلى ما بين الأصل والترجمة من فرق جوهري يجعل منهما تقيضين . فإذا فعل مترجم عربي لذلك الكتاب ؟ أدى الأصل الألماني بهذه العبارة :

« والبارونة ستائيل تلك قد أغفلت مع ذلك ذكر مجد بونايرت وهدفه الأسمى الذي لم يتضح أمره إلا في آخر عمره » .

وندع للقارئ الحكم على مبلغ مطابقة هذا الكلام للأصل أو مغاييرته له . ولكننا ننبه إلى شيء لحظناه في الترجمة العربية ، وهذه الجملة مثال من هذا الشيء . إن المترجم العربي للأسف الشديد خبير بفن الاستخلاص كما لاحظ الأستاذ الجليل الدكتور طه حسين بك ، فهو يضع أمامه تراجم ثلاثا لشيء واحد ويقابل بينها ، فإذا تبين اتفاقا بينها نقل من أيها ما يحلو له ، وإذا تبين اختلافا استخلص من الترجمات الثلاث عبارة مقتضبة تنقذ الموقف في رأيه ، وغاب عنه أن هنالك أصلا ألمانيا يمكن من شاء الرجوع إليه . وحسبنا هذا في الاقتباس فما نحب أن نزهق القارئ أو نثقل عليه ، وإن كنا مضينا في التحقيق إلى آخره فلم نترك شيئا يمكن أن يدل على الطريقتين لم تثبت منه : الطريقة الغربية والطريقة التي يسير عليها بعض الشرقيين من ذوي الأسماء الرنانة التي تظهر وتختفي في طليعة كل نشر أدبي وفي عقبه نازلة في الفنادق الكبرى ومزايلة لها .

فالذي نريد أن ننوه به خاصة هو ذلك الجهد الباذي في محاولة الأمانة في النقل في التراجم الغربية حيال هذا الاستخفاف الظاهر بهذه الأمانة في الترجمة الغربية . فبينما نلاحظ أن الترجمة الانجليزية على سبيل المثال تحافظ ، فيما خلا هتات وأخطاء هنا وهناك ، على روح المؤلف وأسلوبه ، نجد تلك الترجمة العربية التي أسلفنا الكلام عنها بمنأى عن هذا الجهد ، طعنة كل العجز عن تتبع المؤلف في آفاقه ومواطنه ، لأنها لا تعرفه ولم تتصل به رأسا ، بل اتصلت به بالواسطة ، ولم تحفل فوق ذلك بهذه الوسطة الاحتفال الواجب .

لقد يعسر تعبير بعض المؤلفين عسرا . يعذر المترجم من إساءة الفهم والخطأ في الأداء إلى حد كبير . فما هو مكلف بجلاء ما لا ينجلي وتيسير العسير ، لكننا هو مطالب بأن يحاول ذلك ما أمكن ، فإذا استعصى عليه المعنى استوضحه أهل العلم ، فإذا لم يجد غناء كان في حل من أن يترجم على قدر اجتهاده ، وأن يشير في هامش إلى هذا العسر إذا لم يطمئن إلى ما ترجمه . والرقيب على هذا كله

وفى الصميم

هو ضمير الكاتب ، فإذا لم يأبه الكاتب أو المترجم بصوت الضمير ولم يذعن لرقابته فليس لنا عنده شيء ولا ينفع تنبيهنا فيه . ومثل الناقل الدليل الضمير لا يلبث أن ينكشف ، وانكشافه هو أقسى عقاب يلقاه . وليس من الأمانة في النقل أن يكتفى مترجم بعبارته : « آثار الجماهير » تأدية لعبارة : « آثار الجماهير المحرومة الامتيازات من أعماقها الساخطة » . وليس في هذا الأصل غموض ولا إيهام ، ولكن وضع كلمة الامتيازات في الجملة الألمانية قد يحير قليلاً ، فلم يتوافر للمترجم ذوق اللغة التي يترجم منها حار في الفهم . لكن ما عذره في إغفال « من أعماقها الساخطة » وهي واضحة في الأصل ؟

والقدرة على الوصف من مميزات الكاتب ، بما في ذلك شك . وهي محك إجادته والدليل الأدل عليها ، فالأدب تعبير . فإذا رزى الأديب الوصافة بمترجم لا يحسن أداء الوصف على حقيقته بل يخلط بين ظلاله ولا يدرك فروقها التي يبلغ من دقتها أن يحسبها المترجم غير الدقيق مترادفات — إذا رزى الأديب الوصافة بمثل هذا المترجم فأكبر الظن أنه فاقد على يديه قيمته ، مجرد على يديه من كل ما يحسنه في صورة شوهاء تترجم فيها الأوصاف كيفما اتفق ، متجاوزاً فيها عن الخطوط الأساسية والملامح المميزة استناداً إلى أن القارئ العادي قلما يكلف نفسه غناء التدبر ، وأنه يلتهم الحوادث التهاماً من دون عناية بالتفاصيل أو التفات إلى ما يكون على حواشي الحوادث ، وأنه يمر بكل ذلك مر الكرام ولا يتأمله بحال . وفي ظني أنه ليس مما يسر الكاتب الذي يحترم نفسه أو المترجم الذي يحترم نتاج المؤلف أن يقتصر قراؤه على العاديين منهم ولو كانوا الكثرة الساحقة .

ومن العيوب التي يقع فيها المترجمون عن قصد حسن ، ميل بعضهم إلى تكملة ما يروونه نقصاً في الأصل أو تصحيح ما يجدونه خطأ في الوقائع أو التواريخ . ولا بأس من ذلك إذا ضمنه المترجم هامشاً أو نص عليه بين قوسين ليبدل على أنه من وضعه هو لا من وضع المؤلف . بيد أن الكثيرين يثبتون من عند أنفسهم ما يرون إثباته في صلب الترجمة ذاته . وقد يكون ما يرون إثباته شيئاً لم يغفل عنه المؤلف ولم يعبأ بإثباته ، كذكر اسم تعمّد ألا يورده ، أو مسلك بعينه تجاوز عن الإشارة إليه ، أو تفصيل لم ير حاجة إليه ، فإذا بك تقرأ هذا كله في صلب الترجمة على أنه من عند المؤلف ، والمؤلف براء منه لا يحمل تبعته .

مثال ذلك أن ترد في كتاب «نابليون» لا ميل لودفيج عبارة «الملك أسير» فيقابلها في الترجمة الإنجليزية هذه العبارة : « وشرع الملك لويس السادس عشر في الحرب فضبط في قارين وأعيد . » وهذه واقعة وتفصيل قد يفيد القارئ الذي يجهله أن يعرفه بل هو يفيد على التحقيق ، وكان يمكن إثباته في هامش ، فما يدور بالخاطر أن المؤلف يجهله ، لكن القوة الدرامية التي تبدهك من عبارة « الملك أسير » كانت آثر عنده من التفصيل .

وتلقى الجمل الاصطلاحية على أيدي بعض المترجمين إهمالا شديدا . وعذرهم من الخطأ فيها لا سبيل إلى تجاهله ، وإن كان شيء من العظنة خليقا أن ينبه المترجم إلى ضرورة التثبت والتحرى . وهناك جمل تعذر المترجم كل العذر بخاصة إذا كان الكلام فيها عن جندي كنابليون وعن خنادق . ففي اللغة الألمانية اصطلاح معناه الحرفي : ألقيت بنفسي في الخندق . ومعناه الحقيقي « ألقيت يدي إلى التهلكة . » أو « أوردت نفسي موارد الحتف . » فإذا ترد هذه العبارة على لسان نابليون يترجمها مترجمها « ولطالما خاطرت بحياتي في الخنادق . » والخنادق هنا زائدة كما يرى القارئ ، والمعنى يستقيم ويتم بدونها ، وكان المترجم خليقا أن يهملها لو فطن إلى أن ما يترجم اصطلاح لا جملة عادية . والسوابق التي تسبق الأفعال في اللغات الغربية تسبب للمترجمين متاعب وتوقعهم في ارتباكات كانوا خلقاء أن يتفادوا منها بالتثبت . وهي في اللغة الألمانية مصدر عناء حتى للمتضلعين منها . من ذلك كلمة abtun ومعناها خلع و antun ومعناها لبس . وقد خلط مترجم بينهما وكان الكلام عن ثوب نابليون العسكري وأنه سوف يخلعه مرات في حياته ، ففهم المترجم الجملة على أن نابليون سيلبس هذا الثوب مرات في حياته . وإذا استبعد أن يكون هذا شأن نابليون الجندي الذي لا يكاد يخلع هذا الثوب لم يفرض خطأ هو والتباس الكلمة عليه ، لكن ظن أنه يخلص من هذا الإشكال بإضافة « كثيرة » إلى « مرات » لتكون الجملة : « وسيلبس هذا الثوب في حياته مرات كثيرة » فأوقع نفسه في إشكال آخر .

ومن السوابق الألمانية سابقة ent التي تسبق الفعل فتخلق منه تقيضه . فكلمة binden ومعناها « ربط » إذا سبقتها ent أصبح معناها « حل » . ولكن هذه السابقة لا تخلق النقيض كما هي الحال في كلمة entschwinden .

وفي الصميم

ف فعل schwinden بدون هذه السابقة معناه تضاعف واختفى ، ومعنى entschwinden كذلك « اختفى » . وفي كتاب « نابليون » :
« وبينما هو يتلفت إذا بصره يقع على سلسلة من الجبال يعرفها تختفى في الزرقة عن الأنظار . »

وما دامت كلمة entschwinden هي الواردة فهي في نظر المترجم عكس schwinden وضد الاختفاء الظهور ، فلا بد أن يكون معنى الفعل الأول « ظهرت » ولا بد أن يكون معناه في الجملة السالفة الذكر : تلمع أو تتألق في الزرقة أو shimmer الإنجليزية .

والكاتبة الفرنسية الدائعة الصيت مدام دي ستال عادت نابليون وناهضها الإمبراطور وأقصاه عن باريس وشردها وحرّم كتبها ، لكنها كانت متصلة بأخيه يوسف ملك أسبانيا حينما من الزمان . وكان يكتبها ، فكتب إليها يوما يبدي احتقاره للألقاب التي أنعم بها الإمبراطور عليه وعلى غيره من أعضاء أسرته . وخاصته وأعيان دولته . ولا يمكن أن يكون الكاتب نابليون وهذه عداوته الطويلة لمدام دي ستال ، لكن المترجم لا يفتن إلى ما بين الأفعال الألمانية من فروق وإلى ما في صيغها من اختلاف حين تعبر عن الخطاب المباشر وغير المباشر ، فهو ينسب إلى نابليون أنه كتب إلى مدام دي ستال يقول : إن أخي يأبى أن يكون له دخل بلقبه الجديد . والأصل يذكر : فهو [أي نابليون] يقول : إن أخي يكتب إلى مدام دي ستال يقول إن شيئاً لم يتغير ويأبى أن يكون له دخل بلقبه الجديد . وإن دل هذا على شيء فعلي أن المترجم أساء الفهم أولاً فلم يفتن إلى حقيقة الأفعال المستعملة في الجملة ، وأنه ثانياً لم يجعل باله إلى حقيقة من حقائق الكتاب الذي ترجمه .

ويلاحظ في بعض المترجمين أنهم لا يتجردون حين الترجمة من الهوى ولا ينفون تحاملاتهم الخاصة ، فقد لا يعجب المترجم في الأصل عبارة شديدة عن بلده أو بني وطنه أو يسيئه حكم حق عليهم فيستبعد من الترجمة غير عاين بأنه هنا ناقل لحسبنا وناقل الكفر ليس بكافر ، وليس كل ما ينفعك يعجبك . وقد يكون النقد إذا نقل حافزاً إلى الإصلاح والانصلاح ، والأمة التي تهيب النقد لا تتقدم ، وفرق بين النقد والإهانة ، بين أن يقال في قوم : « إن بينهم كثيراً من المتسولين » وأن يقال : « إنهم متسولون » فالأولى خليقة أن تضاعف

جهودنا في مكافحة التسول، والثانية تغضبنا بحق وتحملنا على رد الإهانة . لكن مهمة المترجم تقف عند هذا وذاك : نقل النصيحة . والنقد ، ونقل الإهانة على السواء . أما الموقف الذي يتخذه المترجم حيال هذا أو ذاك فنافذة إذا كان من ورائه مساس بما في صلب الكتاب . وله إن شاء أن يتخذ الموقف الذي يراه في مقدمة أو على الهامش . وقد بلغ الأمر بترجمة لودفيج الفرنسية ألا يعجبها قول للمؤلف عن أسنان وليد نابليون فحذفت الجملة كلها واستبعدتها من الترجمة . والجملة كما يلي :

« لكنه [أي نابليون] يذهب ويحجى في خيمته على ، وقلم السكرتير الصامت الذي اعتاد أن يسجل تنقل الجيوش هنا وهنا ، يتابع إملاء السيد ليزر الأسنان الأربع التي تنقص طفلاً مقياً في قصر بارد على بعد ألف ميل من هنا ، الأسنان التي تعوزه للعض . . . » وكان نابليون قد رد على مربية الطفل يعرب عن أمه في أن يسمح منها قريباً أن الأسنان الأربع قد نبتت له .

وبعد ، فأمل ألا أكون أسخطت أحداً ، فكنا يقع في هذا أو ذاك من الأخطاء التي أوردت . لكننا بحاجة ونحن نتثقف على الغرب أن تترفق بثقافة الغرب ، وأن ننقل منها الخير على وجهه الواضح . لا تشويه فيه ولا نقص ولا تبديل . ومن العيب أن نطالب بذلك المتطفلين على الترجمة والمتكسبين من ورائها ومن لا يحسنون سوى الإساءة ، فهؤلاء نحب بل نرجو أن تقسو على ترجماتهم الأقلام لتحد ما أمكن من عبثهم الضار . وليس هؤلاء ينبغي التشجيع وإنما التشجيع لمن تلمس من خطئه حسن النية وأثر الجهد الصادق ومحاولة الأمانة على قدر المستطاع . وقد أشربت في صدر المقال إلى الذي نسب إلى أندرسن ما لم يقل ، وإلى الذي نسب إلى نفسه ما قال أندرسن ، كذلك الذي يسطو على قصة يسمعا فيلشرها على أنها قصته . فأبلى أمثال هؤلاء ألفت زعماء الأدب وأئمتهم ليأخذوهم بالشدة ، فما كانت الثقافة لتنهض على اكتافهم الهزيلة العجفاء وما يجوز أن يتثقف بجهودهم أحد .

محمود المصطفى

يجب أن نعيش

كان عازف الكمان الأول ينظر إلى الزامر في البوق الكبير ويعجب لماذا يوالى النفخ وإخراج هذه الأصوات التي يختلقها ويدسها على اللحن ، ثم ينقل بصره إلى المدير فيزداد عجبه ، فهو أيضاً لا يزال يومئ إلى الزامرين في الأبواق ويدعوهم بالعصا إلى الاستمرار .

ماذا حدث ؟ كان يجب أن تسكت هذه الأصوات فجأة بالطرقات الثلاث على الطبل الكبير لتهدئ له دخولا خفيفاً هادئاً . . . ولكن الأبواق لا تزال في صخبها المرتجل ، وضارب الطبل لا يزال رافعاً يده بمطارقه منتظراً أمر الطرق من العصا المشغولة بالناحية الأخرى .

ونظر إلى الأوراق المثبتة أمامه وساءل متى يبدأ دخوله ؟ لقد فات الأوان وتأخر كثيراً . يجب أن يبدأ الآن . . . وعاذي يخلق في العصا التي تهتز في يد صاحبها في عنف مثير ، ولكنها لم تهره . . . وظلت الأبواق تدوى . وأحس بضيق شديد ، وهم أن يقف فينتبه المدير ، ولكن ساقبه لم تحتمله وتهاوى في كرسية ككومة من القش . يجب أن يبدأ ، فلا ريب أنه أخطأ التقدير ؛ فقد قال له المدير أمس إنه دخل متأخراً بعض الشيء ، وإنه أكل بعض الأصوات .

ولكن هذه الأبواق ألا تسكت !

ورأى ألا ينتظر أكثر من هذا ، فرفع القوس ودفعه على الأوتار بيد مضطربة دفعا شديداً ، فأزعجته الأصوات التي أصدرها فتوقف فجأة . وسمع في اللحظة التي تلت هذا السكون المفاجئ طبولا وأبواقاً وصيحات تزار وتهدير ، ورأى العصا ، وكأنها تقسمت إلى عشر أمثالها ، تقترب من وجهه حتى لتكاد تمسه وتومئ إليه جميعاً بالأمر الذي انتظره طويلاً . وجاهد أن يظل قابضاً على مكانه ، ولكنها تفلتت من أصابعه وهوت مع القوس . . . ومعه .

يجب أن نعيش

وأمرع إليه زملاؤه يحملونه إلى غرفة قريبة ، ولكنه أفاق في الطريق إليها وإن كانت عينه لا تزال زائغة ، ونظر إلى المدير الذي كان قرب رأسه وتمتم بصوت متقطع غير واع : « لقد دخلت متأخراً هذه الليلة أيضاً . . . » ولكنه حين أفاق وارتد إليه رشده كاملاً ذكر أنه لم يتأخر ؛ فقد كان دوره في العزف لم يأت بعد ، وإنما هي بوارد هذه النبوة التي أصابته أضاعت معالم اللحن من رأسه ومسخت الأصوات في أذنيه .

وتحركت شفثاه وهمس : « هذه آخر مرة » .

ولم يسمع همسه أحد ، ولكن زميلاً ظن أنه سمع شيئاً ! فسأله : « ماذا » ؟ فأجاب : « لا شيء . . . » ثم خرج .

وسار في الطريق لا يدرى إلى أين يذهب ؛ فهو لا يريد أن يعود إلى غرفته في هذا البيت الذي كان يحبه ويدخله في خشوع ، كأنه معبد مقدس من معابد الصين ، ويحمل لسكانه لوناً من احترام الآلهة . إنهم فنانون . . . فهم أيضاً آلهة صغيرة خالقة . وقد اختاروا هذا البيت يتمون فيه صنعهم ، ويفرغون فيه لقلهم . وراقته فكرة هذه الحياة التي تعينه على التصنيف في الموسيقى فسكن غرفة في البيت .

ثم كشف على الزمن أنهم يحبون حياة حظها من التركيز الفني قليل . وكان في طبعه أن يأخذ نفسه والناس بمقاييس دقيقة قاسية ، ولكنه ، لسبب لا يدرى ، كان يجفل من أن يصدر على جيرانه هؤلاء حكماً حازماً . وكلما ساءل نفسه : أهم فنانون خالقون ؟ أم هذه حياة مختلفة زائفة ، وهؤلاء إنتاجهم ثروة وخلقهم هراء ؟ كان يهرب من الحكم كأنه يوشك أن يقطع أعناقاً بريئة .

ولكنه على كل حال ، قضى في غرفته هذه التي يخشى الليلة دخولها أوقاتاً سعيدة حلوة ، عكف فيها على فنه وأقبل عليه بشوق العاشق وحرارته ، وعرف فيها قسوة الفن حين يستعصي ويأبى الإفصاح ، وذاق مرارة الصراع مع الأصوات قبل أن يأسرها وينظمها ألحاناً ، وجاش كيانه بالفرحة الطليقة حين يقوم عن مائدة العجل ويهمس لنفسه : « لقد صنعت الليلة شيئاً » .

وكانت هذه كل دنياه . فما يعرف أنه خالق إلا ليجمع هذه الألحان التي تطوف برأسه دائماً ، منذ درس الأصوات وبدأ يدرك أسرارها . وتجاوزت رغباته ومطالبه من هذه الدنيا ، حين رآته يضعها جميعاً تحت قدمه ويخنقها

يجب ان نعيش

وهو يركع في محراب فنه . وكانت براعته النادرة في العزف ترفع قدره عند زملائه ومدير الفرقة ، ولكنه كان لا يأبه لهذا أو يهتم به ؛ فقد كان يؤمن بأن مكانه ليس أمام الحامل الحديدى للأوراق الموسيقية بين أفراد الفرقة ينتظر أمر المدير بالابتداء والانتهاء ، ويذهب يكرر أصواتاً من صنع غيره ، كالطفل الذى تدفع الكلمات في حلقه دفعاً ، ليكررها أمام الأضياف .
إنه لم يخلق ليكون عازفاً . . . بل مؤلفاً .

وحمل هذه الأمانة اليتيمة في صدره ، ولم يشرك أحداً في سره ، ولم يكثر من الكلام عن الفن والصناعة فيه ؛ لأنه لا يؤمن إلا بالعمل والكدح في سبيل الوصول إلى القمة والكمال .

ومرت السنوات ، وخرجت الألحان من رأسه متوالية متدركة : وكان يقضى الليلة بعد الليلة يعيد لحنه الأخير ، ويكرره حتى تتصلب أصابعه وتموت الحساسية من أطرافها ، فيلقى كانه آسفاً ويترك الأوراق مكانها ويجر ساقيه إلى الفراش وفي قلبه حسرة توشك أن تهشمه . كلا . . . إنه لم يصل . . . لم يصل بعد . . . ولا تزال اللمسة السحرية للفن بعيدة عن هذه الألحان ، والانبثاق الخالدة للجمال ضائعة بين ثنايا الأصوات .

وتراكت الأوراق الخاملة على مكتبه ، وتراكت الأحزان في قلبه . وساءل نفسه وكأنه يتوسل إلى ربه : « ماذا ؟ ماذا ينقصنى ؟ »
وفي أيامه الأخيرة هذه أجاب في ذلة قاسية :
— موهبة السماء . . . العبقريه . . . لم أعطها .

وبكى ونشج . ولما انتهى البكاء والنشيج بعد أن تركا في قلبه يأساً خطيراً ، جلس يفكر ليصدر حكماً حازماً كعادته .
إنه خلق ليعيش في السماء العالية للفن ، فهو لا يعرف لنفسه دنيا غير هذه ، ولكن سلمه إلى السماء واه قصير ، فكيف يعيش معلقاً بينها وبين الأرض ؟
كلا ! كلا ! ليس له أن يعيش بعد هذا . . . بعد هذه الليلة . . .

وساءل نفسه أين يذهب ؟ وخطر في ذهنه أن يمر على زميلته في الغرفة المجاورة ، وهى فتاة ثرية شغفت بالرسم ، ودربت يدها عليه ، وكان أفق خيالها فسيحاً فوسعها أن تبرع فيه ، وركبها ما يركب أهل الفن من شطحات الذهن ، فاختارت غرفة في هذا البيت تصنع فيها رسومها وإن لم تتخذها سكناً . وقد نشأت يديها

يجب أن نعيش

وبين جارتها الموسيقى وشائج صداقة ، ميزتها عن ود الجيرة وصلتها ببقية الزملاء حرية سمجة ، تخلطه بنفسها ، وتبادلا خطرات الدهن وأمل السنين القادمة .
ونما كل منهما كالسرحة في قلب صاحبه . غير أنهما لم يجسرا على أن يعرفا ما بينهما ويعطياه اسماً صريحاً يذكر به ، فصار كالقصة ينقصها العنوان وإن كانت لا تنقصها القدرة على الإيحاء بعنوانها الصحيح .

وعند ما خابت آماله في فنه ، وهوى تحت ثقل أحزانه ، وقيد اليأس قلبه ، كانت كلماتها تنعشه وإن لم تشفه . فإنها لم ترفيا حدث له كارثة يتحطم وجوده من هولها . وإنما الفن شيء جميل حقاً ، يلوّن الحياة بلون بهيج سعيد ، ويعطي لرياحها اللاذخة رقة تعين على تحملها ، ولكن غيابه لا يعنى الموت والفناء . وكانت تقول :

— إن ما يحزنك هو صورتك التي ترسمها لنفسك مترجماً بين السماء والأرض ، كالسجين بين صور الماضي وأحلام المستقبل ، كالطائر في القفص . إنك تود لو تكون إلهاً . ولكن من يدري ! لعل هذه رغبة سببتها فورة الشباب ، وستنتهي وتترك لك نوعاً من الرضا ، وستنسى على الأيام رغبتك هذه ، وترضى بسجنك وتذهب فيه لاعباً ضاحكاً فرحاً . بل سيأتي اليوم الذي تعجب فيه للطيور الشابة وهي تنطح بأجنحتها جدران القفص تريد الانطلاق . فقال لها :

— كلا . . . لا أستطيع أن أحطم أجنحتي . . . لست أملك الجرأة على هذا ، ولا أعرف كيف أعيش هنا ، على هذه الأرض ، كهؤلاء الأناس الذين تموج بهم الحياة .

كانت تريد أن تبعث في قلبه حب الحياة ، ولكن إخفاقه في ألحانه يشتت محاولتها ويبددها هباء . وكان يرى في نظراتها وعطفها ورغبتها في إنهاضه دعوة طالية صريحة إلى عالمها كأنما توشك أن تقول له :

— لئن فاتك الفن ، إنك لم تضيع الحب . هو وخده قادر على أن ينسيك آلامك . . . بنسيك السجن وأجنحتك الكسيرة .

ولكن يأسه كان خطيراً يوحى له أن عمل الفنان فوق كل شيء ، حتى هذه السعادة الثمينة يجب أن يضحي بها من أجله . وضاعف آلامه علمه أنه يحطم قلبها ويقتل الزهرة الجميلة النادرة التي نبتت فيه .

يجب أن نعيش

وكان هذه الليلة يريد أن ينفذ الحكم الذي أصدره . وتمنى لو يراها مرة أخيرة ويستمع إليها ويلبس يدها ، فهي منذ ليال في غرفتها تزعم أنها تعمل ، وإنما هي تتخذ العمل وسيلة للبقاء بجانبه حتى تنتهي هذه الشدة التي نزلت به . ولكنه خشى أن تخور عزيمته ويتضاءل عزمه أمام خنائها ونظراتها الدافئة ، فترك طريق البيت . وتحدرت دموعات على خديه فصرّ على أسنانه يمنع نفسه من البكاء ، وسار بقدم ثابتة إلى غايته .

وحين وصل إلى شاطئ النيل ، عند القنطرة الصغيرة التي تواجه المعرض كان الليل في شيخوخته والقمر يشحب وقد أتعبه طول السهر . فاسند ظهره هنيهة إلى السور دون أن ينظر إلى الماء . كان يعرف تماماً علام هو مقبل . وتصور نفسه في الصباح ملقى على طين الشاطئ مشوه الوجه منتفخاً كقربة الماء وحوله الناس يتلاغطون ، فلم تزعبه هذه الصورة أو ترعبه ، بل همس وهو يعتلى السور :

— اننى لم أغضب أو أرض حين أرغمت على دخول هذه الحياة ، فلم أرضى أو أغضب حين أرغم على الخروج منها ؟
وهوى إلى الماء

وكان يحسب كل شيء قد انتهى ، فترك نفسه تغوص بقوة السقوط . ولما ظهر فوق الماء وجد أنه يحرك ذراعيه وجسمه بقوة جديدة ، وشعر بشيء من الزراية لنفسه ، فاستكان هنيهة ، ولكنه أحس كأنه في بحر من الدم ، وملاً الماء حلقه وطمس عينيه وأكربه فأوشك على الغوص . وكان له شيء من الدراية بالسباحة فعاد إلى الحركة وضرب الماء . وعجب لماذا صفا ذهنه فصار كالصحيفة البيضاء تستجيب لكل ما يكتب عليها . وامتلاً الجو حوله بموسيقى أطلق حازفوها لأصواتها العنان يسابق بعضها بعضاً . إنه يعرف هذه الألحان جيداً هي ألحانه التي حكم عليها بالفناء والعدم . ورأى فجأة أنه لم يكن له حق الحكم . ليس من حقه أن يقتل هذه الأبناء ولا أن يخنق ما لم يخرج بعد إلى الحياة منهم . وتذكر أوراقه في الغرفة يقلبها الهواء قبل أن يجمعها الزملاء كوما وتخرس إلى الأبد ، وامتلاً برغبة طاغية في العودة إلى عمله وإلى صاحبتة .

كلا لن يحزم منهما وصار كأن ذهنه يردد :

— العمل والحب كلاهما

يجب ان يعيش

ووصل الشاطئ فارتدى عليه حتى لدغته برودة الفجر ، فقام يسير ببلولته
يترنخ ويتلفت خلفه وكأنه يخشى أن تجذبه إلى الماء أيد خفية .

وحين هم أن يدفع باب غرفته أحس يداً خفيفة توضع على كتفه وصوتها
يهمس في جزع : « أين كنت ؟ . . . إنك تقطر ماء » . ثم لكأنها فهمت فندت
عنها صيحة ذاهلة ، فالتفت إليها وأطال النظر في وجهها وقرأ السؤال الحائر في
عينها ، ثم خفض رأسه وقال :

— نعم . . . (ثم بعد هنيهة قصيرة) : ولكنني واثق أنه لم يكن جيناً . . .

وأرادت أن تتكلم ، ولكنه وضع يده على فمها في رفق وقال :

— في الصباح . . . في الصباح .

وأغلق الباب على نفسه .

وسمعه طويلاً يعزف ألحاناً خافتة حتى أغماق النوم جفونها .

دروس الخيال

من هنا وهناك

إفريقية

الا يكون لك من الأرض إلا ممالك
الطير... فتعزل من تشاء وتعيش حيث تشاء
وتشدو والطير صلاة الجمال، ويكون كساؤك
ريشها وغداؤك قطوفها وتصحب الزهر حيث
يكون والماء حيث يكون... ولم تعدم هذه
الأرض في تاريخها القديم شعراً؛ فان آباء
الشعراء تغنوا بما هيئت هذه الأرض من
حب، ورعاة الأغريق لم يدعوا الجزر للمقابلة
المكلمة لهذه الأرض حتى شدوا بالحب...
وترى الراعي في زهرة الشباب فوق صخرة
مشرقة على الماء... يغني حب جالاتيه (١)
التي تقبل على نفسه كعوج البحر، فترفع وجهها
وتدنو إليه كأنها ترقص وهو ينتظرها مقبلة
آتية لا ريب فيها، حتى إذا بلغت قدم الأرض
تلوت راجعة، ويقبل الأمل واليأس على نفس
الراعي وقد انسابت أعنانه وكلبه في صفحة
الجبل... وينفي الراعي جمال الحب والأرض
ويصبح ماوسعه السعادة والصفو، ثم تقبل
جالاتيه فترى راعيها بتفاحة وتتوارى
ضاحكة وراء الشجر.

الليت شعري من قضى على ذلك الراعي
السعيد... إن قرصات اللذنية الأوربية
قد هدرت سعادة إفريقية ليبنوا على أنقاض
هذه السعادة بيوتاً كالتى ترى... فلم أجد
في جنوب فرنسا وإيطاليا مدينة أجمل من
مدينة الجزائر قد بنيت على أحدث فن وخطت
على أجمل هندسة، واتبعت شوارعها نظاماً
موضوعاً... شوارعها تتصاعد في الجبل وقد

ثم أوت سفينتنا مبكرة إلى خليج ساكن
في أرض إفريقية... وهدات السفينة عجلتها
تنتظر إشراق الصباح... وكسا غبش الصباح
كل شيء بيننا وبين الأرض... فلا نبصر في
ضباب البحر سوى وميض الفئار الخافت
ومصاييح تخرق حجاً ثقيلة من الهواء...
وصحار كعب السفينة ينتظرون الأرض...
كأنما اعتادت الأرض يوم خلقت أن تحتضن
أبناءها... وأن تجتذب نفوس من ركب
البحر والهواء وترى الناس يأتونها آمنين
مستبشرين... متهللين...

وخلع النهار ستار الليل... فبدت «مدينة
الجزائر» في ثدى خليج مرتفع يمد ذراعيه
أمدأ بعيداً في البحر... وهذه الأرض المشرقة
بصخرها على البحر أهل لأن يسعد فيها
طيرها... فقد حفت صخورها بزرع ونخل،
وهي أهل لأن يغمرها طنين النحل وهتاف
الطير فقد عبأ البرتقال هواءها بعطر ثماره.
وتشرق الشمس من كبد البحر من وراء
جبل، واستمتعت الأرض بنعنى الحياة والقوة
بلشمس والنسيم...

ولم تكن أرضاً ميتة لا تقول شيئاً، ولكنها
حية بسحر نسيمها، وحية بسحر حديثها...
فلا تكاد ترقى في مشارفها متشداً متثاقلاً حتى
ترجع البصر مرتين إلى البحر، وهو يمد بساطه
عند قدم الأرض كأنما يتبدل لون ذلك البساط
إذا أشرفت عليه من مكان بعيد... ويخف
قل الهواء ويخلو لك الصفو، وحينئذ تتمنى

حفت بزرع وتخل، ويوتها بيضاء مزهرة،
وسكون ثنايا الجبل أدمى ما يكون إلى
السعادة ولامل . وسميت شوارعها بأسماء
الناخبين في الشعر والفن . ولست أدري هل
عرف فن العبارة سحر هذه الأسماء ... فان
الذي يعنيه الطلوع في ثنايا هذه الطرقات قد
يقف قليلا ليرتاح ويشرح البصر فيما حوله
فيرى في نافذة الدار امرأة بيضاء ذات شعر
حمر تنظمه وترجله وترجله وتنظمه ، ويرى
حديقة الدار قد تزينت بشجر البرتقال والشمس
ناعمة لا تثير غباراً ، ويقرأ اسم الشارع فيسمع
لهذا الاسم نشيداً حلواً ... لأنه علم من أعلام
الموسيقى ... مثل راقيل وديبوسى ويسمع
لذلك الاسم معنى جيلاً ... لأنه علم من
أعلام الأدب والشعر مثل فيكتور هوجو
ولامارتين ... كل شيء يدعو إلى معنى طيب
في النفس وكل شيء يداعب وتراً من أوتار
السعادة في النفس ...

وفي المدينة جامعة ومسارح وأوبرا
وتماثيل، وثرى أهلها من الأوروبيين فرحين
سعداء ... وهم مزيج أوربي ممن تزح من
فرنسا وأسبانيا وإيطاليا ومن تزح من جزر
البحر للقبالة ... وبنات هذه الأرض قد فزن
بجمال وبشر ... ولكل وجه معنى وأقبلت
للمدينة على عملها جادة فرحة ينبض شبابها في
كل شيء ... ولكن أين أهل المدينة
العرب ... ستذهب الحسرة جمال ما ترى
لأن صوراً مؤذية تتوارى خلف ذلك الجمال.
فلا تلبث أن تجلس في « قهوة » حتى يطير
إلى حداثك عشرات من صبيحة العرب الذين
يعيشون من مسح الأحذية كما يعيش إخوتهم
في مصر تحت قصور القاهرة والاسكندرية
من جمع أعقاب السجائر وبيع أوراق
اليانصيب ومن مع الآكف ... فتي تسمو
غرائز البشر الذي ينهاى بتأليف جماعات للرفق
بالحيوان فيرفق ببشر مثله ... ومتى تذهب

فلسفة القائلين بأن الإنسان ذئب على أخيه
الإنسان ! فقد لا أنسى ذلك الصبح المبكر
والليل جاثم على الأرض في طريق من أجمل
طرق المدينة إذ أسمع خلف الظلام نيشاً، فألتفت
إليه فإذا بكهل عربي يبحث في صندوق الزبالة
عن رزق ، قد حنى هذا الشيخ هرامته المجلة
بالشيب على فضلات المقتدرين ... ورأيت هذه
الصورة على طول الطريق ... أيها الشيخ
المحتجب من العار ... إنما العار على القادرين
والخاكئين ... إنما أريد أن أبلغ مسامعتك
أيها الحاكم الذي تعتز بسياسة الناس ، وأريد
أن أبلغ قلبك أيها الفنى الذى تعتز بثرائك
وهو متطاول على ويلات إخوتك وأخواتك
من بنى أمتك ، وأريد أن تفيق نفساً كما من
نشوة الحكم والمال ... إن الضعيف أمانة
في عنق القوى ، والفقير كفالة في ذمة الفنى .
فإن أدى القوى أمانته ، واحتمل الفنى كفالته ،
عصمت أمتها من الذل ، ودرجت جماعة
صوب الكمال ...

سئل أعرابي : « من أحب أبنائك إليك ؟ »
قال : « الصغير حتى يكبر والضعيف حتى يقوى
والبعيد حتى يؤوب » أو كما قال . ولست أريد
اليوم من حكمة هذا الأعرابي سوى المقطع
الآخر أى « البعيد حتى يؤوب » فإن في البعد
حينئذ إلى من يحب ... وهذا البعد يحلو وجه
ما نحب ... وفي البعد صور لأوطاننا
لا يشهدنا القريب ... فترى قوة وطنك
وضعفه ، وثرى علة للمعتلين فيه وتذكر حاجة
الشرف فيه ... ويجد البعيد عرضاً لآلته
أقرب إليه من أمه وأبيه ، لأن رأته قد وصفت
وجهه بسمتها وزينت جبينه بشرفها ... وهذه
الأم الكبرى معك حيث تكون ...

أبا مسنح إني امرؤ من قبيلة
بني لي مجداً موتها وحياتها

أهلنا ويصحب فيها عرق جبينهم لتبتلعها
ليقربول ، وأن الصداقة والسلام خير من
عمر الكروم التي تثمرها في إفريقية حسبة
لموائد أوربا . . . وليس علينا أن نذكر جنى
المستعمرين وحده وننسى حساب الظالمين ؛ فأتنا
تتلو القرآن للذكر » وإذا أردنا أن نهلك
قرية أمرنا مترفها ففسقوا فيها لحق عليها
القول فدمرناها تدميراً .

وأرض الجزائر الساحلية مساطب من
الكروم والفاكهة ، وهي تلبظ السماء كل عام
لتسقيها بغيث . وهذه المساطب التي يتبع معارجها
محراث العربي الذي يحجره فرس أو فرسان ،
قد صفت سوق كرومه في أبعاد متوازية .
والأرض تربة جبلية حمرة ، وتري في رأس
المرتفع بيتاً أوروبياً لملك الأرض . . .
واجتمعت على عرب الجزائر سنة وجدب لم
يفهم مطر ، فهزلت دوابهم ومزقت أسمالهم
وعطلت أيديهم ، فهم مساكين ضعفاء إلا من
حفظت له أرضه أو أتمر جهده . ونساؤهم أدنى
للقصر من الطول ، وهن يعشن في الطرقات
ساكنات متلفعات « بملاية » بيضاء . وقد
قرأت أن هذه « للملايات » البيض من نسيج
هؤلاء النساء . وهن يحجن أنوفهن حتى أدنى
العين بمسديل أبيض . ومهما تطلعت لليونهن
فلا تعلم ما تقول العين .

وقد أويت يوما إلى جبل في الأرض
لا أعرف مسالكه عند مدينة تدعى « بليدا »
وأظنها تحريفاً أورياً لكلمة « بليدة » أي
تصنير بلدة . وقد قرأ على صاحب في السفينة
أن هذه المدينة كانت أحب بلاد إفريقية إلى
الكاتب الفرنسي أندريه جيد فلم أكد
أتردد في مسلك في الجبل تخيم عليه أعشاب
أدنى إلى الظلمة . . . وأشجار قاتمة مشتبكة
حتى خرجت من طام الحضارة إلى طام البدو . . .

وقد مزقت أمم أوربا بعضها شمل بعض ،
وبقيت مصر مثل سويسرا تؤوى الشريد
وتطعم الجائع وتنادى بالسلام ، وهي أرض
مقدسة للعلماء وقد ولج دعاؤها بالحق إلى
نفوس من هيض جناحه من أهل الشرق ، فما
بنى الأولون من أبناء الوادي لم يذهب أدراج
الرياح مع الزمان ، وما تصاعد من دعاء الشهداء
قد اوى إلى قرار مكين في نفوس أمم في
الشرق . . . وقد سمع أهل المدينة أن سفينة
في البحر قد حملت طائفة من طلبة العلم من
أبناء مصر . . . وفيهم ابن طه حسين شيخ
الجامع الأزهر القديم . . . هكذا كتبت صحف
المدينة . فسارع مدير الجامعة بدعوتنا ليحتفل
بقدومنا ، وسارع الطلبة العرب من أهل
إفريقية ليستمعوا حديثنا ، وصارت أيامنا
فرحاً وليالينا عرساً بين حفلات مدير الجامعة
وأساتذتها وبين قبة الجامعة وقتياتها . . .
ولم نعدم أدباً يسمو بأمتنا وبنسبنا في أعين
الأوربيين والشرقيين . . . وكانت سفينتنا
تعيد إلى الذكر صوراً من شعر هوميرو . . .
فقد جاءت سفينة أو ليس أرضاً سأل
قومها الوفاة فأوفدوه ، وجمعوا قبة المدينة
ليستبقوا أيهم أبعد رمياً للقرص ، ورمى كل
جهد طاقته ، ثم عزموا على هذا الغريب أن
يرمي رميته ، فأقبل متواضعا يمشي على استحياء
ثم رمى فتجاوز كل طاقة ، فتعلقت به القلوب
والأبصار . . . لم نرم قرصاً وإنما رمينا
أدباً فأصبنا حباً من الأوربيين والعرب .
إنما تفعل الأفكار ما لا يعمل السيف وقد
حف بنا فرسيون سعداء بأفكارنا ، وخطب
خطيب العرب يقول : إنكم أيها الطلاب تأخذون
العلم عن أوربا لتأخذوه عنكم بعدها . . .

بين الأوربيين والشرقيين قضية في بلاد
الشرق جميعاً ، فمن يحكم بيتنا وبينهم ؟ ومن ذا
الذي يحدتهم فيؤمنوا أن الصداقة والسلام
أنفع للإنسانية من أكياس القطن التي يزرعها

من هنا وهناك

واخترت هذه الوحشة المؤنسة ابتغاء قرية في قمة الجبل تدعى «الشرية» دعتني الشريعة باسمها لأنها من أحب الأسماء إلى نفسي، ودعتني الشريعة برفضها لأنها تشرف من أعلى الجبل على الساحل والبحر، وأحببت أن أوى إلى نفسي واصنئ إلى نفسي، وأستمع الصمت السحيق العميق، الذي لا يبعث إلا القرار والأمان والحب، وأحببت أن أتسم هواء لم يفسده الأحياء بحياتهم ونفوسهم، وأن أقرأ من نافذة في الليل صور النجوم، وأن أشهد الاصباح من رأس الجبل، وأن أستقل يوماً بنفسى من أثقال الانسان الذي تحبه فيكرهك، ويشهر على البراءة العداوة، ويناصبك العدوان من حيث لا تدري...

لم أظفر ببني في «الشرية» فقد كانت مهجورة لا تؤوى غريباً... ونزلت منها بشيء كالبأس، وجعلت أبتسم من فكرة عارضة وهي أن الشريعة مهجورة إلا من الطير لأن أمها العدالة نقرت الظالمين...

ثم عزمت سفينتنا بعد لاي على أن تبهر إلى مرسيليا...

على مائظ

حلم ليلة من ليالى الصيف

«ذكرت ما كان في الحين بعد الحين من إلحاحها الواثق المحب في أن أستجد لي ثياباً قشبية غير التي ذهبت بهجتها. وكنت لا أسمع لها لأنى كنت أفكر في أن أدخر اليسير لمستقبلنا.

«أذهلتني الذكرى لحظة عما كنت عليه من عزيمة الخروج، قتلكات وتمشيت في الغرفة رفيق الخطو غائب الفكر، ثم توقفت ساهماً.

فان العربي من سكان هذا الجبل ينطى رأسه كله ويتعمم فوق غطاء الرأس بعقال، ويلبس عباءة من صوف أبيض لا أكام لها، وإنما يخرج يديه من جيبي، وزاد أكثرهم حمار وخطب، وترى الحمار مطرقة لا ينظر إليك كأنما تزعت من قلبه سائر نزعات المجد. وترى القافلين من هؤلاء البدو يتجافونك، لأنهم يحسبونك رومياً، أو لا يردون سلامك خشية أن تكون يهودياً «لعنة الله عليه» كما يقولون إن أخرجتهم عن صمتهم وخشيتهم وكأنت هؤلاء البدو لم يجر من حولهم الزمان... بل عاشوا بفكرهم القديم... وقد سألت رفيق الذي أنس بي عن قبيلته فقال: نحن من قبيلة في الجبل تدعى «بني مصر». ولم يكن هذا الفتى يكشف عن نسبه حتى قربت ببني وبينه انسانية الأخوة... ومكث طرفاً من النهار يهديني ويؤنسني... وليست لغة هذا الجبل بمفصحة لمن يتكلم لسان مصر فاستعنت بلغة القرآن في فهم ما يقولون، وقد كان ذلك النهار متاعاً وفراراً من المدينة... وكنت أصغى بحنان وحنين إلى دواء الطير المحتجب في الأدغال، وكنت أتأذى في سكون الجبل من إنسان يثير سكون السماء بطائرته.

«كنت في غرفتي تلك الليلة، أصلح من شأنى على عجل قبل الخروج للسهرة... «تطلعت في المرآة، فاستوقف نظرى هندام حلى الجديدة التي ارتديتها لأول مرة. «ما كدت أنتبه إلى هذا الشعور العابر حتى انفتحت الصفحة للمقابلة له في كتاب الذكرى. وهذه السرعة في التنقل بين الحاضر والماضي أصبحت ديني وعادتي في الصغيرة والكبيرة منذ ماتت زوجتي.

« انعمت بكيتي في غمرة الذكرى ،
وكانت مختلطة غامضة .

« لم تلبث أن تلاشت الصور في ذهني إلا
صورة واحدة : صورة جليلة ناطقة لمظاهر
غبطتها وتهلل أساريرها وتألق نظرتها كما
لو كانت حية تراني الساعة في الزينة التي
كانت تحب دائماً أن تراني عليها .

« استشعرت ارتياحاً وأنا احاكي في
نفسى ارتياحها . ثم تمادى بي هذا الشعور
بالغبطة ، فأنكرته ، وجعلت أدافعه عني ،
وهو يقالبي .

« شاعت — على أثر ذلك — روح
انتعاش غربية في الفرقة الموحشة .

« دبت حياة جديدة في كل قطعة من قطع
الآثاث الهامدة .

« سطعت الانوار الكهربائية سطعة
لا عهد بها .

« اضطربت مشاعري . اهتركياني هزة
عنيفة . هجم على نفسي جميعاً شعور جنوني ،
ولكنه غامر قوى : « إنها قادمة ، زوجتي
إنها حية ، إنها قادمة . . . »

« إرتفع في وسط هذه العاصفة الصاخبة
صوت كالندى يجاهد للبلوغ إلى ، ينبهني إلى
الجنون الداخل على .

« بقيت لحظة نهب حيرة هائلة : إما العقل
ولا أمل معه في حياتها ، وإما الجنون ومنه
الامل في حياتها والانس بها .

« طال الشد والجذب . ثم غلب الحب .
وارتفعت على الزغم منى صيحتي . أنادى
زوجتي . صيحة متهدجة ، يتجسم فيها الفرح
والفرح .

« في مثل طرفة العين ، أحسست عقلي
يغيب عني وينطوى عاله الواعي دفعة واحدة .

« هأنذا في مواجهة عالم غريب عني أنكره .
بالفجعة !... إنه عالم غير عالمي . عالم غير عالمي ،
وإن كانت الغرفة هي الغرفة ، والردهة التي
أمامها هي الردهة . عالم فظيع ، فظيع ،
مضطرب ، مختل ، مكهرب ، يندب بالاهوال
والقواجم .

« لم يطل انتظاري . لقد ظهرت لعيني
للمرتاعيتين — فجاءة — من باب الردهة ، سواعد
صغار ، لفتيات صغيرات ، وهي ممدودة إلى
الامام مشدودة ، ممسكة بشموع العرس
اللطاف الناصعة وعليهن الاشرطة البيض ،
وكأنما — في هذه اللحظة أو التي تليها —
يبدأ للوكب سيره

« انطلقت منى صرخة ألم جنونية ، وحملت
عيناى جاحظتين جامدتين ناحية باب الردهة ،
ارتقاباً للوكب .

« وانتقضت فترة . وهفت حركة . ثم
اجتازت إلى الردهة — بدلا من اللوكب —
سيدة محترمة محتشمة لا أذكر أنى رأيتها .
« ما وقع بصر السيدة على وجهي المحتقن ،
وأمارات الجنون المنطبعة عليه ، حتى رفعت
يدها تحجب عينيها وأشاحت بوجهها بجفلة .
وصرخت هي الأخرى .

« لم تكن الصرخة بالمجلجلة العائية . كانت
لشدة ما ملئت رعباً صرخة مخنوقة . إن ما فيها
من قوة التعبير عن شقاء ما صرت إليه فوق
كل طاقة وكل احتمال . »

فاتنفضت عندها من نوى مهتاجاً متغزراً ،
واستويت جالسا في فراشي حتى هدأت .
وجعلت أراجع نفسي وأمتحنها ، وأنا لا أكاد
أصدق أنى ما أزال سليم الخصاة موهور
العقل .

عبد الرحمن صبري

مهلاً يا عميد الأدب

وماذا استفدنا نحن من تضييع وقتنا في قراءتها وأى قراءة !
أكاد أجزم يا سيدى أننى قرأت مثل هذه القصص وأنا فى السنة الأولى الابتدائية حين كنا نشغف بقراءة قصص الرميل سعيد العريان وغيرهم .

مهلاً يا عميد الأدب ما هكذا يليق . نريد منك قصصاً إن كان لابد من القصص كذلك التى نشرتها باسم « المذبذبون فى الأرض » . أما إذا كان لا مفر من الترجمة عن الفرنسيين فهناك عدة كتب نحن فى أشد الحاجة إلى قراءتها . وإليك مثلاً منها وهو « الاسلام والعالم الحديث » لآلفونس جويتلى *L'Islam devant le monde moderne* وهناك غيره وغيره .

نريد يا عميد الأدب فصولاً فى الأدب والنقد والسياسة الدولية وقصصاً من تلك القصص الرائعة ولا نريد آلهة خرافية تعيدنا إلى أيام الروضة و « أبو رجل مسلوخة » وغيرهم .

صحبى مقبول

بحث مطروق

منذ صدورها فأعجبت . أياً إعجاب . بتلك الطريقة الفذة التى هى نسيج وحدها فى كل شئ ، وكان إعجابى على الخصوص مركزاً ومنصباً على بحوث الناقد التزيه الأستاذ سيد قطب وموضوعاته البكر الطريفة التى يطرق بابها لأول مرة فى تاريخ أدبنا العربى الحديث . وآخر موضوع قرأته له ذلك البحث الممتع الرائع المنشور فى الجزء العاشر من هذه المحلة الفراء تحت عنوان « النقد والفن »

... انتهيت من قراءة مقدمة كتابك القادم « أوديب - ثيسوس » الذى تفضلت واتحفت به قراءك الأفاضل على صفحات « الكاتب » الفراء ، وأردت أن أغضى الطرف عن أى قدفا ينبغى أن ينقد التلميذ أستاذه . وأشهد أنك استاذى منذ كتابك « الأيام » حتى كتابيك « جنة الشوك » و « فصول فى الأدب والنقد » . ولكن أكاد أرى أن إغضاء الطرف قد يغضبك ، ولذا أبادر بتقديم نقدى . لا أود أن أطيل عليك ولا أكلتك بقراءة كتابي أشد الكلف ، فوقتك ثمين . ولكن مهلاً يا سيدى ، لأنك تعشق أندريه جيد ، وتكلف نفسك بقراءة كتبه أتريدنا أيضاً أن نعجب به ؟
الم نجد بين كتاب فرنسا غير جيد ، ولم نجد من كتب جيد غير كتابه هذا ؟
أما علمت يا سيدى أن الآلهة الخرافية الوهمية لا وجود لها فى القرن العشرين ؟

تسمى مجلة الكاتب المصرى الفراء سعيًا حينئذ بالأدب العربى نحو غايته المرجوة التى نعمل جاهدين لتحقيقها ، والحق إن هذه المجلة بما تحمله بين دفتيها من أروع ما أنتجته أقلام كبار كتاب الشرق والغرب لجديرة بأن تسير بأدبنا قدماً لتجرى ربحه رخاء إلى ما نؤمل له من أهداف كى يستطيع اللحاق بالآداب العالمية الحية والسير معها . وقد كان لى شرف متابعة بحوثها الشائقة

من هنا وهناك

وهو من هو — بالتجارة بالأدب ولا ليعمه مقالا لاكثر من صحيفة كما فعل ذلك الدعي المأفون، ولكنها فرصة نتمزها — ولو أنها غير مناسبة — كي نبدي للأستاذ اعجابنا بذلك الكثر الذي عثر عليه وحده، وهو ذلك الفتح الجديد في هذه الدراسات للطريقة المعجبة. وللأستاذ تقديرى وتحياتى على كل حال.

محمد الشاذلى مرسى

وعندئذ يتغير التعليق على هذه الأمثلة، وهو يؤلف جزءاً أساسياً في مبحث عن النقد خاصة. فإذا ما انتهى إلى مثل هذا التعديل رأى أن بحثه القديم قد عاد جديداً يستحق النشر من جديد، أولاً لأنه معدل، وثانياً لأنه خير مما كان. ولم يجد في ضميره حرجاً من إعادة النشر في مثل هذه الظروف، ومع مثل تلك سلاسات. وهذا هو الذى وقع في بحث « دلالة الألفاظ على المعاني » حينما أعيد نشره معدلاً منقحاً بعنوان « النقد والفن ». وهذا ما كنت أحب أن يشير إليه الكاتب والسلام.

سيد قطب

أما نحن فنأسف أشد الأسف لأن الأستاذ سيد قطب لم يؤذنا بأنه قد نشر مقاله ذاك ثم أعاد النظر فيه لينشره من جديد. ولو قد أذنتنا بذلك لكان من الممكن أن نرى في نشر هذا المقال للمعدل رأياً غير الذى رأيناه حين لم نكن نعلم أن له صورة أخرى نشرت في مجلة أخرى منذ سنين.

الطبيب المهرى

فما اتهمت قراءته حتى قفل الذهن إلى الوزراء راجعاً القهقري كأنه يبحث عن مجهول، وبعد مجهود قليل طويلاً من الزمان ست سنين وقرأنا للأستاذ قطب بحثاً تحت عنوان « دلالة الألفاظ على المعاني » منشوراً في مجلة الثقافة العدد ٧٨ وما بعده فألفيناه هو بنصه وفصه وعججه وبججه كما يقولون... علم الله أننى لست من يهتمون الأستاذ —

قرأت هذه الملاحظة، وقد يستحق كاتبها للفاضل أن أشكره ثناءه. ولكنى أن أعتب عليه في أنه لم يكن دقيقاً في تعبيره وهو يقول: « فألفيناه هو بنصه وفصه وعججه وبججه كما يقولون. »

هذا ليس صحيحاً، والصحيح أننى نشرت مثل هذا البحث في مجلة الثقافة منذ ست سنوات. ولكن الكاتب كثيراً ما يلشر بحثاً ما؛ ثم يعن له بعد فترة أن يحدث فيه تعديلات، تتناوله بالزيادة هنا والنقص هناك؛ وبإحكام بعض العبارات لتكون أدق في الأداء؛ وبتغيير الأمثلة والنماذج لتؤدي الغرض خيراً مما أدته الأمثلة والنماذج الأولى؛

شهريات

١ شهرية العلم

وسائل التغلب على الألم

مزايها وأخطارها

أو تحرقها بالنار حيناً آخر لما وجف أو صرخ متألماً . وفي الحالات الجراحية التي تجري تحت تأثير البنج للموضعي يلاحظ الجراح ومن حوله أنه متى تعرضت الأحشاء أمكن العبث بها أو الضغط عليها والمريض لا يكاد يشعر بما يجري فيه . ويقص السير ولیم هارفي أسطورة لا تخلو من طرافة ، وهي أن الابن الأكبر لاورد موتجومري ولد وفيه تشوه خلقى جعل قلبه بادياً للعين إلا من الجلد الرقيق حتى أمكن لمسه بالأصبع . غملوه إلى الملك شارل ليشاهد تلك الحالة الشاذة ، وأمكنه أن يتأكد بنفسه أن القلب لا يشعر إذا أمسكناه أو ضغطناه بأصابعنا . ولقد أوحى كل هذه الظواهر إلى العلامة هنري هيد بفكرة الألم الانعكاسي . أي إن أعصاب الحساسية لكل عضو داخلي تنتهي في مكان معين من النخاع الشوكي تتقابل فيه مع أعصاب الحساسية لجزء معين من الجلد . فإذا تألم القلب مثلاً انعكس ألمه إلى الكتف الأيسر أو الذراع الأيسر ، وينعكس ألم حويصلة المرارة إلى الكتف الأيمن أو الظهر أو منطقة المعدة . والرئة مثلاً لا تحس بالألم ولكن متى امتد الالتهاب إلى غشائها شعر المريض بألم حاد قد ينعكس إلى البطن ، فيظن الطبيب أن موطن الداء في المرارة أو المصراع

ما أقسى سكون الليل وأشد حلكته . وما أبدع استرخاء النوم وألد غفلته ، وما أفظع وطأة الألم وأشد بأسه ، فالتناس لديه سواء لا يرحم العدو ولا الصديق .

على أن الألم رغم شدة وطأته على الجسم والنفس ، يجب اعتباره من الحواس الضرورية كالسمع واللمس وباقي الحواس الخمس ؛ إذ أن له مزايا وقائية جمة . فلولا تركنا الجثة المحترقة تنال من أجسامنا ما شاءت ، ولما ابتعدنا عن مواطن الأذى والخطر حينها . كانت ، ولما فطنا إلى موضع الخلل من الآلة البشرية التي تعمل دون انقطاع أعواماً ، فتسير في نعومة حيناً أو يختل ميزانها أياماً . والألم هو سبيلنا الوحيد لتعرف موضع الداء ، فنكافحه بما يناسبه من دواء . فهو تقية ونعمة ، وخنجر مغمود ودرع واق . وسبحان الذي يعطي ويأخذ ، ويذل ويرحم وهو على كل شيء قدير .

كم سمعنا عن قلب يتلظى أو كببد محترق ، فظننا أن أعضاءنا الداخلية كالقلب والكبد والرئة والكليتين والمعدة والأمعاء حساسة مرهفة يؤلمها الوخز الرقيق الدقيق ، ولكن الواقع أنها لا تحس ولا تشعر بالألم ؛ فانك إذا فتحت بطن حيوان ما ثم عبثت بأحشائه تضغط عليها حيناً وتقطعها بحمد السلاح

شهرية العلم

ويسلمه إلى سلطان النوم الهنىء ، ويألهامن نعمة كبرى .

أنت تسمع مثلاً عن استعمال لبخة بذر الكثاث أو الاتفلوجستين أو قرية الماء الساخن لتخفيف الآلام السطحية للموضعية . فهل خطر لك أن تسأل عن سر مفعولها في سبيل تخفيف آلامك ؟ ولا بد أنك في يوم ما لجأت إلى أحد أدوية الروماتزم تلك بها كتتك أو ذراعك أو ظهرك أو ساقك فلا تلبث أن تشعر بدفع موضعي عجيب يصحبه ذوبان الشعور بالآلم المضي . لماذا تلجأ إلى هذه الطرق البدائية في سبيل التخلص من قيود الآلام والأوجاع ؟ ألم أقل لك منذ سطور قلائل إن الشعور بالآلم يبدأ في محطة الارسال سطحية كانت أو داخلية ومنها يسرى في أعصابه بمثابة الأسلاك الكهربائية ليصل بواسطتها إلى المركز الرئيسي الذي يفسر الآلم على حقيقته . فإذا أنت حاولت إنشاء محطة أخرى في منطقة مجاورة بحيث تظني أمواجها على رسالة المحطة الأصلية أي موضع الآلم ، أمكنك أن ترغمها على الانزواء والاختفاء ولو مؤقتاً ، فبنسى المخ الآلم الأصلي ويتفرغ المداعب الجديد يحاول تفسير كنهه ومدى أغراضه من تدخل غير متوقع في ظرف دقيق كهذا . وقد تطول فترة المداعبة أو تقصر حسب قوة المحطة الإضافية ودرجة انتشار أمواجها في الأفق الضيق .

على نفس هذه المحطة الخارجية يسرى مفعول بعض المخدرات الموضعية كالكوكايين مثلاً . فانت إذا حقنت هذه المادة تحت الجلد في أي موضع من سطح الجسم ، أمكنك أن تعمل فيه بالسلاح واللبضع دون أن يشعر المريض بأي غضاضة أو نقور . وإذا حقنتها تحت ضرس أمكنك خلعه على حين يراقبك المريض في بساطة وسكون . وما هذا إلا نتيجة لشل مؤقت في

الأعور . وبالعكس من هذا ، إذا امتد التهاب الكبد أو للراة إلى الحجاب الحاجز سبب أعراضاً تشبه الالتهاب الرئوي . ولعل جالينوس كان أول من وصف هذه الظاهرة في عام ١٦٠ قبل الميلاد . فقد فصل في مذكراته عنها وبلغ من دقة الوصف أن قال : « إذا امتد مرض الكبد إلى الحجاب الحاجز نتج عن هذا سرعة في التنفس وآلم موضعي وسعال شديد لا يصحبه بصاق ... »

ولا بد أن يمر الشعور بالآلم بمراحل عديدة قبل أن يترجم على وجهه الصحيح . فحطة الاستقبال الأولى سواء كانت على سطح الجسم أو داخله — ترسل إشارتها إلى النخاع الشوكي ومنه إلى مكان في قاع المخ يدعى للمهاد *thalamus* ومهمته التفريق بين درجات الحرارة والآلم بشكل تقريبي . ومن هناك تستمر الإشارة في طريقها إلى المحطة الرئيسية العليا في سطح المخ ، فتتحلل تحليلات دقيقة ، ويشعر بمكان الآلم وطبيعته ودرجته من الشدة ، فيثير في الإنسان الجزع والقلق والضيق وغير ذلك من مظاهر الآلم التي يمسدها كل من اكتوى بناره .

من هذا ندرك أن شعور الآلم يجب أن يمر في المراحل الآتية : محطة إرسال سطحية أو داخلية ، ومنها يسرى في الأعصاب والنخاع الشوكي حتى يصل إلى مركز الرئاسة وهو المخ حيث تتسلمه محطتان إحداها إضافية غير دقيقة ، والأخرى رئيسية وهي بمثابة الأخت الكبرى للمكتلة النضوج التي تدرك ماخى من الأمور . فإذا تحدثنا عن دواء مسكن أو منوم أو مخدر قصدنا بهذا عنصراً كيميائياً ينزل على أحد هذه المحطات أو كلها فيشل من حيويتها بشكل مؤقت ويريح الجسم من عناء الآلم أو الأرق المذل المرمق

الجسمي، فيصحو الشخص من النوم خاملاً كسولاً لا يقبل على عمل اليوم بالنشاط للمجهود بعد أن نام ملء جفونه ساعات طوالاً . كما يجب أن تتجنب الادوية التي تؤثر في القلب والدورة الدموية أو التي تؤدي إلى عادة الإدمان كاللورفين مثلاً .

إذا استعرضنا الأدوية الشائعة واحداً بعد الآخر وبدأنا بأكثرها شيوعاً وهي مهبطات الحرارة العادية التي لا تكاد تخلو منها صيدلية أى منزل ، وأعني بهذه الخدمة مركبات الأسبرين والفيناستين والبيراميدون وجدنا نحن الأطباء أنفسنا مضطرين إلى إرسال كلمة تحذير لا بد منها في سبيل السلامة العامة . فما لا شك فيه أن لهذه المركبات فوائد عظيمة في علاج الصداع وآلام المفاصل وروماتزم العضلات وألم الأسنان ، فهي بجانب مفعولها كهبط للحرارة نتيجة تأثيرها في مركز الحرارة المخي تؤثر في الوقت نفسه في مركز الألم المجاور لآخيه الحراري أى إن بركتها تحمل على الدائرة ومن فيها . ولكن حتى هذه المجموعة البريئة في ظاهرها لا تخلو من أشواك قد تمزج ، أو قد تنال من الجسم مقتلاً . . . فالأسبرين مثلاً — هو اللعبة المفضلة في صيدلية المنزل — قد يسبب آلاماً معدية يصحبها عسر هضمي ، وقد يؤدي تماطيه إلى حدوث طفح جلدي وهرش شديدين وتورم في الوجه والعينين ونزف من الأنف والقم . ولذا جرت العادة الآن على إعطاء الفيتامين ج — وهو الفيتامين المضاد للنزف — في نفس الوقت إذا اضطر الطبيب إلى إعطائه لمريض بكميات كبيرة كما هي الحال في الحمى الروماتزمية مثلاً . ومن سبيل وضع الحق في نصبا به يجب أن نذكر أنه ليس للأسبرين وبقية أفراد أسرة السلسلات أى تأثير سيء في القلب كما تروى الشائعات . فإذا تركنا فصيلة الأسبرين وطرقنا باب

محطة الاستقبال ، فيجري كل شيء في غفلة من مركز القيادة العليا الذي يعتمد في تصريف أموره على حارس يود لو كانت أميناً ، ولكن من طبيعته أن تلهيه عن مهمته الأصلية المداعبات والمشافلات ولا يفتق من غفلته إلا بعد فوات الأوان . بقيت لدينا المحطتان الرئيسيتان ، وإحداهما كما أسلفنا تقع عند قاع المخ ، والثانية عند سطحه . أما الأولى فإن تأثيرها بأدوية خاصة يؤدي إلى زوال الألم دون أن يغيب الشخص عن صوابه أو يفقد توازنه ، كما هي الحال عند تماطي الأسبرين والبيراميدون والفيناستين والفينو باريتال (اللومينال) . ومعظم المستحضرات المسكنة المنتشرة في السوق الطبي تجمع بين اللومينال وأحد أفراد المجموعة سبالفة الذكر . أما النومات التي تشل من حركة للمركز الأعلى فمن أهمها المورفين ، وأملاح البرومور والكلورال والبارالدهيد ، فيصحب زوال الألم استرسال في نوم عميق ينسى خلاله المريض ألمه ولو إلى حين .

ومهما قيل عن أخطار النومات والمسكنات فانه لا بد أن يأتي اليوم الذي يحتاج أحدنا إلى واحد منها ليقاوم أرقاً مستعصياً سببته أحداث العالم الصاخب ، أو ليريح نفسه من ألم ممض هو من الأحداث اليومية العادية في حياة الآلة البشرية .

وإذا كان لا بد من الشر فلنتحایل عليه لنتمس منه الذي ينفع ، وتتجنب في الوقت نفسه ويلاته ومضايقاته . فيجب أن يكون الدواء للنوم مثلاً رءوفاً بالمعدة لا يهيج غشاءها المخاطي وأن يكون سهل الامتصاص من الأمعاء سريع الإفراز في البول حتى لا يتراكم في الجسم بعد أن يؤدي مهمته ، ولأنه وجد بالتجربة أن هذا التراكم يؤدي إلى نوع من التسمم المزمن ، من أهم أعراضه التبلد الذهني والحمود

شهرة العلم

قد ينتهى بالوفاة . وتحدث هذه الأعراض — لحسن الحظ — فى قلة من الناس فى أجسامهم حساسية خاصة لهذا الدواء . ويمكننا أن نجنبهم شره بتحليل دم كل مريض يتعاطاه بصفة دائمة . من آن لآخر ، ووقف تعاطيه فى الحال إذا وجدنا أن عدد الكريات البيض أخذ فى الهبوط .

وعند ما أسرد لك فيما يلى قائمة أسماء الأدوية التى تحوى مادة البيراميدون بين عناصرها ، لا أقصد مطلقاً الخط من قدرها فعموماً أسماء عزيزة كم خفت من آلام وأوجاع وأدت للانسانية خدمات جلى تسجل بماء الذهب . ولكن كل ما أريده إنذار ودى من صديق يود لو كان نافعاً وأميناً ، لولا حساسية خاصة فى البعض منا تجعل من الدواء داء ، ومن النعيم بلاء .

أسرة البيراميدون لنكشف عما فيها من محاسن ومساوىء لرأينا عجبا ؛ فالتنا نجد اسم أحد أعضائها ضمن معظم المركبات المسكنة التى فى متناول الجميع يشترونها من الصيدلى للمتخصص ومن البدال الذى يبيعها بجانب طابع البريد وعلبة السجائر . ولا بدلى فى هذا الصدد أن أرسل لك كلمة إنذار خالصة . فاذا رأيت اسم البيراميدون Pyramidon مدرجا فى تركيب دواء ما أخذ حذرك منه ؛ لأن لهذا الصديق الملعون قدرة خاصة فى بعض الأشخاص — لا كلهم بطبيعة الحال — على النزول بكريات الدم البيضاء إلى الحضيض ، قهوى من مستواها العالى البالغ عشرة آلاف فى المليمتر للمكعب إلى ألف أو أقل ، فتقل مقاومة المريض للجراثيم ويصاب بالتهابات شديدة بالفم والزور وينتابه هبوط شديد

نوع الدواء	مقدار الجرعة الواحدة	التركيب الكيميائى
الفيرامون Veramon	قرص إلى قرصين	بيراميدون ، فينوباريتال
سيبالجين Cibalgin	قرص إلى أربعة	بيراميدون ، فينوباريتال
ألونال Allonal	قرص إلى قرصين	بيراميدون ، فينوباريتال
جاردان Gardan	قرص إلى قرصين	بيراميدون ، نوقالجين
نوقالجين Novalgin	قرص إلى قرصين	لا تحويان مادة البيراميدون ولكن
فيجانين Veganin	قرص إلى قرصين	فيهما مادة الفيناستين وهى أسلم نوعاً ولو أن لها أيضاً متاعبها ومضايقاتها .

Bromides وهى من أوسع المسكنات انتشاراً وتستعمل بصفة خاصة فى علاج الأرق والتيج العصبي والصرع . وتتميز أملاح البرومور بطول مدة مفعولها ؛ لأن إفرازها من الكليتين بطيء فتبقى فى الجسم مدة أطول . ولهذا كانت فائدتها فى علاج الصرع كبيرة لأن بقاءها بالجسم مدة طويلة يضمن السيطرة على الأعصاب للتوترة حتى يحين موعد الجرعة التالية .

فكل ما أرمى إليه من عرض هذه الأسماء الغالية على كل نفس هو مجرد لفت النظر إلى عدم الإفراط دون تبصر أو روية فى تعاطيها ، وألا ننشئ بيننا وبينها صداقات كبيرة ؛ فليس أعصف بالود من ملازمة مستمرة تكشف الغطاء عما خفى وبطن .

أنتقل من ذلك إلى أملاح البرومور

شهرية العام

طفح جلدى يشبه طفح الحصبة مصحوب بارتفاع في الحرارة ، ولا يلبث كل هذا أن يزول إذا وقفنا تعاطى الدواء . أما في الحالات الشديدة المصحوبة بغيوبة فيجب حقن المريض بالاستركتين ، ويفيد أيضاً من استنشاق الأوكسجين ، وخاصة الخلوط بثاني أكسيد الكربون بنسبة سبعة في المائة .

والفينوباربتال مستحضرات عدة وتتوقف كفايتها وسلامة مفعولها على قدرة الجسم على تحطيمها والتخلص منها ، فلا يبقى منها في الجسم بعد مضي ٢٤ ساعة من تناولها سوى القليل ، ولا يؤدي تكرار استعمالها أياماً متوالية إلى تراكمها بجسمه الأمر الذي يؤدي عادة إلى أعراض تسمم مزمن . فالفينوباربتون مثلاً لا يطرد من الجسم بسهولة ، بينما النجبيوتال والاميتال ، وهما من مشتقات الباربتال أيضاً ، أسلم عاقبة لأنها يحطمان وتفرزان من الجسم بسهولة .^١ وكلما كان الإفراز بطيئاً شعر الإنسان بمخمول جسمي وذهن في اليوم الذي يعقب تناول للنوم .

وعلى العموم يحسن عدم اللجوء إلى تعاطى أحد أفراد هذه المجموعة بانتظام ولو أنه ليس هناك مانع من تعاطيها من آن لآخر عند ما تكون الحاجة ملحة . وعلينا دائماً أن نقاوم هذا القرص السحري الصغير الذي يفرينا صغرى حجمه على التهامه حتى دون جرعة ماء .

وهناك دواءان منومان شائمان منذ زمن طويل ، وهما البارالدهيد والكلورال وهما يمتازان بسرعة مفعولهما وسرعة طردهما من الجسم حتى ليصبح الشخص في اليوم التالي من نومه منتعشاً هادئاً . وكأنه نام نوما طبيعياً . ولكن ظهور للمستحضرات سالفة الذكر طنى عليهما كما طفت السيارة والقطار على ذوات الأربع كالحصان والحمار .

ولعل قائمة البرومور كعلاج للصرع هي ألمع صفحة في تاريخه الطبي . فهو غير كفاء كنوم ، ولا يزيل الألم في الحالات الحادة . وإذا أعطي بمقادير صغيرة ، خمدت حدة الذهن واليقظ والتنبه التي يمتاز بها الشخص العادي . فيبدو خاملاً خامداً ، لا يقوى على التركيز والتفكير . وإذا أعطي بمقادير كافية لجلب النوم فإن المريض يصحو منه كسلان على غير ما نعهده فيه بعد الاستيقاظ من نوم طويل .

وإذا أعطي البرومور مدداً طويلة فإن تراكمه بالجسم يسبب أعراضاً خاصة ، من أهمها بلادة التفكير وضعف الذاكرة ، وظهور طفح جلدى يظهر على شكل ققاعات أو بثور دموية أو بقع حمراء ، وفي الحالات الشديدة قد لا يقوى المريض على السير بثبات ، ويتهته ويتلعثم إذا حاول التعبير عن أفكاره . ويمكن شفاء هذه الحالات بوقف تعاطى الدواء وتناول المريض كميات كبيرة من ملح الطعام أي كلورور الصوديوم ، فإن هذا يساعد على سرعة إفرازه بواسطة الكليتين .

وقد شاع في السنين الأخيرة استعمال مستحضرات الفينوباربتال Phenobarbital ومن أسمائه المعروف بها اللومينال Luminal حتى ليقال إن معامل الولايات المتحدة وحدها أخرجت ما زنته مائة طن استهلك منها داخل أمريكا نفسها ثمانون طناً ، وأصبح الناس يستعملونها في بساطة كأنها أقراص الحلوى ، ولجأ إليها الكثيرون كوسيلة للانتحار ، وأدى سوء استعمالها إلى ظهور أعراض تسمم شديدة تصحبها غيبوبة قد لا يفيق المريض منها نتيجة شلل مركز التنفس الخفى ، أو التهاب رئوى . حادثتجه الغيبوبة الشديدة وتراكم الإفرازات المخاطية في قاع الرئتين ثم غزوها بالجراثيم . ولكن قد لا تعدو أعراض التسمم حدوث

شهرية العلم

أما المورفين فيجب تجنب استعماله كنوم
في حالات الأرق المزمن؛ فقد يولد في الشخص
عادة مزمنة متى وقع في مخالها فقل عليه
السلام . ولكننا نلجأ إليه كسكن من
الدرجة الأولى في الأزمات القلبية والكلبية
والكبدية وفي الأمراض المزمنة الميثوس منها
لكي يقضى المريض أيامه الأخيرة على أهنا حال .
هذه قصة تلك الطاقة الفريدة التي قد ترى
العين غير المجربة بين أفرادها الفل والياسمين
على حين ترى فيها العين الناقدة الخطر الدفين .
فاحذروا لين ملمسها ، لأن الخداع من طبعها
والقدر من طبيعتها .

مصطفى البراقي

شهرية الاجتماع

إصلاح الاداة الحكومية

ضرورة يقتضيها السعى لتحقيق الاهداف القومية

الحكم النظام البرلماني في رقيه ، وسرعته ، ومرونته . بل لم تتفق مع أوضاعه ، وإن كنا لا ننكر ما للنظام البرلماني نفسه من أثر بعيد المدى في مضاعفة العلة وزيادة الحرج ! وكلنا يعلم أن إنجلترا هي مهد النظام البرلماني الحديث ، ومنها انتقل إلى فرنسا ، ثم انتشر في معظم الدول الأوروبية . غير أن فرنسا عندما اقتبست هذا النظام أقامته على أداتها الادارية القديمة التي صاغت لها حكوماتها الاستبدادية ، فكانت النتيجة الطبيعية لذلك هي اضطراب نظامها البرلماني ، وكثرة الثورات فيها ، وتوالى الدساتير ، إذ تعاقب عليها منذ ثورتها الكبرى اثنا عشر دستوراً . وكان هذا أيضاً حظ النظام البرلماني في أكثر الدول التي نقلته عن فرنسا (١) !

وقد كان من جراء هذا الموقف الدستوري الخطير أن توجهت مجاهر العلم صوب النظم الادارية ، فكان التنظيم الاداري العلمي في الدول العريقة والفتية على السواء ، وخاصة بعد إذ تبين أن الاضطرابات العنيفة التي اتت النظام البرلماني ، ودفعت بعض الأمم إلى خنقه واستبدال النظام الدكتاتوري به ، إنما كان مرجعها كلها لا إلى جوهر الديمقراطية ، بل إلى فساد الهيئة التنفيذية ، واختلال أساليب التعاون بينها وبين الهيئة التشريعية .

كانت السلطات الثلاث : التشريعية والتنفيذية والقضائية ، مندوجة بعضها في بعض ، لا يميزها خط واضح . ثم أخذت تتفصل رويداً رويداً حتى ظهرت « نظرية فصل السلطات » فطبقتها كل دولة بما يلائم ظروفها التاريخية .

وبمقتضى النظرية الجديدة أصبح ، بمرور الزمن ، لكل سلطة كيانها الخاص ، ونظمها الذاتية ، واستقلالها المحترم . ولكن ليس معنى ذلك أنها باتت بمعزل عن السلطين الآخرين ، إنما هو توزيع عملي للوظائف الرئيسية للدولة الحديثة ، أملت الضرورات ، وأوحت التجارب الشاقة الطويلة بقصد الوفاء الدقيق بالالتزامات الكثيرة المتبادلة بين الدولة والرعية ، وفي سبيل دعم أسس المجتمع الصالح الذي مازالت الانسانية تهرق دماءها الغالية على مذبحه ، وتجعله ابداً مثلها الأعلى للمومق .

إلا أن الأمم التي اقتبست الحياة البرلمانية ظنت أنها بلغت ذروة الكمال في نظم الحكم ، وأصبحت دون منال شهوات الحكم وأخطأهم . فانصرفت عنايتها إلى هذه الحياة البرلمانية وحدها ، وشغلت بها عن الهيئة المتممة لها ، والتي ابتدعت من أجلها ، ألا وهي : السلطة التنفيذية . ولهذا السبب لم تجار أداة

(١) انظر بحث « اصلاح الاداة الحكومية والادارية في مصر » للدكتور محمد جبد الله العربي بك « مجلة القانون والاقتصاد » مايو (١٩٣٤) .

شهرية الاجتماع

وقد تخلفت مصر ، في هذا السبيل ، عن سائر الدول المتحضرة تخلفا واضحا ، أدى بها إلى هذا الجمود السياسي والاجتماعي المزعج . فقد ابتليت إدارتها الحكومية بتعقيدات لا حصر لها نظرا إلى ما لا يس تاريخ البلاد من اضطرابات وتفاعلات شتى .

وقد كان من الواجب بعد إذ حصلنا على استقلالنا عام ١٩٢٢ ، أن يفكر ولاية الأمر في مقابلة هذا التغيير السياسي بتغيير إداري يلائمه ، غير أنهم شغلوا بالجهاد الوطني وحده ، وقتهم أن الاصلاح الداخلي ، وفي مقدمته الاصلاح الادارى ، هو الدعامه الحقيقية التي يقوم عليها استقلال صحيح !

ولا نغالى إذا قلنا إن أدواتنا الحكومية الحاضرة ، التي يشكك عليها الاستقلال ، يرجع تاريخها إلى أيام الاحتلال ! ... فبعد أن انتهت الثورة العرابية ، ورسخ الانجليز أقدامهم في مصر ، أدركوا ، وأدركت الحكومات التي تألفت في عهدهم ، أن للشعب المصرى روحا قوية تكن ولكن لا تموت أبدا : روحا سامية لا تسهل مقاومتها وإن كان يسهل مداورتها ، لأنها روح الفطرة السليمة ، والطبع المستقيم الصريح . ولذلك عمدوا منذ بدء الاحتلال إلى مخدر الاصلاح الظاهري يسكنون به نفوس الشعب المتعطش إلى الاستقرار، والعدالة، والكرامة ؛ فصدر قانون أول مايو سنة ١٨٨٣ ، بناء على اقتراحات مبعوثهم الأول اللورد دوفرين ، متضمنا الكلام عن (١) مجالس للمدريات (٢) مجلس شورى القوانين (٣) مجلس شورى الحكومة (الذى لم يؤلف من بعد) . ويعتبر هذا القانون أساس الاداة الحكومية القائمة اليوم بغض النظر عن التعديلات الجزئية ، السطحية ، التي أدخلت عليه في فترات مختلفة . فما زال الوزراء كما كانوا — يركزون في أيديهم كل الاختصاصات

وقد كانت الولايات المتحدة أسبق الدول جميعها إلى إصلاح « جهازها » الادارى برمتها ، إذ أنشأت عام ١٩١٠ « لجنة الاقتصاد والكفاءة » لهذا الغرض . وفي سنة ١٩١٢ وافق البرلمان الأمريكى على جعل تلك اللجنة دائمة « لأن معضلة الحصول على أداة حكومية صالحة ليست من المسائل التي تعالج دفعة واحدة ، بل هي مستمرة الوجود ، دائمة التجدد » .

وكانت انجلترا أولى الدول في الاهتمام « ببيئة الخدمة المدنية » — أى هيئة موظفي الحكومة — خاصة ، فشكلت عام ١٨٥٣ لجنة تريقليان - نورث كوت التي كان من نتائج أعمالها صدور مرسوم ٢١ مايو ١٨٥٥ الذى نص على ضرورة « التفوق في الاختبار كأساس للتوظيف » ، ثم مرسوم ٤ يوليو ١٨٧٠ الذى يعتبر إلى وقتنا هذا دستور الخدمة المدنية في بريطانيا . غير أنه لم تكف تضع الحرب العظمى الماضية أوزارها حتى حذت بريطانيا حذو الولايات المتحدة ، فأنشأت « لجنة الاداة الحكومية » Machinery of Government Committee التي عهد إليها فحص الجسم الادارى كله .

وقد لحقت بالولايات المتحدة وانجلترا في هذا السبيل ، أمم أخرى كثيرة ، حتى فرنسا التي حفل تاريخها السياسي والدستورى بتقلبات عنيفة لم تشذ عن القاعدة . وقد أهاب العلامة هنرى شاردون ، المستشار بمجلس الدولة ، بمواطنيه قائلا : « إن البرلمان ليس إلا نصف الديمقراطية بل قد لا يكون نصفها الأهم ؛ إذ أن الديمقراطية تقوم على دعامتين : إحداهما أداة سياسية ، قائمة على الأكثرية العددية ، ومشرفة على الشؤون العليا للدولة ، ومتغيرة حسب نتائج الانتخاب . والآخرى أداة إدارية ، قائمة على حسن الاختيار ، لتسيير الحياة اليومية » .

شهرية الاجتماع

على الوزراء وأعضاء مكاتبتهم يكاد يشمل كل رؤساء الادارات ومن فوقهم ومن تحتهم من الموظفين . فهذه مشروعات تحيا ثم تموت ، ثم تبعث من جديد يوم يؤذن لها بالنشور . وهؤلاء موظفون يعينون اليوم ، ويرقون ، ثم تدول دولتهم فاذا بهم في آخر الصفوف مستذلين إن لم يقذف بهم إلى عرض الطريق ! وهنا يحلولى أن أستعير كلمة خلافة لسياسى مصرى معروف ، قال فيها : « ليس للسياسة ضمير فى أى بلد من بلاد العالم . أما فى مصر فليس لها عقل أيضا » !

ويمحزنى أن أقول إن كل ما ننشده اليوم لمصر من أمانى ، وما نعقده عليها من آمال كبار جسام ، لا يمكن أن يتم كما نريد ونشتهى وأداتها الحكومية كما هى لسبب بسيط هو أن النقيضين لا يجتمعان !

محمد عبد الرحيم غير

الملتقة بوزاراتهم ، كأنهم رجال إدارة — أى موظفون — لا « رجال سياسة » كما يقتضى الوضع البرلمانى السليم ، وما زالت تثن البلاد تحت وطأة النظام اللامركزى الصورى الذى أنشأه الاحتلال !

أما مسائل للموظفين فأمرها أعجب ما يقال ، إذ كنا بدأنا ، منذ أواخر عهد إسماعيل ، الاقتباس فيها من أحدث أنظمة الغرب ، ولم يلبث ما اقتبسناه أن انهار وذاب ، وعلى الأخص بعد قيام الحياة البرلمانية !

ومن أخطر مظاهر أداة الحكم فى مصر ، بل أبخطرها على الإطلاق ، ارتباطها بمجمل السياسة . فحين تحمل بنا أزمة سياسية سرعان ما تقف « الآلة الحكومية » ، وتتعلل الأعمال العامة الحيوية التى من شأنها الدوام . وبديل أن يقتصر التغيير ، من عهد إلى عهد ،

شهرية السياسة الدولية

بين التصفية والتنظيم

حررت هذه الشهرية بين تاريخين ، بين الخامس عشر من أكتوبر والثالث والعشرين منه . وفي الخامس عشر من أكتوبر كانت الجلسة الختامية لمؤتمر الصلح في باريس ، وقد حدد الثالث والعشرون منه موعداً لانعقاد الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة في نيويورك . . . وقد سبق ختام مؤتمر الصلح لانهاء من محاكمة مجرمي الحرب في نورمبرج وتنفيذ الأحكام شنتاً في من قضى عليه بالاعدام ، كما أنه سيتلو انعقاد دورة الأمم المتحدة تقاذ الدستور الجديد في فرنسا ، وانهمالك سائر الدول التي كانت مشتركة في الحرب في الاصلاح وإعادة البناء . ومعنى هذا أن هذه الشهرية قد حررت بين التصفية والتنظيم : تصفية حالة الحرب ، وتنظيم وسائل السلام .

فلسفة نورمبرج

ولمحاكمة نورمبرج فلسفة ؛ فهي الأولى في التاريخ التي عقدت فيها محكمة دولية للنظر في شؤون جنائية . وهي الأولى في التاريخ التي يتولى فيها المنتصرون معاقبة زعماء المهزومين . وهي كذلك الأولى في التاريخ التي يكون موضوعها جرائم الحرب . لقد أدخلت في قوانين الحرب والصلح مبدأ المسؤولية الشخصية بعد أن كانت تلك القوانين لا تعتبر غير مسئولية الدول ، تفرض عليها الغرامات وتغير فيها التخوم ، ولو أدخلت اعتبار المسؤولية الذاتية فانها لم تكن تتجاوز شخص الرئيس الأول إلى أخذ غيره من معاونين . ولقد كان هذا هو الشأن بالنسبة لنابليون ، وكان هذا هو بعض الشأن بالنسبة لغيلوم الثاني . أما القواد والسياسيون والماليون والاداريون فكانت محاسنتهم لمناسبة تصرفاتهم أثناء الحرب هذه هي الأولى . وقد يكون لهذا التصرف شيء من الأثر في نفوس أولئك الذين يقدفون بامهم وبالمعالم كنه في أتون المنازعات والحروب . فقد يكون هذا للشل رادعاً لهم يفكرون بسببه مثنى وثلاث ورباع قبل أن يقدموا على فعلتهم . وقد يكون لهذا التصرف أثر في احترام قوانين الحرب التي محرم استعمال بعض الأسلحة وبعض الأساليب . لكنه يكون حتماً دافعاً إلى التفكير في أولئك الذين استعملوا القنبلة الذرية في هوراشيا وناجازاكي دون سابق إنذار بل دون سابق علم للبشرية بهذا السلاح المدمر الجبار !

وفلسفة أخرى لمحاكمة نورمبرج . فقد كان المعروف في أصول القضاء أن يكتم سر المداولة ، وأن الحكم الذي يصدر بكثرة الآراء دون إجماعها لا يعرف الناس عن تفصيل كثرته بل عن مبدأ هذه الكثرة شيئاً . وفي محاكمة نورمبرج احتج القاضي الروسي على تبرئة الثلاثة المبرئين وعلى خفة

شهرة السياسة الدولية

١- سكر على رابع بالسجن المؤبد بدل الاعدام .
ولتنفيذ الاحكام ذاته فلسفته ، فلم يسمح
للصحفيين اول الامر أن يحضروه ، ثم سمح
لثمانية منهم به ، ثم امتنع عن حضوره الاثنان
لروسيان ، وقيل إن امتناعهما من باب
الاحتجاج على إهمال الرقابة المفروضة إلى حد
تمكين جورنج من الانتحار . ثم سهر
المنفذون على أن يتأكد الألمان أن الانتحار

واقم وأن وفاة جورنج ليست راجعة إلى
سوء المعاملة .
فلسفة عجيبه تلك التي تتلمسها خلال تصرفات
نورمبرج ، وهي في مجموعها لا تقرب في
نظرنا ساعة الاطمئنان إلى أن البشرية سائرة
حقاً في سبيل القضاء على أسباب الحروب
أو بالأقل على أسباب سوء الظن . . .

مؤتمر الصلح

أما مؤتمر الصلح فقد كان هو الآخر
مظهراً من مظاهر سوء الظن المتبادل بين
الدول العظمى ، بل بينهن وبين الدول
الصغرى أيضاً .
تجلى فيه الانقسام بين كتلتين : كتلة
'الصقالية وكتلة الانجلوسكسونيين . وتقابلت
الكتلتان ووقفت الواحدة منهما للأخرى
موقف الخصام المناضل . وكذلك تجلى فيه
عدم الرضا . كان موضوعه وضع معاهدات
الصلح مع إيطاليا والمجر وبلغاريا ورومانيا
وفنلندا ، فلم ترض واحدة من هذه الدول
عن المعاهدة التي فرضت عليها . وزاد عدد

القاضيين . من جراء هذه المعاهدات بين الدول
المتحالفة للمشاركة في الحرب ضد أولئك
الاعداء الأولين . لم ترض يوجوسلافيا
وأعلنت أنها لن توقع على المعاهدة الايتالية
لأنها قد ظلمت في تسوية المسألة التريستية .
ولم ترض اليونان للتخوم التي تركت لبلغاريا ،
ولم ترض البانيا لتخومها مع اليونان ، ولم
ترض أثيوبيا لتأجيل النظر في مسألة
المستعمرات الايتالية وإرجاء ضم أرتيريا إلى
أملاكها ، ولم يرض أهل طرابلس وبرقة
والعالم العربي جميعاً لتعليق مصير ليبيا سنة
كاملة .

اليونان

وفي اليونان لا تتجه الأمور إلى
الاستقرار . وفيها في الواقع شبه حرب
أهلية بين الشمال والجنوب . وبريتانيا تقول
بمبدأ سحب جنودها من هناك ، لكنها
لا تستطيع تحديد موعد هذا الجلاء . وتريد
أن تمنح اليونان بالأسلحة والذخائر ، لكنها
تخشى أن تنتقل هذه الذخائر والأسلحة من

الجيش إلى الخارجين عليه ولا سيما الشيوعيين
منهم . ويلوح أن الأمر الآن إلى محاولة
جديدة هي محاولة الانتخابات التي تجرى
بعد عودة الملك إلى بلاده . وقد تنتهي
باشتراك جميع العناصر فيها ، وقد يصل هذا
الاشتراك إلى شيء من الهدوء والاطمئنان
إلى النتائج .

إيران

معنوى للانجليز . فأذريجان نال استقلاله الذاتي ، وعربستان باقية في حدود إيران لم تنتزع منها وتضم إلى العراق . وإذن فقد اتجهت للمساعي — ولا سيما بعد أن أذيع أن روسيا قد دعت إيران إلى عقد محالفة عسكرية بينها وبين الاتحاد السوفيتي — إلى عودة إلى التفاهم على عدم تدخل روسيا في الشمال ولا انجلترا في الجنوب ، وترك إيران بين الاتحاد السوفيتي ومناطق النفوذ البريطاني في آسيا « منطقة حرام » .

ومن يدري ! فقد يكون في هذا الاتجاه خير ، ومن يدري ! فقد يصبح تطبيقه على تركيا بالذات بعد أن قيل إن لروسيا مشروعا ضخما يصل البحر الأسود بالبحر الأدرياتي فبالبحر المتوسط دون الدردنيل والبوسفور !

ويقابل هذا للمسعي في الطرف الغربي من الشرق الأدنى مسعى آخر في الطرف الشرقي من الشرق الأوسط . ففي إيران قامت المنافسة بين روسيا وانجلترا . وقالت انجلترا إن روسيا هي التي دبرت الحركة في أذريجان . لكن الحركة انتهت ، وانتهت إلى تفاهم من شأنه أن يستقبل الشاه رؤساء الاقليم النافر فيملنون بين يديه أنهم إيرانيون يستمسكون بالبقاء في حظيرة إيران . وقامت حركة أخرى في عربستان قبل أن لانجلترا يدا في قيامها ، بل إن حكومة طهران قد طلبت إلى الحكومة البريطانية سحب قناصل لها اتهمتهم بأنهم المحركون للقبائل والثوار . واتجهت هذه الحركة الثانية إلى السكون . لكن سكوت الشمال كان وراءه انتصار معنوى للروس ، وسكون الجنوب وراءه إخفاق

في هيئة الأمم المتحدة

والإعتراض ، واستعملته أكثر من مرة والاتجاه هو إلى حرمانها من هذا الحق . والدول الصغيرة والدول المتوسطة كلها تؤيد بلا ريب إلغاء هذا الحق لأنه واضح لمن في موضع غير كريم . لكن تعديل الميثاق يستدعي كثرة ثلثي الأعضاء . فهل يوفق الحاملون على الاعتراض للحصول على هذه الكثرة ؟

وسيكون بطل إثارة مسألة إساءة معاملة جنوب أفريقيا لأهله الأصليين هو نهرو الزعيم الهندي . فقد شكت الهند جنوب

وفي جدول أعمال هيئة الأمم المتحدة موضوعان شائكان : أولهما موضوع حق الاعتراض على القرارات ، وهو المنوح بمقتضى ميثاق سان فرانسيسكو للدول العظمى صاحبة المقاعد الدائمة في مجلس الأمن . وموضوع معاملة جنوب أفريقيا لأهله الأصليين لأن لهم لونا غير لون الأوروبيين ، ودياجة الميثاق تقضي بعدم التفرقة في أخذ الناس تفرقة ترجع إلى اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين .

وقد استعملت روسيا خلال الدورة الماضية من دورات هيئة الأمم المتحدة حقها في الرفض

• نهريه السياسة الدولية

افريقيا لهيئة الامم المتحدة لتمييزها في المعاملة بين الاوريين والهنود . ونهرو هو الذي يتولى رئاسة الوفد الهندي هذه المرة . ومن مبادئه المعروفة الحرية والمساواة للناس جميعاً وبين الناس جميعاً . وستتخذ روسيا نصرة لتأييد نهرو والتأكيد بالسكسونية ؛

اذ لا تقف معاملة الملونين عند حد جنوب افريقيا وحدها بل تتجاوزها الى الولايات المتحدة بالذات . وسنرى هل تخرج الهيئة الدولية الجديدة من التفتت الى التقدم، أو الى الرجعية ، الى المساواة أو الى التمييز . وإنها لتجربة مرتقبة .

محمود عزمى

شهرية السينما

مترو جلدوين ماير . في الموسم الماضي قدمت للمرة الثانية « ذهب مع الريح » و « غادة الكاميليا » و « جسر واترلو » . وهي منذ أسبوعين تعيد مرة أخرى فيلم « غضب من السماء » الذي يعد من خير الأفلام بالقياس إلى ما تلتجه الشركات السينمائية الأمريكية عادة من أفلام سقيمة .

أبتدأ للموسم السينمائي بقدوم شهر أكتوبر بعد ركود دام أكثر من ثلاثة أشهر . واستأنف مديرو قاعات العرض نشاطهم بتقديم الأفلام المصرية إلا في ثلاث قاعات تعرض أفلاماً أمريكية أو فرنسية . وأخذت قاعة مترو منذ السنة الماضية تعيد من آن لآخر عرض خير ما أنتجته قديماً شركة

غضب من السماء (مترو جلدوين ماير) (١)

يكلف ستيل ، ويصور له مركب النقص أن ستيل لا تحبه بل تهيم بصديقه وتبادله غراماً بفرام . ويقوى عنده هذه الفكرة ما تبديه من اضطراب عند ما يتحدثها عن وورد . وتحرك الغيرة عند فيليب طبيعته الشريرة ، فيدير لامراته وصديقه سلسلة من المواقف ليثبت لنفسه أنها عاشقان . فيدعو وورد عنده في القصر وكثيراً ما يتركه بمفرده مع ستيل . ثم يطلب من وورد أن يعمل عنده في المصنع الذي يديره . وعند ما يعتقد فيليب أن لديه ما يثبت حب ستيل لصديقه ، يحاول قتل وورد ولكنه لا ينجح ، فيفترق الصديقان . ويأخذ فيليب في تعذيب امرأته ويحاول قتلها أيضاً في أثناء نوبة من النوبات التي تعتريه من حين لآخر . وتهرب الزوجة وتحتمي بوورد ، وقد بدأت تعجب به وتقدره لقوة شخصيته . وما الاعجاب إلا أولى مراحل الحب . ولكن فيليب لا يرضى بهذا الوضع فقد أخفق في الانتقام من صديقه وزوجه .

وهذا الفيلم يعتبر دراسة لحالة نفسية معقدة لشخص ابتلاه الدهر بمركب النقص دفعه إلى الانتحار للتخلص من حياته التعسة وللانتقام من الشخص الذي كان مبعث شقائه للتصل . تبدأ حوادث القصة في باريس في مستشفى للأمراض العقلية حيث يقيم الشاب فيليب مونزيل منتحلاً اسم صديقه وورد أندروز . وينجح فيليب في الهرب من المستشفى والعودة إلى إنجلترا حيث يصادف صديقه وورد ، فيدعوه إلى الإقامة في قصرة الريني . وهناك في القصر يلتقي الشابان بفتاة تدعى ستيل وكانت تعمل وصيفة لوالدة فيليب . يقع الشابان في غرام الفتاة ، ولكنهما لا يوافقان ببعضهما . وما يكاد وورد يرحل عن القصر ، وكان يستأثر بالفتاة دون صديقه ، حتى يسبح فيليب بحبه للفتاة ، ويطلب منها أن تزوجه . ويتم الزواج فعلاً ويبدأ شقاء الزوجين وصديقهما وورد . فالزوج يعلم أن وورد

شهرية السيما

بأن يطلعا نا على حالته النفسية من أقوال طبيبه المعالج ، بل هما يجعلتا نشاهد عدة مواقف تظهر لنا جلياً مركب النفس الذي عذبه طيلة حياته ، ولم يتركنا ناحية من هذه الشخصية الشاذة إلا أبرزها وأمعنا في دراستها . وقد يكون في الفيلم بعض مناظر تعتبر مسرحية أكثر منها سينمائية ، منها هذا المنظر الذي تنزه فيه ستيل في الحديقة ثم تصادف في طريقها فيليب . وهذا المنظر الآخر الذي يتبدى " فيليب منك في المطالعة . فتفتح عليه ستيل باب الحجرة وتدخل . ولم يوفق المخرج في اختيار بعض مناظر الحديقة ، فبدت للمشاهد غير طبيعية .

أما التمثيل فكان موقفاً كل التوفيق بفضل ممثليه الثلاثة وهم : جورج ساندرز ، وكان يمثل دور وورد أندروز ، وقد نجح في إبراز ما لهذه الشخصية من قوة وقتنة . وروبرت موتجومري الذي قام بدور فيليب مونريل ووفق في تمثيله إلى تحقيق هذه الشخصية المركبة دون الالتجاء إلى عنف في التعبير ؛ وانجريد برجان التي أخرجت لنا شخصية ستيل ، تلك الفتاة البسيطة الراضية بمصيرها الأسود . وساعدها المصور على إبراز مقدرتها على التعبير بنظراتها عما يحتاج نفسها من شعور مضطرب .

فيفكر في الانتحار ليتخذه وسيلة للانتقام منها معاً ، وينفذ فعلاً ما عزم عليه بعد أن ترك ما يكفي من الأدلة ليتهم وورد بهذه الجريمة ، فينجح في تدبير هذه المؤامرة ويلقى القبض على وورد ويحكم عليه بالاعدام .

إلى هنا سارت القصة سيراً منتظماً ، لحواشيها متسلسلة تسلسلاً طبيعياً ، فهي نتيجة حالة فيليب النفسية وصدى لمركب النفس الذي أشقاه وجعل حياته بؤساً متضلاً . غير أن الحوادث تطورت فجأة . فلا بد من نهاية حسنة للقصة . وليكون للقصة نهاية حسنة لا بد من إلقاء وورد . فالمؤلف يجعل ستيل تكتشف في الأربع وعشرين ساعة السابقة لتنفيذ حكم الاعدام أن زوجها يوميات ، وأن هذه اليوميات تتضمن اعترافات تبرى وورد . ولكن هذه اليوميات في باريس ، فتستقل طائرة وتطير إلى العاصمة الفرنسية لتبحث عنها وأخيراً تهتدي إليها . وبالاقتداء إليها يفهم المشاهد أن وورد ناج بلا شك . وهكذا تتابعت الحوادث سراعاً مما جعل المشاهد في حالة من الالهة غير طبيعية .

وقد وفق المؤلف والمخرج في تصوير شخصية فيليب مونريل . فلم يكتف الاثنان

فوتران (جومون) (١)

قصص مجموعة « للمهاة الانسانية » فهو يلعب دوراً في قصة « الأب جوريو » و « أوهام تبسدت » و « عظمة الفانيات و بؤسن » . وقد بعث الكاتب من جديد في قصة « فوتران » حيث يقوم بدور سجين

« فوتران » قصة للكاتب الفرنسي بلزاك اقتبسها عنه بيير بنوا وقدمها للسينما . وهي لا تختلف في حواشيها ووضعها عما اعتدنا أن نقرأه في كتب بلزاك العديدة . وشخصية فوتران من الشخصيات التي نجدها في بعض

في تبرئة قوتران والمركز دي رومبيرى .
والقصة في بدايتها تذكر «بالبؤساء» ؛
فقوتران مثل جان قالجان فار من وجه
العدالة ورجال الشرطة يلاحقونه حيثما ذهب .
وأطلعنا المؤلف على حيل قوتران للهروب
من الشرطي المكلف بمراقبته . وهذا الشرطي
يذكرنا أيضاً بشخصية جاقير . وتحمل القصة
طابع روايات المذهب الرومانتيكى في آخر
أيامه ، نهى لا تخلو من مؤامرات وجرائم
الاغتصاب والدسائس الاجتماعية . نهى
صورة بغيضة لما وصل إليه انحلال المجتمع
الأخلاقي في عصر بلزاك .

وإخراج القصة لا يخلو من طرافة واتقان .
فقد حافظ المخرج على روح قصص بلزاك
وجوها . غير أن الناظر في بعض الأحيان
تبدو غير طبيعية . كما أن الصور لم تكن
واضحة كما ينبغي لرداءة الضوء . وقد ساهم
تمثيل مسيو ميشيل سيمون وإتقانه في إخراج
شخصية قوتران ، ومواهب مادلين سولوى
وأداؤها الطبيعي في نجاح هذا الإنتاج .

بشرى لامل

هرب من السجن وانتحل شخصية الأب
كارلوس هيريرا مبعوث ملك أسبانيا في فرنسا .
وفي طريقه إلى باريس صادف شاباً كاد أن
ينتحر لولا أنه مد له يد المساعدة ، فأعانه
على اكتساب مكانة رفيعة في المجتمع الباريسى ،
كما توصل إلى تلقيبه بالمركز دي رومبيرى .
ولكن الحظ يخون الاثنين في النهاية ، وحين
يقتضح أمرهما ينتحر المركز الشاب . أما
قوتران فبقوة إرادته وذكائه الحارق ينجح
في كناحه مع العدالة ، ويصل أخيراً إلى مركز
رئيس البوليس السرى .

والقصة لا تخلو من قيمة أدبية واجتماعية .
فلزاك يبرز في حوادثها ما للمجتمع الفرنسى
في عصره من عيوب ، وما كان للطبقة العليا
من تأثير سيء في رجال العدالة . فقوتران
لا يصل إلى المركز بشخصيته الجبارة فحسب ،
بل كذلك بمساعدة سيدات من طبقة النبلاء
أردن ألا يقتضح أمرهن في هذه القضية ،
فطلبنا إلى النائب العام أن يتكتم المسألة
ووعدن المحقق يتعيينه مستشاراً إذا نجح

من كتب الشرق والغرب

كتاب الفاشوش

بقلم صلاح الدين . ومحدثنا الرواة أن صلاح الدين كان يشرك معه بعض أولاده في إدارة مصر أثناء غيابه لما يعلم من عدم فطنته ونباهته . ولكن حدث ذات مرة أن ترك له حكم مصر منفرداً ، فتشوش عليه الأمر ، وأتى في حكوماته بين الناس من الحق والغفلة ما جعل أكبر كاتب فكه لعصره وهو ابن مماتي يضع عليه الحكايات المضحكة ، وقد نسقها في الكتاب الذي نحن بصدد الآن وسماه هذا الاسم الطريف « كتاب الفاشوش في حكم قراقوش » وإنه ليستله بقوله : « إني لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش محزنة فاشوش ، قد أثلث الأمة ، والله يكشف عنهم كل غمة ، لا يقتدى بعالم ، ولا يعرف المظلوم من الظالم ، والشكية عنده لمن سبق ، ولا يهتدى لمن صدق ، ولا يقدر أحد من عظم منزلته أن يرد [على] كلمته ، ويشتط اشتطاط الشيطان ، ويحكم حكماً ما أنزل الله به من سلطان ، صفت هذا الكتاب لصلاح الدين ، صي أن يريح منه المسلمين » .

ويذهب بعض المستشرقين ، وهو الأستاذ كازانوفا الذي عني يبحث هذا الكتاب ونشره ، إلى فكرة طريقة خلاصتها أن ابن مماتي لم يؤلف هذا الكتاب لغرض الضحك فقط عن غفلة قراقوش وغبائه ، بل ألفه سخطاً على الدولة الجديدة التي خلفت الدولة الفاطمية ، وهي دولة كانت تنصب على القبط عكس دولة الفاطميين ، فأراد أن يكيد لها بتعقب أحد حكاها تعقياً مضحكاً ، أو قل

هذا الكتاب أقدم الكتب الفكهة في تاريخ مصر العربية ، وقد ألفه ابن مماتي صاحب ديوان الجيش والمال لعهد صلاح الدين ، أو كما نقول نحن الآن وزير المالية والحرية . وكان آباؤه من نصارى أسيوط نزحوا إلى القاهرة في عهد الفاطميين واتصلوا بهم وفوضوا إليهم كثيراً من شؤونهم وأعمالهم . فلما قدم صلاح الدين وعمه أسد الدين شيركوه من قبل نور الدين ، وأصبح إليهما أمر مصر اضطرهما موطن الدولة من القبط ، واضطرت أسرة ابن مماتي تحت تأثير هذا الاضطهاد أن تسلم حتى تحتفظ بمسكناتها في الدولة ، واستقام لها ذلك ، فإن صلاح الدين قرب منه المذهب مماتي ، وجعله قياً على ديوان الجيش ، فلما توفي خلفه ابنه في عمله ، ثم أسندت إليه الشؤون المالية فأحسن تدبيرها وتصريفها .

وقد اشتهر ابن مماتي في عصره بسرعة البديهة والذخ في النادرة . يقول ياقوت عنه في كتابه « معجم الأدباء » : إنه كان ذا خاطر وقاد مسارع . ويقول أيضاً : إن له نوادر حسنة حادة . وقد تعلق هذه الشخصية الفكهة بشخصية أخرى عاصرتها ، هي شخصية قراقوش التركي أحد قواد صلاح الدين وأصفيائه ، وكان فيه — على ما يظهر — شيء من الغباء والغفلة والشدّة والقسوة ، ومع ذلك كان صلاح الدين يسلم إليه مقاليد مصر حين يغيب عنها في حروبه الصليبية ، وهو الذي قام على بناء قلعة الجبل المعروفة

تعقبا ساخراً ، يسخر آثاءه من صلاح الدين وما كان من طغيانه هو وحاشيته أو بطاته . وهي فكرة قيمة ، وإن كان يضعف منها أن ابن مماتي لم يكن نصرانيا حين تأليفه هذا الكتاب ، أو على الأقل ليس بين أيدينا دليل على أنه كان نصرانياً حينئذ ، إذ كان قد أسلم . ومع ذلك فربما كان أسلم على ضعن وموجدة . ومن يدري لعل المصريين جيماً قبطاً ومسلمين كانوا يتعصبون على دولة صلاح الدين ، وخاصة أنه ألفى كثيراً من أعيادهم الفاطمية ، وأيضاً فإنه أتهمهم في غاراته وحروبه الصليبية . ويظهر أن بطاته كانت كلها أجنبية أو تكاد . ومن هنا تسلل بعض معاصريه ، وهو ابن مماتي إلى الكيد لهذه الدولة عن طريق الفكاهة ، وهو كيد قديم عرفت به مصر منذ عهد الرومان ؛ فقد كانوا يستقبلون ظلم بعض القياصرة بالفكاهة الساخرة بنفسون بها عن صدورهم . وهذا هو ما لجأ إليه ابن مماتي في عهد صلاح الدين ، فقد تعقب أهم قواده ، وما كان من حكوماته الطائشة بين المصريين ، فألف فيها هذا الكتاب الطريف كتاب الفاشوش . وأول ما تلقاه في الكتاب من هذه الحكومات أن سيدة حجازية تقدمت لقراقوش تشكو له جارية مملوكة لها ، فعجب أن تكون امرأة يضاء خادمة لسيدة سوداء فرد شكواها عليها مدعياً أنها ليست السيدة بل هي الجارية ، والجارية هي السيدة ، وهم بحبسها لولا أن تدخلت الجارية ففتت عن سيدتها . وتمضى حكومات قراقوش على هذا النحو المضطرب : فمن ذلك أن رجلين من أصحاب اللجى الطويلة جاءاه يشكوان إليه رجلاً « أجرودا » كان ما يزال يمث بلحيتيهما ، ونظر قراقوش إليهما وإلى خصمهما فلم يجد له لحية . حينئذ قلب الوضع في القضية إذ ظن أنها هما اللذان اعتديا عليه بقتل لحيته ، فصاح في غلخانه : ودوهما إلى السجن .

ولا تخرجوها حتى تطلع ذقن هذا الرجل . وهكذا رد الأمر إلى نصابه على ما ظن وتصور . ومن هذه الحكومات المضحكة أن الشرطة جاءت به يوماً بأحد غلخانه ، وقد قتل نفساً محرمة بغير حق ، فقال اشنقوه . فقيل له : إنه حدادك الذي ينعل لك الفرس ، فان شنته انقطعت منه ، فنظر أمام بابه ، فرأى رجلاً قفاصاً ، فقال : اشنقوا القفاص وسيبوا الحداد !

ونحن إنما نضحك من هذه الحكومات لأن منطق الحكم فيها ليس هو المنطق الذي ألفناه ، فان قراقوش يتصرف في القضايا بحسب غريب ، وهو حق لا يستقيم مع عقولنا ولا منطقنا ، حق فيه طيش وفيه غفلة وفيه ظلم صارخ . وهل يريد ابن مماتي غير ذلك ؟ إنه لا يريد إلا أن يعرض علينا قراقوش في صور مضحكة تضحكننا من حكوماته وما يعتورها من غباء ونزق ، وما تخفى في باطنها من ظلم يجسمه ابن مماتي تجسماً . وإنا نضحك لا للظلم الذي وقع على هؤلاء الأشخاص ، وإنما للتباين بين المقدمات والنتائج . فسيده تدخل عنده لتشكو له خادمته ، فإذا هما تخرجان في حال شاذة ، إذ ترى السيدة أصبحت خادمة والخادمة أصبحت سيده ، وكذلك الشأن في الرجل « الأجروود » فقد دخل بدون لحية ، وخرج ولا بد له من لحية إلا أنها تنفت ، أو قل : دخل متنها وخرج متها . وفي النادرة الثالثة نرى القاتل يبرأ ، والبريء يقتل ، وكأنما لسنا بأزاء دار من دور الحكم والقضاء ، إنما نحن بأزاء ملف هزلي نرى فيه رجلاً يأخذ سم الحاكمين ويصطنع شاراتهم ، ولكنه ما يبدأ النظر في القضايا والحديث مع الخصوم : المدعين والمتهمين حتى يشوش عليه الأمر ، فإذا هو يحكم دائماً حكومة مهوسة . وأى هوس يفوق هوس هذا الحاكم الذي يقلب الأوضاع

من كتب الشرق والغرب

في قضاياه قلبا يزرى بمقولاته لأنه يلغىها إلقاءً ،
يلغى ما فيها من منطق وفكر مستقيم .
ونستمر في قراءة كتاب الفاشوش ، فإذا
ابن مماتي يروي أن قراقوش طلب إلى أحد
القضاة أن يبيء له حساب القمح والشعير
والقول والحمص ، وقام القاضي بطلبه ، إلا
أنه وضع الحساب كله في جريدة واحدة أو
كما نقول نحن الآن في صحيفة واحدة ، فاختلط
الأمر على قراقوش ، وظن أن القاضي خلط
هذه الأصناف بعضها ببعض ، ولولا ذلك
ما استطاع أن يجمعها في جريدة واحدة وأمر
بحبسه ! وتنبه القاضي للمسألة ، فأرسل إليه
من الحبس بحساب كل صنف في جريدة على
حدة . حيثئذ سر قراقوش وعفا عنه قائلاً :
لقد تعبت يا فقيه ، تقيت هذا من هذا وذا
من ذا ، زفوه في المدينة . أرأيت إلى ابن
مماتي كيف يسخر من قراقوش إذ جعله يظن
حين أفرد القاضي كل صنف بجريدة أنه ينجي
الأصناف بعضها عن بعض . وينقلنا ابن مماتي
من هذه النادرة إلى نادرة أخرى لا تقل
عنها طرافة ، وذلك أن النيل توقف بمصر
أياماً ، فنظر قراقوش فرأى جبال السقايين
وهي تسير في شوارع القاهرة عشرين عشرين
فقال : يا غلطات ! نادوا في المدينة قد أمر
بهاء الدين قراقوش أن لا يملأ أحد من البحر
إلا جلا واحداً ، ففعلوا ذلك ، فأوفى النيل
فقال : يا هؤلاء ! كيف رأيتم رأيي عليكم ؟
ما هو إلا رأي مبارك . وكأن قراقوش ظن
أن هذه الجبال هي التي تنقص ماء النيل فتمنع
الفيضان ! وأيضاً فقد فاته أنه إنما حرم على
هذه الجبال أن تحمل الماء مجتمعة ولم يحرم
عليها أن تحمله منفردة ، فحكه من هذه
الناحية لا نتيجة له ، ولكنه قراقوش مثله
عصره والمضور التالية في الغفلة والغباء .
وما نظن أحداً في تاريخ مصر والمصريين
بلغ من التشهير بحاكم ما بلغه ابن مماتي من

التشهير بقراقوش وحكوماته بين الناس ،
وهو لم يبلغ ذلك عن طريق هجائه لقراقوش
بالشعر ، وكان شاعراً ممتازاً ، وإنما بلغه عن
طريق هذه النوادر الشعبية التي اختار لها
لغة المصريين الدارجة ، وكأنه كان يريد أن
يطابق بين ما يروي وبين اللغة الحقيقية التي
كانت تدور بين قراقوش ومن يحكم بينهم
من الناس حتى يحافظ على أصل نوادره
محافظة دقيقة . ولعله كان يريد لهذه النوادر
أن تشيع بين العامة ، ومن أجل ذلك اختار
لها هذه اللغة الدارجة ، وهي فعلاً قد شاعت
فان المصريين في مدنهم وريفهم كلها قابلهم حكم
ظالم قالوا : « دا ولا حكم قراقوش » . وقد
يكون قراقوش دون كل هذا الظلم الصارخ
الذي صورته ابن مماتي كما يذهب إلى ذلك
الدكتور عبد اللطيف حمزة في كتابه « حكم
قراقوش » ، فقد نصب نفسه في هذا الكتاب
مدافعاً عن قراقوش في تحيز ظاهر . ونحن
لا نستطيع أن ننفي ما أثبتته كتاب الفاشوش
على قراقوش من ظلم وغباء ، فإن نفيه لا يدل
عليه دليل واضح ، بل للمقول أن يكون على
الأقل لهذه الحملة التي حملها ابن مماتي على
قراقوش أصل من سيرته وخلقه وحكوماته
بين الناس .

وقد وفق ابن مماتي توفيقاً لا نظير له
حين اختار دار الحكومة ليعرض فيها
قراقوش هذا العرض الفكاهي ، وهو عرض
أراد به أن يشوه الدولة الأيوبية الجديدة
كلها ومن تصطنعهم في أعمالها وشؤونها ، وأنه
ليستمر فيروي نادرة بدعية ، وهي أن شيخاً
وصيباً أمرد احتكا إلى قراقوش في دار ، كل
منهما يدعى أنها له ، فلما مثلاً بين يديه قل
قراقوش للصبي : أمبك كتاب يشهد لك ؟
ثم رجع إلى نفسه فقرأ له أن العار
لا تكون إلا للشيخ الكبير ، حيثئذ قال
للصبي : يا صبي ادفع له داره ، وإذا صرت في

مر هذا الشيخ الكبير دفع لك الدار !
وعلى هذا النسق ما يزال ابن مماتي يصور
قراقوش في هذه الصور الهزلية التي كان
يسمر بها للمصريون لعهده صلاح الدين سمرأ
فيه هو ومتعة ، وفيه هذا البلاء الذي صبه
قراقوش على رءوس الناس . والتريب أن
ابن مماتي حين تصدى له في هذه النوادر
والفكاهات لم يترك منه جانباً إلا وشوهه
ومسخ خلقه حتى دينه ، فقد قص أن شاعرا
تقدم إليه ليمدحه ببعض شعره ، فلما فرغ من
إنشاده قال له قراقوش : « يا مرقى ! لقد
قرأت قراءة طيبة . » فقد ظنه يتلو قرآنا ،
وكأنه لا يفرق بين القرآن والشعر ، وليس
ذلك كل ما يريده خصمه به ، فإنه يريد شيئا
وراء ذلك ، يريد أن قراقوش لا يعرف
ما يقال فيه مدحا مما يقال فيه ذما .
ومهما يكن فإن ابن مماتي عرف كيف
يحيل قراقوش إلى شخصية روائية للغفلة
والحمق . وقد أضافت المصور التالية إلى
هذه الشخصية خطوطا وألوانا أخرى ، إذ
نسب إليها كثير من القصص المضحك . بل
إننا نجد كتباً تروى نوادرها ، كتباً جديدة ،
قد ألف السيوطي كتابا استعار له نفس اسم
كتاب ابن مماتي ، ولكنه يختلف عنه في كثير
من طرفه ونوادره ، مما يدل على أنه من صنعه
أو على الأقل من صنع الأجيال التالية لابن
مماتي ، وهو حقا يلتقي مع كتاب ابن مماتي
في كثير من نوادره ولكنه ينقرده بطرائف
جديدة . وكأنا أصبحت شخصية قراقوش
شخصية روائية ، فالرواة والقصاصون يضيفون
إليها كثيرا من النوادر والحكايات المضحكة .
ولعل من أطرف ما ساقه السيوطي ما رواه
من أنه « سُرقت عملة في زمن قراقوش ، فقال
لأصحاب العملة : الحارة بتاعتكم لها درب (يريد
بابا) فقالوا له : نعم . فقال : اذهبوا اتتوني
به ففعلوا وجاءوا بالدرب إليه ، فقال مدوه ،

فقالوا يا مولانا هذا خشب لا يعقل ، فقال افعلوا
ما أمركم به فمدوه وضربوه ونزل قراقوش
ووضع أذنه بجانبه وجعل يوشوشه ، فلما فرغ
قال : اجمعوا لي باقي أهل الحارة ، فلما حضروا
قال لهم الدرب يخبرني أن الذي سرق العملة
على رأسه ريشة ، وكان سارق العملة
(واقفا) بجملة الناس ، فتوهم ورفع يده
إلى رأسه ، فرآه قراقوش ، فأمر به
وقرره بالضرب ، وأحضر العملة ودفنها
إلى أصحابها . » وما من ريب في أن هذه
النادرة لو صحت لأضحكت الناس طويلا في
عصره وبعد عصره . ويحكي السيوطي أيضا
أنه « كان بمصر رجل تاجر وكان بخيلا ،
وكان ولده يقترض على موته قدرا معلوما ،
فتراد عليه ، ومات والده ، فاتفق مع
الغرماء أن يدفنوا والده بالحياة ، فدخل هو
والداعثون عليه ، وغسلوه ، وكفنوه ،
ووضعوه في النعش وهو يستغيث فلا يثاق ،
وجاءوا حول تابوته ذاكرين يصبحون حوله ،
فلما دخلوا للصلاة عليه اتفق أن قراقوش كان
مارا فتزل وصلى عليه ، فلما سمع للميت بذلك
قال : الحمد لله جاءني الفرج فجلس في التابوت ،
وقال يا مولانا السلطان ! خلص حتى لي من
ولدي فإنه يريد دفني بالحياة ، فقال له : كيف
تدفن والدك بالحياة ؟ فقال الولد : كذب على
يا مولانا السلطان ما غسلته إلا وهو ميت ،
ولا حملته إلا وهو ميت ، وهؤلاء (الحاضرين)
يشهدون بذلك ، فقال للحاضرين : أتشهدون
بذلك ؟ فقالوا نشهد بما قال الولد ، فالتفت
قراقوش للميت وقال : أنا جئت أصدقك
وحدك وأكذب هؤلاء الحاضرين ، روح
اندفن بلا شفاعة ، لئلا تطمع فينا للموتى ،
ولا يبقى أحد يندفن بعد هذا اليوم ، فحملوه
ودفنوه بالحياة في ذمة قراقوش . » ويحكي
السيوطي أيضا : « من طرفه أنه طار له
باز ، فقال : أقفلوا باب النصر ولب زوينة ،

من كتب الشرق والغرب

فإن الباز لا يجد له موضعاً يطير منه ! «
وعلى هذا النمط نجد شخصية قراقوش
تصبح شخصية خيالية لكل حاكم مهوس ، فيه
بله ، وفيه غفلة ؛ ولذلك كثر القصص حوله ،
وكثرت النوادر التي تروى عنه . وهناك كتاب
يظهر أنه ألف في عصر متأخر ، وهو يذهب
مذهب الكتابين السابقين . ويسمى « الطراز
المنقوش في حكم السلطان قراقوش » . والحق
أن ابن مماتي نجح نجاحاً هائلاً في تشويه
شخصية قراقوش وعرضها أو عكسها في هذه
للرايا المحدبة من فكاهاته ونوادره .

ومع مرور الزمن وتتابعه أصبح اسم
قراقوش يتخذ رمزاً لكل شخص مضحك .
وأكبر الظن أن كلمة « كراكوز » التي تطلق
في الشام وتركيا على خيال الظل ترجع في
اشتقاقها إلى اسم قراقوش ، وقد دخلت إلى
مصر باسم « اراجوز » . وإث في ذلك
ما يدل على نجاح ابن مماتي في « التشنيع »
على قراقوش والتندر عليه ، وهو تشنيع نقد
منه إلى كل ما كان يريده المصريون في عصر
صلاح الدين من ضحك على الدولة الأيوبية
الجديدة وتفكيكه .

موتى ضيف

من وراء البحار

شاعر يريد تنظيم العالم (١)

إلى آفاق عالية ، ولكن قدرة الانسان على الاختراع — قدرته العلمية — كانت لا تزال متأخرة ، وكان عدم التوازن في هذه الامم المتقدمة أخلاقياً مما كلفها غالباً ، فقد أثار عليها البرابرة فحوها . والآن يحدث في أوروبا عكس ذلك .

يجب لكي تظل المدينة في مستوى رفيع أن توجد تناسقاً وتوازناً بين العقل والروح ، ويكون هذا التناسق أكبر غاية يرمى إليها نضال الانسان . وهذا الواجب عسير ، ولكن يجب تحقيقه بشرط أن تبين ما نريد وإلى أين نسير .

على أنه من الطبيعي أن تمر فترة فوضى أخلاقية وروحية ، قبل أن نصل إلى هذا الغرض . وإن الذي يتصل بالرجال للمفكرين في أنحاء العالم يجد النتائج التي لا محيص عنها للحرب بادية عليهم — نتائج الجوع والحيرة وهي التعب والقلق وعدم الاستقرار . وأهم من ذلك نتائج عدم وجود مبدأ أخلاقي ثابت معترف به من الجميع ، يقوم عليه بناء حياة الرجل فيما بعد الحرب . ويجب ألا تقع في الزلل : فعادة البناء الحقيقي لا يقوم على بناء المصانع والسفن والدور والمدارس والكنائس التي دمرتها الحرب ، بل البناء الحقيقي الصلب هو الذي يقوم على الإصلاح الداخلي للنفس الانسانية . فالمدينة لا تقوم إلا على أسس روحية ، والحياة الاقتصادية والسياسية يحكمها ما في الانسانية من تقدم روحاني . وكيف يمكن تحقيق هذا الإصلاح الداخلي مع وجود هذا التعب والقلق وعدم

أذاع الشاعر اليوناني نيقوس كازانتزاكي من أكبر الشعراء اليونانيين المحدثين نداء على صفحات مجلة «الحياة والأدب» الانجليزية (عدد سبتمبر) وجهه إلى العلماء والمفكرين وجميع الذين يهتمون لحير الانسانية . وقال فيه : إن الانسانية تجتاز فترة حرجية ، وقد صار العالم مرتبطاً ببعضه ببعض ، حتى إنه لا يمكن نجاة شعب من الشعوب دون نجاة الشعوب بأسرها ، وقد يجبر سقوط أمة من الامم إلى سقوط جميع الامم . ولقد زال إلى الأبد ذلك الوقت الذي كانت تعيش فيه الامم في عزلة ؛ فاذا تكلم المرء عن أمته ، فأنما هو يتكلم عن جميع الامم الأخرى .

إننا لنشعر جميعاً شعوراً غامضاً أن الثقافة الحديثة مهددة بخطر جسيم ، ولن نستطيع التغلب على هذا الخطر إلا إذا واجهناه في غير خوف ولا وجل ، فالشجاعة والضوء هما أقوى أعداء قوى الشر .

فما هو الخطر الجسيم الذي يهدد هذا العالم فيما بعد الحرب ؟ هو أن عقل الرجل للعصر قد نما في الشؤون المادية والطبيعية بسرعة وعمق أكثر من نموه الروحي ؛ فالعقل قد سيطر على للقوى الطبيعية وأخضعها لأمر الانسان ، في حين أن الانسان لم يبلغ النضج الاخلاقي الضروري لكي يحسن استعمال هذه القوى في ضمان سلام العالم ورخائه ؛ فلم يعد هناك توازن وتناسق بين تطور الانسان العقلي وتطوره الاخلاقي هذا هو الخطر الكبير .

كان الأمر في الشرق في الازمنة السابقة على خلاف ذلك ؛ فقد سميت النفس الانسانية

(١) أنظر « من مجلات الغرب » .

من وراء البحار

وأكثر تعقيدا مما كان ؛ فعليه أن يشق طريقاً وسط الفوضى التي تبعث الحرب، ويعيد النظام وأن يوجد التوازن بين العقل الانساني وقلبه . ويجد كلمات بسيطة يعبر بها عن الصدق الصراح وهو أن الناس إخوة .

لذلك يوجه الشاعر اليوناني نداء إلى جميع ذوى الرغبة الحسنة في أنحاء العالم ويسألهم واثقاً أنهم سيحاولون الاجابة ، لكي يقوم على إجابتهم تعاون دولي للروح ، هذه الاسئلة : أولاً — هل تظنون أننا نبش في نهاية فترة تاريخية أم في مبدأ فترة تاريخية ؟ وماذا تظنون الصفات المميزة لهذه الفترة ؟

ثانياً — هل يستطيع الأدب والفن والتفكير النظري أن يؤثر في الحركة الحاضرة للتاريخ أم هي تصور الأحوال القائمة فقط ؟ ثالثاً — إذا اعتقدت أن التفكير والفن يؤثران في الحقيقة فإلى أية جهة يجب أن يوجه التطور الروحي في بلادنا ؟

رابعاً — ماهو العمل الإيجابي الذي يستطيع أن يقدمه التفكير والفن إلى العالم في ظنك ؟ خامساً — إلى أي مقدار يمكن أن يوجد الاتصال بين رجال التفكير وجمهور الشعب ؟ وماذا يمكن عمله لاتساع نطاق هذا الاتصال ؟ سادساً — ماهو الواجب الأول على الرجل من رجال الفكر أو على الفنان ؟ وكيف يساعد في التعاون السلمي بين الأمم ؟

سابعاً — هل يكون عملياً أن تنشأ « دولية » للروح ؟ وإذا كان الأمر كذلك هل ترغب في الاشتراك فيها ؟

الاستقرار ؟ يمكن ذلك بطريقة واحدة هو تخنيد جميع قوى النور الكامنة في كل رجل وكل أمة . ولقد وجه الأب مونييه ذات مرة سؤالاً إلى برجسون الفيلسوف الكبير : هل يستطيع أن يجمل فلسفته في كلمة واحدة ؟ فأجاب الفيلسوف بعد تفكير لحظة : التعبئة . ففي كل موقف حرج يجب أن نعي جميع مواردنا الاخلاقية . وليس هنالك في هذه الفترة طريق آخر للنجاة . يجب ان نعي مواردنا ، وبجارب الحداد والكراهية والفقر والظلم ، ويكون ذلك بأن نعيد الفضيلة إلى العالم . من هم الرجال الذين يظهرون موارد العالم الخلقية ؟ إننا لا ننتظر أن تبعث هذه الصيحة الجامعة الهامة من الزعماء للدين كلساسيين ورجال الاعمال والاقتصاديين ، إنما يستطيع أن ينهض بهذا العمل الزعماء الروحيون ، وواجبهم أن يقوموا بهذه المهمة الشريفة بمنأى عن الاهواء الشخصية . إن مسئولية للفكر الآن كبيرة ؛ إذ أن الاهواء عمياء ، والرغبات تتنازع ، والقوى المادية التي وهبها العقل للانسان عظيمة ، وعلى استعمالها يتوقف نجاة الجنس البشري أو القضاء عليه . فليتخذ أولئك الذين يعتقدون في القيم الروحية . ويجب أن نفتح أعيننا في هذه الازمنة الخطرة التي نمر بها ، وننظر في وضوح إلى الواجب الروحي للانسان ؛ فلم يعد الجمال كافياً ، ولم يعد الصدق النظري كافياً ، ولا الطيبة السلبية كافية . لقد صار الواجب الروحي للإنسان اليوم عظيماً

تجربة بكيني

كتب أحد المرافقين الخبراء مقالاً في مجلة « ناشيونال ريفيو » الانجليزية (عدد سبتمبر) . يستطفيه رأيه . ومن أهم ما جاء فيه أقواله :

أقيمت تجربتان للقبلة الذرية لكي يرى الخبراء مدى تأثير هذا السلاح الجديد وما يجره على الانسانية من ويلات . وقد

من وراء البحار

«هيوز» والناقلة «فلكون» وغرق البارجة اليابانية «ناجاتو» بعد خمسة أيام من الانفجار. وكانت جميع السفن الكبرى في التجربتين من الطراز القديم، ماعدا «البرنس أوجين» وقد جددت هذه السفن في الحرب العالمية الثانية. ويجب في تقدير نتائج التجربتين أن نحسب حساباً للأحوال التي أحاطت باهتمام القنبلتين؛ فقد كان البحر هادئاً والرؤية ميسورة، ولم تتخذ وسائل للدفاع أو الخديعة. فالإصابات تشهد بالقوة الفظيعة للقنبلة الذرية لأنها إصابات لا تحدث من انفجار أية قنبلة واحدة من أى نوع آخر، ولكنها كانت مع ذلك أقل بكثير من الإصابة التي حاقّت بالأسطول الأمريكى عندما هاجمته الطائرات اليابانية في ميناء بيرل.

ولا تزال تكاليف إنتاج القنبلة الذرية سرا محاطاً بالكتمان الشديد، ولكن مما لا ريب فيه أنها سلاح يكلف مبالغاً باهظاً لا يكاد يصدق. وقد قيل إن تكاليف التجربة الأولى بلغت ١٧ مليوناً و ٥٠٠ ألف من الجنيهات، ولكنها لا تشمل تكاليف القنبلة نفسها. ويختلف الباحثون في تقدير تكاليف هذه القنبلة، فيقول بعضهم إنها تبلغ ٦ ملايين من الجنيهات. ويظهر أن هذا تقدير مبالغ فيه. ويقول البعض الآخر مثل مستر برنارد برودى أنها تبلغ ٢٠٠ ألف والزاجح أن هذا الرقم ضئيل، وقد نلزم جانب الحيلة إذا قدرناها بمبلغ مليون من الجنيهات.

إن تكاليف كل سلعة أو كل سلاح تماثل تكاليفها بالنسبة لما تتطلبه من مجهود اجتماعي من الهيئة التي تقوم بصنعها. فإذا نظرنا إلى المجهود الاجتماعي التي أنفق على هاتين القنبلتين نجد أننا نحتاج إلى مجهود كبير جداً لكي نوقع خسائر في السفن التي أصيبت في تجربة بكيني أقل بكثير مما أحدثه اليابانيون في ميناء

في ٣٠ يونيو ثم في ٢٥ يولييه سنة ١٩٤٦ أجرت وزارة البحرية للولايات المتحدة تجربتي القنبلة الذرية اللتين انتظرها العالم في لهفة. ففي التجربة الأولى انفجرت القنبلة في الهواء ونهت على ارتفاع ألف قدم تقريباً، فوق أسطول مؤلف من ٧٧ قطعة موزع في مساحة قدرها عشرة أميال. ففرقت تقاليتان وانقلبت مدمرة، وأصاب قطعتين أخريين عطب كبير. وكانت الفواصة «سكيت» واقفة على مقربة من السفينة «نقادا» وهي التي صوبت إليها القنبلة فلم تكدر تطفو. وكانت البارجة اليابانية «سكاوا» إلى جانب الهدف فطار ما فوق سطحها من أبنية. وكانت أقرب سفينة إلى مركز الانفجار حاملة الطائرات «اند بندانس» فكانت لا تزال طائمة، ولكن السطح الذي تقوم منه الطائرات وهو أقوى أجزاءها طوح به الانفجار، وطوح معه بجميع الطائرات والدبابات التي وضعت فوقه، وقد وجد خرق في جانبها كبير. وأصيبت البارجة «بنساكولا» بعطب فيما فوق ظهرها من منشآت. ولم تصب القنبلة البارجة نقاداً وإن كانت قد صوبت إليها، ولكنها أطارت ساريتها. وكان مجموع السفن التي أصيبت بشئ من العطب نحو العشرين. أما «البرنس أوجين» وهي أحدث السفن الكبيرة بناء فلم تكدر تصاب بشئ، مع أنها كانت قريبة من مركز الانفجار. وفي التجربة الثانية انفجرت القنبلة تحت تحت الماء، وكان الأسطول مؤلفاً من ٨٥ قطعة في مساحة قدرها عشرة أميال، وكانت السفن الكبرى كما كانت في التجربة الأولى في قطر دائرة قدره ميل من مركز الانفجار. وكان أكبر ما حدث من خسارة في هذه التجربة غرق البارجة «أركنساس» في التو، وغرق حاملة الطائرات «ساراتوجا» بعد سبع ساعات ونصف ساعة من الانفجار، وجنوح للمدمرة

من وراء البحار

بذلك تزيد في قوة الانشاء ، وفيها ركبت الألواح الحديدية بواسطة الكهرباء من غير مسامير ، وبذلك زادت قوة ، لأن خرق المسامير في الصلب مما يضعفه .

ومن أهم نتائج تجربتي بكيني أنها تدلنا على وسائل حماية المدن ، وقد ثبت أن القنبلة الذرية تصيب بالحرارة وتفرغ الهواء والاشعاع ، وقد ظهر أن الأبنية المصنوعة بالاسمنت المسلح تقاوم تفرغ الهواء ولو أن سكانها قد يصابون بالاشعاع ، وأن المحارب تتحمل تفرغ الهواء ، ولذلك إذا استطعنا أن نزود الناس بالملاص والأقنعة الواقية فإنا نستطيع أن نتجى حياتهم ، وإن لم نستطع أن نتجى دورهم . فإذن يمكن أن نتغلب على الاشعاع بالملاص الواقية والأقنعة ، كما تغلبنا على الغازات السامة . وحينئذ تفقد القنبلة الذرية ٩٥٪ من فظاعتها الحقيقية

وتدل تجربة بكيني أن خير الطرق للوقاية من القنبلة الذرية هو بناء قوى من الاسمنت المسلح لا منافذ فيه مصنوع بحيث يقاوم تفرغ الهواء ومعقم بحيث لا يضره الاشعاع وجميع فتحاته الضرورية غائصة في جوف الأرض ، وجميع الأنابيب والأسلاك التي تنقل القوى غائصة أيضاً في جوف الأرض . ويجب أن يكون هنالك قدر احتياطي من الهواء المضغوط يمكن أن ينتفع به ساعات إن لم يكن أيلما . وإذا كانت إجراءات الوقاية تكلف كثيراً أو غير عملية فيكون من الضروري جداً في الصناعات الحيوية أن توزع على مراكز متباعدة .

والآن يعرض هذا السؤال : هل يكون من المستطاع لدولة منظمة كل التنظيم أن تتغلب على دولة منظمة كل التنظيم بالقنبلة الذرية ؟ الجواب هو هذا : إننا نقصر في تقدير المجهود الاجتماعي الهائل الذي يتطلبه مثل هذا العمل ويظهر أن خبراء القنبلة الذرية

بيرل ، وكانت القنابل التي فتكت بالأسطول الأمريكي عندئذ في تكاليفها ليست إلا جزءاً بسيطاً جداً مما تتكلفه القنبلة الذرية . وكان من الممكن في مثل تجربة بكيني أن تهجم بعض سفن العدو فتصيب بقنابلها السفن الواقعة بغير دفاع ، وتقضي عليها بكلفة أقل من كلفة القنبلة الذرية . وكذلك كان يمكن لطائرات حاملة القنابل قادرة على اختراق دروع المدرعات أن تصيب السفن بخسارة عظيمة ، ربما كانت الخسارة أقل مما حدث بالقنبلة الذرية ، ولكنها بلا شك لا تقاس بها من جهة النفقات . وكان من المستطاع أن يحدث مثل ذلك في التجربة الثانية .

إن تجربتي بكيني أثبتت أن القنبلة الذرية وسيلة شديدة الخطر والقوة في الهجوم ، ولكن هاتين التجربتين لم تثبتا قط أنه لا وسيلة للدفاع واتقاء شرها ، بل هي تثبت قطعاً أحمال هذا الدفاع .

ولقد تبين من تقرير رئيس لجنة التقدير أن الخطر الأساسي للقنبلة ليس هو في الحرارة وتفرغ الهواء بقدر ماهو في الاشعاع . ولكن الاشعاع من الممكن معالجته ، فالراديوم مستعمل منذ سنوات عدة في المستشفيات وأمكن معالجة آثاره الاشعاعية . ونحن نعلم أن هنالك معادن لا تتأثر بالنشاط الاشعاعي ، ولو استعملت ألواح من هذه المعادن في السفن لأمكن تجنب أخطارها . وإذا استعمل رجال السفن ملاص وأقنعة واقية أمكن تجنب هذه الأخطار ولو أصيبت السفن بمطل ، فإذن الدفاع مستطاع .

ومما يلاحظ أن سفينة حديثة مثل « برانس أوجين » لم تكدرت بسوء . وهذا النوع من السفن صنعه الألمان في سنة ١٩٢٩ ، وسموه سفن الجيب ليتهربوا من شروط معاهدة فرساي التي كانت قائمة عندئذ والفرض منها الاقتصاد في الحمولة ، ولكنها

من وراء البحار

القنابل الذرية لمحو المدن فلا تكون هناك فائدة حرية جديدة في هذا النوع من السلاح، ففي الحرب الأخيرة ألقي الانجليز والامريكيون على ألمانيا مليونين وسبعمئة ألف طن من القنابل تكاليفها ١٥ ألف مليون من الجنيهات فدمروا أو أصابوا ثلاثة ملايين وستمئة ألف من المساكن فصار سبعة ملايين وخمسمئة من الناس بلا مأوى، ومع ذلك استمرت ألمانيا تقاتل ولم تضع السلاح إلا بعد هزيمة جيوشها هزيمة ساحقة.

ومن الراجح أن تستعمل القنابل الذرية للهجوم على أهداف ذات أهمية حرية لا مجرد الارهاب، وقيمتها حتى في هذا الأمر مشكوك فيها. ومن تجارب الحرب العالمية الأولى أن رسخت في الأذهان فكرة الدفاع الهائل الذي لا يمكن التغلب عليه وهي متمثلة في خط ماجينو، ويخشى أن ترسخ في الأذهان بعد الحرب الأخيرة فكرة الهجوم الذي لا يفلح ممثلة في القنبلة الذرية. والفكرة الثانية لا تقل خطأ وخطراً عن الفكرة الأولى. فالهروب تكسب بالعقول والمجهود والتضحية لا بالمذاهب والحيل.

يكررون الخطأ الذي وقع فيه خبراء الجو في السنوات الواقعة بين الحربين الماضيتين؛ إذ ظنوا أن بضع قنابل وطائرات تستطيع أن تلقى الفوضى في دولة منظمة كل التنظيم. فكاليف إنتاج القنبلة باهظة وعملها معقد، حتى إنه ليبدو أن من الهزل حقاً أن تعتقد أن الولايات المتحدة مثلاً تستطيع أن تتغلب على روسيا في حرب إذا ابتدأت بوضع قنابل من هذا النوع؛ فإن من المفروض أن روسيا تتخذ كل الوسائل الوقائية التي ذكرت من توزيع صناعات الحرب الأساسية، وصنع مخابئ معقدة ضد الاشعاع، وتوزيع الملابس والأقنعة الواقية، وحيث تكون القنابل الذرية أقل أثراً من الوجة الحربية من قنابل الألمان في الحرب الماضية. ولا يكون هنالك احتمال بأن تجد أمريكا الوقت لإنشاء قواتها الجوية للهجوم دون تدخل، كما حدث في مهاجمة ألمانيا، ولا تستطيع أمريكا أن تتوسع في حمل قنابل ذرية إلا إذا وجهت المجهود الأعظم للشعب الأمريكي نحو هذا الغرض.

ومن غير المحتمل في ابتداء حرب جديدة أن يكون لدى الفريقين العدد الكافي من

رأى في هنري ميلر

القول. ولقد انتقل عنف العاطفة عنده إلى أسلوبه فصار عنيفاً وصارت لغته عنيفة. ولقد قال في كتابه «حكمة القلب» إنه لا يعترف بالكلمات وإنما يعترف باللغة التي هي أبعد من مجرد الكلمات، ففن الكتابة عنده نوع من الاحتفال الكامل، تجمع فيه أجزاء التجارب المتناثرة في مجموع واحد، ولكن هذه العناصر لا تنظم بحيث تفهم منطقياً، وإنما هي تفهم أو تحقق بالفرجة، وتظهر في كتابات ميلر الموهبة التي تأتي بنت وقتها. فرغبته

هنري ميلر كاتب أمريكي عاش في فرنسا ونشر كتبه في فرنسا، وهو من أبرز الكتاب الأمريكيين وإن كانت كتبه محرمة على الجمهور الأمريكي، لما يلجأ إليه في وصف الفرائق الجنسية من الاسهاب والاطناب. وقد كتب الناقد فاوли مقالا في مجلة «الآداب» الفرنسية *Lettres* (عدد ٥) نقد فيه الكاتب الأمريكي. ومما جاء فيه قوله: إن أبرز صفة في مؤلفات هنري ميلر هي العنف، وليس هذا العنف بادياً فيما يقوله بقدر ما هو ظاهر في طريقة هذا

في جشع بمصائر العالم بنظرياتهم الفلسفية ، بل قبلوا العالم كما هو ، وبذلك استطاعوا أن يروا قوات الشر كما استطاعوا أن يروا قوات الخير .

إن عنوان كتاب هنري ميلر « حكمة القلب » هو مفتاح لواجب الفنان ، وهو يقول في موضع من هذا الكتاب : « إتنا في قبضة قوات شيطانية خلقناها نحن أنفسنا من مخاوفنا وجهلنا » وهذا هو سر لغة الرجل الحديث .

لقد رأى ميلر بنظرته الثاقبة العناصر المتنافرة في هذا العالم بوضوح ، حتى إنه عمل على التحرر منها ؛ ولذلك بلغ في مؤلفاته نهاية الفجور ، فنمت كتبه في الولايات المتحدة ، ولكن هذا العنف في لغته كان ضرورياً لإصلاح الضمير الأميركي فيما يتعلق بالشر ولتحرير نفسه من تقاليد الأدباء في أوروبا وأمريكا .

يقول ميلر في كتابه « حكمة القلب » : إني جائع دائماً ، ويلاحظ أن الجوع الفذائي والجنسي هما من نوع واحد ، أما الجوع الروحي فهو من نوع آخر ، فتجد في مؤلفات ميلر الجوع الجنسي الذي يعبر عنه بالالتجاء إلى الفحش في القول ، وهو جوع جسدي . ولذلك كان فيه طعم الموت وطعم الانحلال وفيه رمز الكوارث . والمرأة هي غرض هذا الجوع ، ولكن ميلر أثبت أكثر من مرة أنه لا يشعر بجوع نحو المرأة .

ولقد أوجدت الرغبة في المرأة شعوراً كاذباً بالتسلط ، وكان لورنس أول من حمل على هذا الشعور وكان لورنس مخلصاً للحب ، أما ميلر فهو مخلص للحياة . ولكن الاثنين يخشيان دور المرأة في الحياة الحديثة ، ويخشيان أن تعمل على اغتصاب مركز الرجل . وعلى هذا الخوف قامت نظريتهما للمرأة : فلورنس يعتبر الزوجة إن هي إلا عشيقة ، وميلر يعتبرها طاهرة . وهما في هذا قد أوحدا لها موقفاً

في الحاضر لا تتحقق مطلقاً ولذلك هي لا تصير ذكريات تمثل رغبات في الماضي . وهذا هو السبب في أن نظريته للحياة هي نوع من التجربة دائم غير منقطع ، وهذا هو الذي يجعل في مؤلفاته رعدة دائمة . ولتواتر الحياة اليومية لا يمكن تعريفه أو تفسيره بالقوانين التي تعبر عنها ألفاظ الأزمنة والأنواع والفكرة .

إن قراءة الرسائل التي تبودلت بين هنري ميلر وميكل فرانكل ، ونشرت تحت عنوان هاملت ، لتثبت تماماً أن ميلر هو للمثل الأكبر للمؤلف الذي يمثل هذا العصر ، أي الكاتب الذي يؤدي عمل الساحر والنبي ، ونجد سلفاً له في رامبو ، ويمثله في إنجلترا د. ه. لورنس ، ومما له دلالة أن هنري ميلر يعتبر الشاعر رامبو من أكبر الكتاب ، وأنه أخذ في كتابه دراسات عن رامبو ولورنس .

ومن صفات هذا الفنان الجديد ، أنه يجب دائماً التجارب ويقبل عليها في اندفاع ؛ فهو يجب أن يحيا حياة ابطاله . ولقد دعا رامبو نفسه بالسائل والفنان وقاطع الطريق والكاهن ، وكتب لورنس روايات وقصصاً ومقالات وأشعاراً ومسرحيات وكتب سياحة وفلسفة . وكتب هنري ميلر عن حياته كما كتب روايات وفلسفة وتقدراً ، وربما نراه فيما بعد شاعراً .

إن هذا العصر الجريح المتنازع قد خلق بالرغم منه فنانين متحدين ومنتصرين مثل بروس وجويس ولورنس وهنري ميلر ، ساروا في طبيعته وسبقوه وتقدموا به أكثر من الزعماء الذين يصفق لهم الجمهور . وقد عمل هؤلاء الكتاب في كتبهم أسرين ؛ فقد سجلوا تاريخ حياتهم وسجلوا تاريخ عصرهم . ولقد اتهموا بأنهم ابتعدوا عن عصرهم ولم يهتموا لسياسة الوقت الحاضر ، ولكن الحقيقة غير ذلك ؛ فهم لم يطمحوا إلى أن يتحكموا

من وراء البحار

غير طبعني بقدر الموقف الذي خشيته .
وهنري ميلر يعلم أنه لا يمكن أن نجد حلاً
للجوع الجنسي بغير أن نجد حلاً للجوع الروحي .
وهو يكتب في كتابه « عالم الجنس » فيقول :
إني رجل متدين ، وقد كنت دائماً متديناً !
وفي كتبه عبارات كثيرة تدل على صحة تلك النزعة
وهذا القول ، فهو ينظر نظرة المتصوف إلى
الحب . وكأنه يرى قدرة الله في الحب .

ظـر حـرـيـثـا

تاريخ الفلسفة الأوربية في العصر الوسيط للأستاذ يوسف كرم مدرس بجامعة
فاروق الأول (دار الكاتب المصري)

وبطرس دمياني ولا تفران والقديس أنسلم .
وفي القرن الثالث عشر ، وهو القرن الذي
ابتدأت فيه الحضارة الأوربية في الازدهار ،
فتكاثرت المدارس ونشأت الجامعات وانتشرت
منتديات العلم ، اتجه المفكرون إلى البحث ،
فكثر المترجمون الذين أخذوا في نقل مؤلفات
الفلاسفة اليونانيين أولاً عن طريق اللغة العربية
ثم عن طريق اللغة اليونانية رأساً ، واهتموا
بنوع خاص بدراسة فلسفة أفلاطون وأرسطو ،
وظهر كبار المفكرين من أمثال دوفرنى
وهاليس وبوناقتورا وروجر يكون والقديس
ألبرت الأكبر ، ثم القديس توما الأكويني وقد
درس المؤلف نظرياته دراسة وافية دقيقة .

ثم تكلم عن التحلل الفلسفة في القرن
الرابع عشر ، بعد أن حاول الفلسفة في القرن
الثالث عشر التوفيق بين العقل والدين ،
فترى التشكك في العقل والدعوة إلى الاعتصام
بالدين وحده ، وترى التشكك في الدين والانسياق
إلى الالحاد بحيث يبدو القرن الرابع عشر على
حد وصف المؤلف « سلباً هداماً » .

على أن هذا القرن على ما أوضحه المؤلف
له وجهة « إيجابية إنشائية بالاضافة إلى
المستقبل ، فان تجليص الفلسفة من الدين
أعادها إلى ما كانت عليه عند اليونان » .

ثم شرح المؤلف نظريات فلاسفة ذلك
العصر : وختم كتابه القيم بفهرس للمراجع
وقاموس للأعلام .

والكتابات مطبوع طبعة أنيقة معتنى بها وإن
لم يسلم من بعض هنات مطبعية قليلة .

الأستاذ يوسف كرم عالم معروف في
الأوساط العلمية بجامعة قواد وفاروق
بتوفره على البحث ، والاستقصاء في فلسفة
القرون الوسطى . وهو في هذا الكتاب يضع
لقراء العربية تاريخاً للفلسفة الأوربية في العصر
الوسيط ، وهو تاريخ يكتسب من غزارة مادة
المؤلف وواسع اطلاعه على موضوعه بساطة
في التعبير وجلاء لموضوعات الكتاب ، بحيث
صار نفع هذا الكتاب لا يقتصر على الباحثين
في الفلسفة والمتعلمين من اتلاميذ ، بل يشمل
جميع المتأدين والمثقفين الذين يريدون الوقوف
على خلاصة الآراء الفلسفية التي كانت سائدة
في تلك الفترة .

ويقع هذا الكتاب في ٢٦٦ صفحة من
القطع المتوسط . وقد قدم له المؤلف بمقدمة
لخص فيها الأدوار التي مرت بها فلسفة العصور
الوسطى من تكوين واكتمال والانهلال ،
فابتدأ بالكلام عن نقلة الفلسفة اليونانية إلى
اللغة اللاتينية ، ثم عقد فصلاً عن حياة القديس
أوغسطين ومنهجه الفلسفي وآرائه في مختلف
الموضوعات العقلية والالهية ، وتكلم عن
ديونيسيوس وبويس شارحاً مذهبهما الفلسفية .
ويعتبر هذا القسم الخطوة الأولى في فلسفة
العصور الوسطى .

وفي الباب الثاني عالم تاريخ الفلسفة من
القرن التاسع إلى الثالث عشر ، أى منذ
النهضة في المدارس وتكاثرها في عصر شرلمان ،
فتكلم عن جون سكوت أريجنس ومذاهبه ، ثم
تناول الجدلين واللاهوتيين وأشهرهم روسلان

نورة سنة ١٩١٩ : تاريخ مصر القومى من سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩٢١ . فى جزأين
للأستاذ عبد الرحمن الرافعى بك (مكتبة النهضة المصرية)

تضطرب فى نفسه الأهواء ، ولا يزال متأثراً بالحوادث التى اشترك فيها ، لاسيما إذا كان دوره فى ميدان الحياة بارزاً مثل عبد الرحمن بك الرافعى الذى كان ولا يزال من أظهر العاملين فى الحياة السياسية ، ومن الذين ساهموا فى تلك الفترة مساهمة كبيرة على مبادئ الحزب الوطنى .

تألف المؤلف فى الجزء الأول من كتابه مريض مصر فى أثناء الحرب الأولى (سنة ١٩١٤ — ١٩١٨) وفى هذا القسم نجد وصفاً لاعلان الحماية ، وما كان له من أثر فى البلاد وما ترتب عليه من تغير لمركزها ، ونجد جميع الوثائق المتعلقة بذلك . ثم أخذ المؤلف يتكلم عن أسباب الثورة وتأليف الوفد المصرى ، ومقدمات الثورة المصرية وابتدائها وانتشارها إلى الأقاليم ، وما اتخذته السلطة الفاصلة لمواجهة الثورة . وفى الجزء الثانى يتكلم عن انقلاب هذه السلطة إلى تهديئة الخواطر وعدم رضا الأمة بالأجراءات الوقتية ، وما كان من محاكات للمتزمين للحركات الثورية . ثم تكلم عن لجنة ملنر ومفاوضاته واستشارة الأمة فيها . ثم اعتراف البريطانيين بأن الحماية علاقة كغير مرضية . ثم أبدى حكمه فى الثورة هل هى نجحت ، وفيه نجاحها ، وهو يرى أنها قد نجحت فى حمل المجترة على إلغاء الحماية والاعتراف باستقلال مصر ، وكان لها الفضل الأكبر فى تقرير النظام الدستورى فى البلاد . أما النهضة الاقتصادية فإن الثورة لم تعمل لها ولم تنجح إليها ، على أن الروح الوطنية التى انبعثت خلالها أدت إلى انجاء الجمهور من تلقاء نفسه إلى معاضدة النهضة الاقتصادية وإلى متابعة البحث الاقتصادى .

نحن حقيقة فى حاجة شديدة إلى الكتب التى تبحث فى التاريخ المصرى لاسيما فى التاريخ المصرى الحديث والمعاصر . فلقد نجد فى تاريخ مصر القديم الآلاف من المؤلفات الأوربية التى تبحث لنا حياة تلك العصور فى صورة واضحة . وحاول بعض المؤرخين والبحاث فى الآثار القديمة وضع مؤلفات باللغة العربية عن تلك العصور تسد شيئاً كبيراً من النقص فى المكتبة العربية ، ونذكر من أقومها مؤلفات العالم سليم بك حسن ، كما أن فترة التاريخ المصرى الإسلامى وجدت من يعنى بها من مؤرخين أوربيين وشرقيين . ولكن التاريخ الحديث ، لاسيما فى الفترة التى تلت الاحتلال الانجليزى ، لم يكتب من وجهة قومية . فأكثر المؤلفين الأوربيين متأثرون بما كتبه الانجليز دفاعاً عن موقفهم فى البلاد ، وهم لا يحفلون كثيراً بالوقوف على وجهة النظر المصرية ، وهم ينظرون إلى الماديات السطحية التى يظنون أن الانجليز أول من أدخلها ، غير مهتدين للنشاط الحيوى الذى كان بادياً قبل دخول الانجليز ، هذا النشاط الذى قضوا عليه تحقيقاً لأهدافهم .

لذلك عند ما أخذ عبد الرحمن الرافعى بك فى وضع سلسلة الكتب التى أخرجها عن تاريخ مصر الحديث فإنه سد فراغاً كان يجب أن يسده أمثاله من رجال البحث والنظرة القومية . إلا أنه فى هذا الكتاب أقدم على عمل أشق مع عظيم تقهه ، فهو قد تناول فترة من التاريخ المعاصر عاش فيها واشترك ، أكثر الأحياء من رجال هذا الجيل ، لاسيما الشيوخ منهم . ولا ريب فى أن كتابة التاريخ المعاصر من أشق الأعمال ، إذ لا يزال المؤرخ

البر والبحر والحو : ثم جاء بنص معاهدة
الآستانه سنة ١٨٨٨ ثم النصوص الخاصة
بمصر في معاهدة لوزان سنة ١٩٢٣ وفي نهاية
المجلد الثاني فهرس قيم هجائي للكتاب .

وإننا نرجو أن نرى في المستقبل القريب
المشرات من الكتب التي تبحث في التاريخ
للمعاصر من نواحي عدة ومن رجال متأثرين
بمختلف الأحزاب ، كما نرجو أن يعمل الزعماء
على نشر مذكراتهم عن تلك الثورة التي
اشتركوا فيها أوراقبوها ، حتى تترك للأجيال
القادمة تراثاً يمكن أن يحكموا منه حكماً نزيهاً
على هذه الثورة وما كان لها مع آثار في
مستقبل البلاد

حسن محمد

وكان للثورة فضل في النهضة الاجتماعية ،
فتألفت الجماعات والأندية الرياضية وفرق
الكشافة ، واشترك النساء في العمل القومي .
وكان لها أثر فعال في النهضة التعاونية ونهضة
العمال ، فتألفت النقابات وتعددت . فروح
الثورة إذن على قول المؤلف الجليل « قد
طافت بالمجتمع على اختلاف طبقاته وبيئاته
واستتارت عوامل الوعي والتقدم » .

واختتم المؤلف كتابه بمجموعة من الوثائق
التاريخية ، أهمها أنه عدد العهود التي قطعتها
انجلترا على نفسها باحترام استقلال مصر
ووعدها بالجلاء وهي ستون عهداً ، غير
العهد الصريح الأخير المقترن بوعده الجلاء من

تاريخ حكماء الاسلام : تأليف ظهير الدين البيهقي (مطبوعات المجمع العلمي العربي
بدمشق ، بتحقيق الأستاذ محمد كرد علي)

سابقة ليكون عمله حلقة في سلسلة العلم للنصلة
للمتددة على توالي القرون ، إيماناً بالعلم
واعترافاً بمجده من سبق .
ولم يكن اسم كتاب البيهقي هذا هو ذلك
الاسم الذي اختاره له محققه ، وإنما وجدت
هذه التسمية على النسخة المخطوطة التي نقل
عنها هذا المطبوع ، وهي مخطوطة حديثة نسخها
كاتبها في منتصف القرن الثاني عشر — منذ
قرنين وبضع عشرة سنة — فارتضاه المحقق
عنواناً للكتاب لصدق دلالة على موضوعه .
وقد جاء ذكر هذا الكتاب فيما ترجم القدماء
لمؤلفه باسم « كتاب تمة أصول الحكمة » .
قليل هذا هو اسمه الحق ، أو لعله كذلك
وصف من أوصافه ؛ إذ ألفه — كما قلنا —
ليكون تماًماً على كتاب « صوان الحكمة » ،
فليس ممثلاً أن يشتهر بصفته هذه عند القدماء
حين يغيب اسمه .

لا يزال المجمع العلمي العربي بدمشق قائماً
على رباطه ، دائماً في نشاطه ، ولا تزال مجلته
ومطبوعاته تضيف إلى العربية ثروة وتضيء
من التراث العربي أثراً ، ولا يزال رئيسه
الكبير السيد محمد كرد علي ، عضو مجمع فؤاد
الأول للغة العربية بالقاهرة ، ماضياً على سنته
في الجهاد المتصل والدأب الساهر لتحقيق
أجداد العربية وتاريخ الاسلام . وهذا كتاب
قديم جديد ، ألفه مؤلفه منذ نيف وثمانمائة
عام ليكون تماًماً على كتاب « صوان
الحكمة » الذي ألفه أبو سليمان المنطقي
السجستاني من حكماء القرن الرابع للتعريف
بمن سار به ذكرهم من حكماء الاسلام ،
فأراد البيهقي من بعده أن يكون كتابه له تمة
ووفاء وتكملة ؛ وقد كان ذلك شأن علماء
العربية منذ أخذوا في وضع المؤلفات وتدوين
العلماء : لا يزال اللاحق منهم يبنى على أساس

وقد أتم الأستاذ كرد علي تصحيح هذا الكتاب وتحقيق أصوله. قبل أن يصل إلى علمه أن نسخة منه قد طبعت في لاهور مع ترجمة له بالفارسية ، على أن ذلك لم يمنعه من الانتفاع بهذه الطبعة في المقابلة وتصحيح بعض الأجزاء في أثناء الطبع ، كما اثبت ذلك في المقدمة وفي هامش بعض الصفحات .

وقد ترجم البيهقي في كتابه هذا لطائفة ممن عرف من أهل الحكمة . وللحكمة في عرف القدماء مدلولات شتى تنتظم طوائف من العلوم والفنون ، وإن يكن أقربها إلى الفهم هو الفلسفة والهيئة وعلم الحقيقة . وتكاد تراجم هذا الكتاب تكون مقتصرة على بعض حكماء خوارزم وخراسان وفارس والعراق وما جاور تلك البلاد ، فلم يتحدث عن أحد في الشام أو في مصر أو المغرب أو الأندلس . وأكثر تراجمه مختصرة لا تكاد تبرز صورة المترجم له ، ولا تحقق اسمه في بعض الأحيان ؛ على أن فيها مع ذلك فائدة يبرز نضادها في مكان آخر .

وقد قدم الأستاذ كرد علي للكتاب بمقدمة وافية للتعريف بالمؤلف وكتابه ، ووازن بينه وبين غيره من الكتب المؤلفة في بابيه ، وخص في هذه الموازنة كتاب طبقات الحكماء للقنطري بمزيد من فضله ، ثم اختتم هذه المقدمة المفيدة بكلمة الأستاذ السيد محمد المبارك : « تصحيح الكتب القديمة أولى من الاشتغال بتأليف كتب جديدة » . ولعل من حق أن أزيد على كلمة السيد المبارك كلمة أخرى فأزعم أن تصحيح كتاب قديم عمل يقتضي من الجهد والمشقة والدأب أكثر مما يقتضيه الاشتغال بتأليف بضعة كتب جديدة !

ولست أشك أن الأستاذ كرد علي قد بذل جهداً وعانى مشقة في تحقيق هذا الكتاب وإخراجه على هذه الصورة ، يدل على ذلك مقدمته وتعليقاته وما ألحقه بالكتاب من فهرس وافية للأعلام والأماكن والشعوب والموضوعات وغيرها . وأيسر هذا الجهد كثير .

ديوانه ابن عنين (مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ، بتحقيق السيد خليل مردم بك)

وهذا أثر جديد قديم كذلك من آثار جهاد المجمع العلمي العربي بدمشق لأحياء تراث العربية والإسلام ، هو ديوان الشاعر شرف الدين بن عنين الأنصاري الدمشقي من مخضرمي شعراء القرنين السادس والسابع لعهد دولة بني أيوب ؛ وقد توفر على إخراجه في صورته هذه القشبية طالم أديب من علماء دمشق ، وفاء بحق الشاعر الدمشقي الذي عاش ثمانين حجة يتثنى بمفاتن دمشق الخالدة ، فكان حقاً على كل دمشقي أن يذكر ما بينه وبين هذا الشاعر من آصرة القرى ولحمة النسب وروابط الماطقة .

على أن ابن عنين لم يكن شاعر دمشق

وحدها ، وهو الذي يقول عنه ابن خلكان في الوفيات — وكان من معاصريه — : « . . . خاتمة الشعراء ، لم يأت بعده مثله ، ولا كان في أواخر عصره من يقاس به » . وصدق ابن خلكان وإن لم يصفه بكل ما يستحق أن يوصف به ، وحكم المتعاصرين بعضهم على بعض لا وسط فيه ؛ فاما غلو وإما تقصير .

وكان لابن عنين بين شعراء عصره نهج وحده ، فقد كان من أهل الترف والسرف فيما يبدو ، فلم يصانع الحاكمين رجاء لعطائهم ، بل لم يتخرج عن سبهم والازراء عليهم ونسبة كل نقيسة إليهم ، حتى باعدوه وتجاؤا عنه ، وحتى نفاه صلاح الدين الأيوبي عن دمشق ،

ظهر حديثاً

على أن هذه القلة الباقية فيها كل الغناء للدلالة على خصائص هذا الشاعر الذي عاش في أحفل حقبة في تاريخ المشرق بالحوادث فلم تنفعل بها نفسه ولم يظهر أثرها في شعره ؛ لأنه كان من الايمان بنفسه فوق الحوادث والاحداث التي يزخر بها عصره ، فجاء شعره صورة صادقة التعبير عن نفسه وعن الجماء القرية التي يعيش فيها ويرتبط إليها ارتباط المحبة أو ارتباط المبنضة ، وأغفل ما دون ذلك من حوادث الأيام والناس !

ولكنه — بما له وما عليه — شاعر من طراز جيد ، له دياجة وروث وروح وعاطفة . وليس هذا بقليل .

أي جيل أسدي السيد خليل مردم بك إلى قراء العربية باخراج هذا الديوان في صورته هذه الواضحة للمينة !

على أن جهد السيد خليل مردم بك لم يقتصر على تحقيق نصوص الديوان ومقابلة بعضها على بعض في ثمان نسخ مخطوطة منه لا تصلح واحدة منها للاعتماد عليها أو الاعتداد بها ، فهذه الرسالة التي قدم بها للديوان في بضع وأربعين صفحة منه هي وحدها عمل أدبي يستحق التنويه والاشادة ، إلى هذه التعليقات الثمينة الضافية ، وتلك الفهارس المنتظمة في آخر الديوان المطبوع .

فغنى على وجهه تتقاذفه البلاد عشرين سنة — فيما يرجح السيد خليل مردم بك محقق الديوان — ثم استقرت به النوى في دمشق ، ووزر لأميرها فأحكم الوزارة ونهض بأعبائها نهوض ذوى السياسة والتدبير ، وإن كانت طبيعته الفنية قد حملته مرة — أو أكثر من مرة — على طلب الاقالة فلم يجب إليها .

وكان في طبعه الدعابة والسخرية وعدم الرضا بالأوضاع القائمة أو التقيد بالتقاليد ، وكان في رأسه عقل أديب وفي قلبه وجدان شاعر ، وما كان شيء من هذه الصفات ليؤهله للوزارة ، ولكنه ولها فأحسن الولاية والسفارة والتحدث باسم الأمير والاستماع للمتحدثين إليه باسمه . وكان هجاء مر الهجاء مقعداً ؛ فن المعجيب مع كل ذلك أن يكون من أهل السياسة والتدبير والقصد في الكلام على ما تقتضيه الأوضاع الحكيمة !

وليس هذا الديوان الذي يخرج السيد خليل مردم بك هو كل شعره ، ولكنه شيء مما وقع له من شعره ؛ فقد كان ابن عنين ضئيلاً بشعره على الرواة ، فضاع أكثره ولم تبقى إلا هذه القلة في ديوان جمعه بعض معاصريه من أهل دمشق ، فتداولته أقطار الأرض ، وذهب سائر شعره مع الزمن .

التيار : ديوان شعر للأستاذ أحمد الصافي النجفي (مطبعة دار البقعة المرية ، بغداد)

الحياة ، وما يضطرب في مرأى عينيه من صور الحوادث والناس ، وما يختلج في قلبه من صور الوجدان والعاطفة .

وليس هذا الديوان هو كل شعره ، ولا أكثره ، ولكنه طائفة منه رغبت إليه وزارة المعارف العراقية أن تقوم على طبعتها ، تقديرًا له وإعجاباً به ، فدفعته وزارة المعارف العراقية إلى لجنة الترجمة والتأليف والنشر في

سأحاول في هذه المرة تجربة لعل أبلغ بها بعض ما أريد في التعرف إلى شاعر ذائع الصيت منذ بعيد ، سمعت به ولم أقرأ له ، وعرفت بعض رأي الناس فيه ولم يكن لي فيه رأي ، حتى ألقى إلى ديوانه هذا الذي أريد أن أتحدث عنه اليوم ، فجعلت شعره سبيلاً إلى التعرف عليه . وإذا صبح حدسي فهذا شاعر صادق التعبير عن نفسه ومما حوله من ظروف

بغداد فأخرجتها ديواناً يصور صاحبه تصويراً صادقاً كأن قد عرفتته وجلست إليه واستبعت حديثه واطلمت على مكنون صدره .

وقد قدمت القول بأنني لا أعرف ناظم هذا الديوان ، وإن كان اسمه في أذني منذ بعيد ، فكل ما أتحدث به عنه بعد فهو مما استنبطته من ديوانه هذا الصغير الذي لا يتجاوز بضعا وثلاثين ومائة صفحة . فإن طابقت صورته التي أصفها بعد ، صورته الحقيقية التي يعرفها الناس ويرونها رأى العين ويستيقنونها يقين المشاهدة ، فهو إذن شاعر صدق ، وما أقل الصادقين في شعراء هذا الجيل ! وإن خالفت الصورة فلست أحب أن أنفي ما وصفت به شعره من صدق الاحساس ولكنني أتهم نفسي .

فهو كما يصفه ديوانه شيخ ضئيل عليل ينوء كاهله بما حمل من عبء الليالي ، أشيب الرأس شاب الفطرة والنظرة ، فيه كثير من الاعتداد بالنفس ، لا يأبه بما تواضع عليه الناس من تقاليد ، إلى شعور قوى بالحياة وعطف شديد على الأحياء ، بادی الدمامة ، قديم الزم ، منبر النمل من طول السفر ، أفاق له في كل أفق وطن ، خفيف الظهر ليس له زوج ولا عيال ، يحمل من هم نفسه ومن

هموم الناس عبثاً يتقل كاهله ، متهم في دينه عند ذوى الحفاظ ، متهم في دنياه عند أهل الترف ، يتغفله أهل الفطنة وهو يسخر منهم ، يفشى المساجد ولا يراه الناس مصلياً ، ويرتاد الحانات ولا يذوق اللدام ، نخل وإن لم يتزوج ، أب وإن لم يولد له ، يطيع دواعي السفر ولا يزال يحن إلى وطنه ، سخي جواد ، وهو من العدم والاملاق في حاجة إلى من يجود عليه ، حريص على الحياة مؤمن بها وإن لم يجد فيها خيراً يستحق أن يحرص عليه .

ذلك هو الشيخ أحمد الصافي النجفي الدمشقي البغدادي الحموي الرحلاوي ، إلى ما شئت من أوصاف أخرى ، وتلك هي صورته كما أراد أن يرسمها لنفسه ، أو كما بدت لي من خلال ديوانه . أمي صورته كما يعرفها الناس أم تلك صورته في عيني أنا وحدي ؟ فإن كانت الأولى فما أصدقه شاعراً يحسن التعبير عن نفسه وعما حوله ، وإن كانت الثانية فما يرضيني أن تكون لي بها صورة أخرى ، لأظل على يقيني بأنني أملك من هذا الديوان الذي فرغت من قراءته الساعة صورة الصديق الذي أصفهته حي منذ عرفتته في ديوانه ولست أطيق أن أقده !

انا أعطيتكم نفسي مرآة ونفسي تشع من ناظرياً

ونظرت الناس لي فغاروا بأمرى
أنا إما ألا أكون كغيري

قلت إن هذا الشاعر لا يأبه بالتقاليد في الحياة ولا في الفن . أما في الحياة فلا أنه يعيش كما يشتهي ، أو كما يرى لنفسه ، في طعامه وشرايه وزيه وما يضطرب فيه من ألوان العيش . وأما عدم اعتداده بالتقاليد في فنه فآية ذلك ظاهرة في كل مقطوعة من مقطوعات شعره التي تزيد على ثمانين ، قد تحرر فيها من

لوازم كثيرة يلتزمها الشعراء في لغة الأداء وفي أسلوب الشعر وفي موضوعه . ولقد تقرب قصيدة واحدة من شعره فتعيب عليه لغة أقرب إلى العامية المبتذلة وعبارات مما يجرى على ألسنة سواد الناس ، أو تسيل على أقلام كتاب الصحف اليومية ، ولكنك لا تكاد تمضي في قراءة شعره مقطوعة بعد مقطوعة حتى تألف

هذا الأسلوب الذي كنت تبذله حين تستيقن أنه لم يصطنعه عجزاً وإنما اصطنعه إيناراً حرية التعبير عن كل ما يختلج في نفسه من ألوان انوجدان ، لا يريد أن يتقيد في شيء من ذلك بأسلوب خاص ولا لغة خاصة ، وليس يعنيه الإطار الذي يمسك الصورة بقدر ما يعنيه صدق التعبير في الصورة نفسها . قد يكون هذا عيباً في الشعر ، لو خلا منه لكان أكل

وأحلى وقفاً في الأذن وأثراً في النفس ، ولكنه على أي أحواله أحسن كثيراً من بعض ما نسمع من الشعر الفخم الضخم في ألفاظه ومبانيه على خلو من المعنى وقرر في الاحساس . وهذا النزعة الحرة التي ترد إليها لغته وأسلوبه في الأداء وموضوعاته هي جزء من طبيعة الشاعر فيما يبدو . اقرأ له للمقطوعة التي جعل عنوانها « أكل الحرام » ص ١٢٦ :

عمت مثل ذوى الحلاعة حانة
قربتها مني وإن لم أحبا
حتم أعبد سمعة وهمة
وغدوت حراً مثل قومي عائثاً

ووضعت أقداح للدمام أمانى
حتى أشوه سمعتي ومقامي
فكأنها صنم من الأصنام
لما صبغت الصيت بالآنام

ظمئت كؤوس القوم حيناً وارتوت
والناس حيناً يضحكون تعجباً
تهامسوت علام جئت لحانهم
هذا يقول لعله : ذا متقى
كفرت بين الشاربين وقبل ذا
صفت الذين قد اتقوا لقيودهم
الكل منهم طاب عادته
أني أرى حرية ضيعتها

حيناً ، وجامى طول ليلى ظامى
منى وحيناً من جود مدامى
أو ما نهتني جبتي وحزامى
فيجيبه بل ذا من الأنعام
كفرت بين مشايخ الإسلام
فاذا قيود الشاربين أمانى
تالله تلك عبادة الأصنام
طالت على سياحة الأقوام

وفي مقطوعات الديوان روح القصة إلى كثير من الدابة والسخرية . وحسبنا للاستشهاد على هذين اللونين في شعره أن نشير إلى قصيدته « التخت العليل »

ص ٣٠ ، وفيها يصف سريراً من أسرة النوم لعله قد أوى إليه ذات ليلة في فندق ما في بلد ما في أثناء أسفاره الكثيرة ، يقول في وصفه :

رب تخت سموه تخت منام
نصفه نأتى بدون انتظام
ينتهي سفحه بواد عميق
من ينم فوق نأتى منه يحسب
شجر الضيف حين نام فلامو
لم يكن طبعه الشخير ولكن
آلة التخت ما زوجت أنه للضيف
فألفن مشجى الأنعام

وهو حقاً مكسر للعظام
جامع للوهاد والآكام
ضيق الصور خافق للنيام
أنه فوق نأتات السهام
وما كان يستحق اللام
عصروه فصاح من آلام
آلة التخت ما زوجت أنه للضيف
فألفن مشجى الأنعام

ظهر حديثاً

وكان الأئين من جانب التخذ
وكان الأئين منه زفير
قالا إننى عليل فهل أسـ
ت بكاء على الضيوف الكرام
أو شكاوى يئتها للأثام
طبع حملا لهذه الأجسام

على انى لست مستطيعاً أن أنقل إلى القارى
بالكثير أو بالقليل من الشواهد —
النموذج الذى يتبينون فيه روح الشاعر واضحة ؛
فكل قصيدة من هذا الديوان عنوان بارز
على قطعة من نفس شاعره ، فليست أملك إلا
أن أنوه به وأدعو إلى قراءته ليعرفوا الشاعر
المبدع الحر الانسانى النزعة : أحمد الصافى .
النجفى .

محمد سعيد البريانه

في مجلات الشرق

المرأة السورية

التأثيرات سواء في بيوتهن أو في المجتمعات ، وقد تبد المرأة السورية الباريسية في الكثير من المظاهر .

ثم يمضي الكاتب في حديثه عن المرأة ودعوات المفكرين لتحريرها وما كان لهذه الدعوات من آثار إصلاحية قليلة بالقياس إلى ما لا تزال تتمرغ فيه المرأة العربية من الجهالات والخرافات ؛ ثم يرد فساد الحياة الاجتماعية في البلاد العربية إلى هذا الأصل « لأن المرأة هي التي تزيل غشاوة الحياة وترقي بالأسرة والمجتمع إلى المرتبة التي تتمتع بها المجتمعات الراقية التي أصابت حظاً وافراً من نعم المدنية وفيض الحضارة » .

في العدد التاسع من مجلة « الحديث » التي تصدر في حلب يتحدث الأستاذ سامي الكيالي عن « المرأة في المجتمع العربي » فيبدأ الحديث عن المرأة السورية، فيزعم أنها تجمع في شخصيتها وفي الحياة التي تمجهاها كل عصور التاريخ : « في مجتمعاتنا نساء يعشن من حيث التفكير وإدراك أسرار الحياة عيشة امرأة العصر الحرجي ، وأخريات كأنهن في عصور البداوة . . . وبعضهن لم يدقن نعيم الحضارة ولا عرفن لونها ولا طعمها . . . وقد تتجاوز فنقول عن بعضهن إنهن نصف متحضرات . . . ثم إلى هذه المجموعة من النساء المختلفات عقلية وميولاً ، نساء يعشن عيشة الباريسيات

قصر بيت الدين

الخاص عن قصر بيت الدين مظهراً من مظاهر الحفاوة بكل أثر من آثار الأمير بشير الكبير .

وقد جمع هذا العدد بين دفتيه طائفة من الفصول لطائفة من أهل الأدب والتاريخ يتحدث كل منهم في مقاله عن ناحية تتصل بالموضوع الفرد الذي خصص له هذا العدد من « المكشوف » : ففيه حديث بقلم فؤاد حبيش عن ماضي لبنان وحاضره منذ انفصل عن سلطان الدولة العثمانية حتى اليوم . يلي ذلك موجز من بحث للشاعر الأديب يوسف غصوب عن لبنان قبل عهد الأمير بشير ساير فيه لبنان مع الرحالين الفرنسيين من فولني إلى مورييس بارس .

وتفرد مجلة « المكشوف » في بيروت عدداً خاصاً في بضع وثلاثين صفحة للحديث عن قصر بيت الدين ، وهو القصر الذي ابتناه في قرية « بيت الدين » سيد الجبل الأمير بشير الكبير منذ قرن ونصف قرن ، مظهراً رائعاً لأبهة الإمارة وآية من آيات الفن . وللأمير بشير في تاريخ لبنان ، بل في تاريخ الشام كله ، بل في التاريخ القريب لهذا الشرق العربي ، فصل بعنوانه، يحتفل بالأجداد والمفاخر ، فلا عجب أن يحتفل إخواننا في لبنان بذكره ويحرصوا على تراثه . وليس كل تراثه هو هذا القصر الباذخ ولكنه التراث البارز في سرأي كل ذي عين وفي إحساسه . وكانت حفاوة مجلة « المكشوف » بإخراج هذا العدد

من مائة عام ، فيه طرائف أدبية ممتعة وصور
لبعض ألوان الحياة الاجتماعية في قصر أمير
لبنان يوم كان . . .
إلى فصول أخرى لبعض أهل الأدب
والتحقيق ، وثف مترجمة من أقلام الرحالين
الذين عرضوا الحديث هذا القصر وأميره ،
مثل لاسرتين وموريس بارس وغيرهما .
كتاب طريف في غلاف مجلة ، يتناول حقبة
من تاريخ لبنان القريب ، فيه أدب وفن ، وفيه
مظهر من مظاهر القومية العربية الواعية .

وقد اتخذ الشيخ بشارة الخوري رئيس
الجمهورية اللبنانية قصر بيت الدين مصيفاً
لفخامته في الصيف المنصرم ، فكان لا بد من
الحديث عن « رئيس الجمهورية في قصر
الأمير » وهو وصف صحفي دقيق بقلم زهير
زهير يتحدث فيه عن القصر وساكنته وبانيه
وحاضره وماضيه .

يلي ذلك فصل ممتع بقلم رثيف خوري
عنوانه « سهرة مع الأمير في مجلته الأدبية »
يصف فيه بعض مجالس الأمير بشير منذ أكثر

من أدب العراق

طريفاً من مذاهب الموازنة . وهذا السيد
عبد الحميد الدجيلي يتحدث عن « الفلاة
وتحلمهم في العصور المتأخرة » . وهذه
مقطوعات من « رباعيات الحبوبي » يحتذى
فيها مثال الزهاوي على فرق ما بينهما في
الأداة والفكر . إلى فصول أخرى في تاريخ
العراق الحديث والقديم . وها نحن أولاء
نحتزئ من العدد الأول بهذه « الرباعية »
للحبوبي التي جعل عنوانها « الشعر لا ينفع
الفقراء » :

يحمدينه شعر ولا تغنيه أمثال
قالت : وماذا أفادوه بما قالوا ؟
ولم تغير لهم يوماً به حال
مال ، وأما ذوو النعمى فجبال :

الحلى الشاعر لدى قاضي النجف ، ويصف
الكاتب هذه المقامة بأنها من « نتائج
قريحة فياضة في الأدب العربي لا تقصر عن
مجاراة أجود المقامات في خيالها الخصب
ومداخلاتها الأدبية التي تعرض أثناء
قراءتها » ثم يورد المقامة بعد ذلك بنصها .

ولا تزال مجلة « الغرى » التي تصدر في
النجف عنواناً بارزاً من عناوين النهضة
الأدبية النشيطة في العراق . فهذه الأعداد
الأولى من سلتها الثامنة تعرض طائفة من
المقالات لجماعة من كبار الكاتبيين يتناولون
قنونا من العلم والأدب خليفة بالتقدير ؛ فهذا
الدكتور مصطفى جواد يعرض لمجموعة صغيرة
من الشعر الخمسة من شعراء العراق المتأخرين
أو للمعاصرين ، فيعتقد بينهم موازنة أو
« حكومة » على حد تعبيره يذهب فيها مذهبا

تقول نفسي : دع ذكر الفقير فما
فقلت : أتبع من قالوا لنصرته .
لم يمنح البائسين الشعر فائدة
أما الألى يفهمون الشعر ليس لهم

وفي العدد الثاني من تلك المجلة ينشر
السيد عبد الكريم الدجيلي الحلقة الثالثة من
بحثه « النثر الفني في النجف » فيقدم
« مقامة » ممتعة للمرحوم الشيخ جواد
الشيبي الأديب العراقي المتوفى منذ قريب ، يرد
بها دعوى ادعائها صفية للمرحوم السيد جعفر

خط مقاله تحت وطأة الشعور بأنه « أب بلا ولد ! »

أرأيت الصغيرات يحنون على الدمي حتى الوالدات على مواليدهن ؟ تلك صورة من صور الأمومة الباكورة ، وهذه صورة أخرى من صور الأبوة المعطلة !

ولا يزال السيد خضر العباسي يتحدث في « النرى » عن « الخلفات العباسية » وقد أوجزنا لقراءنا في مثل هذا المكان من العدد الماضي شيئاً مما نشره الكاتب عن آخر سلاسل العباسيين في العراق ، وهو من حفدتهم ؛ وها هو ذا يوالى حديثه عنهم في مقال عنوانه « مدرسة اسماعيل باشا العباسي في بغداد » فمن أراد أن يتتبع تاريخ بني العباس بن عبد المطلب الهاشمي إلى هذا الزمان فليقرأ مباحث السيد خضر العباسي في مجلة « النرى » عن أجداده .

تمنيت لو تهيأت إلى مصادر هذا التاريخ الذي يحكيه لأعرف تمام القصة التي بدأت في خراسان منذ اثني عشر قرناً ولا تزال حوادثها تتسلسل مع الأجيال حتى اليوم ...

وفي العدد الثالث منها فصل ظريف بقلم صدر الدين أحمد عنوانه « إلى ولدي الذي لم يولد » يخاطب فيه ولده من وراء الغيب : « عزيزي ... يؤلمني أشد الألم أنني لا أدري متى أنت تولد فأرى فيك بعضي بل جميعي موروثاً لك ومنقولاً إليك ؛ فما أنت مني إلا اختصار كائن حي يضم في حدوده صفوة خصائص وعصارة مواهب ومزاياي ، فأنا أنتظر إيجادك من نفسي كما لو كنت أنا سأوجد إيجاداً من نفسك ... »

أما السبب في أن ولده ذاك لم يزل في ظهر النيب فلأن أباه لم يتزوج بعد ، ولأن أمه لم تزل وراء الحجاب ، وذلك فيما يقول ذنب المجتمع للمجتمع الذي حال بينه وبين الزواج لأنه فقير سملق ، فهو يعتذر آسفاً إلى ولده من إبقائه إياه مكفوفاً في طيات نفسه ثلاثين سنة لا يرى وجهه ولا يستمع إلى نغمات صوته .

يذكرني هذا الفصل بحديث قرأته في مجلة « الرسالة » المصرية منذ بضع عشرة سنة لكاتب معروف في مصر والعراق عنوانه « أين أنتم يا أحبائي ؟ » ... كلا الكاتبين

الأدب المصري المعاصر

والوصف والنقد ، إلى أن صار إنشاء يصور الحياة ويستوحى الواقع ويهدف إلى إصلاح الحياة والمجتمع . ويرى الكاتب أن زعيم هذه المدرسة الحديثة التي خرجت بالأدب المعاصر من نطاقه التقليدي المحدود إلى فسيح الحياة هو الدكتور طه حسين الذي دعا إلى حرية الرأي والصراحة في القول والصدق في التعبير ، فاستجاب لدعوته طوائف من الشباب يسرون على النهج الذي شرعه .

وهذه مجلة أخرى جديدة تصدر في النجف باسم « الدليل » يصفها صاحبها السيد موسى الأسدي بأنها « شهرية علمية أدبية اجتماعية جامعة » . وبين يدي في العدد الأول منها مقالة بقلم إبراهيم الوائلي عنوانها « الاتجاه الحديث في الأدب المصري » عني فيها الكاتب بتتبع بعض الألوان في الأدب المصري المعاصر ، منذ كان ذلك الأدب مقصوراً على البحث في إنتاج القدماء وما يتصل به من البحث

ادب العراق أيضاً

الشعور ويبحث الأمل ويجدد الحياة ويحمل على تنفس السبيل إلى الدواء ؛ ثم يقساءه منكراً : « ولكن أين هم هؤلاء الأدباء ، وما مبلغ تأثيرهم في مجتمعاتهم ، وأين إنتاجهم الذين يكون به هذا التأثير ؟ » ثم يحاول الجواب عن أسئلته تلك فيقول : « الحق أننا لا نقالي إذا قلنا إنهم ويا للأسف الشديد قلة لا يعتقد بهم ، قد سلك كل منهم وجهة خاصة بعيدة في عالم غير عالمنا أو في عصر غير هذا العصر . وليس أدل على ذلك من هذا التباين الكبير بينهم — على قلتهم — في طراز التفكير ولون الأدب وقوة الأثر ، فهم بين قديم خشن الأسلوب بطيء التفكير متعصب للماضي ، وبين آخر يخوض في كل شيء ولا يخرج بشيء ، وإنما ثمرة كل ذلك هلهلة في النسيج واضطراب في النهج وبلبلة في الفكر ... »

على أن هذه النهضة الأدبية التي تصورها مجلات العراق لا تقنع السيد حسين على ، فهذا مقال له في العدد العاشر من مجلة « البطحاء » التي تصدر في الناصرية — بغداد ، عنوانه « حاجتنا إلى الأدباء » يتبنى فيه أن يرى في العراق طائفة من الأدباء قد استكملوا أدواتهم وعرفوا واجبه للناس لا لأنفسهم . فهو يرى أن في حياة العراق اليوم اضطراباً يشمل كل صغيرة وكبيرة ويتناول أموره الخاصة والعامة ، وفيها إهمال يشيع في كل شيء ، في الأسرة ، وفي دوائر العمل ، وفي الشارع ، وفي دور التسلية ودور الثقافة ، وفي الريف والحضر على السواء ، وهو اضطراب وتقلقل كان من أثر تلك الحرب وما خلفته من أعقاب ؛ فهو لذلك يهيب بأدباء العراق أن يحاولوا علاج هذه النقائص بالسعي الحثيث لتصوير هذه الأدواء تصويراً يوقظ

المرأة الكردية

للأسرة من تبعات ، فتشارك زوجها في العمل وللزراعة ، وفي الاحتطاب والنقل ، وفي البيع والتراء ، وقد تقوم بأعمال لا يقوى على مثلها الرجال . وبعد أن يورد أسماء طائفة من الكرديات للمعاصرات اللاتي اشتهرن في ميادين الأدب والفن والثقافة وأعمال البطولة ، يقول :

« إن المرأة الكردية تعتمد على نفسها لتحصيل قوتها اليومي أو إدارة اقتصاد العائلة عند ما تزوج ؛ لذا لا تجد المرأة الكردية كبير مشقة في تجهيز الأسرة بما قسم الله من

أما مجلة « الثقافة الحديثة » التي تصدر عن الكاظمية ، وهي مجلة أدب وعلم وفن واجتماع كما تصف نفسها ، فإن لها أثراً — كما يبدو — عند أكثر من مجلة من مجلات العراق ؛ فهي تخصص بضع صفحات من العدد الثالث للنيل من بعض زميلاتنا ثمة ، وإن لم تفل إلى جانب ذلك من مقالات تستحق أن تقرأ ، فهذا مقال للقائم مقام محمد شاكر فتاح عن « المرأة الكردية » يتحدث فيه عن شيء من خصائصها في البيت ، وفي ميدان العمل ، فهي تحب زوجها وأولادها وبينها ، وتشعر بما عليها

في مجلات الشرق

الرزق عند فقداها زوجها أو عائلها .
فكم شاهدت من أرملة كردية قد حرمت على
نفسها الزواج بعد زوجها الأول وكرست
حياتها لخدمة أولادها بالكسب الشريف
وعرق الجبين ، بل شاهدت عدة أراامل وقد
أصابهن العسى ورغم ذلك قد أبين سؤال
الناس أو مد الأكف ، بل قن ببعض المهن
الشاقة وآثرن شطف العيش والحرمان
على النعم المتأتية من الذل والخنوع في خدمة
الأثرياء »

حيرتني يا قارئ

ونكتفي بهذا الحديث عن محلات العراق
لنقرأ للأستاذ عبد الحميد يس في مجلة «الذخيرة»
التي تصدر عن فلسطين مثالا بهذا العنوان
يعيب فيه على طائفة من المؤلفين وكثير من
الصحفيين أنهم يعمدون فيما يكتبون وينشرون
إلى استهواء القراء وترضيهم وتملقهم ،
واشتغالهم بذلك عن صقل أنفسهم وتغذية
أرواحهم . فأصبح الكاتب مقوداً لا قائداً ،
ومسلياً لا مؤدياً ، وسميراً للتندر لا وزيراً
للنصح والارشاد . . . ثم يقول متحدثاً
إلى قارئه :

« بيدولي ، ولعلك أنت أيضاً ترى ، أن
الجانب الأكبر مما في المجلات الأسبوعية يدور
حول ثلاث نقاط : المرأة ، والحياة الجنسية ،
والجرائم وأبطالها والقبل والقال في الطبقات
العليا من المجتمع ؛ فالمجلة التي لا تزدهان بصورة
من صور الحسان في مناسبة ودون مناسبة ،
نعتبر رجعية تليق بالسلف الصالح وحده . . . »
ويعض الكاتب في نكده ، وفي حيرته في
اختيار ما يرضى القارئ وما لا يرضيه ،
حتى ينتهي من مقاله كما بدأ : بين الإنكار
والرضا ، وبين الحيرة والاطمئنان .

عدالة المستقبل !

وندع هذا اللون لننظر في لون آخر تقدمه
مجلة « الطريق » التي تصدر في « بيروت »
وهي مجلة ذات طابع خاص في النقد السياسي ،
وقد سلخت من عمرها بضع سنين ماضية إلى
غاية تدعو لها وتكافح عنها ، ولعلها بالغة غايتها .
وما هي ذي تتحدث في العدد السابع عشر
من سنتها الخامسة عن « عدالة المستقبل »
لمناسبة الحكم الذي أصدرته محكمة نورمبرج
على من أساءهم منطق المنتصرين « مجرمي
الحرب » . ولولا الهزيمة التي نالت جيوشهم
لكانوا اليوم أبطالا وسادة ينزلون من الناس
منزلة الحفاوة والتكريم . . . ولعل الذين

حاكواهم فحكوا عليهم كانوا يؤمئذ في عرف
العالم هم المجرمين ، لأنهم . . . لأنهم لم يكسبوا
المعركة الأخيرة !
هؤلاء وأولئك قد اعتدوا على سلام
العالم . وسفكوا دم الأبرياء ، وأيتموا
الأطفال ، وأرملوا النساء ، وأخربوا العاصم ،
وأظلموا وأجاعوا وأعروا ، إن لم يكن في
هذه الحرب في حروب سلفت ، وإن لم يكن
في تلك المعركة في معارك أخرى لا تزال ناشبة
في الشرق والغرب
هؤلاء وأولئك سواسية في الصفة
التي وقفت هؤلاء النازيين بين يدي قضائهم

برهن حكم نورمبرج أن الانسانية قد دخلت
مرحلة جديدة من تاريخها ، مرحلة أصبح
فيها قتل الشعوب الآمنة في نطاق الجرائم
التي لا تغتفر . ولن يكون بعيداً اليوم الذي
تطول فيه يد العدالة الانسانية الجرائم
المقتربة ضد السلم وضد الانسانية وجميع
المؤامرات التي تحاك ضد السلم والانسانية
باعتبارها شروعا في ارتكاب الجرم ... !»
أترى يتحقق هذا الحلم الرائع فتعقد
غدا المحاكمات لجرمي الحرب وأعداء
السلم والحرية ، غالبين ومغلوبين على
السواء !

ولكن من ينفذ هذا الحكم وفي كل
جريمة ظالم قوى ومغلوب منهزم ؟

ثم انتهت بهم إلى يد الجلاد . ولكن إحدى
الطائفتين انتصرت في تلك المعركة فنالت
البراءة بانتصارها ، وانهزمت الأخرى فكانت
مجرمة بهزيمتها ؛ ولا يزال قانون « اسبرطة »
نافذاً على توبلى القرون ، ولا يزال الحق
هو القوة ، ولا يزال الويل للمغلوب !
وتتحدث مجلة « الطريق » إلى قرائها
لهذه المناسبة ، فتصف هذا الحكم الذي حكم
به قضاة نورمبرج على مجرمي النازية بأنه
« عدالة للمستقبل » لا لأنه نال النازيين دون
غيرهم من سائر سفاكي الدماء وقتلة البشر
ومقتصي حرية الشعوب ، بل لأنه « لأول
مرة في تاريخ الانسانية لم تعد الجرائم الفردية
وحدها هي التي تقع تحت طائلة العقاب ، فقد

في مجلات الغرب

من لندن

«الوجودية» من حيث هي موقف في الكتب التي عرضنا لها في هذا المقال «أبست إنسانية». ونلاحظ أن ه. أ. ميزون لم يطل كغيره في نقد إسراف المؤلف في التحقيق، أما بالقياس إلى الأسلوب فهو محتفظ تحفظ الأجنبي.

«لايف أند ليترز» *Life and Letters*، سبتمبر ١٩٤٦. إن المقال الوحيد الذي يستحق الذكر في هذه المجلة هو نداء الشاعر اليوناني نيكوس كازانتزاكي *Nikos Kazantzaki* ويتبع هذا النداء نبذة عن حياته. ولد الشاعر في كندى *Candia* في جزيرة كريت *Crète* سنة ١٨٨٥، وتلقى علومه في أثينا وباريس وروما وبرلين، وهو يعيش الآن في إنجلترا وأهم مؤلفاته تاريخ الأدب الروسي، وترجمات عن جوته *Goethe* ودانت *Dante* وهو مبدوس *Homère* ونيتشيه *Nietzsche* ودبوان حماسي قصص «الأوديسية» *Odyssea* وهو مكون من ٣٣٠٣٣٣ بيت، ومسرحيات منها تريلوجية عن بروميثيوس *Prometheus*. وبعد أن شغل سنة ١٩١٩ منصب مدير عام لوزارة الخدمة العامة استقال في سنة ١٩٢٠ لينصرف إلى الأدب، وهو الآن يعد كتباً عن الحياة الأدبية في إنجلترا بعد الحرب. فلنوجه النظر إلى نداء نيكوس كازانتزاكي فهو يقول: «إتنا نشر أو نكاد نشر

مجلة «سكروينى» *Scrutiny*. صيف ١٩٤٦. يعرض فيها ه. أ. ميزون *H. A. Mason* عرضاً مفصلاً لمؤلفات ج. ب. سارتر *J.-P. Sartre* القصصية وخاصة «طرق الحرية» (١) وهي تريلوجيا أي قصة تدور حول ثلاثة موضوعات كما هو معروف. «سن الرشد» و«التأجيل»، وسيظهر قريباً «الحظ الأخير» (٢) يحلل الناقد القصتين اللتين ظهرتا سالكا إلى تحليله طرقاً مختلفة ولا سيما الطريق التي استخلصها من رسالة لجان بول سارتر عنوانها «الوجودية ثقافة إنسانية» (٣) فيحاول أن يتتبع تقدم فكرة الحرية والفعل الحر. ولا ينتهي ه. أ. ميزون أن ينقد هذه الكتب نقداً فلسفياً أو اجتماعياً إنما يقول: «حقاً، إذا تعمقنا البحث وأردنا تحليل المؤلفات الأخيرة ثبت لنا أن الموقف الذي اتخذته النقاد هو اللأثم، أعني أن مؤلفات سارتر الأدبية يجب أن تنقد نقداً أدبياً خالصاً، لأن «المادة» الفلسفية فيها يجب أن تقاس وتقدر حسب قيمتها الخاصة ومن حيث هي جزء مقوم لكل أدبي. فعلى الناقد أن يقدر قيمة المؤلف كما تبدو في قصصه ومسرحياته لا أن يتبع الطرق المألوفة في جمع الأفكار الفلسفية ومقارنتها بما هو مقدر في كتب الفلسفة. وهذا ما يفعله ميزون في بحثه القيم الدقيق. ويقول في ختامه: «إن

(١) J.-P. Sartre, *Les chemins de la liberté*.

(٢) *L'âge de raison. Le sursis. La dernière chance*.

(٣) *L'existentialisme est un humanisme*.

في مجلات الغرب

ان خطرا عظيما يهدق بالحضارة الحديثة» وذلك لأن : « بين نمو الانسان العقلي ونموه الخلقى اختلالا في التوازن والانسجام » مصدره أن « عقل الرجل الحديث قد تطور بسرعة أشد وبحدة أدق من روحه » . ولذلك يرى نيكوس كازانتزاكي أن من الضرورة

« أن نحشد مواردنا وأن نحارب الخداع والعداء والبؤس والظلم . يجب علينا أن نرد الفضيلة إلى العالم . » إن حرارة الأسلوب التي تسود تلك الصفحات تدفعنا إلى أن نود منه ما يرى الشاعر من « أن الشعراء الآن كما كانوا في الماضي يشبهون الأنبياء . »

من باريس

قرأت اليوم لأول مرة مجلة «كونستيلاسيون» Constellation وهي الطبعة الباريسية لمجلة عنوانها «فرنسا الحرة» La France Libre كانت تصدر في لندن مدة الحرب . فالطبعة الجديدة للمجلة تختلف عن طبعتها السابقة اختلافا عظيما ، في منظرها خاصة ، والواقع أن هذه المجلة في شكلها الجديد فاخرة جدا . أما ما تشره من المقالات ، فمنها ما هو مهم حقا ، وما هو شاحب اللون ، إن صح هذا التعبير ؛ فليست فصول المجلة مستوية كما نرى .

ولننظر إلى بعض هذه المقالات : في العدد الخامس والستين منها بعنوان : « دفاع عن التجريب » لبريس باران (١) ، مقال يحاول فيه الكاتب أن يبحث عن أسباب القلق المستمر في فرنسا منذ تحررت . فيرى بريس باران أن سبب هذا القلق هو البربرية ، أو بعبارة أدق هو البربرية في العالم بعد انتهاء الحرب . فيقول الكاتب : « لقد تجد فرنسا نفسها أمام تهديد البربرية ، وترى أنها إن لم تكن عزلاء فهي ليست مسلحة كما ينبغي أمام هذا التهديد . . . وهي شقية بهذا لا في

جسمها بل في نفسها . وهي من أجل ذلك تتكلم كثيرا . قذف بها في عالم غير واقعي ، فهي لا تعرف فيه نفسها بعد ، وهي تبحث فيه لذلك عن هذه النفس : إن الفرنسيين يشعرون بأن الحقيقة تفر منهم والأخلاق كذلك . فالأخلاق هي سيرة الانسان مع الحقيقة ، بحيث يستطيع أن يسيطر عليها دون أن يعنف بها ، وبحيث يستطيع أن يجعلها قابلة للحياة غير معرضة للفناء : »

ويشتمل هذا العدد على ثلاثة فصول يعضها كتاب بريطانيون ، فالمجلة إذن شديدة الاتصال بالمتقنين الانجليز ، — أو قل إن أردت — إن الكتاب الانجليز هم الذين يمتنون بالثقافة الفرنسية . فالمقال الأول بقلم الشاعر الكبير ستيفن سبندر ، عنوانه «مقابلات في ألمانيا» (٢) وهو فصل من كتاب ، سيصدر بعد أشهر ، عنوانه « شاهد أوروبي » (٣) . وهذا المقال ذو شأن فيما يتعلق بموقف الحلفاء نحو الألمان وخاصة برأى الروس والأمريكيين فيما يجب أن تكون عليه علاقاتهم بالشعب الألماني .

لويس ماك نيج : « الكاتب البريطاني

(١) Brice Parain, Défense de l'empirisme.

(٢) Stephen Spender, Rencontres en Allemagne.

(٣) European Witness.

وتحقيقاً للمظهر الدولي الذي تبدو فيه المجلة يجد القارئ قطعة مترجمة عن اليونانية الحديثة من قصة كتبها إيلياس فينيزيس Ilias Venezis ويقدم بيير أماندري Pierre Amandry (وهو أحد مترجمي القصة) لقراء « كونسيلاسيون » هذا الكاتب اليوناني . وحسبي أن أذكر من هذه المقدمة هذه الأسطر التي يشير فيها إلى ما تأثرت به القصة من العقائد والأساطير ، وذلك حيث يقول : « بعض هذه العقائد والأساطير مسيحي الأصل وبعضها إسلامي ... ولكن أوديسوس الحديث أضاف إلى مواقف سميه القديم زيارات في القصور الحديثة . وفي قصصه أحداث دائمة تردد أصداء غريبة لآلف ليلة وليلة . »

وتختتم المجلة بعرض المجلات ثمانية عشر مجلة في صفحتين ! خصص لكل واحدة منها أربعة أو خمسة أسطر تكفي لتعطينا فكرة شاملة عن تلك المجلات .

« الفكرة » *La Pensée* (عدد ٧) أبريل ، مايو ، يونيو . وهي مجلة العقليين المحدثين ، وهي فنية ، علمية ، فلسفية . ومن بين لجناتها الإدارية بول لانجفان Paul Langevin و ف. يوليو - كوري F. Joliot-Curie واتجاه هذه المجلة يساري متطرف . وفي العدد المذكور ثلاث مقالات عن العالم العظيم باستور Pasteur نشرت بمناسبة العام الخمسين لوفاته . فتقرأ في المقالة الأولى منها بقلم بول لانجفان ما يأتي : « هذا العام الخمسون لوفاته باستور وهو في آن واحد العام للتوي لبجوته الأولى ، يتيح لنا أن نذكر شخصية هذا الرجل الذي برع في فن استنطاق

والحرب » (١) : « لا يمكن العودة إلى ما بين الحربين . فإذا يكون اتجاهنا في المستقبل ؟ » هذا هو السؤال الذي يلقيه الكاتب في أول مقاله . فهو يلاحظ أن الدولية الأدبية « عامل باعث للحياة لا مناص منه ولكنه خلو من تحقيق التوازن وفيه شيء من التصنع . » ثم يذكر تعريف الوطنية الثورية لجورج أورويل George Orwell الذي كان من أبرز المدافعين عن الدولية المركسية وذلك حيث يقول : « إن الوطنية إخلاص بشيء يتغير دائماً ونحن نشعر مع ذلك في بعض التصوف بأنه خالد » . ويقول الكاتب بعد ذلك حين يشير إلى أدب الغد : « سنقتبس موضوعاتنا من الحوادث الراهنة ، ولكن نحول طبيعتها بحيث تمتزج الحقيقة بالرمز . » ويصل لويس ماك نيج مقالته إلى هذه النتيجة : « يجب على إنجلترا إذن أن تحتفظ بنفسها ، بل بعبارة أدق ، أن تحقق نفسها . بذلك وحده نستطيع أن تكون عضواً منتجاً في الجامعة الأوربية الكبرى » .

أما المقال الثالث وعنوانه « بيكاسو في إنجلترا » فقد كتبه هربرت ريد (٢) وهو يتحدثنا عن عرض بعض لوحات للمصور العظيم بيكاسو Picasso في لندن . ويذكر في دجاجة ما كان له من رد الفعل في الجمهور البريطاني . فيقول مثلاً : « إن الجمهور البريطاني يكتشف كل عشرة أعوام أو خمسة عشر عاماً أن الفن موجود ، وإذا كان قد تجاهله فيما بين ذلك فهو يشعر كل مرة بصدمة روحية . فليس الفن جامداً بل هو يتطور في سرعة قد يراها الفنان أو الناقد الفني ، عادية ولكنها تبدو بطبيعة الحال كارثة لمن يدركها كل عشرة أعوام أو خمسة عشر عاماً . »

(١) Louis Mac Neige, *L'écrivain britannique et la guerre*.

(٢) Herbert Read, *Picasso en Angleterre*.

الماء غسب » بل إلى عوامل مختلفة تحاول تحليلها : أولاً للمشكلة الغذائية وهي مصدر المشكلة الاجتماعية . وحسي أن أنقل خلاصة ذلك البحث . إن المشكلة كما يراها بيير جورج كانت في سنة ١٩٣٧ وما زالت مشكلة نظام وتوزيع أكثر منها مشكلة إنتاج . وذلك لأسباب ثلاثة :

- (أ) الشركات الضخمة للاستعمار .
- (ب) الاقطاعات العريية الواسعة .
- (ج) إقبال الملكية الصغيرة بالضرائب المباشرة وغير المباشرة .

ويختم بيير جورج هذا القسم بقوله : « إن الفلاحين المشردين يدفعون إلى نوع جديد من البدوالة هو بدوالة الجوع واليأس . »

ثانياً ، إن حالة العمال يسودها بؤس شديد يعود إلى أساليب العمل وأدواته البدائية .

ثالثاً ، للمشكلات الأهلية والسياسية . إن أهم هذه المشكلات يرجع إلى الفريقين التونسي والاطالي من السكان . ولندع نحن الناحية السياسية لنصل إلى مشكلة التعليم . فيقول بيير جورج في هذا الموضوع : « إن فرض الثقافة من طريق لغتين أجنبيتين ، الفرنسية والعربية الفصحى ، على أطفال لغتهم الأصلية هي اللغة العربية الدارجة التي تمتاز بطابعه الوطني وتختلف اختلافاً ملحوظاً عن اللغة الفصحى وهي لغة قديمة مقصورة على الأدب دون الاستعمال ، وإن الاستعانة على ذلك بكتب ألفها لفرنسا (بالنسبة إلى الثقافة الفرنسية) مناسرة يصعب الخروج منها . »

ويختم الكاتب بحثه هذا قائلاً : « إن الحالة في تونس تتطلب تدابير سريعة وتعديل

الطبيعة ، وتمكن أن يكون في الوقت نفسه عالماً ذا ذكاء خارق ورجلاً يمثل عصره تمثيلاً سامياً في موقفه في مشاكل العلم والحياة . »

أما في نلقال الثاني وعنوانه « مناهج باستور » بقلم فرنان نيتي (١) فيطلق على منهج باستور عبارة « للمادية الاستنباطية » (le matérialisme dialectique) إذ

يقول : « وأخيراً كان باستور يعرف بالدقة أن تحسين حياة الناس مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمعرفة العالم الحقيقي ، وفي كل آثاره يتفرع التطبيق العلمي من الأصول النظرية . »

فتحن مجد في كل أعمال باستور البرهنة التجريبية على أكثر أصول « للمادية الاستنباطية » ... فليس باستور هو الذي ابتكر « للمادية الاستنباطية » بل هي التي تلائم أعمال باستور ملاءمة تامة . والنقال الثالث مقتطفات نشرها بول دويوي في « نشرة أصدقاء مدرسة المعلمين العليا » (سنة ١٩٣٨ - ١٩٣٩) (٢) ولخصها سكرتير تحرير المجلة تحت عنوان « باستور في مدرسة المعلمين » Pasteur à l'Ecole Normale التي يعرض لها في هذا النقال هي تدين باستور . وهو يلقي السؤال الآتي : هل كان باستور كأموليكيًا في أدق معاني الكلمة ؟ وجوابه على هذا السؤال لا يقتنعنا .

وفي نفس المجلة مقال عن تونس ومشكلاتها لبيير جورج (٣) ذو شأن كبير للقارئ العربي . وفي مقدمة قصيرة يبسط لنا الكاتب غاية ذلك للنقال إذ يقول : « إن للملاحظات الآتية ترمي إلى تبين أن الضيق الشديد الذي يشكو منه الشعب التونسي لا يرجع إلى قلة

(١) Docteur Fernand Nitti, *La méthode pastoriennne*.

(٢) Paul Dupuy, *Bulletin des Amis de l'Ecole Normale Supérieure* (1938-1939).

(٣) Pierre George, *Problèmes de la Tunisie contemporaine*. Notes de géographie économique et politique.

في مجلات الغرب

« تريد أن تدعو إلى رأى سياسى أو توحى به ». ويلاحظ الكاتب فيها بعد أن تلك الأزمة يضاعفها « نمو عظيم لتأثير القصة الأجنبية ، وخاصة الأمريكية ، في فرنسا ». ويرى تييرى مونييه أن أسباب ذلك النمو هي : أولاً : عنف الهجاء الاجتماعى (جون دوس باسوس John Dos Pasos) (وستاينبيك Steinbeck .)

ثانياً : حدة الملاحظة وتصوير المراثيات .
ثالثاً : امتزاج مذهب التحقيق بالروح الشعرية .

رابعاً : عنف الفن وتوحشه .
خامساً : طرق حديثة لعرض الكوارث المعاصرة .

وبعد أن عرض الكاتب لهذه الأسباب يقول : « نرى إذن أن الأدب القصصى الاجنبى قد يتفوق على الفرنسى لا في نظر نخبة القراء فحسب بل في نظر العامة . » وأخيراً يعتقد تييرى مونييه أنه : « إذا كانت هناك الآن أزمة في القصة فلعلمها عند المؤلفين لا عند القراء . »

سياستنا نحو الأماهى . . . إن خيبة الآمال والבוؤس من ناحية والطموح الشخصى من ناحية أخرى قد يتكشfan عن نتائج لا تعود بنفع ما على البلاد التونسية .

La Revue Hommes et Mondes « مجلة الانسان والعالم » وهى « مجلة العالمين » *La Revue des Deux Mondes* فىمسا مضى . في الشهيرة الادبية مقال لتييرى مونييه عنوانه « مصير القصة » (١) يحاول فيه الناقد المعروف تحليل الأزمة المالية التى تخضع لها القصة ، أو بعبارة أدق « الضعف النسبى للإنتاج القصصى في فرنسا » فيخلص بميزات القصص التى تأثر بها الجمهور تأثيراً ملحوظاً وهى قصص جان بول سارتر Jean-Paul Sartre والبير كامو Albert Camus وبسيمون دى بوقوار Simone de Beauvoir . فلكل القصص كتبها فلاسفة « ليخدموا بها غاية فلسفية مضمرة » وتصل بهذه الفكرة قصص لويس اراجون Louis Aragon التى

من نيويورك

أولاً — أن التعليم يشتر شغل التلميذ لا بالمادة التى يدرسها بل بالدرس الذى يلقي عليه .

ثانياً — أن التعليم يسمى روح التنافس .
ثالثاً — أن التعليم يشتر حاجة التلميذ إلى رضا المعلم عنه .

وهذه الحاجة خصلة من خصال الرق ؛ لأن « الاعتماد على رضا المعلم يلائم طبيعة العبد وهى الطاعة لارادة سيده دون أن تكون له

« الغد » *To Morrow* اغسطس سنة ١٩٤٦ .

في هذه المجلة فصول قيمة ، نذكر منها « مدارس الرق في أمريكا » بقلم سترينجفلو بار (٢) وهو نقد للتعليم في الولايات المتحدة الأمريكية . يقول الكاتب : « إن الأمريكين جميعاً يولدون أحراراً ، ولكنهم يتعلمون في مدارسهم كيف يسرون سيرة العبيد » . والعيوب التى ينكرها الكاتب هي :

(١) Thierry Maulnier, *Le sort du roman*.

(٢) *America's Schools for Slaves*, by Stringfellow Barr.

في مجلات الغرب

الذكاء ملتزم مذهب العقليين ، فيه مزاج رقيق عجيب ، مثير من حادثة شخصية مفزعة وأسطورة شخصية . . . غايتها إثارة الشوق وتلوين الحياة بتفريق الحقيقة وإحداث الخوف . والكاتب يذكر بعض القصص الذين عالجوا هذا الفن ومن بينهم أبوليوس Apuleius الذي عاش في آخر الامبراطورية الرومانية وأنشأ قصة « الحمار الذهبي » ومنهم في القرن التاسع عشر : نوديه Nodier وجيرارد دي نيرفال Gérard de Nerval و . ا . ا . بو E. A. Poe وبالزاك Balzac الخ . وفي عصرنا كافكا Kafka .

هو إرادة خاصة . وكل هذه العيوب التي تنلو المدارس فيها إنما تصنع الأغلال لأبناء أمريكا الحرة ، وبعبارة قد تظهر غريبة أن المدارس الأمريكية معاهد لإنشاء العبيد لا لإنشاء المواطنين الأحرار .

وفي المجلة نفسها مقال في الفن عنوانه : « ا . ت . ا . هوفمان وقصص الأعاجيب » ليول روزنفلد (١) وفيه تحديد للقصص للذي أنشأه الكاتب الألماني في أول القرن التاسع عشر يقول صاحب المقال : « إنه إنتاج خاص متكلف قد أنتجه عقل شديد

من كابول

الحديث والحضارة المعاصرة . وقرأ في نفس العدد مقالا عن « أثر الأفغانستان في الحضارة الاسلامية » بقلم م . غبار وهو بحث قيم حافل يصعب تلخيصه . وتظهر فيه أسماء شهيرة كعمر الخيام خوراساني ، وابن قتيبة مروزي خوراساني ، وبشار بن برد الخ . . . ولتلاحظ أن بعض الأجانب المقيمين في أفغانستان يشاركون في تحرير هذه المجلة التي نهدي إليها محباتنا وتقديرنا مخلصين .

مجلة « أفغانستان » ، العدد الأول (يناير ، فبراير ، مارس ١٩٤٦) هذه المجلة محررة بلغة أجنبية ، وعايتها أن تعرف عن أفغانستان وماضيها ، ومواردها ونموها للتوالي ، وشعبها ومطالبه للمشروعة ، كما تقول مقدمة هذا العدد . فلنلاحظ مقالا عنوانه نمو « التعليم العام في أفغانستان » بقلم ريشتيا (٢) وفيه تبين نجاح أفغانستان في أمرين خطيرين : الاحتفاظ بالقديم والاندفاع الذي قوامه العلم

من القاهرة

وخصص عدد أكتوبر منها لهذه الأسرة العظيمة الخالدة للمأجدة أسرة ماسبيرو Maspero . وهو عدد قيم ممتع بالقياس إلى

« مجلة القاهرة » La Revue du Caire أكتوبر ١٩٤٦ ، ليست من مجلات الغرب ولكنها تصدر باللغة الفرنسية في القاهرة

(١) E.T.A. Hoffmann and Fantastic Fiction, by Paul Rosenfeld.

(٢) Z. Q. Reshtia, Développement de l'instruction publique en Afghanistan.

في مجلات الغرب

ممتعة بقلم الأستاذ بيير جوجيه : تحية لجاستون ماسبيرو ، وإيتين دريوتون — مكانة جاستون ماسبيرو في علم الآثار المصرية . وقرأ بصفة خاصة مقالين لجاستون ماسبيرو نفسه : أحدهما « الأسواق والدكاكين في مصر القديمة » وآخر « معبد الأقصر وما يستفاد من حسن زيارته » ومقالا آخر للأستاذ جوجيه عن جان ماسبيرو وشعراً لهذا المؤرخ نفسه ، ومقالا لهزي ماسبيرو موضوعه « الحياة الخاصة في الصين في عصر الهان » ... ونحن نشترك ملثي المجلة وأعوانه في هذه التحية وهذا التقدير لأسرة ماسبيرو التي لم تخدم العلم والوطن الفرنسي وحدهما وإنما خدمت مهما مصر .

أمية طه حسين

القارىء المصرى خاصة . وقد كتب فيه بيير جوجيه Pierre Jouguet وإيتين دريوتون Etienne Drioton . وهو تذكاري لمولد العالم العظيم ماسبيرو منذ مائة عام . وقد أتيت لهذا العالم العظيم أسرة تلاميذ نبوغه واهتيازه . فابنه جان ماسبيرو Jean Maspero قد امتاز في التاريخ البيزنطي وقتل في الحرب العالمية الأولى ولما يتجاوز الثلاثين . وابنه الثاني هنري ماسبيرو Henri Maspero قد امتاز في الدراسات الصينية وتوفي معتقلاً في ألمانيا أثناء الحرب العالمية الثانية ، وسقط ابنه الفتي صريعاً في ميدان القتال . فالعدد كما ترى مخصص لأسرة عظيمة الخطر بمبادئها في العلم وتضحياتها في سبيل الوطن . وتستطيع ان تقرأ في هذا العدد فصولاً

حكايات فارسية

كتاب يحمل الى قراء العبرية
عبيرا رقيقا حسن الموقع في
النفس من هذه الحياة الفارسية
المتأثرة بما فيها من رقة
وفطنة وفكاهة



من حولنا

يهيل من الناس في أضرارهم والآلام ،
يرى كل قارئ في مرآة صورة من نفسه ،
أو صورة من حوله ، في إطار قصصي
رائع في بيانه وفي فنه

محمد سعيد العريان

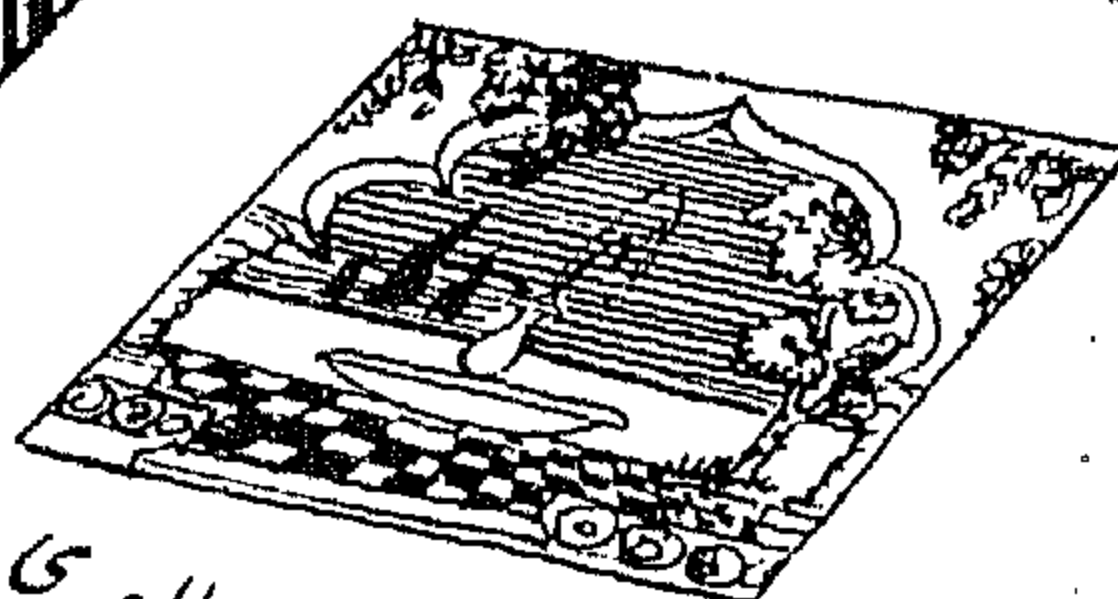
من حولنا

قصص مصرية



دار الكاتب المصري

حكايات فارسية



دار الكاتب المصري

البريد ١٦ مليوناً

فان
ثوب
أنيق
خلاب

٢٥

البريد ٢٠ مليوناً



آلة فنية خالدة
للكاتب الشهير أوسكار وايلد



صراع بين الأمم والضمير
صورة تهرم بينما صاهيا
محتفظ بشبابه
نقد للحياة الاجتماعية الإنجليزية
في مزاج من الزلزال والجهد

اوسكار وايلد
الزنان والحي
تغريب لويس عوض



والبريد ٤٠٠٠٠



اوسكار وايلد
سبع كائنات قبل
تغريب لويس عوض



مظهر آخر لفتن اوسكار وايلد

مغامرات سبع عجول في ابحار قهر عيش
موازنة بين العقل الانجليزية
المحافظ والعقل الأمريكي المجتهد
قصة فلكسية مرعبة



كتابان مزيان
بصور مختارة
من افلام
٢٠٠٠ ج ٢٠

العقيدة والتشريع

في الإسلام

تاريخ التطور العقدي والتشريعي في الديانة الإسلامية

للمستشرق العظيم إجناس جولدتسيهر

نقله إلى اللغة العربية
وعلق عليه

محمد يوسف موسى	عبد العزيز عبد الحق	علي حسن عبد القادر
المدرس بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر	المدرس بكلية الشريعة بجامعة الأزهر	دكتور في العلوم الإسلامية مدير المركز الثقافي الإسلامي بلندن

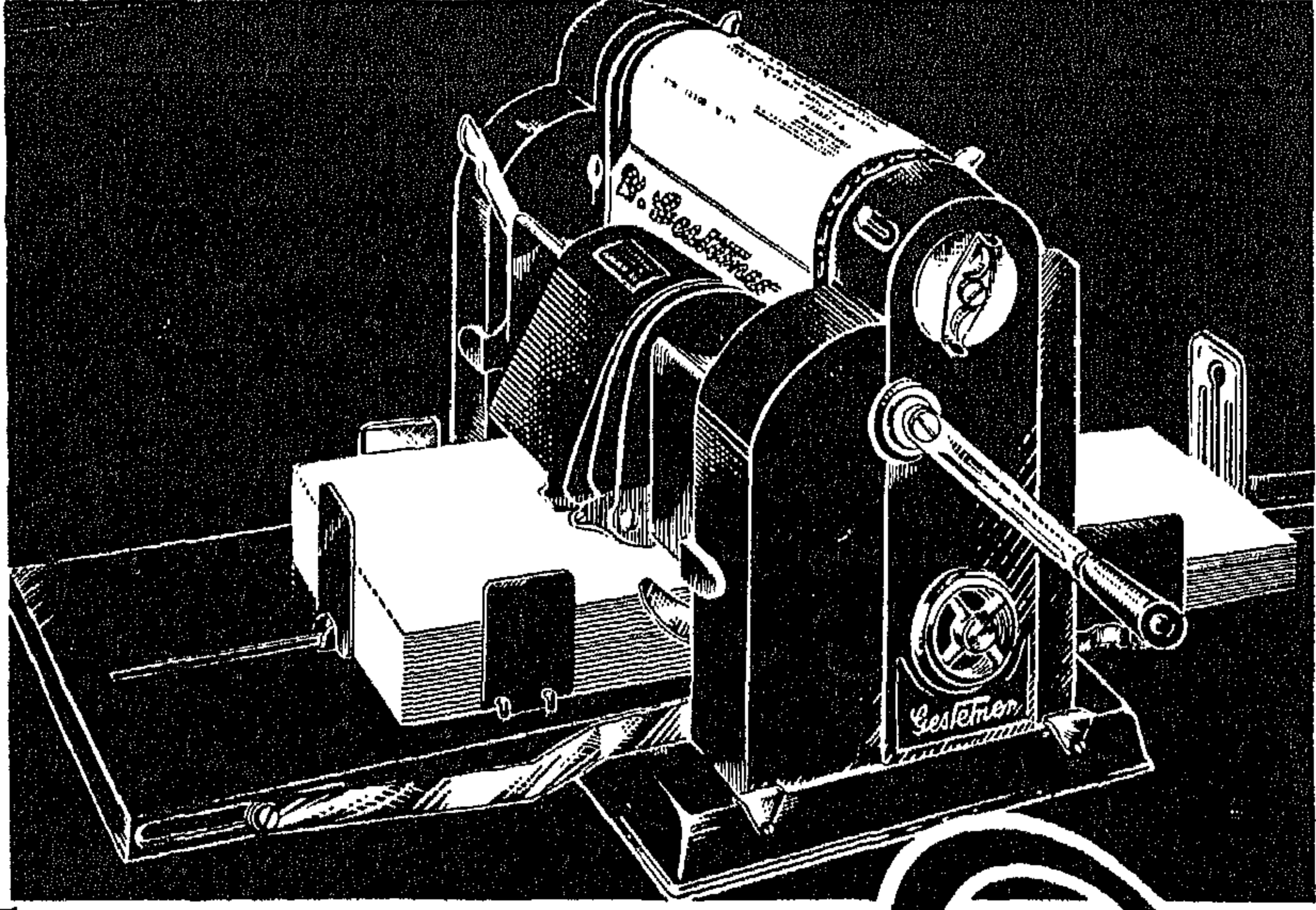
أبواب الكتاب :

محمد صلى الله عليه وسلم والإسلام — تطور الفقه
نمو العقيدة وتطورها — الزهد والتصوف
الفرق — الحركات الدينية الأخيرة
ولكل باب حواش من المؤلف وتعليقات من العربيين

كتاب ضخم يقع في ٤٠٠ صفحة

الثن ٨٥ قرشا (البريد ٤٠ ملما)





Z

جستنتنر

Gestetner

آلات نسخ الصور
ولوازمها



أن ما بلغته منتجات جستنتنر من
التفوق هو نتيجة للبحث المستمر والتحسين
المتصل منذ سنة ١٨٨١ .
وصلت في مصر آخر نماذج من هذه
الآلات ولوازمها ، اطلبوا كافة الاستعلامات
من الوكلاء الموزعين الوحيدين .

جستنتنر

ضمانات للشقة في الصنوع
تحقق من هذا الاسم دائما

SCRIBE

المكتب المصري شركة من مصر
القاهرة
قسم آلات وأثاث وأدوات المكتب
الألكندرية
بورسعيد
البريد الرئيسي بالقاهرة : هـ شارع قنطرة المكتبة



تَايم TIME

المجلة الإخبارية الأسبوعية

— باللغة الانجليزية —

... تصدر الآن في القاهرة إذ ترسل لوحات أحرف الطباعة بالطائرة من الولايات المتحدة — فتستطيع أن تقرأ مجلة تَايم في الشرق الأوسط بعد أيام قليلة من صدورها في أمريكا .

تَايم تنقل إليك أخبار الأسبوع وهي لا تزال جديدة — وتطلعك أولا فأولا على حوادث هذه الأيام المضطربة المجهولة . وقد اعتبرت مجلة تَايم أنها « أهم المجلات الأمريكية » — إذ يعتمد ثلاثة ملايين من الأمريكيين ذوى الدخل الكبير والمسؤوليات العامة على مجلة تَايم في تزويدهم بالأخبار كل أسبوع . وقد ظهرت فائدتها في الشرق الأوسط للآلاف العديدة من القراء .

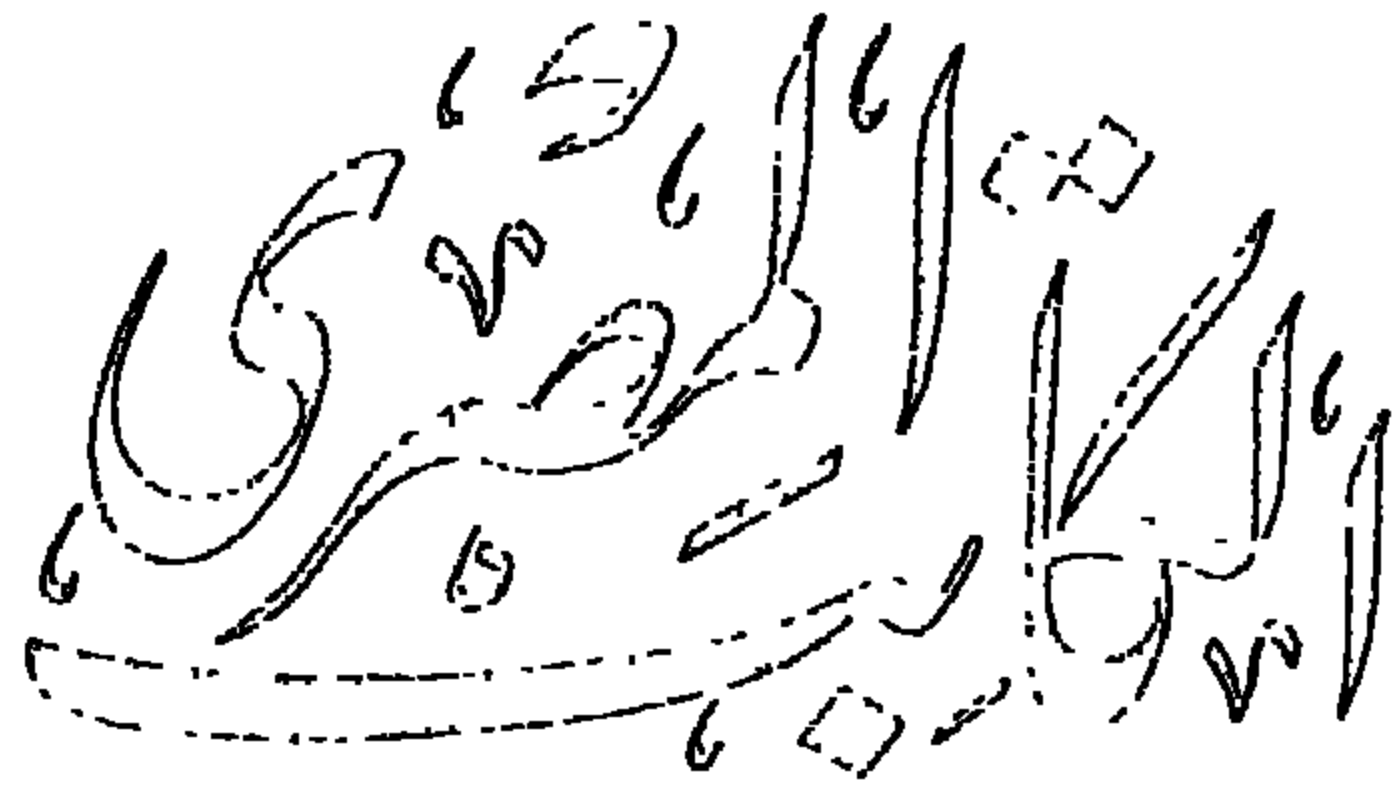
تَايم توجد في جميع المكتبات كما يمكن الحصول عليها بالاشتراك فيها بمبلغ جنهين مصريين وخمسة مليم عن السنة الواحدة . وللإشتراك تنزع هذه البطاقة وترسل بالبريد إلى مجلة تَايم شارع النمر رقم ٣ (مكتب ١٢) القاهرة .



مجلة تَايم
٣ شارع نمر (مكتب ١٢)
القاهرة

أهوا اعتبارى شتركا فى مجلة تَايم (باللغة الانجليزية)
لمدة سنة . ويرافق هذا مبلغ وقدره

الاسم
العنوان



مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير: طه حسين

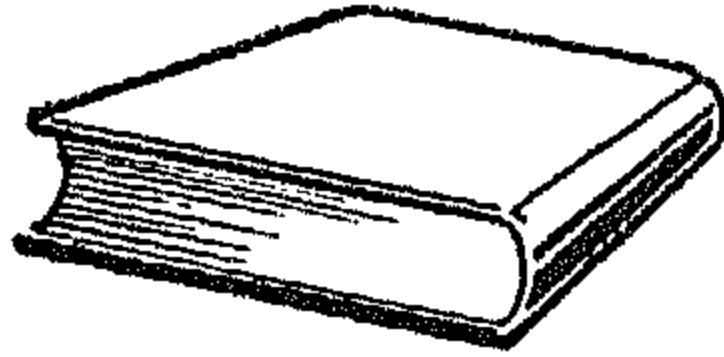
فهرست

٣٩٩	طه حسين
٤١٤	محمد رفعت
٤٢٤	محمود تيمور
٤٣٥	سهير القلماوى
٤٤٤	سلامه موسى
٤٥٢	أحمد محمد عيش
٤٧٠	ابراهيم محمد نجما
٤٧٣	هيلد زالوش
٤٨٨	محمد عبد الله عنان
٤٩٧	على الجندى
٤٩٨	حسين فوزى
٥١٠	محمد مفيد الشوباشى
.....	الكبرى

من هنا وهناك (وصفي قرنفلى — عبد الرحمن صدق — عيسى على قعدر ...)
 شهرية العلم — شهرية السياسة الدولية — شهرية المسرح
 من كتب الشرق والغرب — من وراء البحار — ظهر حديثاً
 فى مجلات الشرق — فى مجلات الغرب



تصدرها دار الكاتب المصرى
 شركة مساهمة مصرية
 القاهرة



مَا رَفَعْنَا بِكَ حُجُوبَ سِتْرِكَ

فِي الْفَقْرِ وَالرُّوْمَانِي

أَلْفَقِيَّةَ الْقِيَادَةِ فِي قِطْطَيْنَتَيْهِ

الْأَمْبِاطُورُ حُجُوبَ سِتْرِكَ

وَنَقَلْنَا إِلَى الْعَبْرِيَّةِ أَمَامَ الْفَضَاءِ فِي مَصْرٍ

مَعَالِي سَيِّدِ الْعَرَبِيَّةِ فَهِيَ بَاشَا

أَخْرَجْتَهُ

دَارُ الْكَاتِبِ الْمِصْرِيِّ

فِي طَبْعَةِ مَنَازِلِ

وَتَجْلِيدِ انْتِيقِ

البريد المسجل ١٠٠
والخارج ١١٢



التمت
١٥٠ قرشا

إعلان

قررت دار الكتب المصرية بيع الجزء الأول من كتاب الخصائص لابن جني ، وهو معروض للبيع يومياً وثمان نسخة الواحدة مائة مليم للأفراد وثمانون مليم لباعة الكتب

*

اتممت دار الكتب المصرية طبع الجزء الخامس عشر من كتاب الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله أحمد الأنصارى القرطبي وهو معروض للبيع يومياً وثمان نسخة الواحدة ٤٥٠ مليم للأفراد و٤٠٠ مليم لباعة الكتب

تباع كتب دار الكتب المصرى فى المكتبات الشهيرة

وإن أردتم أن تصلكم كتبنا رأساً بالبريد فارسلوا إلى الدار ثمن ما تختارون منها مع إضافة أجرة البريد المحددة .

LA REVUE DU CAIRE

REVUE DE LITTÉRATURE ET D'HISTOIRE

SOMMAIRE DU NUMERO DE NOVEMBRE

TAHA HUSSEIN . . .	L'Arbre de misère (à suivre)
LEON-PAUL FARGUE	Colette et la sensibilité féminine française
A. BALACHOWSKY .	Cobayes humains
JEAN DUPERTUIS .	John Dewey et l'école active
HENRI GERBERT . .	Gérard de Nerval

CHRONIQUE DES LIVRES

Roger GIRON

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصري في أول كل شهر عن دار الكاتب المصري ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبعتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش في السنة لمصر والسودان ،
١٢٠ قرشاً في السنة للخارج أو ما يعادلها .
يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب
المصري . لا تقبل الاشتراكات لأقل من
سنة كاملة .

ثمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصري تعنى بكل
ما يرد إليها من المقالات والرسائل
ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

إدارة الكاتب المصري

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤

الإدارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI

Monthly literary magazine published
by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.
5 Kantaret el Dekka Street
Cairo (Egypt)

Editor-in-chief : Taha Hussein

جميع الحقوق محفوظة لدار الكاتب المصري

الكاتب المصري



ديسمبر ١٩٤٦

محرم ١٣٦٦

مجلد ٤ — عدد ١٥

السنة الثانية

ما وراء النهر^(١)

وكان النهر يعلو عليه حديثاً عجيباً ، لأنه نهر عجيب بين الأنهار ، لا يعرف الناس له منبعاً ولا مصباً ، وإنما يروونه يسعى من الشرق إلى الغرب دون أن يستطيع أحد أن يقول : من أين يأتي ؟ ولا إلى أين يجري ؟ وقد حاول المستكشفون أن يعرفوا من أمره ما عرفوا من أمر الأنهار الأخرى في الأرض فلم يبلغوا من ذلك شيئاً ، ساءروا شاطئه من الشرق إلى الغرب ، ومن الغرب إلى الشرق ، فوجدوا مدنًا وقرى ، وصحارى ليس فيها مدن ولا قرى ، ولكنهم انتهوا دائماً إلى غابات كثاف يضيع النهر بينها ، ولا سبيل إلى النفوذ منها ولا إلى تتبعه فيها . وكأنما خلقت هذه الغابات في الشرق والغرب لتجيب النهر عن المستكشفين وتعمى آثاره على المتتبعين . وهى تتكاثف وتتكاثف ، ويدنو بعض أشجارها من بعض ، ويلتف بعض أشجارها ببعض ، ويكاد بعض أشجارها يركب بعضاً ، حتى كأن النهر إنما ينبع من بيئة مظلمة أشد الإظلام ، ليصب في بيئة أخرى ليست أقل منها إظلاماً ولا حلوكة .

ولم يكن هذا هو الشيء الوحيد العجيب من أمر النهر ، وإنما كانت له خصلة أخرى ليست أقل من هذه الخصلة عجيباً ؛ فقد عرف الناس أحد شاطئيه وهو هذا الذى تقوم عليه الربوة ، وتنحدر فيه السهول الخصبة المأهولة والصحارى الجدية المقفرة من الشمال . فأما شاطئه الآخر مما يلي الجنوب فقد جهله الناس كما جهلوا منبع النهر ومصبه ، ولم يعرفوا منه إلا شيئين اثنين : أحدهما أن من وراء النهر وعلى أمد منه غير بعيد ، جبالا شاهقة ترتفع في السماء ، وتبعد في الارتفاع حتى لا يكاد البصر يبلغ قممها إلا في كثير من الجهد والمشقة .

(١) الكاتب للمصرى عدد ١٤ (نوفمبر ١٩٤٦) .

والثاني أن العبور إلى هذا الشاطئ مخوف يملأ القلوب هولاً ورعباً ؛ فقد تعارف الناس وتوارثوا منذ أقدم العصور ، أن الذين يعبرون إليه لا يعودون ، وهم من أجل ذلك لا يفكرون في العبور إليه بل لا يتحدثون في العبور إليه إلا في كثير جداً من الحذر والتحفظ والاحتياط . ولعلمهم لا يذكرونه بالتصريح وإنما يذكرونه بالإشارة والايحاء ، بل نشأ عن هذا أيضاً أن الناس كرهوا الدنو الشديد من شاطئه الشمالى المعروف ، وآثروا أن يقيموا مدنيهم وقراهم على آماذ بعيدة منه قد قدرت تقديراً . وما أكثر المدن والقرى التى اتخذت بينها وبين النهر حواجز كثفا من الشجر ، كأنما كان الناس يكرهون حتى أن تبلغ أبصارهم شاطئ النهر الذى يليهم ، لا نستثنى منهم إلا أهل هذه الربوة التى أشرفت على النهر وكادت تسعى إليه سعياً ؛ فقد كانوا لا يخافون النهر ولا يرهبونه ولا يكادون يحفلون به ، إما لأنهم كانوا من عنصر ممتاز لا يعرف الخوف ولا الرهب ولا يحفل بما يحفل به الناس ، وإما لأنهم كانوا مشغولين عنه بحياتهم الناعمة وعيشهم الغض وتهالكهم على ما يتاح لهم من لذات ، وإما لأنهم كانوا أذكي قلوباً وأتقذ بصائر من أن يقفوا عند ما تقف عنده العامة .

ومن يدري ! لعل كل هذه الخصال مجتمعة وخصالا أخرى غيرها كانت تشغلهم بأنفسهم وتصدهم عما يقبل الناس عليه من ألوان التفكير . وكان الشاعر وحده بين أهل القصر وما يتصل به من الأجنحة والدور هو الذى يُعنى بهذا النهر ويريد أن يستكشف أسرارهِ ويتعمق دقائق أمرهِ . ولكن للشعراء مذاهب فى البحث والاستقصاء لا تشبه مذاهب العلماء والفلاسفة إلا قليلاً ؛ فلم يكن شاعرنا يتتبع شاطئ النهر ليعرف منبعه أو مصبه ، ولم يكن يحاول أن يعبر إلى شاطئه الآخر ليعرف ما وراء النهر ، وإنما كان يكتفى حين يتاح له شئ من فراغ بأن يجلس فى هذا الجوسق مشرفاً على النهر محدقاً فيه مطيلاً النظر إليه ، يسأله ويلج فى السؤال ، ويستمليه ويسجل ما يملئ عليه .

وكان النهر بخيلاً بأسرارهِ ، ضنيناً بدقائقهِ وحقائقهِ حتى على هذا الشاعر ، مع أن المعروف أن الأنهار تحب التحدث إلى الشعراء ؛ فكان الشاعر إذا سأل عن شئ من هذه الألغاز لم يرجع النهر عليه جواباً ، وإنما يتحدث إليه عن أسرار أخرى ، كانت الشمس تفضى بها إليه فى رسائلها الطوال التى كانت تقرؤها عليه منذ يسفر الصبح إلى أن يظلم الليل ، والتي كانت النجوم تفضى بها إليه فى

رسائل خاطفة متقطعة ترسلها إليه حين يغشى الليل ، والتي كان القمر يرسل بها إليه ضوءه الهادئ المستقر بين حين وحين ، والتي كان النسيم يهديها إليه في الليل مرة وفي النهار مرة أخرى ، والتي كانت تعصف بها الريح أحياناً ويقصف بها الرعد أحياناً ، ويخفق بها البرق أحياناً أخرى . وربما أملى عليه بعض ما كانت تتحدث به أمواجه الهادئة المطمئنة من بعض النجوى .

وكان الشاعر يجد في هذه الأحاديث متاعاً ، ويسجل منها أطرافاً يحتفظ بأكثرها لنفسه ، وربما عرض أقلها على أهل القصر فرضوا حيناً وسخروا أحياناً .

وهو في هذه الساعة مقبل على النهر يسأله ويتلقى أحاديثه ، بعينه حيناً إذ يرقب صفحته المضطربة في هدوء ، وبأذنيه حيناً آخر إذ يسمع هذا الخريف الهادئ الذي يشبه نجوى المحبين . ولكن إقباله على النهر لا يتصل ؛ فهذا الخادم قد أقبل يحمل إليه القهوة التي طلبها إليه ، وهو لا يضع القهوة أمامه ثم ينصرف كما تعود أن يفعل في كل يوم ، وإنما يقف صامتاً أول الأمر ؛ ثم يقول : ما ينبغي أن يطول انتظار مولاي لك يا سيدي ، وإنما الخير إذا فرغت من قهوتك أن تستجيب لدعائه ؛ فقد أنسيت أن أنبئك بأنه كلفني أن أوجهك إليه متى أقبلت ، وما أرى إلا أنه يجهل مقدمك إلى الآن .

قال الشاعر : فدعه يجهل مقدمي حتى أسعى إليه بعد قليل .

قال الخادم : لا تبطئ يا سيدي ، فما أرى إلا أنه شديد الحاجة إلى لقاءك ، وأكبر الظن أنه لم ينم من ليلته ، وأن أمراً ذا بال ينغص عليه حياته .

قال الشاعر : وما ذاك ؟

قال الخادم : لا أدري ، ولكنني أعلم أنه أنفق آخر الليل في مكتبه ذاهباً جائياً ، وأنه لم يصب من إفطاره إلا القهوة ، وأنه كان مكدوداً مجهوداً يتكلف القوة والجلد ، وأحسب أن ابنه الشاب هو مصدر هذا الهم وأصل هذا العناء ، فإن له كما تعلم خطوباً لا تنتهي .

قال الشاعر : حسبك فقد فهمت عنك ، أنبيء مولاك بأنني سأرقى إليه

بعد قليل .

ووقف الخادم لحظة لا يقول شيئاً ، ولكنه يدير في نفسه أن هذا الرجل يهتم كثيراً بحديث الناس ، ثم نظر فإذا الشاعر قد أعرض عنه

وأقبل على النهر ينظر إليه والقلم في يده كأنه يستمليه ، فلم يربداً من أنه ينصرف متباطئاً وفي نفسه كثير من الغيظ .

وليس من شك في أن حديث النهر كان أحسن موقعا في نفس الشاعر من حديث هذا الخادم الذي لم يكن ينبئه بشيء جديد . فهو يعلم أن لذلك الفتى المترف خطوبا لا تنقضي ، بعضها يحدث في القصر نفسه ، وبعضها يحدث فيما يتصل به من الأجنحة والدور ، وبعضها يحدث في القرية المقيمة في أسفل الربوة ، وبعضها يتجاوز القصر والقرية إلى أماكن قريبة أو بعيدة ، وهو يعلم أن هذه الخطوب كثيراً ما تشغل صاحب القصر وتثير في نفسه ألوانا مختلفة من الشعور . فهو مرة راض عنها ومبتسم لها ، يرى أن ابنه فتى قد نيف على العشرين ومن حق الشباب أن يلهو ويعبت . وهو مرة ضيق بها منكر لها ، يرى أن للهو حدوداً لا ينبغي أن يعدوها الفتيان مهما يكن حظهم من نشاط الشباب ، وهو مرة ساخط أشد السخط ثائر أعنف الثورة ، يرى أن ابنه قد أسرف في تعدى الحدود وتجاوز الممكن من لهو الشباب . وهو إذا بلغ هذا الطور من أطوار الغضب لم يؤثر نفسه بنتائجه وإنما يشيع هذه النتائج من حوله ، ويريد أهل القصر جميعاً على أن يشوروا كما ثار ويسخطوا كما سخط ، ويهرق امرأته من أمرها عسراً ، يحمّلها أوزار هذا الفتى الذي لا يعرف القصد ، ولا يستطيع أن يقف نفسه عندما ينبغي أن تقف عنده من الحدود .

يرد ذلك إلى أن أمه لم تحسن تربيته ، ولم تعرف كيف تنشئه ، ولم تستطع قط أن تمتنع عن تدليله وتيسير كل ما يعرض له من أمر عسير .

ثم إن صاحب القصر لا يشق على نفسه وعلى أهله وذوى خاصته وحدهم حين يتورط ابنه في خطيئة من الخطايا ، وإنما هو معلن لثورته مشيع لسخطه ، يريد أن يشرك الناس جميعاً والأشياء جميعاً فيما يجد . فهو يتجهم للزائرين ويلقاهم بوجه مابس بغضب . ويتحدث إليهم من طرف اللسان ، وما يزال يتكلف من ذلك فنونا وفنونا حتى يضطروهم إلى أن يسألوه عن أمره . فإذا فعلوا أنبأهم بهذه الأحداث الجسام التي يحدثها ابنه الطائش المفتون ، ومضى في أحاديث لا آخر لها ، يجد في ذلك تسرية عن نفسه ، ويجدون فيه إملالا لنفوسهم . ولكن لا بد مما ليس منه بد ، فقد ينبغي أن تقبل الأصدقاء على علاتهم ليقبلونا على علاتنا ، وأن نأخذهم كما هم ليأخذونا كما نحن .

والشاعر بالطبع أشد الناس تعرضاً لهذا السيل الجارف من الأحاديث عن هفوات الفتى ونزواته وأحداثه التي يحدثها هنا وهناك، لمكانه القريب من صاحب القصر. فأى غرابة في أن يفر بنفسه بين حين وحين من هذا الامتحان، ويخلو إلى نهره هذا العزيز فيسمع منه ويقول له: وأى غرابة في أن يُعرض عن الخادم حين يريد أن يشق عليه بهذا الحديث فيقفه ثم يصرفه في غير رقة ولا لين! أليس يكفيه ما يسمع من السيد! ألم يبق إلا أن يشقيه الخدم أيضاً بهذه الأحاديث!

كانت أحاديث هذا الفتى إذن معادة مملولة بالقياس إليه على حين لم تكن أحاديث النهر معادة ولا مملولة، وإن كانت شاقة عسيرة دائماً. فقد كان النهر عصياً ألباً، يتحدث بما يريد هو لا بما يريده سائلوه. وكان في تلك الساعة يقرأ على شاعرنا ألواناً من رسائل اختلصها من ربح الشمال، وكانت تحملها إلى ظلال قوم عبروا النهر ولم يعودوا، وكانت هذه الرسائل تصور ما يضطرم في بعض القلوب من هيب الحزن والأسى، وما يزهر في بعضها الآخر من الذكريات، وما يساور بعض النفوس من يأسٍ يجب عبور النهر إلى الأحياء الآمنين، ومن حرص على الحياة يجعل عبور النهر مروءة مخيفاً.

وكان الشاعر يستمتع بهذه الرسائل، ويستمتع بما فيها استماعاً حزيناً شاحباً يلائم آمال الناس التي لا تنقضى وقدرتهم التي لا تمتد إلى أمد بعيد، كما يلائم حبهم للحياة وشوقهم إلى من فارقوا الحياة، وكما يلائم ما يشيع في قلوبهم من هذه القوة الضعيفة التي تعجز عن استبقاء الأشياء فتحتفظ بذكرها، ومن هذا الضعف القوى الذي يأبى أن يسلم الذكري للنسيان، فيستبقها وينميها ويتخذ منها وسائل لاستبقاء الحياة وتنمية ما فيها من نعيم قليل واحتمال ما فيها من بؤس كثير.

وقد هم الشاعر غير مرة أن يتقدم إلى النهر في طي هذه الرسائل الإنسانية الممتعة المحزنة، ونشر رسائل أخرى ليس لها حظ من حزن ولها حظ عظيم من المتاع. فما أكثر ما كان النهر يقرأ عليه رسائل يسعى بها النسيم بين أزهار الشمال النضرة وأزهار الجنوب الداوية الذابلة! وما أكثر ما كان النهر يقرأ عليه أنباء السماء تحملها أشعة النجوم أو ضوء القمر أو نور الشمس! بل ما أكثر ما كان الشاعر يستحب هذه النجوى التي تكون بين أمواج النهر متحدثة

بأنباء الشرق ذلك الذي لم يصل إليه أحد ، حاملة هذه الأنباء إلى الغرب الذي لا يصل إليه أحد .

ولكن النهر كان يأبى دائماً أن يقرأ على الشاعر أو يعلل عليه شيئاً غير ما يريد هو . وكان الشاعر يجد في هذا الإباء والامتناع ما يشقيه ويرضيه في وقت واحد : يشقيه لأنه يبعده عما يحب ، ويرضيه لأنه يأتيه بما يلذه ويمتعه . وهل حياة الشعراء إلا مزاج من الشقاء والرضا ! ولو خيّر الشاعر لاختار أن تتصل خلوته إلى النهر أطول وقت ممكن ، وأن يحتمل من شذوذه واستبداده ما شاء النهر أن يحتمل . ولكن الشاعر لم يكن مخيراً في شيء . ومتى خيّر الشعراء وأصحاب الفنون في شيء ! إنما هم عبيد الطبيعة ، تفرض عليهم ما فيها من جمال وقبح ومن نعيم وبؤس ، وتخيل إليهم أو يخيلونهم إلى أنفسهم أنهم أحرار يستنبطون من الطبيعة أسرارها ويصوغونها في صيغهم الفنية المألوفة شعراً أو رسماً أو نحتاً أو تصويراً أو غناء أو إيقاعاً .

وليس أدل على ذلك من أن شاعرنا قد كان عبداً لهذا النهر ، ولم يكن يستطيع حتى أن ينعم بهذا الرق ، وإنما كان يصرف عنه من وقت إلى وقت بطاريء يطرأ أو طارق يطرق . وليس كل الطوارئ يمكن أن يدفع في يسر . وليس كل الطارقين يمكن أن يرد في لين أو عنف . وقد استطاع الشاعر أن يرد الخادم حين هم أن يصرفه عن النهر ، ولكن من له بأن يرد هذا الطارق الذي وضع يده في رفق على كتفه ونشر في الجو ضحكا عريضاً وهو يقول في صوت متقطع : ها أتدا ! تخلو إلى نهرك لتقول له وتسمع منه . متى تنصرف عن أوهام الشعراء إلى ما يحيط بك من حقائق الحياة !

ويرفع الشاعر رأسه فيرى ابن صاحب القصر قد قام عن يمينه جميل المنظر رائع الطلعة معتدل القامة جاد النظرات ، قد امتلأ قوة ونشاطاً ، وظهر على وجهه المشرق شيء من الجدل الحزين حاول أن يخفيه بهذا الضحك العريض الذي كان ينشره من حوله في كثير من التكلف .

ولست أخفي على القارئ أنني حائر أشد الحيرة في أمر هذا الفتى ، كما أنني حائر أشد الحيرة في أمر أهل الربوة جميعاً ؛ فكلمهم يلح عليّ في أن أجده اسماً يتسمى به ويميزه بين غيره من الناس . وكلمهم يلح عليّ في أن الأشخاص لا يستكملون وجودهم إلا إذا عُرفت أسماؤهم التي تحقق التمايز فيما بينهم وتخرجهم من هذا

الوجود الوهمي الذي يشبه العدم ، إلى وجود إلا يكن واقعا كل الوقوع فهو شيء بين بين ، أقرب إلى الواقع منه إلى الوهم ، وأدنى إلى الحقيقة منه إلى الخيال . وكلهم يلح على أن القدماء الذين عاشوا بين النهرين في بعض عصور التاريخ لم يكونوا مخطئين حين كانوا يرون أن اسم الرجل هو أخطر أجزاء حياته ، وحين كان هذا الرأي يذهب بهم إلى شيء من الغلو فيعتقدون أن لأسمائهم إذا نقشت على الجدران حظها من الحياة وحققها في القربان ؛ لأنها تظل حية بعد موت أصحابها ، أو لأنها تختصر وتستجمع ما يمكن أن يبقى من حياة أصحابها . فللأسماء خطرها إذن ، ويوشك الرجل الذي ليس له اسم ألا يكون موجوداً . وهم من أجل ذلك يتصايحون بي من كل وجه مطالبين بأن أسميهم بأسمائهم ليستمتعوا بالوجود الصحيح .

وما ينبغي أن تسألني كيف يتصايحون وهم لم يوجدوا بعد ؛ فإنهم يتصايحون على نحو خاص لا يسمعه أحد غيري . ولو أنني منحتهم أسماءهم لكان من الممكن أن يتجاوز تصايحهم أذني إلى أذنك .

وما أظنك تنكر أن الشخص الوحيد الذي استطعت أن تتصوره من أشخاص هذه القصة الذين مروا بك إلى الآن إنما هو شخص البستاني الذي سميته عثمان ، ولو لم أسمه لما تبينته . كما أنك لم تتبين إلى الآن شخص الشاعر على كثرة ما أضفت إليه من الصفات ، ولا شخص هذا الفتى الطارق على ما وصفت لك من منظره الجميل وطلعته الرائعة ووجهه المشرق الوضاء .

فهم لا يتجاوزون إلا نصاب جين يطالبونني بأن أسميهم بأسمائهم . ولكن ماذا أصنع وأنا أشد الناس ضيقاً بابتكار الأسماء ، لا يطاوعني عقلي الضئيل ، ولا خيالي الكليل على هذا النحو من العبث . ثم أنا من جهة أخرى أكره أن أختار الأسماء ؛ لأنني أخشى أن أختار أسماء لها أشخاص قد اتخذوها لأنفسهم ، أو وسمهم بها آباؤهم ، وهذا أبغض الأشياء إلي ؛ فقد أنبأناك أن هذه القصة لم تقع أحداثها في مصر ، ولا في بلد متاخم أو مجاور لمصر ، كما يقول الناس في هذه الأيام ، وإنما افترضت أن تكون أحداث القصة قد وقعت في أسبانيا ، لأنها وقعت في أسبانيا بالفعل ، فدون وقوعها في أسبانيا خطوط وأهوال ، بل لأن أسبانيا هي الأرض التي تبني فيها قصور الخيال والتي وجدت فيها تلك الربا التي ذكرها الشاعر الموشح حين طلب إلى السحب أن تجل تيجانها بالحلى .

من أجل هذا كله أكره أن أسمى أهل هذه الربوة بأسمائهم ، وأخشى بنوع خاص أن يصرف بعض الناس هذه الأسماء وما يرون حولها من الحديث إلى أنفسهم ، فيظنوا أنني قد أردت بهم شرًا وعرضت لهم من قريب أو من بعيد . فإذا طاهدني القراء على أن يؤمنوا أوثق الإيماني فيما بينهم وبين أنفسهم بأن هذه الربوة ليست قائمة في مصر ولا في البلاد المتاخمة أو المجاورة لها ، وبأن أهلها ليسوا مصريين ولا عربًا ولا شرقيين ، فقد أستطيع أن أجيب أشخاص القصة إلى ما يريدون ، وأهدي إلى كل واحد اسمًا يميزه ويمنحه حظه من الوجود الذي يطمع فيه ويطمح إليه ، وإن كان الوجود في نفسه ليس شيئًا يستحق الطمع فيه أو الطموح إليه .

وليس ينبغي لك أن تظن أنني أعزج أو أداعب حين أغض من قيمة الوجود ؛ فلست أنا في هذا مبتدئًا ولا مبتكرًا ، ولست فيه بدعًا من الناس . وما أكثر الفلاسفة ، والشعراء الذين ينكرون قيمة الوجود ويرونه شرًا أي شر ، ويودون لو أنهم لم يدفعوا إليه ، أو لو أنه لم يدفع إليهم .

وأنت تذكر بالطبع أن أبا العلاء تمنى غير مرة لو أن حواء ماتت قبل أن تمنح زوجها الولد أو لو أنها ماتت عقب ولادتها لابنها الأول . وأنت تذكر كذلك أن أبا العلاء ، ومن قبله فلاسفة كثيرون ، كان يرى النسل جنائية لا ينبغي أن يجنيها الرجل العاقل الحازم ، وقد ظن بنفسه العقل والحزم ، فلم يقترب هذا الإثم ، ولم يتورط في هذه الجنائية .

ولو سمع لي أشخاص القصة وقبلوا نصحي لهم ومشورتي عليهم ، لما طمعوا في الوجود ولما طمحوا إليه ، ولما أثقلوا على بهذا الإلحاح في أن تكون لهم أسماء يعرفون بها ، كما أن لغيرهم من الناس أسماء يعرفون بها . ولكن أرسطاطاليس قد أخطأ تعريف الإنسان حين قال إنه حيوان ناطق . ولو قد وفق إلى الصواب لقال إنه حيوان أحرق . وليس أدل على حقيقته من طمعه في الوجود وطموحه إليه ونجبه للحياة .

وما دام هؤلاء الأشخاص قد استوفوا أعظم حظ ممكن من الحق فأبوا إلا أن تكون لهم أسماء ، فلنسَمِّ الشاعر راغبًا ، ولنسَمِّ الفتى نعيما ، فأما أبوه فلنرجي تسميته إلى أن نلقاه في مكتبه ذاك الذي اتخذته لنفسه سجنًا منذ آخر الليل .

قال الفتى للشاعر حين سكت عنه الضحك : قد كنت أبحث عنك لأودعك ،
فقد أزمعت السفر قبل أن يُقبل الليل ، وعزيز عليّ أن أحرم هذه الساعات الحلوة
التي أخلو فيها إليك ، فأسمع ما تنشدني من شعرك الرائع الجميل ، وما تقص عليّ من
طرائف الأخبار ونوادرها .

قال الشاعر : وإنك لمسافر منذ اليوم ؟ وفيم هذا السفر الذي لم تدبنا به
ولم تهيننا له ، ولم يقدم القصر بين يديه هذه المقدمات التي تعودت أن تسبق
سفرك بأيام طوال ؟

قال نعيم وهو يتكلف الضحك ويخفي سخرية مرة : فإنها المأساة ياسيدي !
إنها المأساة ! لقد زلزلت الأرض وغصبت السماء ، وأظلمت الدنيا وفسدت في حياة
القصر كل شيء .

قال الشاعر : وما ذاك .

قال نعيم : ذاك أن الشيوخ ينسون الشباب ، أو قل إنهم يستبقون الشباب
لأنفسهم ، ويستأثرون بما يتيح لأصحابه من فرصة ، وما يبيع لهم من تجاوز
الحدود . يرون ذلك سائغا حين يتصل بأشخاصهم ، ويرونه حراما حين يتصل
بغيرهم من الناس .

قال الشاعر : فإنني لم أفهم عنك إلى الآن .

قال نعيم : ولكنك قد قدرت من غير شك أن قد حدث في القصر حدث ،
فأنت لم تلق أباي في حديقته هذه الغلباء ، وجنته الفيحاء كما تعودت أن تلاقاه في
كل يوم قبل أن يرتفع الضحى ، متنبلا بين زهره وشجره ، ملحاً على بستانيه بالامر
والنهي والسؤال والاستقصاء ، حتى إذا أجهده سعيه وإلحاحه وحركته وسكونه
وتشدت أنت عليه في أن يريح نفسه ويريح بستانيه ويريحك أنت من هذا
العناء ، أقبلتما معاً إلى هذا الجوسق أو إلى غيره من جواسق الحديقة ، فأثقتما
سائر الضحى فيما تحبان من الحديث .

ولا شك في أنك قد أنكرت تخلف أبي عن مواعده ، واحتجابه عن أخص
الناس به وأكرمهم عليه . ولا شك أنك قد سألت عن ذلك فعرفت من أنيائه
أطرافاً .

قال الشاعر : لم أعرف إلا أنه محتجب في مكتبه ، وأنه طالب أن أوجه إليه
متى أقيت ، وقد غاظني أن يحتجب الناس بين الجدران وتحت السقوف حين

يصفو الجو ويعذب النسيم ، ويدعونا الجمال إلى أن نستمتع به في هذه الحديقة الرائعة النادرة ؛ فلم أسع إليه وإنما سعيت إلى النهر ، وكنت أريد أن أرقى إليه بعد ساعة تقصر أو تطول .

قال نعيم : فان استطعت أن ترقى إليه الآن فافعل ؛ فهو في حاجة إلى من يؤنس وحدته ويسلى عزله ويبدد عنه هموماً ثقالا . وما أظن إلا أن حاجته هذه ستتصل وتتصل ، فسأسافر حين يُقبل الأصيل . ولكنني إن أسافر وحدي اليوم فسيتبعني بعد أيام قوم نبت بهم الدار ولم يبق لهم فيها أرب . إنها المأساة يا سيدي ، إنها المأساة ! وإن شئت فقل إنه الجنون واختلاط العقل . ثم سكت لحظة كان يعبث في أثنائها بسلسلة ذهبية قد علق بها جماعة من المفاتيح ، ثم قدم إلى الشاعر سيجارة وأشعل لنفسه سيجارة أخرى ، ورمى النهر بنظرة فيها كثير من السخط والغضب ، وأرسل في الجو تنفساً كان يريد أن يكون عميقاً بعيداً . ولكن الفتى تجمل وتحفظ وأبى أن يخرج عن طوره ، فاكتفى بتنفس بعيد بعض الشيء ، وجعل ينظر إلى الدخان وهو يتلوى تلويهاً خفيفاً في الهواء ، ثم قال في صوت هادي لا يخلو من حنق وسخرية : ومع ذلك فقد كنت أرى أبي إلى الآن مستأنياً حليماً .

قال الشاعر : أمه صرح أنت لي آخر الأمر عما تريد ، ومعرض أنت عن هذه الألغاز ؟

قال الفتى في صوت صاخب : تريد أن أفصح لك ؟ فاعلم أني قد طردني من القصر . وإن لم يكفك هذا فاعلم أنه لم يطردني وحدي وإنما طرد معي قوماً آخرين ، أفهمت ؟ أرضيت ؟

قال الشاعر : لم أفهم شيئاً ولم أرض عن شيء ، وإنما ازدددت جهلاً إلى جهل ، وحيرة إلى حيرة . فكيف أقصاك أبوك عن القصر ؟ وفيما كان هذا الإقصاء ؟ وكيف تلقيت أمره هذا على أنه جد ، مع أنك تعلم أنه يجد الآن ليهزل بعد ساعة ، وأنه لا يسخط إلا ليرضى ، وأن من العسير حين يستمع إليه خلطاؤه أن يتبينوا أهازيل هو أم جاد ؟

قال الفتى : فإني لا أعلم أن الناس يتمازحون بالطلاق .

فوجم الشاعر حين وقعت هذه الكلمة في نفسه ، كما وجم الفتى حين جرى بهذه الكلمة لسانه ، وأغرق الرجلان في صمت عميق كئيب طويل .

قال الشاعر بعد حين : فقد كانت لهذا كله أسباب خطيرة حقا .

قال نعيم : إلى أقصى غايات الخطورة ! سرت بعض سيرته حين كان في سنى ، وما ينبغي أن أقول : سرت بعض سيرته في سنه التي بلغها الآن ؛ فقد يجب أن يكون الأبناء حراساً على الأدب وحسن الذوق ورعاية اللياقة حين يتحدثون عن الآباء ، ولكنى على كل حال قد سرت بعض سيرته حين كان في سنى ، وأخطأتني التوفيق فلم يتح لى أن أخفى عليه كل شيء ؛ وما كاد يظهر على بعض ما فعلت حتى ثارت ثأرته ، فأنكر وسخط ، وأغرق في الإيثار والسخط ، ثم ارتقى إلى الوعيد والنذير ، وأسرف على نفسه وعلى أهله في ذلك . فقيل له حين تجاوز طوره : فإن هذا الفتى لم يفعل إلا ما تعود أترابه أن يفعلوا وما كنت تفعل أنت حين كنت بين العشرين والثلاثين . هنالك لم يضبط نفسه ولم يملك أمره ، فأرسل كلمته المنكرة ، ثم اندفع إلى شيء يشبه أن يكون جنونا فأقسم جهداً يمانه لا رآنى الليل في قصره هذا ولا على ربوته هذه . فأنا مسافر إذا كان الأصيل ، وسيلحق بى غيرى بعد يومين أو بعد أيام ؛ فقد ينبغي أن أهى الدار لاستقبالهم في مستقرنا الجديد .

وهم الشاعر أن يتكلم ، ولكن نعيماً مضى في حديثه فقال : إنك رفيق والدى منذ صباه وشريكه في هزله وجده ، فهل تعلم أنه لقي من أبيه مثل ما ألقى منه ؟ وهل تعلم أنه لم يقبل على بعض لذاته كما أقبل أنا على لذاتي ؟ وهل تعلم أنه وفق دائماً لأن يخفى عبثه كله على أبيه ؟ أم هل تعلم أنه كغيره من الناس لها أثناء شبابه وجدته ، وأسرف على نفسه وعلى أسرته في اللهو أحياناً ، فأنكروا عليه في رفقى ، ونصحوا له في حب ، ووجهوه إلى الخير ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، وأكاد أقطع بأنهم لم يبلغوا مما أرادوا شيئاً .

قال الشاعر في شيء من العنف : حسبك ! فما ينبغي أن تقضى على أبيك . قال نعيم : فهذه هي الجملة التي نسمعها دائماً : ما ينبغي أن تقضى على آبائنا ، وما ينبغي أن نخالف عن أمرهم ، وما ينبغي أن نسوءهم بقول أو فعل ! هذه خصال فرضتها علينا التربية وفرضتها علينا الأخلاق وفرضها علينا الدين . ولكن أوافق أنت بأن الحياة لم تفرض على الآباء شيئاً بالقياس إلى أبنائهم يلائم هذه الخصال التي فرضت على الأبناء بالقياس إليهم ؟

قال الشاعر : فدعنا من الفلسفة واستقصاء البحث من أحكام التربية

والاخلاق والدين ، وحدثني عن هفوتك هذه التي هفوتها فجرت علينا كل هذا البلاء العظيم . أحق إذن ما يقال من أنه قد كانت لك في القرية خطوب ؟ فما عسى أن تكون هذه الخطوب ؟

قال نعيم : وما عسى أن تكون الخطوب التي تحدث لفتى فارغ مترف قد أقبل ينفق أشهراً بين أهله ، فهو يغدو ويروح لا همَّ له إلا نفسه وإلا لذاته القريبة والبعيدة ، وكل شيء من حوله يغريه باللهو ويدفعه إليه ! وما أكثر ما يعبت الفتيان فلا تقف حركة الفلك ولا تغير الشمس مجراها في السماء ! إنما هي فتاة من أهل القرية راقى منظرها وفتنى سحر لحظها ، فصبت إليها نفسى ، وانتهى الأمر بنا إلى غايته من الإثم . لم أخرج أنا ، ومتى تخرج السيد من اللهو بإحدى إمائه ! ولم تتحفظ هي ! ومتى تحفظت الأمة فلم تستجب لأحد ساداتها ! قال الشاعر مروّفاً : حسبك ، حسبك ! لست سيداً وليست أمة ، وإنما امتزت عليها بثروتك ومكانك الاجتماعي ، فأسرفت على نفسك وأسرفت عليها : غررتها فاغترت لك ، وما كان لك أن تخدعها ، وما كان لها أن تنخدع .

قال نعيم : ولكنى خدعتها فانخدعت .

قال الشاعر : فأنت تبجى الآن ثمرة هذا الظلم .

قال نعيم : فإني أود لو أعلم أنكم لا تظلمون أهل القرية ، ولا تعنفون بهم ، ولا تشتطون عليهم ، ولا تظلمونهم أو أنا أخرى من الظلم ليست أقل من هذا الإثم الذي اقترفته خطأ ، ولا أهون منه شأننا ، ولا أضعف منه تأثيراً في حياتهم كلها . إنكم تستذلونهم وتستغلونهم ، وتضطرونهم إلى البؤس وتقرضون عليهم الحرمان ، تكلفونهم ما تكلفونهم من ضروب الجهد والعناء ، حتى إذا آتى جهدهم ثمره وانتهى عناؤهم إلى نتيجته ، أخذتم خير ما تشر الأرض على أيديهم فأثرت به أنفسكم من دونهم واستمتعتم بنعيمه ، وهم ينظرون إليكم من قريرتهم تلك التي توشك أن تكون قطعة من الجحيم ، وأتم لا ترون بهذا بأساً ، ولا تجدون في أنفسكم منه حرجاً . ولو استطعتم أن تزدادوا ظلاماً لهم وإثقالاً عليهم لما تورعتم عن ذلك ولا زهدتم فيه ، ولكنكم تعصرونهم حتى لا تتركوا فيهم معتصراً ، ثم لا تجدون في أنفسكم إلا الرضا ، ولا تحسون في قلوبكم إلا الطمأنينة . تقبلون على هذا مصبحين ، وتقبلون على هذا ممسين ، وتنعمون بثمره هذا بين الصباح والمساء ، وتنامون هادئين غير حافلين بهذا بين المساء والصباح .

وددت لو أعلم أن أهل القرية يجدون من اللذة في استثمار الأرض لكم ورفع ثمرات الأرض إليكم ، واضطرارهم إلى الحرمان والبؤس ، مثل ما وجدت هذه الفتاة من النعيم والرضا حين خدعتها فأنخدعت ، وحين غريتها فاستجابت للإغراء .

إني ياسيدي لا أجحد أني تجاوزت حدود الخلق والدين ، واقترقت إثما من الحق على أن أمحو آثاره ، ولكني في سبيل هذا كله لم أظلم ضميتي وحدها ، وإنما ظلمت معها نفسي ، واعترفت بهذا الظلم فأصلحت منه ما استطعت إصلاحه : قدمت إلى هذه الفتاة كثيراً من الطرف وفنونا من الهدايا ، رفعتها إلى نفسي أو نزلت إليها ، عشنا حيناً من الدهر عيشة سواء لم أكن سيداً ولم تكن أمة ، وإنما كنت عاشقاً خائلاً ، وكانت عاشقة خيلة . وأنت شاعر ياسيدي تعرف أن الحب يغير الأوضاع بين المحبين ، فيجعل السيد عبداً والعبد سيداً .

حدثني عما تقدمون من الخير والبر إلى أهل هذه القرية حين تسخرونهم في غير رفق ولا لين ، وفي غير محبة ولا مودة ، وفي غير إنصاف ولا عدل لمنافعكم ، وحين تستأثرون من دونهم بشجرة ما يبذلون من جهد ، وما يحتملون من عناء . إن أرض القرية لخصبة تنبت الغنى ، ولكنها تنبت الغنى لكم ، ولا تنبت لأهلها إلا فقراً ، وبؤساً ، وحرماناً . وإنكم لتعلمون ذلك وتقبلون عليه عن اعتماد له ورغبة فيه ، لا تتحرجون ولا يخطر لكم أن تتخرجوا ، فإن لامكم في ذلك لائم أو عابكم عليه طائب دعوتكم بالويل والثبور وعظائم الأمور ، ونظرتم إلى أنفسكم كأنكم الضحايا ، وإلى لائميكم والعائنين عليكم كأنهم الأعداء المنغشرون . فما لكم لا تحلثون الحلال كله ولا تحرثون الحرام كله ، وإنما تتبعون فيما تحلون وما تحرثون أهواءكم ومنافعكم لا ما أحل الله ولا ما حرم ! ثم حدثني أوائق أنت بأنكم لا تستحلون لأنفسكم حين تسنح لكم الفرص ما تحرثون على غيركم ؟ أوائق أنت بأن أبي إنما يسخط على غيره على الحق وغضباً للحرمان ورعاية للخلق والدين ؟ أما أنا فما أرى أنه يسخط على إلا ضناً بي أن أنزل إلى مكانة دون مكاتي ، وخوفاً على أن أتجاوز بهذا الحب طور المجون واللهو وأرتفع به إلى طور آخر يخشاه كل الخشية ويأباه أشد الإباء . ولو قد حدثته بأنني أريد أن أتخذ هذه الفتاة لي زوجاً لجن جنونه وضل ضلاله . وثق بأنه لم يبلغ من الغضب ما بلغ إلا لأنه أشفق أن أتحدث

إليه هذا الحديث . وآية ذلك أنه لم يلحنى ولن يلومنى حين رأتى وحين يرانى أداعب وألاعب فتيات من أسر ممتازة كأسرتنا الممتازة . إنه يرانى لذلك كفوًا ، ويرى هذه الأسر موضعا لصهره ؛ فليس عليه بأس أن رأتى أقع فى شرك هذه الفتاة أو تلك ، ولعله يسعى ويدبر الأمر لاقع فى شرك هذه الفتاة أو تلك . أسرة ممتازة تُصهر إلى أسرة ممتازة ، ومال يجمع إلى مال ، وفتى كريم يقترن بفتاة كريمة . كل هذه أمور ترضون عنها وتسعون إليها ، تنعمون إن انتهت إلى الخير ، ولا تثبتئون إن انتهت إلى الشر من حق الشباب أن يعصى فى طريقه التى قسمت له ، ولكنهم تمايزوا بين الطرق التى قسمت للشباب ، فللأغنياء منهم طريق ، وللفقراء منهم طريق ، وللبائسين منهم طرق لا تحصى .

ثم أطرق الفتى إطراقة طويلة لم يكده الشاعر يتنبه إليها ؛ لأنه كان مغرقا فى الذهول منذ اندفع الفتى فى حديثه هذا الجرىء العنيف الطويل . ورفع الفتى رأسه بعد حين باسمًا للشاعر وهو يقول : «عدّ إلى نفسك أو أعدّ نفسك إليك ؛ فليس فى الأمر ما يدعو إلى هذا الوجوم . إن الأمر أيسر جدًا مما تظن . إني خدعت خديجة ابنة الخدّاء فانخدعت ، ودعوتها فاستجابت . ولو وقف الأمر عند هذا الحد لما سخط أبى ولا ثار ، ولـكان من اليسير أن نرضى الفتاة ببعض الهدايا ، وأن نرضى أباه ببعض البر أو ببعض الابتسام ، وكان من اليسير أن أسافر فأطيل الغيبة فأنسى أنا وتنسى هى ، ويلتمس لها الزوج من طبقتها هنا أو هناك ، ويلقى الستار على مأساة تحدث الآلاف من أمثالها فى كل عام . ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد ، وإنما وقعت الفتاة من نفسي موقعًا خاصًا ، واستقر جها فى قلبي استقرارًا مكينًا ؛ فلست أرى من الاقتران بها بدءًا . ولم أتحادث بذلك إلى أبى ، ولكنه أحس ميلى إليه وتفكيرى فيه . نهانى عن هذه الفتاة فلم أته ، وأغراني بغيرها من بنات طبقتنا فلم يكن لاغرائه فى نفسي صدى ، ثم أذّر فلم يغن البذير ، وحذر فلم ينفع التحذير ، فقال كلمته التى قالها ، وفعل فعلته التى فعلها حين أخرجه الغضب عن طور العقلاء .

وقد قلت لك آنفا إني كنت أبحث عنك لأودّعك قبل الرحيل . وهذا حق . ولكن هناك حقًا آخر لم أقله لك ، وقد كنت أبحث عنك لأقوله لك أيضًا . وبعد فاني سأبأثر إذا دنا الأصيل ، وسيتبيننى قوم آخرون ، ولكن هناك قوما آخرين

قد سبقوني إلى السفر ، وسألقاهم في العاصمة . وأن يمضى الأمر بيني وبينهم كما مضى إلى الآن ، ولكنى سأأخذ خديجة لى زوجا . فإن استطعت وإن أردت أن تلقى هذا النبأ الخطير إلى أبى فى رفق ، فافعل ، وإن عجزت أو أبيت فسيأتيه النبأ من طريق لا رفق فيها ولا لين .

وهم الشاعر أن يقف الفتى وأن يجادله فى بعض هذا الأمر ، وأن يرده إلى شيء من الرشد ، ولكن الفتى اندفع فى حديثه لا يلوى على شيء قائلا : لا تتكاف مشقة ولا جهداً فى إقناعى بغير ما تمت عليه ؛ فإنك لن تباع من ذلك شيئاً . وإذا لم يكن بد من أن تبذل الجهد وتحتمل المشقة فافعل ذلك فى العناية بهذا الشيخ الذى سيعيش وحيداً فى قصره هذا الفخم الضخم بعد أن ينصرف عنه أهله ، وفى إعداده مترفقاً به لتلقى هذا النبأ الذى سينتهى إليه بعد أيام ما أظنها ستطول . وهنا صمت الفتى لحظة ، ثم لم يلبث أن اندفع فى ضحك متصل ، ولكنه ضحك لا يخلو من حزن ، ثم قال : وأكبر الظن أنك لن تحتمل كثيراً من العناء فى تعزية الشيخ عن هذه الخطوب ؛ فانه شيخ قد احتفظ بفضل من شباب . وما أشك فى أن الملل قد وجد إلى نفسه سبيلاً ، وما أشك فى أنه يدير فى رأسه أمراً ذا بال ، وما أشك فى أن هذه الكلمة البغيضة التى انطلق بها لسانه حين تقدم الليل قد مدت له أسباباً وفتحت له أبواباً .

ثم وثب الفتى كأنما دفع إلى الوثوب دفعاً وانحنى على الشاعر فألقى على رأسه قبلة سريعة خاطفة ، ومضى أمامه لا يلتفت ولا يلوى على شيء . وظل الشاعر واجماً لحظات ، قد أخذه شيء يشبه الدوار لكثرة ما سمع ولثقل ما سمع ، ثم ثابت نفسه إليه شيئاً فشيئاً ، وأراد أن يأتى نذارة إلى النهر ولكنه رأى نفسه ينهض متثاقلاً ، ثم يرقى إلى القصر متباطئاً وقد أنسى عادته الجبينة إليه فلم ينحن على العصا ، ولم يمش على ثلاث .

لم يبق

[يتبع]

في أفق السياسة العالمية

أمريكا والشرق الأقصى

ترك جورج واشنطنون بطل الاستقلال الأمريكي قبل وفاته ، وصية سياسية لخلفائه ، كانت الدعامة الأولى لمبدأ منرو ، ولسياسة العزلة التي اعتنقها الشعب الأمريكي وارتبط بها سياسيوه حتى أوائل الحرب الأخيرة . فقد قال واشنطنون — فيما قاله في خطبة الوداع — محذراً مواطنيه عواقب الاشتباك في السياسة الأوروبية : « إن لأوروبا مصالح معينة لا تربطنا بها أية رابطة وإذا ربطتنا فمن بعيد جداً ، وستنشأ من هذه المصالح مشاكل وخلافات متواصلة تشتغل بها أوروبا ، وهي في جوهرها مسائل غريبة عن مصالحنا كل الغرابة » . ولقد حرص الأمريكيون على تنفيذ هذه الوصية حرصاً يدعو حقاً إلى الدهشة ، فقد كانت تربطهم بدول أوروبا أواصر القرابة في الجنس واللغة والدين ، ومع ذلك فإنهم في سياستهم لم يولوا وجوههم قط صوب أوروبا ، فلم يشتركوا في حروب نابليون ولا حضروا مؤتمراتنا أو واحداً من المؤتمرات التي تلت . حتى إذا ما قرر أحد هذه المؤتمرات المنعقد في فيرونا سنة ١٨٢٢ أن تتدخل فرنسا بالقوة لقمع الثورة في أسبانيا على الملك فرديناند السابع ، خشيت الولايات المتحدة أن تكون هذه الحركة مقدمة لتدخل فرنسا أو غيرها من الدول الأوروبية الكبرى في شؤون المستعمرات الأسبانية ، التي أدركتها الثورة أيضاً في الوقت نفسه على أسبانيا ، وأزمنت إعلان استقلالها عنها . وحينذاك أعلن رئيس الولايات المتحدة جيمس منرو بالاتفاق مع كاتنج الوزير الانجليزي مبدأ منرو الشهير الذي أغلق باب العالم الجديد في وجه الاستعمار الأوروبي ، وجعل من أمريكا منطقة حراماً على دول أوروبا ، ومن شؤونها حقاً سائغاً للولايات المتحدة دون غيرها . على أن الولايات المتحدة إذا كانت قد نفذت وصية واشنطنون فيما يخص أوروبا ، فإنها رنت ببصرها نحو المحيط الهادي غرباً ، وما برحت تهتم بشؤونه وشؤون سواحل آسيا في الشرق الأقصى إلى الآن وقد يبدو للناظر إلى الخريطة

لأول وهلة أن ما يفصل أمريكا عن آسيا عبر المحيط الهادى لا يقل عن ضعف المسافة بين أمريكا وأوروبا. وهذا حق ، ولكنك إذا دقت النظر تبين لك أنه لا يفصل إقليم الشسكا التابع للولايات المتحدة عن سيبيريا التابعة لروسيا فى المنطقة المتجمدة الشمالية إلا بوقاز بيرنج وعرضه لا يزيد على ٥٦ ميلا. ولا تزيد المسافة بين جزر ألوشيان التابعة للولايات المتحدة أيضاً وشبه جزيرة كاتشكا شرق سيبيريا سوى بضع مئات من الأميال .

وكان أول عهد الولايات المتحدة بالتدخل فى شؤون الشرق الأقصى فى أوائل النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، إذ أرسلت الحكومة إلى اليابان الكومودور Perry فى سنة ١٨٥٣ — ١٨٥٤ على رأس قوة بحرية عمادها عشر سفن وألفا رجل ، وطلب إلى «الشوجن» رئيس حكومة البلاد إذ ذاك عقد معاهدة تجارية تميز للسفن الأمريكية والتجار الأمريكيين الإقامة ببعض الثغور اليابانية ، وتسمح بقبول قناصل يمثلون الحكومة الأمريكية فى هذه الثغور ، فقبلت اليابان هذه العروض بعد تردد ، وكان هذا فاتحة العلاقات الدولية بين اليابان والخارج ، إذ ما لبثت روسيا وإنجلترا وهولندا وفرنسا أن حذت حذو الولايات المتحدة وطالبت بمثل هذه المزايا لمواطنيها . وفى هذه الأثناء أو قبلها بقليل كانت الحكومة الإنجليزية قد تدخلت بالقوة فى شؤون الصين وأجبرت حكومتها على فتح خمسة ثغور للتجار الأجانب ، وكانت الولايات المتحدة أسرع الدول إفادة من هذا الامتياز .

وما دما الأمريكيين إلى ارتياد المحيط الهادى والزج بأنفسهم وسط شعوب شرق آسيا إلا غريزتهم التجارية ، ورغبتهم فى ألا تغفل من نفوذهم هذه المناطق البكر ، الشاسعة فى مداها ، الغنية بمواردها الكامنة ، الآهلة بمئات الملايين من الناس . وليس معنى هذا أن الولايات المتحدة كانت تزهد فى التوسع والاستعمار ، ولا تريد أن تتشبه بدول أوروبا الكبرى ، فيكون لها أسواق تسيطر عليها وأساطيل تجوب البحار ، وقواعد تلجأ إليها عند الحاجة وتمدها بالغذاء والوقود ، فقد اجتازت الولايات المتحدة فى أواخر القرن التاسع عشر مرحلة التطور الصناعى ، وبلغت مصنوعات ومنتجاتها من الوفرة والجودة درجة دعت القوم إلى البحث عن ميادين جديدة لتصريف الفائض منها ، فلم تلبث أن وجدت لها فى الشرق الأقصى . وعلى ذلك جعلت تقوى مركزها فى المحيط الهادى تدريجاً

أمريكا والشرق الأقصى

فاشرت من روسيا سنة ١٨٦٧ شبه جزيرة ألاسكا في الشمال الغربي من كندا ، وفي سنة ١٨٩٣ ضمت إليها جزيرة هاواي . وفي أوائل القرن العشرين قامت الولايات المتحدة بحفر قناة بناما لتصل بين المحيطين الأطلنطي والهادي وتقرب بينهما المسافات البحرية ، وقد عقدت مع جمهورية بناما اتفاقا يضمن لها احتكار منطقة القناة لنفسها دون غيرها .

وفي نهاية القرن التاسع عشر حدث أن اشتد الجفاء بين أسبانيا والولايات المتحدة بشأن جزيرة كوبا التي كانت تابعة لاسبانيا وثائرة عليها ، وكانت الولايات المتحدة تريد أن تحررها من ربة التبعية الاسبانية حتى تأمن جانبها وتدخل في نطاقها الأمريكي . وعلى ذلك سرعان ما أدى النزاع بينهما إلى الحرب . وكان بعض الناس يظنون أن أهل الولايات المتحدة قوم جبلا على حب المال ، وأنه لا قبل لهم بمحاربة دولة أوربية قديمة كاسبانيا ، ولكن الأمريكيين خبيوا ظن العالم القديم ، وانتصروا على أسبانيا بحراً عند سنتياجو بجزيرة كوبا ، وعند مانلا عاصمة جزر الفلبين التي كانت تابعة لاسبانيا . وعند ذلك بدأت مفاوضات الصلح بوساطة فرنسا ، ونزلت أسبانيا عن جزيرتي كوبا وبورتوريكو في المحيط الأطلنطي ، وعن جزر الفلبين وجوام في المحيط الهادي ، وذلك مقابل عشرين مليون دولار لاسبانيا .

وبانتصار الولايات المتحدة على أسبانيا واحتلالها جزر الفلبين دخلت الولايات المتحدة في طور جديد من سياستها الخارجية . فبينما كانت في عزلة من ناحية أوربا ، إذا هي في الشرق الأقصى قد انتهجت خطة تنبئ بتصميم أكيد على أن يكون لها مركز مرموق في شؤون الشرق الأقصى والمحيط الهادي الشمالي . وعلى ذلك انخرطت الولايات المتحدة عقب انتصارها في سلك الدول العظمى واتخذت من جزر الفلبين مقاما تشرف منه على بلاد الصين . ولم تعد أمريكا كبريطانيا في سياستها نحو الصين إلى تجارة الأفيون تنشره بين الناس مراً وعلانية ، أو إلى القوة الحربية تلجأ إليها ضد الصين كلما قام الخلاف بين حكومة الصين والتجار الأجانب ، وإنما شادت سياستها على رسالة العلم والدين تنشرها في جمعياتها ومعاهدها ومستشفياتها ، وعلى تبادل التجارة الشريفة ، وأخيراً على ميول العطف والمساعدة التي كانت تظهرها في المناسبات المختلفة نحو البلاد وأهلها . فثلاً حين قامت حرب الملاكين الصينيين في آخر القرن الماضي ضد

الاجانب وانهزم الصينيون وفرضت عليهم غرامات ثقيلة لتعويض الاجانب عن خسائرهم ، نزلت الولايات المتحدة عن نحو نصف نصيبها من التعويض معلنة أنه يزيد على قيمة خسائرها . ولما تكاثرت الدول على الصين ، كل تريد أن تلتهم جزءا على الساحل الشرقى يكون دائرة نفوذ لها ، أثبت أمريكا أن يكون لها شيء في هذه الاعتداءات ، وظلت إلى النهاية تحترم استقلال الصين ووحدة كيائها ، وتحول بقدر طاقتها دون تمزيق أوصالها واقتسام أراضيها .

وكانت اليابان وروسيا أكثر الدول طمعا في الصين بعد أن بدا ضعفها وفساد نظامها على أثر انهزامها أمام الاجانب مرة وأخرى . أما اليابان فإنها أفادت من الاجانب ونظمهم وصناعاتهم شيئا كثيرا ، فسارعت إلى إلغاء نظام الإقطاع وأرسلت بعثاتها المختلفة إلى الخارج ، وجعلت تصلح من شؤونها وتؤسس نهضتها ، بل قفزتها الحديثة ، على أسس متينة من قوى البر والبحر ، وتقدم الصناعة والتجارة . وكان طبيعيا بعد أن نما استعدادها أن تجرب قوتها في ميدان تعتبره مصدر الخطر عليها ، أى فى كوريا التابعة للصين والقريبة من سواحلها والتي إذا احتلتها دولة أجنبية استطاعت أن تهدد اليابان وتعرض استقلالها للخطر . لذلك أخذت اليابان تتدخل فى شؤون كوريا ، وسرعان ما بدأ الاحتكاك بين الصين واليابان ، فقامت الحرب بينهما ، وانهت بعد بضعة شهور بانتصار اليابان سنة ١٨٩٥ . وقد نزلت الصين لليابان عن جزيرتي فورموزا وبسكادورس ، واعترفت الصين باستقلال كوريا عنها ، فأصبحت تحت رحمة اليابان ، وقد ضمنها إليها فى سنة ١٩١٠ .

أما روسيا فأخذت منذ منتصف القرن التاسع عشر تزحف شرقا داخل هضاب آسيا وأوديتها حتى ضمت جزيرة سخالين فى سنة ١٨٧٦ ، ثم بدأت تصل أطراف أملاكها عبر سيبيريا من جبال أورال إلى ساحل المحيط الهادى بإنشاء سكة حديد سيبيريا ومدتها داخل منشوريا إلى ميناء بورت آرثر وفلاديفستك بعد الاتفاق مع الصين . وبذلك أصبحت روسيا جارة شديدة الخطر لاجل الصين بحسب بل على اليابان أيضا . لذلك صممت اليابان فى دخيلة نفسها على الاستعداد لمحاربة روسيا ، وكانت اليابان تعتبر نفسها أولى الناس بحق الارتفاق بالصين اعتمادا على صلة القربنى فى الجنس والدين والجيرة . وقد مهدت للحرب باتفاقها مع إنجلترا سنة ١٩٠٢ فارتفعت بذلك الحجة إلى مصاف الدول العظمى . ولما كسبت الحرب

أمريكا والشرق الأقصى

براً وبحراً من روسيا في سنة ١٩٠٥ أصبحت مع الولايات المتحدة أقوى دول المحيط الهادى .

وكانت الولايات المتحدة هي التي توسطت في عقد الصلح بين المتحاربين . ولم تغد اليابان من الحرب سوى جلاء روسيا عن منشوريا وعن نصف جزيرة سخالين الجنوبي، وحلت اليابان محل روسيا في شبه جزيرة لياوتنج وبورت آرثر، واتسح المجال أمامها في كوريا ومنشوريا . وبعد ما كانت روسيا مصدر الخطر في آسيا على النفوذ الإنجليزى أضحت روسيا حليفة لبريطانيا في ١٩٠٧، وتحول الاتفاق الإنجليزى اليابانى عقب انتصار اليابان إلى محالفة جريئة دفاعية . ومما يدعو إلى الدهشة حقاً أن تقف أمريكا بمعزل عن هذه المحالقات تنقم على روسيا رجعتها وأساليبها الأتقراطية في الحكم، وعلى اليابان شراحتها ونزوح اليابانيين بكثرة إلى سواحل المحيط الهادى في أمريكا ينافسون أهل البلاد في أرزاقهم ومعاشهم . وهكذا مضت الولايات المتحدة في عزلتها السياسية القديمة لا ترسم لنفسها خطة عملية صريحة تنهجها إذا ما قضت عليها التزاماتها في الشرق الأقصى بالعمل ؛ فلا أساطيل قوية أنشأت ، ولا قواعد حصنت ، ولا محالقات مع الدول الصديقة عقدت . وانبنى على هذا الإهمال الفاضح لمسئولياتها أنها أرغمت في الحربين العالميتين على التدخل بغير استعداد . ولو قد واجهت الحقائق وأنجزت شيئاً مما ذكرنا لأمكن تفادى الكارثتين ولو إلى حد ما . ولما قامت الحرب العالمية الأولى كانت كل من روسيا واليابان إلى جانب الحلفاء ، ولزمت الولايات المتحدة حيدها طوعا لسياستها العتيقة، إلى أن كثر اعتداء الغواصات الألمانية على السفن الأمريكية، وتركت روسيا ميدان الحرب أثر ثورتها الكبرى في سنة ١٩١٧، عند ذلك لم ير الرئيس ولسون بدءاً من دخول الحرب إلى جانب الحلفاء، فأهاب بمواطنيه أن يثشقوا الحسام لا كمواطنين أمريكيين فحسب بل كمواطنين عالميين يعملون على تحرير العالم من عناصر الظلم والطغيان . وقد استجاب الشعب الأمريكى لنداء رئيسهم عن اقتناع وطيب خاطر، كما استجابت له حكومة الصين الجمهورية الجديدة فجعلها تعلن الحرب على ألمانيا حتى لا يطمع فيها طامع إذا انتهت الحرب بانتصار الحلفاء .

ولكن ما كادت تنتهى الحرب حتى بدا للعالم أن أمريكا التي عجلت بانتصار الحلفاء تزمع أن تعود إلى عزلتها السياسية ، وتترك دول العالم القديم تتطاحن فيما

بينها بشأن الأسلاب الإقليمية . فخرجت اليابان من الحرب العالمية الأولى ظافرة بجزر المحيط الهادى الواقعة شمالى خط الاستواء التى كانت بيد ألمانيا قبل الحرب . ومع أن اليابان قد أخذت هذه الجزر عن طريق الانتداب فإنها حصتها واتخذت منها قواعد وثبت منها فى ديسمبر ١٩٤١ على بيرل هاربر القاعدة البحرية الأمريكية فى جزيرة هوايى ؛ فكان ترك هذه الجزر بيد اليابان من أهم العوامل التى ساعدت على إشعال نار الحرب الأخيرة فى المحيط الهادى . وقد حاولت الولايات المتحدة أن تسترد اعتبارها فتدعو الدول صاحبات المصالح فى المحيط الهادى إلى الاجتماع فى مؤتمر واشنجتون البحرى سنة ١٩٢٢ ، فكانت النتيجة اغتراف الدول بما فيها الولايات المتحدة بحق اليابان فى الانتداب على هذه الجزر ، وتأييد سياسة الباب المفتوح فى الصين ، وانسحاب اليابان من منشوريا ، وانتهاء العمل بالمحالفات الانجليزية اليابانية والاستعاضة عنها بمعاهدة رباعية تجمع بين الولايات المتحدة واليابان وانجلترا وفرنسا . وقد كان إلغاء المعاهدة الانجليزية اليابانية من الأسباب التى دعت اليابان إلى البحث عن حليف آخر تستند إليه ساعة الخطر ، فوجدته فى ألمانيا ثم إيطاليا .

ثم تطورت الحال فى اليابان ، فجاءت فى سنة ١٩٣١ وزارة حربية رأت أن الفرصة قد منحت لتحقيق مطامع اليابان فى الصين .

وكانت الأزمة المالية التى بدأت فى أمريكا سنة ١٩٢٩ قد شملت أنحاء العالم وجعلت الدول تخشى أن تشتبك فى حروب تحملها ثقلات لا طاقة لها بها ، فسارعت اليابان إلى مهاجمة منشوريا فى سبتمبر سنة ١٩٣١ ، واضطرت الصين إلى التقدم لمجلس العصبة بالشكوى . ولكن العصبة لم تكن لديها القوة الحربية التى تستطيع أن ترد اليابان عن عدوانها ، وكل ما كانت تستطيعه أن تكلف بريطانيا العنل ضد اليابان . ولو آتست بريطانيا من الولايات المتحدة استعدادا للتعاون ما توات ، ولكن الدولتين كانتا فى غمرة من الأزمة المالية ومشاكل السياسة الداخلية . ولذلك لم تلق الصين من العصبة أو من الدولتين السكسونيتين سوى القروض المالية والكلمات المنمقة والتمنيات الطيبة . وعلى ذلك أوغلت اليابان فى منشوريا ، ومنها انقضت على الصين فى سنة ١٩٣٧ فدخل الصينيون آتون حرب طاحنة ماحقة مع اليابان ، حتى لحقتهم الحرب الأخيرة فانصهروا فى ييرانها . ولو قد رضيت الولايات المتحدة بإطلاق يد اليابان فى الصين ماذر

اليابانيون مشروعاتهم الجهنمية بالسطو بحرا وجوا على الأسطول الأمريكي في بيرل هاربور وما ترتب على ذلك من انهيار القوة البحرية التي كانت للولايات المتحدة ولبريطانيا في المحيط الهادى . وتداعى قواعد الحلفاء واحدة تلو أخرى في سنغافورة ورانجون ، ثم تعرض الهند وأستراليا لخطر الغزو اليابانى .

وفى بدء الحرب مع اليابان أذعن الحلفاء أمام الأمر الواقع فى المحيط الهادى فركزوا جهودهم فى تنمية سلاح الطيران وتعويض ما فقدوه من سفن الحرب وتوجيه جهودهم نحو قمع الخطر النازى فى أوروبا والشرق الأوسط ، حتى يحولوا دون تقابل القوات الألمانية واليابانية فى غربى آسيا .

ولما زال هذا الخطر عقب معركة العلمين وارتداد الألمان أمام ستالينجراد بدأت سلسلة المؤتمرات بين الحلفاء لتنسيق جهودهم وخططهم الحربية ، ولإعلان أغراضهم من الحرب . وكان انعقاد مؤتمر القاهرة فى آخر نوفمبر سنة ١٩٤٣ خاصا بشؤون الشرق الأقصى ، وقد قررت الدول الثلاث الكبرى بريطانيا والولايات المتحدة والصين أنهم مصممون على مواصلة الحرب ضد اليابان حين يتم استسلامها بدون شرط أو قيد ، وأعلن الحلفاء أنهم لا يضمرون فى أنفسهم أية رغبة للكسب مغانم خاصة أو ضم أراض للغير ، ولكنهم يعترفون بمعاقبة اليابان على جشعها وغدرها ، فيستردوا منها جميع الجزر والأراضى التى احتلتها منذ الحرب العالمية الأولى ، ويعيدوا إلى جمهورية الصين ما سلبته من أراضها . منذ سنة ١٨٩٥ فيعيدوا إليها منشوريا وفورموزا بسكادورس . أما الجزر التى احتلتها منذ الحرب العالمية الأولى فهى جزر لادرون ومارشال وكارولينا . ثم أبدى الحلفاء فى نهاية قرارهم أنهم يدركون المأسى التى قاساها أهل كوريا على أيدي اليابانيين ، وأنهم لذلك مصممون على أن تصبح كوريا حرة مستقلة فى الوقت المناسب .

وقد بر الحلفاء بوعدهم بشأن القضاء على قوة اليابان ، فما كادت طلأع النصر تزحف غربا من سواحل نورمنديا بفرنسا وشرقا من حدود بولندة قاصدة إلى برلين حتى استعدت قوات الحلفاء فى الشرق الأقصى للهجوم الأخير ، فنزل الأمريكيون على ساحل الفلبين فى أكتوبر سنة ١٩٤٤ ومنها احتلوا جزيرة ابوجيما على مسافة قريبة من اليابان ، ثم احتل البريطانيون رانجون واخترقوا طريق بورما إلى الصين . وأخيرا فى ٦ أغسطس سنة ١٩٤٥ نزلت أول قنبلة ذرية

على هيروشيا في اليابان ، فكادت تمحوها وأحدثت من الأهوال ما جعل اليابانيين يخشون على بلادهم من الانقراض إذا تتابع سقوط هذه القنابل على أراضيهم . عند ذلك خشيت حكومة السوفييت التي كانت مرتبطة مع اليابان بمعاهدة الحيدة لمدة خمس سنوات ابتداء من ١٩٤١ أن يتم استسلام اليابان دون أن يكون لروسيا شأن في تقرير مصيرها ، فأعلنت عليها الحرب . ونزلت القنبلة الثانية على نجازاكي في ٩ أغسطس ، فكانت القنبلة الأخيرة في الحرب والآخرة بالقياس إلى اليابان ؛ فقد استسلمت في ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٥ .

وبمخرج اليابان من ميدان التنافس في المحيط الهادئ وقتت روسيا وجهها لوجه أمام الولايات المتحدة . وقد كانت الولايات المتحدة حريصة في الماضي على بقاء قوة روسيا على سواحل آسيا الشرقية لتتخذ منها حليفاً يصد اليابان من الخلف عند الحاجة . أما الآن وقد انتهت قوة اليابان ، فإن روسيا وأمريكا أصبحتا قوتين متجاورتين . وليس الخطر من روسيا على أمريكا منشؤه الأطلنطي والتنافس الأوربي كما يبدو لأول وهلة ، فبين الولايات المتحدة وروسيا من ناحية الأطلنطي حازان : الأول كتلة الدول الغربية تزعمها بريطانيا وفرنسا والأراضي المنخفضة ، والآخر دول الحدود التي تترس خلفها حكومة اتحاد السوفييت مثل بولندة ، وتشكوسلوفاكيا ، والنمسا ، والمجر .

وقد كان يظن والحرب مستعرة بين الحلفاء ودول المحور أن الترابط الوثيق الذي سار بين الحلفاء سينمو ويتردد بعد الحرب ، ولكن الدلائل كلها تنبئ بظهور النزاع الأيديولوجي القديم بين الدول الديمقراطية وغيرها . وهذا الغير كان في أثناء الحرب الدول الفاشية ، فأصبح بعد الحرب حكومة السوفييت . وبعد أن كانت روسيا قد ألغت فكرة الشيوعية الدولية عادت بعد الحرب تشجع رسلها وأعوانها في جميع أنحاء العالم ، وصار من المؤلف لدى ساسة السوفييت أن يوعزوا إلى جيرانهم بتأليف حكومة صديقة ، ويقصدون بالصديقة أن تكون اشتراكية شيوعية تستمد وحيها من قصر الكرملن بموسكو ، حتى أحاطت بها حكومات شيوعية لا في البلقان ووسط أوربا فحسب بل في منشوريا ومنغوليا وكوريا الشمالية في الشرق الأقصى . ولو لم يسارع الحلفاء إلى تعيين الجنرال ماك آرثر الأمريكي على رأس الهيئة المحتلة باليابان لتدخلت روسيا ولا اتخذت من شعور الأهالي بالهزيمة ومن فقرهم المدقع سبيلاً إلى تلوين البلاد باللون

الأمر . ولا تزال بلاد الصين الجنوبية التي يسيطر عليها المارشال تشانج كاي تشك تعاني كثيراً من جانب الشيوعيين شمالاً وغرباً . لذلك تقف حكومة الولايات المتحدة الآن حارسة لاستقلال الصين وحمايتها من الثورة الشيوعية ، كما تقف محتلة جنوبي كوريا وعاصمة « سيول » لدرء الخطر الشيوعي المنبعث من القسم الشمالى الذى تحتله روسيا . ويبدو أن الولايات المتحدة ستتمسك بالجزر ذات الأهمية الاستراتيجية فى المحيط الهادى وهى التى كانت تحتلها اليابان، وقد تتولى أمورها نيابة عن مجلس الأمن . وستكون أعباء الولايات المتحدة باهظة إزاء تبعاتها فى العالم ؛ فعليها أن تحتفظ بتفوقها البحرى والجوى فى المحيطين العظيمين الاطلنطى والهادى . ولعمري إن هذا وحده سيتطلب تقفات طائلة مالم تؤيد مركزها فى المحيطين بالتحالف الدائم بينها وبين الدول الصديقة بريطانيا والصين وروسيا . والاتفاق بين روسيا وأمريكا وإن بدا متعذراً من الوجهة الايديولوجية، فهو من الوجهة الاقتصادية قريب ويسير، وقد قامت الأدلة العملية أخيراً على أن مستقبل الطيران فى المسافات البعيدة مرهون بالملاحة الجوية فوق سطح الكرة الأرضية عن طريق المناطق القطبية ، وهذا يستدعى توثيق الروابط بين الدول التى تسيطر على هذه المناطق وهى روسيا وكندا والولايات المتحدة وبريطانيا. وليس بين هذه الدول بعضها وبعض خلافات بشأن حدودها أو ضم أجزاء من أراضيها، وإنما الخلافات جميعها وقتية منشؤها سوء الظن وتوتر الأعصاب بعد الحرب .

ولقد غيرت الحرب من شؤون المحيط الهادى تغييراً كلياً؛ فالصين أصبحت دولة كبرى ، وكلما تقدمت فيها حركة التحول الصناعى ، وكشفت كنوزها المدخرة فى باطنها ، انفسح مجال العمل والرقى أمام الأربعمئة مليون نفس التى تسكن هذه القارة . ولا تنسى أن السنتين أو الثلاث التى قضتها اليابان فى السيطرة على شعوب شرق آسيا قد وضع أمام هذه الشعوب مثالا حياً للتحدى وإمكان التغلب على الجنس الأبيض ، وخلق فيهم روحاً جديدة تصبو إلى التحرر من نير الاستعباد الأجنبى ، وإلى تحقيق الشعار الذى كانت تنادى به اليابان لاستمالة هذه الشعوب إلى جانبها وهو أن « آسيا للآسيويين » .

وجميع هذه الشعوب عناصر جديدة غير مستقرة على حال قد أيقظتها هذه الحرب العنيفة الثانية ، وفتحت عيونها إلى آراء وآفاق جديدة ؛ فكل شئ

امريكا والشرق الاقصى

فى الشرق الاقصى ملغم مشحون بالكهرباء ، ولا يعلم أحد متى ، أو كيف ، أو أين تنطلق هذه القوات المكبوتة المحبوسة طوال هذه القرون الماضية والتي تمثل أكثر من نصف سكان العالم . وستكون بلاد الصين بلا شك هى المحور الذى تدور عليه عجلة التطور فى هذه المناطق ، وفيها أيضاً تتقابل العناصر الأمريكية والروسية (وربما تدخلت اليابانية بعد زمن) . وعلى تعاون هذه العناصر أو تشاحنهما يتوقف مصير الشرق الاقصى بل مصير العالم . إما حرب وإما سلام .

محمد رفعت

أبو الهول يطير . . .

[خواطر ومشاهدات ، كان الكاتب يقيد بها أثناء
رحلته من مصر ، للتنقل بين أمريكا وفرنسا وسويسرا
طوال ستة أشهر .
وقد شاء الكاتب أن يضمن هذه الخواطر والمشاهدات
رسائل وجهها إلى ولده الراحل ، وأهداها إليه .
وفيما يلي كلمة إهداء ، تتبعها الرسالة الأولى .]

إهداء

إليك . . .
إليك يا أعز من أحببته ، ويا أعز من فقدته . . .
إليك أنت يا من لا أشميك . . . فإن اسمك لم يعد يجرى على لساني منذ
أضعتك . . .
إليك أخط هذه الرسائل .
إني لأبعث بها إليك واحدة تلو الأخرى ، لعل أتسلم من توجيهها إليك
برد السلوى ، وإنها لتطالعك في عالمك العلوى ، لعلها تحمل إليك خواج
القلب ونجوى الضمير !
تهتاج بين جوانحي رغبة متقدة في الكتابة إليك ، في التحدث معك ، في
مخاطبتك . . . في فك الإيسار عن نفسى التى تنزى في القيود والأصفاد !
لقد أسكنت هذه النفس ققما من ققام سليمان ، وأحكمت سدّه بالرصاص ،
وقذفت به في قاع المحيط ، هنالك تحت أعماق الماء ، حيث يتكدس الظلام
والصمت طبقات فوق طبقات .
ظلت تلك النفس حبيسة ققمها ثلاث سنين طوالاً كأنها دهور تتلاحق ،

أبو الهول يطير . . .

ولكن في هذه الساعة التي ازمع فيها سفيراً لا أدري ما ذا يكون مصيرى فيه
تنبعث صرخة يضطرب لها ذلك القمقم ، صرخة تنفذ من الرصاص ، وتخترق
أطباق الصمت والظلام ، وتشق أعماق الماء ، فإذا هي تبلغ أذنى ، وإذا هي
تملأ معنى بالدوى . . .

إنها رغبة النفس في أن تناجيك ، في أن تتصل بك ، في أن تفنى فيك !
ثمة اتصال دائم بينك وبين هذه النفس السجينة ، بيد أنه اتصال صامت ،
لا كلمة فيه تقال ، ولا لفظة فيه تدوّن . أما اليوم فإن هذه النفس شيقة إلى
أن تتكلم . . . وإني لتارك لها هذه الأوراق البيض ، لتخط فيها ما تهفو إلى
الإفشاء به إليك !

تلك هي الرحلة الأولى التي تتخلف فيها عن مرافقتى ، فلقد نعمت بصحبتك
في أسفارى جميعاً . . .

أنت تتخلف اليوم على الرغم منك ، وأنا أرحل الساعة بدونك على غير
إرادة منى . . .

إنها يا بنى مشيئة القدر ، ومن ذا يردّ القدر إذا شاء ؟

ولكن أى تخلف منك ؟ وأى رحيل منى ؟

إننا نقيس القرب والبعد في هذه الدنيا بمنطقنا القاصر ، ونظرنا

الكليل . . .

أثمة رحيل ينأى بى عنك حقاً ؟

ربما ضمنى ، أنا ، وإنسان آخر ، مكان واحد ، مكان ضيق لا يتسع لأكثر

من شخصين ، فأشعر مع ذلك ببعد الشقة بيني وبينه ، بل إنى لا أحس لهذا

الجليس من وجود ، على حين إنه قد يفصلنى عنك شاسع الأرجاء وهول الطريق ،

فأحس كأنك تلمسنى ، وأشعر بنسمات أنفاسك تصافح وجهى !

لا رحيل يا بنى ولا تخلف ! . . .

إننا نصطنع المألوف من الكلام ، ونساير المتعارف من الألفاظ ، حتى

يكون حديثنا بين الناس غير مستغلق ولا مستغرب ولا مكروه . . . ولعمري

لو تركنا لأرواحنا حرية التعبير ، لاتخذنا لغة لا تصلح إلا في مخاطبة

الأرواح للأرواح !

لا رحيل يا بنى ولا تخلف . . .

أبو الهول يطير . . .

أنت فكرة خالدة تحوم في مخيلتي لا تبرحها أبدا . . .
أنت نجوى تهجس في صدري في تعبد وتبتل صباح مساء . . .
أنت خفقة القلب تجمعت فيها عناصر حياتي . . .
أنى لأزعم الرحيل ، لا تسرية عن النفس ، ولا إشباعاً لفضول ، بل
لإرافق شخصاً عزيز المكافحة في قلبينا يلتمس الشفاء في تلك البلاد القاصية . . .
أما كان أحرى أن تكون أنت مكاني ، ترعى هذا العزيز في غربته ، وتدعني
مكافئك أتوسد الثرى عنك ؟

قسماً يبنى ما كنت أطلب من الله أمنية أجل من تلك ، ولكن الله يصرف
الأقدار وفق مشيئته التي نسلم لها القياد ، وإن كانت عقولنا القاصرة تعيا عن
إدراك ما في هذه الأقدار من حكمة وما لها من مرمى . . .
إنها إذن مشيئة الله ، أن أرحل أنا وتبقى أنت ، كما كانت مشيئته من قبل
أن ترحل أنت عن دنيانا وأن أبقى أنا فيها أقضى أيلماً آخر !
وإنها كذلك مشيئة الله : بينما يدعوكم إلى جواره الأعلى ، مخلفاً قلوبنا في
ظلمة وعبوس ، إذ يبعث إلينا نجماً (١) صغيراً مافئ نوره الوادع منذ بزغ
يحاول جاهداً أن ينير هذه القلوب ، وأن يهدي إليها راحة الرضا بما هو
مكتوب ومقسوم . . .

بذلك الصغير الذي راح ينمو بيننا ويتفتح كتفتح الزهرة باكرها الطل ،
بدأنا نستعيد طفولتك المحببة ، ونعرض أطوار حياتك البهيجة . . .
لقد ظهرت بيننا المعاطف الصغيرة ، والقبضات العريضة ، والأحذية الدقيقة ...
لقد تراءت في حديقة المنزل تلك العربية التي تدفع باليد مرتقة خطاً
للطفل الجديد . . .

لقد تعالت في أجواء المنزل جلبة صاخبة مشبعة بالحياة والبهجة ؛ لتوقظ
المنزل مما ران عليه من ركود وخمول . . .
ها أنت ذا تعود إلينا يا بنى . . .

تعود إلينا بابتسامتك الوضاحية ، بضحكك الرنانة ، بعبثك المستطرف ،
بمرحك الحى . . .

(١) حفيد الكاتب .

أبو الهول يطير . . .

يا لله . . . كأنك بيننا لم تفارقنا ، وكأننا معك لم تفقدك !
إني حين أقبل على ذلك الصغير ، فياض الحنين ، أضمه إلى صدري وآلمه ،
يخيل إلي أني أضحك أنت يا بني وألثمك . . .

كنت دائماً طفلاً أمام عيني . . .
إن الوليد ليظل صغيراً في نظر والديه ، وإن شب شبابه ، وإن علت به
السن ، وإن علاه المشيب . . .
إنه هو هو ذلك الصغير الذي نزعجه دوماً بالعطف والتفقد والنصح
المملول . . .

أنت طفلي ، وستلبث طفلي أبداً ، صبيّاً كنت أو كهلاً ، حيث كنت أو
في عداد الراحلين . . .

وهل كنت إلا طفلاً وأنت على فراش مرضك الأخير ؟
لقد كنت ترنو إليّ ، وتطلب مني أن أحيطك بما ألفتته مني من حنو ،
وتسألني أن أخفف عنك ما تعاني من تباريح الألم . ولطالما قلت لي : متى أغادر
سرير المرض وأطوّد مألوف العيش ، فكنت أؤكد لك أن الشدة زائلة ، وأن
الصحة مقبلة ، وإن هو إلا يوم أو بعض يوم . . .
أ كنت أردد ذلك لك بلساني ، فأما قلبي فإنه كان يحس هول المفاجعة من
بعيد . . .

كان مثلي كمثّل ذلك الحيوان الذي يحس بغريزته هبوب العاصفة العاتية
قبل أن تسجل آلة الرصد ما في الجو من انقلاب . . . !
كنت أحس أنك توشك أن تنساب من بين يديّ انسياب الماء من بين
الأصابع ، حتى نحل اليوم الذي وجدت فيه يدي قد صغرت منك ، فجاهدت
لا بقي في راحتي ما أستطيع إبقائه ، ولو بضع قطرات . . . ولكن ذهب الجهد
والجهاد عبثاً ، فإن أديم يدي كان قد جف وتشقق من لفحات الهجير ، فلم يغد
لآية فطرة مكان فيه !

لقد تطايرت من بيننا ، يا بني ، كما يتطاير العطر من قارورة رفعت سدadtها ،
فلم نعد نراك بأبصارنا ، ولكننا ظللنا نشمك طيباً يشيع فيما حولنا من
أجواء . . .

لم لا أضع صورتك هنا لتؤن هذا الحديث وتجمّله ؟

آبو الهول يطير . . .

إنها فكرة خامرت رأسي وقتاً ، ولكن العزم على إتخاذها أعوزني .
إني لأجاهر بضعفى وجبني حيال هذا العزم ؛ فليس لي من قوة ولا من جلد
أستعينهما على مواجهة رسمك يا بني !
إن صورتك ماثلة في ركن خاص بها ، ماثلة في محراب أقامه لك شخص عزيز
المكانة في قلوبنا . . .

هو محرابه القدسي يقضى فيه الساعات رانياً إليك ، يرشف الألم قطرات
على مهل في نشوة واستعذاب !
أما أنا فكلما مررت بهذا المحراب عامداً أو غير عامد ، زأغ عنه بصرى
وازور . . .

إن « الرجل » منا ليجمع بشجاعته ، ويعتد بقوته ، ولا يفتأ يزهو
وينفاخر ، حتى إذا لمح طيف الألم يتخايل أمام عينيه ، فر منه ماوسعه
الفرار . . .

ولكن « المرأة » تستمرئ الألم وتقدم عليه ، ولا تبغى به في النوائب
والأرزاء بديلاً . . .
تلك خطرات جاش بها القلب يا بني ساعة الرحيل ، أناجيك بها حين
أستودعك الله . . .
وإلى اللقاء القريب !

الرسالة الأولى : أهبة السفر

٤ أبريل سنة ١٩٤٦

أى بني :

في صباح اليوم المتم للثلاثين من مارس المنصرم ، دق جرس « التليفون »
واحطت علماً في لهجة بالغة الأدب وإن كانت لهجة حاسمة بموعد قيام الطائرة ،
فاذا به بعد أربعة أيام . . .
آية طائرة ؟ وآية أيام أربعة ؟

وتذكرت أني سجلت اسمي في القنصلية الأمريكية للظفر بالأسبقية في

أبو الهول يطير . . .

ركوب الطائرة . . . كان ذلك منذ أشهر . . . أشهر تقضت دون أن يتخللها حديث في هذا الصدد ، حتى عذب عن بالي أتى مقبل على سفر . . .
ها قد تبين الأمر ، فإذا هو جد لا هزل فيه . . . بعد أربعة أيام أطيروا إلى نيويورك . . . ولكن هل تكفي هذه الأيام الأربعة في إعداد عدة الرحيل ؟ ألا أراجع ولاية الأمر لتأجيل الموعد ؟ عبث ما أفكر فيه ! . . .
إنها أوامر يتلقاها طلاب الرحلة من مكاتب الشركات كما يتلقى الجندي أوامر القواد . . . أليس العهد قريباً بحالة حرب ؟ إذن فلندعن لهذا الأمر صاغرين صابرين إذا طمعنا في تحقيق ما نصبو إليه . . .

ونفضت أعمل . . . يجب أولاً أن أحضر ما يجب عليّ أن أقوم به ، وإذا بالمطالب والشؤون قد تشابكت وأخذ بعضها بتلايب بعض . فبأي شيء أبدأ ؟ وبأي شيء أتهى ؟

وبذلت جهدي في حصر الأعمال . . . ومثل لمخاطري على الفور إعداد الحقائق ، بل أستغفر الله إعداد حقيقة واحدة لي ، ومثلها لزوجي . . . حقيقة من الوزن الخفيف ، لا تزيد زتها على خمسة وعشرين كيلو . . . الأمر إذن هين ، إن نصف ساعة أو نحوه ليكفي لإعداد متاع لا يزيد وزنه على هذا العدد . . .

واطمأن قلبي ، وهذا بالي ، يبدو لي أن اهبة السفر ليست من التعقيد على النحو الذي كنت أتصوره . . .

وما كدت أستريح إلى هذا المخاطر ، حتى وقع بصري على إضامة منتفخة محوى بعض الأوراق الخاصة بإدارة أعمالي . . . وانسححت أفكر . . . يجب أن أصنّف هذه الأعمال ، وأن أكلها إلى من يحسن إدارتها في غيبتى . . .
ها هو ذا عمل ليس بالهين الميسور ، ولكن إنجازها لا بد منه على أية حال !
وماذا بعد ؟ وهنا انبرى أمامي شبح لجنة العملة ، ومن ورائه تبدو أشباح أخرى : المصارف ، مكاتب الصيارفة ، دار شركة الطيران ، وما إليها . . . وما فتئت هذه الأشباح تتدافع دوني وتتوالب ، يحاول كل منها أن يكون أول آخذ بمخناق !

وفي أثناء هذا الهرج والمرج أحسست ديباً في درج مكتبي ، وهمساً يرف على مسمعي ، وإذا بي أنصت إلى من يقول :

أنا رائدك الأول . . . أنا مفتاح الطريق . . . لن تستطيع بغيري سفيراً !
فجذبت الدرج إلى ، فلما بجواز السفر يعلو بهامته جده معتز . فمدت يدي
إليه يدي في تخشع ، ثم انثنت أميط عنه الغبار !

أماى تلك الأيام الأربعة ، لإنجاز هذه المهام وما يتصل بها أو يتفرع
منها . . . ومن هذه الفترة القصيرة يوم الجمعة الذى تغلق فيه مصالح الحكومة
أبوابها . ويوم الأحد الذى تأخذ فيه المصارف ومكاتب العملة قسطها من
الراحة والتعطل . . . فليكن . . . أماى يومان ، ثمان وأربعون ساعة طوال
عراض ، مهما تقتطع منها ساعات نوم واستجمام فالبركة فيما يبقى !

وشمرت عن ساعة الجد ، وأطلقت ما أختزنه من قوة ونشاط وحماسة ،
وانطلقت أعمل . . . كان مثلى كمثل تلك الأشباح السينمائية حين يخطئ العامل
في تحريكها فتلمحها على الستارة البيضاء خاطفة مضطربة !

وانكبت على الاستثمارات أستوفى تحريرها ، فما أكاد أفرغ من واحدة
حتى تعترضنى الأخرى . أما الإيمضاءات . فكنت أبعثرها ذات اليمين وذات
الشمال . وجعلت أذرع الطريق بين لجنة العملة والمصارف وبين المصارف ولجنة
العملة مثنى وثلاث ورباع . . . إن شركة الطيران تستمسك بموعدها لا تتأخر
عنه ، وإن المصرف لا يحوّل ملياً واحداً إلا بتصريحات مستوفية للشروط
مذيلة بإيمضاءات معترف بها على أوراق رسمية ، ولكن لجنة العملة لا يعينها
من ذلك شئ ، فأعضاؤها الموقرون في شغل بشؤونهم وآفاقهم عن ضيق
الوقت ودقة الموعد وتعجل الناس . . . !

وتعلمت بين عشية وضحاها كيف أكون هجماً لجوجاً ملحاحاً ، واستبان
لى ما لهذه الصفات المباركة من فوائد طالما أنكرتها وأنحيت باللائمة
على ذويها . . .

ثم ألفتنى بغته وأنا ألتقط الدولارات من مكاتب الصيارفة ، قد أصبحت
بالرغم منى خبيراً فنيّاً فى العملة الأمريكية ، أميز بين الدولار الجيد والمزائف ،
الحربى والمدنى ، المباح والمحظور !

وأجست بأعصابى تنهار . . . إنها حرب أعصاب فى مقتبل ساعات السلم !
وأخيراً تم كل شئ بما يشبه المعجزة ، ووجدتنى مزوداً بكل ما هو مطلوب
من التصريحات والمستندات والمعدات . . . وألقيت نظرة خاطفة على محفظة

جيبى ، فإذا هي قد تورمت ، وإذا بسطحها قد بدا عليه ما يشبه التضاريس والهضاب ! . . .

وحلت ساعة الميزان ، فمررنا بحقائبنا فى الطريق إليه كأننا نجتاز الصراط . . . ثم صعدنا فى السيارة الحافلة مع رفقة السفر ، وبدأنا نتعرف إليهم بنظرات حيية متعثرة ، وكأن لسان حالنا يقول :

أقبلون نحن على سفر يسلمنا إلى عالمنا المنشود ، أم على سفر يصير بنا إلى عالم الخلود ؟

وتحركت السيارة الحافلة ، تتأثرها سيارات المودعين ، وكانت الساعة قد جاوزت الواحدة بعد منتصف الليل . . . وقضينا الوقت فى صمت لا يقطعُه إلا نثار ألقاظ وظلال ابتسامات تضرب بها الشفاه . . .

ودخلنا مطار بين فيلد تلك المدينة التى شيدها الأمريكيون فى أخرج ساطات الحرب ، تلك المدينة العامرة الزاخرة تخرق رحابها الطرق الفسيحة المعبدة ، تلك المدينة التى تبدو فى ظلمة الصحراء المترامية وقد أضاءتها سواطع المصابيح الكهربائية معلقة فى الفضاء أو متناثرة على أديم الأرض . . . واقتادونا إلى « الجمرى » . . . وما إن بلغت حوزته حتى ثارت فى نفسى ذكريات غير محببة . . .

« الجمرى » . . . هو تلك الساقية العظيمة تدور رحاها فى قوة وجبروت ، ولكنها فى واقع الأمر تدور على نبع قاض مأؤه ، فإنك لتسمع نعيم هذه الساقية يشق أجواز الفضاء ، ثم لا تلمح لمائها من أثر !

« الجمرى » . . . هو تلك المؤسسة التى أنشأها قوم حاقدون على البشرية ، فأتخذوها أداة تنكيل وسوط عذاب ! . . . إجراءات تافهة تثير الضحك إن لم تثر الغيظ وترهق الأعصاب . . .

وظهرت الاستثمارات عوداً على بدء . . . علينا أن نُحررها ، وأن نستوفيها بإجابات غاية فى التفاهة . . . وحينئذ هامتنا نكتب ونمضى ، وأحياناً نسأل : ما المراد بهذا السؤال ؟ وكيف يكون الجواب ؟

وارتفعت يد الضابط بالخاتم العظيم تضرب هنا وهناك فى مهارة حرية بالتقدير ، إنه ليضرب ضرباً محكماً كأنما يسدد البطن فى ميدان القتال . . . وأخذ الضابط الهمام يجفف ما تقصده من جبينه فى زهو المنتصر الغلاب . . .

أبو الهول بطير . . .

ألم يؤد عملاً بالغ الجلالة عظيم الخطر ؟ إن ورقة تخلو من ضربة واحدة من خاتمه
العظيم كفيلة أن تقضى على صاحبها التاعس بالحرمان ؟
ثم اتجهنا إلى الخوان الطويل صُفِّت عليه الحقائق . . . هذا ضابط آخر
تشمّر واهتم وأخذ يتصايح :

تلك الحقيبة تفتح ، أما هذه فتحمل إلى الخارج ، ماذا في هذه اللفافة ؟
حذار أن يكون في ذلك الصندوق شيء محظور !

فلا تكاد الكلمات تتناثر من فمه ، حتى تتحرك الحقائق وما إليها من الأمتعة
غادية رائحة كأنما تحركها يد ساحر !

ومثلنا أمام الخوان ، كلٌّ منا يرتقب نوبته ، فدهمني شعور ممض ،
شعور برىء تهدر كرامته ، يرى نفسه في قاعة محاكمة وموقف اتهام ؛ كأنه
أحد مهربى المخدرات ! . . .

وأخيراً أفرج عنا ، فخرجنا « طابوراً » من بهو « الجمر » ، ومن حولنا
الأهل والرفاق . . . خرجنا إلى ساحة المطار ، فإذا « أبو الهول ^(١) » رابض
أمامنا ، باسط جناحيه على أفعبة الطيران . . .

كان باسمه التاريخى العتيق ، وهيكله العصرى الحديث ، كأنما يجمع بين
جلال الماضى التليد ، ومدنية الحاضر المشرقة الزاهية . . . إنه رمز حضارتين
عظيمتين : حضارة مصر العريقة ، وحضارة أمريكا الفتية المتوثية . . .
ولبثت لحظة أتأمله . . .

لست جماداً يا « أبا الهول » . . .

ما أنت إلا مخلوق حي ، طائر ضخيم من فصيلة النسور والعقبان ، بل أنت
أخو الرُخّ وصنو العنقاء ، طائر هائل الجرم مما تدور عليه أساطير الأولين . . .
نحن مقبلون على أن نحيا معك في أسطورة جديدة نخطها معا في
سفر الوجود !

ما أبهاك في لوئك الفضى !

إنك لتتألق وسط الظلام كشعاع الفجر ينتظر خلف أستار الأفق
البعيد . . .

(١) اسم البطائرة .

أبو الهول يطير .

سنسلمك أرواحنا أيها الطائر العظيم . . . فهي وديعتك ، إن شئت أضعتها
هباءً ، وإن شئت كنت لها نعم الحافظ الأمين . . .
وتلفت حولى ، فإذا بي أنا وزوجى يحيط بنا المودعون . . . إذن حانت
ساعة الوداع . . .

وشعرت بغتة كأن قلبى تهصره يد قاسية . . .
وثارت بي فجأة ذكريات . . . ذكريات يزحم بعضها بعضا . . . ذكريات
شتى جليلة وتافهة !

فى هذا الموقف الدقيق تتخايل لنا حادثة قديمة ليست بذات بال ، أو يبدو
لنا وجه نعجب كيف انفسح له مجال الظهور ! . . . وتتداعى المشاهد فى
مخيلتنا ، وتتلاحق سرايا ، حتى تتجمع كلها وكأنها تدور حول محور واحد
ولا تفتأ تدور .

وننظر إلى المودعين نظرة ساهمة ، ونبدأ نودعهم مصالحين أو مقبلين ، وتثور
فى النفس رواقد الشجون ، وينكشف للمرء منا تفاهته العجيبة ، وتتهار فى
لحظات تلك الشجاعة التى تتغنى بها مفاخرين ، فنغدو نحن الرجال أمام وداع طفل
صغير قد تصاغرنا وأصبحنا فى مثل حجمه وعقله وشعوره ! . . .
أى بنى !

إن وداع الأحياء رائع مثير لأخفى كوامن الشعور ، ولكن ثق أنه
لا يقاس بشيء أمام وداع « الراحلين » . . .

إننا حين نودع الحى فإنما نشاهده ونلمسه ونناقله الكلام ، أما « الراحل »
فإنما نستشعر وجوده فحسب . . . إنه يبدو من أغوار الظلمات ليطالعنا من
بعيد . . . متخذاً له مكاناً نائياً عن الزحمة والضوضاء . . . لا نشافه به برف ،
ولا نودعه بقبلة ، ولا نبادله شيئاً حتى الإشارة والتلويح !

ثمّة نظرات صامتة تصحبها ابتسامات رقيقة كلها صفاء وحنين . . .
هذا الطيف الرقيق يظل فى أفقه ، لاصلة بيننا وبينه إلا صلة الروح بالروح . . .
أى بنى !

ها هو ذا كل شيء قد اختفى من حولنا ، فلم يعد إلا أنت وأنا وحدنا . . .
لقد تزايدت أصوات الأحياء بما تحمل من تحية وتوديع ، وبقيت أنت . . .
أنت الوحيد الذى مازلت أراه . . .

أبو الهول يطير . . .

إنك لتملأ على الرحاب والآفاق . . .
وإني لأحس وجودك إحساساً كله صدق ويقين . . . وجودك مادة
متجسدة لا طيفاً من عالم الروح !
حقاً إن الموت لأعجز من أن يفرق بين حبيبين . . .
إنه ليوهمنا أنه أقام بيننا الفواصل والحدود . . .
زور وبهتان !
ما أغفلت أيها الموت . . . تحسب أنك انتصرت وما أنت إلا منهزم مقهور !
وصعدنا في الدرج ندخل « أبا الهول » . . . وغبننا في جوفه : فكأما
التقمنا حوت !

وطافت بمخيلتي قصة « أيوب » فساءلت نفسي :
أيكون حالنا كحال ، وما كنا كما له ؟
وقصدت أحد المقاعد ، فتهالكت عليه .
وسمعت صوت الباب يدفع بشدة ، فإذا هو يفصل بيننا وبين عالم الأرض . . .
وتراءت لأعيننا جملة مكتوبة بأحرف من نور :
« التدخين غير مباح . . . ليشد كل منكم حزامه » .
وسرعان ما شاهدت شاباً طلق الحيا في حلة رمادية رسمية ، تنطق كل
جارحة فيه بأنه أميركي أصيل ، فدنا مني في تلطف ، وأخذ يعينني على عقد
التنطاق حولي ، فأصبحت إلى مقعدي مشدوداً لا أستطيع البراح . . .
وبدأت المحركات تدوي ، وأحسست « أبا الهول » يتحرك ، وما هي إلا أن
رفع هلمته ، فإذا نحن بعد لحظات نشق الأجواز صعداً إلى السماء ، تحيينا
بسمات السحر !

محمود تيمور

البومة والعندليب

« في ركن آمن سحري من وادٍ ناءٍ سحيق سمعتُ بومةً وعندليباً يتناظران . وكانت المناظرة بينهما حادة عنيفة عنيدة ، تهدأ الأصوات فيها حيناً لتعود عالية صاخبة من جديد . كل طائر مغیظ من صاحبه ، حانق عليه تملأ ألفاظه القسوة ، ويبیح لنفسه من الكلام ما لا يستباح ، ويسب أخلاق صاحبه بأسوأ ما تصل إليه قريحته من سباب ، وكان أكبر ههما أن يذم كل منهما غناء صاحبه ، وینتقده نقداً صريحاً واضحاً لا یحتاج إلى تفسیر أو بیان . »

ثم نقل إلینا الشاعر الإنجلیزی المجهول هذه المناظرة الطریفة فی عالم النقد والأدب بكل أمانة وإخلاص . فإذا قصیدته حلقة ممتازة فی سلسلة المناظرات التي أقيمت فی الأدب النقدي منذ أيام أروستوفان فی أثینا القديمة إلى اليوم . موضوع من موضوعات النقد يطول النقاش حوله ، أو يتحسس الأدیب بحسه المرفه انشغال عقول الناس به فیعرضه فی صورة أدبية خلابة یبین كل ما یمكن أن یساق من حجج معارضة أو مؤيدة ، لا لیخرج بنتیجة ، فعمل هذه آخر ما اهتمت به تلك الفئة من الشعراء الناقدين ، ولكن لیعرض علینا الصورة الجميلة فی حد ذاتها ، ولیبین لنا تلك الحجج فی حد نفسها ، فیرضی بذلك الحس والعقل معاً . كل ما فی الأمر أنه اتخذ موضوعاً لقصیدته أو قطعتة الفنية قضیة نقدية بدل أن تكون قضیة سياسية أو اجتماعية أو لا قضیة .

واختلفت آراء النقاد فی هذه القصيدة ماذا كان یعنى بها صاحبها . إنها مناظرة شغرية باللغة الإنجلیزية القديمة ، بین بومة وعندليب . مناظرة رمزية بلا مرء ، فإلى أى شىء رمز الشاعر بهذا الذى یقول ؟ قل قوم إن البومة بما لها من وقار ، وما تدل علیه عیناه النافذتان من عمق وهدوء ، اتخذت رمزاً للحكمة ، أو الفلسفة ، أو التفكير عامة ، أو ما شئت من هذه المعانی التي تدول حول عمل العقل دائرة فی حياة الإنسان . وإن العندليب اتخذ رمزاً للتسبیح بحمد الله ،

ثم للحب والجمال والربيع ، أو ما شئت من هذه المعاني التي تتحرك في القلب لدى سماعه صوته الرقيق وأثره في حياة الإنسان . وقال آخرون : إنها مفاضلة بين العقل والقلب ودور كل منهما في حياة الناس . ولكن هذا القول لم يستقم طويلاً في كثير من ظاهر القصيدة ؛ فهذا كلام يطول حول صفات الطائر ، ولكن هذا كلام ، ولعله لباب القصيدة ، بدور حول علاقة الطائر بحياة الناس . ثم هذا كلام أكثر وأبين يدور حول غناء الطائر وما يبعث في نفوس الناس من إحساسات وما يهيج فيها من عواطف . ثم هذه مقدمة الشاعر القصيدة يحدد فيها غرضه واضحاً . إذ يقول : « وكان أكبر ههما أن يذم كل منهما غناء صاحبه ، وينتقده نقداً صريحاً واضحاً ، لا يحتاج إلى تفسير أو بيان » . كان الأمر إذن يدور حول الغناء ، وحول أثر هذا الغناء في حياة الناس . ولكن ماذا يريد الشاعر بهذا الغناء وإلام رمز به ؟ إننا إذا رجعنا إلى الشاعر أو إلى عصره فقد نستطيع أن نصل إلى ما نريد .

أما الشاعر فمجهول . وإذا وصل مؤرخو الأدب إلى ترجيح اسمه ، فإن الجهل الذي يحيط بهذا الاسم أكثر من المعرفة بل لعله يحجبها . فالقصيدة تذكر اسم السيد نقولاً في تكرار ظاهر تتمثل البومة بأقواله ، ويأتي العندليب من أقوال هذا السيد الحكيم بما يؤيد هو أيضاً به حجته . وعندما يتحدث النقاش ويريد الشاعر أن يفرغ من القصيدة ، نراه يحيلنا نحن على هذا السيد الحكيم في بلدته جلدفورد لنسمع منه القول الفصل في هذه القضية التي أثارت الوادي وكل ما سكنه من طيور . فإذا رجح المؤرخون أن الشاعر يدعى نقولاً جلدفورد فإن معلوماتهم التي تدور حول هذا الاسم من الضالة بحيث لا تفيدنا فيما نحن فيه ، بل لعلها لا تفيد كثيراً في أي موضوع يمكن أن يثار حول هذه القصيدة الفريدة .

أما إذا رجعنا إلى العصر الذي ألفت فيه ، والوصول إلى تحديده من خط النسخ واللغة أمر ميسور ، فإن أحوال هذه الفترة الطويلة من أزمان التاريخ تجعلنا الكثير مما نراه مستغلقاً في هذا الباب . ولا يعني من أحوال هذا العصر إلا ما يمكن أن يعكس الحياة الأدبية ويؤثر فيها ، بل ما يمكن أن يعكس هذه الناحية بالذات من الحياة الأدبية . فلقد شهد هذا العصر البعيد نهضة لا تقل في ووعتها عن هذه النهضة العظيمة التي عني بها المؤرخون في القرن الخامس عشر

والسادس عشر في أوروبا إن لم تفقها . تلك النهضة الأولى في القرون الثلاثة بعد العشرة كانت أول صحوة فعلية لهذه الشعوب من أثر القرون الوسطى ، نتيجة أول احتكاك جدى قوى بين طائفة كبيرة من شعوب أوروبا والشرق . لقد كانت الكنيسة تجتاز محنة عصر اضطهاد وإنذار شديد بزوال السلطان في القرن الحادى عشر فهبت لتعيد لسلطانها القديم على عقول الناس وتقوسهم وحياتهم سيرته الأولى . وكان من آثار تلك الهبة القوية الحروب الصليبية المعروفة . هذه الحروب التى شهدت جيوشاً عديدة من الغرب تأتى بنفسها إلى الشرق لتراه عن كثب فى الواقع لا فى الخيال . وكما أحدث احتكاك الشرق بالغرب فى أسبانيا آثاراً فى الفن والتاريخ لا تمحى ، فكذلك أحدث هذا الاحتكاك بينهما فى أرض الشرق المقدسة آثاراً أقوى وأعم وأشد . وتعود تلك الجيوش إلى أوطانها فإذا هى تحدث هذا الانقلاب القوى فى كل مرافق الحياة ، نتيجته انقلاب مادمى عنيف فى ميزان الثروة وتوزيعها . فإذا كانت العلوم والصناعة قادرة على إحداث مثل هذا الانقلاب فى العصور الحديثة فإن التجارة وانتشارها كانت كافية لإحداث مثل هذا الانقلاب فى العصور القديمة . فهذه طبقة جديدة تنشأ إلى جانب ملاك الأرض وقد سُلِّخت بنفس السلاح - بالثراء . يكفى أن يعود أحد من هذه الجيوش أو من اتصل بها بتحف الشرق يبيعها فى الغرب ليعود بتحف من الغرب يبيعها فى الشرق وهكذا ، فإذا هو ثرى فى طرفه عين قادر على أن يشتري الأرض ومن عليها من عبيد دون أن يرثها عن الآباء والأجداد . وتطلع العامة إلى ما لم يتطلعوا إليه من قبل ، وهز الأمل فى تقوسهم من الحياة ما أنعشها وقادها إلى جركات عنيفة تريد بها أن تتحرر من سلطان السادة ملاك الأرض . وليس يعنينا ما قد قامت به هذه الجماعات فى سبيل التحرر المادى ، ولكن الذى يعنينا هو أن نذكر أن هذا التحرر المادى لم يكن إلا ليسبق بمحاولات عنيفة للتحرر الروحى والعقلى . ولقد حاولت العامة أن تنفض عنها سلطان الكنيسة بنفس الحماصة التى حاولت بها أن تنفض عنها سلطان ملاك الأرض . وحاولت الطبقة المستنيرة أن تقود هذه المحاولات وتوجهها ، وإذا للكنيسة أمام هذا الإنذار الشديد بزوال سلطانها تصحو صحوة قوية بالعمل والقول لتدعم سلطانها على أساس جديد لا يهتر بهذه الأصاصير . والأدب فى كل هذا سلاح الطرفين ، يشترك فى كل كبيرة وصغيرة ، ويعبر عن آمال هؤلاء فى

التحرر ، وعن رغبة هؤلاء في السلطان . وإذا هو يصور هذه النفوس التي تريد أن تنطلق من إسارها لتسبح في الهواء الطلق حرة لا يقيد جسمها ولا يشل عقابها سلطان ، كما لم يصورها من قبل لأنه كان سلاح الكنيسة وحدها فيما قبل . ولكنه بانتشار استعمال اللغات المحلية بدل اللاتينية أصبح الشعب قادراً على أن يعبر عن نفسه . وإذا نوع جديد من الأغاني الشعبية ينشأ في هذا العصر : أغاني الحب والجمال يترنم بها الشعراء والمغنون الطوافون يغنونها على آلاتهم الموسيقية المعروفة ، فيذيعون بين الناس زناات محبة إليهم تصور لهم الحب المحرم المحروم فيجدون فيه صدى لنفوسهم الظامئة . وتصنع هذه الأغاني عصراً طويلاً من عصور تاريخ أوروبا بصبغتها القوية ، حتى ليعرف هذا العصر في التاريخ بأنه عصر هؤلاء المغنين الطوافين ، عصر « التروبادور » . ولم يكن غناؤهم ليزول ، فقد كانوا يبذرون مع أنغامهم بذوراً في كل مكان يزرعون بها زرعاً ينطلق نحو شيء مجهول ، ولكنه انطلاق من عذاب وقيد . وانتعش الأدب والشعر الغنائي خاصة انتعاشاً قوياً في فرنسا وإيطاليا خاصة ، وظلت إنجلترا رغم اتصالها الوثيق بفرنسا ، حتى إنها كانت تعد في نظر بعض المؤرخين مقاطعة متها ، بمعزل عن هذه الحركة القوية لا تتأثر بها كثيراً لطبيعة أهلها أولاً ولا تفصال جزرها من القارة ثانياً .

ولكن هذه القصيدة تكتب في إنجلترا في ذلك العصر فتمثل مبلغ تأثير شعراء إنجلترا بهذه الحركة وإن لم يتأثر بها الشعب . إنها قصيدة نقدية تصور قضية أدبية قائمة إذ ذاك . وما هي تلك القضية ؟ إنها لن تعدو هذا النزاع الأبدي العظيم بين أدب قديم وأدب حديث . هذا النزاع الذي شهدته الأدب كلما عصفت بالناس عاصفة تريد أن تدفع بهم نحو جديد ليتركوا قديماً . أما الأدب القديم هنا فكان الشعر الكنسي خاصة يحض الناس على الخير ويرغب ويعبد ويتوعد ويزار ويرعد ليقرّب الناس من الله بنكران الذات والتقصيف في سبيله . وأما الأدب الحديث فكان هذا الشعر الغنائي الجديد الذي دوى في الآفاق يقول ما للإنسان من حق في أن يستمتع بالحب والجمال والريبع ، شعر المغنين الطوافين ، وهو يصور نفساً تنطلق من إسارها نحو جديد مجهول ، ولكنه جديد على كل حال . وظهرت في عقول الناس قضية القديم والحديث بصورة جديدة فجاءت هذه القصيدة لترسم هذه الصورة ، ولتفصل في القضية ولو من بعيد .

فما هذه البومة إلا رمز للشعر الكنسى ، وما هذا التدليب إلا رمز لهذا الشعر الغنائى الحديث . والشاعر حريص كل الحرص على بيان غرضه حتى لا يضل وسط الرمز والا لغاز قراؤه . فهو ينص منذ بدء القصيدة على أن الغناء كان أهم ما انتقد كل في صاحبه . والقصيدة مليئة بهذا النقد بل إنها تقوم عليه . فهذا التدليب يقول للبومة : إن غناءها ليفزع الناس ويروعهم ويحزنهم (كما كان يفعل شعر الكنيسة بهم) ، وإن البومة لا تغنى إلا في الظلام في ساعات اليأس من حياة الناس كأنما هي غيرة من سعادتهم تحسدهم عليها بل لا تريد لها لهم . والبومة تقول إن غناءها ليعلم الناس ، ويهذب من خلاهم ، ويفسر لهم ما قد غمض من رموز الحياة على حين يفسد غناء التدليب عقول الناشئة . والتدليب يقول إن غنائى ليلذ الناس ويطربهم ويفرحهم ، والبومة تقول إن غنائى ليحزنهم على التوبة ويقربهم من الله ، إنه يوحى إلى الأبرار بالشوق إلى الجنة ، ويملاً الأشرار فزعاً مما سيصيبهم من العذاب فى الآخرة . ويقول التدليب إن غناءك أيتها البومة لقاس مرير ، وإنك لتأوين إلى الخرائب والكنائس لتغنى حتى تكونى بعيدة عن الناس ، وإنك لتغنين دائماً أبداً فى ساعات بعينها ، بل إن فى خلقك دهاء ومكراً ولثوما تستعملين من الأساليب ما ينفر منها الحق والخلق الكريم (إشار إلى أساليب الكنيسة) . ولكن التدليب يدعى لنفسه هو أيضاً أنه يتغنى بغناء الكنائس لأنه يسبح بحمد الله ويعبد الناس خير إعداد لتذوق أنعام الجنان والسموات . إن له من فضل التعليم ما للبومة لأنه يهذب بغنائه ويعلم ، فهو يحث على فضيلة الوفاء ، والإخلاص ، ويعلم حقيقة العدم والزوال وحكتهما . أكان يريد الشاعر بهذا شيئاً غير الشعر الغنائى ؟ أو ليس الشعر الغنائى يدعى لنفسه التهذيب والعمل على التقرب من الله ؟ إن لكل طريقته ، ولكن الشاعر يميل فيما نرى إلى تفضيل التدليب لا يعيب عليه بلسان البومة إلا أمراً واحداً هو أنه كثيراً ما يتغنى بحب محرم ، فهو يحض الزوج على حب عاشق غير زوجها .

وكان هذا الموضوع أهم ما دار حوله الشعر الغنائى الجديد . ولكن الشاعر يدافع عن هذا بقوله : أليس الشائع المشاهد أن الزوج يعامل زوجته بقوة وفظاظة ، وأن قلبه بعيد عن هذا البيت الذى هيات له فيه زوجته أسباب الراحة والسعادة ! وإن الزوج لتعمل كالمخدوم بل كالعبد المطيع ليل نهار ، فلا تجد لنصبتها وتعها جزاء إلا الغضب بل اللطم فى كثير من الأحيان . أفليست تلك معدورة

إذا ما وجدت لدى عاشق محب ما تتعطش إليه من حنان وحب في أن تحبيب النداء؟ ولكن هذا الدافع لا يرضى للشاعر ولا يرى أنه مما يضح أن يسكت عنده . فإذا هو يقول على لسان العندليب : ولماذا لا يكون الحب عفيفاً طاهراً حب فتاة لفتاها يتوج بالزواج بعد حين إني أتغنى بكل أنواع الحب . إني أتغنى بحب محروم ولكنه مشروع . وهكذا يستمر هذا الشعر في معالجة هذا الموضوع ، وكأنما هو يفتح لتلك الطبقة من الشعراء والمغنين الطوائف آفاقاً جديدة من الغناء نراها وقد ملأت أوروبا بعد حين وطربت عليها أجيال من الناس تعاقبت مدى قرون وقرون تتغنى معا بهذا الحب المحروم محرماً ومشروعاً .

والشاعر لا يتعرض لتحليل تلك الظاهرة في غناء عصره ، بل إن الناقد الذي نقل إلينا القصيدة من نصها القديم إلى نصها الحديث ودرسها لا يتعرض هو الآخر لشيء من هذا ولعلهما لم يريدوا الدافع عن مثل هذا الموضوع من موضوعات الغناء لتخرج في طبعهما إلا تجليزي أو لعله أخرى . فقد كان جل ما اهتم به هو الدافع عن الحركة الجديدة في الشعر والغناء . ولكن المتأمل في حال أوروبا الوسطى في تلك العصور يرى مالا يخرج في تحليل شيوع هذا الموضوع . فغناء الحب في مثل هذا العصر لم يكن هناك من بد إلا أن يصور الحب كما صوره ، حب عبد ذليل متعطش إلى حقه في الحياة فهو يتطلع إلى العتق غير المشروع . وهل تختلف حال الزوج الذليلة المتعطشة إلى حقه في الحب والحنان بعد أن قامت لزوجها بكل ما في طاقتها من خدمات ليروى عطشها فلم يقابلها إلا بالقسوة والحرمان ، عن حال هذا العبد الذليل الذي يقدم لسيدته ما في وسعه ولا ينطق منه إلا بالقسوة والحرمان بدل حقه من الاستمتاع واللذة ! وهل يختلف تطلع هذه الزوج إلى عاشق يتزل إليها من السماء عن تطلع هذا العبد إلى مثقذ يتزل من السماء أو ينبعث من الأرض ليرد إليه حقه في الحياة ! وهل يختلف غناء الزوج الذي يصور عذابها وشقاءها وتطلعها وشوقها عن غناء هذا العبد بعذابها وشقائه وتطلعها وشوقه ! إن هذا الغناء الغزلي كغناء العرب في بوادي الحجاز بعيد الإسلام ، لا يصور الحب بقدر ما يصور الحرمان والتطلع إلى مثقذ مجهول . ولو قد أراد الشاعر أن يدافع هنا عن غناء العندليب في قصيدته لوجد أنه بإخراجه إلى الرمز يعطى العندليب أقوى حجة ليقاوم بها تلك

البومة والعندليب

البومة العاتية القاسية . ولكن الشاعر يعيش في عصره ويرى الحياة بمنظار ذلك العصر ، فدافع في سذاجة ، ورسم في سذاجة أيضا ما يجب لهذا الموضوع من تحوير ليأمن اللوم . ولكنه بهذه السذاجة نفسها وما فيها من إخلاص وجمال استطاع أن يفتح الآفاق ويمهد السبيل لظهور غناء قوى جديد من هذه البداية المتواضعة .

ولكن المناظرة في حد نفسها تصبح موضوعاً أدبياً يجب أن يوفى 'حقه' . فما كان يكفي أن تعيب البومة غناء العندليب وأن يعيب هو غناءها ليهيا للقارئ أن مناظرة حادة قامت بين الطائرَيْن . لا بد أن يكون هناك أكثر من هذا في الواقع ، وإذا القصيدة مملوءة بالسباب وبعبث الخلق . يرى العندليب في البومة بشاعتها وكره الناس لها وجبها للعزلة والخراب وسائر ما لها من صفات مذمومة إلى جانب هذا الصوت البشع الذي يتشاءم منه الناس ؛ فلم يكن بد من أن يرى العندليب هذا إذا قامت البومة فعلاً أمامه ، وإن كان الإنسان لا يحس منها أكثر من هذا الغناء المشؤم . وكذلك لم يكن بد من أن ترى البومة في العندليب صغر حجمه وضعفه أمام قوتها وبطشها ، وتفاهة ما يقوم به من أعمال إلى جانب ما تراه من سوء أثر غنائه في الناس وإفسادهم بالحب والجمال والخيال . ولم يكن بد أيضاً من أن يفعل الغضب فعله في الطائرَيْن ، فيظهر غيظهما في الكلام والحركات . ولكن الشاعر طبقاً لتقاليد عصره لم يجعل أحداً منهما يخرج عن حده حتى لا يفقد بذلك عطف الناس عليه . فلقد كان من أدب المناظرة والمقاضاة أن يتأدب الشاكي في شكواه ويتأدب الجاني في دفاعه ، ليكسب كل منهما عطف الجمهور باحتماله الإيذاء من صاحبه ، فعطف الجمهور عليه هو كسب القضية . - بذلك وبغيره من الأساليب والخطط أتقن الشاعر فن الرمزي ، وخيل إلى السامع أو القارئ أنه في ساحة قضاء جاء فيها الطائرَان يحتركان بالفعل . ولم يكن الشاعر ليستطيع أن يخفي انحيازَه إلى طرف من الطرفين المتخاصمين ؛ فقد كان عطفه على العندليب ظاهراً واضحاً ، وها هو ذا ينهى القصيدة بمغالطة من البومة ينفر منها الحكماء ؛ فلقد طاب العندليب عليها كره الناس لها وتشاؤمهم منها ، ولما لم تستطع أن تدفع ذلك عن نفسها اعترفت به وأخذت تفخر بعيبها هذا . فيقول لها العندليب إن هذه مغالطة منها لا تغتفر في فن المناظرات والخصام ؛ فقلب الحقائق وجعل الغيوب مفاخر لا يمكن أن يكسب عطف الناس .

واستنجد العندليب بطيور الوادي ، فهبت جميعها لأنها تحب العندليب تلبى غناؤه الرقيق العذب . وتهزأ البومة من هذا الجيش الذي أتى به العندليب ليدافع به عن نفسه أمامها . فلو كان المجال مجال قوة وبطش لكان لها ولأخواتها وأبناء عمومتها من صقور الوادي ونسوره ما يكفل لها الغلبة على هذا الجيش من صغار العصافير أي غلبة . ولكن البومة والعندليب كانا قد اتفقا على الاحتكام إلى السيد الحكيم نقولا جلدفورد . وهما هي ذي البومة وقد ضاقت ذرعا بثرثرة العندليب وشقشقة هذا الجيش من العصافير تقترح الذهاب إلى هذا السيد الحكيم ليسمعا القول الفصل في قصيتهما ، ويوافق العندليب على هذا . وقد وعدت البومة أنها تستطيع أن تعيد كل ما دار بينهما على أسماع الحكم وقبلت أن يذكرها العندليب بما قد تنساه . فيطيران ويتركان الشاعر حيث هو في ذلك الركن الآمن السحري من الوادي النبأى السحيق . إنه لا يستطيع أن يطير مثلهما . ويقول الشاعر: أما ما حدث بينهما في هذا الاحتكام فإني عاجز عن أن أقصه ، إذ هنا تنتهي قصتي هذه .

وهكذا تركنا معلقين كما قد تركنا غير شاعر ناقد من قبل في مثل هذا الموقف من تصوير معركة القديم والحديث في الأدب ، لا خوفاً من سلطان القديم ولا فتوراً نحو هذا الجديد ، ولكن لتردد الشاعر حقاً بينه وبين نفسه في تفضيل أحدهما على الآخر تفضيلاً تاماً كاملاً . إنه شاعر يرى الجمال ويحسه إحساساً عميقاً شاملاً ، بلغ من شموله أنه أصبح من الصعب عليه أن يشوبه الحس بدرجات أو بميزان . فهذا القديم له قوته وسلطانه ، وهذا الحديث له عذوبته ولذته وجماله . فأيهما أفضل ؟ إنه يحب الحديث ولكن أهو الأفضل فعلاً ؟ وهل نستطيع نحن حتى بعد أن سجل التاريخ انتصار الحديث أن نقاضل لحقاً مهما ملنا إلى أحدهما دون الآخر .

وتركت القصيدة أثرها في الشعر الإنجليزى المعاصر والذي أتى بعدها ، بل في شعر أوروبا أيضاً . وتعاونت هي ومؤثرات أخرى على نماء أنواع بعينها من الأدب كتبت لها السيادة على قرون طويلة في تاريخ الأدب . فقد قوى شعر المغنين الطوائف وعظم أثره ، وظهرت ملاحم الحيوانات التي ترمز إلى أحداث التاريخ وأحوال الشعب بأحداث الحيوان وأحواله ، والتي خلدت عصوراً بعينها من عصور الأدب كلحمة الثعلب رينار . ونما هذا الشكل من أشكال الأدب ،

شكل المناظرة ، نـمـوا قويا ، واستغل كثيرا فيما قد كتب بعد هذه القصيدة من شعر وقصص أيضاً

أفنعجب بعد ذلك إذا وقف النقاد أمام تلك القصيدة وقفة طويلة لا يتمتعوا بتأمل صورة جميلة من صور معركة القديم والحديث التي تتكرر في تاريخ النقد تكراراً قويا خصب ، ولكن ليحاولوا أيضاً أن يحددوا مدى ما أحدثت تلك القصيدة من أثر في الإنتاج الأدبي قرونا طويلة متتالية ، ثم ما كان لهذا الإنتاج الأدبي من أثر في صبغ عصور طويلة بصبغة خلاقة قوية لوّنت نظر المؤرخين أنفسهم لهذه العصور الطويلة التي سبقت عصر النهضة المعروفة في أوروبا .

سهير القلماري

الديمقراطية في الأمم الديمقراطية

يقلب علينا كثيراً أننا حين نتحدث عن الديمقراطية ، نعلم إلى الأسلوب الذاتي ، فنشرح آمالنا وأمانينا الذاتية ، ونكاد نتعالم عن الواقع ، أو لا نختار من هذا الواقع إلا ما يوافق هذه الآمال والأمانى .. ولذلك يحسن بنا أن نتقيد بما يجرى في الأمم الديمقراطية ، وأن تقتصر على ما نجد فيها ، أى في سويسرا والولايات المتحدة والبنمرك وبريطانيا مثلاً ؛ فنذكر كيف يعيش الفقير هناك ، وما هو حال الصحافة هناك ، وماذا يجرى في التعليم ، وكيف يعالج التعطل ، وكيف تجبى الضرائب إلخ . وبهذا المنهج نتقيد بالحقائق الموضوعية ، ولا تتورط في الأوهام والأمانى الذاتية .

وقبل أن نشرح في « وقائع » الأمم الديمقراطية يجب أن نقشع وهماً عن تاريخ الديمقراطية العصرية وأن نعلمها بتعليقها الصحيح . فكلما « ديمقراطية » إغريقية ، ومعناها حكومة الشعب . ولكن ليس هناك أية علاقة تاريخية بين إغريقية الكلمة وبين مدلولها في العصر الحاضر ؛ فإن الصلة بين الأمم الحديثة وبين الإغريق القدماء مقطوعة . فلا نستطيع أن نرجع بأصول القضاء أو الحكومة أو المجتمع إلى المؤسسات الإغريقية القديمة . وصحيح أنه كان في أثينا ، لا في الجزر الإغريقية ، ديمقراطية . ولكن هذا النظام لا يتسلسل إلينا أصيلاً أو منقحاً . وحتى القرية السويسرية التي لا تزال تمارس الحكم على ما يشابه النظام الأثيني ، لا تتصل بأية صلة بأثينا . وهذه النظم الديمقراطية في الأمم الحديثة تعود إلى أسباب لم يعرفها الإغريق أو الرومان .

وقد ظهرت في القرون الوسطى بأوروبا مدن استمتعت بنوع ما من الحكم

الديمقراطية في الأمم الديمقراطية

الذاتي النيابي في صورة المجالس البلدية ، ولكن هذه أيضاً لا تمت إلى الإغريق بسبب . وإنما كان مرجع نظامها إلى التجار الذين شرعوا يربطون العالم ، بعد نحو ألف سنة من الانفصال عقب الانهيار الروماني ، بروابط تجارية ، مثل جنوة والبندقية في الجنوب ، والمدن الهنسية في الشمال . ولكن هذه المدن في حكمها النيابي لم تكن ديمقراطية ؛ لأن النياية البلدية كانت مقصورة على التجار الأثرياء . أما عامة الشعب فلم يكن لها شأن في هذا الحكم .

ولكن عندما تنتقل إلى إنجلترا نجد تقاليد برلمانية ، وإن كانت هذه التقاليد بقيت نحو ٦٠٠ سنة وهي غير ديمقراطية ، أي أن عامة الشعب لم يكن لها شأن كبير أو صغير في الحكم . ومع أن فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية كانتا تنظران حوالى سنة ١٧٧٠ إلى الحكم البرلماني في إنجلترا وترجو كل منهما أن يكون لها برلمان ، فإن البرلمان الأمريكي عقب ثورة سنة ١٧٧٦ والبرلمان الفرنسي عقب ثورة سنة ١٧٨٩ كانا أبعد في الديمقراطية من البرلمان الانجليزي نفسه الذي اتخذ قدوة .

فاذن إلام يعزى النظام الديمقراطي القائم الآن في أوروبا ؟

هذا النظام الديمقراطي الذي يعم أوروبا وأمريكا هو في حقيقةه انقلاب عضري في السياسة والحكم ، وكان ثمرة انقلاب آخر في الاقتصاد . ومن القواعد التي يجب ألا ننساها أن جميع الظواهر السياسية والاجتماعية والثقافية إنما تتألف وتتكون وفق القواعد الاقتصادية في طرق الانتاج التي تعيش بها الأمة . ففي القرون الوسطى كانت أوروبا إمارات صغيرة ، حيث الأمير ملك أو كالمملك ، وشعب الإمارة عمال عنده كالعبيد ، يزرعون أرضه ويتقيدون بحكمه الذي لا يجد من استبداده سوى القليل من العرف والتقاليد . ومن غير المعقول أن تنشأ حكومة برلمانية ديمقراطية في هذا الوسط الاقتصادي ، ولكن من المعقول أن تنشأ حكومة برلمانية غير ديمقراطية يتولى السلطة فيها هؤلاء الأمراء أو النبلاء أنفسهم . وقد كان هذا حال إنجلترا بين سنة ١٢١٥ حين خضع الملك جون للنبلاء وأمضى « الوثيقة الكبرى » إلى نحو سنة ١٦٠٠ حين تكونت العوامل الاقتصادية التي جعلت الحكم الديمقراطي محتوماً .

فما هي هذه العوامل الاقتصادية ؟

ظهرت في أوروبا عامة وإنجلترا خاصة طبقة التجار الذين صاروا يغارون

من سلطة الأمراء والنبلاء واللوردات ، وصاروا يضعون ما لهم المكسوب إزاء أموال أولئك الموروثة ، ويطلبون حقوقاً في الحكم مثلهم ، بل يطلبون إلغاء الرق الزراعي الذي كانت يستمتع به الأمراء والنبلاء دونهم . ولذلك أدى ظهور هؤلاء التجار إلى الدعوة إلى الحريات وإلى معانٍ من المساواة والعدل تقارب ما تفهمه منها في عصرنا الحديث . وقد نجح هؤلاء التجار في دخول البرلمان الإنجليزي ، وأصبح لهم صوت مسموع ، يخفت أحياناً ويعلو أحياناً ، منذ سني ١٥٠٠ و ١٦٠٠ .

ولكن هؤلاء التجار لم يكونوا من الوجدان أو القوة بحيث يستطيعون تعميم الأفكار والمقائد الديمقراطية ، وكان مع ذلك أثرهم واضحاً في البرلمان الإنجليزي الذي أصبح قدوة للأمم الأخرى . وسبق الإنجليز في هذه الناحية يعزى إلى سبقهم في التجارة العالمية . ووجود طبقة من التجار العالميين ، وحولهم القليل من الصناع ، جعل الحكم البرلماني غيّر مقصور على النبلاء والأمراء واللوردات الوارثين .

أما الحكم الديمقراطي العصري فمرجه إلى ذلك الانقلاب الصناعي الذي أخذ منذ سنة ١٧٧٠ يسير بطيئاً أولاً ، ثم تراكت أمواجه ، فاندفع بقوة المترايدة في هذه السنين الأخيرة . ذلك أن هذا الانقلاب الصناعي قد غير أوروبا وتقلها من الحضارة الزراعية ، حضارة الريف الفقير ، إلى الحضارة الصناعية ، حضارة المدن الغنية . ونحن في سنة ١٩٤٦ عند ما تتأمل هذه الدنيا التي نبش فيها نجد أننا في صميم الأمر لا نشكو القلة في الاقتصاديات العالمية ، بل نشكو الوفز بسبب هذا الانقلاب الصناعي .

وكثير من الباحثين يردّون العصر الديمقراطي الحاضر إلى مبادئ الثورة الفرنسية الكبرى : الحرية والمساواة والإخاء . ويفسرون هذه الثورة بأنها كانت الثمرة ، المرة أو الحلوة ، للتفكير التحريري الذي قام به دانييل وديدرو وروسو وفولتير وغيرهم . كأن التفسير للثورة ذهني .

ولكن ما الذي حمل هؤلاء الكتاب على دعوة التحرير هذه ؟ أو ما الذي جعلهم يحسون هذا الوجدان الجديد ؟

الجواب على هذا أنهم كانوا ينتسبون إلى طبقة التجار والصناع الجديدة ،

يفكرون تفكيرها ، ويحسون عواطفها ، ويعبرون عن كراهتها لطبقة النبلاء ، أو بالأحرى يعبرون عن كراهتها للنظام الاستعبادي الذي كان يجعل النبيل يستبد بعامله الزراعي ويستغله بما يشبه المجان ، في حين كان التاجر أو صاحب المصنع لا يجد من يكفيه من العمال ، أو يجد القليل جداً منهم . وهم لقلتهم يكلفونه أكبر الأجور .

وإذن نفهم أن هذه الدعوة إلى الحرية والمساواة والإخاء في فرنسا كانت تنهض على تبدل اقتصادي قائم ، لم يرافقه تبدل اجتماعي . فكان السخط من هؤلاء الأدباء ، لأنهم كانوا إزاء مجتمع غير متطور يستمسك بتقاليد اجتماعية قد ثبت النظام الاقتصادي الجديد زيفها وضررها . وأدى التصادم بين المستمسكين والمتطورين إلى الثورة . ونجحت الثورة ، وأعلنت الحرية والمساواة والإخاء ، وظهرت الحكومات الديمقراطية التي ترفض الاعتراف بامتيازات النبلاء .

ثم ظهرت المصانع الآلية ، أو بالأحرى تفشت ، فزاد تجمع العمال في المدن وزاد وجدانهم الطبقي . ولم يتنبه وقتئذ دعاة المساواة والحرية إلى أن هذين المبدأين يتناقضان إزاء المصانع الآلية والتاجر العالمية . إذ مادام الناس أحراراً في جمع المال والتوسع الصناعي والتجاري فإنهم لن يتساووا ؛ لأن منهم من يصل إلى القمة في الصناعة أو التجارة ، ومنهم من يبقى هاملاً لا أمل له في الامتلاك . وهنا عقدة أوروبا وأمريكا الحاضرة ، وهي ليست موضوعنا الآن . وهي عقدة اقتصادية : تفاوت اقتصادي قائم فعلي ، مع الاعتراف الاجتماعي أو العرفي أو القانوني بضرورة المساواة .

بعد هذا التعليل للديمقراطية نحاول الآن النظر في واقعها : الديمقراطية في لبابها وروحها تعد حركة « رومنتية » أي حركة الابتداع والتفكير والعمل ، كما أنها حركة الاقتحام للمستقبل والتفاؤل به . وهي من هذه الناحية غير « كلاسية » أي غير تقليدية . ومن هنا التعليل لما فيها من تسامح . لأن التسامح في صميمه يعني أننا يجب علينا ألا نستمسك بالتقاليد إلى حد التعصب أو الكراهة لمن يخالفنا . بل إذا كان هناك تعصب في الأمم الديمقراطية فهو على التقاليد ولا لها . لأن الإيمان العام في الأمم الديمقراطية أن الطبيعة البشرية حسنة لم يفسدها غير الحكومات والعقائد والتقاليد ، وأنه إذا ترك

الناس أحراراً لم تؤدَّ حريتهم هذه إلى الإيذاء والفوضى ، بل أدت إلى النظام والحب . وفي هذا الكلام شطط قد وقع فيه روسو وغيره ولكنه شطط منه يبعث على التفكير ، أو هو الخطأ الذي يهدي إلى الصواب . والتسامح ، والحرية ، والمساواة ، المساواة بين الأفراد والمساواة بين الجنسين ، والعدل : كل هذه الفضائل هي مزاج الأمم الديمقراطية ولكنها ليست كلها حقائق واقعة ، أي إن الأوربي يتجه إليها ، ولكنه لم يوفق لتحقيقها إلى الآن .

حدث قبل نحو ١٤٠ سنة أن البارون همبولت زار جيفرسون رئيس الولايات المتحدة ، فوجد جريدة على مكتبه ، فلما تناولها وجد بها مقالا قد امتلأ بكلمات السباب والقذف في الرئيس ، فنظر إلى الرئيس وقال : كيف تسمحون بهذا السباب ؟ فقال الرئيس : خذ هذه الجريدة وضعها في جيبك ، فإذا وجدت من يشك في حقيقة حريتنا أو حرية الصحافة في الولايات المتحدة فأعطها له . هذا هو المزاج العام في أوروبا وأمريكا . وهو مزاج يجعل النقد مباحاً مستقيضاً في جميع الأوساط الديمقراطية . فليس هناك مشكلة يمنع الجمهور من بحثها . كما أنه ليس هناك وزير أو موظف يعاقب الكاتب على الحملة عليه بكلمات تستبشع في بلادنا . فقد وجدت ذات مرة صحيفة إنجليزية في إنجلترا تصف رئيس الوزراء بأن رأسه رأس خنزير .

وأما عن الحرية والمساواة والعدل فإن المزاج العام يتجه إليها ، ولكن المجتمعات الديمقراطية الأوربية لم تستطع إلى الآن تحقيقها ، لعوامل اقتصادية رسخت وتأصلت جذورها ، وتحتاج إلى مجهودات كبيرة لبلوغ هذا التحقيق .

هذا هو المزاج العام أو الروح العام في الحضارة الأوربية الديمقراطية . فلتنظر الآن إلى السمات العامة في الأمم الديمقراطية . ونعني ما هو واقع تشهد به النظم الحكومية وقوانين المحاكم . . . إلخ .

١ — فأول ما نرى من سمات هذه الأمم أنها جميعها يشرف على شؤونها « برلمان » مؤلف من مجلس واحد أو مجلسين ، وينتخب أعضاؤه انتخاباً نسبياً أو مطلقاً .

٢ — الحكومة الديمقراطية هي في صميمها « لجنة » يؤلفها البرلمان من بين أعضائه . فالحكم في النهاية في يد البرلمان .

- ٣ — يستطيع البرلمان أن يفعل كل شيء ؛ حتى لقد فرض ديسي فرضاً جنونياً كي يثبت هذه القدرة العامة للبرلمان ؛ إذ قال : إن البرلمان الإنجليزى يستطيع أن يسن قانوناً لقتل كل من تكون عيناه زرقاوين . وليس هناك عندئذ ما يظعن في صحة هذا القانون .
- ٤ — بعض البرلمانات مع ذلك لا يجوز لها أن « تفعل كل شيء » . فالبرلمان الأمريكى قد منعه الدستور من أن يسن قانوناً لتقييد حرية الصحف أو لمنع الجمهور من حمل السلاح . وفسر لنكولن هذا المنع بأن من حق الشعب أن يغير ، عند الحاجة ، الحكومة بقوة السلاح إذا لم يستطع أن يغيرها بالوسائل السلمية .
- ٥ — مع وجود البرلمان المركزى للأمة توجد على الدوام برلمانات صغيرة نياية ديمقراطية في المدن والقرى ، وهى تتمتع بحقوق واسعة جداً . يدلك عليها أن المجلس البلدى في لندن مثلاً يتناول ميزانية يجهزها وينفقها في لندن لا تقل عن ميزانية الحكومة المصرية كلها .
- ٦ — المساواة في الحقوق السياسية عامة ، بحيث يستطيع العامل أن يصل إلى منصب الوزارة . وفي أوروبا الآن وزراء كانوا في وقت ماضى لا . كذلك المساواة عامة ، في أغلب الأمم الديمقراطية ، بين الجنسين .
- ٧ — المساواة الاقتصادية غير عامة . ولكن الحكومات الديمقراطية تحاول أن تعالج التفاوت بين الفقراء والأغنياء بثلاث طرق :
- (أ) التأمين الاجتماعى ضد التعطل والمرض والشيخوخة .
- (ب) فرض الضرائب التصاعدية ، أى كلما علا الدخل زادت الضرائب . وهذا غير الضرائب على التركات والأيلولة .
- (ج) تأميم الصناعات الكبرى ، أى إن الحكومة هى التى تدير المناجم أو بعض المصانع الكبرى وتجعلها ملكاً للأمة .
- ٨ — التعليم الابتدائى ، وأحياناً التعليم الثانوى ، عام ومجانى لجميع أفراد الشعب .
- ٩ — نظام التعاون أساسى في جميع الأمم الديمقراطية ، وكذلك نظام النقابات للعمال .
- ١٠ — حرية الرأى في الكلام والخطابة والصحافة والتأليف ، وكذلك حرية الاجتماع ، مقدستان .

١١ — الدين يفصل من الدولة في العادة . ولكن حتى حين لا يفصل تؤيد الدولة سائر الأديان وتخصصها بإعانات مالية . فالحكومة الهولندية مثلا تؤدي إعانات مالية للكنيسة الكاثوليكية والكنيسة البروتستنتية والكنيسة اليهودية على السواء .

قلنا : إن المزاج العام في جميع الأمم الديمقراطية هو مزاج الحرية والمساواة والإخاء . وهذا هو ما تنطق به الصحف ، وما يتعلمه الطلبة في الجامعات ، وما يقوله الكهنة في الكنائس . ولكن منطق الحوادث يختلف عن منطق الكلام بل يناقضه . لأن طرق الإنتاج الصناعي منذ حوالي سنة ١٧٧٠ ، بل كذلك طرق الاتجار العالمي ، قد أوجدت التفاوت الاقتصادي ، وهو تفاوت ليس له شبيه أيام القرون الوسطى .

ومن هنا نجمت الدعوة الرجعية أحيانا بين بعض الكتاب الذين يدعون إلى العودة إلى نظم القرون الوسطى . وهذا حنين سخيف . لأن سذاجة العيش في تلك القرون قد تغيرت إلى أساليب معقدة تعيش بها الأمم في عصرنا ولا تستطيع النزول عنها ، ولا يمكن أن نرد عقرب الساعة ألف سنة إلى الوراء .

وقد كانت الحرية والمساواة ، أي الدعوة إليهما ، أمام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩ معقولة ، أو بالأحرى لم يكن أحد يستطيع أن يبصر عواقبها ؛ لأن طرق الإنتاج كانت لا تزال على شيء من السذاجة ؛ إذ لم يكن المصنع ، مهما تضخم واتسع ، يحوى أكثر من عشرة أو عشرين من العمال . فلم يكن هناك خوف من التفاوت العظيم بين الأغنياء والفقراء . ثم إن شبح التعطل لم يكن يشخص في خيال المفكرين . أما الآن فإن بعض المصانع ، بقوة الآلات العظيمة ، تستخدم عشرات الآلاف من العمال ، وأحيانا تقفل هذه المصانع أبوابها فيتعطل مئات الآلاف بل الملايين من العمال .

هذه هي العقدة التي تواجهها جميع الأمم الديمقراطية في عصرنا . ولهذا السبب اتجه الديمقراطيون إلى اليسار ، وأصبح في كل أمة نواب يساريون وصحافة وتفكير يسارى .

وقد نشأت كلمة « يسارى » من الوضع البرلماني للنواب ؛ فإن المعارضين في المجالس النيابية يقعدون عن يسار الرئيس . ويقعد الحكوميون عن يمينه .

الديمقراطية في الأمم الديمقراطية

فاليساري معارض ، والدعوة اليسارية هي مجازاً ، دعوة إلى التغيير والتطور .
وتختلف اليسارية في الأمم من حيث الأسلوب الذي تتخذه . فإن مشروع يفرديج
يعد في بريطانيا مشروعاً يسارياً ، يعالج التفاوت الاقتصادي بالتكفل بكل
شخص من يوم ميلاده إلى يوم وفاته ، بل قبل ميلاده ؛ لأن أمه وهي حامل
تحصل على معونة تتيح لها البقاء بالبيت نحو شهر قبل الولادة . ثم تتعهد الدولة
هذا المولود بالتغذية والتعليم ، ثم بالعمل والإعانة في التعطل ، والتمريض في
المستشفى ، والإعانة في الشيخوخة .

ثم هناك اليسارية التي تدعو إلى تأميم المصانع والمناجم والمزارع ، أي
تمليكها للدولة . فإن المستر تشرشل ، على الرغم من أنه محافظ ، عاش طول حياته
السياسية يدعو إلى نزع الأرض من المالكين وتسليمها إلى الفلاحين .
والحكومة البريطانية في الوقت الحاضر تشتغل بسن قانون لنزع المناجم من
المالكين وتسليمها للدولة .

ومن قبل التأمين الاجتماعي ، ومن قبل التأمين ، كانت جميع حكومات
أوروبا الديمقراطية تأخذ بالضرائب التصاعدية للتخفيف من التفاوت الاقتصادي .
وربما كان من المفيد أن تقارن بين أقل الحرف وأعلى الحرف كسباً في الدولة
الديمقراطية ؛ لأن الدولة تحدد الأجور والرواتب بما يتفق وحال المجتمع .
والتقدير هنا بالجنيه الانجليزي :

الدولة	الكناس في المجلس البلدي	الوزير
إنجلترا	١٤٥	٥٠٠٠
البنمرك	١٥٠	٩٠٠
السويد	٢١٠	١٣٠٠
سويسرا	٢٢٣	١٦٠٠

وهذه المقارنة تدل على أن التفاوت عظيم . ولكنها أيضاً تدل على أنه ليس
في الأمم الديمقراطية ذلك الفقر المدقع والبؤس الأسود الذي يعيش فقراء آسيا
وأفريقيا فيه .

مسودة موسى

للحقيقة والتاريخ

رسائل الزهاوى

ترجع صلتى بالشاعر الفيلسوف المرحوم جميل صدقى الزهاوى إلى أكثر من خمس عشرة سنة مضت ، وكنت يومئذ ذلك الفتى اليافع الذى أقبل على دراسة الأدب العربى شعره ونثره — والشعر خاصة — بنهم وشغف بالغين كى يتروا منهما زاده المرجو ، وخرج من تلك الدراسة حردان يائساً ، فالمثل العليا التى يتعشقها ، والآفاق الواسعة التى يتشوق إليها ، والآجواء المعطرة التى يبتغى أن يخلق فى سماواتها ، أضحت أمامه كلها هباء فى هباء . أجل ! فهذا الشعر الجاهلى بالرغم من حيويته المتدفقة وصياغته البليغة ، تعوزه الصبغة الإنسانية ، أو بعبارة أخرى « العالمية المتحررة » المنطلقة من عقاها ، والتى لا تتقيد بهذا الأفق الضيق ولا تستمع إلى تلك الهمسات الخافتة ، ولا تنحاز جانب ذلك الشعاع الضئيل . . .

على أن من أفضل حسنات هذا الشعر تصويره الصادق للبيئة العربية — بيداوتها وبساطتها — وبما يكتنفها من خشونة وبأس ، ويعتورها من قسوة وألم ، وما طبعت عليه من روح المغامرة والفروسية الغارمة والشجاعة المنقطة النظير . . .

وهو — بعد القرآن الكريم — فى مواطن كثيرة مرآة صادقة للفحولة التى تتسم بها اللغة ، والعبقرية التى بوأتها الصدارة بين لغات العالمين . . . واعتقدت يومئذ — وما زلت أعتقد — أن هذا الشعر وحده مع هذه الخصائص ، لا يشبع شهوة الجاشع النهم ولا ينقع غلة الصادى .

ثم واضأت الدرس ، فرأيت أن الإسلام قد رقق من حواشى هذه الصحائف القلينة ، إذ صاغت نسائمه العذاب وجوه الشعراء ، فضفت نفوسهم وسمت أرواحهم ، وتحاوت أصواتهم المدوية وأهازيجهم الجميلة مع صوت الحضارة

الجديدة، فأعجبت بما ابتدعه من رائع المعانى وجمال التصوير، وارتياحهم هذه
المجاهل التى لم يفتن إليها الأقدمون . . .

ثم جاء شعراء العصر المباسى، فكانوا أكثر افتدائاً فى الخلق وتمجيداً فى
المعانى. وذلك من الطبيعى، لتأثرهم بثقافة الإغريق من ناحية، ولما أمدتهم به
الحضارة من أفانين الحسن وشتى ألوان الجمال من ناحية أخرى.

وأعجبت بهؤلاء الفحول — حملة الشعل — الذين أضفوا على اللغة العربية
حللا قشبية جميلة، وكنت أكثر إعجاباً بأبى تمام والبحترى وابن الرومى
وأبى نواس.

ولكننى خرجت من دواوينهم غضبان أسفا. ذلك لأننى رأيتها قد اكتظت
بشعر المديح والهجاء. أما الشعر الفنى الذى يرتفع بالقارئ إلى منازل المثل العليا
ويحمله على أجنحة الحب إلى سماء الحقيقة ومناسك الجمال، فلم أر له ذلك الأثر
الذى أنشده وأبتغيه.

ثم نظرت أمامى فلم أجد غير شوقي وحافظ والمطران والزهاوى والعقاد،
وأن الأول وهو الذائع الصيت لم يأت بمجديد رغم تلك الأحقاب الطوال التى
سلكتها الشعر العربى؛ إذ أنه لم يك يومئذ قد ابتدع شيئاً من مسرحياته
الشعرية الخالدة، بل ظل خالداً فى أحضان الشعر التقليدى — الرثاء والمديح
والهجاء — ما كفاً عليه ينسجه احتذاء وتقليداً للشعراء القدامى. وكذلك
الشاعر الاجتماعى حافظ إبراهيم كان هو أيضاً ينافس المرحوم شوقي فى زعامة ذلك
الشعر التقليدى فصدت عنهما، واستوقف ناظرى ذلك التجديد الرائع الذى
أخذ بزمامه الزهاوى ومطران والعقاد . . . فدواوينهم لم يشبها المديح ولا الهجاء
— اللهم إلا فى القليل النادر — ونظراتهم إلى الشعر نظرات فنية بحتة. وإن
فى شعرهم ذلك المزيج العجيب من الحيوية الدفاقة والإنسانية الشاملة — رغم
ضعف نسيجهم فى بعض الأحيان — التى تتسم بالصدق ومحيطها الجمال من
كل مكان.

فأخذت فى دراسة آثارهم، وخرجت من هذه الدراسة راضياً مطمئناً
موقناً بأن هؤلاء الشعراء أحدثوا حدثاً جديداً فى الشعر العربى. وكان لزاماً على
أن أسجل هذا الإعجاب وذلك التقدير، فاعتزمت أن أنشئ عن كل منهم كتاباً

رسائل الزهاوى

خاصا ، فبدأت بالزهاوى واتصلت به عن طريق « الرسائل » ؛ إذ أننى لم أجد وسيلة لتحقيق حياتهِ غير ذلك ، ولبعد الشقة ؛ فكانت هذه الرسائل العجيبة أو بعبارة أخرى « التحقيقات العلمية » الفريدة التى جاد بها على ذلك الرجل الكريم عن طيب خاطر — فى بساطة ودمائة خلق — مما جعلنى أنشر الفصول الإضافية عن حياته وكفاحه وجهاده فى سبيل لغة الضاد الخالدة وفى سبيل وطنه العزيز — قبل رحيله إلى الدار الآخرة — بالسياسة الأسبوعية والمقتطف الأغر .

وهأنذا أبدأ بنشر رسائله — وقد مضى على وفاته نحو عشر سنوات — توطئة لنشر كتابي عنه حسبما أوصانى . وهى بما استنفدت من مجهود تؤلف قسما هاما من هذا الكتاب . وإنها اليوم وهى أمانة فى عنقى أضحت يوفاة صاحبها ملكا للعالم العربى وقلادة جميلة فى عنق الحقيقة والتاريخ .

أحمد محمد عيسى

*

صديق الأستاذ

سلاما واحتراما ، وبعد فقد قرأت فى السياسة الأسبوعية أول شطر من ترجمتك لحياتى قبل إهدائك إياها إلى فأننا أشكر لك جميل صنعك وتبحرناك كل هذا التعب . وقد رددت على أسئلتك أمّا « الكائنات » فما عندى منها غير نسخة وهذه لا أفارقها وعسى أن تحصلوا على نسخة منها فى مطبعة المقتطف فإنها طبعت فيها وقد جعلها أصحابه قبل سنوات هدية لمشركيهم وكذلك لا يهون على إرسال « الأوشال » و « التزغات » فإنهما مخطوطتان وليس عندى غيرهما .

أما قصائد الأوشال فأكثرها منشور فى السياسة الأسبوعية والرابطة الشرقية والعصور والدهور والمعرفة والإصلاح (تصدر فى أميركا الجنوبية) وكذلك ما عندى من المحاضرات التى كنت ألقينا على تلامذة الجامعة فى الآستانة غير نسخة واحدة باللغة التركية ولا يسعنى مفارقتها .

وأما « ثورة فى الجحيم » فعندى نسخة منها مطبوعة فى مجلة الدهور وعندى المسودة فأرسلت إليك النسخة المطبوعة وقد تكون فيها أغلاط .

مطبعة لا تخفى على مثلك ، وأرسلت « الجاذبية وتعليلها » وأرجو أن تعول
فى هذا التعليل على « المجل » والديوان الذى طبع فى مصر باسم « ديوان
الزهاوى »

أما ما كتب عنى المستشرقون فمعظمها نشر فى « لغة العرب » للاستاذ
الأب « أنستاس » وأما ما كتبتة المجلات فى مصر وسورية وأميركا فكثير ،
غير أنى لم أحفظ جميعه والمحفوظ منه ضائع فى ركام من المجلات والجرائد
وصناديق مملوءة من الأوراق وقد رسب عليها الغبار فلا أستطيع أن أتصفحها
فلا تكلفنى مالا أستطيع .

ولك أن تتصرف فى رواية « ليلي وسمير » من دون أن تطلعنى عليه .
وقد بلغنى أن مستشرقاً كبيراً فى جنيف يشتغل بترجمة حياتى ، وقد عزم
على أن ينقل أحد مؤلفاتى إلى اللغة الألمانية (لعله ثورة فى الجحيم) وقد طلبها
منى بواسطة أحدهم فأرسلتها إليه مع قسم من مؤلفاتى ودواوينى ، وقد نقل
أحد مستشرقى الألمان أبياتاً إلى الألمانية شعراً وتكلم عنى مطرباً فى مجلة
ألمانية له وأهدى إلى العدد .

وقرأت قبل سنوات مقالا رئيسيا فى أكثر من صفحة من جريدة « الرائد »
الأميركية يكبر شأن ديوانى « الباب » ويرجحه على دواوين غيرى ويقترح
على الحكومات العربية أن تدخل تدريسه فى مناهج التعليم لمدارسها وتعدد
فوائده ذلك .

وقرأت فى إحدى أعداد السياسة الأسبوعية قبل سنتين تقريرا مقالا
للكتاب الكبير محمود عزت موسى يقول فيها « أنا لا أفضل شعر جوته شاعر
ألمانيا على شعر الزهاوى » وقرأت كذلك فى السياسة الأسبوعية سلسلة مقالات
لأحد أدباء الإسكندرية يطرى فيها شعرى فوق ما أستحقه .

وقرأت قبل سنتين أو أكثر مقالا للكتاب النابغة الدكتور طه حسين فى
« المجلة الجديدة » للاستاذ سلامة موسى يقول فيه ما ملخصه « إن شوقى
وحافظا من شعراء بنى العباس وإن المجددين للشعر العربى ثلاثة العقاد والزهاوى
وخليل مطران حين كان يعنى بالشعر للعقاد وخليل فى معانيهما دون لفظهما
والزهاوى فى ألفاظه ومعانيه ويلدنى معانى العقاد كما يلدنى شعر كبار الشعراء
فى فرنسا وانكلترا وكما يلدنى شعر الزهاوى وأرى الفرق عظيم بين اللفاظ

الزهاوى وألفاظ العقاد وبين معانيها « فقد رجحنى يومئذ على جميع شعراء العرب فى عصرى وجعلنى المجدد الوحيد الذى حسنت ألفاظه ومعانيه ثم إنه بعد وفاة شوقى نشر مقالا فى الصحف قال فيه إن زعامة الشعر التقليدى بعد شوقى وحافظ انتقلت إلى بغداد يتنازعها الزهاوى والرصافى .
وقرأت قبل ذلك مقالا للاستاذ العقاد يتردنى فيه من حظيرة الشعراء والفلاسفة .

وتأتينى فى كثير من الأحيان من مصر والسودان وتونس وسورية كتب يبالغ أصحابها فى إطراء شعرى فقد جعل بعضهم ديوانى « الباب » توراة المحدثين وإنجيلهم وقرآنهم وقد أهدى إلى بعض الأدباء فى السودان صولجان الشاعرية مصنوعا من سن الفيل ومنقوشا عليه اسمى .
وهناك كتب تأتينى وأكثرها من وطنى بغداد مملوءة بالسب والإهانة والتهديد وقد كتب أحدهم فى مجلة له قائلا « أما الزهاوى فلا شئ » .

يقولون لا شئ وهم يرجوننى وهل يستحق الرجم من هو لا شئ

وكتب أخيرا أحدهم فى مجلة « أبولو » أن ليس فى شعر الزهاوى الموسيقى التى هى فى شعر شوقى .

ولا تظن أنى أنزعج من مثل هذه الكتابات فإن الأذواق مختلفة والأدباء يقدرون الشعر بحسب مستواهم من الأدب .

ولقد أرسلت إليك مجموعة من الأبيات التى ذهبت أمثالا أو كادت لكثرة ما يستشهد بها التقطتها من ديوانى « الباب » و « الأوشال » وشيئا قليلا من شعرى الغرامى والعاطفى وكنت أود أن أرسل إليك ما أختاره من شعرى الوصفى والفلسفى والاجتماعى والسياسى ولكن هذا يكلفنى تعباً لا أقوى عليه اليوم ، واسمح لى أن أقبل عينيك النافذة .

بميل صرعى الزهاوى

بغداد فى ١٦ شباط سنة ١٩٣٣

ملاحظة : إن أجوبتى عن أسئلتك كتيبت مراحمأ ذلك كرتى الواهنة ولو كنت كما كنت قبلا لا تبت اللواضع ولكن للشيخوخة والمرض عذران .

حضرة الأستاذ

نحية واحتراما . وبعد فقد ثببتنى أشغالى الفكرية التى كنت قد باشرت بها قبل وصول كتابك إلىّ عن الإجابة على أسئلتك المرهقة وقد كان حتما على أن أنظم خمس قصائد مطولة فى مواضيع مختلفة فنظمتها وكانت العاقبة أنى مرضت أسبوعا فلم أعد أصلح لنظم أو الكتابة وحبذا لو كنت تصرف النظر عن توجيه أسئلة تتعلق بماضى حياتى وقد نسيت أكثر حوادثه وأرجو أن لا تتكرر هذه الأسئلة . فإنى أجد فى الجواب عليها عنتا وأنا ذلك الشيخ الذى يشبه جدارا يكاد ينقض . أما وقد أبليت فإنى محبيك فى إجمال عن أكثر أسئلتك فى كتابى هذا .

لم تبق لى والدة ولا والد حتى أسأل منهما ما يتعلق بطفولتى فقد مانت والدتى قبل أكثر من ٤٥ سنة ووالدى قبل ٤٠ سنة ، ولا هناك عجوز تعرف شيئا من تلك الطفولة البريئة المتمردة فى وقت معا .

كانت والدتى تعيش مع أولادها فى بيت منعزل عن بيت والدى فترعى والدى من أحضانها دون إخوتى وأخواتى وأخذ على عاتقه أن يربى تربية خاصة متبعاً هواه وكان هواه الأدب وكان شاعراً فى الفارسية والعربية معاً غير أنه مقل فيهما ، ومن شعره فى العربية قوله :

لا تدعُ فى حاجة بازاً ولا أسداً الله ربك لا تشرك به أحداً .

(يريد بالباز عبد القادر الجبلى وبالأسد عليا بن أبى طالب كما يلقبهما به الجمهور فى العراق) .

وأذكر أنه كان فى طفولتى (ولم تتجاوز سنى يومئذ أربع سنين) يعدنى بدرهم إذا نظمت شطراً واحداً من الشعر موزوناً وإن لم يكن له معنى وقد كسبت الجائزة مرارا فكان فى ذلك جذل والذى أما جذلى أنا فكان فى الحلوى التى كنت أشتريه بذلك الدرهم .

وأذكر أنى فى ليلة من ليالى الشتاء القرة كنت فى غرفة والدى فقال لى إلبس يا ولدى عباءتك فإنى أخاف عليك البرد فقلت له وأنا فى السن التى ذكرت بها

« يا أبى إنى لابس للغرفة فمن أين يتسرب البرد إلى » فكان جوابى هذا مؤيداً لما كان يظنه فى من ذكاء وسبباً لفرحه .

ولم تكن للبيئة العلمية التى ولدت فيها فضل لخلق الأدب فى وما ساعد مواهبى على الظهور — إن كانت لى مواهب — سوى ما كنت أسمع من والدى وكنت شديد الاختلاط به أنام فى غرفته الخاصة بجنبه وأنظم الشعر تحت لحافى قأنبه فى كل ليلة مرارا من رقاده أسأله عن وزنه وصحة تركيبه فكان يصلح لى ما يراه مختلا وكان يحملنى على حفظ أحسن الشعر قائلا إذا أكثر من استظهار الشعر الجيد فإن شعرك سوف يكون من الجودة بمنزلة ما استظهرته ، ومن نصائحى لى عند ما شئت فاستطعت نظم القصائد قوله إنك إذا فرغت من نظم القصيدة فاصقلها ثم اتقدها كأنها لغيرك مجردا تفك من العاطفة فإذا لم يرقك من أبياتها شيء فاحذفه وإلا أفسد عليك الباقي الجيد وأنا إلى اليوم أحمل بنصيحته وأول ما نظمت الشعر فى الفارسية ثم انتقلت إلى العربية حتى شاع أننى أجيدته فى كلتا اللغتين .

وبلغنى وأنا مرأوق أن للكثيرين يعتقدون أن هذا الشعر الذى أنسبه إلى نفسى هو لوالدى ينحلى إياه فذكرت ذلك له جردان متبرما فضحك قائلا يجب أن تفرح بدل التبرم فقد بلغ شعرك درجة أن لا يصدق الناس أنه لك فسرى عنى وكان يقول لى وأنا ابن العشرين إنك اليوم أشعر منى ولا أدرى ماذا سوف تكون فى المستقبل عند ما تبلغ الكهولة وتتوسع فى العلم واللغة . وقد تأثرت فى شبابى بشعر المتنبى وشاعر الترك يومئذ « كمال » بك .

ذهبت إلى الكتاب فى الخامسة من سنى أو الرابعة وبقيت فيه بضع سنوات بليدا لا أتقدم ولا أهتم بغير اللعب أو نظم الأشطر الفارغة من المعانى بعد أن وجدتها وسيلة لنيل الدراهم الموصلة إلى الحلوى ، ولكنى بعد ما انتهيت من جزء « عم » أخذت أخطو خطوات واسعة فتعلمت قراءة جميع أجزاء القرآن الباقية فى شهر واحد ، ولما شئت شرعت أقرأ على بعض العلماء من تلامذة والدى مبادئ الصرف والنحو والمنطق وشيئا من البلاغة . فلما رأيتهم لا يشبعون جسمى ولا يقنعونى بأجوبتهم على أسئلتى تركتهم ورجعت إلى والدى وقرأت عليه ديوان المتنبى وتفسير البيضاوى وشرح المولف .

وكان يجتمع لى فى شبابى عدد من الأدباء والشعراء تتذاكر الشعر وتختلف

فى معنى بيت أو بيتين فنذهب إلى والدى جاعلين إياه حكماً فيما اختلفنا فيه فكان دائماً يستصوب ما أذهب إليه حتى قال لى أحدهم إنه أبوك يريد ليرفع من شأنك فقلت انسبوا المعنى الذى ترونه إلى والمعنى الذى أراه إلى أنفسكم فإذا استصوبنى كنتم فى دعواكم من الصادقين فلما ذهبنا إليه وبسطنا أمامه ما اختلفنا فيه استصوبهم ووبخنى على خطئى فكان ذلك داعياً لسرورى وفشل المدعين .
وأول مجلة لذتى مطالعتها هو الأجزاء الأولى من المقتطف ، وأول الكتب فى العلوم العصرية هو مؤلفات فاندريك فى الفلك وغيره وكتابان ضخمان فى الفسيولوجيا والتشريح مصوران للدكتور ورتبات ، وكتب أخرى تركية كلها فى العلوم العصرية .

أما الكتب التى لا يمكننى اليوم أن أستغنى عنها فهى كتب اللغة المطولة ولا يلذنى شىء كقراءة الروايات المترجمة إلى العربية أو التركية .

أنا لا أعرف لغة غربية لأعرف أى الشعراء أو الكتاب فى الغرب هو الأكبر غير أنى قرأت بالتركية ترجمة البؤساء لفكتور هوجو فى مجلدين ضخمين فأعجبتنى وأبكتنى وقد قرأت مئات من الروايات المترجمة إلى العربية والتركية فكان بعضها فى منتهى الجودة ، ولا أتذكر الآن أسماء مؤلفيها غير أناتول فرانس وشكسبير وجوته والكسندر وتولستوى وقليل غيرهم .

وإذا كنتم فى سؤالكم « كيف تشعرون نحو كتبكم وما أحبها إليكم بنوع خاص » تريدون مؤلفاتى فأحب منها « الكائنات » فإنها باكورتها وإن كانت عبارتها ضعيفة وأحب « المجلد مما أرى » لأنه يشتمل على خلاصة ما أذهب إليه وأحب من دواوينى « الأوشال » وهو ديوانى الأخير الذى لم ينشر منه إلا قصائد هنا وهناك وأحب خاصة قصيدتى « ثورة فى الجحيم » .
والأفضل فى هذه الحياة هو العلم والشعر ثم القصة .

أما مكتبتى فهى هزيلة ليس فيها إلا الكتب التى تهدى إلى من الخارج وآخر قد اشتريتها بعد رجوعى من مصر سنة ١٩٢٤ وكنت قبل ذهابى إليها قد بعث جميع كتبى إلا النادر منها لضيق ذات يدي يومئذ .

وأما وضعى فى مطالعتى فإنى أجلس فى الليل فوق سريرى أمام أكوام من الكتب التى أحتاج إليها مصفوفة فوق منضدة طويلة فى جنب سريرى الذى أنظم عليه وقد أطلت على الكهروباء بقوة مائة شمعة معلقا فوق رأسى بيكرة أنزله

وأصعده بها واقراً في الغالب مستلقياً على ظهرى على أن هذا الوضع يتعب عيني .
وكل سامعنى محبوب إلى فيها المطالعة إذا عثرت على رواية مترجمة جديدة أو
مجلة فيها مقالة فلسفية .

وأكتب شعري أولاً بقلم الرصاص ثم أصقله ثم أثبته في مجموعة ديوانى
الآخر ويحلولى قرضه في الليل ولكننى أنظمه في كل مكان وإن كنت في
مجلس تتحدث فيه ، وإذا شرعت أنظم قصيدة عن دافع في نفسى فأنى أكملها في
ليلى ثم أصقلها في يوم أو يومين ، وأحسن قصائدى « ثورة في الجحيم » كما
قدمت ، وهناك قصائد أخر بعضها منشور في ديوانى « الباب » وبعضها
موجود في ديوانى الآخر « الأوشال » كقصيدة « على قبر ابنتها » وقصيدة
« نأى » (هى ترنيمه للتنويم) وقصيدة في « ليلة هنا » وقصيدة « إلا أنا
وحدى » وقصيدة « اذكرى » وقصيدة « دمعى » وقصيدة « إلا هوالك »
وقسم غير قليل من رباعياتى عدا قصائدى الفلسفية .

وأنصح الشعراء أن ينظموا عن شعور وأن يتجنبوا المبالغات وربما كان
ذلك لأنى أميل إلى الحقيقة والخيال الذى لا يبعد عنها كثيراً وأن يتجنبوا
الاستعارات البعيدة .

وأرى أن الغالب من شعراء مصر والعراق مبالغون وهذا الطرز من الشعر
لا يكون عن شعور .

والفرق بين شوقى وحافظ كبير فإن شوقى أكثر ابتكاراً وأبعد تصرفاً وهو
يجيد فى أكثر أبواب الشعر فى حين أن حافظاً أكثر ما يجيد فيما يتعلق بالعاطفة
وأرى أن شعر شوقى فى السنين الأخيرة أخذ يتجدد ولذلك تغير رأيى فيه فلا
أنتقده إلا على مبالغاته التى لا صلة لها بالشعور ويعجبني منه أسلوبه الخاص به
ولكل شاعر فخل أسلوب .

وأما الفراغ الذى تركه حافظ وشوقى فسوف تسدّه الأيام .
وكنتم أجد فى حكم الأتراك غضاضة إلى عهد الدستور وكنتم من معارضى
استبداد الملك الجبار عبد الحميد ، ولظمت القصائد الجمّة أثير بها الشعب عليه وقد
سُجنت عليها فى الآستانة ثم أرسلتُ مخفورة إلى بلدى ولكن الأتراك فى عهد
الدستور كانوا يحترموننى إلى أن طغى الاتحاديون فأثروا أعمالاً لا تتفق والعدالة
وكم لى من وقفة فى البرلمان العثمانى أذود فيها عن حقوق العراق والعراقيين .

ولم أكن يوم عينتني حكومة عبد الحميد عضواً في مجلس المعارف ببغداد إلا شاباً يتظاهر بالاستياء من وضع الحكومة فلعلهم أرادوا بتعييني أن يسكتوني ولما ذهبت إلى الآستانة واختلطت بالترك الفتيان أبعدت في التجاهر ونشر القصائد بأسماء مستعارة في أمهات الصحف المصرية ، وقد ذهبنا في حرب الإنجليز والبوير جماعة من الترك الأحرار تتمنى للإنكليز الفوز في محاربتهم وذلك بقرار من الحزب المناوىء لعبد الحميد يريدون بذلك أن يعرضهم الإنكليز في طلبهم الدستور وكنت نظمت لهذه الغاية قصيدة أمدح فيها الإنكليز وأشدو بقوة أسطولهم وقد نشرت في أول ديوان نشر لي « الكلم المنظوم » وإلى اليوم يعيبني ناقدوى على هذه القصيدة ولكن هل كنت يومئذ أعرف أن ستحدث حرب عالمية ويحتل الإنكليز العراق هذا لم يكن يخطر في بال أحد ولم تكن في بغداد يومئذ كتلة وطنية .

ولم أدرس القانون إلا بعد أن عينتني الحكومة التركية عضواً لمحكمة الاستئناف ثم في عهد الدستور أستاذاً للقانون المدني في كلية الحقوق ببغداد بعد أن كنت أستاذاً للفلسفة في الجامعة بالآستانة فجمعت عند تعيينها إياي مدرساً في كلية الحقوق ما أحتاج إليه من الكتب التي تتعلق بدرسي وتوسعت فيه إلى حد وكلية الحقوق هذه كانت يومئذ أعلى مدرسة في بغداد يدرس فيها كل ما يتعلق بالحقوق .

ولم تكن لي حرفة أشتغل بها في شبابي إنما بعده فكانت حرفتي التدريس في الجامعة والكلية وغيرها من المدارس فقد درست في عهد الاحتلال معلمي المدارس من المخرجين من دار المعلمين ولم أمل في حياتي كلها إلا إلى الفلسفة والأدب . وحبذا لو اعتمد شبان الشرق العربي على أنفسهم في طريق الحياة ولم يتهافتوا على وظائف الحكومة . أما القوانين التي ترجتها إلى العربية عندما كنت رئيساً للجنة « تعريب القوانين » فعددها ١٧ قانوناً غير أنني لا أتذكر منها إلا قليلاً . وأخال أنني أميل إلى دراسة قانون العقوبات أكثر من القانون المدني فإن فيه المجال للفكر أوسع وهو أحوج إلى الإصلاح من القانون المدني فلا أعتقد أنه يصلح للمستقبل الذي ستتغير فيه العادات ويتطور المجتمع تطوراً لم يكن في الحسبان .

وإني أقضى يومى في إعادة الزيارة للذين يزوروننى من أصحابي الذين هم أقراني

وكثيراً ما أجلس فى المقهى الذى يجتمع فيه الشبان الذين يتزعون إلى الأدب فيحيطون بى وقد أصحح لبعضهم قصيدة له يعرضها علىّ وأرجع ظهراً إلى دارى التى بنيتها جديدة وهى محاطة بمحائى وأجلس مساء فى حديقتى فيزورنى من يزورنى وفيهم المتعلم والشاعر والمنادم والسائل يريد حلاً لمشكلة علمية عنده . والجانب الخاص بحياتى المنزلية هو أنى إذا لم أكن فى يومى قد ثارت فى آلامى العصبية أطالع ثم أطالع وأتقل من كتاب إلى كتاب كأنى عصفور يتزى من غصن إلى غصن فى روضته وأكثر ليالى أقضيها فى مطالعة وجه السماء الحافل بالنجوم والتفكير فيها إذا كان الفصل صيفاً وأما فى الشتاء فأحب أنواع التسلية عندى هو مطالعة الروايات المترجمة إلى العربية أو التركية .

وأما الأبحاث العلمية التى أكتبها فليست كما تظن جافة فى نظرى وقد أعتمد على المراجع أثناء كتابتى غير أن أكبر مرجع لى هو ذا كرتى فإنى وإن كانت ذا كرتى فى المسائل الاعتيادية ضعيفة لا أنسى أكثر مآثراته أو طالعته فى شبابى وكهولتى فى المطالب الفلسفية واليوم ذا كرتى أضعف منها فى شبابى وكهولتى غير أن قوة التفكير فىّ لم تضعف ضعفاً محسوساً . وأحب الروايات التمثيلية إلىّ هو التراجيديا .

وحضرت مامثلته السيدة فاطمة رشدى والأستاذ يوسف وهبى فى بغداد من الروايات فأبكاني بعضها وأحب السينما كثيراً لأنى أشاهد فيها مناظر الغرب وأعرف من رواياتها عادات القوم فهى تقوم منى مقام السفر .

والناس فى بغداد مفرط ومفرط فمنهم من يقدمنى على كل شعراء العرب ومنهم من يجعلنى دون جميعهم أما أنا فلا أفرح بمدح المادحين ولا أحزن لدم القادحين غير أنى أكره المنافقين الذين يمدحوننى فى وجهى ويذموننى وراءى وأبغضهم إلىّ من ينقدنى حباً بالشهرة وأكثر مآثراته من النقد لى لم يكن تزيهاً ولا قائماً على أساس من العلم والمنطق بل على الأكاذيب والمفتريات والناس المتأدبون فى العراق فوضى فقد تقرأ جريدة تصعدنى إلى مافوق منزلى وتقرأ فى اليوم الثانى جريدة أخرى تنزل بى إلى الدرك الأسفل ويختار أحدهم بيتاً من دواوينى جاء تمهيداً لبيت وراءه ويجعله من بين ٢٠٠٠٠ بيتاً حجة على أنى لا أحسن النظم ويقتضى آخر فينسب كل ما هو من عملى أنا إلى غيرى يزيد بذلك إفاظتى كقولهم إن قلانا (يريد غيرى) هو أول من علوم الاستبداد بشعره وأول

من نظم الشعر القصصى وأول من دافع عن المرأة كذبا وبهتاناً وهو يدري أنى الذى قاومت استبداد عبد الحميد قبل أربعين سنة ونظمت الشعر القصصى قبل ٣٥ سنة ودافعت عن حقوق المرأة قبل ثلاثين سنة وقد سُجنت فى الآستانة من أجل القصائد التى نظمها طعنًا فى حكومة السلطان الجبار عبد الحميد لاستبدادها وعزلت من وظيفتى فى كلية الحقوق بسبب دفاعى عن حقوق المرأة وثق أنا الذى نظمت قصة « امرأة الجندى » قبل أكثر من ثلاثين سنة يوم لم يكن فى بغداد شاعر يصرف الشعر فى إصلاح المجتمع .

كل هذا وأنا ساكت لا أتزل إلى الرد على أمثالهم فأمر باللغو كما يمرّ الكرام وأقول إذا خاطبنى الجاهل سلاماً .

وأكثر الذين يعادوننى فى بغداد هم من الشعراء أو أصحابهم يسأل رأيى فيهم شاب متعلم فانزلهم منزلتهم فيسمعون ذلك ويناصبوننى عليه . وما زالت نهضة العراق ضيقة النطاق .

وأما أبطال النهضة المصرية فشوقي وحافظ وسماعيل صبرى والأستاذ الأكبر لطفى السيد والفيلسوفان شبلى شميل ويعقوب صروف والدكتور طه حسين والدكتور هيكل والدكتور عنانى والدكتور منصور فهمى والمرحوم ولى الدين يكن وفى مقدمتهم الامام عبده والفيلسوف جمال الدين الأفغانى وغيرهم . وقد أحببت فى أول شبابى جارية شركسية عرضت للبيع واستحييت أن أخبر والدى بحبى لها وكانت هى لا تعرف أنى أحبها وأحببت فى الآستانة يهودية أسبانية عذراء وكانت تحببى مثل حبى لها وتزورنى فى دارى مع أبيها فلما سجنّت بكى علىّ وربما كان لهذا الحب تأثير كبير فى شعرى .

وقد تزوجت قبل ٤٥ سنة بعد وفاة والدى بقرينتى النجيبة السيدة زكية وهى من عائلة تركية وقد قضينا العمر فى حب ووثام ولم تلدى وربما كنت أنا السبب . وكانت العادة أن تختار الأم أو الأخت الزوجة للأبن أو للأخ وهذه الطريقة كثيراً ما تفشل إلا أنها لم تفشل معى والمثل الأعلى للزواج أن يختار كل من الزوجين صاحبه بعد صداقة بريئة ومعاشرة غير قصيرة بمشهد من الأقارب أو الأصدقاء وأن يكون العقد مشروطاً بمجمل الطلاق من حق كلا القرينين إذا حصلت عند أحدهما كراهية نحو الآخر وكانت راسخة .

ولا تزول أزيمة الزواج فى مصر والعراق إلا إذا كانت الثقافة مشتركة بين

الفتيان والفتيات فنظرا إلى الزواج نظرة صادقة وجعلنا الحقوق متساوية بينهما .
أما في العراق فالزوجة لا شأن لها في أمر الطلاق وأما الزوج فكثيراً ما يطلقها لأنه
جلف بالطلاق أنه صادق وكذب أو لأنه يخاصم أحدهم على مسألة تافهة فيرجع
إلى بيته ليلا حردان أو سكران فيطلق زوجته لأنها كانت راقدة فلم تسرع في
فتح الباب أو لأنها أبت أن تسلمه حليها ليبيعه ليشتري بشمه الخمرة أو يصرفه
على مائدة الخمار .

كراهة "فسباب" فركلة "فطلاق

كانت حنجرتى فى شبابى متينة غير أن الزكام وتكرر الإصابة به والسعال
المزمن كل أولئك قد نهكها ولا سيما فى شيخوختى الشلاء العرجاء .
ولا أرتجل من الشعر إلا البيت والبيتين ولا ميل فى نفسى إلى الارتجال
وربما كان ذلك لضعف حافظتى .

وقد كنت فى شبابى وكهولتى أسير فى المنام وكانت بعض أحلامى مزعجة
انتفض لها وأهب من نومي مدعوراً وكسرت فى ليلة كل ما فى غرفتى من المرايا
والأواني الصينية والمصاييح الثمينة وأنا نائم فدميت يداى لجروح أحدثتها كسر
الزجاج وكانت قرينتى ترتجف من الخوف فى سريرها وقد انتبهت من نومها على
صوت الزجاج والأواني التى كانت تتكسر .

وقد رميت نفسى مرة من شباك فى الطابق الثانى إلى الطابق الأول ولم
يصبنى إلا رضوض وكثيراً ما أنظم فى حلى شعراً وأنساء فى يقظتى وقد أحل فى
نومى مشكلاً لم أحله فى يقظتى وفوق هذا فإن العقل الباطن هو الذى يعينى على
نظم الشعر فى يقظتى فكأنه قرينى من الجن يعمل على فأكتب .

وآلامى المعنوية أكبر من آلامى المادية فإنى كلما رأيت تقدم الشعب بطيئاً
استولى على اليأس وكما انخدع بالباطل تمزق قلبى من الآسى وكما خضع للظلم
شرقت بدمعى . يعيش فى سبيل التقدم الهويناء ثم يقف به تعصب المتعصبين فى
مكانه لا يتقدم ولا يتأخر ثم يعيش ثم يقف .

ليس الذى جاء يعيش اليوم متثدداً بلاحق للألى من قبله ركضوا

ولا أقرأ من الصحف إلا ما أراه ذا بال سواء كانت عراقية أو مصرية وأقرأ

خاصة في المقتطف ما جدت في العلم أو ما ارتآه كبار علماء الغرب في الفلك وبناء
الشكون أو في الأشعة أو في الغدد السائبة إلى غير ذلك .

وكننت في طفولتى ألعب بالكعاب ثم بالحمام القلاب فأطيره أسراباً وقد نشرى
المقتطف مقالة في بيان سبب تقبله ورجح تعليل له على تعليل العلامة دابرون
وولعت بركوب الخيل فكنت أسابق بكرامها غيرى من غواتها ونشرى الهلال
رسالة في سباق الخيل ذكرت فيها كثيراً من الحقائق المتعلقة بالعدو .

ثم ولعت بلعبة « الداما » فألفت فيها رسالة سميتها « اشراك الداما » جمعت
فيها ٥٥٠ لعبة لأساتذة الداما وأضفت إليها من مستنبطاتى ألف لعبة وكان لى فى
شبابى أصحاب من ضباط الجيش الممتازين (أركان حرب) وكان هؤلاء يلقون
على مسائل لا تحل إلا بالجبر الأعلى فكنت أحلها بقلى مستخدماً عقلى وحده .
لأننى لم أتعلم قواعد الجبر فكانوا يتعجبون من ذلك ولا أخالى اليوم قادراً
على ذلك .

كنت فى شبابى زعيماً على أترابى وكانوا يحترمونى ويتجنبونى مخالفتى وكننت
قويماً فى منطقى وعضلاتى وأعصابى وسباقاً فى العدو وكنا نتسابق فى الغوص فى
الماء فلم يغلبنى أحد منهم فقد كنت أستطيع البقاء فيه مدة ثلاث دقائق وكانوا
لا يزيدون على الدقيقة وكننت أركض إلى جدار قائم أمامى فأخطو فوقه ثلاث
خطوات من غير أن تمسه يدى وغيرى لم يزد على خطوتين .

ولا أنزال أستقبل زوارى مرحباً بهم وإن كان بعضهم من المنافقين
الكذابين الذين لا تلذنى محبتهم وكثيراً ما فارقنى هذا القسم من الزوار فكتب
فى الصحف مفترياً على ما لم قلّه .

الكذب عاهرة شهدت طلاءها وممعت منها رنة الخللخال

وكننت فى كل حياتى عزيز النفس فقد عيننى جلالة الملك فيصل المعظم قبل
سنوات شاعراً لنفسه براتب شهرى قدره ٦٠٠ ربية فرفضت على شدة عوزى
يومئذ وكتبت فى عريضة رفضى « أنا لست ذلك البلبل الذى يغرد طمعاً فى
حيات تلقى إليه » ثم بعد أشهر بلغت زيادة راتبى بجعلها ٨٠٠ ربية إذا قبلت
فرفضت ثانية على أن رفضى هذا لم يكن عن استكبار بل عن اعتقادى أن الشعر
الذى يهوله الأجير لا يصدر عن شعور . وأعتقد أن جلالته لم يرد من هذا

التعيين إلا أن يكون وسيلة لرفاهتى فهو غنى عن مدحى ومدح غيرى ومن واجباتى أن أمدح ملكى المعظم كلما جاء عملا فيه نفع بلادى :

رب مال هو لو شئت اقتناء عند لى
إنما تمنعنى عن نيله عزة نفسى

أما صحتى فليست جيدة وذلك لمرض عضال اعترانى فى سن ٢٥ مركزه فى النخاع الشوكى منى وقد تداويت فى بغداد والآستانة ومصر عند أشهر الأطباء فلم يجدنى دواؤهم وكل استفادتى أن توقف الداء فى ولكن بعد أن شلت أصابع رجلى اليسرى .

وقد أحاول أن أسعى فتمنعنى رجل رمتها يد الأيام بالشلل

وأحب من الأطعمة أيدى الضأن مع قليل من الخل ، ولكن الخل يزيد فى آلامى العصبية ويشيرها وأحب البيض الطازج والرز إذا كان من النوع المسمى بالعنبر والحلوى إذا كانت قليلة الحلاوة والتمر الطرى مع اللبن الرائب وشوى السمك إذا كان من نوع «الشبوط» والبفتك ولكن الأطباء يمنعونى من أكل اللحم إلا الأبيض منه .

وأحب المجلات إلى فى الشرق العربى هو المقتطف الأغر ثم السياسة الأسبوعية والعصور والدهور لما كانتا تصدران .

وإذا جلست معى ساعة كصحفى فإنك تخرج لقرائك من عندى بما يسخط الجمهور ويرضى الخواص وإذا كانت المباحثة فى أمر جلل فإن حديثى يهب أولا كالنسيم العليل ثم يزداد شدة فيكون ريحاً ثم يشتد فيكون إعصاراً فتتوسع عيونى ويرتفع صوتى وتمتد إليك يدي كأنى أريد أن أدمغك بجمعى وأخال أن السبب هو شدة العصبية فى وأتذكر قول أحد الأطباء الإخصائيين بالأمراض العصبية فى الآستانة « أنى بحسب اختصاصى شاهدت كثيراً من العصبيين ولكن ما رأيت كعصبيتك فى شدتها » وأنا لا أسمع القرآن إلا فى أوقات نادرة كحفلة عقد النكاح لأحد معارفى . وعندى أن أفضل لباس للرأس هو البرنيطة ، ولا يجدى الشرق إلا الجندية الإيجارية والتعليم الإلزامى معاً ، وإذا جلست معى بدون سابق معرفة فإنى أستدرجك فى الكلام بادئاً ببسط الأسئلة وانتقل

فيها حتى أعرفك قبل أن تعرفنى ، وبى من الميل إلى الموسيقى ما هو شديد إذا كان الموسيقىار فنانا فقد تبكىنى ويطيب لى البكاء حينئذ كأنها تنكأ جرحا فى قلبى يحتاج أن ينصب إلى الخارج قيح محصور فيه وكنت فى شبابى أذهب فى صباح الأعياد إلى المقابر فأسمع أمهات الموتى أو أخواتهم أو خطيباتهم يخاطبنهم بكلمات يودعنها شجوهن هى الشعر فتغزورق عيونى وأجهش فى مكانى .

وإذا جلس إلى أحد كتلميذ يود الاستفادة فإنى أنصح به قبل كل شىء بالصدق باسقاط له مضار الكذب وأنصح به بالتعلم ولا سيما العلوم التى تحتاج إلى تفكير وأنصح به أن لا يتعصب فى الدين ويترك كل أحد حراً فى آرائه .

والمصدر المادى الذى أعتمد عليه هو ١٥٠٠ باون لى فى البنك وييتان لى أريد بيعهما يساويان ١٥٠٠ باون عدا الدار الجديدة التى بنيتها صارفا على شراء العرصة وبنائها وتأثيثها ١٧٠٠ باونا أما راتبى فى التقاعد فهو ١٢ ديناراً فهو ضئيل لا يقوم بنصف نفقاتى . وهذا الذى ادخرته هو من فضلة رواتبى الضخمة قبل أن أتقاعد :

لى زوجة وليس لى أولاد وعندى ثلاثة من الخدم إحداهم طبخة .

وما تصورت فى عمرى أن أتنفع بالأدب ولا أرسلت قصائدى إلى مجلة إلا بعد أن طلب صاحبها ذلك وعرفت أن مجلته رائجة وفى السنين الأخيرة لم أنشر قصائدى لى فى جرائد بغداد لعملى أنها تمقتنى وتحسبنى مارقا إلا جريدة هى فى جانبى ولكنها مسدودة اليوم من قبل الحكومة .

أما موافى العظيمة التى وققتها فى حياتى فهى كثيرة منها . أنى لما كنت أستاذاً للفلسفة فى الجامعة التركية قدم أحدهم تقريراً إلى البرلمان أن الزهاوى يضلل التلاميذ فسألنى وزير المعارف فأجبت قائلاً إنى أذكر فى دروسى حجج علماء الغرب بكل قوة وأذكر دلائل علماء الدين كذلك وأترك البت إلى قابلية التلاميذ وأنا لم أطلب هذه الوظيفة منكم فأتم الذين عينتمونى وإذا كانت طريقتى لا تروقكم فإنى مستعد للاستقالة فرضى البرلمان بجوابى وبقيت مواظباً على دروسى التى كنت ألقها على تلاميذى وكان عددهم ٣٥٠ تلميذاً . ومنها أنه أنشدت أبا الهدى قصيدة فى ذم سياسة الملك عبد الحميد وسجنت على ذلك وُسِّفْتُ إلى بغداد مخفورا ، ومنها لى لما كنت عضواً فى البرلمان

العثمانى رأيت فى ميزانيته الحربية مخصصات لقراءة البخارى الشريف فقلت لو كنت أرى هذه المخصصات فى ميزانية الأوقاف أو المشيخة الإسلامية لما أوجبت استغرابى ولكن وجودها فى ميزانية البحرية عجيب فهل ترون أن أسطولنا يتحرك بالبخارى الشريف لا بالبخار فقامت ضجة حول كلتى هذه وأخذ النواب يضربون على المناضد حتى كادت تتكسرا ، وأشد الغيظ على كان من أهل العمام وقد جاءتنى فى اليوم الثانى كتب من شباب الترك يهنئوننى على جرائتى .

ومنها أن الحكومة المحتلة فى زمن المندوب السامى السرولسن — كانت يومئذ الثورة العراقية فى أبان شدتها — جمعت مندوبى الأمانة للمذاكرة واختارت من الأشراف الذين لم يتظاهروا بالاتفاق مع الثائرين عشرين شخصا وكنت أحدهم . فلما فرغ المندوبون من بسط مطالبهم انتظر المندوب السامى كلمة الذين اختارهم وكان يعتقد أنهم سيكونون فى جانبه فقمت خطيبا وقلت أنا بالأصالة عن نفسى والوكالة عن انتخابوا معى أشترك مع مندوبى الأمانة فى مطالبهم هذه الحققة ولا أرضى بغير الاستقلال للعراق فلم يكذبنى أحد من المختارين واستاء المندوب السامى وجماعته منى وأخذت الحكومة المحتلة تغير وجهة سيرها فى الانتداب إلى غير ذلك من المواقف التى يطول شرحها .

وما أعددت من الوسائل ليشرى الشباب ماء رسالتى كما تسأل غير نشر افكارى فى المجلات وفى مؤلفاتى ويعتقد الكثيرون أن نكرة التعصب فى العراق لم تخفت إلا بما نشرته من الأفكار الفلسفية والاجتماعية الحرة . ولا أرد على خصومى إذ لا أجدهم أهلا للرد ولكن بعض تلاميذى يثورون الآونة بعد الأخرى فيردون عليهم بما يرجعهم مدحورين .

وأما سؤالك عن صلاتى وصيامى فأنى أرانى مقصراً فيهما وأما ما ينسبونه إلى من الإلحاد فلا دليل لهم عليه سوى تخرصاتهم . وقد درست الشريعة الإسلامية والعلوم العصرية وتقدر أن تفهم أثرها فى من مؤلفاتى ومقالاتى :

لما جهلت من الطبيعة أمرها وأقتت نفسك فى مقام معلل
أوجدت رباً تبتغى حلاً به للمشكلات فكان أكبر مشكل

والمسلمون لا ينهضون إلا إذا فرّقوا بين أمور الدنيا والدين ، وقد خرجت من دراستي للشرعية الإسلامية بما يغيظ المتعصبين من إخواني المسلمين .

ولا نهضة للمسلمين إلا بتعديل أحكام الشريعة وما أحسن القاعدة التي وضعها علماء الكلام من أهل السنة وهي « إذا تعارض العقل والنقل أوّل النقل بالعقل » .

وصوفيتي التي أتغنى بها هي أن الله في الطبيعة والطبيعة في الله ونقطة الضعف التي أشعر بها هي عدم معرفتي لأحدى لغات الغرب .

والجانب البارز العام في حياتي هو التمرد على كل قديم ضار .

سئمت كل قديم عرفتُهُ في حياتي
إن كان عندك شيء من الجديد فهاهنا

بمبيل صدقي الزهاوى

يقداد في ٢٠ تشرين الثاني لسنة ١٩٣٢

أحزان الوجود

ما لقلبي شفه بَرُحُ الضنى ولنفسى قد تغشاها السأمُ
أبدًا يا قلب تغويك المنى ثم لا يعقبها إلا الندم
هل يضيع العمر إلا أننا نترك السهل ، ونرتاد القمم !
لو أصبنا لاتخذنا مسكننا في صحارى اليأس ، أو وادى العدم

نحن جرّبنا الأمانى والخيال وجرينا خلفها طول السنين
ومنحنها شباباً لن يُنال مرة أخرى من الدهر الضنين
ثم ماذا ؟ أين أحلام الليال ؟ لم تعد إلا هباء لا يبين !
تكشف الأنوار ما تخفى الظلال فترى الوهم عيون الناظرين

ليتنا لم نعرف الشوق إلى عالم لا يتراءى للعيان
ليتنا لم نسر بالوهم على ذروة الكون ، وآفاق الزمان
وبقيننا حيث كنا أوّلاً نجد الأفراح فى كل مكان
لم نكن نعرف ما الشوق ، ولا ما الأمانى ، والتهاويل الحسان

نحن كنا نأخذ العيش كما تمنح الدنيا ، فكنا سعداء
ونفتى للربيع ابتسما مثلما كنا نغنى للشتاء
لم نكن ندري الحنين المبهما نحو أفق الغيب ، أو دنيا الخفاء
وارتعاش القلب أمسى مُغرماً برؤى الحب ، وأسرار اللقاء

احزان الوجود

محنة رانت على عمرى السجين • صيرته موحشاً مثل القبور
حيرة طافت على قلبى الحزين فهو لا يدري إلى أين المسير
جفت الكاسات، بل جف المعين وذوى مهجتي الزهر النضير
وتوارى كل شيء فى السنين فتهاوينا إلى هذا المصير

هذه المحنة من أوجدها ؟ أنا أم أنت ؟ بل نحن براء
هذه الأحلام من بددها ؟ هى يا قلبى أعاصير السماء
وسهام اليأس من سددها ؟ وربما ؟ إنها كف القضاء
هذه القوة لن نجدها قد رأينا فعلها بالضعفاء

فلنعش يا قلب فى الدنيا كما تتزوى الطير فى جوف الحباله
هى كأس أترعوها علقما وعلينا شربها حتى التئاله
لا نرى فيها جديداً . . . كلما غاب شيء أطلع الدهر مثاله
وعجيب الأمر ألا نساءً بينما الأيام ينضجن ملاله

وإذا جاء الفناء المنتظره يسأل الرحلة عن هذا الوجود
فلنقل : هذا الرجاء المدخر ذلك الشيء الذى كنا نريد
فلقد عشنا كما شاء القدر بين يأس وملال وشروء
ولنسله فى أناة وحذر قبل أن نتبعه : هل من جديد ؟

ابراهيم محمد نجما

القطار في الأدب الروسي

وسيلة لإثارة الانفعال النفسي

إن الدراسة العميقة المنظمة للحوافز التصويرية ولتفضيل فكرة معينة أو موضوع معين ، سواء في ميدان الأدب أو في ميدان الفنون الجميلة ، تساهم بقسط كبير في تفهم نفسية الأثر الفني ونظامه الداخلي ، وتكشف عن الميول الكامنة اللاشعورية عند الفرد وفي عصره . ومع ذلك كانت البحوث تدور قبل كل شيء حول مسائل تتعلق بالأسلوب والشكل ، واستجاب العلم نفسه لحاجات العصر الفنية ، وكان من فساد الذوق في وقت من الأوقات الاشتغال بأمور تصويرية بحتة . بيد أننا نعتبر أن اختيار الموضوع وعناصره الأساسية ، بل اختيار الحوافز التي تبدو ثانوية من حيث الأهمية ، لا يرجع إلى مجرد المصادفة ولكن يوائم رغبة كامنة وميلاً خافياً حتى على المؤلف نفسه .

ولذا فإن الدراسة التصويرية والشكلية للأثر الفني ، تعين كثيراً على معرفة الأساس البعيد والقريب الذي يقوم عليه الأثر الفني نفسه .

وقد استوحى أوزفانت هذه الفكرة في مؤلفه « الفن » فقام فيما قام به بمحاولة طريفة ، وهي تحديد الألفاظ والمعاني التي تكرر ورودها في مؤلفات أشهر الكتاب ، فلاحظ مثلاً أن اللون الأسود يغلب عند بودلير ، على حين يسود الأبيض عند جيد ، في حين تندر الألوان عند بروسست ، وهذا أقلهم إدراكاً لعالم المرئيات ، فلا يزد عنده سوى اللون الأزرق والرمادي . أما رامبو وملارمييه فإليهما ميل خاص ، وأولهما إلى الجو الممطر ، وثانيهما إلى الضباب والضجج .

وهذا النوع من البحث قد يبدو عقيماً لأول وهلة ، ولكن الأمر على عكس ذلك إذا ما سلمنا بوجود رابطة سببية الوثيقة بين الأثر الفني وعناصره الأساسية ، وبين الشخصية الحقيقية للمؤلف .

ولقد حاولنا في هذا البحث أن نبدأ بتحليل فكرة كثيراً ما وردت

القطار في الأدب الروسي

في الأدب الروسي بصورة بارزة تسوِّغ هذه الدراسة ، ألا وهي فكرة القطار الذي تحول في الأدب الروسي من مجرد وسيلة من وسائل النقل إلى رمز كبير له مغزاه .

فاذا تناوئنا دستويشسكي في قصته « المعتوه » رأيناه يفسر القطار الحديدي تفسيراً غريباً . فنجد ليبيدوف صديق الأمير ميشكين يؤول نجمة الآسي التي ستجتاح الأرض في رؤيا القديس يوحنا بالشبكة الحديدية . التي تحيط بأوربا . حقيقة أن ليبيدوف يحب المبالغة فهو دائماً مشدود ويغلب على نزاعه نوع من التصوف ؛ فهو في قصة دستويشسكي مثال الشخصية التي تقلل من سرعة الحوادث التي يدور عليها موضوع القصة الأساسية ، فمن الغريب أن نراه وهو الذي يعيش في عالمه الغامض المملوء بعلامات الغيب والنبوءات الصوفية يلجأ في تعبيراته إلى شيء مادي كالقطار الحديدي .

ولكن مهما بدت فكرة القطار الحديدي عادية وخالية من الطرافة ، فإنها قد وردت كثيراً في قصص كبار المؤلفين بصورة بارزة ، مما يكسب عبارة ليبيدوف معنى طاماً كان سائداً إذ ذاك فيما يتعلق بالقطار ، وفكرة الانفعال البالغ التي كانت ملازمة له في الأدب الروسي ، فهي لاتدهشنا بكثرة ذكرها فحسب ، ولكنها تظهر على نحو دائم تقريباً ، في كل المواقف الحادة من القصة حيث نشعر ، من تواتر نفس أو تغيير في مجرى الحوادث بدنو الكارثة .

وفوق ذلك فإن القطار يقوم بدور التطهير في القصص الروسية ؛ فحوادث التكفير والالتحار بوساطة القطار تعادل في كثرتها الأسفار بالقطار إلى سيبيريا حيث المنفى والمطهر .

وسنورد فيما يلي بعض أمثلة توضح دور الانفعال البالغ التي تقوم بها فكرة القطار في بعض أمهات القصص الروسية .

فتولستوي ، يذكر القطار في المواقف الفاصلة في كل قصة من قصصه ، إذا استثنينا قصة « الحرب والسلام » حيث تدور وقائهما في وقت سابق لعصر القطار . وهو يعتبر القطار ذا أهمية بالغة وفائدة عامة ، ففي قصة « أنا كارنينا » يقول في أحد المواقف : إن حديثهم كان يدور حول السياسة والسكك الحديدية . أما في القصة المسماة « أنشودة كروتزر » فاننا نجد للقطار عمليتين ، فهو أولاً المكان الذي اختاره مسرحاً لحوادث القصة ، وفي كما نعلم قصة يرويها

القطار في الادب الروسي

مسافر لرفيق مصادفة جمعه به القطار ، ثم إن برونشفت ، وكأنه معلق في الزمان والمكان ، يروي لجمهور محدود ومجهول في أثناء سير القطار ليلاً تاريخ حياته وآلامه وجريمته : « كنا في مستهل الربيع ، بعد يومين وليلة طويلة قضيناها في القطار » . وتظهر فكرة القطار ثانية لا كسرح لحوادث القصة يهيئ لها جوا غامضا فحسب بل كعامل ملئ بالانفعالات وذو أثر فني قوى . فوصفه لسفره الأخير الذي كان فيه فريسة لعاطفة الغيرة حبس في ديوانه كما لو كان في قفص هو مأساة قوية تبلغ حد الإعجاز : « ما إن ركبت القطار حتى تغير كل شيء » ، وهذه الساعات الثماني في السكة الحديدية كانت في الحقيقة مؤلمة لي ولن أنساها ما حييت . فهل كان ذلك راجعا إلى الفكرة التي استولت عليّ عندما ركبت القطار بأنني عائد إلى بيتي أو إلى صوت القطار المثير ؟ كل ما أعرفه أنني بمجرد ركوبي القطار استجدال على السيطرة على خيالي » . ثم يقول فيما بعد : « كنت كوحش في قفص أقوم منتفضا وأقرب من الباب تارة وأخرى أمشي بخطى مترددة كما لو كنت آمل أن أزيد بحركاتي من سرعة القطار . كنت حقا خائفا من هذا القطار ، وكنت أقاسي العذاب إلى حد أنني لم أكن لأعرف ماذا أفعل ، لاحت لي فكرة راقتني : أن ألقى بنفسى تحت عجلات القطار وأتهدى مما أنا فيه » .

لقد زادت آلام برونشفتوف أثناء رحلة لاستمرار التعارض التوازني بين حالة الرجل الذي فقد توازنه وحركة القطار الذي يمضي قدما غير مضطرب ، وهذا التعارض يخلق تواترا نفسيا غير محتمل تقريبا ، ينتقل أثره إلى القارئ إلى حد الشعور بضيق يكاد يبلغ درجة الألم الجثامي . وهذه القطعة المفرطة في التأثير يعقبها شيء من الهدوء ، وهو نوع من التوقف الموسيقي قبل أن تقع الكارثة النهائية . ومن الجلي أن السكة الحديدية ليست في هذا العمل الفني مجرد أمر ثانوي تافه ، ولكنها فكرة معبرة أو على الأصح قائمة بالدور المؤثر في الموقف . وفي رواية « المعتوه » لدستويشسكي تبدأ القصة في القطار أيضا ، فقد كان الأمير ميشكين أثناء عودته من سويسرا في ديوان من الدرجة الثالثة حين كان القطار يجتاز منظر قلعة ومليحة بالغيوم تتدر يوم بلود . وطبعا كنوم من أيام شهر نوفمبر . ولقد تقابل بطل المؤسسة بسائر أشخاصها وتعارفوا في هذا القطار الذي أقلمهم إلى سان بطرسبرج .

ولكن فكرة القطار استخدمت كرمز على أتم صورة في قصة « أنا كارنينا » وكان ذلك يظهر في كل نقطة تحول من القصة كأنه الباعث الأساسي . وقد تم اللقاء الأول بين أنا وفرونسكي ، وهو اللقاء الذي جر أسوأ العواقب في المحطة . واستطرد تولستوى في وصف المحطة بجوها الخاص : « أخذ القطار يقترب ويداور إفريز الوصول وكأنه يهتز ، وظهرت للعين القاطرة التي كانت تدفع أمامها البخار المثقل بالبرد ، وبدأ الناس يرون ذراع العجلة الكبرى ينقبض وينبسط في هدوء وبمقدار ، وحيا العامل الميكانيكي الذي تساقط عليه الثلج المحطة وظهرت خلف عربة الفحم عربة الأمتعة التي مست الرصيف مساً كبيراً » . ولكن سرعان ما قطع نبأ سيء مرح المسافرين وحركتهم : « ففي أثناء مغادرتهم العربة رأوا جمعاً من الناس يهرولون يتبعهم ناظر المحطة صوب مؤخرة القطار . لقد وقعت حادثة وكان كل الناس يجرون في هذا الاتجاه ؛ فقد دهم القطار أحد المستخدمين ، وعند ما خرج الناس من المحطة كانوا يتحدثون جميعاً عن الكارثة التي وقعت » . وتلخص أنا كارنينا الحادث في هذه العبارة : « إنه لطالع نحس » على حين كان الناس يتناقشون في الموت على هذه الصورة المؤلمة هوأم سهل هين .

وطالع النحس هذا يسرى في أُنْيا القصة بحكم كما لو كان وترأ يضرب عليه ، وتحت تأثير هذا الطالع تتشابك حوادث القصة وملاحمها ، وتدعنا الفدول الأولى نحس العاطفة التي ستربط أنا وفرونسكي ، ولكنها لم توضح بعد عن شيء . تعود أنا إلى بيتها وتستأنف على حد قولها : « حياتها الطيبة المألوفة » ولكن فرونسكي يلاحقها في نفس القطار دون أن يشعرها بذلك . ولقد تم أول لقاء حاسم أيضاً في محطة صغيرة مجهول اسمها : « لقد كانت تنظر حولها وهي واقفة بالقرب من العربة على الإفريز المغطى بالثاج ، والمحطة تتلأأ بالأنوار ، وبينما هي تستعد لركوب القطار إذ حجب عنها ضوء المصباح رجل يرتدى عطفاً حريياً أخذ يقترب منها ، كان هذا الرجل فرونسكي ، وبينما كان يصارحها بحبه أخذت الريح ، وكأنها قد مهدت كل الصعاب ، تزيح الثاج من سقف العربات ، وتهز هزاً عنيفاً قطعة من الصاج انتزعته ؛ وهنا أرسلت صفارة القاطرة صرخة أنين حزينة ، وكانت أنا قد سمعت كلمات يتخوفها عقلها ولكن يشتهيها قلبها .. » وتنتهي مأساة أنا في محطة أيضاً وهذه النهاية مؤلفة كما لو كانت سنفونية ،

القطار في الأدب الروسي

وهو حال معظم القصص الروسية الموضوعات عادة وفقاً للتقوانين الموسيقية . فالعناية فيها موجهة إلى النغمة أكثر منها إلى جمال الأسلوب الذي كثيراً ما يعثره الإهمال خصوصاً عند دستويشسكي أو إلى الشكل بوجه عام . وتتبادل كثير من القطع الطويلة المشبوبة بالعاطفة بأخرى يسودها الهدوء الفكري . وهكذا تخلق جميعاً عملاً فنياً حياً يتكشف فيه العنصر المؤثر بالحركة أكثر منه بالحوادث (ولقد استهوى الفيلم الروسي منذ نشأته جمهوره بنفس هذه الوسيلة الفنية . فمثلاً سناريو « عاصفة فوق آسيا » لا ينتشين تكشف لنا قراءته عن نفس هذا الميل ، وهو الميل إلى التأثير بواسطة نغمة حركة التأليف فنقرأه عشرين متراً من الأوراق الدوامية ، عشرين متراً من سنايك الخيل التي تنهب الأرض ، خمسة عشر متراً من الأوراق الدائرة كالديوامية ، خمسة عشر متراً من الخيل الركضة ، عشرة أمتار من الورق ، عشرة أمتار من النعال ، خمسة أمتار من الورق ، خمسة أمتار من السنايك الخ ... الخ) .

وكذلك يتعاقب الوصال والقطيعة بين أنا وفرونسكي بكيفية سريعة ، وبعد ذلك يؤخر عاملان الخاتمة النهائية ، ويعادلان أثناء عدة صفحات الجمل الذي لا يطاق للحزن الذي نعيشه ، وهما زيارة أنا للأولاد ولأخت زوجي ، وهاتان الزيارتان كان يجب تبعاً للجو الذي تمان فيه أن تكونا مسكنتين ومهدتتين للروع ، ولكنهما تنتهيان بنغمة شاذة .

وهنا تبلغ آلام أنا أشدها . لقد استقأت القطار لمقابلة فرونسكي ، ولم يكن أمامها من حل آخر : وبعد الإشارة الثالثة صفرت القاطرة ، وتحرك القطار ورسم العامل علامة الصليب ، ولقد تساءلت أنا عما يعنيه بذلك وأدارت عينيها لترى من فوق رأس السيدة العربات وجدران المحطة التي كانت تمر أمام النوافذ ، وصارت الحركة أسرع ووصلت أشعة الشمس العادية إلى العربة وأخذ نسيم خفيف يداعب الستائر .

وعند ما استقرت في الديوان وأحاط نظرها برفقائها في السفر ورأت فقرهم استولى عليها شعور لا تفهمه من الاشتزاز . « وتساءلت أين المهرب يا إلهي . » وبعد ذلك لاح لها الحل فجأة « إن قطاراً من قطر البضائع يقترب وهو يهز الرصيف ، وتذكرت بغتة الرجل الذي دهمه القطار أول يوم لقيت فيه فرونسكي في موسكو وأدركت ما بقي عليها أن تعمله ، وفي خفة وسرعة هبطت الدرج

الذي يؤدي من المضخة الموجودة في أقصى الرصيف إلى قضبان السكة الحديدية ، ومشت أمام القطار ونظرت برياطة جأش إلى العجلة الكبرى للقاطرة والسلاسل والأسلاك محاولة أن تقيس بعينها المسافة التي تفصل العجلات الإمامية للعربة الأولى عن عجلات المؤخرة ، ثم قالت لنفسها : « هناك » وهي ترقب الظل الذي تلقيه العربة فوق الرمل المخلوط بالفحم والذي يغطي الفلنكات ، هناك في الوسط سيلقي عقابه وسأخلص أنا من الجميع ومن نفسي . لقد أفلتت منها لحظة إلقاء نفسها تحت أول عربة فانتظرت الثانية . لقد استولت عليها عاطفة شبيهة بتلك التي كانت تحسها سابقاً عند ما كانت تقفز في النهر ثم رسمت علامة الصليب ... لم تفارق عيناها العربة ، وعند ما ظهر الجزء الأوسط بين العجلتين ألقّت بحقيبة يدها وجعلت رأسها بين كتفها ومدت يديها إلى الأمام وقفزت على ركبتيها تحت العربة كأنها مستعدة للنهوض . لقد صدمتها كتلة كبيرة في رأسها وجذبتها من ظهرها ، وهكذا انتهى كتاب حياة أنا ، بكل أوجاعها وخذائعيها وآلامها ، على حد تعبير تولستوى ، في نفس المكان الذي كان قد بدأ فيه . وحياة بطلة القصة محطة بصورتين للمحطة وجوها وقطرها كما لو كانت محطة بدامتين متوازيتين . وقد تكررت حادثة المستخدم التي بدأت بها المأساة والتي يرتبط بها ارتباطاً وثيقاً التعارف بفرونسكي . ويستطيع الإنسان أن يقول على وجه التقريب إن القطار يرمز لمصير أنا .

وتتناول آخر قصص تولستوى « البعث » الفكرة بإلحاح أشد ، فيقرر نيشلودوف بعد صراع نفسي عنيف ، أن يشاطر كاتارينا ماسلوفاً مصيرها ، وهي المحكوم عليها بالنفي إلى سيبيريا للتكفير فيها عن جريمة ، تعتبر الهيئة الاجتماعية مسئولة عنها أكثر منها ، فتابع سير قوافل المبعدين وقاسمهم نفس المصير الفظيع ، كما شاطرهم آلامهم ومذلاتهم ، ولقد شاركهم أيضاً في القطار ، وعلى مقعد الخشب بالدرجة الثالثة بين البؤساء وطريدى المجتمع والمنبوذين ، ليتم تطهير نفسه الروحي . وهنا يبدأ تكفيره وحياته الحقيقية ، إنه هو القطار الذي يقوده نحو العالم الحقيقي الكبير ، كما يقول هو عند ما كان يتهم على الأميرة .

لقد استعمل أرزيباشيف فكرة القطار في معنى مضاد ، ولكن كرمز دائماً . حينما أراد سائين المفكر الفوضوي ، في إيائه العظيم ، مفارقة هذا العالم الحقير الشرير ، قفز من القطار الذي يسير بأقصى سرعته . ولقد قام مثل أنا كاتارينا

القطار في الأدب الروسي

بتجربته الأخيرة في ديوان من السكة الحديدية ، محاطاً بآناس من الدهاء والمغفلين ، وهكذا يصير القطار رمز الحياة نفسها التي يفارقها هو ففراً من القطار الذي يسحقه .

ويلعب القطار نفس الدور الرمزي في الأدب الروسي الحديث ، ولكن ليس بالإفصاح الذي يقوم به في أدب القرن التاسع عشر ، لسبب بسيط هو أنه في وقت كشفه واستخدامه كانت الأذهان مشغولة بهذه البدعة . وفي قصة بتروف « مليونير في روسيا البلشفية » وهي وصف لاذع من نوع قصص المفكرات مثل « تل الشقي » أو « جارجانتوا » نجد القطار عنصراً هاماً في سير وقائع القصة . ولقد استغل الفلم الروسي الحديث ، القطار أيضاً في ثلاث من روائعه وفيلم « توركسيب » يدور كله حول إنشاء خط حديدي عبر سيبيريا . وتقابل الوصلتين اللتين أنشئتتا في وقت واحد وتلتقيان في المنتصف ، كناية عن رمز تأثري بالغ ، والمقصود من مد خط حديدي في فيلم « الطريق نحو الحرية » إنقاذ شبيبة متدهورة خلقاً وخلقا ، وردها إلى الطريق المستقيم . والعمل المشترك يوقظ في نفس الوقت التمسك لعمل مشعرو الشعور بالمسؤولية عنده هذه الشبيبة الفاسدة . ولقد رمز لهذا الغرض العملي والأدبي بالسكة الحديدية مرة أخرى . ولقد انتهى الفلم بنوع من التمجيد المزدوج ؛ فلقد أرقدت على القاطرة التي كللت بالزهور والتي تقوم بأول أسفارها ، جثة البطل الصغير الذي مات ضحية للعمل المشترك .

هذا الميل الغامض إلى القطار عند الكتاب الروس لا بد أن له أسباباً عميقة ترقى إلى مصدر العمل الفني نفسه . وإذن فما هي عناصر هذه الأداة العملية النافعة القادرة على إثارة اهتمام الفنان إلى حد أنها لو جردت من هذا الجانب العملي لصارت مجرد رمز فقط ؟ من المؤكد أن كل رحلة وكل انتقال في أقاليم روسيا النائية له صفة المغامرة التي ليست له في الغرب . وكذلك عند سكانها الذين تأخذ كل عاطفة وكل تجربة يقاسيها المرء صورة قوية تأثرية ، لا يمكن أن يبقى الشعور الناتج من قضاء أيام في ديوان دغاق ، حيث ينتقل الإنسان في قضاء يبدو كأنه لا نهاية له ، لا يمكن أن يبقى بدون أثر . ربما كان الأمر راجعاً إلى بعض الغرائز الكامنة بفعل الزمن عند بعض القبائل الرحل في العصور

الغابرة التي امتزجت ببعض الشعوب ، وهي الغرائز الراقدة بفعل الزمن ولا تزال باقية إلى الآن ، فأيقظتها هذه التنقلات في صورة انفعال جديد غريب وعنيف . فكل انتقال وكل حركة بالنسبة لنفس الروسية ، وتبعاً لذلك بالنسبة للفنان الروسي ، هي مغامرة روحية وتجربة تأثرية ، وكل عربة تصير بالضرورة عاملاً رمزياً . وفي قصة « الأرواح الميتة » يختم جوجول الأنشودة الحادية عشرة من هذه الملحمة العظيمة بصورة للشعب الروسي الذي يقارنه بعربة (ترويك) تجرها جياد تسير بمنتهى السرعة : « انتصف الليل وجرت العربة الخفيفة كأنها ريشة وكان تستشيكوف يبتسم وهو يهتز اهتزازاً خفيفاً فوق وسادته الجلدية لأنه كان يحب السير السريع . »

« وأى روسي لا يحب السرعة ! أيمن أن يكون الأمر على خلاف ذلك بينما تتوق روحه دائماً إلى الدوار وإلى الطيران أحياناً . فليأخذ الشيطان كل شيء . أو يمكن ألا يحب الإنسان السرعة بينما هو يجد فيها حماسة عجيبة ؟ إن الإنسان ليطير وكل شيء يطير في نفس الوقت : الأعمدة ، والباعة الذين يلقاهم جالسين على حافة عرباتهم والغابة من الجانبين ، والصفوف القائمة من أشجار الصنوبر وأصوات الفؤوس ونعيق الغربان . إن الطريق ليطير كله ، ويتلاشى في الفضاء البعيد ، أيتها العربة ، العربة الطائر من الذي اخترعك إذن ! لا يمكن أن تولدى إلا لترى شعباً شديداً البأس فوق هذه التربة التي أبدعت في صورة كاملة . »

عندما يحدو الخوذي غناء بالأنشودته تثب الخيل بشدة ولا تكون القضبان سوى سطح متصل ، وتزلزل الأرض ويرسل الرجل المذعور صيحة تعجب ، وتجري العربة ماهرة الفضاء ، ويرى الإنسان على بعد شيئاً ما يخرق الفضاء ويشقه . وأنت يا روسيا ألا تزالين تطيرين أبداً كالعربة المتوقدة التي لا يمكن للإنسان أن يسبقها ؟ أنت تمرين في ضجيج خلال سحب من التراب تاركة كل شيء وراءك ويقف المتفرج مشدوهاً أمام المعجزة الإلهية . ألسنت الصاعقة المنقضة من السماء ؟ ماذا تعني هذه الرحلة الجنونية التي تثبت الذعر في النفوس ؟ وأى قوة خفية لم يشهدنا العالم قط تظهرها هذه الجياد ؟ أيتها الجياد ، الجياد العظيمة ! أى قوة عاصفة تهز نواصيها فتبدو أجسامها المرتعدة كأنها آذان كلها ، وهي عندما تسمع من أعلى الأنشودة المألوفة تسنم صدورهم بالقوية دفعة واحدة وهي

القطار في الأدب الروسي

لا تكاد تمس الأرض بسنابكها فتكون خطأ مشدوداً يشق الفضاء . وهكذا تطير
الروسيا تحت تأثير الوحي الإلهي ، إلى أين تجرين ؟ أجيب . ولا مجيب .
يرن الجرس رنيناً منغوماً ، ويهتز الهواء المرتج حتى يصير ريحاً ويتخلف كل
ما على الأرض .

ويقتبس دستويشسكي في دفاعه المجيد عن دييمري كارمازوف هذه القطعة
من قصة جوجول التي صار لها عند الروس مكانة تقرب من التوراة . وفوق
ذلك فإن الترويكما هي أيضاً فكرة مستحبة إن لم تكن رمزاً في مؤلفات كبار
الروائيين ، وقد استخدمت في الفصل العظيم المؤثر الذي يلي استشهاد كارمازوف
الهرم عند ما رحل ميتجا للقاء جروشسكا في مهرجان النجر بمكروج . ولقد صار
ميتجا فريسة للقلق والغيرة ، كما كان عايبه برودنتشيف في « أنشودة كروتوزن » .
وهذه الرحلة التي يقارنها دييمري نفسه برحلة إلى الجحيم هي من أشد قطع القصة
إثارة للعواطف . والحركة التي تسير بسرعة تبلغ الذروة في مهرجان العجر حيث
يترك ميتجا نفسه تفرق في حب عظيم نحو جروشسكا . وإن المقارنة بين وصف
الصباح الشاحب العالي ووصف ظروف القبض عليه لتعد تمة لهوقف العنيف
السابق . وإن حالة الصياح التي كان عايبها ميتجا والواقف خاف السائق مستثيراً
الجياد والرعب في نقل قائمه إلى عربته لتتشابه بالحالة التي كان عايبها برودنتشيف
في ديوانه ، خصوصاً إذا ذكرنا أن كايهما كن مقرونا بجريمة قتل . لقد تغيرت
أداة النقل لكن السرعة هي هي ، سواء كان القطار أو الترويكما الذي يعبر عن
خلاق دييمري كارمازوف وطبيعته الحقيقية هذه « الطبيعة العظيمة والكريمة
كأمننا روسيا » .

وتظهر أداة النقل إذن على وجه عام كفكرة مستحبة في الأدب الروسي .
ولكن القطار هو الذي يصير على الأخص فكرة رئيسية متكررة .

وإن عدم الاكتراث الملحوظ في الأدب الغربي أزاء هذا التجديد العملي
مما يبرز بوضوح الدور الذي يلعبه هذا التجديد في المؤلفات الروسية . ولما
كانت الرحلة في السكك الحديدية تمتاز بالشعور المعقد والجمال وبالرابطة الفنية
التي تنشأ بين المسافر وبين المناظر التي تمر أمامه ، فقد كان من المفروض أن
هذه الفكرة لا يمكن أن تقوت الأدب الغربي وأن تستغل فكرة القطار
في كثير من الأحيان . ولكن الواقع أن هذه الفكرة قلما استخدمتها الآداب

الأوربية ، مع أن وصيلة الانتقال هذه أقدم في أوروبا وأوسع انتشاراً منها في روسيا ، ونجدها في النادر وقد فقدت قيمتها العملية وجردت من العامل التأثيري وأصبحت مجرد أداة انتقال لا أكثر .

ونشير على سبيل المثال إلى قصة « الوحش البشري » لزولا ، وهي القصة التي يستطيع الإنسان تسميتها قصة السكة الحديدية . ولكن عناصرها ووقائعها تدل بالضبط على ما قصده زولا من هذه القصة . وقد اقتبس بول الكسيس في مؤلفه عن حياة زولا عبارات المؤلف نفسه بخصوص هذا الكتاب : « ولكن الذي يهمني والذي أريد أن أبرزه في صورة حية ومحسوسة هو المرور الدائم لخط كبير بين محطتين ضخمتين ووجود محطات متوسطة عليه وطريق للذهاب وآخر للإياب . وأريد أن أثيره رجال السكك الحديدية جميعاً المستخدمين ونظار المحطات والعمال ورؤساء وسائق القطارات والميكانيكيين وخفراء الطرق ومستخدمى عربات البريد والتلغراف . وسيلعب التلغراف في قصتي كما هو في الواقع (هكذا) دوراً كبيراً ، وسيسمع الإنسان في كل لحظة رنين جرسه الكهربائي منبهاً بمرورية . وسيعمل الإنسان كل شيء في قطاراتي : يأكل الإنسان وينام ويحب فيها وستتم الولادة فيها ، وأخيراً فإن الإنسان سيموت فيها » .

ويستطيع الإنسان أن يحدد ، على وجه أدق ، الدور الذي تقوم به السكك الحديدية في القصة ، ولقد استخدمت فيها على أكمل صورة بحيث لا يستطيع الإنسان أن يأخذ على المؤلف أنه أغفل حتى أبسط التفاصيل ، ولكنه استخدمها كسرح فقط لحوادث قصته ، وهو الجو الذي يشغف به المؤلف ، وقد طالع على نحو واقعي بحث . وكما أنه في مؤلفه عن « التاريخ الطبيعي والاجتماعي » يدرس كل نوع من أنواع الكائنات ، ويرتب في مكانه حياة المناجم والمعدنين ، وتاريخ حياة بيت للإيراد ، ومستأجره وجو أسواق الخضراوات ، ومسجل المواد أيضاً ، كذلك يفعل بنظام السكة الحديدية . وعلى هذا النحو تجد « الوحش البشري » وهي قصة السكة الحديدية ، ولكنها في تركيبها الداخلي ، إن كان لها تركيب ، كما هي في موضوعها وشخصياتها لا تختلف بشئاً عن أي مؤلف آخر مماثل لكتابات المؤلف نفسه . على أن السكة الحديدية تؤلف دوراً مخالفاً لهذا في مؤلفات إميل فيرهاردن ، فهي تظهر فيها كثيراً وتغلب عليها دائماً

للقطار في الأدب الروسى

مسحة أليمة وتأثرية ، وهى تستخدم كرمز شؤم . ولكننا يمكن أن نعتبر إميل فيرهاردن الذى مات ميتة فاجعة بسبب حادثة فى السكة الحديدية كحالة مرضية ، فلقد انزلق الشاعر من الدرج وبترت ساقيه فى ظروف مماثلة لتلك التى كثيراً ما صورها فى قصائده . وإن مطابقة هذا الخيال المقيم للنظر الحقيقى للحادث المميت ، كان من الواضح بحيث لا يدع مجالاً لافتراض محض المصادفة . وأبان بودوان فى دراسته القيمة أن مسلك فيرهاردن أزاء القطار كان جزءاً من مركب فكرة ملحة ، وأن هذا الانتحار اللاشعورى وكذلك الدور الرمزي للسكة الحديدية إنما كان جزءاً من مرضه النفسى .

وفكرة القطار أقل شأنًا من ذلك فى الأدب الألمانى . فى الوقت الذى استحدثت فيه هذه الأداة الجديدة من وسائل الانتقال ، رفض المذهب الخيالى لذلك العصر هذا التجديد دفعة واحدة ، واعتبرت السكة الحديدية إحدى المخترعات الفنية الشاذة ، ولقد لقبها هين ومعاصروه « الحيوان الحديدى » وعابوا عليها قضاءها على سحر الريف الهادى ، فى عصر وجدده الشعراء قد جن بالبخار الحقيقى العادى ، وصارت صفارة القاطرة هى التى تمزق سكون الليل بدلا من السائق الذى ينفخ فى بوقه ، وصارت البقاع التى تشقها الطرق الضئيلة المتعرجة تقطعها القضبان المستقيمة ، كأنها مرسومة بمساطر كبيرة ، وهكذا تتعارض العاطفة الرومانتيكية تماماً مع السكة الحديدية .

وبتغير الاتجاهات الرومانتيكية وظهور النزعة العقلية والمادية الجديدة فى النصف الثانى من القرن تغير الشعور إزاء هذا الاختراع الجديد ، الذى بدأ الناس يقدرُون الناحية العملية منه ، وأخذت السكة الحديدية مجردة من العامل التأثرى ، وضمت إلى عناصر الحياة والتفكير الأخرى . ولنضرب مثلاً قصة كيلرمان « النفق » التى كانت كثيرة الذبوع فى وقت ما ، وموضوعها إنشاء سكة حديدية تربط القارتين ، ولكن السكة الحديدية فيها ليست مقرونة بأى معنى روحى أو رمزى . وكان يمكن أن يكون الأمر متعلقاً بإنشاء جسر أو قطار ، وورش الإنشاء تخلق الوسط الذى تتحرك فيه شخصيات القصة دون أن تتأثر بذلك ألبتة .

لقد استخدم توماس مان القطار أيضاً فى قصته الفلسفية « الجبل السحري »

فيه بدأ هانس كاستورب صعوده البناى نحو المصحة حيث كان ينوى المكث سبعة أيام ، وهى التى صارت فيما بعد سبعة أحوام . وهذه الرحلة وصفت بكل البراعة الفائقة التى تميزت بها مؤلفات توماس مان . وهذا الصعود نحو القمم التى تغطيها الثلوج والتغير البطيء الذى يطرأ على النور ، والإضاءة بنور النهار ، وتغير النبات كل هذه الثروة وهذا التنوع للعالم الجديد تبدو لهانس كاستورب الثابت أمام نافذة ديوانه . ولكن السكة الحديدية فى نفسها وكذلك الرحلة ليس لها أى مغزى خاص ، وهى لا تتميز عن أى عنصر آخر فى نظر الشاعر ، وقد استخدمت فى هذه القصة العميقة الفنية دون أن يكون لها أى صيغة تأثيرية البتة . وهى تظهر فى القصة بنفس الكيفية التى ظهرت بها السكة الحديدية الصغيرة عند بروس ، وهى أحد العوامل الثانوية للشاعر والتأملات الخاصة .

ويظهر أن هنالك أسباباً متعددة لهذا الاختلاف الكبير فى الدور الذى يقوم به القطار فى الأدب الروسى ، الذى يهتم قليلا على عكس الأدب الغربى بالجانب العملى والفنى ، وإنما يوجه اهتمامه إلى قيمته العاطفية وإلى روحه ، إن صح هذا القول . ولقد أشرنا سابقا إلى الأثر الناشئ عن الإحساس الحقيقى الذى يسببه طول الأسفار فى أصقاع روسيا المترامية الأطراف حيث يكون المسافر شبه منقطع عن كل حياة عادية ومحصورا فى موقف سلبى تام تقريبا . ولكن يبدو لنا أنه لا بد من وجود أسباب أدق وأعمق من هذه للاتخاذ من أى عنصر فكرة هامة إلى هذا الحد . ويلوح لنا أن ثمة عاملا حاسما هو ذلك الذى نحب أن نسميه توافق الحركة : توافق الحركة ما بين السكة الحديدية والحياة الروسية . .

فالسفر بالسكة الحديدية يتميز بسرعة تهيب تجربة خاصة بها وحدها . وهذه السرعة تدركها جميع الحواس ، حيث تضفى عليها ضخامة قل أن توجد . فالأذن تسمع حركة السير وأصوات العربات المملة ، وبرى البصر الأشياء التى تجرى نحوه على أبعاد منتظمة ، ويحس الجسم كله بالحركة الدائبة التى تهزه . وهذه التجارب المختلفة التى يستطيع التحليل وحده فصلها بعضها عن بعض تنتظم جميعها فى تجربة واحدة تضمها وتكبرها ؛ وذلك هو الشعور الحاد بالانسياب المتواصل على قضبان السكة الحديدية . ويتراءى لنا أن هذه العاطفة

تكتسب تلك القوة لأن جريان الحركة على وتيرة واحدة يمثل التقدم في هذه الحركة الموسيقية أى في التأليف الفني . وضجيج المتوحشين المنتظم جدا والمثير في نفس الوقت ليس أكثر تقدما من حيث التنظيم الموسيقي من حركة السكة الحديدية . وسيكون أثره إذن في حدود إحساس طبيعي بحت بعد أن كان روحيا . ونحن نعرف أثر القوة الهائلة التي تتولد من التكرار السريع لنفس اللحن . ولنضرب لذلك مثلا الحركة الثالثة لسنفونية بتهوفن التاسعة ، فإن العنصر التأثيرى فيها يجاوز تقريبا حدود الاحتمال .

وثمة سبب آخر ، وهو تقصى محض ، للجاذبية التي يجدها الفنانون الروس نحو فكرة السكة الحديدية . فإن الرحلة في السكة الحديدية تمثل حياة تكون فيما وراء الحقيقة تقريبا ؛ فإن الديوان المغلق من جميع النواحي يخلق عالما على حدة يتعارض فيه كيانه الثابت الباقي ، باطراد التغير المستمر في العالم الخارجى . وحتى القضبان الحديدية نفسها وهي التي تعبّد صعوبات الطريق بإزالتها آخر اتصال بالتربة ، تساعد على هذا الانفصال عن كل ما هو من التربة الحية غير المستوية . وهكذا يتلاشى هذا الإحساس الجميل بالانسياب على طريق متعرج والشعور بسطح الأرض بمرتفعاتها ومنخفضاتها ، وهي العاطفة التي يحسها الإنسان إحساسا عميقا فوق دراجة وبنوع خاص على قباقيب الانزلاق — هذا الاتحاد بالتربة وهو الإحساس الذي يصفه بروسست في صورة قوية يتلاشى تماما عند ما يسافر الإنسان في السكة الحديدية .

فهذا الانفصال من عالم الحقيقة الذي هو من الصفات الأساسية للسفر في السكة الحديدية يرتبط ارتباطا وثيقا بالحالة السلبية المطلقة التي تكون جزءا من هذه التجربة . كل شىء يتركز في المسافر نفسه الذي يبقى في حالة سكون تامة . ولذلك كان تجاهل الحقيقة الذي يجب أن يؤدي في نهاية الأمر إلى الحالة السلبية ، إحدى الصفات الجوهرية لشخصيات القصص الروسية في هذا العصر ، ورفض الحياة ومطالبها هو إحدى أفكارها المحببة إلى النفوس . وهكذا نجد القصة الروسية في القرن التاسع عشر قصة تقور بالغ من الحياة ، ونرى جوتتشاروف في قصة « لوبلوموف » التي تعد من أروع قصص العصر يتخذ من الشخصية الرئيسية إنسانا في حالة سلبية تامة ، يعيش حياته كلها طالما فوق أريكة في حين يغطيه التراب ، وهو يموت ، كما يقول المؤلف ، بمرض روسى

يسمونه « الأبلوفيه » وهو فقدان التأثر وإرادة الكفاح وبلوغ غاية معينة في الحياة ، وفقدان النشاط والحيوية اللذين هما صفات الرجل الغربي .

وبما أن هاتين الخاصيتين الجوهريتين للأدب الروسي في هذا العصر : سلبية الفرد وسط طبيعة غنية متنوعة مأتجة من جهة ، وانفصاله وعزلته عن هذا العالم من الجهة الأخرى ، تبدوان لنا أيضاً كأنهما العناصر الأساسية الثابتة لتجربة السفر في السكة الحديدية ؛ فإنه يضاف إليهما عامل آخر يكاد يكون فنياً ألا وهو نظام حركة القطار نفسه .

ولكننا نعتقد أننا نكاد نلمح سبباً آخر فوق ما تقدم ، وهو الذي يساعد على جعل القطار رمزاً أكثر منه تعبيراً عن التأثير العميق ، وهو سبب يبدو لأول وهلة بعيداً . فعند ما أراد فاوست - وهو رمز الرجل الغربي ، إن لم يكن الألماني - وصف عمل أراده مثيراً على وجه خاص ، كان إخصاب المستنقع عنواناً لهذا العمل . فإخصاب التربة هو الوصف المرادف للعمل الصحيح المثمر ، وصار هذا العمل حلم جميع الذين يريدون الفرار من عقم الحياة . ولكن إذا كان إخصاب الأرض يتخذ لدى الرجل الغربي المزود بآلات مكانة الرمز المقدس ، فإنه في نظر الرجل الروسي لا يعنى إلا نشاطاً يومياً إن لم يكن عملاً مملاً . وعنده أن الآلة التي تحمل مكان السر الغامض هي التي تصير رمزاً ، رمزاً للتقدم والإصلاح والمثل أعلى منشود ومرغوب فيه للغاية ، ويضير لها قيمة شبه صوفية . ولهذا السبب يمكن أن تصير الشبكة الحديدية « نجمة العذاب » التي تتحدث عنها رؤيا يوحنا عند دوستويفسكي . ولهذا السبب أيضاً اختلط الحديث عن « السياسة والسكة الحديدية » عند تولستوى .

ولكن إذا أمكن لهذا السبب البسيط أن تصبح السكة الحديدية رمزاً في الأدب الروسي ، فإن العناصر النفسية والبالغة في التعقيد التي حللناها آتقاً هي التي كبستها هذه المسحة التأثيرية ، وكذلك أيضاً الحالة السلبية التي يوجد عليها الفرد ، ونعمة القطار المنتظمة الظاهرة .

وهذا الميل الخاص إلى القيم الموسيقية - إلى حد سير المؤلفات الأدبية على وفق القوانين الموسيقية - يغلب على المزاج الروسي بوجه عام . ولقد أحس تولستوى خطر ذلك إحساساً حقيقياً في الاتهام الذي أورده على لسان برودنتشيف . فالموسيقى خطر وهي من عمل الشيطان ، لأنها تخضع الإنسان وتسليه إرادته

وكرامته . وفي رأى برودنتشيف أن النزعة الحسية في موسيقى بتهوفن هي مصدر مأساته وجريمته .

لقد وجد الخلق الروسى كما وجد المزاج الروسى إذن في القطار — سواء في الميدان النفسى أم في المجال الفنى كالنغمة الموسيقية مثلا — عناصر مكنة من السمو ، بوسيلة بسيطة من وسائل الانتقال ، في مجال رمزى ، إلى مرتبة الحافز التأثيرى العظيم .

هيلد زالوسر

بعض القضايا الصحفية المصرية

محاكمة المؤيد في قضية التلغراف

عرفت مصر الصحافة الشعبية في وقت متأخر، فإذا غرضنا النظر عن «الوقائع المصرية» التي كانت أول صحيفة مصرية والتي لبثت منذ ظهورها في سنة ١٨٢٨ تتشع بالصبغة الرسمية فإننا لا نجد قبل بداية عهد إسماعيل صحيفة شعبية مصرية.

وكان ظهور الصحافة الشعبية المصرية في بداية عهد إسماعيل ثمرة يانعة من ثمار النهضة الأدبية التي بدأت في عهد محمد علي. وأمدت عهد إسماعيل بجمهرة كبيرة من الأدباء والكتّاب الذين درجوا في مهادها. ولم يفت إسماعيل أن يعنى بالحركة الأدبية فيما عني به من وجوه التقدم الاجتماعي. وكان لا بد لهذه التطورات الاجتماعية الجديدة التي شهدتها مصر يومئذ من أقلام تصور لها وتعبّر عنها، فكان ذلك إيذاناً بمولد الصحافة الشعبية.

بدأت الصحافة الشعبية في عهد إسماعيل بصدور مجلة «اليعسوب» الطبية التي أنشأها في سنة ١٨٦٥ الدكتور محمد علي باشا البقلي وإبراهيم الدسوقي كبير مصححي المطبعة الأميرية، فكانت أول صحيفة مصرية خاصة ظهرت بعد «الوقائع المصرية»، ولكنها احتجبت بعد زمن وجيز.

وفي سنة ١٨٦٧ أنشأ الشاعر الأديب عبد الله أبو السعود أفندي صحيفة «وادي النيل» سياسية أدبية، وكان عبد الله أبو السعود من أنجب تلاميذ روضة بك الطميطاوي وأعلام كعباً في التحرير والترجمة، وكانت «وادي النيل» أول جريدة سياسية مصرية خاصة شهدت الضياء، ولما غطلت في سنة ١٨٧٢ أنشأ مكانها محمد بك أنسي ولد صاحبها جريدة «روضة الأخبار» ولبثت تصدر مدى حين.

وفي سنة ١٨٦٩ صدرت مجلة «نزهة الأفكار» الأسبوعية التي أنشأها

محاكمة المؤيد في قضية التلغراف

إبراهيم بك المويلحي ومجد بك عثمان جلال ، وكلاهما من أساطين الأدب والبيان في عصر إسماعيل ، غير أنها لم تلبث أن عطلت بأمر الخديو بعد أن ظهر منها عددان فقط .

ثم ظهرت مجلة « روضة المدارس » الشهيرة في سنة ١٨٧٠ ، أنشأها العلامة علي باشا مبارك وقت أن كان ناظراً للمعارف ، وكانت مجلة حكومية تتولى نظارة المعارف إصدارها والإيتفاق عليها ، ويشترك في تحريرها معظم أعلام البيان في هذا العصر ، واستمرت على الصدور عدة أعوام .

وأنشأ جماعة من الأدباء اللبنانيين الذين نزحوا إلى مصر يومئذ فراراً من اضطهاد الحكم العثماني عدة صحف بمصر والإسكندرية ، منها جريدة « الكوكب الشرقى » التي أنشأها سليم الحموى سنة ١٨٧٣ ، ومنها جريدة « الأهرام » التي أنشأها في سنة ١٨٧٦ الأخوان سليم وبشاره تقلا والتي قدر لها أن تلعب خلال حياتها الطويلة أعظم دور في ميدان النشاط الصحفي بمصر والبلاد العربية .

وتوالى بعد عصر إسماعيل صدور الصحف الخاصة ، فصدرت جريدة « المقطم » في أوائل سنة ١٨٨٩ ، ثم تلتها جريدة « المؤيد » في أواخر هذا العام نفسه لترفع علم الجهاد الوطنى ضد المحتلين وأنصارهم ، وظهرت جريدة « اللواء » في سنة ١٩٠٠ فكان ظهورها إيذاناً ببدء عهد الصحافة المصرية الوطنية الكبرى .

وكما أن مصر لم تعرف الصحافة الشعبية إلا في عصر متأخر ، فكذلك لم تعرف الجرائم والمحاكمات الصحفية إلا في عصر متأخر أيضاً .

عرفت مصر هذه الجرائم والمحاكمات الصحفية منذ أواخر القرن الماضى ، وهى الفترة التى شهدت مولد الصحافة المصرية الوطنية الحقيقية ، وبدأ فيها جهاد الأعلام المصرية فى سبيل القضية الوطنية .

ويجب أن تذكر أن أول قانون مصرى للمطبوعات قد صدر فى سنة ١٨٨١ ، كذلك لم يصدر قانون العقوبات المصرى الجديد إلا حينما نفذ مشروع الإصلاح القضائى فى سنة ١٨٨٣ .

ولم تعرف الصحافة فى مصر قبل ذلك محاكمات صحفية بالمعنى الصحيح . وكانت السلطات تلجأ فى ردع الصحف إلى الوسائل الإدارية . وكانت أول

خطوة اتخذت لمحاكمة صحيفة تصدر في مصر في أوائل سنة ١٨٧٩ حينما غضب الخديو إسماعيل على جريدة « الأهرام » الناشئة لتعرضها لبعض تصرفاته ، فأمر بتعطيلها والقبض على صاحبها وتقديمه للمحاكمة ، ولكن تدخل الحكومة الفرنسية التي كان صاحب « الأهرام » يومئذ من رعاياها انتهى بالإفراج عنه وعن صحيفته ، والعدول عن محاكمته . وفي ٤ أغسطس سنة ١٨٨٤ قرر مجلس النظار تعطيل « الأهرام » شهراً لنشرها مقالات سياسية من شأنها أن تسيء إلى سمعة الحكومة وسمعة الخديو ، ولأنها نشرت في عددها الصادر في ١١ أغسطس مقالا لمراسل من لندن يفيض طعناً في الخديو وحكومته ، وقامت السلطات بالفعل بتنفيذ قرارات التعطيل وإغلاق مطبعة الجريدة بالإسكندرية بالرغم من مقاومة صاحب « الأهرام » . ولكن قنصل فرنسا تدخل في الأمر تدخلا عنيفاً وطلب بلهجة الأمر إلغاء هذه الإجراءات التي اتخذت ضد أحد رعاياه ، وعبثاً حاولت الحكومة المصرية الدفاع عن تصرفها . وبادر صاحب « الأهرام » برفع قضية تعويض على الحكومة المصرية أمام القضاء المختلط ، واضطر نوبار باشا ناظر النظار ووزير الخارجية أن ينزل في النهاية عند حكم الظروف وأن يسحب قرار الحكومة المصرية مع ما في ذلك من صدى لهيبتها وكرامتها^(١) .

بيد أن هذه لم تكن محاكمات صحفية بالمعنى الحقيقي . ومضت فترة أخرى قبل أن تقع المحاكمات الصحفية بالتطبيق لقانون العقوبات الجديد .

ومما تجدر ملاحظته في هذا الشأن أن عبء المحاكمات الصحفية كان يقع بالأخص على كاهل الصحف المصرية الصميمة . وأما صحف الأدباء النازحين فلم يكن يصيبها رشاش القانون قط ولم تتعرض حتى يومنا لأية محاكمة قانونية . والسبب في ذلك ظاهر ، وهو أن التشريعات الجنائية والاستثنائية كانت فوق أغراضها العامة ترمى إلى كبح جماح الصحافة الوطنية قبل كل شيء ؛ لأنها هي التي تحمل علم الجهاد القومي . وأما الصحف الأخرى فقد كانت وما تزال بعيدة عن هذه الاعتبارات القومية الخالصة ، وكانت تغلب عليها منذ البداية بواعث المصلحة الخاصة ، ولم يكن من صالحها قط أن تنزل إلى معترك الجهاد القومي .

(١) اعتمدنا في هذه الوقائع على ملف جريدة « الأهرام » الرسمي المودع بمحفوظات وزارة الداخلية .

محاكمة المؤيد في قضية التلغراف

ولم تعرف الصحافة الأجنبية في الوقت نفسه المحاكمات الصحفية ؛ لأنها كانت تتمتعها بالامتيازات الأجنبية بمنجاة من نصوص القوانين المصرية ، وكانت تحال إلى قضائها القنصلي المتسامح فيما يقع لها من ذلك .
ونلاحظ أيضاً أن فورة المحاكمات الصحفية تشتد بنوع خاص حينما تشتد مراحل الجهاد الوطني . فمثلاً نرى هذه المحاكمات تكثر عقب حادث دنشواي حينما اشتدت حملات للصحف الوطنية على الاحتلال ، وكذلك نراها تكثر أيام الحركة الوطنية الأخيرة ، ومنذ صدور الدستور في سنة ١٩٢٣ ، أعنى مذكأغلاق القانون باب التعطيل الإداري ، ونراها تكثر وقت المعارك الحزبية الشديدة .

كانت قضية التلغراف الشهيرة أول قضية صحفية مصرية رنانة، وقعت حوادثها في سنة ١٨٩٦ وكان بطلها الصحفي الكبير الشيخ علي يوسف منشئ جريدة «المؤيد» . وقد صدرت « المؤيد » ، كما قدمنا ، في ديسمبر سنة ١٨٨٩ وكان ظهورها حادثاً صحفياً ذا شأن ، وكان محققاً لأمنية تجيش بهانفوس الوطنيين منذ صدور جريدة «المقطم» قبل ذلك بعدة أشهر . وكما أن المقطم كان يومئذ داعية الاحتلال وحامل لوائه ، فكذلك كان « المؤيد » يحمل لواء المعارضة لسياسة الاحتلال ، وظهر صاحبه ومحرره الشيخ علي يوسف منذ البداية بمقالاته القوية الرنانة . وكان الشيخ من تلاميذ الأزهر النوابغ ، نظم الشعر وعالج الكتابة منذ فتوته ، وأنشأ مجلة « الآداب » مع زميله الشيخ أحمد ماضي في سنة ١٨٨٧ ثم عطلها لينقطع إلى تحرير « المؤيد » . ولم تلبث المؤيد أن نمت وتقدمت بسرعة ، والتفت حولها كثير من الكبراء والوطنيين يشدون أزرها في كفاحها ضد السياسة الانجليزية والصحف الاحتلالية . وكان للمعارك القلمية التي نشبت يومئذ بين صحف الفريقين أعظم وقع في البلاد . وعرفت « المؤيد » فوق ذلك بتزعتها الإسلامية القوية وذاع اسمها في العالم الإسلامي .

وكان طبيعياً أن تزعج سلطات الاحتلال لهذا الصوت المدوي الذي يعلو على صوت أنصارها والذي يبتث حولها عواطف البغضاء والسخط ، وأن تحاول القضاء عليه بمختلف الوسائل ، وكانت تبرص للفرص للايقاع بجريدة «المؤيد» وصاحبها الصحفي الجريء . وسرعان ما ألقت فرصتها سانحة في تدير قضية التلغراف .

محاكمة المؤيد في قضية التلغراف

وتفصيل هذه القضية الشهيرة هو أن جريدة « المؤيد » نشرت في عددها الصادر في ٢٨ يولييه سنة ١٨٩٦ تحت عنوان « أحوال الجيش المصرى فى الحدود » صورة برقية سرية بعث بها اللورد كتشنر سردار الجيش المصرى إلى ناظر الحرية في ٢٦ يولييه عن أحوال الحملة المصرية فى دنقلة وأحوال الجيش الصحية . وهذا ما نشرته « المؤيد » :

« تعيد التلغرافات الأخيرة الواردة من كوشة أمس على نظارة الحرية التفصيلات الآتية عن حالة الجيش المصرى فى الحدود .
« وقد أظهر سعادة السردار أسفه أنه لم يتمكن منذ أيام من إرسال التفصيلات لأنه كان شديد التعلق من الكوليرا التى انتشرت هناك فى كل منطقة ومركز من مراكز خطوط المواصلات وفى المعسكرات . . . » ثم قال : « وقد حصل فى أسوان بين عساكر الحضرة الخديوية الفخيمة ٢٩ إصابة توفى منها ١٥ شخصاً أما فى كروسكو فقد حصلت ٢٢ إصابة توفى منها ١٣ وفى حلما ١٥٦ إصابة توفى منها ٩٨ وست وفيات فى الجيش البريطانى .

« ولم تحصل إصابات فى الجيش بسواردة . وأمل سعادة السردار أن الاحتياطات التى اتخذت تدفع عنه فائلة الوباء ، ولكن هذا الوباء شديد الوطأة جداً بين اللاجئين إلى سواردة من الأهالى والآتين إليها من الجنوب بقصد الاختفاء . وقد توفى منهم عدد كبير ، وقد تأخر وصول سكة الحديد إلى هنا بالنظر إلى سوء حالة الواورات القديمة ، وهذا استوجب تأخير وصول الأدوات اللازمة الكافية لاستمرار العمل فيها بدون انقطاع ، وإلا فكان يجب أن يصل القطار إلى هنا من زمن طويل . ويوجد الآن وابوران جديدان فى الطريق المأمول أنهما يساعداننا ، والوابورات المستعملة اشتغلت أكثر من إحدى عشرة سنة . وأتأسف أن أقول لسعادتكم إن فيضان النيل ليس بكاف لتسيير السفن البخارية فى الشلالات ، وأن هنتر باشا الآن فى حلما مستعد للشروع فى هذه الأعمال بمجرد ما يوجد ماء كاف فى الباب الأكبر من الشلال الثانى .

« ويظهر أن الدراويش عولوا على المدافعة عن دنقلة . ولكن الصعوبات التى كانت توجد للآن أمامنا قد زالت ، ولذلك سترحف لاحتلال الإقليم .
أرسل السردار هذه البرقية فى ٢٦ يولييه باللغة الفرنسية إلى ناظر الحرية محتوية على ٥٦٦ كلمة ، فتلقاها مكتب تلغراف الأزيكية وأرسلت مباشرة إلى نظارة

محاكمة المؤيد في قضية التلغراف

الحربية وحملها إلى الناظر في منزله جاويش انكليزي، فاطلع عليها واحتفظ بسريتها. ولكن ظهرت « المؤيد » بعد ذلك بيومين وفيها ترجمة البرقية كلها حسبما تقدم، فانزعجت لذلك نظارة الحربية . وكانت جريدة « المؤيد » توالى منذ حين فشر كثير من الأنباء السرية عن سير الحملة المصرية وأعمالها مما يرد إلى نظارة الحربية في برقيات سرية متعاقبة دون أن تهتدى السلطات إلى المصدر الذي يمد « المؤيد » بهذه الأنباء ، واضطهد من أجل ذلك عدة من موظفي إدارة التلغراف وشردوا في مختلف الأقاليم .

فلما نشرت « المؤيد » هذه البرقية السرية الخطيرة ضاقت السلطات ذرعا بهذا التحدي ، ونشطت إلى تحري الحقيقة ، فبثت العيون والأرصاد في مكتب التلغراف ، وسرعان ما اتجهت الشبهة إلى موظف ملحق به يدعى توفيق أفندي كيرلس ضبط وهو ينقل محتويات برقية كانت مرسلة إلى جريدة « الديلي تلغراف » بلندن من مراسلها في القاهرة فقبض عليه ، وظهر في التحقيق أنه كان وقت ورود برقية السردار يقوم بأعمال النوباتجية بالمكتب ، وإذن فقد كان من الراجح أنه هو الذي نقل البرقية السرية وسلمها إلى صاحب « المؤيد » .

وفي الوقت نفسه تقدم الدكتور فارس نمر أحد أصحاب جريدة « المقطم » إلى السلطات يشكو بأن مراسل جريدته في ببا أرسل إليه برقية رآها منشورة بنصها في جريدة « المؤيد » في يوم ٢٨ يولييه قبل أن تظهر في « المقطم » وكانت خاصة بنبأ قبض السلطات على أحد كبار الأشقياء الفارين . فكان ذلك دليلاً جديداً يعزز الشبهة ضد الموظف المقبوض عليه . ولكن توفيق كيرلس أنكر ما نسب إليه ، وأنكر بنوع خاص أنه هو الذي أمد « المؤيد » بنص البرقية السرية ، وأنه لا يعرف صاحب « المؤيد » إلا معرفة سطحية جداً .

وكانت سلطات الاحتلال تحاول بكل وسيلة أن تنكل « بالمؤيد » وصاحبه الشيخ علي يوسف خصوصاً وأن « المؤيد » كانت منذ البداية تعارض بشدة في تسيير الحملة المصرية إلى السودان وتنتقد الظروف التي نظمت فيها الحملة وما جرت به على موارد البلاد من إرهاق لا يحتمل ، وكانت في اليوم السابق لنشر البرقية قد نشرت مقالا شديداً تكرر فيه مطاعنها وتبين فيه ما لحق البلاد من عنت وما أضراب جيشها من الشدائد والمهانة من جراء هذه الحملة الخطيرة التي

أرسلت على عجل والتي أريد بها تحقيق مشاريع الإنجليز قبل كل شيء .
ولكن التحقيق الذي أجرته النيابة العمومية وقام به وكيل النيابة الشاب
محمد فريد (الزعيم الوطني محمد بك فريد فيما بعد) لم يسفر عن دليل يمكن إقامة الدعوى
ضد صاحب « المؤيد » . ولهذا قرر الأفوكاتو العمومي أن لا وجه لإقامة الدعوى
ضده . ولكن هذا القرار لم يرق الإنجليز ، وأوعز المستشار القضائي الإنجليزى
جونسون باشا لناظر الحقانية بوجوب إعادة التحقيق مع الشيخ على يوسف وتقديمه
للمحاكمة ، فنزلت النيابة العمومية عند هذه الرغبة ، وكان هذا التصرف مثار
الإنكار والنقد ، ونشرت الصحف الوطنية مثل « الوطن » و « الرائد المصرى »
وغيرها مقالات شديدة اللهجة تلوم فيها النيابة العمومية على نقض قرارها
الأول ، وشاركتها بعض الصحف الأجنبية المحلية مثل « الفار دالكسندرى »
في هذا اللوم ، وكانت جريدة « المؤيد » تنقل هذه المقالات إلى قرائها تباطا .
على أن هذه الحملة لم تغن شيئا ، فحقق مع صاحب « المؤيد » كما حقق مع
توفيق أفندى كيرلس ، ورفعت الدعوى العمومية على الرجلين ووجهت إليهما
تهمتان : الأولى تهمة إفشاء الأسرار البريدية والتلغرافية المنصوص عليها في
المادة ٦٨ عقوبات (١٥٤ جديدة) والثانية تهمة إفشاء تلغراف جريدة « المقطم » .
واعتبرت توفيق كيرلس فاعلا أصليا في التهمتين والشيخ على يوسف شريكا له .
ونظرت القضية أمام محكمة جنح عابدين في يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٩٦
وعقدت الجلسة برئاسة القاضى محمود خيرت بك وجلس فى كرسى النيابة على بك
توفيق ممثلا للاتهام ، وتولى الدفاع عن الشيخ على يوسف الأستاذ أحمد بك الحسينى
وعن توفيق أفندى كيرلس الأستاذ إبراهيم بك الهلباوى ، وكان كلاهما من
أعلام المحاماة فى ذلك العصر ، واستمر نظر القضية ثلاثة أيام متوالية ، وكان من
شهودها ناظر الحرية ومستتر ويلي مدير التلغراف وعدد من الصحفيين منهم
الدكتور فارس نمر وتادرس أفندى شنوده صاحب جريدة « مصر » ، وكان
الجمهور يتتبع حوادث القضية باهتمام بالغ ويحتشد فى ساحة المحكمة وحولها أعظم
احتشاد . وأبدى الدفاع مقدرة عظيمة فى تنفيذ الأدلة التى تقدم بها ممثل النيابة
وعارض فى التطبيق القانونى وطالب ببراءة المتهمين .

وفى مساء يوم الثلاثاء ١٩ نوفمبر أصدرت المحكمة حكمها فى القضية وهو
يقضى بحبس توفيق أفندى كيرلس ثلاثة أشهر عن تهمة إفشاء تلغراف السردار

محاكمة المؤيد في قضية التلغراف

وتبرئته من تهمة إفشاء تلغراف «المقطم» ونبرئة الشيخ على يوسف من التهمتين ، فاستقبل الجمهور الحكم بالهتاف المدوي للقضاء العادل ، وكانت له رنة فرح عظيم في سائر الدوائر الوطنية ، واعتبر نصراً عظيماً للصحافة الوطنية وحرية الصحافة ، واستمرت «المؤيد» مدى أيام تخصص صفحات كاملة منها لنشر المرافعات في هذه القضية الرنانة .

كان لصدور حكم البراءة بالنسبة لصاحب «المؤيد» وهو المقصود بالذات وقع سيء في الدوائر الرسمية ، وكان من آثاره الأولى أن صدر الأمر بنقل القاضي الذي أصدره إلى محكمة مصر ، وكذلك صدر الأمر بنقل محمد بك فريد وكيل النيابة الذي قام بتحقيق القضية إلى إحدى نيابات الوجه القبلي ، وكان في تصرفه منذ البداية ما ينم عن وطنيته وعطفه على المتهمين . ولكن فريد بك رفض تنفيذ الأمر إذ وجد فيه مساساً باستقلال القضاء وآثر الاستقالة من منصبه واشتغل بالحمامة ، ولم يلبث أن انضم إلى صديقه الشاب النابه مصطفى كامل في العمل على تنظيم الحركة الوطنية وقيادتها .

أوأوعزت الحكومة إلى النيابة باستئناف حكم محكمة عابدين مؤملة أن يستدرك القضاء الأعلى ما فات القضاء الجزئي . ونظر الاستئناف على عجل أمام محكمة الجناح المستأنفة في يوم الثلاثاء ١٥ ديسمبر سنة ١٨٩٦ وتولى رئاسة الجلسة على بك ذو الفقار ، وتولى الدفاع عن المتهمين نفس محامييهما أمام محكمة عابدين ، وكان ظاهراً من التلخيص الذي تلاه القاضي على هيئة المحكمة أن الجو مهاد للدفع مشبع بالعطف على المتهمين . ولم تطل المرافعات في القضية واختلت المحكمة للمداولة مدى ساعتين كاملتين ثم أصدرت حكماً على الأثر بتأييد حكم البراءة بالنسبة لصاحب «المؤيد» وإلغاء الحكم المستأنف بالنسبة لتوفيق أفندي كيرلس وبراءة من التهمتين المنسوبتين إليه . فاستقبل الحكم بأعظم مظاهر الحماسة وهتف الجمهور الحاشد هتافاً عالياً بحياة القضاء العادل ، وأبى إلا أن يحمل الشيخ على الأعناق . ووصفت «المؤيد» هذه المظاهرة الوطنية في قولها : «كان الآلاف من الناس في قاعات المحكمة فلما نطق الرئيس بالحكم هتف الناس لتجى العدالة ، ليحى الاستقلال ، ليحى المؤيد ، وحملوا الشيخ من قفص الاتهام حتى سلم المحكمة .»

وعلقت « المؤيد » في نفس اليوم على صدور هذا الحكم بما يأتي : « ونحن نقول عن حكم الاستئناف في قضيتنا هذه كما يحق لكل المصريين الذين سرهم هذا الحكم اليوم إن هذا الحكم العادل جاء برهانا قاطعا على أن القضاء الأهلي في مصر لا يزال باقيا على ما كان عليه من الاستقلال وعلى أنه إنما يصدر أحكاما لا أنه يؤدي خدما . »

وهكذا خاب أمل الإنجليز وأمل الحكومة الاحتلالية في تسخير القضاء لرغباتها وفي الايقاع بصاحب « المؤيد » الذي أزعجت صيحاته المدوية سلطات الاحتلال ، وفي إرهاب الصحافة الوطنية التي أخذت تعمل لايقاظ الرأي العام ، وإحباط الدعاية المنظمة التي كانت تقوم بها الصحافة الاحتلالية لتثبيت قدم الاحتلال وتوطيد أركانه .

بل كان للقضية بالعكس أثرها في تقوية الحركة الوطنية التي كانت يومئذ في بدايتها وفي ذيوع جريدة « المؤيد » وارتفاع مكاتها (١) .

محمد عبد الله عنانه

(١) كانت اعداد جريدة « المؤيد » أخصب مصادرا في عرض حوادث هذه القضية وقد رجعنا أيضاً إلى مذكرات المرحوم شفيق باشا ج ٢ (القسم الثاني) ص ٢٢٠ — ٢٣١ وإلى ترجمة محمد فريد لعبد الرحمن الزافى بك ص ٢٥ — ٢٧ .

الضياء المظلم

[كانت ليالى القاهرة الدامسة فى سنى الحرب ، تفتح
له أفقاً موشية من الأنس والبهجة ! حتى إذا رجع إليها
الضياء هبط إلى عالم الأناسى الموحش الكتيب !]

عاد الضياء فعدتْ منطويّاً على بَرَحِ الآسى
ذهب الظلامُ به ، وكا نَ لى الرقيقِ المؤنسِ
أُزعى « سُهيلًا » فيه وَر داً ، و « الثُّريا » نَزجسا
أُتْرَى فَوادى صار خُفّاً شأ يَكْذُ الخُنْدِسا (١)
كَمْ وَدَّ لو طَمَسَتْ غَوَا شِيبَه النَّهَارِ المَشْرِيسا
تَتَنَفَّسُ الأشجانُ فيه إذا الصُّباحُ تَنَفَّسا
يا من أضاء (٢) لنا الدُّجى هَلَّا أَضْأَتِ الأنفُسا

لا تَأْخِىنِ « مُرَزَّ » من كلِّ شىء . أفكسا
كانتْ « عَسَى » بعضَ العَزَا ، له ، فخانتَه « عَسَى »
فقدَ الحياةَ ، وطيبَها ، مَنْ باتَ مَفْقُودَ الآسى (٣)

على الخندى

(١) الليل الشديد الظلمة .

(٢) المراد « شركة النور » .

(٣) بضم الهمزة وكسرهما جمع أسوة : ما يشعزى به الحزين ، وتطلق على الصبر .

جولة في « ما بعد الحرب »

السفر — لوندرة — باريس

[سافر في الأسفار خمس فوائد]

من بيت شعر ضيق

مطار الماظة — أو الماسة ، وقيل أدماسة ، كما يريد ولا شك أصحاب المذيع والشاطر والمشطور بينهما لا أدري ماذا — يتوهج تحت لمسة الشمس المائلة إلى الغروب ، ذات يوم من أيام يولييه . وكأني طائد إلى الإسكندرية بالطيارة كما اعتدت منذ أنشئت الشركة المصرية . ولكنني في هذه المرة أحمل جواز سفر وأقف في دوري لتفحص أوراقى وحقايبى . فرحلتى تنتهى إلى أبعد من الإسكندرية ومن حدود مصر وغيرها . اليوم أسافر إلى لوندرة ، إلى عالم « ما بعد الحرب » لأول مرة .

الطائرة « داكوتا » ذات العشرين مقعداً أو نحو ذلك ، واتجاهها إلى الغرب فوق الصحراء ، وهذا أيضاً ليس جديداً على ، فقد ركبته سنة ١٩٣٢ . طائرة « فيكرز فيكنج » الحربية التى تحمل عشرين جندياً ، وطرت بها فى اتجاه الغرب حتى المغفرة ، وفوق منخفض القطارة إلى واحة سيوة . والطيران بعيد المدى عبر حدود الدول عرفته بعض الشئ حين سافرت من أثينا إلى بوخارست ، ومن روما إلى أثينا ، ومن القاهرة إلى بيروت . وأنا بعيد العهد بالطيران . أول ما حلفت فى الجو كان عام عبور لندبرج للمحيط الأطلانطى — لندبرج خمر أميركا الذى استحال خلاً بجرثومة النازية — سنة ١٩٢٧ إذا كنت أذكر جيداً . ركبته حينذاك طائرة ذات مقعدين مكشوفين ، فى حفلة « التعميد الجوى » كما تسمى . طائرة كانت إلى طائرات اليوم غربة كارو هوائية ، ألست قبل المعود إليها « لاسة » من

جولة في « ما بعد الحرب »

الجلد ، وحلقت عشرين دقيقة أشاهد المدينة الفرنسية التي كنت أسكنها
ذاك العام .

ثم سافرت بعد ذلك من باريس إلى لوندرة ، في أول زيارة لإنجلترا
بالطائرة .

ومع هذا لم يخل سفرى إلى إنجلترا في صيف ١٩٤٦ من الجدة ، لطول
المسافة ، ومدة الطيران ، والطيران في جنح الظلام ، وأهم من ذلك ، لأنه أول
سفر لي بعد الحرب إلى بلاد « ما بعد الحرب » إلى أوروبا ، مثلنا الأعلى في كل
ما نريده لبلاذنا من خير ورفعته ، أوروبا التي دافعت وأدافع عن حضارتها
رغم تلك الحركات الرجعية التي تريدنا أن ننظر إلى الشمس في مطالعها ، والموكب
يسير غربا ، أن نولى شطر القرون الوسطى ، والتاريخ ينهب حقبة العشرين .
أول سفر إلى أوروبا المريضة التي انتهى بها المرض إلى نوبة جنون قاتل دام
سنة أعوام .

القاهرة — العضم — مالطة — مارسيليا — لوندرة . بدأت الرحلة من
ألمالطة الساعة السادسة مساءً ، وختمتها بمطار هيث رو الساعة الأولى بعد
ظهر اليوم التالي : عشرين ساعة بحساب فرق الوقت ، جلها طيران ، إلا ساعة
انتظار في مطارات العضم ومالطة ومارسيليا . كل ما أذكره من تلك الرحلة :
هزيم الآلات المستدير ، ومنظر الصحراء يتقلب من الذهبي إلى البنفسجي
والرومادي فالأسود الحالك . والمصباحان الأخضر والأحمر إلى طرفي جناح
الطائرة ، وشرارات تنبعث من جسم الطائرة الضخمة ، وأضواء تنتشر في
المطارات وسط الليل البهيم ، منها الثابت ومنها المتحرك كفنارات الموانئ .
وأكلات إنجليزية ازدردتها في شبه غفوة النائم ، يقدمها جنود سلاح الطيران
البريطاني في جنح الليل أو قرب مطلع الفجر ، وصخور مالطة ، وزرقة البحر
الأيض ، وجزائره الساحرة ، والإفطار الفرنسي الخفيف تقدمه مرسيليات
حسناء ، وفرنسا بطولها في اتجاه وادي الرن . والمائش بسحبه الكثيفة ،
والريف البريطاني الجميل بمنازله ذات الطراز الموحد الممل .

لم أتعرف في فرنسا على غير نهر الرن ، عند ذلك الكوبري العتيق المهدم
الذي عرفته في أثنىون باسم قنطرة سان بنازيه . وكان دليلي إليه الكوبري
المعلق القائم إلى جواره يصل بين فيلنوف وأثنىون .

بدأ « ما بعد الحرب » . لعيني عند هيث رو المطار البريطاني الكبير ، المزدهم بالطائرات من كل صوب وحجم وشكل . بخلو من المباني ، تقوم إدارته في خيام عسكرية كالحة اللون . يتلقاك رجال البوليس والجمارك بالنظرات المعهودة في كل زمان ومكان ، نظرات عابسة حازمة ، كلها تشكك في أمانتك ، وتجهم لقدومك ، فأنت فم ومعدة وشهية تضاف إلى الملايين من أشباهها في بلاد لا تفي بحاجة سكانها . ثم إنك لا بد تحمل في طيات ثيابك الذهب والجواهر والنشرات والقنابل . فإذا عرف الموظفون بهويتك ، وبما في حقائبك من هدايا غذائية لأصحابك في إنجلترا ، ابتسموا فيما يشبه الاعتذار ، وتمنوا لك سفرا طيبا .

ثم اختراق تلك الضواحي الهائلة حول لوندرة التي تجعل من المستحيل عليك تحديد نهاية الأرباض وبدء المدينة . ساعة طويلة في أتوبوس شركة الطيران ، أخترق أثناءها ذلك المزيج بين الريف والحضر ، الذي يميز الانجليزى . فهو إذ يبتعد عن المدينة لوندرة ، لا يعرف على وجه التحقيق أهو يعيش في الحضر والريف عند أقدامه ، أو يسكن الريف والحضر في متناول يده .

وأخيرا هذه هي لوندرة ، بمحذاتها الهندسية البهجة ، وأبنيتها السوداء القبيحة ، وازدحامها المرهق ، وأتوبوساتها الفرحة بلونها الأحمر ، الشاغرة بطابقيها ، وحركة المرور المعكوسة المقلقة باتجاهها إلى يسار الطريق بدل يمينه ، وبوليسها ذى القبعات الناقوسية الكحلية .

كلا ! لم أنس لوندرة منذ سنة ١٩٣٨ . فلم يمض علىّ فيها يومان حتى وجدتني أعرف من أحيائها وطرقها ودورها وآثارها ما عرفت من قبل . ولم أقض ساعة بين أهلها حتى اعتدت ذلك الهدوء البارد ، وشعور « عدم المبالاة بالآخرين » ، والحدود الموضوعة للسلوك في البيع والشراء ، والاتصال بالناس .

هم هم الانجليز بوجوههم التي لا تتم عن شعور ، إلا أن يكون شعور من يشكو الإمساك المستعصى ، ولكن النساء أكثر أناقة وعناية بجمالهن ، وربما كن أشد صلفاً واعتدادا إذا كان رجالهن بدوا أشد تعباً وإنها كما نبذوا القبعات السوداء المستديرة التي يسميها الفرنسيون « للسنتاوى » والتي كانت مصدر عجبى عند ما زرت لوندرة لأول مرة سنة ١٩٢٧ فلم أك أتصور شعباً

با كمله يقاب على رأسه هذه الآنية المضحكة التي عرفت أول معرفتي لها على رأس شارلي شابلن ابن السبيل المهمل الأنيق .

شعور واحد يتملكني في عشرة أيام الأولى بلوندره : شعور الإعجاب المتناهي بعاصمة الدولة التي أنقذت العالم من أعظم الشرور التي حاقت به في تاريخه الطويل . قلب الأمة الباسلة العنيد التي وقفت وحدها في مواجهة الأفاكين البرابرة الذي تحدوا البشرية جمعاء ، والتي تلقت الضربات الوحشية تنصب عليها من السماء حمها ونارا ، ومن قاع البحر حمها ونارا .

كنت نفورا بإنسانيتي إذ وجدت من هؤلاء الناس درعا واقيا للحضارة . وسواء عندي أن يكون دفاع الانجليزى عن بلاده وحضارته وإمبراطوريته ، ما دام هذا الدفاع في ذاته ذودا عن الحضارة والإنسانية قطعاً .

أنا هنا بين رجال ونساء راضين بما حققوا . غلبوا على أمرهم ، وطرّدوا من أوربا والملايا ، وقطعت عليهم أغلب طزقهم البحرية ، وهاجمتهم الطيارات والقنابل الطائرة والغواصات في كل مكان ، وأنذروا بالفناء قبل الغزو ، أو بالغزو فالفناء . ضيق عليهم أعداء البشرية الخناق ، على حدود مصر والسودان ، وفي العراق وكريت ومالطة والهند . ولكنهم ثبتوا كصخور مالطة ودوفر وجبل طارق ، وردوا الضربات بأقل منها ، فبمثلتها ، فبأضعاف أضعافها . ثم جاء دورهم في الغزو ، ففزّلوا بالقارة الأوربية ، وحرروا فرنسا والبلجيكا وهولاندة وإيطاليا ، ثم استعادوا بورما والملايا ، واكتسحوا قطاعان الذئاب الفاشستية يردونها إلى عقر أوكارها ، حتى قضوا عليها . وهم اليوم يتحكمون في ديارها . إن قدّموا الخير فبشعور إنساني كريم ، وإن أعملوا الشر فبروح انتقام مفهوم ، عادل أو غير عادل تبعاً لمزاج من يريد أن يبدي حكماً .

اشتركت في الغلبة شعوب أخرى بدمائها وذهبها وصناعاتها ، ولكن أمر هؤلاء وأولئك ليس موضوعي ، ورحلتى في « ما بعد الحرب » بدأت هنا في بريطانيا . ومناظر التدمير الماثلة لعيني تخص عاصمة بريطانيا . والشعب حولي هو الشعب البريطاني ، بذل وأعطى ، دافع وهجم ، قاتل وضحى ، صبر وصابر ، حتى ظفر وانتصر .

كانت آثار التدمير في لوندره هي مزارى هذه المرة . وإذا كانت زيارة الآثار القديمة مبعث الشعور بالجمال الفنى ، ووحى التاريخ الغابر ، فالبيوت

المدبرة ، والكنايس المبقورة — تلك الكنيسة الاسكتلندية كتب الاسقف على جانب من حائطها المهدم : تجرى الصلوات بالجنح الايسر — والميادين الجديدة فسحتها قنابل هرمان جورج حول كاتدرائية سان پول ، هي أيضاً مبعث شعور خلقي ، ووحى تاريخ قريب ، نطالع فيه عمى البربرية وتخرص النازية التي نادت بالمدافع بدل الزبد ، لتفقد في آخر أمرها المدافع والزبد ، ولا تجد في نهاية الطريق سوى حبل المشنقة ورصاص البنادق وأنابيب سيانور البوتاسيوم ، والجوع والذلة وخصاصة العيش فيما أبقت عليه مدافع الروس وقنابل القلاع الطائرة .

قال لي صاحبي الانجليزي : لقد اعتدنا أن نرى التحايدين أقل إحساساً بما تركه التدمير من آثار في بلادنا .

قلت له : ولكني لست محايداً .

أجابني : ولكنك لم تكن محارباً .

فطأطأت رأسي ، ولم أجرو أن أذكر له تاريخ دخول بلادي الحرب ، بل اكتفيت بترداد جملي : ولكني لم أك محايداً .

والإنجليزي رجل مهذب ، لا يحب الوصول بالحديث إلى غايته ، فسكت . في رويال ألبرت هول لحضور حفلات البرومناد كونسرت ، أحسست بروح شعب محب للموسيقى . والبريطاني كان في كل عصوره سميعاً للموسيقى ، وإن لم يجد في تاريخه ما يفاخر به شعوباً أكثر إنتاجاً في التأليف الموسيقي . ولم أنس هنا البحث في أنحاء البناء المستدير الواسع ، أثر قنابل النازي .

وفي الناشونال جاليري والتيت رأيت الشعب الحريص على تراثه الفني يخرج توماً من الخبايا ليؤكد القيم الباقية . وفي الجامعة والآكاديميات والمعارض والمسارح ودور الكتب والمحاضرات عرفت للمرة المائة بعد المائة سر رقي الشعوب . فهو في غير الزبد والمدفع ، إنما هو في فكر الفيلسوف ومعمل العالم وريشة المصور وقلم الكاتب والموسيقى .

هنا سر الدفاع الباسل عن حضارتنا . فكل إنسان ، حتى الهمجي ، مستعد للبذل في سبيل الذود عن حومته . كل يدافع عما ملكت يمينه ويساره ، ولكن . . . فرق بين أن أدافع عن منازل أجدادي وآثارهم الفنية

والذهنية ، عن نوع من الحياة أساسه الكرامة الإنسانية ، وبين أن أدافع عن حياة دنيا ، ووطن استأثر به غنيه دون فقيره ، ورفض أبناؤه الشعور بتاريخه ومجده المؤثل . وحياة الانجليزى تنقلت بين الفقر والغنى والنجاح والخيبة ، والنبوغ والغباء ، والمغامرات شريفها وخسيسها ، ولكنها كانت حياة مجموعة بشرية لا تعرف الدل ، ولم تقبل الضيم يوماً في تاريخها ، ولم تنكر حقبة من هذا التاريخ .

مسائل الدفاع هذه قد لا تدور بخلد الجندي البسيط بنفس الوضوح الذى تبدو فيه لعين المفكر المتعلم ، ولكنها حية في نفسه ، كأنها قلبه النابض الذى لا يفكر به وهو ينبض ، وليس مضطراً إلى التفكير فيه لكي ينبض . يمثل هذا تحميا الأمم وتهض .

هذا الشعب المنتصر يعيش قريباً من الجوع ، يُقْتَر عليه في الخبز واللحم ، ومحسب عليه الكساء وأدوات النظافة ، هذا الشعب الذى استولت الدولة على معظم إرادته لترد عنه غوائل المعتدى ، يرى نفسه في آخر المطاف غالباً يصرف بعض إرادته على المغلوب ، ويعيش ثلاثة أرباعه على إيراد الربع الباقي . فالدولة تأخذ من الغنى لتعطي الفقير . ومهما كثر ما تأخذ من الغنى ، فهي أبعد من أن تجعل من الغنى فقيراً ومن الفقير غنياً . ولكنها خطوات في طريق التحرير ، تحرير البشرية من العوز ، طريق العدالة الاجتماعية ، عدالة المساواة لا أمام القانون وحده ، بل أمام الاقتصاد أيضاً .

أعشى البصر من لا يرى في الشعب البريطانى اليوم أثر هذا الانقلاب الاقتصادى الخطير . قال لى أحد أثرياء الانجليز ، ممن عاشوا طوال الحرب بعيداً عن إنجلترا : غير أنك تجمد الشعب أقل تهديباً وأدبا . ولكنى لم أراً أثراً لهذه الملاحظة الرجعية الخاطئة . فقد رأيت في الشعب البريطانى اليوم قوة اعتداد بنفسه اجتماعياً ، ورفضاً لخيلات الماضى ، وتمسكاً بحقائق الاقتصاد والاجتماع . يرفض أن ينحنى للكبراء لأنه كسب الحرب بعرق جبينه ودموعه ودمه ، إذا كان الكبراء كسبوا الحرب بما لهم . وكم كسبت الحروب بدم الفقير ومال التكبير ، نخرج الكبير أكثر غنى وأسعد حالاً ، وخرج الفقير أشد فقراً وأفقر دماً . والشعب البريطانى اليوم يرفض هذا النوع من كسب الحرب . فلكل بقدر ما ضحى ، ولكل بقدر ما بذل من جهد وعناء لا من مال ورخاء .

كان انتصار العمال وهزيمة الطغام الرجعيين موضع دهشة لنا في مصر؛ لأننا لم نكن نعرف من أمر تطور « ما بعد الحرب » شيئاً ، ولأن صورة العالم الخارجى لا تأتينا إلا عن طريق صحافة المال والائمانية ، وهى صورة أعدتنا لغير انتصار حزب العمال . ولكنى بعد زيارتى القصيرة جداً للوندره عرفت أن هذا الانتصار كان طبيعياً ، منطقياً ، متوقعاً ، وأن العكس هو موضع الدهشة لو تم .

لم أر إنساناً يجمع الكل على احترامه أكثر من ونستون شرشل كزعيم حرب ، كرجل قاد أقدار أمته فى أخرج فترة من تاريخها وتاريخ البشرية . . . ليس غير . أما فى حكم البلاد بعد الحرب ، فهو آخر من يصلح ، بسبب ماضيه ومزاجه ورجعيته وحزبه الذى آذنت خاتمة حياته ولا يريد أن يموت .

وإذا قدر لحكومة العمال أن تفقد جزءاً من أغليبتها فلن يكون ذلك لحساب المحافظين بحال ، ولكن لشعبة يسارية من حزب العمال خير راضية عن سياسة حكومة العمال فى بطئها وترددتها ومواربتها ، وفى سياستها الخارجية التى لم تتغير إلا قليلاً جداً عن سياسة المحافظين ، ولم تقم بعد بدورها الشخصى فى العالم كمرکز التوازن بين الشيوعية الروسية والأسمالية الأميركية .

ومع هذا حققت حكومة العمال غير قليل من آمال الطبقة العاملة ، فى إخضاع كثير من المرافق للدولة ، وفى التأمين الاجتماعى بأنواعه ، وفى كسر شوكة أدياء الحقوق التقليدية سواء كانوا من أصحاب رءوس الأموال أو من الهيئات ذات العزة والسلطان .

والصورة التى انطبعت فى رأسى لبريطانيا بعد إقامتى القصيرة فى لوندرة هى صورة شعب حامل مجد ، محب للنظام والعدالة ، يحترم حكومته لأنه اختارها ، ويتبرم بها . تبرم الأخ بأخيه يوماً أو بعض يوم . صورة شعب أمين فى معاملاته ، منطقي فى عمله دون أن يكون للمنطق حساب فى تفكيره ، يتولاه القلق على معاشه ومستقبله فى العالم ، مع تمسكه بالقيم الروحية المطلقة التى تترجم بالعلم والفن والأدب ، والقيم الروحية فى السياسة التى تترجم بالنظر إلى العالم نظرة الشعب المسئول عن الخير العام للبشرية .

وهذه فى رأى مقومات الحضارة فى شعب كبير وأمة عظمى .

باريس

هل بلغاك أصر الجميلة الأنيقة ، السرية ذات الدلال ، الذكية ذات الثقافة ؟
هل عرفت كيف كان منزلها ملتقى العظماء والمبرزين من رجال العلوم والفنون
والآداب من أولادها وأصدقائها ؟ هل جاءك خبر الجميلة وقد استحالت جماها
وفقدت أناقتها وضاعت ثروتها ، وتفرق أبناؤها يتلقون فترات الغاصب ،
وراح ضيوفها والأدعياء لصدقاتها يحطون من قدرها ويطعنون في أخلاقها
وحسبها وذكائها وكفاية أبنائها ؟

أنا اليوم طائر من لوندرة إلى المنزل العتيق للقاء الجميلة بعد طول الفراق ،
وجل متعثر المشاعر والطائرة تقترب من البورجيه . أستمع لمضيفه الطائرة
الفرنسية ، شقراء دقيقة المقاصل ، تحدثنا عن سرعة الطائرة فوق المانش —
قاربنا الخمسمائة كيلو مترا في الساعة — وتسير إلى مواضع من أرض فرنسا ،
فرحة بالعودة ، وقد غيرها جو بلادها فانطلقت تتكلم الفرنسية بلا انقطاع ،
وكانت فوق انجلترا والمانش تنتقل بين لغتها والإنجليزية برشاقة وجاذبية
لا حد لها .

لحظة اللقاء ، لمست أقدامى أرض فرنسا بعد طول الغياب ، أمنا فرنسا كما
يقول أهل لبنان ، ومريتنا باريس . لن أنساك يا فرنسا قبل أن أنسى نفسي .
تقطع يداى قبل أن يغدر بك ربيبك يا باريس !

أنا اليوم سائر إلى المنزل القديم ، دنسته أقدام الغاصب أربع سنوات .
لا تبرح خيالى صورة الفيلد جراو يمشى في أرض باريس مرحا ، مصر الخد ،
شامخ الأنف ، ينظر إلى أعلام منشورة فوق قوس النصر واللوكسمبور وقصر
البوربون ، ويرقى الشانزليه في دورية يومية تتقدمها الموسيقى إلى قبر الجندي
المجهول .

لا تبرح خيالى جحافل النازي تدخل باريس ذات يوم من أيام يونية سنة
١٩٤٠ ، أمام منازل مهجورة ، ونوافذ مقفلة والجراح الكبير دى مارتل
بفضل الانتحار على رؤية العلم الأحمر ذى الصليب الأسود يرفرف في سماء باريس .
هل أنا في طريقي إلى الحاضر أم أنا أسير القهقري ؟ وماذا يهمنى الماضي إذا
كذبه الحاضر ؟ ولكن ما قيمة الحاضر إذا كان يرفض كل صلة بالماضى ؟

ولم أر أمة حية بتاريخها مثل فرنسا ، تصل حاضرها بماضيها دائماً ، صفحاتها السود ماثلة لعيونها إلى جانب الصفحات البيضاء . وما دامت الأمة حية بتاريخها فلن تموت . إنما تموت الأمم إذ يموت تاريخها في نفوس أبنائها . كلام معاد ، ودروس أولية ، وحقائق بالية ، تقمصت بعد زيارتي لباريس حياة جديدة حين وجدت فرنسا تضم إلى تاريخها ، وتقبلها ، تلك الصفحة المظلمة من الذلة والهوان ، التي عاشتها تحت أقدام النازي . عبرة ودرساً للأجيال الحاضرة والمقبلة لا من الفرنسيين وحدهم ، بل ومن غيرهم . ففرنسا لا تستطيع أن تحد دروسها بحدود جغرافية أو قومية . عرفت دائماً كيف تتحدث إلى كل الشعوب .

كل ما رأيته في فرنسا لم أتوقعه ، والذنب في هذا واقع على الصحافة العالمية التي تعيش بمال المنتصرين ، وبأغراض الطامعين في تراث أم الحضارة وزينة الحضارة .

توقعت أن أرى فرنسا ترفض أمسها الدليل في ظل الصليب المعقوف لتذبح نفسها لبوساً من البطولة الزائفة والجمعجة الفارغة . فوجدت الفرنسيين يواجهون الحقائق المرة بشجاعة ، ويعترفون في أحاديثهم وحياتهم بسنوات الضعة والانكسار . لهم في ذلك قولة مشهورة : سنوات الاحتلال النازي هي أيضاً من تاريخ فرنسا العريق . وفي هذا التاريخ صفحات المجد والذلة والفخر والاندحار . توقعت أن أرى فرنسا فرحة بتحريرها فحسب ، فوجدتها مطأطئة الرأس ، مفكرة حزينة تبحث في شعاب نفسها عن طريق الخلاص من أسباب نكبتها . تسائل التاريخ والاجتماع والاقتصاد والعلم عن نهج جديد في حياتها . !

توقعت أن أرى فرنسا مهدمة فقيرة ، قدرة تقتحمها العين . فرأيت شعباً جريحاً يضمه جراحه ، أنيقاً يرتق ثيابه ، نشيطاً إلى البناء ، متحفزاً للنهوض من كبوته . أكثر ما يكره الوقوف بالأطلال والبكاء على الدمن .

رأيت في أيامي الأولى الصورة التي أعدتها لي الصحافة العالمية : مطاراً مهدماً زرى الهيئة ، يحتفظ ببقايا اليونكرزو المسرشميت المدمرة ، وأتوبوساً عتيقاً يحملني إلى باريس . يسير بأي شيء غير البنزين . وضواحي باريس وسكانها يشتملهم الفقر والأسى ومتاعب الحياة .

أيامى الأولى بقطارات المترو ، وفي الأوتوبوس ، وفي الحقائق العامة ، وفي

جولة في « ما بعد الحرب »

الشوارع، أيام وجوم ويأس . لا شك أنني كنت أعيش في مدينة الأشباح ،
أشباح الماضي ، باهتة ساهمة ، بطيئة الحركة ، طائلة السيء . هل أكون في مدينة
بلقانية كانت تعجب بباريس فقلبتها ؟ أأكون في بوخارست ، باريس
الصغرى كما كان يسميها الأغرار من أبناءها ؟

السلام عليكم يا أهل القبور ! قبور بوخنالد وداخاو وأوشقتر ، وأقبية
الجستابو ، وأعماق سجون قرين ، وجدران الإعدام في فانسين ومونثاليريان !
باريس بدت لعيني أول ما بدت كسيرة النفس ، مجروحة العزة ، مقروحة
الكبرياء . اختفت ابتسامة بناتها ذوات العيون الضاحكة والقُدود الهيفاء ،
وخفتت حركة أبناءها الطيرين لا يحملون ها .

لكل أسرة مفقود في المعتقلات القريبة والبعيدة ، ذهب ولم يعد ، قضى
بين شعاب الماكي وخلف أسلاك الأوفلاج والاستلاج . كيف تعود إلى هذا
الشعب المعذب ضحكاته ؟ ومتى ينسى همومه ، والحاضر محتفظ بقسوة الماضي
المادية ، وإن انتشعت عنه الغمة الروحية ؟

هذه أيامي الأولى في باريس ، شبح حزين بين الأشباح الحزينة !
ثم بدأت أتجسد وتتجسد الأشباح . أو هي العشاوة ارتفعت عن عيني بتأثير
الجمال وحده ، فبدأت باريس تحيا . قامت الأميرة النائمة وقد فك عنها عقال
الساحر المشئوم . حركت ذراعيها البيضاوين أو نشرت شعرها الذهبي ، أشعة
الشمس تتجاوب بين قباب الأنقاليد والثقال دي جراس ، وأسهم السانت شابل ،
وقبوات قوس نصر الكاروزل ، وإذا هي باريس تتلقى عشاقها وتشير إليهم .
أنظروني إلى غد إن كنتم تستطيعون معي صبرا ، وإلا فهاكم صفحات تاريخي
صفحة صفحة تتلهون بها عن حاضري ، وما غدي إلا صورة من أمسي .

سرتُ بعد ذلك حاسر الرأس مكشوف الغطاء ، فعرفت أنني الواهم الخاطيء ،
وأن باريس هي باريس ، لم تتحول عن مثلها العليا لحظة واحدة في الفن والجمال
والإنتاج الذهني .

دخلت المعارض وقاعات الصور والمسارح ، وارتدت المكاتب العامة ويوت
النشر ، والمعامل ودور الحكم ، وطلعت وراء سطور الصحف السياسية
والأدبية والفنية ، فإذا الشعوب لا تعيش بالإنجليز والزيد وحدهما ، ولا تموت
بالحديد والنار فحسب .

هنا عرفت للمرة الأولى بعد المائتين سر رقي الشعوب : هو في فكر الفيلسوف ، ومعمل العالم ، وريشة المصور ، وقلم الكاتب والموسيقي .
وإذا كنت وجدت في لوندرة شعباً نفوراً بانتصاره ، وفي باريس شعباً كسيراً بانكساره ، فقد عرفت في الشعبين نفس المثل العليا التي عقدت لها الحضارة ألويتها منذ ازدهرت أثينا ، وحكمت روما ، ورسم ليوناردو ، وحفر ميكلا أنجلو ، واحتج لوثر ، واحتكم ديكارت إلى العقل وحده .

وإذا كنت في لوندرة وجدت النظام البرلماني يسير سيره وثيداً واثقاً ، فقد عرفت في باريس شعباً لما يهتد إلى ضالته في استقرار سياسي أو هدوء اجتماعي أو طمأنينة اقتصادية . هنا أمة ناقمة تنتابها بعض بقايا الحمى ، قلقه لا تعرف اتجاهها داخلياً أو خارجياً . تتمخض عن دستور لاهو دستور الجمهورية الثالثة ، ولا هو دستور الثورة الجديدة . بين بين ، اضطرت إليه أحزاب ثلاثة كبرى لترضى أشتات نزعاتها جميعاً ، وتسعى إلى نزعاتها كافة .

عقد مؤتمر السلام بين جدران باريس في جو خانق من تبادل اللوم ، وتناقر المناكير ، جبهة تناطح جبهة . وفرنسا بينهما كأنها بين شقي الرحى . شعب يناهض الحكومة ، وحكومة تراضى الشعب . . . على حساب الشعب . واليمين يرفع رأسه الذي دنسه التعاون مع النازي ، وينظر شزراً إلى اليسار طهرته المقاومة ، وعلمته المحن كيف يعرف أعداءه بين أصدقائه . والمقاوم الفرنسي الأول يحارب اليسار فلا يجد بظهره سنداً أقوى من طغمة التعاون والرجعية ، يستترون اليوم خلف اسمه الرنان ، بحجة الدفاع عن النظام والسلطان ، نفس الحججة في مؤازرة أنصار الهدنة الشائنة والمريشال .

خضم من النشاط ، وأفق ممتد من الترقب . وحياة مادية صعبة ، ونشاط عقلي وفني مزدهر . واستهتار بالقانون في سبيل العيش ، وبالعيش في سبيل المثل العليا . جسور تصلح ، وطرق تنشأ ، وصناعات تنظم في جو عاصف هائج ، تصوره أصدق تصوير صحافة صاخبة طويلة اللسان .

هذه هي فرنسا اليوم وأمس . . . وغدا . وبغير هذا لا تكون فرنسا . ومن يريد لفرنسا غير هذا فهو لا يعرف روح شعب حي بكل معنى الحياة . حياته في خلافاته ، ومنازعاته ، وتقلباته . لا تتحد كلمة إلا على مبدأ واحد لا شريك له : الفكر الحر .

جولة في « ما بعد الحرب »

ولم نقل فرنسا بعدُ كلمتها في عالم « ما بعد الحرب » ؛ فهي لا تزال تنفض بقايا عهدها التامس ، وتنظف بيتها ومرايط الخيل فيها . ثم هي في حاجة إلى لحظة من الهدوء تفكر فيها بأقدارها وأقدار الإنسانية . وما زال العالم يطلب من فرنسا ما طلبه منها على ممر التاريخ : روحاً جديداً وفكراً جديداً . كل هذا في ذمة المستقبل . ولكن ما يهم عشاق باريس اليوم أنها عادت إلى الحياة ، واستأنفت سيرها في موكب البشرية . أتيح لي أن أشارك في أعياد تحريرها يوماً بيوم وليلة بليلة ، فذكرت كلمة ممعتها من إذاعة سكسونية ليلة تحرير باريس بأيدي أهلها في ٢٤ أغسطس ١٩٤٤ : « لقد عادت منارة من منائر العرفان في العالم إلى إضاءة العالم » .

مسيح فوزي

ستيفان زقايج

ورسالتة الإنسانية الكبرى

روعت أوروبا عام ١٩١٤ بقيام الحرب الكبرى التي مُشبتت ناراها على حين فجأة ، فطوقت البطاح والوهاد ، والتهمت مصادفت من إنسان وحيوان ، ومن دور ونبات . تعكر جو أوروبا الصافي وا كفهت سماؤه ، فأخذت النفوس الهادئة الوادعة تنفعل وتضطرم ، والأعصاب تتوتر وتهيج ، وطاش الصواب وطاحت الحماقة بالحكمة . وطفقت الجماهير تتجمع في كل مكان ، وتضج وتصخب ، فيفقدوها الضجيج والصخب وعيها ، وتنقلب إلى قطيع من البهيم المفترسة ، تردد في غير إدراك تلك الصيحة الطائشة الفاجعة « إلى الحرب ... إلى القتال » .

اتحت الحكمة حتى كأن الأمم لم تعرفها في يوم من الأيام ، ولم تسمع أساليب العنف ، ولم تستنكر وسائل القوة والبطش ، ولم تؤمن بالخير وتعز بحضارتها الحديثة التي جادت بها أصنى القرائح وأسمى المشاعر ... لقد غاض العقل الراجح ، وجمدت المشاعر السامية . وعند ما رددت الحناجر الدعاء إلى الحرب أشبه صداها نعيق البوم .

في وسط هذا العباب الطافح بالاحقاد وقف ستيفان زقايج يرقب ما يجري حوله بعين الحسرة المريرة ؛ فإن جنون الحرب لم يستطع أن يؤثر في نفسه الشاعرة . ذلك الجنون الذي سرت عدواه من الأمم المحاربة إلى الأمم المحايدة ، فانقسم العالم إلى معسكرين متخاصمين ، ينصر كل معسكر منهما أحد الفريقين المتناحرين بما يمد به من أدوات التخريب والتدمير ، أو بالدعاية المسمومة ، حتى فاضت نفوس البشر بالحق والمقت ، ولم تعد له متعة إلا فيما كانت تطالعه من أبناء الفجائع التي عصفت ببني الإنسان .

ولكن نفس زقايج كانت ، كما قلنا ، مطعمة بأسمى الخواج الإنسانية ، فثبتت

لتيار الالهواء الطائشة ، ولم تترد في مهاوئها . بل إن تقوره من الشرور التي استفحلت واستشرت أشعره بالمهمة الكبرى الملقاة على طاقه . أدرك أنه صاحب رسالة جلي عليه أن يؤديها ؛ فهو الشاعر الألعى الذي درج على أن يبت أجل أحاسيسه في قلوب الناس ، وأن يحدوهم إلى غايات الخير والعدل والجمال . والساعة الرهيبة التي تجتازها البشرية تتطلب منه أن يبذل قصاره ليبشر برسالة الحب والسلام ، وليفيض على العالم ما يكتنزه قلبه الكبير من عطف ورحمة .

آمن بعظم المهمة التي آلى على نفسه أن يضطلع بها ، وهبطت عليه المعاني والمشاعر كأنها إلهام منزل ، وفطن إلى وجه الشبه بين رسالته وبين رسائل الأنبياء ، فجرد قلمه الصغير السن ، الخطير الشأن ... جرده ليحطم بسنه الصغير السيوف الفاتكة ، ويخترق الدروع السمكة ، ويزلزل حصون الشر والضلال .

ولكنه لم يغب عنه وهو يهيم بتدبيج رسالته أن الأنبياء لم يوفقوا في بث تعاليمهم ، وتوطيد العقائد التي بشروا بها باعتمادهم على القدرة السماوية ، وأن الأمم لا ترعوى عن غيها ولا تهتدي إلا بهدى السماء . ولما كان أوان التنزيل قد مضى وانقضى فقد ارتأى أن يستعين بأحد الأنبياء الأقدمين فيبعثه من جديد في ملحمة شعرية ، ويجرى على لسانه ما يشاء أن يجريه . ولم يجد من هو أقن من إرميا ، نبي السلام ، بتحقيق هذه الغاية .

كتب زقايح قصة إرميا ، وصور فجائع الحرب التي وقعت في عصر ذلك النبي . ولما كان التاريخ يعيد نفسه ، فقد جاءت القصة صورة مطابقة لعصر كاتبنا الفذ في شروره وآثامه . ولما كان إيمانه بالخير كإيمان ذلك النبي ، وتعلقه بالسلام كتعلقه ، وتجرده الروحي وسمو شعوره هيأه لتلقى الوحي ، فقد استحال إرميا في القصة الحديثة إلى زقايح نفسه .

لما تجمعت الجيوش الجرارة إبّان الحرب الكبرى ، وسارت إلى ميادين القتال وهي تضرب في الأرض بأقدامها ، لم ينخدع زقايح كغيره من الناس في مظاهر الفتوة البادية على الجنود الأشداء ، ولم تبهره سيوفهم المشهورة اللامعة ، ولم يفتنه نظامهم الحربي الرائع ، ولم تهديج أعصابه حماسة لأهازيج موسيقاهم العسكرية ، إذ كانت نظرتة أبعد من ذلك مدى ، وأدق تمحيصا ، فنفذت من

حجب الغيب ، وسبقت الزمن ، ورأتهم وهم طائدون من غمار القتال فلولا
هائلة على وجوها عفرها التراب ، ونهكها التعب ، وحنث ظهورها الذلة وخيبة
الامل . وفي هذا يقول على لسان إرميا :

« شفت المرارة نفسى ، فطفرت الكلمات إلى فى . . . نبثونى بالله
يا إخوتى أبلغت الحرب من النفاسة مبلغا يدعوننا إلى الترنم بمديحها ، والإشادة
بالأئمة ؟ أهى مستطابة إلى الحد الذى يسوغ تهافكم عليها ؟ أهى كريمة فتستحق
منكم هذه التحية المنبعثة من سويداء قلوبكم ؟ . . . أما أنا فأسجل عليها أنها
ضارية كالحلة الأديم . فهى تفرى جلود الأصحاء وتمتص نخاع الأشداء ، وتطحن
المدن بين فكىها ، وتمحق الحقول بوطء نعلها . ومن يثرها يعجز من بعد عن
قمعها . ومن يستل السيف يمت بحد السيف . . . ويل لأولئك السفهاء الذين
يوقظون الفتنة بكلمة تخرج من أفواههم ، فإذا سلك هؤلاء طريقهم إلى القتال ،
عادوا أدراجهم لدى فرارهم من سبع طرق . . . الويل لأولئك الذين يكتمون
أنفاس السلام . احذروا هؤلاء . . . احذروهم . . . »

ساد أوردبا فى أواخر القرن التاسع عشر اعتقاد بأن الحروب قد انقضى
عهدا ورققت الرفاهية شعور الشعوب التى غرقت فى بحبوحتها ، وأحدث
ازدهار العلوم والفنون تأثيره ، فأيقن أبناء الحضارة الحديثة بأنهم سائرون
بخطى واسعة صوب المثل الأعلى الذى بشرهم به المتفائلون من أئمة كتاب
القرون الثلاثة الأخيرة . وما طلع سبنسر على العالم المتحضر بفلسفته حتى قوبل
من أبناء القرن التاسع عشر بلا استهجان ، فقد رأى على ضوء بحوث داروين أن
الإنسان لم يخلق من طينة تختلف عن طينة غيره من أنواع الحيوان ، وأنه
خاضع لقانون الغاب ، قانون السيطرة للقاهر الغلاب ، ولا يخطو فى وشائج هذه
الحياة خطوة إلا وهو مدفوع بحكم تنازع البقاء . ولم يلبث مقتنعو هذا
المذهب أن طنطنوا به ، وأهابوا بالناس أن يفيقوا من خوادم الأوهام ،
وأن يتزلوا إلى دنيا الحقائق ، ويجابهوا مشكلاتهم على أساس الواقع .

وما هل القرن العشرون حتى ازدادت العلوم ازدهارا ، وتعددت المخترعات
التي بهرت الأبواب ، ورسخت العقيدة بأن الإنسان سيد هذا الكون ، فهو
قاهر الطبيعة ومسخر عناصرها لتحقيق غاياته ، والمهيمن على مصادرها

ومواردها . وبدأ المستقبل باهرا ، حتى خيل للعالم المتحضر أنه يرى خلاله غايته المنشودة ، وهي الكمال .

وازدادت الزراية بنظرية سبنسر ومؤيديه على مر الأيام ، وامتنع ركب السيارة والمستمع إلى الحاكم ، والمستضيء بالكهرباء من أن يحشدوا في زمرة الحيوان . ولكن حدث في عام ١٩١٤ أن انقلب هؤلاء السادة بالفعل إلى ضوار كاسرة كشرت عن أنيابها ، واقتحمت ساحات الوغى مزججة ، ونهشت لحوم بنى جلدتها من البشر ، واستماتت في ميدان هي قاتلة فيه أو مقتولة . وهكذا حققت الأيام ما ذهب إليه سبنسر وهاكسلي وهايكل وأضرابهم ، وأيد أبناء الحضارة الحديثة فلسفة هؤلاء بأساليب لا تختلف عن أساليب الوحوش بعد أن شبعوا منها سخرية .

وأظهرت كثرة الكتاب يأسها من البشرية التي نكصت على أعقابها بعد أن خيل للمتفائلين أنها سائرة قدماً في سبيل أوج الحضارة ، وتعالى نداؤهم بتوديع الأحلام الذهبية والتسليم بالواقع . ولا غرو في أن تودع البشرية آمالها بعد أن كثرت الدعاية لمذهب تنازع البقاء ، وبعد أن جاءت الحرب الكبرى داعمة لهذا المذهب الخطير .

ولكن فريقاً من الكتاب ذوى النفوس العامرة بالإيمان أبي أن يكفر بالخير ، وأن يسلم بأن للغرائز البهيمية الغلبة في النهاية على الفضائل الإنسانية ، ولم ير في الحرب الكبرى إلا حلقة من سلسلة الحروب السابقة التي لم تنشب إلا لحكمة سماوية .

رأى هذا الفريق ، وعلى رأسه زقايج ، أن القدرة الصمدية الخارقة لم ترد بالإنسانية إلا خيراً ، ولكن التقيض لا يعرف إلا بنقيضه ، ولا يظهر الضد إلا الضد ، ولا سبيل إلى الخير العميم الشامل إلا بعد أن تبلو الإنسانية ألوان الشرور جيلاً بعد جيل ، وبعد أن تنصهر في بوتقة المكاره والآلام ، فتخلص من علامها ، وتنفر بعد ذلك من شرورها وآثامها نفورا لا رجعة بعده إليها ، وترقى بعد أن تتطهر من أثرتها الفانية إلى الخلود .

حرص زقايج على بث هذه العقيدة في آيات القصة التي تتناولها في هذا العرض ، فكرر القول في أكثر من موضع منها بأن سبيل الخير هي في تجرد الإنسان من صلفه وكبريائه ، وبأن الله قدم البلاء

لتستساغ من بعده النعم والآلاء . وفيما يلي نتف مما كتبه في هذا الصدد .

قال إرميا يخاطب المولى :

طهرتنا بالخير ثم رفعتنا . . .	من بعد أن جمعت بنا الأوزار
وبثثت فينا جذوة الحب الذي	دار الوجود عليه حيث يدار
لما أردت الخير قدّمت الأذى	ليشوقنا بعد العناء يسار
فبدت لنا نعم الحياة جزيلة	من بعدما عصفت بنا الأقدار

وقال أيضاً :

لست أشقى إلا لينعم غيرى	بشقاءى فى كل عصر وجيل
ويدول العهد المقيت ويزهو	عهد حب من بعده مأمول
إن فى موتى المبكر يا قو	م حياة للعالم المخدول

وقال كذلك يخاطب المولى :

لك أجتو يا إلهى	خافض الرأس خشوعا
أضرم النار وقطب	واغمر الأرض نجيعا
وانبذ الشعب الذى اختر	ت فرادى وجوعا
كلما أبعدتنا أر	جمعنا الحب رجوعا
كلما عذبتنا ازدد	نا ولاء وخضوعا

لا غرابة فى أن يطلع علينا علماء التاريخ الطبيعى بنظرية تنازع البقاء ، وفى أن تتأسس هذه النظرية لا على أن الإنسان نظير الحيوان فى غزائزه فحسب ، بل على أن كل إنسان يشبه نوعاً من الحيوان فى صورته كذلك ، وينخضع الجميع لقانون طبيعى واحد . ذلك لأن أولئك العلماء توفروا على دراسة الحيوان ومراقبة التطور الطبيعى الذى يطرأ عليه ، وتسجيل طباعه وعاداته . وهذه الممارسة الدقيقة ، وهذا الإدمان الطويل مما يزيغ البصر ويضل الحواس : فلا يابث الممارس المدقق الذى انحصر فكره وحسه فى دائرة بحثه أن يتأثر حكمه على الأشياء الخارجة عن هذا النطاق بما استقر فى وعيه من سوانح ونظريات

خاصة بذلك البحث ، وإذ به يرى الدنيا بمنظار هذه السوانح والنظريات .
 وإذا كفر علماء التاريخ الطبيعي بما تحلى به الانسان من سجايا وخلال
 تؤهله لبلوغ المجد الذى يصبو إليه ، فمن مقتضيات الطباق أن يمج شاعر مثل
 زقايج بدعة هؤلاء ؛ لأن الشاعر الذى رق حسه وضفت نفسه ونفذ بصره إلى
 مواطن الجمال المادى والمعنوى فى عالمنا الأرضى ، وحلق فى سبحات الفكر
 السامية ، استطاع أن يرى أى بون شاسع يفرق بينه — وهو من بنى
 الانسان — وبين سائر الحيوان إن الشاعر الملهم هو الآية الإلهية التى
 تدحض فرية أولئك العلماء ، وهو الذى يصوغ فى روائع شعره أغاني الخلود
 فتترنم الإنسانية بها وهى تخطو قدماً إلى مثلها الأعلى . وقد اضطلع زقايج
 بمهمة الشاعر الكبير وصاغ قصة إرميا الشعرية ليحلق من يقرؤها فى أجواء
 الملائكة ، ويتبين وهو فى عليائه مبلغ ما فى رأى المتشككين فى سمو الانسان
 من خلل .

تقع حوادث هذه القصة فى عصر قويت فيه شوكة آشور حتى صارت
 خطراً على جيرانها . ولم يخف على حكومة مصر أن الآشوريين وقد أنسوا من
 أنفسهم القوة يحملون بالعيش فى ظل وادى النيل الممرع ، فأوفدت بعثات
 عسكرية إلى الدول المتاخمة لها بقصد الاتفاق معها على دفع الخطر الآشورى
 الداهم . وفى ذات يوم وصل بعض قواد الجيش المصرى إلى أورشليم لتحقيق
 الغرض المذكور ، فقابلهم الشعب بالهتاف والتهليل ، ورحب بتحالف الجارين
 على دفع أذى المعتدين . وبينما كانت حماسة الجماهير فى ذلك الحين على أشدها
 تصدى لها إرميا ، وحاول إقناع الهاتفين للحرب بأن فى دعوتهم إليها هلاكهم
 وخراب بلادهم ، وبأن سلام الله أولى بالدعوة إليه . ولكن الحكمة لا تجد
 سبيلاً إلى لب من طاح بلبهم الطيش ، وكان نصيب ذلك الداعى إلى الخير أن
 رُمى بأقبح الصفات : رماه بعضهم بالجبن والخور وبخيانة الوطن ، ورماه
 بعضهم الآخر بفساد الرأى وقلة الإدراك . وعندما صارحهم بأن الله جل
 شأنه هو الذى بعثه إليهم ليحذرهم مغبة الحرب ويدعوهم إلى السلام ، وأن
 الوحي السماوى هبط عليه فى المنام ، رموه متهمين بخبل العقل ، وبأنه مريض
 بداء الأوهام والأحلام .

ستيفان زفايج ورسالة الانسانية الكبرى

وبينما كان المتظاهرون يضجون في ساحة المدينة الكبرى داعين إلى امتشاق
الحسام إذ بمليكم صدقيا يخرج من قصره ، ويتجه على رأس البعثة العسكرية
المصرية صوب المعبد ثابت الخطى شاهر السيف . ولكن صرخة مدوية تصدر
في اللحظة من أعماق قلب إرميا وتطبق الآفاق :
— يا صدقيا . . . أحمد سيفك . . .

يتوقف الملك ماخوذا برهبة ذلك الصوت ، ويرتجف السيف في يده .
وتتخاذل يمينه وتتساقط ، ويتلفت ليتبين مصدر ذلك الصوت . ولكن
صيحات الشعب الغاضب تجلجل في هذه الأثناء ، وتعم الأرجاء فتغمر صوت
إرميا . ولا تلبث حماسة الشعب أن تدب في أوصال الملك من جديد ، فيشهر
سيفه كما كان ، ويعود إلى مشيته الأولى صارم الوجه ثابت الخطى .

تقع الحرب ، وتروج إشاعات بانتصار المصريين على الآشوريين ، فينتشى
شعب أورشليم زهوا وطربا ، ويوسع إرميا سخرية وتنديدا . ولكن النبي
يصرخ في الساخرين المنددين قائلا :
— الرسول في طريقه الآن .

وما هي إلا هنيهة حتى يبدو من وراء سور المدينة الرسول الذي رآه إرميا
وهو لا يزال في حجاب الغيب . أقبل ذلك الفارس ينهب جواده الأرض ،
وأعلن للشعب المتكأكى حوله الحقيقة سافرة بالغة من سوء مبلغا تنقلب
معه العجرفة والصلف إلى ذلة ومسكنة . فالجيش الآشورى قد تغلب على جيش
مصر ، وانكشف طريق أورشليم أمام يختنصر .

سقطت مدن فلسطين في أيدي العدو مدينة بعد مدينة ، ورأى شعب
أورشليم من فوق أسواره أعمدة اللهب تتصاعد في ظلمة الليل من تلك المدن ،
فيتوقع حتفه الزاحف إليه ، وينتظر انقضاؤه مرتعد الفرائص وجلا ، ولم تلبث
الحرب التي دعا إليها أن صبت ويلاتها عليه . ففي ذات ليلة سمع هديرا كهدير
البحر يتصاعد من الصحراء المترامية وراء أسواره ، فأدرك أن ملك الظلام
قد أقبل بجحفله الجرار ، وحاصر مدينته العزيزة عليه .

تقع مقابلة في هذه الآونة العصبية بين صدقيا الملك وبين إرميا النبي .
ويفطن أولهما إلى أن الثانى هو الذى أهاب بالسلام في ساحة المعبد يوم دعا
الكافة إلى الحرب ، فيقول له :

— لم تحاشيتني ؟ . . . لم تخليت عني ؟

فيجيب إرميا :

— إني لم أبعد عنك لحظة ، ولكنك لم تفطن لوجودي . أنت لم تهتد إلى .

— كم من أمور تنبأت بها يا إرميا فحققت الأيام جميع نبوءاتك ، حتى صار لحكمك تأثير بعيد المدى من نفسي . ولهذا سأطلعك على سر يجهله الجميع لتدلي برأيك فيه . بعث إليّ بمختصر برسول يعرض الصلح .

— لله الحمد . . . افتح لهم الأبواب ، افتحها . . . وافتح أبواب قلبك .

— لا تتعجل . . . إن شروط العدو قاسية .

— أنت بادرته بالصلف والكبر ، فاحتمل كبره وصلفه .

— أليس صون الشرف من مهام الملك ومن مفاخر التاج ؟

— لا تكن حريصا على ما ملكت يداك . . . فما أجل الشرف الذي يفوز

به من يحتمل العذاب في سبيل الكافة ، ويشقى لينقذ المتعلقين بأهداب

الحياة . . . طأطيء هامتك فلا نجاة إلا في خضوعك . . .

يأبى صدقيا أن ينصاع لنصيحة إرميا ، فيثور هذا الأخير ويتم ملكه

بأنه عرض بلاده بربعوته للدمار ، ودفع بشعبه إلى الهلاك . فيغضب الملك

وينذر ويتوعد ، فيجيبه النبي :

سوف يلقي بك العداة إلى الار	ض فتجتو قسراً على ركبتيك
ويعس الثرى جبينك حتى	يغير الترب صفحتي خديك
الظي في الاتون يهدر كالوح	ش ويتزومنه اللهيب إليك
فيه نصل يحمونه تحت عيني	ك لمحو الضياء من عينيكا
فاذا ابيض بعد حرته النض	ل هوت طغمة العداة عليك
تدفن النصل بين عينيكا حتى	يتعالى الدخان من محجريكا
ما يزالون طيلة الليل يحمو	ن لمظاهم ليسملوا مقلتيكا

يتراجع صدقيا مرتاعا ، ويمد يديه كأنه يدفع عنه القدر ، ولكن إرميا لا يباليه ، ويتم نبوءته الرهيبة :

قبل أن يطفىء العدا منك نور النواظر
سوف تبلى بمحنة في بنيك الأصاغر
ستراهم ثلاثة في مهب المقادر
جاء جلادهم إليهم هم مخوف البوادر
أنت عن دفع ما قضى فيهم غير قادر
قيّد القوم ساعديك فيهم غير قادر
كل ما تملك الصياح ك فزجبر وهاتر
ثم تهوى رؤوسهم ح وشق المراتر
صاغراً بعد كابر

صدقيا

رحمة بي يا إرميا رحمة بي

إرميا

ستنادى كما تنادى الآنا
قارفتك يداك والغفرانا
مدقع الفقر يائساً حيرانا
ذاً من الناس جائعاً عرياناً
ت عليه فيما مضى سلطانا
لا يباليك من لقيت من الرو (م) اد أو من سألتهم إحسانا
جهلوا أمر ذلك السائل العا نى ولم يعرفوا المليك المهاناً
فاذا ميزوك صبّوا على رأ سك من جام حقدهم ألوانا

يملاً الفزع قلب صدقيا ، ويترنخ كالأعمى ، ويتساقط على مقعده وقد ضعفت
شخصية إرميا الغلابة ، ثم ينادى هذا الأخير متضرعاً أن يرحمه ، فيجيبه بأنه
قادر على التنبؤ بسر الأقدار ، ولكنه غير قادر على دفع غوائلها .

تقلت الفرصة من يد صدقيا . لأن رسول مختصر عاد أدراجه ، قبل ذلك اللقاء
الذى وصفنا تفصيله . يحمل إلى ملك الظلام رفض اقتراح الصلح . ويصور
زفايج آخرة صدقيا الذى أقحم شعبه فى حرب سحقته بين شقيها . فقد كبله العدو
اعد اقتحام أورشليم بالأغلال ، وقاده إلى الساحة الكبرى ، وضرب الجلاد عنق

ستيفان زقايج ورسالة الانسانية الكبرى

أولاده الثلاثة على مشهد منه ، ثم أطفأ نور عينيه . . . وهكذا تحققت نبوءة إرميا بحذافيرها .

ويتخذ زقايج من هذا الملك التاعس في آخر قصته عظة لكل متكبر صلف . فنراه يخرج من باب قصره كفيف البصر ، محاطاً بأمرأء كلدية السكارى الذين اتخذوه أداة للهو والمفاكهة ، فأخذوا يتقاذفونه وهو يترنح ويكاد يسقط بين كل خطوة وأخرى . ثم تعالت أصواتهم الساخرة منادية :

— يا قاهر بابل . . . قف وناهض بختنصر .

— لا تسقط على الأرض فأنت عماد أورشليم .

— لم لا ترقص لنا رقصة داود ؟

— دعوه يشرب ظلمة الليل ، ولنعد نحن لنشرب السلاف الصافية .

يبتعد الملك الطريد عن قصره متعثراً ماداً يديه في الفضاء حتى يقبل على شعبه المهتبي للرحيل الى منفاه ، فيقابل بعاصفة من السخط والاستنكار ، ويرى بأنه كان السبب فيما حل ببلده من أرزاء .

وبينما الهم يقطع نياط قلب الشيخ الأعمى الدليل ، إذ يقبل عليه إرميا مشفقاً ، ويأخذ بيده ، ويخاطبه بصوت يسمعه الملائكة :

— لقد أمسيت ملك الآلام ، ولم يبلغ ملكك في يوم من الأيام مثل الذروة التي سما إليها اليوم . كنت أناهضك يا سيدي حين ازدهار جاهك ، واكتمال سلطانك ، ولكنني أنحني اليوم أمام من حناه ربه .

ثم يلتفت إلى الحشد ويستطرد قوله :

أغمض الله له عينيه حتى لا يرى إلا أنظيم السماء
غض جفنيه فدارت مقلته في امتداد الأفق الضاحي السناء
سخرت جمهرة الجهال منه وهو مولى الأشقياء السعداء
عاهل المستضعفين الشهداء .

والشخصية الأخرى التي تفت فيها زقايج الحياة في قصته ، وسخرها كذلك لتبيان مقصده ، هي أم إرميا . اعترضت هذه الأم سبيل ابنها ، ونددت بالدعوة للقدسية التي آلى على نفسه أن ينشرها بين الناس ، وانضمت إلى زمرة

الساخطين عليه ، وحرمت عليه دخول دارها حتى يرعوى ويؤمن بأن شعب الله المختار لا يقهره قاهر ، وبأن معبد الله فوق متناول التخريب.. ويحاول النبي أن يقنعها بقدسية رسالته ، فتزداد عليه سخطا وتكيل له اللعنات . فيغادر دارها ثابت الجأش بعد أن يصارحها بأنه وطن نفسه على تأدية رسالته مهما قام في سبيلها من عقبات ، وبأنه يستعذب في تلك السبيل كل تضحية حتى لو كان حب أمه له وعطفها عليه مما يضحي به . ذلك لأن الكلمات التي تخرج من فمه هي كلمات الله ، وهو لا يملك إلا الشفة التي تنطق بها .

تسهر الأم بعد هجران ابنها لها بوحشة لا قبل لها باحتمالها ، ويرح بها هم مقيم لا يلبث أن يسلمها الى مرض عضال . وسرطان ما تستغرق في غيبوبة طويلة لا يقطع سكونها إلا أحلام مفزعة تمثل لها ابنها معرضا عنها ، نافرا منها . ويخشى خادمها الأمين أشعب على حياتها ، ولا يرى وسيلة لتخفيف وطأة مرضها إلا أن يستقدم ابنها . فأرسل في أثره من يبحث عنه ويعود به إليها ، وكانت الهزيمة قد حاقت أثناء مرضها بأمتها ، ولكنها لم تعلم من أمرها شيئا .

وقف إرميا بباب غرفة أمه ، فسارع إليه أشعب ، ونبهه إلى جهل المريضة بالحنة التي حلت بأورشليم ، وأوصاه ألا يلح إليها بكلمة عنها إبقاء على حياتها . ونظر الولد إلى أمه المستلقية على فراشها ولم يجرؤ على التقدم . ففتحت جفניה ، ونصت في فراشها ، ونادت وحيدها بصوت يهدج ضعفا وحنانا ، ولم يلبث الحائر المتردد أن أسرع إليها وارتمى في أحضانها ، ودار بينهما حوار طويل قاص بالعتب الرقيق ، وبالحب والعطف المتبادل بينهما . وعرجت الأم على نبوءة ابنها فقالت :

أنا آمنت بالحقائـق لم أءـ دل بها خادما من الأوهام
أنا لقنتك الحقائـق هـدى منذ عهد الطفولة البسام
لن ينال العدو منا فإن الا (م) — راع لعابديه وحام

اكفهر وجه إرميا ، وانتفض جسده ، وردد في ذهول :

لن ينال العدو منا فإن الا (م) — راع لعابديه وحام !

ستيفان زقايج ورسالة الانسانية الكبرى

وامتقع وجه الام ، وسألته :

لم هذا الخوف المريب الفجائي ؟ لم هذا القنوط بعد الرجاء ؟

ازداد اضطراب إرميا ، وعجز عن أن يحير جواباً . فتوسل إليه الخادم أشعب
أن يعيد إلى سيده طمأنينتها :

قل لها قولا يسرى برحاء الهم عنها
بعد أن صار رداها . دون قيد الرمح منها

وقالت سيدة من أقربائه كان المجلس يضمها :

موت عليها الحقيقه وارفق بأم رفيقه

وحاول إرميا الكلام من جديد فلم يسعفه القول . وطاود أشعب إلحاحه :

بلفظة يا إرميا واحدة ترجمها

وقالت القرية :

أيامها محدودة أبالاسى تختتمها

فهمس إرميا متخاذلا :

لا أستطيع أن أقو	ل لفظة توهمها
يآبني على أن أقو	ل لفظتي ملهمها
قد مكنت من عنقي	وأوشكت تحطمها
يد لها قدرتها	من الذي يفصمها ؟
يا رب أطلق قيدها	فلست من يظلمها

وأدركت الام الحقيقة فولوت :

الويل والدمار	شبت بجسمي النار
وبلدي ومعبدى	كلاهما ينهار
أودى بنا البسوار	وأظلم النهار...

ستيفان زقايج ورسالة الانسانية الكبرى

وسقطت على فراشها جثة هامدة .

هكذا يختتم زقايج حياة أم النبي . فهي لا تتبين مغبة وقوفها في سبيل الدعوة إلى السلام حتى تموت حسرة وغما .

أما الزعماء والأنبياء الذين عملوا على إذكاء الحرب وأغروا الشعب بخوض عمارها ، فلم تلبث رحاها أن هشت عظامهم ، وسحقت مشاشهم . وعملت ريشة الشاعر الفنان على تصوير مشاهد الدمار والهلاك اللذين حلا بأورشليم وأهلها . فأسوار المدينة مهدمة ، ومعبدنا مخرب ، وطرقها ملوثة بالدماء الآدمية ، والجثث ملقاة على الأرض متحجرة مغفرة ، شاخصة العيون ، فاعرة الأفواه ، مطبقة الأيدي على التراب .

يستهل إرميا هذا العقاب الصارم الذي أنزله الخالق بعباده ، وينخلع قلبه جزما عليهم ، فتثور ثورته ، ويكاد إيمانه يترزعزع . ولكن حكمة الخالق لا تلبث أن تتجلى له ناصعة ، فيثوب إلى رشده ، ويدب الإيمان إلى قلبه قويا طازما على مثل ما كان من قبل . ويشعر بأن عليه مهمة كبرى جديدة يجب أن يؤديها ، وهي أن يواسي الشعب المنكود ، ويعيد إليه ثقته وإيمانه . يذهب إلى ساحة المعبد فيرى الملك صدقيا يتخبط في الظلام على النحو الذي وصفناه سابقا ، ويبشر القوم بقرب انهزام يختنصر وزوال ملك آشور ، ويقول فيما يقول :

كل من جرد نصل ال سيف بالسيف هلك
أو أسال الدم سال ال دم منه وانسفك
والذي عادى يعادى هكذا دار الفلك

يحدث هذا القول تأثيره المنشود ، فيواصل النبي وعظه :

« كأتني وأنا أخبر آلامكم يا إخوتي أطالع كتابا مفتوحا ، وتتكشف لي معاني السطور التي خطها الشقاء والعذاب . ولكنني أتبين في نفس الوقت حكمة النوائب التي بليتم بها ، وأرى ذات الباري تتجلى خلالها . . . وإذا عمر الإيمان قلوبكم ، بث الله فيكم الزوج ، وبعثكم من جديد . لا تملأوا الدنيا

شكالة وولولة ، فنحن نشقى فنستمد القوة من شقائنا ، ونكبو فننهض ثانية ونحن أثبت قدما وأقوى عزماً .»

ولا يزال إرميا يستمعيه حتى تقور بين الشعب فورة حماسة جارفة ، وينتصر الروح انتصاره الخالد على قوة المعتدين المادية ، وينبثق الأمل فيبدد ظلمات اليأس . ويحين ميعاد رحيل المقهورين إلى منقاهم في بابل فيغادرون بلادهم في موكب وراء موكب ، ويرددون أثناء مسيرهم أناشيد زادت حماسهم تأججا حتى أخذ بعضهم يرقص من شدة الطرب .
يرقب زعماء كلدية هذه المواكب المنشدة الراقصة فيتملكهم العجب ، ويسأل أحدهم :

— أى شعب هذا ؟ أليس هو الشعب المهزوم !

ويعقب آخر :

— بم يترنم ؟ ... ياله من شعب عجيب !

فيجيب ثالث :

— هناك سر يبدلهم من حال إلى حال . هناك قوة خفية تملؤهم نشوة . إنهم

يؤمنون بعالم غير منظور :

ويسأله الأول متعجبا :

— وكيف يؤمنون بما لا يرون ؟ لابد من أن تتعلم عنهم هذا السر

الغريب .

إننا نستطيع إيادة الرجال ، ولكننا لا نستطيع إيادة الروح الكامن فيهم .

بهذه العبارة تنتهى قصة زقايج الخالدة . ولكننى لا أستطيع أن أنهى كذلك

هذه المجالة حتى أعرض لمشهد استوقف نظرى من أحد الفصول الأولى لتلك القصة .

قلنا فيما تقدم إن الشعب كان يهتف للبعثة العسكرية المصرية فى ساحة أورشليم الكبرى ، ويدعو إلى امتشاق الحسام ، وخوض غمار الحرب . وقد وقع قبل أن تصل مظاهرة الشعب إلى تلك الساحة أن اعترض إرميا سبيل المتظاهرين وحاول إقناعهم بالعدول عن دعوتهم الطائشة والتمسك بأهداب السلام ، وطفق يندد بمجالية الشرور ومخرقة الديار ، ويعدد آلاء السلم ونعم

الوئام ، ولكنه قوبل بعضب صاحب . وخرج له من بين صفوف الحشد شاب ترتجف أعصابه حماسة ، وطلب إليه في لهجة الأمر أن يتنحى عن طريق المظاهرة . فلم يكن من إرميا إلا أن هتف في وجهه للسلام ، فهدده الفتى بضرب عنقه بحمد سيفه ، فظل النبي ثابتاً في مكانه ، باسطاً ذراعيه ، مناشداً المتظاهرين بأعلى صوته أن يشوبوا إلى رشدهم ، ويرجعوا عن الغرض الذي قصدوا إليه

يهوى الفتى عندئذ بسيفه على إرميا فيصيبه في جبهته ، ويغادره ملقى على الأرض متخبطاً في دمه ، ويسير مع الجماهير إلى ساحة القصر الملكي . ولكنه سرعان ما يتوقف ، ويدفعه دافع من نفسه إلى استطلاع أمر ذلك الرجل الذي اعتدى عليه . فيعود أدراجه بطئ الخطى ، مزاحماً تيار المتظاهرين . ولا يصل إلى حيث يرقد إرميا حتى ينحني عليه ويقول :

— لا تتحرك . دعني أجفف الدم المتدفق على عينيك .

يفتح إرميا جفنيه ويسأل في لهفة :

— أين ؟ . . . أين الناس ! . . . المريق مقفر . . . آه . لقد ذهبوا إلى

القصر ينعمون ويستنزلون غضب السماء . . . إحملني إليهم . . .

فيتعجب الفتى ويحيب :

— اترغب في محاولة أخرى تناهض بها الكافة وحدك ؟ أنت تلقى بنفسك إلى التهلكة .

وينادية إرميا :

— أمسك بي . . . أعنى على النهوض . . . سر بي إليهم .

ويقول الفتى وقد ازداد عجبه :

— وأنا الذي حسبك جباناً ! . . . أنا لم أناهضك إلا وأنا واقع تحت تأثير

هذا الحسبان الخاطئ !

— ألا تظن السعى في سبيل السلام كفاً ؟ إنه يتطلب جلاً وبأساً

قد لا تتطلبهما القتال . إن الذين ينشدون السلام يخوضون حرباً لا يخدم لها أوار .

— إني أومن بك لأنى رأيت صفاء عينيك وهدوءها على بريق سيفي

المصلى .

ستيفان زقايج ورسالة الانسانية الكبرى

- كيف تؤمن بي ، وقد طعننتي وأنت تناهضني منذ برهة ؟
— أومن بك لأنني رأيت دمك المسفوك يؤيد دعواك .

كتب زقايج هذه القصة وسط أتون الحرب الأوربية الكبرى . وما وضعت تلك الحرب أوزارها ، ونشر شاعرنا الكبير مؤلفه بين الناس حتى اطمأنت نفسه ، حاسباً أن عهد الحروب قد مضى بغير رجعة ، وأن دعوته السلمية المنبعثة من سويداء قلبه ستجد السبيل إلى كل قلب .
ولكن الأيام بددت حلمه الجميل ، واشتعلت نار الحرب العالمية الأخيرة ورأى أن دعوته إلى السلام لم تكن من القوة بحيث تحول دون وقوع الحرب ، فأراد أن يثبتها ويدعمها بدمه المسفوك فأزهق روحه . وهكذا وضح أن ما سطره في قصته لم يكن مجرد بديع وبيان ، بل كان أصدق تعبير عن أشرف عقيدة آلى على نفسه أن يبذل في سبيلها أثمان ما يملك ، وقد بذل حتى نفسه في تلك السبيل .

محمد زهير الشرباشي

من ههنا وههنا

نحن والشعر

| تصدر قريباً — أو صدرت — في العراق
سلسلة شهرية ، من الرسائل ، باسم « عبقر »
خاصة ، أو كالتخصص ، بالبحث في الشعر والشعراء .
كتب إلى رئيس تحريرها الأستاذ الناصري .
يسألني متطاع من شعري ، أو كلمة في الشعر — ولعله
يريد في نقده — وهذا جوابي ، رأيت له ، أن ينشر
في « الكاتب المصري » ، إن رأيت هي ذاك . |

— تلك المحاولات — أخفقت ، وانصدعت ،
وماتت على الاطار ، قتلها الدين ، في تجميده
الحياة ، وتأزيله الابجدية .
هذا ، أو لأن النفس العربية ، في تاريخها
الطويل العريض ، لم تتعقد ، بحيث تصبح
كوناً . ولم تنفجر ، بحيث تحدث رجة ،
تحيا التاريخ ، وتنحدر إلى جذور الأبد .
تستطيع ، في غير جهد ، أن تبيثني بالأدلة
والنصوص ، على انقصاد النفس العربية ،
وانفجارها ، في لحات — من تاريخها الطويل
العريض أيضاً — .

أنا أعرف تلك اللحات معرفتك لها ،
وأنا معجب بها إعجابك بها ، ولكني أرى
تعقيد النفس العربية — حتى في صوفيتها —
تعقيداً عقلياً محضاً . والعقل ، في رأيي ،
مظهر ، ليس غير — وهل أقول بليد —
للنفس الانسانية ، والوجود الكل .

أما انفجاره ، انفجار هذا التعقيد العربي
إذا يمتلي ، فهو ، أبداً ، إلى خارج ، لا إلى
الداخل ، نتيجة منطقية محتومة ، لانبعائه
عن العقل . .

أخي المحترم .
أنا لا أومن بالنقد ، ولا أراه إلا هامشاً
كالمرتزة على متن الفنون ، وقد ينطوي
الدهر ، وتمحي الأرض ، والنقد عند أبواب
« عبقر » يتطال ، ولا يطول ، ويهيم ، ولا يريم .
لذلك ، فأنا إذ أتحدث عن الشعر أوجز ،
ولهذا كان جوابي على كتابك كما ترى ، في
خطف وإيجاز .

الشعر العربي في جلته ، منذ امرئ القيس ،
حتى شوقي ، غنائى ، ابتدأى ، ما برح يدور
حول إطار النفس والحالة والمشهد ، ولا ينفذ
إلى الصميم ، لأن الحياة العربية منذ كانت ،
سطح ، وانبساط وتجزئ . والنفس الانسانية
التي صدر عنها أمثال برجسون ، ونيقشه ،
وقاليري ، وبيتهوفن ، ودوستوفسكي ، غمقى ،
وتكثيف مركبين ، على شمول وكون .

كانت المحاولات العربية الأولى ، لشق
الاطار ، والنفوذ إلى الحالة النفسية ،
— محاولات المتصوفة العرب — وإن شئت
التخصيص ، فالتألهة منهم ، كالحلاج ، وابن
العزى ، وعمر بن الفارض ، ولكنها

من هنا وهناك

حقى لتحسبها إلى ضياع وتيه ؛ ولكنها ،
وراء المنعطف ، تلتف ، وتعتقد ، على صميم
واحد ، يسمى الحياة ، ويدعى النفس ، ومن
ألقابه : الفن !

اقرأ ، إن شئت ، سعيد عقل ، وبشر
فارس ، وشارل مالك . وعمر أبوريشة ،
(وأنى يمر هذا الشعر ، لو لم يكن في دماثة
خفقة من سماء لبنان ؟) وسر — كذلك
إن شئت — مع مار مخائيل نسيمة ، في
صوفيته ، وجبران في ثورته (١) . — وانظره
إلى الاطار ، الاطار الذى حدثك عنه ،
ودلتك عليه ، تجده ينشق عن صميمه ،
ويحتضن لبنان .

تري . هل ينمغم : مرحباً يا صباح !

وصفى فرسقلی

وأخيراً ، ما شعرتما والفن ؟

وما نحن والعالمية ؟

عد إلى نفسك ، واسألها الجواب .

أما أنا فقد سألت نفسي ، وسألتها ، وعدت
من كل ذلك ، بأقسامة كاليأس ، وبغفهموم
جديد ، كمكان الصفر من مراتب العدد .
لا تفل : ومصر ؟ فما برحت مصر في إحياء
وتجديد ، وإصلاح . وهذه الألفاظ ،
وأخواتها ، وخالاتها ، شتتها لغة ، أو شتتها
منطقاً ، — دوران في الاصل ، واجترار
له ، أما الخلق فلا خلق ، وأما الفجر
فليس هناك ! .

تلك براعم ، كالحلم ، تستهل على سفوح
لبنان ، تنسرب في كل أفق ، كل في اتجاه ،

[حصص - سورية]

وهم من الأوهام في تأويل حلم من الأحلام

أثبتته على الطرس كما رأيته لم أخرم حرفاً ،
ولم أخل بوضع ، ثم نشرته كما أثبتته لا مفتناً
ولا متزيدياً . وذلك الموجب — بل ذلك الداعي
الملح الذى ركب رأسى — هو ما كنت عليه إلى
قبيل كتابة هذه السطور من الشبهة المستهمة
والخيرة الشديدة في أمر تلك السيدة المحترمة
المحتشمة التى لم أتعرفها في الحلم ، والتى رأيت ورأى
القراء معى كيف تدخلت في الحلم غير محتسبة
ولا متوقعة ، فنعت اهتمامه وبلوغه إلى غايته .
وليس من شك في أن الحلم كان إلى قبيل ظهور
هذه السيدة متصل السياق ، واضح الدلالة ،
لا مشتتة في متابعتها ودرك لغواه وبواعثه .
فهو — كما يدل ظاهره في وضوح لا خفاء به —

قرأت « حلم ليلة من ليالى الصيف » (٢)
فيمر قرأوه ، بل زدت عليهم فقرأته أكثر
من مرة ، ولم أكن وأنا أقرؤه غافلاً عن أبى
صاحبه وكاتبه .

وما أحسب أن هذا شأنى وحدى . بل
هو — في أكبر الظن — موضع الضعف في كل
كاتب إزاء بعض آثاره التى ليس فيها كبير
دخل لحياته الثقافية ، ولا هى ثمرة من ثمراتها
البائسة الجنية ، وإنما هى الوحي الخالص
لصدمة عاطفية ومحنة نفسية .

بيد أننى واجد هنا — فوق ما ذكرته —
موجياً من موجبات الساعة لتكرارى مراجعة
هذا الحلم الذى رأيته فيما يرى النائم ، والذى

(١) اقرأ ، إن كنت لم تقرأ ، آخر ما خط جبران : « آتية الأرض » .

(٢) الكاتب المصرى عدد ١٤ (تشرين ١٩٤٦) .

من هنا وهناك

أجل ! عرقها ، عرقها ، تلك السيدة المحترمة المحتشمة .

يا للعجب ! كيف لم أتعرفها في الحلم ! كيف لم أفطن لها في اليقظة ، وفي ساعات الأرق بين النوم واليقظة ، مع طول التروية والتفكير فيها !

إنها أمي . أمي اندفعت لخلاص من الهول الداهم . إنها أمي الحبيبة المحبة .

ولكن . . . لكن ، ماذا تراه يخلص من هذا الذي رأيته جميعاً ، هذا الذي رأيته في تفصيله وجنته ؟

أ يكون صورة لذلك الصراع الخالد - سواء في السر أو في العلانية ، سواء في الواعية أو في باطن الواعية - ذلك الصراع الخالد بين المرأتين المثاليتين ، بين حبيبتي الرجل المحبتين : أمه وزوجه !

لئن كان تأويل حلمي كالذي وقع في وحيي ليكون هذا الصراع أروع الصراع وأرهبه . إنه بين امرأتين في عالمين يفصل بينهما الموت ، تريد أن تستأثر بي في هذه الحياة أمي ، وتدعوني أن أزف إليها في الحياة الأخرى زوجي .

ولست أزعـم أن هذا هو القول الفصل وكلمة الختام ؛ فلا أصحاب منهج التحليل النفساني من شيعة فرويد رأيهم في هذا المقام ، فما أدعى علماً بتأويل الأحلام .

حلم أرمل ما برحت زوجه الميتة شاغلة لقلبه ولبه ، مستولية على حبه . وكل حلم غايته - كما هو معلوم - أن يحقق ما لا سبيل إلى تحقيقه في الواقع . ولقد دخلت عليه - كما هو الشأن في سائر الأحلام - أفانين من الزخارف الشعرية والاشارات الرمزية . وفيه - كما في سائر الأحلام - عنصر الخوف في صورة من صوره النريزية أو الاجتماعية ، وقد كان الخوف هنا في أفظع صورة ؛ لأنها صورة الخوف من الجنون واستلاب العقل عند من يفالي بقدر العقل .

ولقد رأينا هذا الحلم - فيما حكينا عنه - وقد نشأ رفيقاً ، ثم تقدم في حركة سريعة ، وارتقى في تعسف أدواره الفاجعة المفزعة العنيفة ، حتى اقترب إلى الذروة ، ولم يبق إلا خطوة ويبلغ الحلم الجع أدواره وأعنفها وأشدّها هولاً . فمن تراها تكون تلك السيدة المحترمة المحتشمة التي اندفعت وسط الردهة ، واستبقت الموكب فعطلت سيره ، وصرخت صرختها المخنوقة التي ملئت رعباً ، فنبهت وعى النائم ، ودرأت عنه الهول الداهم ؟ من تكون تلك السيدة المحترمة المحتشمة ؟

سؤال طفت أردده بلا طائل ، مدة شهر كامل ، كلما خلوت إلى نفسي . والآن ، الآن فقط ، أحسبني عرقها . عرقها مع ما كان من عمل الحلم في التبديل في مظهرها وإخفاء هيئتها .

عبر الزمن صرقي

المسلمون في إرتريا

منها خليط من المسلمين والمسيحيين ، وهي مديرية حماسين ، وسراي ، وأكغزاي . وجملة عدد المسلمين فيها لا يقل عن النصف إن لم يزد عنه . ويبلغ عدد قبائلها ثلاثمائة قبيلة منها ٢٤٠ قبيلة إسلامية . ولغتها الرسمية قراءة وكتابة

قد نشرت بعض المجلات أن عدد المسلمين في إرتريا يساوي عدد المسيحيين . وذلك غير صحيح ؛ لأن إرتريا تتألف من سبع مديريات وهي مديرية عصب ، ومضوع ، وكرت ، واغردت ؛ فهذه الأربع كلها إسلامية ، وثلاثة

من هنا وهناك

الانضمام إلى مصر سوى أفراد مؤجرين أو
موكلين من إثيوبيا لمطامعهم الشخصية . إلا
أنه لما اقتضت مصر على طلب مصوع في
مجلس الصلح تأسف المسلمون لذلك وعدلوا
عنه . ويترجح الآن أنهم يطلبون الاستقلال
للمنتظر تحت وصاية الحكومة البريطانية أو هيئة
الأمم المتحدة إلى أن يقدرُوا على الاستقلال
بإدارة بلادهم . وقد أشيع أن إريتريا ستضم
إلى إثيوبيا ، وأن اسرة ومصوع تكونان مقر
إمبراطورها لقطع طمع الأجانب والمهاجرين
من جهة مصوع . ولكن هذا مع سيول
دعايات إثيوبيا وأموالها لم يجد آذانا صاغية
بين جميع المسلمين وبعض المسيحيين بل صار
زوبعة في الفئجان أو تفخة في الرماد .

هي العربية فقط . وستون قبيلة مسيحية ولغتها
الرمزية التجريدية . فلهذا يعد غير المسلمين ربما
والمسلمون ثلاثة أرباع .

وفيها ست عشرة محكمة شرعية ، وخمسة
مسجد وجامع ، ومائة وتسعون وقفاً من
الأوقاف الخيرية . وبعض هذه المساجد
والأوقاف من خيرات مصرية . كما يوجد فيها
حوالي أربع آلاف خلية لقراءة القرآن .
وفيها عدد لا بأس به من المعاهد الدينية
والمدارس الإسلامية الخاصة بأبناء المسلمين .
وثقافة المسلمين فيها كلها مصرية ، ويدير
الحركة الدينية فيها جماعة من خريجي الجامع
الأزهر الشريف .
ولهذه الأسباب كان رأى جميع مسلميها

عيسى على قدر

[عصب]

البابا والمشال

ياولو الثاني (بيترو باربو من البندنية)
من سنة ١٤٦٤ إلى ١٤٧١ .
ستو الرابع (فرنشكو دالاروفيري
من ساقونا) من سنة ١٤٧١ إلى ١٤٨٤ .
إنوشنتي الثامن (ج . باتشاشيو من
جنوه) من سنة ١٤٨٤ إلى ١٤٩٢ .
أليساندرو السادس (رديجو لوزون
بورجيا من قالنزا) من سنة ١٤٩٢ إلى ١٥٠٣ .
پيو الثالث (فرنشكو تودسكي
بيكولوميني من سيننا) سنة ١٥٠٣ . ولم
يتول غير ٢٥ يوما
جوليو الثاني (جوليانو دالاروفيري من
ساقونا) من سنة ١٥٠٣ إلى ١٥١٢ .

فنهنا باحث فاضل إلى شيء من اللبس جاء
في عرض الحديث عن البابوات الذين سبقوا
البابا يوليوس الثاني مما يبعث على الخطأ في
ترتيب توليتهم . ولذلك رأينا أن نذكر أسماء
البابوات الذين جاء ذكرهم في المقال ومن
تبعوهم مع ذكر أسمائهم قبل انتخابهم
وتواريخ حكمهم :
تقولا الخامس (توماس بارتشلي من
سارزانا) من سنة ١٤٤٧ إلى ١٤٥٥ .
كالستو الثالث (الفونسو بورجيا من
قالنزا) من سنة ١٤٥٥ إلى ١٤٥٨ .
پيو الثاني (إنيو سلفيو بيكولوميني من
سيننا) من سنة ١٤٥٨ إلى ١٤٦٤ .

شهرات

شهرية العلم

بعث العلم في فرنسا (١)

الطبيعية ، حتى صاح الأستاذ بوقيه صبيحة الاستغاثة في أكاديمية العلوم .

واستخدم جان بيران كل مما أوتيته من بلاغة ليشعر الحكومة والرأى العام بالخطر المهدد ، فكتب يقول : « يجب قطعاً أن ندرك أن البحث العلمى هو أملنا الوحيد لنخاطق أحوال جديدة حقاً بحيث تكون الحياة فيها بالنسبة للبشر جميعاً حياة حرة قوية غنية بما تحتويه من مؤهلات السعادة ؛ ولذا يبدو من الحق ألا تكون الأمم المختلفة قد قامت إلى الآن بأى مجهود جدى نحو أولئك الذين أوتوا حب البحث العلمى حتى لا تقصمهم عنه الضرورات للمادية . وهكذا فقدنا الكثير من الرجال ذوى العبقرية ، حتى ضارت جالتنا اليوم أنفس وأشقى مما كانت تؤول إليه لو استطاع أولئك الباحثون أن يعيشوا . . . »

ولحسن الحظ أصغى البرلمان لتلك الصيحة النبيلة وأقر القوانين والاعتمادات اللازمة لذلك وأنس في عام ١٩٣٥ صندوق وطنى للبحث العلمى ليقوم بنفقات المعامل والحفريات والبحوث والطبع والمكافآت الدراسية ومكافأة العلماء وأسرهم . وذهب فى ذلك إلى حد أن أقام ذلك القصر الجميل بالشانزليزية « قصر الاكتشاف » ليعيش حماسة الشباب للعلم وليشيع الحب له بين الشعب . وكل ما اعتمد لذلك هو مبلغ خمسين مليوناً من الفرنكات عام ١٩٣٩ (أى أقل أربع مرات أو خمس مرات من الاعتماد المخصص

أنبأتنا الجرائد أن الرئيس ترومان قد أنشأ منذ قليل لجنة للبحوث العلمية غرضها ذو ثلاث شعب : « دعم الدفاع الوطنى ، وتنمية الاقتصاد الأمريكى ، وزيادة مجموع المعارف الأمريكية الأساسية . » وذلك عمل سبق الأخذه فى فرنسا قبل الحرب ، وسيؤتى ثمراته عما قريب فى السنوات الآتية ، بعد فترة الاختناق التى مرت بنا أثناء الاحتلال . وأقصد بذلك « المركز الوطنى للبحث العلمى » ومركزه الرئيسى بباريس رقم ١٣ كى دورسيه وقد جاء أخيراً نتيجة لجهود عدد من العلماء ولا بد أن نذكر فى مقدمتهم العالم الطبيعى الشهير جات بيران Jean Perrin المتوفى بالولايات المتحدة أثناء الحرب . وقد لاحظ أولئك العلماء ، وكلهم تقريباً من الجامعيين ، أن البحث العلمى قد نصب معينه بفرنسا لانعدام الموارد المدة لذلك ولانعدام التنظيم . وحتى من أيام باررس Barrès ، سمعنا صيحته عن « بؤس المعامل » ، ولم تكن الإعانات المقدمة من الحكومة إلى الجامعة ضئيلة جداً فحسب ، وإنما كانت الأعباء التعليمية مانعة أيضاً للأستاذة من قصر أنفسهم على البحث العلمى الخالص . وكان الشباب متجهين بعد حصولهم على إجازاتهم العلمية ، إلى ناحية المهن الصناعية ؛ إذ يأثمهم قلة ما يجنونه من وراء العلم الخالص ، وأصيب التجنيد العلمى من جراء ذلك إصابة جسيمة . ولم يعد ينبغ أحد فى بعض فروع العلوم

(١) هذا المقال كتب خاصة لجلية « الكتاب المصرى » .

تلك في ألمانيا) ، ولكنه على أية حال بدء
لجهود كان سيؤدي إلى التنظيم التام للبحث
العلمي كما أراده بيران .

وكان القصد توسيع الوسائل وتبسيطها لتجنيده
صفوة من الشباب ، وزيادة إنتاج الأساتذة
الذين يقومون بالبحوث العلمية وذلك بأعداد
جوائز للنتاج ، بل السماح للباحثين الموهوبين
بتكريس أنفسهم تماماً لما يعشقون . وقسم
الباحثون من غير الأساتذة إلى ثلاثة أقسام :
لنكفون بالبحوث وهم يمدون رؤساء المعامل
بالتعليم العالي ، ورؤساء بحوث ويمدولون
الأساتذة للمساعدين ، ومديرو بحوث ويمدولون
الأساتذة أصحاب الكراسي . ولهمتهم ورواتبهم
مدة محدودة ترتفع بارتفاع الدرجة . وأعد
للباحثين من هيئات التدريس مكافآت وقتية
أيضاً تساوي نصف الراتب بشرط أن يخصصوا
للبحث العلمي كل الوقت الباقي لهم بعد العمل .
ويقسم المبتدئون إلى « مساعدي باحثين »
و « مرشحي للبحث » ويحصلون على مكافآت
ويوضع مجموع تلك « الإدارة الوطنية » تحت
رئاسة مجلس أعلى للبحث العلمي .

وتمحقت هذه الآمال بإجراءات تشريعية ،
أولها قانون ١٩ أكتوبر سنة ١٩٣٩ القاضي
بتأسيس « مركز وطني للبحث العلمي » وترك
إنشاء المجلس مؤقتاً وللآن لم يؤسس بعد ،
وسيكون إنشاؤه في القريب خيراً نهاية لتنظيم العلم
بفرنسا ، فهو لن يؤدي إلى حماية الحقوق المادية
والأدبية للعلماء فحسب ولكنه سيقم كذلك
سياسة حقيقية للبحث العلمي ، وذلك بجمع كل
المجهودات المبعثرة وتنظيمها سواء في الوظائف
العامة أو للمهن الخاصة . وسيضع حداً لتلك
المجهود الضائعة عبثاً ، والتي من أمثلتها وجود
معامل عديدة تقوم بشروع واحد من البحوث
وتتبع وزارات مختلفة وكل منها يجهل وجود
الآخر . وليست فرنسا بذلك الغنى ، ولا

العقول القادرة على دراسة العلم بالكثرة التي
تسمح بالاستمرار في ذلك التنافس العقيم .
وكم من مرة لاحظنا فيها أن مهمة علمية جديدة
بالنجاح تنقصها الوسائل لذلك ، على حين أن
هذه الوسائل تستخدم في ناحية أخرى
فرصة النجاح فيها قليلة . وليس هناك
إلا الحرب التي تبيح المصادر المعقولة .
ولكن الأمر اليوم أمر السلام وأمر مصير
الحضارة .

وفي انتظار إقامة هذه المؤسسة الأخيرة ،
التي ستجعل من فرنسا بلداً نموذجياً في ناحية
التنظيم العلمي ، ترى المركز الوطني للبحث
العلمي لا يضيع وقته عبثاً . وإن العمل الذي
قام به لعظيم . ولقد عمل ببطء أثناء الحرب ،
تحت رئاسة الأستاذ شارل جاكوب ، واقتصر
على تشجيع العلماء وعلى الاستعداد لما بعد
الحرب ، وذلك في أغلب الأحيان دون علم العدو
الذي كان يشرف على كل المعامل التي يستطيع
الاستفادة منها . وجدير أن يكتب كتاب
عن العلم الفرنسي أثناء الاحتلال ، وعندئذ
نرى فيه مثلاً كيف نجح أحد علماء الطبيعة
مثل رينيه بارتلمي في أن يخفي على الألمان ،
وكانوا قد صادروا معمله ، بحوثه عن
التلفزيون التي أدت إلى تقدم رائع هو الصورة
ذات ألف الخط image à mille lignes
وكذلك استطاع المركز العلمي — وكان قد
سبق له أن ساعد في إعداد التنبؤ العلمية أثناء
فترة الحرب الأولى — أن يمد بالعدد سراً
بعض المعامل الجديدة ، وهي التي كانت على
أهبة الاستعداد للعمل بمجرد أن حررت فرنسا .

وهناك فكرة قيمة جداً لم تكن في مشروع
بيران الأول ، وهي إيجاد الصلة الضرورية بين
العلم والبحث والعلم التطبيقي ، وذلك رغم أننا
سمعنا مراراً أن ذلك كان سر تفوق الألمان
في العلم ! ففي عام ١٩٣٨ أنشأ المركز العلمي

تطهير العلم

العلمية هي مجلس مكون من خمسة عشر عضواً . وهناك مجلس إدارة بالمعنى الصحيح يشرف على المصالح العامة .

ولما نظم المركز العلمي بالطريقة السالفة ، أخذ يعمل في إحصاء الانتاج العلمي وفي وضع خطط البحوث وزيادة عدد الباحثين والفنيين . ووضعت لكل طائفة درجاتها . فقسم الباحثون إلى : طالب بحث ، ثم مكلف بالبحث ، ثم رئيس البحث ، ثم مدير البحث . وقسم الفنيون إلى وكيل فني ، فساعد ، فعاون ، ثم مدير فني . ومثل هذا التقسيم لو وجد سالفاً لرؤع علماء المدرسة القديمة ، ولكنه اليوم ينفق مع نظام توزيع العمل : فالمعامل العلمية اليوم هي مصانع صغيرة بعلمها وبآلاتها المتقدمة التي تتطلب وجود ميكانيكيين وكهربائيين وعمال مختصين . ورقى « صي العمل » في النظام القديم إلى وظيفة مساعد فني . وأصبح الباحث ، الذي كان فيما مضى يضع بنفسه أدواته ، يقتصر على وظيفته العلمية تاركاً للمعاون الفني أو للمدير الفني أمر العناية بالأجهزة .

ولكن الكادرات والنظم لا قيمة لها إذا أعوزتها الروح ، ويجب أن يكون العلم في كل آن — كما تنهانا رنان Renan — بذلاً من المرء وتضحية بل أحياناً رسالة يؤديها العالم . ولا يصح على أية حال أن يكون وظيفة إدارية . ولقد أدرك المركز الوطني للبحث العلمي — بعد أن جرده جوليو وخلفه تيسيه بمعاونة المدير المساعد جوزيف بيريس وبعض أعضاء هيئة الإدارة — أن كل معضلة البحث العلمي هي إيجاد كهنة للمعبد . فتراه يرقب المتحمسين للعلم عند انتهاءهم من دراساتهم الجامعية ويمنح من ياتحق منهم بالبحث المكافآت والرواتب ، ونجد في قائمة الملتحقين للبحث العلمي عن عام ١٩٤٦ : ٣٠٨ طالب بحث ، ٣٤٥ ملحق بالبحث وذلك من مجموع الأعضاء البالغ عددهم

قريباً « للبحث العلمي التطبيقي » ، وربط بين جهوده وجهود الانتاج الصناعي والجماعات للفنية . ولقد عممت هذه السياسة اليوم بين هذين النوعين من البحوث . وأصبح مفهومنا أن العالم البحث لم يعد يستطيع ألا يهتم بمصير مكتشفاته ، وأن على الرجل الفني أن يتابع التجديد المستمر في المعلومات النظرية حتى لا تفقد منه فرصة تحسين وسائله وتحسين إنتاجه . وإن ذلك التعاون ليكن تحقيقه على خير وجه في معامل العلم التطبيقي . وتشمل الإدارة في كل المعامل التابعة « للمركز الوطني للبحث العلمي » علماء خالصين ومهندسين أو فنيين .

ولكن محمولا أبعد من ذلك وأشد عمقا قد حدث في عام ١٩٤٥ . فبمجرد تحرير الأراضي الفرنسية ، استولى فريق جديد — كان قد تميز بروحه وأعماله في المقاومة — على تلك المؤسسة الحديثة بقصد توجيهها نحو غايات اجتماعية أسمى وأعظم . وكان الرئيس هو الأستاذ جوليو المعروف في جميع أنحاء العالم بدراساته الذرية وحصل من الحكومة على المراسيم اللازمة ، فتألفت لجنة وطنية من ٤٤ عضواً أو مستشاراً يمثلون كل صنوف النشاط العلمي . وحتى ذلك الوقت ، كان يقصد بكلمة « علوم » الدراسات الثلاث : الرياضية ، والطبيعية والخاصة بالتاريخ الطبيعي . فتقرر أن يضاف إليها العلوم التي كانت تدعى فيما قبل بالعلوم « الأدبية » كاللغويات والتاريخ والحقوق والاجتماع واللغة بل الأدب . ولم يلبسوا أن يضيفوا إليها أيضاً تلك العلوم « البشرية » وهي التي تشمل الجغرافيا والأنثروبولوجيا وعلم الحفريات . وهذه الولايات الفكرية تتطلب من العلماء أن يكتشفوها بأدوات علمية تكون أحياناً مادة وبوسائل معملية . ولها اليوم نوابها في مركز البحث العلمي . والهيئة التنفيذية لهذه الجماعة

١١٠٠ عضو ، وعدد الفنين كذلك ١١٠٠ عضو . وتبلغ الميزانية العامة — وهي على نفقة الحكومة — ٥٦٠ مليون من الفرنكات وقد كانت ميزانية عام ١٩٣٩ تبلغ ١١٠ مليون من الفرنكات . وعلى هذا فلم يزد شيئاً نظراً لخفض العملة . وليس لنا أن نتنظر خيراً من ذلك ما لم تقم فرنسا ما تهدم من بنائها . وأول ما يجب الاهتمام به هو أن تعهد شعبة العلم للقدسة ، وألا ندع الفناء يعدو على الأعمال العلمية التي لا تستطيع أن تنهض بنفسها . ويذهب مركز البحث في أداء رسالته إلى مدى مساعدة بعض المؤسسات كالمتحف ومعهد باستير وقد أعاد طبع الكثير من البحوث العلمية مبتدئاً بمحاضر أكاديمية العلوم . واعترف تيسيه بأنه « لولم يوجد ذلك المركز لالتفت للمعامل التي تجري بها أهم البحوث للفرنسية أبوابها » .

وتبدو فائدة المركز جلية في وضع مشروطات البحوث وتوجيه للمعامل القائمة أو إنشاء معامل جديدة . ويجب أن نتنظر بحثاً للعلم الفرنسي الذي أصابته الحرب والخراب الذي عم البلاد إصابة جسيمة . والمركز يشرف على ٣٥ مؤسسة بعضها يقل نظيره أو لا نظير له في البلاد الأخرى . ويأتي في المكان الأول من بينها مجموعة معامل « بل في » للقائمة مكان مكتب الاختراعات . وهذه المجموعة تشمل محطة فروا التجريبية ، وتتكون من ثلاثة معامل : للطبيعة وعلم الحياة والتبادل الحراري ، وتشمل أيضاً معامل الكيمياء الحيوية للتغذية ، ومعامل الضغط الكهربائي العالي ، والتحليل الكهربائي ، وأشعة إكس ، والتصوير الشمسي والسينمائي ، والمغناطيسية ، (ومعها المغناطيس الكهربائي الكبير الخاص بأكاديمية العلوم) ، ومعامل التطبيقات للمغناطيسية ، ومعامل الأراضي النادرة (معامل جورج إربان) ، ومعامل للواد القطرانية .

وهناك سبعة معامل أخرى تحتاج إلى عون المجموعات الفنية ، وهي معامل للواد ذات المقاومة الكبيرة ، والواد القابلة للتشكل ، ومعمل شقيريل ، ومعامل المواد الدهنية ، وألوان الصباغة والطلاء ، والمعالجات الحرارية ، والبادلات الحرارية . وهناك معمل ذو لائحة خاصة وهو معمل الوقاية من النار ، وسيلعب دوراً هاماً في إعادة إنشاء المساكن والأسطول وفي ناحية الفلك ، يتبع المركز مؤسستان لها أهمية عظمى ، وقد كانتا في طريق التكوين قبل الحرب ، ولم ينته إتمامهما بعد وهما : معمل الطبيعة الفلكية الملحق بمركز باريس ، ومركز مقاطعة بروكس العليا في ناحية فوركالكيه الجافة المشمسة حيث تصفو السماء صفاء عظيماً ، ففي ذلك المرصد أمكن رؤية صور سديمية بتلسكوب بسيط قطره ٨٠ سنتيمتراً . وتلك صور يمكن مقارنتها في وضوحها بصور التلسكوب الذي قطره ٢٥٠ سنتيمتراً الموجود في قمة ولسون . كما أن تلسكوباً عظيماً قطره ١٢٠ سنتيمتراً قد تم صنعه فعلاً وأقيم هناك في انتظار تلسكوب آخر قطره ١٩٢ سنتيمتراً يجري صنعه الآن ، وقد صب زجاجه فعلاً في سان جوبان . وسيكون هذا العمل العظيم أكبر عمل من نوعه في أوروبا . وكذلك تطمع محطة الأشعة الكونية القائمة حديثاً — في قمة أجوي — دي — ميدى قرب شامونيكس على ارتفاع ٣٦٥٠ متراً — في أن تكون أولى مثيلاتها بأوروبا .

وفي ناحية الطبيعة ، والكيمياء ، مازال المركز يدير معمل التركيب الذري بأفري حيث يستمر جوليو في إجراء بحوثه . وكذلك معمل الكهرباء الاستاتيكية ، ومعمل طبيعة المعادن بجرنوبل ومركز دراسة وبحث الكيمياء التطبيقية ، والمعمل المركزي للعلاجات الكيميائية في فيترى — سير — سين ، ومعمل التحليل العضوي . ويضاف إلى ذلك

شهرية العلم

تلك التسهيلات الجديدة التي توجد بفرنسا منذ بضعة شهور .

وهذا الاحصاء لا يمثل إلا المجهود الحالى فى حيز ميزانية ضئيلة جدا . ولربما دهش المرء لما يبدو من بعد بين تلك الاعمال ، ولكن هذا البعد شاهد على نهج قد يؤدي إلى خير النتائج بحالته المتواضعة الراحنة . والمركز لا يسعى إلى إقامة الجديد من المنشآت ولكنه يفضل استخدام الموجود منها فعلا ، فيغير من صورته ويزيد عليه ، وذلك بالتقريب ما كان يدعو مونتاني Montaigne بطريقة «التقيّد الكرمي» . فبدلا من انتظار الاعتمادات وبدلا من استخدام المهندسين المماريين لبناء معاهد نموذجية ترى القوم يستقرون حيث يتاح لهم ذلك ويزيدون ما كان موجودا . وتلك حال روسكوف حيث أطارت الجامعة للمركز مكانا فى معمل علم الحياة البحرية . وهذا لا يمنع من تحقيق أوسع المشروعات كذلك للمركز الذى سيقام للبحوث البحتة بجيف قرب باريس حيث اشترت أرض مساحتها ٦٤ هكتارا (الهكتار ١٠ آلاف متر مربع) وستبنى عليها مدينة عظيمة تفرها الحدائق وتشمل معامل مختلفة وخاصة معامل علم الحياة . ومن المقترح كذلك إنشاء معهد لعلم البصريات الالكترونية optique électronique . وإنشاء باخرة للدراسة الأوقيانوغرافية . ومشروعات للمركز عديدة وهى سجل طويل لن ينتهى . وهذه الرغبة فى القوة ، هذه الرغبة التى مجاهد لا لتسخير البشر وإنما لتسخير الطبيعة ، فى بلد بأكله ، إنما هى دليل على أننا ندخل فى عصر جديد ، لو أسميناه العصر الذرى لكان ذلك تسمية له بأحدى نتائجها التى تسترعى الأنظار وإخفاء لصيقته الأساسية ، ألا وهى وضع العلم بكل صورة فى خدمة البشرية .

هيئة دراسة الجهد الحرارى للبحار ، ومركز الدراسات العليا الميكانيكية ، ومعمل للاحصاء الميكانيكى .

وفما يختص بالجيولوجيا وعلم المعادن أنشئت لجنة فنية لفحص الثروة المعدنية الفرنسية فحاصاً منظماً . وهذه اللجنة عدة مراكز للتحليل الكيميائى ، ولإشعة إكس ، وللنشاط الاشعاعى والتصوير الطيفي spectographique والتصوير الشمسى ومركز لصناعة الصفائح الرقيقة والصقل .

ولعلوم الحياة معهد نوعى génétique ، ومركزان لدراسة الأوقيانوغرافيا وعلم الحياة فى البحار ، علم الحياة المائية hydrobiologie ، ومركز لفسيولوجية التغذية ، ومركز لربط الدراسات الخاصة بالتغذية ، والخاصة بالغذاء . ويهتم البحث العلمى عظيم الاهتمام بمسألة الغذاء كما يهتم بصحة الشعب . وخصص أحد المراكز للدراسة العلمية للانسان .

ولنكمل إحصاء المؤسسات الموجودة وهى : مركز الدراسات الصحراوية بينى عباس ، ومركز الدراسات العلمية الصناعية والبحرية بمرسيليا ، ومركز رسم الخرائط ، ومركز تربية الحيوانات فى المعامل ، ومعمل البيومترية البشرية biométrie humaine ، ومركز اجتماعى ، ومعهد بحوث وتاريخ النصوص ، وإدارة للخرائط النباتية . وهناك عمل آخر يبدو أنه فريد فى نوعه ، وهو إدارة جمع الوثائق ، وهى تصدر صحيفة شهرية تحوى تحليلات للعلوم البحتة والعلوم التطبيقية التى تنشر فى الدنيا كلها (ماعدا الكتب) . وتصور أصول المقالات بطريقة «التصوير الدقيق» microphotographie ويمكن كل باحث الحصول على نسخة بثمن معقول . وأولئك الذين يضيعون وقتاً طويلاً فى المكتبات باحثين عن بعض الوثائق سيقدرون أعظم التقدير

شهرة العلم

الموجودة . ولكن اهتمامهم الكلى يتجه إلى ذلك النوع من العلم المنظم تحت إدارة واحدة ، وقد أقاموه وانتظروا منه خير النتائج . وهي تجربة عجيبة تستحق أن تجرب في فرنسا ، ذلك البلد الذى لم يتردد فيه العقل أبداً عن أن يحطم التقاليد بأبادة المقاومات العاطفية . ومن المؤكد أن الوقت لم يحن بعد للحكم على هذا العمل الضخم « للمركز العلمى » . ولكنه لو وجد عوناً في السياسة فسيكون قادراً على تغيير وجه هذه البلاد وعلى إعطاء العالم صورة لثورة جديدة .

منه مود

ولخير من ذلك أن ندعوه « العصر العلمى » بشرط أن نعطي هذه الكلمة القديمة - التى قالها أوجست كونت - معناها التام الكامل . وستكون تلك الطرق صدمة لكثير من النفوس الحساسة . فلن يتم غزو العلوم البشرية بالوسائل التى نجحت نجاحاً باهراً في العلوم المادية لو خشينا ما يصبو إليه العلم المنظم . ورغم ذلك فإن علماء المركز العلمى يؤكدون أنهم لا يريدون شراً بالبحث الحر ، وأنهم مستمرون في تأييده . والمعقود التى أمضيت بينهم وبين بعض الهيئات الصناعية الخاصة هى الدليل على أنهم يحترمون الأوضاع الاجتماعية

تقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

شهرية السياسة الدولية

الرأسمالية في غرب أوروبا . والبريطانيون والأمريكيون يهاجمون السياسة الروسية بوسائلهم المعروفة لأنها فيما يرون تلقى الستار الحديدي على جزء من أوروبا في الشرق والجنوب والوسط ، وتجرى من وراء هذا الستار ألواناً من الأحداث ، يصفها البريطانيون والأمريكيون بأنها اعتداء على استقلال الأمم وازدراء الحرية الشعوب ، ويرى الروسيون أنها تحرير للأمم وتحقيق للحرية التي ينبغي أن يستمتع بها الإنسان في هذا العصر الحديث الذي يجب أن يكون عصر الحق والعدل والمساواة .

والعالم يشهد هذا الصراع الكلامي ضيقاً به غير مستوثق من نتائجه ، مقدراً أن هذه الدول الكبرى تختصم فيما بينها بالكلام وألوان الاعلان ، لأنها لا تستطيع أكثر من ذلك الآن ، وهي في أثناء ذلك تصلح من أمرها وتتيح لشعوبها أن تضمد ما أصابها من الجراحات في الحرب الماضية ، وتستمد استعداداً منكبراً لمستقبل قريب أو بعيد . ولكن العالم لا يقف موقف المتفرج الخائف الحذر الساخر لحسب ، وإنما يقف موقف الذي تصيبه آثار هذا الصراع وتتأجج في حياته اليومية المباشرة . فالعالم منقسم بالفعل إلى مناطق نفوذ ، تسيطر عليها الدول المنتصرة . وهذه المناطق تقسمها هي موضوع للنزاع وميدان الصراع ، فمن الطبيعي أن تتأثر مصالحها المباشرة بما يكون بين المنتصرين من تنافس وخصام .

وبكفي أن تنظر إلى المشكلة اليونانية مثلاً ، فكل فرد من أفراد الأمة اليونانية متأثر في حياته اليومية بهذا الصراع بين الفريقين

كان السياسة العالمية في شهر نوفمبر مظهران متميزان أحدهما مألوف قد شهده الناس منذ انتهت الحرب العالمية الأخيرة ، وهو هذا الصراع المتصل بين المنتصرين حول بسط السلطان والنفوذ . فالذي يشهده الناس من هذا الصراع هو بعينه الذي كانوا يشهدونه في الأشهر الماضية ، بل في العام الماضي أيضاً ، سواء اختلفت موضوعاته وأشكاله أم لم تختلف . فروسيا مثلاً مصرة على أن تصل إلى البحر الأبيض المتوسط ، وسيلها إلى ذلك هو الاشتراك في حماية المضائق . والبريطانيون والأمريكيون يشفقون من هذا الاتصال ويؤيدون تركيا التي تريد أن تحافظ على استقلالها وتأبى أن يشترك الروس معها في حماية هذه المضائق .

وليست هذه المسألة جديدة ، فمهدنا بها بعيد ، ولكن الحديث فيها لا ينتهي ، وروسيا تسلك إلى حلها طرقاً مختلفة ، تلين حيناً وتشتد حيناً ، ترسل المذكرات إلى تركيا مرة وإلى مؤيديها مرة أخرى ، بحيث صبح ما يقال من أن روسيا تثير بهذه المشكلة حرب أعصاب مرهقة . وللهم هو أن هذه المشكلة لم تتقدم ولم تتأخر ، فما زالت روسيا تصر ، وما زال الآخرون يرفضون ، وما زالت الصحف ورسائل البرق تفيض في هذا الرفض ، وذلك الإصرار .

وروسيا من ناحية أخرى تهاجم بوسائلها المعروفة في الراديو والصحف وفي الاجتماعات الدولية العامة كمؤتمر الصلح وهيئة الأمم المتحدة ، سياسة البريطانيين والأمريكيين التي ترمي إلى التوسع في بسط النفوذ في الشرق الأوسط ، والتي ترمي إلى التكتل حول

شهرة السياسة الدولية

الشعب التركي لشعر عظيم فهو مضطرب إلى أن يظل في حالة خوف وحذر واستعداد للطوارئ وإبقاء للجيش على أهبة الحرب ، وذلك يكلفه من المال أكثر مما يطيق . ويقال إن الميزانية التركية لم تبلغ قط من التضخم ما بلغته هذا العام ، والفرد التركي هو الذي يمد الدولة بما تحتاج إليه من مال ، وهو يقتطع هذا من نفقات حياته اليومية .

فهذا المظهر المألوف من مظاهر السياسة العالمية ليس من شأنه أن يرضى الشعوب أو يردّها إلى الثقة والأمن والاستقرار . ومهما يكن هذا المظهر مألوفاً فإن استمرار البلاء واتصال الحزن لا يغير من طبيعتها .

أما المظهر الثاني لهذه السياسة العالمية فقد مر به الناس مسرعين إلى حد ما ، مع أنه قد يكون أشد خطراً وأبعد أثراً في السياسة الدولية مما يظنون . وهو على كل حال سيزيد المظهر الأول قوة . وسيضاعف ما في الصراع بين المنتصرين من عنف . فقد حدثت في شهر نوفمبر أحداث ثلاثة لها خطرهما حقاً .

الأول : نجاح الجمهوريين في انتخابات الولايات المتحدة الأمريكية ، فقد كان الديمقراطيون يصارعون روسيا صراعاً شديداً عنيفاً مع أنهم حزب التقدم والميل للقليل إلى الناحية اليسارية ، فكيف بالجمهوريين الذين هم أصحاب اليمين في الولايات المتحدة والمحافظون أشد المحافظة على تقاليد الاقتصاد الرأسمالي ، وعلى تقاليد التشدد في السياسة الخارجية ، وعلى تقاليد إقامة المنفعة للمادية وخذها أساساً للحكم وأساساً للعلاقات السياسية الخارجية ! ليس من شك في أن انتصار الجمهوريين سيزيد الولايات المتحدة عناداً في موقفها من روسيا ، وإصراراً على ما أظهرت من التشدد إلى الآن .

الثاني : انتصار الشيوعيين في الانتخابات الفرنسية . وما يقبض أن نعرف في تقدير

المنتصرين من المنتصرين . وقد كان بعض الناس يظن أن الاستفتاء اليوناني حول نظام الحكم سيضع حداً للمأساة التي يشق بها الشعب اليوناني ، فتبين الآن في صراحة وجلاء أن الاستفتاء لم يضع حداً لشيء ، ولعله أن يكون قد بدأ مأساة أشد هولاً وترويعاً مما كان يجري قبل الاستفتاء ، فالجرب الأهلية ما زالت دائرة الرحا في بلاد اليونان وهي تزداد عنفاً من يوم إلى يوم . وكان الروس يطالبون في الدورة السابقة لهيئة الأمم المتحدة بمجلاء البريطانيين عن بلاد اليونان ، وما زال الجنود البريطانيون مقيمين فيها إلى أجل لا سبيل إلى تحديده بعد . ونحن نسمع الآن أن الحكومة اليونانية القائمة تريد أن تشكو إلى هيئة الأمم المتحدة من جيرانها الذين يؤلبون عليها ويمدون الثورة فيها بما تحتاج إليه من قوة ، وهؤلاء الجيران هم اليوغسلافيون والبلغاريون والألبانيون ، وهم كلهم خاضعون لتنفيذ الرأى . ومعنى ذلك أن الشعب اليوناني العظيم الذي أبلى في الحرب بلاءه الرائع وكان خليقاً أن يظفر من المنتصرين بالعناية والرعاية والعطف ، يشقى الآن بما يقوم بين المنتصرين من اختلاف شقاء يعرض أبنائه للفقر والجوع والموت في كثير من الأحيان .

والقصة الإيرانية ليست خيراً من القصة اليونانية ، فلم تكسد إيران تفرغ من الخصومة بينها وبين روسيا وتستريح من مشكلة أفرييجان حتى طرأت الخصومة بينها وبين الانجليز ، ونهأت الاضطرابات والثورات في جنوبها بعد أن لم تكسدها في شمالها . ووقفت إيران هذا الموقف المؤلم الذي لا تجد فيه راحة ولا أمناً لأنها لا تستطيع أن ترضى الروس والانجليز معا .

وحدث الشرق العربي أوضح وأبشع من أن يحتاج إلى ذكره فضلاً عن الإطالة فيه . وهذا الصراع نفسه بين المنتصرين يعرض

شهرية السياسة الدولية

الأمريكيين ، وستقتضى ظروف الحياة نفسها أن يصبح التعاون بين المحافظين على ساحل المحيط الأطلنطي ضرورة محتومة لحماية المصالح الاقتصادية والسياسية البريطانية نفسها .

وأكبر الظن أن وقتاً طويلاً لن يمضي قبل أن يشترك المحافظون البريطانيون في الحكم على نحو ما . ذلك إذا لم تقتض الظروف حل مجلس العموم ليعيد الشعب البريطاني نظره في مركزه من السياسة العالمية ومن الاقتصاد العالمي .

على أن حزب العمال البريطاني قد منى بصدمة عنيفة حقاً من الناحية النظرية ، أو قل إن شئت من ناحية مبادئه وآرائه وقدرتها على الثبات فضلاً عن الانتشار . وهذه الهزيمة تأتية من الانتخابات جميعاً . ففي فرنسا ينهزم الاشتراكيون انهزاماً خطيراً ، وتزول بهذا الانهزام فكرة الكتلة الغريبة التي كانت الاشتراكيون البريطانيون يحملون بتأليفها بين الأحزاب الاشتراكية في غرب أوروبا . وانتصار المحافظين في أمريكا يخرج مركز الاشتراكيين البريطانيين في بريطانيا وفي الخارج ، ويدفع هذا الحزب إلى إحدى اثنتين : فإما أن يتطرف إلى الشمال فيضحي ببغضه للشيوعيين ، وإما أن ينحاز إلى اليمين فيضحي بأساسه الاشتراكي نفسه . ونتيجة هذا كله أن الاشتراكية البريطانية ، بل الاشتراكية العالمية ، قد أصبحت الآن متأخرة بالقياس إلى التطور العالمي ، وستظل وقتاً طويلاً أو قصيراً مظهراً للقصد والاعتدال بعد أن كانت إلى وقت قريب جداً مظهر التطرف والفلو .

أما الحدث الثالث الذي حدث في شهر نوفمبر وكان حدوثه صدمة ثالثة للاشتراكية البريطانية ، فهو هذه الثورة أو إن شئت فقل هذا التمرد الذي اندفع إليه عدد غير قليل من

الفوز الذي ظفر به الشيوعيون في هذه الانتخابات ، فهم لم يظفروا بالكثرة التي تمكنهم من الحكم وحدهم . ولو قد ظفروا بها لتغيرت سياسة العالم تغيراً أساسياً خطيراً ، بل هم لم يظفروا بالكثرة التي تمكنهم من أن يحكوا مؤلفين مع الاشتراكيين . ولو قد ظفروا بها لكان من الممكن أن تتجه فرنسا وأوروبا الغربية معها اتجاهها مقلداً إن لم يكن مزجها .

ولكنهم مع ذلك قد ظفروا بكثرة تجعل حزبهم أكبر الأحزاب الفرنسية أعواماً متصلة ، ويتيح لهم أن يطالبوا برياسة الحكومة ، وتمكنهم كذلك من أن يحولوا بين فرنسا وبين الاتجاه للسرف نحو اليمين ، وتمكنهم من أن يفرضوا على الحكومة الفرنسية اللقى في الإصلاح الاجتماعي إلى أبعد مما مضى الفرنسيون منذ تم تحرير فرنسا .

فما أحدثه انتصار الجمهوريين في أمريكا من اندفاع نحو اليمين ، يلطفه ويخفف من حدته انتصار الشيوعيين في فرنسا ، ويمكن أن يقال إن ما تخسره روسيا بانتصار اليمين في أمريكا البعيدة يعوضه عليها انتصار الشمال في فرنسا .

فأما الدولة التي قد خسرت من هذين الانتخابين جميعاً فهي بريطانيا العظمى ، وهي قد خسرت دون تعويض . ذلك أن الحكومة القائمة في بريطانيا العظمى ليست محافظة يمكن أن تعتز بانتصار المحافظين الشيوعيين في فرنسا ، وإنما هي اشتراكية ، تخاف المحافظين أشد الخوف ، وتبغض الشيوعيين أشد البغض . فانتصار أولئك وهؤلاء يضيف من مركزها في العالم كله وفي أوروبا الغربية بنوع خاص ، بل هو يضعف من مركزها في بريطانيا العظمى نفسها ، فسيقتز المحافظون البريطانيون بانتصار المحافظين

شهرية السياسة الدولية

النواب العمال في مجلس العموم.. وقد لاحظ الناس أن الحكومة البريطانية اهتمت لهذا التمرد ، فأرادت أن تطرح الثقة ، وأن حزب العمال اهتم له فأراد أن يعاقب المتمردين ، وأن المحافظين البريطانيين اهتموا له فأيدوا حكومة العمال عند الاقتراع . وقد مرت هذه العاصفة حوون ان تسقط الوزارة البريطانية . فظن الناس أنها مرت بسلام ، والواقع أنها بعيدة عن هذا كل البعد . فهي قد أحدثت صداعاً خطيراً في حزب العمال ، وأثبتت أولاً أن فريقاً من هذا الحزب يضيّقون بالسياسة الخارجية التي تناهض اليسارية الروسية ، وأثبتت ثانياً أن في هذا الحزب فريقاً يخافون على المبادئ الاشتراكية نفسها أن تفقد قيمتها وقوتها بالانحياز أو التعجب إلى المحافظين ، وأثبت آخر الأمر أن الحزب الاشتراكي البريطاني ليس من القوة بحيث يستطيع أن يتحدى

المحافظين تحدياً صريحاً متصلاً ، وليس من القوة بحيث يستطيع أن يفرض النظام الدقيق على أعضائه فيضطروهم إلى أن يذعنوا لما تقررده الحكومة والهيئة الادارية . والحزب الاشتراكي البريطاني لا يملك ولا يريد أن يملك من وسائل النظام والمحافظة عليه ما يملكه الحزب الشيوعي من جهة والحزب المحافظ من جهة أخرى .

ولذلك نستطيع أن نتق بأن هذا التمرد ليس إلا أول الفيت ، وبأن الحزب الاشتراكي قد يضطر في وقت قريب أو بعيد بحكم الظروف الداخلية والخارجية جميعاً إلى أن يشترك مع المحافظين في الحكم أو ينزل لهم عنه كارهاً .

أما أثر هذا في الحياة العالمية الآن فضئيل جداً لا يكاد يحسب له حساب . ولكن الشاعر العربي لم يخطئ حين قال :

إن الأمور دقيقتها مما يهيج له العظيم

طه حسين

شهرية المسرح

بدا الموسم المسرحي في القاهرة بمسرحيتين مصريتين في دار
الأوبرا الملكية واثنين من الأوبريت في مسرح حديقة الأزبكية.

(١) الأرملة الطروب

الاستعراضات الراقصة والملابس. فالراقصات،
إذا استثنينا الأخوات شاسيني، لم يكن يرقصن
بل كن يأتين بحركات تنقصها الرشاقة
والانسجام. وخاصة في «باليه» الفصل الأول
إذ كان عدم انسجام الحركات بين الراقصات
واضحاً جلياً. ولم تكن ملابس الراقصات
أنيقة ذات ذوق مترف، وملابس الرجال في
الفصل الأول لم تكن ملائمة للشخصيات التي
يمثلونها.

أما التمثيل والغناء فلم يكن مرضياً، لأن
الممثلين أباحوا لأنفسهم أن يجعلوا من أوبريت
«الأرملة الطروب» ملهامة مبتذلة بإيماءاتهم
أو بالنكات التي أضافوها على نص المسرحية.
وكانت نادية دوتي، وهي الوحيدة التي لها صوت
يصلح للتمثيل الغنائي، تمثل شخصية ميسيا
الأرملة. ولربما وجدت سبيلها إلى النجاح
لو أنها لم تبتذل في إيماءاتها ونكاتاتها. وقد
أبدت رشاقة فائقة في رقصاتها وحركاتها.
غير أن في اللهجة الأمريكية التي اتخذتها
في تمثيلها شيئاً من التكلف. وقام ليون فيرلي
بدور الأمير دانيلو، وهو شاب مسرح لا عمل
له إلا مغازلة الغواني. ولست أدري لماذا
كان ميسو ليون فيرلي مقطب الجبين عبوساً
حتى في المواقف المرححة: أيرجع هذا إلى أن

استهلت نادية دوتي موسيماً بأوبريت «الأرملة
الطروب» التي وضع موسيقاها فرانز لهار.
ولست أرى ما يدعو إلى تلخيص قصة المسرحية
قد رآها الجمهور المصري في السنوات الأخيرة
على الشاشة البيضاء واستمع إليها من محطة
الإذاعة مرات عدة.

أما أداء الأوبريت فجاء ركيكاً مبتذلاً،
لعدم توافر العناصر الأساسية التي يرتكز
عليها هذا النوع من المسرحيات. فالمنظر التي
اختارتها الفرقة بالية غتيقة ليس فيها ما كنا
نتنظره من جال وأناقة يروقان النظر، فالحجرة
التي مثل فيها الفصل الأول وهي حجرة في مفوضية
مرسوقيا، لا تصلح أن تكون في منزل أسرة
متواضعة، وحديقة الفصل الثاني ليس لها أي
جال أو روتق. وأخيراً منظر محل مكسب
حيث الجدران والأثاث لا تصلح حتى لمقهى
متواضع. وما من شك أن الفرقة لم تختار
هذه المناظر البالية إلا مضطرة، إذ ليس في
مسرح حديقة الأزبكية—وهو مسرح حكومي—
أي منظر يصلح للعمل، ولم يهتم المشرفون
عليه بتجديد أدواته وأثاثه حتى أصبح هذا
المسرح أسوأ دعاية لمصر أمام الفرق الأجنبية
التي تمثل فيه والجمهور الأجنبي الذي يرتاده.
ومن العناصر المهمة في الأوبريت

(١) *La Veuve Joyeuse*. Livret de Victor Léon et Léo Stein. Musique
de Franz Lehár.

شهرية المسرح

صوته في الغناء لم يكن يتعدى الصفوف الأولى في الصلاة ؟
وخلاصة القول أن « الأرملة للطروب »
التي اقتتحت بها فرقة الأوبريت موسيما التمثيل
الفناني لم تلق نجاحا عند الجمهور ، فالقصة تافهة
وكان أداء الفرقة ضعيفا بحيث لا يستر تفاهة القصة .

(١) سوزان العفيفة

قصة مريحة لا تخلو من مواقف طريفة ونكات مستملحة قدمتها للفرقة على مسرح دار الأوبرا الملكية ، فجاءت مناظرها جميلة أنيقة ، على خلاف ما كانت عليه تلك المناظر على مسرح حديقة الأزبكية .
وسوزان العفيفة امرأة ريفية ، ظفرت بجائزة الفضيلة لما تظهره من أخلاق حميدة ونشاط في ميدان البر والاحسان . ولكن لهذه المرأة حياة أخرى يجهلها زوجها ويجهلها الذين منحوها تلك الجائزة ؛ فإن لها عشيقا اسمه بوالوريت يريد أن يتزوج من قريبتيه جاكلين . ويعارض البارون دي زوبريه والد جاكلين في هذا الزواج ؛ لأن لبوالوريت مغامرات عدة ، فهو يحيا حياة لاهو لا يرضاه ، فيسأله الشاب هل يرضى به زوجا لابنته لو أنه باعته في إحدى محلات اللهو ، فيعد الأب بذلك .
وينتهي الفصل الأول بخروج جاكلين مع عشيقها ، والبارون ، وابنه هوبير دون أن يعلم كل منهم بأن الآخر قد غادر المنزل .
وتزاح الستار في الفصل الثاني عن مرقص مولان روج حيث شغل كل فرد من هذه الأسرة حجرة خاصة في الملهى منفردا يلهو دون أن يعلم بأمر الآخرين ولكن الحوادث تجمعهم جميعا ، وحيث يبر والد الفتاة بوعده للشاب العاشق .
وما الفصل الثالث إلا خاتمة للفصلين الأول

والثاني . ففي الصباح التالي يعلن البارون خطبة ابنته إلى بوالوريت . وتعود سوزان التي أثارَت فضيحة كبرى في مرقص مولان روج مع ابن البارون إلى زوجها بعد أن أقنعت أنها لم تذهب إلى هذا المرقص إلا ليت روح الفضيلة بين الغايات !
وليس للقصة أية قيمة أدبية أو اجتماعية ، ولكنها ملهاة حافلة بالمواقف الطريفة والنكات اللبقة ، والأغاني المريحة واستعراضات راقصة مستحبة ، وقد أحسن الممثلون في أداء أدوارهم ، وخاصة نادية دوتى التي قامت بدور سوزان ، فأظهرت لباقة وإتقاناً ورشاقة نالت بها إعجاب جمهور النظارة ، ولو أنها غالت في المواقف المضحكة في حركاتها وفي نكاتنا .
وقد وفق ليون فرلى أيضاً في تمثيل دور هوبير ، الشاب الذي لم يمارس حياة اللهو والمجون ، قل حياة الزهد وارتمى في أحضان سوزان دون أن يكون له بالنساء خبرة .
وأدى الممثلون الآخرون أدوارهم في توفيق إلا أنهم جميعا يعتقدون أن الأوبريت ما هي إلا مهزلة تبيح للممثل أن يلجأ إلى التهريج أحيانا . وهم في ذلك مخطئون لأن الأوبريت تستند إلى شيء من الفن في التمثيل والغناء والأداء الموسيقي . وهذه العناصر لم تكن مكتملة في حفلة الفرقة الفرنسية .

La Chaste Suzanne. Livret d'Antony Mars et Maurice Desval- (١)
Meres. Musique de Jean Gilbert.

عفريت مرأتى لسليمان نجيب بك

هذه مسرحية اخرى يضيفها الأستاذ سليمان نجيب بك إلى مسرحياته المقتبسة وينجح فيها نجاحاً كبيراً . فالحوار في فصول المسرحية الثلاثة لذيذ ممتع ، إذ فيه فكاهات ظريفة مضحكة .

والقصة لا تخلو من مفاجآت سارة ومواقف هزلية . وقد أظهر الأستاذ سليمان نجيب إتقاناً في ربط حوادث اللهاة وقتاً فلقماً في إضحاك الجمهور وتسلية . وقد يعد حضرة الأستاذ ثاني اثنين عملا على إحياء فن الكوميديا في مصر بمسرحياتها المؤلفة أو المقتبسة ، والاول هو الأستاذ نجيب الريحاني . وهما بلشاطهما في عالم المسرح يمهدان السبيل لنشأة اللهاة المصرية الخاصة .

عفريت مرأتى هو عفريت زوجة توفيق بك الذى قد زوجته أمينة منذ سبع سنوات فتزوج بقتاة أخرى تدعى سنية . يتبدى الفصل الاول في المنزل الهادئ بين الزوجين حيث يقيم توفيق وامرأته سهره . استدعيا إليها أحد محضري الأرواح . وفي الظلام يتبدى جلسة التحضير ويتصل الحاضرون بعالم الأرواح فعلاً . ولكن توفيق يملكه الخوف ويقف الجلسة وينصرف للدعوى . وحينما يخلو الزوج وزوجته ترى روح أمينة الزوجة الأولى تدخل القاعة وتلاحق زوجها أينما سار وتلح عليه ليخلو بها ، وتتمادى في إلحاحها حتى تغضب ، فيرميها بالفاظ جارحة تعتقد الزوجة الثانية أنها موجهة إليها لأنها لا ترى شبح أمينة ، فتغضب من زوجها وتنصرف .

وفي الفصل الثانى لا يزال شبح أمينة يواصل الإقامة في المنزل وقد ساءت العلاقات بين الزوجين ، إذ تحققت سنية من وجود شبح

أمينة تغار منه لأنه يستأثر بزوجها . ويدبر شبح أمينة مؤامرة لقتل زوجها حتى تفوز به في « الرقيق الأعلى » كما تقول . ولكن سنية تذهب ضحية هذه المؤامرة .

وفي الفصل الثالث ترى توفيق يحاول بمساعدة محضر الأرواح طرد شبح أمينة ، ولكنه لا ينفق فحسب بل يحضر شبح سنية ويصبح توفيق بين شبعي زوجته . وأخيراً بعد جهد كبير ينصرف المرواحان ، فيعزم توفيق على السفر ويهم بالانصراف هو أيضاً ، فإذا بروحي الزوجين يعثان في ستائر المنزل وأواني وصوره لكي يثبتا وجودهما معه على الدوام .

وكما نود أن يكون إخراج مثل هذه القصة المليئة بالمواقف الشائقة أكثر إتقاناً مما كان عليه ، وأن يتغلب المخرج على المصاعب التي تنبت من وجود الأشباح مثلاً . فأحياناً كان الشبح يبدو أخضر يميل إلى الصفرة ، ويبدو أحياناً أخرى أزرق صافى الزرقة . ولم ينجم هذا التغير في الألوان إلا لأن الضوء لم يكن يتابع الشبح تماماً في تنقلاته ، وكثيراً ما كان يترك الشبح ويشع على جدران الحجرة فيصبغها بلونه الأصفر . ومسرحية هذه حوادثها تتطلب حركة مستمرة إلا أن بعض المناظر ظلت جامدة لا حراك فيها ولا حياة . وقد قام الأستاذ سليمان نجيب بك بدور توفيق ، فبدأ طبيعياً للغاية . ومن يعرف الأستاذ سليمان في حياته الخاصة لا يجد تغييراً في لهجته وحركاته وهو على المسرح . فأداؤه لهذا الدور لم يكن فيه تكلف ولا تصنع ، وقد دل على أنه يتقن فن الكوميديا ويلم به الماما واسماً .

وقام بدور شبح أمينة السيدة زوزو

شهرية المسرح

واضحاً كما لا يلتجئ عادة إلى المغالاة في إشاراته . فالزامه الاعتدال في التعبير وخاصة إذا كان دوره مضحكاً يمدد بالمادة الهزلية الكافية . ومن يحاول غير ذلك يقع في تهريج مبتذل . فكنا نحب الأستاذ فؤاد شفيق أن يقتصد في حركاته وهو يؤدي دور محضر الأرواح ، وأن يعدل عن أسلوبه في الأداء الذي يبتعد به كل البعد عن فن الكوميديا الرفيع . ولا يسعنا أخيراً إلا أن نحمد للفرقة المصرية هذا المجهود بالرغم مما شابه من هنات ، وأن نقول إن مسرحية « عفريت مرأتى » قد ظفرت بنجاح كبير .

حمدى الحكيم ، فكان النجاح حليفها في هذا الدور ؛ لأنها ملأت للمسرحية حياة وأظهرت رشاقة وخفة في الحركات تناسب الشخصية التي تمثلها فظفرت بإعجاب النظارة وتقديرهم . ومثلت السيدة إحسان شريف دور سنية . ومن رأى إحسان في تمثيلها عهد فيها ممثلة بارعة . ولكن خانها التوفيق في هذه المرة فبدت مضطربة حيناً وتعثرت في إلقائها حيناً آخر . وقد يعود هذا الاضطراب وهذا التثثر إلى أنها تؤدي هذا الدور لأول مرة أمام الجمهور .

لئن للممثل البارع في فن تسلية الجمهور

مضى طاملى

هباء الخالدة للأستاذ محمود تيمور بك

شداد . ومعلوم أن أباه كان من أشرف العرب ، وأمه من الاماء خبشية ، وعنها سرى إلى لونه السواد .

وما دمنا قد عرفنا أن بطل المسرحية عنتره ، فلم يبق أدنى خفاء في أن بطلها عبلة . فما يذكر الناس عنتره القارس ، إلا ذكروا معه عنتره العاشق . فقد عاش عنتره للحب كما عاش للحرب ، بل كان لا ينفك ذاكراً لحبيته متمثلاً خيالها حتى في حومة القتال ، ومعتزك الطعن والتزال . وإذا جاز لنا التشكك في معظم أخباره ، فما يجوز ذلك في مآثور أشعاره ، وكلها شاهد على ما قدمناه . ولقد أدار مؤلفنا الأستاذ محمود تيمور بك روايته على ما كان من حب بين عنتره وعبلة ، وأورد من أخبار عنتره بلاءه في الحروب ، واشتغاله أثناء السلم بصيد الأسود . ولكنه إلى ذلك أراد أن ينهج بالمسرحية منهج المحدثين من المؤلفين الأوربيين ، فينظر إلى

افتتحت الفرقة المصرية موسماً التمثيل هذا العام على مألوف عاداتها بدار الأوبرا الملكية . وكانت رواية الافتتاح مسرحية للأستاذ محمود بك تيمور أسمها « حواء الخالدة » . والأستاذ تيمور في طام القصة والأقصوصة من ذوى الشهرة ونباهة الذكر . وإنه ليسرنا أن نراه يساهم في حركة التأليف المسرحي ، كما يسرنا أن يجتذب المسرح إليه الكثير من أدبائنا الذين لا يزالون على ترفهم عنه واعتزالهم الكتابة له .

وقد اختار الأستاذ تيمور مسرحيته بطلاً من أشهر فرسان العرب في الجاهلية . وقد بلغ من شهرته - على كثرة ما ظهر بعده من الأبطال المغاوير في الاسلام - أن ظل أفشاهم ذكراً على كل زمان ، وأجراهم إسماعياً على كل لسان ، ولا سيما في مصر حيث وضعت قصته للشهرة التي امتزج فيها التاريخ بالأسطورة . وظاهر أننا نعتني بهذا البطل عنتره بن

بغير عنثرة ، بعد أن تم لها ما أرادت من تثبيت الحجة على دوام تعلقه بها وعجزه عن سلوها . فما بقي للمسكين عنثرة ؟ لقد كان أكبر الظن عند الحاضرين أنه خسر المعركة . ولكن لا ! فقد بقي معه سيفه ، وبقي معه ما أفاده من درسه . فهذا هو يتعرض لركب خطيبها ويأخذها أسيرة أخذ العزيز المقتدر .

وبهذه العبرة تنتهي القصة .

ولعله من حق القارئ علينا أن نورد ما يتوجه إلى مسوحية الأستاذ محمود بك تيمور من مراجعة في نقطتين : الأولى أن عنوان « حواء الخالدة » الذي اختاره المؤلف لمسرحيته ، يوهم أن جنس النساء لا يعدو ما صوره . والناقدون لا يحسبونهن جميعاً كذلك ، وإنما ذاك نمط من أنماط ، وقد ينجذب على وسطدون سائر الأوساط . والثانية أنه — مع عدم الاعتراض على تحليل أبطال التواريخ والأساطير على هذه الطريقة الحديثة الطريفة — لا يرى الناقدون مندوحة من أن يكون البطل القديم مظنة للتفسير الجديد ، وأن يكون بين الشخصيتين موضع مشاركة . ولا يظن الناقدون الحال هنا كذلك .

وعلى كل حال فإن هاتين الملاحظتين — إذا صحتا — لا تتجاوزان الشكل . وأما صميم الرواية فلا يفقد من قيمته ولا من طراوته شيئاً .

وما من شك عندنا في أن إخراج الرواية وتمثيلها قد أعانا على تقريب فهمها وإبراز كنهها . ولعل في نجاحها ما يدعو إلى معالجة إخراج بعض ما ذاعت شهرته وراجت بضاعته في المسارح الأوربية من الروايات الحديثة الطريفة التي هي أكثر توجهاً بالخطاب إلى الفكر منها إلى العاطفة .

الأساطير الحالية والتواريخ القديمة على ضوء جديد يتفق وطريقة إبناء اليوم في النظر إلى الأشياء .

فإذا تهيأنا لمؤلفنا من الأخذ بهذه الطريقة ؟ لقد عرض لنا عنثرة كما نعرفه فارساً منواراً ، ولكنه ساذج ، ساذج جداً ، وقد بلغ من سذاجته في الفصل الأول من روايته أن نزل بكلمة من عبلة عن صاحب غيرته ومأثور أنفته . ثم ظهر من سلطان عبلة عليه أن أسرع — تلبية لها — فأتى على لحيته . ولا تنزل الستار على الفصل الأول حتى تتبين أن بطل القصة في الواقع هو عبلة لا عنثرة .

فإذا كان الفصل الثاني استأثرت عبلة بالمسرح وباهتمام النظارة . فهي امرأة قوية تلهو بالرجال ، ولا هم لها إلا الشعور بسلطانها عليهم ، ولا شيء تشفق منه إلا أن تخرج في عزتها وتفجع في غرورها بفتنتها . وتتوالى مشاهد الرواية ، فترى عنثرة طائداً من فارس وقد زالت عنه سذاجته وزادت بالنساء خبرته ، فإذا هو فائر أو على الأقل يتظاهر بالفطور من ناحية عبلة . فيجن ذلك جنون هذه المرأة ، لا حرصاً على عنثرة الفارس وهو من قرابتها وحامي قبيلتها ، ولا على عنثرة الشاعر الملهم الولهان الذي سارت بشعره فيها الركبان . كلا ! بل اعتزازاً منها أن يخرج رجل أيا كان عن طاعتها .

وتعبد عبلة إلى الحيلة تتقوى بها ، فتستعين على عنثرة بقلب عنثرة ، فلا تزال تستغي فيه ذكريات حبها حتى تغلب على الرجل طبيعته المحبسة ، فيقبل عليها بكليته كسابق طادته . فهل تحمد له عبلة ذلك فيستقيم أمرها معه وينصلح الحال ؟ كلا ! بل هي تمضي للزواج

من كتب الشرق والغرب

كتاب « مؤسس الإسماعيلية فيما يقولون » (١)

ولعل أكثر العلماء المحدثين اهتماماً بدراسة الإسماعيلية هو الأستاذ للمستشرق الروسي و. إيثانوف؛ فقد نشر أكثر من سبعة وعشرين بحثاً عن طائفة الإسماعيلية تناول فيها تاريخها وعقائدها. وهذا الكتاب الذي نحن بصددده هو آخر ما أنتجه، حاول فيه أن يكشف القناع عن سر ميمون القداح وابنه عبد الله بن ميمون الذي ينسب إليه بعض العلماء تأسيس الدعوة الإسماعيلية، وأنه جد الخلفاء الفاطميين.

تتبع للمؤلف تاريخ الرواية القائلة بأن القداح هو رأس أسرة خلفاء الفاطميين، فوجد أن أول القائمين بها هو أبو عبد الله محمد بن رزام الطائي في كتاب له ألفه في القرن الرابع للهجرة. وقد فقد هذا الكتاب، ولكن ابن النديم صاحب الفهرست نقل عنه. ويظهر أن ابن النديم لم يكن واثقاً تمام الثقة بما حكاه صاحبه؛ ولذلك قال: «وأنا أظن أن من ألهمه في الصدق عنه والكذب فيه». ثم جاء أخو محسن أبو الحسين محمد بن الشريف الدمشقي المتوفى سنة ٣٧٥ هـ فوضع كتاباً في الرد على الإسماعيلية ذهب فيه إلى أن الفاطميين أدعياء، وتوالت بعد ذلك كتب المؤرخين وأصحاب الفرق، ونحنا أكثرهم إلى أن الفاطميين ليسوا من نسل النبي صلى الله عليه وسلم. وقد لاحظ إيثانوف أن هؤلاء

منذ ظهر عبيد الله المهدي على مسرح السياسة ييلاد المغرب سنة ٢٩٦ هـ. وأسس الدولة التي عرفت في التاريخ باسم الدولة الفاطمية، والناس مختلفون في نسبه، وأكثروا من الحديث عن ذلك، ووضعوا الكتب حول نسبه، بل صدرت نشرات رسمية من قبل العباسيين وعليها خطوط العلماء والفقهاء والنقباء في معنى أن هؤلاء الذين يحكون باسم الفاطميين لا يمتنون إلى فاطمة الزهراء بضلة، وأنهم أدعياء وأن نسبهم إلى عبد الله بن ميمون القداح الديصاني الملحد، وبجانب هؤلاء الذين طعنوا في نسب الفاطميين نجد الدعوة الفاطمية الإسماعيلية تنتشر في جميع أنحاء البلاد الإسلامية ويعتقها عدد كبير من العلماء، بل اتخذها بعض ملوك البوسنيين وأمراء اليمن والعرب ديناً لهم واعتقدوا اعتقاداً رسخ في أذهانهم أن الفاطميين من نسل فاطمة البتول.

ورث المحدثون هذا الخلاف بين النكريين والمؤيدين لنسب الفاطميين، فزى كتباً لاتزال تصدر في نسب الفاطميين، واهتم به المستشرقون خاصة بسبب ما أذيع ونشر أخيراً عن عقائد الإسماعيلية التي كانت سرّاً لا يقربه إلا خاصة من اعتنق دعوتهم، فأصبحت الآن هذه العقائد في كتب متداولة يطلع عليها من يشاء متى شاء.

(١) *The Alleged Founder of Islamism* للأستاذ و. إيثانوف. نشرته الجمعية الإسلامية بمبائ سنة ١٩٤٦ م طبعه Thacker & Co.

إنهم لا ينطقون باسم الامام الثاني عشر الذي اختبأ في السرداب بسامرا وقالوا « لا يسميه باسمه إلا كافر ». ومع ذلك فاني أرى دعاة المذهب الفاطمي وحججه لم يخشوا بأسا من ذكر أسماء هؤلاء المستورين ؛ فأحمد حميد الدين بن عبد الله الكرمانى حجة العراقيين المتوفى سنة ٤١٢ هـ ذكر في الباب السادس والعشرين من كتابه « تلييه الهادى والمستهدى » أسماء الأئمة المستورين وسلسل الأئمة حتى إمام زمانه الحاكم بأمر الله . ويحدثنا المؤيد في الدين هبة الله الشيرازى حجة المستنصر في سيرته أنه بنى مشهداً في الأهواز ونقش على محرابه أسماء الأئمة من اسماعيل بن جعفر حتى المستنصر بالله الفاطمي . وكذلك أجد في كتب دعاة اليمن حديثاً عن هؤلاء الأئمة ؛ فالراعى ابراهيم الحامدي ذكرهم في كتابه « كنز الولد » وهكذا ، ويعمل أستاذنا الدكتور طه حسين بك صمت الفاطميين عن نشرات العباسيين بأن الفاطميين أجادوا فن السياسة وسياسة الجدل على وجه الخصوص ؛ فلم يتمكنوا أعداءهم العباسيين من الحصول على وثائق رسمية منهم بها ذكر نسبهم أيا كان هذا النسب ؛ حتى إن العباسيين كرروا إصدار نشراتهم فلم يقابلها الفاطميون إلا بالصمت .

عرض الأستاذ ايثانوف لتاريخ عبد الله ابن ميمون القداح وأبيه . واتجه إلى كتب الحديث وطبقات المحدثين يستعين بها ، فبحث في كتب الشيعة الاثني عشرية وكتب أهل السنة ، فوجد في هذه الكتب كلها ذكراً لميمون القداح الكوفي الخزومي ، وتجمع هذه الكتب على أنه كان تقياً ورعاً متقشفاً ، وكذلك قالت عن ابنه عبد الله بن ميمون ، وأن كل الأحاديث التي تروى عن طريقهما إما عن الصلاة او عن المأكل والمشرب والملبس ، وأنهما كانا على صلة وثيقة بالامامين

المؤرخين اختلفوا في حديثهم عن نسب الفاطميين وعن مؤسس دعوتهم ، فكان المتأخر منهم يضيف شيئاً جديداً من عنده لم يذكره المتقدمون ، حتى كملت قصة القداح واتخذت هذا للظهر الذي نراه عند المتأخرين . ولعل التعصب للمذهبي كان من أهم أسباب اختلاق هذه الروايات المختلفة عن نسب الفاطميين وعقائدهم ؛ حتى إن رجال الشيعة الاثني عشرية قاوموا الدعوة الاسماعيلية قبل ظهور عبید الله المهدي ؛ فقد ألف فارس بن حاتم بن ماهويه القزويني المتوفى سنة ٢١٩ هـ كتاباً في الرد على الاسماعيلية ، ووضع محمد بن ابراهيم بن جعفر الكاتب النعماني المتوفى سنة ٢٧١ هـ رداً آخر ، وكتب محمد بن موسى الكاتب المتوفى سنة ٢٨٣ هـ رداً ثالثاً ، وهكذا قاوم الاثني عشرية الدعوة الاسماعيلية وهي لا تزال في مهدها . ولكن من الحق علينا أن نقول إن الاثني عشرية لم يعرضوا لمؤسس الدعوة أو لنسبه ، إنما كانوا يعملون لاثبات الامامة لموسى الكاظم بعد أبيه جعفر الصادق ونفيها عن اسماعيل بن جعفر ، فكأنهم كانوا يعترفون أن مؤسس الدعوة الاسماعيلية وإمامها هو اسماعيل وأبناءؤه من بعده .

وبالرغم من أن الفاطميين اتبصروا سياسياً واسسوا لهم ملكاً واسع الأرجاء ونافسوا العباسيين منافسةً كل لها خطرهما ، بل استطاع الفاطميون أن يمتلكوا بغداد نفسها سنة ٤٥٠ هـ ، بالرغم من ذلك كله فإن الفاطميين لم يصيدروا وثيقة واحدة تدحض نشرات العباسيين في مسألة نسبهم . وقد علل ايثانوف ذلك بأن الفاطميين كانوا يعتقدون بالستر على الأئمة المستورين ، ومن المحرم عندهم أن يذكروا أسماء هؤلاء المستورين . قد يكون هذا الرأي مقبولا ، وعقيدة الستر على الأئمة المستورين ليست من عقائد الفاطميين فحسب ، بل قال بها الاثني عشرية أيضاً حتى

للباقر والصادق ، حتى لقب كل منهما بمولى الامام . على أن كتب أهل السنة ترفض الأحاديث التي تروى عن طريق ميمون القداح لأنه ضعيف الحديث ، ولكن لم يذكر مصدر واحد من هذه المصادر أن ميمونا أو ولده كان ملحداً منكراً للأديان .

وناقش إيقانوف معنى القداح ؛ فالقدماء يذهبون إلى أنه قادح الصيون ، مخالفهم وذهب إلى أنه لقب بهذا اللقب لأنه كان موكلاً بالآواني الحجرية الكبيرة التي كانت لموليه الباقر والصادق . وليس عندنا من النصوص التاريخية ما يثبت هذا الرأي أو ينفيه ، وسيظل فرض إيقانوف قائماً إلى أن تظهر حقيقته . وكذلك بحث المؤلف قصة كنية القداح ، فقد كناه القدماء بأبي شاكر ، فذهب إلى أن هذه الكنية لم تذكر في كتب المحدثين ولم يذكرها ابن رزام أول من قال إن عبد الله ابن ميمون هو مؤسس الاسماعيلية ، ورجح أن أول من أسند هذه الكنية للقداح هو ابن شداد الحميري المتوفى سنة ٥٠٩ هـ على ما رواه ابن الأثير في حوادث سنة ٢٩٦ هـ ورد إيقانوف على ابن شداد بأن الموالى لم يكن لهم أن يتكنوا في القرنين الأول والثاني من الهجرة . ولكن كتب الطبقات على اختلافها وكتب التراجم لا تؤيد رأي إيقانوف ؛ فقد حفظت لنا هذه الكتب كنى عدد كبير من الموالى ؛ فالشاعر بشار بن برد وكان معاصراً للقداح كان يكنى بأبي معاذ ، والشاعر الحسن بن هاني كنى بأبي نواس ، وصاحب دعوة العباسيين كنى بأبي مسلم واسمه عبد الرحمن بن مسلم ، والدراوردي فليحسب أن يكنى بأبي محمد . وقد يطول بي الأمر لو أتميت على كنى جميع الموالى الذين كانوا في القرنين الأول والثاني من الهجرة . وناقش إيقانوف قول أعداء الفاطميين بأن عبد الله بن ميمون القداح كان ديصانياً

وثنياً ، وبين الخلط الذي وقع فيه القدماء بأن توهموا أن الديصانية وثنية أو مجوسية ؛ إذ أن الديصانية هي إحدى فرق الفنوسطية المسيحية ، نشأت في الرها على يد ابن ديسان المتوفى سنة ٢٢٢ م . وانتشرت في الجزيرة وفارس وتركستان وخراسان واستمرت مدة طويلة حتى عصر ابن النديم ؛ ففي فرقة من الفرق المسيحية وليست كمجوسية مزدك أو وثنية العرب . وقد كان لهذه الفرقة أثرها في الفرق الإسلامية التي ظهرت في القرنين الثاني والثالث للهجرة . ولكن ليس هناك ما يثبت صلة ميمون القداح أو ابنه عبد الله بن ميمون بالديصانية ، وإذا فرض أنها كانتا ديصانيتين أي مسيحيين قبل إسلامهما فلم يذكر رجال المحدثين شيئاً عن انحرافهما عن الإسلام أو عدم إخلاصهما للامامين الباقر والصادق ؛ أضف إلى ذلك أننا نجد في كتب الاسماعيلية الأولى رداً على بعض عقائد الديصانية ، وأن بارديسان قد زج به مع زعماء الزنادقة .

وفي فصل ممتع من فصول هذا الكتاب عرض الأستاذ إيقانوف للفرق الشيعية التي ظهرت بعد وفاة جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ ، وهي الفرق التي ذهب القدماء إلى أن للقداح صلة بها . وقد يكون هذا اللون من البحث من أشق البحوث العلمية وأدقها ؛ فكتب الفرق الإسلامية قد خلطت بين الفرق ولم تستطع تمييز كل فرقة تمييزاً دقيقاً من ناحية التاريخ والعقائد ؛ فهناك بعض فرق تتشابه في العقائد وتختلف في الأسماء ، وهناك فرق أخرى ذكرت أسماءها دون عقائدها ، وبعض مؤرخي الفرق نسبوا إلى فرق ما هي بريئة منه . ويحيل إلى أن مؤرخي الفرق لعبوا دوراً كبيراً في وضع عقائد بعض الفرق وتاريخها دون الرجوع إلى أسانيد تاريخية . ثم إن التبشيع في القرن الثالث

الطريف أن الأستاذ للشرق دى جويه ناقش نص ابن رزام أيضاً وانتهى إلى رفضه. وقد وقف الأستاذ ايثانوف عند فرقة المباركية والميمونية وقفة طويلة، ورجح أن ميمونا الذى تنسب إليه الميمونية هو نفسه عبدالله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق، مستنداً على نص عثر عليه في كتاب عيون الاخبار للداعي ادريس عماد الدين بن الحسن المتوفى سنة ٨٧٢ هـ وهى رسالة أرسلها للمعز لدين الله الفاطمي إلى داعي دعاته بإقليم السند، ينكر فيها المنز أنه من نسل ميمون القداح، ويثبت أنه من نسل عبد الله بن محمد ابن اسماعيل الذى كان يسمى نفسه أحياناً على سبيل التقية « ميمون التقية ». أما المباركية فقد رجح أنها نسبة إلى اسماعيل بن جعفر الصادق الذى كان يلقب بالمبارك، مستنداً على نص في كتاب « سلم النجاة » الذى ينسب لأبي يعقوب السجزي (وكان في النصف الثاني من القرن الثالث) : « إن المبارك عليه السلام سادس أئمة دور محمد، والامام السادس هو اسماعيل بن جعفر ». هذا ما رجحه الأستاذ ايثانوف عن الميمونية والمباركية. ولكنى أقف بدورى أسائل الأستاذ ايثانوف كيف وثق برواية الداعي ادريس وهو متأخر (في القرن التاسع للهجرة) على حين لم تذكر هذه الرواية في أى كتاب من كتب الدعوة، وكيف لم تذكر في كتب القاضى النعمان وكان جليس للمعز وصفيه وقاضيه، مع أن القاضى النعمان روى في كتابه « المجالس والمسائرات » في الجزء الخامس ما نصه : « وقد وصل للمعز خطاب من أحد الدعاة، وكان فيما رأيت في هذا الكتاب أن زعم له فيه أن الامامة انتقلت عن بعض الأئمة إلى ميمون القداح وإلى فلان وإلى فلان لقوم ذكرهم، ثم جعل (المعز) يتعجب من هذا القول، إلى أن قال : « فكيف ينبغي أن

لهجرة كان في محنة شديدة لم يعرف الشيعة لها مثيلاً في تاريخهم، فأبناء الصادق كانوا بين مشرد ومسجون، وكل من اتهم بالتشيع كان يحمل إلى بغداد أو سر من رأى، ولم يبق للشيعة مركز يجتمعون فيه ويتبادلون الدرس والرأى فتفرقوا، واتخذوا التقية على أنفسهم، واتصلوا بأهل السنة ودرسوا مذهبهم، بحيث أصبح من الصعب أن تفرق بين الشيعي والسني ولا سيما في رواية الحديث، بل لم يستطع الشيعة أن يضعوا كتباً خاصة بهم تعرف بها خصائص مذهبهم. ثم جاءت القرون المتعاقبة، فكتب المتعصبون ضد الشيعة حسب أهوائهم، ومن هنا كان البحث عن الفرق الإسلامية التي ظهرت في القرنين الثاني والثالث من الهجرة من أشقى البحوث وأدقها. ومع ذلك فقد أدلى الأستاذ ايثانوف دلوه في هذا البحث، فناقش ما قيل عن فرقة الميمونية ولا سيما قول ابن رزام « إن ميمونا تنسب إليه الفرقة المعروفة بالميمونية التي أظهرت اتباع أبي الخطاب محمد ابن أبي زينب الذى دعا إلى ألوهية على بن أبي طالب » إلى أن قال : « وكان ميمون وابنه ديسانين، وادعى عبد الله أنه نبي مدة طويلة ». ناقش ايثانوف هذا النص وانتهى إلى أن هذه القصة موضوعة، وناقش كل ما ذكره أصحاب كتب الفرق عن الميمونية وسخر بقول ابن رزام فقال : « من الجائز أن مؤرخاً كان قد سمع بوجود فرقة إلحادية عرفت بالميمونية وعرفت أخيراً بالخطائية فبحث عن شخص اسمه ميمون ممن كانوا يتصلون بالامام الصادق ليسند إليه رئاسة هذه الفرقة فلم يجد سوى ميمون القداح للثقي الورع، وأن هذا الشخص الذى اخترع قصة نسب الفاطميين إلى عبد الله بن ميمون للقداح لا بد أن يجعله زنديقاً ملحداً فقال إنه من نسل ديسان وأنه ادعى النبوة ». ومن

ينقطع القول فيه بأن قد صار إلى بعيدين كالذين ذكروهم هذا من ميمون القداح وغيره». وقد ذكرت أن بعض علماء الدعوة قد عرضوا لذكر الأئمة المستورين، ولكني لم أجِد في كتبهم أن عبد الله بن محمد بن اسماعيل قد لقب بميمون النقية بل لقبه جميعهم بعبد الله الرضى، وأذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إن خصوم الفاطميين قالوا إن عبد الله ابن ميمون القداح ادعى أنه عبد الله بن محمد ابن اسماعيل بن جعفر. فكان الأستاذ إيثانوف يوافق خصوم الفاطميين في هذه الدعوى دون أن يشعر. هذه كلها مسائل تحتاج إلى جهود أخرى نرجو أن يبدلها الأستاذ إيثانوف للكشف عنها وتحقيتها وهو قدير على ذلك.

وقارن الأستاذ إيثانوف بين عقائد الخطائية وعقائد الفاطميين بعد أن بحث عن الخطائية بحثاً تاريخياً، فكان موقفاً كل التوفيق في آرائه وبحثه.

أما الفصل الذي كتبه عن «البنوة الروحية» والذي رد فيه على ما ذكره الأستاذ العلامة لويس ماسينيون في مقاله عن سلمان الفارسي، فقد حاول الأستاذ إيثانوف أن يجعل من قول النبي عن سلمان

«سلمان من أهل البيت» تكريماً لسلمان، وأن كل ما جاء على هذا النحو فهو من قبيل التكريم غصب، بخلاف ما ذهب إليه ماسينيون بأن الفاطميين كانوا يقولون بالبنوة الروحية والدينية. فعمل الأستاذ إيثانوف يعود إلى قراءة ما جاء في المجلس السابع عشر من المائة الأولى من المجالس المؤيدية وفيه حديث طويل عن «الولادة النفسانية» و«الأبوة الدينية» وتأويل قول الله تعالى «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم» فقد ذهب للتأويل في الدين إلى أن النبي (ص) أبوا المؤمنين نفسانياً ودينياً. كما نجد في رسائل إخوان الصفا عدة نصوص في مواضع متفرقة عن الأبوة الروحية، وأن المعلم أبو التلميذ نفسانياً إلى غير ذلك من الآراء والبراهين التي تؤيد رأي الأستاذ لويس ماسينيون. ولعل الأستاذ إيثانوف يغير هذا الرأي بعد أن يعيد قراءة النصوص التي أشرت إليها.

وليس لي بعد أن قرأت هذا الكتاب القيم إلا أن أشكر الأستاذ إيثانوف وأهنته تهنئة صادقة على هذا الجهد الذي بذله للكشف عن سر ميمون القداح وابنه عبد الله بن ميمون، وأشكره خاصة لهديته القيمة التي كانت متعة لي عدة أيام.

محمد طاهر حسين
مدرس بكلية الآداب

من وراء البحار

هل يعيش الأديب من أدبه ؟

فرعية ، وهو لا يدري أيؤثر مثل هذا العمل في أدبه ، وهو لا ينفد مساعدة من الدولة ، كما أنه غير راض عن حالته الآن . ولكنه يرى أن الذي ولد للأدب لا يسهه إلا أن يكون أديباً . وربما كانت تجارب اليوم على مرارتها فيها تقع لمستقبله .

وترى القصصية البارزة اليثبت أوبن أنها تود لو كان إيرادها الصافي ثلاثة آلاف وخمسمائة جنيه في السنة . وفي رأيها أن الأديب بما له من كتب نشرها في الماضي ولا يزال يعاد طبعها ، وبما يخرجها بانتظام من كتب ، يستطيع أن يحصل على ثلثي هذا المبلغ وهو في الستين من عمره أو الخامسة والستين ، إذا كان اسمه لا يزال معروفاً . وخير عمل يمتنه الأديب إذا كان رجلاً هو الطب أو العارة أو القانون ، أما النساء فلا يستطعن الجمع بين عمليتين ، لا سيما أن تبعاتهن المنزلية تستغرق منهن وقتاً طويلاً . والعمل الثاني يزيد في نشاط الأديب إذ يماشر غير زملائه . ولكن في العمل الآخر خطراً هو أنه لا يمحصر ذهنه عند الكتابة في الأدب . وهي لا تعرف كيف تساعد الدولة الأديب ، وإن كان من واجبها أن تساعد بعض الشيء في حالة العجز والمرض . وعلى الشبان الذين يقبلون على الأدب أن يعلموا له غير منتظرين منه في بادئ الأمر ربحاً كبيراً .

ويقول الأديب الشاعر الكس كفارت إنه شخصياً يعيش على إيراد من جهات مختلفة يبلغ نحو خمسمائة جنيه في السنة ، وله زوجة تنتظر طفلاً . وهو لا يظن أن الأديب يستطيع

أرادت مجلة هورايزن أن تستطلع رأى طائفة من الأدباء : لا يجليز في أحوالهم المعيشية وهل يستطيع الأديب أن يعيش بأدبه ، فوجهت إليهم بعض الأسئلة ونشرت آراء بعضهم في عدد سبتمبر .

سألهم المجلة : ما مقدار المال الذي يستطيع الأديب أن يعيش به ؟ وهل يستطيع الأديب الجاد أن يحصل على هذا المقدار بكتاباتة ؟ وكيف ؟ وإذا كان ذلك غير مستطاع فما هو العمل الآخر المناسب له ؟ وهل يظن أن العمل الأدبي يتأثر بتوجيه مجهود الأديب إلى عمل آخر أم أنه يزيد خصباً ؟ وهل يظن أن من واجب الدولة أو أية هيئة أخرى أن تساعد الأديب ؟ وهل هو قانع بالطريقة التي حل بها هذه المشكلة ؟ وهل لديه نصيحة معينة يقدمها للشبان الذين يريدون كسب قوتهم بالأدب ؟ ووصلت إلى المجلة إجابات من عدة من الأدباء البارزين أكثرهم من الشعراء . أما الروائيون فالعدد الذي أجاب منهم على هذه الأسئلة كان قليلاً .

ويرى الكاتب ليتجان أن الأديب لا يختلف عن غيره في مقدار ما يحتاج إليه من مال . وهو يرى أن الأديب وهو في حاجة إلى المشروبات الروحية والسجائر والاختلاف إلى السينما والمسارح وإلى طعام فوق المستوى المعروف في المطاعم البريطانية ، لا يستطيع المعيشة على أدبه من النشر إلا إذا ثبت مركزه وصار معروفاً . أما الشاعر فلا يستطيع العيش بشعره ولو كان مشهوراً . ويفضل هذا الكاتب أن يشغل عمل ناظر محطة ريفية

المال . وهو غير راض عن موآرده ، وينصح الشبان بالآلا يمتهنوا الأدب إلا إذا وجدوا ذلك امراً لا بد منه ، واستطاعوا أن ينظروا إلى سعادة الذين هم في خدمة الدولة واستقرارهم وتنعمهم بغير الشعور بالموجدة والحسد . وإن لم يفعلوا فيكون مثلهم مثل الأمريكى الذى أراد أن يكون شاعراً وانتهى رجلاً يمتن سبع مهن .

ويرى دأى لويس الأديب والشاعر أن خير مركز للكاتب أن يكون ذا إيراد خاص صغير ، كى لا يشجعه على الكسل واعتبار الكتابة هواية ، وكبير ، بحيث يبعد عنه مشاغل الفقر ومتاعبه . وليكن بين مائة وخمسين جنيهاً وثلاثمائة جنيه فى السنة . فإذا لم يكن لديه هذا الإيراد فليقبل على الكتابة المادية للصحف والمجلات أو يتخذ مهنة أخرى وميزة العمل الأول أنه متصل بعمله كأديب . وميزة المهنة أنه يستطيع أن يتعرف هل خلق للأدب . فإذا لم يكن قد خلق له برأهتاهمه بالمهنة الأخرى وإقباله عليها . ويحسن أن تكون المهنة الأخرى فيها اتصال بالناس إذا كان روائياً ، كالطب والقانون أو التجارة المتنقلة . أما إذا كان شاعراً فليكن التوظيف أو التعليم أو الجندية أو العمل فى منجم حيث الاتصال بالزملاء أعمق وأبعد أثراً . ولا مانع من مساعدة الدولة ، على أن تكون المساعدة من هيئة غير سياسية كمجلس الفنون مثلاً . ولا يجب أن تمهد الحياة للأديب فان فضاله فى الحياة هو الذى يشجده من عزيمته .

وفى إجابة روبرت جريفز الشاعر والأديب والذى كان فى إحدى السنوات أستاذاً للأدب الانجليزى بجامعة فؤاد الأول ، أنه لا مانع من العمل فى مهنة أخرى لاسيما للروائى ما دام لم يرث أو لم يتزوج مبكراً ، فقد كان فيلدنج من قضاة الشرطة ، وترولوب موظفاً بمصلحة البريد ، وأمثالهم كثيرون فى الوقت الحاضر .

ان يعيش بالأدب وحده ، وهو الآن يدبر أكثر ماله من الأدب ، ولكن الناشئين لا يستطيعون ذلك . وهو لا يعطف على القصص التى تروى عن شترتون ورامبو وتؤدى بالأديب إلى أن يعيش فى غرفة حقيرة ، أو يعيش على أصدقائه من غير الأدباء . فليس لرجال الفن ميزة على غيرهم ، ولعل الفن هو أكثر أنواع النشاط الإنسانى توقفاً على الشعور بمسئولية نحو الناس . وهو يرى أن يتخذ الأدباء البحث العلمى مهنة لهم ، وفى رأيه أن يتعد الأديب عن الدولة ونفوذها ، وهو راض كل الرضا عن معيشته . ونصيحته أن يكون الأديب إنساناً يقاوم الخنوع والطاعة ، وأن يعمل كأى إنسان ، ويحتقر التملق والمشاركة فى العمل الأدبى .

ويرى الأديب سيريل كورولى ، وهو رئيس تحرير المجلة نفسها ، أنه إذا كان للأديب أن يتمتع بشئ من الراحة والمتعة الشخصية ويتزوج ويشتري الكتب ويجوب البلاد ويأديب لأصدقائه ، فانه فى حاجة إلى خمسة جنيهات يومياً على الأقل . أما إذا أراد أن تقتله العلل لمجرد صفة الأديب فليعيش على أقل من ذلك .

وهو لا يحصل على هذا المال إلا إذا كتب قصة طويلة أو قصيدة أو مسرحية تشتريها هوليوود أو إحدى الجمعيات الأمريكية ، ولكنه يستطيع أن يزيد كثيراً دخله إذا سعى لأن يشر ما يكتبه فى المجلات الأمريكية فى الوقت الذى ينشره فى كتبه . وخير عمل آخر هو الزواج من امرأة ثرية . ويرى أن المهنة تؤثر فى الأديب ، وأن من واجب الدولة أن تحمل محل الأسخياء الذين كانوا يحسون الأديب على ألا تقوم مساعدتها على نتيجة عمله ، فتساعد الناشئين ، وتضاعف الإعانة لأراامل الأدباء ، وأن تكون علامات اشرف التى تمنح للأديب مصحوبة بنفحة من

امل غير محقق، بأن يكتسب بالنقد الفنى من المال ما يساعده على أن يكون أديباً ناقداً - وإذا كان لا يجد العيش بالنقد الفنى ميسوراً فهو لا يستطيع نصح الشبان فى هذا الموضوع . أما روبرت كى وهو أديب برز فى هذه الأيام ، فان عنده ان الكاتب قلماً يحصل على أربعائة جنيه فى السنة من الأدب وهو المبلغ الذى يراه مناسباً لمعيشته ؛ ولذلك فهو يقبل على العمل الصحفى أو على وظيفة . وهذه الأعمال تضر بمواهبه ، ولكن بما أن عمل الأديب متصل بالانفاظ ، فلتكن المهنة التى يتخذها متصلة باللفظ .

وإذا كانت المهنة الأخرى تعطل عمله كأديب فهو يرى معالجة هذه الحال بأن يدفع الناشرون أكثر مما يدفعونه الآن للأدباء ، فان العلاقة بينهما الآن غير معقولة ، مثلاً مثل الرجل الذى يتناول نفقات جيبه من خادمه . ومع ذلك لو دفع الناشرون أجراً مناسباً لما انتفع من ذلك الأديب المقل ، أو الذى لا يجد آراؤه من عصره قبولا . وإذن على الدولة أن تدفع مبلغاً سنوياً قدره أربعائة جنيه لمن يريد أن يكون أديباً . وهذه لمنحة تتجدد كل سنة . ويظن هذا المبلغ ضئيلاً بحيث لا يفرض به المحتالين .

وفى رأى لورى لى أن الأديب فى حاجة إلى الوقت أكثر منه إلى أى شىء آخر . ولذلك كانت حياة الأديب قديماً فى اعتماده على سيد كريم خيراً من حياته الآن .

وترى روز ماكولى أن خير حل هو فى أن يقدم الناشرون مبلغاً من المال على حقوق الطبع يكون نحو ثلاثمائة جنيه . وهم لا يقدمون الآن غير خمسة وسبعين أو مائة جنيه .

وعند جورج أورويل أن الأديب المتزوج فى حاجة إلى عشرة جنيهات فى الأسبوع على الأقل ، وغير المتزوج إلى ستة جنيهات على

ويستطيع المؤرخ الأديب أن يشغل عملاً فى الوسط الجامعى بحيث يتصل بالمكتبات وبالزملاء على ألا يشغل وقته بالتدريس . أما الشعر فهو حالة أكثر منه مهنة ، والشاعر فى حاجة لأن يكون سيد نفسه ، وذلك لا يحتاج لنفقة كبيرة ، وقد حل و . هـ . دافيز هذا المشكل بأن صار متشرداً . وهو يرى أن فى مساعدة الدولة خطراً ، فالذين يستأجرون الزامر يختارون عادة الألحان .

وهو لا يريد أن يتخذ نفسه مثالا فى حياته ، ويرى أن كل شخص يجب أن يحل مشكلة دخله بطريقته الخاصة . وكثيراً ما يتدىء الكتاب بالشعر ، وينتهون إلى الصحافة العادية . وهو عندما ترك خدمة الجيش بعد الحرب العالمية الأولى أقسم لنفسه أن ينقطع للشعر وبر بقسمه حتى الآن ، والمهنة الوحيدة التى قبلها لبضعة أشهر كانت أستاذ الأدب الانجليزى بجامعة القاهرة . وكان فيها سيد نفسه ، ولا يعطى غير محاضرة واحدة فى الأسبوع ، واستقال بمجرد قيام مصاعب بينه وبين زملائه من الفرنسيين والبلجيكيين وكان ذلك منذ عشرين سنة . وعاش بعد ذلك بكتابة توارىخ الحياة والتقصص التاريخية ، وهى أعمال تتفق مع الشعر .

ويحتاج روبن إردنسايد وهو ناقد فنى للتصوير إلى مبلغ خمسة عشر جنيهاً فى الأسبوع وهو مبلغ لم يصل إليه ، ويظن انه لن يصل إليه ، وبسبب فاقته لم يزر اليونان ولا أمريكا مع أن مثل هذه الزيارة لناقد فى الفنون الجميلة ضرورية جداً . وهو لم يحل مشكلة المهنة الأخرى حلاً مرضياً فهو يعمل فى متحف تيت للفنون ، ولكنه مثقل بالعمل الإدارى بحيث لا يجد فراغاً للدراسة ، ولو كان له دخل قدره خمسة جنيهات فى الأسبوع ، أو لديه رأس مال قدره ألف جنيه ، لترك هذا العمل غير آسف ، يدفعه

الأقل . وخير إيراد للأديب في هذه الأزمان هو نحو ألف جنيه في السنة ، وعندئذ يستطيع أن يتخلص من الأعمال الثانوية ويعيش عيشة رغيدة دون أن يبلغ مبلغ الطبقة المترفة . فالأديب لا يستطيع أن يخرج ما عنده إذا كان إرادته معادلاً لإيراد العمال . وهو يشير بامتهان مهنة كاتب في مصرف أو ما مائلها . وكل ما تستطيع الدولة أن تفعله هو توجيه مبلغ أكبر نحو شراء الكتب للمكتبات العامة ، ويرجو أن يزيد اقبال الجمهور على المكتبة . وهو الآن راض عن معيشته وإن كانت حياة الأدباء في المبدأ ناعسة .

ويذكر الأديب برتشت أن مدلتن مررى ذكر فيما قبل الحرب أن الأديب يستطيع أن يكون دله أربعائة جنيه سنوياً . وقد الدس هكسلي هذا الدخل بنحو سبعةائة جنيه . وهذا يعادل في هذه الأيام من ١٢٠٠ إلى ١٤٠٠ جنيه . وقد يستطيع المؤلف الروائي أو المسرحي الناجح جداً أن يكتسب أكثر من ذلك . ولكن الذين يبدأون حياتهم أو الذين هم في أول سلم النجاح ، لن يحصلوا على مثل هذا المبلغ بكتابة الكتب أو القصص القصيرة أو الأشعار . وحيث يجب أن يلجأوا إلى الصحافة والإذاعة والقراءة للناشرين وتولى التحرير في المجلات أو أن يكون لهم دخل خاص . ولكن يجب ألا يرهقهم هذا العمل ولا يشغل وقتاً طويلاً . وهو لا يرى أن الدولة تستطيع أن تساعد الأدب ، ونصيحته إلى الشباب أن يعود نفسه على عادة الكتابة كل يوم ، كأنه في مكتب ، فإن الوحي يأتي من وراء العمل الشاق لا من السماء . والكاتب هربرتريد يقدر أن الأديب يحتاج إلى ألف جنيه في السنة إذا كان متزوجاً وله طفلان أو ثلاثة ، ويجب الطعام الجيد وحياة الرخاء في منزله . ولا يستطيع الحصول على هذا المبلغ إلا إذا كان يبيع ثلاثين ألفاً

إلى خمسين ألف نسخة من كل كتاب . والأديب الجاد يعمل في الكتاب نحو سنتين أو ثلاث . والراجح أنه لا يبيع أكثر من ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف نسخة . وخير عمل في رأيه هو أن يعمل في متحف . أما الأعمال المتصلة بالثقافة والناشرين ، فهي أسوأ أنواع الأعمال الأخرى لأنها لذيذة بحيث قد تغلب على غرضه الأول . ولعل من الخير له أن يحذو حذو سينوزا فيحترف صقل العدسات .

وفي رأى الشاعر ستيفن سبندر أن الأديب غير المتزوج يحتاج ما بين خمائة وستمائة جنيه في السنة ، أما المتزوج فيحتاج إلى سبعةائة جنيه إذا كانت الزوجة تطهى طعامها . أما إذا لم تفعل وكان لها أطفال فهو يحتاج إلى ألف جنيه في السنة وأكثر . وهو يسأل هل يستطيع أحد أن يحصل على هذا الدخل في هذه الأيام ؟ ويقول فلتجرب ، فأنك تجد أن الناشر ليس لديه من الورق ما يطبع به أكثر من خمسة آلاف نسخة ، وهذه لا تكسبه غير مائتين وخمسين إلى ثلاثمائة وخمسين جنيه . ومعنى هذا أن يكتب أربعة إلى ستة كتب في السنة أو يتجه إلى الصحافة . ويقول سبندر إنه عند ما يكتب ثلاث مقالات و أربع مقالات في الأسبوع يصير أولاً سريع الغضب ، ثم يصير من الصعب عليه ثانياً أن يقرأ قراءة جدية . وأكثر من ذلك ثالثاً أن يقرأ ما يكتبه ثم تتولاه ، رابعاً كراهية عظيمة لأرائه وطريقة تفكيره وحديثه . ثم يجد نفسه مدفوعاً خامساً إلى الصحافة ويقل إقباله على الشعر .

وخير عمل آخر يمنهه الأديب عمل فيه اجتناب للتعبير بألفاظ تنزل من مستواه ، وألا يتعب نفسه عقلياً ولا جسدياً ، وأن لا يتخذ واجباً يصير لديه أهم من الأدب . وألا يلعب دوراً هاماً في الحياة كأن يصير مؤظفاً ، أو معلماً ، فإن ذلك ينفي على شخصيته الخالصة

تكنفي انفاقه بعد مسكنه ، وطعامه ، ودقته ، وملابسه وتربية أطفاله ، وهو يرى أن هذه الأشياء من واجب الدولة التي ينبغي أن تتولاها . وهو إذن من التاملين بأن الدولة يجب أن تقوم بتدبير أمور الأديب في الماديات وما يكتسبه بعد ذلك ينفقه في شؤون الترف .

وهو يحض الأديب على أن يعود إلى طفولته بأن يتخذ مهنة يتعلم منها شيئاً جديداً وتكون نافعة له في كتاباته . وخير علاقة مع زملائه هو أن يجعلهم يعتقدون أن به مسا من الجنون ، ولكنه حسن النية . ويحتاج الشاعر دايلان توماس إلى نقود

البلجيكيك فيما بعد الحرب

ائتلافية من حزبين من الأحزاب الكبيرة وإما بائتلاف الأحزاب الثلاثة . وكان الحزب الكاثوليكي مؤلفاً من خليط كبير من أصحاب الأراضي وأصحاب الصناعات ورجال المال الكاثوليك وأبناء الطبقة الوسطى والعمال الكاثوليك والفلاحين ، وهو منظم بحيث إن الزطامة فيه للمحافظين . وعلى ذلك كان هذا الحزب قبل الحرب محافظاً في نزعتة . وأدى ذلك إلى ثورة العناصر الديمقراطية فيه واتفاقها مع الاشتراكيين وتأليف حكومة في سنة ١٩٣٦ أسقطتها مؤامرة ذعر مالي أحكم تدبيرها . وفي سنة ١٩٣٦ حدثت مثل هذه الأزمة عند مائار الشبان في هذا الحزب وأنشأوا حزب ركس الفاشي الذي كان يتلقى معونة مالية من إيطاليا . أما الحزب الوطني الفلانكي فيعد أقرب إلى الثورة على الكنيسة التي تؤيد بطبيعة الحال الحزب الكاثوليكي .

وكان حزب الأحرار مؤلفاً من الطبقة الوسطى ، فهو مؤلف من العناصر غير الكاثوليكية في عالم الصناعة والمال فضلاً عن رجال الطبقة المتوسطة العليا والسفلى وكثيراً من المثقفين . وهو يتألف من جناح أيمن كانوا أشد الأعضاء رجعية في البرلمان ، ومن جناح أيسر يعمل على التقدم . وكان الجناح الأيمن متقلبا بحيث إن هذا الحزب انضم أكثر من

ماهو موقف البلجيكيك الآن ؟ وكيف أخذت تسترد حيويتها بعد أن عادت إلى الحرية ؟ وما هي المصاعب التي تكتنفها ؟ ذلك ما يبحثه باحث في عدد أكتوبر من مجلة « العالم اليوم » الانجليزية التي تظهرها جمعية الشؤون الدولية ، ومن قول هذا الباحث أن كثيراً ما يقال إن البلجيكيك كانت أسرع من أية دولة أخرى من الدول التي احتلها الألمان إلى استرداد نشاطها . ولا ريب في أن هذا الرأي له وجهته ، ولكن الحالة في البلجيكيك بوجه عام لا تبعث على الرضا ، ومستقبل البلاد فيما يتعلق بالوجهتين السياسية والاقتصادية غير ثابت ومحفوف بالآخطار .

فقد كان البناء السياسي في البلجيكيك قبل الحرب الأخيرة بسيطاً جداً : في اليمين حزب قوى من الرجال المتدينين هو الحزب الكاثوليكي ، وفي الوسط حزب الأحرار ، وفي اليسار حزب العمال أو الاشتراكيين ، وكان لهذه الأحزاب ١٧٠ من مائتي مقعد في البرلمان سنة ١٩٣٩ . ويوجد عدا هذه الأحزاب ثلاثة أحزاب أخرى قليلة النفوذ : في أقصى اليسار الشيوعيون . وفي أقصى اليمين حزبان فاشيان : حزب الفلمنكيين الوطنيين ، وحزب ركس ، وكلاهما كاثوليكي صميم . ولم يتول حزب من هذه الأحزاب الصغيرة الحكم ، بل كان الحكم بين الأحزاب الكبيرة إما الحكومة

مرة إلى الحزب الكاثوليكي في تأليف الحكومة ، ولكنه لم يتحالف قط مع الاشتراكيين إلا عند قيام حكومة ائتلافية من الأحزاب الثلاثة .

وقد غدّل الحزب الاشتراكي من آرائه الثورية وجنح إلى الاعتدال والعمل على التنظيم عند ما صار من جهة العدد الحزب الثاني في البلاد بعد تقرير الانتخاب العام سنة ١٩١٩ . وقد نجح سريعاً في تحقيق برنامجه المبدئي الاجتماعي ، ووجد نفسه في موقف الحزب الذي حقق برنامجه فلم يعد له برنامج .

أما الفلمنكيون الوطنيون فتاريخهم يرجع إلى استقلال البلجيكي في سنة ١٨٣٠ . فبلاد البلجيكي تتألف من منطقتين قالونيا وأهلها يتكلمون الفرنسية ، وفلاندر وأهلها يتكلمون الفلمنكية . وهي لغة قريبة من اللغة الهولندية . والفلمنكيون أكثر عدداً من القالونيين . ولكن اللغة الفرنسية كانت حتى سنة ١٩١٤ سائدة في المدارس والمحاكم والجيش والادارة ، وقد تغيرت هذه الحال تدريجياً ولكن بعد أن تألف حزب فلمنكي وطني اتخذ نظاماً فاشياً . أما حزب ركس الفاشي فقد نشأ من الخوف الذي انتشر قبل الحرب من حركات الشيوعيين ، والفضل في نجاح هذا الحزب وظهوره لرعيه دجريل ومقدرته الخطائية والإعانات الكبيرة التي أمدّه بها رجال الصناعة . وكان من أنصاره فضلاً عن هؤلاء بعض ضباط الجيش العظام وبعض أعضاء البلاط الملكي .

ثم جاءت الحرب وغزا الألمان البلجيكي في ١٠ مايو سنة ١٩٤٠ وسلم الجيش في ٢٨ مايو وظل الألمان يحتلونهم نحو أربع سنوات ونصف سنة أي لغاية سبتمبر سنة ١٩٤٤ ، وهذه تجربة ضربه بها البلجيكيون مرتين في عشرين سنة . وهو أمر يجب ألا يعزب

عن البال عند ما نريد أن نفهم مسلكتهم . ومن الضروري أن نعرف أنه بينما وقف الاحتلال النشاط العادي وقفاً تاماً ووقف نشاط النقابات لحد كبير ، في ميدان السياسة الاقتصادية والادارية ، فإن الحياة العامة ظلت مستمرة دون تغيير كبير . ومن الطبيعي أن مسائل السياسة العامة التي هي من عمل الحكومة ، كانت تسويها السلطات الألمانية ، ومن الطبيعي أيضاً أن البلجيكيين كانوا يهتمون بهذه الأمور إذا عجزوا عن التهرب منها .

ولقد عاش البلجيكيون تلك السنوات عيشة غريبة ؛ فقد كانوا من غير زعامة سياسية أو أخلاقية ، فالصحافة والاذاعة في أيدي الألمان وأعوانهم فلم يكن من الممكن تصديقهما . والاذاعة من لندن بوعدوها التي لم تحقق ، كان تأثيرها في الشعب بعد التحرير باعثاً على اليأس . ونجح الألمان في أمر واحد هو إذكاء الخوف من الشيوعيين لدى الكاثوليك ورجال الكنيسة ، مما أوجد حتى في عهد الاحتلال جمعيات الفرض منها مقاومة الألمان ثم بعد التحرير مقاومة الشيوعيين .

وهناك مسألة شائكة هي مسألة ملك بلجيكا ، وهذه المسألة لم تكن قائمة في عهد الاحتلال ؛ فإن تسليمه للألمان زاد من تعلق الناس به لأنهم كانوا يائسين لما بدا من ضعف الحلفاء . ولكنه فقد حب رعاياه فجأة عند ما تزوج للمرة الثانية ، فقد كان الناس يحبونه ويعطفون عليه بسبب المأساة التي أدت إلى وفاة زوجته الأولى ، وزاد حبهم له عند ما آثر أن يكون أسيراً في بلاده على الالتجاء لأمجلترا ، ولكن زواجه أضراب مركزه الاجتماعي بضربة شديدة ولم يعلم إلا القليل من رعاياه أنه زاهل . وتحررت البلاد وعادت الحكومة التي كانت في لندن ثم استقالت ، وتكونت حكومة أخرى تميل إلى اليسار ، ويقال إن

والاشتراكيين والشيوعيين . ولكن بما أن هذا الائتلاف لا يتمتع إلا بأغلبية ضئيلة فإن الحكومة تكون دائماً ضعيفة لا تستطيع القيام بتغييرات اقتصادية شاملة .

ولقد حصلت هذه الأحزاب على هذه الأغلبية الضئيلة في انتخابات فبراير سنة ١٩٤٦ ومما يعقد للموقف السياسي في البلجيكي أن الفلمنك نظموا أنفسهم وهم أغلبية ويزداد تعدادهم دائماً في حين أن القالونيين المتكلمين بالفرنسية يقل عددهم مما قلب الأوضاع ، بحيث بدأت حركة وطنية من القالونيين ، مشابهة للحركة التي كانت قائمة بين الفلمنكيين من قبل . ومع ذلك فإن البلجيكي تسير سيرا مريضاً من الوجهة الاقتصادية ؛ فليس فيها عطلة ، والانتاج والاصدار يزدادان زيادة كبيرة ، ووسائل المعيشة أحسن منها في بلاد أخرى . ولكن الجماهير غير راضية . وقد وقفت الحكومة زيادة أجور العمال بحيث لم تعد كافية . أما في السياسة الدولية فلم يعد لبلجيكا سياسة خارجية ، وهي تابعة اقتصادياً للولايات المتحدة ، وعلى ذلك نهى تابعة لسياستها . والعلاقات بينها وبين فرنسا طبيعية ، وعلاقتها بهولندا غير ودية ؛ فوقفها إذن موقف المنتظر المترقب .

بريطانيا تدخلت في تأليفها ، ولم تستطع هذه الحكومة أن تظل في الحكم طويلاً . وتولت الحكم وزارة يرأسها فان أكر الاشتراكي . وجاءت مسألة عودة الملك من الأسر ، وكان فان أكر في مبدأ الأمر يميل إلى السماح للملك بالعودة إلى بلجيكا ، ثم غير رأيه في أثناء المفاوضات . وقام النزاع بين الملك المبعد والوزارة ، كل منها يهدد بنشر أسرار عن الآخر ، ولكنه لم يفعل . ولا شك في أن الوقوف على الحقيقة فيما يتعلق بأعمال الملك صعب ، فأكبر ما يتهمة به خصومه محاولته الاتفاق مع الأعداء ، كحديثه مع هتلر وإرسال برقيات تهينة أو تعزية للملك إيطاليا والمرشال بيتان .

على كل حال قرر فان أكر رسمياً أن يحول دون عودة الملك ، وإن يظل أخوه الأمير شارل وصياً على العرش . فأدى هذا القرار إلى استقالة الوزراء من الحزب الكاثوليكي وانضمامهم إلى المعارضة اليسارية وهذا الموقف هو الذي يحول دون سير الحياة السياسية على طبيعتها في بلجيكا . وعلى ذلك لن تقوم في بلجيكا حكومة إلا إذا كانت مكونة من ائتلاف بين الأحرار

ظهر حديثاً

ويطارت تأليف الدكتور عثمان أمين طبعة ثانية مزيّدة ومنقّحة (مكتبة عيسى الباسي الحلي بالقاهرة) .

على الكتاب الذى يفسر فلسفة شيخ الفلاسفة العقلين .

ولا شك فى أن ديكارت جدير بأن يكون زعيم مدرسة العقلين هذه . والمذهب العقلى فى الفلسفة غيره فى جوانب أخرى من المعارف ؛ فليس معناه ، كما يتبادر لذهن الباحثين فى الديانات ، أنه يعبر عن وجود الاسرار الدينية يبلغ أحياناً حد الاحاد ، بل قد يكون معناه فى فلسفة ديكارت عكس ذلك أو ما يصل إلى العكس . فهو فى مجمله ، أن العقل يحتوى على عدد من المبادئ الثابتة ، وأننا إذا فكرنا سائرنا على هذه المبادئ استطعنا أن نستكشف الحقيقة الكاملة لجميع الأشياء . فكما أن الرياضى يستطيع ان يستنبط جميع قواعد الرياضة باتخاذ بديهية أو بديهيتين ، كذلك الفيلسوف يستطيع أن يستكشف جميع الحقائق لو سار على هذا المذهب . فكان العقل إذن ، من غير الاختيار والتجربة ، يستطيع أن يمدنا بالمعرفة الفلسفية وهى المعرفة الصادقة . ولكن هل العالم منظم كالرياضة ؟ لعل ما دفع ديكارت إلى هذه الفكرة أنه كان رياضياً ، وله فى هذا الجانب من المعرفة نظريات قد لا تكون أقل شأنًا من نظرياته الفلسفية .

وكل ما نريده من هذا العرض أن نبين أهمية هذا الكتاب ، وأن نقول إنه سند فراغاً فى المكتبة العربية .

هذه هى الطبعة الثانية لكتاب الدكتور عثمان أمين الذى ظهرت الطبعة الأولى منه فى سنة ١٩٤٢ . وقد ذكر المؤلف أن الطبعة الأولى نفذت فى بضعة شهور . على أنه لم يكن من المتيسر طبعاً فى ذلك الوقت أن يعيد المؤلف طبع كتابه . وكان مما اهتم له أن يصل على تنقيحه ، فقام ببعض بحوث تكميلية وأجرى تعديلات وزيادات ، فوسع فصل شخصية ديكارت ، وأرجأ باب تأويل الفلسفة الديكارتية إلى ما بعد الفراغ من عرض تلك الفلسفة ، وأضاف فصلاً جديداً عن ديكارت والمجتمع ، ووسع باب أثر الفلسفة الديكارتية ، كما وأضاف تعليقات وهوامش ومراجع .

فالطبعة من هذه الجهة تكاد تكون بمثابة كتاب جديد . ولا ريب فى أن الاقبال على هذا الكتاب فى طبعته الأولى دل على حاجة شديدة فى العالم العربى إلى المؤلفين الذين يضعون الكتب فى مختلف العلوم والفنون عن دراسة ومعرفة جديرين بثقة القراء . ولا ريب أيضاً فى أن الدكتور عثمان أمين برهن فى هذا الكتاب على أنه من خير الذين يصلحون لتعريف الناس بالفلاسفة ، وبسط آرائهم بأسلوبه السهل الجميل ، وحسن تبويبه لموضوعه كما يتبين فى هذا الكتاب . كما أن هذا الاقبال دل على نماء حب البحث بين جمهور القراء ، إذ أقبلوا

اللغة اليونانية تأليف الأستاذين أمين سلامة وصمويل كامل عبد السيد (مكتبة النهضة المصرية) -

هذا الكتاب عن اللغة اليونانية ، وهي اللغة التي يجب أن تقدر أهميتها إذا أردنا أن نكون لنا مجال في عالم الفكر . وهذا الكتاب إذا كان مفيداً لمن يريد تعلم اللغة اليونانية ، فهو مفيد كذلك لأنه أحاط بجميع قواعدها بحيث يصلح للمبتدئ والمتقدم في هذه الدراسة . وهو يشرح هذه القواعد باللغة العربية شرحاً وافياً بأبسط لغة وأحدث طريقة . ولعله كما قال الأستاذ محمد شفيق غبريال بك في مقدمته : « أن يبدأ (المؤلفان) أو من يريد من تلامذتهما في كلية الآداب من حيث انتهى في هذه الأجرومية دراسة مقارنة لخصائص الأجرومييتين العربية واليونانية . تتفق في هذا الكتاب جهود أعضاء قسمي اللغة العربية والدراسات القديمة بتلك الكلية إلتقاء مباركاً مشمراً ويصبح اللواء الذي رفعه وحده طه حسين عندما كافح لاثبات حق الدراسات القديمة في كلية الآداب لواء من ألوية الكلية الخفاقة » .

لو أننا ذكرنا أن الحضارة الأوربية ، وهي الحضارة المؤثرة والسائدة الآن في جميع أنحاء العالم ، قد بدأت بالاقبال على دراسة اللغة اليونانية وعلى قراءة الكتب التي خلفتها الحضارة اليونانية ، وقد نقلت عند ما أطبق الاتراك على بيزنطة إلى إيطاليا وغيرها من بلدان أوروبا - لو أننا ذكرنا ذلك لما كنا مبالغين ، بل بالعكس كنا منتقصين للدور الذي لعبته الحضارة اليونانية في تاريخ العالم منذ ازدهار هذه الحضارة . فما لا ريب فيه أن الحضارة اليونانية كان لها التأثير الأكبر في حضارة روما . بل نستطيع أن نقول إن الحضارة الرومانية في جوانبها الثقافية إن هي إلا تقليد للآثار الفكرية التي خلفها اليونان . والحضارة الإسلامية التي سيطرت على جزء كبير من العالم في العهد الإسلامي كانت في أزهر عصورها ، وصارت أشمل وأكثر إنسانية عندما أقبلت على مخلفات الفكر اليوناني . لذلك كان سرورنا كبيراً حقاً عند ما نشر

هيرودوت في مصر للأستاذ وهيب كامل (دار المعارف بمصر) .

وهذا الكتاب ينتقله اليوم الأستاذ وهيب كامل إلى اللغة العربية هو الجزء الخاص بمصر من كتابه في التاريخ ، فقد زار مصر على الأرجح بين ٤٤٨ و ٤٤٥ ق م ، كما أشار المؤلف في مقدمته ، ومكث فيها نحو ثلاثة أشهر ونصف شهر ، قام فيها برحلة من شمال البلاد إلى جنوبها وبجولة في وسط الدلتا وشرقيها ، وكان يستقصي أنباء البلاد وتاريخها من أهوا

قد يصح أن نلقب هيرودوت أبا التاريخ أو لا يصح ، وإنما الواقع أن المؤرخ اليوناني هيرودوت ، بما في تاريخه من شمول لبلاد كثيرة ، وروح قصصية ، ومهارة في السرد ومعرفة بالاستفادة من المواقف المؤثرة ، هو أجدر المؤرخين اليونانيين بهذا اللقب ، على أنه لا يعرف بأنه أقدمهم وإنما يعرف بأنه شيعتهم .

ظهر حديثاً

الذين يقابلونه من الأعيان ورجال الدين ، مستعينا على الاتصال بهم بتراجمة ينقلون إليه هذه الأخبار على الغالب مشوبة بكثير من الخرافات والأحاديث السائرة ، فيسدونه بلبغته الأيونية وأسلوبه البديع في القصص الجدير بمن كان من مواطني الكتاب والشعراء الاغريقين ، حتى لتجد هذا الكتاب قصة من ألد القصص .

ومن مزايا هيودوت أنه يعنى بالجانب الجغرافي ويحفظ له مكانه في التاريخ . وهذا الجانب ، وإن كان على قول الأستاذ وهيب كامل أضعف جانب فيه ، يدل ، بمجرد عنايته به ، على فهم للتاريخ غير فهم أضراجه من المؤرخين له .

وإنما لئرجو في القريب أن نرى الأستاذ وهيب كامل ، وقد نقل هذا التاريخ بأكمله إلى اللغة العربية ، فيسدى بذلك يداً كبيرة .

مهن محمد

في مجلات الشرق

حرفة التعليم !

عند قوم لا يدركون فضلها فما هي إلا جنون . . .

ويعض الأستاذ خليل هنداوى في رواية ما كان بينه وبين ولده من حوار حتى ينتهى إلى أن يقول :

« ألا رحم الله ذلك الزمان الذى كنا نعيش فيه أعفة الضمائر ، نكتفى بشرف المهنة دون النظر إلى ما تعطيه من فوائد ؛ ولعن الله هذا الزمان الذى أفسد قلوب الناس فانقلبت القيم وتبدلت المقاييس وماتت البقية الباقية من صلاح موروث . . . »

ليت شعري : أجرى هذا الحوار بين الأستاذ هنداوى وولده حديث فم إلى فم ، أم نجوى عينين إلى عينين ؟

وهل بلغت « حرفة التعليم » بأصحابها هذا المبلغ من الشؤم حتى حملت الأولاد على أن يجبهوا آباءهم بمثل هذا الرأى ، أم هي مبالغة في التخيل وأسلوب من أساليب الشكوى ؟

وقد كان صاحب هذه المختارات يوماً معلماً ، ونالته هذه الحرفة بشؤمها بضع عشرة سنة ؛ فانه ليستطيع أن يصف عن خبرة مقدار ما يلقاه المعلمون من قلة التقدير المادى والأدبى في هذا الشرق ؛ والشرق اليوم على أبواب نهضة لا يمكن أن تبلغ أهدافها إلا على كواهل المعلمين . فأى خيبة تنتهى إليها لو شاع مثل هذا القول على ألسنة المعلمين وامتلأت به نفوسهم حتى صار حديثاً بين الأب وبنه وبين المعلم وتلاميذه ؟

توشك « حرفة التعليم » أن تبلغ في شهرة ما ينال صاحبها من التعاسة ما بلغت « حرفة الأدب » . فلا يزال تقرأ في صحف مصر وسوريا والعراق — من شرق البلاد العربية إلى غربها — مقالات بأقلام المعلمين ، أو غير المعلمين ، يرثون فيها للمعلم ، وما يناله من سوء التقدير وقلة الجزاء وضعف المركز المادى في الحياة الاجتماعية . بل لعل مانسج من شكوى حال المعلمين لهذا العهد في كل بلد عربى أن يوقع في وهم كل قارئ أن « شؤم الحرفة » قد نال المعلمين بأسوأ مما نال الأدباء من حرفة الأدب .

وهذا مقال للأستاذ خليل هنداوى في العدد الأخير من مجلة « الأدب » ببيروت يصف فيه حديثاً جرى بينه وبين ولده في أول مرحلة من مراحل دراسته العالية . قال ولده :

— ومهنتى ماذا تكون بعد أن أرجع « من البعثة » ؟

— أظن أنك تكون أستاذاً !

نظر إليه ولده نظرة ملؤها العنف والتوبيخ ، وقال :

— أى شئ — فبك — يحملنى على أن أمتن هذه المهنة ؟ أقيمتك المادية أم قيمتك المعنوية ولك أكثر من سبعة عشر عاماً ، فإذا تركت وراءك ؟ لقد أشقيت نفسك وأشقيتنا ، بعبادتك لهذه المثل العليا الكاذبة التى رحت تؤمن بها . إن التضحية واجبة حين يقدر الناس معناها ، أما التضحية بالحياة والسعادة

ألا ما أحوجنا اليوم إلى أن نحاول محاولة
لتأمين « استقلال المعلمين » على مثال
ما صنعنا لتأمين « استقلال القضاة » !
إن العلم هو الذي يبني الأمة ويصنع لها
طريقها ويحدد لها منزلتها في الغد ، وإن
العدالة هي التي تمنع بناء الحضارة أن يهدم :

فما أحرانا أن نبني لبناء من عوامل الاستقرار
والأمن بمقدار ما نبذل لتوق عوامل
الهدم ، وما أحرانا أن نوقن بأن الذين
يبنون لا ينبغي أن يكونوا أقل حظاً من
رعاية الدولة والشعب من الذين يرمون الأبنية
المتداعية أو يمنعونها من الانهيار !

شباب الشعر في العراق

« شاعر الحى لا يطرب ! »
مثل سمعناه في مصر ، وأحسب له نظائر في
كل بلد عربي وغير عربي !
فهذه صحف العراق لا تكاد تفتح واحدة
منها حتى ترى مقالا ينمى فيه كاتبه على شعراء
العراق وكتابته تخلفهم وقصور أدواتهم
وضعف إنتاجهم بالقياس إلى ما تنتجه سائر
البلاد العربية . وتقرأ صحف الشام فلا تكاد
ترى واحدة منها خالية من حديث للتبوية
بشاعر عراقي ، أو كاتب عراقي . هو
« داء الجار » إذن لا غيره ، وهو حكم كل
حى على شاعره !
وهذا مقال في مجلة « الاديب » كذلك
بقلم مير بصري عنوانه « شعر الشباب
في العراق » يتحدث فيه عن « طلائع نهضة
شعرية — بالعراق — تبشر بالخير » .
والغريب أن كاتب المقال بغدادى ، فكأنه

حين تخلص من « داء الجار » لم يجرؤ على
أن ينشر رأيه بين « الجيران » فاختار مجلة
في بيروت .
وفي المقال عرض طيب لانتاج طائفة
جديدة بالتبوية من شعر الشباب في بغداد ،
للشعراء الشبان : يحيى الدراجي ، وبلند
الحيدري ، ويعقوب بلبول ، وإبراهيم
يعقوب عوبديا .
يقول الأستاذ بصرى :
« إن خير نعت لهذه الحركة الشعرية هو
أنها وجدانية واقعية رمزية . ومن الجلى أن
إطلاق اسم الحركة هنا من قبيل التوسع لاغير ،
فليس هناك حركة منظمة ولا مقررة ، بل هي
فورة آتية في نفوس فريق موهوب من
الشباب تقارب بينهم أرض واحدة وعصر
واحد ، فأوحت إليهم شعراً متوافقاً في سماته ،
متبايناً في أصواته ونغماته . . . »

دفاع مشترك !

ويشغل حديث مجلس الدفاع المشترك
من مجلات الشرق مثل ما يشغله من صحف
مصر ، وعناية صحف لبنان به . أظهر . وليس

عجيباً أن تحتفل صحف الشرق بقضية مجلس
الدفاع المشترك لآلانه جزء من قضية مصر ،
للشقيقة الكبرى ، فإنه فوق ذلك جزء من

في مجلات الشرق

الدفاع المشترك ، وألا يتاح له تجنيدنا وسوقنا إلى حرب اعتدائية لا تلبث فيها بلادنا أن تتحول إلى مسرح حرب مدمرة نكون نحن فيها الخاسرين على كل حال !

ولا ينتهي حديث مجلة الطريق عن « الدفاع المشترك » بانتهاء مقال الأستاذ رثيف خوري ، فثمة مقال آخر بقلم وصفي البني عنوانه « الاسكندرونة في كفة المساومات من جديد » يتحدث فيه عن موقف بريطانيا منذ سنين وفي هذه الأيام من قضية لواء الاسكندرونة ، ويعرض بعض الأقوال البريطانية في هذا الشأن ثم يقول :

« إن رائحة المساومة تفوح من هذا الكلام . ولا ريب أن « بعض الأوساط » التي تحاول أن تحشر سوريا ولبنان في جوف القلعة العسكرية والسياسية التي يجري العمل لإقامة أسوارها حول الاقطار العربية جميعا لقمع نضالها الوطني والديمقراطي بقوة الحديد والنار والدسائس باسم « الدفاع المشترك » ، لا ريب أن هذه الأوساط المعروفة الراضية في ضم تركيا نهائيا إلى حظيرة الدفاع المشترك هذه تحاول أن تسوى الخلاف السوري التركي بأسلوبها التقليدي ، أسلوب المساومة والناورة والتهديد بالخطر الأحمر . . . »

قضية كل بلد عربي . أليست الدولة التي اخترعت كلمة « الدفاع المشترك » تريد أن تتخذ هذا الوضع منفذاً تنفذ منه إلى نوع من السيطرة على البلاد التي تجاور مصر ؟ فقضية مجلس الدفاع المشترك إذن هي قضية كل بلد عربي من جيرة مصر ، القريب منها والبعيد ، وقضية كل وطن عربي يحرص على مقومات استقلاله ويأبى أن يكون للاستعمار « مقرا أو ممرا » . فغاية صحف الشرق بهذه القضية هي إذن عناية ذاتية تنبع من رغبة أصيلة في الاستقلال والحرية الذاتية .

وهذه مجلة « الطريق » اللبنانية تنشر في صدرها مقالا بقلم رثيف خوري عنوانها « مجلس دفاع مشترك ، أم توريط لنا في مشاريع حرية عدوانية » يقول فيه : « إن بلدان هذا الشرق العربي إنما طمحت دائما إلى تحقيق هذا الاستقلال الذي لا يقيد من وجود جيوش أجنبية على أرض الوطن ، والذي لا يقيد قيد « شرعي » من معاهدة يفرضها الجانب القوي على الجانب المستضعف . « إن الذي يعنيننا - أولا وأخيرا - هو ألا يفرض الاستعمار وتاده في أرضنا باسم

اقتصاديات أوروبا !

فامتطيت طائرتي وقت بالرحلة إلى المكان المعين ، وكان معي عشر لفائف تبغ ، قايست بها أحد المزارعين على دجاجةتين حلتما معي إلى بلجيكا حيث بعتهما لقاء ألف لفافة تبغ . وما لبثت أن تلقيت الأوامر بالذهاب إلى كوبنهاجن حيث أتيح لي أن أشتري جهازاً لاسلكياً جديداً (راديو) بألف سيكارة ؛ وما هي

في العدد ٤٣٦ من مجلة « للكشوف » يروي ضابط بريطاني الوقائع التالية التي تصور ما بلغت اقتصاديات أوروبا في هذه الأيام من التقلل وعدم الاستقرار الذي ينتدر بالشر . والقصة بعد في معنى كل تعليق . قال الضابط : « وفدت بعثة رسمية إلى الدانمارك ،

في مجلات انشرف

إلا أيام حتى عدت إلى بروكسل في مهمة مستعجلة فتخلصت منه بطريقة من الطرق لقاء ٣٦ زجاجة شمبانيا ، فدعوت بعض الرفاق إلى « سكرة » شربنا فيها ست زجاجات فقط على نخب مقدرتي التجارية ، ونجاحي للنقطع النظر في هذا الحقل ؛ وعدت إلى لندن فبعت الزجاجة الواحدة من الزجاجات الثلاثين الباقية بأربعة جنيهات لحصل لدى ١٢٠ جنياً .

« رأيت كيف أن عشر بقائف تبغ إذا ما أحسن صاحبها استعمالها والتصرف بها تدخل عليه ١٢٠ ليرة استرلينية ؟ . . . »

قرآن بالأسبانية في أمريكا

وتروى « المكشوف » أن دار الطباعة العربية في الأرجنتين أصدرت أخيراً ترجمة أسبانية للقرآن الكريم ، من عمل الأستاذ سيف الدين رحال مدير دار الطباعة ، بمعاونة الدكتور ستياجو بيرالتا . وتشتمل تلك الترجمة على مقدمات وافية وشروح هامة استنفدت إعدادها وقتاً طويلاً وجهوداً جبارة .

انهضة أم انحطاط ؟

ويسأل الأستاذ جورج مصروعة في العدد السادس من مجلة « الفكر » التي تصدر من دمشق هذا السؤال ، فيقول : « هل نحن في عصر نهضة أدبية أم في عصر انحطاط وضمور ؟ »

« هل نشهد في دنيا الفكر والقلم استعداداً للإنطلاق والتخلق ، أم انحداراً ينذر بالركود والجمود ؟ »

ثم يصف ما تقدمه للطبعة العربية لقراءتها في هذه الأيام من جيد الأدب أو رديئه ، ويعود فيسأل :

« أي هذا النشاط دليل على النهضة . . . وهل في هذا السيل من الانتاج الأدبي ما يبشر بعصر جديد يصبح أن يدعى عصر الحقيقة والفن والجمال ؟ »

ويبدو في جوابه لون من التشاؤم وسوء الظن ، لا منكراً على المنتجين من اهل

الأدب ، بل على القراء الذين لا يكادون يحفلون بالانتاج الجيد ولا يقبلون عليه ، لأنهم لا يقرءون إلا للتسلية واللهو وإزجاء الفراغ ؛ لأن مقاييس الانتاج الأدبي عند جبهة القراء غير للمقاييس عند أهل الفن ، فيقول :

« إياك إذن يا أخي القارئ أن تسألني بعد اليوم عن نهضة الأدب في عصرنا هذا ، لأنك أنت مشغنها وموقد نارها ، وأنت أنت عاملها الأكبر والأوحد . »

« لا نهضة للأدب ولا رجاء للأدب ما دمت تعد صفحات الكتاب قبل أن تشتريه كأنك تبتاع ورقاً « للصر » ، ولا أمل للنهضة بالشعور والارتقاء ما دمت تقرأ للتسلية وقتل الوقت وجلب الثوم إلى رأسك المتعب ! »

قول يقوله كاتبه لقراءه في سوريا ولبنان . فكيف لو عرف قراء مصر !

المؤلفون في مصر

بكل ذي فضل ؛ لم يند عن خاطره أحد ممن تدور ألسنتهم على الأفواه أو تشر لهم الصحف والمجلات ، أو تخرج المكتبة المصرية كتباً بأسمائهم ؛ فهو مقال ولكنه سجل واف حافل ومعجم واسع له قيمته في اليوم وفي الغد . ولا يزال الأستاذ محمد كرد علي صاحب فضل على الأدب وتاريخه . ولا يكاد الأستاذ يبلغ آخر المقال حتى يستدرك فيقول :

« ولو ضعفت شهوة الاستخدام في بعض النفوس المصرية ربما زاد عدد الباحثين المجودين وتضاعفت جهرة من ينتفع الناس منهم نفعاً عاماً ، وربما كان تغير بذلك وجه المدينة العربية . وليس من الغرابة في شيء أن يكون معظم مؤلفي مصر في هذا العصر من الذين اتصلوا بالحكومة مباشرة ، وقل أن رأينا ذا نعمة وسعة من العيش حاول نفع الناس بقلبه وبيانه . . . »

ويتحدث الأستاذ محمد كرد علي في المجلد الحادي والعشرين من مجلة « المجمع العلمي العربي » بدمشق عن المؤلفين في مصر ونشاطهم في الإنتاج ، فيصنفهم طوائف طوائف ومذاهب مذاهب ، ويذكر الذين يعرفهم من المؤلفين المصريين بأسمائهم ومعاهد تخرجهم ومذاهبهم في الإنتاج ، ويوازن بين إنتاجهم هذا الحاضر الذي يخرجون به إلى الناس ، وما كان من إنتاجهم قبل نصف قرن ، ويخلص خريجي دار العلوم ومدرستي المعلمين العليا والقضاء الشرعي الملفاتين بمزيد من التنويه بآثارهما في نهضة التأليف المعاصرة في مصر . ويتحدث عن طه حسين وأحمد أمين والرافعي والزيات والعقاد والمازني ، وعن مؤلفي الكتب المدرسية ، وعن الشيوخ والشبان ، وعن الرجال والنساء ، وعن أهل الجدد والفكاهة ، ذاكر الأسماء ، منها

في مجلات الغرب

من باريس

نسأل أيجدثنا الكاتب عن حقيقة أم عن خيال ؟
أينبؤنا بأخبار أشخاص وجدوا أم هو الخيال
قد اخترع الأشخاص والأحداث التي أجراها
على أيديهم ؟

وقد وقتت المجلة صفحات في هذا العدد
على العلاقات الفرنسية البلجيكية :

١ — تقلبات الجو المعنوي بين فرنسا
وبلجيكا (٤) ويكفي أن ثبت في هذا المقال
جدة يرويها الكاتب في خطاب ألقاه الملك
ألبير في حفلة عشاء « بمجلة العالمين » بباريس
وذلك قوله حين كان يتحدث عن اللغة الفرنسية :
« إن هذه اللغة تفيض عن وحي لا يفيض ،
وهي تقدم في جرأة على كل مغامرة ، وتحافظ
في الوقت نفسه على القصد والاعتدال . »

٢ — العلاقات الثقافية بين فرنسا
وبلجيكا (٥) ونلاحظ هذه الأسطر الأخيرة التي
يسخر فيها الكاتب البلجيكي من الجامعات
البلجيكية : « نعم هذه الصفوة التي لا تشبه إلا
قليلاً أمثالها في البلاد الأخرى في لندن وباريس
وروما بل في ستوكهولم ، تطعن راضية إلى
شيء من الجمول . » (بديع !)
ونلاحظ تقديراً للحياة العقلية في بلجيكا

« لانيف » أكتوبر ١٩٤٦ *La Nef* -
مقال للأستاذ ارمان هوج Armand Hoog
الذي كان مدرساً بكلية الآداب في جامعة
فؤاد الأول قبل الحرب الأخيرة عنوانه :
« إميلي برونتي أو العلاقة بين الجنة
والجحيم » (١) وهو فصل قصير يحاول فيه
الكاتب أن يجيب على هذا السؤال : « كيف
استطاع النقاء أن يفهم الجحيم ؟ » وهو يحاول
أن يفسر الجو البغيض الذي يصوره كتابها
« ربا وذرنج » (٢) وهو يجد التفسير في الخيال
البارع الذي امتازت به المعلمة صاحبة هذا
الكتاب . وهو يروي بهذه المناسبة قول
الشاعر الفرنسي السوربياليست أندريه
بروتون A. Breton « أيها الخيال العزيز
إن أخص ما أحب في صفاتك هو أنك لاتعفو » .
وفي المقال اختلاط لا يكاد يبين لنا عن
الموضوع ، بل نحن نسأل أنفسنا أمن الضروري
أن يبين هذا الموضوع ؟

وفي العدد نفسه قصة قصيرة للكاتب
المعروف فرنز كافكا عنوانها : « الحكم » (٣)
وفي هذه القصة نجد بعض الخصال للميزة
لكافكا ، ولا سيما جو الغموض والشك بحيث

Emily Brontë ou les relations du ciel et de l'enfer. (١)

Wuthering Heights. (٢)

Franz Kafka, Le verdict. (٣)

Louis Piérard, Vicissitudes du climat franco-belge. (٤)

Willy Koninckx, Les relations intellectuelles. (٥)

أن مسرحية «أوديب» لأندريه جيد (١) قد مثلتها في أنقرس لأول مرة فرقة بيتويف Pitoëff قبل أن تمثل في إيطاليا بل في باريس نفسها.

٣ — العلاقات الأدبية بقلم روبر جيبيت (٢) وهذا الفصل يحاول كاتبه أن يثبت أن هناك أدباء بلجيكيين منشأون في اللغة الفرنسية، كما أن هناك أدباء في إقليم اللورين أو شبنانيا، ولكن ليس هناك أدب بلجيكي خاص، ثم تنتهي هذه الفصول الشاحبة بدراسة موجزة للعلاقات الاقتصادية بين البلدين.

وفي العدد نفسه مقال بقلم هنري موندور عضو الجمع اللغوي الفرنسي عنوانه: «بول فاليري ودقاتر أندريه فالتر» (٣) وفيه مقتطفات لم تشر، ولأنكاد نفهم لماذا وضع اسم يول فاليري أو لماذا وضع وحده في رأس هذا المقال؛ فهذه الصحف التي خصصها الكاتب لظهور الأثر الأول في آثار أندريه جيد لا تذكر يول فاليري وحده، وإنما تذكر معه أكثر الأسماء سطوطا في هذا العصر.

فالكاتب يقص علينا التاريخ المشوق الذي نعرف بعضه في يوميات أندريه جيد وفي كتابه «إذا لم تمت الحبة» (٤) لتصور هذا الكتاب وإنشاء ونشره. ويقول هنري موندور إن هذا الكتاب الأول في كتب أندريه جيد قد ظهر مضافا إلى اسم مستعار ولم يكذب مخفي على القراء، ونجح نجاحا عظيما إذا فضلنا قيمة التصفيق على ضوضائه.

فقد رضى عنه قبل أن يتم إنشاءه الكاتب الممتاز بيير لويس P. Louys صديق المؤلف ورفيقه في الدرس، فلما نشر أثني عليه الشاعر الشاب يول فاليري، وأعجب به الكاتب الشاعر البلجيكي العظيم ميتزلنك Maeterlinck وكتب إلى جيد «إن هذا الكتاب في بعض مواضعه خالد ككتاب «الاقتداء بالمسيح» (٥) وكتاب مارك أوريل (٦) وكهذه الكتب النادرة التي تحيا حياة عضوية خاصة...» وكتب إلى غير المؤلف يقول: «إن هذا الكتاب أثر ممتاز لا يبارى، ولعل له على الجملة هذه الخصائص التي لا تختص بعصر ولا يصل إليها الفناء والتي تمتاز بها روائع الأدب الفرنسي». وقد قرظ هذا الكتاب أخيرا هنري دي رينييه، وريمي دي جورمون (٧). أما يول فاليري فقد اكتفى بأن يشعر المؤلف بأعجابه في كتاب خاص وألهم ناقدًا غيره مقالا قليل الحظ في البراعة. وإذا قرأنا ما في كتاب فاليري من الإعجاب الشديد فهمنا حزن أندريه جيد لأن صديقه لم يرد أن يظهر هذا الإعجاب في مقال يذاع في القراء. وقد كتب جيد إليه يقول: «إنك تشير في نفس أسفا شديدا أيضا حين تحدثني عن المقال البريء الذي كتبه ريدونيل Redonnel وحين أوازن بينه وبين المقال الذي كنت أنت خليقا أن تكتبه!... ولكنك تعرض الآن كتابة هذا المقال... وأسفا إنك لتتلاءم في نفس أسفا». ومن الطبعي أن جيد كان يود

(١) André Gide, *Œdipe*.

(٢) Robert Guille, *Les relations littéraires*.

(٣) Henri Mondor, *Paul Valéry et Les cahiers d'André Walter*.

(٤) *Si le grain ne meurt*.

(٥) *L'imitation de Jésus-Christ*.

(٦) Marc-Aurèle.

(٧) Henri de Régnier et Rémy de Gourmont.

«مجلة باريس» *La Revue de Paris*
أكتوبر ١٩٤٦.

وهذا العدد يتحدث أيضاً عن بول فاليري في صفحة من يوميات شارل دي بوس (٣) فقد زار بول فاليري في يوم الثلاثاء ٣٠ يناير سنة ١٩٢٣ وروى لنا الكاتب ما دار بينهما من الحديث في ذلك المساء. ولنا في حاجة إلى أن نبين المتعة التي يجدها القارئ الحديث بين صديقين أحدهما شاعر «المقبرة البحرية» (٤) فكل سطر من هذا الحديث يزيد في علمنا بالشاعر وتقديرنا لتفكيره. فقد حاول دي بوس أن يقيسه إلى ملارميه Mallarmé فيتخلص فاليري من هذه الموازنة قائلاً: «على أن هناك فرقاً آخر بين ملارميه وبينى؛ فقد كان هو يرى أن الأدب هو كل شيء». وكملة للشهرة: «إن العالم كله إنما خلق لينتهي إلى كتاب ممتع» تصوره تصويراً صادقا. أما أنا فلم أرى في الأدب قط هذا الرأي ولم أضعه قط هذا الموضع من الجدة. ويضيف دي بوس: «إن فاليري نموذج الفيلسوف كما يراه جروتويزن Groethuysen: «رجل لا يهمل العالم أبدا» (٥) فليست الحياة وليس الإنسان، بل ليس الأدب والفن تكون الوحدة عنده، وإنما الوحدة عنده هي العالم أو بعبارة أصبح القوانين التي يستنبطها العقل منه.»

ولندع هذا الميدان الصارم فبدان الفلسفة إلى ميدان آخر أشد منه ابتهاجا وليس أقل منه خصبا، وهو ميدان الموسيقى والموسيقين. فنحن نقرأ في هذا العدد صفحات جميلة عن الحياة في باريس أثناء القرن الثامن عشر.

لويقرأ الجمهور هذا الشئ الجميل الذي كتبه إليه بول فاليري: «وفي كتابك يمكن أن يتصرأنه يجب أن نتكر، يجب أن نحب، يجب أن نؤمن». والخلاصة أن قيمة هذا المقال الذي لا يخلو من بعض الاختلاط أنه يصور لنا أولية كاتب ممتاز، وينشر لنا مقتطفات خطيرة لم تكن معروفة من قبل الآن.

واقراً في العدد نفسه مقالا عن «فوست» لبول فاليري بقلم ا. رولان دي رونييل (١) ونحن نعلم أن القصة تنحل آخر الأمر إلى قصتين: إحداهما «لوست» والآخرى «الوحيد» (٢) وكتاهما نشرت قبل أن تم، ومات الشاعر العظيم دون أن يتبهما. وهذه الدراسة تجمع بين الدقة والنفاذ والوضوح، وتمتاز بأنها تحدد الصلة بين هذا الأثر الأدبي وشخصية الكاتب تحديداً. واقراً ما يقول صاحب البحث: «لقد استكشف فاليري هذا التشابه بين موقفه الخاص من هذه القوة الخفية المظلمة للقومة للضمير الإنسان والتي كان يريد أن يظهرها للعقل واضحة، وبين موقف فوست في جهاده لما نسبه في لغتنا الحديثة بالضمير اللاشعوري. وقد صور جوته Goethe هذا اللاشعور في صورة أسطورة سماها مفيستوفيليس Mephistophélès. وقد ألع هذا الاستكشاف على فاليري حتى اختار الأشخاص البارزين في قصة جوته واستعارهم لشرح جهاده، بحيث أصبحت هاتان القصتان اللتان انشبتا ونشرتا في آخر حياة المؤلف ولم تم واحدة منهما أشبه شيء بالاعتراف والحكم الأخير على حياته وإنتاجه.»

(١) Rolland de Renéville, *Le Faust de Paul Valéry*.

(٢) *Lust et Le solitaire*.

(٣) Charles du Bos, *Pages de journal*.

(٤) *Le cimetière marin*.

(٥) *Ein Mensch der nie die Welt vergiesst*.

فيه حديثاً متمماً عن « القصص الواقعيين »
ارنست هيمينجوي ، وهنري ميلر
Ernest Hemingway et Henri Miller
وعن « الكتاب المؤدين » يتي سميت
Betty Smith وويله كاتر Willa Cather
ووليام سارويان Saroyan William .
كما يسمى أولئك وهؤلاء بهذين الاسمين
موريس كواندرو « وجز عن الادب
الامريكي » (١) .

واقراً هذه النتيجة التي يختم بها الناقد
مقاله القيم : « نشر بأن هذه الآداب التي لم
تصل جذورها بالادب التقليدي قد نشأت
من تصادم الشعوب في عصر السرعة
والكوكبتيل والسينما ، فهي مناشأة لتعجب
الذين يحبون الألعاب الرياضية العنيفة ، أنشأها
قوم علموا أنفسهم وهم مع ذلك موهوبون
فينقصها في كثير من الأحيان القصد والذوق .
وهؤلاء القصص كما هم يتفوقون على زملائهم
الاوربيين بالقوة والخيال ... غصبهم يسحرنا
ولكن نأمل أن يتيح لهم تقدم الزمن أن
يرسلوا إلى قرائهم رسائل لا تفقد طرافها
ولكنها تحوى شيئاً من الفائدة . »

Les Cahiers du Sud مجلة « كايه
دي سود » المجلد الثاني سنة ١٩٤٦ .

خير ما في هذا العدد صفحاته الأولى
لسبين : الأول أن القارئ يجد فيها ثروة
عظيمة . الثاني أنها تروى لنا نصوصاً
أدبية لها قيمة استثنائية . وعنوان هذه
الصفحات « الذم الأسود » . وقد فهمت
بالطبع من هذا العناون أن النصوص كلها
منسوبة إلى السود سواء نسبت إلى جماعات
معروفة أو إلى أشخاص بارزين أو كانت
شعبية ليس لها مصدر معروف . وهذه

وهي مذكرات الشوقالييه كريستيان دي مانليخ
Christian de Mannlich وهو ألماني ولد
في ستراسبورج وقد كتب مذكراته بالفرنسية
« نظرفا » كما يقول ناشر هذه الصحف . وهذه
للمذكرات التي تنشرها « مجلة باريس » تقص
علينا حياة للموسيقى الألماني جلوك Gluck في
باريس وكان يعيش مع مانليخ تحت سقف
واحد وقد اشتهر بقصته الموسيقية « ايفيجيني »
Iphigénie وامتاز بقصته الموسيقية الأخرى
« أورفيه » Orphée وهو إنما وفد على
باريس لينشئ هاتين الآيتين . والكاتب يقص
علينا في فصاحة باريسية وجد ألماني كيف كان
هذا الفنان يعيش في الجماعة الباريسية ، وكيف
كانت هذه الجماعة تاتي الحيوية الهائلة التي كان
يمتاز بها « الابد جلوك » . وقد تلقى الأستاذ
بمناسبة قصة « ايفيجيني » هذه الرسالة التي
سحرته عباراتها كما سحره إمضاؤها :

« سيدى الشقاليه

لقد شهدت تجربة قصبتك « ايفيجيني »
فعدت مهجوراً ، فقد حققت ما كنت
أعتقد إلى الآن أنه مستحيل . فتقبل
تهنئتي الخالصة وتحياتي المتواضعة .

باريس في ١٧ أبريل ١٧٧٤

جان چاك روسو »

وكانت السوق السوداء رائجة في ذلك
العهد ، فقد بيعت تذاكر الاوبرا في طرفه عين
ولكن الذين اشتروها باعوها بعد ذلك بثلاثة
أمثال قيمتها في الشوارع والقهوات والحديث
كله يكاد يكون معاصراً وإن كان فيه من
الماضي عطر شائق .

واقراً في هذا العدد مقالا رائعاً لمارسيل
تيبو Marcel Thiebaut عنوانه :
« بين الكتب » وكان أحرى أن يكون
للعنوان : « بين الكتب الأمريكية » . تحدث

في خبازات الذرب

النصوص مرتبة على النحو الآتي : نصوص إفريقية ، نصوص أمريكية من البرازيل والانتيل Antilles وأنوليات المتحدة . وبين النصوص الإفريقية قصيدة أنشأها بالفرنسية الشاعر الأسود ليوبولد سيدار سانجور عنوانها « آه ، النسيان ... » (١)

واقرأ منها آخرها ققط :
« في الدفء النقي لهذا الربيع أريد أن
أعتقد أنها تنتظرني هذه العذراء كأن أديمها
الحرير الأسود . »
واقرأ لبعض السود الأمريكيين هذا
الشعر القصير الذي يمزق القلوب :

القمح نزرعه والذرة نمطأها
الحب تنضجه والكسرة نمطأها
الدقيق تنخله والنخالة نمطأها
وعلى هذا النحو يسخر منا
اللبن نمخضه والفضلة نمطأها
مع هذه الكلمة « هذا كاف للسود ! »

من لندن

وفي غيرها والتي يرجع تاريخها إلى القرنين التاسع والعاشر بعد المسيح ، ولكنها أقدم جداً من ذلك ، وأقرب جداً إلى الشعب الانجليزي ، ولكن الكاتب لا يفسر هذا تفسيراً مطولاً .

وبعد ملاحظات تاريخية يعود الكاتب إلى موضوع مقاله ويملأ خلو السفينة من الجثة بفرضين : فاما أن يكون صاحب القبر قد هلك في البحر ، وإما أن يكون قد هلك في موقعة لم يمكن العثور بعدها على جثته .

ولكن الأشياء التي وجدت تدل في وضوح على أنه كان من أهل الطبقة الممتازة . وهذه الأشياء ترجع إلى أصول مختلفة ، بعضها يأتي من السويد ، وبعضها يأتي من بلاد الغال في العصر الميروفنجي ، وبعضها يأتي من البحر الأبيض المتوسط من شرقه بوجه خاص . واختلاف هذه الأصول يتيح للمؤلف ملاحظات قيمة حول العلاقات بين إنجلترا

The Geographical Magazine « المجلة الجغرافية » أكتوبر ١٩٤٦ .

مع أن هذه المجلة متخصصة للجغرافيا كما يدل اسمها على ذلك ، فهي تقدم لنا مقالا لا يقتصر نفعه على المختصين بهذا العلم وحدهم . موضوع هذا المقال آثار مستكشفة سنة ١٩٣٩ تعرض الآن في المتحف البريطاني . وقد استكشفت هذه الآثار في ساتون هو Sutton Hoo وهي ودبريدج الآن Woodbridge حيث وجد قبر يرجع تاريخه إلى منتصف القرن السابع ، للمسيح . وهذا القبر (وكان خالياً من الجثة) يصور سفينة .، يصفه صاحب المقال س . و . فيليبس م . ا . ف . س . ا . C.W. Phillips, M.A., F.S.A. ووصفاً دقيقاً كما يصف الأشياء التي وجدت فيه . وهذه الصورة من صور القبور قد يظن القارئ غير المختص أنها من آثار قرصان اسكانديناويا Vikings نظراً لأمثالها المشهورة التي وجدت في الترويج

شكوك اليساريين في مطامعه السياسية قد يعيد إلى الشيوعيين بعض المترددين الذين هموا أن يتركوهم تفورا من سياستهم التي تسرف في انتهاز الفرص، ولكنه بوجه عام سيزيد حدة الخلاف بين اليمين واليسار، وقد يقوى جدا أحزاب اليمين.

ثم يختم (د. م. ب) في كثير من الاصابة: «ومن الواضح أن هذا المشروع الجديد للدستور سنأتي قيمته من روحه وتطبيقه أكثر مما تأتي من نصوصه، كما هي الحال بالقياس إلى الدساتير كلها».

مجلة «القرن التاسع عشر وما بعده»
The Nineteenth Century and After
أكتوبر سنة ١٩٤٦.

نجد في فهرست هذا العدد عنوانين يلتفتنا «الفرنسيون في كندا» بقلم جيمس كير James Kerr «ومعرض الكتب». ومقال جيمس كير عن كندا قصير ممتع فيه ثناء على الذين ورثوا الفاتحين الأولين لكندا، ويقدم إلينا معلومات قيمة عن النظام والحياة في إقليم كيبيك. وهو يعرض علينا في أول مقاله السبب الذي داهم لكتابة هذا المقال «فالكندي الانجليزى المتوسط يعتقد أن هناك علاقات مازالت قائمة بين وطنه وبين إنجلترا، ويود لو يرى الكندي الفرنسي يشاركه فيما يكن من الحب والا كبار المركز الامبراطورية على حين يعتقد الفرنسيون أن الكندي الفرنسي يجب أن يفكر في فرنسا، وهم واثقون بأنهم لن ينجوا من ذلك إلا خيراً. أما الكندي الفرنسي نفسه فلا يفكر في فرنسا ولا في إنجلترا، وإنما ينظر إلى ماحوله ويذكر غناء آبائه: «أي كندا وطني موضوع خبي» (١). فإذا نظرنا نحن

والعالم الخارج في ذلك العصر البعيد. وهو يختم مقاله بهذه النتيجة: «وكذلك يلتقى القديم والجديد في قبر ساتون هو. فالآثار السويدية التي وجدت فيه كانت بقايا عصر بربرى بعيد، والآثار التي جاءت من بحر الروم. وإن تكن متواضعة القيمة تحمل رسالة مستقبل أقرب إلى الحضارة».

مجلة «العالم اليوم»
The World Today
أكتوبر سنة ١٩٤٦.

اقرأ في هذا العدد مقالا قيما نفاذاً بامضاء (د. م. ب) يحاول أن يشق لنا طريقاً في هذه الغابة اللتوية التي تصور الحياة السياسية في فرنسا اليوم، وعنوانه «الأحزاب والدستور في فرنسا».

وقد كتب هذا المقال قبيل الاستفتاء الثاني. فإذا قرأناه الآن بعد أن تم الاستفتاء ووضع الدستور وجرت الانتخابات دهشنا لنفاذه وخيل إلينا أنه كان متنبهاً. وهو يبدأ بمعرض صحيح لمصاعب الحياة السياسية الفرنسية: «لم يكن بد من أن تكون الحياة بشاقة في ظل الحكم المؤقت، ولكن انتخابين عامين في سبعة أشهر مع انتظار انتخاب ثالث في شهر أكتوبر، أي ثلاثة انتخابات في عام واحد، كل هذا جعل العصر معركة انتخابية مستمرة، يزيد في مزارتها تنافس الأحزاب الثلاثة المتعادلة القوة في الحكومة. ففي هذه الظروف لم يكن محيص من أن تصبح مواد الدستور نفسها أسلحة للجهاد».

ثم يعرض الكاتب الأحزاب المختلفة ومواقفها من الدستور المقترح. ويبرز في دقة وإتقان موقف الجنرال دي جول وما نتج عنه من رد الفعل ويقول: «إن هذا الموقف مضيقاً إليه هجوم الجنرال دي جول على الشيوعيين وإلى

«مجلة الحياة والأدب» *Life and Letters*
أكتوبر سنة ١٩٤٦ .

تقرأ في هذا العدد دراسة قيمة دقيقة
الاستقصاء بقلم جاك ليندسيه *J. Lindsay*
عنوانها «الآلهات المنشوقات» وهي تتصل
بالأساطير وبالأساطير اليونانية خاصة . والكاتب
يستقصى شئون الذين ماتوا شتقاً من اليونانيين
في عصر الأساطير . فيستعرض أحداث هذه
الظاهرة التي يمكن أن نسميها - إن جاز لنا
أن نمزج حول هذا الموضوع الخطير - مركب
الحبل . فهناك الحبل الذي علق به أوديب
من رجله إلى شجرة على جبل كيتيرون
Cithéron وهناك الحبل أو الحيط الذي
استخدمته أريانة *Ariane* لتقود به ثيسوس
Thésée في اللايرانت ثم لتشتق نفسها
به . . . الخ

وعلى كل حال فإن التارىء الذي يعنى
بدرس الأساطير اليونانية يجد في هذه الدراسة
ملاحظات قيمة يستطيع الاخصائيون وحدهم
أن يقدروا قيمتها العلمية .

وفي معرض الكتب من العدد نفسه يلقي
ماكس شابين *Max Chapman* هذا السؤال
في أول مقده لكتاب زينير ماريا ريلكه
Rainer Maria Rilke عن رودان
Rodin : «أقادرون نحن على أن نقوم أثر
الفنان بعد أن نحلل النظرية الفنية التي أنشأته؟»
يجيب الناقد على هذا السؤال : «لا ؛ لأن
النظرية إذا كانت أساسية بالقياس إلى الفنان
لتحقيقها الصلة بين فلسفته الخاصة وبين الصور
الخارجية التي يتخذها مادة لفنه ، فقيمتها
بالقياس إلى الذي يقوم الآثار الفنية تنتهي
عند إشعاره بأن لها أثراً خفياً في قيمة
للصل الفني . فالهم هو الأثر الفني نفسه ، بل
من الممكن أن يقبل الأثر وتنكر النظرية
التي أنشأته .»

وأهم ما يجعل لهذا الكتاب قيمة ذات

إلى ما حوله لم ندهش لهذا الشعور . «
وكذلك يقودنا جيمس كير في سياحة في
كندا الفرنسية ، لا عيب لها إلا أنها قصيرة .
أما «معرض الكتب» فيعرض لنا الكتاب الذي
خصصه هارولد نيكلسون *Harold Nicolson*
لمؤتمر فيينا ١٨١٢-١٨٢٢ . يقول كاتب
المقال ج. هولتون *J. Holton* معتمداً على
المؤلف نفسه : «موضوع هذا الكتاب
الذي أصدره المؤلف أخيراً ، ووصفه في
تواضع هو تسجيل ما كان من تجمع ثم تفرق
ثم تجمع . . . فهو ليس تاريخاً عسكرياً ،
وإنما هو امتحان لما مضى من الأحداث التي
أثارت ويمكن أن تثير الاختلاف بين
الدول المستقلة حين تأتلف اثلاًفاً مؤقتاً
لضرورة ما .»

ولكن الناقد يرى أن الكتاب يتجاوز
الحدود المتواضعة التي رسمها له المؤلف فيقول :
«إنه كتاب نافع جداً الآن ؛ إذ تردد الشئون
الدولية صدى ما يكون من تصادم للنافع بين
الدول الكبرى وما يكون من اختلاف
الأحداث التي تنشأ عن تفاوت الأوربيين في
الفهم والتقدير ، وصدى هذه الحروب التي
لا تفصلها إلا أعوام قليلة تسمى أعوام سلم .
فالمؤلف يكشف لنا في أسلوبه الحي البسيط
عن مناظر رائعة لمواقع ثلاث ، ولقاءضتين
أوليتين ، ولثلاثة أنواع من الصلح ، وخسة
مؤتمرات .»

وعلى الرغم من تأكيد المؤلف أن
«التاريخ لا يعيد نفسه» فإن قراءة كتابه
تكاد تثبت عكس هذا الرأي ، بل تكاد تثبت
أنه «إنما ألف كتابه متأثراً أشد التأثر
بالأحداث المعاصرة» . ثم يحاول ج. هولتون
أن يستقي من الكتاب أمثالا يقارب بها بين
عصر مؤتمر فيينا وعصرنا الحاضر ، وبين سياسة
الطمع لبعض الأمم إذ ذاك ومطامع هذا
العصر الآن .

في مجلات الغرب

خطر ان « هذه الصورة كغيرها من الصور (إشارة إلى صورة بلزاك Balzac التي صورها رودان) هي على الأقل صورة للفنان نفسه إلى جانب تصويرها لبلزاك ، بحيث يمكن أن تقسم بينهما نصفان . وكذلك يرجع إلى هذا الكتاب للتحقق من خصائص مؤلفه الشاعر كما يرجع إلى صورة بلزاك للتحقق من شخصية رودان » .

أمين ط حسين

يوسف كرم

مدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

ناتج الفلسفة الأولى في العصر الوسيط

كتاب يقع في ٢٦٨ صفحة

الثن ٥٠ قرشاً (البريد المسجل ٥٦ ملياً وللخارج ٦٨ ملياً)



اندریه چید

من ابطال الایسا طیر الیونانیة

اودیپ تیسیرس

ترجمة
طه حسين

دار الکاتب المصری

الثن ۲۵ قرشاً

ظهر حدیثاً

البريد المسجل ۴۴ ملها وللخارج ۵۶ ملها

الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين

فهرس

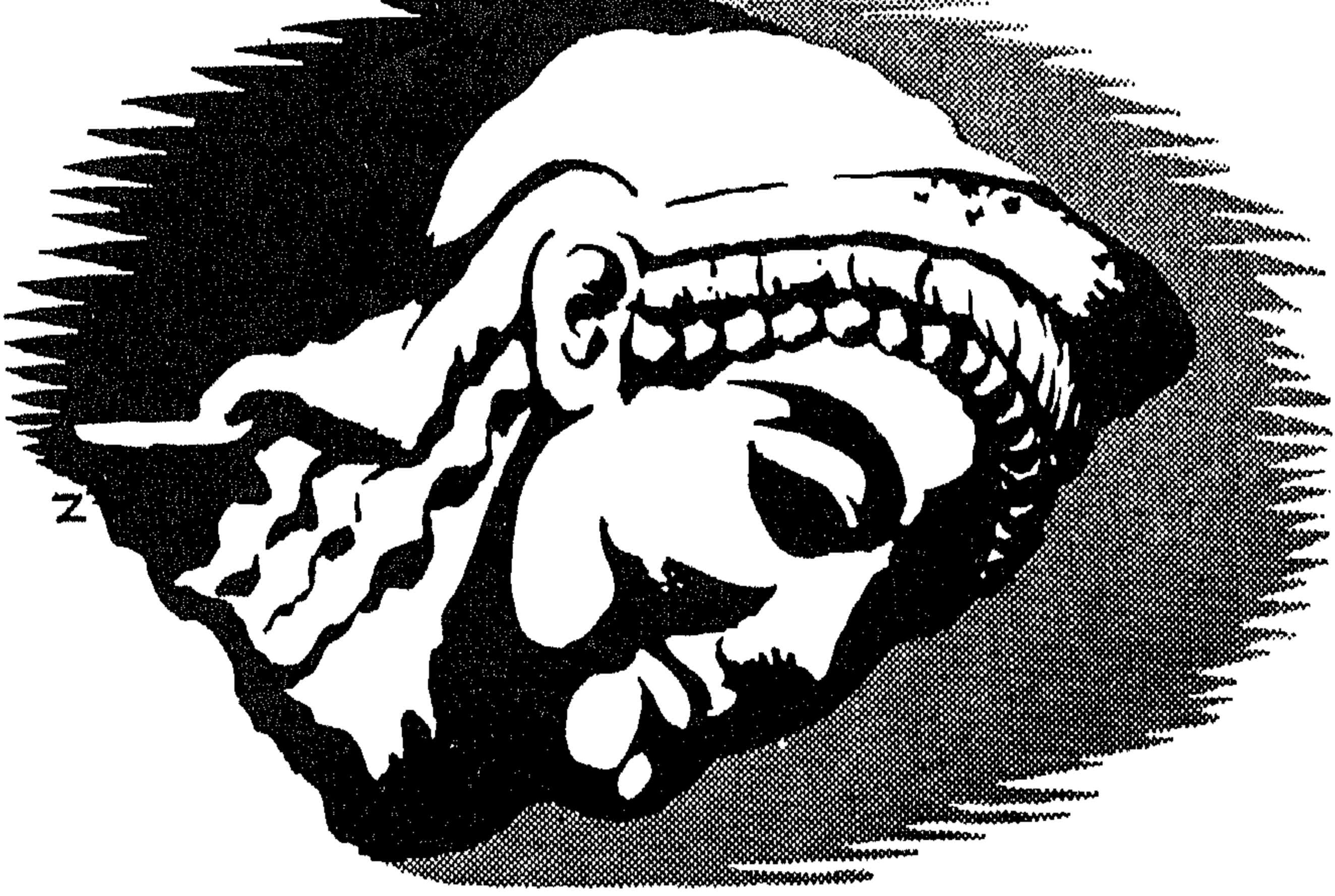
٥٧٥	طه حسين
٥٨٤	محمد رفعت
٥٩٨	محمود تيمور
٦١٦	أ. ليقي بروفسال ..
٦٢٤	سليمان حزين
٦٣٨	عبد الرحمن صدق
٦٣٩	جميل صدق الزهاوى
٦٤٧	سلامه موسى
٦٥٥	محمد مفيد الشوباشى
٦٥٦	إتيامبل
٦٦٠	حسن محمود
٦٧٤	مراد كامل
٦٨٣	مارسيل أرلان
٦٨٨	محمد عبده عزام
٦٩٩	نذير الحسامى
٧٠١	عباس أحمد

من هنا وهناك (جمال الألوسى - عبد العزيز القوصى)

شهرية البيئاسة الدولية - شهرية المسرح والسينما - من كتب الشرق والغرب
من وراء البحار - ظهر حديثاً - فى مجلات الشرق - فى مجلات الغرب



تصدرها دار الكاتب المصري
شركة مساهمة مصرية
القاهرة



من أبطال الأساطير اليونانية

أوديب * ثيسبوس

تأليف أندريه جيد
ترجمة طه حسين

صديق أندريه جيد

سمعتك تقرأ لنا قصتي «أوديب» و «ثيسبوس» فعرفت الحنان الخاص الذي تؤثرهما به . ومن أجل هذا علمتهما العريضة ليلغا إلى قراء الشرق رسالتك التي هي ثقة وشجاعة واستبشار . وسيشهدان كذلك بما أضمر من إعجاب بك قد أصبح منذ التقينا وداً كريماً .

طه حسين

الثمن ٢٥ قرشاً
البريد المسجل ٤٤ مليماً وللخارج ٥٦ مليماً



كتابان
في مجلد واحد

يوسف كرم

مدرس بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول

ناتج الفلسفة الأولى في العصر الوسيط

كتاب يقع في ٢٦٨ صفحة

الثنى ٥٠ قرشاً (البريد المسجل ٥٦ ملياً وللخارج ٦٨ ملياً)



الكاتب المصري

مجلة أدبية شهرية

رئيس التحرير : طه حسين
سكرتير التحرير : حسن محمود

تصدر مجلة الكاتب المصري في أول كل شهر عن دار الكاتب المصري ، شركة مساهمة مصرية ، وتطبع بمطبتها .

الاشتراك

١٠٠ قرش في السنة لمصر والسودان ،
١٢٠ قرشاً في السنة للخارج أو ما يعادلها .
يدفع الاشتراك مقدماً باسم دار الكاتب
المصري . لا تقبل الاشتراكات لأقل من
سنة كاملة .

نمن العدد بمصر : ١٠ قروش

مجلة الكاتب المصري تعنى بكل
ما يرد إليها من المقالات والرسائل
ولكنها لا تلتزم نشرها ولا ردها

إدارة الكاتب المصري

٥ شارع قنطرة الدكة بالقاهرة

تليفون التحرير : ٤٩٢٥٤

الإدارة : ٤٥٠٣٤-٤٧٨١٥-٥٤٢٧٣



AL KATEB EL MASRI

Monthly literary magazine published
by LE SCRIBE EGYPTIEN S.A.E.

5 Kantaret el Dekka Street

Cairo (Egypt)

Editor-in-chief : Taha Hussein

جميع الحقوق محفوظة لدار الكاتب المصري

الكاتب المصري



يناير ١٩٤٧

صفر ١٣٦٦

مجلد ٤ — عدد ١٦

السنة الثانية

ما وراء النهر^(١)

والقراء بالطبع ينتظرون أن أرقى وأن يرقوا معي في صحبة الشاعر إلى القصر لنرى صاحبه العظيم في مكتبته ذاك الذي اتخذ لنفسه سجنًا منذ آخر الليل . ولكني لن أفعل ، ولن يفعلوا ؛ فهم لا يستطيعون أن يدخلوا القصر ، ولا أن ينظروا إلى أبهائه الفخمة وأثاثه المترف الجميل ، إلا إذا أتحت أنا لهم ذلك . فالربوة كلها بما عليها ومن عليها ، والقصر كله بما فيه ومن فيه ، سر من أسرارى أبيع منهما للقراء ما أشاء ، وأخفي منهما على القراء ما أشاء ، ليس لهم أن ينازعوا في ذلك أو ينكروا منه شيئاً . وقد أزمعت ألا أرقى معهم إلى القصر ، ولا أبقى معهم على الربوة استجابة لأصل من أصول الفن كما أراه أنا ، لا كما يراه النقاد . فلو قد رقيت معهم إلى القصر أو بقيت معهم على الربوة لاتصل الحديث اتصالاً يوشك أن يكون مملاً ؛ لأنه يضرب بهم وبى في هذه الحديقة الفيحاء ، وهذا القصر الفخم ، بين ألوان من الترف وفنون من الحياة الناعمة ، قد يكون وصفها رائعاً ، وقد يكون العيش فيها ، ولو أثناء الأحلام وفي ظل الخيال ، محبباً إلى النفوس ، ولكنه يُمل إذا اتصل ويسم إذا طال . وليست الحياة ترفاً كلها ولا زينة كلها ، وليس العيش الواقعي أو الخيالي يكسب قيمته من البهجة التي يسبغها الجمال على هذا المنظر أو ذاك من مناظر الطبيعة ، وعلى هذا المظهر أو ذاك من مظاهر الناس . فلهذا كله قيمته ، ولكن للقبح قيمته أيضاً ، وهي ليست أقل من قيمة الجمال شأنًا ولا أهون منها خطراً ، ولعلها أن تكون أدعى

(١) الكاتب المصري عدد ١٤ و ١٥ (نوفمبر — ديسمبر ١٩٤٦) .

إلى المنفعة ، وأبلغ أثراً في إصلاح النفس ، وتقويم الخلق ، وتصويب الحكم على الأشياء . ولست أدري ! هل تعمق ابن المعتز معناه ذلك الذي أوجزه في البيتين المشهورين :

قلبي وثاب إلى ذا وذا ليس يرى شيئاً فيأباه
يهم بالحسن كما ينبغي ويرحم القبح فيهواه

ولكن الشيء المحقق أن القبح خليق أن يعشق وأن تصبو إليه النفوس ، وتقف عنده العقول ، ويستقصي دقائقه الكتاب والمفكرون . وما أظن أحداً يجادل في أن نصيب القبح من حياة الناس أعظم من نصيب الجمال ، كما أن نصيب البؤس من حياتهم أعظم من نصيب النعيم . فالكتاب الذين يُعَنَوْنَ بالجمال والنعيم وحدهما ، ويُعرضون عن القبح والبؤس ، إنما يعنون بأيسر الحياة ويعرضون عن أكثرها ؛ فهم يعلمون ويعلمون الناس ظاهراً من الأمر ، وهم يجهلون ويجهلون الناس بحقائق الأمور وبواطنها .

وأنا بعد هذا كله لا أريد أن أصرف نفسي وأن أصرف القراء عن جمال الربوة والقصر ؛ لأنني كلف بالقبح مشغوف بالبؤس ، وأريد أن أشرك القراء فيما أجد من كلف وشغف ؛ وإنما هي طبيعة الأشياء ومنطق الفن وضرورة الحياة ، كل أولئك يقتضي أن أدع الربوة وقصرها حيناً ، وأن أصحب القراء إلى مكان ليس له حظ من جمال ، وليس لأهله نصيب من نعيم .

فقد رأينا فيما مضى من هذا الحديث أن هذه الربوة الرائعة لا تقوم وحدها على شاطئ النهر ، وإنما تقوم في أسفلها قرية بائسة وضيعة يعيش فيها قوم بأسوأ متضعون . فهذه القرية لم تنشأ عبثاً ، ولم تقم في أسفل الربوة بغير غاية ، وإنما هي مكحلة للربوة . وإن شئت فقل إن الربوة مكحلة لها ؛ فقد اختلط الأمر على حقاً ، فلست أدري أيهما يتم صاحبه ، أيهما الأصل وأيهما الفرع . فهذه القرية هي التي تستغل الأرض وتستثمرها ، وتستخرج منها هذه الثروة الضخمة التي تتيح لأهل الربوة أن ينعموا وأن يترفوا ، وأن يستمتعوا بهذه الحياة الحلوة الفارغة ، وتتيح للربوة نفسها أن تزدان بمجملها هذا الرائع الخلاب . فلولا أهل القرية البائسون ما ارتفعت الأشجار في السماء ، ولا انبسطت الأزهار فوق الأرض ، ولا انتشر العشب على هذه الأرض كأنه البسط من السندس والحريز ، كما

يقال ، ولا أتيحت لأهل الربوة هذه الصغار التوافه اليومية التي لا تستقيم بدونها حياة للمترفين وغير المترفين . فالقرية إذن هي الأصل ، وليست الربوة إلا ثمرة من ثمراتها وأثراً من آثارها . ولكن واقع الأمر الاجتماعي غير هذا كله ؛ فقد استقر في نفوس أهل الربوة ، أنهم السادة المالكون ، وأن أهل القرية هم العبيد المملكون ، كما استقر ذلك في رؤوس أهل القرية أنفسهم ، وكما استقر ذلك في القوالين المكتوبة والنظم الشائعة . فأننا إذن معذور إذا اختلط الأمر على فلم أدر أتكون الربوة أصلاً والقرية فرعاً ، كما يريد النظام وتريد القوانين ، أم تكون القرية هي الأصل والربوة هي الفرع ، كما تريد الحقائق الثابتة التي لا يبلغها جدال أو نزاع . وإذا كان غني زيد يكون لفقر عمرو ، كما يقول أبو العلاء ، فقد لا نخطئ إذا عكسنا القضية وقلنا إن فقر عمرو يكون لغني زيد . وسواء أكانت القرية أصلاً أم فرعاً ، فإنها قد وجدت في أسفل الربوة ، ولم توجد عبثاً . فلا بد من أن نهبط إليها وإن كرهنا ذلك ، ولا بد من أن نقيم فيها وإن شق علينا هذا المقام . وأنا أريج القراء من مشقة هذا الهبوط ، فلا أسلك بهم تلك الطريق العريضة الطويلة التي تزدحم فيها السيارات مصعدة ومصوبة ، ولا أسلك بهم هذه الطريقة الضيقة التي يزدحم فيها الفلاحون على أقدامهم وعلى دوابهم مصعدين ومصوتين ، وإنما أبلغ بهم القرية من غير طريق ؛ لأنني أريد ذلك وأستطيعه ما دام الأمر إلى ، لا إلى أهل الربوة ، ولا إلى أهل القرية ؛ ولا إلى القراء . فالكتاب قديرون على شيء كثير إذا لم يفرضوا على أنفسهم ما يجب النقاد أن يفرضوا عليهم من القواعد والأصول .

نحن إذن في القرية في زقاق ضيق جداً لا يكاد يتسع لسعي اثنين أو ثلاثة إلا أن يتقدم بعضهم بعضاً شيئاً ما ، لتجد أقدامهم موضعها من الطريق . والزقاق قدر أبشع القذارة وأشنعها ، ترى العين فيه كل ما تكره ، ويشم الأنف فيه كل ما يكره . قد عاش أهله عيشة البؤس والضر والإهمال ، لم يُعْنَوْا بصحتهم لأن أحداً لم يعلمهم أن الصحة شيء يعنى به الناس . ولم يعنوا بنظافتهم لأن أحداً لم ينبئهم بأن النظافة شيء يستجب ولأنهم لو أحبوا النظافة واثمسوها لما وجدوا إليها سبيلاً ، قد قصرت أيديهم عن وسائلها وأدواتها قصوراً تاماً ، فهم يعيشون كما يستطيعون ، قد اختلط رجالهم ونسائهم وأطفالهم وحيواناتهم ودوابهم اختلاطاً بشعاً بغيضاً . وقد رأيت ما ينشأ عن هذا الاختلاط من الشر والنكر والفساد .

وفي أعماق هذا الزقاق دار منخفضة ليست عظيمة السعة ، ولكنها على كل حال أوسع مما يجاورها من الدور قد انخفض بابها فلا يستطيع الإنسان أن يدخلها معتدل القامة إلا أن يكون قزماً أو طفلاً ، فأما إذا تجاوز القصر إلى شيء من الطول فلا بد له من أن ينحني ليلج من هذا الباب . وهو إذا تخطى عتبة الدار وجد نفسه في فناء له شيء من عمق قد ارتبط فيه حمار وانطلقت فيه دجاجات ، وارتفعت في بعض جوانبه مضطربة صغيرة ضيقة ، جلس عليها رجل قد تقدمت به السن وأدركه الضعف ، وكاد سمعه يثقل فهو لا يفقه ما يلقي إليه من حديث إلا أن يرتفع به الصوت ، وكاد بصره يذهب فهو لا يرى إلا أقرب الأشياء إليه ولا يراه إلا في قليل من الوضوح . وبين يدي هذا الرجل نعال قديمة قد تخرقت وأدركها البلى ، وقطع من الجلد الرقيق والغليظ وأدوات يعمل بها في هذا الجلد وفي تلك النعال . وهو مطرق إلى جلده ونعاله وأدواته ، تعمل يده أحياناً في ترقيع نعل أو إصلاحه وتكفان عن العمل أحياناً ولكنهما لا تسكنان حين تكفان عن العمل وإنما تعبثان بما أمام الرجل من جلد ونعال وأدوات .

وقد يأخذ الرجل قطعة من الجلد بكتا يديه يشدها إلى يمين ويشدها إلى يسار ، وقد يضع طرفاً من أطرافها في فمه كأنه يريد أن يقضمها ، وهو لا يريد قضمها ولا التهامها ، وإنما يريد أن يمتحن متانة الجلد ، فهو يمسك طرفاً منه بما بقي من أسنانه ، ويمسك طرفيه الآخرين بيديه ، وهو يشد إلى هذه الجهة وإلى تلك ليستيقن أن هذا الجلد متين صالح لترقيع هذه النعل أو تلك . والرجل في أكثر أحواله صامت كملتكم ومتكلم كالصامت ، لا يوجه إلى أحد حديثاً ، ولا يكاد يجيب إن وجه أحد إليه الحديث ، ولكنه على ذلك متحرك الشفتين دائماً متقلب اللسان في الفم دائماً ، يغغم بألفاظ لا يسمعها إلا هو والذين يدنون منه أشد الدنو . وهذه الألفاظ غامضة مختلطة ، فهو أحياناً يتحدث إلى جلده ونعاله يصف رثائتها ومتانتها وحاجتها إلى الرق والإصلاح ، وأحياناً يتحدث إلى أدواته يصف مضيها وكلاهما وعجزها وقوتها ، وأحياناً يتحدث إلى نفسه فينشده محفوظات له من هذا الشعر العamy الذي تجرى به الألسنة وتسير فيه الحكم والأمثال . وعن يمينك وشمالك إذا تجاوزت عتبة الدار حجرتان ليس بابهما أقل انخفاضاً من باب الدار ، ولعلهما أن يكونا أدنى منه إلى الأرض . فإذا دخلت إحدى هاتين الغرفتين لم تجد فيها إلا حصيماً قد ألقى على الأرض ، وصندوقاً حقيراً قد وضع في زاوية من

زواياها، وجماعة من هذا الخبز العريض الرقيق المستدير قد رُصَّ بعضها إلى بعض وارتفعت في زاوية من زوايا الحجرة كأنها العمود، تأخذ منها الأسرة حين تريد أن تطعم، وماتزال تأخذ منها والعمود ينخفض ويتضاءل، حتى إذا دنا من الأرض عملت محبوبة صاحبة الدار على تجديده ورفعها، فكان إعداد الذرة وإشعال الفرن إلى جانب المصطبة التي يعمل عليها الشيخ، وانطلاق الدخان، ويضطر الشيخ في ذلك اليوم إلى أن يأخذ جلده ونعاله وأدواته ويجلس بها على الأرض أمام الدار. فإذا دخلت الحجرة الأخرى لم تر فيها إلا حصيراً قد ألقي على الأرض، وأغطية رثة قد ثرت هنا وهناك. فأما إحدى الحجرتين فقد كان يأوى إليها الشيخ الإسكاف، ولنسمه محموداً، وامراته محبوبة. وأما الحجرة الأخرى فقد كان يأوى إليها أبناء الدار وهم ثلاثة أكبرهم أحمد قد نيف على العشرين وكاد يبلغ الثلاثين، وهو فتى طوالٌ مظلم الوجه قوى الجسم قليل الكلام حائر الطرف لا تكاد عينه تستقر على شيء، ولا تراه الدار إلا حين تغرب الشمس وتتقدم الليل لأنه يعمل في الحقول. وأصغرهم عليٌّ لم يتجاوز الثانية عشرة بعد، وهو صبي قد أهمل أشد الإهمال، يلعب إن أتيح له اللعب، ويعمل إن أتيح له العمل، ويسرق إن أتيحت له السرقة. وبين هذين الإبنين من أبناء الدار خديجة هذه التي كادت تبلغ العشرين والتي لم يُدر من أين جاءت، ولا لاي أبويها يمكن أن يضاف جمال وجهها الرائع واعتدال قامتها الجميلة، وهذا الخمر الحلو الذي يصدر في دعة وهدوء وأمن عن عينيها الجليتين، وهذا الحياء العذب الذي يعرب عنه وجهها الهادي المطمئن، وثغرها الذي يريد أن يبتسم ولكنه يمتنع على الابتسام، وصوتها الممتلئ الرخيم الذي لا يكاد يتكلم إلا همساً، وحركاتها الرشيقة المترنة المعتدلة التي تدل على حياة قوية دافقة وعلى حياء شديد يمسك هذه القوة أن تندفع إلى أكثر مما ينبغي.

وهذه الفتاة الناعمة الغضة التي لا تلائم هذه الدار البائسة الخشنة، تعيش بين أبويها وأخويها عيشة صامته أو كالصامته، ساكنة أو كالساكنة، مقبلة في أكثر الوقت على مغزها تديره في إناة ورفق ودعة. فإذا كان موسم الحصاد خرجت مع أترابها من بنات القرية إلى الحقول فصيّفت، كما يقول أهل الريف المصري، مع المصيفات، وطابت مع الأصيل إلى أهلها بما التقطت من الحب المنتثر في الحقول. وإذا كان موسم القطن خرجت مع أترابها من بنات القرية، فشاركت في جني

القطن ، وعادت إلى أهلها مع الأصيل ، بما يتاح لها من أجر ضئيل . وقد رآها نعيم فيما يظهر مصيَّفة مع المصيفات أو جانية للقطن مع الجانيات ، فراقه منظرها الرائع في ثيابها الرثة ، فلما أطال النظر إليها اشتد إعجابه بها ثم ميله إليها ، فعاود المرور بالجماعة التي كانت تعمل معها ، ثم حاول الوقوف إلى هذه الجماعة ، ثم حاول الحديث اليسير إلى هؤلاء العذارى ، وكان من شأن هذا كله أن يزيد إعجابه بهذه الفتاة وميله إليها وطمعه فيها ، وكان لحظ الفتاة وصوتها هما اللذان وقعا من نفس نعيم أغرب الوقع وأعظمه وأعمقه في نفسه أثراً ، حتى كتب في دفتر يومياته يقول : « أوشك أن أظن بنفسى الجنون ؛ فأني لا أنطلق في الحقول ولا أتتزه في الحديقة ولا أخلو إلى نفسى في غرفتى إلا رأيت عيناً ساحرة فاترة تنظر إلىّ في أناة وخفر ، فتنفذ إلى أعماق نفسى وتلدع قلبى لدعا أليماً . وأنا لا أكاد أخلو إلى نفسى في غرفتى أو خارج غرفتى ، في القصر أو بعيداً عن القصر ، إلا سمعت صوت هذه الفتاة يبلغ أذنى حلواً رقيقاً رقيقاً ، ثم يصل إلى نفسى فيحدث فيها نشوة لا أشبهها بالطرب الذى تحدثه الموسيقى ، وإنما أشبهها بالنشوة التى تحدثها الخمر . لقد استأثرت هذه الفتاة بنفسى . وما أرى أن الأمر سينتهى بينها وبينى كما تعودت الأمور أن تنتهى بينى وبين أترابها من حسان الريف . » والقراء يعفوننى دون شك من أن أصور لهم ما كان بين نعيم وخديجة من قرب وبعد ، ومن دنو ونأى ، ومن هذه المحاولات الكثيرة المعقدة التى ينسج الحب خيوطها بين المحبين في أناة ومهل ، ثم فى اندفاع وعجل ، ثم يأخذهم فيها كما تؤخذ الطير فيما ينصب لها من الشراك .

القراء يعفوننى من تصوير هذا كله ؛ فهم يعرفونه حق المعرفة ، يقرءونه فى القصص وفى شعر الشعراء ، ويمجده كثير منهم فى أنفسهم ويسمعونه فيما يدار عليهم من الحديث . وهم بعد هذا يستطيعون أن يصوروا نشأة هذا الحب بين خديجة ونعيم كما يشاءون ، لا جناح عليهم فيما يبتكرون من صور وما يخترعون من أحداث ، فكل هذا لا يعنينى ولا يعنى القصة فى كثير أو قليل ، وإنما الذى يعنينى ويعنى القصة ويعنى القراء هو أن هذين الفتيتين قد وقعا فى شرك من أشراك الحب ، فاضطربا فيه قليلاً أو كثيراً يحاولان أن يخلصا منه وأن يعودا إلى الأمن والحرية وفراغ البال . ولكن إفلات العاشقين من أشراك الحب ليس أقل عسراً من إفلات الطير من أشراكها حين تقع فيها . فقد كان إذن ما لم

يكن بد من حدوثه ، ونظر الفتى المترف الغنى القوي الموفور فإذا هو أسير لخديجة بنت محمود الحذاء .

ونظرت الفتاة البائسة اليائسة المطمئنة إلى بؤسها ويأسها ، فإذا هي مولجة بحب هذا الفتى ، الفتى المترف الغنى القوي الموفور . وكان الفتى يخلو إلى نفسه فيلقى نظرة من أعلى ترفه وشرفه ورغناه إلى بؤس خديجة ويأسها وإعدامها ، فيأخذها شيء يشبه الدوار ، كيف هبط من أعلى عليين إلى أسفل سافلين ! وكانت الفتاة ترفع بصرها من أحماق يأسها وبؤسها وإعدامها في دارها تلك الحقيرة الفقيرة ، إلى هذا القصر الشاهق على هذه الربوة الشاخنة ، فيأخذها شيء يشبه الدوار حين تفكر في أن الحب قد وثب بها إلى ذلك الفتى المترف الغنى القوي الموفور . ولكن الناس جميعاً يعلمون أن الحب لا يحتقر شيئاً كما يحتقر الرفعة والوضعة ، ولا يسخر من شيء كما يسخر من تفاوت المراتب والطبقات . وهو قد هبط بالفتى إلى الفناء أو صعد بالفتاة إلى الفتى ! لا أدري ولكنه جعل كلاً منهما لصاحبه سيداً وعبدًا . وقد انتهى أمر هذا الحب إلى أبوى نعيم ، فابتسما له أول الأمر ، لم يريا فيه إلا لونا من عبث الشباب وسخرا منه بعد ذلك ، لم يريا فيه إلا شيئاً من الجموح في العبث ، وضاقا به بعد ذلك ، رأيا فيه غلواً من الفتى في هذا الجموح وصارفاً له عما يليق بمثله من الطموح إلى العنايم من الأمر ، وأخذوا ينصحان للفتى في رفق ، ثم في عنف ، ثم في إلحاح . ولكن أبا الفتى غلا في إلحاحه وسخطه حتى انتهى الأمر إلى ما علمت . وانتهى أمر هذا الحب إلى أم خديجة ، فانتسمت له ابتساماً مرّاً ، وفرحت به فرحاً حزيناً ، وهمت أن تكفّ ابتها ، ولكن نصدها لم يغن شيئاً ، وهمت أن تكتم الأمر على الشيخ الحذاء ، ولكن ان النساء لا يحب أن يستقر في أفواههن ، وهم الشيخان أن يكفّ الفتاة ، فلم لم يبلغا شيئاً تواميا بكتمان الأمر على ابنيهما الفتى لأنه كان عنيفاً مخوفاً . والأمر ينتهي إلى غايته ؛ وهذا نعيم قد فتن بخديجة إلى أبعد حدود الفتنة ؛ فهو يعدها ويمسّها ، وهو يرغبها ويغريها ، وهو يحتفظها آخر الأمر إن صحّ أن يكون سفرها إلى العاصمة اختطفاً ؛ فهي لم تكذب تدعى إلى السفر حتى استجابت للدعاء بسرعة واستعدت له متهاككة ، وارتفع الضحى ذات يوم فلم تَرَ الأسيرة خديجة ، وتقدم النار فلم تعرف من نبتائها شيئاً ، وقيل لأصيل فلم تعد معه إلى الدار ، وتقدم الليل فلم تعد ، وإنما عاد أخوها أحمد نائراً

يكظم ثورته ، وقائراً يكتم قورته . أقبل متجهما فلم يقل كلمة لأحد ، ولم يلق نظرة على أحد ، وإنما ألقى أدوات عمله في مكانها من الدار ، واندفع إلى حجرة أبيه فأخذ من صمود الخبز شيئاً التهمه التهاماً وهو قائم لا يقول شيئاً ولا يردُّ على أحد حديثاً . فلما التهم ما كان في يده من الخبز ألقى نظرة غاضبة على ما حوله ومن حوله ، ثم أدار ظهره ومضى صامتا لا يقول شيئاً ولا يلوى على شيء . قالت محبوبه لزوجها الحذاء في صوت مرتعد حزين : ما باله ؟ وما الذي عرض له من الخطب ؟ قال الشيخ في صوت هادئ ثابت يشيع فيه الحزن والغضب معا : افتقد أخته فلم يجدها ، وتراعى إليه بعض ما طوينا عنه من الحديث . قالت محبوبه : وإذن ؟ قال الشيخ : وإذن فهو يسعى في أثر أخته ، وما أدري ! لعله لا يعود .

والناس يتمنون ويسرفون في التمني ، والأقدار تعبت بهم وبما يتمنون . ذلك أن الناس لا يعرفون إلا أنفسهم وقليلاً مما يحيط بهم من الظروف ؛ فهم يدبرون ويقدرّون في دائرة ضيقة لا تكاد تتجاوزهم إلا قليلاً . وآية ذلك أن نعيما كان قد دبر أمره فأحسن تدبيره ، وقدّر خطته فأحسن تقديرها . لقد أحب الفتاة حباً لم يجرب مثله من قبل على كثرة ما جرب من العبت واللغو والحب أيضاً ؛ فهو مصمم على أن يحدث حدثاً ذا خطر وهو المترف الغنى القوي الموفور . سيهبط إلى هذه الفتاة اليائسة البائسة الفقيرة الحقيرة ، فيتخذها لنفسه زوجاً ويقسم بينها وبينه ما أتيح له من ترف وشرف وقوة وثراء . وهو قد قدّر غضب أبيه وعرف كيف يستعد للتخلص من أعقاب هذا الغضب . وهو قد قدّر ما بينه وبين الفتاة من اختلاف المنزلة وبعد الأمد ، وعرف كيف يستعد لإلغاء هذه المسافة البعيدة . أليس قد اختطف الفتاة فباعدها بينها وبين قريتها وبيئتها وأهلها ليخلقها في العاصمة خلقاً جديداً ؟ لقد دبر وقدّر وأحسن التدبير والتقدير ، واطمأن إلى أنه بالغ بحبه ما أراد له من الأمن والثقة ، ومن الدعة والهدوء . ولكنه لم ينس إلا شيئاً واحداً ، وهو أن لهذه الفتاة أخا في مثل سنه ليس مترفاً ولا غنياً ولا قوياً ولا موفوراً ، وهو من أجل ذلك حاقداً حانقاً ، قد ملأ السخط قلبه وملك الغيظ نفسه ، فرآه الناس إنساناً مثلهم يغدو ويروح ويعمل في الحرث والزرع ، ورأته الطبيعة شيطانياً مريداً ينتظر أن تتاح له الفرصة ليملأ الأرض من حوله شراً ونكراً . وقد أتيحت له الفرصة ؛ فهذه أخته التي

كان يحبها وحدها من دون الناس ويؤثرها بقلبه كله ونفسه كلها ، قد غوت وهوت . أغواها ذلك الفتى المترف الغنى القوي الموفور . وإذن . . . وإذن ففي نفس الوقت الذى انصرف فيه نعيم عن الشاعر فرحاً حزيناً ومسروراً كئيباً ، ونهض الشاعر فيه مسرعاً يرقى إلى القصر ليلقى صاحبه فى مكتبه ذاك ، فى نفس هذا الوقت وقبل أن يصل الشاعر إلى صاحب القصر يستفيض فى القرية الفقيرة الفقيرة البائسة نبأ يملؤها خوفاً وروعاً ؛ فقد لحق أحمد بأخته فى العاصمة وقتلها وأسلم نفسه للشرطى معترفاً بأنه اقترف هذا الأيثم دفاعاً عن عرضه المكشوم .

فلندع القرية تتسامع بهذا النبأ وتتبادل الحديث فى تفسيره وتأويله ، ولندع الأبوين وقد أخذتهما الصاعقة حين أتاهما هذا النبأ ، ولندع مسرعين فنصعد إلى الربوة من أقصر الطرق المؤدية إليها ، فسرى الشاعر قد ارتقى سلم القصر . ولم يكده يبلغ البهو الأول من أبهائه حتى رأى نفسه فى مرآة هناك ، ورأى أنه معتدل القامة يمشى على اثنتين ، فما أسرع ما ينحنى على العصا ، وما أسرع ما يدور فى رأسه هذا البيت كأنه يسمعه من صاحب القصر :

وتقول بوزع قد دببت على العصا . هلاً هزئت بغيرنا يا بوزع

طه حسين

ينبأ

مشكلة الهند

تنص المادة ٧٦ من قانون هيئة الأمم المتحدة — وهي المادة الخاصة بنظام الوصاية — على : « أن تكون الأهداف السياسية لنظام الوصاية هي ترقية هذه الأقاليم وشعوبها في النواحي السياسية . . . واطراد تهيئتها للحكم الذاتي أو للاستقلال . . . » وفي الماضي القريب نصت المادة الثانية والعشرون من ميثاق عصبة الأمم على : « أن يكون الغرض الأساسي من الانتداب سعادة الشعوب المحكومة وترقيتها ، حتى تستطيع هذه الشعوب النهوض بنفسها والوقوف على قدميها » .

وفي الحالتين لم تشأ الدول أن تنص على أقصى زمن تستغرقه الشعوب المتدول بأنها قاصرة في اجتياز مرحلة الانتداب أو الوصاية أو الحماية أو الاستعمار . فقد ظلت إنجلترا مثلاً تحكم في الهند — إما حكماً مباشراً أو بواسطة شركة الهند الشرقية الإنجليزية — نحو قرنين من الزمان ؛ ومع ذلك فما هي ذى إنجلترا اليوم وقد أملت عليها الظروف ضرورة تسليم أهل الهند زمام الحكم في بلادهم ، تتلفت يميناً ويساراً باحثة بدون جدوى عن الهيئة التي أعدتها للحكم والاستقلال ، فلا ترى أمامها ولا يرى العالم كله في الهند سوى طوائف تقتتل ، ومعارك شعبية تستمر ، وشيع وجاعات متنافرة متطاحنة تكاد من عنف انقسامها على نفسها تجر البلاد وأهلها إلى حرب أهلية جاححة لا تبقى ولا تذر . وتسأل عما فعلته الحكومة المتفوقة طوال هذين القرنين ، فيكون جواب بعضهم أنها سياسة « فرق تسد » التي سارت عليها حكومة المستعمرين ، ويقول آخرون إن الذنب ليس ذنب الحاكم وإنما هو ذنب الهنود أنفسهم ؛ فهم بحكم اختلاف أجناسهم ولغاتهم وملهم لا يصلحون للحكم القومي الموحد . وقد يكون بعض هذا أو ذاك صحيحاً ، ولكن الشيء المؤكد الذي يؤيده الواقع

هو أن الحاكم الأجنبي مهما خلصت نياته واستنارت سياسته ، ومهما أوتي من الاستعداد الإداري والفني ، فإنه ينساق حتماً بتحكم المنطق وبقوة غريزة الأثرة والدفاع عن النفس إلى قمع الروح الوطنية أو القومية في البلاد التي يحكمها ، وإرجاء إصلاحها سياسياً ، حتى يرغم على ذلك إرغاماً ، إما بالثورة من جانب المحكومين ، وإما انصياعاً لعوامل القلق على مصيره في أوقات الحروب أو حين يستشعر خطر الحرب .

ولقد كانت الفكرة المتسلطة على الحكومات المستعمرة إلى زمن قريب أنهم ماداموا قد سبقوا غيرهم من الشعوب الضعيفة في ميدان الانقلاب الصناعي ، وتفتحت أمامهم سبل التجارة والاستعمار في أرجاء آسيا وإفريقية ، فإن تفوقهم في تلك البلاد لا بد أن يبقى إلى ما شاء الله . وفاتهم أن المعرفة ليست لها حدود أو حواجز ، وأن اختراع الطباعة وسرعة المواصلات الحديثة كانا كفيلين بتقل الآراء والبحوث والعدد والآلات إلى طلابها من مختلف جهات المعمورة ؛ فلم يكن هناك بذئ من انعدام الفوارق العقلية والثقافية مادام الدليل لم يقم بعد على أن عقول أهل البلاد المتفوقة أو استعداداتهم الفطرية ستبقى على مر الدهور أرقى من عقول سائر البشر ؛ حتى في الأمم العريقة التي كانت لها مدنيات وإمبراطوريات في الزمن القديم أو المتوسط ، ثم أصابها الضعف فترة من الزمن فاستكانت حيناً ثم أفاقَت وقامت تطالب من جديد بحقوقها المهضومة ، وتنافس مستعمراتها في الميادين التي كان لهم فيها تفوق ملحوظ .

لذلك ما كادت الآراء والمخترعات الحديثة تنتشر بين الناس في أواخر القرن التاسع عشر حتى تعاقبت الأحداث وتوالت النذُر بأن الشعوب المغلوبة على أمرها لا بد أن تنهض في يوم قريب وتقف على قدميها ، سواء أراد الحكام لها ذلك أو لم يريدوه ؛ لأن الحاكم إذا وقف أو توانى في الإصلاح استحثته من ورائه القوى التقدمية ؛ فإن العالم الحديث بعلمه واكتشافاته وتجاريبه في حركة دائمة دائبة يحس بها الناس جميعاً سواء منهم السابقون في المدنية والمتأخرون . ولقد أثبت المتأخرون في أوائل القرن العشرين تفوقهم في امتحان القوة الحربية والبحرية أمام أضخم دولة حربية في أوروبا إذ ذاك وهي روسيا ؛ إذ انتصر اليابانيون على الروس برّاً وبحراً في سنة ١٩٠٥ .

(وخرجت اليابان الآسيوية من الحرب في الصف الأول بين الدول العظمى)

وتهافتت عليها الدول الغربية تخطب ودها ، على حين نزلت سمعة روسيا الأوربية إلى الحد الذى عجل بتغلغل عناصر الثورة فى داخلها .

وكان انتصار اليابان على روسيا بمثابة ناقوس عظيم دق وجلجلت دقاته وسط هضاب آسيا وسهولها ، وترددت أصداؤه فى جنبات الشرق كله ، فأيقظت الشعوب المغلوبة الراقدة ، وملأت قلوب القوم ثقة بأنفسهم وأملًا فى مستقبلهم وعزيمة ماضية فى العمل لتخليص بلادهم من ذل الاستعمار ووصمة الحكم



الأجنبي . فى أوائل القرن العشرين قامت الثورة فى إيران وفى تركيا ، وقويت فى مصر الحركة الوطنية أثر حادث دنشواى ، فتألفت فيها الأحزاب الوطنية ونحى عن العمل لورد كرومر المعتمد البريطانى الذى سيطر على البلاد بقوة الاحتلال قرابة أربعة وعشرين عاما .

أما فى الهند فقد نشطت فى أوائل هذا القرن حركة المؤتمر الهندى الوطنى ، وقام الوطنيون ينقمون على الحكومة المستعمرة سياستها فى إغفال آلاف من

الوطنيين الذين تخرجوا في المدارس والجامعات ، وتركهم متعطلين بلا عمل في إدارات الحكومة أو الشركات ، حتى تضاعفت أعدادهم وعلت صيحاتهم ، وأصبحوا أداة صالحة طيعة للانخراط في سلك الجمعيات السرية التي تألفت للفتك بالمستعمرين والانتفاض على قوانين الحكومة .

وأولى الهيئات التي لها فضل إيقاظ الشعور الوطني في الهند المؤتمر الهندي الوطني الذي تألف في سنة ١٨٨٥ ، وكان الداعي له موظف إنجليزي متقاعد آثر البقاء في الهند وأسس جريدة أسماها « صديق الشعب » ، وأصدر في سنة ١٨٨٣ دعوة إلى الهنود يطلب فيها خمسين رجلاً وطنياً صادقاً يؤثفون حزبا سياسياً يبحث في كل ما يرقى بالهند إلى مصاف الدول المتمتعة بالاستقلال الذاتي . وكان غرضه من تأليف الحزب ، كما أوضح ذلك للحاكم العام ، أن توجد في البلاد هيئة تعبر عن مطالب المثقفين من الهنود ، وتتيح للوطنيين مجالاً حراً ينفسون فيه عما يجيش في صدورهم من آلام وآمال . وكان أول اجتماع للمؤتمر في بمباي سنة ١٨٨٥ ، وتآلف الحزب إذ ذاك من نحو سبعين عضواً كانوا النواة لتلك المؤسسة الوطنية الهائلة التي حملت رسالة الهند ورفعت علم الوطنية الهندية طالياً بين الشعوب . وهما هم أولاء أعضاء حزب المؤتمر يضطلعون اليوم بعد كفاح دام ستين عاماً بمصائر الهند ويمسكون بزمام الحكومة فيها .

وإزاء هذا التيار الوطني الجارف اضطرت الحكومة البريطانية إلى أن تجيب الهنود إلى بعض مطالبهم ، فعينت في سنة ١٩٠٧ عضوين هنديين بمجلس الهند الذي كان يساعد الوزير الإنجليزي المسئول عن شؤون الهند ، وكان أحدهما هندوكيا والآخر مسلمان . وفي سنة ١٩٠٩ صدر قانون بزيادة عدد الأعضاء غير المعيّنين بالمجالس التشريعية في الأقاليم ، وأصبح من اختصاص هذه المجالس بحث الميزانيات وإصدار قرارات بشأنها دون أن يكون لها حق إقرار الميزانيات أو رفضها . وكذلك زيد عدد أعضاء المجلس التنفيذي الذي يعاون الحاكم العام وعين به عضوان هنديان .

ومع ذلك ظل الشعور الهندي ناعماً وثائراً على المستعمرين . وكان الهنود كلما ازدادت ثقافتهم وارتفع مستواهم ازدادوا شعوراً بعار الاستعمار ، وقررت نفوسهم من الإنجليز الذين ترفعوا عن الاختلاط بهم وأنزلوهم منزلة دنيا في نظر الأجانب المقيمين في الهند وفي نظر الناس جميعاً . وقد أثار سخط

الهنود بصفة خاصة ما كان العمال الهنود يلقونه من عنف وإجحاف في جنوب إفريقيا . وكان من مظاهر هذا العنف الذي يلقونه صدور قرار في سنة ١٩١١ بمنع هجرة الهنود إلى ناتال . وقد رأى الهنود في كل ذلك استبداداً بهم وخنقاً لحريتهم وحقاً من كرامتهم ، فنشطت الجمعيات السرية ، وانتقل من أوربا إلى الهند سلاح القنابل ، فأخذ الطلاب يصنعونها ويتدربون على استعمالها ، واختاروا يوم الاحتفال بدخول الحاكم العام عاصمته الجديدة في دهلí بدل كلكتا في ديسمبر سنة ١٩١٢ ، فألقوا على الهودج الذي كان به الحاكم وقزينة فوق ظهر أحد القيلة ، قنبلة أصابت الحاكم فجرحته ، وأصابته حارسه فأردته .

ثم جاءت الحرب الكبرى فوقف الوطنيون كفاحهم مؤقتاً ، وانحازوا إلى جانب بريطانيا بحماسة تجلت فيما قدمته الهند للحرب من جهود ومال ورجال طوال مدة الحرب ، حتى بلغ مجموع ما أرسلته من الجيوش ٨٠٠٠٠٠ رجل محارب و ٤٠٠٠٠٠ غير محارب فضلاً عن مائة مليون جنيه تبرعت بها حكومة الهند ، وعما قدمته البلاد من مؤن وذخائر وأغذية .

وفي أثناء الحرب العالمية الأولى ظهر عاملان جديدان كان من شأنهما أن يمهدا الطريق لحركة الهند الوطنية الأخيرة . أما العامل الأول فهو إعلان فكرة الاستقلال الذاتي أو Home Rule وهو اصطلاح اشتقه الهنود من الحركة الارلندية . وكانت الجهود قبل ذلك متجهة إلى طلب زيادة اشتراك الهنود في المجالس والإدارات ، فأصبحت ترمى إلى الاستقلال الذاتي وتنادى به . وقد سارت في طليعة هذه الحركة مسز بيزانت Mrs. Besant وهي سيدة انجليزية غريبة الأطوار ، استخدمت استعدادها في الخطابة وقدرتها على تنظيم الأعمال في قيادة حركة هندية صرفة ، فرأست رابطة «الهوم رول» ، واختيرت في سنة ١٩١٧ رئيسة للمؤتمر الوطني . وكانت هذه الحركة هي التي مهدت لظهور غاندى ودعوته إلى استقلال الهند أو «سواراج» الذي صار فيما بعد «پرنا سواراج» أو الاستقلال التام .

أما العامل الثاني فهو ظهور الحركة الإسلامية واندماجها مؤقتاً في الحركة الوطنية . وذلك أنه لما دخلت تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا ضد الحلفاء ظن الهنود المسلمون في أول الأمر أن الحلفاء يتربصون بالخلافة الإسلامية الدوائر

مشكلة الهند

ويبيّتون لها أسوأ العواقب . ومع أن الحلفاء نجحوا إلى درجة ما في تهدئة مخاوف المسلمين في أثناء الحرب ، فإن هؤلاء ما لبثوا أن رأوا بعد الحرب كيف قسا الحلفاء على تركيا في فرض شروط معاهدة سيفر ، وكيف مزقوا أوصال الإمبراطورية العثمانية ، حتى احتلوا إسطنبول عاصمة الدولة حينذاك ، وأذنوا لليونان باحتلال منطقة المضائق ، واقتطاع جزء كبير مع فرنسا وإيطاليا من الأناضول . فثارت ثائرة المسلمين في الهند وقاموا بزعامة الأخوين شوكت ومحمد علي يؤيدون الحركة الوطنية في الاستقلال ، وكانوا قد دعموا هذا التأييد باتفاق المؤتمر الوطني والرابطة الإسلامية في مدينة لكنو في ديسمبر سنة ١٩١٦ على توحيد أهدافهم ، وأعدوا مشروعا للدستور حددوا فيه عدد المقاعد التي تخصص للمسلمين في هيئته التشريعية . وكانت تلك الحرب قد دخلت في مرحلتها الحاسمة الأخيرة ، فرأت الحكومة الإنجليزية أن تطمئن الرأي العام الهندي ، فصرحت رسميا بأنها تعزم أن تشرك الهنود بكثرة في جميع أعمال الإدارة ، وأن تهنيء البلاد تدريجا للحكم الذاتي ، ثم تؤلف حكومة هندية مسئولة داخل نطاق الإمبراطورية البريطانية .

ثم أعلنت الهدنة في سنة ١٩١٨ وأصاب الهند ما أصاب كافة البلاد المغلوبة على أمرها عقب الحرب الكبرى وإعلان مبادئ الرئيس ولسون الأربعة عشر؛ فقد اكتسحت البلاد موجة غضب وسخط شملت جميع الطبقات ، وقد ازدادت العاصفة عتوا على أثر صدور قوانين جديدة سنتها الحكومة لتحويل رجال الإدارة سلطات استثنائية للقضاء على أنصار حركة الاستقلال الوطنية . فساء الهنود أن تكون مكافأتهم بعد إحراز النصر أن يشدد عليهم الخناق وتوعد حرياتهم بمثل هذه القسوة ..

وفي وسط هذه العاصفة الجامحة ظهر غاندي يدعو الناس إلى الإيمان بقوتهم الروحية ، وإلى تطهير نفوسهم بتحمل الآلام والحرمان في سبيل بلادهم . وبذلك مزج غاندي عقيدة روحية قريبة إلى متناول العقلية الهندية بمذهب سياسي يلائم هذه العقيدة ، وهو خدمة البلاد من طريق العصيان المدني وعدم التعاون مع المستعمرين . وهذه الخطة وإن كانت جديدة مبتكرة في اعتبار السياسة قد كانت معروفة في إنجيل الثأرين في دوائر الصناعات والعمال ؛ فهي في حقيقة الأمر إضراب عن العمل ترجمه غاندي إلى السياسة الوطنية ، وقد عرفت

الاضرابات في عالم الصناعة في أوروبا وأمريكا منذ أواخر القرن التاسع عشر . وقد ساعد على نجاح هذه الحركة في الهند أنها لا تدعو إلى استخدام العنف . والهندوكيون بخلاف المسلمين في الهند أقوام سلبيون منطوون على أنفسهم لا يميلون بطبيعتهم إلى العنف . وقد تدرجت فكرة العصيان المدني من تمرد على القوانين الظالمة إلى عصيان عام ، حتى إذا وصلت الدعوة إلى عامة الناس خرجوا عن أطوارهم ولم يكبحوا جماح نفوسهم ، فقامت ثورة في البنجاب شبيهة بثورة مصر سنة ١٩١٩ إذ هاجم الثوار السكك الحديدية وعطلوا خطوطها كما قطعوا أسلاك البرق والتلفون . وبلغت الثورة أسوأ مراحلها في مدينة أمريتسار حيث اقترب رجال الحكومة جريمة سودت صحيفة الاستعمار في الهند ، إذ انتفض القائد العسكري للمنطقة على اجتماع للوطنيين كانوا قد عقدوه من غير ترخيص ، فأوجس القائد خيفة وأمر رجاله بمهاجمتهم فقتلوا من الوطنيين ٤٠٠ نفس وجرحوا ثلاثة أمثال هذا العدد . وكان هذا الحادث أول تدشين بالدم لسياسة عدم التعاون التي أعلنها غاندى ، وقد أصبح في سنة ١٩٢٠ رئيساً للمؤتمر الهندى وأسبغ عليه الشعب من القداسة ما أهله للقب « الماهتما » أو الروح الأعظم .

ولما استفحل أمر الاضطرابات في مختلف أنحاء الهند قبض على غاندى أول ما قبض عليه في مارس سنة ١٩٢٢ وحكموا عليه بالسجن ست سنوات ، ولكنهم أفرجوا عنه في سنة ١٩٢٤ وعاد رئيساً للمؤتمر ، ثم ترك العمل لإخوانه في المؤتمر وإكتفى هو بالإرشاد والإيحاء . وفي هذه الأثناء كانت البلاد تسير قدماً نحو أهدافها الوطنية ، فالجالس التشريعية قد أتاح الفرص لعدد من الوطنيين يشتركون في التشريع لبلادهم . وفي هذه الأثناء أيضاً نشطت حركة تحرير النساء الهنديات ، فبعد أن كن يفتخرن ببقائهن محجبات في بيوتهن ظهرت أولى زعيمات الهنديات السيدة نايدو الشاعرة وقد اختارها الهنود رئيسة للمؤتمر الوطنى سنة ١٩٢٦ ، وأخذ الرجال يصحبون زوجاتهم في مقابلاتهم ومجتمعاتهم ، وبدأت المرأة الهندية تقوم إلى جانب زوجها أو أخيها بنصيبها الفعال في النهضة والأخذ بيد المرأة الهندية التعسة .

وفي هذه الأثناء ظهر عامل قومى آخر على جانب عظيم من الأهمية ؛ ذلك أن في الهند عدداً كبيراً من الطبقات المنبوذة يحسبون من الهندوكيين وإن كانت اعتقادات الهنود الدينية والاجتماعية تحرم اختلاط الطبقات بالزواج أو بالمصاهرة

أو بالمخالطة في الطعام أو بالتحول من دين إلى آخر أو من مستوى اجتماعي إلى مستوى آخر . و يبلغ عدد هذه الطبقات خمس عدد الهندوكيين أو سبع مجموع سكان الهند . وأفراد هذه الطبقات لا يسمح لهم بالاجتماع مع الآخرين حتى في معابدهم كأنما فرض عليهم أن يبقوا مطرودين خارج النطاق الاجتماعي لذلك تحول كثير منهم إلى الإسلام أو المسيحية لكي يخرجوا من جحيمهم المقيم . وقام غاندي يدعو أتباعه إلى العطف على هذه الطبقات والتخفيف من القيود التي يرزحون تحتها منذ قرون . وقد جاء الدستور الأخير وفيه اعتراف بحق تمثيلهم في المجالس التشريعية ، وقد اختير واحد منهم في أثناء الحرب الأخيرة في المجلس التنفيذي للحاكم العام .

وفي سنة ١٩٢٩ كانت اللجنة التي ألفتها الحكومة الإنجليزية برئاسة سير جون سيمون لبحث دستور الهند تعمل جاهدة لدرس أحوال الهند واستطلاع آراء الزعماء وكبار الموظفين والمشتغلين بشؤون الهند ، بقصد الوصول إلى دستور صالح للبلاد . وكان الهنود قد قاطعوا اللجنة في أول حضورها إلى الهند ، ولكن اللجنة تابرت وذابت على العمل مدة ست سنوات . وفي أثناء ذلك عقد مؤتمر المائدة المستديرة في لندن سنة ١٩٣١ — ١٩٣٢ لدراسة موضوع الدستور ، واستدعى غاندي لحضور بعض جلساته ، ولكن المؤتمر لم ينته إلى نتيجة مرضاها ، فلما عاد إلى الهند تجددت الاضطرابات ، فاعتقل غاندي سنة ١٩٣٣ وأفرج عنه في السنة التالية ، وقد أعلن بعد ذلك اعتزاله للسياسة ، ولكنه بقي الملهم والمحرك لجهود المؤتمر الوطني إلى النهاية .

وأخيراً أعلن الدستور الحديث ، وهو أداة الحكم في الهند إلى الآن . وهاك موجزاً لهذا النظام :

بالهند نوطان من الولايات : ولايات تحكها بريطانيا وعددها إحدى عشرة ولاية مجموع عدد سكانها ٣٢٠.٠٠٠.٠٠٠ نفس من مجموع سكان الهند الذين يبلغون ٤٠٠.٠٠٠.٠٠٠ نفس ، وإمارات يحكمها أمراؤها الهنود من مسلمين وهندوكيين وعددها يبلغ نحو ستمائة . والولايات يحكمها حكام عامون تعين منهم حكومة جلالة الملك ثلاثة أكبر هذه الولايات وهي البنغال وبنجاب ومدراس . أما الولايات الثمان الباقية فيعين فيها من كبار موظفي حكومة الهند ، ومدة توليتهم خمس سنين . ولكل إمارة إدارة مستقلة لها جيشها ونظامها الخاص ماعدا الشؤون

مشكلة الهند

المالية والبوليس والعملة فهي متناسقة في أنحاء الهند جميعها ، وكذلك في القضاء العالي . وإلى جانب كل أمير مستشار ، أو مقيم عام في الإمارات الكبرى ، وضابط اتصال بريطاني في الإمارات الصغرى . وعلى الأمراء أن يستشيروهم ويعملوا بنصائحهم في العظيم من الأمور . والسيادة في هذه الإمارات جميعها للملك الإمبراطور . والحاكم العام للهند ، أو نائب الملك ، هو الواسطة التي تربط بين الولايات والإمارات ، وبين الأمراء والتاج البريطاني . وللأمراء جمعية تعقد سنوياً في دهلí عاصمة الهند برئاسة الحاكم العام للتداول في الشؤون المشتركة بينهم . ولكن كبار الأمراء مثل سلطان حيدر آباد المسلم ، وهي أكبر إمارة في الهند ، وسلطان ميسور ، وحاكم بارودا ، لا يحضرون هذه الاجتماعات والأمراء لا يلتزمون تنفيذ ما يصدر في هذه الاجتماعات من قرارات .

ولكل ولاية بريطانية هيئة تشريعية يعين بعض أعضائها بحكم وظائفهم ، وينتخب الآخرون وفقاً لقانون يحدد عدد الذين لهم حق التصويت . ومن الهيئات التشريعية الإقليمية يختار الحكام العامون وزراءهم . وللحكام حق الاعتراض أو القيتو ، أى لهم أن يقفوا تنفيذ القوانين التي تقرها الهيئات التشريعية والتنفيذية إذا كان في تنفيذها ضرر للصالح العام بحسب ما يراه الحاكم . والولايات حرة في أنظمتها ، وفي تعيين موظفيها ، فيما عدا الوظائف الكبرى .

والحاكم العام للهند أو نائب الملك هو الملاذ الأعلى للبلاد ، فالإليه يرجع الحكام العامون عند اختلافهم مع وزراءهم ، وييده وحده التصرف في شؤون الدفاع والخارجية والدين .

ويساعد الحاكم العام هيئة تنفيذية كانت مكونة في أثناء الحرب من ١٢ وزيراً منهم ثمانية من الهنود ، فأصبحوا في نهاية الحرب ١٤ منهم ٦ من الهندوكيين و ٥ من المسلمين و ٣ من الطوائف الأخرى . ورئيس هذه الهيئة التنفيذية نائب الملك ، ووكيله الآن هو الرئيس الهندي جواهر لال نهرو . وهناك جمعية تشريعية مركزية تتألف من ١٠٢ عضو منتخب و ٢٦ عضواً يعينون بحكم وظائفهم و ١٣ يختارهم الحاكم العام لتمثيل الطوائف الأخرى .

وينص النظام على أن تكون في البلاد هيئة تشريعية اتحادية تمثل جميع الهند . ولكن هذا النظام الاتحادي لم ينفذ لخوف الهنود من فقد سلطانهم .

من جهة ، ولاختلاف مصالح الطوائف الهندية في الأقاليم المختلفة من جهة أخرى .

وليس التامارات ملزمة باتباع النظام الدستورى الذى تسير عليه الولايات البريطانية ، ولكن بعضها ينفذه ، وتعتبر حكوماتهم نماذج طيبة للحكم الصالح . ولكن الوطنيين الهنود يكرهون نظام الأمرء بصفة عامة ويعتبرون حكوماتهم مناقضة للمبادئ الديمقراطية الاشتراكية التى يودون السير على منهاجها متى تسلموا زمام الأمور .

ولما بدى بتنفيذ النظام الدستورى الجديد فى سنة ١٩٣٥ اكتسح رجال المؤتمر الهندى الانتخابات فى ست ولايات من الولايات الإحدى عشرة ، ثم انضمت إلى المؤتمر ولايتان فصار له ثمانى ولايات والمسلمين ثلاث ، وكان أعضاء المؤتمر فى أول الأمر قد قاطعوا الحكم ورفضوا الاضطلاع بأعباء الوزارات فى الولايات التى فازوا فيها ، فتألفت فيها حكومات ائتلافية من عناصر الأقليات . وكانت حجتهم فى المقاطعة عدم رضاهم عن تمتع الحكام العاميين بحق الاعتراض ، فأصبح وجودهم بالمجالس التشريعية بمثابة احتجاج صارخ على النظام الدستورى القائم ، وخلقوا بموقفهم السلبي من الحكومات مشاكل ومتاعب لم تنته إلا فى سنة ١٩٣٧ حين رأى المعتدلون من أعضاء المؤتمر ضرورة الاضطلاع بالحكم فى الولايات التى لهم فيها الكثرة . وبقي المتطرفون من أعضاء المؤتمر خارج الحكم بممكنين بزمام الأمور من كشب فى اللجنة التنفيذية للمؤتمر ، وهى التى يطاتون عليها « القيادة العليا » ، وتضم مادة عناصر عرفت بشدة المراس والاستبداد فى الرأى ، وكلتها هى القانون عند الجميع . وعلى ذلك سنحت لرجال المؤتمر الوطنى فرص لإدخال إصلاحات شعبية كثيرة فى الأقاليم ، ولو أن المسلمين والبارسيين وغيرهم من طوائف الأقليات قد أخذوا عليهم أنهم فى الولايات التى تفوقوا فيها حابوا الهندوكيين وأقصوا المسلمين وغيرهم عن كثير من المناصب والمجالس ، وراعوا الثقافة الهندوكية فى المدارس ، وصبغوا بعض تشريعاتهم باللون الاشتراكى الأحمر .

ولما أعلنت الحرب الأخيرة فى سنة ١٩٣٩ تنحى رجال المؤتمر عن الحكم فى الأقاليم احتجاجا على أن الحكومة لم تستطلع رأيهم فى إعلان الحرب ، كما أنها لم تعلن صراحة عن أغراضها من الحرب ، ولم تقصص صما تعترمه بشأن استقلال

الهند . وفي الحال أعلن نائب الملك وقف دستور سنة ١٩٣٥ وماد الحكم
يضطلعون بجميع السلطات في الأقاليم .

ثم تخرجت الحال في الشرق الأقصى عقب دخول اليابان في الحرب في
ديسمبر سنة ١٩٤١ واتقضاها على سنغافورة وجزر الهند الشرقية وبورما .
وقد كان اليابانيون على مقربة من حدود الهند من الشمال الشرقي ، وكانت بيدهم
جزر أندمان في خليج بنغال على بعد مائتي ميل من ساحل بورما ، وكانت سفنهم
الحربية تجوب مياه ذلك الخليج ؛ ومع ذلك ظلت حكومة الهند وسط هذه
العواصف راسخة كالطود . وأرسلت الحكومة الإنجليزية في مارس سنة ١٩٤٢
الوزير الإنجليزي سير ستافورد كريس Stafford Cripps ليطمئن الهنود على
مستقبلهم ، ويعلن عزم إنجلترا على منح الهند نظام الدومنيون أو الحكم الذاتي
الكامل التي تتمتع به ممتلكات التاج البريطاني الحرة ، على أن يترك للهنود
أنفسهم أن يصوغوا الدستور الذي يوافق حاجات بلادهم بضمانات معينة .
فرحب الأمراء بالعرض البريطاني ، وأبى الوطنيون إلا أن يتولوا مقاليد الحكم
في البلاد بدون إبطاء . أما الرابطة الإسلامية فأعلن زعيمها السيد محمد علي جناح
رفضه لأي نظام اتحادي للهند ، وصرح أن الرابطة ترمي إلى تأليف وحدة
إسلامية باسم « باكستان » من الولايات التي كثرتها من المسلمين . ومن
ذلك الوقت اتسعت هوة الخلاف بين المؤتمر الهندي الوطني والرابطة الإسلامية .
وكان اليابانيون في أثناء تفوقهم في شرق آسيا قد أثاروا الشعور الوطني
أيما حلوا أو حل صنائعهم ضد الأوربيين والجنس الأبيض طامة ، ونادوا بأن
آسيا لن تكون في المستقبل إلا لأهل آسيا . وترددت أصدااء هذه اللدماية في
الهند ، فوجدت آذانا صاغية ، وقامت في يولييه ١٩٤٢ حركة جهاد وطنية بزمامة
بوز الهندي ، وكان على اتفاق مع اليابان والألمان على إعلان استقلال
الهند وضم الهنود إلى صفوف المحور . وقد سار وراء هذا الزعيم نحو خمسة
وعشرين ألفا من الهنود والأسرى الذين كانوا تحت أيدي اليابانيين . ولكن
الحكومة ما لبثت أن قمت الحركة بشدة ، فقبضت على الزعماء الهنود وأعلنت
عدم شرعية الهيئات الوطنية التي ينتسبون إليها ، وقتل في هذه الحركة نحو ٦٠٠
نفس وزج في السجون نحو عشرين ألفا من الهنود . أما زعيم الحركة فقد
استطاع الفرار على متن إحدى الطائرات المعادية .

ثم لم تلبث أن لاحت في الأفق بشار النصر لقوات الحلفاء ، فهدأت الحال في الهند ، وأعلنت الحكومة الإنجليزية بقاء الباب مفتوحا للمفاوضة مع الهنود بشأن قضية الاستقلال والدستور . واستمرت الهند تعاون الحلفاء حتى انتهت الحرب ، وبلغت خسائر الهند أكثر من ١٧٧٠٠٠ نفس منهم أكثر من ٢٣٠٠٠ قتلى . ولما تولت وزارة العمال الحكم في إنجلترا أرسلت بعثة إلى الهند مؤلفة من ثلاثة وزراء ، منهم سير ستافورد كريس ، لبحث مشكلة الهند مع نائب الملك والزعماء . واستقر الرأي في النهاية على دعوة جمعية تأسيسية تمثل جميع الهند لوضع دستور اتحادي للبلاد ، بشرط ضمان الخريات العامة للجميع وحقوق الأقليات . وتألفت بعد لاي وزارة انتقال ائتلافية ، يتولى فيها وكالة الرئاسة الزعيم جواهر لال نهرو ، وقد قبلت الرابطة الإسلامية أخيرا الاشتراك فيها ، ولكنها رفضت أن تشارك في الجمعية التأسيسية

وقد حاول مستر أتلي رئيس الحكومة الإنجليزية التوفيق بين نهرو والسيد جناح زعيم الرابطة الإسلامية ، فدعاهما في ديسمبر سنة ١٩٤٦ لزيارته بلندن ولكن ذلك لم يُجد شيئا . وإذا انتهت الجمعية التأسيسية من وضع دستور اتحادي للهند فأكبر الظن أن الحكومة الإنجليزية ستدعو الحكومة الهندية المنتظرة إلى عقد معاهدة معها توضح الروابط التي ستربط بين الدولتين في المستقبل .

وأوجه الخلاف القائمة الآن بين المعسكرين الهندوكي والمسلم أن رجال المؤتمر الهندي يدعون أنهم يمثلون كافة طوائف الهند بما فيهم المسلمون ، وأن بالمؤتمر أعضاء مسلمين ، وكان رئيس المؤتمر إلى وقت قريب زعيما مسلما هو مولانا أبو الكلام آزاد ، ويقولون إن انفصال أكثر من تسعين مليونا من الهنود المسلمين سيشل حركة الهند المستقلة في المستقبل ، وخاصة لأن الولايات المسلمة أكثر المشروعات الصناعية الكبرى الناجحة ، وبها أيضا القبائل المشهورة بقوتها واستعدادها الحربي ، فضلا عما في هذه الولايات من المدن العاصرة ومشروعات الري الكبرى والإنتاج الزراعي الوفير .

أما المسلمون فيقولون إنهم من جنس يخالف للهندوكيين ، وإنهم أمة قائمة بذاتها ، فلهم تاريخهم وتقاليدهم وسابق مجدهم وتفوقهم في بلاد الهند عدة قرون وإنهم جربوا حكم الهندوكيين في الولايات التي تألفت وزاراتها من أعضاء المؤتمر

مشكلة الهند

فقال المسلمون منهم عنت واضطهاد عظيمان ؛ فهم لذلك لا يستطيعون أن يضحووا بمصالح أكثر من تسعين مليوناً أو أن ينزلوا عن مصالحهم للهندوكيين بدلاً من الانجليز .

والحقيقة أن المسلمين والهندوكيين في الأقاليم الهندية جميعها يتغافل بعضهم في بعض ، وقد تأثروا جميعاً بالبيئة التي عاشوا فيها قروناً طويلة ، ومن المتعذر بل يكاد يكون مستحيلاً فصل الأقاليم المسلمة عن الأقاليم الأخرى ؛ فللمسلمين الكثرة في الشمال الغربي وفي الشمال الشرقي ، وبين الجهتين أقاليم شاسعة كثرتها من الهندوكيين ؛ وعلى ذلك يتعذر إيجاد وحدة أو صلة بين الأقاليم الإسلامية . ولا سبيل البتة إلى تبادل الأقليات كما فعلت تركيا واليونان ؛ فاليونانيون الذين انتقلوا من تركيا إلى بلاد اليونان لم يزدوا على مليون نفس ، أما المسلمون في الهند فعددهم تسعون مليوناً من الآنفس .

وهناك ، عدا الخلاف الطائفي ، مشكلات على جانب عظيم من التعقيد ، منها حال طبقات المنبوذين ووجود نحو ستة ملايين من المسيحيين الهنود والأوربيين ، فضلاً عن الفقر المدقع الذي يطحن عشرات الملايين ، وعن الجهل والمرض والمجاعات التي تهدد البلاد من آن إلى آخر .

يضاف إلى ذلك مشكلة اللغات وفي الهند منها مئات . واللغة الشائعة نوعاً هي الهندوستانية أو الأوردو ، وهي التي يستعملها المسلمون والهندوكيون ويكتبونها بالحروف العربية ومن اليمين إلى اليسار ، ويأبى الهندوكيون تداولها رسمياً اللهم إلا إذا كتبت بالحروف اللاتينية ومن اليسار إلى اليمين وهو أمر يعترض عليه المسلمون أشد الاعتراض . وحينئذ لا تبقى إلا اللغة الإنجليزية وهي اللغة التي يتقنها المتعلمون من الهنود كافة سواء منهم المسلمون والهندوكيون وهي اللغة التي يتفاهمون بها في اجتماعاتهم ومكاتباتهم . فهل يتفق مع الروح الوطنية أن تكون لغة المستعمرين هي اللسان القومي للحكومة الهندية الوطنية ؟

ولا ننس أن العالم كله متجه نحو الوحدة أو الاشتراك الاتحادي ، وقد جاهر كثير من السياسيين أخيراً بضرورة تأليف اتحاد أوربي من مختلف دول أوروبا على ما بينها من خلاقات فكيف يستساغ أن تنفصل طائفة كبيرة عن جسم الهند ، وأن تلتشق الأمة الواحدة إلى شعبين مستقلين ؟

ومع أنه ليس من عمل كاتب التاريخ أن يتكهن فإن له أن يقيس الأمور

باشباهما في التاريخ . ويبدو لي أن الحال في الهند لا تدعو إلى التفاؤل ؛ لأن الانقسام السياسي الواقع الآن يقوم مع الأسف على الخلافات الدينية ، وهي شر ما تنقسم على أساسه الشعوب . وستطور الأمور في الهند إلى شيء يشبه ما هو واقع في إيرلندا فكثرة السكان فيها تابعون لجمهورية إيرلندا الكاثوليكية وهناك في الشمال ولاية الستر البروتستنتية التابعة للتاج البريطاني . وتحاول الجمهورية الأيرلندية الآن أن تضم إليها إقليم الستر فلا تستطيع ذلك للخلاف الطائفي المستحكم بين القسمين . ويبدو أن الحال ستكون كذلك في الهند ولكن بمقياس أكبر كثيراً .

فالولايات الهندية ستؤلف اتحاداً بينها ينضم إليه كثير من الإمارات الهندية . وقد اقترح الزعيم نهرو أخيراً أن تقرر الجمعية التأسيسية إعلان الجمهورية تشبهاً بما فعلته إيرلندا ، وهي دائماً المثال الذي يحتذيه الوطنيون الهنود في سياستهم نحو بريطانيا ، وتبقى الولايات المسلمة ؛ فقد تحدث المعجزة كما حدثت في الماضي وتشارك في الاتحاد بضمانات يتفق عليها . وقد تشبث الرابطة بسياسة الباكستان كما يتضح من تصريحات الزعيم السيد محمد علي جناح . ويصعب أن تنفذ هذه السياسة بغير موافقة الحكومة الإنجليزية سرّاً أو علانية . فإذا تم ذلك أصبح الباكستان شوكة في عنق الدولة الهندية المرتقبة ورأس الرمح الذي تصيب به إنجلترا قلب الهند إذا ما استشرى الخطر .

محمد رفعت

يوم في نيويورك . . .

[في إبريل الماضي رحل الكاتب إلى أمريكا .
تقله إحدى الطائرات . وهو في هذا المقال يصور
مشاهداته ويسجل خواطره في اليوم الأول . يوم
هبطت به الطائرة في نيويورك . . .]

. . . تركنا الطائرة مهرولين .

واجترنا ممشى مظلاً كأنه عريش بستان ، ثم بلغنا مبنى المطار : حَجَر
وممرات تمتاز بالطابع الأمريكي ، ساذجة في جمالها وحسن تنسيقها . . . وحلنا
حجرة ليست بالفسيحة ننتظر ، وتفرق في جوانبها الرفاق جماعات مُشغلت كل منها
بشأنها ، ولبننا ننتظر ، وطال علينا الأمد ، فُلدنا بسلاحنا الماضي الكريم :
الثروة ننفي بها عن نفوسنا ملل الانتظار .

وكان يمر من بيننا أمريكي قسبي من موظفي المطار ، يخطو بين الجماعات مُخطأً
مترنة ، غير موجه نظره إلى أحد ، ولا يكاد يطويه الباب حتى يعود ثانية يذرع
الحجرة ويمجوس خلالها لا يعنيه من أمرنا شيء . وكان كلما ظهر تعلقته به أنظارنا
تستنجد به . وظل بين جيئة وذهاب على نحو أثار السخط والعجب . أفي شغل
عنا هو حقاً ؟ إن نين هؤلاء الموظفين من يُشبع بمثل تلك المظاهر الكاذبة
رغبات نفسه الطموح !

وأخيراً تعالى صوت ينادي أسماءنا . . .

ومثلنا لحظات قصيرة أمام الطبيب ، ذلك الفتى الفارع ، المشرق الوجه ،
يؤنسنا بابتسامة ترحيب ، ويعفينا من مضايقات الفحص والسؤال . . .
وتجمعنا في مقصف على الأسلوب الأمريكي أنيق رشيق ، تبلغنا فيه بأشتات
من الشطائر والفطائر ، واحتسينا أقذاح القهوة . . .

يوم في نيويورك . . .

وتمت إجراءات «الجرمك» على أيسر وجه ، حتى إنى راجعت نفسي في أمر هذه المؤسسة ، وبدألى أنها مؤسسة عظيمة جليلة الفائدة والنفع !
وانصرفنا عن «الجرمك» خلفنا الزوج يحملون حقائب المتاع ، وركبنا سيارة أجرة ذكرتنا بفخامتها وأناقها عربة الخيل التى طافت بنا أحياء باريس . . .

« وبضدها تتميز الأشياء » !

وأحسست مشاعرى تهتز وتهتاج احتياج مشاعر الطفل أمام جديد مستور بدأ يتكشف له .

وثارت بى ثورة تطلع وفضول ، فكنت أبصر النظرات حولى فى تعجل أخشى أن يفلت منى شئ ، فإذا بى يندب عن نظرى أعظم شئ . . . إنها رقعة من الأرض شاسعة ، خُصِّطت فيها طرق ممدودة معبدة تنتهيها السيارات اتهاها ، وإنها جسور عظيمة تعلو بنا وتهبط ، تتقاذفنا جسراً بعد جسر . ولكن أية جسور هذه ؟ أعلى الماء هى أم على أديم الأرض ؟ لا أكاد أتبين الأمر !

وبدأنا ندخل منطقة المباني ، فكلمنا أوغلنا فيها تكاثفت وتغالت . . . ورأينا الطرق تزدهم بالسابلة ، فأخذت سيارتنا تهدي من سيرها ، حتى ألقينا أنفسنا بين فواطح السحاب . وخيّل إلى أننا فى سفينة بدأت تجتاز خليجاً تقوم على جانبيه شوامخ الجبال !

إنه حقاً لشعور غريب ، ذلك الذى يستولى على المرء حين يشرئب بعنقه وهو يمر بين هذه الصروح الشاهقة . . . إن المرء ليخس نفسه قد تصاغر وتكتمش أمام تلك المدينة الماردة العاتية . . . فى لحظة واحدة تتجلى لنفسك عظمة أمريكا الجبارة . . . هذه الآطام العالية تركّز لك فى مظهرها حقيقة « أمريكا » بمدنيّتها ، ثروتها ، عقليتها ، نشاطها ، جاهها ، طموحها ، مظهر من ذلك كله وما بطن . . . هذه الآطام كأهرام مصر تحتزل لك فى مظهرها الرائع مدينة مصر الغابرة . . . إنها لتصنور لك فى لحظة دقائق تلك المدينة وأسرارها ، فتعلم جلياً أن القبر كان كل شئ فى مصر السحيقة ، فهو مستودع العلم والفن ونظام الحكم : الحى يعمل جاهداً فى إعداد دار قرار ، والميت ينعم به مثوى حتى تخين ساعة البعث والخلّاص . . .
ما أروع الحجارة الصامته فى الأيّانة والافصاح !

إنها باقية على الدهر ؛ إذا استلهمنا منها معالم الماضي فقد أَمِنَّا الزلزل والعتار
في تمثّل حياة الأقدمين . إنها لتكشف أدق خواج النفس البشرية ظاهرها
الواضح وباطنها الدفين !

هذه نواطح السحاب بقوامها الفارع تستعلّ ولا تنى تستعلّ ؛ فهي تفصح
لك عن مركّب النقص في النفس الأمريكية تكمن فيها نزعة تلك الأمة الفتية
الناهضة التي أصابت ثروة واقتداراً ومكانة لاتزاحمها فيها أمة أخرى على بساط
المعمور . . . نزعة كأنها تريد أن تصرخ قائلة للملأ :
— لستُ إلا أمة عظيمة زعيمة !

إنها لتحس أنظار البريطانيين مازالت ترمقها بنظرة إشفاق لا تخلو من حسد ،
نظرة الوصى الذي تفض يده من الوصاية على قاصره الذي بلغ سن الرشد ، ذلك
القاصر الذي ما فتى يذكر لوصيته ضروباً من القسوة والحرمان يعلو بهامته
اليوم متحدياً ، يريد أن يمد قامته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ، ليثبت أنه أصبح
نذاقاً قوياً لوصيته في الزمن السالف !

على أن الأمريكي والإنجليزي على الرغم مما بينهما من تنافس وتسايق ، تصل
بينهما وشائج وثيقة من لغة وعقلية وجنس ؛ فهما في المحنة يتساندان ويتآزران ،
ينسى كل منهما عهد الوصاية وما يدور حول تركتها من حزازات وأضغان !
وأثارني عن تأملاتي وقفة السيارة . . .

لقد بلغنا باب الفندق .

ودلفنا إلى الردهة الكبرى . وكان علينا أن نلبث حتى نتبّين أمر الحجرة
التي أعدت لنزولنا . ووقفت أتأمل الردهة المضاءة بالكهرباء ومن يختلف
إليها من الناس .

وراعتني المصاعد لا تهدأ لها حركة ؛ فهي دائبة الصعود والهبوط ، لاتكاد
تفرغ حمولتها حتى تغص بحمولة أخرى من تلك البضاعة البشرية الرائجة السوق
في هذا المكان . . .

وأخذت عيني زكناً رشيقياً ينيره ضوء جذّاب ، تمثّل لي مسرحاً يستهوى
أعين النظارة ، فتدائنت منه ، فتبّين لي أنه حانوت حوى طرفاً من كل شيء . . .
إنه سوق مصغرة تسعف كل طالب بما يطالب ؛ فمن لفائف تبغ ، إلى كتب
وصحف ، إلى حلوى أفانين ، إلى لعب وتلف وطرائف . فقصدت إلى معرض

يوم في نيويورك . . .

- الكتب أقلب فيه البصر . وما هي إلا أن بدا لي رجل في مستقبل العمر ، باش
الحيا ، وديع النظرات . فبادرني بقوله :
- طاب يومك يا سيدى . . . يلوح لي أنكم من نزلاء الفندق الجدد .
— قد منّا الساعة .
— أول زوارة هي لنيويورك ؟
— إنها أول زوارة لأمريكا كلها . . .
— من أى المواطن أتم قادمون ؟
— من القاهرة .
— حقاً إنها لشقة بعيدة قطعتموها . . .
— لم تستغرق رحلتنا أكثر من ثمان وأربعين ساعة .
فأخذ الرجل يحملق فينا دهشاً ، ثم مالبت أن ابتسم قائلاً :
— إنها لا إحدى معجزات الطيران . . . أرجو لكم إقامة طيبة .
— نشكر لك .
— لقد أحسنتم اختيار الفندق حقاً .
— إنه اختيار صديق كريم ، حجز لنا أما كننا فيه .
— لقد كفاكم مؤنة البحث ومشاعب الاختيار . يتعذر أن يجد القادم
سعة في فنادق نيويورك على كثرتها . . .
وتلفت أردد البصر حولي في الردهة ، فعاجلني الرجل بقوله :
— إنه فندق مريح على صغره . . . ست عشرة طبقة تحوى أربعاًئة حجرة .
— أصغير هذا ؟
— إذا قيس بكبريات الفنادق . . . ولكن موقعه يجعله ممتازاً ؛ إنكم
في الشارع الخامس والأربعين ، قلب المدينة الخفاق . . . خطوتان إلى الأمام
تسلمانكم إلى الشارع الخامس ، أعظم شوارع نيويورك بل سيد شوارع
العالم كله . . . خطوتان إلى الورا تسلمانكم إلى برودواى اكبر ملتقى
للملاهي وأفتن معرض للأنوار في العالم أجمع . . . موافق حظكم ، إن القنصلية
المصرية منكم عن كشب ، وكذلك دار البريد ، و . . .
وكانت يدى أثناء الحديث تعبت بالصف والكتب ، وتعلقت أناملى ببعض
المصورات الخاصة بالمدينة وطرقها ووسائل مواصلاتها . . .

يوم في نيويورك . . .

فانثنى الرجل يقول :

— حسن اختيار . . . هذه المصورات ستفتح لك أبواب نيويورك على مصاريحها ، فتجوس خلالها على هدى . . .

وما كدت أنقذه الثمن ، حتى سمعت غلام الفندق يقول :

— تفضلوا بالصعود إلى الحجرة .

فخيت صاحب الحانوت ، فودعني بقوله :

— إني في خدمتك كلما دعت الحاجة .

ودخلنا المصعد في حشد من الناس ، فإذا عاملة المصعد زنجية في لبوسها الرسمي ، تولينا ظهرها ، واقفة دائماً وقفتها الجامدة ، لا تعيرنا أى التفات . . . إنها ليست أكثر من أذن تصغى لمطالب الركاب ، ويد تتحرك إلى باب المصعد فتحا وإغلاقا . . .

وخطونا إلى حجرتنا . . .

مُهرَّوعٌ إلى الحمام ، لأطيح بتلك اللحية التي بدأت تطلع مع النهار ، وتعيث في الوجه فساداً . . .

وجعلت أعمل الموسيقى في ملل وفتور ، وأنا أهتمهم :

ربِّ لَمْ أَنْبِتْ في وجوهنا نحن الرجال هذه اللحية ؟ أو لَمْ تَرَكْتَنَا نهتدي إلى حلقها ؟

وما كدت أتم حديث نفسي البضائقة بهذه الدقائق ، حتى أحسنت أريج الطيب يفغم أنفي ، فرحت أخالس النظر ، فوجدت الحقيبة النسوية قد ثاءت ، فأطلت منها حقائق الأدهان والمساحيق ، وقوارير الطيوب والعطور ، تتلوها مناشف الوجه والمناديل والأمشاط ومشابك الشعر ورشباتها . . .

فزرت ببصري ، وعدت أتابع الخلق في همة ورضا ، وأنا أغمهم :

— حمدك اللهم على ما قسمت لنا . . . إنك بنا نحن الرجال رءوف رحيم ! ولم تمض غير لحظات ، حتى كنت قد فرشت من مهمتي ، وبدأت أنتظر إقفال حقيبة العطور والمساحيق ، إعلاناً لانتهاؤها مهمتها . . . ولكن بضع نظرات خاطفة أفهمتني أن الأمر ما يزال يتطلب مزيداً من الوقت . . .

إذن فلا أشغل وقتي بشيء . . .

لم لا أبدأ ارتياد المسكان الذي حملت فيه !

وقت أجول في الحجرتين الرشيقتين اللتين أعدتاً لتزولنا ... كل شيء أراه حولي يشعر بتوفير الراحة في سذاجة وبساطة ويسر، راحة ترتفع عن كلفة التنميق والزخرف .

وأخذت يدي تتحسس الأثاث ، ففتحت أول درج صادفني في الخواص المجاور للسريز ، فطالعتني فيه كتاب ضخيم نغم أسود الجلد ثمينه ... وقدّرت بادئ الرأي أنني أمام مجموعة من روائع شكسبير ، إنه يماثل طبقات تلك المجموعات ... وجذبت المجلد ، وفتحته اغتباطاً ، فقرأت :

« جلس يسوع تجاه الخزانة ، ونظر كيف يُلقى الجمع نحاساً فيها ، وكان أغنياء كثيرون يلقون كثيراً ، فجاءت أرملة فقيرة ، وألقت فلسين ، فدعا يسوع تلاميذه ، وقال لهم : الحق أقول لكم ، إن هذه الأرملة الفقيرة قد ألقت أكثر من جميع الذين ألقوا في الخزانة ؛ لأن الجميع من فضلهم ألقوا ، وأما هذه فمن إعوازاها ألقت كل ما عندها ، كل معيشتها ! ... »

ليس حديث شكسبير هذا ... إنه حديث من وحى السماء ! ... إن فلسفة شكسبير على حكمتها وعمقها وروعها لتتضاءل أمام هذه الكلمات الساذجة التي يستمد منها الصغير والكبير ثقاء السريرة ويقظة الضمير وطمانينة الوجدان ... ما زال حديث السماء على تطاول الزمن وترادف الحقب وتطور العقول هو صاحب السلطان الأول على المشاعر والنفوس ... لطالما سمعنا فلاسفة الفكر ينادون بأن العقيدة الدينية على وشك الانهيار ، بل إنها لم يعد لها من سطوة وجاه ، ولكننا لا نلبث أن تواجهنا حقائق تسخر من هذا الزعم الموهوم ... إن العقيدة مثلها كمثل كرة المطاط إذا قذفت بها ورأيتها جادة في هويها إلى الأرض لم تحسب لها من رجوع ، ولكنك لا تعلم أن تراها قد وثبت إليك في عنفوانها أقوى مما كانت قبل ... لو مُنيت مدنيّتنا بالزوال ، وهلكت بهلاكها روائع الشعراء وحكم الفلاسفة وعبقريات العلماء ، لآلفت العقيدة الدينية تكمن في النفس البشرية كمن الحياة في الحبّ النابت ! كفى ثروة أيها الإنسان المتعالي بماديته ، المغرور بعلمه ... ألا فاشدد لسانك إلى خلقك ، وأقصر عن التشديق والمباهاة ... إنك أنت أنت ، ولن تتغير أيد الدهر ، سواء أْخَفَتِكَ المتجاوز والكهوف أم سَمَت بك نواطح السحاب تظن أنك مزاحم بشعافها قواشم عرش الله في ملئه الأعلى ! ... ما زلت

يوم في نيويورك . . .

في حاجة إلى كلمة ساذجة تزر فيها عناصر الأمل والطمأنينة والرضا لتردّ عنك العواصف من حيرة العقل وجفاف النفس وظلمة الحياة ! . . .
وأعدتُ الإنجيل إلى مستقره ، وعدت أتابع جولتي ، فرأيت لافتة من الورق المقوّى خصصت لتعلق على أبواب الحجر عند الضرورة . وقرأت فيها بحروف واضحة : « من فضلك لا تقلق راحتي » .

ومثلت خاشعاً أمام هذه الرقعة الغالية . . . إنها لتنبئك ما تلشد من راحة وهدوء في ركنك الصغير . . . إذا حركت هذه اللافتة على باب حجرتك ، فلن يجرؤ على أن يطرق بابك احد ، وإلك لآمن في مستقرك تنعم بما تريد من خلوة وسكون .

هذه آية صغيرة تكشف لك جانباً كبيراً من عقلية الأمريكيّ الدقيق . تكشف لك ما يعانيه المرء في هذا البلد من جهد وكدٍ وحملٍ على الأعصاب ، فهو في حاجة إلى الراحة يتشبث بها ما وسعه التشبث ، ويلتمس إليها كل السبل ، ويحيطها بالتقدير والإعزاز . . .

كشدّ ما نحن مفتقرون إلى مثل هذه « اللوافت » . . . نعلقها على أبواب المنازل في مصر ، أولاً أقلّ من أن نعلقها على أبواب « التليفونات » لو كان لها أبواب !

وتناولت اللافتة بيدي ، وأودعتها في رعاية وعناية مكاناً كريماً لاستخراجها منه حين أريد . . .

ورجعت إلى الحمام ، أستطلع أنباء حقيبة العطور والمساحيق . . . أما آن لتلك القوارير والحقاق أن تعود إلى قواعدها ؟

ووقع بصري بغتة على رقعة صغيرة تحتل الركن المخصص لمواسى الحلاقة ، فقرأت في الرقعة :

« نرجو أن تقوم بنصيبك في الإقلال من أخطار المواسى المستعملة . . . لا تقذف بها حيثما اتفق . »

أين ترمى بموساك القديمة ؟ إنها حقاً لمشكلة خطيرة على الرغم من مظهرها التافه ، إنه لينجم عنها أعظم الأخطار . . .

وتذكرت بابت ، وهو شخصية خلقها الكاتب الأمريكي سنكلر لويس في أحد مؤلفاته . . . فقد كان بابت يقف كل صباح أمام المرأة وقفة حيرة

ممضة بعد أن يتم حلق لحيته ، وقفة 'مسائل : أين يرمى الموسيقى ؟ أفي سلة المهملات حيث لا يؤمن شرها ؟ أم في ركنٍ واحدٍ بعد الأخرى ؟ فتتجمع لديه طائفة كريهة من المواسي الصدئة المثمنة ! إنه ليقف هذه الوقفة الحيرى مرة كل يوم ، ولا يجد له مخلصاً إلا بأن يقذف بالموسى فوق الخزانة ، وليكن من أمرها ما يكون ! وفي هذه الأثناء وضعت الحقيبة أوزارها ، فتهيأنا للانصراف . . . ولم أنس أن أتزوّد بالمصورات أحشو بها جيبي لاستعين بها على ارتياد الطريق . . .

ودخلنا المصعد نسأله الهبوط . . . الزنجية على حالها تستدبرنا ، وهى فى حُظتها الرسمية : دمية ماثلة ليست أكثر من أذن تصغى ويد تمتد . . . أتراها تتألا آلياً يتحرك ؟ أم هى حقاً مخلوق من طينة البشر ؟

وفادرنّا الفندق نقصد عيادة الطبيب . . . ولكن فى الوقت سعة ، إذن فلا بأس بجولة نلتمس بها متعة وسلوى .

وخطونا إلى الشارع السادس ، فألفينا أنفسنا فى عباب زخار : الناس فى حركة موصولة ، كلٌّ فى شغل بنفسه ، والسيارات تذهب وتجيء ، مارقة مروق السهام . . .

ومررنا بمحانوت يعرض « الفشار » . . . تلك الدُّرّة التى تقلى على النار فيخرج قلبها ناصع البياض ، كأنه الزهرة تتفتح لاستقبال الحياة . . . لقد كان هذا الحانوت يعرض « الفشار » عرضاً لطيفاً يجتذب العيون ، فعرجنا عليه كما يعرج الطفل إذا تعلق عينه بشيء ، وأخذنا منه نصيبنا ، وانصرفنا مشغولة أيدينا ، ووالينا السير نأكل « الفشار » كما يفعل غيرنا لا نشعر بغضاضة ولا استنكاف !

وبعد قليل مررنا بمحانوت عظيم ، يفد عليه الناس فوجاً بعد فوج ، ويصدرون عنه فى زحمة تبعث على العجب . أى حانوت هذا ؟ ماعلة ذلك الازدحام عليه ؟ ولكن مالنا نسأل ؟ إن الناس يدخلون فلنكن معهم من الداخلين ، وإن الناس يخرجون فلنكن وراءهم فى الخارجين !

إن روح الطفولة تتحرك بين جوانحنا بما فيها من خفة وتطلع وابتهاج بكل شيء وعدم مبالاة بأى شيء . . . كنت أحس الطفل يستيقظ فى قرارة نفسه ويطل بنزواته وجوانحه ، فيبدو أثر ذلك فى نظراتى وخطواتى ، وفى أساسى بما يدور حولى من مشاهد وأحداث !

يوم في نيويورك . . .

وما هي إلا أن خجلت من نفسي : كيف أعود طفلاً ؟ وبدأت أراجع النفس وأناقشها الحساب . ولكن نظرة واحدة حولي ، نظرة عاجلة إلى الناس يتدافعون في غير اكتراث ، كَشَفَتْ لي آتى أحياء بين أطفال . . . أطفال يمرحون ويعابث بعضهم بعضاً !

إن الطفل ليكن بين نفوسنا سجيناً مهما ينضج العقل وتكتمل الرجولة ، وإن هذا السجين ليظل متربصاً خلف أسوار سجنه يرصد الفرصة ويلتمس المنفذ ، حتى إذا واثاه التوفيق حيناً لم تلبث الأسوار أن تنهار في طرفة عين ، ولم يلبث السجين أن ينطلق من قيوده وعقاله ظافراً شروداً يلهو ويعبث ذات اليمين وذات الشمال !

ووجدنا أنفسنا ندخل الحانات خلف شخص اخترته رائداً لنا دون إذن منه ، وجعلنا نتفقد ما حولنا : موائد حافلة ، وأخوثة ممتدة ، وصحاف عامرة تغدو وتروح ، روائح الأطعمة تداعب الأنوف ، الناس بين جلوس ووقوف لا مشغلة لهم إلا أن يأكلوا ويشربوا . ليس هناك للكلام مجال ، إنما هي أضراس تطحن ، وألسنة تلوك ، وحلق تزدرد . . . أنكون قد طرقتنا وليمة على الأسلوب الأمريكي ؟ أنكون قد دسنا أنفسنا بين المدعوين تطفلاً وفضولاً ؟

أين ذلك الذي اخترناه يرود لنا الطريق ، علنا نستبين منه ما غمض ؟ . . . ووقعت عيني عليه وهو يشق لجثمانه مسلكاً بين الجموع ، فاستقر أمام خوان رُصّت عليه أدوات الطعام ، ولا طعام . . . ورأيت يتناول صينية ويعمرها بما يلزم من أشواك وسكاكين ، فما هي إلا أن وجدتني أحذو حذوه . . . وقفونا أثره ، فقادنا إلى خوان مستطيل تزدهم عليه ألوان الأطعمة والأشربة ، بين لحوم وخضر وفطائر وحلويات . . . وخلف الخوان خدام يعينون الطالبين على الظفر بما يشتهون .

حقاً إنها لوليمة فاخرة . ولكن أية وليمة هذه ؟ وما خطبها ؟ . . . ورأينا الرجل ينتقى ماراقه مما هو معروض ، يرتصه على الصينية ويسارع إلى الانصراف ، فلم نعم أن تفعل كما فعل ، وأن ننتقى لأنفسنا ما انتقى لنفسه من الألوان ، لا ننقص منها ولا نزيد عنها دون إرادة أو تفكير !

وهرعنا في أثره بصينيتنا نجلس منه على مقربة ، فإذا هو ماض مجدداً في

يوم في نيويورك . . .

التهام طعامه ، كأن وراءه من يتعجله ، أو كأنه يخشى فوات شيء ، فمضينا نلتهم
حظنا من الطعام كشأنه سواء بسواء !

ونفض الرجل فنفضنا ، وخطا إلى الباب فخطونا . . . وهناك في ركن خاص
اثنى الرجل يُلقى بضع قطع من النقود ، فاثنتين نلقى مثلها ، ودفع الباب يفتحه
ليخرج فكنا وراءه تابعين !

وهنا وقفنا . . . لقد انتهت مهمتك أيها الرائد الكريم ، صَحِبَتْكَ
السلامة ، وشكراً لك على أن أرحتنا من متاعب الحيرة والارتباك في
سوق البطون !

وَسَمَوْتُ بعيني إلى جبين الخانوت ، فقرأت : « كافيتريا » .

أنكون قد دخلنا دون أن ندرى أحد تلك المطاعم الشعبية المشهورة التي
لا يخلو منها رجلاً من أرجاء نيويورك ؟ تلك التي يطررها الآلاف من الأهلين
في كل ساعة من نهار ليصيبوا طعاماً طيباً بثمن مقبول لا يزعج الجيوب ؟
لقد أَسْتَنَّا سوق البطون موعد الطبيب ، فلنعجل إليه . . .

وحثنا الخطأ ، مخترقين الشارع السادس إلى الخامس ، نساير ذلك الخضمَّ
العظيم ، ذلك الطوفان العميم ، تلك الجموع المتدفقة من الناس ، فسرعان
ما وجدنا أنفسنا تلفتنا أمواجه ، وتقذف بنا إلى الأمام . . . ليس لنا طاقة
بمناوأة هذا التيار الجارف ، لقد أصبحنا قطرة ضئيلة في عباب متلاطم ، فلا حيلة
لنا إلا أن نندمج فيه ، وأن نترك أشخاصنا تفنى في مُزْدَحْمِهِ . . .

كنت وأنا أتحرك في مسيرى حركاتي الآلية أطلع فيما يحيط بي من بشر
وجماد ، فكأنما اختلط الجماد بالبشر ، ليس إلى التمييز بينهما من سبيل !

إنها قوالب ، قوالب تتحرك في الطريق بلا روح ولا حس ، وقوالب أخرى
قائم بعضها فوق بعض . . . حجارة تتوالى متحركة ، وأخرى تتراص متعالية !
يا لله من أمر هذه القوالب ! . . .

وويل للإنسانية من طابع تلك الحضارة التي تقوم على أساس من المادة كله
صلابة وجفاف ! . . .

إني لأخشى أن تكون القلوب البشرية قد غدت هي الأخرى قوالب
لا تنطوي على عاطفة ولا يصدر عنها نبض ولا خفوق !

وتنبتت إلى أننا نتابع السير ، لا ندرى إلى أية وجهة نحن ماضون .

والطبيب ؟ . . .

واجتهدنا أن ننتزع أنفسنا من بين تلك القوالب المرسومة ، ثم انتحينا ناحية من الطريق ، واستخرجت ماحواه جيبي من المصورات والرسوم ، أستهديتها وسيلة الوصول إلى دار الطبيب . . . إن المصورات لتتحدث حديثاً مستفيضاً عن مركبات الترام والسيارات الحافلة ، وعن القطارات التي تسرب في باطن الأرض أو تجري على معابر الجو . . . ووقفت أفاضل وامايز : ماذا أركب ؟ وطالت بي المفاضلة ، وإذا بعيني تزيغان ، وتراقص أمامهما الخطوط والكلمات . . . ولكني ما لبثت أن أحسست بنفسى أندفع داخل سيارة أجرة ، فما إن ثبتت إلى وعي ، حتى ارتفع صوتي بعنوان الطبيب أعلم به السائق . . . وتسالت المصورات إلى جيني واحدة إثر الأخرى تخفى عن الضوء خزيتها وخيبة أملها في أن يكون لمشورتها مقام !

ودلفنا بالسيارة إلى بارك أفنيو . . .

إن العظمة والروعة لتتجليان بحقي في ذلك الشارع العجيب . إنه تخليق بأن يحمل ذلك الاسم الذي أطلقوه عليه : « شارع الأرستقراطيين » لو كان للأرستقراطية معنى في معاجم الأمريكيين . . . شقة فسيحة طويلة لا يحدها الطرف ، تنبسط في تنسيق وتنميق ، وتمتاز بالدقة في الهندسة والرسم ، كأنما قيست فيها الأبعاد والمسافات بالسنتي والملي . . . يشقها مايسمونه « الحديقة » وما هي إلا بساط من سندس طرزت حواشيه بأشبات من شجيرات . . . أما شواحق هذا الشارع العظيم فإنك حين تنظر إليها تحس بأنها وإن كانت تماثل نواطح السحاب فهي تبدو هنا أجل مظهراً وآنق زخرفاً وأبهى . . . إن السماء في هذا الشارع الواسع لتجد فرجة رحيبة تطل منها علينا وتباد لنا التحية في غير ضيق . . . وهذه الأسراب المتكاثفة من السيارات يلاحق بعضها بعضاً كأنها حلبة سباق . . . وهذه المصابيح الملونة المتكاثرة على مد البصر ، هي حرس الطريق وشرطة المرور ، يتغير لونها تارة فيتحرك الشارع طولا ويسكن عرضاً ، ويتغير لونها تارة أخرى ، فإذا السكون حركة وإذا الحركة سكون . . . إنه لمهرجان رائع من النور والحركة يسوده نظام دقيق فريد يأخذ بمجامع القلوب !

وعرجنا على شوارع أخرى تقطعها خطفا ، وما هي إلا بضع لحظات حتى

يوم في نيويورك . . .

كنا أمام دار الطبيب . فهرع إلينا البواب في ثلثه الرسمية الأنيقة يعيننا على التزول ، أو بالأحرى يوهنا أنه يفعل من أجلنا شيئاً قيناً بالكريم من التقدير . . . وكان على الرغم من شيبته واستبانة الشيخوخة في تجاعيد بشرته صلب القامة أمرد الوجه خفيف الحركة مشرق القسما . . . وتقدمنا إلى البهو حيث يقوم في ركن منه مكتب « السكرتيرة » . . . فاستقبلتنا بابتسامة تقليدية ، وكانت سمحة المحيا في لبوس أبيض ناصع ، معنية بأناقها أتم عناية ، حتى إنها لتحرص على أن تزين جانب صدرها الأيسر بمنديل يزهو في حواشيه وشئ الربيع . . . فكأنما المنديل يستمد من نبع قلبها الدفاق نضارة الحياة !

وتبادلنا كلمات فهمت هي منها ماذا نريد ، وفهمنا نحن منها أنها من أمر قدومنا على بيعة .

أخذنا مقاعدنا بين الزوار : بهو أنيق بهرتني منه تلك الصور الزيتية التي تزدهم بها الجدران ، وتلك الأنوار الكهربية المسلطة على تلك الصور في مسطرة ولباقة .

أفي عيادة طبيب نحن أم في متحف فني ؟

وانصرم الوقت وأنا في شغل بهذه الروائع أتملاًها في نشوة واستمتاع . ثم طلبنا لنصعد ، فواجهتنا بباب الطبقة الأولى « سكرتيرة » في لبوس أبيض ناصع ، يطل من صدرها ذلك المنديل « يوشيه زهر الربيع » ، إنها نسخة من « السكرتيرة » الأولى في كل دقيق من مظهرها وجليل . . . وتراءت لنا فتيات آخر في لبوسهن الأبيض ومناديلهن المزخرفة يغدون ويرحن قائمات بما بين أيديهن من الأعمال . إنهن نسخ متشابهة ، كأنهن جميعاً فتاة واحدة يتكرر ظهورها أمام ناظريك . . .

أئمة قوالب أخرى تواجهنا في تلك البنا الوادعة ؟

تلك هي الظاهرة الواضحة في الحياة الأمريكية : تشابه وتماثل فيما تراه العيون من صغير وكبير ، صور متكررة لشيء واحد لا تغير فيه ولا تبديل !

ودخلنا حجرة صغيرة ، وحشرنا بين زمرة من الناس ، إنها إحدى تلك الحجر الزاخرة بطلاب الصحة . . . وما كنت أقتعد مقعدي ، حتى طالعني صورة كبيرة تزحم حائط الحجرة ، وقد سلطت عليها الأنوار تجلوها أروع

يوم في نيويورك . . .

جلاء . . . إنها صورة برومبيوس طريح صخرة عاتية تثقله الأغلال ، وهو
يرنو ملتاع النفس جزعاً إلى النسر الجاثم على مقربة منه بمنقاره المعقوف الحاد ،
يتوضخ فيه سعار الجوع وتلهب الظمأ ، وعيناه تتلظى فيهما شهوة الفتك
والشر . . . وهذا النسر يتأهب للانقضاض على ذلك الإله المنكود لينهش
كبده ، شأنه معه في كل يوم !

إن روعة الأسطورة اليونانية وما يتدفق فيها من حيوية وجلال ، ليتمثل
في فن هذه الصورة قوى الأداء ، صادق التعبير !

لله أنت من فنان أيها الطبيب !

إن المرء ليطمئن إلى مبضعك المتألق دون وجل أو تهيب . . . لن تكون
إلا فناناً في طبك كما أنت في ذوقك فنان !

إن المريض الذي يحيا في عيادة هذا الطبيب وقتاً لينسى أنه في مثابة علاج
ودار استشفاء ، إنه ليتخيل نفسه في معرض عامر بألوان التحف الفنية التي تقرأ
بها العيون وتشرح لها الصدور . . . إن الساعات لتتلو الساعات دون أن يحس
المريض للوقت طولا !

أحياء هي التمسها يا صديقي الطبيب ليغفل المريض عن مرضه ، ويوقظ في نفسه
الآمل وراحة البال ؟ أنت بهذا تضرب المثل الصالح ، وتعطي القدوة الحسنة . . .
ألا يفكر غيرك من الأطباء في ابتكار وسائل أخرى تحيل ذلك الجو القاتم
المملوء بالفرع والرغبة جواً رخياً تشيع فيه نسائم الطمأنينة والثقة بالحياة ؟
وانتقلنا إلى حجرة ثانية : متحف آخر يتألق بما فيه من روائع الصور
وباهر الأضواء !

وأخيراً طرقتنا محراب الطبيب : حجرة صغيرة أنيقة ، ولكنها على صغرها
حوت كل جديد في فن العلاج الحديث . وبدا أمامنا الطبيب ، صديقنا المنشود :
قامة ضئيلة ، ووجه ضامر بعينين تأهتين تشرد نظراتهما هنا وهناك دون
مبالاة ، وظل ابتسامة ترف على شفثيه ، أكبر الظن أنها كل ما في جعبته من
تحية واحتفاء !

وحومت في الرأس خواطر خاطفة . . . أذلك حقاً هو بيت القصيد في رحلتنا
إلى العالم الجديد ؟ أهذا هو مناط الرجاء وكفر التمني ؟ أهذا هو الذي من أجله
ملوينا بساط الريح على جناح العقب ، لا نبالي صعب الرحلة ووحشة الاغتراب ؟

يوم في نيويورك . . .

وسرعات ما بدأ الطبيب عمله . . . إنه لشحيح بالوقت ، ضنين بالكلام ، مقتصد في الحركة والإشارة ، يحيط به سرب من فتيات متشابهات ، كل منهن مُنَوِّطٌ بها عمل خاص لا تُعدُّوه ، وإنهن ليَحْزِرْنَ ما يريد الطبيب من وحي نظراته ، فيؤدين عملهن صامتات . . .

وانقضت الزيارة في هذا الجو الساكن ، حيث لا كلمة تقال إلا بمقدار ، ولا حركة تؤدَّى إلا بميزان !

وأحيل أمرنا إلى كبيرة « السكرتيرات » : رداء ناصع ، ومنديل يزهو على الصدر ، وابتسامة تتخايل على الثغر . . . وفي بضع لحظات عرفنا كل شيء ، العلاج : موعده ، مدته ، تفقاته ، سائر ما يتعلق به . . .

وغادرنا مكتب « السكرتيرة » الكبرى ، هابطين إلى ردهة الدار . . . وبينما نحن ندير الحديث في شأن العلاج ، تدانى منا شخص يطارحنا الكلام بلغة الوطن . . . هذا مصري آخر رمت به النوى مرامها لمثل ما قدمنا من أجله ، وقد أوشك علاجه أن ينتهي . وفي لمح البصر زالت بيننا الكلفة ، وكأن الود يربطنا به منذ أعوام . . . ألسنا مصريين غريبين ها هنا ؟

« وكل غريب للغريب لسيب » !

واستطرد بنا الحديث إلى تفقات العلاج ، فتبين لنا أن الطبيب لا يسوئ في النفقات بين جمر ضاه ، وإن كان العلاج على نحو سواء . . . وعلمنا أن هذه سنة جديدة يتبعها كثير من أعلام الطب الأمريكيين . . . إن الطبيب هنالك ليقدر النفقة وفقاً لا اعتبارات خاصة بالمريض كما يقول . . .

نظرية أمريكية حقاً . إنها لنظرية طريفة تبدو عادية راحة ، ولكنها في حقيقتها وجوهرها مرتع خصب للمداورة والتلاعب من جانب المريض تارة والطبيب تارة أخرى . . . إن توحيد الثمن في العمل الواحد والسلعة الواحدة ركن من أركان الاقتصاد القانوني ودقة المعاملة في حضارتنا الحديثة . ولطالما عيب علينا نحن الشرقيين أسلوب المساومة والتفاوت في ثمن السلعة الواحدة ، وما يحيط بذلك من الألاعيب وضروب الاستغلال والانتهاز للفرص ، حتى لقد كانت السوق الشرقية مضرب المثل عند الغربيين في فوضى الأثمان ، والتغابن في البيع والشراء . . . إني لأخشى على كُبرى المدائن المتحضرة أن تنقلب بعد حين سوقاً شرقية تسودها فوضى المعاملات تحت ستار بهرج

يوم في نيويورك . . .

من النظريات الاجتماعية الطريفة ، ظاهرها فيه العدل والرحمة ، وباطنها من قبلة الجور والاعتساف ! . . .

إن حضارة اليوم القائمة على مبادئ إنسانية رفيعة جدية بالتقدير تراها قد رقت من بعض جوانبها فإذا بها عرضة للتمزق . ولو استمر الحال على ذلك لأصبح غزوها مطلباً ليس بالعسير ، ولأصبح انهيارها أمراً ليس بالبعيد . . .
زايلنا دار الطبيب . . .

لم نستمع بعدُ بيهجة الشارع في نيويورك . . .
إذن بنا إلى الشارع الخامس نجوب أرجاءه ، نروح عن النفس ، وننأى عن حديث المرض والعلاج . . .

الناس أجمعون في هذا الشارع يبين عليهم سياء اليسر والرخاء : أناقة في الزى وترف في الملبس ، ورفاهية تفصح عنها المظاهر . . . النساء في معاطف القرو الثمان ، السيقان تكسوها غلائل الجوارب الفاخرة . ليس ثمة من ساق عارية . ولكن أى فرق بين الساق العارية والساق المصبوبة في جورب رقيق النسيج نغم عن دقائق الفتنة والجمال ؟ . . . لا وحدة في الزى ، ولا مراعاة للمألوف من التقاليد والعادات . إن بعض النساء لا يبالين أن يظهرن في لبوس الرجال ، متخذات تلك السراويل الشائعة ، كأنهن في البيوت متنقلات ، أو على الشواطئ متزهات . . . ثمة طالبات يتخذن هذه السراويل تيسيراً للحركة ومسايرة للنشاط ، وثمة عجائز يتخذنها اجتذاباً للأنظار إلى أطلال نضارة عفت عليها السنون ، أو سترأ لسيقان ألح عليها الضمور والهزال !

وهذه وجهات المتاجر والمخازن . . . إن العبقرية الأمريكية في الأناقة والتنسيق والتألق تبدو في هذه الوجهات بالغة الإبداع . . . إن الكماليات لتنافس الضروريات في معارض تلك المتاجر ، فتغدو هي ضروريات ليس عنها غنى . . . ولم لا يكون الأمر كذلك ونحن في عاصمة النعيم والثراء ؟

واسترعت نظرنا وجهة تزهو في تألقها ، فوقفنا لحظة نتأمل فيما تعرض من ضروب الأحذية ، وما هي إلا أن وجدنا أنفسنا في داخل المتجر نطلب حذاء راقنا شكله . وبدا حيالنا رجل أنيق حيثانا في أدب تحية خاطفة ، وسألنا :

— فيم نرغب ؟

إشارة منه إلى ذلك المصعد ، ليبلغنا القسم الذي نجد فيه طلبتنا .

يوم في نيويورك . . .

وصعدنا . . .

رجل آخر أنيق يحينا تحيته الخاطفة ، ويدلنا في عجلة على المكان المنشود . . .
واتجهنا حيث أشار .

أنيق ثالث يرحب بنا على ذلك النحو المعهود .
يا لله من هؤلاء الأنيقين الوجهاء ! . . . كأننا في قصر سيد غطريف تستقبلنا
حاشيته !

وأشار الرجل بيده إلى ناحية قائلا :

— المشتري يتجه يمينا ، والمرافق يتجه إلى اليسار . . .

نخطوت يسرة ، فوجدت نفسي في زمرة من الرجال يقتعدون مقاعد
الانتظار . . . في ذلك الركن يروض المرء نفسه على فضيلة الصبر والاحتمال !
وجلست أبادل الرفاق نظرات الاستسلام ، والتفت يمنة ، فإذا بالمشتريين
طابور كل ينتظر دوره . . .

وامتد بنا الانتظار ، فنهضت من ركن المرافقين أحاول أن أقتحم منطقة
السراة ، فما أسرع أن بدا الأنيق يعترض طريقي ، ويعيدني إلى حيث كنت . . .
يا هجبا ! . . . ها نحن أولاء في هذا البلد الذي يوزن فيه الوقت بميزان الذهب ،
نرانا أكثر الناس إضاعة لأوقاتهم وأشدهم تقريظاً فيها . . . ولكن ما الحيلة ،
ونحن في متجر عظيم لا تستقيم فيه الأمور وتدق المعاملات إلا بنظام مفروض
له مزاياه وله مساوئه الجسام ؟ . . . إن هذا النظام قد جعل شراء زوج من الأحذية
يبلغ من التعقيد مبلغاً يزهده مثلي في احتمال تبعاته ! . . . إني لأؤثر الحفاء على
أن أبقى رهينة حزب اليسار ، أشقى بموصول الانتظار ! . . .
وبعد لأي خرجنا من المتجر ، بخفي حنين . . .

وأحسست بأعصابي تنهافت . . .

ولم نكد نمشي خطوات حتى شعرنا بوطأة الجوع ، فطرقنا مطعماً خلبتنا
وجهته : صبغة وردية بهية تزهو تحت الأضواء الالاقفة ، فتكسب المكان جواً
سيحرياً . . . ووجدنا أنفسنا قد انتظمنا في صف طويل . . . وهذا طابور
آخر . . . نحن في بلد القوالب والطواير ! . . . ذلك البلد الذي يروضنا على
فضيلة الصبر والاحتمال . . .

وكنا نتحرك كالآلات ، نخطو إلى الأمام كلما خلا من أول الصف مكان .

يوم في نيويورك . . .

وحانت منى التفاتة إلى الخلف ، فإذا بي أشهد طابوراً آخر سرعان ما ائتلف . . . فابتسمت ابتسامة امتزج فيها الإشفاق بالارتياح : إني لمشفق على أولئك اللاحقين الجياع الذين ينتظرون دورهم البعيد ، وإني لمرتاح على أية حال لما أصبته من سبق يعفيني من مضى الانتظار . . .

وظهر أنيق يلقانا بوجهه الطلق ، ويولينا نظراته العجول ، وأصدر أمراً في شأننا ، فتحركنا طوعاً أمراً إلى المائدة التي فرضت علينا لا تفضيل ولا اختيار . . . وبدأ سرب من فتيات المطعم يتنقلن بالصحاف بين الموائد خفاف الحركة رشيقات كأنهن ظباء بين الحمائل تنساب . . . وكن في حلل وردية وميادع ناصعة البياض قصار ، يشهد الله أنها لم تتخذ لتصون ما تحتها من ملابس ، وإنما اتخذت للزينة واختلاب العيون . . . إن هذه الظباء ليثلن في هذا المطعم فاتحة ألوانه الكريمة . . .

أية حاجة إلى المشهيات بعد لقاءهن ؟

وأقبلنا على الطعام . . . وكانت القاعة على ما فيها من حركة دائبة ، واكتظاظ بالرؤود ، لا تزعج أحداً بصوت ينكره السمع . كل شيء يسير على نظام دقيق ، إته نظام الآلة الصماء ، حتى إن الأكل نفسه ليجرى على أسلوب آلي . . . يجب أن تأكل نشيطاً ، وأن تخص جلستك للأكل وحده ، حتى تخلى لغيرك المكان . . . إنك لتحسن صوت الطابور يهتف بك مستحثاً ! وزايلنا المطعم ، فواجهنا الشارع ، وقد اكتسى حلة من مختلف الأنوار ، وتبدت وجهات المخازن والمتاجر في زخرفها الفتان . ولكن الوقت مساء ، والأبواب موصدة ، فليس إلا أن نتبادل النظرات قاعين . . . والآن . . . إلى أين ؟

سؤال ألقيناه على أنفسنا ، فكانت الأجوبة شتى متباينة ، ولكننا لم نجد بينها جواباً يُزيّن لنا أن نعود إلى الفندق ! أنزج أنفسنا في حجرة الفندق تاركين مباهج الليل وبقية الحياة ؟

وألقينا أقدامنا تدفع بنا إلى برودواي . . .

ورحنا نمخر عبابه المتلاطم : مواكب من الناس تسبح في فيض زاخر من الأضواء . . . إن برودواي علم من أعلام النور ، بل إنه اسم من أسمائه ومعنى من معانيه . . . إنه الحي الذي يجد فيه كل امرئ ما تصبو إليه نفسه

يوم في نيويورك . . .

من ضروب الملاحى وألوان التسلية . . . هذه دور الاله والطرب ، تتخللها
مطاعم ومشارب رشيقة فاخرة . . .

لا أثر هنالك لماندعوه « بالقهوات » . . . إن الناس لا يجدون وقتاً ينفقونه
في الثثرة ولغو الحديث ، وإنما يحلون تلك الأماكن ليطفئوا الظمأ
ويردوا الجوع !

وطرقنا مشرباً ، أو سمه مطعماً ، فالمطاعم هى المشارب ، وهذه هى تلك على
حدٍ سواء . . .

رجعة إلى نظام الطواير . . . حتى للحصول على قدح من شراب !
واحتللنا مائدة ، فجلست أدور بعينى ، فرأيت صفّاً من الرواد على منضدة
الحان قد جلسوا أزواجاً ، كل امرئ وصاحبه ، وهما يمزجان المدام ، بمناجاة
حب وهيام . . . وخلف هذا الصف صف آخر من رواد ينتظرون دورهم
فى الجلوس ، ونصيبهم فى تناول الصهباء ونجوى الغرام ، وهم ينظرون إلى صف
الجالسين أمامهم نظرات التعجّل والاستحثاث ! . . .

إن الحب هنا محدود يقاس ويوزن . . . باب الغرام يطرق دون مداورات
ومقدمات . . . إن الحب ليقتحمه اقتحاماً فيحظى بلبابه ميسور المنال ، خالصاً
من هموم الدلال والمطال !

قل لحبيبتك كلمة خاطفة ، وبادلها بسملة خاطفة ، واقتطف من وجنتها قبلة
خاطفة ، وأخل مكانك لمن خلفك قد أضناه الهوى وضاق بالانتظار !

أين أنت يا عمر ؟ يا ابن أبى ربيعة ؟ . . . ماذا يكون موقفك من هذا الحان
الأمريكى ، مثابة ذلك الحب الخاطف ؟ أ كنت ترضى بمثل تلك الجلسة العجلى ،
وقد تعودنا أن نسمع منك فى صبوتك آهات كل آهة منها تتطلب ليلة كاملة ؟
عفا الله عن ذلك الحب الكسول فى دنياك القديمة ، وحيا الله ذلك الغرام
الأمريكى العجلان !

لحسبنا ذلك الآن من برودواى . . .

وإن لنا إليه رجعة بل رجعات . . .

محمود محمود

تراث الأندلس

إن بلداً كإسبانيا لن يستطيع أن يستكين لحظ تافه . فهذا المضلع الشاسع القائم عند طرف أوروبا الغربى ، ذو التضاريس المتعرجة المتعددة والآفاق المتباينة ، يؤلف مجموعة جغرافية هي أقل المجموعات تناسقاً . فالحياة تختلف فيه بين إقليم وآخر ؛ فهي سهلة ناعمة هنا ، وخشنة قاسية هناك . ويتفاوت أهلها تفاوتاً عميقاً تبعاً لجنسهم وأرومتهم ؛ وقد لا توجد بقعة على وجه الأرض مثلها تتباين فيها خصائص أهائها ، حتى لقد تؤدي إلى الاصطدام أحياناً بطريقة مروعة . وقد كان حظها — حتى نهاية العصر المتوسط على الأقل — خاضعا لمركزها الجغرافى ولظرف تاريخى غير عادى عظيم المدى : هو وجود الإسلام على جزء كبير من أرضها ، فكان ذلك يتطلب من الفريق الآخر بذل مجهود أشبه بمجهود الحروب الصليبية ، واستذكاء هذا المجهود عدة أجيال متعاقبة .

إن لإسبانيا واجهتين بحريتين ، تشرف إحداها على البحر الأبيض المتوسط ، وهو طريق المدنية القديمة ، وتطل الأخرى على المحيط الأطلنطى الذى بقى أمداً طويلاً محيط الظلمات ومقر المجهول الخيف . وتتصل ببقية أوروبا بحاجز مؤلف من سلسلة جبال وعرة عسيرة الاجتياز هي جبال البرانس . أما إلى الجنوب ، فانها على العكس ، تكاد تلمس أفريقيا ، ولا يفصلها عنها إلا مضيق جبل طارق . إنها فى الواقع جزيرة ، وهى جزيرة بغير ما شبك هائلة ، ولكنها جزيرة مشاعة — بفضل تكوينها الطبيعى — بين أوروبا وأفريقيا . فهي بمثابة المزلاج ؛ لأنها توصل باب البحر الأبيض المتوسط فى الغرب ، وهى بمثابة الجسر لأنها على الرغم من العوائق الطبيعية التى تعزلها عن بقية أوروبا وأفريقيا ، بمثابة الطريق الأرضى الوحيد الذى يصل بين هذين الجزأين من العالم ، والحضارات التى تستطيعان تمثيلها .

لقد أدرك العرب تمام الإدراك صبغة أسبانيا الجزائرية إذا أطلقوا عليها اسم « جزيرة الإندلس ». ويخال أنهم أدركوا بسرعة أن هذه الولاية الشاذة عن إمبراطوريتهم والتي ضمت إليها بفضل مغامرة فجائية جريئة غير منتظرة ، كأنها ، في تلك الإمبراطورية ، بمثابة « زحف » حقيقى إلى جوار الغرب المسيحى مباشرة ، وإلى أبواب أوروبا التي كانوا يجهلونهم ويقتصرون على تسميتها ، بغير تحديد ، باسم « الأرض الكبيرة ». وعند ما انشقت الأندلس سياسيا عن تلك الإمبراطورية ، بعد بضع عشرة سنة ، لتصبح دولة لأحد الأمراء المهاجرين من الأسرة الأموية التي حكمت في سوريا ، وجدت هوة زادت مع الأجيال عمقا واتساعا ، فلم تلبث أن انفصلت عن الشرق العربى فزاد صبغتها الجزائرية ، وفي نفس الوقت ، زادت خصائصها .

على أن خصائص أسبانيا الإسلامية لم تنشأ فقط عن عزلتها عن بقية العالم العربى واليونان الشاسع الذى يفصلها عن الشرق ، بل كانت هناك شتى الأسباب الداخلية : اختلاط الأجناس في شعب قليل التجانس مؤلف من أقلية من العرب ، ومن البربر الذين جاءوا من أفريقيا الشمالية ، ومن الفرنج ، ومن السلاف ، ولكن بصفة خاصة من جمهور الأهالى الذين اعتنقوا الإسلام ، والمولدين ؛ ثم وجود جماعات هامة من سكان المدن والريف الذى ظلوا على مسيحيتهم دون أن يضطهدوا بفضل التقليد الحرفى النظام السياسى الأندلسى ؛ ثم اختلاط طوائف يهودية نشيطة في وسط المجتمعات ، أيضا . كانت أهميتها ، تحت حماية السلطة المركزية الإسلامية . وهي خصائص ترجع أيضا إلى استعمال اللغة الرومانية المشتقة من اللاتينية ، إلى جانب اللغة العربية ، وأحيانا لغة البربر ؛ وهي خصائص ترجع في النهاية — وهذا هو العامل الجوهرى بغير شك — إلى الإطار الجغرافى الذى يختلف جدا ويمتاز كثيرا في مجموعه عن إطار جميع الجهات الأخرى من دار الإسلام . وإنه لمن المؤكد أن سكان المدن ، والقرويين ، وسكان الجبال ، والفلاحين المقيدين بأعمال الأرض ، كل هذه المجموعة التي كانت تؤلف الشعب الأندلسى في جنوب شبه الجزيرة ، في العصر الإسلامى ، كانوا أقل شبها منهم اليوم بمواطنيهم في أودية أسبانيا الوسطى المرتفعة ، وأقل ذلك طبعاً ، بأعدائهم اللد في مملكة ليون وقشتالة المسيحيين . على أن أندلسى النهر والجبال والمناطق الساحلية الحصنة أو أعالي الجبال الوعرة القاحلة ، كانوا مع ذلك متقاربين

الشبه إلى حد أنه قد رسخ في أذهانهم ، رويداً رويداً وبغير ما إدراك ، شعور بأنهم ووطنهم يؤلفون شيئاً فذاً في عالم الإسلام .
على أنه يجب الاعتراف مع ذلك بأن الأدب العربي في أسبانيا لم يعبر صراحة عن هذا الشعور إلا نادراً . وإنه تخلق أن نذكر بإكبار محافظة الأندلس — إبان تاريخها بأكمله — على تمسكها ببقية العالم العربي وعبقريته حضارته تمسكاً يملؤه الإجلال القريب من الشعور البنوي . ولقد تجلى هذا التمسك ، أول ما تجلى ، في الدين . فما أن اعتنقت أسبانيا الإسلام حتى جاهرت بحزم بأنها محافظة ، وظلت بعد ذلك مرتبطة ، من ناحية السنة والشرع ، بتقاليد العصور الأولى . وشاع المذهب المالكي في جميع أنحاء الأندلس حتى النهاية . واهتم بنشاط لا يتوره وهن بقمع كل محاولة ترمي إلى نشر التيارات الجديدة . واضطهد الزندقة . واحتفظ للبلاد بتعلقها الوثيق بأهداب الدين . وحارب بقسوة المفكرين الذين كانوا يسعون إلى التحرر من قيوده كابن مسرة وابن حزم دون أن نذكر غيرها . وتخف تلك الشدة ردهاً من الزمن خلال حكم المرابطين ؛ إلى أن جاء الموحدون وفرضوا على الأندلس سنة للتوحيد أشد صرامة وقسوة .

على أن هذا الاتجاه المحافظ يتجلى كذلك في أسبانيا في عدة نواح غير الدين . أما من ناحية الحياة الاجتماعية بصفة خاصة ، فأننا لو نظرنا إلى تلك البلاد عن كثب فإننا نجد أنها تظهر — حتى القرن الثاني عشر على الأقل — بمظهر عتيق جداً هو نفس الذي ظلت تحافظ عليه مرا كش الوريثة الفعلية للحضارة الأسبانية الإسلامية وعقائدها إلى عهد قريب جداً ، وظلت مدنها الكبيرة ، فاس ، ورياط ، وططوان بصفة خاصة ، تحافظ على مظهرها الوفي للمدن الأندلسية . ففي هذه المدن ، وفي خلال العصر المتوسط من أوله إلى نهايته ، ظلت إحدى طبقات المجتمع ، وهي طبقة الفقهاء ، تتمتع بمكانة ممتازة . ولم تكن هذه التسمية تشمل علماء الشرع فقط ، ولكنها تتجاوزهم إلى جميع ممثلي العلوم العربية الدينية كما كانت تزدهر ، في نفس الوقت ، في الشرق ؛ أما في أسبانيا ، فيجدر القول بأن عدد الفقهاء من أصل بربري أو المولدين كان يزيد على من كانوا من أصل عربي .

وهذا الاتجاه المحافظ الذي يقوم على احترام التقاليد الشرقية ، يفسر أيضاً

لماذا ظل عدد كبير من المعاهد الإسلامية القديمة قائماً في أسبانيا في حين أنها كانت ، في بقية العالم العربي ، تنهار شيئاً فشيئاً وتتلشى . إننا نعلم إلى أي حد من الغيرة استطاعت أسبانيا أن تصون التراث الذي نقلته إليها خلافة دمشق وتحفظ به كاملاً ، وإن مجرد بقاء « تقليد سوري » قائماً واستمراره أمداً طويلاً ، هو من الصفات البارزة للحضارة الأندلسية ، حتى في الوقت الذي اضطرت فيه تلك الحضارة إلى قبول ما دخل عليها ، وبصفة خاصة ، في الوقت الذي تركت فيه بعض تيارات حضارة بغداد — المتشعبة بدورها بالحضارة الفارسية — تطغى عليها .

وقد كان من نتائج هذا الاتجاه — في عالم الأدب — أن كف إلى الأبد عن الإنتاج الممثل للعبقريّة الأندلسية على حقيقتها ، وظل الأدب العربي الأسباني ، حقبة طويلة ، لا يؤلف إلا جزءاً من مجموع الأدب العربي وإن كان بالفعل مشرفاً فهو عار عن كل شخصية . وكان يحال أن أغلب الكتاب في أسبانيا الإسلامية ، وفي جميع العصور ، قد أجمعوا على عدم الاهتمام — إلا في بعض مؤلفاتهم المتناثرة في النثر الفني والنظم العامي — بالوسط الجغرافي والمركب الجنسي المميزين لهم والذين يتألف منهما إطار حياتهم اليومية . فقد كانوا يؤثرون الانتقال بالفكر إلى شرق كان أكثرهم لا يلمون عنه بمعلومات أكثر مما هو مدون في الكتب ليستلهموا منه نقشات وحيهم . لقد ازدروا الموارد التي تنطوي عليها تربتهم الخصبة العذراء ، ومالوا إلى سبر غور غيرها مما فقد استغلاله منذ عهد بعيد ونضب معينه . وكان اللغويون وكتاب النحو والعروض ، ومصنفو المعاجم ، وشرح الغرر الأدبية ، يكتبون في أسبانيا وهم ينتقلون بشخصيتهم إلى بلاد العرب أو العراق . فكاتبٌ مثل ابن عبد ربه يهتم بوضع ديوان من الشعر الشرقي ، ولغوي مثل ابن سيده يضع موسوعته دون أن تجد فيه اللغة العربية الأندلسية ، وهي لغته الشخصية ، أدنى مجال . بل الشعراء أنفسهم ، فقد كان أكثرهم يرتاح إلى الوضع الذي جرى عليه أسلافهم الشرقيون ، وكان لابد لهم من وقت طويل ليدركوا في النهاية ، أنه توجد ، تحت أنظارهم ، طبيعة منسجمة جميلة جذيرة بأن توصف هي أيضاً دون أن تفقد من قيمتها . بل إنهم ، عندما أدركوا ذلك ، كانوا لا يحسنون التخاص دائماً من تأثير التقاليد الشرقية المستبد والذي كان يتجلى في شكل استعارات أدبية ، وذكريات ،

واستشهادات . وكثيراً ما يرى الإنسان نفسه أمام منتبسات أو كتابات أحسن فيها التلاميذ تقليد أساتذتهم .

ولن تكون مقاومة هذا الاتجاه دائماً إلا مجرد محاولات فردية . فبعض النقاد ، وبعض كتاب المختارات الشعرية ، أمثال الفتح بن خاقان وابن بسام ، يشيرون أحياناً إلى المحاولات المتواضعة التي يقوم بها بعض الأدباء الذين يفكرون في التخلص من قيود أدب كلاسيكي لا تناليد ووصل إلى حد الاتقان . على أن مسألة ابن حزم ، الذي يقرر في مقدمة « طوق الحمامة » بأنه أندلسي ، وأنه لا شأن له باستلهام الوحي بذكر صحراء العرب والبدو الذين يخترقونها ، ستظل مسألة فردية للغاية ، وستظل أكثر البحوث الملهمة مقترنة بالعالم العربي الشرق . وكان لا بد أن تزدهر أنواع جديدة من الأدب ذات صبغة شعبية وموجهة إلى جمهور أكثر انتشاراً لا إلى فئة مختارة ذات ثقافة كلاسيكية ، ليتم التوازن إلى حد ما ، مع ذلك التمسك بالمدارك التقليدية البحتة . وإنني أقصد بصفة خاصة ، وبدون إفاضة هنا ، أنواع النظم المعروفة بالموشحات والزجل التي زانها كثير من الأندلسيين ، وبصفة خاصة ، أبو بكر بن قزمان . لقد يتسنى قريباً ، متى عرفت مؤلفات هذا الشاعر معرفة تامة ، أن تعرض بوضوح تلك المسألة المركبة التي طالما توقفت ، وهي احتمال تأثير شعر الزجالين الأندلسيين في المداحين البروفانسيين ، وتأثير الشعر العربي بلهجته الأسبانية في الشعر الروماني في الغزل الرقيق . ويجدر بالذكر هنا أن هذه الأنواع الجديدة ، بمرورها السريع من أسبانيا إلى الشرق ، بتيار معكوس ، إذا صح هذا التعبير ، وانتشارها العظيم في الحال ، قد توجد تعليلاً قوياً يجعلنا نفرض أن هناك تأثيرات أندلسية كان يمكن أن تسيطر على العالم العربي لو أن أسبانيا — بعد أن تكون قد جددت نفسها — أرادت أن تعني بذلك .

على أن دورها الحقيقي حيال الحضارة العربية كان غير ذلك ، بل ربما كانت قد فهمت هذا الأمر في شيء من الغموض . إن دورها الحقيقي ، الذي كان يجب أن تؤديه كاملاً ، هو أن تشرق بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، على غرب أوروبا ، وأن تنتقل إليه على الأقل جزءاً من التراث الذي ورثته بدورها عن الشرق واحتفظت به بشغف في أرضها ، سواء أكانت قد طبعته بطابعها الخاص أو لم تطبعه .

تراث الأندلس

ففي أسبانيا بالطبع ، وبعد مرور ما يقرب من نصف الألف من السنوات منذ نهاية استرداد أسبانيا نهائياً ، يظل تراث الأندلس خالداً وأقرب منالاً ، فأثره العميق مازال واضحاً في جميع أنحاء شبه جزيرة إيبيريا ، ولكن ، كما هو طبيعي ، في المقاطعات القبلية والشرقية التي ظلت تدين بالإسلام طويلاً . وهناك نكهة من العربية توضع في جو كثير من المدن ، كبيرة وصغيرة ، لم يتغير في الغالب تركيبها منذ العصر الإسلامي . إن طابع أسبانيا العربية يتجلى في الفن الشعبي والاصطلاحات الصناعية ، وطرق استغلال الأرض ، وطرق الزراعة والري . لقد أثر هذا الطابع تأثيراً عميقاً في الخرافات الشعبية ، وموسيقاه ، بل في طريقة المعيشة والتصرف والتفكير . عند جماعات هامة من الشعب . إن اللغة العربية الأندلسية ، باصطلاحاتها اللفظية الخاصة ومقاييسها الخطائية ، قد ساعدت كثيراً على تكوين مفردات لغة قشتالة ، وهي كما هو معلوم ، لغة أسبانيا الوطنية ، على أن الكلام الدارج في بلنسية ومرسية وغرناطة يشتمل على نسبة أكبر من الألفاظ العربية . هذه الاستعارات المباشرة تؤلف معجماً متنوعاً جداً ، إذ يتضمن الاصطلاحات الفنية الزراعية ، وأسماء الأعشاب والنباتات ، والأشجار ، والفاكهة ، والأقشنة ، والآثاث ، والألوان ، بل تسمية مئآت من المعاهد العامة ، مع معاهد الموظفين التابعين . إن جزءاً كبيراً من الكلمات والاصطلاحات لأسماء الآثاث الفاخر والزينة ما زالت إلى اليوم من مصدر عربي . وإنه ليس من الجرأة في شيء أن نستنبط أن الأسماء قد مررت إلى أسبانيا المسيحية في نفس الوقت الذي مررت فيه المسميات ، وأنه اعتباراً من القرن العاشر على الأقل ، دخلت أزياء قرطبة ، وأشبيلية ، وطليلة ، وسرقسطة الإسلامية في دور الأمراء المسيحيين في شمال البلاد ، حيث حملت للمرة الأولى ، إلى أرستوقراطية تملؤها الفضائل الحربية ولكنها غير مثقفة ، معنى البذخ والترف ، أو ما هو أبسط ، معنى الرفاهة والراحة . وبعد قليل من تحرير ولايات أسبانيا الوسطى وعودتها إلى أحضان المسيحية ، لعبت التأثيرات كذلك بقوة أشد ، خصوصاً عن طريق المستعربين الذين ، مع إنكارهم للإسلام ، لم يتخلوا إطلاقاً عن ثقافته ولغته . إن في استمرار استعمال اللغة العربية في جميع الاتصالات ، وفي جميع عقود البيع في طليطلة زهاء جيلين أو ثلاثة أجيال بعد فتحها التاريخي بمعرفة القونس السادس عام ١٠٨٥ ، لدليل واضح على الطابع

تراث الأندلس

الذى خلفته هذه الحضارة . وبعد ذلك العهد أيضاً ، حين تلاشى استعمال العربية أمام الأسبانية عند طوائف الموريسك الذين ظلوا على إسلامهم ، فإن الكتابة بالعربية ، لا باللاتينية ، هي التى كانت تستعمل لتحديد النطق ؛ وبالحروف العربية أيضاً كانت تدون كتب التعاليم المسيحية ، ومختارات الصلوات ، بل كذلك بعض المؤلفات أو المستندات ذات الصبغة العلمانية .

ففى نقل هذا التراث الإسلامى الأندلسى ، يجب أن يراعى ، إلى جانب الدور الذى لعبه المستعربون ، الدور الذى لعبه الوسطاء اليهود بين الثقافتين . كان يهود أسبانيا الذين يتكلمون لغتين (خلاف العبرية لغتهم الدينية) كثيرى التنقل ، بحجة الأعمال ، من الولايات الإسلامية إلى الولايات المسيحية ؛ وكانوا كثيراً ما يتجاوزونها إلى فرنسا حيث كان يجذبهم وجود طوائف يهودية كبيرة فى مقاطعتى اللانجدوك والبروقانس .

إنه لا بد من صفحات كثيرة لكى نحلل تماماً الأسباب المتعددة التى سهلت بل فرضت أيضاً ، بصفة عامة وبطريقة غير مباشرة وبمساعدة المراحل المتعاقبة ، الحصص التى قدمتها الحضارة الإسلامية لأوروبا الغربية التى لم تفكر إطلاقاً فى نبذها بسبب مواردها . إن ما يهمهم هو أن نحاول ، فى مقال بسيط ، أن نستخلص الدرس الذى تتضمنه هذه الحصص وتنطوى عليه .

إن المؤرخين يدركون اليوم — وتلك نعمة جديدة — أن أوروبا ، اعتباراً من القرن الثانى عشر ، لم تحصل من انتصاراتها الحربية على الإسلام ، سواء فى غرب البحر الأبيض المتوسط أو فى شرقه ، على أرباح مادية فقط ، ولكنها حصلت أيضاً على أرباح لا تقل شأنًا ، إذ هيأت لها الفرصة لتفتح عينيها على عالم آخر وتوسع ، بطريقة عجيبة ، أفق مداركها العقلية . لقد استطاعوا أن يقولوا ، وليس ما قالوه اغتباطاً ، إنه وإن كان من غير الحكمة أن يسند إلى علماء الإسلام الفضل الوحيد فى كثير من الاستكشافات المنسوبة إليهم بحكم التقاليد ، سواء فى عالم الفلسفة أو العلوم الصحيحة ، إلا أن هذا لا يمنع من الاعتراف بأنهم ، فى الشرق وبصفة خاصة فى أسبانيا ، قد أذكوا بنشاطهم الذى لم يعتوره كل أو ملل ، شعلة لولاهم لا وشكت أن تنطفئ : وهى النظر إلى الأمور نظرة علمية . ومن ثم ، هدوا أوروبا إلى الطريق ، ووضعوا فى متناول يدها مجموعة من المؤلفات الرئيسية ، وقطعوا شوطاً بعيداً فى طريقة معرفة اللغات والآداب القديمة وفى طريق النهضة العلمية .

تراث الأندلس

ففي القرن الثاني عشر إذن ، وبينما كانت الممتلكات الإسلامية في الأندلس قد تضاءلت تماماً ، بدأ يتجلى تعاون الثقافتين ، العربية واللاتينية ، تعاونا وثيقاً مثمراً . لن تكفى الإشارة مطلقاً إلى أهمية مدرسة المترجمين التي أسسها أمير أسباني مثقف هو الفونس العاشر العالم ، وأدارها تحت رعايته في طليطلة ابتداء من عام ١١٣٠ . فقد صدرت عن هذا المجمع المنقب الذي تعاون فيه المسلمون واليهود والمسيحيون ، عدة مؤلفات علمية كانت إلى ذلك العهد مجهولة في أوروبا ، ونقلت إلى الغرب : كـ مؤلفات أقليدس ، وبطليموس الإسكندري ، والخوارزمي ومسألة الأندلسي .

إن يكن دور أسبانيا الإسلامية ، بحسب الحوادث والأزمات ، دور ملهمة للمبادئ التي تجلت عنها عبقريتها بالذات ، أو ، مع التواضع ، إن تكن قد اتخذت مرحلة للعلوم العربية والثقافة الشرقية ، فإن فضلها في ذلك لن يكون أقل أثراً أو شهرة ، وإنه ليكني تماماً ليسوع ذلك الحب الرقيق الطاهر الذي يديه نحوها جميع ممثلي الثقافة العربية العصرية ، والفلاسفة ، والعلماء ، ونقاد الأدب ، وكذلك الشعراء والروائيون ، وكتّاب المسرح . ففي اليوم الذي تقوم فيه مصر بصفة خاصة ، بالمهمة التي تهيأت لها بكرم ونبل لتنشر المؤلفات الرئيسية العديدة التي لم تنشر بعد عن الأدب الأندلسي والتي تتضمن لمحة من الحضارة الهسبانية ، في ذلك اليوم يتجلى تراث الأندلس الروحي أكثر مما هو عليه ، ويسترد مكانته الكاملة ، ويصبح خط اتصال أوجدته العناية بين الشرق والغرب عند حدود الأزمنة العصرية .

١٠ ليلى - بروفسال

نقلها إلى العربية سليم سعده

المصريون والمحافظة على القديم

يقال عن المصريين إنهم من أشد الأمم محافظة على القديم . فالمدينة المستقرة نشأت في بلادهم منذ أقدم العصور ، بل هي قد تكون في مصر أقدم منها في أى بلد آخر ؛ ومع ذلك فقد سارت الحياة على وتيرة واحدة أو وتأثر متقاربة متشابهة من جيل إلى جيل ومن عصر إلى عصر ، قد توارث الناس مقومات الحياة وأسس الحضارة والمدنية ، واحتفظوا بتقاليدهم وعاداتهم ، بل حافظوا عليها ودافعوا عن قديمها ، فلم يستهوه التغيير ولم تغرهم التزعة إلى التجديد . وكثيراً ما يكتب الكتّابون ويقرأ القارئون أن الفلاح اليوم يعيش ويفلح الأرض كما كان أجداده يفعلون أيام الفراعنة ، بل قبل أن يطلع فجر التاريخ ؛ فال حاضر في مصر صورة منعكسة من الماضي ؛ والأيام تمر في مصر ولكن الحياة لا تسير ، وإنما هي ثابتة على أضبوها لا تتحول ولا تتبدل ؛ والسُنون بل القرون يتداعى بعضها إثر بعض في وادى النيل ، ولكن الحضارة الزراعية المصرية لا تتحور ولا تتطور . فال يوم أمس متكرر ، والغد لا يعدو أن يكون يوماً من أيام الحاضر ، فهو أمس ينشر قبل أن يموت !

على أن هذا الكلام إن كان صحيحاً في بعض نواحيه ، فإنه مع ذلك لا يكاد يثبت للبحث العلمى الصادق ؛ لأنه لا يمثل غير صورة منقوصة من الحقيقة . وقد يكون من المفيد أن نحاول في هذا المقال أن نلم بطرف أو أطراف قليلة ندلل بها على أن استمرار الحياة والحضارة في مصر لم يكن معناه الجمود ، ولم يكن مرده في كل الحالات ، بل ولا في غالبها ، إلى نزوع المصريين إلى المحافظة على القديم . فنحن إن سلمنا بهذا القول على علاقاته وجب أن نسلم بأن البيئة المصرية بيئة عقيمة ، ولدت مرة ثم أصابها العقم والإجداب بعد ذلك ؛ بل وجب أن نسلم بأن روح مصر وإن بقي حياً لم يموت ، فإنه روح خامل ، قد قنع أصحابه من الحياة بما تفخ الله فيهم أول مرة ، فهم لم يتعدوا في آخر مراحل تاريخهم

ما بلغوه في أولى مراحلهم ، بل هم لن يجاوزوا في آخر الدهر ما كانوا عليه في فجر التاريخ . . . وهم إن استطاعوا ذلك فلن يكون تجاوزهم إلا على قدر معلوم ! الواقع أن البيئة في مصر من ذلك النوع الذي يكرر نفسه في نظام فعلي عجيب . فالليل يرتفع وينحسر في كل خريف ، والفيضان يجدد ثروة الأرض في كل عام ، والعمل الزراعي يتطلب نشاطاً معيناً لا يخرج عن نطاقه المرسوم متى قسمت الأرض إلى حياض ترويهما الترع وتحتها الجسور ، وحياة الجماعات في قرى الوادي ينظمها عرف عريق في القدم ، قد وضعت أسسه ونواميسه الأولى عند ما تحول السكان من الحالة القبليّة ، أي التي كانت فيها القبيلة وحدة المجتمع ، إلى الحالة القروية أي التي صارت فيها القرية نواة المجتمع . كذلك الاتصالات بين الجماعات في جنوب الوادي وشماله حدثت كلها أو جلها عن طريق النهر وجسوره ؛ إذ مهدت الطبيعة لأن يتم التعارف بين الشمال والجنوب ، بل لأن تمتاز الحياة في الوادي ودلتاه عنها في غير مصر مما يقع فيما وراء الصحراء أو ما وراء البحار . . . واستمتعت مصر خلال تاريخها الطويل بنوع من العزلة النسبية وراء دروع الصحراء ، فاستطاعت أن تحتفظ بطابعها الخاص بين الشرق والغرب ؛ وحفظ ذلك على مصر شخصيتها الحضارية المميزة ، وإن كان قد أظهرها في أعين الباحثين بمظهر الجمود والثبات على القديم في عالم كثر فيه الاتصال ، وصار من الصعب على أمة من الأمم أن تحتفظ بطابعها المميز في الحياة والمدنية لا أكثر من أجل معلوم . . . أما مصر فقد عاشت وعاش طابعها على الزمن ، على حين تتابعت ودالت من حولها أمم كثيرة في أرض سومر وأرض بابل والجزيرة العليا وهضبة الحثيين وأرض سوريا وفلسطين وجزائر أقریطش وإيجة وأرض اليونان والرومان . . . كل هذه مناطق نشأت فيها مدنات قديمة ، ولكنها ماتت أو جرى عليها الزمن فطغت عليها معالم جديدة من المدنية المحلية أو الخارجية ، بخلاف مدينة مصر التي جمعت إلى القدم والعراقة دوام الاتصال والاستمرار . . . ولعل هذا أول ما حدا بفريق من الباحثين إلى أن ينسبوا إلى أهلها شدة التمسك بالقديم والثبات عليه .

على أن خير ما يعيننا على أن نحقق أكان المصريون محافظين على القديم أم مجددين ، أم آخذين من كل المحافظة والتجديد بطرف ، إنما هو أن نستعرض معالم حضارتهم التاريخية ؛ متتبعين عناصر الدوام والثبات من جهة ، وعناصر

التطور والتجديد من جهة أخرى ، مقسمين الحياة والحضارة المصرية إلى جانبها الأساسيين : الجانب المادى المادى ، وهو الذى يتصل على الخصوص بالزراعة ، والحياة الزراعية ، وما يرتبط بهما من نشاط واقتصاد قومى عام ؛ ثم الجانب الفكرى والروحى ، وهو الذى يتصل بالثقافة المصرية ، وما امتازت به من طابع أو طوابع معينة خلال أعصر التاريخ .

فلما عن الجانب الأول فمعروف أن الزراعة كانت عماد الحياة والمدنية فى مصر منذ البداءة ، وقد بقيت كذلك حتى يومنا هذا ؛ وأغلب الظن أنها ستبقى كذلك فى قابل الأيام ، رغم ما ينتظر من ازدهار بعض الصناعات فى التعدين أو الإنتاج الصناعى الحديث . على أن الشئ المهم والذى ينبغى أن نلاحظه وتسجله هو أن الزراعة فى مصر لم تكن فى يوم من الأيام زراعة فطرية من ذلك النوع الذى نلاحظه فى بعض جهات إفريقية الداخلية مثلاً ، والذى يعتمد على المطر ، فيحفر الزارع حفرة صغيرة يضع فيها الحب ثم يتركه للأمطار تغذيه حتى موسم الحصاد . وإنما الزراعة فى مصر كانت منذ الألف الرابعة قبل الميلاد على الأقل معتمدة على فلاحه الأرض التى يغمرها الفيضان ؛ وقد اتصلت من أجل ذلك بأعمال هندسية تمثلت فى إقامة الجسور ، وحفر الترع ، وتنظيم جريان الماء إلى الحياض وانصرافه عنها إلى النهر بعد أن يرسب غرينه ؛ وتلك كلها عمليات كبرى تحتاج إلى هندسة وتعاون وتنظيم . لذلك لم يكن ممكناً للزارع المصرى أن يعمل بمفرده ، ولا أن يفلح أرضه مستقلاً عن جاره ؛ وإنما كان عليه أن يعمل كفرد فى مجموعة من الزارعين الذين يتعاونون فى عمل زراعى هندسى ، هو الأساس الذى قامت عليه مدينة مصر الزراعية ، وامتازت به على غيرها من المدن الزراعية الفطرية التى لم ينته بها الأمر إلى قيام مجتمع زراعى معقد النظام ، كما حدث فى وادى النيل الأدنى . ولذلك كله نشأت المدينة الزراعية فى مصر معقدة منذ فجر التاريخ ، وربما كانت قبل ذلك . بل إن من الجائز أن نقول إن ظهور الوحدة السياسية و بروز الأسمات الحاكمة إنما قام فى الأصل على أساس من المصلحة المادية المشتركة لسكان الوادى ومزارعيه ؛ فكان فرعون ورجال حكومته الإقليميه هم القوامين على مشروعات الري ، وتنظيم الجهود الإجماعية المتصلة بالزراعة ؛ بل كان فرعون مهندس الري والزراعة الأول فى ذلك العصر ، إن جاز لنا أن نستعير مثل هذا التصوير . وبذلك كله اكتملت لمصر

عناصر الحياة المادية التي يتداخل فيها الاقتصاد القومى بالإدارة الحكومية ؛ وهو أقصى درجات التقدم والتعقيد فى نظام المجتمع ، بل هو متأخرت فى تحقيقه عن مصر أم كثيرة ، ننظر إليها الآن على أنها تمثل أرقى الأمم وأبعدها أخذاً بوسائل التجديد ! وقد يبدو عجيباً أن تكون مصر قد احتفظت باقتصادها القومى الموجه خلال عصر التاريخ ، وأنها لم تحد عن كثير من نظمها الزراعية فى الري والإنتاج وما يتصل بهما من تنسيق جهود الفرد والجماعة منذ اكتملت وحدتها الحكومية فى أواخر الألف الرابعة قبل الميلاد . ولكن هذا العجب لا يثبت أن يزول إذ نلاحظ أن البيئة فى مصر هى من ذلك النوع الذى يقضى بالوحدة والتنظيم والتنسيق الدقيق ، والذى يغلب جهود الأفراد بل الجماعات البشرية متفرقة ولا يخضع لها إلا مجتمعة . وقد يكون هذا هو السر فى أننا كنا خلال تاريخنا كله شعباً يسلس تنظيمه وتنسيق جهوده بل قيادته متى وجد الحكم الصالح . . . فقد تعلمنا ذلك فى ميدان الزراعة ، ومن صلتنا بنهر النيل أول الأمر ؛ ثم انطبع ذلك فى نفوسنا ، فهو يتمثل فى عمل المجموعات الصغيرة من الأفراد والعمال حين يجتمعون فيعملون معاً ، ويحتاج الأمر إلى رئيس أو «خولى» لا يساهم فى العمل الفعلى ، ولكن وجوده وقيادته ضروريان لإنجاز العمل ؛ كما يتمثل أيضاً فى الإدارات القروية والحكومات المحلية ، ثم الحكومة المركزية العامة . ولعل احتفاظ المصريين بهذه الخاصة التى جبلتهم عليها طبيعة بلادهم ونوع الزراعة المعقد الذى مارسوه من أول الأمر ، هو الذى أظهرهم فى أعين الباحثين ممن لا يتعمقون الأمور بمظهر المحافظين على القديم ، المستكينين للعرف والتقاليد ، مع أن كل ما حدث هو أن مجموعة من النظم الاجتماعية والاقتصادية نشأت فى البيئة المصرية وكانت صالحة للبقاء ، بل ضرورية لحياة المجتمع وتنظيم نشاطه ، فبقيت وعمّرت ، بل أصبحت مقياساً لازدهار الحياة فى مصر ؛ ففى الأوقات التى استمسكت فيها مصر بنظمها الحكومية التى تستند إلى الوحدة المحلية فالوحدة الإقليمية فالوحدة القومية الشاملة ، ازدهرت الحياة فى وادى النيل ، وبلغت هذه الأمة شأوقوتها ؛ وفى الأوقات التى انصرف فيها الناس عن النظام والتضامن التقليديين انحلت عرى المجتمع ، ودخلت مصر فى عهد من عهود الإقطاع المظلمة ، وبقيت كذلك حتى يبعث الله الوحدة ، فيعاود المجتمع سيرته الأولى ، وتعود إليه الحياة والقوة من جديد .

ومع ذلك ففي ميدان الزراعة والنشاط الزراعي في ريف مصر نستطيع أن نميز بين ثلاثة أشياء : أولها وسائل الزراعة والري ؛ وثانيها أنواع النباتات والمحاصيل الزراعية ؛ وثالثها الحيوانات المستأنسة والمستخدمة في الزراعة . وفي كل من هذه الأشياء الثلاثة نستطيع أن نقبين مبلغ تمسك المصريين بالقديم أو سعيهم إلى التجديد . وقد كان المصريون أول الأمر يفلحون الأرض بوساطة قووس حجرية ينقرون بها الثرى بعد انحسار الفيضان مباشرة ، ثم اكتشفوا استعمال المحراث في أواخر الدولة القديمة (الأسرة الخامسة على الأقل) ، وكان في أول الأمر يشبه الفأس الحجرية القديمة ، ثم تطور في شكله حتى صار له سلاحه المعدني المعروف . ومع ذلك فمن الطريف أن نلاحظ أن ظهور المحراث لم يؤد إلى اختفاء الفأس ، وإنما سار الاثنان جنباً إلى جنب ؛ حتى في عهدنا الحديث نرى الفلاح يستخدم الفأس والمحراث القديم ، وبعض المحارث الآلية الحديثة في المزارع الكبيرة ؛ وكثيراً ما يستخدم آلتين أو أكثر من هذه الآلات في الزرعة الواحدة ، فيحراث أرض القطن مثلاً حرثتها الأولى بمحراث آلي ، ثم يعيد حرثها بمحراث قديم ، ثم ينقر الأرض للزراعة ووضع البذور بوساطة الفأس . وفي هذا كله يتجلى كيف أن ظهور آلة جديدة لم يقض على ما سبقها من آلات ؛ وإنما كانت الوسائل والآلات يضاف بعضها إلى بعض ؛ وفي هذا معنى للاحتفاظ بالقديم احتفاظاً لا يمنع من التجديد . وقد تمثل هذا بعينه في آلات الري وأدواته ؛ فهناك الشادوف ، ولا بد أنه من أقدم الآلات ، ثم هناك الساقية وهي شادوف آلي معقد يدار بالقوة الحيوانية ، ثم هناك آلة أرشميد أو « الطنبور » وقد ظهرت في العهد الإغريقي الروماني ، ثم أخيراً هناك الآلات الرافعة الحديثة ؛ ومع ذلك نلاحظ في مصر استمرار هذه الآلات والأدوات جميعاً ؛ لأن الجديد في مصر لا يححو القديم ولا ينسخه ، خصوصاً إذا كان القديم ملائماً لنوع معين من الزراعة ، كما هي الحال في الشادوف ، فهو آلة مناسبة جداً لرى المساحات الصغيرة والجسور الضيقة على حافات الترع وبنيات النيل ، حيث لا يجدي غيره من الآلات .

ومثل هذه الظاهرة نلاحظها أيضاً في المزروعات والمحاصيل . فقد زرع المصريون أول ما زرعوا الشعير والقمح ، وهما محصولان شتويان مناسبان جداً للمناخ والبيئة المصرية ؛ إذ يزرعان في الخريف ، أي عقب انحسار الفيضان

مباشرة ، ويستمران في الأرض خلال أشهر الشتاء أى في موسم الأمطار الشتوية ، وينضجان في أواخر الربيع . ويقال إن الشعير البرى ينمو بطبيعته في شمال إفريقيا الشرقى وشرقها ؛ فلا بد أنه استنبت في ذلك الإقليم لأول مرة . أما القمح فمن الجائز أن يكون استنباته بدأ في جهة أو أكثر من جهات الشرق الأدنى والأوسط ثم أدخل إلى مصر . وسواء أصحت هذه الآراء أم لم تصح ، فإن مصر عرفت الشعير والقمح منذ العصر الحجري الحديث ، أى منذ أواخر الألف السادسة قبل الميلاد . وبعد ذلك استنبتت نباتات أخرى من بقول الشتاء وأفواله ، وكذلك الكرم والزيتون وغيرها من مزروعات حوض البحر المتوسط . كما أن مصر كانت تضيف باستمرار إلى ثروتها النباتية والزراعية خلال تاريخها الطويل ، فدخلتها على الخصوص محاصيل الجهات الدفيئة والحارة من الشرق الآسيوى (جنوب آسيا وجنوبها الشرقى) ، ومنها قصب السكر والقطن ، اللذين لم يتوسع في زراعتهما إلا في القرن الأخير ! وكذلك الأرز والبرسيم ، وقد اتسعت زراعة الأول عقب إدخال الرى الصينى ، أما الثانى فقد عرف منذ بضعة قرون ، وكان لإدخاله أثر كبير في ثروة مصر الحيوانية من جهة ، وفي تغذية التربة وتجديد قوتها من جهة أخرى . كذلك أدخلت إلى مصر محاصيل أخرى من العالم الجديد بعد استكشافه ، أهمها من غير شك الذرة البيضاء ، التى لم تعرفها مصر قبل قرن ونصف قرن من الزمان ؛ ومع ذلك فقد صارت الآن ، وبفضل الرى الدائم ، الغذاء الأساسى للفلاح ؛ وربما كان هذا من شبر ماجرته علينا الثورة الزراعية الحديثة . فقبل إدخال هذه الذرة كان القمح هو الغذاء الأصلى للفلاح ، وهو بالطبع غذاء أصلح وأوفى . بل قد لانكون مغالين إذا ما نحن قررنا أن الفلاح المصرى في العهد الفرعونى وخلال القرون الوسطى كان يحصل على غذاء أفضل مما يحصل عليه الآن . . . ومن يدرينا ! فقد يكون اختلاف التغذية وضعفها في العهد الحديث من أسباب ما نلاحظ من اضمحلال في حيوية الفلاح وضعف في قواه الإنتاجية ، في وقت تعرض فيه أيضاً لكثير من الأمراض الطفيلية الناتجة عن إدخال نظام الرى الدائم .

المهم من كل هذا أن الريف المصرى قد تطور في مظهره تطوراً شاملاً خلال عصر التاريخ ، فتواردت المحاصيل ، وبعضها من إفريقية وبعضها من

آسيا، وبعضها الآخر من العالم الجديد ؛ وهي محاصيل كثيرة لا سبيل إلى حصرها في مثل هذا المقال (١) . وقد زاد من مقدرة مصر على إنتاج هذه الأنواع جميعاً اعتدال مناخها وإدخال نظام الري في أشهر الربيع والصيف ، مما يَسر نمو المزروعات على طول العام . ولو أن فلاحاً مصرياً من عهد القراعنة بعث اليوم في الريف المصرى في أشهر الصيف لهاله ما يرى من اختلاف مظاهر البيئة في كل شئ . فالحقل المصرى من هذه الناحية قد أصابه من التطور والتغير ما غير معالمه الأولى تغييراً كاملاً شاملاً ، لاسيما في أراضى الدلتا النسيحة ، حيث لا مجال إطلاقاً لأن يتحدث متحدث عما يمكن أن نسميه محافظة على القديم ؛ اللهم إلا إذا اعتبرنا احتفاظ مصر بأنواع صالحة من محاصيلها القديمة كالشعير والقمح محافظة على القديم .

ومثل هذا تكرر في حالة الحيوانات المستأنسة والزراعية . فقد كانت الثروة الحيوانية في تجمدد دائم ، وأضيفت إليها أنواع جديدة دخلت أو أُدخلت من الجنوب أو من الشرق أو من الغرب في عصر متتابعة . فعرف المصريون الأولون البقر الإفريقى ذا القرون الكبيرة المقوسة ، عرفوه في الألف السادسة قبل الميلاد ، واستمر في مصر حتى قل ثم انقرض في أواخر العهد الفرعونى أو في أعقابه على ما يظهر ، ولو أنه لا يزال سائداً في السودان . ثم عرف المصريون البقر الآسيوى ذا القرون الصغيرة المستقيمة في آخر الدولة القديمة وحل بالتدريج محل البقر الإفريقى ، وصار الآن هو السلالة السائدة في البلاد . أما الجاموس فحيوان حديث جداً في البيئة المصرية ؛ ذلك أن السلالة الإفريقية منه لم تستأنس على الإطلاق ، ولا تزال تعيش وحشية في أعالي النيل ؛ أما السلالة المستأنسة فآسيوية وصلت إلى مصر من الهند عن طريق إيران والشرق الأوسط في أواخر القرون الوسطى أى حوالى القرن السادس عشر على ما يظهر . فالجاموس المستأنس لم يكن معروفاً في مصر الفرعونية ولا مصر العربية الأولى ؛ رغم ما قد يبدو في ظاهر هذا القول من غرابة ، ولا يزال عدد الجاموس إلى اليوم أقل قليلاً في ثروة مصر الحيوانية من عدد البقر . أما

(١) هناك أنواع مختلفة من الخضر كالطماطم والبطاطس وغيرها وكذلك من الفواكه الدفينة كالبرتقال والموالح والموز والمانجو وغيرها ؛ وكلها أدخلت إلى مصر في أوقات مختلفة .

الأغنام والماعز فقد عرف المصريون الأقدمون منها سلالات مختلفة ، يقال إن بعضها إفريقي شمالي وبعضها الآخر آسيوي . كما عرفوا الخنازير ، ومنها سلالة إفريقية شمالية ، ربما كانت بداية استئناسها في مستنقعات الدلتا في الألف السادسة قبل الميلاد أيضاً ؛ ثم سلالة آسيوية هندية أدخلت في عهد الإغريق والرومان . . . ثم قلت تربية الخنازير حتى كادت تنقرض في العهد الإسلامي . ومن دواب الحمل عرف المصريون الحمار في الألف الخامسة أو الرابعة قبل الميلاد ؛ ويقال إن موطنه الأصلي شرق إفريقية أو غرب آسيا أو الاثنين معاً وما جاورهما من داخلية آسيا . والمهم أن هذا الحيوان الخدم عاصر الحضارة المصرية في أدوار تكوينها الأولى ، واستمر حتى يومنا هذا ، وكان له دور خطير في النشاط الزراعي في الحقل والقرية على حد سواء ، ولم يزد تقدم الزراعة وتنوع المزروعات ثم ظهور الثورة الزراعية الحديثة ، أهمية هذا الحيوان ونصيبه من الكدح والجهاد إلا تأكيداً ؛ فهو حيوان نافع في حمل الأثقال كما هو نافع في الانتقال الريفي . ويظهر أن المصريين الأقدمين استخدموه في الغرض الأول دون الركوب ، ثم تعلموا بعد ذلك أن يمتطوه ، وكان طبعاً في الحالتين ! حتى إذا ما جاء العهد الحديث والرى الدائم ، وظهرت حاجة التربة المصرية إلى التسميد ونقل الأتربة بين الحقل والقرية وبين القرية والحقل ، نهض الحمار بهذا الحمل الذي لولاه ما احتفظت التربة بخصبها وقوتها . والحق أن واجب الاعتراف يقتضينا أن نذكر لهذا الحيوان فضله ومكاته في البيئة المصرية . وليس بمستكثر أن يضيف الباحث أنه لولا وجود هذا الحيوان في بيئتنا لنقص تلك البيئة شيء كثير . ولو قد أتيح لهذا الأخرس أن ينطق لأفصح عن معاونته الخطيرة فيما بنته يد الإنسان ، ولتحدث عن غير قليل مما سبق إليه من فضل على الناس ! أما الحصان فجاء متأخراً ، ولم يعرفه المصريون إلا أيام الهكسوس ثم في الدولة الحديثة . وهو حيوان آسيوي ، موطنه وسط آسيا . استؤنس في الألف الثالثة قبل الميلاد ، ودخل مصر حوالي عام ١٧٠٠ ق . م . ، ثم ظهرت فصيلته العربية قبل الإسلام بقرون ؛ وادخلت إلى مصر مع سائر البلدان المجاورة للبادية العربية . وقد كان للخصان فضل مشهور في حروب مصر وفتوحاتها القديمة . أما الجمل فيقال إنه كان معروفاً في الصحاري المجاورة لمصر في العهد الفرعوني ؛ ولكنه على كل حال لم

يستخدم في مصر ذاتها إلا في العهد الروماني ، بل في أواخره . ويقال إن الجمل لم يستخدم في طرق إفريقية الصحراوية إلا في القرن الرابع الميلادي وما بعده . وعلى كل حال فالجمل لا يزال حيواناً غريباً بعض الشيء في البيئة المصرية ، ولا تزال مصر بحاجة إلى أن تجدد ثروتها منه في كل عام بما تجلبه من جمال الصحراء ، حتى يحتفظ النوع بقوته وحيويته .

وغير هذه الحيوانات التي ذكرنا كثير . ولكن فيما أتينا به ما يكفي لأن يدل على أن الريف المصري قد تغيرت ثروته الحيوانية تغيراً ظاهراً في عصر التاريخ ، فاحتفظ ببعض حيواناته القديمة وأهمها الحمار ؛ ولكنه جدد وتوسع ؛ واختفت منه بعض الأنواع والسلالات على حين دخل بعضها الآخر إلى هذا المسرح الذي تداولت من فوقه أمم الحيوان .

كل هذا من مقومات الحياة والمدنية المادية في الزراعة المصرية وما يتصل بها من نشاط في استنبات النبات وتربية الحيوان ؛ وهو الجانب الذي تعمدنا تفصيله بعض الشيء في هذا المقال نظراً لقلته ما هو معروف عنه بصفة عامة . ولا يتسع المجال الآن لأن نتتبع بعض الحرف والصناعات الأخرى التي قامت إلى جانب الزراعة أو تفرعت عنها . ومع ذلك فإن ما ذكرناه عن الزراعة ينصرف إلى تلك الحرف الكثيرة من حيث المحافظة على القديم وإضافة الجديد إليه . فأما الجانب الآخر من حياة المصريين وحضارتهم ، وهو الجانب الثقافي ، فمعروف عنه الكثير ؛ وقد سبق أن عالجناه في مقال سابق^(١) ، فيكفي أن نجتزئ الآن بما له صلة مباشرة بالموضوع . وقد يكفي أن نذكر أن هذا الجانب من حياة المصريين وحضارتهم لم يختلف عن الجانب المادي في كثير ، من حيث إن المصريين احتفظوا ببعض عناصر ثقافتهم القديمة ، ولكنهم أخذوا عن غيرهم من الأمم بمثل ما أعطوا وقدّموا للعالم الخارجي في الشمال والجنوب وفي الشرق والغرب . فقد تطورت لغة المصريين مثلاً وكتابتهم أيام الفراعنة ، فظهرت الكتابة الهيروغليفية والديموتيقية ثم القبطية ، واستخدمت الإغريقية في بعض مدائن مصر لا سيما الإسكندرية ؛ حتى إذا ما جاء العرب أخذ المصريون عنهم لغتهم التي يتكلمون ويكتبون . وكان المصريون الأقدمون

قبل ذلك قد أثروا بكتاباتهم الهروغليفية أو ببعض عناصرها في كتابة الفينيقيين عن طريق شبه جزيرة سيناء ، وبذلك ساهموا في نشأة الكتابات والأبجديات اللاحقة في الشرق ثم الغرب .

وفي ميدان الدين كانت للمصريين الأقدمين معتقداتهم وعباداتهم القديمة التي نشأت كلها تقريباً في أرض النيل ، وتأثرت بظروف البيئة المحلية . ولكنهم مع ذلك احتكوا بغيرهم في مدرسة عين شمس أول الأمر ثم في الإسكندرية في عصر لاحق ، وأثر الفكر الديني المصري في الفكر الإغريقي ثم المسيحي ؛ حتى إنه ليقال إن قصة مريم العذراء والمسيح عليه السلام كما تصورها المسيحية لتشبه من بعض الوجوه قصة إيزيس وابنها الإله حورس في مصر القديمة ، وإن خروج المسيحية عن التوحيد الخالص وأخذها بفكرة الثالوث إلى جانب فكرة التوحيد ليذكرنا بما كان في مصر القديمة من ثوابت بين الآلهة ، رغم سيادة إله معين على غيره من الآلهة . ولكن الشيء المهم على كل حال أن اتصال مصر بالفكر الديني الشرقي في العهد المسيحي مهد السبيل لأن تتقبل مصر أفكار الشرق الموحد ، وتزواج بينها وبين أفكارها هي ، على نحو أدعى إلى الاستقرار والدوام مما حدث أيام أخناتون فيلسوف مصر الموحد في العهد الفرعوني ؛ فقد تأثر ذلك الفيلسوف — فيما يرى بعض الباحثين على الأقل — بلون من ألوان الفكر الديني الموحد ، وحاول أن يفرضه على الفكر الديني المصري ، ولكنه لم يوفق ؛ لأن الأفكار الدينية التي نشأت في مصر وفي البيئة المصرية كانت أقوى من أن تزعمها استعارة من الخارج أو وحي جديد لا يمت إلى الفكر المصري الأصيل بسبب قوى . أما المسيحية فكانت في ثوبها الذي ظهرت به في القرنين الثاني والثالث وما بعدها خليطاً من الفكر الشرقي الضارم في توحيده والفكر المصري الإغريقي الذي يأخذ من الآراء والمعتقدات القديمة بطرف أو أطراف . لذلك كان يسيراً على الفكر المصري أن يتقبل الديانة الجديدة ، بل أن يتعصب لها ويدافع عنها ضد اضطهاد الرومان . . . وقد لا تعالى إذا قلنا إن توغل المسيحية في مصر يمثل مرحلة انتقال ضرورية مهدت للسبيل لما جاء بعدها ، وأنه لولا هذه المرحلة ما استطاع الإسلام ، وهو دين شرقي جديد صارم في توحيده ، أن ينتشر في مصر . ومع ذلك كله فإن الإسلام لم ينتشر في أرض النيل دفعة واحدة ، وإنما دخل الناس فيه تدريجياً . ويبدو

أن الكنيسة القبطية بقيت قوية متماسكة حتى القرن الثالث عشر ، عندما اضمحلت وكثرت فيها المشاحنات الداخلية ، فدخل كثير ممن بقي من أتباعها في الدين الجديد أفواجاً . وفضلاً عن ذلك كله فإن الإسلام عندما شمل مصر لم ينسخ كل ما قبله من عقائد وتقاليد تتصل بالعادات والعبادات ؛ وإنما استمر كثير مما تعارف عليه المصريون منذ أيام الفراعنة كالعادات الجنائزية وصلات الأحياء بالأموات ، ثم العادات الاجتماعية في الموالد والأفراح ، والصلوات الشعبية والروابط القروية والأسرية وغير ذلك مما ينظم العرف والتقليد أحياناً كثيرة ، وينظم القانون في بعض الأحيان .

وهكذا انتهى الأمر إلى ما نراه في العهد الإسلامي من جمع بين الفكر القديم والفكر الحديث في رباط ظاهره التناقض والمتناقضات ، ولكن باطنه ينطوي مع ذلك على كثير من التوافق والتكافل . ذلك أن الانتقال في الفكر الديني المصري لم يكن مفاجئاً كما ذكرنا ، ولم يأت عن طريق الثورة الجامحة على القديم ؛ وإنما جاء عن طريق المزاوجة والتكافل بطريقة آلية بين هذا الجديد الذي أخذناه عن الخارج وذلك القديم الذي احتفظنا به عن تراثنا الخالد . وواضح أنه لا يجوز ولا يمكن أن يعتبر من الإلصاق العلمي في كثير أو قليل أن نلتفت إلى القديم الذي احتفظنا به فنقول إن المصريين جامدون محافظون ، وأن نعرض في الوقت نفسه عن الجديد فلا نقول إنهم متطورون مجددون . فنحن أمة قد جمعنا بين القديم والجديد . وليس هذا التناقض الظاهر في حياتنا الفكرية والروحية غير مظهر لا يعس الجوهر ؛ لأن جوهر الروح المصري قادر على أن يجمع بين القديم والجديد في غير حرج ؛ بل قادر على أن يجد غذاءه ويستمد لبانه من الاثنين . وترجع مقدرته هذه إلى أنه روح طويل العمر ، قد حاصر التاريخ كله ، فكانت له من تجاربه التي توارثتها الأجيال ، تلك المقدرة النادرة التي امتازت بها مصر على كثير غيرها من أمم الأرض التي لم تتصل حياتها ولم يحفل تاريخها بدروس العبر وأحداث السنين .

ونستطيع أن نستطرد إلى جوانب أخرى من حياة المصريين في غير اللغة والدين والعادات والتقاليد ، فنلاحظ احتفاظ مصر ببعض قديمها ، ونزعها إلى التجديد في الوقت نفسه ؛ وهو أمر مائل في كثير من مظاهر حياتها الحديثة بعد أن اتصلت بالغرب في العصر الحديث . ولكن أمر هذا الاتصال معروف

بما لا يدع حاجة إلى إطالة . ويكفى أن نذكر أن مصر رغم ما أصابته في نهضتها الحديثة من تغيير شمل كثيراً من جوانب الحياة مادية وثقافية ، فإن التغيير والتجديد فيها اتخذ صورة التطور المتتد والتحول الهادئ تارة ، واتخذ صورة الثورة العنيفة والتبدل السريع تارة أخرى . ولعلنا إن دققنا النظر وأنعمناه واجدين أن مصر كانت دائماً تعتمد إلى الطريقة الأولى ، فتهادى ولا تنفض القديم كله ، إذا مس التغيير عنصراً من عناصر المدنية والحضارة الأصيلة ، أى التى نشأت فى البيئة المصرية ، كتغيير وسائل الزراعة فى الحقل المصرى الصغير ، أو تغيير التقاليد والعادات الاجتماعية والروحية وغيرها من تراث مصر القديم ؛ فكل ما حدث فى هذا الميدان إنما كان إضافة من الجديد إلى القديم ، أو تهذيباً للقديم بما يزاوج بينه وبين الجديد فى صورة تحفظ من القديم روحه حيناً ومظهره حيناً آخر ، وتلازم بين الجديد وبين ما تقتضيه البيئة وظروف الحياة فى مصر . أما إذا مس التغيير والتجديد عنصراً من عناصر الحضارة أو الثقافة التى استعارتها مصر من الخارج فى فترة من فترات تاريخها الطويل ، فإن المصريين لا يجدون حرجاً فى أن يندفعوا فى طريق التغيير والاستبدال السريع . ومن آيات ذلك ، إن أردنا التمثيل ، ما أصاب المجتمع الحضري فى مصر إبان عهد الأتراك من عادات كثيرة تتصل بالأسرة والحجاب بين النساء ، والقطيعة بين المرأة وبين أن تساهم فى الحياة والثقافة العامة ؛ فإننا ما لبثنا أن خرجنا على ذلك كله ونقضناه فى العهد الحديث . وكان خروج المرأة إلى الحياة العامة فى المدن المصرية ومساهمتها فى النهضة الحديثة ثورة ، أو هو أدنى إلى الثورة منه إلى التطور البطئ ؛ لأن الأمر لم يعد أن يكون استبدالاً لعادة أجنبية بعادة أخرى دخيلة . كذلك الحال فيما أخذنا بسبيله من التجديد فى التعليم والتشريع على نسق أمم الغرب ؛ فإننا فى التعليم لم نبن على النظام الأزهرى الشرقى القديم ؛ وإنما أخذنا فى شئ من العنف بلون جديد من التعليم المدنى ؛ وترتبت على ذلك ثنائية غريبة فى تعليمنا القومى . وحتى الأزهر نفسه لم يأنف أن يأخذ بالأسلوب الجديد ، فداخله التجديد وغزته العلوم الحديثة فى عقر داره . أما فى التشريع فإننا لم نجد حرجاً فى أن نضيف إلى الشريعة التى أخذناها عن الإسلام قوانيننا الحديثة التى أخذناها عن الغرب ، فخلت هذه القوانين محل الشريعة فى أمورنا المدنية والجنائية ، وأخذنا بذلك كله فى يسر .

وسلكنا طريق الثنائية التشريعية في غير ضيق ولا حرج . بل كذلك الحال أيضاً — إن أردنا مثالا ملموساً من الحياة العملية — في لباس المصريين ؛ فمنذ عهد الإغريق والرومان خلع المصريون تدريجياً لباسهم المصري التقليدي والذي يلائم بيئتهم ، واستبدلوا به ألوانا مختلفة من اللباس الفضفاض الذي تغير من عصر إلى عصر خلال العهد العربي والتركي ثم العهد الحديث . وما مرجع هذه الفوضى وتلك الثورات العنيفة في لباس فئات الأمة المختلفة ، وانتقالها من زي معين إلى آخر في ثورة وتبرم ، أو فيما يشبه ذلك ، إلا لأن هذه الأزياء جميعاً مستعارة ؛ فلا يجد المصري حرجاً في أن يشور ويبدل زياً بزي ، في غير ما ضابط يجمع بين طبقات الأمة ويوحد المظهر بين فئاتها المتباينة . وليس أدل على أننا في مصر لا نستنكف التغير والاستعارة المتجددة في هذه الأمور ، أو لا ننظر إليها نظرة الجد والاهتمام ، من أننا أمة تتباين بين أفرادها الأزياء وتختلط بصورة لافتة إلى أبعد الحدود ، ومع ذلك كله لا نكاد نهتم لما قد يترتب على هذا التباين أحياناً من مساس غير مباشر بمقومات وحدتنا القومية .

إلى هنا ونخرج بأننا إذا تحدثنا عن المصريين وطابعهم القومي والحضاري العام فإننا لا نستطيع في يسر أن نقول عنهم إنهم أمة محافظة على القديم ؛ فمثل هذا الحكم لا يجوز أن يطلقه على علاقته غير من لا يتعمقون الأمور ؛ وهو إلى جانب ذلك حكم لا يشمل غير جانب من الحقيقة ؛ فإذا كان المصريون قد حافظوا على بعض تراثهم القديم ، فإنهم لم يقفوا جامدين من نزعات التجديد ، وإنما حفل تاريخهم الطويل بكثير من عناصر التقدم والتطور والابتكار والاستعارة ، وشمل ذلك حياتهم المادية والروحية جميعاً ، وحضارتهم المدنية والثقافية سواء بسواء . والذين يدرسون الأمم الحديثة ويتصدون لاستشفاف مصايرها والتعرف على أقدارها المستقبلية يشبهون الأمم بالأفراد ، فلكل أمة شخصية ذاتية ، وصفة قومية ، يعبر عنها الباحثون الآن بما يسمونه national character . ولن يكون من الإنصاف في حق هذه الأمة العريقة أن نرميها بالجود ، وما بها من جود ؛ ولا أن نقول إنها محافظة إلى حد يقطع بينها وبين أن تسير سنة التطور والتقدم والاجتهاد والتجديد . ولو أن مصر كانت جامدة في تاريخها الخافل الطويل ما عاشت على الزمن ، بل لسبقتها الأيام واندثرت حياتها

ودالت أمتها كما دال غيرها من الأمم . ولئن كانت مصر قد عاشت كل هذه القرون الكثيرة ما ذلك إلا لأنها لم تتقاعد عن أن تأخذ بأسباب التجديد . وغاية ما هناك أن هذا التجديد في مصر لم يؤد دائماً إلى محو كل قديم . وما كان من الخير أن يحق قديم صالح لمجرد قدمه ، ولا أن يستبدل به جديد غير صالح لمجرد أنه جديد . ولو أخذ المصريون بكل جديد صادفهم في تاريخهم الطويل لتغيرت معالم حياتهم بما لا يدع مجالاً للتعرف على شخصيتهم القومية ، تلك التي بقيت على الزمن وغالبت الأيام . وقد يكون من الخير لأبناء مصر ، وهم يترسمون خطاهم ويرسمون خططهم للمستقبل ، أن يعودوا إلى تاريخهم فيدرسوا فيه شخصية أمتهم المميزة ، وعندئذ يعلمون أنهم محافظون يجيدون المحافظة ، ومجددون يحسنون التجديد ؛ بل عندئذ يعلمون أن لشخصيتهم القومية مقومات أساسية نشأت في مصر وتغذت بلبان يثرتها ، فلا سبيل إلى أن تنفضها في عنف ، ولا إلى أن تثور عليها ثورة مصيرها إلى الإخفاق ؛ لأنها تغاير طبيعة الأشياء ؛ كما أن لتلك الشخصية مظاهر أخرى كثيرة جلها مستعار ، ويمكن أن نستبدل به غيره متى كان في الاستبدال ما يفيد وينفع . ولا خوف من أن يندفع الشعب إلى مثل هذا التجديد اندفاعاً ، فهو آخذ به في غير حرج ؛ لأنه شعب عرف في تاريخه كيف يسير الزمن ، وكيف يحدد حياته ويغذي حضارته بما يبتكر أو بما يقتبس عن حضارات الآخرين في الشرق أو في الغرب .

وبعد ، فليس يضيرنا في شيء أن يجمع شعبنا بين القديم والجديد ، وأن يجنح في نهضته الحديثة إلى أن يتنهد ويستمسك بالماضي في أشياء ، وإلى أن يندفع ويمجدد ويقتبس في أشياء أخرى . فمن يدري ! لعل هذه الخاصية العجيبة في شعب مصر أن تكون هي سر الحياة ؛ أو لعلها أن تكون في القليل دليل الحيوية واليقظة التي لا يلهيها غد عن أمس . بل من يدري ! فقد يجد أولئك الذين يقودون نهضتنا القومية في دراسة هذه الخاصية العجيبة وتفهمها على وجهها الصحيح مفتاح النجاح لما يرسمون من خطط في المستقبل .

سليمان مزين

الغز الأكبر

تأملتها - زوَّجى - فنظرها الغض
بدائع خلقٍ قد تألف نظمها
لقد دنتُ بالحب الذي انتظم الدنى

إلى أن دعا داعي المنون بزواجي
وعنى على هذى الكمالات كلها
توليتُ كالمجنون أعولُ منكرًا

مضى العام لأقضى التعجب مذقضت
تُساور عقلى فى الحياة وفى الردى
يُقضى على الخدس بالليل مضجعى
أقابل بين الحالتين ، وأثنى
فيمصمنى أنى إذا هاج لا عجبى
يراجع قلبى هاتفٌ من تصوُّفٍ

عبد الرحمن صدقي

رسائل الزهاوي^(١)

حضرة الأستاذ

بعد التحية والاحترام أشكر لك حسن ظنك بي أما ميلادي من حيث الزمان والمكان فتراه في ترجمة حياتي، وكان عدد سكان بغداد في العهد الذي ولدت فيه مائتي ألف نسمة تقريباً وحالتها الاجتماعية يومئذ منحطة ولا غاية لاكثر رجالها إلا التزلف إلى الحكام الاتراك وولاتهم ولا منافسة إلا في الرتب والألقاب.

واليوم قد بلغ عدد سكانها ٣٥٠٠٠٠ ألفاً على وجه التقريب والأخلاق بعد الاحتلال آخذة في التقهقر والأزمة الحالية شديدة وقد منعتي الكبر والمرض أن أبسط لك المقال في عادات القوم وتقاليدهم وآمالهم وآلامهم وما تستحقه من إصلاح وتجديد.

وأما حالة العراق العامة أيام مولدي فكان في رخاء على الأكثر غير أن الجهل كان يسود أكثر أهله ولم تكن فيه يومئذ مدارس للذكور ولا للإناث إلا الكتاتيب وإلا المدارس القديمة الدينية وكان التعصب شديداً. وقد بنيت الأدب على أنقاض عبد الباقي العمري والأخرس وكلاهما من الشعراء الوزانين المقلدين. فلا جزالة في ألفاظهما ولا ابتكار في معانيهما واذكر أن شاعريتي بدأت وأنا ابن ١٥ سنة ومن أوائل شعري.

أما آن أن نأني على الوطن العارا فتركب أخطارا وتقضي أوطارا

ولك أن تنشر ترجمتي فيما تشاء من الصحف على أن تهدي إلى نسخة منها
وعليك لسلامي.

بمبيل صدقي الزهاوي

في ٨ أيلول سنة ١٩٣٢

(١) الكاتب المصري عدد ١٥ (ديسمبر ١٩٤٦).

ترجمة حياتى ملخصة

ولدت فى بغداد من أبوين كرديين فى يوم الأربعاء ١٨ حزيران سنة ١٨٦٣
أما أبى فهو مفتى العراق محمد فيضى الزهاوى الكبير ويرجع نسبه إلى امرأ
السليمانية (البابان) وهؤلاء ينتمون فى نسبهم إلى خالد بن الوليد . وشهرة
والدى بالزهاوى هى لأن أباه (جدى) أحمد بك هاجر إلى « زهاو » (بلدة
ملحقة فى يومنا هذا بإيران) وسكنها سنين وتزوج فيها بسيدة زهاوية
فولدت له أبى فلما رجع إلى السليمانية مع نجله (أبى) اشتهر أبى بالزهاوى .
وأما أمى فاسمها « يروز » وهى سيدة عصبية المزاج من أسرة كردية
وجبهة (ولعل ورثت العصبية منها) وكنت فى صباى أدعى بالجنون لحركاتى
غير المألوفة وفى شبابى بالطائش لخفتى وإيغالى فى اللهو وفى كهولتى بالجرىء
لمقاومتى الاستبداد وفى شيخوختى بالزنديق لمجاهرتى بأرائى الحرة الفلسفية
المخالفة لآراء الجمهور .

تعلمت كثيراً من علوم الأولين فلم تشبع عقلى وكثيراً من علوم الغربيين فيما
ترجم إلى التركية والعربية على اساتذة خصوصيين فولعت بها ودأبت على المطالعة
وتوسعت فيها . وكان أول نظمى بالفارسية ثم بالعربية ونشرت لى المجلات
والصحف فى مصر وبيروت والشام وبغداد مقالات كثيرة وقصائد ثائرة وأنا
أول من دافع عن المرأة فى العراق وأول من قاوم الاستبداد فى عهد السلطان
عبد الحميد وأول من نظم القصائد القصصية وأول من تمرد على القديم وعنى
بالتجديد وقاوم التعصب .

ولم أتعلم لسوء الحظ لغة غربية وقد تزوجت فى سن الثلاثين بالآنسة زكية
هانم وعمرها يومئذ ١٦ سنة وهى من بيت تركى شريف ولم يولد لنا ولد وقد
خدمتنى فى شيخوختى باخلاص وأمانة .

وعينتنى الحكومة التركية فى أول شبابى عضواً فى مجلس المعارف ببغداد
ثم مديراً لمطبعة الولاية ومحرراً للقسم العربى من جريدتها الرسمية (الزوراء)
ثم عضواً فى محكمة الاستئناف وسافرت بعد سنوات إلى مصر فمكثت فيها
أسبوعاً ثم أبحرت إلى اسلامبول عاصمة البلاد العثمانية يومئذ .
وبعد سنة أرسلتنى الحكومة بأرادة سلطانية إلى اليمن واعظاً طاماً وعضواً

فى الجمعية الاصلاحية وبقيت فيها ٩ أشهر ثم دعيت إلى العاصمة بإرادة سنية واجتمعت فى هذه المرة بالترك الأحرار وجاھرت بالسخط على نظام الحكم يومئذ ونظمت فى ذلك عدة قصائد نشرت فى جرائد مصر بتوقيع مستعار وأصبحت معقبا بالجواسيس وكانت النهاية أن أبعدنى السلطان إلى بلادى براتب شهرى قدره ١٥ جنيه .

وأكثر شعرى الذى كنت نظمته قبل الدستور العثمانى نشر فى ديوانى الأول « الكلم المنظوم » ولما أعلن الدستور العثمانى عدت إلى العاصمة فعينتنى الحكومة الدستورية أستاذاً للفلسفة الإسلامية وأستاذاً للآداب العربية فى جامعها وقد نشرت دروسى التى كنت ألقاها فى الفلسفة بمجموعة دار الفنون باللغة التركية . ثم اشتد بى المرض فأجأتنى إلى الرجوع إلى بغداد أستاذاً للقانون المدنى فى كلية الحقوق .

وفى ولاية ناظم باشا كانت جريدة « المؤيد » فى مصر قد نشرت لى مقالة أدافع فيها عن حقوق المرأة فقامت حول هذه المقالة ضجة كبيرة وأخذ المتعصبون يرغبون ويزبدون ويقذفوننى بالسب واللعن .

والمهذبون من الكتاب فى مصر وسورية يناصروننى ولكن التعصب فى بغداد كان يومئذ ذا صولة فلم يسع الوالى غير عزلى من وظيفتى إرضاء للرأى العام ثم جاء جمال باشا والياً عوضاً عن ناظم باشا فارجعنى إلى وظيفتى .

ثم انتخبت نائباً عن لواء المنتفق فى البرلمان العثمانى فحضرت جلساته فى اسلامبول ثم انفسخ المجلس فعدت إلى بغداد وانتخبت من بغداد نائباً عنها فذهبت إليها ثانية وألقيت الخطب أدافع عن حقوق العراق وعن الحق وقامت حولى الضججات فلم أبال ثم بعد سنتين أو ثلاثة وقعت الواقعة وأعلنت الحرب العظمى واحتلت الجنود الانكليزية بغداد وأرادت أن تأخذنى إلى الهند أسيراً ولكننى أبرزت ورقة فيها صراحة بأنى مكاتب لجريدة المقطم المصرية (وكانت هذه الجريدة موالية للانكليز) فأفرجوا عنى .

وعينت فى عهد الاحتلال عضواً فى اللجنة التى تدير أمور المعارف ثم رئيساً للجنة تعريب القوانين التركية فعربت ١٧ قانوناً بين صغير وكبير ثم ألغيت اللجنة وجاء جلالة الملك فيصل الأول المعظم وتوج ملكاً على العراق واحتفل به فى بغداد احتفالات باهرة كنت المغرذ فيها .

ثم هاجرت إلى سورية فمصر وأقيمت لى فى الشام وبيروت ومصر عدة حفلات ونشرت لى فى الشام وبيروت ست قصائد وفى مصر أكثر من ثلاثين قصيدة وبعد أن أعلن الدستور فى العراق رجعت إليه فعيننى جلالة الملك عضواً فى مجلس الشيوخ ثم بعد ٤ سنوات خرجت من المجلس بالاقتراع الذى كان قد نص عليه الدستور العراقى .

ثم تمت المعاهدة بين الحكومة العراقية وبريطانيا العظمى وكانت يومئذ تنشر لى « السياسة الأسبوعية » (مجلة كانت تنشر فى مصر) كل أسبوع قصيدة فعطلتها حكومة مصر وقد بلغت السبعين من عمرى وبان على الهرم وشلت أصابع قدمى اليسرى منذ أكثر من عشرين سنة وما زالت الأوجاع العصبية تتنابى وتبرح بى .

وأما مؤلفاتى فأولها رسالة باسم « الكائنات » فى الفاسفة أبديت فيها آرائى الحرة فى المكان والزمان والقوة والمادة والحياة والجاذبية وقد طبعت فى مطبعة المقتطف بمصر وتقدت نسخها . والثانى رسالة فى سباق الخيل أودعتها تجاربي الخاصة فى ركض الخيل وقد طبعت فى مجلة الهلال بمصر . والثالث رسالة فى « الخط الجديد » نشرها المقتطف بمصر ثم فى شكل رسالة وقد تقدت نسخها وهذا الخط لا يشبه الخط العربى ولا الحروف اللاتينية ويقدر أن يتعلمه التلميذ فى أسبوع وهو جميل ويكتب متصلاً من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين ويطلع مقطعاً وفيه تسهيل للطباعة فإن كل حرف منه إذا قلب كان حرفاً آخر من الحروف الأبجدية فقام كل حرف بوظيفة حرفين وتعلم ما فى ذلك من الاقتصاد ويمكن لهذا الخط أن يتخذ خطأ عاماً لجميع اللغات . والرابع هو دروسى الفلسفية التى كنت ألقيا على تلاميذى فى جامعة الآستانة . والخامس ديوانى « الكلم المنظوم » وقد نشر فى بيروت بأول سنة للدستور العثمانى وتقدت نسخه . والسادس هو « الفجر الصادق » فى الرد على الوهاية وقد طبع فى مصر قبل الدستور العثمانى وتقدت نسخه . والسابع رسالة « الجاذبية وتعليلها » وقد طبعت فى بغداد بعد رجوعى إليها أستاذاً فى كلية الحقوق . والثامن هو ديوانى الذى طبع بمصر باسم « ديوان الزهاوى » . والتاسع هو « المجل مما أرى » رسالة فلسفية أودعتها آرائى التى خالفت فيها علماء عصرى وبسطت فيها الناموس الدورى العام وغالت الجاذبية العامة بالدفع العام للأثير

الجارى إلى المادة طلباً للموازنة وقد طبعت بمصر قبل ثمانى سنوات . والعاشر رسالة فى لعبة الداما تحتوى على ١٥٠٠ لعبة ٥٠٠ منها لأصحابها و ١٠٠٠ من مستنبطاتى وهذه لم تطبع بعد . والحادى عشر ديوان رباعياتى وقد طبع فى بيروت قبل ثمانى سنوات طبعاً رديئاً مغلوطاً فيه . والثانى عشر ديوانى الذى طبع ببغداد قبل ٤ سنوات باسم « الباب » وأضفت إليه ١٨٠٠ رباعية من رباعياتى منقحة صحيحة وكثيراً من قصائدى المنشورة فى « ديوان الزهاوى » منقحة وما نظمته من القصائد بعده . والثالث عشر « ترجمة رباعيات الخيام » وقد ترجمتها رأساً من الفارسية ثراً ونظماً بعد إثبات الأصل الفارسى فى الصدر وهى ١٣٠ رباعية . والرابع عشر رواية تمثيلية باسم « ليلى وسمير » طبعت فى بغداد قبل سنتين وتفتت نسخها . والخامس عشر رسالة فى تسهيل القواعد العربية لم تنشر بعد . والسادس عشر هو ما نظمته بعد قصائد « الباب » باسم « الأوشال » وقد نشرت قصائده فى مجلات مصر وصحفها والشام وبيروت وبغداد ولم تنشر بعد فى شكل ديوان .

والسابع عشر هو « نزغات الشيطان » وقصائد هذا الديوان لم تنشر بعد فى المجلات والجرائد وسوف تنشر بعد موتى لأنها تصادم آراء المتعصبين وتثيرهم على إثارة لا أحمد عقباها ، والثامن عشر هى قصيدتى « ثورة فى الجحيم » وعدد أبياتها ٣٣٣ وقد نشرت فى العام الماضى فى مجلة الدهور وكانت يومئذ تصدر فى بيروت . وقد قامت حولها ضجة كبيرة ، وقد سبى بسببها بعض المتعصبين على المنابر فى خطبة صلاة الجمعة وتفتت بعد قليل من الزمن نسخها ، وفيما يلى فهرس مندرجاتها :

- ١ — منكر ونكير فى قبر الميت ووصف دقيق لهما .
- ٢ — حوار بين أحد الملكين والميت يحتوى على سئلة كثيرة ، والميت يجامل فى أجوبته .
- ٣ — مصارحة الميت .
- ٤ — وصف الصراط .
- ٥ — السؤال عن الملائكة والشياطين والجن وأجوبة الميت .
- ٦ — السؤال عن السفور والحجاب وجواب الميت .

رسائل الزهاوي

- ٧ — السؤال عن الله وجواب الميت .
- ٨ — إلقاء الحجة .
- ٩ — الله هو الأثير والاختلاف في الأسم .
- ١٠ — امتناع الميت عن الإفاضة في الجواب .
- ١١ — أتركاني ولا تزعجاني .
- ١٢ — تقرير الميت للملكين .
- ١٣ — الالتفاف في السؤال .
- ١٤ — الحوار الأخير .
- ١٥ — عذاب القبر .
- ١٦ — أخذ الميت إلى الجنة ليرى ما حرمه ثم وصف دقيق لها .
- ١٧ — قذف الميت في الجحيم ووصف ما فيها من العذاب .
- ١٨ — حوار بين الميت وولي في الجحيم (ليلي فتاة فرقوا في الجحيم بينهما وبين حبيبها) .
- ١٩ — الشعراء في الجحيم .
- ٢٠ — عمر الخيام يتغنى في الجحيم بالخمرة .
- ٢١ — سقراط يلقي محاضرة على الحكماء في الجحيم .
- ٢٢ — منصور الحلاج في الجحيم يعاتب الله .
- ٢٣ — اختراع أحد أهل الجحيم آلة تطفى السعير .
- ٢٤ — خطبة أحد شباب الجحيم يحدث بها ثورة عامة .
- ٢٥ — المعري ينشد نشيد الثورة ويردد له الجمهور .
- ٢٦ — الحرب بين الزبانية (حفظة الجحيم) وأهل الجحيم .
- ٢٧ — انجناد الشياطين في قيادة إبليس لأهل الجحيم وانتصار الملائكة في قيادة عزرائيل للزبانية والحرب الهائلة بينهما ، ووصف هذه الحرب وانهازام جيش الملائكة وإطفاء الجحيم .
- ٢٨ — احتلال أهل الجحيم للجنة طأرين إليها على ظهور الشياطين .
- ٢٩ — طرد أهل الجحيم بعد احتلال الجنة البله منها .
- ٣٠ — الخاتمة .

مجلد صدق الزهاوي

بغداد في ٨ ايلول سنة ٩٣٢

صديقي الأستاذ الجليل

وصل إلى كتابك الكريم وقد كلفتم فيه شيخا هتما مثلى قد نهكته السنوات
وشلت رجله الأمراض مالا طاقة له به فهو مشغول بألامه عن مثل هذه
المطالب .

وقد أرسلت إليك عددا من « الأوشال » وعددا من ترجمة رباعيات الخيام
وعددا من رباعياتي على أن هذا الديوان مملوء بالأغلاظ فلا تعتمد عليه واكتف
من رباعياتي بما في الباب والأوشال أما « الكلم المنظوم » و « الفجر الصادق »
و « الكائنات » فقد فقدت نسخها ولعلك واجد كتاب الكائنات في القاهرة
فإنه طبع في وقته بمطبعة المقتطف . وأما محاضراتي الفلسفية التي كنت ألقها
بالتركية على تلامذتي في جامعة الآستانة فقد كانت تطبع في مجموعة دار الفنون
تباعاً فمن أين أجدها اليوم لك وقد انقطعت صلتى بها منذ سنين طويلة . وأما
ديوان العمري والآخرس فأنا عاجز عن الحصول عليهما وأما النزاع بيني وبين
الأستاذ الرصافي فليس اليوم كما يكبره المرجفون فكثيرا ما تتلاقى كصديقين .
أما ما كتبه المستشرقون عن الأوشال فكثير غير أني لا أحفظ العبارات
وقد كتب إلى أمين مكتبة الفاتيكان الكبرى قائلاً ما خلاصته « إن ما يحتوي
عليه الأوشال هو أروع ما قرأناه من الشعر العربي العصري » وقال لي أحد
أصحابي إن مجلة من أهم مجلات لندن الإنكليزية نشرت مقالة مفصلة في تقرير
الأوشال غير أني لم أحصل عليه .

وأما كتاب المستشرق الكبير الدكتور ودمر الألماني في ترجمة حياتي
فهو تحت الطبع على حساب أديب ألماني آخر وقد ترجم الدكتور ودمر في كتابه
هذا قصيدة « ثورة في الجحيم » وخمسين قصيدة من « الباب » و ٣٥ رباعية
إلى الألمانية وعدد صفحات كتابه أكثر من ٣٠٠ وسيتم طبعه في الخريف الآتي .
وقد جاءتني قصاصة من برلين تحتوي على مقالة لأحد دكاترة الألمان يذكر
فيها مقابلته لي في بغداد ويكبرني إلى درجة لا أستحقها وجاءت مجلة ألمانية
تصدر في برلين فيها مقالة في ٨ صفحات تشرح المواضيع التي يحتوي عليها
كتاب « ودمر » في

كفاحى الثقافى واختباراتى الصحفية

الثقافة إما أن تكون راكدة وإما مكافحة . وهى تركد حين تعالج موضوعات لا تثير المناقشة . وقد يرجع هذا إلى أن المجتمع نفسه مستقر يعيش فى بيئة زراعية مثلاً ، أو أن حق الحكم منفصل منه إذ يتولى شؤونه مستعمرون مثلاً . وقد بقينا نحن على هذه الحال نحو أربعين سنة فيما بين ١٨٨٢ و ١٩٢٢ حين تقرر لنا حقوق بالدستور كان مجتمعنا فيها منفصلاً من الإدارة الحكومية . وكان المتولون من الإنجليز الذين لا تجدى المناقشة الصحفية معهم عن موضوع تعليمى أو صحى أو اقتصادى . وأذكر أن المرحوم عوض واصف حين أنشأ مجلة «المحيط» فى ١٩٠٣ قال فى العدد الأول إن مجلته ستعالج الشؤون السياسية والحكومية . فردت عليه «المقتطف» بأنه ليست هناك جدوى ؛ لأن المتولين لهذه الشؤون إنجليز لا يقرأون العربية .

ولكن مجتمعنا أثار المناقشة وجعل الثقافة الدينية ، عن طريق محمد عبده ، ثم الثقافة الاجتماعية ، عن طريق قاسم أمين ، موضوعاً للمناقشة الحية . وكانت حالنا فى تلك السنين أشبه بحال روسيا أيام القيصر ؛ فقد كان المفكرون الروس ممنوعين من نقد السياسة ، فأتجهوا إلى الأدب . وكان علينا فى مصر حظر عام بشأن السياسة وانتقاد الحكومة ، فاتجه النقد نحو المجتمع .

وفى أيامى الأولى ، فى بداية وجدانى الأدبى ، وجدت مجلات «المقتطف» و «الهلل» و «الجامعة» ، من المحركات الذهنية ، بل أكسبتنى هذه المجلات توجيهها تجديداً فى العلم والأدب . وكنت قائماً بهذه الثقافة . ولولا حادثة دنشواى لما التفت إلى السياسة أدرس أصولها وأعنى بتفاصيلها فى السنين العشر الأولى من هذا القرن .

وكانت نظرية التطور التى فهمت مغزاها من «المقتطف» البذرة الخصبية فى ثقافتى . فقد أكسبتنى معرفة وأسلوباً ، وعينت لى أصدقائى وخصومى من

المؤلفين والمفكرين، وغرست فى مزاج الكفاح لأنها تصدت للعقائد والتقاليد . وقد تشبع الكفاح من هذه البثورة إلى موضوعات أخرى؛ ولذلك لم أسعد قط بالبرج العاجى . كما أن مغزاها الخطير فى التفكير العلمى والاجتماعى جعلنى دائماً الشك كبير الاستطلاع والمساءلة، وتغيرت الأوزان والقيم عندى، وأخذت بقيم وأوزان جديدة ترى على فجاعتها فى « مقدمة السبرمان » .

فى هذه الرسالة أجدنى أقول بالاشتراكية واليوجنية والتطور وتنظيم الدولة والمجتمع لا ييجاد السبرمان أى الانسان الأعلى الذى نكون نحن منه بمكان الغوريلا أو الشمبىزى منا . وقد كان التفكير عندى فى هذه الشؤون أقرب الأشياء إلى ما يمكن وصفه بأنه « غيبىات » علمية، أخذت مكان الغيبىات الدينية وقتئذ . وفى السنة التى ألفت فيها هذه الرسالة (١٩٠٩) نشرت مقالا فى « المقتطف » بعنوان « نيتشه وابن الانسان » وفى « الهلال » مقالا عن الاشتراكية التى أسميتها وقتئذ « الاجتماعية »، وهذا الاسم الثانى أقرب إلى الكلمة الأوربية من كلمتنا الشائعة الآن « الاشتراكية » . وألفت رسالة فى هذه الموضوعات بعثت بها إلى مطبعة المقتطف كي تطبع . فردتها إلى « المطبعة مع نحو ثمانى صفحات مجموعة . وكنت فى لندن، واعتذرت عن التوقف عن الطبع لأن القانون فى مصر يعاقب على نشر هذه الآراء، ونزلت عن أجر الطبع للصفحات الثمانى . وقد كان هربرت سبنسر يقول إنه يستطيع أن يعرف المستوى الذهنى لأى إنسان بعد مدة قصيرة من التحدث معه . وهو يعنى بهذا أن لكل منا كلمات أو عبارات تتكرر أو يلتفت إليها الذهن كثيراً، وهى تدل على اهتمامات المسلم أى تدل على ثقافته مادة واتجاهها . وحين أرجع إلى نفسى أبحث عن الكلمات التى تتكرر فى مؤلفاتى ومقالاتى أجد أن أكثرها تكراراً : التطور، العالمية، حرية المرأة، العلوم، الحضارة الصناعية، الرجعية، المستقبل أى إنها كلمات تدعو إلى تغييرنا .

وأجد أن تفكيرى فى السياسة والثقافة كان على الدوام يسارياً، وفى الأغلب ارتيادياً . ومما يلاحظ أن جميع الكتاب فى مصر بدأوا حياتهم الأدبية مذهبيين ارتيادين، ثم انتهى كثير منهم إلى ملاذ التقاليد يدعون إلى الفعل الماضى بدلاً من اقتحام المستقبل . كما أنى أجد أن لى استعراضاً ديمقراطياً فى جميع ما أكتب يحملنى على مكافحة الظلمات التى لا تزال حية فى الشرق العربى : فى الاجتماع

والاقتصاد والعقائد . ولذلك لم يتغير موقفي من حيث إنني كاتب مذهبي يساري أكافح الرجعيين الذين يجدون الحكمة خلفنا لا أمامنا ، كما أكافح أيضاً الإقطاعيين الذين يعارضون الاتجاهات الديمقراطية في الأمم العربية .

وقد كانت حياتي الصحفية في مصر ثقافية إلى أبعد حد . فقد أخرجت « المستقبل » في ١٩١٤ وجعلته للكفاح الفكري ، ولم ألتفت فيه إلى السياسة ، وأخرجت ١٦ عدداً ، وكان شبلي شميل من محرريه ومؤيديه . ثم اشتغلت بالهلل ثم بالبلاغ . وفي هذه الجريدة الأخيرة اشتبكت بالسياسة . ولكن همي الأول واهتمامي الأكبر كانا بالصفحة الأدبية . وهذه ثلاثة كتب هي « نظرية التطور وأصل الإنسان » و « مصر أصل الحضارة » و « التجديد في الأدب الانجليزي الحديث » نشرتها كلها فصولاً متتابعة في « البلاغ » قبل أن تجمع في كتب . ووجدت من عبد القادر حمزة ليس الصدر الرحب فقط بل التشجيع أيضاً على أن أمضي في هذه البحوث .

أما « الهلال » فقد حررته من ١٩٢٣ إلى ١٩٢٩ وكان من شروط عملي فيه أن أوّلف كل عام لقرائه كتاباً جديداً يقوم مقام العطلة حين كان ينقطع شهرين . وكان بعض هذه الكتب للتسلية مثل « أشهر قصص الحب التاريخية » وكنت أوّديها على سنبل الواجب الحرفي . ولم تكن تكلفني مجهوداً . ولكن كان بعضها الآخر يحملني على البحث والدراسة ؛ فكنت أوّلف وأنا أعلم ، مثل « حرية الفكر وتاريخ أبطالها » و « العقل الباطن » . والحق أن هذه المؤلفات التي ألفتها وأنا بالهلل ثم بالبلاغ كان كل منها بمثابة المدرسة التي علمتني وأمدتني بالغذاء الذهني سنوات . بل حتى المقالات التي كنت أنشرها في « الهلال » و « البلاغ » وجدت من الناشرين اهتماماً ، فطبع بعض منها مع تنوع موضوعاتها باسم « مختارات سلامة موسى » و « اليوم والغد » و « في الحياة والأدب » . وقد سعدت بهذه المؤلفات على قلة بل تفاهة ما كسبت منها مالياً . وذلك أنني كسبت تربيتي ، كما كسبت هذا التغير الذي وجدته فيمن قرأوها ، وهو تغير كان أحياناً يصل إلى التطور والانقلاب ، وفيما بين ١٩٢٣ و ١٩٣٠ أثير غبار في القاهرة بشأن التجديد في الأدب ، وكان كل أديب يفهم من معنى هذا التجديد غير ما يفهمه الآخرون ، كل تبعاً لمزاجه واتجاهه وثقافته . وأستطيع أن أعين الاتجاهات التجديدية لتلك المناقشات الحامية كما أذكرها الآن فيما يلي :

كفاحى الثقافى واختباراتى الصحفية

- ١ — أن يكون لنا أدب مصرى عصرى لا يرتكن إلى الأدب العربى القديم .
- ٢ — أن يكون لنا أسلوب عصرى فى التعبير لا يمت إلى الجاحظ أو غيره ، مع مداعبة مستحوية للغة العامية . . . وهى مداعبة لم تشر .
- ٣ — أن نأخذ بالأوزان والقيم الأوربية فى النقد الأدبى دون أوزان الناقدين القدماء وقيمهم كالجرجاني أو ابن الاثير أو ابن رشيق .
- ٤ — أن نجعل الأدب يتصل بالمجتمع ويعالج شؤونه ويندغم فى مشكلاته .
- ٥ — أن نوجد القصة والدرامة المصريتين .
- ٦ — أن نجعل الأدب إنسانى الغاية عالمى المشكلات .

والمؤلف بالمقارنة إلى الصحفى يعدُّ ناسكا . فإن المؤلف يتزوى فى غرفته باحثاً منقّباً ، ولكن الصحفى يخرج ويختلط بالمجتمع . ومع أن أكثر مجهودى فى الصحافة كان ثقافياً فى بحث العلوم والآداب فإنى قد مسست السياسة أيضاً ، وأحيانا اقتحمت غبارها حتى عصفت بى فى كثير من الأوقات . ولكن أعظم ما يعزىنى أن ما عصفت بى كان أيضاً يعصف بالامة ، وأتى فى كفاحى الصحفى كنت أ كافح للديمقراطية التى حاول المستبدون أن يحرمونا منها .

وأول اختبارى للصحافة كان فى « اللواء » فى ١٩٠٩ ؛ فقد قضيت فيه نحو أربعة أشهر مع فرح أنطون ، وكان يرأسنا رجل مهذب كان يدعى عثمان صبرى وكان صهر مصطفى كامل ، وكان قد تولى الرئاسة بعد المرحوم الشيخ عبد العزيز جاویش الذى كان قد أغضب الأقباط بكلمات نابية . وكنا نكتب فى المطالبة بالجلء ، ولا مفاوضة إلا بعد الجلاء . وهذه عبارة كان يستنكرها بعض الساسة فى مصر ؛ أما الآن فلا تستنكر ، وقد عمل بها الهنود حين أصروا مدة الحرب الكبرى الثانية على شعار « اتركوا الهند » . وقد بقى فرح طيلة عملى معه باللواء وهو يظن أنى مسلم ، لاشتباه اسمى ، ولأنه لم يكن فى كل ما أكتب ما يدل على وجهة خاصة . أما عثمان صبرى فكان يعرف أنى قبطى ، وكان كثيراً ما يذكر مقالات الشيخ عبد العزيز جاویش بالاستنكار أمامى ويتفادى من نشر أى مقال يوهم الشقاق بين المسلمين والأقباط . وقد كسبت من « اللواء » مرانة صحفية حسنة ، وكنت أكتب الخبر والمقال فى السياسة الداخلية والسياسة الخارجية . ولم يكن للمخبر فى تلك الأيام قيمة كبيرة . وكانت الجرائد «مقالية» أكثر مما كانت

خيرية . وذلك لأن الكفاح من أجل الاستقلال كان يستغرق كل اهتمامها تقريباً ، فكان جميع كتاب الجريدة محررين .
ولما تركت « اللواء » وعدت إلى أوروبا بقيت الصحافة خيالا ساحرا في ذهني .
ورجعت إلى مصر واستطعت في ١٩١٤ أن أحقق هذا الخيال بأن أصدرت مجلة « المستقبل » الأسبوعية . ولكن لم أصل إلى العدد الرابع عشر حتى كانت الحرب الكبرى الأولى قد شبت ، وارتفع سعر الورق نحو عشرة أضعاف سعره السابق ، وكان لابد أن أعطلها ، ولكن التعطيل جاءني بطريق آخر .
ففي ذات يوم وأنا افكر في مشكلة الورق طلبتني إدارة المطبوعات . فقصدت إليها غير مابى بما يحدث ، وكانت الإشاعات كثيرة بشأن تعطيل المجلات والجرائد .
وهناك قعدت أمام أحد الموظفين السوريين الذي حياني وطلب لي القهوة ، وجعل يلاطفني بكلمات عذبة ، ويسألني عن المجلة وهل هي رائجة أم أنني أخسرها فيها ، ثم بعث في طلب رجل انجليزي . وجاء وقعد هذا قبالي يستمع دون أن يتكلم .
ثم شرح لي هذا الموظف حرج الموقف وضرورة وقف (أي تعطيل) بعض المجلات . ومع أنني لم أكن أبالي بالتعطيل ، كما قلت ، فاني وجدت فتنة سيكولوجية في متابعة البحث والمناقشة وخاصة أمام هذا الانجليزي ، فأبدت أنني قادر على إصدار « المستقبل » مهما كانت الصعوبات . فتلاحظ الاثنان وأنا مفتون بالموقف . وأصررت على أنني سأصدرها إلى آخر الحرب ، وأني سأدعو فيها إلى الاشتراكية . وعاد الموظف السوري يخاطبني في ملاطفة مسرفة ويقول إنني أستاذ وما قل . . . إلخ . وأصررت أنا على العناد .
وأخيراً صرح ، في غير ملاطفة ، بأن إدارة المطبوعات تستطيع التعطيل ، وأن المناوئين للحكم في الظروف الحاضرة الشاذة يمكن تقيهم أو اعتقالهم . وكان هذا ما أردت أن أسمعه ، فنهضت وقلت إنني سأعطل المجلة ، وخرجت .
وأرسلت إلى « م » عقب التعطيل خطاباً تطلب مني أن أحرر « المحروسة » وكانت جريدة يومية قليلة الانتشار يصدرها والدها ، فقبلت ، وبقيت أحررها مجلة أشهر ستمت بعدها الكتابة مع المراقبة الصارمة التي كانت تفرضها إدارة المطبوعات على الصحف . ولم يكن يخفف من هذا السأم سوى زيارت « م » وموانستها لنا من وقت لآخر ، فقد كانت تحلوها تتمرج بظرف ورقة .
وبقيت طيلة الحرب الكبرى الأولى وأنا معطل . وقد قضيت معظم سني

هذه الحرب فى الريف فى عزبتنا بالقرب من الزقازيق . وكانت تلك الايام بمثابة الحضانة . فقد اكبت على القراءة الجدية فى الآداب والعلوم واستوعبت منها كثيراً . وكنت من وقت لآخر أقصد إلى مأمور المركز فى الزقازيق كى أرجوه فى الإفراج عن أحد الذين قبض عليهم من الفلاحين . وكانت الحكومة تنفذ شرطتها إلى الأسواق الريفية العامة فتقبض على من تستطيع من هؤلاء المساكين وتربطهم بالحبال الغليظة كما لو كانوا أسرى حرب ، ثم يبعثهم الإنجليز إلى فلسطين وكانوا يموتون بالمئات والآلاف . ولم أكن أنجح فى تخليصهم إلا بالرشوة .

وسممت الركود الربيفى ، فاشتغلت بالتعليم فترة . ثم هبت الثورة فى ١٩١٩ ورأيت أن أقصد إلى القاهرة حتى أكون على صلة بالحوادث ، وحتى أجدهم نفذاً جديداً إلى الصحافة . وتحقيق لى ذلك ، فإنى بعد أن اشتغلت بالتعليم فى مدرسة التوفيق قليلاً اشتركت فى تحرير «الهلل» ، واشتركت أيضاً فى تحرير «البلاغ» . وانغمست فى السياسة مع المرحوم عبد القادر حمزة ، وكنت أزور معه سعداً . وكان عبد القادر حمزة من الكتاب الأفذاذ إذا نشب فى موضوع لم يترك الجدل فيه حتى يستقصيه ويخرج منه منتصراً . وكان نزيهاً فى حكمه حتى حين كان يختلف . فإنه بعد أن ترك الوفد فى ١٩٣١ بقى على صداقته السابقة مع كثير من الوفديين .

وأصدرت « المجلة الجديدة » فى أواخر ١٩٢٩ . وأصدرت « المصرى » فى السنة التالية . وكانت الأولى شهرية والثانى أسبوعياً . وكانت الدعوة فى كليهما تحريرية فى الثقافة والسياسة . وعصفت بنا فى ١٩٣٠ طائفة سياسية فى وزارة إسماعيل صدقى باشا ، فألغى الدستور واستبدل به آخر بعيداً عن الديمقراطية ، وألغيت مجلتاى . وكان قد شرط فى قانون النشر الجديد أن من يطلب امتيازاً لجريدة أو مجلة جديدة يجب أن يؤدى تأميناً قدره ١٥٠ جنيهاً . فأديت التأمين نقداً . ولكنه رفض . وبعد ثلاث سنوات أى فى ١٩٣٤ جاءت وزارة عبد الفتاح يحيى باشا ، فاستطعت أن أعيد إصدار «المجلة الجديدة» بضمان عامل فى المطبعة عندى . . . وهذه هى حالنا فى مصر : فى وزارة ما يرفض التأمين النقدي ، وفى وزارة أخرى يقبل ضمان العامل الذى لا يملك شيئاً .

وفى بداية الحرب الكبرى الثانية أنشئت وزارة الشؤون الاجتماعية ، فاستدعنى كى أحرر مجلاتها . وقبلت لآنى وجدت أن الفرصة تتيح لى الإرشاد

العصرى والتوجيه الاجتماعى . وبقيت أكتب فى هذه المجلة نحو سنتين . وكانت مقالاتى يوقع عليها بامضائى أو تنشر بلا إمضاء . فإذا راقى المشرفين على المجلة وضع لها إمضاء غيرى ولو لم تكن له علاقة بالوزارة . وقد كان هذا العمل مثاراً للسخرية أحياناً وللأسف أحياناً .

وكنى أتناول عشرين جنيهاً راتباً شهرياً على التحرير دون أى اشتراط على القدر الذى أكتب أو على مواظبة الحضور . فكان يمضى الشهر دون أن أحضر للوزارة ، وكنى أكتب أى قدر شئت من الصفحات . ولكن الوزارة ضنت على بهذه الحرية مع صغر الراتب . فألغته وعينت أربعين قرشاً للصفحة الواحدة . ورأيت آخر الشهر بعد هذا النظام أن كل ما حصلت عليه هو جنيهاً فقط ، فتركت التحرير .

وكنى طيلة عملى بالوزارة أصدر « المجلة الجديدة » أيضاً . وبقيت على ذلك إلى ١٩٤٢ حين سلمتها لبعض الإخوان الأصدقاء كي يقوموا بنشرها وكى أختص أنا فى التحرير السياسى . ولكنهم تزعموا نزعة ديمقراطية مسرفة لم ترض الاستمرار ، فألغيت فى تلك السنة بأمر عسكرى .

وفى السنة التالية اشتريت امتياز جريدة يومية . وقبلت إدارة المطبوعات نقل الامتياز الذى أثبت فيه أنها « يومية » وذكر فيه الضمان بأنه ٣٠٠ جنيه أى ضمان جريدة يومية . وبعد أن قبل كل هذا وبعد أن استعددت لإصدار هذه الجريدة اليومية أقبلت وزارة الوفد . وفى اليوم التالى للإقالة فى أكتوبر من ١٩٤٤ أبلغتنى إدارة المطبوعات أن الجريدة شهرية وأنه لا يجوز لى أن أصدرها يومية .

وعندما أقارن بين صحافة الجيل الماضى (من ١٩٠٠ إلى ١٩٢٠) وصحافة الجيل الحاضر ، أجد أننا قد تقدمنا وتأخرنا . أجل ! تقدمنا فى فن الطبع والإخراج . تقدما عظيماً جداً ، فإن جرائدنا ومجلاتنا تدل على رقى فنى يضارع أعلى المستويات الصحفية فى أوروبا . ولكننا من حيث التحرير تأخرنا ، إذ ليس عندنا الآن من المحررين من يضارعون مصطفى كامل أو على يوسف أو لطفى السيد . وقد مات عبد القادر حمزة وهو آخر هذا الجيل المنقرض .

ولكن هناك مع ذلك علامة حسنة فى الصحافة الحديثة ، هى عنايتها الكبيرة بالأخبار الخارجية ، فإن هذه العناية ، التى كان منبعها الحريين الأخيرتين ،

تنير القراء وتربيههم على النظر العالمى وبحث سياستنا من الزاوية السياسية العالمية الكبرى . وهذا حسن .

وقد دلتنى اختباراتى فى السياسة والثقافة أن مقالين فى السياسة أحياناً يعودان بمثل الربح المالى الذى يعود من تأليف كتاب كامل قد احتاج إلى دراسة السنين . ولذلك فإن التأليف فى مصر تضحية كبيرة لا يرضاها إلا المهووسون بالثقافة . ولذلك أيضاً أصبح كثير من الأدباء الذين افتتحوا حياتهم بالتأليف صحفيين .

. وذات مساء فى ١٢ يوليه من هذا العام ١٩٤٦ كنت نائماً على الأسفلت فى غرفة مظلمة فى سجن الألبىكية مع نحو أربعين من المتهمين بالسرقة والضرب والقتل واختياز المخدرات وغير ذلك . وكانت تهمنى أنى أفكر وأكتب عن الاشتراكية أو الشيوعية . وكانت خشونة الأسفلت تمنعنى من النوم وتؤلمنى فأرقت . وأخذت ذاكرتى تعرض فلم حياتى الماضية ، فذكرت الحرية التى كنت أتمتع بها فى ١٩١٤ حين كنت أكتب مقالات فى « المستقبل » لو أن بعضها نشر هذه الأيام لقاد إلى السجن . وذكرت العناء الذى لقيته فى الدراسة والتأليف ، وعددت نحو عشرين كتاباً ألقتها لأبناء وطنى أخلصت فيها النية وبذلت المجهود كى أنير وأعلم ، وكى أسمو بالشباب إلى مثليات القرن العشرين وأخرجهم من ظلمات القرون الماضية . ثم تأملت حالى على الأسفلت الخشن ، وكيف أنى لم أجمع مالا ولم أحصل حتى على الكرامة التى يستحقها من يخدم ويخلص فى الخدمة . وكان إلى جنبى نصف رغيف هو عشاى الذى قررت له الحكومة المصرية جزاء هذا العمر الذى قضيته فى خدمة مصر . وأخذت أفكر وأجد التفكير وعقلي يتضور من الألم ، إلى أن أصبح الصباح ودخل علينا رجل بقبعة بها خبز ، فناولنى رغيفاً للفطور وضعته فوق نصف الرغيف الذى تناولته فى المساء السابق . وهكذا يفعل بنا الاستعمار والاستبداد المتحالقان .

الحقل والبحر

كان بالأمس زاهياً سندسياً
هو كالبحر في اتساع مداه
فاذا مسه النسيم رقيقاً
وإذا ثارت الرياح ترامى
عصفرتة شمس الاصيل فأمسى
ياله خضرمًا حوى بدل المر
فغدا ساطع السنا عسجديا
وهو كالبحر طيعاً وعصياً
مال كالمنتشى زهته الحيا
مثل هوج الأمواج تهوى هوى
يابس الأرض سائلاً ذهبيا
جان والدر برّه اللؤلؤيا

وشبيه الخضمّ أذكرني ملو
شاطئ ماء الرمال ويم
كنت أقفوا تلك الرمال صعودا
وإذا ما لحت في الأفق النا
شاقني سرّ ذلك العابر المج
وتملت متعة الأزرق الرج
فسله روعة على حالتيه
يتوالى الزمان يوما فيوما
حيثما الدفء في الشتاء وفي الصي
تنسخ السحب لونه كلما طا
فاذا الأزرق السماوي يخضو
وإذا باللجين يشهب أنا
خلعت فتنة السماء على البح
أى طرس هذا الذى رسم الا
هل إليه من رجعة تبعث الما

شئى خضمّ رعت فيه صبيا
يتهادى إليه طلقاً حفيا
وهبوطاً ولا أمل مضيا
نى شراطا يكاد يخفى قصينا
هول يطوى عوالم الغيب طيا
راج أجلاو بحسنه مقلتيا
إن سجا أو طفى وذوى دويا
فى نواحيه مستطابا هنيا
ف يهب النسيم رطباً نديا
فت وتضفى عليه لونا سنيا
ضرّ حيناً . . . وينثنى فضيا
ثم يرتد داكناً طحلبيا
ر جمالاً من ذخرها علويا
ه عليه فتونه الأزليا
ضى كما كان شائقاً عبقريا

محمد مفير الشرباشي

جان دوتور و « مركب قيصر »

[سيختص الأستاذ إيتامبل أستاذ الأدب الفرنسي
بكلية الآداب بجامعة فاروق الأول قراء هذه المجلة بين
حين وحين بفصل تقدي يعرض فيه كتاباً من الكتب
الفرنسية المعاصرة .]

عند ما منحت جائزة ستندال لأول مرة سنة ١٩٤٦ قسمت بين رنيه ماسون
عن قصته « إلى الشرطة وإلى اللصوص » وبين جان دوتور عن مجموعة
مقالاته المعنونة : « مركب قيصر » . وقد تحدثت عنها باريس كثيراً .
ولا نعرف عن المؤلف إلا القليل ، اللهم إلا أنه حارب وهو ما زال
حديث السن في سنة ١٩٤٠ ، واشترك في المقاومة السرية ، وقبض عليه
الجستابو وحكم عليه بالإعدام . وفي اليوم السابق لتنفيذ الحكم نجح في
الهرب . وها هو ذا كتابه الأول الذي امتدح فيه روجيه كايوا كتاباً من
أهيات الكتب .

ونحن إذا كنا لا ندرى في الواقع إلا القليل عن حياة المؤلف ، فإننا على
العكس نعرف ما تهمنا معرفته عنه . نعرف مزاجه ، ونعرف ما يعشقه ، نعرف
نقائصه وآراءه . فهذا الكاتب الذي يحتقر إبداء العواطف وإظهارها ، وهذا
القاضي الصارم الذي لا يرحم كتاب اليوميات المزدهرة في عصرنا ، ماذا
يعطينا هو غير وثيقة عن نفسه في كتابه « مركب قيصر » ؟ وهذه المجموعة
من المقالات قسماً : أحدها أكثر إرازا لشخصية الكاتب ، وعنوانه
« تعريف » . والثاني وعنوانه « منشور » يعرض آراء الكاتب عن المجد ، وعن
الكلمات التي لا تقع موقفاً حسناً في الآذان ، وعن العبقرية ، وعن الحب باعتبار
أحد الفنون الجميلة ، وعن الأسلوب ، وعن المساواة في السمو الخ . . .
فهي في مجموعها إذن وثيقة عن عقل وقلب رجل يريد أن يكون عظيماً ،

ويؤمن أنه كذلك . ولو قلنا : بحسب نفسه كذلك لا خطأنا في الكشف عن نفسية دوتور . وهذا الرجل المتجرد من كل حياء زائف ، ينبئنا بذلك من أول كلمة في الكتاب : مركب قيصر . ثم إنه لا يخفى علينا بعدئذ أنه يسخط بل يرثى منذ عهد بعيد لأولئك المساكين الذين كانوا يتشككون في عبقريته . وسيقول المتواضعون الزائفون : ياله من وقح ، وسيردد حكماء البورجوازيين : « لا يقول الرجل الذكي حقاً عن نفسه إنه كذلك . . . » ولورد دوتور على هذا لقال إن ديدرو لم يكن ليحلل قط العبقرية بتلك الدقة وذلك الاقتناع ، اللذين نعهدهما فيه ، لو لم يكن شاعراً وواثقاً أن له منهما النصيب الوافر . أو لعاد بنا إلى جريكو وقد كان لا يدع أحداً من زبائنه ، الذين يساومونه فيما يطلبه من ثمن ، يجهل عبقريته . ولنتفق على أن دوتور يسخطنا أحياناً بكبريائه الساذجة . أنصت إليه يقول : « مجد رجل مثل جوجان أو يسارو ، ذلك المجد الذي كنت أستطيع بلوغه بسهولة . . . »

أف له . . . ! ولربما قال أيضاً : مجد رافيل أو بوسان ! وما أيسر ما يعزى نفسه لشعوره بأن بعض مزايا ستندال تنقصه ، فإنه عندئذ يفكر فيما يدعو « المقدرات الأخرى » التي لم يكن لستندال منها نصيب فهو بالتأكيد « ناقص أشد النقص » ، ولكن جان دوتور يمتاز بتواقرها فيه . ثم إنه يصدر أحكامه سريعاً ، ويشير أكثر من اللازم إلى المغفلين الذين يقولون كذا ، وإلى الحقى الذين يدعون كذا ، وإلى البسطاء الذين يؤكدون كذا . . .

ورغم ذلك ، وبعد رحلة عجيبة ، يعود دوتور إلى التواضع (وهو حين يمتزج بالكبرياء يأتي بأعظم ما تنتجه العبقرية) . وذلك الذي يريد أن يكتب مثل ديدرو ، وأن يصور مثل بوسان ، وأن يحكم مثل فردريك الثاني ، كيف يستطيع هذا الرجل ألا ينتهى بالظهور بقيمته الحقة ، وبالوصول في النهاية إلى التواضع ؟ ثم إنه من الخير أن يظهر في هذا العالم الذي لا يقدر إلا أصحاب المواهب العادية من العامة والتجار ، رجل سبق له أن خاطر بحياته من أجل حريات يجب تسميتها من ناحية ما الحريات الديمقراطية ، فيدعونا إلى احترام العظماء من الرجال . ثم إنه ليسرنا أن نجد في هذا العالم الذي ألقى بزمامه إلى الأحزاب و « المودات » والإعلانات ، فرداً مستقلاً ، لا هو مع اليمين ولا مع اليسار ، ولا هو من الأحرار ولا من الفاشيين ، رجلاً متجرداً من كل شيء

حتى من المخاطر التي تعرض لها والتي نادراً ما يذكرها لدرجة أن أراد البعض أن يلوموا فيه رجلاً من الهواة ، من نوع مونترلان . وأخيراً يلد لنا في هذا العالم الذي يتجه فيه الكتاب إلى تملق الأميين أن تقرأ كتاباً لا ارتجال فيه . يقول دوتور : « إنني أبغض قراءة ما أكتبه أو تصحيحه . » كلا ! إن دوتور هنا يخدعنا ، فهو يعلم تماماً أنه يصحح ما يكتبه ، وحسناً ما يفعل .

وفي هذا الكتاب شيء أكثر من وثيقة عن أولئك الذين يخضعون لمركب قيصر أو يتعهدونه . ذلك أنه سيبقى كإحدى العلامات الأولى لهذا التحول البطيء الذي يسير ، منذ عشرين عاماً ورغم ما يبدو من مظاهر ، كل القوى الحيوية في فرنسا الأدبية نحو نوع من الكلاسية . فما هو ذا أخيراً أثر جهود أندريه جيد و « المجلة الفرنسية الجديدة » *La Nouvelle Revue Française* وبعد مقالات روجيه كايوا ، وقصص جاك لومارشان ، يأتي كتاب دوتور ببعض القيم التي تعترف بها كل العهود الكلاسية . ويقول دوتور : يجب تمرين الفكر بطريقة عسكرية خشنة . يجب أن نستبعد اللطف والظرف والطراءة . . . وإذن فعلينا أن نعمل طويلاً . . . فالعمل الفني والتصميم على الخلق يجعلان الفكر ثابتاً متيناً . . . والعمل الذي لا يتلوه نجاح لا قيمة له . ولا أريد أن أقول إن ذلك العمل لم يُفد اللاشعور أو الصنعة الفنية ، وإنما أريد فقط ألا نقيم وزناً لمثل ذلك العمل ؛ لأن النتيجة وحدها هي التي يحسب لها حساب في الفن ، كما هو الحال في السياسة وفي جميع المظاهر العقابية السامية . ولكن احترامه للعقل لا يبلغ به حد العبادة للمذهب العقلي حيث لا تجد العواطف الفياضة محلاً لها . وهو يقول : « إذا كان موضوع الفلسفة رائعاً نبيلًا ، وإذا كان كبار الفلاسفة من عظماء المؤلفين ، فليس هناك من هم أشد حمقا من مدرسي الفلسفة الذين ليسوا بفلاسفة إلا مدرسي الأدب الذين يعلمون فنا لا يمارسونه . » وعلينا بالعقل ودائماً العقل (وكل ما ليس بمحسوس يجب أن يمر أولاً بالعقل لتكون له قيمة) . ولكنه يريد العقل الذي يبنى على أساس من المادة : « يجب أن نكون واقعيين وألاً نبعد لحظة واحدة عن الأثر المباشر البسيط لما تؤديه عيوننا وأيدينا وآذاننا وألسنتنا ونوعنا . فستندال يطبق أسلوبه الواقعي على موضوعات واقعية . ولكن علينا أيضاً أن نعبر عن المعنوي بكلمات واقعية . »

جان دوتور و « مركب قيصر »

وطريقة دوتور توضح هذه القواعد السليمة . وإذا كانت مقالاته تذكرنا بمقالات مونتيني أو تعود لها ، فإن لغته الذاتية هي لغة رجل يقدر بنوع خاص ستندال وديدرو وريشاردول . وهو يكتب دون استعمال الصفات والظروف ، يستخدم كلمات ملموسة وتعبيرات عادية بتلك السهولة وذلك الطبع اللذين ينتجهما عمل شاق مضمّن ، ويبني لنفسه من ذلك أسلوباً ذاتياً هو أسلوب الجميع ولكنه ليس أسلوب أى شخص . والتشدد لديه لا يمنع قط قفزات الفكر ، ولكنه على العكس يساعدها ويقويها . ولا يعمل العقل إلا بين أشدّ الأحاسيس وأقواها .

يقولون إن عصفوراً واحداً من عصفير الربيع لا يأتى بالربيع . ونحن لا نجهل أن بعض الفنانين احتفظوا بأرائهم الخاصة ، فى كل زمان وفى كل مكان ، وفى شر أوقات المبالغات والتصنع . ولكن كتب ألبير كامو وروجييه كايوا هي طيور الربيع . وكذلك كتب جاك لومارشان وخاصة كتب جان بولان . ولقد رأينا إلى أى درك تهبط الأمم ، التى تقول باحتقار العقل ، هبوطاً كأن لا مفر منه . فكيف لا ننتظر أن يُبعث الفن ، وأن تنمو حضارة يجد فيها العقل كل حقوقه ؟ لنا أن نرجو ذلك فى فرنسا ، وأن ننتظر ذلك العهد الكلاسي الجديد فى مستقبل قريب لو تأكدنا أن قوى البرية المتصاعدة ستدع لنا الوقت . وإن كتبنا مثل كتاب جان دوتور ، هى فى نفس الوقت دفاع وتأيد لذلك . ولكن لى نأتى بالربيع ، كم يلزمنا من طيوره ؟

إيتامبل

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

الفن من أجل الفن

كان من الواجب أن أقرأ هذا الكتاب ^(١) منذ زمن مديد، ولكنى وضعتُه جانباً ونسيته، ثم جاء يوم فإذا بي أجده، وكان يوماً ملائماً لقراءته؛ فقد كنت في حاجة إلى كتاب يجمع بين اللذة والتسلية، يستفيد منه العقل وترتاح إليه النفس. فوجدت ضالتي في هذا الكتاب؛ فهو يتكلم عن حركة من أهم الحركات الأدبية التي ظهرت في القرن التاسع عشر، وهو يقص قصتها في إسهاب وبيان بديع. هذه الحركة هي التي عرفت بالفن من أجل الفن، أي معالجة الأمور الفنية لمجرد الفكرة التي توحىها هذه الأمور.

وهي حركة نشأت في إنجلترا نتيجة لتأثر بعض الأدباء والفنانين بأدباء القارة، وكان فيها دأيل على اتصال الثقافة الإنجليزية والأمريكية بثقافة القارة الأوروبية. فلقد تركت حروب نابليون حالة في أوروبا أشبه بما نشاهده الآن «قارة مريضة ترتعد في أسمال ملابسها القديمة الزاهية بين بقايا معاهد مدمرة تنظر بعين مظلمة إلى مستقبلها».

سادت في مبدأ الأمر روح التشاؤم في أوروبا، ولا سيما فرنسا التي قاست وطأة هذه الحروب، وتنتج من هذا اليأس روح مقابل هو روح التحدي، واندفع الأدباء والمفكرون نحو العبث بالقيم المعروفة في الأخلاق؛ ولذلك نجد حوالى سنة ١٨٣٥ قصة كقصّة «مدموازيل دي موبان» يكتبها شاب صغير هو تيوفيل جوتييه. وهكذا صار ما عرف بالحياة البوهيمية علماً على الأدب في ذلك العصر، وظهرت عدة كتب وعدة صور، وتأثر الشعراء ورجال الفن بهذا الروح.

وجاءت الإمبراطورية الثانية، فإذا فرنسا تعود سيدة على الثقافة في العالم،

^(١) The Aesthetic Adventure, by William Gaunt (Jonathan Cape, London).

الفن من أجل الفن

وتصير باريس عاصمة أوروبا في الأدب والفن يقصدها الزائرون من كل ناحية حيث يستطيع الأديب أو الفنان أن يحيا من أجل الفن وحده .

وكانت بريطانيا بالرغم مما اكتسبته من قوة وثروة ، لاتزال في عقليتها أشبه بالكاهن المنقطع في صومعته ، ترى المستقبل في الصناعة الميكانيكية . فلقد بلغت الصناعة فيها مبلغاً عظيماً ، حتى صارت وليس لها مثيل بين دول العالم في ذلك الاتجاه ؛ فلم تكن مثل فرنسا مشغولة بالهزيمة والتدهور بل كانت مشغولة بمشاكل النجاح ومتاعبه .

وكان من نتيجة ذلك أن نظرت بريطانيا إلى البقارة نظرة الرجل المتعالى ؛ فقد أدت واقعتا الطرف الأغر ووترلو إلى الاعتقاد بأن الإنجليزى بمقام ستة من أبناء أى بلد أوروبى آخر ، وأن الفرنسى رجل قزم مهذار تأخر في سباق الحياة . وكان الإنجليزى في ذلك العهد لا يحترمون إلا الألمان ، ووجد بينهم كتاب مثل توماس كارليل يمجدون ما في الجنس الألمانى من عزايا الشجاعة والدأب على العمل . لذلك كانت حركة الفن من أجل الفن ، وهى التى استقت معينها من فرنسا ، حركة غريبة غير مستحبة لدى الإنجليزى في عهد فيكتوريا ، واعتبرت حركة خطيرة يجب محاربتها والقضاء عليها ؛ لأنها مستقاة من بلاد الهزيمة والتدهور .

لنأخذ إذن في ذكر دماء هذه الحركة ، ولنبدأ بمصور أمريكى كان يعيش في باريس في سنة ١٨٥٦ ، هو جيمس أبوت ماكيل هويسلر ، جمع حوله نخبة من أبناء الجزيرة عشقوا الفن وعرفوا أن موطنه باريس وعاشوا عيشة بوهيمية مطلقة من كل قيد ، وما أكثر القيود في ذلك الوقت ! واتصلوا بالأدباء والمصورين من الفرنسيين ،

ظل هذا المصور ردهاً من الزمن يتثقف في فرنسا ، ثم انتقل إلى إنجلترا ليعمل ويكسب أموالاً ؛ فالإنجليز أغنياء وأسخياء ، وإن كانوا بعيدين عن الذوق الفنى . وقد جاء معه بصاحبين من الفرنسيين لأنهما يعيشان عليه ، وهو يعتمد على أقرباء له في العاصمة الإنجليزية ، أهمهم في نظره زوج أخته الذى كان طبيباً موسراً ، وفي الوقت نفسه محباً للتصوير .

وقد عرف الصاحبان في داره كيف تكون لذة الحياة ، وعلى قول أحدهما لذة احتساء زجاجة من الكونياك دون أن يدفع لها ثمناً . ولكن الطبيب على

تعبه للفن الجميل كان رجلاً وقوراً لا يحب الفن المقترون بمسلك البوهيميين ؛ فلم تلبث علاقة المصور بزوج أخته أن تحولت إلى فتور ثم إلى عدااء مقيم .
وكان من رجال هذه الحركة الشاعر الإنجليزي ألجرتون تشارلس سوينبرن وكان في ذلك الوقت فتى عجيب المنظر ذو شعر أحمر طويل وعينين خضراوين ووجه ممتقع ، وكان في مثل سن المصور هويسلر ، عاش في باريس وعرفه المصور ، وكان يحل الفرنسيين حتى ادعى أنه من سلالتهم ، ويجب فيكتور هوجو ، ويجب شعر بودلير ، وكتب إلى هذا الأخير رسالة طويلة تدل على الحماسة والإجلال بعد أن قرأ ديوانه « زهور الشر » ، فرد عليه الشاعر الفرنسي بعد سكوت طويل برسالة ذكر فيها أنه لم يكن يتوقع قط أن يرى أديباً إنجليزياً يستطيع أن يخترق مبر الجمال الفرنسي ، وأغراض الشعر الفرنسي . وقد اعتنق سوينبرن فكرة الفن للفن ، فكان يقول : « إذا استخلص القارئ من أية قصيدة دواء روحياً وإذا ابتلع القصيدة كأنها وصفة أخلاقية ، فإن الشاعر الذي يقدم هذه الأدوية العقلية لا يمكن أن يكون فناً . »

وكان الفضل لسوينبرن في أن عرف هويسلر الشاعر المصور . دانتى جبريل روزيتي في داره بلندن . كان روزيتي في ذلك الوقت حزيناً لوفاة زوجته ، وهو ضخم الجثة في الثلاثين من عمره ، يمضي أوقات عمله بين قرض الشعر والتصوير ولا سيما صور النساء الجميلات كما يتخيلهن ، ويمضي أوقات فراغه في جمع غرائب من الحيوان والمصنوعات والناس . وله جاذبية خاصة فتجده محاطاً دائماً بجمع من الأصدقاء والمعجبين والمتطفلين ، وظل هويسلر على علاقة حسنة به مدة عشر سنوات ، وكان يراه كل يوم تقريباً .

ومن هؤلاء الجماعة أو من ضحاياها شخص عجيب هو مصور يهودي اسمه سميون سامون ، كان مثالا لأولئك الشبان الذين تأثروا بشعر بودلير إلى درجة أن أبوا على أنفسهم السعادة التي قد يحصلون عليها في حياتهم ، وانحدروا في تيار الشقاء عن رغبة في تقليد الشاعر في شقائه . وكان سامون في بعض اتجاهاته شبيهاً بالشاعر بول فيرلين إلا أنه لم يكن شبيهاً به في عبقريته . وقد تعرف إلى سوينبرن فوجد فيه جمالا أشبه بالجمال الذي يتخيله الإغريقيون مختلفاً برواء شوقي . ورأى في حديثه نزعة تجمع بين أسرار المسيحية وعقلية الوثنية ، كما وجد الشاعر في هذا المصور اليهودي الصغير ، مثالا من شلباب الإغريق في

الفن من أجل الفن

عصرهم الذهبي ، لا سيما إذ رآه مرة يقف أمام زميل مصور في ثوب إغريقي قديم ، فكأنه أيلتون نفسه نزل إلى هذه الأرض ، ليطلع أهلها على سر الجمال . ولقد صار رفيقين لا يفترقان ، وكانا يقضيان أوقاتها في دار روزيتي . ورأها صاحب الدار ذات مرة وقد خلعا ملابسهما وأخذا يجريان عاريين في حديقته ، كما كانا يتخيّلان فعل آلهة الإغريق في غابات الأولمب .

هناك رجل آخر اتصل بسلامون المصور اليهودي الصغير ، ذلك هو والتر هوارشيو پاتر ، فقد أعجب بصورة رسمها هذا المصور لإله الحمر ، رسمها بعد أن صاحب أوسكار براوننج إلى إيطاليا . ورأى پاتر في هذه الصورة فنا عظيما ، وفي وجه إله الحمر جمالا مقرونا بالخبث مما يتناسب مع الموضوع كل التناسب . وقد نشأت بين الأديب والمصور صداقة متينة ، فصار هذا الشاب المصور في نظر والتر پاتر ممثلا للفن من أجل الفن ، وهي عقيدته التي يدين بها .

وكان پاتر رجلا غريب الأطوار ، مات أبوه الطبيب وهو لا يزال طفلا ، وتركه لعناية أمه وجدته وخالته . وكان پاتر طفلا خجولا لا يحب الألعاب العنيفة ، فلم يكن معروفا بين زملائه في المدرسة ، وأخذ منذ صباه يأوي إلى العزلة فيجد لذة في زيارة الكنائس القديمة والتأمل في أبنيتها ، واشتدت نزعته الدينية وعكف على طقوس الدين ، حتى خشي بعض أقربائه أن يتحول إلى الكاثوليكية ، ولكنه عندما التحق بجامعة أكسفورد فقد كل إيمان بالدين ، وأخذ يسخر من أصدقائه الذين يقومون بواجباتهم الدينية . وكانت المذاهب الدينية في أكسفورد في ذلك الوقت تشغل أذهان الطلاب والأساتذة ، ولكن هذا الشاب الذي كان منذ قليل شديد التدين صار شديد الحملة على هذه النزعة ، ولم يعد أصدقاؤه يعرفون إلى أي مذهب ينتمي . ولعل الحقيقة أنه صار ممن يستقون عقيدتهم من هرقليوس وأفلاطون وبيتاغورس والألمان هيجل وشلنج .

أقبل پاتر على قراءة الآداب الأوربية ، وأخذ في ترجمة بعض الكتب الخالدة من آثار أفلاطون وأرسطو ، وحرق سائر ما نظمه من شعره في طفولته الأولى لما فيه من عاطفة مسيحية ، وأخذ يدرس كتب فلاير وبوداير ، وصار رأيته في الفن متأثرا بالقدماء من الإغريق ، وبالمحدثين من الألمان والفرنسيين .

وازداد پاتر رغبة في الابتعاد عن الناس وفي حب العزلة . وكان يحب الجمال المثالي ، فيكره مخالطة ذوى الصورة السخيفة القبيحة ، وكان لا يآلف من الأصدقاء إلا من لهم مسحة من جمال ، ولكنه لم يكن متحمسا في صداقته ، كان يبتعد عن الالفة والمخالطة ، ويكره كل الإحساسات العنيفة . وقد حاول في وقت ما أن يكون قسا بالرغم من ابتعاده عن الدين ، فحاول صديقان أن يقتياه عن عزمه وأصر هو عنادا منه ، فكتب إلى الأسقف يخبرانه بعقيدته الحقيقية ، فعدل الأسقف عن رسامته .

ومع ذلك كان پاتر على إلماده يعيش عيشة الراهب ، عيشة بسيطة لا يتمتع فيها بلذائذ الحياة إلا قليلا ، وكان كل ما يهتم له هو ذلك الجمال المثالي في كل شيء ، فكان في كتاباته يعمل على صقل العبارة حتى تصل الغاية ، ولا يهتم مطلقا أن يكتب شيئا يكون ذا مقصد أخلاقي أو أدبي ، بل كل غرضه أن يبلغ إلى تصوير الجمال لذاته ، كما نرى في دراساته عن الفن والشعر في عهد النهضة . وصارت الحياة في نظره إن هي إلا نظام لفن الجمال . وقد قيل إن طالبا سأله ذات يوم لماذا يجب علينا أن نعمل الخير يا مستر پاتر ؟ فأجاب : لأن الخير جميل .

ما مضت ثمانون سنة من القرن التاسع عشر حتى أخذت مجهودات هويسلر وشوينبرن وپاتر في تفسيرهم للفن من أجل الفن تؤثر بعض الشيء في الجمهور الإنجليزى ، وأخذت الصحافة الهزلية تسخر منهم وتتناولهم بالنكات اللاذعة ، وهم ماضون في آرائهم لا يهتمون إلا بالأصدقاء من الأدباء الناهضين الذين كانوا على اتصال بهم في فرنسا .

كان تأثيرهم عميقا ولكن في عدد قليل من رجال الفكر بين الإنجليز ، أما السواد الأعظم من الجمهور الإنجليزى فكانوا واقعين تحت تأثير نبي ذى صوت مسموع وشهرة كبيرة هو جون راسكن الذى ينادى بمبادئ تخالف مبادئ هؤلاء كل المخالفة ، فهو يلقي محاضراته ويكتب كتاباته عن الفن في كل مكان من إنجلترا فتسمع له الجماهير . وكان في كلامه وفي قلبه حماسة نارية وبريق يخلب الالباب ، ولكن السر الاساسى في شهرته هو نزعتة الإنسانية . فالفن لديه ليس مجرد سحر غريب وسر من الأسرار ، بل هو مسألة معاصرة ومشكلة قائمة يجب علاجها ، وله غرض خلقى لا بد من تحقيقه . وقد اتخذ راسكن مركز النبي وظل غارقا في فضائل مصورى القرون الوسطى والمتقدمين من أساتذة

الفن من أجل الفن

الفن الإيطالي ، حتى إنه لم يفتن لما قد طرأ من تغيير على الفن ، وكان يعتقد أنه لن يحدث تغيير بغير موافقته وبركته .

ففي ذات يوم من سنة ١٨٧٧ ذهب لزيارة معرض جروتر وهو الذي جمعه سيركوتس ليندسي ، وهناك شاهد صورة فظيعة في رأيه هي إحدى صور هويسلر التي سماها الليالي ، فلم يتمالك أن أمسك بقلمه وكتب في المجلة التي كان ينشر فيها نقداً لاذعاً قال فيه : إن غرور الفنان الذي يدل على سوء تربيته يكاد يبلغ مبلغ الغش المقصود .

وهكذا رمى راسكن بقفازه ، ولكن خصمه لم يتردد في تناول هذا القفاز . لقد أخرج هويسلر في تلك الأيام خير صورته ، فقد وضع تلك المناظر الطبيعية لنهر التاميز في غسق الليل ، وهي التي أطلق عليها اسم الليالي على سبيل الذكرى لقطع شوبان الموسيقية المسماة بهذا الاسم ، وصور الصورتين الشهيرتين لوالدته ولتوماس كارليل ، ولكن هذه الشهرة لم تكن إلا لتريد علاقاته بمعاصريه من المصورين الإنجليز سوءاً ، وجاء نقدر راسكن اللاذع فطفحت الكأس ، ولم ير إلا أن يرفع أمره إلى القضاء . على أن عواطف الجمهور كانت مع جون راسكن ذلك الذي ينادي بأن الفن للجميع وللعمال قبل أن يكون للسادة ، وللشارع قبل أن يكون للقصر على حين كان هويسلر يقف موقفه الذي يرى فيه أن يكون الفن من أجل الفن الخالص دون أن يقصد به غرض نافع .

وبدأت القضية ، وكان على هويسلر أن يقدم الإثبات بشهود مختصين ، فمن يشهد له ؟ أهو هولمان هانت الذي يرى أن الصور التي عرضها إنما تدل على تكاسل في العمل بحيث يجب ألا تؤخذ جدياً ؟ أهو ميلر الذي ينظر إليه نظرة الأستاذ ويرى أنه لم يقع تحت يد המתحنيين ؟ أهو أدوارد بوينتر الذي كان يعارضه ولا يرى فيه خيراً ؟

لقد وجد هويسلر مشقة في الحصول على شهود ، فالرسام كين مصور جريدة « بنش » اعتذر إليه . والمصور فريدريك ليتون وافق ، ولكنه عاد فاعتذر في يوم القضية إذ كان عليه أن يشهد حفل الإنباع الملكي وتلقى وسام القروسية في ذلك اليوم . ودانتى جبريل روزيتي مريض لا يقوى على الخروج . ولم يجد هويسلر في آخر الأمر غير مصورين قليلي الشهرة ، أحدهما ألبرت مور ، والآخر جورمان ويلز ، وكان له صديق مصور

الفن من أجل الفن

ذو شهرة هو بيرت جونس ولكنه للأسف جاء في صف خصمه .
وابتداً نظر القضية . ولأمر ما غضت المحكمة بالناس وتجمهروا حتى في
الطرق ، وكان حادثاً فريداً في تاريخ القضاء . وأخذ القضاة يتناولون في وقار
تلك القضية التي هي أعقد من قضية طلاق أو قتل . وكان محامي هويسلر
يتكلم في لهجة عجيبة كأنه يعتذر عن موقفه للخصم . ثم دُعي هويسلر لأخذ
أقواله ، وكان يادى الثقة بنفسه يتكلم بلهجة أمريكية ظاهرة ، ويبدى في كلامه
حيوية وسخرية كبيرة . فبدأ بقوله : إنه ولد في بترسبرج ، ولم يكن الأمر
كذلك ، ثم درس الفن في باريس ، وأن تلك الصورة التي نقدها راسكن قد عجز
عن بيعها بسبب هذا النقد . ووقف نائب الأحكام ليسأله : ما معنى ليلية ؟
فأجاب بأنها إحدى الصور التي تمثل مناظر الليل . وحينئذ أمر القاضي
بإحضار الصورة فأدخلت ، ولكن الذين حملوها أتوا بها مقلوبة ، فضحك
الجمهور . وسأله نائب الأحكام بعض أسئلة سخيفة ، ثم سأله عن الثمن الذي
يبيع به صوره طادة ، فأجاب بأنه مائتان من الجنيهات . فسأله في كم من وقت
ألقيتها ؟ يقصد كم استغرق بيعها . فأجاب ساخراً ألقيتها في يومين ، يقصد أنه
اتهى من تصويرها في يومين . وحينئذ سأله : أطلب مائتي جنيه بمجهود
يومين ! فقال : إنه تجربة عمر . وهكذا ظهرت المحكمة متحيرة لغير هويسلر .
وإن كان القاضي في تلخيصه القضية للمحلفين قد أبدى أن راسكن تجاوز حدود
النقد المباح ، وصرح بما يمكن أن يعتبر قذفاً . واختفى المختلفون ساعة من
الزمن ، ثم حكموا بأن هويسلر له عذره ، ولكنه شغل الحاكم بموضوع تافه ،
ولذلك لا يستحق من التعويض إلا ملياً .

هكذا كانت هذه القضية الأولى فاتحة لقضايا أخرى من نوعها . والواقع
أن هذه القضية قد أثرت في راسكن بقدر ما أثرت في هويسلر ، فقد ذهب من
راسكن سلطانه وسيطرته على النقد الفني ، فترك منصبه أستاذاً للفن في جامعة
أكسفورد ، وقصده إلى ضيعته في برنتوود حيث قضى السنوات الباقية من حياته
في هدوء وسكينة .

ولقد انتضر عليه الأمريكي ، ولكن خسارته المالية كانت فادحة ، فنفقات
القضية كانت ثقيلة الوطأة عليه ، وهكذا أخذ في وسط هذا الجمهور الإنجليزى
الذى لا يعطف عليه يضع كتابه « الفن الجميل في تأليب الخصوم » .

الفن من أجل الفن

ولكن هل تأليب الخصوم فن ، أم هو طبيعة في بعض الأشخاص لا يستطيعون معها إلا أن يوجدوا خصوماً ؟ لقد كان في هذه الفترة يعيش شاب آخر مستهتر عرف كيف يؤلب خصومة الجمهور الإنجليزى عليه ؛ ذلك هو الأديب والشاعر أوسكار وايلد الإيرلندى الأصل ، وهو ابن السير وليم وايلد الطبيب ، والأيدي وايلد التى كانت تقرض الشعر .

درس هذا الشاب الإيرلندى فى أكسفورد حيث أستمع لمحاضرات راسكن وعرف ولتر باتر ، وقابل سميون سلمون فتأثر بأرائه عن الفن من أجل الفن وحده . وكان الشاب لا يعرف كثيراً عن الفن ، لذلك تأثر تأثراً قوياً بنظرية باتر الذى يرى أن الفن سر من الأسرار ، وأنه الشئ الوحيد الذى له قيمة فى الحياة . فأخذ الشاب يقلد أستاذه ، فيعمل على أن يحيط نفسه بالأسرار وعلى أن يبدو كثير التأمل شارد الفكر ، وكان يحرق البخور فى غرفته لا حباً فى الكنيسة ، بل تقليداً لباتر الذى يرى فى الدخان المتصاعد أثراً لدين قديم . ولم يكن وايلد ممن يقبلون على الألعاب الرياضية ؛ لذلك صار موضع سخرية من زملائه .

ومع ذلك كان وايلد ينظم الشعر ويكسب فيه الجوائز ، ومات والده فكان عليه أن يجد طريقاً لكسب قوته ، فقصده لندن ليتعرف إلى الكبراء . فكان من أوائل من عرفهم هويسلر فى تلك السنة التى نُظرت فيها قضيته ، وكان يغشى مجالسه ، فتعرف إلى كثير من المشهورين الذين كانوا ينجذبون إليه لطلاقة لسانه وعدوية حديثه وغرابة زيه وتألقه مع رشاقة قوامه . وفى تلك الأيام كتب رواية هزلية بالشعر ، تلخت ومثلت ، وفيها حاول أن يسخر من معاييب بعض كبراء عصره فاشتهرت هذه الرواية وأقبل عليها الجمهور . فدعى إلى زيارة أمريكا لإلقاء محاضرات فى عدد كبير من مدنها ، وقد ذهب إليها فى زيه العجيب المتألق . وسأله رجال الجمارك : أليس شئ يريد إعلاته ؟ فأجاب أعلن عبقريتى . فتد تلك اللحظة كان يقابل بعاصفة من الهمتاف والتقدير حتى من أقل الجماهير تحضراً وقبولاً لسماع حديثه . وكان فى مواقف حرجة لا يعوزه الكلام ولا يخونه ذكاؤه . ، وقد أعجب الناس برجولته فى أكثر من موقف بالرغم مما كان يعرف به بين أقرانه فى لندن من التخنث . وعاد من أمريكا مليء الجيب ذائع الشهرة .

لم يكن هذا ليزوق صديقه الأمريكى الذى إتخذ لندن مقاما ؛ فقد ظهرت على هويسلر بوادى الغيرة وأخذ يفتقد الآراء التى أذاعها وايلد فى محاضراته . فكيف يجسر الشاب على النصيح بأن على الناس أن يغيروا من طريقة زينة دورهم . فى رأى المصور أن ذلك أمر لا يهتم مطلقا ولا يتفق مع القول بأن الفنان يجب أن يعمل للفن وحده وصار فى مجالسه الخاصة يسخر من آراء الشاب وصار هويسلر فى محاضراته يهزأ بنقاد الفن الذين لا يعرفون شيئا . وكان أوسكار وايلد يحضر هذه المحاضرات . فى ذات مرة رفع الصوت معلنا أنه يختلف كل الاختلاف مع مستر هويسلر ؛ فليس الفنان رجلا منفردا بنفسه ، وقال إن إدجار ألن پو وبودلير هما من سادة الحياة لا بنيامين رست وپول رى لاروش . فلما أراد هويسلر أن يسخر منه لا اختياره هذين الاسمين غير المعروفين للفن أجاب وايلد فى هدوء إننى وجدتهما فى إحدى الموسوعات ، وقد ذكر أنهما كانا يحاضران فى الفن ولم يخلفا شيئا من صورهما ، لذلك أنصحك أن تكون حذرا يا جيمس . وكانت هذه السخرية مما أدت بهويسلر إلى حب الانتقام ، فكتب ذات مرة يسائل أى علاقة لأوسكار بالفن إلا أنه يتعشى على موائدنا ويلتقط من فتاتنا بعض الفواكه التى يبيعها فى الريف .

وهكذا أخذ هويسلر يبتعد عن أصدقائه ويجدد نفسه وحيدا . وكانت خصوماته تزداد بتقدمه فى السن وتتخذ أوضاعا تافهة . ولقد صدق ديجا المصور الفرنسى حين قال عنه إنه لمن المتعب حقاً أن يتخذ الإنسان دور الفراشة بدل أن يكون ثورا هربا مثل .

وهكذا أخذ المصور الأمريكى يشعر بالمرارة نحو جمهوره الانجليزى . وكان هنالك شخص آخر أخذ يشاطره هذا الشعور هو جورج مور الايرلندى الاصل الذى نشر فى سنة ١٨٨٧ كتابه « اعترافات شاب » . فقد جاء مور إلى لندن بعد أن عاش دهرا فى باريس وتعرف إلى رجال الفن وارتاد مشارب القهوة ، وتركت هذه السنوات فيه أثرا لا تحويه الأيام . فلما أن جاء إلى لندن شعر بفراغ عظيم ، ولم يجد فى رفقاته فى مشارب الخمر ما يعوضه عن عشرة مائيه ، وذيجا ، ورينوار ، وفيليب دى ليل آدم ، وكاتول مندىس ، على أنه لم يلبث فى لندن أن تحول من التصوير إلى الأدب ، حيث أخرج تلك الاعترافات التى تأثر فيها بكتابات ويسمانس الفرنسى وبكتابات ولتر پاتر الانجليزى .

وفي هذه الاثناء كان أوسكار وايلد قد زار باريس لأول مرة. وقد ملاه جيبه بالدنانير الأمريكية ، فلقى جمعا من الشعراء والأدباء أمثال جونكور ، ودوديه ، وميلارمييه ، وأعجب بفن سارا برنارد . وقد استكشف في هذه الزيارة أن الآراء التي اعتنقها هويسل وبشر بها لم تكن بالجديدة ، وقد أثرت فيه باريس بقدر ما أثرت في جورج مور ، فأخذت رواية فلوير عن هيرودياس توحى إليه فكرة سالومييه ، ورواية ويسمانس إلى العودة توحى إليه فكرة صورة دوريان جراي . وطاد إلى لندن بعد أن تغيرت طباعه ، فعدل عن تلك الملابس الفنية التي كان يرتديها ليدل بها على نفس نزعتة إلى ملابس عادية بادية التأنق ذات ذوق باريسى ، وأخذ يعيش عيشة اللهو واللذة .

سئل وايلد ذات مرة عن مرمى حياته فقال : إني لا أبحث عن السعادة ، بل أنا أبحث عن اللذة وهي أشد ألما .

وكانت اللذة حينئذ مؤلمة حقا . ولعل رجلا آخر فرنسيًا كان يعيش وقتئذ في لندن يبحث أيضاً مثل هذا البحث هو الشاعر پول فيرلين الذي بدأ سحره ينتشر على جانبي مضيق المانش ، والذي كان اسمه يذكر دائماً مقروناً بالشاعر الشاب رامبو .

أجل ! البحث عن اللذة هو الذي قاد أوسكار وايلد إلى تلك المأساة التي قضت على حياته وهو لما يتجاوز ربيع الشباب ، فإن اللذة إذا كانت حقاً للأديب فإنها لا بد أن تزيد من خصومات الناس حوله ، ولا بد أن تمد منافسيه في عالم الأدب بما يستطيعون أن يتخذوه موضوعاً للحديث عنه واللغط حوله . ولقد اجتمعت خلال وايلد جماعة من الشبان المعجبين به حتى انتاب أصدقاءه الخوف عليه . فرجال مثل فرانك هاريس وكلايد فنش لم يكونوا أنبياء ولكنهم مع ذلك بدأوا ينزعدون للغط الذي أثاره وايلد . وحاولوا أن يحذروه فلم يرتدع ، ولقد اتهم بعض الناشئين من الأدباء فرصة للهجوم على هذا الأديب الذي هو أكبر منهم سنًا وأكثر شهرة . فعلى سبيل المثال وضع الكاتب روبرت هيتشر الذي عرف بعض أصدقاء وايلد في مصر قصة اسمها « الباقة الخضراء » ، شرفها بوايد وجماعته . وكان أشد خصومه مركز كويتزبرى المعروف وقتئذ في حاقات الملاكمة .

فقد كان المركز لا يقر الصداقة الأدبية التي نشأت بين وايلد وبين ابنه لورد

الفريد دو جلاس ، وبدأ الأب يعمل في عنف على فصم هذه العلاقة . وفي ذات يوم زار وايلد في بيته وأخذ معه رجلاً ليكون شاهداً ، وأخذ يكيل لوايلد اللعنات والتهديد ، فما كان من وايلد إلا أن دق الجرس فجاء خادمه فقال له أمام الزائر الغاضب : أترى هذا الرجل ! إنه مركيز كوينزبرى أقبح وحش في لندن ، فعليك أن لا تسمح بدخوله إلى هذه الدار مرة أخرى .

على أن كوينزبرى لم يكتف بذلك ، بل ذهب في الليلة الأولى لتمثيل إحدى روايات وايلد ومعه مقدار من البقول والخضراوات ليقتذف بها المؤلف . وأخيراً أرسل إليه رسالة فيها قذف قبيح . فرأى وايلد أنه لا يحسن السكوت على ذلك ، والتجأ كما التجأ هويسلر من قبل إلى القنصل لينصفه غير حاسب حساباً لتأثير القانون بالمجتمع .

استمر الفصل الأول من هذه القضية بل هذه المأساة ثلاثة أيام ، وقد دافع عن المركيز محام اسمه كارسن كان يعرف وايلد من أيام اكسفورد ، وكان الدافع يرمي إلى إثبات أن كتابات وايلد ذات نزعة معيبة منافية للأدب ، فأخذ يلقي على وايلد أسئلة عن بعض قصصه على أن المحامى لم يكن قوياً في هذا الباب ، ولكن قوته ظهرت في اليوم الثانى من نظر القضية حين اتجه المحامى إلى الكشف عن حياة وايلد الشخصية . وكانت إجابات وايلد الذى يبحث عن البريق الأدبى مما يزيد التهمة التى يريد أن يثبتها المحامى في هذا الوسط القضائى الذى لا يفهم إلا أن الكلمات تعبر عما قصد بها لا أكثر ولا أقل .

سأله المحامى هل أظهر الحب لخادم فى اكسفورد ؟ فأجاب وايلد على سبيل الاستخفاف : كلا ! فقد كان الخادم عادياً بل قبيح الصورة . فسأله المحامى : وما دخل قبح الصورة فى الموضوع ؟ فأجاب وايلد : لا أقصد شيئاً وإنما تأثرت لسؤالك العجيب .

ولقد ظهر فى هذه الأيام الثلاثة أن وايلد خسر القضية ، والقضاء الانجليزى حينئذ يفتح الباب واسعاً أمام المركيز لى يقتصر من التهمة التى اتهم بها . ولم يبطئ المركيز فى تقديم أوراقه عن طريق محاميه إلى المحكمة ، وصدر الأمر بالقبض على وايلد ، وابتدأ الفصل الثانى من هذه المأساة ، وكانت الصحافة فى ذلك الوقت أشد شماتة وئلباً للناس منها الآن ، وكان الناس أكثر رياء ، فتعالت الصيحات من كل جانب بما عبرت عنه إحدى الصحف حين قالت فى اليوم الذى

قبض فيه على أوسكار وايلد : إن خير ما يفعله الناس هو أن يفسوا أوسكار وايلد بتصنعاته الدائمة ، وتعاليمه العجيبة ، ومنتجاته المسرحية . فإذا لم يحاكم فلندعه في عالم السكون ولا نسمع عنه فيما بعد .

وكان من المستطاع لو أراد وايلد أن يذهب إلى عالم السكون بأن يسافر في الباخرة إلى الجانب الآخر من المانش ويتفادى القبض عليه ، ولكنه لم يفعل ، وكأنه كان ينتظر هذا الاعتقال في شيء من الراحة ، وكأنه كان يرى في نفسه شهيداً من شهداء المذهب الذي ينادى به .

وبدأت المحاكمة ، وقد أطلق سراح وايلد بضمان شخصي في فترتها ، ولكنه وجد أبواب الأصدقاء مغلقة دونه والفنادق لا تقبله ، وتقابله جماعة من المأجورين بالسخرية ، ولم يستطع أن يجد مأوى إلا في غرفة أخيه . وقد نصحه بعض الأصدقاء بالفرار إلى فرنسا حيث ينساه الجمهور ويلقى على الحادث ستار ، فلم ينتصح وكأنما القدر يحجره إلى مقدور لا مرد منه .

واستغرقت هذه القضية شهرين ، وكان بعض الخلصاء ، ولا سيما فرانك هاريس الكاتب الأمريكي ، يلحون عليه في الفرار ، وقد أحضر له هاريس قارباً خاصاً وقف ينتظره في ميناء إريث ، ولكنه لم يفعل بل ظل يتردد على المحكمة حيث صدر الحكم عليه وخرج منها إلى السجن .

ولم يأل الجمهور الإنجليزي جهداً في إظهار سروره بهذا الحكم ، فكان العامة يصيحون ليسقط الأستقراط يتخذونه مثالا لقبائح تلك الطبقة الممتازة مع أنه لم يكن منهم ؛ إذ لا يمتلك غير ما يربحه من كتبه ، وقد حجزها الناشرون عن الجمهور بمجرد الحكم عليه ، كما سحبت مسرحياته من المسارح . وهكذا كان عقاب الذي أتى بمجديد لم يألّفه الجمهور شاملاً ، واضطر إلى أن يحتمل فضلاً عن السجن حكم الإفلاس وبيع أثاث بيته ومجموعاته والتحف التي كان يحبها بضمن زهيد وهكذا نزل ضيفاً على سجن ريدينج حيث كتب تلك القصيدة الشهيرة ، ووضع تلك الاعترافات .

أشرف القرن التاسع عشر على الزوال وقد منيت فكرة الفن من أجل الفن بما يشبه الهزيمة بعد أن تعرض أقطابها لسخط الجمهور الذي حاولوا أن يخرجوه من كهفه الفكري . ومع ذلك ظل لهذه الفكرة تلاميذ لا يذهبون لمذهب الأقطاب في مغالاتهم وإن كانوا يعملون لهذه الفكرة . وكان المصور

الشاب أوبسبرى بيردسلى لا يزال حياً ، ذلك الذى كان يرسم صورته فيتخذ لباس القرن الثامن عشر فى جميع الصور حتى ما كان منها قديماً ، وقد اقترن اسمه بما رسمه من صور لرواية « سلوميه » المشهورة لأوسكار وايلد ، ومع أن الشاب المصور لم يكن على وفاق كبير مع أستاذه ؛ فقد كان وايلد يعتقد أنه خلق بيردسلى إذ أتاح له تزيين كتابه بالصور فى حين كان بيردسلى يعتقد أنه خلق وايلد إذ صور كتابه . وكان وايلد كثيراً ما يتهكم على بيردسلى ، وقال ذات مرة : « إن بيردسلى العزيز يعرف فرنسا حق المعرفة ؛ فقد سافر ذات مرة إلى ديب » . ولا شك فى أن المصور تألم من هذا القول ، فهو فى قرارة نفسه ، كان يعتقد أن معرفته للأدب الفرنسى لا تقل عن معرفة وايلد به . ولم يكن بيردسلى ممن يعطفون على وايلد فى ضعفه الجسمى ، وهو بالرغم مما فى صورته من ميول شاذة كان يكره أن تتخذ هذه الصور دليلاً على شذوذ فيه .

وكان من شبان هذه الحركة فى ذلك الوقت شاب من أهل ويلز اسمه آرثر سيموندز ، تلقى فلسفة الجمال من باتر ، وقضى أوقات طويلة فى فرنسا ، فصارت النظرة الفرنسية إلى الجمهور عادة له ، وكان يحترم فيرلين وملازميه ، وهو زعيم الجماعة التى ظلت تلح على فيرلين حتى رضى بالخروج من المستشفى ليلقى محاضرات فى أكسفورد ولندن حيث نزل الشاعر الفرنسى العبقري ضيفاً عليه ، وكان يشرب كميات كبيرة من شراب « الجن » ثم يصب على حلقة المعجبين حوله سيلاً من الذكريات .

وقبل نهاية القرن بسنتين فتحت أبواب سجن ريدنج ليخرج منها وايلد إلى عالم لا يجد فيه صديقاً . ولم يكن من السهل على وايلد أن يعود إلى مجال الحياة كما فعل فيرلين ؛ فلقد استطاع فيرلين ألا يهتم بالمجتمع الذى كان فيه وأن يؤلف لنفسه تلاميذ ومريدين بالرغم من كل شيء ، وصارت ردائله أساساً لوجهة فلسفية جعلت منه شخصية يمكن مقارنتها بسقراط . ولكن وايلد لم يكن يستطيع شيئاً من ذلك ، فهو رجل مجتمع لا يستطيع أن يعيش بدون وسائل الترف والنجاح ، وهذا مما زاد فى تعاسته . والواقع أن وايلد لم يكن واسع الأفق ، وفى كتاباته بريق لا يتفق مع وقار مركزه الذى وجد نفسه فيه . وقد سأله كاتب فرنسى من المهتمين به هو أندريه جيد : « لماذا لا تضع مسرحية جديدة ؟ » فأجاب فى حزن أنه عاجز عن ذلك .

الفن من أجل الفن

ولم يكن ليستطيع أن يتحول تحولاً جديداً في الأدب ؛ فلقد ظهرت بوادر
تيارات جديدة في الأدب الأوروبي بعيدة عن فرنسا ، وهي تيارات لا تقوم على
الفن وإنما تقوم على الآراء والمشاكل ، هذه هي مسرحيات النرويجي إبسن
وروايات الروس . وقد قال وايلد في ذلك إن الفكر في تلك الفترة قد تنهقر إلى
الترويح وروسيا حيث لا تشرق الشمس وهو يفضل ضوءها .
ولقد قال : « لو طالت بي الحياة إلى القرن العشرين لكان ذلك فوق ما يحتمله
الشعب الانجليزى » . وكان في قوله شيء من النبوءة ؛ إذ لم يكده يزعج القرن
العشرون حتى كان وايلد قد أسلم الروح .
ومع ذلك كانت حياة وايلد رمزاً لتضحية غريبة . ولقد قال عن نفسه إنه
وضع عبقريته في حياته على حين أنه وضع ذكائه في كتبه . وقد يكون هذا
القول صادقا في جوانب كثيرة منه .

مهنى محمود

حول مشروع بحيرة طانا

تضاربت البيانات وأقوال الصحف في الأيام الأخيرة حول هذا المشروع ؛ فلا تكاد تقرأ في الصحف أن هناك محادثات بين وزير التجارة في مصر ووزير أشغال أتيوبيا بشأن هذا المشروع حتى يبادر وزير الأشغال الأتيوبي بتكذيب الخبر . ولا يكاد رئيس الوزراء أو وزير الأشغال في شهر يولييه الماضي يصرح بأن بحث مسألة إنشاء خزان طانا يبدأ من جديد في شهر أكتوبر ، ولا يكاد يقول إن الوزارة ستوفد إلى أديس أبابا بعض رجالها لمفاوضة حكومة أتيوبيا ، حتى تقرأ في جريدة « الأثيوبيان هرالد » التي تصدر في أديس أبابا نصياً رسمياً من الحكومة الأتيوبية ، فخواه أن شيئاً من هذا لم يكن .

وأنت إذا ذهبت إلى وزارة الأشغال أو وزارة الخارجية للاطلاع على الأوراق الخاصة بهذا المشروع قيل لك إن كل ما يتعلق بالمشروع سحب وأودع الخزانة السرية تمهيداً لإعادة النظر . والواقع أن فيضان هذا العام كان باعثاً على إحياء التفكير في المشروعات المختلفة التي من شأنها أن تنظم توزيع مياه النيل من جهة ، وتزيد من مساحة الأرض المزروعة من جهة أخرى . ونال مشروع بحيرة طانا — على ما يظهر — نصيباً من الاهتمام . إلا أن هذا المشروع يختلف في طبيعته عن غيره من المشروعات المقترحة تنفيذها في السودان ؛ لأنه يقع في بلاد الحبشة ، ويحتاج تنفيذه إلى موافقة الحكومة الأتيوبية .

فالمسألة إذن ليست مقصورة على الدراسات والبحوث الفنية من جانب رجال وزارة الأشغال فحسب ، بل تخضع أيضاً لسياسة وزارة الخارجية .

اسم البحيرة

تسمى باللغة الأمهرية طانا (بالطاء لا بالتاء) ، واسمها في اللغة الحبشية القديمة تصانا (بإسكان التاء) ، واللغة الأمهرية تبدل الصوت « تص » في

حول مشروع بحيرة طانا

الحبشية القديمة بـ «طاء» . وقد أطلق عليها رجال البرتغال في القرن السادس عشر الميلادي بحيرة دامبيا باسم المقاطعة التي تتاخها من الشمال .

ارتدادها

إن دخول المرسلين اليسوعيين إلى الحبشة في القرن السادس عشر أتاح لهم ارتداد بعض مناطق البحيرة . وقد وصل القسيس بايز إلى المناطق المحيطة بالبحيرة ، فتوصل إلى معرفة منبع النيل الأزرق . ثم توجه الرحالة الأسكتلندي جيمس بروس بين سنة ١٧٦٨ وسنة ١٧٧٣ من الحبشة على ساحل اليمن إلى مضوع فبلاد الحبشة للكشف عن منابع النيل . وقد استصعبه الإمبراطور تكلا هيانوت (١٧٦٩ — ١٧٧٧) في بعض حملاته التأديبية حول بحيرة طانا . وبذلك سنحت لبروس فرصة لم يكن يتوقعها ، إذ رأى منبع النيل الأزرق . وإليه يرجع الفضل في تحديد مكان البحيرة بالضبط ووصفها وصفاً مفصلاً .

وفي سنة ١٨٣٩ أرسلت الحكومة الفرنسية بعثة علمية وصلت إلى المناطق المحيطة ببحيرة طانا ، كما قام القنصل الفرنسي في أتيويا انطوان دابادي برحلة حول البحيرة سنة ١٨٤٢ .

وفي سنة ١٨٨٠ سافر الألماني انطون شتيكر في مهمة سياسية لدى الإمبراطور يوحنا ، فزار البحيرة وحدد مركزها ورسمها على الخريطة . ثم أرسلت الجمعية الجغرافية الإيطالية سنة ١٩١١ أحد علمائها لدراسة البحيرة بعد أن رأت اهتمام فرنسا وبريطانيا بإرسال عدة بعثات بين سنة ١٩٠١ وسنة ١٩٠٨ ثم توالى إرسال البعثات من الحكومتين المصرية والسودانية توطئة لدراسة مشروع الخزان .

وقد كلفت الأكاديمية الملكية بروما العالم الإيطالي دافيلي سنة ١٩٣٧ أي أيام الاحتلال الإيطالي للحبشة بدراسة البحيرة من الناحية العلمية والاقتصادية .

وصفها

إذا اتخذ المسافر أحسن الطرق الموصلة إلى بحيرة طانا ماراً بمدينة جوندار فانه لا يكاد يبتعد عنها مسافة أربعين كيلو متراً حتى يصل إلى البحيرة . ومع وجود الرحلات المختلفة إلى البحيرة فإن النتائج التي وصلت إلينا وخاصة عن الارتفاعات والمساحات فيها لا تخلو من فروق . ولكن الطليان أيام احتلالهم الحبشة أمكنهم أن يحققوا الكثير منها : فالبحيرة تقع على ارتفاع ١٨٤٠ متر فوق سطح البحر ، على شكل قلب طوله ٨٥ كيلو متراً من الشمال إلى الجنوب وعرضه ٦٥ كيلو متراً من الشرق إلى الغرب . ومساحة سطح الماء في البحيرة حوالي ٣٦٣٠ متر مربع . وتبلغ مساحة حوضها حوالي سبعة عشر ألفاً من الكيلو مترات المربعة وهو صغير نوعاً . ومنطقة البحيرة غزيرة بمطارها . ويصب فيها من المرتفعات المحيطة بها نحو ستين جدولاً ونهيراً ، أهمها أتباي الصغير . وهي تحمل معها طبقة من الغرين تتركها على جوانب البحيرة بعد انقضاء موسم الأمطار . وأما منطقتها فبركانية ، بها بعض عيون معدنية ، وقد وجد الفحم في جنوبها الشرقي وشمالها كما عثر على الحديد في شرقها .

وعلى مقربة من قرية بحر دار جيورجيس في الجنوب الشرقي من البحيرة حيث تكثر أعشاب البردي ينبع النيل الأزرق أو كما يسمونه أتباي ومعناه الأب . وهذا يدل على منزلة النهر عندهم . وتذكرنا هذه التسمية باسم النيل عند قدماء المصريين . ويبلغ طول النيل الأزرق من منبعه إلى مصبه ١٤٠٠ كيلو متر . وتصب فيه روافد عديدة تحمل إليه المياه من مقاطعات الأمهرا ووللو وشوا . وتغذي بحيرة طانا النيل في مصر بمتوسط ٦ في المائة من المياه . ويمر النيل الأزرق بطائفة من السدود بقدر خروجه من البحيرة . وأشهر هذه السدود يبعد ٢٦ كيلو متر من منبعه ، وبه مساقط المياه طيس وها ومعناها الماء المدخن ، أو كما يسمونها أيضاً طيسيسات أي الدخان الكثيف . وهذه المساقط من أروع وأجمل المناظر الطبيعية في العالم ؛ إذ تهبط المياه من ارتفاع ٤٥ متراً وسط حقول مزدهرة ، فيها خاصة زهر الأركيديه (الزراوند) . ومما ينشأ من سقوط المياه من هذا الارتفاع أنها تتحول إلى ذرات تشبه الدخان ، ومن هنا كان اسم المكان .

الجزيرة

يرتبط تاريخ الحبشة وأساطيرها ارتباطاً وثيقاً بجزر بحيرة طانا التي تبلغ ٣٧ جزيرة . وقد كانت منذ أقدم العصور موطناً للقبائل المنتشرة في تلك الجهات ، تلجأ إليها طلباً للأمن من الوحوش أو الأعداء . ولبحيرة طانا أهمية دينية ازدادت منذ انتشار المسيحية في الحبشة في القرن الخامس الميلادي . وقد أخذ رجال الدين في إقامة الديارات والكنائس ليكونوا في نجوة من الغارات المختلفة ، كما فعل أسلافهم من قبل .

ويذكر القصص الحبشي القديم أن العذراء مريم عند هربها إلى مصر مع طفلها يسوع المسيح من وجه هيرودس الملك التجأت إلى جزيرة طانا قيرقوس وهي جزيرة صغيرة من جزر البحيرة . وقد اختبأت للعذراء بها ثلاثة أشهر وعشرة أيام . ويؤمن الأحباش إيماناً بهذه القصة وأمثالها ؛ لذلك يحجون إلى الجزر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً . وفي كل جزيرة على وجه التقريب كنيسة أو أكثر ، لسكل منها قصة يتناقلها الناس ويحرص رجال الدين على الاحتفاظ بها ونشرها حتى يبقى الناس على حجتهم وزياراتهم .

ومما يروي عن جزيرة طانا قيرقوس فوق ذلك أن تابوت العهد حفظ في الهيكل الذي كان قائماً في الجزيرة ، والذي حوَّله ملكاً أكسوم — وهما ألا أصبح وألا أبره — إلى كنيسة موسومة باسم القديس قيرقوس . وكان تابوت العهد قد سرق من بيت المقدس وحمل إلى الحبشة . ويقال إن أول كاهن لهذا المكان هو عزاريا بن صادوق رئيس الكهنة في أيام سليمان الحكيم . وهو الذي صحب إلى بلاد الحبشة منليك الأول ابن ملكة سبأ الذي أنجبته من سليمان . وتذكر القصة أن التابوت ظل هناك ستة قرون قبل نقله إلى مدينة أكسوم .

ثم وجدت في هذه الجزيرة كأس من المعدن عليها نقوش سبئية . ووجدت أيضاً إلى جانب الكنيسة ثلاثة أعمدة حجرية بها تجويف مستدير يدل على أنها كانت تستعمل في العبادة قبل دخول المسيحية . وعلى أحد الأعمدة صليب يقال إن القديس فرومنتيوس الذي أدخل الدين المسيحي إلى الحبشة في القرن الرابع نقشه بيده إشارة بذلك إلى انتصار النصرانية .

حول مشروع بحيرة طانا

أما جزيرة ميظراها فهي جزيرة صغيرة ، بها كنيسة شيدها منليك الثاني فوق قبر أم الملك يوحانس . وبها أيضاً قبر الإمبراطور إياسو الأول (١٦٨٢ — ١٧٠٦) . وترى هناك آثار كنيسة كان قد بناها الإمبراطور داود الأول (١٣٨٢ — ١٤١١) وأحرقها محمد بن ابراهيم الغازي المعروف بجرائيا (أي الأشول) في القرن السادس عشر ، ثم أعاد بناءها الإمبراطور يوحانس الأول (١٦٦٧ — ١٦٨٢) ثم أحرقها الدراويش .

وقد هاجم الإمبراطور تيودور (١٨٥٥ — ١٨٦٨) هذه الجزيرة بالمدافع وأحرق مساكنها .

وعلى جزيرة دبرا مريم المستطيلة الشكل الواقعة عند منبع النيل الأزرق أقام الإمبراطور تيودور كنيسة على أنقاض الكنيسة التي بنيت في عصر الإمبراطور عمداصيون (١٣١٤ — ١٣٤٤) . ومما يذكر عن الإمبراطور عمداصيون هذا أنه اشتهر في أوائل حكمه بأعمال الفسق والفجور ، فخرمه الأنبا هونوريوس من الكنيسة ، فاغتاظ الإمبراطور لهذا فأمر بالأنبا ان يجلد حتى يسيل دمه على مرأى من أهل المدينة . وفي مساء اليوم نفسه احترقت المدينة ، فقال رجال الدين إن دماء هونوريوس استحالت لهباً . ولكن الإمبراطور اعتقد أن رجال الدين هم الذين أشعلوا النار في المدينة ، فأخذ في اضطهادهم ، حتى هرب الكثير منهم إلى جزر بحيرة طانا معتصمين بها .

وهذا الإمبراطور هو الذي بعث سنة ١٣٢٥ ميلادية برسالة إلى السلطان الناصر محتج فيها على اضطهاده للأقباط ويهدده باضطهاد العرب الساكنين في أتيوبيا ، كما هدده بمنع الماء عن مصر وتحويل مجرى النيل إلى الصحراء .

وفي جنوب البحيرة تقع جزيرة كبران المستطيلة الشكل ، وهي مكونة من صخور بركانية تراكت طبقات بعضها فوق بعض . وترى في أبرز مكان من الجزيرة كنيسة جبريل التي أعاد بناءها الإمبراطور إياسو الأول على أنقاض كنيسة كان قد بناها الإمبراطور عمداصيون ، وقد استعان في بنائها بصناع من الأجانب . والكنيسة مستديرة الشكل على مثال كنائس جوندار . وقد جلبت حجارتها الجيرية من منطقة دنسا ، وأقيم في الهيكل اثنا عشر عموداً من الحجر الأحمر .

ودفن في هذه الجزيرة الإمبراطور تكلا هيانوت الأول (١٣٠٦ — ١٣٠٨)

وإليه أنفذ لويس الرابع عشر لونوار دورول الذي كان يتولى أعمال القنصلية الفرنسية في دمياط . ولكن لونوار قتل في طريقه إلى الحبشة في سنار بأمر ملكها . فغضبت الجالية الفرنسية في مصر لذلك الحادث وطردت جميع النوبيين الذين كانوا في خدمتها . هذا وما يؤثر عن الإمبراطور تكلاهيانوت أنه كتب إلى والى مصر يهدده بمنع ماء النيل عن مصر إن هو عاد إلى التنكيل برسله ، وخاصة ما حدث لرسوله مراد السورى الذى أوفده إلى لويس الرابع عشر بصحبة المسيو بونسيه .

ويرى الناظر أمام مصب نهر أتباى الصغير جزيرة داق وهى أكبر جزر البحيرة ، وهى مستديرة بعض الشيء ، يبلغ قطرها نحو خمسة كيلومترات ، وأرضها خصبة مزروعة حبوباً وقطناً وبنياً ، وهى ترتفع عن مستوى سطح الماء فى البحيرة عشرة أمتار تقريباً ، بها خمس كنائس بدياراتها ، وأجملها موقعاً كنيسة قوتا مريم المنعزلة القائمة وسط حقول مغطاة بخضرة كثيفة .

وفى هذه الجزيرة القرية الوحيدة التى يؤذن للنساء بالإقامة فيها . وربما رجح هذا التساهل إلى أن الكنائس الخمس الموجودة بالجزيرة ليست على الشهرة التاريخية أو القصصية التى لغيرها . فإن الجزر التى بها ديارات يحرم على النساء دخولها . وقد مرى هذا التحريم أيضاً على الإناث من الحيوان (كما هو معروف عن جبل آتوس فى بلاد اليونان الآن) .

وفى جنوب داق الشرقى على مسافة كيلو متر واحد تقع جزيرة داجا ، وهى مستديرة يبلغ قطرها ١٢٠٠ متر تقريباً ، وهى صخرية بركانية ، ترتفع نحو ٩٠ متراً فوق سطح الماء . وتطل منها كنيسة اسطفانوس المستطيلة ، وقد تم ترميمها بعد أن دمرتها الصاعقة سنة ١٨٨٠ . وإلى جانب الكنيسة دير نجا من الصاعقة ، يحفظ عدداً من رفات براطرة الحبشة ، أو بالحري صناديق تحوى جماجمهم .

ومن بين البراطرة يكونو أملاك (١٢٧٠ — ١٢٨٥) وهو رأس الأسرة السلمانية الذى نقل عاصمة الملك من أكسوم العاصمة القديمة إلى تجولات . وكانت بينه وبين العرب حروب دارت عليه . وهو الذى راسل الظاهر بيبرس وراسل الإمبراطور ميخائيل الثامن فى القسطنطينية .

وفى الدير نفسه رفات الإمبراطور داود الأول (١٣٨٢ — ١٤١١) ،

حول مشروع بحيرة طانا

وهو الذي اشتدت في أيامه الحرب بين العرب والأحباش . وقد ذكر المقرئ أن هذا الإمبراطور أرسل إلى السلطان برقوق ٢٢ جملة بالهدايا . وكان مغرمًا بركوب الخيل ، وقد لقي حتفه تحت حوافر فرس جموح . وفي هذا الدير أيضاً رفات الإمبراطور زراً يعقوب (١٤٣٣ — ١٤٦٨) وكان عصره عصر إحياء العلوم في الحبشة ، وهو أول من استعان بالأجانب في كثير من الأعمال الإنشائية . ومما يذكر أن أحد الرهبان من طليان البندقية صور له العذراء تحمل الطفل يسوع المسيح على يدها اليسرى كما جرت العادة بذلك في البلاد الغربية ، فثار الأحباش لذلك وأرادوا تحطيم الصورة ؛ لأن العادة جرت في الحبشة على عكس ذلك أي أن يصور الطفل محملاً على اليد اليمنى ؛ لأن اليد اليسرى تكون للتحقير ، واليمنى للتشريف .

وفي هذا الدير الإمبراطور زادنجل (١٦٠٣ — ١٦٠٤) وهو الذي راسل البابا كليمنسيوس الثامن ، ثم راسل الملك فيليب الثالث ملك أسبانيا إذ اقترح عليه أن يزوج ابنته من ابنه ، وكذلك رغب إليه أن يوجه إليه عدداً من الأسبان ليقيموا في الحبشة حتى يمتزج الشعبان .

وفي الدير مومياء الإمبراطور فاسيلادس أعظم برطرة الحبشة ، وهو الذي بنى مدينة جوندار واتخذها عاصمة للملكة وشيد فيها الحصون التي تعتبر من أعظم آثار الحبشة . وقد استعان في بنائها بصناع مهرة من مصر والهند كانوا يعملون تحت إشراف فنيين من البرتغال . وهو الذي طرد المرسلين اليسوعيين من بلاده ، وأعاد بناء كنيسة أكسوم بعد أن خربها محمد جرانيا . وهنا يقول الرحالة بروس الاسكتلندي : إن بعض التحف القديمة أعيدت إلى الكنيسة بعد أن كان خبأها الرهبان زمناً في جزر بحيرة طانا .

أما الجزر الواقعة شمال البحيرة فتجد فيها آثاراً كثيرة لقصور وكنائس وديارات خربها محمد جرانيا ، ثم رمم بعضها . وعاد الدراويش أيام ثورة المهدي إلى تخريبها وإحراقها ، فلم ينج منها إلا القليل مثل دير مندابا في جنوب شبه جزيرة جورجورا حيث يقيم الآن مائة وخمسون من النساك الذين اشتهروا بزهدهم وتقشفهم .

وفي الكنائس والديارات القائمة على جزر بحيرة طانا ثروة من المخطوطات المكتوبة على الرق باللغة الحبشية القديمة (الجعز) التي لا تزال لغة الكنيسة

حول مشروع بحيرة طانا

في الحبشة . وعرفت إحدى جزرها وهي كبران بأنها أصلح الأماكن لحفظ المخطوطات وإخفائها ؛ فإليها يرجع الفضل في إنقاذ عدد كبير من المخطوطات أيام الاحتلال الإيطالي ، كما أخبرني بذلك رئيس ديرها .
ويحس المتجول في أي ناحية من نواحي الجزر أو في المناطق المحيطة بالبحيرة بأنها كلها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الحبشة في ناحية الدين والسياسة .

ماتة السطان

تعتبر منطقة بحيرة طانا بالإضافة إلى الحبشة من المناطق المكتظة . وسكانها خليط من عناصر كوشية وسامية من الأجو ومن الأمهرا وهم يدينون بالمسيحية . ويقطن في المناطق الغربية منها بقايا قبائل لا يزال أفرادها على وثنياتهم وعاداتهم الفطرية . ومع أن جزر البحيرة آهلة برجال الدين الذين وقفوا حياتهم على العبادة والتنسك ، فإن سكان شواطئ البحيرة على جانب كبير من النشاط التجاري .

فهناك مركزان تجاريان ، يقع أولهما على شاطئ البحيرة الجنوبي الشرقي في قرية قوراطا التي اشتهرت منطقتها بزراعة البن والموايح ، وهي ميناء تجارية لقبائل مقاطعة البيجامدر .

أما المركز الثاني فهو قرية تصجي على الشاطئ الجنوبي الغربي من البحيرة ، ويزرع البن بجوارها ، وهي الميناء التجارية التي تتجمع فيها تجارة السودان بهذا الجزء من الحبشة .

وبالقرب من البحيرة عدة مدن اشتهرت بتاريخها . ففي شرقها دبراتابور التي ترتفع ٣٠٠٠ متر تقريباً فوق سطح البحر ، وهي ملتقى الطرق بين مقاطعة الجوجام والتيجري ، وبين جوندار ووللو ، وهي تقع في منطقة صخرية وسط غابة من أشجار الكافور . وقد اعتبرت في تاريخ الحبشة من الحصون المنيعة حتى إن بعض البراطرة اتخذها في القرن الماضي عاصمة للمملكة . وهي الآن مركز مقاطعة البيجامدر .

وإلى جانب البحيرة الشرقية قرية إيفاج الواقعة في وسط غني بكرومه ، وقد عدها الطليان من الإوساط الصالحة لسكنائهم ومحط استعمارهم . وهي

حول مشروع بحيرة طانا

لا تزال إلى الآن سوقاً تجارية تتجمع فيها حاصلات الجهات الخصبية التي تحيط بها .

وتقع مدينة جوندار شمالي البحيرة على ارتفاع ثلاثة آلاف متر ، وقد كانت عاصمة أتوييا في القرنين السابع عشر والثامن عشر . بها أربع وأربعون كنيسة قديمة ، وهي وسط تجارى تجتمع فيه الطرق التي تربط مصوع ببحيرة طانا .

أما المنطقة الغربية والشمالية الغربية من البحيرة فمرتبطة منذ أقدم الأزمنة بالسودان . وكانت من أولى المناطق التي استهدفت لغارات الدراويش وتخريبهم ، كما يشهد بذلك آثار الكنائس والهياكل هناك . وقد حفظ لنا التاريخ أيضاً أنها استهدفت لجيوش قدماء المصريين في الأسرتين الثانية عشرة والثامنة عشرة من قبل .

ويصيد سكان البحيرة السمك ، وبذلك عرفت قبيلة الويطو التي تسكن شاطئ البحيرة الشرقى ، كما عرفت بالقنص وصيد فرس البحر الذي يكثر في البحيرة . وهي من بقايا القبائل الوثنية القديمة التي لا نعرف منشأها على وجه التحقيق ، ولا يزيد عددهم على ألف . وهم من بقايا السكان الأصليين ، وقد اشتهروا بغنائمهم الذي يعتبر مضرب الأمثال عند الأحباش ، وهم يعدونهم من الجنس المنحط الذي كان سترق مثل الشنقلا (بنى شنقول) والولجا . ويتنقل الويطو بين هذه الجزر وشواطئ البحيرة على عوامات مصنوعة من القصب أو البردي يسبرونها بمجاذيف من قصب الجبوس يضربون بها الماء ، إذ أن المجذاف العريض لم يعرف عندهم .

هذا وصف مجمل للبحيرة وجزرها وشواطئها وأهلها ، قصدنا إلى عرضه قبل أن نتحدث عن المشروع وتاريخه وفوائده .

وهذا يبين لنا ما سيقابل تنفيذ المشروع من عقبات أو اعتراضات أو ما سيقابله من استعداد وتسهيلات . كما يساعدنا على تفهم الأسباب التي تعطل من أجلها تنفيذ المشروع إلى اليوم .

مراد لامل

[يتبع]

أقصوستان

[كتب الأديب الفرنسي مارسيل أربلان هاتين
الأقصوستان خاصة للرجلة .]

الصاروخ

في الخامسة والستين من عمره اشترى أوجست بليزو ، زوج فوزين ووالد إميل ، دراجة جديدة ذات لون أزرق صاف من طراز إيجلون . وقال القوم : « في الخامسة والستين ، إنه لمجنون ! » وتأهبوا للضحك ولكنهم لم يضحكوا . ولا أدري أين تعلم الركوب . ربما كان ذلك في الغابة ، وربما كان في الليل . لقد بدا ذات مساء ممتطيا دراجته وعبر القرية وهو مشدود الأعصاب ، من غير شك ، وثابت النظرات ، ولكنه لم يقع قط . ومنذ تلك الليلة ، كان يذهب كل مساء على دراجته الزرقاء حاملا لامرأة الكاتب لثرا من اللبن كانت تحب أن تشربه ولما يزل دافئا من ضرع البقرة . وكانت النسوة يخرجن إلى عتبة أبوابهن فيرفعن أيديهن قائلات : « أتصابي يا أوجست ؟ » فيحيين برأسه دون أن يلتفت إليهن . وتبقى فوزين نصف مختبئة بالخزن تتابع رجلاها بنظرها ما وسعتها المتابعة . ويقول لها النساء : « زوجك يا فوزين ، إنه يستطيع أن يعلم الشباب » فتنق غضبا ورضا . لقد تغير شيء ما بالمنزل منذ شراء هذه الدراجة ، إذ قل صراخ فوزين وغلا صوت أوجست .

لم يضحك القوم ولكنهم بدءوا ييسمون . وتري أوجست ساعة وصوله منزل الكاتب يدع الدراجة أمام الباب . وهكذا بقيت أول الأمر خمس دقائق ، ثم عشر في يوم آخر ، ثم ربع ساعة . وأخيرا كان أوجست بليزو يدخل الدراجة معه . فالكاتب في الصيد ولا يعود إلا مع الليل . ويردد الناس : « يا لك من لعين يا أوجست ! » حتي سمعوا ذات يوم عواء فوزين يعلو ويشدد كما لم يسمعه

الصاروخ

قط من قبل . ونحن بالمدرسة ، تتدافع بالمناكب كلما تطلعنا إلى إميل .
في ذلك العام ، كان إميل يحتفل بالمناولة الأولى ، فتغدى كالعادة المتبعة عنده
زميله في المناولة (والزمالة في المناولة تربط بين الزملاء مدى الحياة) وآتى الزميل
بدوره ليتعشى عند إميل . وحضرت تلك الوليمة بصفتي جاراً لهم كما حضرتها ابنة
عمهم وقد هرعت من المدينة لتشهد ذلك الحفل . وقال الأب وهو يعلق إناء
اللبن بدراجته : « اجلسوا لن ألبث أن أذهب حتى أعود » . ورأينا لون إميل
المصفر يزداد امتقاعاً على حين اقتربت الأم من رجلها وهي تهمس له بكلمات وعليها
مظهر التهديد : « وليمة المناولة ؛ يجب ان تسلك سلوكاً مناسباً » ولم يسد على
أوجست أنه سمعها ، بل امتطى دراجته وهو يبتسم ؛ وكان حليق اللحية ناضرها ،
قد وخط الشيب شاربه ولكنه رقيق مذهب ، وكان مشعر الساعدين وطرفاً
سراويله مثبتتان بالمشابك ، وتخرج في سيره ثم ابتعد وهو معتدل القامة ، مرتفع
الرأس ، ومنكباه إلى جانبيه .

كانت فوزين تردد دائماً : « ليس هناك من هم أفقر منا . » ولكنها رغم
بخلها صممت على الاحتفال بذلك اليوم ، فسيتكلم الناس عن الوليمة وعن الحساء ،
وعن الأرنب وعن المحار وعن النبيذ العتيق الذي أعقب الجديد . وكانت تقول :
« أليس هذا عظيماً ! كلوا . كل يا هنرى . كل يا مارسيل . كل يا ابنة عمى . إن
وليمة المناولة لا تقام كل يوم . » ولما رأى إميل أمه بهذا اللطف ، أخذ تزمّثته
يزايله وهو المتوتر دائماً ، الجاد دائماً ، الخجول أبداً ، فأفرغ كأسه ، وقالت
له أمه : « ضع شيئاً من الماء » . « نعم يا أماه ، لا تشغلي نفسك بى . »

ولم يستغرق ذلك إلا قليلاً ، وانقضت الساعة وآتى الغسق ، وكنا نمد
آذاننا لننتسمع أقل حركة في الطريق . وأوقد المصباح الصغير . وكانت الأم قد
صممت ، وأظهر ضوء المصباح المرتجف عظام وجهها وثقوبه ، وأنفها الضخم
البارز العظام ، وشفتيها الرقيقتين المزمومتين ، وجهتها بغضونها العميقة تحت
متديلها المسترخى . وكانت تبدو منطوية على نفسها ، ثابتة النظرات ، ولكنها
قائمة عن المكان . وبدأ يظهر على ملامحها التي عذبها التعب والشراسة امتعاض
أعمق منهما ، هو امتعاض الغيرة : غيرة العجوز الممتلئة بغضاً . وكنا قد اتينا
من الأكل . ولم نكن نجرؤ على الحركة . وفي فترات متباعدة كان زميل إميل
يرشقني بنظرات أقرأ فيها : « آه ! لو عرفت ! » ومضى وقت جاهدت معه ابنة

الصاروخ

العم لتتكم ، وكنا نشعر أنها تقاوم همتا جاثما لا تدري له من سبب ، وتساءل في قلق وفي فزع غامض . وأخيراً صمتت ، وكان سكون مطبق لم نعد نسمع فيه إلا دقات خرساء صادرة من ساعة الحائط .

وكنيت قد حفظت تحت مقعدى صاروخاً صغيراً أزمننا إطلاقه عقب الطعام . وكنيت أربت عليه وأعبت بذباله وسط ذلك السكون المطبق الذي أوشكنا أن نصرخ من وطأته وصاح في إميل « يامارسيل ! » وهو يشير بأصبعه ، وعليه مسحة العتاب ، إلى الصاروخ الذي كنت قد أدنيتته من المصباح دون أن أشعر . ورأينا برقاً وسمعنا صغيراً : كان الصاروخ قد قفز من أصابعي وانفجر عند السقف .

رنت عندئذ ضحكة طويلة مفاجئة عجيبة ، حتى لقد نسي خطئي نفسه من جرأتها . كانت أم إميل قد نهضت وفي عينيها وحشية ، رافعة ذراعها ، وأخذت ينبعث من فيها الأسود الأدم تلك الضحكة العصبية المصحوبة بفواق وإغماء . وأخيراً ، صمتت ولكنه كان صمت ادهى : فهأى ذى المرأة تتطلع إلينا وكأنها تنكرنا . ثم تغنى ، تغنى وهي التي ربما لم تفتح فيها بالغناء منذ طفولتها . كانت أغنية لا حياة فيها ، تجري على وتيرة واحدة ، ولم تفهم شيئاً من كلماتها . وقد ذكرتني بتمتمة رجل أبله كنا نسير وراءه أحياناً في الطريق حين عودتنا من المدرسة في المساء .

ووقفنا جميعاً مذهولين . وكان إميل يصيح والدمع ملء مآقيه : « أماه ! أماه ! » وبنت العم تقول : « يا بنت عمي ! ماديهاك ؟ ماذا حدث ؟ » ولكن فوزين كانت تدفعنا بذراعها مواصلة الغناء بصوت جنوني مرتجف تقطعه أحياناً تنهيدات ، أو ضحكات السكر ، أو صمت الدهول . وأخيراً استطاع إميل وابنة عمه أن يقوداها إلى غرفة مجاورة ، وكانت تهتز اهتزازاً جنونياً وتصيح وتصر على أسنانها . ثم هبطت واستطاعت أن يحملها إلى فراشها .

وبعد ذلك بقليل ، قالت بنت العم وهي ترفع الأطباق عن المائدة : « لن يحدث شيء ، ربما كان ذلك سوء هضم . لقد استردت قواها ونامت . » وكان إميل منحنيًا على بالوعة المطبخ ، يحاول عبثاً أن يقف زيفاً من أنفه ، وكان عرضة لذلك لأنفه الأسباب ، كشجار أو موضوع إنشاء أو تأنيب في المدرسة ،

وعندئذ كان يسيل على ذقنه خيط من الدم . وكان المدرس يقول له : « عليك بتناول شيء من الحديد . »

ولم يعد أبو إميل إلى المنزل إلا بعد ساعة أو ساعتين حين كان الليل قد اكتمل . وكنتُ جالساً على أريكة منزلنا أتطلع إلى ظلال القصر والقمر العظيم يلتقي نوره عليه ، أتطلع إلى الظلال وهي تغير على الطريق وتجرى إلى موطنى قديمى . ثم برزت من ناحية النافورة عربة يد يدفعها رجلان ويتبعها صبية ونسوة يتهامسون ، فلما مروا أمامى رأيت على العربة جسداً لا حراك به ، كان الكاتب قد عاد من الصيد قبل مواعده العادى بقليل .

معجزة الأحد

يخيل إلى أنى قد عشقت بنوع خاص بعض أنواع الصمت ، كانت الدنيا تنفتح لى بأجمعها فيها فأبسط نفسى أخيراً وليس بى شيء من الهم . أكانت حياتى أم حياتها تحرك مشاعرى وعواطفى حتى تسيل منى الدموع ؟ وما كنا إلا حياة واحدة .

إنى أفكر فى أصابيح الآحاد أيام طفولتى . أصابيح منتظرة ولو أنها تأتىنى بمعجزة دائمة الجدة . وإنى لأخشى قليلاً تذكريها . ولم تكن تبدأ قط فى خبور . حتى ليكن القول إن يوم الأحد الذى يأتى للآخرين بالراحة ، لم يكن بالقياس إلى إلا يوم حزن عظيم . ففى بدء اليوم كانت أمتنا تعتكف فى الغرفة لتعاود رؤية آثار فقيدنا : بعض الكتب ، ومزمارة ، وخصلة من الشعر ؛ وكنا نسمعها تبكى كأنها أمام قبر لم يغلق إلا منذ قليل ، وهى تنادى : « فكتور ! » وعندما تعود إلى المطبخ ، مقطعة الأنفاس من الحزن والصياح ، لم يكن لنا هم أنا وأخى إلا أن نجعلها لا تحس لنا وجودا . ورغم ذلك فقد كان الأحد يوم تغيير ملابسنا ، ويوم تنظيف المطبخ ، ويوم يطهى حساء اللحم على الموقد المتنقل فيسمع له نشيش عظيم . وكان كل ذلك للأسف من أسباب المصائب والأخطاء والمنازعات . ولقد استطعنا رغم ذلك أن نلبس نفوسنا لباس الأحد ولو أنها لا تذكر يوم أحد واحد مرة بلا صراخ أو ألم أو تهديد باللاحاق إصفاً قريب بفقيدنا .

ولكن لحظة الهدوء كانت تأتي دائماً ، وذلك بعد أن نكون قد يئسنا من إتيانها ، وذلك حوالى آخر الصباح . وكانت أمى بعد أن تغسل وجهها وعنقها تقف أمام المراة المعلقة فى الحائط وتترع المشابك من شعرها . وكنت أرقب من ممكن قرب المدفأة ، شعرها الأسود الطويل وهو يسترسل على كتفها . ويا له عندئذ من صمت مفاجئ ! لم يعد هناك شجار ولا غضب . هدنة مباركة وفضل من السماء . وكان ورق الجدران الضارب إلى الصفرة ، والسقف المنخفض ، والأرض ، والآثاث بنوع خاص ، الآثاث اللامع المهتر ، كان كل ذلك يفيض بالحب ويقول : « إني أجيا » ، ويقول : « إنا نحيا معا ، وليس فى ذلك بأس عظيم . » وكنت أنصت وأنا مسحور لصوت المشط فى شعرها وكأنه صوت الحرير . وكان الريف والأحد الجميل ينتظران حولنا ، والاب هناك خلف القرية وتحت الأرض الرملية يبدو أقل منا مطالب . ويا له من صمت ! وهذه السعادة الشاملة التى تجعلنى أضغط أسناني وأضم يديّ خشية ألا أستطيع السيطرة على نفسى . وكان القوم فى الخارج يرجعون من القداس . وفى المطبخ أريج الحساء يعطره ؛ وفى الحظيرة تتقلب البقرة على فراشها الجديد . وعندئذ وفى ذلك الصمت المطبق كنت أفاجئ أحيانا بلفظ تعقبه سعة خفيفة جداً ، ثم تبدأ أمى ، دون أن تشعر ، تردد أغنية لا أدرى أهى من أيام طفولتها أم من أيام خطوبتها . نعم نحن أيضاً ، هذه المرأة الطويلة الواقعة أمام مرآتها ، أمى ، وأخى الذى لا بد أنه محبوب الحديقة ، وأنا بالتأكيد ، أنا الثابت النظرات القابض بشدة على قضبان مقعدى الصغير - نحن أيضاً قد واثانا حظنا وأتقنا هبات السماء .

ثم يستغلق صوت أمى وتتلوح جبهتها فجأة وتلقى إلى من أعلى كتفها بصوت مؤنب : « فيم تضيع وقتك هنا ؟ » تلك خاتمة الساعة وخاتمة المعجزة : معجزة متواضعة ، ولكن يخيّل إلى أن كل ما أتانى منذ ذلك الحين قد وجدته فى تلك المعجزة .

مارسيل أرويه

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

نجم من المشرق غرب

لا أدري إلى أي حد نستطيع أن نشارك صاعداً البغدادي في محنته بين أدباء قرطبة وعلمائها ؛ فهو قد رحل إلى الأندلس سنة ٣٨٠ هـ بعد أن زود نفسه بأشياء كان يجب أن يزود بها نفسه : زود نفسه باللغة والأخبار وعلم الشعر ، وكان حاضر البديهة إلى حد مدهش جداً ، وكان إلى هذا حسن العشرة . فإذا اجتمع له هذا وتطد العزم على أن يرحل من بغداد إلى الأندلس ، وهي رحلة طويلة لا يفكر فيها إلا من أعدّ عدته ووثق من نفسه . إنها رحلة أديب مشرق إلى بلاد فيها بيئة أدبية ممتازة ، وفيها أفراد كثيرون يقدرون الأدب ويجزلون العطاء . إنه آت من المشرق فلا بدّ أنه سيكون موضع حفاوة وتقدير . أليس المشرق هو الذي يبعث للأندلس ببضاعته الممتازة من النحو واللغة والأخبار والأشعار ؟ أليس للمشرق في الأندلس هذا المركز الممتاز مركز الأستاذ من التلميذ ؟ وكم من العلماء الشرقيين ذهبوا إلى الأندلس قاصدين ما قصد إليه صاعد في رحلته تلك فلاقوا نجاحاً أظهرهم في حياتهم فخلد لهم بعد موتهم ! هذا أبو علي القالي قام بمثل تلك الرحلة التي يقوم بها صاعد فقبول هناك بالترحيب ، وتهافت عليه الأمراء والأدباء ، وترك بسبب هذه الرحلة أثراً أدبياً عظيماً . على أن صاعداً كان يحسّ من نفسه قدرة في ناحية يمتاز بها عن القالي وغير القالي ؛ فهو ذكي لبق ، وهو حاضر البديهة بحيث يستطيع أن يُعد جواباً سريعاً لكل مسألة في النحو أو اللغة أو الشعر أو الأخبار . وهل هناك ما يمنعه من الكذب والادعاء في بعض الأحيان إذا لزم الأمر ؟ فسيجوز كذبه واختلاقه لا شك على أدباء الأندلس هؤلاء إذا عرضت مسألة من اللغة أو خبر أو شعر . . . إن المشاركة أصحاب هذه اللغة ، والمشاركة رواة الشعر العربي وعلماءه الذين يتحدثون به للناس ، وعلم الأخبار علمهم لأنه في أساطير البلاد العربية ووقائعها وأيامها . وأين بلاد الأندلس من هذا ؟ ليرحل صاعد إذن إلى تلك البلاد ،

ولملاً حياتهم الأدبية : هناك يمثل ما ملأ بها القالى وغيره من المشاركة ، وليزدهم هو أشياء من عنده مادام له هذا الذكاء النافذ وهذه البديهة المواتية وهذا الضمير العلمى العريض الذى يجوز له الاختلاق فى اللغة والادعاء فى المعرفة ! وعلى كل حال فهى رحلة جريئة يقوم بها صاعد البغدادى بعد أبى على القالى ، فيصل إلى تلك البلاد مزوداً بهذا الذكاء النادر وهذا الضمير العلمى وهذا العلم المشرق . سيكتب هناك رسائل منمقة عظيمة الحظ من الاداء الفنى لهؤلاء الأمراء الأندلسيين الذين سيستكتبونه ، وسيتصل هناك بالمنصور بن أبى عامر ذلك الحاجب القوى الشكيمة الكريم العطاء ، الذى يجمع أدباء قرطبة جميعاً حوله ويعقد لهم المجالس ويشجعهم بالمال والمناصب . وليس للمنصور بن أبى عامر هذا قدم راسخة فى العلم ، ولكنه يجلس دائماً إلى هؤلاء الأدباء القرطبيين ، فيصغى إلى مدائحهم أو بعض أشعارهم وأوصافهم ، وقد يشاركهم فى بعض الحديث فى نقد شعر أو لغة أو خبر . لكنه مع هذا محدود الأفق ، وربما كان الباعث على حبه للأدب والأدباء منافسة ملك عظيم كانت له شهرة حربية وأخرى علمية ، فأراد المنصور أن يثبته فى كليهما ، ذلك هو الخليفة عبد الرحمن الناصر الذى استقدم أباعلى القالى . ولم تحدثنا المصادر القديمة أن الحاجب المنصور استقدم صاعداً اللغوى البغدادى إلى بلاده ، ولكننا نلاحظ هذا حين نقرأ حديث ابن بَسَام صاحب كتاب الذخيرة وهو يترجم لصاعد ويتحدث عن حياته مع المنصور فيقول : إن المنصور كان يطمع فى أن يُعفى به على أبى على القالى . وسواء استقدم المنصور صاعداً أو لم يطلب إليه القدوم وإنما رحل صاعد من تلقاء نفسه بهذه الآمال وبهذه البضاعة ، فالذى حدث هو أنه بعد وصوله اتصل بالمنصور بن أبى عامر ، ووجد المنصور فيه ضالته ليكون فى مجلسه نجماً مشرقياً لآلاء ربما فاق هذا النجم الذى كان قبله . واستطاع صاعد أن يصل إلى ما كان يطمع فيه ، وهاهو ذا قد اتصل بهذا الرجل العظيم ، وهذه خطوة موفقة ، فلا عليه بعد ذلك إلا أن يظهر على أدباء قرطبة وعلمائها ليكون فى المكان اللائق به وهو ذلك الأديب المشرق الكبير الذى جاء إلى بلادهم لينقل إليهم آداب الشرق وعلومه . فأما المنصور فقد قرّبه إليه وهو غير واثق من علمه ؛ لأن المنصور لم تكن له هذه المكانة التى تتيح له أن يحكم عليه ، وهو يريد أن يعرف مكانة هذا الأديب بين أدباء قومه : فليجمع إذن بينه وبينهم ،

وليحرقهم به ويحرقه بهم ، ليرى هل يظهروا عليه او يظهر عليهم ، ثم إذا وجد صاعداً عند حسن الظن به اتخذته لنفسه واصطفاه ، وكلّفه أن يضع كتاباً مثل الذي وضعه القالى للخليفة الناصر ؛ فإن أعجزوه وظهروا عليه فقد أَرْضَى المنصور بذلك كبريائه وكبرياء هؤلاء الأدباء الأندلسيين الذين بدأوا ينظرون إلى هؤلاء المشاركة نظرة خاصة فيها كثير من الغيظ والتحدى ...

ويدعو المنصور بمجلس "حفل" جمع فيه بعض العلماء والأدباء ، وقدم إليهم صاعداً تقديم "يعرف منها أن الأمر جد". يقول لهم : هذا الرجل الوافد علينا صاعد يزعم أنه متقدم في هذه الآداب التي أتم سرّجها الضاحية ، وأهلته السارية ، وأحب أن يمتحن ما عنده . ثم يوجه إليه فيدخل صاعد والمجلس قد احتفل ، فيأخذه شيء من الخجل ، لكن المنصور يرفع من مجلسه ويؤانسه ، ويسأله عن أبي سعيد السيرافي فيقول صاعد إنه لقيه وقرأ عليه كتاب سيبويه . وكأن هؤلاء الأدباء القرطبيين المجتمعين في هذا المجلس كانوا متلقين لأول كلمة ينطق بها هذا الأديب المشرق ، فما كاد يقول هذا حتى بادره العاضمي ، أحد هؤلاء الأدباء ، بالسؤال عن مسألة من الكتاب فيرتج على صاعد ولا يعرف الجواب ، فيعتذر ويقول إن النحو ليس رأس صناعته ولا هو "جل" بضاعته . ولا ندري وقع هذا الإخفاق الأول في نفس المنصور ، وربما حزن لخيبة ظنه بصاحبه ، وربما فرح لظهور أحد هؤلاء النجوم القرطبيين الذين فاقوا المشاركة . وانتظر المنصور ما سيكون بين أدبائه وبين صاعد بعد أن يتحدث لهم صاعد اختصاصه كما نقول نحن في هذه الأيام . والأدباء القرطبيون متعجلون هم أيضاً معرفة اختصاص هذا الرجل ، فيسرع الزبيدي ويقول له :

— فما تحسن أيها الشيخ ؟

— حفظ الغريب

— ما وزن أولق ؟

فيضحك صاعد ، وربما تكلف هذا الضحك ويقول :

— أمثلي يسأل عن هذا ؟ إنما يسأل عنه صبيان المكتب ،

— فقد سألتك ولا نشك أنك تجهله .

وهنا يتغير لون صاعد قليلاً ، لكنه لا يجد مندوحة عن جواب حاضر

مزيح لعله الصواب فيقول :

— افعل

فيهتف الزبيدي في أصدقائه ساخرًا شامتًا ويقول :

— صاحبكم ممخرق !

— إخال الشيخ صناعته الأبنية ؟

— أجل

— وصناعتي أنا حفظ الأشعار ورواية الأخبار وفك المعنى وعلم الموسيقى .
هذه إذن صناعات صاعد حدتها لهم تحديدًا بعد أن أخفق أول أمره معهم
في هذه المسئلة من كتاب سيبويه ، وبعد أن أخفق في معرفة وزن أولق ، وفي
هذه المرة ينبري له ابن العريف بعد صاحبيه الزبيدي والعاصمي فيسأل صاعداً
بدوره في عدة مسائل من هذه العلوم التي اختص بها صاعد ، فيظهر عليه صاعد
حتى جعل لا تجزى في المجلس كلمة إلا أنشد عليها شعراً شاهداً وآتى بحكاية
تجانسها ، وينتصر صاعد في هذه الجولة انتصاراً باهراً ، فيظهر المنصور له إعجابه
به ويريه كتاب النوادر لأبي علي القالي . ولم تخف هذه الإشارة على ذكاء صاعد
فهو لا يكاد يلتقي على الكتاب نظرة سريعة حتى يقول للمنصور : إن أراد
المنصور أمليت على مقيدي خدمته وكتاب دولته كتاباً أرفع منه قدراً
وأجل خطراً ، أدخل فيه خيراً مما أدخل أبو علي . ويطمئن المنصور لهذا ويعلم
أن بغيته من صاعد توشك أن تتحقق ، فسيضع له كتاباً خيراً من هذا الكتاب
العظيم الذي وضعه القالي للناصر ، وسيكون عنده نجماً مشرقياً لامعاً يحدث
أدباء قرطبة في مجلسه ! ينصرف المنصور مطمئناً إلى هذا ، وينصرف أدباؤه
القرطبيون وقد عرفوا مواضع القوة ومواضع الضعف عند صاحبهم ، وينصرف
كذلك صاعد وقد عرف أن مكانته من هؤلاء القرطبيين ليست هذه المكانة
التي كان يظنها ، فقد لاقوه خصوماً قبل أن يلقوه أصدقاء ، وقد اضطروه إلى
الخرج والإخفاق عند أول لقائه بهم وتعرفه عليهم . ويحيل صاعد في نفسه
أشياء كثيرة حين يذكر أنه توقف في تلك المسئلة من كتاب سيبويه ، وأنه لم
يعرف وزن أولق — ترى هل كان يجوز له أن يعترف بعجزه أمام المنصور ؟
لقد كان يجب أن يبدهم كما بدهوه ، حتى لو أداه هذا إلى الاختلاق والتلفيق .
ماذا لو أختلق وماذا لو لفق في اللغة وهو من أصحابها ، وفي الشعر وله القدرة
الفائقة على الارتجال ، وعنده خزانة من الحفظ يستطيع أن يعتمد عليها ؟

ومهما يكن من أمر هؤلاء أندلسيون قبل كل شيء ! إنه آتى هذه البلاد ليتألق
نجمه ، وهاهو ذا قد اتصل بالمنصور ، وهاهو ذا قد نيط به هذا العمل الجليل
وكل مثله إلى أبى على ! لقد وعد أنه سيضع كتاباً يدخل فيه أشياء لم يدخل
مثلاً أبو على . غداً سأكون بالجلس الجامع بقرطبة أُملى كتابي ! فلا يعنيني
بعد هؤلاء القرطبيون الماكرون ! والحقيقة أن صاعداً رغم منطقه هذا مع
نفسه توقع أن حياته لن تكون هادئة مع المنصور وحوله هؤلاء القوم ،
إلا أنه اعتمد قبل كل شيء على بديته وذكائه وحسن عشرته وجميل حيلته ،
وهذه عدة المتصلين بالملوك والأمراء . . .

وأخذ المنصور وأصدقائه من الأدباء القرطبيين يفكرون في أمر صاعد هذا
وما مقدار ما عنده ، وينتهي المنصور يوماً إلى نوع من الامتحان جديد ، فهذا
أديب مشرقى يدعى أنه حاضر البديهة ذكى الخاطر ، فهل إذا رأى منظرًا وصفه
على البديهة مثل شعرائنا الأندلسيين ؟ إني لأحب أن أبدهه بمنظر لم يره في
مشرقه هذا الذى جاء منه ، وهل للمشرق هذا الترف الذى نحن فيه ! إن صاعداً
لن يقوى على وصف ما تراه عيناه عندنا بداهة وارتجالاً . ويُعدُّ المنصور طبقاً
فيه سفائف من ضروب النواوير ، ويضع فوق السفائف جوارى ياسمين ، وتحت
السفائف بركة ماء حصاها اللؤلؤ ، وكان في البركة حية تسبح . ويدخل صاعد
فيمثل هذا المنظر على ذلك الطبق بين يديه ويقول له المنصور : إن هذا يوم إما
أن تسعد فيه معنا ، وإما بالضد عندنا ؛ لأنه قد زعم قوم أن كل ما تأتى به
دعوى ، وقد وقعت من ذلك على حقيقة ، وهذا طبق ما توهمت أنه مثل بين
يدى ملك قبلى شكله ، فصفه بجميع ما فيه . وتمضى برهة وجيزة جمع فيها صاعد
كل خاطر ، ثم أخذ يرتجل الشعر القوى العذب فى وصف هذا المنظر بجماله
ودقائقه . ويرى المنصور وأدباؤه القرطبيون أن صاعداً المشرقى لم يقل عنهم
إن لم يزد فى وصف هذه المناظر المترفة الدقيقة التى ظنوا أنهم امتازوا بها عن
الشرقيين ، ولم يفت صاعداً كذلك أن يمزج هذا الوصف بمدح المنصور كعادة
القوم هناك ، فبدأ شعره بالخطاب إلى المنصور :

أبا حاضر هل غير جدواك واكف
يسوق إليك الدهر كل عجيبة
وهل غير من عاداك فى الأرض خائف
وأعجب ما يلقاه عندك واصف

والمنصور وإن ارتاح إلى هذا الاستهلال الجميل إلا أنه متعجل ما سيأتي به صاعد من الوصف ، وصاعد يحقق هذه الرغبة في نفس المنصور وفي نفس أصحابه سريعاً ، فهو لم يزد على هذين البيتين في مدح المنصور ، ثم أسرع إلى الوصف في شجاعة باهرة وقدرة عجيبة : وصف هذه الوشائع من النور فادعى أنها قد صاغها الحيا فنها عبقر ورغاف ! وزعم أن تلك الجوارى بين ضروب النواوير هن طباء كنس مستكنة قد ظللتها سفائف من الياسمين ... إلى آخر هذا الشعر اللطيف الذي ارتجله صاعد في وصف هذا المنظر . واستغربت الجماعة هذا الشعر الذي جاء بديهة ، وبلغ إعجاب المنصور به أن كتبه بخطه . ثم ينظر المنصور فيقول : أجدت إلا أنك لم تصف هذه الجارية ، فيقول صاعد في وصف البركة والحية شعراً جميلاً هو الآخر من نفس الوزن والروي . وبعد أن ينتهي من هذا الشعر ويشعر بنشوة الظفر ، يخاطب المنصور قائلاً :

إذا قلتُ قولاً أو بدعتُ بديهةً فكُنتُني لها إني لمجدك واصفُ

ويأمر المنصور له بألف دينار ومائة ثوب ما بين غلائل وطيقان وعمائم ، ثم أجرى عليه ثلاثين ديناراً ، وألحق في ديوان الندماء مع زيادة الله بن مضر الطنبلي وابن العريف وابن التتاني وغيرهم ، وكان هذا أجل رد من المنصور على هؤلاء الأدباء القرطبيين الذين ما فتئوا يذكرون له أن صاعداً لص كبير ، وأن كل ما يأتي به أشياء تنحلها من عند غيره ، فما قد رأى منظرًا عجيباً ومع ذلك استطاع أن يصفه أجل وصف حتى استغربوا له هذه البديهة !

ويجلس المنصور يوماً ومعه صاعد وابن العريف ، فتدخل عليه وردة عذراء لم تستم فتح كلامها ، فيبسم وينظر لصاعد ، ويعرف صاعد معنى هذه النظرة فيرتجل بيتين على البديهة :

أنتك أبا عامر وردة يذكرك المسك أنقاسها
كعذراء أبصرها مبصر فغطت بأكامها رأسها

إنه حقاً شاعر خصب ذكي ! إنها صورة جميلة تلك التي شبه بها التفاف أوراق هذا البرعم . فهذه الوردة فتاة عذراء رآها مبصر فجلت منه فكفت وجهها بكميها ! أليست هذه صورة فنية مترفة كهذه الصورة المترفة الأندلسية ؟

إن صاعداً حقاً باهر جمع إلى أصالة المشرقين ترف الأندلسيين ! ويسمع ابن العريف هذا من المنصور أو يقرؤه في عينه ، فيعمد إلى حيلة أخرى لعلها ترجع هذا المنصور عن صاحبه الذي فتن به ، وهو واثق أن صاعداً هذا دجال ، أترأه كان عرف ما أعده المنصور له من مناظر هذا الطبق فاحتال حتى صنع هذا الشعر وادعى أنها بداهة ؟ وهل ترى كان يعرف أن المنصور سيدخل عليه بوردة الآن ؟ وإذا كان صاعداً على هذه المسكاة من العلم والبداهة فلا بد أن يوهن من هذه الثقة ، فلقد استفحل خطرهما ولم يعد لها إلا أمرٌ يبييت وكيد يكاد . . . وفي هذه الغمرة من نشوة المنصور ونشوة صاعداً بوصف تلك الوردة هذا الوصف الجميل البداهي ينهض ابن العريف ويدعى للمنصور أن هذين البيتين ليسا لصاعداً وإنما لغيره ، ويذكر أن بعض البغداديين بمصر أنشدهما إياه لنفسه ، ثم يقول إن البيتين مكتوبان على ظهر كتاب عنده ، فيعجب المنصور لهذا ويطلب منه أن يريه هذا الكتاب ، ولا بد أن ابن العريف كان قد أعدّ معدته ، فأسرع بالخروج ليعود إلى المنصور بهذا الشعر بأقرب فرصة ، وجرى راكباً حتى أتى مجلس ابن بدر ، وكان أحسن أهل وقته بديهة ، ووصف له ما جرى ، فصنع ابن بدر له هذه الأبيات الرقيقة مشتملة على بيتي صاعداً ليثبت أنهما ليسا له وإنما هما ضمن أشعارٍ لغيره :

عشوتُ إلى قصر عباسية	وقد جدلَ النومُ حراسها
فألقيتها وهي في خدرها	وقد صدع السكرُ أناسها
فقلتُ : أسارى على هجمة	فقلتُ بلى فرمتُ كاسها
ومدّتْ يديها إلى وردة	يحاكي لك الطيبُ أنفاسها
وقالت خف الله لا تقضحن	في ابنه عمك عباسها
فوليتُ عنها على عفة	وما خنتُ ناسي ولا ناسها

فطار بها ابن العريف ، وعلّقها على ظهر كتابه بخط مصري ، وورّى وتحيل ، واصطنع مداداً أشقر ليظهر الخط قديماً ، ودخل بها على المنصور ، فلما رآها اشتد غيظاً وأيقن أن صاعداً دجال منافق !

وإذن فهؤلاء القرطبيون يستعملون سلاحاً دينياً كهذا السلاح الذي استعمله ابن العريف ! إنه في الحقيقة سلاح خطر ! لقد استطاع ابن العريف إذن

أن يوهى المنصور أن صاحبه لص سارق ، وما من شك في أن صاعداً أخذ يميز بين بيته وهذه الأبيات التي التفت فيها . لقد تأمل صاعد هذه الأبيات التي اخترعوها وكتبوها بخط قديم وضمنها بيتاه - فوجدها تافهة بالقياس إلى بيتيه الجليين .

ماذا قال هذا القرطبي الأحمق ؟ لقد عشا إلى قصر عباسه حين نام حراسها . تماماً مثلما فعل الفرزدق وعمر ! ثم ألفاها في خدرها وألغى أهلها نياماً ، حين رآته أشفقت عليه أو أشفقت على نفسها ، لا أدري : وسألته هل وصل إليها وهم هاجعون - تغنى حراًسها - فيقول لها نعم . أى شيء في هذا ؟ دعوا أيها القرطبيون هذه المخاطرات الفرزدقية والرابعة لنا . وهل كان يجمل بالفرزدق أو عمر بن أبي ربيعة أن يظهر لها هذا الرفق المخنث حين تسأله ألا يفضح عمه العباس فيها ؟ ما أثقل هذه العفة من ذلك القرطبي المخنث ! وكذلك أخذ صاعد يحيل مثل هذه الفكر حتى أراضى نفسه من هذه الناحية الفنية الخالصة .

وتكثر هذه المجالس وتتصل والمنصور تارة سعيد بصاحبه لهجاً بالثناء عليه ، وتارة ضيق الصدر منه قليل الثقة فيه ، لكنه على كل حال يحتال عليه ويداريه حتى ينتهي من كتابه هذا الذي يكتبه ليقدمه إليه . . . يثبت للمنصور أن صاعداً يكذب ، لكنه مع ذلك يستبقيه ، فهو على كل حال ذكي أريب ، خفيف الظل حسن العشرة ، له ما يروع في بعض الأحيان . لكن صاعداً لا يقف في كذبه عند حد . فقد دخل صاعد على المنصور يوماً ويده كتاب ورد عليه من عامل له اسمه ميدمان بن يزيد من أهل يابرة يذكر فيه القلب والتربيل وما عندهم من معاناة الأرض قبل زرعها . فينظر المنصور إلى صاعد ويقول له : يا أبا العلاء ، وقع إلى من الكتب كتاب القوالب والروالب لميدمان ابن يزيد . فقال صاعد : نعم رايته في نسخة أبي بكر بن دريد بخط كأكرع التمل ، في جوانبها علامات الوضاع . فقال له المنصور : أما تستحي من هذا الكذب ؟ هذا كتاب عاملنا ببلدة يابرة يعلم بالذي تقدم من صفة الأرض ، وإتمامه هذا تجربة لك ، فجعل صاعد يحلف أنه ما كذب وأنه أمر وافق . وقال له المنصور يوماً : ما الخنبشار في اللغة ؟ فقال له صاعد : حشيشة يعقد بها الكلب بيادية الأعراب ، وفي ذلك يقول شاعرهم :

لقد عُقدتُ محبتها قلبي كما عُقد الحليبُ بمنشار

أى بديهة مواتية وأى جرأة على الاختلاق والكذب ! وقال له يوماً وقد قدّم طبق فيه تمر : ما التمر كل في كلام العرب ؟ فقال صاعد : يقال تمر كل الرجل تمر كلاً إذا التفت في كسائه . ويختار المنصور في أمر هذا الرجل الذي يصوغ الكذب هذا الصوغ العلى الغريب ، ويجهد صاعد نفسه ليملاً حياة المنصور من كل ناحية ، فيقدم له كثيراً من أدب الشرق وأخباره ، ويضع له كتباً في القصص ويختار لها عناوين غريبة ، من ذلك كتاب صنّفه له بعنوان الجواس ابن قعطل المذحجى مع ابنة عمه عفراء . ويقول يا قوت صاحب معجم الأدباء « وهو كتاب لطيف جداً انخرم في الفتن التي كانت بالأندلس فسقطت منه أوراق لم توجد بعد » . وكان المنصور كثير الشغف بهذا الكتاب حتى رتب من يقرؤه بحضرة كل ليلة ، كما صنّف له أيضاً كتاب الهجفجف بن غيدقان بن يثربى مع الخنوّ بنت محرمة بن أنيف !

وينتصر صاعد على خصومه من أدباء قرطبة بهذا ، فهو وإن كان يكذب في اللغة ويكذب في الشعر ويكذب في هذا القصص الذي يصنعه لكنه كذب أشبه بالصدق . وهل استطاع هؤلاء الأدباء أن يدفعوا قوله إن الخنبشار حشيشة يعقد بها اللبن ببادية الأعراب ! ومن أين له هذا الشاهد الحاضر ! وهو قول قائلهم : « لقد عقدت محبتها (البيت) » وكذلك أخبار الجواس هذا مع ابنة عمه عفراء إنه قصص البادية ، وليس المهم فيه أن يكون صدقاً أو كذباً ، ولكن الغرض منه أن ينقل القوم إلى حياة الأعراب ، فيرون حبه العذرى وحياتهم البدوية ، وقد استطاع صاعد أن يصور هذا لهم أجمل تصوير . وملك صاعد على صاحبه أمره بما كان يصطنع من حسن العشرة ولطف الحيلة . دخل عليه المنصور يوم أنس وكان صاعد قد اتخذ قميصاً من رقاع الخرائط التي وصلت إليه فيها صلات المنصور ولبسه تحت ثيابه ، فلما حضر المجلس ورأى فرصة لما أراد تجرد من ثوبه وبقي في القميص المخيط من الخرائط ، فقال له المنصور : ما هذا ؟ قال هذه رقاع صلات مولانا اتخذتها شعاراً ، وبكى ! فأعجب به المنصور وقال له : عندي مزيد !

ويصحب المنصور في بعض نزهه برياض الزاهرة ، فيمد المنصور يده إلى بعض الترنجان يعبت به ثم يرميه إليه معرضاً أن يصفه ، فيقول صاعد شعراً لطيفاً على البديهة في وصف الترنجان وقد ضمنه مدح المنصور :

كأنما الحاجب المنصور علمه فعل الجميل فطابت منه أخلاق

وهكذا أصبح صاعد في نفس المنصور . ويساعده الحظ يوماً فيهدى
للمنصور أيلاً وقد سمي هذا الأيل غرسية ، وهو اسم غرسية بن شانجة
صاحب قشتالة وأعدى أعداء المنصور ، ويبعث معه بشعر يقول فيه :

سميته غرسية وبعثته في حبله ليتاح فيه تفاؤلي

فيشاء حظ صاعد أن كان أسر غرسية بن شانجة في نفس اليوم الذي وصل
الأيل فيه مربوطاً ومعه هذا الشعر ، وكان ذلك في ربيع الأول سنة خمس
وثمانين وثلثمائة . وهكذا يكون الجدل للصاحب والمصحوب .

ويكمل صاعد كتابه « النصوص » وهو ذلك الكتاب الذي وعد المنصور
أنه سيكون أجلّ قدراً من كتاب أبي علي ، ويتبعه أدباء قرطبة بالنقد والتجريح ،
حتى زعموا أنه لم تمر فيه كلمة لها وجه من الصحة ولا خبر ثابت لديهم ، ثم جاءوا
للمنصور وقالوا له : رجل مقتدر على تأليف الكذب من عيون الأدب يسندها
إلى شيوخ لم يرم ولا أخذ عنهم . ويتفقون على حيلة من هذه الحيل التي افتنوا
فيها ، فيأمر المنصور بتصغير كاغد أبيض وتغيير بهجته ليدل على القدم ، ويترجم
على ظهر ذلك السفر بكتاب النكت تأليف أبي الغوث الصنعاني . ويدعى صاعد ،
حين يرى هذا الكتاب يترامى عليه ثم أخذ يقلبه وقال : إني والله قرأته بالبلد
الفلاني على الشيخ أبي فلان وهذا خطه . فأخذه المنصور من يده خوفاً من أن
يفتحه وقال له : إن كنت رأيت كما تزعم فعلام يحتوي ؟ قال : ورأسك لقد
بعد عهدى به ولا أنص منه شيئاً ، ولكنه يحتوي على لغة منشورة لا يشوبها
شعر ولا خبر . فقال له المنصور : أبعد الله مثلك . فما رأيت الذي هو أكذب
منك ! ثم أمر بإخراجه ، وأن يقذف بكتاب النصوص في النهر . ويفرح الشعراء
القرطبيون ويشمتون في صاعد ويسخرون منه . فهذا الكتاب الكبير القدر
الذي جلس صاعد لتأليفه في جامع الزاهرة والذي كان بغية المنصور منه قد
ظهر كذبه فيه وادماؤه ، وها قد أمر المنصور فألقي به في النهر ، فأى ظفر بصاحبهم
أحسن من هذا الظفر ! ويبعث إليه بعضهم بهذا البيت الساخر :

قد فاص في البحر كتاب النصوص وهكذا كل ثقیل يغوص

فيجيبه صاعد :

طاد إلى معدنه إنما توجد في قعر البحار الفصوص

وليس من المعقول أن يجيء هذا الكتاب كله كذب وإدعاء . والحق أنه كان عملاً قاسياً غريباً من المنصور حين أمر بأن يلقي الكتاب في النهر ، لكن المنصور فيما يظهر تسرع بتأثير هؤلاء الأدباء وبما ظهر من كذب صاعد . وفي ذلك يقول ابن بسام : « وما أحسب أن أحداً يجترئ على إخراج تصنيف وإبداء تأليف يضيق عنه التعديل ، ويدفع في صدره النقد والتحصيل ، لاسيما وصاعد علم أن قرطبة — حسب ما ذكرنا — ميدان جياذ ، وبلد جدال وجلاد . لكنه اشترط غير المشهور ، فلم يظفروا منه بكثير ، وأعانهم هو على نفسه بما كان يتنفق من تنحله وكذبه ، ولم يكن عبد ابن أبي عامر تحرير ولا بصر بالنقد مشهور ، وإلا فلايس يخلو كتاب النصوص من غريبة مسموعة ، ولا من فائدة رائعة بدیعة . »

ويتتابع المبكروه على صاعد بعد ذلك باشتعال الفتنة وتفرق بعض الأمراء الذين اتصل بهم وكتب لهم ، حتى اختل صاعد وعجز عن ستر ولده وأهله . ويموت المنصور بن أبي عامر فيطلب صاعد إلى الخليفة الصغير هشام أن يأمر بتسريحه فلا يأذن له بالانطلاق عن الأندلس خوفاً من خبث لسانه ، فخرج صاعد مستخفياً ، وجاز ببلدة شلطيش وكان ذلك عام ٤٠٣ هـ ، ثم اتصل صاعد بصاحب صقلية ، فيقربه إليه ويفارق البؤس ويراجع النعمة . ويتغلب البرابرة أخيراً على قرطبة فيرجع صاعد إليها ليعود بمن تركهم من أهله وولده ، ويحاول أن يتصل ببعض هؤلاء الأمراء من البرابرة فلا يفلح ، فيعجل الانكفاء إلى صقلية ويموت بها سنة ٤١٠ هـ .

هذه قصة صاعد الأندلسي ذلك النجم المشرق الذي غرب ليكون له حظ أبي على القالي ، مجاهد ماجاهد ، ولقي من الكيد ما لقي ، وأخيراً ألقى بكتابه في نهر قرطبة ، ومات وهو على أسوأ حال في صقلية !

محمد عبده عزام

ليلي ودوحتى الموعودة ...

سربلتني دهرأ ، وإنك ما كنتي
بك مقلتاي ، ألا بريك أعفني
يا مطلع الظلمات ، حسبك ، ضمتني
في كل واد ، فاطو جناحك واطوني
زمنأ ، ألا يكفيك ، إن لم يكفني
فارحل ، أظنك ضقت بي وسئمتني
ما الليل مضطربي ، ولا هو مسكني

لعزيفها ، نفر الهوى ، لا ينثنى
يك سامر ، من كيدهن ، بئامن
بشواظها ، زرعى الذى لم أجتني
والبوم ، إن تنصل مسوئحك يجبن
هذا صنيعةك ؟ بئس ما أوليتني
لم أهوها يوماً ، ولم تستهونى
عدم يلف ، بصمته ، ما لقنى
حلوأ ، أشبت بهاءه ويشبنى

سررى ، فما أنا ، للظلام ، بمذعن
ما شئت بي ، وإذا قدرت فهديني
ممكنأ ، من جوفك المتمكن
في قبضة الفجر القريب ، يهزنى

لمسلم ، سوادك ، يا بهيم ، وخلصني
ناعت بحملك مهجتي ، واحلوككت
أطلع نجومى ، أنت قد غورتها
يا ليل ، يا ليلي ، جناحك ناشري
واغيب خضمتك ، قد غيبت عبابه
أوحشت ، يا لون الغراب ، مضاجعي
أنا لا أراك مطيعة لرغائبي

يا ليل ، هل سرحت ، بساحك ، رجنة
أم ساوزتك أراقم ، فحنت فلم
سقطت رجومك ، فى حماي ، فأحرقت
وانسل بوئمك ، بين زغبي ، قشما
أوليتني ، يا ليل ، كل بلية
دنياك مرعبة ، كدنيا مجرم
حك الضلال بها وساد فجاجها
عقت ، فلم تنجب شهاباً كاسفاً

يا ليل ، يا ملك القطوب ، تنح عن
غمر الرجاء سواد قلبي ، فاعتسف
هذا خطاي ، سوف أبث مجده
أو ما تراني ، الآن ، فيك مهنداً

متحنن يعشو إلى متحنن
مرّحى ، لهذا القلب ، ليس يعقنى

أعشو إلى نار الضلوع ، كأنى
قلبي ، على شفتى ، قربان الضحى

ويسوط أحلامى ، بنوء أرعن
دام ، وأضوائى وإن لم يطفنى
فألواته ، وزهوت زهو المحسن
وأبيت أن أعنو له أو أنحنى
جذلان ، لا أبكى لجنبي المشخن
أفضى إليها بالأسى ، فتضمنى
أو أشك رمضاء الحياة ، تظلنى
وترد ، عن عرّيبى ، شمات الأعين
من قلبها ، الدفء الحنون ، فأغتنى
تعيّا بأشجانى ، وليس تملنى

يا لهفتا : ليلى غشوم أرعن
أغرى ، بمصباحى ، الخطوب ، فزيتته
توجت أمانى بغار الشوك من
ونضوت أسالى وسرت مظفراً
أمشى ، أمير الليل ، أسحب معطفى
يالىتنى اسطعت النجاة لدوحتى
إن أبك ، من نصب ، تهدد دمعى
أو يبل ثوبى ، تكسنى أوراقتها
إن يؤذنى قرّ الشتاء ، تضىء لى
مهما تفضت بها غبارى ، لن ترى

أنزلتنى ، دوح الدجى ، فظلمتنى
تحت الدجى ضاعت ، فقد ضيعتنى
بدى ، وأدن خطاى منها ، تحينى
إن تنفطر ، عن صبحها ، خالدتنى
من خلف أحزان الدجى ، وتحثنى
فيها بلابل جنة ، لم تشدنى
وبعدت ، بى ، عنها ، وما أياستنى
إنى صحبتك حقبة ، وصحبتنى

ويحى ، أأبلغ دوحتى ، يا ليل ، أم
يا ليل ، يا لى ، إن تك دوحتى
خذ مزهرى ، واذهب بأقداحى ، ورح
فيها خلودى ، فانفرج ، يا قاتلى
هى نصب حلمى فيك ، وهى تشير لى
هى دوحتى ، طابت جنى ، وترعرعت
ما خنت ذكرها ، وكم حوّلتنى
يا ليل ، لا تغدر ، بخدتك ، واره

نذير الحسامى

[حص]

قصة سلامان وأبسال

للشيخ الرئيس أبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا

(٣٧٥ هـ — ٤٢٨ هـ)

لم تصل إلينا هذه القصة كما وضعها الشيخ الرئيس ، وإنما وصلنا شرح الطوسي لها ، المثبت على هامش كتاب « الإشارات والتنبيهات » ونوّه عنها ابن سينا في غير كتابه هذا ، في رسالة « القدر » الموجودة ضمن رسائل ابن سينا التي جمعها الأستاذ ميرن Mehren تحت عنوان « في أسرار الحكمة المشرقية » طبعة ليدن سنة ١٨٨٩ . وكذلك أثبتها الجوزجاني ، في ثبت مؤلفات ابن سينا .

والقصة تكاد تكون مجهولة . أضف إلى ذلك ما يكتنفها من غموض ويشيع فيها من اضطراب ، سببه الأول أن النص الأصلي لم يصل إلينا . وسببه الثاني أن القصة تلخيص مركز جداً للمذهب ابن سينا في النفس ولمذهبه في السعادة . وسببه الثالث أنها كتبت على الطريقة الرمزية ، بل يخيل إلينا أن ابن سينا قد وضعها في شكل لغز علينا أن نلغز به ، فإنه يقول : « وإذا قرع سمعك فيما يقرعه ، وسرد عليك فيما تسمعه ، قصة لسلامان وأبسال ، فاعلم أن سلامان مثل ضرب لك ، وأن أبسالا مثل ضرب لدرجتك في العرفان إن كنت من أهله ، ثم حل الرمز إن أظقت . تنبيه من مقامات العارفين . » والقصة فوق ذلك كله ، مجهولة التاريخ ، ولا يعلم عن مصادرها شيء ما ، ولعلها أيضاً أن تكون غير محددة الموقف من تراث ابن سينا نفسه ، وبالنسبة إلى قصص أخرى كثيرة بهذا العنوان « سلامان وأبسال » .

والقصة تنقسم كأي قصة أخرى إلى الشخصية والحركة . وكل شخصية فيها تعبر عن قوة من قوى النفس ، وكل حركة فيها ترمز عن التروع الطبيعي

لهذه القوة . وهنا لابد أن ينشأ صراع هائل بين قوى النفس جريماً ، فهي ليست كلها موجهة إلى هدف واحد ، بل بعضها طامح إلى السماء ، وبعضها نازع إلى الأرض ، والإنسان في كل ذلك هو المسرح الذي تتصارع في ساحته هذه القوى . ولكن ابن سينا كان قد وضع الخطة التي من شأنها أن تؤدي بهذا الإنسان إلى الله . فالقصة تحكي حركة طموح الإنسان وصراعه في سبيل الوصول إلى الحق أو المجهول ، وعلى ذلك لابد أن نحلل كل شخصية من شخصيات القصة ، ونرى ما يقابلها من قوى نفسية ، وبدون ذلك لن يتسنى لنا أبداً أن نفهم القصة في أعماقها . والحق أننا في القصص العادية يمكن أن نفهم الشخصية من خلال الحركة التي تقوم بها ، ولكن في قصة ابن سينا لابد أن نفعل العكس ، أعني أن نفهم الشخصية أولاً ، من حيث هي شخصية ، وذلك هو الذي سيفسر لنا حركة هذه الشخصية .

لذلك كله ، نرى أن الخوض المباشر في القصة غير مجد ، وعليه نحتّم علينا قبل ذلك (١) أن نمهد لها بتمهيد تاريخي (٢) ثم يعقب ذلك تحليل شخصيات القصة (٣) وأخيراً نلخص في عرضها .

١ - التحقيق التاريخي في قصة سلامان وأبسال

الأصل اللغوي لقصة سلامان وأبسال - الرمزية فيها - قصص أخرى بعنوان سلامان وأبسال - تاريخ القصة ومصادرها - موضع القصة من تراث ابن سينا .

لم ترد لفظة « سلامان » في الزنجبيري أو تاج العروس ، وأوردها لسان العرب ، ومعناها ضرب من الشجر السهل ، وواحدته « سلامانة » اسم رجل ، واسم جبل . ولفظة « أبسال » لم ترد في تلك المعاجم الثلاثة ، ولكن ورد المصدر من « أبسل » بمعنى أسلمه للهلكة ، وهو « إبسال » بكسر الالف . وليسهل في كل ذلك ما يمكن أن يكون ابن سينا قد قصد إليه في المعنى اللغوي للألفاظ .

وقال نصير الدين الطوسي + ١٢٧٣ م . أن هذين الاسمين يسيران في أمثال

العرب ، ويردان في قصص لهم قديمة ، ويذكر في هذا الصدد كتابا لابن الأعرابي بعنوان « النوادر » رويت فيه قصص كان أبطالها سلامان وأبسال . وكتاب النوادر لم يصل إلينا ، كما أنه لم يصل إلى الطوسي أيضاً . وليس فيما أوردته تلك المعاجم من نوادر لابن الأعرابي ، ما يمكن أن يكون ابن سينا قد استفاد منه في وضعه لهذه القصة . وعلى الرغم من أن الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » قد أورد لابن الأعرابي كثيراً من المقتطفات ، فإنه لم يذكر لفظتي سلامان وأبسال ، أو قصة شبيهة من قريب أو بعيد بقصة سلامان وأبسال . ولقد كان سلامان على حسب قول الطوسي ، يمثل في تلك القصص القديمة المتداولة ، الرجل الخير الذي يفوز وينتصر ، على حين يمثل أبسال الرجل الشرير ، الذي تنتهي حياته بأن يقع في أسر الأعداء ، فأصبح من ذلك مثلاً يتداوله العرب .

ويتضح من ذلك ، أن لفظتي « سلامان » و « أبسال » ليستا اسمين عربيين صميمين ، ويتضح كذلك أن هذه القصص التي تحاك حولها عند العرب ، لا يمكن أن تكون قد أوحى إلى ابن سينا قصته ، التي هي في آخر الأمر تصوير لطموح الإنسان المشبوب لاعتناق المجهول . إن سلامان رمز للإنسان ، وأبسال هو رمز لقوته الناطقة ، التي هو بها ما هو ؛ فليس ههنا رمزين للخير والشر ، حتى نقول إن ابن سينا قد سائر الأمثال المتداولة عند العرب عن سلامان وأبسال .

ولكن لماذا كتب ابن سينا قصته هذه على الطريقة الرمزية ؟ إن التزعة الرمزية عند ابن سينا لم تكن طارة ولا سطحية ، بل كانت تملك عليه جانباً كبيراً من روحه العميق ، ذلك الروح الذي أسلمه عمقه — والحق يقال — إلى غموض الأسطورة . وهنا يودع ابن سينا العقل اليوناني البكر ، يودع ذلك العقل الحسي ؛ فإن ذلك العقل لم يكن بعد قد عرف هذه التفرقة بين المرئي واللامرئي . ومنذ تلك التفرقة ، التي أرهص بها على الرغم من ذلك زينو الأيلي حينما أنكر حركة السهم — أقول منذ تلك التفرقة بين المرئي واللامرئي ، يمكن أن يقوم التفكير الأسطوري أو الديني . وهنا أيضاً ، لا بد من السعي لاكتشاف هذا الجانب اللامرئي ، وحينئذ نضفي لغتنا الحسية ، على موضوعات ذلك الجانب ، فكون الرمز .

لقد وضع ابن سينا جزءاً كبيراً من تراثه الفلسفي الضخم على أساس هذه

الطريقة الرمزية . كتب بها غير قصة سلامان وأبسال ، قصة « حى بن يقظان »
وهى غير « حى بن يقظان » لأبي بكر محمد بن عبد الله بن محمد طفيل العتيسى ،
ويسمى الأندلسى القرطبى أو الأشبيللى + ٥٨١ هـ . وكتب ابن سينا بهذه
الطريقة أيضاً قصة الطير ، وقصيدته فى « النفس » ، ورسالته فى « القدر » التى
أوردتها الأستاذ ميرن Mehren أو كما يجب أن يسمى نفسه : الفقير إلى الله
ميكائيل بن يحيى المهرنى ضمن مجموعة ابن سينا التى سماها الأستاذ ميرن « فى
أسرار الحكمة المشرقية ليدن سنة ١٨٨٩ » . بل إن النزعة الرمزية قد تجاوزت
القصص التى كتبها ، فظهرت بوضوح فى وضعه لدرجات العارفين ، وتبيينه
لدرجات الترقى من « الرياضة » إلى « النيل » إلى « الوصول » . النزعة الرمزية
عند ابن سينا تمثل خاصية هامة من خواص روح ابن سينا . فلماذا لجأ إلى
هذه الطريقة ؟ ولم يذهب مباشرة ، وعن طريق اللغة الفلسفية الواقعية
للإدلاء بما يريد ؟

نجد السبب الأول لذلك — فوق المقدمات الحضارية العامة — فى مجموعة
رسائل ابن سينا طبعة حيدر آباد ، فى رسالة « سر القدر » وهى غير رسالة
« القدر » التى ذكرناها الآن — حيث نجد : « سأل بعض الناس الشيخ الرئيس
أبا على بن سينا عن معنى قول الصوفية : من عرف سر القدر فقد أُلْهِدَ ، فقال
فى جوابه : إن هذه المسألة فيها غموض ، وهى من المسائل التى لا تدوّن إلا
مرموزة ، لما فى إظهارها من إفساد العامة . والأصل فيه ما روى عن النبى :
القدر سر الله ، ولا تظهروا سر الله . » (ص ٢) . وإذن فالسبب الذى حدا بابن
سينا أن يكتب قصته على الطريقة الرمزية ، هو أن طبيعة موضوعها ، من حيث
إنه معاينة الله ، يقتضى أن يوضع فى هذا الثوب الرمزى ، لما يكتنف ذلك
الموضوع من غموض ، ولما يكون من أثر إذاعته وإظهاره من إفساد للعامة
الذين يأخذون الأمور على علاتها .

أما السبب الثانى ، فقد ورد فى قصة حى بن يقظان لابن طفيل ص ٦ طبعة
مصر — وهو يكاد يكون معبراً عن آراء ابن سينا ، حيث يقول رداً على
جواب السائل الذى يريد أن يثبت أسرار الحكمة المشرقية « والغرض الثانى من
الغرضين اللذين قلنا إن سؤالك لن يتعدى أحدهما ، هو أن تبتغى التعريف
بهذا الأمر على طريقة أهل النظر . وهذا ، أكرمك الله بولايته ، شئ محتمل أن

يوضع في الكتب . وتتصرف فيه العبارات ، ولكنه أعدم من الكبريت الأحمر ، ولا سيما في هذا الصقع الذي نحن فيه ؛ لأنه من الغرابة في حد لا يظفر باليسير منه إلا الفرد بعد الفرد ، ومن ظفر بشيء منه ، لم يكلم الناس به إلا رمزاً ؛ فإن الملة الخنيفية والشريعة الحمندية قد منعت من الخوض فيه وحذرت عنه . فلعل ابن سينا إذن قد ظفر بشيء من هذه الحكمة ، ولما كانت الملة الخنيفية والشريعة الحمندية ، منعت وحذرت من الخوض فيه ، فهو لا يكلم الناس به إلا رمزاً .

فثمة إذن سبب داخلي متصل بطبيعة الموضوع ، من حيث إنه غامض ولطيف ، بحيث لا تدركه إلا لغة غامضة لطيفة ، يكون من شأنها ألا تحيط به ، إحاطة السوار بالمعصم ، بل تدعه يجول فيها ، وتدع له نوعاً من الحرية في الانكماش والتمدد ، والظهور والاختفاء . وثمة سبب خارجي ، هو أمر الدين ونهى الشرع . إن موضوع سلامان وأبسال ، من أسرار الله ، ومن خاض في سر الله وحاول الكشف عنه ، فقد أُلحِد .

قصة سلامان وأبسال قصة رمزية يمكن إرجاع الرمزية فيها إلى سبب حضاري عام ، هو أن الفكر العربي كان يتوزعه تياران : التيار الغيبي اللامرئي ، والتيار الواقعي المرئي . وهو مضطر حينما يخوض في الأول ، أن يلجأ إلى وسائل الثاني ، وهنا يكون الرمز . أضف إلى ذلك السببين الموضوعيين الآتقين ، وأسباب أخرى فرعية ، مثل نزعة ابن سينا الفنية ، واستعداده الشخصي لمثل هذا النوع من الكتابة ودراسته للأدب .

ولم يكن ابن سينا وحده هو أول من ألف قصة بهذا العنوان وعلى هذه الطريقة ؛ فهناك القصة المنسوبة إلى حنين بن اسحاق + ٢٦٠ هـ . وقد أوردها نصير الدين الطوسي في شرحه ، وذيّل بها كتاب « تسع رسائل في الحكمة والطبيعيات » لابن سينا ، وهناك فرق طفيف بين إيراد الطوسي لها ، وبينها مثبتة في ذيل تسع الرسائل إذ أن الطوسي قد عمل على اختزالها في كثير من المواضع . ولكن هذا لا يمس شيئاً جوهرياً في القصة ، فما زالت أبسال المرأة الفاجرة تغري سلامان ابن الملك هرماتوس الذي لم تكن له زوجة ؛ وإنما ركب ابنه هذا تركيباً ، وصنعه صناعة ، وأقامه على الأرض من غير الطريق الذي تسلكه جميعاً إليها : تأخذ أبسال في إغراء سلامان وتكشف له عن

مفاتها ، وتظهر له ما بين أحضانها من لذة شهية . ويكاد سلامان ينقاد ، لولا أن يستعين أبوه هرماتوس بالحكيم أقليقولا س على إهلاك أبسال الفاجرة ، فتنتهي هذه بالغرق ، وينقذ سلامان من برائن المرأة .

ولقد قالت الرواية أن حنينًا قد ترجم هذه القصة عن اليونانية ؛ ولكن القفطى + ٦٤٦ هـ . ص ١١٦ طبعة الخانجي ، لم يورد ترجمة لحنين بهذا العنوان . ولقد لاحظنا أنه أورد لحنين كتاباً بعنوان « رسالة الحمام » لعلها أن تكون الأساس في رسالة « الطير » لابن سينا ، أما سلامان وأبسال ، فلم يرد لهما ذكر عند القفطى . وقد تخلص الطوسي من هذه القصة بأنها من خالق بعض العوام ؛ على أنها مازالت في حاجة إلى البحث والتحقيق .

وثمة شبه بين القصة المنسوبة إلى حنين وقصة ابن سينا ؛ فموضوع كليهما العام ، هو الصراع بين العقل والشهوة ، أو بين الروح والجسد ، كل يريد أن يجذب الآخر ويفنيه في نفسه ، وسينتهي هذا الصراع في كليهما إلى انتصار العقل ، وسيادة الروح . والسبب الذي يجعلنا نرفض القصة المنسوبة إلى حنين من حيث إنها كانت مصدراً لقصة ابن سينا ، أن أبسال تمثل في القصة الأولى القوة الشهوية ، على حين تمثل عند ابن سينا القوة الناطقة . أضف إلى ذلك أن الاختلاف واقع في كل تفاصيل الصراع ، والاتفاق في الموضوع العام والخاتمة ، لا يعنى أن قصة ابن سينا قد نسجت على منوال القصة المنسوبة إلى حنين .

أما القصة الثانية التي ياحب فيها سلامان وأبسال دوراً كبيراً ، فهي قصة حي بن يقظان لابن طفيل . فبعد أن نثيف حي بن يقظان على سبعة أسابيع من منشئه ، وذلك خمسون عاماً ، هبط إليه من جزيرة مجاورة أسال ، وزير الملك سلامان ، وتعرف كل واحد منهما على الآخر بسهولة ؛ فقد وصل حي بن يقظان — وهو يشبه في جزيرته النائبة روينصن كروزو إلى حد بعيد — إلى الحقيقة عن طريق النظر المجرد الصرف ، ووصل إليها أسال عن طريق الشرع ، فما لبث كل منهما أن تعلق بالآخر ، وذهبا معاً لهداية الملك سلامان وقومه ، ثم يعودان من هذه المحاولة بالإخفاق ؛ فقد اتفقت الفلسفة مع الدين ، ولكن كليهما لم يتفق مع المصالح الدنيوية التي يمثلها سلامان . لقد كانت مصادفة عجيبة أن يعبر ابن طفيل بالقصة عن ذات ما عبر عنه ابن رشد في كتابه « فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » . ولكنها على كل حال

ليست مصادفة عجيبة جداً؛ فقد كان التوفيق بين الشريعة والحكمة هو الشاغل الأول للفلسفة الإسلامية .

لقد لاحظنا أن سلامان وأبسال عند ابن طفيل ملك ووزيره ، أما عند ابن سينا فهما أخ وأخوه . والدور الذي يلعبانه في قصة الأول يختلف اختلافاً كبيراً عن الدور الذي يلعبانه في قصة الثاني .

ولقد ظن بعض المترجمين والباحثين لقصة ابن طفيل ، أنها من تأليف ابن سينا ، ولم يزد ابن طفيل على أن جمع بين قصتي ابن سينا « سلامان وأبسال » و « حي بن يقظان » ، في صعيد واحد ، عنونه بحى بن يقظان . أنظر : إتنا في طبعة القسطنطينية لقصة حي بن يقظان تقرأ العنوان التالي : « قصة حي بن يقظان في الفلسفة الشرقية للإمام أبي جعفر بن طفيل : وهي مستخلصة من المؤلفات القيمة في الحكمة الشرقية لأبي علي الحسين بن عبد الله بن سينا . . . »

والحق أن من الممكن ملاحظة أن ابن طفيل كان يعتمد في وضع قصته على قصتي حي بن يقظان وسلامان وأبسال لابن سينا ، وأنه قد جمع بين هذه القوي الثلاث في قصة واحدة . ولكنه ، والحق يقال ، كان قد أخرج بهذا الجمع قصة جديدة ، تختلف اختلافاً بيناً عن قصتي ابن سينا . فهو لم يجمع بينهما فقط ، وإنما ألف بينهما أيضاً . واقتضى هذا التأليف بعض الزيادات وبعض الحذف وبعض العناصر المبتكرة الجديدة . وقد أشار إلى ذلك الأستاذ L. Gauthier جوتييه في بحثه في ابن طفيل .

وفي مادة « ابن طفيل » في دائرة المعارف الإسلامية ، يزعم المعقب على المقالة ، أن الشاعر الفارسي جامي Jami قد اتخذ قصة ابن سينا « سلامان وأبسال » أساساً لمقطوعاته الشعرية المشهورة « سلامان وأبسال » التي ترجمت إلى الإنجليزية وترجمت أيضاً إلى الفرنسية بواسطة Auguste Brieteau أوجست برييتو . والواقع أن هذا الزعم غير صحيح ؛ لأن مقتوعات جامي أقرب إلى القصة المنسوبة إلى حنين منها إلى قصة ابن سينا . فسلامان في أشعار جامي أمير شاب ، وأبسال ظئره ، التي تصبح معشوقته فيما بعد . ومن هنا يظهر أن جامي ، كان يعتمد في لا شعوره ، على القصة المنسوبة إلى حنين ، والتي يخلط بينها كثيراً وبين قصة ابن سينا .

ويحتمل أن هذه القصص جمعاً ترجع في مصادرها الأولى ، إلى العصر

الإسكندري . فنحن نعلم أن قصة حي بن يقظان لابن سينا ، والتي قلده فيها ابن عزرا ، تشبه في جوهرها كتاب « بيمندريس » أو « راعي الناس » المنسوب إلى « هرمس » ، وهو محاوراة امتزج فيها المذهب الأفلاطوني المحدث باعتقادات قدماء المصريين ، وتمثلت في صورة شيخ بهي المنظر ، هو عند ابن سينا حي بن يقظان ، وبين تلميذه هرمس إله الحكمة . وتناولت هذه المحاوراة في الوقت نفسه كيفية الخلق ، والإشراق ، أي إفاضة العقل الفعال الذي هو نهاية العقول السماوية ، على العقل المستفاد الذي هو أرقى القوى الإنسانية — أقول إفاضة العقل الفعال على العقل المستفاد المعقولات المحضة . وقد عرف الإسلاميون كتاب بيمندريس ، وأشار إليه القفطي في « تاريخ الحكماء » .

هذا كله فيما يتصل بقصة حي بن يقظان لابن سينا . وقصة سلامان وأبسال تعالج نفس الموضوع ، فلا يبعد أن تكون قد تأثرت بنفس المؤثرات ، وخضعت لنفس الجو الروحي المعبق بغموض التصوف . ولكن ابن سينا على كل حال لم يكن خالصاً إلى التصوف ، فالحق أنه أكبر من طائفة الأئمة التي خلقت الحضارة الإسلامية برمتها . أجل إنه عاش طوال حياته ، يريد أن يرقى على الغيبية من جهة ، والواقعية من جهة أخرى ، ليخرج بمركب جديد ، ولذلك نجد في ذات قصته الإشرافية الفيضانية ، عناية بالواقع ورأفة بالأرض . إنه إنسان يعيش في الحضارة الإسلامية التي لم تثر على النزعة العملية الأصلية فيها ، إلا عندما ثارت على نفسها ، وأرادت أن تخرج من ذاتها . فبجانب هذه المؤثرات الأفلاطونية المحدثنة العزوفية ، نجد المؤثرات الإسلامية من حيث الحض على الفضيلة العملية ، وإياحة العمل في الحياة ، وتدبير شؤون المنزل ، وتنظيم مرافق المدينة .

بل من يدري ، إن خطأنا غير محتمل أبداً ، إذا قلنا إن ابن سينا كان ينسج في قصته « سلامان وأبسال » على منوال قصة يوسف التي وردت في القرآن . فالشبه بينهما قوى لدرجة عجيبة حقاً . بل لماذا نذهب بعيداً ، وقد كان ابن سينا نفسه يشعر شعوراً قوياً بهذا الشبه . أنظره إليه يقول في رسالته « القدر » التي نشرها الأستاذ ميرن ، على لسان حي بن يقظان ، وهو يهدى من صخب مجادله : « وما كل عصم عصمة يوسف حين رأى برهان ربه ، وكانت همت به وهم بها ، ولا عصمة أبسال حين انباج برق فأراه وجهها » .

قصة سلامان وأبسال

لقد تأثر ابن سينا قصة يوسف سواء كان واعياً بذلك أو غير واع . فـيوسف في الحقيقة إلا أفسال ، وما الحاكم أو عزيز مصر إلا سلامان ، وزوجة العزيز هي النفس الأمارة أو زوجة سلامان ، وهي تهيم بأفسال ، كما هامت زوجة العزيز بيوسف ، فيرتد عنها على أثر انبلاج برق إلهي في خاطره ، كما انباج برهان الرب في خاطر يوسف ، وإخوة يوسف إلهي قاوموه ، هم في قصة ابن سينا الجيش (أي الخوارج) الذي تخلى عن أفسال وتركه عرضة للموت . وكما انتهى يوسف من هذا الصراع بالنصر والفوز ، انتهى أفسال أيضاً إلى نفس النتيجة المتفائلة ؛ فالخير ينتصر على الشر ، ويكون السلام على الأرض ، والمجد لله في الأعلى .

ونلتهم من هذا كله ، بأن قصة ابن سينا متأثرة في وضعها الفني بقصة يوسف ، ولا سيما أن ابن سينا قد حفظ القرآن ووعاه ، وشب متأثراً بمعانيه وقصصه منذ بلغ العاشرة ؛ كما أنها متأثرة في أفكارها ، بل صدرت في أفكارها عن الأفكار الأفلاطونية المحدثة الإشرافية .

ولسنا نستطيع أن نعين بالضبط تاريخ تأليف تلك القصة ، ولكننا نعلم أن قصة حي بن يقظان لابن سينا ، قد كتبت في الفترة الواقعة ما بين سنة ٤١١ هـ - سنة ٤١٤ هـ . وهي فترة مضطربة جداً من حياة ابن سينا ؛ فلقد أسره الأمير تاج الملك ، وزج به في السجن ، في قلعة تسمى « فردخان » ، وبين جدران تلك القلعة كتب ابن سينا حي بن يقظان . ولا يبعد أن تكون قصة سلامان وأفسال ، قد كتبت أيضاً في هذه الفترة المضطربة ؛ فهي في الحقيقة ومن الناحية الفنية تعد الحلقة الثانية لقصة حي بن يقظان ، فهي تندفق في نفس المحيط المجهول ، وتستشرف نفس الآفاق النائية . وليس من الغريب أن يشرع ابن سينا السجين ، في رسم طريق الحرية ، بقصته سلامان وأفسال . تلك هي نزعة الإنسان الواعي الذي يجد الأغلال حول جسده وروحه ؛ تراه ينفجر في ثورة روحية هائلة ، فيتحرر من رقة الخوارج ، بل من رقة العقل ذاته ، وحينئذ يشعر بأزمة الحرية في أقصى درجة من درجاتها . وهنا تراه يخاف الحرية المفورة أمامه . أجل ! يخافها ، فإذا به يتحرر من الحرية ذاتها ، ويسلم نفسه لله . هكذا فعل سلامان ، إنسان ابن سينا ، ولعل ذلك ما يفعله الوجودي المسيحي أيضاً .

إن تلك القصة تعبير عن حالة لابن سينا ، لانكاد نجد لها في تاريخ حياته إلا في تلك الفترة الواقعة بين سنتي ٤١١ هـ — ٤١٤ هـ . ولما كان من الممكن النظر إليها على أنها تمضي في نفس الفكرة التي ابتدأت في قصة حي بن يقظان ، المؤلفة في تلك الفترة ، فلعل قصة سلامان وأبسال ، قد وضعت أيضاً إبان تلك السنوات .

والآن يجب علينا أن نعرف : ما موضع هذه القصة من التراث الروحي لابن سينا ؟ لقد رأينا موضعها التاريخي من حياة ابن سينا . أما موضعها العضوي في فكره ، فهو في الحكمة المشرقية ، على الرغم من أن ميرن Mehren لم يوردها فيما أورده من رسائل الشيخ الرئيس تحت هذا العنوان . ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن نص القصة مفقود ، وكان ميرن يعني بجمع نصوص ابن سينا الإشرافية ، لا الشروح على تلك النصوص . نحن نعلم أن الشيخ كان خاضعاً لتيارين رئيسيين : التيار المشائي الأرسططالي ، والتيار الأفلاطوني المحدث ، وإلى هذا الأخير تعزى الحكمة المشرقية لابن سينا ، ومن هذه الحكمة قصة سلامان وأبسال .

ولابن سينا كتاب مفقود ، بعنوان « الحكمة المشرقية » . وكان يظن دائماً أنه يعالج — كما تبين ذلك من حديث ابن طفيل في قصته حي بن يقظان عن تلك الحكمة — المسائل المستورة ، من إشراق واتحاد ونيل ووصول . هو كتاب ، كان يظن أنه نسجت على غرار قصة حي بن يقظان لابن طفيل ، فهو إذن يحتوي على أسرار الإشراق ، التي يمكن أن تعتبر بدء المذهب السهروردي المقتول + سنة ٥٨٧ هـ ، أعنى أن كتاب الحكمة المشرقية هذا ، يجب أن يوضع في مذهب التصوف السري الذي نادى به السهروردي المقتول وتلاميذه . وقد سلم بذلك البارون كاراديثو وبوزي وكيورتن وهورتن وجولدسيهر وديبور . . . بل معظم المستشرقين الذين سبقوا الأستاذ كارلو القونسو نلينو + ١٩٣٨ م . فقد جاء المستشرق ببحث نشره سنة ١٩٢٥ في مجلة « الدراسات الشرقية » ، وترجمه إلى العربية الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه « التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية » (من ص ٢٤٥ — ص ٢٩٦) . وهذا البحث أثبت بطريقة تكاد تكون نهائية أن كتاب الحكمة المشرقية ، هو كتاب على غرار كتب ابن سينا في الفلسفة المشائية ، يتكون من ثلاثة أجزاء : المنطق والطبيعة والإلهيات

وأن كتاب منطق المشرقيين المنشور في القاهرة هو جزء من هذا الكتاب « الحكمة المشرقية » .

وقد اعتمد الأستاذ نلليانو في ذلك على نصوص كثيرة ، كانت موسومة بعنوان الحكمة المشرقية ، وهي ليست في مضمونها إلا تعبيراً عن الحكمة المشائية .

وإذن فإذا كان يعنى ابن طفيل ، حين أخذ يبت صديقه أسرار الحكمة المشرقية التي قال بها ابن سينا ؟ قال الأستاذ نلليانو بعد أن شرح بإيجاز قصتي ابن سينا : حى ابن يقظان ، وسلامان وأبسال : « وليس من شك في أن ابن طفيل أشار إلى هاتين القصتين الرمزيتين ، ذواتي الطابع الفلسفي الصوفي اللتين ألفهما ابن سينا ، واللتين لا تفهمان بدون شرح ، حين قدم قصته هو على أنها إجابة على سؤال صديق ، طلب منه أن يبت إليه أسرار الحكمة المشرقية التي ذكرها . . . ابن سينا . ومن المحتمل كثيراً أن تكون نسخة قصة سلامان وأبسال ، التي كانت بين يدي ابن طفيل ، كانت تحمل العنوان التالي : « في أسرار الحكمة المشرقية » ، وهو العنوان الذي أضافته بعض المخطوطات والطبعات الشرقية ، إلى عنوان قصة حى بن يقظان لابن طفيل . (ص ٢٩٢ — ٢٩٣ التراث اليوناني) . فكان الحكمة المشرقية يحتمل كثيراً أنها هي قصة سلامان وأبسال . وعليه فليس ابن سينا هو المبشر الأول بمذهب الإشراق ، إنما ابن سينا مشائي من قمة رأسه إلى أخمص قدميه . وإذا كان ابن سينا قد تكلم في التصوف ، فهو كلام طاهر ، لا يدخل في صلب مذهب ولا يكون دعامة من دعائمه — هو كلام يتوحد مذهب كما يقول ديبور .

إن هذه النتائج التي وصل إليها نلليانو ليست حاسمة ولا جازمة ، للأسباب الآتية :

أولاً — أن نلليانو قد وضع فرضاً لا يزال في حاجة كبيرة إلى التحقيق والإثبات ، وهو أن قصة سلامان وأبسال ، التي وقعت لابن طفيل ، يحتمل كثيراً أن تكون قد أضيف إليها العنوان التالي : في أسرار الحكمة المشرقية . وهذا الاحتمال ، لا يقوى افتراض أن كتاب الحكمة المشرقية كتاب مشائي .

ثانياً — أن نلليانو لم يبين الصلة التي كان يمكن أن تقوم بين كتاب

الحكمة المشرقية وبين كتاب آخر لابن سينا مفقود، ولكن أثبتته الجوزجاني وهو « كتاب المشرقيين ». ومجرد ذكر هذا الكتاب، يثير أمامنا هذه المشكلة: لماذا لا يكون كتاب منطق المشرقيين، والنصوص التي اطلع عليها نلليانو، المسماة باسم الحكمة المشرقية، مع أن مضمونها مشائي صرف — أقول لماذا لا يكون كتاب المشرقيين وتلك النصوص جزءا من « كتاب المشرقيين » ويظل كتاب الحكمة المشرقية كتاباً في الحكمة الإشراقية، كما كان يفهمها ابن طفيل، ومعظم المستشرقين السابقين على نلليانو؟

ثالثاً — أن الغرض من الجانب الإشرافي في روح ابن سينا ليس له أساس من الصحة. فبكتاب الحكمة المشرقية كتاباً مشائياً، فإن ابن سينا على الرغم من ذلك إشرافي في أعماق روحه. إنه إشرافي حتى في صميم كتبه المشائية، هذا زيادة على تراثه الإشرافي الخالص. بل لماذا نذهب بعيداً، ونظرية ابن سينا في الوجود تقوم على الفيض والإشراق؛ فإن الواجب بذاته يتعقل ذاته، فيفيض عنه العقل الثاني الواجب بالأول الممكن بذاته. وهذا يتعقل الأول، فيحدث أن تعقله للأول يفيض عليه الخير، فينشأ العقل الثالث، وهكذا دواليك إلى العقل العاشر. ونظرية المعرفة عند ابن سينا نظرية إشرافية؛ فالعقل الهولاني في درجات ترقيه، يتطور ويسمو، فيصير عقلاً بالملكة، ثم عقلاً بالفعل، ثم عقلاً مستقداً. والعقل المستفاد هو العقل الذي يتلاءم لإشراق العقل الفعال عليه بالمعقولات المحضة. ونظرية السعادة عند ابن سينا تبدأ من اللذة الأرسططالية، ولكنها تمضي بعد ذلك في معارج الفيض؛ لأن خير لذة هي لذة القوة الناطقة، ولذتها هي كمالها، وكمالها هو ابتهاجها بعشق جناب الحق، والفناء فيه، والوصول إلى درجة الغائب الحاضر.

يجب إذن أن نقسح مكاناً لأفلاطون في الفكر الإسلامي، حتى تفهم هذا الفكر على حقيقته. ويجب أن نعلم أيضاً، أن قصة سلامان وأبسال، من حيث إنها تلخيص لإشرافية ابن سينا، تفسر جانباً ضخماً جداً من جوانب الفكر الإسلامي.

من هنا وهناك

الأستاذ طه الراوي

صناعة الرواية

عظماء الرجال ، فكيف وقد تفوق أستاذنا بها جميعاً ؟

برع الراحل الفريد بالفنون السانية والعلوم الاسلامية حتى غد من فطاحل علماء عصره غير المنازع . وكنت أسمر من شيوخ زمانه أثناء الحرب الكونية الاولى بأنه قد أكمل علوم الجادة وأصبح علماً بها لدرجة لم يبق بين أساتذة عصره آنذاك من يغتفر إلى الأخذ عنه ، ولم يخرج المطبعة العربية كتاباً قيمياً في مصر أو الهند أو العراق والشام إلا وقد اشتملت عليه مكتبته العاجزة ، فكانت تسعفه بما يحتاج إليه من بحث . أما أخلاقه فقد صفت من كل عيب ، فليس له شائء أو قال ولا عدو لا في السر ولا في العلانية ، فذهب مبكياً عليه من جميع طرفيه . هذه النواحي الخفية من سيرته قد تصدى للكتابة عنها كتاب كثيرون في العراق وغير العراق ، لأن للمعجبين بأدبه لاحصر لهم وكلهم من ذوى الزكاة والفضل ؛ ولذلك قاني قصرت بحثي على صفة فذة انفرد بها من بين أقرانه وله فيها فضل السبق على جميع أبناء المدرسة القديمة والحديثة في بغداد ، تلك الصفة هي الرواية الشهيرة التي عرف بها المرحوم كانت منطبقة على الحقيقة وواقع الحال . ونحن إذ نتمتع للمرحوم بالراوي فلسنا نقصد مبنى الكلمة من وجهة نسبتها إلى مسقط رأسه ، وإنما نريد معناها الاصطلاحي اللغوي . إن الذين حصلوا على المعارف واتسعت آفاق معلوماتهم كثيرون ، ولكن ندر بينهم

يحار للتصدي لسيرة فريد الأدب السيد طه الراوي أي الجوانب يتناول وأياً يذر ؟ فإن مواجيه متعددة الجوانب ، ومزاياه فياضة بالفضائل ذاخرة بالجلال ، وحياته حافلة بالإيجاد من الأعمال والعظام من الأمور ، يحسن بأبناء الجيل اخذاً وها والاهتداء بنبراسها ، فهي مجموعها أقباس من المكررات وأنفاس من الصالحات وأمثلة حية تحفز للشئ على مكابدة للشاق في سبيل التحصيل ومتابعة الدرس والصبر على معاناته . فطالما حفزت سير الصاميين ودفعت بالكثيرين من ذوى النفوس الحاملة إلى أن ينفضوا عنهم غبار الكسل فيعملوا يباض أيامهم وسواد ليالهم حتى ينالوا مبتغاهم . ومن أجل هذا حتى الأقدمون يكتب السير ولا سيما تراجم الصاميين منهم ، فهي خليقة أن تدرس وأن تحمدي . . كان رحمه الله يمتاز بمخال كريمة بمقدور المتحدث أن يقصر بحثه على خلة منها فهي كفيلة أن تغنيه من أن يتصدى لمخال أخرى ، وسوف تشبع رغبته الفنية ما واثته موهبته الكتابية . أقول بمقدور الكاتب أن يتحدث عنه مؤلفاً ضليعاً أو كاتباً اجتماعياً أو طاملاً غزير المادة واسع الاطلاع حجة فيما يرجح ، ولغوياً يذكركنا بالسلف الصالح من أمثال الخليل بن أحمد الفراهيدي وابن الأعرابي ، أو مفسراً يحاكي الرازي وصاحب الكشف ، كل هذه الجوانب التي إذا امتاز امرؤ بواحدة منها فهو خليق أن يعد بها من

والبحرئى وابن الرومى والمتنبي وأبى العلاء
والشريف الرضى وابن معنوق ، وهو الذى
حبب الى الكثيرين دراسة زهير والنافسة
وطرفة بن العبد وامرئ القيس ، وهو
الذى وجه طلاب الآداب إلى دراسة
الجاحظ وعمرو بن مسعدة ، وهرون بن سهل ،
وابن رشيقي ، وابن خلدون ، وابن بسام ،
وابن حيان . لقد أوتي غفر الله له حافظة
واعية وذاكرة مواتية ، فإذا أقاضى حديث
تلقاه يحسن الاستشهاد بالحكاية المؤيدة ،
ولمثل المناسب والحكاية المشابهة . وذاكرته
من أعجب المعائب تواتيه بالشواهد ، وحافظته
قلما خاتته في رواية ما استوعبته من روائع
الشعر أو بدائع النثر ، فكأنه كان يفرف من
بحر ، أو كأن كتاباً مسطوراً يقرؤه .
كان نادرة من نوادر الدهر ، وتحفة من
محفة التي قلما يجود بها ، براعة لسن ، واتقاد
ذهن ، وسرعة بديهة ، واتساع معارف
ورجاحة مدارك ، فهو الأديب على غرار
ما عرضه ابن خلدون . تصفو النفس لمجالسته
ويشيع فيها المرح لحديثه . وأما حضور بديته
في إيراد المثل من مأمور الآداب منظوماً
ومثوراً فهو ما لا يتفق لأحد من أقرانه
ولا يشق له غبار في هذا المضمار . ومجلسه
والاستماع لما يروى في شتى العلوم وضروب
الآداب فكان متاعاً دونه متع الحياة
ولذا أذهأ ، ولا سيما الساعة الأولى التي كنا
نقضيها في مكتبته العاصرة أنا والصديق المحزون
على فقده الأستاذ مصطفى على الذى كان
الفقيد يمز ويؤثره على سائر أصحابه ويستأنس
برأيه ، وكثيراً ما كان يكلفه قراءة فصل من
ديوان أو كتاب إلى أن يتقاطر علينا رواده
الكثيرون ، وهم يختلفون ذوقاً وسناً
ومدارك ، فنضطر إلى ترك مجلسنا والاتقطاع
عما كنا فيه من نشوة بمنعة تلى فيها هموم
الحياة وأتاعها .

من كانت له براعة فقيدها بالرواية أوله قدرته
على عرضها وإفادة الناس بما حصل من
دراسات منظمة أو قراءات عابرة . سل أى
طالب جلس إليه وهو يلقي درسه من منبره
يخبرك خبراً اليقين كيف كان يحقق بحشه
ويقصل موضوعه ويدعمه بالشواهد ويؤيده
بالمثلة ، ويحدثك عن مقدار ما غرس في نفوس
تلامذته من فائدة وبث فيهم من ميل إلى
الدراسة والآداب ، وكيف أنهم كانوا ينصرفون
من درسه ونفوسهم منعمة بالغبطة والرضا
منسرحة لما يقتطفون من فوائد علمية وأدبية .
ولست أرانى مبالغاً إذا قلت بأن تذوق
الآداب وشيوع دراسته في ربوعنا كان مصدره
الفقيد الزاوى إما بالذات وإما بالواسطة .
وأصدقائه الذين كانوا يسرون في نديه العامر في
أمسيات السبت يحيها الله وأحيها - يقدرون
طول باع أستاذنا وتفوقه في هذه الحصلة ، فهو
محدث بارع يأخذ بمجامع القلوب ويأسر
الآلباب ، ويبعث في طلابه ورواد ندوته ما شاء
الله من أريجية ومسرة ، ويمتع أذواقهم ويرهف
شعورهم ، فقد كانوا ينهلون من نعيمه العذب
ويصرفون من فيض معارفه الزاخرة ، فمن
طرفة أدبية إلى ملحة مستظرفة ، ومن فكاهة
مستعذبة إلى كلمة شاردة ، ومن أمثال سائرة
إلى أبيات من الشعر هي السحر الحلال . إسمع
إليه يروى منخل الشعر ومصفى النثر وهذب
الأخبار تعرف بين برديه الأصمى أو حماد
أو ابن قتيبة وأضربهم ممن حفظت لنا بطون
الأسفار سيرهم ونوهم لنا بلبوغهم في
الرواية وسعة الدراية . نعم للمغفور له في عنق
آبساء هذا الجيل دين أى دين في توجيههم
الأدبي ، فهو والحق أقول الذى غرس في نفوسنا
الميل إلى آداب اللغة وتذوق المصطفى من نثرها
والمصنى من شعرها ، فما كان أرواه وأكثر
حفظه للعذب من منظوم اللغة ومنثورها .
هو الذى عرف أبناء هذا الجيل ببشار

للغلوط . وقد كان من أمانى الأستاذ المرحوم فرض رقيب يثق به على الاذاعة تعرض عليه خطب المتحدثين عن منبرها ، واعراب صواب الكلمات بالشكل ، وتنبيههم إلى الأخطاء الشائعة ؛ لأن جمهور السامعين يحسبون صحة كل ما يلقى ، وههنا البلوى ، فيشيع التقليد ويكثر الخطأ ، ويساء إلى العربية عن طريق الجهات التي تقصد خدمتها . وكما كان رحمه الله يهتم لالقاء بعض أولئك المتفاهمين الذين يكفون بتقليد المثليين المصريين ، وفاتهم أن البون شاسع بين حوار المثليين وقراءة للمواضيع أدبية أو علمية ، فتراهم يعطون بالحرف وحقه القصر مثلاً ، ويقفون على ما لا يصح الوقوف عليه كاسم للوصول قبل الاتيان بصلته ، أو على الموصوف قبل إكمال صفته ، وكما سمنا خطباء يقفون على حرف الجر وأكثر ما كان يسوءه أولئك الذين يتفهمون ويتفهمون بنطق الكلمات فيزدردون الحروف بحيث لا يتضح حرف عن آخر . وكما نرى على الاذاعة إهمالها هذه الناحية أو فسحها المجال لبعض الناشئين ممن لا يتوافر فيهم النضوج ؛ لأنه يعدها أخلق أداة وأنفع وسيلة لتهديب الجماهير .

وبعد غسارتنا بفقد الراحل لا تعوض ، وفراغه لا يسد . أجزل الله لنا الأجر . وألهم آله وذويه الصبر وتغمده بعفوه ورضاه .

جمال الزلوسى

التحليل النفسى والأحلام

سريعة الحركة تفيض بكل ألوان الفن للأستاذ عبدالرحمن صدقي . وإذا بي أجده مع هذا كله إحياء لذكرى زوجته المحبوبة بصورة لم تسبق له ولا لغيره من قبل . فقد سبق له أن خلد ذكرى نجبته لزوجته بقطعه

كان الراوى رحمه الله مسرفاً فى القراءة إن صبح أن فى القراءة إسرافاً ؛ فما زرناه مرة إلا وجدناه يقرأ أو يسمع لمن يقرأ له . وهذه نتيجة طبيعية لنشأته المصامية الأولى ؛ فقد نشأ مصامياً بما حصل من العلم والآداب . ومن زامله فى الدراسة أو عاشه فى صباه يوم كان يأخذ العلم عزف شدة ما كان يحمل نفسه من تعب وما كان به يرهقها من عناء مما لا يطيقه إلا المصاميون الأفذاذ .

وخصلة ثانية جديرة بالتنويه عرف بها الراوى ، هى سعة اطلاعه ، فما خاض سماره فى حديث إلا شارك فيه بل أقاض فى موضوعه وأفاد السامعين بتعليقاته ، وفطن إلى دقائق فى الموضوع حتى يبلغ غاية المدى . وأجود ما كنت تسمع منه الآداب العربية والعلوم الإسلامية وخاصة تعليقاته فى التفسير . أما اطلاعه على التاريخ العربى بفروعه كلها جاهلية أو إسلامية ، أموية أو عباسية أندلسية أو الحانية ، فكان فيها حجة وترجيح عليه للمعول . وليس بين شيوخ الأدب وعلماء العربية فى العراق قاطبة من يدانيه فى الضبط . فالحن تفتش عند الخاصة به العامة . وعلة ذلك عدم الزكون إلى التحقيق وإجهاد النفس بمراجعة للمعاجم ، فتلفظ الكلمة كيفما اتفق دون أن تكلف أنفسنا الأخذ عن القاموس أو ضبطها من المعاجم ، ومرجعنا السماع

استرعى نظرى عنوان « حلم ليلة من ليالى الصيف » . وما قرأته إلا اعتقاداً منى بأننى قد أجده فيه شيئاً من التسلية أو أعثر فيه على مادة أطال فيها شيئاً مما أعرفه عن تأويل الأحلام . فإذا بي أجده فيه صورة ناطقة حية

اقتربتها في صغرى . فهناك الاحساس
الاشعوري بالذنوب ، والاحساس الاشعوري
بالتهديد بالعذاب .

ولعل حلمًا آخر يوضح ما أقصد ، وهو حلم
الشاب على درجة بالغة من الذكاء والتعمق في
التفكير الفلسفي . قرأ في الفلسفة وفي الالهيات
وفكر فيهما كثيراً جداً . وفي يوم من الايام
أبلغني أنه رأى في الحلم ربه يجلس على عرش
كبير ويمر عليه المؤمنون فيعطيهم شرباً
أبيض اللون حلو المذاق يتقبلونه باسمين
شاكرين ، ثم يمر عليه غير المؤمنين فيقذفهم
بسائل ملتبس أحمر اللون يؤلمهم ويشويهم .
ثم يقول لهم إنه عفا عنهم أجمعين .

وقد نظن لأول وهلة أن الحلم كما ذكرناه
يفسر نفسه . ولكن الشاب قص حلمه وانتهى
منه ثم استرخى في جلسة وتأوه تأوها عميقاً
ثم قال : « ولم لا يكون الوالد مثل هذا الاله ؟ »
وكان للشاب والد يقابل خطأ ابنه مقابلة
قاسية ، فهو لا يعذر ولا يغفر ولا يرحم .
وللشباب مع والده قصة طويلة تمتد بنا إلى
طفولته الأولى ، وفي القصة نجد مزيجاً من
الاعجاب والسخط والحب والكراهية .
ويمكننا أن نذهب في الحلم إلى أبعد من
هذا في كشف المحتويات الباطنة . فللسائل
الابيض رمزيته وللسائل الاحمر رمزيته . . .
وهكذا .

وإذا أردت أن أتوغل في حلم عبد الرحمن
فلا بد من أن أتوغل في حياته ، وفي طفولته ،
وفي ظروفه الحالية . . . إلى غير ذلك .
ولكن يمكنني مع ذلك أن أتفق معه في تأويله
الذي نشره ، هلي أن السيدة المحترمة المحتشمة
هي والدته التي يطمئن إليها ، ويسكن إلى
حنانها ، وقد سكن إليه منذ ولادته . فالعقل
انما ابتدعها في الحلم لحماية الدائم من حالة
عقلية حادة شاذة . فيظهورها وصراحتها اختفى
للموسك واختفى الحلم كله . ولكن يلاحظ أنها

للفنية ومنظوماته الشعرية الملتبهة الفياضة .
والأحلام في نظر المشتغلين بالتجليل النفسي
تأويلات كل ما يسوغ الأخذ بها أنها ساعدتنا
فعلاً في كشف مجاهل الحياة العقلية الاشعورية
كشفاً أدى إلى نتائج قاطعة في شفاء الحالات
العقلية وفي تفسير كثير من الظواهر الانسانية .
وفي حلم عبد الرحمن : امرأة ، وكسوة
جديدة أعجبه منظرها ، ثم زوجته ، ثم خوف
من الجنون . وفي الحلم موكب عرس بالشموع
وسيدة محتشمة ، أشاحت بوجهها بحفلة مما رأت .
ويقال إن للأحلام عادة ما يسمى محتوياتها
الظاهرة وهي أول وصف الحلم : وله كذلك
محتوياته الباطنة . . . ومما يوضح هذا أني كنت
تأبم في حجرتي بالجلتراً وكان المطر شديداً
جداً ، فكانت قطراته الكبيرة تضرب زجاج
النافذة من الخارج ضرباً سريعاً متوالياً ، فكان
أن رأيت نفسي في ساحة القتال أسير في أحد
الجنادق وصوت المدفع الرشاش « المترليوز »
خارج الخندق مستمر لا ينقطع . وكان قاع
الخندق من الطين المبلول ، وكنت تاري القدمين
أغوص بهما في هذا الطين . وكان كما يرى
القارئ حلمًا مزيجاً قمت منه مزيجاً حقاً ،
فأدركت أن صوت الرصاص تأويل نفسي حتى
لصوت قطرات المطر ، وأدركت أن إحساس
النوم في الطين تأويل نفسي حتى لاحساس
الغرق في أرجلي إذ لبست في تلك الليلة جورماً
سيمكا من الصوف كانت قد صنعت لي صاحبة
للمنزل الذي كنت أسكن فيه .

فلو أني أخذت الحلم بالصورة التي سردتها
مع ربط أهم عناصره بأهم عناصر المؤثرات
الحسية المحيطة في لحظة وقوع الحلم لبدا ذلك
كافياً . ولكن ما العلة في أن صوت قطرات
الماء تحول إلى صوت طلقات الرصاص ولم
يتحول إلى صوت موسيقى للرقص ، وكان فيه
من حسن الايقاع وجماله ما يكفي لذلك ؟ العلة
في هذا أن لدي خوفاً من العذاب لذنوب

من هنا وهناك

آخر ، خصوصاً وقد ضمته إلى صدرها وأعادته إليها عند ما أدبرت عنه الزوجية الهنيئة . هذا ما يفسر في رأيي ما بالحلم من خوف واتزاع واضطراب . فالعودة إلى زوجة يعتقد الحالم أنها ماتت لا يكفي لظهور هذه الانفعالات الغنية .

هذا تفسير قد لا يقبله عقل الحالم لأول وهلة ؛ إذ قد يتناول مكنونات اللاشعور . وهذه المكنونات لا سبيل للبلوغ إليها بالعقل الواعي ، عقل المنطق والحياة اليومية . والله أعلم .

عبد العزيز القوصي

صرخت كأنها لا توافق على هذا الذي كان على وشك الحدوث ، وكان من مقدماته اللوكن والسترة الجديدة ، ففي الحلم في رأيي رغبة ملحة في اللاشعور للعودة إلى الحياة الزوجية . ولكن يمزق العقل أزياءها أمراً كلاهما على جانب كبير من الأهمية : أحدهما أن زوجة عبد الرحمن ما زالت حية في نفسه ، فهو إما أن يعيش معها وهذا محال ، وإما أن يعيش مع غيرها وهذا محال قطعا . والإصرار الثاني ما لأم عبد الرحمن من مكانة قوية في نفسه بلغت من نبوغها درجة لا يحتمل مع عيشها معه أي حل

شهرات

شهرية السياسة الدولية

الاتفاق خطوة قيمة في سبيل التراضي والتعاون بين الدول الكبرى . ولكن الاندفاع في التفاوض شر ، كما أت الاندفاع في التفاوض ليس أقل منه خطراً . فليسجل هذا الاتفاق الذي تم في شيء من الرضا . ولكن في كثير من الاحتياط . فاتفق المختلفين في قاعة الاجتماع بهيئة الأمم المتحدة شيء . وتنظيم الاجراءات العملية لتنفيذ هذا الاتفاق ، ثم تنفيذ هذا الاتفاق بالفعل في أمانة وصدق وإخلاص شيء آخر . وكل ما يمكن أن تقرره هو أن ساسة المنتصرين قد اختلفوا على شيء من تقارب وجهات النظر ؛ فهم سيستقبلون العام الجديد في شيء من الأمن الموقوت . ولكن للمسائل الكبرى التي هي مثار الخلاف بين المنتصرين ما زالت قائمة لم تمس إلى الآن . فأمریکا مستأثرة بالقنبلة الذرية لم تقض بأسرارها بعد ، ولم تبج إعدام ما أنشئ منها ولم تسلم بوقف المفدى في إنتاجها . كل ذلك مرهون بتمام الاتفاق ، وتمام إنفاذه في دقة وأمانة وإخلاص .

وكذلك تقاربت وجهات النظر في قضيتين خطيرتين : إحداهما القضية الأسبانية ، فقد كانت إروسيا وفرنسا تطالبان بقطع العلاقات السياسية والاقتصادية مع أسبانيا ، وكانت بريطانيا العظمى والولايات المتحدة تأييان هذا كل الإباء ، فتم الاتفاق على أن تستدعي الدول سفراءها ووزراءها المفوضين من مدريد ، وتبقى السفارات والمفوضيات يشرف عليها القائمون بالأعمال ، ويراقب مجلس الأمن

يقال إن السياسة العالمية في هذا الشهر ، قد أتيح لها شيء من الدعة والاسماح ، وإن العالم سيستقبل العام الجديد هادئاً مطمئناً إلى حد ما . ومصدر ذلك فيما يقال هو أن الاجتماع الأخير لهيئة الأمم المتحدة قد انتهى إلى نتائج رضى عنها واطمأن إليها الساسة المنتصرون ؛ فقد خفت حدة الخلاف بين الكتلتين المختصتين : كتلة السكسونيين من ناحية ، والروسين من ناحية أخرى . فلم يكن بين الخطباء في هيئة الأمم المتحدة ولجانها ذلك الصراع العنيف ، الذي كان ملحوظاً حين اجتمعت هيئة الأمم المتحدة في لندن ، أو حين اجتمع مؤتمر الصلح في باريس ، بل كان الخلاف يشتد ويمتد أحياناً حتى يندب بالخطر ، ثم ينتهي آخر الأمر إلى نوع من التراضي يرتاح إليه المختصون جميعاً وهذا كله حق ليس فيه شك . وهناك حق آخر ليس فيه شك وهو أن اجتماع هيئة الأمم المتحدة الأخير قد انتهى إلى الاتفاق على طائفة من المسائل كان يظن أن ليس إلى الاتفاق عليها من سبيل . فقد تم الاتفاق مثلاً على شيء من التقدم نحو تخفيض التسليح ، والاشراف على القنبلة الذرية وما يشبهها ، أو يقاربها من الأسلحة الفتاكة ، وعلى أن يكون هذا الاشراف غير خاضع لحق الاعتراض الذي تستمسك به الدول الكبرى . بل أتيح لهيئة التي تستشرف على تخفيض التسليح حق التفتيش والتثبت داخل حدود الدول مهما تكن . وما من شك في أن هذا

شهرية السياسة الدولية

المعقدة ، والمطامع التي ليست أقل تعقيداً من مصالحها ، بين مواقفها وبين النظام الجديد . والحقيقة الواقعة التي لا يختلف فيها اثنان هو أن كل هذا الاسماح الذي طرأ على السياسة العالمية في هذه الأيام ، مصدره تغيير في الخطة الروسية . فقد عمدت روسيا من غير شك إلى شيء من اللين والاعتدال ، وتزلت عن كثير من تشدها في كثير من المسائل . فما مصدر هذا التغيير ؟ يقول المتعجلون إن مصدره الحزم الانجليزي الأمريكي الذي أشعر روسيا بأن تشدها متته إلى الكارثة . ونعتقد نحن أن مصدره دهاء السياسة الروسية ، فمن الخطأ أن نظن أن روسيا كانت مصممة كل التصميم في تشدها ، وإصرارها على العنف ، وإنما كانت تتشدد وتسرف في التشدد ، وهي تعلم حق العلم أن خصومها لن يسلموا لها بكل ما تريد ؛ فهي تدافع عن وجهة نظرها ما وسعها الدفاع وتطلب الكثير لتظفر بالقليل . ومن أخطاء الخطأ أن يظن أن السياسة الروسية قد انهزمت أمام السياسة السكسونية ؛ فالبقاء مازال خالصاً لروسيا ، لا يستثنى منه إلا اليونان ، ومطالب روسيا مازالت قائمة فيها يتصل بالمضايق ، وقد وافقت روسيا آخر الأمر على معاهدات الصلح المختلفة ، بيد أن ظفرت بأقصى ما كان ينتظر أن تظفر به . ويمكن أن يقال إن المشكلات التي كانت تواجه المنتصرين لم تحل إلى الآن خلا حاسماً ، وإنما موعد هذا الحل الخامس هو اجتماع وزراء الدول الكبرى في موسكو بعد شهرين .

هنالك . وهناك ليس غير ، نستطيع أن نقين أيغنى العالم حقاً إلى التعاون والاتفاق . أم إلى التنازع والاختلاف . ففي الاجتماع المقبل ستواجه المشكلة الكبرى التي تدفع أوربا إلى سم مستقرة ، أو تهيتها للحرب العالمية

تطور الأمور في أسبانيا . وقد يكون لهذا الاجراء أثره في إنقاذ الشعب الأسباني من نظام الجنرال فرانكو ، وقد لا يكون . ولكن المهم هو أن الدول قد استطاعت أن تصل إلى صيغة يمكن الاتفاق عليها .

أما القضية الثانية ، فهي قضية الخلاف بين الدولة اليونانية وجاراتها اللوالية لروسيا . وقد انتهى مجلس الأمن فيها إلى اتفاق قد يجدي وقد لا يجدي ، ولكنه اتفاق على كل حال . وخلاصته أن تنشأ لجنة دولية للتحقيق ، تزور البلاد المختصة ، وترفع تقريرها إلى مجلس الأمن . وواضح أن كل هذه الألوان من الاتفاق تقوم على التراضي الذي ينزل فيه كل من المختصين عن بعض ما يريد ؛ فهي اتفاقات ليست حاسمة ولا ملغية للمشكلات القائمة . فكما أن مشكلة القنبلة الذرية لا تزال قائمة ، فنظام فرانكو لا يزال قائماً في أسبانيا والاحتلال البريطاني لا يزال مستقراً في اليونان والحرب الأهلية لا تزال مضطربة في اليونان أيضاً . وهناك مشكلة شملت العالم عاماً وأكثر من عام ، وقد أخذت تنحل في هذه الأيام ، دون تدخل من مجلس الأمن ولا من هيئة الأمم المتحدة ، وهي مشكلة إيران . فقد اقتحمت جيوش السلطة المركزية أذربيجان ، وقضت على استقلالها الذاتي ، واستقرت على الحدود الروسية الإيرانية ، واستردت سلطان الحكومة المركزية على الأرض الإيرانية كلها ، لم تعرض على ذلك روسيا ، ولم تؤيده بريطانيا النظمي لتأييداً ظاهراً . ولكن من سبق الحوادث أن تقرر انتهاء المشكلة الإيرانية إلى طايتها ؛ فالدول المنتصرة تنظر صامئة في ظاهر الأمر إلى تطور هذه المشكلة على هذا النحو ، ولكننا سنرى بعد انتهاء الانتخابات الإيرانية ، وقيام الحكومة الجديدة كيف تلائم هذه الدول المنتصرة ذات المصالح

شهرية السياسة الدولية

فالذين يؤمنون بقوة الامبراطورية البريطانية وقدرتها على مواجهة المشكلات وقهر الصعاب ، كما كانت تفعل من قبل ، في حاجة إلى أن يعيدوا النظرة فيما كونوا لأنفسهم من رأى ؛ فقد خرجت الامبراطورية البريطانية من الحرب منتصرة ، ما في ذلك شك ، ولكنها لم تنتصر وحدها ، وإنما انتصر معها قوم آخرون ، لعلهم أن يكونوا أعظم منها قوة ، وأشد منها بأساً ، وأكثر منها ثراء ، وأقدر منها على مواجهة الصعاب . وقد بذلت الامبراطورية البريطانية أثناء الحرب ، وعوداً أسرفت في بذلها ، وآناً أو أوان الوفاء بها ، وكانت تظن أنها تستطيع أن تعد اليوم لتخلف غداً ، ولكن الشعوب التي تلت هذه الوعود لم تكن حابشة ، ولا هازلة ، وإنما كانت جادة كل الجدة ، وهي الآن تطالب بتحقيق ما بذل لها من الوعود .

وفي فرنسا تم الانتخاب للجمعية الوطنية ، على النحو الذي عرفه القراء ، والذي لم يظفر فيه حزب بالكثرة المطلقة ، وجرت انتخابات مجلس الجمهورية ، وانتهت على النحو نفسه . فأصبح أمر الحكم في فرنسا من أشد الأمور عسراً ، لا يستطيع حزب أن يستقل بالحكم إلا أن تؤيده الأحزاب الأخرى . وقد طالب الشيوعيون ، وحزبهم أعظم الأحزاب ، برئاسة الوزارة ، فأبتها عليهم الأحزاب الأخرى . ثم طالب بها حزب الجمهوريين الشعبيين فرد عنها ، واضطرت فرنسا إلى أن تلجأ إلى الحزب الاشتراكي ، وهو من أحزاب الأقلية ليعطيها رئيساً للوزارة ، فأعطاهما زعيمها العظيم المسيو ليون بلوم . ولكن هذا الزعيم لم يستطع أن يؤلف بين المختلفين ، فاضطر إلى تأليف وزارة من حزبه الاشتراكي ، وظهر في فرنسا هذا المظهر الغريب ، حزب من أحزاب القلة يؤلف الوزارة وتؤيده الجمعية الوطنية بتأييد إجماعي ؛

الثالثة ، وهي مشكلة الصلح الذي يراد أن يفرض على ألمانيا .

وبينما تجرى السياسة العالمية العامة على هذا النحو من التقارب الذي يدعو إلى الاطمئنان ولا يعنى من القلق ، تحدث في غرب أوروبا أحداث لها ما بعدها ، ولعلها أن تكون أبعد أثراً في المستقبل العالمي القريب من كل هذا اللفظ الذي امتلأ العالم به أثناء اجتماع هيئة الأمم المتحدة . ففي بريطانيا العظمى لا يكاد ينتهي الخلاف الذي شجر في حزب العمال ، واضطر الحكومة البريطانية إلى عرض الثقة ، حتى يشار خلاف آخر بين العمال دائماً ، وحول السياسة الخارجية البريطانية دائماً كذلك .

والخلاف في هذه المرة خطير ؛ فالتطرفون من العمال يرون أن حكومتهم لم تبر بوعدها ، ولم تيسر للديمقراطية سبلها في الخارج ، ويرون أن حكومتهم اشتراكية في بريطانيا العظمى مؤيدة للجمعية خارج بريطانيا العظمى . وضغطهم هذا يضطر الحكومة إلى ظاهرين من التساهل ، ولكنها لا تكاد تقدم على هذا التساهل الشكلي حتى يسخط المعارضون من المحافظين ، ويصبح المستر تشرشل في مجلس العموم بأن حكومة العمال تدفع الامبراطورية إلى الانحلال .

وكذلك مجهد الحكومة البريطانية الاشتراكية نفسها بين نارين : نار تأتيتها من اليسار من أتباعها المتطرفين ، ونار أخرى تأتيتها من اليمين من خصومها المحافظين . وقد يكون من الحق أن نهمل نيراناً أخرى تواجهها من خارج بريطانيا العظمى ، وتأتيتها من هذه المشكلات الكثيرة التي تتعقد في كل يوم ، وتزداد تعقداً من يوم إلى يوم في أكثر أرجاء الامبراطورية : في الهند ، وفي بورما ، ثم في مناطق النفوذ كالشرق الأدنى ، والشرق الأوسط مثلاً .

شهرية السياسة الدولية

لأنها لا ترى مخرجاً غير هذا من الحرج .
وهذه الوزارة موقوتة بالطبع ، ستستقيل
حين ينتخب رئيس الجمهورية . وسنرى كيف
تستقبل فرنسا أمرها ، وكيف تتكون فيها
الكثرة التي تلي الحكم : أتكون كثرة تميل
إلى الشمال ، أم تكون كثرة معتدلة متوسطة .

ولكل هذا أثره في توجيه أوروبا الغربية ؛
فالامر ليس إلا صراعاً بين اليساريين الذين
يريدون أن يأخذوا من رأس المال أكثر
ما يستطيعون ، وأصحاب اليمين الذين يريدون
أن يحتفظوا من نظام رأس المال ، بأكثر
ما يستطيعون أن يحتفظوا به .

طه حسين

شهرية المسرح

واصلت الفرقة الفرنسية للأوبريت تمثيلها طيلة شهر نوفمبر على مسرحي حديقة الأزيكوية ودار الأوبرا الملكية . قدمت روايتين أخريين هما « الأميرة تشارداس » و « مامزيل نيتوش » . وبها تم التمثيلتين انتهى موسم تلك الفرقة . وقد جاءت إلى مصر فرقة فرنسية أخرى لتمثيل الملهمة الخفيفة ، وهي تواصل حفلاتها في المسرحين المذكورين آنفا .

(١) أميرة القسار داس

تلحن شخصيتها وترك القصر غاضبة على الأمير .
وفي الفصل الثالث يتضح للأمير الأب أن امرأته ليست إلا راقصة كانت تعمل في المراقص قبل أن يتزوج منها . فأمام هذه الحقيقة يضطر أن يأذن لابنه في الزواج من سيلفيا . وقد جاء إخراج الرواية مرضيا ، فالمنظر جميلة أنيقة ، والرقص لا يخلو من رشاقة وجمال ، وخاصة استعراضات الاختين شاسيني في الفصل الثاني . كما أن أداء الممثلين لأدوارهم لم يكن سيئا . قامت سوزي ريفي بدور ستازي فبدت فتاة بلهاء . ومثل ليون فيرلي دور الأمير العاشق وقد أحسن في الأداء فقط لا في الغناء . أما نادية دوتن ، فقامت بدور سيلفيا فارسكو الراقصة ، ولعل الجمهور لم يصفق إلا بحاملة لها ، وخاصة بعد أن فاجأته بأغنية تم بقصيدة من بول جيرالدي لا صلة لها بالمسرحية مطلقا .

ولست تلك الأميرة إلا الراقصة سيلفيا فارسكو التي يريد الأمير إدوين أن يتزوج بها . ولكن أسرته وهي من الأسر العريقة الأصل تمنع في أمر هذا الزواج وتعمل على انفصال الشابين ، وعلى زواج الأمير بابنة عمه ستازي . ولكن حب الأمير سيلفيا يحمله على التمسك لها بالزواج منها متى وجد إلى ذلك سبيلا . وما يكاد الأمير يفارق سيلفيا حتى تعلم بأمر خطبته لستازي فتهرب مع صديقها نيكو .

وفي الفصل الثاني نجد الأمير في أسرته تلاحقه ستازي بحبها وهو ينفر منها ويتعد عنها . ويدخل فجأة نيكو وسيلفيا التي يعتقد الجميع أنها من النبلاء . غير أن الأمير يتعرف بها ويتودد إليها ويطلب إليها أن تتزوج منه ما دامت أسرته تعتقد أنها نبيلة . ولكن هذا العرض يقع وقعا سيئا من نفس سيلفيا التي

مامزيل نيتوشه^(١) تأليف هـ . ميلهاك و ا . ميلو

تقوم بالدور الخالي ، فتقبل أمام رجاء الجميع وتنجح في أدائها ، حتى إن أحد الضباط يقع في شرك حبها ويولع بها ولما لا مثيل له . وهذا الضابط نفسه كان يريد خطبة دينز تلميذة الدير ، فيقلم عن هذه الخطبة وهو لا يعلم أن تلك التلميذة التي كان يريد الزواج منها هي الممثلة نفسها التي يكلف بها كلفا شديدا .

وتقضى دينز تلك الليلة مع عشيقها الجديد وجمع من أصدقائه وتعود في الصباح المبكر إلى الدير . وهنا يحضر الضابط العشيق إلى الدير ليعلم خطيبته التي لم يرها قط أنه ألقع عن الزواج منها لأنه يبادل الممثلة حبا بحب . غير أن الحوادث تتيح له أن يتحقق من أن ممثلة البارحة ما هي إلا خطيبته الأولى ، وهكذا تنتهي المسرحية بزواجها .

وأحسن في أداء دور سلسطان مسيوليون فيرلي وقد أثبت لنا أنه يتقن فن الكوميديا . فقد أخرج لنا شخصية سلسطان إخراجا هزليا طريفا أعجب به النظارة أيما إعجاب . ولكن لم تشاركه في نجاحه نادية دوتني التي كانت تقوم بدور دينز . فهي لم تفرق في تمثيلها بين تلميذة الدير الخبيثة التي تدعى الطهر وبين الفتاة المستهتره اللعوب التي تصبحها حين تترك الدير وتذهب إلى المسرح . غير أن غناءها قد أنساها خطأها في الأداء .

اختتمت الفرقة حفلاتها بمهابة « مامزيل نيتوش » من تأليف هـ . ميلهاك و ا . ميلو ومامزيل نيتوش هي دينز فلاقيني التلميذة في أحد أديار فرنسا تتلقن فن الموسيقى على يد الميسو سلسطان لاعب الأرغن . ولكن للميسو سلسطان اسم آخر هو فلوري دور وقع به على أوبريت من وضعه وتسمى به في الأوساط المسرحية . ولا يعلم أحد من شأن صلة سلسطان الوقور بالأوساط المسرحية سوى تلميذته تلك . وقد انكبت على دراسة أدوار المسرحية وألحانها حتى أتقنتها تماما . وفي ليلة أول عرض لتلك المسرحية تطلب رئيسة الدير إلى سلسطان أن يعود بدنيز إلى منزل أسرته في باريس . ولكن سلسطان يريد أن يشهد تمثيل المسرحية ، فتترك دينز في أحد الفنادق تنتظره حتى يعود من المسرح .

وتجري حوادث الفصل الثاني في المسرح حيث تلحق دينز بسلسطان . وقد وصلت في الوقت المناسب ، لأن الممثلة الأولى تشاجرت مع سلسطان حينما علمت أنه جاء إلى المدينة مع فتاة جميلة وغادرت المسرح بعد الفصل الأول . ويقع المدير في حيرة شديدة ، فالجمهور يطلب استئناف التمثيل ، ولا يوجد للممثلة الأولى بديل . ولكن ها هي ذي دينز تتقن الغناء وقد أحاطت بها جمع من شباب ضباط المدينة يستمعون إلى أغانيها ، فيطلب إليها أن

وما كادت تنتهي فرقة الأوبريت من موسمها التمثيلي في القاهرة حتى استأنفت التمثيل فرقة فرنسية أخرى تعظم عرض خمس مسرحيات مريحة .

نهرية المسرح

جورج ومرجريت لمارك جيلبير سواقجون وچان وول . مقتبسة عن مسرحية
الجيرالد سافورى . (١)

على الخادم اللعنات . ويحدث أن يهيئ لها ابنها
مقابلة مع عشيقته تخرج منها راضية كل الرضا
على الزواج .

وقد تكون المسرحية صورة صادقة من
حياة أسرة انجليزية ، إلا أنها تصلح أيضا
أن تكون صورة مطابقة لحياة أسرة مصرية
أو فرنسية . فالأسرة البرجوازية عامة تتصف
بعقلية خاصة ونحيا حياة خاصة . وهذه العقلية
وهذه الحياة لا يختلفان في مظهرهما العام مهما
اختلفت البيئة أو البلد التي تعيش فيها تلك الأسرة .
فكل منا كان يرى على المسرح حادثا أو
حوادث تجري كل يوم في منزله وبين أفراد
أسرته ، بما يثبت أن الكاتب قد صدق في
تصويره ولم يغال رغم الأسلوب التهكمي الذي
اصطنعه في كتابة المسرحية .

ولم تكن القصة جيدة فحسب بل جاء أداء
الممثلين لشخصيات للمسرحية جيدا أيضا .
حق إن المشاهد نسي أنه يشاهد تمثيلية تجري
حوادثها على مسرح وفي حجرة جدارها
من الورق المقوى ، وشعر أنه يشاهد خلصة
حياة واقعية لأسرة برجوازية . لقد نجح
الممثلون في خلق الجو الذي نحيا فيه هذه
الأسرة بأدائهم للتفنن . فدام كريستيان
دليل في دور الوالدة ، ومسيو جاستوت
رولييه في دور الوالد ، قد أثبتا أنها في فن
الكوميديا بارعان . أما المسيو جي لوريكيه
فأرى أنه جدير بإشارة خاصة لتمثيله ؛ فقد ملا
المسرحية حياة ومرحا بأدائه الطبيعي وتعبيراته
التي تبعد كل البعد عن التصنع والمبالاة .

ومسرحية « جورج ومرجريت » تعرض
علينا حياة أسرة انجليزية نمحيا حياة هادئة
متصلة الهدوء لا يعكر صفوها أى حادث
غريب ، فالأيام تتلاحق متشابهة . الأب غارق
في مطالعة الجرائد وحل مسائل الكلمات
المتقاطعة ، لا يبالى بما يجري في منزله من
حوادث ألفها واعتاد حدوثها . والام لا هم
لها إلا إعداد الطعام والاستعداد لاستقبال
الأصدقاء ومضايقة أبنائها أو بناتها بملاحظات
صائبة حيناً وخاطئة أحيانا . أما أبنائها
ثلاثة : فتان وفتاة . أولهم شاب وقور
رغم حداثة سنه . والثاني يميل إلى التهمك المرح
وعديم المبالاة بالقوانين العائلية التي تحاول
الأم أن تطبقها في غير طائل على أفراد الأسرة .
والثالث فتاة تنعم بالحياة ما استطاعت إلى التمتع
سبيلا . ويدوم هذا الهدوء العائلي حتى يعلن
الابن الأكبر أنه يرغب في الزواج من
الخادم ، والفتاة حبها لصديق من أصدقاء أخيها
الصغير . يزول هذا الهدوء وتصبح حياة الأم
جحما ، فزواج ابنها بالخادمة يسئها أولا لأنه
يحرّمها خادمتها الشريرة ، ويسئها أيضا لأنها
غور يابنها رغم بلاهته ، وتريد أن تزوجه
فتاة من طبقته . أما الأب فلا يعكر هذان
الحادثان صفاء حياته لأن حل مسائل الكلمات
المتقاطعة يشغل كل وقته ، ولا يترك له فرصة
لحل مشكلات أسرته . ولكنه أخيرا يرضى
أن يهتم بشئون ابنته حتى تصل إلى صرامها
وهو الزواج من الشاب التي تحبه . أما الأم
فتنصر على عدم الموافقة على زواج ابنها وتصب

Marc Gilbert Sauvajon et Jean Wool, George et Margaret, (١)
d'après la pièce de Gerald Savory.

القطار إلى البندقية للويس فيرنوى (١)

وينساها يضمان خطتهما يحضر أنسلو مرة أخرى وقد أعياه القلق على زوجته . قهرّب الزوجة من منزل عشيقها وتعود إلى منزل زوجها ، وتتحدث إليه بالتليفون لتطمئنه على مصيرها . ولكن أنسلو لا يترك العشيق الصغير إلا بعد أن يقنعه بالسفر معه في اليوم التالي إلى باريس ليعرض التماثيل التي منحها . وتجري حوادث الفصل الثالث في باريس حيث يقوم إيتين بنحت تماثيل نصفي لأنسلو . لقد مضى عليهما خمسة عشر يوما في هذا العمل لم يكتب أحدهما إلى كارولين . وتدخل فجأة الزوجة وقد أغضبها غياب عشيقها وزوجها . وما تكاد تعلم أنهما يلتقيان كل يوم ويمضيان وقتها معا حتى تفار من عشيقها وتوجه اللوم إلى أنسلو الذي أهملها كل الإهمال والزواج صامت لا يدافع عن نفسه حتى غادر إيتين المنزل . ثم يعرض على زوجته أن تسافر معه ومع إيتين إلى البندقية . ولكن الزوجة ترفض السفر وفي صحبتها هذا الشاب الذي يحول بينها وبين زوجها . وهنا يروح أنسلو بحيلته ، وهي أنه لم يهتم بإيتين إلا ليحمل زوجته على أن تبغض هذا الشاب . ثم يعرض عليها السفر إلى البندقية فتقبل من طيب خاطر . ولم يحسن في أداء دوره إلا مدام كريستيان ديلين التي مثلت شخصية كارولين . والمسيو جاستون روليه الذي أخرج شخصية الأب في أسلوب هزلي رفيع . والمسيو جي لوريكيه وقد قام بدور العشيق . أما المسيو جاك فرومان وكان يمثل دور أنسلو فقد أبدى جوداً في تمثيله أفقده السيل إلى النجاح .

« القطار إلى البندقية » هذا عنوان المسرحية الثانية التي قدمتها الفرقة . وهي إن لم تكن تضارع الأولى إتقاناً في الحوار فهي ملهامة مسلية متقنة الحبكة . تجرى حوادث الفصلين الأولين في نيس حيث يقيم المسيو دماردون مع ابنته مدام كارولين أنسلو . أما زوجها فاتها لم تره منذ أكثر من شهرين ، فهو ناشر من كبار رجال النشر في باريس ، تضطره أعماله إلى أن يمكث في العاصمة بعيداً عن زوجته . ولكن هناك إيتين دي بواروير وهو شاب صغير السن مولع بالزوجة ، وهي تبادل هذه العاطفة وتريد الزواج منه ومنادرة أنسلو زوجها الأول . ويصل الزوج فجأة من باريس . وعبثاً يحاول أن تقاتمه في أمر غرامها ، إذ كانت الظروف لا تساعد على ذلك ، فزوجها عاشق مولع بها يهيئ لها سعادة قادمة تغريها كل الاغراء . ولما لم يجد سبيلاً إلى اطلاع زوجها على حبها تنفق مع إيتين الصغير على الهرب إلى البندقية في قطار الليل . نحن في الفصل الثاني في منزل إيتين عشيق مدام أنسلو . كل شيء معد للسفر الذي يأزف موعده . وفجأة نرى أنسلو يدخل الحجرة ويمكث مع إيتين يتحادثان عن ذكريات طفولتهما ، ثم ينتقلان بالحديث عن فن النحت الذي يتقنه العاشق الصغير . ولا ينصرف أنسلو إلا بعد موعد القطار . وتأتي مدام أنسلو غاضبة أشد الغضب لغدر عشيقها فتجده يائساً أشد اليأس . ولكن سرعان ما يصبح هذا الغضب رضا وهذا اليأس سرورا ، فقد اتفق الاثنان على أن يعيدا الكرة في الصباح

سعادة خمس وعشرين سنة لمدام جرمين لوفران (١)

المبادئ الأخلاقية والاجتماعية القوية . ولكن ليس أمام الزوج إلا أن ينقل سعادة دامت خمس وعشرين سنة بالصمت .

إن القصة في نفسها لا تدعو إلى الضحك أو إلى الهزل ، ولكن المؤلف عالجا بأسلوب ساخر ، وقد نجح في إبراز الناحية الهزلية من تلك الصورة المؤلمة لأسرة ريفية متحفظة غير أنه لم يكن دقيقا في تصويره بل كان مغاليا أحيانا في هذا التصوير .

وقد عهدت الفرقة في هذه التمثيلية إلى ممثلين جدد لم نرهم قبل الآن إلا في أدوار تافهة في المسرحيات السابقة ، وقد أثبت هؤلاء أنهم بالفن المسرحي ملمون ، فقد أدهشنا مدام فايين دارلاي بدقتها في التعبير في دور الوالدة ، كما أثبت لنا الميسو جوزيف لينار الذي مثل دور الموتى أنه ممثل هزلي قدير . ولا داعي إلى الكلام عن ميسو جاستون روليه والميسو جي لوريكيه ومام كريستيان ديلين فالجمهور يعرف تماما قيمتهم الفنية في النلهمة وإتقانهم للأدوار التي تعهد إليهم . وقامت مدام ماريا ريجيس بدور الفتاة العاشقة ، فياليتها ما عشقت إذ ليس لها بالحب دراية ولا بالحزن أو بالسعادة إدراك .

وهذه مسرحية أيضا تصور حياة الأسرة البرجوازية في فرنسا بتهمك وسخرية لا يخلوان من القسوة . فهذه والدة لها مبادئ أخلاقية شديدة لا تقبل أن يجيد عنها ابنها . فهي بمظهرها الحشن تنفر من حولها وتوحي بالاستقامة . وهذا والد كانت له مناصرة مع إحدى الغانيات قبل زواجه فأنجب منها طفلة خصص لها إيرادا لمدى حياتها ، واعتقد أنه بذلك تجنب عاقبة نزوته . ولكنه لم يكن ليعتقد في يوم أن ابنه سيقع في عشق الفتاة التي أنجبها من تلك الغانية ، فها هي ذى حياته تزداد تعيدا وسعاده يهددها هذا الغرام بالانهار . ولا بد من مخرج لهذا المأزق وخاصة أن الوالدة تحب زواج ابنها بعشوق بعد أن عارضت بشدة في أسر هذا الزواج . وفجأة تتطور الحوادث في صالح الشابين المتحايين ، فان الوالد يشك في أن تلك الفتاة ابنته . فيذهب للقاء أمها ويسألها عن والد الفتاة فتجيبه بما يزيل شكه في أنه ذلك الوالد ثم تردف قائلة ولكن ابنك ليس هو ابنك . لقد خانتته امرأته وها هي ذى خطابات منها لعشيقها تثبت ما تقول تلك الغانية . لقد خانت زوجها تلك المرأة البرجوازية المتحفظة ذات

مشرى لامل

شهرية السينما

مغامرة سراتوجا (إخوان وارنر) (١)

وهو فيلم ، كما يدل اسمه على ذلك ، مليء بالحركة والمغامرات . تجري حوادثه في عهد إنشاء السكك الحديدية في أمريكا . وقد قيل عنه إنه إنتاج ضخم اختارته شركة وارنر للاحتفال بمرور عشرين سنة على تأسيسها . وقد يكون هذا الفيلم ضخماً بالقياس إلى طوله والمدة اللازمة لعرضه ؛ وقد يكون ضخماً أيضاً بالقياس إلى تمثيله . أما بالقياس إلى قيمته من حيث القصة والاخراج فيمكن أن يعد إنتاجاً عادياً لم يرتفع إلى ذروة الفن ؛ فليس في قصته شيء من الطرافة أو الابتكار لأنها كثيراً ما تذكرنا بقصة « ذهب مع الريح » فتنة شبه كبير بين المغامرتين كليو دولين وسكارلت أوهارا : فكلتاهما تبحث عن زوج ثرى وتسلك الطريق نفسها للعثور على هذا الزوج المنشود . غير أن الثانية منهما كانت ترمى إلى شيء سام من وراء هذا الزوج وهو شراء الأرض الزراعية التي امتلكتها أسرتهما فقدتها من جراء الحرب الأهلية . أما الأولى فكانت ترمى إلى الانتقام من الرجال ؛ لأن أباهما عذب أمها ولم يطب العيش لها معه . فاختلاف الدوافع عند البطلتين في القصتين لم يغير شيئاً من هاتين القصتين ولا من حوادثهما إلا قليلاً .

فكليو دولين أو مغامرة سراتوجا فتاة ولدت من أم مولدة وأب أبيض . قضت طفولتها في باريس ولم تعد إلى أمريكا إلا

لتنتم لأمها التي لم تستطع أن تزوج من أبيها ، على حين غدر هذا الأب بمحبوبته وتزوج من امرأة أخرى ، وترك لها ولطفاتها ثروة طائلة . وتنجح كليو أولاً في حل أسرة أبيها على بناء مقبرة لأمها ووضع اسم دولين إلى جانب اسمها ، ولكنها تقبل مبلغاً من المال لتترك البلد وتتكف عن مضايقة تلك الأسرة . وتتزوج كليو عن نيو أورليانس إلى سراتوجا لتلحق بعشيقها كلنت مارون الذي يعرف تماماً أن عشيقته تبحث عن زوج ثرى . فيدفعها ، في أحضان بارت فون ستيد ، وهو شاب موفور الثروة يملك أسهماً في شركة للسكك الحديدية . يولع بارت بكليو التي تلقب نفسها في هذا البلد الغريب بالكوتس ، ولكن هذا اللقب لا يفر بارت فهو يعلم تاريخ حياة كليو ويريد الزواج منها . غير أن الحظ يخونه : فكليو تشغف بكلنت مع فقره ، ولا تميل إلى بارت إلا لثروته ، وثروته مهددة لأن هناك قوماً يهاجرون سكته الحديدية لينزلوا من قيمة أسهمها . ويتدخل كلنت في الأمر لأنه يملك بعض هذه الأسهم ، فيهاجم أعداء بارت وينقذ سكته الحديدية . ولكنه يعود من المعركة مصاباً بإصابات ليست بخطيرة . وهنا ترى كليو أنه لن يطيب لها العيش إلا مع عشيقها القديم كلنت مارون . فكان الحب قد قلب على مطامع هذه المغامرة فجعلها تزدرى المال وتستسلم له نهائياً .

سهرية السينما

من نبيلات فرنسا . ومن مميزات انجريد برجان في تمثيلها التجاؤها إلى الاعتدال في التعبير حتى في المواقف المثيرة ، مما يدل على أنها ذات مواهب عالية رفيعة .

أما جاري كوبر فقد وجد في دور كلنت الشخصية التي اعتاد أن يمثلها في أول عهده بالتمثيل ، وهي شخصية المغامر المستهتر وقد أتقنها بلا شك ونجح في إظهار مميزاتهما : فنظراته تدل على الحبث والدهاء ، وحركاته على الحسة .

ومجمل الكلام عن فيلم «مغامرة سراتوجا» أنه إنتاج ناجح إخراجاً وتمثيلاً ، ولو أن قصته عادية ينقصها الابتكار والطرافة .

كان تمثيل انجريد برجان لدور كليو دولين المغامرة تمثيلاً رائعاً جديراً بالتقدير . وإن لم يكن من الأدوار التي تلائمها فقد جاء أداؤها لهذا الدور متنوعاً مختلفاً . فلم تقوم به على وتيرة واحدة . وبهذا دلت على تفهم عميق للشخصية المزدوجة التي كانت تمثلها : فهي أولاً مغامرة ، فكانت لمعوباً ترسل ضحكة لها رنين يجذب الرجال ، تمشي فتهاذي في مشيتها حتى تسترعى الأنظار . وهي ثانياً أمام بارت تمثل دور الكونتيس الفرنسية المتأنقة ذات المادامات النبيلة ، فحديثها وضحكاتها وحركاتها ومشيتها تختلف عما كان لها من قبل حتى إنها تصل إلى اقناع من حولها بأنها

مشرى كامل

من كتب الشرق والغرب

هز القحوف

الجريد . فالتس منى من لا تسعنى شئ "النته" ، ولا يمكننى إلا طاعته ، أن أضع عليه شرحاً يحل ألفاظه السخيمة ، ويبين معانيه الذميمة ، وأن أتخفه بشرح لغات الأرياف ، وذكر فقهاء الجبال وقرائهم الأجلاف . فياله من شرح لو وضع على الجبل لتدكدك . ولو نقش على عمود الصواري لتحرك . وهو شرح عديم النظر في الكثافة ، لكونه في معنى أوصاف الريافة ؛ وليس له شبيه في الثقاله ، لكونه في وصف ذوى الرذالة . واعلم أن كل شرح لا بد له من اسم يناسبه ، وعلم عليه يقاربه ، وقد سميت هذا الشرح « هز القحوف بشرح قصيد أبي شادوف » . وأطلب من القريحة الفاسدة ، والفكرة الكاسدة ، الاطاعة على كلام أعرفه من بنات الأفكار يحاكي كلام ابن سودون ؛ فقد يلتذ السامع بكلام فيه الضحك والخلاعة ، ولا يميل إلى قول فيه البلاغة والبراعة ؛ لأن النفوس الآن متشوقة إلى شئ يسليها من الهموم ، ويزيل عنها وارد الغموم .

وأكبر الظن أن هذه الهموم والغموم التي يشير إليها الشرييني ، إنما هي ما كان يصبه العثمانيون وأحلافهم من المماليك على رؤوس المصريين من أسواط العذاب . ودائماً نجد مصر حينما يحتم على أنقاسها كابوس دولة فاشية تنفس عن همها وغمها بالفكاهة الساخرة على نمط ما صنع ابن ممتي بقراوش في كتابه « القاشوش » وعلى نمط ما يصنع الآن برسف الشرييني . وهو لا يتخذ من شخصية بعض

هذا كتاب طريف ألف في العصر العثماني لغرض التقليل والتندير على أهل ريف مصر وبينات ما هم عليه من فقر وبؤس وجهل ، ألّفه شخص يسمى يوسف الشرييني ، وكان على ما يظهر من كتابه — طالما واعظاً ، وقد نظر من حوله ، فرأى السواد الذي كان يغطي أودية مصر في العصر العثماني ، ورأى معه تناسة أهل الريف ، فنظم قصيدة سماها قصيدة أبي شادوف يصور فيها الشقاء المحيط بهم . والشادوف آلة معروفة في مصر يستعمل بها الزرع ، وقد يسمى أهل الريف شخصاً باسم أبي شادوف لغرض الضحك عليه والسخرية منه . ومن ثم سمي يوسف الشرييني قصيدته باسم قصيدة أبي شادوف . وهي قصيدة من بحر الطويل ، ولكن لا تظن أنها ألّفت باللغة العربية فهي تامة خالصة ، وقد وصف فيها حياة رجل الريف في عصره بجميع صورها وألوانها ، من أكله ، إلى عمله في حقله ، إلى صلته بالحكومة في عهده ، وهو يسوق ذلك في فنون طريفة من الهزل والسخرية والفكاهة . ولم يكتب يوسف الشرييني في وصف حال رجل الريف بهذه القصيدة ، بل ذهب يشرحها على طريقة معاصريه في شرح القصائد الجدية ، وهو شرح طويل اختار له هذا الاسم الغريب « هز القحوف » . وهو يتقدم هذا الشرح بقوله : « إن مما سر على من نظم شعر الأرياف ، للوصوف بكثافة اللفظ بلا خلاف ، قصيد أبي شادوف ، فوجدته قصيداً ياله من قصيد ، كأنه عمل من حديد ، أو رص من قحوف

من كتب الشرق والغرب

فيها فانه اتسع في وصف النواحي الاجتماعية للناس في عصره . وكتابه من اجل ذلك يعتبر وثيقة هامة في تاريخ هذا العهد وتاريخ مصر فيه . وقد قسم الشرييني شرحه «هز القحوف» إلى جزأين كبيرين : جزء خصصه بالتندر على أهل الريف وتصوير ما هم فيه من جهل وفقر ، وجزء خصصه لشرح قصيدة أبي شادوف وبيان ما خفي من ألقاها وغمض من معانيها . وإذا رجعنا نستعرض الجزء الأول وجدناه يقول في مفتتحه إن أهل الريف « ليس لهم انضباط ، وأحوالهم شياطين وعياط ، ووزدهم عند الأسفار ، التفكير في الغم والابقار ، وتسييحهم في الظلام ، هات النبوت والحزام ، وحط العلف ، وهات الكلف ، قال الشاعر :

إن اللذة في القرى ميراث
علق لشورك جاءك المحراث

يصف عرسا من أعراسهم ليتندر على أفعالهم ، وليضع تحت عين القارئ جانبا من معيشتهم ، وقد نظرف فروى عن بعض شعرائهم :

إنجلي ولا تبالي
زاعقة وسط الليالي
وجه ضبعه في الرمال

بكم اشتريتها ، فقال له : بداهية كبيرة ، فقال له : تلفك وتلف (وليداتك) في الشتاء . « ومن ذلك أن رجلا منهم اشتكى شخصا إلى القاضي قائلاً إنه نزل حقله بدون إذنه وأخذ منه برسيا لدايته . فأحضر القاضي المدعى عليه وسأله فاعترف إلا أنه اتهم المدعى بأنه ضربه ضربا مبرحا . فسأل القاضي المدعى كيف تضربه ، فرد عليه قائلاً : « أتايتك يا قاضي

الحكام العثمانيين أو للممالك ما يريد من هزل وسخرية ، فقد كان الحكم العثماني قاسيا ، وكان الناس لا يستطيعون أن يعرضوا فيه لحاكم بالتشهير فضلا عن الفكاهة والتنديز . ومن أجل ذلك ارتد الشرييني إلى الشعب يصور ما هو عليه من فقر وجهل ، في أسلوب لاذع من السخرية والتهكم ، وقد صور أثناء ذلك ظلم الكشاف وللمتزمين ومن يجمعون الأموال والضرائب ، كما صور نظام السخرة أو ما كانوا يسمونه « العونة » وكيف كانت يسخر للمتزمون أهل الريف في « الوسايا » بدون أجر ولا ما يشبه الأجر . ولو أن الشرييني أقاض في تصوير هذه الجوانب لكان كتابه طريقة تاريخية حقا ، ومع ذلك فقد ألم بها إلماها وألمع إليها إلماها ، وإن كان لم يتسع

لا تسكن الأرياف إن رمت العسلا
نسيحهم هات العلف ، حط الكلف

الحق عندهم مضاع ، والباطل عندهم مذاق ويترك الشرييني ذلك إلى بيان أسماء أهل الريف وكناهم وألقابهم حتى يدل على قبح فروعهم ، وهو يطيل في ذلك إطالة كبيرة . ثم

يا عروسه يا أم غالى
إنجلي يا وجه بومه
وجهك بالنقش يشبه

ويقتل الشرييني بعد ذلك إلى بيان ما كان عليه أهل الريف من غفلة وبله وفقر . فن ذلك أن شخصا منهم رأى في مصر سمك (البساريا) فظنه الكنافة التي يتحدث الناس عنها . ويرمهم الشرييني دائما بقلة الذوق ، فن ذلك أن شخصا منهم لقي صديقا له وقد اشترى بردة من الصوف ، فقال له : « دى ردتك ، فقال له : عبدك وجاريتك ، فقال له :

تور ، وأنت إذا نزلت غيطي ، يا هل ترى
أضربك ، أكسر قربك ، ولا أخليك تطلع
سالم ! » . ويقص الشريفي بعد ذلك نوادر
تدل على الجهل الذي كان سائداً حينذاك ؟
فمن ذلك أن رجلاً منهم سأل آخر : « إيش هجاك
بريق ؟ فقال له : به ، ره ، به ، قاف ، واو ،
فقال له : إيش عرفك أن فيها واو ؟ فقال له :
دلتني عليها النقطة التي فوق الواو ! فقال له :
إن عشت بقي فصيح لا خوالك . » وصلى رجل
منهم ، فلما قرأ الفاتحة وباع قوله تعالى :
« إهدنا الصراط المستقيم » أبدل النون ميماً ،
وقال : إهدموا الصراط للمستقيم . ومن
الطرف التي يقصها الشريفي في هذا الباب أن
امرأة شكت ابنها للمعلم الذي يعلمه وقالت إنه
يؤذني أثناء الصلاة . فلما سأله لماذا تفعل
ذلك ؟ قال : لأن صلاتها « لا فيش ولا عيش »
سأله كيف تصلي . فطلب منها للمعلم أن تقرأ
الفاتحة ، فقالت توأ : « بسم الله الرحمن
الرحيم . الحمد لله رب العالمين . إذا جاك الحاج
نصر الدين افتح له الباب ولو كان طواب »
فقال لها للمعلم : قاتلك الله ما هذا قرآن ماعدا
البسملة والحمدلة وزجرها وطردها . ويترك
الشريفي عوام أهل الريف إلى قهقهاتهم ،
فيقبع في التندير على جهلهم اتساعاً شديداً .
فمن ذلك أن شخصاً سأل أحدهم عن تفسير قوله
تعالى : « يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي »
ما معنى أقلعي فقال هذا الجاهل : أي سيري
مثل المراكب المقامة . ومن ذلك أن قهقهة منهم
ذهب إلى أحد العلماء في مصر وطلب منه أن
يقرأ عليه أجرومية النحو على مذهب
الشافعي ، وهو مذهب معروف في الفقه
الاسلامي . وسعى رجل من الأعيان عند
قاضي اقتضاة عصر كي يعين قهقهة منهم ببعض
الحاكم ، فلما حضر عنده سأله هل تحفظ القرآن
قال : نعم ، أيد الله مولانا القاضي ، وعندي
مصحف . ثم يحفظ المؤلف . فتحقق القاضي

جهله وطرده . ويروي الشريفي أن قهقهة
منهم دخل على الشيخ الحميدي شيخ القرائين
في عصره فقال له : هل عندك مختصر القرآن ؟
فقال له : اجلس . ثم تصادف أن شخصاً دخل
عنده وطلب منه مختصر مسلم المعروف في
الحديث ، فلما قال له أريد مختصر مسلم هل هو
عندك ؟ قال له : نعم خذ هذا ، وأشار إلى قهقهة
الريف . ولما سئل لماذا يريد هذا المختصر قال
لأن الأولاد يحفظونه بسرعة عن القرآن فهو
طويل ، وحينئذ ضحك عليه الحاضرون .
ويعرض الشريفي بعد ذلك طرفاً من خطبهم
يوم الجمعة عرضاً لا يلم به القارئ حتى يفرق
في الضحك . واستمع إلى هذه الخطبة :
« اعلّموا يا أهل بلدنا أن عندكم قح كثير
وتبن وشعير ، وأنتم في خير من رب العالمين
فأنتم تقيقوا لزراع الوسمية ، وإلا صبحكم
الكاشف بداهية وبليّة ، وغداً تسرحوا
للعونة والسخر ، وفيقوا للغنم والبقر ،
واختوا أياركم ، وفيقوا لدوركم وجداركم ،
واكرموا الخطار ، بالعدس والبيسار ،
تنجوا من عذاب النار . على إيش يا حباب
تهجرونا بلا سبب ، الله ، الله ، قولوا لا إله
إلا الله ، من وحد الله ما خيه الله ، آمين ،
والحمد لله رب العالمين » .

والخطبة طامية خالصة ، وفيها ما يدل على
بؤس القوم وأن طعامهم « العدس والبيسار »
كما أن فيها ما يدل على بطش الكاشف ، وما
عرف به هذا العصر من « العونة » أو السخرة .
ونحن لا نصل إلى قوله : على إيش يا حباب ،
حتى نقرر إلى الضحك على هذا الخلط في
خطبة يوم الجمعة التي أريد بها إلى الوعظ الديني
فاذا هي تخرج إلى هذا الهزل . ولعل أطرف
ما رواه الشريفي في هذا الصدد أن طالباً دخل
إحدى قرى الريف ، فتوجه إلى المسجد ليصلي
صلاة الجمعة ، وهناك رأى أهل القرية جميعاً
داخلين في المسجد « وكل واحد منهم معه

من كتب الشرق والغرب

قفة من خوص وفيها مغرفة وخشبة وسكين من حديد وفأر ميت معاق في عنقه « فتعجب من فعلهم ومكث ينظر ، وإذا خطيبهم جاء في نفس صورتهم ، فتقدم منه وسأله عن هذه الحال ، فقال له : أنا الذي أمرت بها . فقال له : هذا الأمر باطل والصلاة باطلة ، وما الذي دفعتك إلى ذلك ؟ قال : حديث قرأته في كتاب عندي يسمى كتاب التيه ، ولفظه : حدثني يحيى بن يحيى عن شعبان الثوري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا تصح جمعة أحدكم إلا بقفة ومغرفة وخشبة وسكينة وفار . فطلب منه الكتاب وإذا هو كتاب التنييه صفحه بالتيه ، وإذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لا تصح جمعة أحدكم إلا بقفة ، فسحفتها بقفة ، وسكينة صحفها بسكينة ، وخشبة صحفها بخشبة ، ومغرفة صحفها بمغرفة ، ووفار صحفها بفار . وأما سند الحديث فهو حديث يحيى بن يحيى عن سفيان الثوري وقد صفحه على النهج السابق مما يدل على جهله وسوء فهمه . والعمل القاري قد لاحظ أن أساس هذه الفكاهات هو المفارقة في المنطق ، فإن الحقائق تنقلب صورها أمامنا ، وتبدو في أشكال معكوسة . وقد كان ابن سودون على ما مر بنا في عديد سابقين يقيم فكاهته على هذا الأصل . ويظهر أن الشرييني كان يتأثر به في هذا الجانب تأثرا واسعا ، وقد ذكره في مقدمة شرحه ، وأشاد به غير مرة في كلامه ، وقد رآه يكتب خطابا على لسان أحد أبناء الصعيد إلى أبويه في القاهرة ، وقد أخرجه في صورة مضحكة ، فقتله عنه ، وأضاف إليه مكتوبا أرسله بعض فقهاء الريف سنة سبع وأربعين وألف كما يقول وهو يجري على هذا النمط : « السلام من النبي أبو علي إلى اسمه محمد ، على حضرة صاحبنا الذي يطالع في القرآن ذي ما يطلع الزرع في النيطان ، ويتكلم بالفهامة ، ويأمله علينا شهامة ، التي يبيع الكتب

المنظومة من الكلام ذي قصة الجارية تودد ، والورد في الأكام ، حاوى الكتابة في السطور ومن يعرف كتاب الفخ والمصفور . وأنا في شوق واشتياق لا يحمله جل ولا ناقة ولا حمار ولا حمارين ولا بطل ولا بطلين ولا زرافة . وأنا كنت أريد أحبك وحياة راسك ما عوتني إلا سر موجى مقطعة . وأنا أقول لك : شوف لي كتاب أكنت شفته من زمان ، وسمعت به ، آه عليه ، ويأما قالوا لي عليه الناس ، وهو قصة مدينة النحاس ، وما جرى فيها من العجايب والغرائب : وأنا أمبارح كنت رايح أشيع لك كلام افكرته وطود نسيته ، الله يسامحك ويسامحنى ، الله ، الله ، لا ظالب إلا الله ، والسلام عليكم وعلى من كانوا جيرانك على اليمين والشمال . وكتب هذا الكتاب أبو علي واسمه محمد وكتب عنوانه : توصل دى الورقة مع أبو عمارة اللي يبيع في بلدنا الفول الأخضر والملش والزيت الحار يوصلها لبولاق وواحد يبقى يوصلها لسوق الكتب اللي يقولوا فيه حراج حراج . »

وفي هذا الكتاب غفلة وتباله واضح ، وفيه أيضا هذا الجهل الذي يجعلنا نضحك لأنه يخالف ما ألوفنا في العبارة والتفكير والمعرفة . وما يزال الشرييني يعرض علينا صورا مضحكة عن أهل الريف ومازجالها ببعض النوادر القديمة التي قصها الرواة عن أبي نواس أو عن غيره . وإنه ليقف عند شخص ما جن حكم الاسكندرية ، وكان يسمى مرجان الحبشى ، وقد نسج نظما طارش همزية الابوصيرى ، وزاد تخسسه ، كما نسج نظما آخر طارش به همزية لابن الفارض ، وكلا النظمين في غاية الركاكة ، ولكنهما بنيا على الهزل والحلاعة . ويقص الشرييني بعد ذلك عن عالم يسمى الشيخ محمد السلسلي أن طبعه كان يميل للأنات حتى إنه كان لا يأكل إلا من الزبدية ، ولا يشرب إلا من القلة ، ولا يركب من الدواب

إلا الآنثى ، ولا يقبل الذكر قط . ويستمر الشربيني على هذا المنوال يقص عن عصره ، حتى إذا وصل إلى آخر هذا الجزء الأول من كتابه نظم أرجوزة طويلة تتضمن أحوال أهل الريف وأوصافهم .

ويخرج الشربيني من هذا الجزء الذي اعتبره كالمقدمة لقصيدته إلى الجزء الثاني الذي عنى فيه بشرح القصيدة نفسها . ونراه يقف أولا عند نسب الناظم وهو أبو شادوف فيذكر الآراء المختلفة التي قيلت في هذا النسب على نحو ما يصنع شراح القصائد الجديدة ، ثم يتحدث عن قرينته واختلاف الرواة في اسمها ، ويستدل لكل رأى بشعر يؤيده ، وأخيرا يوفق بين هذه الآراء المتضاربة ، ثم يتركها إلى الحديث عن أسرته وخاصة أباه الذي كان يملك — كما يقول الشارح — حمارا أخرج وعزتين وحصاة في تور الساقية ونصف بقرة وعشر فرخات وديكا وأربع كيلات نخال من شعير . وما زال يتكلم عن أبي شادوف وعن والده وحياته ووفاته ، حتى إذا تم له كل ما يريد عن التعريف بالشاعر وأسرته انتقل إلى الكلام عن القصيدة نفسها ، وإنه ليقف عند كل بيت من أبياتها فيشرحه شرحا مفصلا ، وهو يعتمد في هذا الشرح على مرجع لقوى دقيق هو — كما يقول مرارا — القاموس الأزرق والناموس الأبلق :

والقصيدة نفسها ليست خفيفة الروح ، وإنما الخفيف الروح حقا شرحه لها ، وما ساقه أثناء هذا الشرح من تقاليد أهل الريف وعاداتهم في مآكلهم ومشاربهم ، وسنتهم في مجتمعاتهم ومجالسهم وكل ما يتصل بهم . وربما كان أطرف ما جاء في هذا الجزء الثاني من كتابة خطبتين صاغهما على نسق خطبتي الجمعة ، وقد بناهما على ذكر المأكولات والدعوة لأصنافها وألوانها للمنازة ، وهو يستهل أولاهما على هذا النمط :

« الحمد لله مستحق الحمد على التحقيق ، الذي وفق بين الفرج والضيق ، وأمر بالحج إلى بيته العتيق ، وجعل السمن البقري للعسل النحل رفيق . أحده حمد من عنده من الجوع دسية ، وأخاته الله بقصة من البسية ، بالفطير الرقيق . فلا منها بطنه ، وأحسن بالله ظنه ، ونام على راحة من الله وتوفيق . وأشكره شكر عبد تقلع عن الحوامض والمش العتيق ، وأشهد أن سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله الناطق بالصدق والموصوف بالحق والتحقيق ، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أهل الكشف والتحقيق وسلم تسليما كثيرا . أيها الناس ! مالي أراكم عن الزردة بالعسل النحل ظافلون ، وعن الأرض للفلل باللحم الضاني تاركون ، وعن البقلاوة في الصواني معرضون ، وعن الأوز السمين والدجاج المحمر لاهون ، فما هذا يا إخواني إلا حال المفلسون ، وأفعال الفقراء المقلون . فجدوا رحمكم الله في تحصيل الدراهم لتغتصموا المأكول النفيسة وللطاعم اللذيذة . . . واغتصموا رحمكم الله تعالى هذه الموعظة ، ودعوا أكل المنلظة ، كالعدس والبيسار ، والمدمس والفول الحار . . . وعليكم بالأطعمة الفاخرة كاللحم الضاني ، فانه سيد طعام الدنيا والآخرة ، وعليكم بالشراب البارد ، ففيه حديث وارد » وما يزال في هذا القول المضحك حتى يختم الخطبة الأولى ويتركها إلى الخطبة الثانية فيقول :

« الحمد لله منزيل الخبز ، ومنزّل الأرض باللبن ، وأشهد أن اللحم الضاني سيد الأطعمة ومصلح للبدن . واعلموا أن القشطة لا تترك ، وأن للهلية أحسن وأبرك ، قهيا ولا لأكلم وشريك ، واعلموا أنكم غدا بين يدي الله موقوفون ، وبأعمالكم محاسبون ، وعلى رب العزة تعرضون ، وسيعلم الذين جاؤوا أي مثقل ينقلبون . اللهم وارض عن الأربعة الأعيان

من كتب الشرق والغرب

ولا تتخابطوا وكونوا عباد الله إخوانا . «
وأظن القارئ يفرق الآن في الضحك ؛ فقد تناول الشريفي هذا الموضوع الجاد الحازم موضوع خطبة الجمعة وما يكون فيها من وعظ وإرشاد ونهى بهذه الطريقة الهزلية . وإن أكثر ما يضحكنا منها أنه استعان في الخطبتين بمصطلحات الخطباء يوم الجمعة ، فاستخدمها ، وقد تعدد ألا يترك صيغة من الصيغ التي تعود الخطباء أن يذكروها في هذه المناسبة دون أن يحشدوها في خطبتيه وخاصة الخطبة الثانية ، إذ يقول فيها مثلا : « وسيعلم الذين جاعوا أي منقلب ينقلبون » : أو يقول : « اللهم وارض عن الأربعة الأعيان » أو يقول : « وارض اللهم عن الستة الباقية من العشرة » أو يقول : « اللهم وأدم النصر والتأييد والثبات » أو يقول : « عباد الله » وما من ريب في أن هذا كله هزل ، ولكنه كان — ولا يزال — هزلا مضحكا لما يبدو فيه من مفارقة للمنطق والمألوف والعادة . والحق أن الشريفي كان نادرة زمانه في التسخير والخلاعة ، والتفليس والفكاهة .

سين والزيتون والخوخ والرمان ، وارض اللهم من الستة الباقية من العشرة ، الأطعمة . للفتخرة ، للماوردية والمهلبية ، والشعرية بالزغاليل المربية ، والأرز للفلل باللحم الضاني المحشي المحمر ، والكنافة المتبلة بالسمن والعسل النحل واللوز والسكر ؛ والقطايف الفارقة في السمن والعسل ، والقرع المحشي باللحم والبصل ، والبقلادة الموصوفة ، وخرقان القممة المعلوفة ، واليخني السمين ، والقرمزية متعنا الله وإياكم بهم أجمعين . اللهم وأدم النصر والتأييد والثبات ، واجمع الشمل بعد الشتات ببقاء السلطان السكر النبات ، ابن القناني ، من أصله من القصب الملواني ، اللهم وأيده بأرماح القصب ، وبسبايط الرطب ، وبعناقيد العنب ، واجمعنا عليه من أول النهار وفي وسطه وآخره ، وانصره وانصر عساكره . اللهم وأهلك الثلاثة الفجار ، المدس والبسلة والبيسار . عباد الله من أراد خلع القبول أن تفاض عليه ، فليأكل اللوز بالسكر بين والديه ، وتفكهوا قبل الطعام ، واقتدوا بسنة خير الأنام ، ولا تتضاربوا

مؤلف ضيف

من وراء البحار

الأدب في إيطاليا

لغة أخرى . وهو ينهك قواه في الصحافة ، ولكن هذه الصعوبة مألوفة لدى الإيطاليين . ولعل أسوأ صعوبة تقابلهم هي عزلتهم عن سائر العالم ، وصعوبة الحصول على الكتب الأجنبية والصحف الأجنبية ، ومعرفة ما يقال في الخارج .

ومما لا ريب فيه أن نهاية الفاشية هي نقطة تحول في حياة إيطاليا وليس من اليسير التسكّن بما ينتظر أن تتحول إليه الأمور في السنوات القليلة المقبلة ، إذ العوامل في ذلك متشعبة .

ولعل أبرز شخصية بين الأدباء الفاشيين كان جبريل دانتزيو مخترع الأسلوب الفاشي والعامل على نشره ، وقد توفي في منتصف العشرة الثالثة من القرن العشرين ، ولكنه كان قد فقد نفوذه على الجيل الجديد قبل ذلك بمدة طويلة . وهو يلتمس في الكثير من صفاته إلى الأدباء الذين عرفوا بأدباء الانحطاط في إنجلترا في العشر السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، لاهتمامه بالعبارة أكثر من المعاني وبالزعة الجنسية المريضة . ورواياته بعباراتها الخطائية وأبطالها الذين لا حياة فيهم لا تقرأ اليوم وإن أعجب بعض الناقدين الإيطاليين ومنهم اميليو تشكي بقصائده انثوية مثل « ليدا سنزا سنليو » و « نوترنو » وهما بلا شك أصنى وأخلص من رواياته . أما شعره ففيه الجيد والردئ غير أن مجموعة شعره « الكيوني » ستظل

ما حال الأدب في إيطاليا الآن ؟ لقد أجابت مجلة « هورايزن » (عدد نوفمبر) على هذا السؤال في مقالين وافيين : أحدهما لكاتب إنجليزي اسمه برنارد وول عاد من إيطاليا منذ شهر . وفي رأيه أنه قد يمكن أن يقال إن المؤلفين في إيطاليا لم ينزل بهم من الضرر مثل ما نزل بأمثالهم في إنجلترا أثناء الحرب العالمية الثانية . فإذا كانت الفاشية قد تدخلت في الأدب في السنوات الأخيرة من حياته ، لاسيما في سنوات تعاونها تعاوناً وثيقاً مع ألمانيا ، فإن الإيطاليين في الحقيقة لم يبدلوا عند اشتراكهم في الحرب مجهوداً يشبه الحرب الاجتماعية . فالتجنيد الحربي عندهم لم ينفذ تنفيذاً دقيقاً ، ولم يجند الناس للأعمال المدنية . وبعد أن عزل مسولين ثم أعيد واحتل الألمان إيطاليا صارت الأمور إلى حال أسوأ ، وصار تسعة أعشار المؤلفين يكرهون الفاشية ويتمنون وصول الحلفاء . و لدى التجنيد للعمل وتدخل الجستابو إلى أن عهد الكتاب إلى الاختفاء . وكان يتبع وصول الحلفاء إلى مدينة بعد أخرى ظهور النشاط الأدبي والسياسي ، إذ صار من المستطاع نشر آراء كانت محتزنة منذ عشرين سنة إلى عالم الوجود . ومن بين ما كان يمترض الأدباء والمؤلفين الصعوبة الاقتصادية ؛ فإن الجمهور القاريء محدود دائم . ومن الصعب جداً على الأديب أن يعيش بقلمه إلا إذا ترجمت مؤلفاته إلى

من وراء البحار

على الغالب أمراً من الآثار البارزة للأدب الإيطالي في الخمسين سنة الماضية .

ومن كتاب الفاشية جيوفاني باپيني الذي اختفى الآن من الحياة العامة وقد تأثيره . ولا ريب في أن خير مؤلفاته هو كتاب «الرجل المنتهى» *Uomo Finito* الذي سبق اعتناقه الكاثوليكية . أما كتاباه اللذان ألفهما بعد ذلك عن حياة المسيح والقديس أوغسطس ففيهما من روح الأنانية ما يثير القلق في نفوس القراء المتمسكين بالدين . ولعله وفق في كتابه عن دانتي *Dante vivo* الذي قد يعاب باعتباره دراسة ، ولكنه في المسائل الجدلية استطاع أن يصف أخلاق مواطنه من أهل فلورنسة ، إذ وجد فيه شيئاً من أخلاقه .

وهناك أردنجو سوفتشي وهو أيضاً من مقاطعة توسكانيا ، وقد تحول أخيراً إلى الإشادة بالنظام الروماني والتغنى بالأزمة القديمة كي يقاوم تأثير موسكو . وهو يكاد يداني نيتشه في صوغ العبارات القصيرة التي تعبر عن آرائه .

ومن المعاصرين الذين ورثوا الكثير من دانتزيو كورزيو ملاپرتي وقد سجنه الفاشيون بعض الزمن ثم عاد إلى مسألتهم ، وساح في أوروبا أثناء الحرب مراسلاً للصحف الفاشية . ونشر بعد تحرير روما كتاباً يعتبر من أكثر الكتب الحديثة انتشاراً ، هو كتاب «كايوت» وهو كتاب خفيف الظل لا يعمل قارئه ، وفيه وصف لسياحاته في بلاد السويد ومعاشرته لشبان وأصدقائه ، ووصف للسهول الروسية والقرى تحت احتلال المحور . ومن مزايا هذا الكتاب رغبة المؤلف في التمتع بالحياة ، غير أن القارئ يشعر بأنه تنقصه المبادئ ، وأنه ينظر إلى السياسة على أنها وسيلة للظهور ، وهو في هذا يتأثر دانتزيو .

على أنه ظهر مؤلف آخر نافس كتاب ملاپرتي في انتشاره ، ذلك هو كتاب «روما سنة ٤٣» لمؤلفه باولو مونللي ، وهو كتاب ذو قيمة تاريخية وجديدة حقيقية ، وهو صورة منفصلة لمدينة روما في حكم الأروهاب الألمان . وأشد خصوم دانتزيو ومؤلفاته هو بندتو كروتشي ، وهو أقوى شخصية مثقفة في إيطاليا وإن كان قد تعرض لنقد جيوفاني جنتيلي الذي يرى تناقضاً في فلسفته . ويعتبر جنتيلي من كبار المفكرين . على أن كروتشي لم يجد بعد ندأله وإن وجد من يدانيه في نقده الأدبي وهو مواطنه دي سنكتس *De Sanctis* من أهل نابولي .

ويظن الأجانب من الأمريكيين والانجليز عند ذكر الكتاب الناشئين أن خيرهم هو اجنازيو سيلوني مؤلف «فوتارا» و«الحب والنيد» ولكن الناقدون الإيطاليين لا يعدونه من الكتاب الممتازين ويعيبون عليه أسلوبه ، ويرون صورته عن بلاد بروزي خاطئة . ولعل تفسير ذلك أنه عاش طويلاً في الخارج . ولعل الاختلاف فيه بين الإيطاليين والأجانب يرجع إلى أنه من رجال الحياة أكثر منه من رجال الفكر وأنه أقرب إلى الأنبياء منه إلى الفلاسفة ، وأنه إلى الحاسة الدينية والأخلاقية أكثر منه ميلاً إلى العقلين والمتشككين . وهذا لا يلائم نزعة الأدباء الإيطاليين الآن .

ومن رجال الأدب الناشئين في إيطاليا الذين يقدرهم الناقدون البرتومورافيا وهو لا يزال في الثامنة والثلاثين من عمره ، وقد بدأ التأليف مبكراً حين أخرج كتابه «الذين لا يبالون» فلقى نجاحاً سريعاً لما فيه من روح تشاؤم فهو ينظر بعينه إلى عالم متعب سقيم لا خير فيه . ولقد نجح مورافيا في بعض مؤلفاته نحو كفكا ، ولكن كفكا لا يلائم العقل الإيطالي . ولعل خير مؤلفاته

من وراء البحار

والألمانية دراسة واسعة ، وتأثر . بأبولنير وستيدال ونيشه ، وقد قضى زمن الصبا في أثينا فتأثر بها ، فكتابه مليئة بالإشارات إلى الأساطير اليونانية .

ولقد كان الشعراء أكثر الأدباء الإيطاليين ثورة على دانتزيو وطريقته في التعبير بألفاظه الفخمة وعباراته المثلثة . ووجد مارينتي وأنجاريشي تشجيعاً في هذا السيل من الحكومة الفاشية . وقد وصف الأخير بأنه شبيه بيول فاليري . ولكن أوجنيو موتالي هو أقرب شياً . وقد يذكر إلى جانبهم يهودى من أهل تريستا هو أومبرتو سابا ، على أنه في منجاء أقرب إلى الألمان منه إلى الفرنسيين .

هؤلاء هم الأدباء الذين أخذوا يظهرن وإلى جانبهم جماعة ظهرت واحتلوا مكاناً ثابتاً . منهم امليو تشكى وماسيمو بوتچيللى وألدو بلازسكى وفيتوريني الذى ألف قصة تسمى « محادثات في صقلية » يقول النقاد إنها خير ما أخرج في العشرين سنة الأخيرة ، وألفارو مؤلف قصة « الانسان قوى » وهى قصة ألقت في عهد الفاشية ، وظن أنها حملة على النظام الشيوعى ، على أن كثيرين من القراء يرون أنه أراد الحملة على النظام الفاشى . ويعتبر ماريو براز من أكبر النقاد الذين يعرفون الأدب الانجليزى معرفة عميقة .

ويرى كاتب المقال الانجليزى أن الجمهور القارئ في إيطاليا أكثر دراية وحضارة من مثيله بين الانجليز والأمريكيين ، على أنه جمهور لم يعرف بعد مساوىء الحياة الصناعية بأكملها . أما المجلات الأدبية التى تظهر الآن فكثيرة ، منها مجلة « مركوريو » وتظهر في روما ومجلة « الموندو » ، وتظهر في فلورنسا .

بعد روايته الأولى هى رواية « المطامع الخاطئة » التى ألفها سنة ١٩٣٥ ثم قصته الأخيرة « اجوستينو » .

ولقد كتب أخيراً كتاباً سماه « الأمل » وفيه قارن الشيوعية بالمسيحية في القرنين الثالث والرابع ، فالجماهير الآن كما كانت وقتئذ عديدة الأمل ، وقد تجمد شيئاً من الأمل الذى يجعل للحياة قيمة في الشيوعية ، كما وجدها الجماهير في المسيحية يومئذ . ولا يعتنق موزافيا مذهب الشيوعية ، وإنما هو على الأكثر يرى أن الحضارة الأوربية الآن في مركز الحضارة الرومانية الوثنية . يومئذ حين كانت تنظر إلى انتشار الثورة المسيحية في ذعر . وقد يقال رداً على ذلك إن الشيوعية تحمل جميع علامات أمراض الحضارة القائمة ولا تفرق عنها افتراقاً يبعث على الأمل . على أن هذا الكتاب يدل دلالة صريحة على أن العالم الإيطالى الذى يصفه موزافيا لا يتفق بحال مع وصف سيلونى له ، وأن موزافيا أقرب إلى الأديب الانجليزى ألدس هكسلى في كتاب « عالم جديد جريء » وفيه شئ من الكاتب يترونيو الإيطالى القديم مؤلف كتاب « ساتيريكون » . ولا ريب في أن مثل هذا الكاتب القديم لا يزال يؤثر في الأدب الإيطالى . ذلك لأن بذور القديم لا تزال باقية في إيطاليا . ولا يستطيع الذى يعرف تلك البلاد أن ينكر مظاهر التراث للماضى العظيم البارزة بين أنقاض الحضارة القديمة التى عاشت على جوانب البحر المتوسط . وايس بين المؤلفين المعاصرين من يمثل اختلاط تلك الحضارة للماضى بالحضارة الأوربية القائمة مثل البرتوسفينيو . وهو رجل يتحكم فيه العقل ينزع إلى الشك . وقد درس الآداب اليونانية واللاتينية والفرنسية

صندوق وطني للأدب

سكرتير عام لهذا الصندوق الوطني .
وتقوم إيرادات هذا الصندوق على حصة يدفعها دور النشر والمؤلفون وإعانات إضافية سنوية من الدولة والتبرعات والوصايا وغير ذلك من الأموال التي يقرر وزير المعارف والمالية تحويلها إلى الصندوق .

ويرى مسيو دوهامل أن إنشاء هذا الصندوق لا يقل شأنًا عن صندوق المباحث العلمية الذي يعتبر من مفاخر الجمهورية الثالثة ، وكتب يقول إن العاملين في المباحث الأدبية والناشرين والشعراء كانوا يعتمدون في الأزمان الماضية على معونة الأمير « وقد بذلت الهيئات الأدبية وبذل الأفراد أقصى جهد في القرن التاسع لتشجيع الآداب . أما اليوم فالجهود الفردية في الاحتضار ، والهيئات الأدبية حاق بها الخراب . إذن لقد جاء صندوق الآداب في وقته . »

ومن أغراض الصندوق ، فضلا عن تشجيع الآداب ، إمكان نشر بعض المؤلفات التي لا تجد سوقاً تجارية لعدم انتشارها الكافي ، وإن كانت هذه المؤلفات تعتبر غرأ للعقل الفرنسي . فدرى من ذلك أن عمل هذه المنشأة نافع جداً من الوجهتين الثقافية والوطنية .

ذكرت نشرة الأنباء الفرنسية في شهر ديسمبر أن الحكومة الفرنسية أصدرت بعد مناقشة في الجمعية التأسيسية قانوناً قضى بإنشاء صندوق وطني للأدب ، الغرض منه أولاً تأييد النشاط الأدبي للمؤلفين الفرنسيين وتشجيعه بإعطاء مساعدات للعمل وللدراسة ، وقروض شرف وإعانات ، ثم شراء الكتب وجميع الطرق الأخرى التي تكافئ أو تسهل وضع عمل أدبي مكتوب . وثانياً يساعد بالإعانات والقروض أو غير ذلك من الطرق ، على أن يقوم الناشر الفرنسيون بنشر أو إعادة نشر المؤلفات الأدبية التي بهم نشرها .

ويدير هذا الصندوق الوطني لجنة مؤلفة من تسعة أعضاء منتخبين لأربع سنوات ، منهم ستة من المعهد الفرنسي ، وثلاثة يمثلون النقابات الخاصة بالمؤلفين . وقد ضم إليهم سبعة أعضاء بحكم القانون ، وهم المدير العام للعلوم والآداب ومستشار الآداب بوزارة المعارف الفرنسية ، ومدير المكتبات ، ومدير كوليج دي فرانس ، ومدير الميزانية بوزارة المالية ، وعميد كلية الآداب بجامعة باريس ، ورئيس نقابة الناشرين .

ويعين بقرار من وزير المعارف

اليابان ودستورها الجديد

عظيمة ، وكادت تنفرد أمريكا باحتلالها . غير أن مجلة « العالم اليوم » الانجليزية نشرت في عدد نوفمبر مقالا طريفاً كان مما جاء فيه :
أبلغت السياسة التي يجب أن يسير عليها جنرال ماك آرثر إليه لأول مرة في برقية

يتطلع الناس دائماً إلى أنباء الدول التي حاقت بها الهزيمة في الحرب الأخيرة ، ولكن هذه الأنباء شحيحة ، وقد ألقت الدول المحتلة ستاراً على أمورها . ولعل أنعمض الأنباء وأقلها ما يأتي عن اليابان التي كانت أمة شرقية

من وراء البحار

والقبض على مجرمي الحرب ، ووضع دستور جديد ، ومنح لناس حق الانتخاب ، والقيام بانتخابات حرة ، وتوزيع الثروة وخاصة الأرض توزيعاً عادلاً

أما المشكلة الثانية وهي أعتد من الأولى فهي إعادة تربية الشعب بحيث تشرف السلطة على تعويده الحرية ، فإن العادات السيئة التي يراد أن يقطع الشعب عنها مرتبطة بحياته العامة أشد الارتباط . ولذلك أخذ أولو الأمر في تدبير اللثام من الأشرطة السينمائية وتحريم تمثيل اللثام من المسرحيات الوطنية ، ومنع لوقت قصير تعليم الجغرافيا والتاريخ والأخلاق في جميع المدارس وأخذ في إبدال المؤلفات الخاصة بهذه المواد ، بل حرمت المدارس لوقت ما من تعليم جوانب من الحساب ، كما حرمت المصارعة واللعب بالسلاح . وعمل على أن تكون الجرائد حرة ، على ألا تنقد الحلفاء ، كما أتيح لها أن تخوض دون تردد في موضوعات مثل مركز الامبراطور وجرائم الحرب .

وتعرضت السلطات للعقائد ، فهوجت عقيدة ألوهية الامبراطور والاعتقاد في روح القبيلة أما غير ذلك من العقائد البسيطة فلم يمس . وكانت هناك مسألة تعرض لها أولو الأمر في حذر وهي مسألة الكتابة اليابانية ، فقد أخذت إدارة الجنرال ماك آرثر تشير باتباع الأحرف اللاتينية ، وكان الغرض الذي ترمى إليه القضاء على ارتباط اليابان بماضيها ، وكان اليابانيون أنفسهم يبحثون في هذه المسألة منذ سنوات . وجاءت اليابان في شهر مارس الماضي بعثة من المربين الأمريكيين تدخلت في هذا الأمر ونصحت باتباع الحروف اللاتينية . ولكن يظهر أن هذه المسألة تركت الآن لليابانيين أنفسهم . وأخذ الأمريكيان في إدخال الأشرطة السينمائية الأمريكية ونشر المجلات الأمريكية ، وأنشئت في طوكيو عاصمة اليابان مكتبة أمريكية .

أرسلت في ٢٩ أغسطس سنة ١٩٤٥ والقسم الأول من هذه البرقية بكرر تصريحات بوتسدام والقاهرة ، بأن تقصر اليابان على جزرها ، وأن يشجع الشعب الياباني على الرغبة في الحرية وإيجاد نظم ديمقراطية . وجاء في القسم الثاني أن سلطة الامبراطور والحكومة اليابانية تكون خاضعة للقائد الأعلى ، وأن يجري على سياسة استعمال نظام الحكومة القائم دون تأييده . والقسم الثالث يقضى بتصفية القوات المسلحة والقضاء على آراء الحزب الوطني ومحكمة مجرمي الحرب . والقسم الرابع يحرم الاتجار النافع في الحرب . وفي البرقية تأييد للآراء التي ترمي إلى توزيع الدخل وملكية وسائل الاتجار والتجارة ، وحل الشركات الكبرى . وهي خطوة أرادها الأمريكيون ، والغالب أنها تنطبق على رغبة الحلفاء . وتنتشر آراء الجنرال ماك آرثر في هذه السياسة قاطعة . ويعاونه في طوكيو مجلس مؤلف من أربعة أعضاء ، كما يضع السياسة في واشنطن لجنة مؤلفة من أحد عشر عضواً يمثلون الدول ذات المصالح في الشرق الأقصى . والفرق الواضح في السياسة المتبعة نحو اليابان ومعاملة ألمانيا بعد تسليمها أن اليابان احتفظت بحكومتها ولو أن هذه الحكومة خاضعة للحلفاء عن طريق القائد الأعلى . فكان هذا النظم مما جعل إدارة اليابان أسهل مما لو غير النظام ، ولا سيما مع صعوبة اللغة . وكانت الحكومة عند تسليم اليابان في يد المحافظين وقد استمروا في تسلطهم على الحكومة وإن كان عليهم أن يحسوا حساباً للآراء الحرة ، وكان سلوكهم مع القائد الأعلى لا غبار عليه .

كانت هنالك ناحيتان لمشكلة إعادة تنظيم اليابان : أولاهما القرارات السياسية ، وهذه قد أخذت في تنفيذها في الحال مثل تسريح القوات الحرة وإطلاق سراح المسجونين السياسيين

إليهم أن يفكروا كيف أن شجرة صنوبر الصلبة العود التي لا تنقطع عنها الحضرة تنحني تحت حمل الثلوج دون أن تنكسر . وقد تمت في هذه المسابقة خمس عشرة ألف قصيدة . ونصبحت الامبراطور شعبه في قصيدته بأن يقلدوا شجرة الصنوبر التي لا تتغير أبداً وهي تنحني تحت ثقل الثلوج . وفي نهاية هذه السنة اذاع الامبراطور حديثاً أوضح فيه بعبارة حذرة بأنه نزل عن قداسته ، ثم أخذ يقوم بعدة سياحات بين شعبه وهو في ملابس بسيطة ، وكان يوجه إلى العمال والموظفين عبارات خجولة ، والعجيب أن هذا الأمر لم ينزل بالامبراطور من مكاتته ، بل زاد حب الناس له ، وقد ظهر هذا الحب بارزاً ، حتى إن الشيوعيين الذين هم الحزب الوحيد الذي يعارض الملكية احتجاجوا على هذه السياحات لأنها تؤثر في الانتخابات لغير صالحهم .

ووجه الجنرال ماك آرثر اهتماماً خاصاً للدستور الياباني ، فأمر بمراجعة الدستور القديم الذي ساعد الاستبداد الحربي ، وطلب إلى بعض اليابانيين أن يراجعوه ، ولكنهم أظهروا تمعناً ولم يترحوا غير تعديلات قليلة الشأن فاصدر أمراً لمساعديه بأن يشتركوا في هذا العمل ، فكانت النتيجة وضع دستور جديد في كل جوانبه ، والراجح أن بعض اليابانيين كانت لهم يد في تعديلاته وبذلك استطاع ماك آرثر أن يعلن أن مشروع الحكومة هو وثيقة يابانية وأنكر وزير الخارجية الأمريكية بيرنز أنه وثيقة أمريكية وقد جاء في مطلع هذه الوثيقة :

« نحن الشعب الياباني نعلن بلسان ممثلينا الذي انتخبناهم في المجلس الوطني أن إرادة الشعب هي صاحبة السيادة . »
وجاء في المادة الأولى :

« الامبراطور هو رمز الدولة ورمز اتحاد

ومن المشاكل التي استرعت الانظار مركز الامبراطور في الدولة ؛ فقد اذاع الامبراطور خطاب التسليم في صباح ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٥ وكان يحمل خطابه أن اليابان خاضت حرباً عادلة لتحرير آسيا ولكنها أخفقت في مقصدها . وجاء في عبارته قوله إنه يبدى « غاية الأسف لدول آسيا الشرقية المحالفة لنا والتي تعاونت باخلاص مع الامبراطورية في العمل على تحرير شرق آسيا » . وهذا الخطاب كان آخر ما أعلنه الامبراطور بملء حرية ، وقد يكون له في المستقبل شأن عظيم لدى اليابانيين . على أن الامبراطور تعاون باستمرار وفي صبر مع الحلفاء ، وكانت سلطته هي التي أنقذت اليابان من كوارث فظيعة لو استمرت في القتال . وقد أدى التسليم أيضاً إلى حقن دماء آلاف من رجال الحلفاء وتوفير أموال عظيمة وكان من أول أغراض الزعماء المحافظين الإبقاء على العرش ، وهم في هذا مؤيدون من أكثر طبقات الشعب الياباني . ولقد أرادوا الاتفاق على أي شيء حتى نزول الامبراطور عن عرشه بشرط أن يبقى العرش مصوناً . وقد زار الامبراطور مركز الجنرال ماك آرثر في هذا الحريف ، كما أنه استقبل رجال الصحافة من الأمريكيين .

ومن الأمثلة على نفوذ الامبراطور وعمله على الاحتفاظ بشيء من الروح القديمة في اليابان إقامة مسابقة إمبراطورية في الشعر فالمادة أن يعلن الامبراطور عن موضوع قصيدة يتسابق في نظمها الشعراء ويكون الموضوع وطنياً ، وينظم الامبراطور نفسه قصيدة في موضوع المسابقة ، وفي أول السنة تقرأ خير القصائد مع قصيدة الامبراطور . وقد اختار الامبراطور في هذه السنة موضوع الثلج فوق أشجار الصنوبر ، وفكرة الثلج وفكرة أشجار الصنوبر لها في نفس اليابانيين ذكرى خاصة ؛ فإن هاتين الفكرتين توحيان

من وراء البحار

قد يقال إن واضع هذه الوثيقة اتجهوا
اتجاهاً صحيحاً ، ولكن الزعماء المسئولين كانوا
حذرين في تعليقاتهم ؛ فالدكتور مينوبى الحجة
في المسائل الدستورية والذي اضطهد من
العسكريين لرأيه القائل بأن الامبراطور حاكم
دستورى ، يرى أن هذه الوثيقة ذهبت إلى
أبعد من رأيه حين وصفت الامبراطور بأنه
رأس الدولة ، وأن عدم وجود قيود على سلطة
مجلس النواب قد تؤدي إلى تشرعيات مثيرة .
أما المحافظون فمن رأيهم أن الدستور القديم
لم يكن بعيداً عن الديمقراطية إذا نفذ بالطريق
الصحيح . ويرى الشيوعيون أن هذا المشروع
لا يمثل الإرادة الحقيقية للشعب ؛ إذ من رأيهم
أن المشرعين أضاعوا وقته في رسم هذا
المشروع بدلاً من العناية بمسائل الطعام
والكساء والمأوى .

وقد أقر مجلس النواب هذا المشروع في
٢٤ أغسطس الماضى بكثرة ٤٢١ صوتاً
أمام ٨ أصوات من المعارضين منهم ستة من
الشيوعيين . وكذلك أقره مجلس الأعيان مع
تعديلات بسيطة . والمنظور أن يوضع المشروع
موضع التنفيذ في مايو القادم . فإذا سحب الأمر ما
ظل الدستور القديم قائماً .

الشعب ، وهو يستمد مركزه من سيادة إرادة
الشعب . »

وهذا المشروع يجمع بين صفتين : أنه
دستور ، وأنه بيان ؛ فقد جاء على سبيل
المثال في إحدى مواده :

« يحترم أبناء الشعب كأفراد وسيكون
حقهم في الحياة والحرية والسعى وراء السعادة
في حدود الصالح العام هو الهدف الأكبر في
التشريع وفي الأعمال الحكومية . »

وفي هذا الدستور ما يدل على عدم التفرقة
فيما يتعلق بالجنس والعقيدة ، والرجولة
والأنوثة ، والمركز الاجتماعي أو الأصل
العائلى ، كما ينص على أن الزواج يكون
بموافقة الطرفين ، وأن لها حقوقاً متساوية .
ومن نصوصه أيضاً أن للناس جميعاً حق العمل .
ويختار النواب بأصوات البالغين ومدة
النيابة أربع سنوات . ويوجد مجلس مستشارين
يختب نصف أعضائه لمدة ثلاث سنوات .
وفي الدستور نصوص تتعلق بحماية حقوق
الفرد ، وإنشاء محكمة عليا لها حق النظر في
دستورية القوانين . ولعل أغرب ما في هذا
الدستور هو النص على أن اليابان تنزل عن
حق الحرب إلى الأبد .

رأى في الأدب المكشوف

من كلمات ، ويقول د. ه. لورنس : إنه لا أحد
يعرف مدلولها ويقول تيودور شرويدر الذي
وقف حياته على الدفاع عن حرية القول : إننا
لا نجد الفحش في أى كتاب أو أية صورة ،
وإنما هو دائماً صفة في عقل الذي يقرأ أو يشاهد
الصورة . ولا يذكر في سبيل القضاء على
الأدب المنفوخ غير السبب الذي يلتمس دائماً
في القضاء على حرية الفكر .

وإن ذكر الكتب الشهيرة التي يمكن وصفها

أراد هنرى ميلر الكاتب الأمريكى الذى
طاش طويلاً في فرنسا أن يدافع عن جنوحه إلى
الاقذاع والفحش في كتاباته ، فكتب مقالا
طويلاً في ذلك نشرت « فوتين » المجلة الفرنسية
ترجمته . ويحمل آرائه في هذا المقال ، أن تعريف
طبيعة الفحش ، ومدلول هذه الكلمة لمن
أصعب الأمور . فأرنتت وسجل في كتابها
« إلى الأظفار » يقولان : إنك لا تجد
شخصين يتفقان على معنى هذه الكلمة وما يشبهها

مفضوحة أكثر من أى كاتب إنجليزى من الأحياء .» ولذلك كانت آراؤه فى هذا الموضوع جديرة بالاهتمام . ويذكر أنه منذ نشر كتابه فى « مدار السرطان » فى باريس سنة ١٩٣٤ وصلتته مئات من الرسائل من القراء من جميع الطبقات ، وهى فى مجموعها رسائل تهنته وأكثر الذين عتبوا عليه لفته المكشوفة مدحوا الكتاب من جهة أخرى ، وقليل جداً الذين رأوا أن الكتاب ممل أو أنه لم يكتب بعناية . وظل كتابه هذا يباع بانتظام ، ولا يزال النقاد يتكلمون عنه مع أنه قد مضى على نشره ما يزيد على عشر سنوات وبالرغم من أنه حرم فى جميع البلاد الانجلوسكسونية . وكان الأثر الوحيد لهذا الحرمان أنه صار يباع سرّاً فتحدد لذلك عدد المبيع منه ، ولكنه حصل على خير طريقة للاعلان وهو تناقل ذكره بالكلام . وهو يوجد فى جميع المكتبات الهامة بالولايات ، وكثيراً ما يشير الأساتذة على تلاميذهم بقراءته وقد أخذ يمثل مكاناً إلى جانب المؤلفات الأدبية الشهيرة التى كانت محرمة من قبل وصارت الآن من الكتب الثمينة . ولقد أثر هذا الكتاب بصفة خاصة فى الشباب على أنه لم يضلهم فى حياتهم بل أنمى فيهم الروح الأخلاقية .

وقد نسائل هل الكاتب الذى يلجأ إلى الوصف المفضوح مرغم على اتساع هذه اللغة ؟ وفى رأى ميلر أنه لم يعمد إلى هذه الطريقة إلا لأنه لم يجد خيراً منها للتعبير عن آرائه ، وهذا ما قد يعسر فهمه على غير الأدباء . ولقد قيل إن الأدباء الفنان بعد أن يصل إلى الفهم ينقل هذا الفهم إلى قرائه . وهذا الفهم سواء أكان يعنى الشعور الجلى أم أية علاقة أخرى ، لا بد أن يعارض عدداً من المعتقدات العامة والخاوف والمحرمات القائمة فى الغالب على الخطأ . ومهما كانت الأعذار التى تلتحل للأخطاء الشائعة فى العامة

بأنها تحتوى على أدب مفضوح ليمدنا بفهرس طويل . وإذا أغفلنا الكلام على التوراة فإن أكثر عظماء الكتاب من أفلاطون إلى ماقلوك إليس ومن أرسطوفان إلى شو ومن كاتيل وأوقيد إلى شاكسبير وشلى وسوينبرن ، كل هؤلاء كانوا هدفاً للإتهامات بتكسب الآداب العامة والأخلاق . وفى رأى منتجين كيرتز وهو ناقد واسع الأفق أنه من الواجب تربية أولئك المرظفين الذين يشرفون على القوانين للموضوعة للكتب المباحة بحيث يكونون لائقين للعمل الذى يقومون به . ويعرف كيرتز الكتب ذات القيمة الأدبية والعلمية المعترف بها بأنها هى التى يؤيدها جمهور قوى من الرأى الناقد الأمريكى ويتفق على قيمتها . على أن هذا الرأى ليس صحيحاً فى إطلائه ، فلقد ظلت أناشيد الشاعر أريينو أربعاً مائة سنة قبل أن ينزع عنها الناس لعنة المعاصرين . وإن من الكتب المعاصرة ما قد ينتظر مثل هذا الوقت قبل أن يعترف به . ويقول تيودور شرينجر فى شأن الكتب التى تشتمل على أدب مفضوح إنها ليست تستمد ذلك الوصف من مشتملاتها وإنما من تأثيرها المفروض فى شخص خيالى فى وقت مخصوص ربما تقع فى يده مرة ما .

أما ماقلوك إليس ، فيرى أن الفحش فى القول هو عنصر دائم من عناصر الحياة الاجتماعية وهو يمثل حاجة ثابتة للعقل . وفى رأيه أن البالغين فى حاجة إلى الأدب المكشوف بقدر حاجة الأطفال إلى قصص المغاريت ، ففيها راحة من ضغط مصطلحات الحياة ، وهذه الآراء شائعة لدى شعوب البحر المتوسط . ولكن إليس رجل إنجليزى ؛ ولذلك اضطهد من أجل آرائه وأفكاره فيما يتعلق بالأمور الجنسية . ومنذ القرن التاسع عشر لا يجرؤ كاتب إنجليزى على التكلم فى هذه الموضوعات باخلاص حتى لا يضطهد ويهاجم .

وقال ميلر : « لقد اتهمت باستعمال لغة

من وراء البحار

مثل عدم التعليم أو معرفة الفنون معرفة سطحية أو غير ذلك من الأسباب ، فسيكون هنالك دائماً هوة واسعة بين الأديب الخالق وبين جمهوره ؛ إذ أن هذا الجمهور بعيد عن سر هذه القوة الخالقة ، والضال الشعوري أو غير الشعوري الذي يقوم بين الأديب وجمهوره يكون مركزه الموضوع الذي اختاره الأديب عن ضرورة ، وهذه الضرورة ناشئة عن روح العصر التي هي منبع القوى السرية من قوى الحياة التي تريد لها مخرجاً وتعبيراً . وهذا التعبير يكون عن طريق أولئك الماهرين في اجتلاء الأسرار . ومن العجيب أن المصورين لا يتعرضون إذا كانت منتجات ريشتهم غير ميسرة لدى الجمهور لمثل التدخل الذي يتعرض له الأديب ؛ لأن اللغة وهي طريقة الأديب للتعبير تكون عرضة للخلط العجيب . فقد يبدى حتى المثقفون قلة إدراك في تذوق الآثار الفنية ، ولكنهم لا يجربون على الأعراب عن رأيهم في كيف يصلح الفنان خطأه . أما في حالة الكتب ، فإن أقل الناس ثقافة ، لا يتورع عن إبداء رأيه فيها جهاراً .

ظفر حديثا

في قفص الزحام للأستاذ خالد الدرة (مطبعة الرشيد - بغداد)

الناس ، ولعل بعضها منتوش من الأساس ، غير أنني لا أشك بأنها تمثل أحاسيس الجماهير نحو رجالهم . . . »

إذن فلا مـى غاية أنشأ المؤلف كتابه هذا مادام لا يقصد إلى تصوير حقيقة ، ولا إصلاح فاسد ، ولا نيل ثأر ؟ أهـى السخرية فحسب ؟

والمؤلف فيما يصف نفسه — بكل تواضع — محام « فاشل » ، وفيما يصفه بعض أصدقائه — في مقام المداعبة — صحافي فاشل ؛ وفيما يصفه البغداديون — في مقام الاعتراف بمكانته — رئيس « ندوة الزبانية » ؛ وهى ندوة أصدقاء كل « زبني » منهم له قلم ولسان ولا يعرف لأحد وقاراً ، وكان لهم صحيفة تصدر في بغداد اسمها « الوادي » كتبوا في صدرها أنها لسان حال ندوة الزبانية ! فهو إذن مذهب جديد في النقد يقوم به الأستاذ خالد الدرة والزبانية من أصحابه !

والكتاب بضعة فصول ، كل فصل منها يصور جلسة محكمة قد انعقدت لتحقيق دعوى تتناول رجلاً من رجالات العراق ، ويقوم بالدفاع عن المتهم في كل جلسة منها الأستاذ خالد الدرة نفسه ، ثم تنتهى القضية باطلاق المتهم ؛ ولكن بأى لسان يدافع هذا المحامي عن موكله ؟ هذا نموذج من دفاعه في قضية كان المتهم فيها مدير الأوقاف العام بالعراق :

المدعى العام : كيف جاز للمتهم أن يبيع عرصات الأوقاف لأنسابه بمقدار كبير بأحسن المواقع في الشوارع الرئيسية وبأثمان زهيدة ؟

كتب صغير الحجم في عشرين ومائة صفحة من القطع الصغير ، ألفه مؤلفه « البغدادى » . ليصف طائفة من رجالات العراق المعاصرين في بعض ما يدور على ألسنة الناس من أحاديثهم ، بأسلوب ساخر مؤلم مسرف في السخرية والايلام ، كأن له عند كل منهم ثأراً لا يجد سيلاً إلى أن يناله إلا « بلسانه » ! على أن المؤلف لم يغفل في مقدمته عن التنبية على الدافع الذى حمله على كتابة تلك الفصول بذلك الأسلوب الصريح اللاذع ؛ فيقول : « والغريب من أمرى أنى لم أفطن إلى هذه الظاهرة الغريبة في نفسى التى تدعونى إلى كل هذه السخرية من رجال عصرى ، ولكنى أدرك بأنى أسوق هذه الفكاهات بروح مترعة بالألم ، مليئة بالرغبة في إصلاح مافسد ، جياشة بالتوفى إلى الحرية والانعتاق . فما فوضاى إذن إلا من الفوضى المتفشية في عصرى . . . الخ » ثم يبنى أن يكون بينه وبين أحد ممن تناولهم بقلمه خصومة أو ثأر ، بل إنه يزعم أن ليس بينه وبين بعضهم « معرفة » !

ولقد يخيل لبعض من يقرءون هذه الفصول أن الصور المنكرة التى رسمها المؤلف لبعض من تناولهم في كتابه هى صورهم الحقيقية على ما هم فى أنفسهم أو على ما هم فى أعين مواطنهم ، ولكن المؤلف يبنى هذه أيضاً ، فيقول : « ولا يخال القارئ أن ما ورد في هذا الكتاب من تهجمات مستندة إلى الوثائق الصحيحة ، بل هى فى الغالب مقتبسة من أفواه

في رءوس المراقبين ، يتضمنه ذلك الحوار الذي دار في الجلسة التي انعقدت لمحاكمة جون بول وكانت رئيس المحكمة في تلك الجلسة هو العم سام والمدعى العام ستالين ، وقام المؤلف بدور محامي الدفاع بأسلوبه وعلى طريقته وشبع مما يشتهي هزوا وسخرية !

وينتهي المؤلف من كتابه فلا ينسى أن يكتب على الغلاف ثبنا بمؤلفاته ، وهي :

- ١ — المشعوذ (صودر)
 - ٢ — لقتل الضجر (صودر)
 - ٣ — حول المنهج القومي (صودر)
- ثم هذا الكتاب ، وأظنه (تحت المصادرة) وكتاب آخر « تحت الطبع » عنوانه « الهاربون من جهنم » .

المحامي : يروم من وراء ذلك تمجيد العاصمة وجعلها على نسق موحد . والاقربون أولى بالمعروف !

المدعى العام : ولكن هؤلاء الأنسباء قد باعوا المصالح بأثمان باهظة إلى غيرهم ، فأى تناسق حدث لبنايات العاصمة وأى تمجيد زين قصورها ؟

المحامي [لرئيس المحكمة] : أرى أن المدعى العام قد خرج عن الصدد ، وكان الواجب عليه في هذه الحالة أن يقيم الدعوى على الأنسباء لا على موكله .

وهكذا يدور الحوار ويقوم أساس الدفاع ثم تحكم المحكمة بالبراءة ! وفي الكتاب إلى ذلك عرض طريف لبعض المذاهب السياسية والآراء التي تصطرع اليوم

١٠٠ يوم فوق الانقاصه للأستاذ محمد علي العريان (مطبعة جلي بدمهور)

يبدى بعض ما تنبأ له أن يراه — بين الانقاص — في أثناء إقامته هذه القصيرة في بلاد الانجليز . أول ملاحظة يلاحظها القارئ لهذا الكتاب ، أن مؤلفه شاب مصري قد امتلأت نفسه مرارة وحقدًا على بريطانيا التي تنصب بلاده حقها في السيادة والحرية ، فهو لا يكاد ينظر إلى بريطانيا إلا من هذه الزاوية ، ولا يكاد يعرف فيها إلا العدو الفاصب الذي يريد أن يستبدل أعرق أمة في تاريخ البشرية ليتخذ أبناءها عبيدا وخولا . وماذا يمكن أن يرى الناظر من هذه الزاوية إلا أمة من وحوش الناس ليس لها مثل عليا ولا فضائل إنسانية !

قد يكون كل ما وصفه المؤلف في كتابه من أحوال الانجليز صدقا لا شك فيه ، وقد يكون فيه مبالغة ما ، وقد يكون فيه الصدق والتخييل ، وقد يكون كله مما نخيل الهوى

مؤلف هذا الكتاب شاب مصري أتم دراسته العالية في الجامعات الانجليزية ، ثم عاد إلى مصر فاستقر بها بضع سنين ، ثم اختارته وزارة المعارف عضوا في بعثتها العلمية إلى إنجلترا في العام الماضي ، فذهب إليها ، وهي — فيما يصف — أنقاص وخرائب ، في الأبنية وفي النفوس ، فلم يقض على أرض بريطانيا في هذه المرة غير مائة يوم ، ثم عاد مريضا مهزولا قد نهكته العلة في جسده وفي أعصابه ، مما لقي من الجوع والحرمان المادي ، وما لقي من خراب النفوس وفساد الخلق من أثر الحرب المييدة التي أشرفت ببريطانيا — فيما يرى — على هاوية الدمار واقتربت بها من النهاية المحتومة ، وإن كانت — فيما يعلم الناس — قد انتصرت في الحرب وظفرت بعمدوها في المعركة الأخيرة !

وهو يصور في هذا الكتاب الذي بين

المقدمات جميعها في الخاتمة إلى النتيجة التي يستيقنها ويؤمن بها عن حقيقة بريطانيا .
والكتاب اثنان وعشرون فصلاً في أكثر من مائتين وستين صفحة . يتحدث المؤلف في كل فصل منها عن يوم من أيامه أو حادثة من حوادثه منذ اختارته وزارة المعارف المصرية لبعثتها العلمية إلى يوم عودته - في أسلوب تصويري بديع فيه هدوية ورقة ، وفيه جد وفكاهة ، وفيه رأى وقصص ، وفيه طرائف من خير ما يثبته الرجالون في مذكراتهم عن بعض ما يقع تحت أعينهم من الصور الجديدة أو تنفعل به أنفسهم من المشاهدات والحوادث .

قد يعيب بعض الناقدين على الكاتب أنه لم يتجرد حين أخذ أهفته لكتابة هذه الفصول ليكون فما يكتبه أقرب إلى الحقيقة الخالصة ؛ ولكن أكبر قيمة لهذا الكتاب فيما يبدو لي هو أن كاتبه لم يتجرد فكان فيه صادق التعبير عن نفسه وعن رأيه وعن الحقيقة التي ينبغى أن يؤمن بها كل مصرى يؤمن بمصريته ويعتز بنسبه في أهله !

وددت لو حرص كل مبعوث عربى إلى أوروبا أو إلى أمريكا على أن تكون في يده نسخة من هذا الكتاب ، فله خير له من كثير مما يحمل من أمتعة السفر واسباب الرحلة !

والعصية لشاب يؤمن بمصريته ، فكان هواه وعصيته منظار عينيه ، فلم يصف ما هو في الواقع بل وصف ما أراه منظاره الملون - قد يكون ذلك كله أو بعضه ، ولكنه على أى أحواله كتاب شاب مصرى عربى مسلم ألفه عن بريطانيا في سنة ١٩٤٦ ، فهو على أى أحواله صادق فيما وصف عن رأى ورؤية ؛ إن لم يكن في مرأى العين ففي مرآة النفس . والنفس أصدق خبراً من العينين ! ليس هذا الكتاب إذن من الكتب التي تلتبس فيها الجغرافيا أو التاريخ الاجتماعى لبلد من البلاد أو شعب من الناس في زمن من الأزمان ؛ ولكنه كتاب فريد في باب لم يلمس العلم بأسباب اليقظة العقلية في شعب مغلوب على أمره يجاهد للخلاص بروحه ومقوماته النفسية وكيانه الانسانى ، في أزمة من أزماته السياسية الخائفة !

وليس هو قصة برويا أو مشاهدات متسلسلة يصفها من حيث ابتدأت إلى حيث انتهت ؛ ولكنها صور متباعدة في الزمان والمكان والحادثة ، قد ضمها إطار واحد لتوحى جميعها إلى ناظرها معنى واحداً هو المعنى الذي أراد المؤلف أن يجعله حقيقة ماثلة في نفس كل قارئ عربى يريد أن يعرف بريطانيا ، أو هو مقدمات متساوقة جعل المؤلف كل مقدمة منها تمهيداً للمقدمة التي تليها لتؤدى

محاولات الحجاز للأستاذ إبراهيم هاشم الغلالى (مطبعة دار إحياء الكتب العربية القاهرة)

إنهم كذلك بحكم الولد والملاش والمقام ، ولكن كم مسلماً ، أو كم عربياً ، اليوم وقبل اليوم ومنذ بضعة عشر قرناً قد خطر بباله حين محضره هذه الأسماء الكريمة أن يسأل نفسه أو يسأل غيره عن وطن واحد من

متى كان الحجاز لأهله من دون سائر الناس ؟ سؤال سألته نفسى وقد وقع بين يدي هذا الكتاب . من ذا يزعم أن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وأن أبا بكر وعمر وعلياً ومعاوية ومن إليهم - من رجالات الحجاز ؟

هؤلاء فينسبهم إلى الحجاز أو غير الحجاز من بلاد الله ؟

إنهم لا كبر مقاماً وإن وطنهم لا وسع أفقا وأرحب جانباً من أن يذكر أو يذكر واحد منهم منسوباً إلى بلد . ولكن الأدب الحجازي إبراهيم الفلالي يأتي إلا أن يضيق الحلقة ، فيحاول كتاباً يتحدث فيه عن رجال الحجاز ، فيذكر منهم محمد بن عبد الله وأبا بكر وعمر وعثمان وعلياً والحسن ومعاوية ومن شاء أن يذكر من الأسماء . . .

عاطفة الوطن المحلى أوحى إليه أن يكثر كما يكثر كل وطني في كل وطن بالأبطال من أهل بلده ؛ ولكن الحجاز وطن لكل مسلم ، ومحمد بن عبد الله والصفوة من أصحابه مواطنون لكل مسلم ولكل عربي في بلده ، بل هم السادة في كل بلد عربي وبكل أرض يذكر فيها اسم الله . فهل أصاب الأدب الحجازي هدفاً حين حصر الواسع وضيق الرقعة الفسيحة أم تراه لم يبلغ غرضاً ؟

إن للحجاز منذ قرون كيانه السياسي المتميز بمحدوده ، فلماذا لم يخطر على بال أحد من أهل الحجاز منذ قرون أن يحاول غرضاً محلياً بمثل ذلك ؟ أرأيت لو أن كورسيكا أرادت أن تباهى سائر فرنسا بأن منها نابليون بونابرت وأنه رجلها ، أتكون قد مجدت البطل الفرنسي العظيم حين أرادت أن يكون لها دون غيرها مجده ؟

ولكنها عاطفة مشكورة على كل حال ؛ لأنها من دلائل اليقظة القومية التي تلمس المجد بأسبابه وبغير أسبابه ؛ وأدع هذه ، فلعل الخطأ كله في عنوان الكتاب ، أو في إطار الصورة لا في الصورة نفسها ؛ فانه في مجموعه كتاب يستحق أن يقرأ وأن يمدح فيه قارئه تاريخياً وفناً وأسلوباً من أساليب التعريف بالخالد في تاريخ الأمة العربية حقيقاً بالتنويه والاشادة .

وهو إذن كتاب أدب وفن وتاريخ ، يتناول طائفة من رجال الحجاز العرب ، يؤلفه شاب عربي حجازي له اطلاع وبيان وفكر ، وبين جنبيه قلب يخفق بحب بلاده . وقد ظم المؤلف في بطون الكتب التاريخية باحثاً منتقياً يتبع أبطال العرب ممن نشأوا في الحجاز ، فجلا صورهم جلاء يستحق الإعجاب . ولم يلتزم فيمن جلا صورهم من هؤلاء الأبطال ترتيب التاريخ ولا خصائص الرجال ؛ إذ كان كل ما يعنيه أن يعرض صوراً حجازية مشرقة يحاول بها أن يثبت أن في الحجاز رجالاً ، وهي حقيقة قطعية الثبوت لم ينكرها أحد قط ولا ينكرها أحد اليوم ؛ وآيتها هذا الدين وهذه اللغة وذلك التاريخ الذي يتغنى بأجاده اليوم أربعمائة مليون مسلم بين شرق الأرض وغربها ؛ ثم هذه النهضة الأدبية اللشيطة بين شباب الحجاز والتي تبشر بالخير القريب إن شاء الله !

محمد سعيد المرزبان

في مجلات الشرق

أرستقراطية الأدب

عندنا لم يستطيعوا في جميع ما خلفوه من تراث أن ينطلقوا من إسارة القوى . ولهذا لن نجد سوى خوالج شخصية لا يشترك في الاحساس بها أبناء الحياة ، ولن نجد لها صدى إلا في نفوس الذين يشعرون بها ؛ وإلا فقل ما عسى أن يشعر الجمهور للمتعش إلى التعبير عن خوالجه وأحاسيسه بما طمح به ديوان البحترى من أماديج للمتوكل تجعله شخصاً هبط من القمر وطاش في السحاب . وقل أي قلب يصهره الحزن يشعر بالجزاء عند ما يرثي المتني أخت سيف الدولة أو أمه وبينها وبين نساء العرب ما بين هذا الرثاء وبين الحزن الحقيقي في البعد ؟ . . . »

مجلة « اليتيم العربي » حمص - العدد ٥ ، ٦ يعيب المحرر على الأدب العربي أرستقراطيته التي تنأى به عن تأدية الرسالة التي تقوم الآداب بتأديتها ، فيقول :
« إن الأدب هو صورة الحياة وظلها ، يسايرها أنى مشى ويقبها العشار كلما انحرفت عن نجادة الاستقامة المرسومة لها ؛ فالتقاصر الأدب عن تأدية هذه الرسالة أو انحرفت ظلالة وخطوطه عن مقارها الثابتة استحال الأدب عن غايته وصار ضرباً من ضروب اللهو ووسيلة للعبث وتزجية الفراغ .
« وأدبنا العربي — ما خلا القليل منه — مصاب بهذه الآفة ، والشعراء المتفوقون

طرافة والابتدال في الأدب العربي

يستحق أن يحسب مبتدلاً مستهجنًا ؛ فقد يكون المطروق ضرورياً لا يضح ما اكتنفه من الكلام ، وقد يكون مقبولا محتملا بما شاة لسياق الحديث في سداجته وضراحته .
ويتهي الكاتب من مقدمته هذه في معنى الطرافة والابتدال — إلى ما يسميه « التوليد » وما يسميه « التنزه » . ويعنى بالتوليد تناول للمعنى الثافه وتزيينه من بعض نواحيه ، أو تناول الفكرة المجلة وتفصيل شيء من زواياها ، أو الخاطر الناقص وتكامل قصه . ويريد بالتنزه الارتفاع بالمعنى للتبدل إلى مستوى أعلى يضئ عليه نوماً من الطرافة والجدّة .

مجلة « المجمع العربي » (دمشق الجزء ٩ ، ١٠) . يحاول الأستاذ إدوار مرقص نهجاً جديداً في الحديث عن الأدب العربي ، فيتحدث عن الطرافة والابتدال فيما يخرج به الكتاب والشعراء من قلوب الأدب ، فيقول :

« ليس كل ما كان جديداً في الأدب يستحق أن يحسب طرفة أو تحفة ؛ فقد يكون الجديد قبيحاً ، إما لخطأ فيه ، وإما لنبو الطبع والدوق عنه ، وإما لخالفته الطابع العربي في كيفية الأداء والترتيب .
« ثم ليس كل ما كان مطروقا في الأدب

ثم يمضي بعد هذا التحديد لمعنى التوليد والتزده في إيراد الشواهد من شعر القدماء على ما يسميه « تزها » أدبياً في المحسوسات العلوية كالشمس والقمر والنجوم وما يسبح في أفلاكها . . . وفي المحسوسات الأرضية كالتراب والبحر والوحش وما يجري في واديه . هو بحث طيب ! إن حق لي أن أصفه بأسلوب كاتبه ؛ فإنه فيما أراه ضرب من « التزده » : موضوع قديم في أسلوب طريف !

المدارس العلمانية

مجلة « المسرة » بطريكية الروم الكاثوليك (لبنان — الجزء ١٠) . يوالى الأب أثناسيوس فرح البولسي بحوثة عن معضلة المدارس ، ويخلص هذا العدد بحديث عن « حقوق الدولة وواجباتها في شأن التربية بنوع الاجال » . وهو يرى أن للدولة حقاً غير مباشر على تربية الأولاد — أى حق الاشراف العام — فلها أن تمنع كل ما ينال الأولاد من سوء تصرف أهليهم وكل مخالفة صريحة لقوانين العدل العامة . ولها أيضاً أن تجعل أساليب التربية بنجوة من كل ما يضر بنمو الناشئة الجسدى أو يتهديها الادبى أو يترينها الوطنية الحقة . فمن حقها — أو من واجبيها — تحريم بعض الكتب واللبادى المفسدة للحقائق الدينية أو التعاليم الفلسفية الراهنة أو للآداب العامة أو الروح الوطنية الصادقة . . . وحقوق الدولة — فيما يرى الكاتب —

مقصورة على الوجهة المدنية من التربية ، وخاضعة لحقوق الأهل ، وهى إلى ذلك حقوق غير مباشرة ؛ إذ أن الحق الأول في التربية لأولياء أمور الطلاب من أهل وأوصياء ومهذبين . والغاية من التربية عنده فردية قبل أن تكون اجتماعية ؛ إذ كان المقصود منها هو « تكوين الرجل الكامل » . وهى غاية تهم الأمة والوطن ، ولكنها تهم الأفراد بالأكثر إذ يتوقف عليها أسر حفظهم ونموهم في حياتهم .

ويتهنى الأب أثناسيوس من بحثه ليدع للأستاذ قبلان الرياشى الحديث عن مستقبل المدارس في لبنان بين التعليم الدينى والتعليم اللادينى ، ليقرر أن التعليم المدني الحديث الذى أقرته حكومات العالم واستتبطة فكر العلماء الأحرار في المدارس العلمانية هو تعليم مضر بالأحداث وبالحكومة والشعب ولا يصح اعتماد الحكومات عليه !

الطب والأدب

مجلة « الأدب » (لبنان — الجزء ١٢ — ٥) في هذا العدد من مجلة « الأدب » يعالج الدكتور قولاً فياض عضو المجمع العلمى العربى بدمشق موضوعاً طريفاً من موضوعات الأدب ، أو من موضوعات النقد ، بالحديث عن العلاقة بين ما ينتجه الأدباء من آثار وبين « نفسياتهم » أو تشخيصهم السيكولوجى ، على ضوء الطب النفسى الحديث . وأحسبه يريد أن يخضع موازين النقد الادبى — إن كان للنقد الادبى موازين مضبوطة — لما يقرره

في مجالات الشرق

أخطر من أن يكون القصد منه « توسيع اختصاص الأطباء ! »

على أن في المقال إلى ذلك اتجاهها إلى فكرة ما لعل من حق الأدباء وأهل الفن أن يحسبوا حسابها ؛ لأنها تتصل بذواتهم وحرية اختيارهم لأسلوب العيش الذي يستريحون إليه ؛ فقد خيل إلى أن الكاتب الطيب يؤيد رأى بعض الذين يقولون إن من حق الجماعة أن تعرض على الأدباء وأهل الفن أسلوباً خاصاً من أساليب الحياة تتحقق به مصلحة الجماعة فيما يلتجئ الأدباء وأهل الفن من آثار ؛ فهو يقول :

« والقصد من ذلك التدخل في حياة الكاتب الصحية والعناية بدماع الأديب أو الفن بحجة أن أكثر العاملين في حقل الأدب والفن هم ملك الأطباء لأنهم من المرضى ، مرضى الإرادة والأعصاب ، والذي يؤيد هذه النظرية ما يبدو من آثار التدهور البدني والعقلي في السواد الأعظم منهم ، بما يشكون من سوء الهضم والصداع وتهدج الأعصاب المستمر ، إلى عدم الاستقرار الناتج من السهر والاجهاد وقلة المبالاة والافراط في شرب المسكرات وفي التدخين وضيق ذات اليد أحياناً . . . »

من لي بأن يعرف أصحاب هذا الرأى قصة القروى والدجاجة التي كانت تبيض الذهب !

الأطباء عن نفسية الأديب الذي بهم النقاد أن يتناولوا آثاره بالنقد والتشريح ؛ فإن ثمة علاقة لا يمكن تجاهلها في النقد — بين حالة الأديب النفسية ، أو العضوية ، وبين ما ينتج من آثاره الفنية . وهو في سبيل بسط هذا الرأى يتحدث عن التدخين والأدباء ، وعن الذكاء والجنون ، ويورد طائفة من الشواهد في حياة طائفة من الأدباء المعروفين في شتى أنحاء الأرض ، ويقص آراء طائفة من الباحثين في حقائق النفس الانسانية ، ثم يتحدث عن النقد الأدبي والطبيب ، وعن الروية والبداهة .

وهو موضوع يحق للدكتور فياض بما اجتمع له من علم الطيب وإدراك الأديب وتنوع الثقافات أن يعالجه وأن يبلغ فيه مبلغاً ، ولا أريد أن أقول كما يقول في صدر بحثه : « وهذا باب آخر يفتح أمام الطبيب ليفسح له مجال العمل في ميدان الخدمة العامة . لقد تدخل في التاريخ فخلع عليه نوراً جديداً بما كشف من أسرار السحر والشيطنة وقراءة النيب ، وتدخل في القضاء فغير وجه النظر في « المسئولية » ، فلم لا يدخل في الآب والفن ؟ »

لا أريد أن أقول هذا الذي يقوله ؛ فانه أيعالج في مقاله ذاك نوءاً من الرأى لعله

أعمدة التلغراف

الكاتب من امره ما علم ، فسعى باسمه إلى أهل الخير ، أو من توسم فيهم الخير ، فما منهم إلا من اعتذر بلطف أو بغير لطف ، إلا رجلاً واحداً لم يكن من أهل اليسار ، فانه معلم محدود الرزق ، ولكن الحادثة مست وجدانه فزل من نصف ما يملكه للأب وأولاده الخمسة . ولا يقدر البؤس إلا البائسون !

ويقص الأستاذ عبد الله المشنوق في هذا العدد من مجلة « الأديب » قصة « البؤس المكتوم » . فيصف حادثة رآها منذ عشرين عاماً ، يوم كان مديراً لكلية المقاصد في بيروت ، حادثة أب مصدور لا يكاد يجسد ما يقوم بحاجات أطفاله الخمسة ولا ما يقوم بحاجة نفسه وهو في الدور الأخير من أدوار دأته للمهلك . وعلم

في مجلات الشرق

ويصف الأستاذ المشنوق الحادثة كما رآها وكما سمع حوارها منذ عشرين سنة، ثم يقول: «لست أدري لماذا انتقل فكري — ساعتئذ — إلى التلفزيون... لست أدري، ولكنني أعلم حق العلم أنني ربطت في ذهني هذا الحادث بما يجري عادة عند ما يرسل إلى أحدنا برقية؛ فهناك محطة مرسله ترسل النبأ، وهناك أسلاك مركزة على أعمدة تنقل النبأ، وهناك محطة لاقطة تتلقى النبأ. هذا هو التلفزيون: المحطة المرسله هنا هي هذا البائس المصدور وأطفاله الخمسة، والمحطة اللاحقة هي هذا البائس المعلم، وأنا أنا، وأما صديقي التاجر المعتبر، وصديقي الصناعي الكبير، والطبيب للمثري الكبير — أولئك المعتذرون جميعاً — فقد كنا كلنا أعمدة التلفزيون!»

الوعي العلمي في الشرق

ويتحدث الأستاذ «قدامة» في باب «مكتبة الأدب» بالعدد نفسه من كتاب ظهر حديثاً فيصفه بما رآه ويعرضه لقراءه على الوجه الذي أراد، ثم يقول: «وأحسب أن لو قد نشر هذا الكتاب في دنيا العرب والاسلام قبل ثلاثين سنة أو قبل عشرين سنة، إذن لحظي بما هو خليق به من إحداث رجة فكرية تزول وتبقى في وقت واحد. ولكن الكتب على ما يظهر، ما عادت تجد صداها في نفوس الناس، هذه الأيام كما كانت قبل. وهو شيء محزن على كل حال، ودليل جديد على هذه اللامبالاة التي تطبع حياتنا العصرية!»

وهي ملاحظة صادقة ليس فيها مبالغة فيما أراه؛ فاني وإن غيري من قراء هذه اللغة وكتابها يشهدون ما تلقاه للؤلؤات الحديثة في العريضة هذه السنين من عدم الاحتفال

وقلة للمبالاة، على ما تبلغ من التجويد والأمانة في الفكر والبيان والخراج. لست أعني قلة الاقبال على القراءة، فلعل قراء العربية اليوم أكثر مما كانوا منذ عشرين سنة أو ثلاثين؛ ولعل ما تتداوله الأيدي من للطبوعات الحديثة في هذه السنين يبلغ أضعاف ما كان منذ سنين، وإنما أعني الاحتفال بالموضوع وحسن الاصغاء للرأي الجديد والفكر الجديد والاتجاه البكر. لست شعري أمن ضعف الوعي العلمي في هذا الشرق هذه السنين، أم من ضعف الانتاج، أم هو رد الفعل للأحداث القريبة التي تناوالت حياة أهل الشرق أفراداً وجماعات فأهملت فيهم ملكات وأيقظت ملكات؟

لست أدري! ولكن الذي أدريه أن أية نهضة لا يؤازرها وعي علمي ناضج إنما هي نهضة حالم لا يلبث أن يرتد بعد البقعة الخاطئة إلى نوم عميق!

الرواية حول العالم

«المكشوف» (بيروت - العدد ٤٤١) «إليك بعض تحديدات الرواية في مختلف أقطار العالم:

«الرواية الألمانية: هي كتاب هيجد فيه البطلين يجب أحدهما الآخر منذ الفصل الأول ولكنهما لا يستسلم أحدهما للآخر»

في مجلات الشرق

« أما الرواية الفرنسية فتجد فيها البطة
قد استسلمت للبطل منذ الفصل الأول ، ثم
يحاولان حتى الفصل الأخير أن يتجاهل كل
منهما الآخر .
« وأما الرواية الروسية فبطلان لا يجب
أحدهما الآخر ، ولا يصل أحدهما إلى الآخر ،
وترى الكاتب يحبر ١٤٥٠ صفحة في هذا
الموضوع مشحونة كآبة وعملاً ! »
ترى ماذا يمكن أن يقولوا عن « الرواية »
المصرية أو الرواية العربية ، إن قدر للرواية
المصرية أو الرواية العربية أن يكون لها مكان
بين الآداب العالمية ؟

الآدب العربى الحديث

قرأت في العدد السابع من مجلة « النوى »
التي تصدر في النجف إعلاناً نشره أديب من
لبنان يقول فيه إنه بسبيل إعداد ونشر كتاب
عنوانه « الآدب العربى الحديث » يجمع
الاصول والمصادر الهامة التي يصح الركون
إليها لدراسة الآدب العربى الحديث : خصائصه
وقنونه ، وأعلامه في البلدان العربية وفي
المهجر ، ويضم دراسات عن الحركة الاستشرافية
في الغرب وأعلام المستشرقين وآثارهم في
أوروبا وأمريكا . وهو لذلك يطلب إلى كل أديب
من أدباء العربية أو من علماء المشرقيات
أن يكتب إليه لمحة وجيزة عن تاريخه ، ومؤلفاته ،
وما قد يكون كتبه من بحوث بامضاء غير
صحيح ، والمراجع التي يمكن الرجوع إليها
لدراسة آدبه . . . الخ
وقلت لنفسى وقد قرأت هذا الاعلان :
وماذا بقى من الكتاب لمؤلفه إذا كتب إليه
كل أديب عربى وكل مستشرق بما يريد من
هذه البيانات ؟ هل يبقى له غير عناوين
الكتاب وتقسيم الفصول والحذف أو
الزيادة ؟
ولكنه على كل حال مؤلف يريد أن
يستند إلى أساس . وما أكثر المؤلفين الذين
لا يستندون — فيما يؤلفون — إلى أساس !

في مجلات الغرب

من القاهرة

وجوهه، ويثني عن دختائهن كما تبيء العراق
الدقيقة الكريمة بأسرار الغيب دون أن
مخطيء . .

أما المقال الذي يلي مقال ليون-بول
فارج، فيختلف عنه كل الاختلاف (٢) :
يعرض لنا صاحبه كتاباً ألفه ثلاثة أطباء
سويسريين عن التجارب الطبية التي أجراها
أساتذة وأطباء المصابون في بعض معسكرات
الاعتقال، ويقول أ. بالاشوفسكي (صاحب
هذا النقد وهو رئيس معمل كيميائي في معهد
باستور في باريس وكان أسيراً في معسكر
بوخنوالد-Dora إن هذا الكتاب ليس دعابة ضد النازية بل
هو : « نص نزيه سجل فيه ثلاثة من الأطباء
السويسريين نتائج البحوث العميقة التي قاموا بها
في داخاو Dachau وشتوتتهولف Strutholf
وهو أول شهادة تصدر عن أطباء من دولة
غير محاربة، فحكمهم إذاً له قيمته الخاصة . »
قرأت أيضاً في « مجلة القاهرة » بحثاً
طويلاً جداً (٣٠ صفحة) بالنسبة إلى الجو
الادبي الذي هو جو المجلة، لأنه بحث قد
يكون دقيقاً، ولكن كان أجدر أن ينشر في
مجلة مخصصة لشؤون التربية والتعليم . في هذا
المقال (٣) يعرض المؤلف طرقاً جديدة في التعليم
قد ابتكرها بعض علماء النفس من الأمريكيين

تصدر في مصر مجلتان باللغة الفرنسية :
« مجلة القاهرة » *La Revue du Caire*
التي تصدر في القاهرة و « قيم » *Valeurs*
التي تصدر في الاسكندرية إلى الآن ،
وتريد أن تصدر في باريس في المستقبل .
(العدد الأخير المصرد منها يظهر في
شهر يناير سنة ١٩٤٧ .)

فلنبدأ بـ « مجلة القاهرة » نوفمبر ١٩٤٦ .
تلاحظ في فهرس هذا العدد العتوانات الآتية :
« شجرة البؤس » لطف حسين ، ترجمة
جاستون فييت . ومقال للشاعر الفرنسي
المعروف ليون-بول فارج عن الكاتبة
القصصية الفرنسية ذات الصوت البعيد ، كولين
عنوانه : « كولين والحساسية النسوية في
فرنسا » (١) . وفي هذا المقال القصير البديع
يحاول الكاتب في نجاح وتوفيق أن يشرح
لنا فن كولين وحسن تلك الشخصية الأدبية
التي يعتبرها كثير من النقاد أكبر الكتاب
للمعاصرين ، أو على الأقل ، فنانة مشوقة
جداً . ويكفي أن أنقل بعض أسطر من هذه
الصفحات المنيرة لتفهم غرض ليون-بول
فارج وعنوان مقاله ، فهو يقول :
« إن الفرنسيات يشعرن بأن روح كولين
قريب جداً من روحهن ، يشاركن في أصله

(١) Léon-Paul Fargue, *Colette et la sensibilité féminine française*.

(٢) A. Balachowsky, *Cobayes humains*.

(٣) Jean Dupertuis, *John Dewey et l'école active*.

في مجلات الغرب

ولما ذهب مؤلف «البسبب الضيق» إلى الاسكندرية ليلقي فيها محاضراته، ذهب معه روبر ليقيك. والصفحات التي نقرأها في مجلة «قيم» تعرض لنا تأثير عاصمتنا الثانية في نفس هذا الاستاذ الفرنسي؛ وفي الوقت نفسه سنحت له الفرصة ليصور لنا حياة شاعر من أكبر شعراء اليونان المعاصرين، وهو كافافيس Kavafis. والواقع أن هذا المقال سيظهر مقدمة لترجمة قصائد كافافيس. والشاعر اليوناني — كما يعلم القراء — أمضى حياته في الاسكندرية وتوفي فيها سنة ١٩٣٣. والذي يروق القارئ المصري في هذا المقال، هي الأسطر التي كتبها روبر ليقيك في وصف مدينة الاسكندر. والشيء الذي أثر فيه هو أن القديم اليوناني ما زال باقيا في المدينة. ويكفي أن أنقل هذه الأسطر لترى إلى أي حد وصل روبر ليقيك في فهم الضمير الاسكندري: «إن القديم اليوناني لم يخف في الاسكندرية. هذا الجمال إنما هو غلام العهد القديم؛ وهذا السماك الثرثار بين الصور التي تزين جدران حانوته، إنما هو خطيب السوق في العهد القديم. والصيداؤون في حي الانفسوثي الذين يضيئون البسحر في ظلمة الليل بمصابيحهم، إنما يرفعون، دون أن يعلموا، مشاعل عمرت آلاف السنين.»

وقد تقبل القاعدة الآتية «المدرسة القاعلة» (كما يسميها جون ديوى)، أي: «يجب ألا تكون المدرسة بيئة متكلفة تعد الطفل لحياة الرجل بل بيئة طبيعية، تشتق من الحياة نفسها؛ لأن أطفالنا يمضون فيها العصر الذهبي من حياتهم.» ولكننا نشعر بشيء من الخوف إذا قرأنا هذه القاعدة الأخرى: «مهما يكن موضوع الدرس يهتم الأساتذة فوق كل شيء باستخلاص العناصر الاقتصادية والاجتماعية وتأثير الوسط الطبيعي وجو الانسان في النظم والمادات.»

مقال قصير عن الشاعر الفرنسي جيرار دي تير قال (١) وشهيرة الكتب يختار هذا العدد الأخير من «مجلة القاهرة».

مجلة «قيم» رئيس تحريرها الاستاذ ريفيه إتيامبل René Etiemble أستاذ الأدب الفرنسي في جامعة فاروق الأول. ويظهر من هذه المجلة أربعة أعداد في كل سنة. وفي العدد الأخير لسنة ١٩٤٦ مقال قيم جداً أمضاه روبر ليقيك وعنوانه «مفتاح الاسكندرية» (٢). يجب أولاً أن نقول شيئاً عن صاحب المقال. لم ينس القراء أن الكاتب العظيم أندويه جيد قد زار مصر السنة الماضية وجاء معه روبر ليقيك، وهو أستاذ فرنسي في أينا مخصص في الأدب اليوناني الحديث.

من باريس

واتية مسرفة في الاقتداع. والاقتداع او بعبارة أصح دفاع عن الاقتداع، هو موضوع مقاله في «فوتين» وقد اختار هنري ميلر

مجلة «فوتين» Fontaine، أكتوبر سنة ١٩٤٦. لقرأ في هذا العدد مقالا غريباً للكاتب الأمريكي هنري ميلر المشهور بقصص

(١) Henri Gerbert, Gérard de Nerval, occultiste et chrétien.

(٢) Robert Levesque, La clef d'Alexandrie

في مجلات الغرب

عرضها مسيو أ. بيكو A. Picot (نائب رئيس مجلس الدولة في جنيف) حين يقول في خطابه الافتتاحي المؤتمر: «إن مدينة جنيف لم تستطع أن تنسى أنها أثرت تأثيراً أساسياً في تاريخ الفكر الأوروبي أربع مرات في خمسة قرون. وهي تريد إذاً أن تبقى مدينة حية لخير حضارتنا». والأربع مرات التي أشار إليها مسيو بيكو هي:

- ١ — إصلاح كالشان Calvin.
- ٢ — في القرن الثامن عشر طاش جان جاك روسو «مؤلف «العقد الاجتماعي» الذي يعارض آراء فولتير ودالامبير D'Alembert المتوفرة في الحرية بأرائه الصارمة، المطلقة، المسرفة في الديمقراطية».
- ٣ — جنيف، مدينة مدام دي ستال Madame de Staël التي أنشأت حب الأدب الأجنبي ودراسته.
- ٤ — جنيف التي أنشأت في ١٨٤٤ جمعية الصليب الأحمر. ولنرجع إلى المؤتمر. فقد قسمت أعماله إلى قسمين:
- أولاً: محاضرات ألقاها نواب الأمم الأوروبية.
- ثانياً: محاورات حول بعض الآراء التي عرضت في هذه المحاضرات. وتنشر مجلة «لانيف» تبدأ لابس بها من محاضرات أشهر النواب الذين حضروا المؤتمر، وتلشر أيضاً بعض ما قيل في المحاورات. فلنقف عند آراء بعض النواب في موضوع المؤتمر، وهو الفكر الأوروبي كما قدمنا.
- قال جوليان بندا في خطابه وعنوانه «يجب أن ينشأ ضمير أوروبي» (٢):

لذهبه الجريء العنوان الآتي: «الافذاع وناموس الانكاس» (١) وهو يشهد بأن الانجاش لا يوجد في نفس السكاتب ولا في الموضوع الذي يوصف به، وإنما يوجد في نفس القارئ الذي يستكشفه ثم يشكره. ويكفي أن يقرأ هذا البيان، في أكبر الظن، ليعطي فكرة واضحة عن قصد مؤلف «الريع الاسود» في مقاله وفي كتبه أيضاً. ويستطيع القراء أن يرفعوا على أنفسهم بقراءة مقال آخر من نفس هذه المجلة، وهو مقال عنوانه «للموسيقى وتعبيرها» (٢) لبوريس دي شلوزير. يريد الكاتب أولاً أن يمحس معنى كلمة «تعبير» ويريد ثانياً أن يجيب عن هذا السؤال: «هل تعبّر للموسيقى عن شيء؟» ويمتقد بوريس دي شلوزير، بإيجاز، أن التأليف الموسيقي ينقل العواطف من المؤلف إلى المستمع؛ وعلى الموقع أن يستخلص ما في الموسيقى، كما يستخلص عصير الليمون. ويختم الناقد الموسيقي قائلاً: «إن الشخص الذي يخاطب المستمع بلا واسطة، ليس هو المؤلف؛ إن صاحب هذه اللقاصرة هو شخص آخر، هو شخص ليس له كوت إلا في الأثر وبالأثر، شخص خيالي، صنعه المؤلف دون أن يعلم، خلقاً آلياً، والسبب الوحيد لهذا أن مادة إنتاجه هي الأصوات».

مجلة «لانيف» La Nef نوفمبر سنة ١٩٤٦. هذا العدد مخصص لمؤتمر الفكر الأوروبي الذي أقيم في جنيف من يوم ٢ إلى يوم ١٤ سبتمبر سنة ١٩٤٦. ومدينة جنيف هي التي اقترحت هذا الاجتماع الدولي لأسباب

(١) Henry Miller, *L'obscénité et la loi de réflexion*.

(٢) Boris de Schloezer, *L'expression musicale*.

(٣) Julien Benda, *Une conscience européenne est une chose à créer*.

في مجلات الغرب

إلى ذلك إلا في جو من الثقة والمساواة . «
هذه الثقة لا تنال (وهذا ما يراه النائب
الألماني كارل ياسپرس (٤) وهو عالم من علماء
الوجودية) إلا بأرضاء هذه المقتضيات الثلاثة :
(أ) الاحتفاظ بتواصل شامل بين الناس .
(ب) يجب أن نكون سادة آرائنا وألا
نخضعها لأي مذهب مقرر مهما يكن .
(ج) يجب أن نعترف بأن الحب في آخر
الامر هو المرشد لنا ، ولكن مع شيء من
القدرة على البغض إن لم يكن منه بد .
ولنتقل الآن إلى شهريات مجلة « لانيف »
ففي شهرية الكتب قرأت لجي . س . لي كليش
Guy. S. Le Clech نقداً قصيراً لكتاب
لفه بول أرشامبو عنوانه : « إنسانية أندريه
چيد » (٥) ويقول الناقد إن مسيو أرشامبو
« لم يخف أنه يتجه بنوع خاص إلى المسيحيين .
ويتخذ في كتابه كله موقفاً كاثوليكياً متسامحاً
كل التسامح . »

« لم يكن عند الأوروبيين ضمير أوروبي
قط كما يوجد عند الأمريكيين ضمير
أمريكي . »

وخالف هذا الرأي الكاتب الفرنسي جان
جيهينو (١) في محاضراته حين قال : « نعم ،
وجد عقل أوروبي وما زال يوجد الآن . لقد
كاد يخلق وطناً جديداً في السنين ١٩١٠
إلى ١٩٣٠ . لقد كاد يخلق أوروبا . »

ويرى دينيس دي روجيمون ، وعنوان
حديثه هو : « أمراض أوروبا » (٢) إنه
« لا يمكن تصور محالف أوروبي إلا لأجل
محالف عالمي . »

ولعل بعض القراء يدهشون لتصريح
الشاعر الإنجليزي المشهور ستيفن سبندر (٣)
الذي يعتقد بأن من واجب قادة الرأي
والعقلاء في أوروبا أن يطلبوا وأن يشجعوا
زملاءهم الألمان ، لأن « هناك موضوعات
كثيرة يجب أن تناقشها مع الألمان ، ولاسيما

من لندن

رينيه دومينيل من نصوص فلوير التي قد
لا يعرفها إلا القليل ؛ أي نبذة من رسائل
مؤلف « سالامبو » Salammbô ويطبق
صاحب المقال أن « هذه الرسائل من أعجب
النصوص التي أبقاها لنا القرن التاسع عشر
لأن فلوير شارك بنشاط في الحركة العقلية
لعصره ولم يكن شاهداً فقط ، يلاحظ ثم

مجلة « هوريزن » Horizon أكتوبر
سنة ١٩٤٦ . في هذا العدد مقال مترجم من
الفرنسية عن كاتب عظيم من كتاب القرن
التاسع عشر ، جوستاف فلوير . صاحب هذا
المقال رينيه دومينيل وعنوانه « لم يكن بد
للأدب من فلوير » (٦) . والذي نلاحظه
أولاً في هذا المقال ، هو كثرة ما يروي

(١) Jean Guehenno, U.S.A. et U.R.S.S. face à l'Europe.

(٢) Denis de Rougemont, Les maladies de l'Europe.

(٣) Stephen Spender, Mission des intellectuels européens.

(٤) Karl Jaspers, L'homme et son destin.

(٥) Paul Archambault, Humanité d'André Gide.

(٦) The Inevitability of Flaubert, by René Dumesnil.

في مجلات الغرب

من جديد . وقبل أن ينتهي قرن واحد ،
سشهد قتل مليون من الرجال في موقعة
واحدة . ومن يدري ! لعل الشرق كله
يكون ضد أوروبا . لعل العالم القديم يستلج
ضد العالم الجديد . ومشروعات كقناة
السويس لعلها تكون نوحاً من التجربة أو
للمقدمة لمواقع منظمة لا تكاد تصورها .
ويجب أخيراً أن نقول إن مترجم هذا المقال
الذي يملؤه الحب ، والاعجاب ، والجلال ، هو
الكاتب الانجليزي المعروف أدوارد ساكفيل
ويست Edward Sackville-West .

ويستطيع القراء الفنانون الذين يعنون
بالفن المعاصر أن يقرأوا مقالا خصياً
عن المثال الفرنسي جان أرب Jean Arp .
وهذا المقال هو الفصل الرابع من
دراسة موضوعها العام « المثبتون
للمعاصرون » .

يفكر ثم يكتب ، وإنما كان قائداً من قادة
جيله والجيل اللاحق . في تلك الأعوام التي
ظل فيها كتاب آخرون يتعلمون ، كان فلووير
يظهر في طور الأستاذ . « ونجد في قراءة
هذه النصوص المفيدة شيئاً آخر وهو أن
فلووير كان « نموذجاً للأمانة الفنية والجد
والثابرة على عمله اليومي ولصنعتة بأرق معاني
الكلمة . » كتب لصديقه ماكسيم
دي كامب Maxime du Camp في أوائل
حياته الأدبية : « إذا أتيح للأثر الذي أن
يكون حسناً ، صادقاً الحسن ، فأني بأس عليه
إذا انتظر الشهرة ستة أشهر أو ستة أعوام
أو إلى ما بعد وفاة صاحبه ؟ » بل نجد
أكثر من هذا كله في رسائل فلووير ، فذلك
الرجل العجيب ، ذلك الفنان البارح كان فوق
هذا كله متنبئاً إذ كتب في أوائل حرب ١٨٧٠
« جاز أن تستأنف الحروب لأجل الوطنية

من موسكو

عن تولستوى لدريك ليون Derrick Leon
شيئاً من خيبة الأمل بالنظر إلى القارئ
الروسي . وربما كانت أقوى ما يوجه إلى
الكتاب من نقد أن المؤلف كما تقول الناقدة ،
يردد في تفصيل شديد أشياء يعرفها القارئ
الروسي والانجليزي على السواء .

في هذا العدد نقد لكتاب انجليزي عن
كاتب روسي ؛ وعلى عكس ذلك نجد في
عدد أبريل - مايو نقداً لكتاب روسي عن
الشاعر الانجليزي العظيم شيكسبير . وقد
ألف هذا الكتاب ك . س . ستانيسلافسكي
C.S. Stanislavsky ، وهو كتاب من
نوع خاص ؛ لأن وجهته هي وجهة الممثل
والمخرج بحيث يجد القارئ فيه أن « على
الصفحة اليسرى نص « عطيل » وعلى الصفحة

« مجلة الادب السوفيتي » . وصلت هذه
المجلة متأخرة جداً ، شأنها في ذلك شأن كل
ما يصل من روسيا . فعلى مكنتي منها ثلاثة
أعداد : مارس ، أبريل - مايو ، ويونيو
سنة ١٩٤٦ .

فاقرأ في عدد مارس سنة ١٩٤٦ مقالا
عن كتاب جديد صدر في بريطانيا العظمى عن
الكاتب الروسي الكبير تولستوى Tolstoy
وتلاحظ تامارا موتيلينا Tamara Motyleva
صاحبة هذا النقد ، أن قصة تولستوى المشهورة
« حرب وسلم » التي يقص فيها الكاتب
العظيم حوادث الحرب التي سماها المؤرخون
« حرب روسيا » بين نابليون والقيصر ،
قد لقيت نجاحاً مجدداً منذ الحرب العالمية
الثانية . ولكن نجد الناقدة في هذا الكتاب الأخير

في مجلات الغرب

اليمنى بازاء كل دور تفسير ستانيسلافسكى .
ولا ينبغي أن ننسى تنبيه القارئ إلى مقال
خطير حقا في العدد نفسه عنوانه « التحيز في
الأدب » (١) وخطورته تأتي عن أهمية
موضوعه وهو الأدب والحرية . وصاحب
المقال يمرض في أول مرافته دفعا عن مذهبه
مايرام تيوفيل جوتييه Théophile Gautier
وبودلير Baudelaire من أن « الفن يجب
أن يكون له استقلاله التام . » وقد نقل
بلازاك Balzac عن الفيلسوف الفرنسي
دي بونالد de Bonald قوله : « يجب أن
تكون للكاتب آراؤه البينة في الأخلاق
والسياسة وأن يعتبر نفسه مرييا . »
والمشكلة معروفة الأهمية ، فيكفى أن أقول
جدة أو جلتين من هذا المقال الخطير لأعطي
فكرة ولو تقريبية عن موقف صاحبه ، وهو
فيما أعتقد الموقف الرسمي في روسيا السوفيتية :
« لا يوجد أدب غير متحيز — إن الأدب
المعاصر إنما هو كله متحيز — ليست المسألة
أن تثبت أن كاتباً من الكتاب متحيز
أولا ، وإنما هي أن نعرف لأي شيء
يتحيز . »

امير طه حسين

On the Tendentious in Literature, by Evgeni Almazov. (١)

فهرس المجلد الرابع

أكتوبر ١٩٤٦ — يناير ١٩٤٧

دراسات أدبية

<p>سهر القلماوى البومة والمندليب ٤٢٥</p> <p>سلامه موسى ٥. ج. ولز ٢٦٧</p> <p>طه حسين من أبطال الاساطير اليونانية ... ٩</p> <p>لويس عوض ٥. ج. ولز ٦٥</p> <p>محمد عبده عزام نجم من المشرق غرب ٦٨٨</p> <p>محمد مفيد الشوباشى ستيفان زقايج ورسائله الانسانية الكبرى ٥١٠</p> <p>محمود الدسوقي على الهامش وفي الصميم ٣٢٣</p> <p>هيلد زالوشر القطار فى الادب الروسى ٤٧٣</p>	<p>أ. ليثى بروقنسال * تراث الاندلس (١) ٦١٦</p> <p>ألكسندر كواريه * الكتاب وتقادهم (٢) ٢٩٧</p> <p>إتيامبل * جان دوتور و«مركب قيصر» (٣) ٦٥٦</p> <p>إينياس كراتشكوفسكى ما كنا على المخطوطات العربية ... ١٥٠</p> <p>بشر فارس أحمد عيسى ١٦٢</p> <p>جمال الدين الشيال كيف ومتى عرفت مصر كتاب الأمير ١٠٧</p> <p>جيل صدقى الزهاوى رسائل (مقدمة لأحمد محمد عيش) ٤٥٢ و ٦٣٩</p> <p>حسن محمود الفن من أجل الفن ٦٦٠</p>
---	--

* كل مقال أمامه هذه العلامة كتب خاصة للمجلة بقلم كتاب أوروبيين أو أمريكيين .

- (١) A. Lévy-Provençal, *L'héritage d'al Andalous.*
- (٢) Alexandre Koyré, *Writers and their Critics, A Study in misunderstanding*, by Henri Peyre.
- (٣) Etienne, Jean Dutour et «Le complexe de César».

فهرس المجلد الرابع

دراسات فلسفية

ديدييه أنزيو	عباس أحمد
* الوجودية (١) ١١٩	قصة سلامان وأبسال ٧٠١

دراسات اجتماعية واقتصادية

ألبير كامو	القرية والاصلاح الريفي في مصر ٢٥٤
* المينوتور أو وقفة وهران (٢) .. ٨٥	المصريون والمحافظة على القديم ٦٢٤
حسين فوزي	محمود تيمور
جولة في «ما بعد الحرب» ٤٩٨	أبو الهول يطير ٤٢٤
سلامه موسى	يوم في نيويورك ٥٩٨
الديمقراطية في الأمم الديمقراطية ٤٤٤	محمود عزمي
كفاحي الثقافي واختبار أتي الصحفية ٦٤٧	أنظمة الحكم ومذاهب الاجتماع ٤٠
سليمان حزين	مراد كامل
فيضال النيل وأثره في الحضارة المصرية ٤٥	حول مشروع بحيرة طانا ٦٧٤

دراسات تاريخية

حسن محمود	محمد عبد الله عنان
صورة من عهد النهضة الأوربية —	البارونة فون كريدنر والمساهمة
البابا والمثال ٢٧٧	المقدسة ٢٨٨
	محاكمة المؤيد في قضية التلغراف ٤٨٨

دراسات سياسية

محمد رفعت	مشكلة الهند ٥٨٤
اليونان بين الملكية والجمهورية ٢٩	محمود عزمي
بين روسيا والولايات المتحدة ٢٢٤	
أمريكا والشرق الأقصى ٤١٤	دستور فرنسا الجديد ٢٣٤

Didier Anzleu, *L'existentialisme*. (١)

Albert Camus, *Le Minotaure ou La halte d'Oran*. (٢)

فهرس المجلد الرابع

دراسات فنية

أحمد فكرى بدعة الحارث ٣٠٦

قصص

درويش الجميل	مارسيل أريان (١)
يجب أن نعيش	٣٣٢ * الصاروخ ٦٨٣
سهير القلماوى	٦٨٦ * معجزة الأحد ٦٨٦
حديث آمنة	٥٧
طه حسين	محمود تيمور
ما وراء النهر ٢١٣ ، ٣٩٩ ، ٥٧٥	كيف طارت هنى أكسفورد... ٢٤٢

شعر

ابراهيم محمد نجا	الغز الأكبر ٦٣٨
إلى البلبل	٢٧٥ على الجندي
أحزان الوجود	٤٧٠ الضياء للظلم ٤٩٧
جورج سلسنى	محمد مفيد الشوباشى
نشوة اليأس	١١٧ الخقل والبحر ٦٥٥
صفاء الحب	٣٢١
عبد الرحمن صدقى	نذير الحسامى
جنة الحب	١٤٩ ليلي ودوحى للمهودة ٦٩٩

من هنا وهناك

جمال الألوسى	عبد العزيز القوصى
طه الراوى — صنعة الرواية ... ٧١٣	التحليل النفسى والأحلام ٧١٥
عبد الرحمن صدقى	على حافظ
حلم ليلة من لياالى الصيف ٣٤١	إفريقية ٣٣٨
وهم من الأوهام فى تأويل حلم	عيسى على قعندر
من الأحلام ٥٢٧	المسلمون فى أترىا ٥٢٨

Marcel Arland, *La fusée, Le miracle du dimanche*. (١).

فهرس المجلد الرابع

- مبارك ابراهيم
مركز المرأة بين الجماعات الفطرية ١٦٦ حديث ناشر لكتاب قديم ١٦٤
وصفي قرنقلى نحن والشعر ٥٢٦

شهرية العلم

- رنيه سودر
مصطفى الديوانى
وسائل التغلب على الالم - مزاياما
* بحث العلم فى فرنسا (١) ٥٣٠ وأخطارها ٣٤٥

شهرية الاجتماع

- محمد عبد الرحيم عنبر إصلاح الاداة الحكومية ٣٥١

شهرية السياسة الدولية

- محمود عزمى
طله حسين
أكتوبر ١٧٠ ديسمبر ٥٣٦
نوفمبر ٣٥٤ يناير ٧١٨

شهرية المسرح

- الأرملة الطروب ٥٤٠ ، سوزان العفيفة ٥٤١ ، هفريت مراتى ٥٤٢ ، حواء
الحالدة ٥٤٣ ، أميرة التشارداس ٧٢٢ ، مامزىل نيتوش ٧٢٣ ، جورج ومارجريت ٧٢٤
القطار إلى البندقية ٧٢٥ ، سمادة خمس وعشرين سنة ٧٢٦ .

شهرية السينما

- حول فيلم مدام كورى ١٧٣ ، المهرجان الدولى للفيلم فى كان ١٧٤ ، غضب من
السما ٣٥٨ ، قوتران ٣٥٩ ، مناصرة سرائوجا ٧٢٧ .

من كتب الشرق والغرب

- شوقى ضيف
محمد كامل حسين
كتاب الفاشوش ٣٦١ كتاب « مؤسس الاسماعيلية فيما
من القحوف ٧٢٩ يقولون » ٥٤٥

René Sudre, *La renaissance de la science française*. (١)

فهرس المجلد الرابع

من وراء البحار

البحوث العلمية في فرنسا ١٧٧ ، التقدم الاقتصادى في فرنسا ١٧٨ ، فنلندا بعد الهزيمة ١٧٩ ، شاعر يريد تنظيم العالم ٣٦٦ ، تجربة بكيفى ٣٦٧ ، رأى في هنرى ميلر ٣٧٠ ، هل يعيش الاديب من أدبه ٥٥٠ ، البلجيك فيما بعد الحرب ٥٥٤ ، الأدب في إيطاليا ٧٣٥ ، صندوق وطنى للأدب ٧٣٨ ، اليابان ودستورها الجديد ٧٣٨ ، رأى في الأدب للكشوف ٧٤١ .

ظهر حديثاً

إبراهيم هاشم الفلالى	عبد الله القصيمى
رجالات الحجاز ٧٤٦	هذه هى الاغلال ١٨٧
أحمد الصافى	عبد الرحمن الرافعى بك
النبار ٣٧٧	ثورة سنة ١٩١٩ ٣٧٤
السيد خليل مردم	عثمان أمين
ديوان ابن عتير ٣٧٦	ديكارت ٥٥٧
أمين سلامه وصمويل كامل عبد السيد	فيليب حتى
اللغة اليونانية ٥٥٨	العرب ١٨٥
جورج أنطونيوس	لودفيج (أميل)
ترجمة على حيدر الركابى	تعريب محمود إبراهيم الدسوقي
يقظة العرب ١٨٤	نابليون ١٨١
خالد الدرة	محمد على العريان
في قصص الاتهام ٧٤٤	١٠٠٠ يوم فوق الاتقاض ٧٤٥
صبرى جرجس	نجيب صدقة
مشكلة السنوك السيكونياتى ١٨٧	قضية فلسطين ١٨٦
ظهير الدين البيهقى	وهيب كامل
تاريخ حكماء الاسلام ٣٧٥	هيرودوت في مصر ٥٥٨
يوسف كرم	تاريخ الفلسفة الاوربية في العصر الوسيط ... ٣٧٣

في مجلات الشرق

حقيقة الأمة ١٩٠ ، الفكر والسياسة ١٩٠ ، خلفات عباسية ١٩١ ، رمضان في النجف ١٩٢ ، الدراسة في النجف ١٩٢ ، أنا عربى ١٩٣ ، النشاط العلمى في الشرق ١٩٣ ،

فهرس المجلد الرابع

كفر بعد إيمان ١٩٣ ، أدب للتصدير ١٩٤ ، المرأة السورية ٣٨١ . قصر بيت الدين ٣٨١ ،
من أدب العراق ٣٨٢ ، الأدب المصرى المعاصر ٣٨٣ ، أدب العراق أيضاً ٣٨٤ ، المرأة
الكردية ٣٨٤ ، حيرتنى يا قارئى ٣٨٥ ، عدالة المستقبل ٣٨٥ ، حرفة التعليم ٥٦٠ ،
شباب الشعر فى العراق ٥٦١ ، دفاع مشترك ٥٦١ ، اقتصاديات أوروبا ٥٦٢ ، قرآن
بالاسبانية فى أمريكا ٥٦٣ ، أنهضة أم انحطاط ٥٦٣ ، المؤانون فى مصر ٥٦٤ ، أرستقراطية
الأدب ٧٤٨ ، الطرافة والابتذال ٧٤٨ ، المدارس المعنانية ٧٤٩ ، الطب والأدب ٧٤٩ ،
أعمدة التفراف ٧٥٠ ، الوعى العلمى فى الشرق ٧٥١ ، الرواية حول العالم ٧٥١ ، الأدب
العربى الحديث ٧٥٢ .

فى مجلات الغرب

من باريس ١٩٦ ، ٣٨٨ ، ٥٦٥ ، ٧٥٤ — من لندن ١٩٩ ، ٣٨٧ ، ٥٦٩ ، ٧٥٦
— من موسكو ١٩٨ ، ٧٥٧ — من بغداد ٢٠١ — من نيويورك ٣٩١ — من كابول
٣٩٢ — من القاهرة ٣٩٢ ، ٧٥٣ .



Bibliotheca Alexandrina



0531701